
الرسالات الكبرى
سنية قراعة

إهـــــــداء2005

الكاتب الإعلامي/ فاروق خورشيد

القاهرة

إهـــــــداء2005

الكاتب الإعلامي/ فاروق خورشيد

القاهرة

مكتب الصحافة الدولى
للصحافة والنشر

الرسالات الكبرى

بقلم
سنية قراعة

الاتحاد الاشتراكى العربى
دار ومطابع الشعب

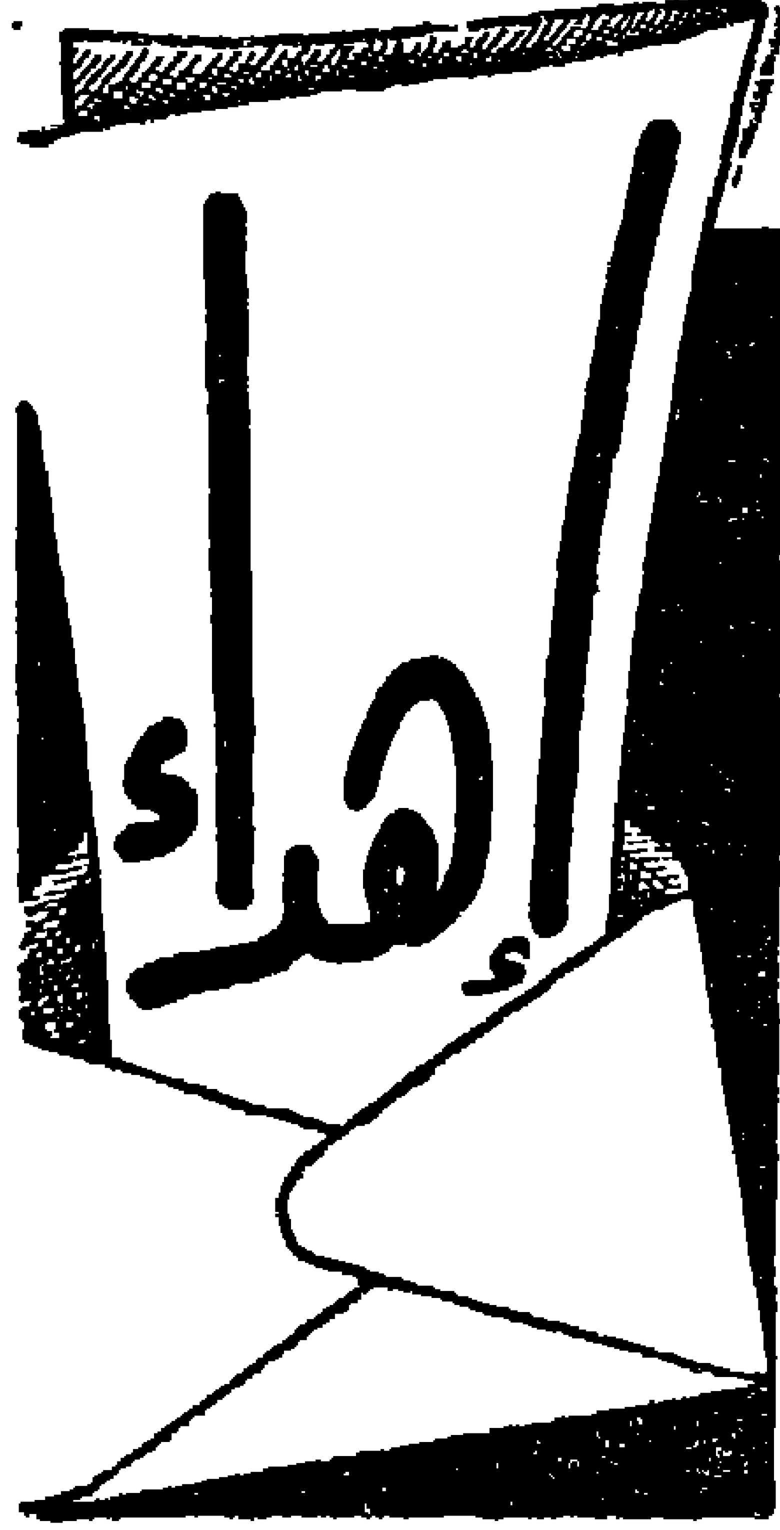
الغلاف بريشة الرسام رمزى لبيب
اللوحات العالمية لمشاهير الفنانين ، جمعتها المؤلفة من مختلف
متـاحف العـالم أثنـاء رحـلاتها فى الخـارج . . . .

بسم الله الرحمن الرحيم

«فَأَقِمْ وَجْهَكَ للدِّين حَنيفاً ، فِطْرَةَ اللهِ التى فطر النَّاسَ عَليْهَا ، لاَ تَبْدِيل لِخَلق الله ، ذلِكَ الدِّينُ القيِّمُ ، ولكنَّ أَكْثرَ النَاس لاَ يَعْلمُون » . « قرآن كريم »

غرة رمضان ١٣٨٥ هـ
يناير ١٩٦٦ م

الناشر
مكتب الصحافة الدولى



الى كل راغب فى البحث عن الحقيقة ..

الى كل ضال ارجو له الهداية ..

الى كل نفس قلقة فى فضاء هذا الوجود ..

الى كل روح حائر فى شعاب هذا العالم ..

الى المؤمنين والمؤمنات فى بقاع الأرض حيثما كانوا ..

الى الذين آمنوا بالله ورسله وكتبه ولم يفرقوا بين احد منهم .

الى كل من سكن قلبه حب الله ، وأمتلأت جوارحه بنور هذا الحب أهدى هذا الكتاب عن :

التوحيد من عهد آدم
و
الرسالات الكبرى

راجية أن يجد الباحثون فيه لونا ممتعا فى عالم العبادات ، ودنيا الفكر ، وعمق الايمان ؟

سنية قراعه



كان يحدث احيانا وانا فى غمرات الحياة الصاخبة ، أن تتشعب بى مسالك التفكير فى أشياء غريبة ومثيرة للحيرة .

ولكن سرعان ما كانت مجريات الحوادث وما يستتبعها من مستلزمات ، تتحول بخيالى الى أجواء لا صلة بينها وبين ماكنت أفكر فيه .. فانشغل بشىء عن شىء ، وتفصل الصورة التى كنت أتخيلها ، وتضيع فى معمعان الأحداث وزحمة الحياة وشواغلها ..

وكانت احب اللحظات التى احس فيها بروعة الالتجاء الى دنياى الفكرية ، والركون اليها هى لحظات الضيق والكرب النفسى .. حيث تصفو النفس وتشف الروح ، فينطلق العقل فى روية وبصيرة ، فيرتاد عوالم الكون والكائنات من بدايتها الى نهايتها ..

حياة عجيبة لعمرى هذه التى نحياها .. حتى لأتصور مؤمنة ان التفكير فى غوامضها يجب أن يكون أول شواغل الانسان الراشد العقلية ، الراغب فى ان يعرف كنه ما حواليه ليعرف الأصل والمصدر ، والخلق والمخلوقات ، والسر والجوهر ..

اذا فما أروعها ساعات التخيل تلك .. وما اقدس ان نربط الفكر المتمرد باصله .. ونرده الى حقيقة الوجود فلا يتعدى الدائرة التى ينبغى له الدوران فى فلكها مهما كرت العصور ، بل يظل مربوطا باصله ، مقيدا بحقيقته ، لا يسأم مرور الحقب ولا تكرار الأحداث ..

***

من المجهول .. تخرج مواكبنا لتسير على معبر العمر الذى يتفاوت طولا وقصرا .. فتغمرها ساعة عبورها أنوار براقة ، وتحوطها ازاهير فواحة ، وترفرف فوقها الأمانى ، والأحلام .. ثم ، يدهمنا الكبر بعد هذه الفترات الصاخبة ، وتاخذنا الشيخوخة القاصمة .. وتسير بنا على المعبر السحرى مرة اخرى نحو المجهول الذى جئنا منه ..

اى يد قادرة .. تلك التى حركت مواكب هذه الأجيال عبر الزمن والقـرون المتطاولة وجعلت من نفوس الناس مرايا عجيبة ، ينعكس عليها متباين الرغبات ومختلف الأحاسيس !!

انها اليد القوية التى ننسى بطشها فى نشوة الظفـر وبريق المجـد والسلطان .. ونهرع اليها ساعة يدهمنا الخطر وتحوطنا الأزمات ..

« واذا أنعمنا على الانسان أعرض ونأى بجانبه ، واذا مسه الشر فـذو دعاء عريض » !!

انها اليد الحانية .. التى تسرف فى تدليلنا والتغاضى عن هفواتنا ، ويابى فيض كرمها الا ان يتركنا الى وازع الضمير لنعود اليه .

انها اليد الرحيمـة التى لا نذكرها الا اذا أصـابنا الضر وحل بنـا الأذى ، فنلجا اليها ضارعين لتدفع عنا البلاء ، وتبسط علينا حمايتهـا ورعايتها !!

« واذا مس الانسان الضر ، دعانا لجنبه ، أو قاعدا او قائما ، فلما كشفنا عنه ضره ، مر كان لم يدعنا الى ضر مسه » !!

انها يد الله .. !!

الله القادر الذى هدى الانسان سبله القويمة ، فتنكب عنها وتمـادى فى ضلاله وقد ظن أن مقوده بيده وأن له الحرية يفعل ما يشاء ..

❊ ❊ ❊

وعدت بعد هذه الجلوة الذهنية الخاطفة الى واقع الحياة .. وساءلت نفسى على هدى ما وصلت اليه من تفكير عميق ، وقد رحت أردد فى صدق وايمان : ما أعظم هذا العالم .. وما أتفه أمانيه !!

وما اعظم هذه اليد التى تسيره وفق ارادتها وحدها ! !

لقد كنت كلما جرفتنى الحياة وتعقدت أمورها ، انفردت بنفسى وركنت الى رياضـة ذهنية ، أتجـرد خلال لحظاتها من كل ما له صلة بالدنيا .. فيسمو احساسى وتتجرد الروح من أدران الماديات .. فانعم بالهـدوء وقداسة الوحدة ، واهرع الى القوة العليا التى تتولانا بحمايتها ورعايتها ، وأسبح بخيالى فى الكون العظيم وخالقه الأعظم !!

وكنت كلما شهدت مغيب شمس .. أو مصرع طاغية .. أو نهاية جبار ظن أن الدنيا دانت له — تزداد ثقتى فى قدرة الله ، ويتضاعف ايمانى به .

واحس بان الانسان مهما بلغ فلا بد له من مآب وعـودة ، ومهما عظم شأنه ، فلا بد له من حمى يهرع اليه ، وقوة ترعاه وتسهر عليه ..

ان الناس لينسون فى هذا العالم المادى كل شىء الا أنفسهم .. ويبالغ البعض فى عدوانه وبطشه ، فيقتل ، ويخـرب ، ويحطم الجبال الرواسى ، ويغوص فى جوف المحيط ، ويعلو الى عنان السماء .. بل ويطمع فىالوصول الى الكواكب ليعرف ما وراء الطبيعة من أسرار .. لا ليثبت ايمانه بالواحد القادر الذى علم الانسان ما لم يعلم .. بل ليحاول أن يشاركه فى عظمته وجبروته ، فيكون له معه فى نواميس الحياة ونظام الكون يد ، يوقف بهـــا عجلة الزمن ان شاء ، أو يحول اتجاهها وفق ما يرغب !!

وقد يحدث خلال هذا الصراع أن يكبو بالانسان حظه ويتعثر ، أو يصيبه ضر أو قصور .. فلا يلبث أن يرتد الى الواقع وتغمره ثورة من ثورات الضمير تدفع به فىسرعة الى ((القدرة)) التى كان قد تناساها ، وهو فى أوج تعاظمه . فاذا هو ذليل عاجز يسأل الله خالقه العون والتوفيق والنجاح ! !

ذلك صراع غريب فى حياة ما أشد غرابتها وما يعتور الانسان فيها من مشاعر واحاسيس تنسيه غالبا سر وجوده ، فيتعـالى ويظـن فى قدرته الظنون .. فاذا ما خلا الى نفسه واستعرض نظـام الـكون ، وتخلص من أوشاب شروره عرف أنه ((عبد القدرة)) .. وتسعده هذه المعرفة المقدسة ، ويرتاح اليها . اذ ستصل به الى ما هو أعظم ، وتعلو به درجات ودرجات .

* * *

ما أتفه هــذه الحياة الدنيا وما أحقر متاعها ، وما أعظم ذلك الانســان الذى استطاع أن يصل ببصيرته الى استجلاء الحقائق الخافية ، فعـرف الله ، وأقام فى جوانب قلبه الكبير معبدا له لا يتردد فيه غير اسمه الكريم العظيم .

واذا خلصت الروح وداخلها نور الله واشتدت ثقتها به . هداها الايمان الى سر الخليقة ، ونالت من العلم درجات تتعرف بها على ((رب)) هــذا الكون الذى تعرفه الأرواح الصافية التى أحبت الله وتقربت منه ووجدت السعادة كلها فى ذكره وترديد اســمه والصــلاة له والاقــرار بربوبيته ووحدانيته ..

هو الله .. الكريم ، الخالق ، الذى لو شاء لهدى الناس جميعا ، ولكنه حين منحهم العقل ، انما أراد أن يدخلهم فى تجربة .. طوبى لمن يخرج منها ظافرا .. وتبا لمن ضل الطريق ..

ان الله القادر قد هدى الى نفسه بنفسه ، والى ذاته بآياته ، وامعن فى الكرم على ((الانسان)) أكمل مخلوقاته ، فلم يتركه الى العقل فحسب ، بل بعث اليه الرسل الكرام معلمين وهادين الى طريق الحق والنور — فهل اتبعهم ؟ !

تلك كانت معركة الوجود ..

المعركة الرهيبة بين الحق والباطل .. بين الهدى والضلال ..

المعركة التى بدأت بالمعصية الأولى التى اقترفها آدم .. ثم وعد الشيطان ربه بأنه سوف يثبت أن الانسان ظلوم كفار ، وأن الله تعالى لن يجد أكثرهم شاكرين ..

ولقد بر الشيطان بقسمه ، ووجد من الناس من اتبعوه .. فبدلوا ، وغيروا ، وتمردت نفوسهم وخرجت على الناموس الأكمل ، وبلغ من عدوانهم أن ضلوا أبشع ضلال ، فعدوا على قداسة التوحيد ، واجترأوا على جلال القدرة ، وأشركوا بالله ، وهرعوا الى باحات الهياكل والسيارات، وسجدوا للحجر والشمس والقمر ، وقالوا انما نتخذ من هذه الأسماء زلفى الى الله ، والله أقرب اليهم من حبل الوريد ..

من هنا اتجه الانسان الذى تشعبت به المسالك فى العصور المظلمة — الى الايمان بالغيبيات ، واحس بحاجته الى القوة التى تحميه مما تخيله من شرور لابد أن تقع به ، أو يتعرض لها فى جهاده مع الحياة ..

وتوارث الناس فى جهالاتهم هذا الايمان ، وعظم أمره ، وعظم معه شان تلك القوة الخفية التى هداهم اليها العقل المضطرب ، والتى لم تكن فى واقعها غير الايمان بالقدرة الراعية الحامية الخلاقة ، التى لم يستطع العقل المتخبط فى الظلمات أن يلجأ اليها ..

ومن هنا نشأت الأوهام ، والتصورات ، ومن بعدها الرموز والصور المعبرة عن تلك القوة القادرة .

لقد كانت معركة ((التوحيد)) اعنف معركة خاضتها البشرية ، وقد توالت على كر العصور ، وتشابهت مع مسير الزمن ، واتخذت فى العصور السحيقة : الحجارة والنصب اربابا .. واستمرت على حالها فى ارقى العصور مدنية ، وبدت بأشكال متعددة ، فى كل منها ما يصرف الانسان عن الحق ، ويدفع به الى سؤال غير الله !!

انها معركة تتجدد وتتشكل رغم الرسالات الكبرى .. معركة كان النصر الحاسم فيها للحق ، والهزيمة الساحقة للضلال والكفران ..

وابى الحق سبحانه أن يترك الناس فى ضلالاتهم يعمهون ، وهو الذى كتب على نفسه الرحمة بعباده ، فكان ان عمل على هـدايتهم وبعث اليهم بالرسل تلو الرسـل معلمين ومرشـدين ، يفسرون لهم ماغاب عن أذهانهم من حقائق هذا الوجود ..

ولكن بعض الذين جبلوا على التمرد والعصيان ، عز عليهم الطاعة ، بعد أن ألفوا التحرر من كل قيد - هؤلاء الناس تنكروا للحق ، وكرهوا قيـود الفضائل ، ونزعت نفوسهم الى التمرد والشرك ، فكان الصراع الرهيب بين الحق والباطل .

تلك صور شغلت العصور على كرها ، وتملكت العقول على مسير الأيام .. وانها لصور ذات بريق أخاذ ، تراود أخيلتنا ، ونهرع اليها خلال ساعات الوحدة ، ويتسلط علينا اللاشعور بالزمن ، فنعيش مع الأشباح والأخيلة ومختلف المرئيات ، وننسى الفواصل والحدود .. بل وآلاف السنين ! !

ولست هنا فى مجال تحديد مدى سلطان هذه النشوة الذهنية ، والظفر العقلى بالقدرة على التخيل والعودة الى السحيق من الآماد .. ولكنى أعود لأصل ما انقطع فى شأن مدى ما يعتورنا نحن البشر حين نطلق الفكر من عنانه، ونحطم قيود الزمن ، ونحس باننا طلقاء أحرار ، نفكر كيفما نشاء ، ونتخيل ما نشاء ، بل ونضع بأيدى أخيلتنا وقـدرتها ما نشاء من أمـور عجزنا عن تحقيقها وصنعها فى عوالم الحقائق ، الرهينة بامكانيات محددة ، وقوانين معينة ، وطاقات لها قدرات لا يستطيع أن يتخطاها العقل الواعى بحال من الأحوال .

وانه لجميل أن أعرض من الماضى صورا ، اجلوها للحاضر بما حوت من عبر خالدة .. وطوبى لمن ألقى السمع وهو شهيد ..

طوبى لمن استمسك بالحق ، واتجه اليه بمجامع قلبه فى احلك ساعات الضيق والضلال .. أولئك الذين استمسكوا بالعروة الوثقى ، وأولئك هم الفائزون فى الدنيا والآخرة ..

صدقونى .. انها قصة قديمة تتجدد دائما ، ويلاحقها البلى مع سرعة مجريات الحياة ، وأمـام البريق الذى يخطف العيون ، فنتعـامى ونحـن المبصرون ، ونتغاضى ونحن الذين نرى ، ولكنا نخدع أنفسنا ، اذ نجرى وراء السراب ، وتستهوينا الاكاذيب .. حتى اذا سقطنا فى النهاية ، أدركنا اننا قد غرر بنا الشيطان .. الذى غرر بابينا من قبل !

انها قصة محبوكة .. ذات عناصر ومشـاهد ومفاجآت ، وحـوادث واحداث .. ثم نهاية .. نهاية مقدرة ..

انها ((الدراما)) البشرية .. المأســاة الرهيبة التى فتحت عليها ستارة الوجود بمشهد العصيان الأول ، حيث كان الأمر الربانى بالطـاعة التــامة ، والرضا بما أراد الله لآدم وحواء فى جنات الرضوان ..

راحة وسعادة وجنة عالية فيها من كل شىء .. خلقها الله لآدم وحوائه ، وسخر ما فيها لهما تسخيرا كاملا مشروطا بشرط الطاعة وترويض النفس على الرضا ، وعدم التطلع الى ما حرمته القدرة ، وانه لهين اذا ما قيس الى ما أعطى للانسان من فضل وخير عميم ..

وهنا .. عرف الشر طريقه الى النفس البشرية الساذجة فتدرجت قصة البشرية من ((السرد)) العــادى ، الى ((الدراما)) المشــتعلة بالأحداث المتدرجة الى قمة الصراع .. فاذا بقصة الطاعة المفروضة تتحول الى ذروة الدراما .. بل الى قمة المأساة ، فتتم المعصية من أجل التافه الحقير ، ويتمرد الانسان على خالقه ، يعصيه جهارا .. فيسدل الستار الأول على ((الطرد)) وما يستتبع الطرد من تيه وعذاب اليم ..

واستمرت القصة .. وتغير البطلان القديمان آدم وحواء ، وامتلأ المسرح بالأبناء والأحفاد ، واتسعت الجنة الجديدة التى سكنها أولئك وهؤلاء .. وبقى الشيطان رمز الشر حيث أراد لنفسه أن يكون ... الحاقد الناقم الذى يأبى الا أن يثبت للقدرة أن الانسان ظلوم كفـار ، لا يشــكر حتى خالقــه ومصوره ، ولا يكتفى بعصيانه ... بل ينكر وجوده جل وعلا .. فينصرف عن ساحته الى ساحة الحجارة والأصنام ..

الا يرى القارىء معى .. ان قصة الانسان والطاعة .. قصــة قديمة متجددة .. وان قصة الانسان والعبادة هى هى نفس القصة مهما تغيرت فيها الطقوس والمشاهد والدعوات ، فهى قصة واحدة متكررة .. لأنها تدور حول وحدة الوجود ، وتنادى كلها بالتوحيد للقـادر المهيمن الذى لاشريك له ، والذى هو على كل شىء قدير ..

انها قصــة طريفة حقـا .. يسرنى أن أقدم لوحاتها العديدة على كر الأزمنة ، وفصولها المتكررة ، رغم مسير الزمان ، لنرى كيف كنا .. والى أين وصلنا .. وكيف نسير اليوم .. والى أى حـد وصلت البشرية فى صراعها العنيف مع النفس والرغبات فى أروع ((مأساة)) استمرت من بدء الخليقة الى اليوم !!

وبعد .. فهذه قطرة من بحر الرسالات الكبرى .. وقبس ضئيل من

وهج اضوائها التى استنار بها العالم ، وعلى هديها سار الهداة المرسلين ، الذين جاءوا ليعززوا دعوة الحق .. دعوة الاسلام والوحدانية ..

انها دعوة ما تغيرت ولا تبدلت منذ عهد آدم عليه السلام الى عهد محمد عليه الصلاة والسلام .. وانى لأعرضها على الصفحات القادمة فى تسلسل موجز يؤكد وحدة الدعوة فى جميع الدعوات على مختلف العصور ..

بالوحدانية جاء الرسل جميعا .. وللاسلام دعوا النـــاس .. دعوهم الى الحق .. الى الصدق .. الى الكفران بالحجر .. الى الاعتراف بامامة الرسول المبعوث فيهم ، والذى غالبا ما كانت تأخذ الدعوة اسمه وتصطبغ بأسماء المرسلين .. فيقال ((النوحية)) أو ((الادريسية)) أو ((الموسوية)) أو ((العيسوية)) أو ((المسيحية)) وكلها دعوات لبهــا الاقرار بالوحدانيــة والاعتراف بأن خالق الكون اله واحد من الكفران عصيانه أو الاشراك به .

ان الاســـلام فى صلبه ثورة .. ثورة على الضـــلال .. على التحكم فى عقليات البشر ومعتقـــداتهم وزجهم الى طريق الجهالة ليعيشـــوا فى الظلمة ويخافوا الطاغية الذى يحـــكمهم ويســـوقهم الى الـــكفر فيؤمنون بالرياح والصواعق والكواكب والسيارات دون أن تجسر عقـــولهم على الارتقـــاء الى ما فوق مداركهم ليتصوروا خالق هذه المظاهر فيعترفوا به ويتجهون اليه .

ان الاســـلام دعوة الى ســـيادة العقل البشرى وتحريره .. دعوة الى السمو .. الى الايمان بالله .. والانقياد له .. والتسليم بوحدانيته ..

ورسالات الرسل الكبرى هى المنهاج الذى اتبعـــه الهداة وجاهدوا فى سبيله وكانت لهم فى ميادين الجهاد مواقف ومعارك وانتصارات .

أن الله الواحد الفرد الصـــــمد لايغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك وانه ليحول دون الناس والتعللات فيرسل رسله فى كل عصر وزمان ، فطوبى لمن آمن ، وتبا للعصاة المارقين ..

اما أعمال الرسل الكرام فصورة ناصعة من صور الجهاد الحر تظهر حين تدلهم الخطوب وتخيم الظلمات على العقول وتضل الحقيقة وتخبو منارات الصدق ويتحكم الطاغوت ..

أن آدم هو نوح ، وهو أدريس وهود وصالح ، وهو موسى حين جاء لينشر صحائف ابراهيم ويلقنها لأبنـــاء اسرائيل ليحملوها الى النـــاس مبشرين وهداة ، وهو بعد ذلك عيسى وقد جاء ليتم الناموس ويدعم بنـــاءه وينقيه من الشرك .

ثم هو فى النهاية محمد .. احمد المختار .. الهادى المبعوث لهدم الضلالات ورفع منارات الحق ، وتسويد الوحدانية والقضاء على عبادة الثالوث التى لم تكن من المسيحية فى شىء ولم ترد بها دعوة أو يدعو اليها رسول ..

ان سيد الخلق أجمعين محمد رسول الله ، هادى الهدى وخاتم المرسلين وآخر الهداة ، ودعوته ـ وهى معدن الاسلام فى جوهره الساطع التى عجزت عن اعتامه الدهور والجهالات وسيادة الشرك ـ هى الحق .. هى النور .. هى الهدى .. هى الثورة على كل باطل وكل ضلال .. على الرجعية .. على استعباد الانسان لأخيه الانسان ..

ثم انها بعد ذلك أصل الاشتراكية الحقة .. الاشتراكية العادلة التى تبنى المجتمع على أساس الكفايات والعدل وبيد العمل الصالح الذى توجهه الدعوة الصالحة ، الهادفة الى تسويد الفرد واحترام عقله وتفكيره ومذاهبه الحرة فى الحياة ...

ذلك هو الدين القيم .. هو الاسلام .. هو دعوة محمد التى أتمت دعوة الرسل الكرام وختمت الرسالات الكبرى وصححت كل وضع وبينت الهدى ودعت الى الرشاد ، ولا عذر بعد هذا لمتخلف أو عاص أو كافر ، مادام نور الحق قد سطع ، وما دامت للناس عقول ..

والآن .. يا قارئى العزيز وقارئتى الغالية أتركما الى متعة روحية مع ((التوحيد من عهد آدم)) و ((الرسالات الكبرى)) راجية أن يكون لكم فيهما زاد يقوى ونور يلقى أضواء على الضلالات ، فما أشد حاجتنا الى نبع الدين .. لترتوى النفوس الظامئة الجاهدة .. وتستشعر الأمن والسكينة والاستقرار ، وتستطيع السير الدائب فى طريق الحياة فى ظل الأمن والحب والايمان ..

والله أسأل ان يسدد خطانا .. ويهدينا سواء السبيل ..

سنية قراعه

القسم الاول

الوحدانية والتوحيد معركة الفكر الانسانى منذ بدء الخليقة ، ميدان الصراع الرهيب بين الحق والباطل .. فالناس بفطرتهم كانوا يهرعون الى قوة عليا يطلبون حمايتها وفضلها ، وكانوا من الحب لها والتقديس لذاتها الى درجة جعلتهم فى بعض الاحايين فرائس لذوى المطامع ممن احبوا استغلال الدين لصالحهم ..

ومن هنا نشأت الكهانات .. وكان الجهل الذى خيم على العقول .. وكان الشرك .. ثم كان الصراع فى سبيل الحق .. فى سبيل الله .

لتؤمن بالوحدانية المطلقة ، وتعترف بالتوحيد .. أنها قصة أزلية .

قصة وتاريخ أضمنهما صحائف هذا البحث :

التوحيد

من عهد آدم عليه السلام

بقلم

سنية قراعة



« .. فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة » !!

(سورة الأعراف) (الرسالات الكبرى)

آدم عليه السلام

« ولقد عهدنا الى آدم من قبل فنسى ، ولم نجد له عزما ، واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس أبى ، فقلنا يا آدم هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى ... » ! !

(سورة طه)

فى غياهب الشك الرهيب وظلام المعصية وقد تكاثفت سجفهاالداكنة ، وثورة القلب وقد أخذ يرجف فى فزع ويضطرب فى رهبة .. وصحوة الضمير وقد راح يمعن فى تعذيب صاحبه ويصليه من الهوان نيرانا ، وقلق الروح وقد حومت فى غيوم الهول المجسم ...

فى هذه اللحظات القاسية .. أحس آدم أنه لاشىء فى العالم الذى طرد اليه .. فاحتاطت به الهموم وتناهبته المخاوف وعبثت به الشكوك وأحس بهول جرمه وحقارة شأنه ، ولم يجد غير أن يلجأ الى القوة التى أغضبها ويستعيذ بالعظيم الذى أوجده وزوجه حواء ، والذى قال له :

« اهبطوا بعضكم لبعض عدو ، ولكم فى الأرض مستقر ومتاع الى حين »

ورفع آدم عينيه الخاشعتين الى السماء ، فلم يلبث أن ارتد اليه البصر خاسئا وهو حسير وكأنى بالخوف قد رده عن الكلام وجعله يعتقد أن صوته الذليل لن يصل الى سماء ربه وحتى اذا وصل فلن يستجيب الله له ...

* * *

ثم .. نهار أدبر ، وليل تولى ..

وطالعت الكون أضواء صبح جديد طرب لها قلب الحائر الشريد ، فترك مكمنه وبدأ تجواله الطويل بحثا عن نصفه الغالى الذى فقده ! ! وراح ينظر حواليه حائرا مشدوها لا يدرى الى أين يذهب ولا فى أى اتجاه يسير ! !

لقد عرف الزمن ، وعلم ما تعنيه ظلمة الليل وما تنبيء عنـه اشراقة الصباح .. ولكن هذا العالم المجهول منه .. انه ليسائل نفسه عما يراه ، ويسترجع آيات علمه ، والأسماء التى علمه الله اياها ليفهم أين هو ، ويعرف اسم تلك البقعة الصامتة الخرساء ، ولكن .. دون جدوى ..

وسار آدم وسار ، والرقعة تزداد فى عينيه اتساعا ، حتى لقد خيل اليه انه اشبه ما يكون بحصاة ضالة فى محيط لا نهاية له .. كل ما كان يعرفه انه يريد ان يسعى ضاربا فى كل الشعاب بحثا وراء ((**حـواء**)) التى فقدها فى معمعة العاصفة الرهيبة التى صحبته ساعة خروجهما من الجنة ! !

وانقل آدم وقر خطيئته ، فوقف لدى لحظات طـوال يناجى ربه فى خشوع التائب النادم الطامع فى عفو الله الذى ((**كتب على نفسه الرحمة**)) !!

وعاد آدم ينظر حواليه وقد كبر لديه جرمه ، وتعاظمت خطيئته ولكن نفسه الهالعة ارتبطت من جديد بالقدرة وقـد ثبت لديه أن رحمة الخالق اكثر كرما من خطيئته ، واعظم من أن يؤثر فيها جرم معصيته ، وكان أن سجد العاصى وعفر فى التراب وجهه وارتفع صـوته الباكى يســأل الرحيم رحمته والغفور غفرانه ويقول ما معناه :

((**لا اله الا أنت سبحانك أللهم وبحمدك عملت سوءا وظلمت نفسى فتب على انك أنت التواب الرحيم**)) ..

((**لا اله الا أنت سبحانك أللهم وبحمدك عملت سوءا وظلمت نفسى فاغفر لى انك أنت الغفور الرحيم**)) ..

((**لا اله الا أنت سبحانك اللهم وبحمدك عملت سـوءا وظلمت نفسى فارحمنى يا ارحم الراحمين**)) ..

((**تبت اليك يامن لا يغفر الذنب غيرك ، فتب على وتولنى وارحمنى انك أنت التواب الغفور الرحيم**)) ..

واستجاب الله لعبده الذى ارتفع صوته بأول توسل ودعاء فى تاريخ البشرية .. ومن عليه بالعفو والمغفرة :

((**فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه انه هو التواب الرحيم**)) ..

وتنزلت التوبة على قلب آدم بردا وسلاما وكانها كانت انداء فجر طاهر نزلت على برعـم مغلق فتفتح لها .. أو كأنهـا كانت غيثا دافقا نزل بأرض جدباء فاهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج !!

وعرف آدم الحقائق كلها .. وتكشفت له غوامض كانت خافية عليه ..

عرف أن مقامه فى الأرض مستقر الى حين .. والى السماء سوف يكون مرجع روحه .. وانه لكى ترقى هذه الروح ثانية الى الملأ الأعلى ، يجب ان

تعمل .. وان يحمل صاحبها الرسالة التى استخلفه الله عليها فى الأرض .

لقد اراد له ربه أن يكون خليفة فى الأرض ، يعمرها ، ويدعو من فيها الى الهداية ، ويحذرهم هول المعصية ، ويهديهم الى الحق ويبشرهم بالجزاء الأوفى فى عالم سعيد وجنات عرضها السماء والأرض .. عالم عرفه هو ، ومازالت أضواؤه تلمع فى خياله ، فيحن اليه ويزداد يقينه بأنه لابد عائد اليه .

وتبدت لعينى آدم معالم الطريق الجديد .. وكان الايمان بالله هادبه ومرشده ..

واتضحت الدروب والمسالك ، فنهض قويا عامر القلب بالأمل سعيدا مستبشرا بدخوله فى تجربة رهيبة لن يخضع فيها الوسواس الخناس مرة اخرى .. ولن يمكنه من نفسه ، بل سينتصر عليه ويخذله لكى لا يكون له عليه سلطان يحول دونه ورضاء الله .

ونسى آدم وحدته وما عاد يفكر الا فى الصراع القادم الذى يجب أن يخرج منه منتصرا على نفسه ليكون عبدا صالحا مطيعا مستجيبا لصوت الله محققا لقوله تعالى للشيطان :

((ان عبادى ليس لك عليهم سلطان)) !!

وصمم فى نفسه ان سوف يكون هذا العبد الذى لاسلطان عليه لغير الله .

وهدات النفس القلقة ..

وراحت طيوف الوحشة تنجاب عن قلب آدم .. ونظر الى الصحراء التى بدأ يلفها الظلام ببرده الناعم وتوسد الزمن صدرها الحنون .. فهدا واستسلم الى أحلام وخيالات فى تلافيفها قداسة وفى احنائها تعبد ، وفى ظاهرها جلال ..

هنا .. تبدو عظمة الصانع ، ومهارة المصور ، وقدرة الخالق ، ودقة مبدع الكائنات ..

هنا .. الصمت الجاثم الذى يوحى بأرق وأقدس واجل الأفكار ..

هنا .. فى هذه الربوع الخاشعة يبدو الخلوص جليلا والخشوع ماثلا ، والتعبد واجبا ..

هنا .. وفى هذه البقعة التى أحس الانسان الأول فيها بضآلة نفسه ، امام الجلال الربانى — أحب آدم أن يتخذ من مكان ما فى الصحراء معبدا ، ويقيم لله أول بيت له ..

وخشعت الطبيعة ، واستكان الصمت ، ورفرف الجلال ، وحومت أرتال الملائكة على الصحراء الوسيعة تشهد أول بيت سيذكر فيه اسم الله ..

وتعالت التسابيح ، وارتفعت الصلوات الى سدة الخالق الذى من على عبده بالتوبة وهداه الى العمل الصالح ، وأوحى اليه بالانشاء والتعمير .. ثم خيم الصمت وعرف آدم ، للمرة الأولى منذ هبط الى هذه الأرض — روعة الراحة وجلال الهدوء ..

وتولى الليل ، واشرق صباح جديد أحس آدم مع مقدمه بشعور يدفع به ، لا الى التجوال أو المسير على غير هدى كالأيام السابقة .. بل الى السعى فى بعض المناحى القريبة من تلك الصحراء الطاهرة ..

ووجد آدم نفسه يرقى تلا محدود الارتفاع ، ليستطيع وهو على قمته أن ينظر حواليه ، عله يرى ضالته حواء ..

لقد كانت حواء مؤنسته وصاحبته فى جنة الرضوان ، وانه وهو فى ذلك الخضم الشاسع الذى لا نهاية له ، ولا مرساة ، ليشعر نحوها باحساس جارف ويدق قلبه فى حنين طاغ يناديها ..

ومالت الشمس الى مغيبها الغامض خلف التلال العديدة ، وبدات أطياف الغروب تتراقص عند حوافى الأفق ، ووجد آدم نفسه يتجه بمجامع قلبه الى البيت الطاهر ، وهو صامت حزين لا يتكلم ولا يريم ، لايمانه بأن خالقه اعلم منه بما فى نفسه !!

وهتف آدم باسم حواء فى نبرة عذبة حنون . حملت النسائم أصداءها عبر الصحراء فاهتزت لها الرمال ورقص الحصى ، ورددتها قلل التلال !!

وخيل اليه من فرط احساسه انه يسمع بدوره من كان يناديه فانطلق صوته ثانية .. وثالثة .. ورابعة ..

وخيمت الظلمة الرقيقة فخلفت أطيافهــا ظـلالا وأشباحا كانت تسعى متقدمة موكب الليل ..

وعلا النداء .. وفجأة سمع المنادى أصداء صوت قريب !!

وتجسد الشك فى خيال آدم حقيقة ، ووجد نفسه يطيل النظر فى جوف الظلمة الفاشية التى لم تكن تتقدم وحدها ، بل كان فى احنائها شبح غريب متعثر الخطى يسير مضطربا الى غير هدى .. واصاخ السمع الى اصــداء حبيبة كانت تردد فى حنين .. اسمه !!

وتلاقى الخــاطئان اللذان تاب الله عليهما ، وعلى ((**عرفات**)) تعــارفا ، وشهدت الصحراء أول لقاء عاطفى ، بين أول رجل وأول امرأة !!

وانصتت الرمال الى قصة اللقاء فى العالم الجديد الذى بدا للتائبين وكأنه ظل للجنة الوارفة التى أخرجا منها ..

التقى آدم بحواء .. شريكته فى المعصية .. فكانت شريكته فى التوبة ايضا ، واخته فىالفرحة برضوان الله ، فسارت الىجانبه تشد أزره وتحدو خطاه ، وتحمل نصيبها فى رسالته ، كما حملت نصيبها معه فى حمل وزر المعصية الأولى ..

التقى الشريكان .. شريكا الأمس الذى تولى ومحت التوبة آثاره .. وشريكا اليوم والغد والمستقبل المرجو الذى سوف يشهد ازدهار البشرية ونموها ، واضطلاع آدم برسالته التى خلق من أجلها .

وعلا صوتهما بالصلاة شكرا للخالق الذى شاءت ارادته ، أن يجمع بينهما فى بقعة طاهرة ، مقدسة ..

وبدأ آدم وحواء العيش فى ايمان وصدق وقد أحسا بأنهما على قلتهما شيء عظيم يستمد وجوده من قادر جبار سوف يهديهما الى سواء السبيل .

واخذ آدم — بدافع من علم لدنى علمه الله اياه — يقاوم تقلبات الطبيعة ويضع اسس فلاحة الارض واصلاحها لتخرج ثمارا له ولزوجته ، فكان أن نقل على هذه الارض صورة مصغرة جليلة من صور الجنة الخالدة التى طرد منها مع زوجه حواء ..

واهتدى آدم بفطرته الى كل ما يجب عليه عمله وقد أحس أنه سيد ذلك الفضاء كله بلا منازع .. سيد الصمت والحركة .. سيد السكينة الشاملة والجلال القدسى .. سيد الكون المحيط به .

اجل .. سيد الكون ! !

الم يرد الله له يوم خلقه من تراب أن يكون فى الارض خليفة .. ؟ ! فلم لايكون هذا هو الهدف من خلقه ! ! ((**انى جاعل فى الارض خليفة**)) ! !

وراح آدم يباشر مهام هذه الخلافة التي وكلها الله اليه .. وهىالانشاء والتعمير ووضعأسس الاستقرار .. لقد أقام بيت الله للعبادة والضراعات، وبنى له بيتا ليأوى اليه وزوجه .. ثم راح يفلح ويزرع ويحصد ، وكلما امعن فى العمل زاد احساسه بأن له رسالة كبرى على هذه الارض .. رسالة الخليفة الموكول اليه وحده أمر ذلك العالم الجديد .

وحصن آدم داره بالايمانوقوة العقيدة . وما عاد يأبه لهواجسالنفس ولا لخيالات الوحدة الرهيبة فى عالمه الوسيع . وأخذ ينظر قدما الى الامام .. الى المستقبل .

انه ليشعر مقدما انه لن يكون وحده وحواء على هذه الارض .. بل انه ليذكر قول الشيطان لربه جل وعلا : ((**لأحتنكن ذريته**)) ! !

اذا .. فسيكون هناك ذرية ، ويكون هنــاك حيــاة ، والا ما قررت القدرة امر الاستخلاف على الارض .

ستكون هناك حياةواسعة الافق محدودة الاسباب ، ومنواجبه الاول ان يمهد لها .

لقد اقام بيت الله .. ثم بيته هو .. وعليه بعد هذا أن يعمل للغد . للذرية التى لم يرها ولم يعرف ماهى .. ولا كيف ستأتيه !!

وراح آدم يتخيل غده المأمول المشرق .. واخذ وزوجه يتصوران ذلك الغد وهما مسلمان قلبيهما الى الله ..

وراحا يضعان أسس الخليقة ، ويقيمان أول بيت مستقر ..

وبدات الزيجة تؤتى ثمارها .. وكانت مفاجأة لآدم أن وجد نفسه يتكرر، وانه وحواء لم يعودا وحدهما .. بل مع أشباه لهما وشبيهات !!

وعلم آدم أبناءه السر الخالد وأوقفهم على حقيقة الحياة وانها ليست الا دار مقام قصير يجتازها الانسان الى حياة أخرى لها بابان يختلف كلاهما عن الآخر أولهما ((**باب الجنــة**)) وهو باب يرشد الايمــان اليه ولا يعرفه الا آدمى عرف الله وقدره حق قدره وعبده حق عبادته واقر بوحدانيته وافضاله ، فيلجه الى النعيم والجنة الفيحاء ذات الأنهار الجارية والأشجار الباسقة العالية والسرر المرفوعة والأكواب الموضوعة والنمارق المصفوفة والزرابى المبثوثة والطلح المنضود والظل الممدود والماء المسكوب والفاكهة التى لاحصر لها .

وثانيهما ((**باب الجحيم**)) الذى تدفع اليه الرغبات الجائرة والشهوات المنطلقة التى تعميهم عن الحق وتخرجهم من طور الهداية فيتغافلون عن ذكر الله ويكفرون بأنعمه التى لاتعد ولا تحصى .

ووقف أبناء آدم على سر الوجود وعرفــوا مالهم وما عليهم فعبدوا الله وذكروا اسمه كثيرا وداوموا على الصلاة له واقروا بوحدانيته فى صورة الدعاء له . فكان بمثابة معراج ترقى روحهم اليه فتغمرهم السعادة والأمن والاستقرار ..

اذن فقد ابلغ آدم الرسالة لبنيه ، فعرفوا انهم خلقوا ليكونوا خلفاء على الأرض ، يعبدون الله ويقرون بوحدانيته وتفرده ، وانه جل وتعالى أول بلا ابتداء ، وآخر بلا انتهاء ، ليس كمثله شىء وهو السميع العليم ..

وأن عليهم أن يخضعوا لشرعة الســلام ويعرفوا انهم اخــوة متحابون متساوون لا فضل لاحد منهم على أخيه الا بالتقوى ومعرفة الله ..

ومرت السنوات ، وتوالت العصور .. واتسعت رقعة العالم الصغير ، وتكاثر بنو آدم وبناته ، فقامت حضارات ، واســتقرت مدن ، وانتشرت

ديانات واتجهت الوجوه جمعاء نحو الصحراء الطاهرة متخذة ((**البيت العتيق**)) قبلة لها ورجاء ..

* * *

عرف بنو آدم بالفطرة ، وبعد ان تولى عهده ، وفقدت تعاليمه السامية جدتها وما كان لها من قوة — أن فى العالم الذى يعيشون فيه قوتين تتنازعان السيطرة على المخلوقات وتتحكمان فى أقدارهما ، هما : قوة الخير ، وقوة الشر ... ولما كان البشر جميعا ميالين الى السلام محبين للهدوء فقد مالوا الى ناحية الخير وأحبوها ، وتجنبوا سبل الشر وبعدوا عنها ...

ومرت أعوام وتلتها أخرى .. وامتلأت الأرض بالمستخلفين عليها ، وتشعبت بهم المسالك فاذا بالأخوة قبائل ، واذا بالقبائل عشائر .. واذا بالعشائر قرى ، واذا بالقرى مدائن كثرت فيها الخيرات وتكاثرت النعم .. وبين هذه الظواهر المتعة كان يكمن ظل الشيطان المتوعد الذى اضمر الحقد لأبناء آدم وراح يتربص بهم ..

وتدفق الخير .. ومع تدفقه بدأت تقسو القلوب ، فاذا بالأقوام يتصارعون على النعيم ، ويستحوذون على مظاهره ويجعلون من الخير الممنوح فى سخاء أداة للتحكم ووسيلة لسلطان الشهوات ..

وبمرور الزمن وتشعب المطامع واتساع رقعة العالم الصغير ، بدات الصورة الأولى التى عرفها الناس عن العبادة تفقد تركيزها فى الأذهان واهتزت معالمها وراح كل بشرى يراها من الزاوية التى تحلو له ويرقبها بالعين التى يحب وعلى الهيئة التى يتمنى ، ومن هنا دخل التصور والتخيل فى طقوس العبادة ووجدت بعض النفوس الشريرة ذات الذكاء الخطر ، ان امامها فرصة للعمل والاستغلال ..

وبدأ الانسان يحب ضوء النهار ونوره واشراقته المنيرة ويخشى الليل ويرهب ظلماته ويرتعد اذا تلبدت السماء بالسحب ، ويرجف اذا برق البرق ويخر مغشيا عليه اذا رعد السحاب او هطل المطر ..

وروعته هذه الظواهر ولم يجد من يوقفه على أسرارها .. ومن هنا جعلت فئة من الناس همها تجسيم هذه الظواهر واتخاذها أداة من أدوات بث الرعب فى القلوب ..

ثم جعلت تقربها الى الأذهان الجاهلة فى صورة المعبودات الواجبة الطاعة التى يجب على الانسان ان يتزلف لها ويقرب القرابين منعا لشرورها وغضبها وما قد تنزله بالناس من سخط وتعذيب !!

وهكذا .. طمس الجهل معالم الدين ، وبدات الخرافة تاخذ مكانها فى النفوس وتسيطر على العقول جمعاء وبدأت البيئة تلونها بألوانها وتعطيها صور الاقليم الذى نبتت فيه وقامت بين ظهرانى أهله .

وتدخل الدهاء البشرى فى الأمر ، ومن ثم سخر قدرته فى العبث بالعقول وتملك اصحابها بوسائل غريبة ...

ومن هنا نشأت طائفة الكهنة ، وهؤلاء بدورهم أعتبروا أنفسهم ممن خصتهم القدرة بعلمها اللدنى وحباهم الاله الأكبر بمعرفة أسراره وبركاته ومنحه ...

وفكر الكاهن فى مرتبة عالية يوليها نفسه . فكان ان جعل من نفسه « **نبيا** » يحادث الله الذى يتجلى عليه ويطلعه على أسرار الخليقة فيسأله « **النبى** » نفع قوم وانزال الضر بآخرين .

وعظم سلطان هؤلاء المشعوذين .. وجرهم الطمع والسعى وراء السلطة والجاه الى التمادى فى الأكذوبة الكبرى ، وسرعان ما خرجوا من الوهم والخيال الى حقائق كانوا يصورونها وفق مطامعهم واهوائهم فصنعوا بأيديهم التعاويذ والتمائم باعتبارها من مصادر جلب البركات ومنحها ، ودفع الشرور والقضاء عليها ، وقدموها للناس فتقبلوها شاكرين على انها من الله لتدرأ عنهم الشر وتحميهم وتتولى حراستهم وأموالهم وأهليهم .

وبلغت الجراة بالكهان مداها بعد ذلك بأن تحكموا فى العقول فجعل كل منهم للاله صورة من صنعه واتخذ له اسما خاصا من وحى خياله .. بل لقد تفننوا فى توزيع « **القدرة الربانية** » على آلهتهم العديدة ... **فهذا رب الريح ، وذاك رب المطر ، وثالث رب الزرع والحصاد وهكذا ..**

***

وتلاشت الوحدانية من الوجود او كادت وتعددت الأرباب بين الناس .. واصبح فى وسع الانسان أن يستبدل بالرب ربا آخر متى شاء ، تماما كما يفعل بالثوب الخلق عندما تتوق نفسه الى ثوب جديد ! !

كثرت الأرباب وكثر معها عابدوها .. الذين يتحمسون اليوم لرب منها ثم لا يلبثون أن ينفضوا عنه فى اليوم التالى لأن كاهن الرب الآخر استطاع ان يزيغ عيونهم باحدى أضاليله أو ان يخدعهم باكذوبة من الأكاذيب ...

وبالرغم من تعدد هذه الأرباب « **المصنوعة** » والمعبودات « **المتخيلة** » ، فقد كان الانسان يخشاها ويخاف بطشها ويتزلف اليها بالقرابين .. وينحر الذبائح ويبعث اليها بالهدايا ..

ولقد كانت تلك الأرباب بدورها سمحاء بالغة الـكرم ، تحرم اليـوم ما حللته بالأمس .. ثم تعود فى الغد فتلغى ماقد أباحته فى الماضى .. لتصدر أمرا جديدا يتمشى مع رغبات عابديها .. فهى لاتحرم أبدا شيئا يشتهونه .

بل كيف كان لها أن تعارض رغائب هؤلاء الكرماء الذين أتوها محملين بالأطايب . يســالونها أمرا من الأمــور ــ كانوا وهم فى أماكنهم يستطيعون تصريفه بما يشاءون ؟ !

ومن هنا وبالاضافة الى شرور الشرك والـكفران ونسيان الوحدانية ، شاعت الفوضى وضاعت القيم .. وانتشرت فى الناس ألوان من المنـكرات ، كالفحش والزنا والخمر والميسر ..

وسارت البشرية قدما بهؤلاء الخاطئين وقد تكاثروا وزادوا ضلالا وغباء فاذا بهم ينقلبون على معبوداتهم تلك ويستبدلون بها أخرى تساير أذواقهم ، واصبح لكل بيت رب خاص ، بدلا من رب لكل قبيلة .. ثم لم يلبث ان اصبح لكل فرد من الأفراد معبود خاص به ، يصنعه ويصوره وفق هواه .. ويضـعه فى مكان خاص من بيته ! ! وبدلا من أن يقـوم له بفروض التعبد والطاعة كان يرتكب الخطايا فى حضرته ويتفنن فيها لينال رضاه ! !



ادريس عليه السّلام

((واذكر في الكتاب ادريس انه كان صديقا نبيا ، ورفعناه مكانا عليا))

(سورة مريم)

مرت قرون وتلتها قرون .. واستمرأ الناس الخطيئة واحبوا الاندفاع وراء بريقها السحرى ، دون ان يكلف احد منهم نفسه ــ وعجلة الزمن تدور به وتريه العجائب ــ عنـاء التفكير فى أمر من أمور تلك الحيـاة التى كان يحياها ..

كانت جموع الناس أشبه ما تكون بالسائمة ، تبدأ لتنتهى .. وتسير صامتة فى طريق مألوف تتبع فيه وسائل تقليدية ، اورثتهم اياها الأجيال الجاهلة المتأخرة ، فسلموا بما ورثوه دون نظر أو تمحيص ، وما فكر واحد منهم فى الخروج عن ذلك الأفق المحدود الذى كانت تسوده معلومات ساذجة، ويسوده دين خرافى مصطنع ، ومعبودات خلقها الانسان وصورها .. ثم ارتفع اليها بحواسه ورجائه لتدر عليه الخير وتمنحه البركات ! !

أبدا ما خطر لأحد أن يفكر فيما حواليه .. ويسأل نفسه من اين أتى ؟ ! أو الى أين يذهب ؟ .. ومن يكون ذلك الصانع القادر الذى بسط الأرض ورفع فوقها السماء بلا عمد وزينها بالكواكب والأقمار والشموس ؟ !

وكانت عين الله ترقب العالم الذى خلقه من العدم وأبدع خلقه .. وتنظر الى الكائنات التى أوجدها من عدم وخلقها من تراب ، فاذا هى قد نسيت اصولها وكفرت بخالقها وانكرت وجوده وبعدت الصلة بينها وبينه .. ونسى الانسـان خلقه وخالقه الاله الواحد .. بل كان يجهل مدى وحدانيته وتنزهه عن الحوادث ، واتخذ له اربابا متفرقين ! !

وضحك الشيطان ضحكة الظافر اسكره النصر ، وقد نال مالم يكن يحلم به اذ وفى بوعده لخالقه الذى طرده من رحمته واثبت له أن الانسان ظلوم كفار ! !

وعاد القادر سبحانه ينظر الى عباده .. الى الانسان الذى وضع فيه خلاصة الذكاء والنبوغ ، والذى صاغه من حمأ مسنون .. ثم وهبه من لدنه حياة ومن عنده قدرة ، وأنار له بصيرته ، ووهبه السمع والبصر والفؤاد ليفكر ويقدر ..

لقد ضل الانسان وكأنه غير ملوم فى ضلاله .. انه وهو فى غياهب الجهل وظلام الخطايا ، ينقل بصره حواليه ويهديه قلبه وترشده حواسه الى وجوب التجائه الى قوة عليا تحميه — ومن هنا وجد الكهان والمخادعون الفرصة لتضليل البشر ، فكان ان خلقوا له المعبود الذى يريده وجللوه بالأسرار كى يفزع اليه كلما ألمت به ظروف الحياة أو قست عليه الدنيا أو أراد شيئا عز عليه نواله ..

لقد ضل الانسان .. ولا ينبغى أن يؤخذ بضلالات ورثها فى جملة ماورث عن آبائه الأولين ..

وأراد الله أن يبطل حجج الانسان وذرائعه ، وأن يقيم عليه الحجة ويأخذه بالبرهان .. ليهديه سواء السبيل ويرشده الى ما كان يجهله من وحدانية خالق السموات والأرض ..

وكان ان اختار الله عبده ((**ادريس عليه السلام**)) ..

ارسله الله الى قومه ليهديهم الى الصراط المستقيم .. الى عبادة الواحد الأحد ، ويذكرهم بشريعة **آدم عليه السلام** وينعى عليهم مخالفتهم قواعدها ، ويحثهم على حب العدل والاحسان ، ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويدعوهم الى طاعة الله عز وجل وحب الخير ..

وأصغى الناس الى الصوت القوى وهو يدعو الناس الى الايمان برب واحد قادر .. وتلقى الناس دعوة ادريس فى دهشة وتكذيب من عز عليهم أن يتركوا ما ألفوه من لهو ومتعة ..

وكان الجدل والصراع .. وكان الجهاد العاصف بين الايمان القوى الذى جعل ادريس يثبت أمام رءوس الشرك والضلال وبين من أحسوا فى دعوته ما يعنى زوال سلطانهم الذى فرضوه طويلا على العقول الساذجة ..

وطال الجدل واستحكم .. وايقظت دعوة ادريس النبى افئدة العقلاء الذين لمست عقولهم فى دعوة ادريس ما يكشف عن أمانى الروح التواقة الى الحق وتفسير ما أشار اليه من أسرار علوية ..

وراحت كلماته المؤمنة تزيل ما علق فى النفوس من أوشاب الرغبات الدنيوية التى خيمت بظلامها على شفافية الروح الهادى الى سر الوجود وخالقه ...

واخذ البعض يتساءلون عمن أوجدهم ؟ !

وبدأ الصراع فى ميدان النفس البشرية بين الحقيقة والزيف ..

وسما الروح الى منبعه .. الى أصله .. وهو يرجو أن يهتدى الى خالقه حتى يصل الى الحقيقة ليبدد قلقه ويبعث الهدوء الى القلب الحائر الذى ينفر من الضلالات رغم اقباله عليها واعتناقه لها ..

واخذ ادريس عليه السلام يدعو الخلائق الى عبادة الواحد الأحد .

وما لبث أن آمن البعض واكتملت آية اللقاء بينهم بالايمان العظيم ..

وساءل البعض ممن انصتوا ولم يؤمنوا : الى أى شىء يدعو ادريس ؟

ووجدوا فى قرارة نفوسهم الجواب ..

انه يدعو الى الله .. الى الحق .. الى القدرة القادرة التى لا تراها عين ، والتى يسير بأمرها السحاب ، وينزل المطر وتخلق الحياة ، وتتم آية الموت .. ثم البعث .. وبعده الخلود والحياة الأبدية فى ظلال عظيم واحد ..

تلك هى الحقيقة التى ارتاحت اليها غالبية القوم ممن استهوتهم حقيقة الدعوة وركنوا اليها وآمنوا بهـا . وراحوا مع ادريس يرقبـون فى ايمان ما خصه الله به من علم لدنى عظيم فى دراسة الطبيعة وما حوت ، وعلاقة الأجرام السماوية باقدار الناس جميعا ..

كان ادريس صديقا نبيا .. وقد اختلف العلماء فى مولده .. فقيل انه ولد بمصر بمدينة ((ادفو)) وقيل فى ((منف)) وقيـل انه ولد فى ((بابل)) وانه أخـذ بتعـاليم ((شيث)) ابن آدم جـد جـد أبيـه .. فهو ادريس ابن يارد بن مهلائيل بن قينان بن أنوش بن شيث بن آدم(١) .

كان ادريس ـ كما تصوره بعض الروايات ـ طويل القامة حسن الصورة كث اللحيـة عريض المنكبين براق العينين اكحلهما حلو الشمائل ، متأنيا فى كلامه ، كثير الصمت ، اذا مشى نظر الى الأرض ، واذا دعا ربه نظر الى السماء .

وادريس هو ((هرمس)) عند الهرامسة ـ كما يسميه الشهرستاني فى ((الملل والنحـل)) وهو ((حـوروس)) عند المصريين أو ((هـوروس)) و ((هارماكيس)) عند اليونانيين و ((خنوخ)) عند العبرانيين و ((أخنوخ)) عند العرب ـ وسماه الله تعالى فى كتابه العربي المبين ((ادريس)) ...

والذين قالوا انه ولد ببـابل يؤيدون حجتهم بأن آباءه كانوا فيما بين النهرين **((دجلة والفرات)) ..**

ومعنى بابل بالسريانية ((النهر)) وانه لما وصل ادريس واتباعه الى مصر او النيل ـ فقالوا ((بابليون)) اى نهر كنهركم !!

---

(١) قصص الانبياء .

وأسموا أهل مصر ((**بابليون**)) ـ أى أصحاب النهر ـ حتى هبط اليها مصرايم بن حام النازل بعد الطوفان فحكمها ويقال انه هو نفسه ((**مينا**)) أول ملوك الأسر الفرعونية ، أو ((**ميناس**)) أول ملوك العائلات بعد حكم الكهنة (١)

وراح **ادريس** يعلم قومه ومن تبعه ممن آمنوا بدعوته أهم العلوم فرسم لهم تمدين المدن ، وجمع حوله طالبى العلم من كل مدينة . فعلمهم السياسة المدنية وقرر لهم قواعدها .. فبنت كل فرقة من الأمم مدنا فى أرضها .. فكان ان أنشئت فى زمانه مائة مدينة وثمان وثمانون أصغرها الرها .. (٢)

وقد اجمع العلماء على أن المصريين الأوائل قد هبطوا من آسيا وان كان بعضهم أصله من الحبشة وقال غيرهم : ان المصريين نبتوا مصريين ، وانما كان لهم اتصال بالهند والكلدان وشمال افريقيا وجنوبها وان كانت صلتهم مع الأحباش قديمة ..

والذى يعنينا هنا هو : اذا لم يكن المصريون قد هبطوا من آسيا وهو الرأى المرجح ، تلك القارة التى هبط منها جميع أبناء آدم ، فالذى نؤكده ونرجحه ويرجحه معنا علماء الآثار والتاريخ والمستندات والوثائق ، ان الدين الأصلى للمصريين قد هبط اليهم من آسيا وهو ((**دين التوحيد**)) ، الذى حمله لهم ((**ادريس**)) وأتباعه قبل عصر ((**مينا**)) لاسيما وان دين التوحيد كان موجودا فى الهند قبل أن يوجد فى مصر .

وان كان بعض علماء المصرولوجيا ((**علم الآثار المصرية**)) الأوروبيين لم يراعوا فيما كتبوا تاريخ تطور النبوة والرسالة منذ آدم على يد أبنائه شيث وادريس وغيرهما ..

وادريس عليه السلام كان أول من هداه الله ووضع للبروج وللكواكب اسماءها ، ورتبها فى بيوتها وأثبت لها : الشرف ، والوبال ، والأوج ، والحضيض ، والمناظر ، والتثليث ، والتسديس ، والتربيع ، والمقابلة ، والمقارنة ، والرجعة ، والاستقامة ـ وبين له الله عز وجل تعديل الكواكب وتقويمها .. وأفهمه عدد السنين والحساب .. وأقام للأمم فى كل اقليم سنة تليق بأهله ..

وقد بلغ فى الحكمة والعلوم الالهية والطبيعية والفلك مبلغا عظيما ـ حتى أن بعض الأمم ألهته فيما بعد ـ .. وهو الذى أخذوا عنه المساحة والفلك وباقى العلوم الرياضية ، والطبيعيات وكان له مؤلفات ضخمة فى هذه العلوم القيمة احتفظ بها الكهنة ككنز سرى تحت أيديهم ..

---

(١) وحدة الدين للسيد الفيفى .

(٢) قصص الأنبياء عبد الوهاب النجار .

وكان الكهنة يلقنون تلاميذهم فقط تلك الفلسفات والعلوم الهرمسية تلقينا شفويا .. فيعلمونهم ((التوحيد)) و ((سر الروح)) و ((أسرار الطبيعة)) و ((علم الفلك)) وكانوا يأمرونهم بكتمان هذه العلوم واخفائها عن العامة ..

وكانت رسالة ادريس ((هرمس)) من الأسفار المقدسة عندهم وكان الطالب او المريد بعد أن يقضى سنين طويلة ويمر فى تجارب شتى حتى يجوز الامتحان ، يطلع على السر ، فيذهب به الكاهن ليلا الى سطح الهيكل أو المدرسة .. ليقص عليه رؤيا هرمس قائلا :

راى هرمس يوما وهو فى حالة انخطاف روحى . الكون والعوالم منجلية امامه . والحياة منتشرة فى باطن كل شىء فصاح به صوت النور الأقدس العالى للكون جميعه ، وكاشفه بالسر قائلا :

((ان النور الذى رأيته هو الروح الالهى العلوى ، سر كل شىء والمتضمن رسوم كل الكائنات)) .

((اما الظلمة فهى العالم المادى وفيه بنو الأرض ، والضياء المتدفق من الأقاصى هو العقل الالهى ، وباتحادهما تكون الحياة . وأما روح الانسان فوضعها على وجهين الأول اعتقالها فى المادة حين تشبثت بها والثانى ترقيها فى النور اذا ادركته ووصلت اليه بالمعرفة . والأنفس هى بنات السماء وسفرها تجربة لها ففى التجسد تفقد ذكر منشئها السماوى . ولاعتقالها بالمادة وسكرها بنشوة الحياة تنحدر كفيث نارى الى أقطار العذاب والهاوية والسجن الأرضى العائش أنت فيه الآن تحسب الحياة الالهية اضغاث احلام وتتيقظ من هذه النومة اذا اكتحلت بصيرتك بنور المعرفة وعودت نفسك طريق السمو الروحى .

((ان النفس الشريرة تبقى معتقلة فى الأرض بأغلال شهواتها ورغباتها الأرضية . انما الأنفس الفاضلة ترقى متطايرة الى الأفلاك العلوية لتحتلى برؤيا المعانى وتتشبع منها بقوة ما امتلكته من الاختبارات والمعارف والارادة الفعالة المكتسبة فى وسط الآلام والشدائد والجهاد بارادتها المتحررة وتصبح هى ذاتها نورانية لامتلاكها النور الآلهى فى جوهرها وافعالها .. فثبت اذن قلبك ياهرمس ، وسكن روعك عند نظرك الى الأنفس الصاعدة فى معارك الأفلاك العلوية توصلا الى المبدأ الأول الذى منه يبدأ وفيه ينتهى كل شىء منذ الأزل : ثم سبحت هاتفة معا ، الحكمة ، الحب ، العدل ، البهاء ، العظمة ، العلم ، الخلود)) .

وقد ذكر المؤرخون ان ذلك الهيكل هو الموجود الآن بجانب ابى الهول المسمى باسم الكنيسة وكان مطمورا فكشف على يد الأستاذ عبد الفتاح حسن الأثرى المصرى المعروف .

وقد اثمرت تعاليم ادريس الى حد ما . ولكن الزمن قد اخذ يمر والقرون تتلاحق مما غير ولا شك من العقائد التى جاء بها ذلك النبى وهو ((**ادريس عليه السلام**)) وجعلت رجال الدين فى تلك الأمم يأخذون منها دعامة يروجون بها لأضاليلهم ومذاهبهم الدينية الخطيرة ..

فقد حدث فيما بعد أن اتخذ الكهان هذه المعرفة وهاتيك التعاليم بعد ادريس بزمن بعيد — اصولا لدعواتهم أو ادعاءاتهم الدينية ، فتفرقت الدعوى ووجد الناس انفسهم ازاء العبادات شيعا فبعضهم يعبد الكواكب التى تلقوا علمها عن ادريس ، وبعضهم يعبد الأصنام .. اذ خيل اليه انها تقرب الى ذهنه صورة الآله العظيم الذى تصل ادعيتهم اليه عن طريق هذه الاصنام .

***

وانتشرت — فيما بعد وفى عصور الظلمة — تلك العبادات التى مهدت لعصر **ابراهيم عليه السلام** ، اذ كلفه الله بالقضاء على هذه الوثنية ، وعبادة اله واحد لا تدركه الأبصار فكان ابراهيم شجاعا فى احتجاجه واعلان رسالته قولا وعملا ، وقال لأبيه ((**يا أبت لم تعبد مالا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا**)) ؟ !!

ثم قام بتحطيم أصنامهم عن آخرها !!

اما الصابئة من عبدة الكواكب والاصنام فعندما دعاهم ابراهيم الى دين الحنيفية — اتخذوا من دراسة ادريس للكواكب ومعرفته لبروجها وتنقلاتها ومدلول هذه التنقلات وارتباطه باحوال الجو وما يتبعها واتباعهم لهذه الدراسة اتباعا بلغ حد التقديس ثم العبادة — عذرا ينتحلونه مدعين فى ذلك انهم انما يتبعون تعاليم ادريس النبى ..

وقامت مجادلات بين الحنيفية والصابئة ، ظهر منها كذب ادعائهم على ادريس — ويسعدنى بهذه المناسبة — ان أورد هنا بعض حكمه العظيمة ذات المعانى الخالدة الوثيقة الارتباط بالدعوة الى الوحدانية وتقديس الذات العالية القادرة التى أوجدت العالم ومن فيه وأمرتهم أن يخلصوا لها الدين حنفاء .

ومن عظيم اقوال ادريس التى تنسب اليه :

((أول ما يجب على المرء الفاضل بطباعه المرضى فى عادته المرجو فى عاقبته تعظيم الله عز وجل وشكره على معرفته وبعد ذلك فللناموس عليه حق الطاعة له والاعتراف بمنزلته وللسلطان عليه حق المناصحة والانقياد ولنفسه عليه حق الدأب فى فتح باب السعادة ولخلصائه عليه حق التجلى لهم بالود والتسارع اليهم بالبذل فاذا أحكم هذه الأسس لم يبق عليه الا كف الاذى عن العامة وحسن المعاشرة بسهولة الخلق ..))

وفى حكمة ادريس أو نصيحته تلك دعوى قاطعة تخرس المتقولين عليه بأنه كان داعية من دعاة النجومية وعبادة الهياكل ولا شك أن بعض التروى بعد مراجعة هذه الحكمة التى تعد واحدة من آلاف حكمه **لتجعلنا نرجع الى التعاليم التى جاء بها الدين الاسلامى** .. ففى القسم الأول من هذه الحكمة ما يساير معنى ومبنى قوله تعالى **« اطيعوا الله واطيعوا الرسول »** .. وهو ما قصده ادريس بالناموس — **« وأولى الأمر منكم .. »** ..

ثم فيها بعد ذلك دعوة الى مراعاة آداب اللياقة والسلوك وحسن المعاملة وصدق الاخاء بين الناس وكف الأذى عنهم .. وهى فضائل لا يمكن أن يدعو اليها الا داعية من خيرة الفضلاء ...

ومر الزمن واتخذ الكهان من علم ادريس تكأة ودعامة لدعايتهم الغريبة التى امتزجت بالمجوسية فكانت منهم ضمن الفرق العديدة فرقتان ، أولاهما اصحاب الهياكل او الروحانيات ، والثانية أصحاب الأشخاص .

وكان من راى أصحاب الهياكل انه لابد للانسان من وسيط يتوجه اليه ويراه ويكون وسيلة من وسائل تقربه والاستفادة منه ، ومن هنا كان فزعهم الى السيارات السبع وتعرفهم على :

١ — بيوتها ومنازلها ..

٢ — مطالعها ومغاربها ..

٣ — اتصالاتها على أشكال الموافقة والمخالفة على طبائعها ..

٤ — تقسيم الأيام والليالى والساعات عليها ..

٥ — تقدير الصور والأشخاص والاقاليم والامصار عليها ، فتعلموا الخواتيم والعزائم والدعوات ، وعينوا « زحل » مثلا يوم السبت ، وراعوا فيه ساعته الأولى ، وتختموا بخاتمه المعمول على صورته ، ولبسوا اللباس الخاص به ، وبخروا ببخوره ودعواته وسألوه حاجاتهم ، فاستجاب لها.

وكذلك كان الحال فى « **المشترى** » وسائر الكواكب التى كانوا يسمونها اربابا ، ومنها الشمس والسيارات — فتقربوا الى الهياكل تقربا الى الروحانيات ، ثم تقربوا الى الروحانيات تقربا الى الله ، لاعتقادهم بأن الهياكل « ابدان » الروحانيات ، ونسبتها اليها كنسبة أجسادنا الى الأرواح .. ثم استخرجوا منها عجائب الحيل كالسحر والتعاويذ والكهانة والتنجيم. والتعزيم والخواتيم والصور ..

وكانت مدة اقامة « **ادريس عليه السلام** » على الأرض اثنتين وثمانين سنة انتقلت روحه بعدها الى السماء ، وكان مكتوبا على خاتمه :

« الصبر مع الايمان بالله يورثان الظفر » ..

وعلى منطقته « حزامه » الذى يتمنطق به :

« حفظ فروض الشريعة من تمام الدين ، وتمام الدين من كمال المروءة ، والمروءة خاصة الانسان العارف » !!

وكان مكتوبا على مصلاه :

« السعيد من نظر لنفسه ، ومكانة الله عنده وشفاعته عند ربه تنحصر فى اعماله الصالحة » .

ومن أقواله :

« حياة النفس فى الحكمة ومواتها فى الجهل » ..

و « من أراد بلوغ العالم وصالح العمل فليترك من يده أداة الجهل وسيىء العمل » ..

و « حب الدنيا وحب الآخرة لايجتمعان فى قلب أبدا » ..

و « خير الدنيا حسرة وشرها ندم » ..

و « لاتحسدوا الناس على مؤتاة الحظ ، فان استمتاعهم به قليل » .

و « اذا دعوتم الله سبحانه فاخلصوا النية ، وكذا الصيام والصلوات فافعلوا » .

وتولى عصر **ادريس عليه السلام — نبى المصريين** — وترك وراءه رسالة كبرى ووصايا نافعة وعلما عظيما ما لبث أن استغله المضللون من أهل الكهانات ، وجعلوه أداة تصل بهم الى فرض سلطانهم على العامة ، فحولوهم الى الكفران ، واستأثروا وحدهم برسالة ادريس وعلمه ، وكانت رسالته من اقدس الأسفار العلمية عندهم .

* ~~~~~~~~ *



((وقيل يا نوح اهبط بسلام منا ، وبركات عليك وعلى أمم ممن معك ، وأمم سنمتعهم ، ثم يمسهم منا عذاب أليم)) ! !

(الرسالات الكبرى) (سورة هود)

نوح عليه السلام

« انا أرسلنا نوحا الى قومه أن أنذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم » .

(سورة نوح)

غمر البشرية من جديد ظلام الجهل وتفشت الخرافات .. مما بعد بها عن طريق العبادة الحقة ، فأراد الله ان ينير بصيرتهم ويرشدهم الى الحق سبحانه .. فاختار لهم « **نوحا** » **عليه السلام** ، وكلفه بالرسالة ، وبعث به الى قومه لينذرهم قبل أن يأتيهم عذاب اليم ..

وهو نوح بن لامك بن متوشالح بن ادريس بن يارد بن مهلائيل بن قينان بن أنوش بن شيث بن آدم أبى البشر .

جاء نوح قومه بما أثار فيهم الدهشة والحيرة ، اذ دعاهم الى عبادة غريبة ، والى دين لاعهد لهم به ، فقال لهم : ان هذه المعبودات التى يسجدون لها ليست غير أباطيل عجماوات ، لاتستطيع نفعا ولاضرا .. وان ربهم اله واحد ، تنزهت ذاته عن الحوادث .. يراهم ولا يرونه ويسمع دعاءهم ويستجيب لهم فينصر المظلوم ويهدى الضال ويرزقهم المال والبنين .. هو الذى خلقهم واليه مرجعهم جميعا حيث يثيب المحسن باحسانه ويأخذ المسىء بما ارتكب من وزر وآثام ..

وظل نوح يدعو قومه ليلا ونهارا ، فلم يزدهم دعاؤه الا فرارا .. أخذ يرشدهم ويسفه معبوداتهم ويسخر مما يدعون من دون الله .. فما أنصت اليه منهم أحد ، ولا كان فيهم من وعى قوله :

« ياقوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره انى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم »

ياقوم ! ! « استغفروا ربكم انه كان غفارا ، يرسل السماء عليكم مدرارا ، ويمددكم بأموال وبنين ، ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا . مالكم لاترجون

لله وقارا وقد خلقكم اطـوارا (؟ !) الم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقا ، وجعل القمر فيهن نورا ، وجعل الشمس سراجا (؟ !) والله انبتكم من الأرض نباتا ، ثم يعيدكم فيها ويخرجكم اخراجا . والله جعل لكم الأرض بساطا ، لتسلكوا منها سبلا فجاجا » ! !

فسخروا منه وهموا بتركه عندما نصحهم بقوله :

« ياقوم انى لكم نذير مبين ، ان اعبدوا الله واتقوه واطيعون ، يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم الى اجل مسمى ان اجل الله اذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون » ..

وكبر عليهم ان يؤمنوا بذلك الرب الذى تركهـم جميعا واختص نوحا بدعوته ودينه الذى يدعو الى وحدانية وتطهر وتسليم واخلاص ..

وتمسك القـوم بمعبوداتهم الباطلة الوهمية ، « **يغوث** » و « **سواع** » و « **نسرا** » وغيرها مما صنعوا وسموا ! !

ولعل العبادة فى نظر قوم نوح لم تكن غايتها الوصول الى تعرف القدرة العليا والخضوع لها والالتجاء الى حمايتها وسؤالها منع الضر ومنح الخير ، بل كانت فى نظرهم جمع السلطان ونيل الغنى والوصول الى الجاه واذلال الأعناق والتحكم بالجور فى أقدار العالمين ..

ولم تكن الغالبية العظمى من قوم نوح هى التى تنظر هذه النظرة الى دين الوحدانية الذى جاء به ، بل كانت تلك فئة ضئيلة .. ولكنها كانت بسلطانها عظيمة التأثير . ومن هنا وقفت قوتها فى وجه نوح وراحت تحاربه فى السر والجهر ..

تلك كانت الفئة المضللة من طبقة الكهان والمتنبئين والمتمسكين بالسلطان .. لأنهم كانوا يعرفون ان ايمان الناس برسالة نوح ، معناه القضاء عليهم .. ومعناه ايضا انهم سيفقدون كل شىء ويصبحون من عامة الناس !!

اذا .. فعلى أية هيئة كان الدين فى تلك الآونة ؟ !

وماذا كانت نظرة الناس اليه ؟ !

كانت العبادات بالنسبة للناس تنقسم الى قسمين : قسم ينتفع بهذه العبادات ويستغلها لأغراض خاصة واولئك هم الكهان والمترفون ..

والقسم الثانى يخضع لهذه العبادات ويقبلها دون جدال ، واولئك هم العامة ..

ولقــد كان من السهل الهين أن تجـد دعــوة نوح البيئة الخصبة التى تنمو فيها ، لأن البسطاء والضعفاء وهم الســواد الأعظم من النــاس .. يستهويهم دائما حديث انتشالهم من الحضيض واسعادهم .. واشعارهم بأنهم عبيد الله وحده .. وانه سبحانه وتعالى يعطيهم اذا سألوه ولا يعجزه شيء ولا يرد بابه فى وجه سائل ! !

كان من السهل اذن أن تنتشر دعوة نوح ، لولا وجود طائفة **((المستغلين))** الذين وقفوا حجر عثرة فى سبيله وجعلوا الناس يضعون أصابعهم فى آذانهم كى لايسمعوه ولا يؤمنوا بدعوته .. وراح هؤلاء المضللون يخدعون النــاس بالأباطيل وبكل جديد له بريق وزيغ ، فتحدثوا عن آلهتهم التى تبيح الرذائل وتشجع على التمادى فيها ، وتمنح عبدتها سعادة الاحساس باللذة على ظهر الحياة الدنيا .. وتلك ((**ميزة**)) لاتوجد فى دعوة نوح وليس له ان يأتى بها ، لأن دينــه دين الحــق والفضــائل والخير وتأجيــل الجزاء الى ((**الحيــاة الآخرة**)) !!

ولما كانت فكرة ((البعث)) جديدة لدى قوم نوح ويصعب على عقولهم المحدودة أن تتصور ان هناك بعد الموت حياة أخرى يقوم الناس فيها بين يدى ربهم ليجزيهم بما عملوا — فلقد كان من الطبيعى أن ينتصر دعاة السوء فى دعوتهم الى البعد عن ((نوح)) وترك دينه والاستمساك بالوثنية والخرافات !!

ولم يكن الصراع الذى قام بين ((**نوح**)) وقومه صراعا بين الخير والشر فقط .. بل كان صراعا بين حق ، وباطل ، ودين واقعى جاء به رسول من عند الله ، ودين خرافى ابتدعته عقليات شاذة آثمة .

واحتدم الصراع .. وما فترت همة الداعية النبى ، لانه ينفذ مشيئة ربه ويبلغ رسالته .. وها هو ذا يقف بينهم للمرة المئة وحوله فئة قليلة من المؤمنين به من الضعفاء ..

ياقوم !! ((**انى لــكم رسول أمين .. فاتقوا الله واطيعون ، وما اســالكم عليه من أجر ان أجرى الا على رب العالمين**)) ! !

وظل ((**نوح**)) على عهده دائبا على الدعوة فآمن بها من آمن من خيار القوم اذ وجدوا فيها ظل الحقيقة ، فى حين تمسك المشركون بشركهم وأولوه ظهورهم وما استمعوا اليه ..

ويستبد بهم الكفر ، وتأخذهم العزة بالاثم .. ويكبر فى نفوسهم ان يدعوهم نوح الى دين آمنت به فئة منهم كانوا ينظرون الى أفرادها نظرة الازدراء والتحقير وقالوا له :

((مانراك الا بشرا مثلنا ، ومــا نراك اتبعك الا الذين هــم اراذلنا بادي الراى ، وما نرى لكم علينا من فضل ، بل نظنكم كاذبين)) !!

وظاهر من المحاجة ولا شك أن القوم ، أو الفئة ذات المكانة العالية فيهم كانت تنظر نظرة الاشمئزاز الى أولئك الذين آمنوا بدعوة نوح وان هذا الازدراء قد تعاظم فى نفوسهم عندما عرفوا ان هذا الدين سيسوى بينهم أمام الله فلا فقير ولا غنى ولا كبير ولا حقير بل المرجع الأول والأخير فى الميزان يوم الحساب هو صالح الأعمال أو طالحها .

وكما عز على هؤلاء المترفين ان يسوى دين نوح بينهم وبين سائر الطبقات .. كذلك كبر لديهم ان يقال ان من يسبق فى الايمان مفضل على من يلحق به او ان يقال اجمالا أن من صدقوا نوحا واتبعوه مفضلون على جميع الناس ..

وعاد نوح يجيب قومه فى هدوء المؤمن صاحب الحجة القارعة الذى يعترف بأنه ليس من حقه ان يسأل احـدا ممن اتبعوه عن ماضيه ، لأن فى ايمانه ما يقطع بينه وبين الماضى الى الأبد وفيه أيضا ما يطهرهم ويفتح لهم فى سفر الحياة صفحة نقية طاهرة ..

ولا يكتفى القوم بتحقير اصحاب « نوح » والمجاهرة بازدرائهم ، بل يتمادون فى ضلالاتهم الى الحد الذى يتصورون معه ـ وقد فشل الهدف الذى كانوا يرمون اليه من ذلك التحقير وهو صرف نوح عن أولئك الذين صدقوه ـ ان نوحا واحد مثلهم له نفس مطامعهم فيروح بعضـهم يعرض على الرجل عروضا سخية فضحت حقائقهم ، وكشفت أسرار تمسكهم بالشرك ـ وقـد ظنوا انها ستؤثر فى نوح ..

لقد استغلت تلك الفئات المضللة عقول السذج من الناس ، فارتفعوا على اكتافهم الى ماكانوا يتوقون اليه من أمجاد زينها لهم الشيطان ، فأثروا وعلوا واصبحوا سادة مرهوبين فى القوم .. وانهم اليوم لأمام خطر داهم ، اذ بدات تلك الجماعات التى أساءوا استغلالها وامعنوا فى تضليلها وتعذيبها ، تنصرف عنهم الى نوح .. فلا اقل والحالة هذه من أن يساوموا الرجل الذى استطاع بدعوته أن يصرف عنهم عامة الناس ..

وخيل اليهم ان نوحا ، عندما يسمع عرضهم السخى بمنحه مايشتهيه من مال وسـؤدد ، سـيمد اليهم يده ويصالحهم على أن يكونوا شركاء فى الأمر ..

ولكن خاب ظنهم ، حين قال لهم « **نوح** » ، يحاجهم ويفهمهم بعد ان فشلوا فى الوصول اليه عن طريق اسرافهم فى الوعود والتلويح له بالمال الوفير ـ بما هدم صرح امانيهم :

« قال ياقوم ، ارايتم ان كنت على بينة من ربى ، وآتانى رحمة من عنده فعميت عليكم ، انلزمكموها وأنتم لها كارهون ، وياقوم لا اسالكم عليه مالا ، ان أجرى الا على الله . وما انا بطارد الذين آمنوا ، انهم ملاقوا ربهم ولـكنى

اراكم قوما تجهلون ، وياقوم من ينصرنى من الله ان طردتهم افلا تذكرون ، ولا اقول لكم عندى خزائن الله ، ولا أعلم الغيب ، ولا أقول انى ملك ، ولا أقول للذين تزدرى أعينكم . لن يؤتيهم الله خيرا ، الله أعلم بما فى أنفسهم ، انى اذا لمن الظالمين » !!

ووجد المشركون انهم أضعف من ان يجادلوا رجلا قويا بالحق الذى يدعو اليه ، وبمساندة الله وتأييده ! !

حتى لقد خشوا أن طالت المجادلات بينه وبينهم ، أن يزداد انتشار اخبارها فتنتشر معها الدعوة ويعظم شأن نوح ..

وقلب المشركون الأمر على وجوهه كافة .. وما اهتدوا الى حل يرضيهم .. واستشعروا الحيرة ازاء قوة هذا الرجل المعاند ، الذى يريد وحده أن يحطم معتقداتهم ويسخر من ميراث الأجيال ! !

ولقد كان أولئك المترفون المعاندون يعتقدون فى قرارات نفوسهم أن الرجل على حق .. وانهم على باطل ! !

ولكنهم ابوا ان يعترفوا بذلك ، لأن الاعتراف معناه المساواة ، ومعناه انهيار دولتهم .. وكان ان استقر رأيهم على الايقاع بنوح وتحديه أن يبرهن عمليا على صدق دعوته ، ملوحين له بالشر ان هو عجز عن قبول التحدى .. واذا بقائل منهم يقول له :

« يانوح ، قد جادلتنا ، فاكثرت جدالنا فآتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين » ! !

وسخر نوح منهم وكان فى سخريته اقوى حجة من أن يريهم ما كان يعدهم به ان هم آمنوا بالوحدانية ، ولم يهتز نوح لهذا التحدى ، بل ثبت كالطود وقال لهم بايمان النبى :

« انما يأتيكم به الله ان شاء ، وما أنتم بمعجزين ، ولا ينفعكم نصحى ان أردت أن أنصح لكم ان كان الله يريد أن يغويكم ، هو ربكم واليه ترجعون » !!

وعاد من تقدم من المشركين ليعلن تحديهم لنوح وليقفه على نواياهم كى يعرف النهاية التى تنتظره أن هو استمر على دعوته فقال له مهددا :

« لئن لم تنته يانوح ، لتكونن من المرجومين » ! !

وتلقى نوح وعيدهم بجلد وصبر .. ثم رفع طرفه للسماء وهتف :

« قال رب ، ان قومى كذبون ، فافتح بينى وبينهم فتحا ، ونجنى ومن معى من المؤمنين » !!

وجاءه الوحي من ربه يطمئنه ويثبت فؤاده ويرسم له طريق النجاة :

« واوحى الى نوح انه لن يؤمن من قومك الا من قد آمن . فلا تبتئس بما كانوا يفعلون ، واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ، ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا انهم مغرقون » !!

واقبل نوح على الفلك يصنعها .. وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه ، قال :

« ان تسخروا منا فانا نسخر منكم كما تسخرون . فسوف تعلمون ، من ياتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم » !!

وظل نوح فى جهاده حتى أرخى الله العنان للمشركين .. اذ اقتضت ارادته تعالى ان يستبدل هذا العالم الفاسد بعالم جديد ..

* * *

لقد ابطل الله حجج الانسان وذرائعه واقام عليه الحجة واخذه بالبرهان البين فأرشده الى **« باب النعيم »** ووضح له مسالك العبادة وانار له سبلها ، ودله الى الله الحق وبعث له من لدنه رسلا يرشدونه الى الهدى .. فما آمن الانسان ولا رضى ان يعترف بالحق وهو يعلم انه حق ، وتمسك بالضلالة وهو على ثقة من انها ضلالة عمياء ! !

وحان الحين الذى ارادته السماء ، وجاء امر الله الى الأرض وفار التنور .. فقال سبحانه لنبيه نوح .. وقد فرغ من صنع السفينة :

« احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك ، الا من سبق عليه القول ، ومن آمن ، وما آمن معه الا قليل » ..

وما كاد نوح ومن تبعوه يستقرون فى الفلك حتى هبت العاصفة .. وزمجر الرعد .. وبرق البرق وتفتحت ابواب السماء بماء منهمر .. وتفجرت الأرض عيونا ، فالتقى الماء على أمر قد قدر ..

وارتاحت نفس نوح وقد أصدقه الله وعده واستجاب لدعائه :

« رب لاتذر على الأرض من الكافرين ديارا ، انك ان تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا الا فاجرا كفارا » ! !

وكان الطوفان الرهيب الذى غمر الأرض ومن عليها .. حتى لم يبق فيها شبر يابس !!

وتعالى ضجيج القوم يصرخون ويستغيثون ، وهم يفرون الى الجبال والربوات ..

وكان ابن نوح بينهم وهم يتلمسون الملاذ والنجاة .. وهيهات ، لا ملاذ ولا نجاة ، اذ سبقت ارادة الله وكان الفناء قد كتب على المشركين ! !

وسارت السفينة باسم الله مجراها ومرساها .. وتفقد نوح ولده ، فلم يجده .. وخفق قلبه حبا واشفاقا على ولده حين رآه يجرى مع المشركين فى معزل عن المؤمنين فرارا من الغرق .. فناداه بصوت يكاد يخنقه التأثر والحنان :.

« يابنى : أركب معنا ، ولا تكن مع الكافرين » ! !

وجاء صوت الابن العاق وهو يواصل جريه بعيدا عن السفينة ويلوح لأبيه بعلامة العصيان ، ويصيح :

« قال سآوى الى جبل يعصمنى من الماء » ..

ودمعت عينا نوح وهو يقول لولده :

« لا عاصم اليوم من أمر الله .. الا من رحم » ! !

ولكن الولد تمادى فى فراره ، فرفع نوح طرفه الدامع الى السماء ونادى ربه الذى وعده بنجاة أهله جميعا :

« رب ، ان ابنى من أهلى ، وان وعدك الحق . وأنت أحكم الحاكمين » !!

وسمع نوح جواب الله على سؤاله :

« يانوح ، انه ليس من أهلك ، انه عمل غير صالح فلا تسألن ما ليس لك به علم ، انى اعظك أن تكون من الجاهلين » !!

وسجد نوح لربه وقد تولته رجفة خشى معها أن يكون قد استحق غضب الله عليه ، فراح يتوسل فى ذلة وضراعة :

« قال : رب انى اعوذ بك ان اسالك ماليس لى به علم ، والا تغفر لى وترحمنى أكن من الخاسرين » !!

ونظر نوح الى حيث كان يجرى ولده فى الاتجاه المضاد لسير السفينة .. فاذا هو قد بعد حتى لايكاد يرى .. **« وحال بينهما الموج فكان من المغرقين »**

« وقيل : يا أرض ابلعى ماءك !! ويا سماء اقلعى !! وغيض الماء وقضى الأمر واستوت على الجودى . وقيل : بعدا للقوم الظالمين » !!

واذا بالأرض تجف وقد طهرت ظاهرا وباطنا من كل شرك بالله ومشرك ..

و **« قيل يانوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى امم ممن معك ، وأمم سنمتعهم ، ثم يمسهم منا عذاب اليم » !!**

ونزل نوح ومن معه من انس ووحش وبهيم وطير — من كل حى زوجين اثنين .. واستقروا على الأرض ليعمروها ثانية بخلق طاهر جديد ، يعبد الله الواحد ويفعل الخير ويجتنب الشر ، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر .. حتى يشاء الله .

وشاءت ارادة الله أن يكون لأبنــاء نوح فوق الزعامة الدينيــة زعامة زمنية تطورت مع الزمن واستنارت الأفكار فاستحالت ملكية وراثية مطلقة فيهم وفى أبنائهم من بعدهم ..

« ونجيناه وأهله من الكرب العظيم ، وجعلنا ذريته هم الباقين ، وتركنا عليه فى الآخرين ، سلام علي نوح فى العالمين ، انا كذلك نجزى المحسنين ، انه من عبادنا المؤمنين ، ثم أغرقنا الآخرين ، وان من شيعته لابراهيم » !!

* * *

« ذكر الكتاب الكريم أن نوحا عليه السلام مكث فى قومه الف ســـنة الا خمسين عاما :

« ولقــد أرسلنا نوحا الى قومه فلبث فيهم الف ســنة الا خمســين عاما » .

. وذكرت التوراة ان آدم عمر تسعمائة وثلاثين سنة .

وذكرت أيضا ان الطوفان ابتدأ فى السنة الأولى بعد ستمائة من ولادة نوح عليه الســلام ، وذكرت كثيرا من الأنبيــاء وغيرهم وانهم عمروا عمرا طويلا ـ ونحن لانجد معمرا يعمر مثل هذا العمر أو نصفه او ربعه من زمن طويل . وهؤلاء الفراعنة فى مصر نجد أجسامهم كأجسام اهل هذه الأيام ، وأعمارهم لا تختلف عن أعمارنا ، وقد مر لهم أربعون قرنا او اكثر فكيف يكون ذلك ؟ !

والذى أراه أن لا مانع من ان يعمر آدم ومن قرب منه أعمارا طويلة لأن النوع الانســانى كان فى بدء نشــأته لم يحمــل هموما ولم تعتوره الأمراض المختلفة ولم تنهك قوته الأطعمة التى لايقدر على هضمها فكان من المعقول ان يعيش طويلا . وأما نحن وامثالنا ممن كانوا قبل أربعين قرنا فقد جئنا بعد ان انهكت النوع الانسانى الأمراض وطحنته الأدواء فالواحد منا عصارة لآلاف الأمراض التى انتابت آباءه وأمهــاته فلم تعد قوانا تتحمــل العمر الطويل .

وعند العلماء بالطب والأحوال الاجتماعيــة ان الانسان قــواه محدودة والحياة العريضة تستنفدها بسرعة بخلاف الحياة الضيقة فانها تكون طويلة لقلة ما يستنفذ من قوى الأجسام بتلك الحياة .

فنحن الآن لا نعيش عيشة البساطة التى كان يعيشها آدم ومن قرب منه .. بل نتفنن فى أنواع الطعام ولذائذ المعيشة بما ينهك قوانا فلا غرابة ان تكون أعمارنا قصيرة وقد اجتمعت عليها الأمراض المتوارثة والتبسط فى العيش .

ويقول بعض الأطباء الألمان :

ان الانســان هذا الزمــان يمكن أن يعيش ثلاثمائة سـنة اذا أتبـع نظاما خاصا .

ورأى آخر يقول :

ان الأقوام الأولين كانوا يعدون كل شهر عاما . فاذا قالوا الفا ومائتى سنة . فانما يعنون مائة عام من اعوامنا هذه (١) .

وقد أشار الى ذلك المعرى بقوله :

ورووا للمعمـرين امــورا لست أدرى ماهن فى الشهور
اتراهم فيما تقضى من الأيـــام عـدوا سنيهم بالشهور
كلمـا لاح للعيـون هـلال كان عاما لديهمو فى الدهور
هكذا ينبغـى والا فان العقــــل يثنى فى حالة المبهـور

وشاءت الظروف بعد سنوات عديدة من استقرار الحياة تلك وتشعب سبل المعيشة وكثرة الناس واختلاف مشاربهم ـ ان سار من سار من هؤلاء الناس فى مشــارق الأرض ومغاربها ، **ليضـعوا اسس قيام الأمم المتعـددة والشعوب المختلفة التى زخر بها سفر الانسانية .**

ولقد كان هؤلاء الرواد الأول يحملون فيما حملوا مشعل الدين ، ويعرفون ويقرون بأن يكون الها واحدا فردا صمدا لا شريك له فى مـلكه ، وانه جبار ذو بطش شديد والويل لمن يعصاه !!

ولما كان الاقوام الرحل ينتجعون الكلأ والماء حيثما وجدا ليضعوا لانفسهم حياة مستقرة هادئة .. ولما كانوا قد تعلموا فى البلاد التى خرجوا منها أن انعم الحياة واطيبها ماكانت الى جوار نهر يروى ظماهم وظمأ اراضيهم ، فقد استقروا ، بعـد تركهم نهرى ((**الدجلة والفرات**)) حـول ((**وادى النيـل**)) وسار بعضهم قدما فى قلب آسيا .. حتى وصلوا الى ((**وادى السند**)) فى حين سار بعضهم الآخر وراء المراعى حتى آسيا الى أوروبا وغيرهما من البقاع الخصيبة ..

ومر الزمن وبدأ ينقضى ذلك الجيل القلق غير المستقر وهو يجوب الآفاق ويأتى بعـده جيل جديد عرف الاستقـرار وراح يجنى الثمار التى وضعها أولئك الأوائل ..

وتكاثر الناس .. وتشعبت الأسرة الى أسر عديدة ، وراحت هذه الكثرة من الرجال والنســاء تنتشر هنا وهناك دون أن تنسى الرابطـة الأولى التى تربطها بالأسرة الكبرى ..

وشهد العالم لونا جديدا من الوان الحياة ..

---

(١) قصص الانبياء : عبد الوهاب النجار

وشغلت ظروف الحياة هذه الأسر العديدة عن مراسيم العبادات ، فما عادوا ينقطعون لها ويشغلون بها كل أوقاتهم فأصبحت عملا خاصا لطائفة خاصة منهم تصدرت للزعامة الدينية وعرفت أسرار الطقوس على اختلاف ألوانها فاتقنتها وانقطعت لها فتحول الناس عن هذه الناحية الى حد ما .. وراح كل فرد يكد ويشقى من أجل عيشه وعيش بنيه ومن يعول ..

ومر الزمن .. وتضاعف عدد الناس وكبر شأن الاسر العريقة فى البقاع التى حلت بها ، واصبحت لها عصبيات وقوة ومكانة تختلف باختلاف طبائع الاقاليم .. **ونسى الناس أمور الدين أو كادوا .. وتركوا مراسيمه وتقاليده الى الطائفة التى اتخذته مهنة فلم تلبث أن حورت فى الطقوس حسب أهوائها ووفق ارادتها ومصالحها** .. فاذا بالدين ينحو نحوا جديدا بعيدا عن الجادة ..واذا بالبيئة تؤقلمه وتجعله يسير معها وفق ألوانها ومزاياها وما اشتهرت به ..

وكما بدلت البيئــة وغيرت فى الدين ، كذلك فـرضت على الناس الوانا ترتضيها من الوان الحياة وطـرائق العيش ، فعينت لهم ما يجب عليهم أن يزاولوه من عمل وما يجب أن يمارسوه من أوجه النشاط المختلفة ..

وكان من الطبيعى أن تكون الزراعة عمل هؤلاء الأقوام الذين تجمعوا حول وديان الانهار ، وعمل بعضهم فى التجارة وبالغ آخرون فى نشاطهم واستغلال ذكائهم فراحوا يحاكون الفلك التى حمل فيها نوح بذور هذا العالم الجديد ، وأنشأوا على غرارها سفنا عـديدة استعمل بعضها للانتقـال والتجـارة ، والبعض الآخر للصيد ..

وخلال هذا النشاط التكويني الجرىء ، لم ينس الناس عباداتهم ، لأن الانسان مدفوع بطبعه على التعلق بقوة عظمى تحميـه وترد عنه غـوائل الزمن وعواديه ثم أن نفسه التى بين جنبيه نفس قلقة ، ثائرة ولكنها رغم ثوراتها تتعشق الهدوء والاستقرار وتحب الركون الى السـلام فى ظل رب عظيم قادر لا يعجزه شىء !!

***

« وعند البابليين قصـة مفصلة عن الطوفان ، ولكنها فى الواقع قصـة متواترة شاملة توجد بقاياها فى المأثورات القـديمة من امريكا الجنوبية الى الهند ، فيروى أهل اقليم كندريماركا بامريكا الجنوبية : أن امراة الرجـل المقدس « بوشيكا » أولعت بالسـحر وأصغت الى وسـواس الشيطان ، فاخرجت نهر « فـونزا » من مجراه وأغرقة الاقليم كله بانسـانه وحيوانه ونباته ، فلم يعتصم منه الا من تبع بوشيكا الى الجبال . ثم عاد بوشـيكا فجمع قومه وعلمهم عبادة الشمس وأسلم الروح .

وقصة الطوفان عند المكسيكيين المعروفين بالشيشميين محتواها : أن العصر الأول من عصور الخليقة ــ وهو المسمى عندهم بعصر آتوناتيو ــ أى عصر شمس الماء ــ قد انتهى بطوفان جارف نجا منه رجل واحد اسمه تزبى وامرأته ششكتزال ، وكانت نجاتهما على زورق مصنوع من خشب الصفصاف ..

ويروى أهل بيرو قصة شبيهة بقصة المكسيكيين .

* * *

وأهل فريجية بآسيا الصغرى يروون قصة الطوفان ويجعلونها فى زمن ملك من ملوكهم يسمى ((ناناشس)) ، ويسمون البلد الذى لجأ اليه الهاربون من الطوفان باسم ((كيبوتوس)) ــ ومعناها السفينة فى لغة الفريجيين .

* * *

وقد ترجم ماكس مولر قصة عن السنسكريتيه خلاصتها : ان ناسكا دعا بماء فى الصباح ليغتسل ، فوثبت له من الماء سمكة وقالت له : احفظنى فاننى سأحفظك ، فسألها : ومم تحفظيننى ؟ قالت : من الطوفان الذى سيغرق كل هذه الخلائق .. وسيأتى الطوفان يوم أكبر ، فاعلم يومئذ ان الساعة قد ازفت وابن لك سفينة واتخذنى دليلا للنجاة .

* * *

ويعود الأغريق بقصة الطوفان الى عهد أوجيج ملك اتيكا الأول ، ولعل أسمه مأخوذ من كلمة أوجا السنسكريتية بمعنى الطوفان ، وعندهم : ان الماء علا حتى بلغ السماء ، فلاذ الملك وخاصة أهله بسفينة صنعها فنجا عليها من الموت .

وفى رواية اغريقية أخرى : ان ((زيوس)) غضب على البشر فاغرقهم ، وعلم برجيوس بما انتواه فنصح لابنه دوكاليون ان يصنع السفينة لينجو عليها ، فصنعها ونجا عليها مع زوجته بيرها الى جبل البرناس .

ويقول اللتوانيون فى قصتهم عن الطوفان : ان الاله برمزيماس غضب على الدنيا فارسل عليها ماردين همـا ((واندو)) و ((ويجاس)) أى المـاء والريح ، فغرق كل من فى الأرض الا من الهمه الاله أن يعتصم بالجبال .

* * *

وقصة البابليين كما نقلها المؤرخ الاغريقى بيروسس قديما : تزيد على قصة الغرق والنجاة بقصة ألواح التشريع ، وخلاصتها ان اكزيسترس الذى نجا بالفلك احس قرب الطوفان ، فدفن فى الأرض الواح الشريعة ، وتفقدها

ابناؤه بعد هبوط الماء فاستخرجوها من مكانها .. فهى أساس النظام فى دولة البابليين .

***

وتستند قصة الطوفان عند البابليين الى تقدير من تقديرات علم الفلك ، او على الأصح علم التنجيم ، يزعمون فيه : ان العالم تتعاوره فى الآباد الطوال ادوار الطوفان وأدوار الحريق ، ويختلفون فى تقدير هذه الأدوار بالسنين الكونية ولكنهم يحسبون السنة الشمسية كأنها ثانية بالنسبة الى اليوم العالمى ، أو كأنها ثانيتان بحسابنا ، لانهم كانوا يقسمون النهار والليل الى اثنتى عشرة ساعة لا الى أربع وعشرين ، ويحسبون السنة العالمية كأنها يوم فى السنة الكونية التى تقع أدوار الفناء بحسابها . وقد اختلفوا كما أسلفنا فى تقدير مدة هذه الأدوار ، ولكنهم يقولون ان الغرق الكونى يحصل كلما اجتمعت الأفلاك السماوية فى برج الجدى ، وان الحريق الكونى يحصل كلما اجتمعت فى برج السرطان . وهنا يقع الخلط بين حساب الآباد وحساب الفصول الأرضية ، كما لاحظ العلامة جومبيرز مؤرخ الفلسفة اليونانية الكبير ، فانهم وهموا ان الحريق الكونى من حرارة الصيف ، وان الغرق الكونى من برد الشتاء كما يقعان فى تقلبات الفصول .

وعموم قصة الطوفان يثبت وقوع الطوفان وان تقادم به العهد فتعددت به الروايات .

وقد طالت المقارنات كما أسلفنا بين مصادر العقيدة عند الاسرائيليين ومصادرها عند شعوب بابل ومصر وفارس والهند على التخصيص ..

فبعض علماء المقارنات يرى : ان البابليين نقلوا قصة الخليقة وقصة الطوفان عن قوم ابراهيم عليه السلام ، لأنه نشأ فيهم قبل الميلاد بالفى سنة على التقريب .

وبعضهم يرى على نقيض ذلك ان هذا النقل جائز فى المأثورات التى انقطعت اسنادها وأمكن أن تبدأ عند البابليين والاسرائيليين على السواء ، ولكنه غير جائز فى المأثورات التى تسلسلت مما قبلها فى عقائد بابل وفارس(١)

ونحن هنا لاتعنينا مقارنات العقائد الا من جانب واحد ، وهو جانب التطور البشرى فى ادراك صفات الله ووحدانيته ..



---

(١) الله — للعقاد .

هود وصالح

« كذبت ثمود وعاد بالقارعة ، فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية » !!

(سورة الحاقه)

تابع الناس رحلتهم فى الأرض وراحوا يعملون جاهدين فى سبيل البقاء والاستقرار واتسعت نظرتهم ، وتعجلوا الغد ، فعملوا من أجله وملأت عقولهم أخيلة المستقبل ، فسخروا جهودهم لتدعيمه وتأمينه .. ليس لهم وحدهم . بل لبنيهم وحفدتهم ، ومن سيخلفهم من أقوام بعدها أقوام .

وشغلت مظاهر الحياة الناس حيثما كانوا .. شغلتهم عن أسرار الوجود ، وجعلهم التكالب على هذه الحياة ينسون كل شىء الا ارواء ظمأ النفس ورد لهفتها واشعارها بالطمأنينة التى تنشدها ..

واحس الانسان العاجز أنه قوى قادر يستطيع بعمله المضنى وكفاحه الشاق أن يؤمن مستقبله ويحمى نفسه .. وارتاح الى هذه الفكرة وركن اليها وراح يرسم للغد على ضوء ما وصل اليه من علم ومعرفة .

وهكذا انصرف الانسان عن حقيقة الوجود ، وتناسى الحكمة من خلقه لقد اراد الله أن يكون خليفة على هـذه الارض ليعمرها ويبعث فيها صنوف الحياة ، لا لاشباع خيلائه ، ولا للتسلط والسيطرة .. بل من أجل تحقيق الحكمة التى تختفى وراء معنى الخلافة كما أرادها الله ..

لقد أراد الحق سبحانه وتعالى أن يكون الانسان خليفة فى الارض يعمل للمجموعة ويربط قدره بأقدار من حوله من الناس ، يشعر بشعورهم ويحس باحساسهم ، ويفكر فى جلب الخير لهم بالقدر الذى يفكر فيه فى ذاته وفيمن حوله من الناس .

ولكن طبيعة الأثرة الكامنة فى أعماق النفس البشرية غلبت ذلك الانسان واضلته وجعلته يتنكب طريق الخلافة الحقة ، ويتبع طريق التسلط ويسعى الى التحكم والاستبداد ، لا لشىء الا لانه اتجه بحواسه كلها الى نفسه ، فأحب هذه النفس وقدس رغباتها تقديسا بلغ به حد العبادة ..

ولما كانت النفس مستقر الشيطان دائما فان حب الانسان لها وطاعته العمياء لمطالبها ، جعله يتفانى فى حب الشيطان رمز الشر ويعمل على أرضائه بارضاء نفسه .

ولما كان الشيطان يأمر بكل ضار مهلك .. ولما كانت الحرب بينه وبين ابناء آدم مستمرة على كر العصور فانه وفى سبيل اثبات جحود الانسان وكفرانه فقد تفنن فى الاستحواذ على بنى البشر وجرهم الى حظيرته ليثبت للقدرة انهم حقا لا يشكرون .

وهكذا وأمام قسوة ذلك الصراع المرير بين الانسان ونفسه ضاعت القيم ، وضلت الفضائل طريقها الى النفوس .

وعالم هذه شريعة أهليه . عالم فاقد اللب مظلم البصيرة كافر بأنعم الله اتبع هواه وسار فى ركب النزوات حتى وصل الى حيث أراد له الشيطان.

- ولما كانت قبيلة « عاد » قوم هود .. من أقدم الأمم وجودا فى الارض من بعد قوم نوح عليه السلام — كما جاء على لسان هود لقومه :
« .. واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح » ! !

وقوم عاد شعب بلغ فى الحضارة شأوا لم يبلغه شعب فىالوجود خلال تلك الحقبة المتقدمة من أحقاب التاريخ . اذ أعطاه الله النعم الجزيلة .. ومنحهم الخير الوفير .. ومن عليهم بعطاياه .. فأقاموا الدور الشامخة والعمائر الفخمة . وكانت لهم حدائق وجنات .. وتميزت دورهم بالرحابة والروعة .. وكانت لها أعمدة سامقة شماء تفننوا فى تزيينها وتجميلها .. واعتبروها دعامات للخلد والبقاء .

ونظر قوم عادهؤلاء الى جناتهم الوارفة ودنياهم البالغة الروعة فامتلأت بالكبرياء قلوبهم .. وراح كل منهم يخال نفسه السيد القادر الذى لا سيد له ولا رقيب عليه .. فانصرف الى لهوه ، وراح فى طيش ونزق يروى ظمأ النفس من كل شر وفساد .

ولكن .. ولما كانت الطاعة للقدرة العليا صفة كامنة فى اعماق النفس البشرية .. تخضع لسلطان الروح المطلق ..

ولما كانت الروح فى ذاتية جوهرها قبس من روح الله .. فقد بدات الروح القلقة توحى للانسان بأن ينظر الى الحقائق وينقصى الاسرار .. ويتجه بقلبه وحواسه الى خالقه ..

وحار قوم عاد فى امرهم .. واستشعروا العجز امام سلطان ذلك الايحاء القدسى .. وجعلوا يتساءلون عن ذلك المعنى العظيم الذى اشارت اليه الروح .. وأرادوا أن يصلوا الى معرفة الله ..

ولما كان قوم عاد قوما جبابرة تحكمت المادة فى عواطفهم وتفكيرهم فان عقولهم قصرت عن تفهم ما تعنيه ايحاءات الروح وراح كل منهم يتصــــور الذات الكبرى .. حسبما شاء له هواه ..

وضلت التصـــورات كلها .. وراحت العقول فى متاهات من الشـــك والريب .. وطغى الحس وتحكمت الانانية .. وصور الشيطان لقوم عاد أنهم ما دامت لهم تلك القدرة التى مكنتهم من خلق الجنات وتفجير العيون واقامة الهياكل وعالى الدور .. فانهم قادرون على أن يتخطوا أسوار الطبيعة ويصلون بعقولهم الى ما وراء الحجب .. ويتخيلون القدرة العظمى .. بل ويصنعونها بأيديهم ، كما صنعوا هذه العجائب والعمائر والحـدائق ذات النخيل والأعشاب .

ووجدت الكهانات فرصتها وميدانها .. واستطاع الشيطان أن يكون له حزبا من أشرار الناس ادعوا القدرة على كشف الغيب والصلة بالذات ، صلة جعلتهم موضع الأسرار العليا .. وانهم وحدهم من يوحى اليهم .. وانه ليس على الناس الا أن يطيعوا ويخضعوا دون سؤال .

وتعددت الكهانات .. ومع تعددها تعددت الأرباب .. وكثرت المعابد وصار الناس فى حبها والايمان بها أحزابا بعد أحزاب .

ولقد كان عجيبا أن يسجد الجبابرة من قوم عاد للحجارة التى صنعوها بأيديهم .. وبلغ من اسفافهم فى الجهالات أن راحوا يسألون هذه الاصنام أن توليهم الخير ، وتدفع عنهم الشر ، وتهبهم القوة ، وتمنحهم الجاه والحياة .

ومرت حقب بعدها حقب .. وتعاظم امر الشيطان .. وعلت رايات تلك الأرباب .. وضل الناس ايما ضلال . وخيمت ظلمـات الجهـل .. واصبح الناس بلا أفئدة ولا عقول ، ينساقون وراء الشيطـان .. ويلبون اشارة الكاهن .. ولايعرفون لهم ربا غير الصنم العاجز .. وانقطعت صلتهم بسلطان الروح وقد حجبه الجهل عن عيونهم شفافيتها وما تشـع بها من أنوار ..

وحكم القوم طاغية بعد طاغية .. وتولى افســادهم كاهن بعـد كاهن واصبحت الدنيا أمام عيونهم بقعة يظلها لواء الحاكم الطاغية .. وجـلال الكاهن .. وقدسية الصنم .

وتوارث الناس الجهالات وعبادة الصنم حتى لقد أصبح هذا تقليدا يتبع على كر الزمن ، فى خضوع رتيب لطقوس غامضـــة ، كانت من جملة ما أورثهم اياه الشيطان ، الذى ما عرفوا معبودا سواه .

ولطالما ضجت بعض العقول المستنيرة وقد اثقلها وقر الذنوب وحمولة الأوزار ، وراحت فى فترات الصمت والخلوص تسائل نفسها : أى ضــلال

هذا الذى نعيش فيه ؟ ! وهذه الحجـارة العـاجزة التى تؤدى لها طقوس الخضوع ونقرب القرابين .. هذه الحجارة .. هل لديها القدرة حقا ؟ !

وارتقى العقل البشرى الى درجة سامية بعض الشىء .. وراح حفنة من أهل عاد يتدبرون الوجود ، وينظرون فى جلال الملكوت وبديع صنع الله وهم يعجبون ويتسـاءلون : أيمكن للحجارة أن تبسط هذه الأرض وتنبت فيها من كل ثمر بهيج ، وهل هى قادرة حقـا على انزال المطر وتفجير الينابيع واجراء المياه بالزيادة والنقصان .

ثم .. هذه السماء العالية وما حوت من آيات .. من شموس وأقمار ونجوم وسيارات ، من رفعها بغير عمد ، وهل تعيش فيها أقوام لهم مالقوم عاد من عز ومتعة وسلطان .

واذا كان هناك عالم غير عالمهم هذا ، فأى معبودات يعبدها الناس هناك .. وهل يسجدون للصنم ، ويخضعون للطاغية أو يطيعون الـكاهن طاعة عمياء .. ؟ !

وبدأت الحيرة تغلب العقـل وتعبث به ، وحارت النفس .. وبدأ من جديد يعلو سلطان الروح وتظهر شفافيتها .

واستجاب الله القادر للنفوس القلقة .. وبعث فى قوم عاد رجـلا من أواسطهم واكثرهم صلاحا اسمه ((هود)) .

وخرج هود بدعوته علانية واذا بصوته القوى يدوى ذات يوم فينصت له القوم فى ذهول ، وقد راعهم أن سمعوه يردد فى صدق مالم تسمعه أذن من قبل .. لقد كان يدعوا الى عبادة الله .

وتساءل قوم عاد فى ذهول : وما الله ! !

وجاءهم الجواب من هود يقول لهم : انه هو الحق سبحانه وتعالى .. وهو المعبود الأوحد جزيل النعم .. واهب الحياة والخير والبركات .. هو الله الذى خلق فسوى .. والذى قدر فهدى .. والذى اخرج المرعى فجعله غثاءا احوى ..

وعاد الظامئون الى المعرفة يسالون : واين الله ؟ ! وكيف نعبده ؟ ! وما هى أوامره ونواهيه .

وقال أعوان الشيطان : هذا ضلال ، وانها لثورة يجب ان تخمد ففيها كفران بالعرف ، وخروج على التقاليد ، وعصيان للصنم المعبود . وفى عصيانهم للصنم المعبود هذا .. لايعنى غير شىء واحـد هو : الخروج على جـلال الطاغية ، وعصيان الكاهن المتحكم فيهم .

وبدا الصراع قاسيا .. واصبح قوم عاد امام دعوة هود حزبين متنافرين

.. كثرة تتبع الأهواء وتؤمن بالباطل .. وقلة تقف الى جانب هود فى تحفظ من تخشى سلطان الكثرة الغالبة التى يحكمها الشيطان .

وطال الجدل ، وتشعبت مناحيه ، واحس عبدة الصنم ان هذا كله لن تحسمه الردود والمجادلات .. وأن الحكمة توحى بضرورة القضاء على اولئك الكافرين .

وبدات ثورة هود الدينية تأخذ شكلا جديدا .. هو الثبات على المبدأ لانه الحق ، وأن السير فى طريقه فريضة مؤكدة ، مهما كانت العواقب ، ومهما كانت التهديدات .

لقد نادى هودبالاسلام .. دين الفطرة.. وأمر قومه بأن ينبذوا الشرك وعبادة الصنم والأشخاص . ويسلمون وجوههم الى الله الواحد القهار ، وراح يملى عليهم الوحى ويبصرهم بآيات الله وهو يقول :

« يا قوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره ، أن أنتم الا مفترون » ! !

وصاح الجهلة فى حنق ، يلعنون هودا ومن تبعوه ، وراحوا يشيعون عنه الشائعات ، ويقولون انه انما يدعو الى تسويد نفسه عليهم وان محاولته التقليل من هيبة اربابهم .. بل ان جراته على انكار هذه الأرباب ، والدعوة الى اله واحد .. مؤامرة يرمى من ورائها الى الاتجاه اليه وحده .. دون الطاغية والكاهن المعبود .. ليتصرف بعد هذا فى أقدار قومه كيفما شاء.

ورأى القوم أن يأخذوا هودا بالخديعة والتمنيات وراحوا يساومونه ويعرضون عليه ثمن السكوت عنهم ، والانصراف عن تسفيه اربابهم بأن يجزلوا له العطاء .. ان هو تركهم وما يعبدون ..

وارتفع صوت هود مرة اخرى يقول :

« يا قوم لا اسالكم عليه اجرا ان أجرى الا على الذى فطرنى افلا تعقلون ! ! ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا اليه ، يرسل السماء عليكم مدرارا ويزدكم قوة الى قوتكم ولا تتولوا مجرمين » ! !

واستعز القوم بباطلهم .. واوحت اليهم شياطينهم أنهم لو سلموا لهود بما قال ، وتركوه وشأنه لاتسعت هوة الخلاف ، ولتفرق أمر العشيرة .. وضاعت هيبة قوم عاد بين الشعوب .

وخرج طاغية القوم على جلال عزلته .. وجمع شياطين الانس ممن كانوا يسيطرون على عقول الناس بالباطل ، ودعى اليه الكهنة ، ورءوس دعوة الشرك .. وطالبهم بعمل حاسم ، وقال لهم .. انهم بتركهم هودا يصول ويجول بين العوام لينشر فيهم دعوته فانهم يخونون الامانات .. ويكفرون بانعم الصنم معبودهم الكبير .. وانهم لكى يظهروا اخلاصهم لهذا

المعبود الذى يستمدون منه سلطانهم عليهم ان يخرجوا الى هود ليجادلوه علانية أمام الناس .

وخرج رءوس الشرك والضلالات من عزلتهم .. وراح الباطل يجادل الحق .. وانصت الناس الى عجزة يصرون على الضلال :

« قالوا يا هود ما جئتنا ببينة ، وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك ، وما نحن لك بمؤمنين » ! !

واستمع اليهم هود ساخرا من باطلهم الضعيف .. وارتفع صوته يعلن أربابهم العاجزة داعيا الى الحق والايمان بالله .. معددا أنعم الله الذى خلقهم ، وعجز أصنامهم التى صنعوها بأيديهم .

وثار رءوس الضلال لأن هودا قد عاب أربابهم وعيرهم بعجزها وراحوا يقولون :

« أن نقول الا اعتراك بعض آلهتنا بسوء » ..

وعادوا يحاولون خديعته بالامنيات ويساومونه على الصمت ويسالونه فى الحاح أن يطيعهم ، ويؤمن بأربابهم وله الجزاء الأوفى ، وما يشاء من النعم والخيرات .. واذا بالرسول الثابت العقيدة يفند ادعاءهم الكاذب . . ويسخر من عروضهم الزائفة .. مؤكدا لهم انه ليس غير صاحب دعوة .. جاء بها يهدى الناس الى سبل الرشاد غير طامع فى سيادة أو جاه أومال..

وارتفع صوته بأن :

« قال انى أشهد الله واشهدوا انى برىء مما تشركون ، من دونه فكيدونى جميعا ثم لاتنظرون ، انى توكلت على الله ربى وربكم ، مامن دابة الا هو آخذ بناصيتها ان ربى على صراط مستقيم » .

وانصرف عنه القوم حانقين ، وقد شعروا بالعجز أمام ايمانه .. واخذوا يرمونه بالسفاهة والكذب .

قالوا « انا لنراك فى سفاهة وانا لنظنك من الكاذبين » ! !

وعز على هود أن تتطور الدعوة الى هذا الحد وأن يعمى الحقد بصيرة الكافرين .. ورأى أن يعاود ملاينتهم وتذكيرهم بأنعم الله ليكفوا عن طغيانهم ويعودون الى جادة الحق والصواب .

قال « يا قوم ليس بى سفاهة ، ولكنى رسول من رب العالمين ، ابلغكم رسالات ربى وانا لكم ناصح أمين . أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم » ؟ !

وأبى حاكمهم أن يكون من المفلحين .. واستعز بكفره وأمر زبانيتـه بالاسراف فى تعذيب المؤمنين .. وتولى ومن اتبعوه عن دعوة الحق التى ما قصر هود عنها .. ولم يفت فى عضده الارهاب والتعذيب .. وعلاصوته القوى يقول انه برىء مما أشرك به قومه .. وجعـل ينذرهم بعـذاب واقع عليهم :

« فان تولوا ، فقد أبلغتكم ما أرسلت به اليكم ، ويستخلف ربى قوما غيركم ولا تضرونه شيئا ، ان ربى على كل شىء حفيظ » !!

وكان هذا هو الانذار النهائى للكافرين .. الذين ما تصوروا أن تميد بهم الارض .. وتأتيهم الساعة بغتة .. وعادوا ينظرون فى اعجاب الى بديع ما صنعوه : جنات وعيون .. ودور شاهقة .. ومعابد فخمة .. وارباب هم الذين خلقوها .. وهم سادتها .. وليس لهذه الارباب عليهم من سلطان ورغم هذا فانهم يحسون انها ترعاهم وتحميهم ، وامتلأت نفوسهم بالثقة من قدرتهم وآمنوا انه لاتوجد قوة غير قوتهم وان الله الذى ينادى به هود لا سلطان له عليهم أبدا .. ما داموا لا يعترفون به ! وعلى هذا فلن يستخلف قوما غيرهم ، وسيبقون حيث هم .. ولن يبقى هود ولا الذين اتبعوه .

واعاد التاريخ نفسه .. انها نفس قصة البشرية الآثمة .. قصة الصراع بين الخير والشر .. بين الحق والباطل ، بين الايمان والكفر .. لقد ضلت البشرية طريقها ، وعصت .. واتبعت أمر كل جبار عنيد .. انهم يعيدون نفس القصة القديمة .. ويضعون انفسهم مكان قوم نوح .. وينسون عبرة النهاية الأليمة التى سار اليها الكافرون بالله .. ونسوا الطوفان الرهيب .. نسوا كل هذا واصروا على المعصية .. واقسم شيطانهم فى نفسه ليجعلن من نهاية هود ومن اتبعوه حديثا يروى ، وعبرة لمن يفكر فى الكفران بالصنم .. واتفق وزبانيته على انزال العقاب الباطش بهود ومن معه .. فى يوم العيد الأكبر الذى اعتادت أن تقيمه « عاد » لأربابها كل عام .

وجاءت أيام العيد .. وامتلأت عاد بالوافدين اللاهين وقدراحت تدوى فى آذانهم ضحكات طاغيتهم المعتز بباطله ، المستمسـك بأربابه ، وراحوا يقترفون كبائر الاثم .. ويقبلون على الرذيلة فى شتى صورها .. ويسخرون من هود ومن معه . ويزيدونهم وعيدا ، ويذكرونهم بقرب نهايتهم مع نهاية الأعياد ، ونسوا فى هذا سخرية قوم نوح من رسولهم يوم راح يصنع الفلك ليكون ملاذه ومن اتبعوه يوم البطش العظيم ! !

نسى قوم عاد هذا كله .. واقبلوا على فرحاتهم .. ثم جاء الموعد .. ووقعت الواقعة . وجاء العذاب .. وكتب الله على قوم عاد الفناء من الوجود وقضى عليهم .. واباد حضارتهم .. وهدم سامق بنيانهم وجعلهـم عبرة للاجيال ..

« ... فاهلكوا بريح صرصر عاتية سخرها عليهم سبع ليال وثمانية ايام حسوما ، فترى القوم فيها صرعى كانهم أعجاز نخل خاوية ، فهل ترى لهم من باقية » ! !

وخرج هود ناجيا بنفسه ومن معه ليبشر برسالات ربه ويدعو اليه من جـديد . .

« ولما جاء أمرنا نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا ، ونجينـاهم من عذاب غليظ » ..

وسار فى الارض مع من تبعوه ، لينشروا دعوة الاسـلام ، والايمـان بوحدانية الله القادر الذى لا شريك له فى ملكه والذى ما خلق الجن والانس الا ليعبدوه .

وأمام الواقعة الكبرى التى نزلت بكفار عاد وطغاتها .. عادت البشرية الى جادة الصواب واهتدت الى الله ، وأسلمت نفسـها اليه .. وآمنت بربوبيته .. واستضاءت بنوره .. واتبعت طريق الهدى والتوحيد !!

وسادت شريعة الحب ... واحس الناس قد أسة الحياة ، وحملوا رسالتها السامية مؤمنين بالحب الصادق والاخاء وأدوا الامانة ، وكانوا كما ارادهم الله . . خلفاء فى الأرض . يعملون للتعمير والاستقرار . فى ظل الخير . وبوحى من الدين القيم الذى يشهد المؤمنون انه لا اله الا الله ... وحده لاشريك له فى ملكه ... تفرد وتعالى .. وهو على كل شىء قدير ..

***

ومرت احقاب بعد أحقاب ... واستمرت البشرية فى طريقها واذا بالتمرد والقلق واللهفة يداخل القلوب من جديد مع وسوسة الشيطان الرجيم ... الذى ساءه أن تعلو راية الحق وان ينتصر الخير ... وان يعود الناس الى رحاب الله ... يشكرون أنعمه ويقرون بفضله ...

وأسرع الشيطان يعمل من جديد .. فى حقل جديد .. وراح يستطيب المرعى ويبحث عن النفوس الشريرة ليجد فى قراراتها مستقرا يردد أصداء دعوته ... ويعمل بضلالاته ويتنكب عن الحق .

ولم يطل بالشيطان تجواله ... واذا به يستقر فى « **ثمود** » .. (١) التى خلفت « **عاد** » .. وكان لها ما كان للأولى من أمجاد وسيادة وتحكم وسلطان

« واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد عاد .. » !!

(١) تقع ثمود بين الحجاز والشام الى وادى القرى .

وعلى نفس طريق الشرك والضلالات الذى سارت عليه « عاد » من قبل ، سارت « ثمود » ... كافرة عاصية جاحدة بأنعم الله .

لقد وهبهم القادر اكثر مما كانوا يطمعون فيه من نعم ، واعطاهم القدرة على العمل والتعمير وجعلهم ينحتون من الجبال بيوتا لسكانهم فكانت لهم القصور والجنات والنعيم الدنيوى الذى اشتروا به نعيم الآخرة وعصوا الله ، ولم تزجرهم الآيات ولا هم اعتبروا بما كان للكافرين قبلهم ، فسجدوا للصنم بدورهم وكفروا بالاسلام ، وأشركوا بالله ، وكانوا قوما فاسقين ...

ولكن لا يأخذ الله الناس بذنوب ورثوها عن الآباء والأجداد .. وبعث فى « ثمود » رسولا منهم يدعو الى الله .

« والي ثمود أخاهم صالحا قال : ياقوم ، أعبدوا الله مالكم من اله غيره ، هو انشاكم من الأرض واستعمركم فيها ، فاستغفروه ثم توبوا اليه ان ربى قريب مجيب » !!

ولكن قوم « ثمود » أبوا الاصغاء الى صالح أو الايمان بدعوته السمحاء ... وكبر فى عيونهم ان يكفروا بأرباب صنعوها وعاشت معهم فى معابدهم وبيوتهم ليؤمنوا بالله القادر الذى لاتراه عين .

وحاولوا صرف صالح عن دعوته ، أو اثنائه عنها ، واستمر فى ابلاغ دعوته ، فتربص به القوم ، وأرادوا أن يبطشوا به لولا خوفهم من أهله وعشيرته ، وعدم رغبتهم فى اثارة القلاقل والبغضاء فى انحاء ثمود كلها وخشوا ان هم فتكوا بصالح أن ينحاز اليه رهطه ، فتكون الحرب ويكون فناء العشيرة

« قالوا : ياصالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا ... أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا ، واننا لفى شك مما تدعونا اليه مريب » !!

ولكن صالح لم يستجب لقومه ، واستمر فى دعوته ليهدى الضالين منهم:
« قال : ياقوم ، أرايتم أن كنت على بينة من ربى وآتانى منه رحمة فمن ينصرني من الله ان عصيته ، فما تزيدوننى غير تخسير .. » !!

وأمام اصرار صالح على دعوته ورغبته فى استمراره فيها ، رأى كفار « ثمود » ان يضعوه أمام تجربة تظهر للقوم ، ان كان على باطل أم على حق ، وهل يتبع ربا قادرا . أم يدعو الى ضلال ، فتطاولوا عليه وسألوه أن يأتيهم بآية تنطق بقدرة الله ربه ، وقالوا أنهم يخلقون من حجارة الجبل قصورا وبيوتا ، فهل يستطيع الله ربه أن يخرج لنا من بين هذه الحجارة ناقة ذات صفات خاصة ولها ابن يتبعها حيثما تسير !!

لقد كان قوم صالح أشد الناس اعتزازا بكفرهم وامعانا فى الاستمساك به .. فجاءوا بما لم يسبقه أحد من الناس وخيل اليهم انهم يبطلون دعوة

صالح لو طالبوه بمعجزة ... وكانوا على ثقة بأن حجار الجبل لن يخرج منها ناقة ولافسيل ... وانه لاتوجد قوة فى الوجود تستطيع أن تصنع من الحجارة حيوانا يسير على قدميه ....

وظن القوم انهم ابطلوا دعوة صالح وقضوا عليها وراحوا يتضاحكون ويسخرون ... واذا بصالح يرد كيدهم فى نحورهم ... ويدعوهم الى أن يروا آية الله عيانا فى يوم حدده ... وساعة عينها ...

وتجمعت ثمود كلها لتشهد الآية الكبرى ... وترى المعجزة التى طالبوا صالح بها ليثبت لهم قدرة الله ووجوده ... وحلت الساعة المعينة . وتحرك الجبل .. واهتزت حجارته واضطرب كيانه الأشم .... ثم اذا بالحجارة تتكسر وتستبين وتتحرك وتخرج منها ناقة شامخة عشراء .. سارت فى جلال الى حيث توسطت القوم ... ثم اهتزت هزة قوية .. وصاحت صيحة عالية .. وضعت بعدها فسيلها الذى كان يشبهها فى كل شىء ..

واخذت القوم غاشية ... وتولاهم الذعر أمام المعجزة الناطقة بقدرة الله .... ووجد الكثيرون من أهل ثمود انفسهم يهرعون الى صالح مؤمنين بدينه قائلين : ((**انا بما أرسل به مؤمنون**)) !!

وأصرت فئة أخرى على الكفر ... وتمسكت بالمعصية وابت أن تؤمن بالله ورسوله صالح الأمين ...

وعلا صوت صالح مرة أخرى يذكر القوم بآيات الله وانعمه :

((يا قوم : اعبدوا الله مالكم من اله غيره)) ! !

وأبى القوم أن يملأ قلوبهم هذا الايمان فلجأ صالح الى الوعيد والتهديد وراح ينذرهم بالعذاب العظيم .. ويأمرهم بالطاعة والخضوع لأمر أرتآه وهو أن يترك الناقة وفسيلها ترعى حيث شاء لها الله ، وان يقسموا الماء بينها وبينهم ... فلها يوم ولهم يوم ... فضج القوم وكبر عليهم ذلك . واصروا على المعصية فانذرهم صالح بالعذاب العظيم أن هم عصوا ولم يطيعوه وصالح فيهم :

((قد جاءتكم بينة من ربكم ، هذه ناقة الله لكم آية ، فذروها تاكل فى أرض الله ولاتمسوها بسوء فياخذكم عذاب أليم ، واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم فى الأرض تتخذون من سهولها قصورا وتنحتون الجبال بيوتا ، فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا فى الأرض مفسدين)) ! !

وكأنما كبر على القوم ان يسلموا بما أمر به صالح .. وتمادوا فى عصيانهم ونسوا آية القدرة التى تجلت لهم بخلق الناقة من صخور الجبل .... وتنادى

شياطينهم واستقر رأيهم على أن يقضوا على هذه الآية ويبيدوها من الوجود ويكون هذا ردهم العملى على دعوة صالح لهم : بأن يتقاسموا الماء بينهم وبين الناقة ..

وهكذا أجمعوا أمرهم بينهم وكان هناك امرأتان ذواتا مال وابل يقال لاحداهما « صدوق » والأخرى « عنيزة » وقد أغريا أحد الأشقياء يقال له « مصدع » وشقى آخر يقال له « قدار » واستغويا سبعة رجال آخرين فكانوا تسعة « كان فى المدينة تسعة رهط يفسدون فى الأرض ولا يصلحون »

وجرأ شيطان منه هو « مصدع » على عقر الناقة ... وقتل « قدار » فسيلها ... والقوم يتضاحكون من حولهم . وقد خيل اليهم انهم انتصروا على صالح ونصروا اربابهم على الله القادر يوم اجترأت شياطينهم على آيته **اذ : « كذبت ثمود بطغواها ، اذ انبعث أشقاها ، فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها فكذبوه فعقروها » ..**

وبلغ صالح النبأ .. فأسف لما حدث .. بل أسف فى أعماق نفسه لأن ثمود اللعينة ابت الا أن تعيد قصة « عاد » مرة أخرى وتكون لها نفس النهاية التى كانت من قبل للعاصين ..

ووجد نفسه يقول لهم : **« تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام ، ذلك وعد غير مكذوب ، لقد أبلغتكم رسالة ربى ، ونصحت لكم ولكن لاتحبون الناصحين »**

وزادت سخرية القوم من صالح وهم يستمعون نبوءة هلاكهم بعد ثلاثة أيام عينها لهم قائلا أن وجوههم ستصبح صفراء فى اليوم الأول .. ثم حمراء فى اليوم الثانى .. ثم سوداء فى اليوم الثالث وهذا موعد الهلاك ..

واقسم القوم أن يفتكوا بصالح قبل أن تصح نبوءته ليثبتوا له انهم قادرون على هلاكه وانهم الذين سيبقون .

« وتقاسموا بالله لنبيتنه وأهله ، ثم لنقولن لوليه : ما شهدنا مهلك اهله وانا لصادقون ومكروا مكرا ، ومكرنا مكرا وهم لايشعرون » .

وحفظت عناية الله صالحا من مكر قومه به وانجيناه ومن معه أجمعين ولم تلبث بوادر العذاب أن دبت فى القوم ... وظهرت فيهم آيات الهلاك ولم تمض الأيام الثلاثة حتى أهلكت ثمود وبادت .. وأصبحت أثرا بعد عين .

« فلما جاء أمرنا نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا ومن خزى يومئذ ، ان ربك هو القوى العزيز ، وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين ، كأن لم يغنوا فيها ، الا ان ثمود كفروا ربهم الا بعدا لثمود »!!

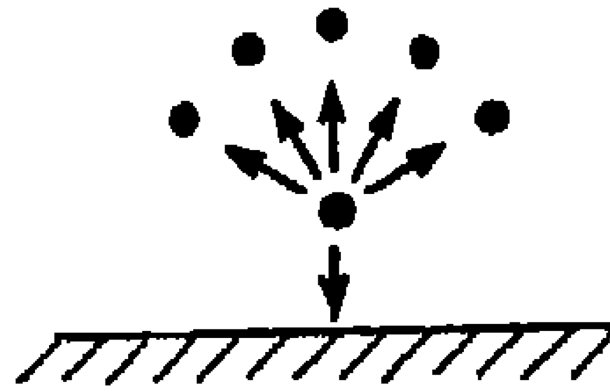
وهكذا كتبت ثمود الكافرة نهايتها ... وأنمحت آثارها وبادت من هذا الوجود ... تتبعها لعنة الله وغضبه ...

اما صالح الرسول فقد أنجاه الله ومن معه ... وكما سار هود من قبل ومن معه ناجين ... كذلك سار صالح وراح يرشد ويبشر ويعلم .. والناس يصغون اليه بين مصدق ومكذبين ...

ومرت الأعوام وادبرت قرون بعدها قرون .. وعادت الضلالات تجثم على صدر هذا العالم وعلت ألوية الشرك ... وبدأ الأنسان يكفر من جديد بالوحدانية ... ويدعو الى عبادة ارباب من صنعه ... عاجزة لاتستطيع أن توليه خيرا ... أو تدفع عنه أى شر ...

وسارت البشرية فى طريقها المرسوم ... وتزايد الناس وتكاثروا وامتدت بينهم الروابط .. وتوطدت الصلات ، وتغيرت الآراء والمجتمعات .. وتعاظم شأن البشرية ... وجرفها تيار الأحداث ... فبعدت عن شواطىء الأمن ... وراحت تبتدع وتتخيل وتصور لنفسها ماتشاء من آراء ومعتقدات .

وانكر الناس وجود خالقهم ... ووجودهم نفسه آية الأعتراف بربوبيته ووحدانيته .. ولجأوا الى انفسهم .. واحتموا بعصبياتهم .. واتجهوا بأفكارهم الى رءوس الشرك فيهم ، ليدفعوا عنهم كل شر ... وانصرفوا الى ما صورته لهم شياطينهم من مفاسد وفتون .



البشرية تبحث عن الله

« .. ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير » ! !
(سورة الحج)

وكما ركن الناس قديما الى من تخيرتهم من شيوخ القبيلة للذود عنها فانها فى خلال وحدتها وبعد عمل يومها المرهق الشاق — احبت ان تركن الى من هو اقوى من زعيم القبيلة وسيدها ... الى من يركن اليه ذلك الزعيم نفسه ويلجأ اليه عن طريق الكاهن ليهبه ماهو فى حاجة اليه من قوة يحمى بها افراد قبيلته ، وسلطانا يضمن له استمرار هذه السلطة ..

ومن هنا عاد الانسان العادى يفكر فى القوة العليا التى لا يلجأ اليها وحده بل يلجأ اليها من هو أكثر منه قوة وأشد بطشا وتعاظما ... ووجدت الفكرة فى كل نفس مرتعها الخصيب فتعالت بخيالها وتصورها وادراكها الى تخيل اليد الماهرة التى تسير ذلك العالم الرحب الفسيح وما حوى من خيرات عديدة موفورة وهبتها للانسان وسخرتها لنفعه ...

ووجد الانسان راحة كبرى وقد ارتفع بروحه الى سماء عليا والى قوة خفية تحميه وتتولى اسعاده ورفاهيته ، وكان أن خضع لها وعبدها واعترف شاكرا بانعمها العديدة التى لا يمكن أن يشملها الحصر ..

وبالرغم من تواكل الانسان وتركه مقاليده الى القدر يصرفه كيفما أراد وحسبما شاء ، واعترافه بالقوة العليا والذات القادرة على نفعه والحاق الضرر به — فان عقيدته تلك كان يشوبها بعض الشوائب البسيطة التى كانت توجدها عقليته الساذجة ، فنبتت الى جانب هذه العقيدة الأولى عقائد بدائية أخرى بسيطة تدل الى حد كبير على عقليات شديدة الحساسية بعيدة الايمان قوية التمسك بكل ما يمت الى الدين والعبادات باية صلة من الصلات ولو كانت خرافية لا أصل لها ولا ظل من الحقائق ...

وكان يحدث فى امثال هذه المناسبات أن يلعب كل من التطير والتشاؤم والتفاؤل دوره فى تكييف هذه المعتقدات « الثانوية » وتصويرها .. ثم تشبيهها

نشبيها محسوسا وايجاد رموز حية لها تدل عليها وتجسمها فى دنيا الواقع والحقيقة ، كان كل رئيس أو سيد قبيلة أو رأس عائلة أو زعيم مقاطعة يحب ـ طائرا خاصا ـ يتفاءل به أو يرى فيه بارقة من بوارق البشرى ، فيتخذه شعارا له ولا يلبث الجميع أن يحذوا حذوه ويسيروا على منهاجه فتنتشر العقيدة وينبه شأن الطائر ويصبح جليل القـدر فى بقعة من بقاع الأرض وفى نفوس جمهرة من الناس ممن يعمرون تلك البقعة ..

وقد كان يحدث فى مكان آخر وعند قبيلة ثانية أن يرهب انسان ما حيوانا مخيفا أو يتشاءم منه سيد من سادات العشـيرة ، فيكرهه ويبغضـه ، وسرعان ما ينتشر خبره وتسرع النفوس الى بغضائه وتصويره أبشع صورة ونسبة كل ما يحيق بهم من ضرر اليه والى روحه النجسة .. فلا تلبث أن تكون صورة هذا الحيوان رمزا للشر وآية دالة عليه ..

وكان العكس يحدث فى مكان ثالث او عاشر وهكذا ، اذ تقرب عشيرة من العشائر حيوانا له ميزات خاصة تتـكشف لعين من عيونها النفاذة البصيرة سرعان ما يستطير صيته وينبه شأنه فيصبح شعارا لهم يحلون به مساكنهم ويكثرون من وضع رموز أو صور له فى كل مكان لتدرأ عنهم الشر وتحميهم من الأرواح ...

ومن هنا ... ومـع مـرور الزمن احتلت هـذه الطيور المباركة وتلك الحيوانات ذات القوى الخفية مكانا خاصا فى النفوس وتغيرت نظرات الناس اليها ، فبدلا من اعتبارهـا دليلا من دلائل الاستبشار أو الاسـتنفار تغيرت النظرة اليها فتعالت نحوها الأخيلة وسمت لها الأفـكار ونحيزت الى حـد المبالغة وربطت بها بعض مصائرها وجعلتها فى مكانة التقديس التى لم تلبث مـع مرور الزمن وتغيير العقائد وتفشى ظلمات الجهل ـ ان علت الى بعض درجات العبادة ...

ووجدت جماعات الكهان والمتنبئين فى هذا اللون من الوان الانحطـاط الدينى مادة جديدة لمضاعفة نفوذهم وانتشار سلطانهم والاقرار بمـكانتهم وسرعة تقربهم من جماهير العابدين واسرعوا بدافع الرغبة فى المحافظة على السلطان الى مسايرة ذلك التطـور الذى حـدث فى العبادات ، فلم يسفهوا للقبيلة رايا ولم يقللوا من قيمة معتقد تمسكت به أسرة من الأسرات أو عشيرة من العشائر ، ولم ينتقصوا من قيمة هذه الرموز التى أحبها الناس وركنت اليها نفوسهم ولقيت الشىء الكثير من التقـدير والاجلال ، بل اعترفوا بهـا ومجدوها .. ولم يمض وقت طويل حتى انتقلت صورها وتشبيهاتها ورموزها من المساكن الى مذابح المعابد فكانت لها حلية وزينة ومصـدرا من مصـادر جلب البهجة للقلوب والعيون ..

وتمادى الكهان فى استسلامهم الذى كانوا يرمون من ورائه الى غرض التملك والسطوة واحتلال النفوس والوصول الى قراراتها ، وسرعان ما جعلوا ينسبون هذه الحيوانات وتلك الطيور الى المعبود الأكبر على انها رموز له أو هيئات يتشكل بها أحيانا أو اجساد يحب فى بعض الآونة أن تحل فيها روحه أو أن يتنقل بوساطتها فى دنيا الناس !!

ووجد الكهان فى هذه الحيوانات المقربة الى النفوس الحبيبة الى القلوب اسبابا وجيهة وذرائع قوية يصلون بها ، لا الى تملك النفوس والاستحواذ على أصحابها وتسييرهم حسب اهوائهم ورغباتهم فقط ـ **بل بوساطتها ايضا يستطيعون الوصول الى ما يبغون من عروض الدنيا فيتملكون أشياء كانوا يظهرون بمظهر الزاهدين فيها ، كالمال والطعام والشراب ،** بحجة تقديمها الى هذه الطيور والحيوانات لنيل رضاء الاله الأكبر الذى اصطفاها وتخيرها وجعلها رموزه وحيواناته المقربة !!

ومر الزمن .. ودارت عجلته السريعة دوراتها التقليدية فطوت أجيالا وقطعت قرونا عديدة ، وفنى اناس وجاء بعدهم آخرون وتبع الناس أهواء النفوس ومشوا فى الضلالات وتأخرت المدارك وعادت بالانسان القهقرى نحو ظلام الجهل ودجنته الحالكة وعدا التغير على كل شىء .. الا شيئا واحدا مامسه تبديل ولا عدت عليه عادية كان ذلك الشىء هو العبادة والاعتقاد فى الأرباب !!

لقد ظلت العبادات على حالها من القوة والجاه ، وعظم معها فى تلك العصور المظلمة شأن الكهان وخدم المعابد وجموع السدنة ، الذين كانوا يدعون القرب من المعبودات ويقومون بتلقى الوحى منها وابلاغه الى الناس على مختلف طبقاتهم وبيئاتهم ..

وتعدى سلطان الكاهن نطاق الحدود الروحية والدينية ، وأصبح بدافع جهل الناس وصدق اعتقادهم وشدة ايمانهم فيه يوجههم حسب ماشاء فصارت له بذلك سلطة زمنية ما كان له أن يمارسها أو يتدخل فيها .

وساعد الجهل ـ الكاهن على أن ينفرد بنوع من السلطان وان يقيم لنفسه معبدا فى البقعة التى استفحل فيها أمره ، وأن يتخير القبيلة التى تتبعه والمعبود الذى ترتاح اليه وتثق فيه ، فبعد عن الطريق السوى وتنكب مسالك الحق واستقل بفكره وعقله وروحه عن الأصل ((**الواحد**)) الى ((**حدث**)) جديد وضع فيه كل صفات الأصل ومزاياه وما يتمتع به من قوة يركن الانسان اليها ويسألها الغوث والمعونة والسداد ..

***

ولما كثر عدد الاسرات وانتشر أفــرادها فى البقاع المجــاورة وارتبطت العشائر برباط النسب والتصاهر أحسَ الناس بحاجتهم الى نوع من أنواع الحماية الخاصة كى ينصرفوا الى أعمالهم العديدة التى أوجدتها الظروف .. ومن هنا نشأت الحاجة لا الى كبير للأسرة أو زعيم للعشيرة أو سيد للقبيلة. بل الى حاكم قوى يجمع تحت ظله هذه الأسرات المتعددة وتلك القبائل على اختلافها ويتولى شئونهم ومصــالحهم فى الاقليم الذى استقروا فيه حيث يضع لهم النظام الذى يكفل لهم الحياة الرغدة والأمن المستتب الذى ينعمون فى ظلاله بنعمة السكينة والسلام ..

ونشــأت الى جانب وظيفة الــكاهن وظيفة اخــرى هى وظيفة الحاكم الاقليمى ، ووجــد النــاس أنفسهم موزعين بين سلطتين مختلفتين وكانوا يشعرون بالرهبة من كلتيهما ويضمرون التقدير والولاء للاثنتين معا .

وأحس الــكاهن مع مرور الزمن بأن سطانه قد بدأ يتلاشى ، لأن هؤلاء الحكام يأتون بأعمال مادية تثير النفوس وتبعث فى بعضها الاكبار والاعجاب .. فكانوا يهاجمون التخوم ويسطون على جيرانهم ويعودون بالاسلاب والاسرى وقد ضموا اليهم اناسا عديدين وادخلوا تحت لواء سلطانهم قبائل اخرى ، فعظم بذلك شأنهم واتسعت رقعة ملكهم وأصبحت لهم يد باطشــة تمثلت فيما لديهم من جنود مسلحين وموظفين ، يبثونهم فى كل مكان ليكونوا عيونهم التى ترى وآذانهم التى تسمع !!

وعرفت السلطة الدينية التى تقوم على التعبد والتوسل ان سلطانها قد ضعف وتزعزع ، وان السلطة الزمنية قد سلبتها مالها من قوة وتأثير ، لأن أعمالها ظاهرة وما تأتى به من خير للناس تراه العيون جميعا ، ومن هنا بدأت تفكر فى استرجاع ما فقدته من سلطان ..

وفى الوقت الذى شعرت فيه السلطة الدينية بذلك التحول عنها فقررت ماقررته ــ كانت السلطة الزمنية تعرف نوايا منافستها الخطيرة فأخــذت الأهبة للصراع القادم الذى كاد يحدث بينهما ! !

ولئن كانت البطولة واعمال العنف الظاهــرة تستهوى الألباب وتؤثر فى النفوس وتضع أصحابها فى مستوى أعلى من المستوى العادى للناس الا أن الغالبية العظمى ــ وان اعتادت أن تفاخر بتلك الأعمــال ــ كانت تشــعر فى قرارات نفوسها بأن هناك قوة فوق هذه القوى غير المنظورة ، هى التى تمنح القوة لهؤلاء الأبطال وتؤيدهم متى شاءت بالنصر ، وتمنيهم بالخذلان والبوار ان هى شاءت لهم ذلك ، ومن هنا كان السلطان الروحى للدين أقوى فى قرارات النفوس من السلطان الزمنى ..

ووجدت السلطتان أن الصراع بينهما أمر ليس من مصلحتهما ان يحدث..

وسرعان مالعبت عقلية رجل الدين دورها الخطير فى العلاقات بين هاتين القوتين . وكان أن انتصرت ونالت ما كانت تبغيه من مجد وسلطان .. بل لقد ضاعفت السلطة الزمنية من نفوذ رجال الدين وشدت أزرهم ورفعت مكانتهم ..

وانتصر رجل الدين انتصارا حاسما ولقد كان بذلك النصر جديرا ، كما انه لم يكن بالجديد عليه فما كان الحاكم بأكثر من فرد من الناس آمن بالدين وسجد للمعبود وتلمس رضاه وبركته ورسخ فيه معتقده وعرف أنه هو الذى يوليه الخير ويدرأ عنه الشر والهوان ، وطالما سأل الكاهن أن يقرب منه القرابين ويستخير فى شأنه الاله ..

وكان الكاهن لبقا وهو يضم الى رحابه رجل السلطة الزمنية الذى استهوت بطولته الألباب ، فلم يعامله كما يعامل الرجل العادى بل كان سخيا فى منحه ، كريما فى أعطيته التى وهبه اياها وطوقه بها اذ الحق نسبه بالاله ، وجعل له فوق صفته الزمنية صفة أخرى مقدسة لاتمس ، لأنه من نسل المعبود وابنا من أبنائه أحب أن يعيش بين البشر ليوزع بينهم العدل ويتولاهم بالقسطاس ويشرع فيهم شرائع أبيه العظيم ويحميهم ويعمل على اسعادهم ! !

ولقيت المنحة فى نفس الحاكم هوى عظيما وصادفت منه الرضا والقبول وارضت فيه روح التملك وزودته بسلطان طاغ له قداسته فوق ماله من سلطان عظيم . وكان ان أحب الكاهن وأعلن خضوعه للمعبود ونادى فى الناس بذلك وقرب له القرابين ورفع مكانته وأقام له المعابد وأجرى عليه العطايا والمنح والهبات ...

وازدوجت الفائدة التى جناها رجل الدين من هذا الاتفاق السلمى الذى لم يكلفه شيئا الا خدعة من خدعه ، وأصبح صاحب سلطان لا على عقول الناس .. بل على نفس أميرهم وحاكمهم الباسل الذى أصبح لايستطيع ابرام عمل دون مشورته ولا الاقدام على شيء دون الحصول على رضاه ورضاء الاله أبيه وخالقه ! !

وازاء هذا الاتفاق الذى تم بين رجال السلطتين وجد الناس انفسهم أمام عبادة متشعبة لم تقتصر على المعبود القادر الذى أقيمت له الهياكل والمعابد . بل تعدت الى الأمير الذى اتخذ لنفسه كل صفات التقديس واحاط ذاته بكل مظاهر الاجلال والاكبار وأصبح يرى ان الجرم كل الجرم فى ان تقع عليه عين أو أن ينظر اليه انسان ! !

وهكذا .. كثرت المعبودات وتعددت طقوسها وخرجت عن طورها الأول ولم يعد المعبود تلك الذات القادرة التى تمنح وتمنع وتعطى وتقبض وتحيى

وتميت .. بل اصبح رمزا من عمل الكاهن له صفات يرضاها ذلك السادن ويدخلها فى روع العابدين فيصدقونها دون جدال او مناقشة .

ولم يحاول انسان فى تلك العصور الغابرة أن يرقى بعقليته الى حد التفكير فيما وراء الطبيعة الكونية . بل اكتفى بما كان يعرض له من مشاهدات وما يأتيه الكاهن به من أخبار .. فينصرف الى عمله الذى كان يزاوله وهو راض قرير سعيد بما وصل اليه ...

***

وعرف الانسان فيما عرف غير الزراعة والتجارة والملاحة فنونا اوحت بها اليه الوحدة ، فاهتدى الى الموسيقى ، وكان يوقعها قبلا على صف من الأحجار الرقيقة يدقها فى حنان فتحدث صوتا مشجيا ، ثم عرفها بعد ذلك فى الصفير الذى يحدثه بفمه ، والذى هداه الى استعمال عيدان الغاب لصفيره هذا ، فكان الناى ذو الأصوات المتعددة ، وتلاه المعزف بعد ذلك ..

وجعل الانسان فى ساعات وحدته يترجم عن أفكاره ويعبر عنها بالصور فكانت الـكتابة ، وكان فن الرسم وعن طريقه اهتدى الانســـان الى فنون النحت واقامة الأبنية العظيمة ...

وصنع الانسان النصب والتماثيل ولم يجد من يقدمها له كقربان ، أكرم وأعلا واعظم من معبوده « **المعنوى** » أولا .. ثم معبوده « **الوجودى** » بعد ذلك وهو الأمير المنتسب الى الله حسبما قال الكهنة ، فكان ان ازدحمت المعابد بالنصب والتماثيل المختلفة الأشكال والأحجام ..

ومر الزمن ... وطوت حوادثه أجيالا بعد أجيال وجاءت على ظهر الأرض أجيال جديدة شهدت عجبا ... رأت معابد مليئة بالنصب التى كان ينظر الأولون اليها نظرات التقدير والاكبار والخشوع فوجدوا انه من السهل الهين أن يسجدوا لها مادامت تمثل فكرة عالية أو تصور معبودا من المعبودات او ابنا من ابناء الآلهة الذين حكموا باسمها فى دنيا البشر وكانت لهم فيها ذكريات واعمال عظام !!

وبقى الدين فى صلبه معروفا لفئة قليلة من الناس هى فئة الخاصة .. فى حين ضلت العامة الكثيرة العدد وتخبطت فى مسالك العبادات وبدلا من سجودها لقوة غير منظورة أو لحاكم أعطاه رجال الدين صفة القداســة ، سجدوا لهاتيك التماثيل وتلك النصب وراحوا يسألونها ما اعتاد البشر ان يسألوا آلهتهم اياه !!

وانمحت الوحدانية أو كادت فى بعض البقاع وحلت مكانها الوثنية التى اتبعها الناس وهم راضون وآمنوا بها ايمانا عميقا لا حد له ...





((ربنا انى اسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة ، فاجعل افئدة من الناس تهوى اليهم ، وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون)) ٠(سورة ابراهيم)

(الرسالات الكبرى)

الضمير يهدي إلى الله

« ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ، ولكن كان حنيفا مسلما ، وما كان من المشركين » .

(سورة آل عمران)

كانت « بابل » مدينة الحضارة والمجد العريقين .. مفتحة الأبواب على الدوام لما كانت تقتبسه من عقائد الفرس والهنود والمصريين وغيرهم من أصحاب الديانات المختلفة ..

ولم تتوحد فيها العقيدة الا بعد أن أوحى الله الى ابراهيم عليه السلام بمحاجة أصحاب الهياكل ومجادلتهم .. وآتاه الله الحجة عليهم ..

« وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين »

فقد كانوا فى بابل .. يؤمنون بالهياكل والكواكب السيارة ويعبدونها .. ولقد علمهم أحبارهم أن الكون من صنع أرباب متعددة ، تنتظمها قوة تسيطر عليها وتوجهها حيث تشاء .. وأن الواجب على البشر أن يدينوا لها بالطاعة والخضوع وأن يتقربوا اليها ويتزلفوا لها .. لا بأنفسهم ، بل بطقوس ومراسم وقرابين !!

وأمعن الكهان فى تضليل الشعب .. وراحوا بوسائلهم المبهمة يقربون الى اذهان العامة فكرة مؤداها : أن القوة العظمى أبعد من أن تستمع الى التوسلات ، وانها من المناعة بحيث لاتصل اليها ضراعات الناس ولا مطالبهم !! وانها اختارت فئة من السيارات خصتها بالقرب والحديث فى حضرتها !! وان من الضرورى لكى تصل ضراعات الناس الى آذان القوة العظمى ، أن يكون ذلك عن طريق الشفاعة والزلفى ووساطة واحدة من هذه السيارات !!

وأمعانا فى الغموض ، راحوا يصورونها كيفما شاء لهم خيالهم السقيم ، فجعلها بعضهم ممثلة فى النجوم والكواكب السيارة ، وتخير لتجليها مواسم

وأوقات معينة ، وجعلها البعض الآخر فى هيئة مسوخ حجرية ملأت الهياكل، وانتصبت فى صمتها الكئيب ، تتقبل الدعوات كنائبة ووسيطة للقوة العظمى التى خلقت الكون واقامت دعائمه .. ثم سيطرت بعد ذلك على العالمين !!

ومر الزمن .. وحلا للكهان والرهبان من الزعماء الروحيين أن يسودوا ، وأن يتعاظم نفوذهم .. واسعدهم ان انقادت لهم نفوس العامة من السذج الذين استسلموا اليهم فى غير وعى ..

وخيمت ظلمات الجهل .. ونسى الناس القوة العظمى واتجهوا الى نصب اعتبروها الأصل والرمز والاسم الخطير ..

وهكذا اصبحت العبادة فى بابل تتأرجح بين معبودين كبيرين ، انقسم الناس فى شأنهما الى طائفتين ، عبدت أولاهما السيارات ، من نجم وكوكب وشمس وقمر ، وعبدت الثانية صور هـذه الأجرام التى تمثلوها فى أصنام اقيمت لها الهياكل وامتلأت بها الباحات .

وعن طريق هذه السيارات وتلك الهياكل ، تعاظم شأن الكهان ومن اليهم، واصبحوا فى الجاه والسلطة والغنى شركاء الملوك ودعاتهم العاملين على تثبيت دعائم ملكهم ، وتعزيز خرافة انتسابهم الى تلك النصب وهاتيك الأرباب .

وبين الكهان فى بابل اشتهر اسم « آزر » العالم بأسرار الكون والخبير بتحركات النجوم ..

كان طيب القلب يحبه قومه ، وكان يحتل مكان الصدارة فى قلوب الشعب البابلى .. ولقد بلغ من مكانة آزر أن رفعـه ملك بابل اليه ، وجعله مشيره وهاديه الذى لا يعلو على صوته صوت ولا يدانيه فى مكانته سادن أو مقرب أو كاهن من العلماء .. حتى أصبح « آزر » وكأنه سيد بابل ..

وكفلت هذه المكانة الدينية الجليلة للكاهن الطيب عيشا رغدا . وحياة ناعمة مع زوجة مثالية وولده الأول منها « ابرام » !!

وشب « ابرام » أو « ابراهيم » كما عرف فيما بعد ــ واسع الأفق ، كثير التفكير ، فى عينيه يقظة وحلم عميق .. صائب النظرة يحب الواقع ويؤمن به ، وينفر من الخرافة ويجتنبها ..

وكان ابراهيم على رقته ودماثة خلقه مع أبويه ، عنيدا يكره الصلاة ويأبى أن يركع مع الراكعين للأصنام .. وترتعش شفتاه عصيانا لأبويه حين يحاولان اكراهه على محاكاة المصلين فى حركاتهم التعبدية وتلاوة الصلاة !!

شهد « ابراهيم » مواكب العبادة ، وحضر مواسم الحج كلها ، واستمع

الأساطير التى يتحدث بها الناس عن الأرباب من الأنجم والنصب .. ورأى الطقوس والرموز ..

كان يرى ويتعجب !!

وكثيرا ما كان يغلبه الضحك حين يرى قومه يبالغون فى تقديس هـذه الهياكل الخرساء ، ويضعون أثمن الحلى فى اعناقها ! !

وكره ((ابراهيم)) أن ينظر الى تلك الأصنام التى كانت تصنع بيد أبيه ((آزر)) أمام عينيه ، ويرقب تطورات نحتهـا حتى تكتمل .. ثم يبيعهـا لعابديها !!

فهو يعلم تمام العلم انها هياكل خرساء لا تسمع ولا تبصر ، ولا تضر ولا تنفع !!

ووجـد ابراهيم نفسـه ينصرف عن قومه وما استغرقوا فيه من صلاة وتعبد .. وهام على وجهه متجها بباصرتيه الى السماء ، وقد أحب نجومها وكواكبها وهفا قلبه الى ما فيها من آياته بينات ، وراح فكره يسبح فى أودية مختلطة من الغموض والابهام !!

ولما كان للقوم هناك من الحرية ما يجعل لكل منهم الحق فى اختيار هيكل المعبود الذى يرتاح له ، فقد أحب ((**ابراهيم**)) أن يدخل فى هذه التجربة ، ويحاول أن يخرج منها بنتيجة تكون وسيلة ارشاده وهدايته ..

فالعبادة فى نظر ((**ابراهيم**)) الشاب هى اتباع طريق واحـد .. طريق واضح يصل بسالكه الى المعرفة التامة ، والخضوع لقانون الوجـود الذى يوحى بالطاعة والخضوع وعـدم التلون ، والاقـرار بسلطان معبود واحـد لا جمهرة من المعبودات !!

ولما كان أبوه ((آزر)) رجلا عالما .. يفهم كثيرا من نوازع النفس البشرية بحكم مركزه الدينى وممارسته للتامل فى ظواهر الطبيعة ، فقد لاحظ ماعتور ولده مـن القلق والاضطراب فضـلا عن انصرافه عن عبادة قـومه ، وميله الشديد للعزلة ، والخلود الى الوحدة مستسلما الى التفكير الطويل !!

حتى كان ذات أصيل وقد رأى الوالد ولده يجلس وحيدا غارقا فى أفكاره الغريبة ، فاقترب منه ، وفى حنان بالغ راح يسأله سر وجومه وصمته الطويل

ورفع الشاب بصره الى أبيه وعلى ثغره ظل ابتسامة ساخرة وقال له :

يا أبت .. ((اننى برىء مما تعبدون)) !!

وثار الأب . واحتدم الخلاف بينه وبين ولده حول العقيدة والأرباب الى حد الغضب ..

وراح ((ابراهيم)) يرقب الأفق الغربى ، وقد انتشر على حاشيته ثوب الشمس وهى تجر ذيولها برفق فى طريقها الى الغروب ..

وظل الحائر الباحث عن الحقيقة فى مكانه غير عابىء بادبار النهار واقبال الليل ، مستغرقا فى أفكاره .. يريد أن يعرف طريق الهدى والرشاد . فاتجه ببصره الى ملكوت السموات والأرض ، وراح يتأمل الكائنات فى هيئة المأخوذ بروعة ما يرى ..

واذا ببصره يرى كوكبا يتألق فى الأفق :

((قال هذا ربى)) !! ..

ورويدا رويدا راح الكوكب يزحف فى طريقه الى الأفول ..

((فلما أفل قال لا أحب الآفلين)) !!

ولكن حزنه لم يطل ، اذ رأى أن اختفاء الكوكب لا يعنى غير اختفاء أكذوبة كاد ينخدع بهـا بصره !! وما هى الا لحظات حتى كان القمـر يطل من الأفق الشرقى ، فصاح بحماس أكبر :

((هذا ربى)) !!

ولم تلبث ان تكررت آية الأفول مرة ثالثة ..

((فلما أفل قال : لئن لم يهدينى ربى لأكونن من القوم الضالين)) ! !

وبزغت الشمس من خدرها جليلة .. عظيمة .. مهيبة يسبق مطلعها جلال وقداسة وغموض ..

((فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى .. هذا أكبر)) ..

وكما عدت الشمس على الظلمة فأخفت كواكبها وأقمارها ، كذلك عدت الظلمة على الشمس فأخذت فى المغيب ..

لقد كان فى أعماقه احساس خفى يهتف به أن هناك ((ربا)) !!

كان ابراهيم خلال تلك الآونة من الشك والحيرة والقلق ، رجل منطق وتعقل ، حكم وجدانه قبل أن يتبع قومه ، ويسير وفـق اهوائهم ، وعلى ضوء بصيرته النفاذة رأى الأشياء على حقائقها دون مبالغات ..

لقد احتقر الهياكل الصماء .. وكبر عليه أن يدين بالطاعة للكواكب غير المستقرة ، واحس فى أعماقه ان هذا الكون العظيم لا يمكن أن يكون من صنع العجماوات ، كما انه لا يمكن ان ينتظم دون قدرة تحكمه وتسير أموره ..

وعاد ينقل بصره فى كل ما حواليه ، ويرى بعين اليقين آيات القدرة ..

نظر الى الناس ، وســاءل نفســه من أين أتوا ؟! والى أين يذهبــون ،

وما الحكمة من وجودهم وحياتهم ، وهل خلقوا ليتدنوا الى حد السخرية من ذاتهم ويرضوا بالانضواء تحت ظل النصب وسؤالها الخير ودفع الشر ؟

وتذكر الكواكب السيارة .. الشمس والقمر والنجوم .. تلك التى تظهر لتختفى .. ثم تختفى لتظهر من جـديد فى دورات محددة منتظمـة لا اختلاف فيها ولا تبديل لمواعيدها !!

وساءل ابراهيم نفســه .. ما معنى وجـودها .. ما سر انتظامهـــا ، وما مدى الارتباط بينها وبين البشر جميعا ...

وراح يتأمل ما حواليه من جبـال راسيات وأنهـار متدفقـة وبحـار صاخبة .. وحاول أن يجد رابطة توحد بين هذه المظاهر العظمى جمعاء ..

وتمثل له هذا الكون بما حوى من بشر وأجرام وجبال وانهار .. فزاد عجبه وغمرته الحيرة والقلق .. ووجد وجدانه المستنير يرقى الى ما وراء جميع هذه الكائنات .. الى القدرة التى أوجدت وسيرت هـذا العـالم الوسيع ..

وارتاح ابراهيم الى الفكرة التى راودته .. وهرع الى وجدانه المستنير وقد هداه احساسه وايمانه الفطرى الى أبواب الحقيقة ...

هذه الآيات .. هل وجدت عبثا .. ومن الذى أوجدها .. من وهبها الحياة والوجود .. ومن كتب عليها الموت والفناء !! ووجـد ابراهيم نفسه يهتف : لابد لكل خلق من خالق .. وانه لقادر .. وانه لهو الله الحق الواجب أن أعبده وأرقى الى سدته بخضوعى وضراعاتى ...

وهدى الله ابراهيم بآياته الى ذاته .. وبعظمـة خلقـه الى حقيقـة وجوده ، وبما خلق وسوى الى مقدرته ..

وخشع القلب .. وهدأت الروح القلقـة ، وأحس ابراهيم ان الله قـد استجاب له وهداه اليه ، فآمن به ...

آمن ابراهيم بأن للكون إلهـا واحـدا قادرا .. خلق فسوى ، وقـدر فهدى .. وهب الحيـاة ، وفرض المـوت ، بأمره تقـوم الساعة ، ولحكمه تخضع الكائنات ..

وتفتح قلب ابراهيم للحقيقة الكبرى .. وامتلأ قلبـه بنور الايمان .. وأيقن أن خلف هذا الكون قوة عظمى تسيره ..

وصغرت الكائنات جمعاء فى عينى ابراهيم ..

لقد عرف الله .. الخالق .. المصور .. المبدع للكائنات كافة .. رب السماء وما حوت والأرض وما حملت .. الواحد الأحد الصمد القادر على كل شىء ..

وسجد للحق شكرا .. فقد هداه اليه ونقى وجدانه من دنس الشرك به ، وأبى عليه ان يسجد لصنم ، أو يوقر كوكبا .. وأرشده الى الحقيقة المقدسة ، فأقر بالوحدانية ، وهتف بها ، وأحس فى صميم نفسه انه مكلف بأبلاغ رسالتها الى الناس كافة ليبعدهم عن طريق الضلال ، ويرشدهم الى طريق الحق الذى اهتدى اليه ..

وذهب ابراهيم الى قومه وقد امتلأ قلبه بالمعرفة واليقين ، ليعلن أنه وجد ربا يعبده غير أربابهم التى يعبدون .. وقال لهم :

« يا قوم ! انى برىء مما تشركون » ..

« وحاجه قومه ، قال أتحاجونى فى الله وقد هدان » ؟ !

وذعر القوم أمام رهبة الاسم الأعظم ، وأصر بعضهم على تهديده بالايذاء والتعذيب .. وحذروه مغبة التمادى فى دعوته والاجتراء على المعبودات التى سوف تصيبه بضر وعذاب .

فما كان منه الا أن قال لهم :

« وكيف أخاف ما اشركتم ، ولا تخافون انكم اشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا ، فاى الفريقين أحق بالأمن ان كنتم تعلمون » ؟ !

وزادت حيرة القوم وخرست منهم الألسن ، فوقفوا حيارى زائغى الأبصار لا يجيبون حتى قال لهم ابراهيم مجيبا على تساؤل نفسه :

« الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم ، أولئك لهم الأمن وهم مهتدون »

وغلبت حجة « **ابراهيم** » ادعاءات قومه .. وسرى حديثه فى سوامر بابل مسرى النار فى الهشيم . وفرح لثورته على أصحاب السيارات غرماؤهم أصحاب الهياكل ، واعتبروا انتصاره انتصارا لهم ، فسكتوا عليه وأن حمل بعضهم نبأه الى الملك ! ..

ولم يجد فى ساعة غضبه الا أن يرسل فى استدعاء « ابراهيم » .

وحضر الباحث الذى عثر على الحقيقة الى قصر الطاغية ، دون أن تساوره رهبة أو يداخله خوف ، لأنه كان يعلم أنه اقوى بايمانه من المشركين جميعا .. وسأله الملك عن ربه ..

« قال ابراهيم : ربى الذى يحيى ويميت » !!

وضحك الطاغية وقال :

« أنا احيى واميت » !! احكم بالموت ، واحيى بالعفو !

فقال له ابراهيم فى بساطة :

« أن الله ياتى بالشمس من المشرق ، فات بها من المغرب » !!

« فبهت الذى كفر » !! واخذته الرجفة ولم يستطع أن يحير جوابا !

« وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه ، نرفع درجات من نشاء ان ربك حكيم عليم » ...

واجمع القوم امرهم على حرب ابراهيم ودعوته ، فهى دعوة الى الاعتراف بالوحدانية والتحرر من الأوهام .. والتحرر من الأوهام معناه القضاء على الكهانات ونظريات التملك والحكم ..

وعز على ابراهيم أن يعارضه أبوه ويكون ضمن الكافرين ، ولم يسعه الا ان راح يحدثه فى ادب وصوت خفيض قائلا :

« يا ابت : لم تعبد مالا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا » ؟!

« يا ابت : انى قد جاءنى من العلم ما لم يأتك ، فاتبعنى اهدك صراطا سويا » !!

« يا ابت : لا تعبد الشيطان ان الشيطان كان للرحمن عصيا » !!

« يا ابت : انى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن ، فتكون للشيطان وليا » !!

وكاد قلب « آزر » ينفطر من فرط غضبه وثورته ، واحس كانما جثم على صدره كابوس حال دونه والصراخ فى وجه ذلك الجرىء !! وراح يجاهد ويناضل ويستجمع شتات الفكر ، حتى استطاع اخيرا أن يقول لولده :

« اراغب انت عن آلهتى يا ابراهيم (؟ !) لئن لم تنته لأرجمنك .. واهجرنى مليا » !!

وأمام غضبة الأب واصراره على الخطيئة واعتزازه بالكفران ، لم يسع الابن البار غير الصمت اذ سبقته ارادة الله واذا به فى نبرة حزينة يقول لأبيه — وهو يفارقه :

« سلام عليك ، سأستغفر لك ربى انه كان بى حفيا ، واعتزلكم وما تدعون من دون الله ، وأدعو ربى ، عسى الا اكون بدعاء ربى شقيا » !!

* * *

« وما كان استغفار ابراهيم لأبيه الا عن موعدة وعدها اياه ، فلما تبين له انه عدو لله تبرأ منه » !!

وقبل أن يغادر ابراهيم المعبد ، اتجه الى السدنة والكهان وشيوخ عباد الهياكل ، فوجدهم يتعبدون فسألهم فى سخرية :

« ما هذه التماثيل التى انتم لها عاكفون » ؟ !

فقال بعضهم :

« وجدنا آباءنا لها عابدين » !!

فقال لهم ابراهيم :

« لقد كنتم ، أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين » !!

« قالوا أجئتنا بالحق ، أم أنت من اللاعبين » ..

« قال : بل ربكم رب السموات والأرض الذى فطرهن وانا على ذلك من الشاهدين » ..

وعز على ابراهيم ان وجدهم يتسللون منصرفين وهم غير راضين ولا مقتنعين ..

قال **« ياقوم : انى برىء مما تشركون ، انى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين » !!**

فقرر ابراهيم بذلك مذهب الحنيفية وان النجاة والخلاص متعلقان به ، وأن الانبياء والرسل مبعوثون جميعا لاقرار ذلك الدين القيم والصراط المستقيم والمنهج الواضح ..

وقامت مجادلات بين الحنيفية والصابئة التى كانت تدعى انه من اللازم لمعرفة الذات وجود وسيط روحانى لا جسمانى لطهارة الروحانيات وقربها من رب الأرباب . أما الوسيط الجسمانى فما هو الا بشر مثلنا يأكل مما نأكل ويشرب مما نشرب ويماثلنا فى المادة والصورة ..

وقال الحنفاء : أنه لا بد لمعرفة الذات من وسيط من البشر ، تعلو طهارته وحكمته وعصمته فوق الروحانيات ، يماثلهم فى البشرية ويمتاز عنهم من حيث الروحانية فيتلقى الوحى بطرف الروحانية وينقله الى الانسان بطرف البشرية ..

* * *

واشتد الجدل واستفحل أمره ، ورأى كهان الهياكل وعبدة السيارات ان دعوة ابراهيم ستفرق بين الشعب وتقضى على مكانة حاكميه .. فأوعزوا الى « النمروذ » الطاغية بمعاقبته أشد عقاب والتنكيل به ..

وفى الوقت الذى راح فيه ابراهيم يفكر فى وسيلة عملية يقضى بها على عبادة أصحاب الهياكل — كما قضى من قبل على معتقد أصحاب السيارات وآمن معه بعضهم — وتذكر يوم عيد قريب قادم ، كان من عادة أهل بابل أن يمرحوا فيه فى الخلاء ويتركوا المدن والدور ..

وخطرت له خاطرة جريئة . اذ سوف تقفر المدينة من أهليها ، وكذلك المعابد والباحات .. وسيكون بوسعه أن يجد الوسيلة العملية للقضاء على هذه الأصنام ..

وتمتم ابراهيم هامسا :

« وتالله لأكيدن أصنامكم بعد ان تولوا مدبرين » !!

وحل اليوم المرتقب .. وخرجت جموع الناس فى أبهى حللها وحليها الى الخلاء كعادتها لتمرح وتستمتع بفرحة العيد ..

وتسلل ابراهيم الى باحة المعبد الكبير ، وبيده فاس .. وتقدم فى اصرار نحو الهيكل الأعظم وهوى بفأسه على أول صنم صادفه فهوى الصنم وتحطم ..

ولم تلبث الحماسة أن تملكته فانقلب على بقية الأصنام يهوى عليها وهو يردد : الله اكبر لا اله الا الله وحده لا شريك له **« فجعلهم جذاذا الا كبيرا لهم »** تركه فى مقامه وعلق مطرقته فى عنقه وانصرف ..

وعادت الجموع المرحة الى المدينة .. واذا بصائح منهم يصرخ نادبا الأرباب وقد صارت حطاما .. وتسارع القوم ليتبينوا الحدث الجلل .. وتولاهم الذعر واقبل القوم بعضهم على بعض يتساءلون **« قالوا : من فعل هذا بآلهتنا » ؟!** وتذكر بعضهم ابراهيم وسخريته من الأصنام وعابديها :

« قالوا : سمعنا فتى يذكرهم يقال له ابراهيم » ..

وتعالت الأصوات الصاخبة اللاعنة تطالب بالانتقام وتصايح الكهان فى ثورة مطالبين بابراهيم .. **« قالوا : فاتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون »**

وتقدم ابراهيم من الجموع الحاشدة والتف الناس حوله وانصتوا الى الأحبار وقد راحوا يسألونه :

« قالوا : أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا ابراهيم » ؟!

فنظر الى الصنم الأكبر واشار اليه وبلهجة يشوبها التهكم :

« قال : بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم ان كانوا ينطقون » ! !

فقالوا له : **« لقد علمت ما هؤلاء ينطقون » !!**

« قال : أتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئا ولا يضركم ، أف لكم ولما تعبدون من دون الله ، أفلا تعقلون » !!

واخذ الأحبار كلمات ابراهيم الساخرة اعترافا صريحا منه بتدمير الاصنام ، فتصايحوا مطالبين بتعذيبه ثم **« قالوا : حرقوه وانصروا آلهتكم ، ان كنتم فاعلين » ..**

وطابت للقوم فكرة احراق ابراهيم .. واعدوا له حفرة رهيبة فى الميدان الكبير .. وتقاطرت جموع الناس حتى ضاق بهم الميـدان والطرق المؤدية اليـه .. وأشـار الحبر الأعظم الى حراس النـار فأشـعلوها .. وجىء بابراهيم ..

وتعالت السنة اللهب المندلع من الحفـرة الرهيبة واستسلم ابراهيم لجلاديه وهم يلقونه فيها ، فى الوقت الذى ترددت فى الكون كلمـات قدسية صادرة من السماء :

((.. يانار كونى بردا وسلاما على ابراهيم)) !!

وخمدت النيران .. ورأى الناس جميعـا ابراهيم كمـا هـو وكأن لم تمسسه نار .. وكانت آية الله الكبرى والمعجـزة التى وقف القـوم أمامها حيارى يرتعدون ..

واحس ابراهيم أن البقـاء فى دنيا الضـلال أمر يعارضه العقل وتأباه الحـكمة .. وأن ما دامت أرض الله واسـعة فليهاجر بدينه . وليفعل الله بالكافرين بعد ذلك ما يشاء ..

* * *

وخرج ابراهيم من بابل تاركا وراءه ديار الشرك والضلالات واهليها .. مهاجـرا الى الله .. تتبعه قلة آمنت به وبربه .. وكانت فيهم ((سـارة)) زوجته الوفية ، وابن أخيه ((لوط)) وزوجته ..

وبدت القرية للقادمين من قلب الصحراء وكأنها جنة فيحاء تناديهم ..

انها ((**حران**)) .. القرية الغنية الآهلة ، ذات الحضارة والمكانة العريقة المرموقة .. فهل يدخلونها أم يجاوزونها سائرين وراء قائدهم ، ليصل بهم الى حيث يريد ؟!

لم يكن أحب الى ابراهيم من أن يستقر ومن معه ، وان يقضى فى ربوع ((**حران**)) الخصيبة بعض الوقت ولو للراحـة والاستجمام حتى يقضى الله امره .

وشاءت ارادة الله أن يستقر ابراهيم ومن معه فى ((**حـران**)) .. وأن يخالط الشعب الجديد ويتعرف عليه ويبدأ فيهم دعوته وجهاده ..

وعلا صوت ابراهيم يدعو الى الحنيفية ..

ولكن حظه فى ((**حران**)) لم يكن بأسعد منه فى ((**بابل**)) !!

فلم تكن القرية الجديدة تختلف فى شىء عن تلك التى هاجـر منها ، اذ كانتا متحدتين فى كل شىء حتى فى الأفكار والعبادات !!

وضلت صيحة ابراهيم ، ولم تجد دعوته صداها فى اذن تسمع أو قلب يصغى أو نفس تخشع وتميل الى الحق .. وكره القوم هناك ذلك الغريب الذى أحدث فى بابل وطنه ما أحدث ، وفعل بأرباب أهليه ما فعل — وخشوا أن يكرر الحادث فى بلادهم ، فيفرق كلمة الناس ويصرف بعض المستضعفين عن دين الأهل والآباء — فوقفوا دونه سدا ، وحالوا دون دعوته والانتشار

وعز على ابراهيم ان يرتفع شأن ((**السيارات**)) فى قرية هو فيها ، وأن يسجد الناس لغير الله ، وراح يدعو ويجاهد ويحاول بكل وسيلة وسبب أن يصل الى أعماق القلوب فيطهرها ، لتكفر بالعروض الزائلة ، وتبتعد عن أكاذيب الكهان وكفرهم وتؤمن بالحنيفية الصادقة دين الله الواحد القهار ..

***

ودار الفلك دورته .. وتوالت الشهور والأعوام وابراهيم والقلة التى اتبعته فى واد ، وأهل ((حران)) فى واد آخر غلف القلوب ، صم الآذان ! تبدو أمام عيونهم الحقائق فيأبون بعنادهم أن يروها كى لا يخضعوا للفضيلة ، ولا يروضوا انفسهم على الطاعة ويظلوا سادرين فى الغى والضلال ! !

وفجأة هبت على الصحراء ريح صرصر عاتية ، وراحت تزحف فى قسوة على البقاع الخصيبة المنتشرة على أطرافها !!

وتقدمت جيوش الجدب فى رهبة بشعة ، عاثت على الأخضر واليابس ! ! وغار الماء وشحت السماء ، وجف الضرع ، وتشققت الأرض واسودت صفحتها وتحجرت .. فوجفت القلوب ، وهلعت الأفئدة .. وتولت الناس حيرة دفعت بهم الى محاولة الهرب من هول الموت جوعا ! !

وهاجر قوم الى بابل .. وأسرع آخرون الى غيرها .. ورحل البعض الى الشمال ، وكان الجنوب مقصد البعض الآخر ، فى الوقت الذى اتجهت فيه جموع أخرى الى وادى النيل ..

ووجد ابراهيم نفسه يرحل مع الراحلين ، ويسير مع ((**سارة**)) الوفية ، ولوط الأمين الى أرض مصر الخصيبة ، لعله يجد فيها مالم يجده فى غيرها من القرى والبلدان ..

وكان الوادى الأخضر الخصيب فى تلك الأونة منقسما على نفسه ، يحارب أهله بعضهم بعضا فى سبيل السلطة أو تحكم طائفة فى طائفة .. حتى وهنت القوى من كثرة الصراع ، وايذاء بعضهم للبعض .

ووسط هذه الملاحم الرهيبة — استطاعت طائفة من الرعاة المشردين فى الصحراء أن تنفذ الى الوادى الخصيب ، ونظم الجوع صفوفهم ، فاتحدوا .. واستماتوا .. فكان لهم فى النهاية نصر مؤقت مكنهم من بعض مدن الشمال فأقاموا فيها حكومة ودولة غريبين عن مصر والمصريين ! !

وعندما بدأ ابراهيم وصحبه يخطون أول خطواتهم الى مصر ، كانت تحكم الوادى تلك الطائفة الغريبة من الرعاة المشردين الذين أسماهم أهل مصر ((الهكسوس)) ! !

ولقد شجع ابراهيم على طرق بابهم ان كثيرين من أهل البلاد التى عمها القحط سبقوه الى مصر ، فوجدوا فيها وطنا ثانيا ، ونعمة ورخاء طالما تاقت اليه النفوس .. وان من صار اليهم الأمر فيها عن طريق الاغتصاب قد رحبوا بمقدمهم ، وقبلوهم فى رحابهم الجديدة الوسيعة بدوافع التعصب للقومية الغريبة الدخيلة التى كانوا يتلمسون لها أسباب القوة والعزوة ، وكان ترحيب الحكام — المغتصبين — بطوائف المهاجرين ترحيبا سياسيا ينطوى على اغراض خبيثة فى نفوسهم ، اذ أرادوا أن يجعلوا من الغرباء قوة يخيفون بها أهل البلاد ، ويدا حديدية تبطش بكل من تسول له نفسه معارضة الدخلاء من أهل الديار حتى يكاثروهم فيها وتكون لهم فى شتى أنحاء الوادى رهبة تضمن للمشردين الحكم والاستقرار ! !

ومع ذلك فالهكسوسى الأحمق ، سارق الأرض والخيرات — كان يستطيع ان يجعل من مقدم ابراهيم الى بلاطه فاتحة خير له ، ووسيلة من وسائل استقرار حكمه ، ولكنه أبى أن يفكر بعقل سليم .. ولم يصغ لغير هاتف الخوف الذى تملكه ساعة علم ان ابراهيم قادم اليه !!

كان ابراهيم فى نظر ((**الهكسوسى**)) قوة .. قوة جديدة يساندها ايمان وتحميها عقيدة ، فهاب لقاءه قبل أن يأتيه واشفق على نفسه وسلطانه من كوارث ، تخيلها وشيكة الوقوع على الوادى فى أعقاب ابراهيم !!

لقد تصور ((**الهكسوسى**)) نفسه بين شقى الرحا ، بين قوتين غلابتين : أولاهما ، روح مصر المعنوية ، وكفاح شعبها المستمر للتخلص منه وتشريد قومه فى الصحارى مرة أخرى .. والثانية هذه القوة الروحية الجديدة التى حملها هذا الداعية الى الوادى ! !

وخاف الغاصب أن يجد ابراهيم مقاما فى بلاد النيل بعد أن سبقته اليه أخبـاره .. وخشى أن يقف منه موقفه من ملك بابل وهزيمته أمامه وأمام شعبه ..

وبينما كان اللص الهكسوسى مستسلما الى أحلام خوفه ، كان ابراهيم يخطو أولى خطواته المباركة على أرض الكنانة المقدسة ، فأسرع الطاغية يفكر فى ايجاد مخرج ينقذه من ضيف غير مرغوب فيه ! !

ثم حدث ما توقعه ابراهيم من الطاغية الهكسوسى : اذ أرسل اليه من يخبره بأن موجة القحط قد زالت ، وان الخصب قد عاد الى سابق عهده فى ((حران)) وغيرها .. وانه لابأس عليه أن يرحل عائدا الى وطنه مزودا بالخير والثراء ! !

وجاء رسل الهكسوسي الى ابراهيم ، يبلغونه قول سيدهم ... الذى طالبه بالرحيل ... وخرج ابراهيم من مصر .. وفتحت له الصحراء ذراعيها للمرة الثانية مرحبة به ، وحملته فى لين ورفق الى حيث اراد ..

وتبدت مشارف الأرض المقدسة لعينى ابراهيم .. وحلا له ان يترك « حران » وما حوت ، وأن يستقر وأهله فى بقعة محدودة صغيرة الى جوار « بئر سبع » ..

وتم له ما أراد ، ووجد البقعة المناسبة التى أقام فيها بيته ، واطلق ابله وغنمه ، وحفظ أمواله وما كان يحمله .

وسجد ابراهيم لله شكرا على عنايته به وأهله .. وراح يدعو ربه :

« رب هب لى حكما والحقنى بالصالحين واجعل لى لسان صدق فى الآخرين ، واجعلنى من ورثة جنة النعيم ، وأغفر لأبى انه كان من الضالين ، ولا تخزنى يوم يبعثون ، يوم لاينفع مال ولا بنون ، الا من أتى الله بقلب سليم » ! !

وتسامع الناس بمقدم الرسول الذى هدم عبادات الشرك ، وقضى بحجته على أهل الضلالات .

واحب بعض من أراد الله لهم الخير ، ان ينظروا فى أمر دينه ، ويعرفوا سر دعوته .

ووفدوا عليه اقواما بعد أقوام ، فجلس فيهم جلسة الرسول المعلم ، والمرشد الداعى الى الحنيفية دين الله القويم .

فوجدوا الحقيقة فى دعوته ، فركنوا اليها وآمنوا بها واتبعوا ملته ، وجعلته جموعهم الوافدة عليه ، يحس انه قد أبلغ الرسالة ، فتوفر عليها ، كما توفر على تدعيم بقائه حيث وصل ، وقد غمره احساس بأن هذه البقعة من الأرض انما هى وطنه الجديد ...

* * *

واذا كان الباحثون يقررون ان ابراهيم قد وجد قبل زمن **« حمورابى »** المشرع البابلى ببضع سنين معدودات ، فاننا نستطيع أن نقول ان ميلاده وبعثه ، حدثا فى زمن الملك « سن مبلط » الذى حكم قبل حمورابى ، وكان من سلالة بابل الأولى ، وان كان هناك رأى يقول ان الميلاد قد تم أيام حمورابى نفسه ، وان الرسالة اعلنت أيام ابنه « شمس أيلونا » .. والى هذا يشير العهد القديم من الكتاب المقدس . حيث يسمى حمورابى باسم عبرى هو « أمرافل ملك شنعار » ..

وسواء ولد ابراهيم عليه السلام ، وتم بعثه فى زمن حمورابى أو أبيه أو ابنه ، فان الذى يهمنا ذكره ، ان عبادة الشمس ، كانت سائدة فى ذلك الوقت ، وانها كانت ترمز الى المعبود الأكبر والى جانبه عدد لا حصر له من الأرباب المساعدة ، الموكول الى كل منها عمل من اعمال الاشراف على الكون ومسيره وأحوال العباد ..

وعلى هذا نقول ، ان ابراهيم عليه السلام ، وجد فى زمن طاغية محارب شديد البطش ، له مكانته وتقديسه ، وصلته بالمعبود الشمس ، صلة سمحت له ، بأن يقف فى حضرته القدسية ويتسلم منه ألواح الشريعة ، يدا بيد ..

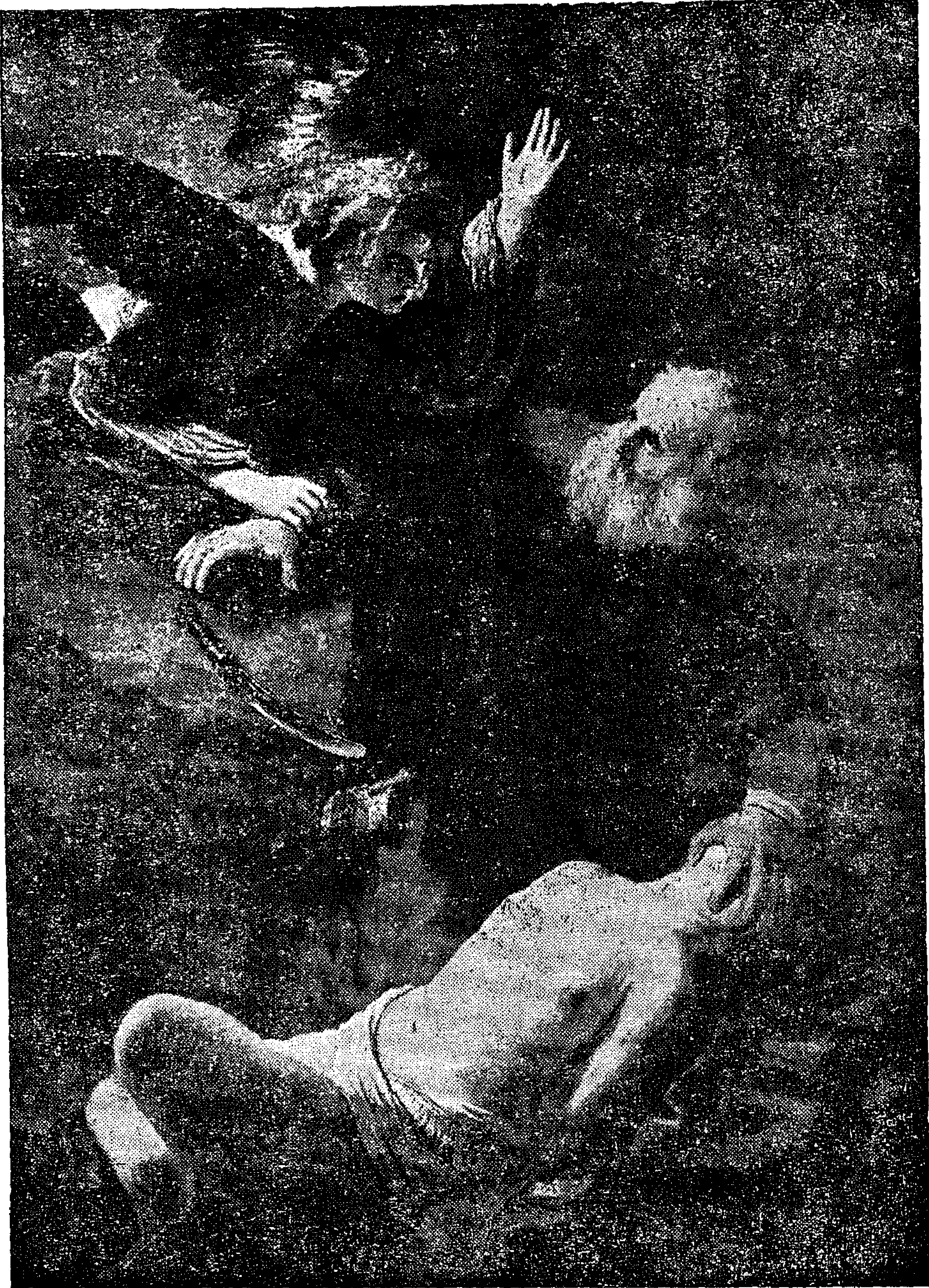
وقيام ابراهيم بعد هذا بدعوته الي الوحدانية ، والكفران بالأرباب التى تحمى ذلك الملك الجبار الطاغية الذى يسميه الشراح والمفسرون ((النمروذ)) كان جرأة ولا شك وشجاعة لا توجد الا فى قلب صاحب رسالة ، مؤمن برسالته وفاعليتها ، وقدرتها على التغلب على كل الصعاب للقضاء على الضلالات وتحرير الناس ..

وخروج ابراهيم بالدعوة ــ وهو الذى نشأ فى بيت ((**تارح**)) رجل الدين الذى عرف باسم ((**آزر**)) ــ فيه أدق معنى للسخرية بذلك الدين الوثنى ، الذى عجز عن الوصول الى القلب النقى الذى حكم صاحبه العقل ، وراح ينظر فى ملكوت السماء والأرض ليهتدى بوجدانه الى الحق الصراح ، والى حقيقة الوجود ، وسر القدرة الخلاقة التى أوجدت الشمس والقمر والنجوم ، والأرض والنهر والبحر والجبل ، وقدرت الحياة والموت ، وخلقت الناس جميعا ..

ودعوة ابراهيم بعد ذلك بالكفران بالصنم ، ونكران السيارات المعبودة والكواكب المتحكمة فى أقدار الناس ــ تفسر ولا شك ما يعنيه الدين الحق ، من ثورة على الباطل ، كما توضح أن قوة الداعية نفسه واعتزازه بايمانه ولو كان فردا أعزل ، أمام جيوش الكافرين ، كفيلان بأن يتغلبا على كل المكاره والصعاب .

ولقد دق ابراهيم باب الملك الطاغية ، وناقشه فى معبوده ، وسخر من ربه ، ولم يخشه ، ولم يرهب ناره ، وكانت نجاته منها ــ وقد أعدت لحرقه والقضاء عليه ــ آية الله الكبرى التى صرفت عن ابراهيم كيد النمروذ ، وجعلت الناس يلتفون حول الداعية الصادق ، الذى نادى بالوحدانية ، وانه : **لا اله الا الله ..**

وحديث الناس فى بابل ، وغيرها من بلاد تحت حكم النمروذ ــ عن الله القادر رب ابراهيم ــ يفسر ولا شك معنى خروج الرسول الأكبر بدينه فى غير هيبة ، ولا وجل وهجرته من شعب الى شعب فى سبيل اقرار هذا الدين الحنيف ..



« فلما بلغ معه السعي قال : يابني اني أرى في المنام اني أذبحك فانظر ماذا ترى (؟!)

« قال : يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني ان شاء الله من الصابرين ، فلما اسلما وتله للجبين ، وناديناه ان يا ابراهيم ، قد صدقت الرؤيا ، انا كذلك نجزي المحسنين ، ان هذا لهو البلاء المبين ، وفديناه بذبح عظيم » .

(سورة الصافات) (الرسالات الكبرى)

ابراهيم عليه السلام

« واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل : ربنا تقبل منا انك انت السميع العليم ، ربنا واجعلنا مسلمين لك ، ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ، وارنا مناسكنا ، وتب علينا انك أنت التواب الرحيم » ...

(سورة البقرة)

ومع الاستقرار الجديد ، عاود ابراهيم دعوته ، وعلا صوته بدعوة الحق ونادى بالحنيفية السمحاء .. نادى بالاسلام دين الفطرة العظيم ، مستجيبا فى ذلك الى ربه الذى أوصاه به ، فهو الدين المعروف المعهود الذى أتت به الرسل جمعاء من عند الله ، وهو الدين الذى اصطفاه الله على غيره من الأديان :

« ان الله اصطفى لكم الدين » ..

والدين هو الذى حدده سبحانه بقوله :

« ان الدين عند الله الاسلام » !!

وراح ابراهيم بدوره يوصى بها الناس .

فاستجاب له من استجاب ، وعصاه من كتبت القدرة عليه البوار والشقاء .

ومرت الأيام .. وآنس الله وحدة ابراهيم بابنه البكر اسماعيل ، فكان مصدر راحة لقلبه ، وسعادة لنفسه وان تسبب هذا فى اشاعة جو من الغيرة والقلق فى ارجاء البيت الوادع ، فكان أن غضبت « سارة » ، واقسمت على زوجها العظيم أن يفرق بينها وبين هاجر ، وأن يبعدها وابنها عنها ، حتى لا تتعذب ، وهى تراها أما حانية لبكر ابراهيم ، دون أن يكون لها هى هذا الشرف وتلك الفرحة بالأمومة الخالدة ..

ونقل ابراهيم بصره هنا وهناك .. وساءل نفسه اين يذهب بهاجر وولدها ... وأى القرى يتخيرها لمقامها ، ولم يطل به التفكير اذ هداه الله الى المستقر .. انه مكان بعيد حقا ، ولكنه مكان مقدس ، عرفه ابراهيم من قبل ، وجعله موطنا لتحنثه وتعبده ونجواه ..

ووقف ابراهيم بالفكر طويلا ، عند ذلك المكان القفر الذى هداه اليه الفكر ... انه واد غير ذى زرع ... لا حياة فيه ، ولا اناس ، فكيف تطيب نفسه ، ويستقر وجدانه ، وهو ينقل اليه الزوجة المطيعة والابن البكر ؟!

ولم يتردد ابراهيم وهو القوى الايمان .. واختار الجدب على الخصب ، وانتوى أن يجعل من المكان المنعزل موطنا لأسرته الصغيرة ، وقد استقر فى فؤاده ، انه احسن فعلا تخير المكان ، الذى جعل منه متعبده ومكان نجواه ، الذى دعا فيه الله وهتف باسمه وساله السداد والتوفيق ..

هنا بيت الله الحرام .. هنا الأمن والسلام .. وهتف ابراهيم ضارعا

« رب اجعل هذا البلد آمنا ، واجنبنى وبنى ان نعبد الأصنام ، رب انهن أضللن كثيرا من النـاس ، فمن تبعنى فانه منى ، ومن عصـانى فانك غفور رحيم » ...

كان ابراهيم يؤمن ان الله الذى رعاه حيث استقر ، لابد وان يحرس عائلته الصغيرة حيث أراد لها ان تكون .. وبالهام خفى سار ابراهيم باهله الى مكان أول بيت اتخذه هو لعبادة الله ونجواه وانزل هاجر وابنها هناك ..

وهناك ... وفى مكان النجوى .. تضرع الى الله ودعاه ، وهو العالم بحاله الخبير بمشاعره ، وسما بالتوسل الى سدته العالية وقال :

« ربنا انى اسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل افئدة من الناس تهوى اليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون » ...

وعاد ابراهيم بعد ذلك الى بيته الأول ، تاركا هاجر ووحيدها اسماعيل فى البرية الموحشة الى رعاية القادر الذى كتب على نفسه الرحمة بعباده ، وقدر عليهم الرزق والحياة والموت والبعث والنشور ..

عاد ابراهيم المؤمن الى بيته ، هادىء النفس ، ثابت الوجدان ، واثقا انه أودع أعز الناس ، لدى من لا يضيع عنده شىء ..

عاد ابراهيم ، وقد امتلأ قلبه بالرضا ... ومع الرضا حنان الأبوة ، ورحمة الوالد بابنه البكر الذى طالما تمناه ليؤنس وحدته ، ويؤمن شيخوخته ويرثه من بعده ، فتعيش ذكراه بين الناس .

وهكذا أصبح لابراهيم بعد مولد اسماعيل واغترابه مع امه ، شاغلان ... **رسالته ، وولده !!**

ومرت الأيام ...

واراد الحق جل وعلا ان يضع خليله الثابت القلب موضع اختبار دقيق بين عاطفتي الأبوة والايمان ، فكان أن أراه في نومه انه يذبح ولده اسماعيل !!

واستيقظ الشيخ الجليل ، وجعل في هدوء يراجع ما حدث ويذكر ما كان ... انها رؤيا صادقة ... وانها ولا شك أمر سماوى ، وان عليه هذه المرة الا يجادل أو يسأل .. بل ان يطيع وان ينفذ في العلن ما رآه في منامه ، وان يخرج لنوه الى حيث ترك صغيره الذى شب . ليذبحه . امتثالا لأمر الله ، واقرارا بطاعته وخضوعا لمشيئته ، ليبرهن ان النبوة المقدسة ما كانت لتشغله عن الطاعة ، أو ترده عن الامتثال والتضحية المطلقة ، ولو بأقرب وأعز الناس اليه ..

واجتمع الأب الشيخ بوحيده وبكره ... اجتمع الحنان والعطف ، بالواجب والأمر السماوى ... وكان ابراهيم على عهده ... ثابت الجنان لا يعرف غير الطاعة والامتثال للأمر العادل مهما كان ..

وصارح الأب ولده بالأمر ..

قال ((يا بنى : انى أرى في المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى)) ؟

وكان اسماعيل ابن ابيه .. كان جديرا بأبوة ابراهيم له .. وكان حيث اراد له أبوه أن يكون .. الابن المطيع الذى لا يعارض ولا يجادل ولا يناقش والده الذى اراد ان يذبحه ...

وفى استسلام اجاب اسماعيل :

((يا أبت افعل ما تؤمر ، ستجدنى ان شاء الله من الصابرين)) !! .

وخرج الأب الشيخ يتبعه ولده الى مكان قصى لينفذ فيه ارادة الله ..

((فلما أسلما وتله للجبين)) !! اهتزت السموات والأرض ونادى الحق خليله :

((يا ابراهيم (!!) قد صدقت الرؤيا ، انا كذلك نجزى المحسنين ، ان هذا لهو البلاء المبين ، وفديناه بذبح عظيم)) !!

ومرت التجربة بسلام ... ووقفت عند نهاية أرادها الله ، وبداية سعيدة لابراهيم ، وافتدى الله اسماعيل ، **((بذبح عظيم))** وتمت التضحية وكتبت النجاة لبكر ابراهيم ، فكانت تجربة لم يدخلها الأب وحده ، بل شاركه فيها الابن المطيع الواثق من رحمة الله وبره فانصهر وجدانه ، وتفتح قلبه

لايمان خالد ، وطاعــة عمياء لله الحق ، الذى قــدر فهدى وكان دائما أرحم الراحمين ...

وتجلت القدرة على ابراهيم بفيوضها ، فاتسع بيته ، ونمت اسرته وكانت البشرى بمولد اسحاق ، الجزاء الأول لطاعته وامتثاله .. ثم توالت أنعم الخلاق على عبده ، فأراد ـ وقد أصبح ابراهيم ذا عيلة ، وذرية تحمل اسمه من بعده أن تخرج دعوته من الحدود المفــروضة ، وان تتخطى الآفاق ، والا يتفرد بها شعب دون شعب .

ومادام ابراهيم قد استجاب لداعية الجهاد يوم خرج بدعوة الله مهاجرا من موطنه الأول ، ومادام قد نادى بالوحدانية المطلقة حيث استقر ، ودعا اليها من نزل بينهم من الناس .. فيجب أن يظل حيث اراد له الله أن يكون ، وان يبقى صــاحب الصوت المــدوى الذى يدعو الى الحــق والهــدى وكل فضيلة وكمال .

وجاء الأمر الربانى الى ابراهيم ببشرى جديدة وتكليف عظيم .. وتفضل عليه الحق سبحانه بقوله :

((انى جاعلك للناس اماما ..))

وهذا تفضيل مطلق واشعار بمقام لم ينله رسول من قبل ابراهيم ، اذ قصرت الرسالات على قــرى محــدودة ولقوم معينين بالذات ، ولم تكن رسالتهم عامة شاملة بحال من الأحوال ..

والأمر الربانى بامامــة ابراهيم ، فيه مسئولية عظمى ، وجهاد جديد ، وتبعات لها خطورتها ، وتكليف بهداية شاملة تنتظم البشر جميعا فى سلكها ، وتخرج بهم من الضلالات الى الهدى والنور ..

وبدت لوجدان ابراهيم جسامة هذه الرسالة .. وجلال الأمر الربانى وتصور امامته للناس جميعا .. ورآها رسالة تامة شاملة تدعو الى القضاء على الضلالات والترهات والاباطيل لتسود العالمين الفضائل السامية ويؤمن بالخير والوحدانية جميع الشعوب ، فلا كهانات ، ولا أصنام ، ولا أوثان ، ولا شرك ، ولا تحكم فى العقول .. بل عدل وحق واخاء وهدى ونور ..

وارتاح ابراهيم للتــكليف الأعظم ، وان اشفق منه ، لا على فئة .. بل على هؤلاء الناس ، وكأنما خاف ان تلى الدعوة الناجحة نكسة ، تقف بهــذه الرسالة من بعده حيث وصل بها ، ثم تعود بعد موته ، وتفرق المؤمنين به ، الى الظل الذى انحسرت اليه الرسالات الأولى ، فيعــود البشر الى الضلال والكفر وتحكم اهل الكهانات والشرك بالله .

ولما كان ابراهيم قــد اهتدى الى الله عن طريق العقل والمنطق والجدل الذهنى المعزز بالذكاء اللماح ، والنظــرة الصائبة ، قبل أن تاتيه الرســالة

الربانية والأمر بالجهاد والخروج بالدعوة الحنيفية الى العلن ... فقد ظل يعمل لنشرها وهو اشد الناس ايمانا بنورانية العقل وقوة المنطق وبراعة الجدل السليم ليصل الى الاقناع ..

ولم يكد خليل الرحمن يستمع الى البشرى السماوية بجعله — اماما للناس — أى هاديا للبشر جميعا ومرشدا ومبشرا بالدين القويم ، حتى تصور ما تعنيه هذه الامامة العظمى فى حياة الأمم وسائر الشعوب ... فاذا هو يرقى الى سدة ربه بالضراعة ، ويتوسل اليه فى لهفة ان يمد رواق هذه الامامة الى بنيه من بعده لتستمر الرسالة وتبقى ويحملها الأبناء والحفدة من بعد ابيهم ابراهيم الذى قال سائلا ربه فى خشوع « ومن ذريتى .. » ؟!

وكانت ضراعة استجاب لها الحق المنان فى حدود ، اذ قال سبحانه : « لاينال عهدى الظالمين .. » ؟!

فانسحبت الامامة ، لا على ذرية ابراهيم جميعا .. بل على الصالحين منهم دون الظالمين ، الذين سبق علمه فيهم ، فعرف انهم سيكفرون بالنعمة، ويتعاظمون بالنسب الطاهر وينصرفون عن الشريعة ، ويقولون نحن أبناء ابراهيم .

وامام الاستجابة الرحيمة لرجاء ابراهيم ، أصبح واجبا عليه أن يعد العدة لتحمل التبعات الجديدة ، وما تفرضه من جهاد ومشاق ، فكان أن أسرع وهو فى غمرة فرحته ينفذ الامر ويعبد الطريق للامامة العظمى ، وبدأ بأهله ... بذريته التى سأل الله أن يورثها شريعته السمحاء ، وأن تكون فيها القيادة الدينية وأن تحمل من بعده عبء ابلاغ رسالة التوحيد والوحدانية ، ومحاربة الافك والبهتان والزور والشرك والضلالات .

وجاهر ابراهيم بالدعوة ... وراح يشرح أصول الدين ، ويوضح معالم الملة الاسلامية السمحاء ... وأوصى بها ابراهيم بنيه ..

وأوصاهم بما وصى الله به آدم ونوحا وهودا وصالحا وشعيبا وغيرهم وغيرهم ... اوصاهم بعبادة الله ، والاقرار بربوبيته والاعتراف بتفرده المطلق وعدم مشابهته للحوادث ، وانه سبحانه وتعالى ليس كمثله شىء ، وهو القادر السميع البصير العليم .

اوصاهم بالصبر والجلد والثبات وتحمل المكاره ، والاستمساك بامامة

الناس جميعا ، وان بينهم وبين الحق سبحانه عهدا ، هم مسئولون عنـــه ليوم الدينونة الكبرى ، وانه جل وعلا سوف يسألهم عن الامانة التى كلفوا بحملها فى هداية الشعوب ومحاربة الشرك اينما كان .

وعرف اسماعيل واسحق دورهما فى رسالة ابيهما ... فى أول واعظم وأهم الرسالات السماوية الكبرى .

عرف الوريثان دوريهما فى الرسالة ، ابان حياة أبيهما العظيم خليل الرحمن ... وعرف كل منهما دوره من بعد حياة ابيه ، فاعدا نفسيهمـــا للامر وبدأ كل منهما جهاده حيث استقر ، واصبح له مقام وعشيرة وبيت ، كان يتسع وينمو بالتصاهر والتقرب والتعرف الى الناس .. !!

وأستمر ابراهيم فى اداء دوره بعزيمة شاب مكافح لا تفتر له همة ، ووضحت لعينيه معالم الامامة الشاملة ، التى يجب أن ينضوى تحت لوائها البشر اجمعين .

واخذت الشريعة الاولى طريقها الى الظهور ، ولم تعد فى جملتهـــا دعوة الى الوحدانية فحسب .. بل الى ما تأمر به الوحدانية ويدعو اليه الايمان بالله من فضائل ومزايا وخير للناس جميعا .

اصبحت الشريعة فى دورها الجديد تشريعا ودستورا للفضائل وحسن المعاملات ودعوة اخاء وود وحب وسلام بين الناس ، وحافزا يدعو الى الكمال مؤكدا ان الانسان بعمله لا بحسبه وماله ، وان خير العباد عند الله ، من عمل صالحا ، وتاب وآمن وامنه الناس على أموالهم واعراضهم وعاشرهم بالحسنى والمعروف ، وكان داعية ود وسلام .

ومد ابراهيم بصره الى الامام يسبق الاحداث ويرى الغد المأمول على ضوء الحاضر المستقر ... لقد كانت الرسالة ومازالت عبء جهاد ومشقة، لا تقصير فيهما ولا راحة ، وان الداعية مهما افلح ونجحت رسالته وتعاظم انتشارها فعليه الا يكتفى بذلك ، بل يتخذ من سـعة الانتشـــار وسـيلة لتحقيق المزيد من النجاح والذيوع .

ورأى ابراهيم الغد ، فراح يعمل من أجله ، ومن أجل استقرار الرسالة الكبرى ، التى أصبحت شريعة أولى للناس جميعا ، وصحفا ربانية مطهرة ، فيها الحدود والاحكام وفيها تفصيل لكل شىء ، وكل ما يمس مجتمع الناس من معاملات وصلات ، فرأى خليل الرحمن ان الواجب يحتم أن تكون لهذه

الشريعة الامامة ، والدين القيم الذى اراده الله للناس جميعا ، وارتضاه لهم ملة وعقيدة ، ومراكز اشعاع ومستقر دعـوة ، تنطلق منه فى مشارق الارض ومغاربها ... وعنده يتجمع الناس فى يوم معلوم يكون فيه التعبد شاملا ، والضراعة موحدة ، وتتم خلاله صلات التعارف بين الدانين والقاصين فيترابط المسلمون بشتى الروابط ، ويكونون على البعد ، أهل وطن واحد ، تجمعه شريعة الله ودينه التوحيدى القويم .

وتذكر ابراهيم مكان عبادته الاول ... المكان الطاهر الذى اعتاد أن يتحدث فيه بعيدا عن الناس ، يناجى ربه ويسأله الهداية والتوفيق .

تذكر ابراهيم ، واديا غير ذى زرع أسكن به أهـله وتركهـم فيه الى رعاية الله .

تذكر ابراهيم ذلك القفر الجديب الذى لا يحـده الطرف ، والهمه وجدانه ، أن هذه البقعـة الصامتة ، هى أصلح مكان ، لأن تكون مستقرا لبيت الله ... فحسنت له الفكرة وارتاحت اليها نفسه وهدات جوارحه ، واستخار الله فيما انتواه ، فالهمه أن يقيم فى « بكة » بيت الله العتيق .

« ان أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين ... »

وأسرع خليل الرحمن فى غمرة فرحته ، تاركا بيت ساره ، متجها الى البقعة الطاهرة التى هداه الله اليها وقد غلبه احساسه المرهف بأن فى اقامة معالم أول بيت مؤسس للعبادة والتقوى هناك ، ما يعنى أن دعاءه الاول ، لم تضل اصداؤه فى جوانب العـالم ، بل وجدت المستقر لدى الله السميع العليم ، فقضت ارادته ، أن يكون فى الوادى غير ذى الزرع بيت الله العتيق، ومستقر عبادته الذى ستهوى اليه افئدة الناس وقلوب العابدين .

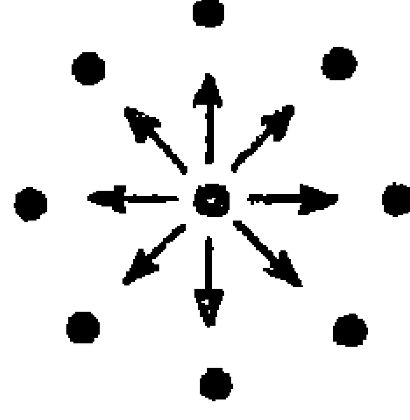
ولقد كان هذا ولاشك هو التعويض الربانى لابن ابراهيم البكر اسماعيل عما لحقه وامه من ابعاد واقصاء ، أصبح اليوم نواة تحضر ، واساس بقاء .

وفى قلب مكة ... مهبط الوحى ... وركن العبادة الركين ... راح ابراهيم واسماعيل يقيمان بيت الله ، وأول المساجد التى سيذكر فيها اسمه العظيم ... وجعلا يعملان فى همة لا تعرف الكلل وهما يحسان أن البناء كلما علا وارتفع ازدادا قربا الى الله ، وعظمت عنده مكانتهما ، وكانا مخلصين فى اداء الرسالة ، والقيام بواجب الامامة العظمى بين الناس جميعا .

« واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل ، ربنا تقبل منا انك انت السميع العليم ، ربنــا واجعلنا مسلمين لك ، ومن ذريتنا أمــة مسلمة لك ، وارنا مناسكنا ، وتب علينا انك انت التواب الرحيم ... »

وضجت السماء بالبشر ، وقد تقبل الله دعاء عبديه ، واعانهما بقــوة من عنده ، واستجاب للدعاء الحار ، المنطلق من أعماق وجدانهما ، فجعلهما وذريتهما مسلمين له ... وارتضى لهما ولســائر الأمم من بعــدهما ، دين الاسلام ، عقيدة ومفازة وقربا الى الله ، والى الفضائل جمعاء .

« ومن أحسن دينا ممن أســلم وجهه لله وهــو محسن ، واتبع ملة ابراهيم حنيفا ... » (١)



---

(١) سورة النساء



((قالوا يالوط انا رسل ربك ، لن يصلوا اليك ، فاسر باهلك بقطع من الليل ، ولا يلتفت منكم أحد الا امرأتك ، انه مصيبها ما أصابهم ، ان موعدهم الصبح ، أليس الصبح بقريب)) !! (سورة هود) (الرسالات الكبرى)

لوط عليه السلام

« وان لوطا لمن المرسـلين ، اذ نجينـاه واهله اجمعين ، الا عجوزا فى الغابرين ، ثم دمرنا الآخـرين ، وانكم لتمرون عليهم مصبحين ، وبالليل ، افلا تعقلون ؟ ! » .

(سورة الصافات)

عرفنـا فى خلال جولتنا السـابقة الشىء الكثير عن الديانات التى بدات بالوحدانية ثم تشعبت بها المسالك والطرق فصورتها العقليـات والاهواء حسبما احبت ووفق هواها وما رغبت .. فضلت وعمت وما وصلت الى الحقيقة وما عرفت غير الضلال والأباطيل ! !

جاء ابراهيم بالوحدانية وسبقه أنبياء عديدون ولكن العقل البشرى الجاحد وأطماع رجال الكهانات كانا يسيئان تصوير الدين ويستغلان شعائره فى مصالحهما ..

عرفت العقلية البشرية فى عهود الضلال عن « القدرة » وعن العبادات أشياء عديدة ولكنها لم تصل الى الحق فى شىء ولم تستطع أن تدرك أسرار التعبد أو تتعرف على الله الواحـد من واقع الآيات الكونيـة التى تحيط بالانسان فى السماء والأرض ! !

فتخيلت الله كوكبا ، أو صور لها الوهم ان الكواكب واسطتها الى تعرف الذات المجهولة ، وآمنت أخرى بأن النار هى الأصل .. فى حين تحزبت ثالثة للماء أو الهواء ..

وهبط مستوى البعض الى حد أن سجد لحجر من صنعه وراح يسأله النفع والضرر ، وراح آخر يعبد الحيوانات كالبقر والقطط وغيرهما ..

وانطمست العقلية طمسا تاما فى بعض الأحايين فانكرت وجـود الله وأدعت ان من أبدع العالم قوى عديدة قام كل منها بدور خاص به كما انها فى الوقت الذى استسلمت فيه الى الكهانات وصدقتها وآمنت بما كان

بدعيه رجالها ، انكرت ما كان يجيء به الرسل من لدن عزيز حكيم وأبت أن تؤمن به وتسير فى جانب الحق وتكون ضمن دعاته ..

وضلت العقلية وعمت وان كانت القلوب والنفوس من عادتها أن تتجه الى موجدها بالصلاة والتبتل والدعاء وطلب العفو والمغفرة ..

* * *

وارى استكمالا لبحثى وقبل أن أنتقل بالحديث الى عرض الديانات الكتابية والرسالات ذات الأثر الظاهر فى مجريات حوادث التاريخ — أن اعود بالذكر مرة أخرى الى ذلك العصر الذى تركناه من عصور بابل وجاراتها — وهو العصر الذى قام فيه صراع رهيب بين الحنيفيـة والصـابئة لأذكر شخصية كريمة كانت من أوائل المؤمنين برسالة ابراهيم عليه السلام وهى شخصية لوط عليه السلام ..

فعندما استقر ابراهيم حيث تركناه .. رأى ((**لوط**)) مريده وابن أخيه ان يتخذ لنفسه مقاما آخر يستقر فيه بدوره ويقيم بيتا ومقاما ووطنا جديدا، حيث يكون داعية الى الحنيفية السمحاء مبشرا بالوحدانية المطلقة ، هاديا الناس الى دين الحق واتباع الهدى ونبذ الضلال.

واسر لوط برغبته الى عمه ابراهيم فراقت له الفكرة ، ووجد فيهـا لونا مقدسا من ألوان الجهاد فى سبيل الحق ، فبـارك ابن أخيه وشجعه وطلب اليه أن يسرع بتنفيذها ، ففيهـا النعمة والخـير والهدى والهداية للناس جميعا .

واسرع ابراهيم الى ماله الوفير ، ففصل منه ما يخص لوطا ، ليتزود به فى رحلته وجهاده ، وليكون أداة استقرار له فى القرية التى سيحل بها .

((فآمن له لوط ، وقال انى مهاجر الى ربى ، انه هو العزيز الحكيم)) ..

ثم سار معه الى أطراف محلته ليودعه فى رحيله داعيا له بالخير والبركة فى الحل والترحال . وانطلق لوط الى ((**سدوم**)) ..

* * *

وايمان لوط بدين ابراهيم وخروجه على عبادات أهله وقومه وكفرانه بمعتقداتهم ، ثم خروجه بعد هذا مع عمه الى ديار أخرى غير الديار ، ثم تركه عمه بعد ذلك للاستقرار فى بلاد جديدة .. كل هذا يفسر لنا المعنى الجليل لكل رسالة سماوية ، والدور الذى يقوم به المخلصون من اتباع الرسـول والمجاهدون معه من أمر الخروج من أوطانهم بعد استكمال دراستهم للدين

واستيعاب أسراره ودقائقه ، لنشره فى بلاد غير البلاد التى نشأت فيهـا الدعوة ..

وفى هذا الايمان أيضا وخروج صاحبه به الى بلاد غير بلاده ما يعنى أن نزول الدين فى آية بقعة من بقاع الأرض على رجل من الناس ، لا يعنى أن هذا الدين قد اختصت به هذه البقعة ، فلا يتعداها الى غيرها من بقاع العالم ، بل يجعل منها مركزا للاشعاع الحضارى حتى لايسود الكفر مرة أخرى .. وقد اختار الله سبحانه ارضنا نحن العرب ، لتكون مركزا دائما للاشعاع الالهى ، فجعلها مهبط الوحى من آدم عليه السلام الى محمد صلى الله عليه وسلم !

ولقد خرج لوط برسالته حاملا لواء الدعوة التى آمن بها بعد أن شهد المعركة بين الحنيفية والشرك .. بين الدعوة الى عبادة الله والاصرار على عبادة الأصنام والنجوم .. بين الحق فى رسـالة ابراهيم عليه السـلام ، والباطل فى ادعاءات الكهان واهل المصالح من الصابئة ..

وخرج لوط واهله الى حيث أراد له الله أن يستقر ، حاملا مشعل النور والهداية ، ونزل فى ارض خصبة بين أناس تخيل فيهم أنهم سوف يتبعونه ويؤمنون به اذا دعاهم الى الله ..

فقد أحس لوط بعد مفارقة عمه ((**ابراهيم**)) ان عليه هو الآخر ان يحمل جزءا من الرسالة المقدسة ، واستشعر أن بقاءه الى جانب عمه فيه تقاعد عن نصرة الحق ، ووجد هاتفا يدعوه الى أن يترك محلة عمه ابراهيم الى قرية اخرى ، **يدعو اهلها الى الحق ، ويبشر بالحنيفية ويحارب الشرك ويقضى على عبادة النجم والصنم ، ويدعو الناس الى الوحدانية الخالصة فى الايمان بالله وحده ...**

***

ومرت الأيام والأعوام .. وذات عام جرى الفكر بابراهيم الى لوط .. ابن اخيه الذى توجه الى ((سدوم)) مبشرا بالحنيفية ، داعيا الى الله .. وساءل نفسه : ترى أى نجاح اصابه لوط هناك فى سدوم ؟ !

وطاب للشيخ الطيب بعد سنين عديدة مرت أن يتخيل لوطا ابن اخيه منذ الساعة التى تركه فيها وخرج بابله وغنمه ونفائسـه وأمواله ذاهبـا الى ((**سدوم**)) .

وتصور ابراهيم أهل القرية البعيدة وقد سمعوا بمقدم لوط اليهم ، فخرجوا مرحبين مؤمنين بما جاء به ، مصدقين رسالته .

وتمنى ابراهيم فى غمرة خياله أن يكون شأن ابن أخيه قد تعاظم هناك ، فكثر اتباعه واستطاع بجهاده وهم الى جانبه أن يهدم معاقل الشرك والضلالات .

وكرت الأعوام متلاحقة أمام عينى ابراهيم ، الذى ما أحب أن يتخيل الا كل جميل ، ولا أن يتصور الا كل نجاح كتب للوط .. ولم يدر انه أسرف فى تمنيه ، وأبى خياله فى غمرة حماسته وآماله أن يتصور الذى حدث فعلا فى أرض سدوم .

***

تلك كانت قصة ..

قصة من قصص الجهاد الدامية .. بدأت بدعوة تلاها كفران وعناد ، وسارت فى نضال وقسوة .. حتى لقد خيل الى لوط صاحبها وبطلها انها سوف تنتهى كما بدأت بضياع جهوده ، واصرار القوم المفسدين العصاة على الشرك والاثم والفجور ، وتمسكهم بالمعاصى وتفاخرهم بالكبائر التى كانوا يرتكبونها جهارا ، وكفرانهم علانية بدين الحق الذى جاءهم به لوط !!

ولطالما أستعرض لوط صحائف جهاده ، فعز عليه أن تنتهى القصة الى لا شىء ، حتى لقد بدا له أن يترك القرية الظالمون أهلها .. **ولكن ، كبر عليه أن ينسحب وأن يعترف بالعجز ، ويترك ((سدوم)) الماجنة مهاجرا ، فاذا به يستمسك بالأمل ويبقى حيث هو حاملا المشعل ، عساه ان يبدد من هذا الظلام الذى كان يعيش فيه شعب لم ينل منه رسوله غير السخرية والنكاية والاستخفاف !!**

وكان عجيبا فعلا أن يعلوا فى أرض ((**سدوم**)) الماجنة وسوامرها الصاخبة صوت يدعو الى الحق ، وينادى باتباع الفضيلة والاقلاع عن الرذائل المخزية التى ألفها القوم واختلطت بدمائهم .. حتى لقد أصبحت الموبقات الدنسة جزءا من كيانهم المنحل ! !

ولكن لوطا كان شجاعا ، وكان يعرف كيف يحمل رسالته فى أمانة واخلاص فلم يقصر .. وطارد المفسدين حيث كانوا ، وارتفع صوته القوى الرنان داعيا الى الفضائل مبشرا المؤمنين بمغفرة وأجر عظيم !!

((اذ قال لهم اخوهم لوط : الا تتقون ، انى لكم رسول امين ، فاتقوا الله واطيعون ، وما أسألكم عليه من اجر ، ان أجرى الا على رب العالمين)) !

فانصتوا اليه ساخرين لاهين وهو يدعوهم الى الحق والهدى ويرشدهم الى الطريق السوى ..

ولكنه أيقن بعد طول مقام ، أن القوم ليسوا معرضين عن دعوته فحسب **بل بلغت قلوبهم حدا من الخبث أن شذت فى هواها ، فعكست الفطرة فى كل ماتأتى وتدع !!**

فقال لهم : **« أتأتون الذكران من العالمين !! وتذرون ما خلق لكم ربكم من ازواجكم ! بل انتم قوم عادون » !!**

فكره القوم سماعه وملوا توجيهاته فصاحوا فيه مهددين :

« قالوا : لئن لم تنته يالوط لتكونن من المخرجين » ! !

« قال : انى لعملكم من القالين »

فولوا وجوههم عنه وتركوه ساخرين لانه من الكارهين لعملهم وما يأتونه من شذوذ ..

ولم يسع لوطا الا أن يرفع وجهه الى السماء ضارعا :

« رب نجنى وأهلى مما يعملون » !!

وتحدى القوم لوطا .. وسخروا منه فضاق بهم وعلا صوته فى النهاية يبين لهم نقائصهم ويحدد لهم سيئاتهم ويقول :

« انكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من احد من العالمين ، انكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل ، وتأتون فى ناديكم المنكر » !!

« فما كان جواب قومه الا أن قالوا :

« أخرجوا آل لوط من قريتكم ، انهم أناس يتطهرون » ! !

فحذرهم لوط من عذاب شديد يأتيهم من رب العالمين .. فسخروا منه وتحدوه .. وقالوا :

« ائتنا بعذاب الله ان كنت من الصادقين » ؟ !

وضجت السماء : واضطربت الأرض من هول ما يجرم هؤلاء الذين حملت ممن وسعتهم رحمة الله وجميل صبره ، وكان أن جاء أمر الله بالعقاب الشديد لهؤلاء القوم ليكونوا عبرة لأمثالهم ..

***

بعث الى القرية الظالم اهلها برسله ، فنزلوا أول ما نزلوا بابراهيم الذى كان جالسا يفكر فى أمر لوط ومدى نجاحه فى ابلاغ رسالته .. ودخلوا عليه **فقالوا :**

((سلاما)) ..

((قال : سلام .. قوم منكرون)) !!

لم يعرفهم ابراهيم ولكنه رحب بهم .. ثم تركهم ودخل على أهله وجاءهم بطعام وقدمه اليهم .

((فلما رأى ايديهم لاتصل اليه نكرهم واوجس منهم خيفة)) !!

((قالوا : لاتخف ! انا ارسلنا الى قوم لوط)) ! !

واراد ابراهيم أن يستفسر عما يريدونه منه ..

((قالوا ، انا مهلكوا أهل هذه القرية ، ان أهلها كانوا ظالمين)) !!

فأخذته الرأفة بالقوم وبابن أخيه !

((قال : ان فيها لوطا)) !!

((قالوا : نحـن أعلم بمن فيهـا ! لننجينه وأهله ، الا امـرأته كانت من الغابرين)) !!

وحاول ابراهيم أن يستنزل الرحمة بقوم لوط فقالوا له محذرين :
((يا ابراهيم ، أعرض عن هذا ، انه قد جاء أمر ربك ، وانهم آتيهم عذاب غير مردود)) ! !

* * *

وسار الملائكة الى قوم لوط فى الموعد المحدد ، ودخلوا ((سدوم)) فى هيئة شباب مرد كأنهم البدور حسنا !!

((ولما جاءت رسلنا لوطا .. سىء بهم وضاق بهم ذرعا وقال : هذا يوم عصيب)) !!

ولكنه رغم هذا قام ليرحب بهم ، ودعاهم الى تشريف داره المتواضعة ، فدخلوها صامتين ..

وكانت امرأته جالسة فراعتها روعة هؤلاء الشـباب المرد !! وحـدثتها نفسها بأمر عظيم !!

فقامت مسرعة الى سامر القوم المفسدين وأسرت اليهم بأمر !!

وتبادل الفساق نظرات الدهشة والعجب ، ووجدوا انفسهم يسرعون الى حيث أشارت المرأة الواشية ..

((وجاءه قومه يهرعون اليه ، ومن قبل كانوا يعملون السيئات)) ! !

ودقوا الباب .. فوجف قلب لوط وعرف السر الرهيب ، فأستأذن ضيفانه واسرع الى خارج البيت حيث لقى القوم وعلى وجوههم بوادر الشر!!

وحار لوط فى أمر قومه ، وامر ضيفانه ، واقبل على الفساق فى ذلة يعرض عليهم زواج بناته أو بنات قريتهم وهو يقول :

« يا قوم : هؤلاء بناتى هن أطهر لكم فاتقوا الله ولا تخزون فى ضيفى ، اليس منكم رجل رشيد » ! !

« قالوا : لقد علمت ما لنا فى بناتك من حق وانك لتعلم ما نريد » !!

وتراجع لوط فى حسرة وهو يتمتم محدثا نفسه :

« قال : لو انى لى بكم قوة أو آوى الى ركن شديد » ؟ !

ونظر الضيفان الى صاحبهم الذى آلمته وحدته وحطمته الكارثة وضاقت عليه الأرض بما رحبت ، وكاد يأتى عليه خجله واضطرابه فكشفوا له عن حقيقتهم وقالوا له :

« يا لوط انا رسل ربك ، لن يصلوا اليك فاسر باهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحد الا امرأتك ، انه مصيبها ما أصابهم ، ان موعدهم الصبح اليس الصبح بقريب » ؟ !!

وهدأ لوط واطمأن باله وقد استجاب الله له ..

واسرع ينفذ امر ربه فخرج مع بناته وأهله والليل ساج ، وترك وراءه سدوم الظالمة ، التى حانت ساعتها وجاء أجلها ..

« فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود ، مسومة عند ربك ، وما هى من الظالمين ببعيد » ! !

ونجا لوط واهله من العذاب الماحق .. !

واسفر الصبح وتوقف لوط وأهله عن المسير ..

ونظر لوط خلفه فرأى « سدوم » الماجنة وقد اصبحت أثرا بعد عين .. بادت وانمحت من الوجود ومعها أولئك الضالون الذين لعنهم الله ، فذهبوا .. وذهبت معهم امرأة لوط !!

وتنفس لوط الصعداء وعلا الى السماء بمناجاته ، يستغفر ربه ويشكره ويسأله مزيدا من التبعات وأمرا جديدا بالجهاد ..

ان الرجل لم يقصر فى « سدوم » ولا هو تهاون فى أداء رسالته ، ولكن القوم كانوا من طينة شريرة وكانوا مفسدين فحق عليهم الفناء ..

وجلس لوط مكانه يسترجع الماضي بحوادثه ، فـراى صحائف جهاده بيضاء نضرة ..

لقد ترك عمه ابراهيم .. وتخير بوحى من الله ((سدوم)) مـكانا لدعوة الحنيفية ، فكذبه القوم وحاربوه فتصدى لهم الله ومزقهم شر ممزق !!

اذن فليبدأ من جديد صفحة جديدة فى كتاب الحياة ..

وسار لوط ومعه اهله الى « صوعر » وفى نفسـه مابها من مشـاعر واحاسيس !!

انها ارادة الله .. لم ترد لبيته أن يتسع كما ارادت لعمه ابراهيم !!

ونكس لوط رأسه ونظر الى بناته نظرة رضا وسعادة ، اذ خرج بهن من القرية الماجنة الى عالم فسيح سيجدن فيه ولاشك من سوف يسعدهن ويكون لهن البيت والأهل والولد !!

وتولت لوطا فترة جلال قدسية ، واستسلم الى نفسـه التى دوت فى جوانبها أصداء ارانين غامضة جعلته ينصت فى خشوع ورضا الى وحى كان يردد قول الله تعالى :

((كذبت قوم لوط بالنذر ، انا ارسلنا عليهم حاصبا الا آل لوط نجيناهم بسحر ، نعمة من عندنا ، كذلك نجزى من شكر (!!) ولقد انذرهم بطشنا ، فتماروا بالنذر ، ولقد راودوه عن ضيفه ، فطمسنا اعينهم !! فذوقوا عذابى ونذر)) !!

فابتسم وشاع الرضا على وجهه ، وقام من فوره ليواجه تبعات الحياة وقسوة الجهاد من جديد ..





القوة الكامنة خلف الشمس وعابديها ((اخناتون ، ونفرتيتي)) وتتمثل فى قرص الشمس تخرج منه اشعة متفرقة الى اسفل ، وهى ترمز الى السيادة والسيطرة القوية الخارجة من منبعها السماوى لتمنح المخلوقات كلها الدفء والخير والحياة .. (الرسالات الكبرى)

دعوة إخناتون إلى الوحدانية

فرضت العبادة على الناس يوم قدر لهم الله أن يكونوا خلفاء على الأرض، وقد أمروا بأن يتوجهوا الى خالقهم ، وان يسلموه ذاتهم ويتوكلوا عليه في كل شيء ــ مقرين بعظمته ، معترفين بربوبيته ، خاضعين غير حانثين .

ثم مرت العصور .. وتبدلت نظرة الناس الى القوة العليا التى تسيطر عليهم وتطاول العقل البشرى وأحب فى جراته أن يتصور كنه الاله ، ويحدد ذاتيته المقدسة ، فلم يجد اعظم ولا أسنى من الشمس فاتجه اليها بقلبه وروحه ودعواته .

ولما رأى أن الكواكب تقوم بدور الشمس فى الظلام ، اعتبرها لونا من الوان تجلى الله على عباده فى ساعات الليل وفى صور متعددة تثبت قدرته ، فتوجه الى الكواكب وعبدها ، ومن هنا بدات فكرة الشرك وجرؤ الانسان على الذات العظمى فصورها وجعل لصورتها الكبرى شركاء ومساعدين .

وجاء الرسل بالوحدانية ، وقرروا فى تعاليمهم أن الشمس والقمر والنجوم آيات من آيات قدرة الله الذى لا شبيه له ولا نظير ومن الكفر أن يحاول العقل البشرى أن يحدد له صورة أو يرسم له هيئة .

ولكن الانسان أحب ان يكون هو والصورة التى يقدسها على تقارب بحيث يراها ويستنجدها وتسمع اليه وتستجيب له ، ــ كما كان يظن ــ ومن هنا عاد الى عبادة الشمس والقمر والنجوم .

والمصريون القدماء أصحاب اقدم مدنية فى التاريخ عبدوا الشمس بدورهم ، وكانت للشمس عندهم عدة أسماء أحب كل اقليم من اقاليم مصر ان يطلقها على معبوده الفرد الواحد القادر ، فهو « رع » فى مدينة أون ــ هليوبوليس ــ وهو « **بتاح** » فى مدينة « منف » وهو « **آمون** » فى « طيبة » العاصمة ، وهو « **تحوت** » ــ أى القمر ــ فى الأشمونين ..

توحدت عبادة الشمس بمعناها ، ولكنها تعددت بأسمائها ..

ومع مرور الزمن كره الانسان الطامع أن يكون الهه القادر ربا واحدا لا ثانى له . فجعل له أسرة وزوجة وجعله ينجب البنات والبنين وجعل له أربابا

مســاعدة يأمـرها فتطيع ووكل الى كل منها عملا تقوم به وتؤديه .. مثل « خنوم » صانع الفخار الآلهى الذى كان يصــور البشر فى الأرحام ، ومثل « حاتحور » و « ومـوت » زوجـة آمون ، و «خنسو » ابنه وغيرهـم من الشخصيات المساعدة الذى اطلق عليها الناس مع التجاوز وعلى كر العصور اسماء الارباب المعبودة وقرنهاباسماء الالهالواحدالمتعدد الاسماء والهيئات.

ولهذا الجمع بين الآلهة أهمية ، لأن ضم آلهة متفرقين فى الأصل بعضهم الى بعض وجعلهم الها واحدا هو مظهر يجب أن يتطور منطقيا الى التوحيد ، وذلك بضم كل مظاهر الألوهية وتوحيدها فى كائن أعظم واحد .

بل ان طبيعة الجمع بين الآلهة تساعد دائما على تسليط الأضــواء على كائن الهى واحد ..

وتمرد العقل المصرى على فكرة التعدد الربانى ووجد فيها دعوة — وان كان لها قداستها الا انها تهدف الى ايجــاد سلطات فرعية تنازع السلطـة الكبرى السلطان وتخلق لها تحزبات واتباع . فأحب العودة الى الوحدانية المطلقة القادرة على الغاء فكرة التعدد الربانى بالقضـــاء على سلطان الأرباب المساعدة فى يسر وهوادة ودون هزات .

وكان أول من بدأ هذه الدعوة السرية الهادفة الى التوحيد الالهى هو الفرعون « **امينوفيس الثالث** » أعظم ملوك الأسرة التاسعة عشرة ، فقد راعه سلطان آمون ولم يجسر على تسويد معبوده الحامى « **تحوت** » على « **آمون** » والا ثار الشعب عليه واتحدت أحزاب الكهان وسدنة الأرباب الأخرى ضده وأثاروا الناس عليه .

ومن هنا ابتدع اسما رقيقا سمعناه لأول مرة فى التاريخ باسم « آتون » وكان يقدسه هو وزوجته الملكة « **تى يى** » سرا ، وانشـــأ باســـمه قاربا كان يكثر من التنزه فيه مع زوجه أسماه « **آتون يسطع** » ! ! وطبيعى أن الملك الفرعون أمنيوفيس الثالث قد بث هذه العبادة السرية فى نفوس بنيهوبناته وخاصة فى نفس ولى عهده الذى ارتقى العرش من بعده باسم « **أمينوفيس الرابع** » وعرف باسم « اخناتون »وكان أكثر جراة من ابيه ، فجاهربالوحدة الفرعونية الأولى ، ونادى بالغاء الأرباب كلها وعبادة « **آتون** » وحـــده .. أى القوى الكامنة خلف قرص الشمس .

وكانت هذه العبادة السرية أرقى ما وصـــل اليـــه البشر جميعـــا من عبادات التوحيد .

ولقد حدث حوالى سنة ١٤٠٠ قبل الميلاد .. ان شقيقين توأمين كانا يعملان مهندسين معماريين فى طيبة لحســـاب الملك أمينوفيس الثالث هما « **سوتى** » و « **حور** » — أقاما لوحة نقشا عليها انشودة للشمس توضح لنا ميل ذلك الملك الى التوحيـــد ، وفيهـــا أول دعاء رسمى فيه اشـــارة الى الوحدانية .

وهذه الأنشودة الشمسية موجودة حتى الآن فى المتحف البريطانى .. وكلماتها هى :

ايها الموجد الذى لا موجد له .
ايها الواحد الأحد الذى يطوى الأبد .
انك صانع مصور ..
ومصور دون أن تصور .
منقطع القرين فى صفاته مخترق الأبدية .
مرشد الملايين الى السبل
وعندما تعبر السماء ، يشاهدك كل البشر .
رغم انك فى ذهابك خفى عن أنظارهم .
انك تجتاز سياحة مقدارها فراسخ ،
بل مئات الآلاف وملايين المرات
وكل يوم تحت سلطانك .
وحينما ياتى وقت غروبك ،
فان ساعات الليل تصغى اليك ايضا .
وعندما تجتازها فان ذلك لا يكون نهاية كدك
وكل الناس تنظر بواسطتك
انت خالق الكل ومانحهم قوتهم ،
انت ام نافعة للآلهة والبشر ،
وانت صانع مجرب ...
وراع شجاع يسوق ماشيته
وانت ملجؤها ومانحها قوتها .
هو الذى يرى ما خلق ،
والسيد الأحد الذى ياخذ جميع الأراضى اسرى كل يوم
بصفته واحدا يشاهد من يمشون عليها ،
مضىء فى السماء وكائن كالشمس .
وهو يخلق الفصول والشهور ،
فالحرارة عندما يريد
والبرد عندما يشاء
فكل بلاد فى فرح عند بزوغه كل يوم ، لكى تسبح له » (١) .

❋ ❋ ❋

---

(١) فجر الضمير — برستيد

ومن الواضح ان هذه الانشودة نقشت بأمر فرعون امينوفيس الثالث وفيها أول دعاء رسمي يشير الى الوحدانية ، وفيها أيضا دعوة الى هدم فكرة تعدد الأرباب ..

ورغم اعتقاده هذا وايمانه الراسخ به لم يجسر بدوره على ترديده بصفة علنية ، وتراجع خوف نفوذ رجال الدين وظل على تردده هذا حتى خلفه ابنه الجرىء الشجاع امينوفيس الرابع الذى عرف باسم « اخناتون » فيما بعد ، وصاحب اول رسالة فرعونية دعت الى التوحيد المطلق والاقرار بأن الشمس وحدها ليست المعبود القادر ولا القمر أيضا .. بل القوة الكامنة المستترة خلف هذين الكوكبين والتى تمد يدها بالخير والحياة للناس أجمعين .

ومن الواضح ايضا أن هذا النشيد يتحدث عن اله ذى نفوذ عام يسمونه « **الرب الأوحد** » ولكن هذا لا يعنى استبعاد الولاء لآلهة أخرى .

وتعدت عقلية امينوفيس الرابع محيط الشمس وعبادتها ، وتجاوزت منطقتها الظاهرة التى تراها العين الى منطقة أخرى غير ملموسة ومجهولة كل الجهل ، لأنه كبر فى نفسه أن تكون للذات هيئة وأن تتشكل فى شكل يعرفه الناس من عابديها ، ولو كان ذلك الشكل أو تلك الهيئة هى الشمس الساطعة المشرقة ..

ومرت الأيام والأعوام والعقلية المصرية فى سبيلها التقدمى ، حتى عام ١٣٧٠ قبل الميلاد .. حيث خلف « **امينوفيس الثالث** » ولده « **امينوفيس الرابع** » الذى علا بتفكيره وسما بعقليته النادرة الى ما وراء الكونيات والمحسوسات ، فسبق الأجيال على كرها ، ووجد نفسه يفكر فى « **الذات العليا** » ..

جاء الفرعون امنحتب الرابع ففكر فى المعبود الأكبر « آمون » — وكان هو بدوره ينتسب اليه اذ اعتبر فى عداد بنيه المقدسين .. فكر فيه وفى « ذاته » وصفاته وقدرته ، وجره التفكير الى استعراض المعبودات جميعا فخرج بنتيجة واحدة وهى : **ان هذا الذى اعتبره المصريون معبودا قادرا — وسواء أكان آمون ، أم رع ، أم بتاح — فانه ليس الا جزءا متمما من اجزاء ذات خطورة تستخدمها قوة أكثر علوا وقداسة ..**

وسخر بالشمس وعبادتها وأرشده عقله الى انه لابد وان تكون هناك قوة اقوى من هذه الشمس .. قوة تعتبر الشمس آية من آياتها ، تظهرها لعبادها فى النهار ، وتعتبر القمر والنجوم آيات اخرى تطلع على الناس اذا جاء الليل وادلهمت الظلمات ! !

وفى الوقت الذى كان فيه موقف البلاد المصرية السياسى فى آسيا فى

غاية الحرج ، أخذ الملك ينهمك بكل حماسة فى تعضيد التسلط العالى لاله الشمس الذى أدركنا كنهه فى أيام والده . فاعطى هذا الملك اله الشمس اسما جديدا خلص به المذهب الجديد من التقاليد المحفوفة بخطر الشرك فى اللاهوت الشمسى القديم ، **فصار اله الشمس يسمى ((آتون)) وهو اسم قديم يطلق على الشمس المجسمة .**

ومن المحتمل ان هذه التسمية لا تدل الا على قرص الشمس فقط . وهذا الاسم الجديد ذكر مرتين فى انشودة رجلى عمارة ((**امينوفيس الثالث**)) كما لاقى بعض الاقبال فى عهد ذلك الملك اذ قد سمى به أحد قواربه الملكية ((**اتون يسطع**)) .

ولم يقتصر الحال على اعطاء اله الشمس اسما جديدا ، بل منحه ذلك الملك الشاب رمزا جديدا هو « الصقر » .. فلقد كان أقدم رمز لاله الشمس كان الشكل الهرمى ، كما كان يرمز له بالصقر لأن الصقر من أسمائه .

على أن هذين الرمزين كانا مفهومين بين سكان وادى النيل فقط ، ولكن ((**امينوفيس الرابع**)) كان فى مخيلته وقتئذ مسرح أفسح وأوسع من القطر المصرى . اذ أن الرمز الجديد قد مثل لنا الشمس بقرص تخرج منه اشعة متفرقة متجهة الى أسفل ، كل شعاع منها ينتهى طرفه بصورة يد بشرية .

وقد كان ذلك الرمز يشعر بالسيادة ويدل على السيطرة القوية الخارجة من منبعها السماوى وهى تضع أيديها فوق العالم وعلى شئون البشر الأرضية .

لم يكن ((امنحتب الرابع)) رجلا عاديا ، بل كانت له شخصية فذة اذ ظهر كداعية لشىء جديد فى الدين . كان أرقى ما وصلت اليه صورة التوحيد فى عصره ..

ولم يكن بين آلهة الشمس المختلفة أو فى مظاهر اله الشمس ما يسمى ((آتون)) قبل منتصف الأسرة الثامنة عشرة ، ومعنى كلمة ((آتون)) هو قرص الشمس ، والذى كان مستقرا للآلهة ولم يكن هو ذاته الها .. وعلى اى حال فقد اله المصريين قبل عهد اخناتون تلك القوة الكامنة فى قرص الشمس القوة التى تعطى الحياة للناس ثم تغذيها(١) ..

فكر امينوفيس الرابع فى تلك القوة التى لا تراها عين والتى ترى كل شىء وتولى العالم والناس ما هم فيه من خير واسعاد .. وطال به تفكيره ولكنه لم يتشعب لأن بصيرته هدته فى سرعة الى الحقيقة وهى : ان هناك قدرة تسود

---

(١) الحضارة المصرية .

هذا العالم وتسير اموره وأمور من فيه ، وان هذه القدرة مستترة لا يمكن تشخيصها ولا تحديد هيئة لها ، وان أياديها العديدة ذات الأفضال والمنن تمتد من سمائها ومن خلف قرص الشمس فتهب العالم كل شيء ! !

ووجدت الزوجة الملكة ((**نفرتيتي**)) الفاتنة في زوجها ((**امينوفيس الرابع**)) فلسفة دينية عالية ، سمت به الى حد التفكير في الخالق الأكبر والانتماء اليه وحده دون حاجة الى عبادة معبود يتبعه معبودات أخرى عديدة كان يقدسها قومه .. فشجعته وآمنت بدعوته ..

ولم يكد يمضي العام السادس على توليه الملك باسم ((**امينوفيس الرابع**)) حتى غير اسمه ((**امينوفيس**)) **أي ((آمون الراضي عنه)) الى ((اخناتون))** ومعناه ((**عبد آتون**)) . وأصبح أمر انكار الاله القديم والايمان بالاله الجديد شيئا رسميا ، لأن اسم الملك رمز لسياسة الدولة .

وهكذا خرج اخناتون بدينه هذا على شعبه ، وكفر بالمعبود الأكبر ((آمون)) الذي تبعه قومه وقدسوه وتوارثوا عن الأجيال عبادته وتقديسه .

فتراجع الناس في ذعر وثارت ثائرات رجال الدين والكهان جميعا وأعلنوها حربا شعواء على بدعة اخناتون ! !

هذا .. في الوقت الذي راح اخناتون يعمل على نقل عاصمة مصر من ((طيبة)) ــ الأقصر حاليا ــ والتي كانت ((مدينة آمون)) ــ الى موقع جديد في مصر الوسطى على بعد ثلاثمائة ميل شمال طيبة ، وهي التي تسمى الآن ((تل العمارنة)) .. شيدها على مساحة طولها أكثر من ثمانية اميال ، واصبحت مدينة كبيرة خططت لتكون واسعة شاملة لتليق ان تكون عاصمة البلاد . ولتصبح المدينة الخالدة ، وتكون المركز السياسي والديني الجديد وسماها ((اخيتاتون)) اي مشرق او بهاء آتون ..

وتوسط هذا المعبد القصور الملكية وكانت أسقفه مفتوحة للسماء حتى يتمكن الناس من عبادة القوة التي خلف الشمس ..

كانت مدينة جميلة جذابة ، وكان تخطيطها في منتهى الروعة والنظام .

وقاوم الكهنة دعوة اخناتون واعتبروها الحادا وحكموا عليه بالفناء واللعنة ، ولكنهم لم يجسروا على اعلان ذلك خشية الانتقاص من سلطان فرعون كفرعون للبلاد ، اذ كانوا يعتقدون ان هذا الظل البغيض سوف يزول ، وأن الشيء الذي سيبقى رغم انف ذلك الكافر هو مصر وعقيدتها التي ما كان لمثل هذه الدعوة العارضة أن تغير منها شيئا على الاطلاق أو تنال من قوتها التي تمكنت في النفوس وثبتت ! !

وحدث فعلا ما تنبأ به الكهنة ــ وكان اكثرهم غلوا في كراهية الرجل **((كهنة آمون)) فبعد ان مات لحق به دينه ! !**

ولعل المرجع الأول والأهم فى ذلك يعود الى ان الدين ، وان كان وحدانية خالصة — **الا أنه لم يأت فيه ذكر البعث والثواب والحساب فى الحياة الآخرة ، كما اهتمت الديانات الأخرى باعتبار أنها أسباب ومغريات تكون سببا فى اتباع الكثيرين لذلك الدين والالتزام بأوامره ونواهيه . وعلى العكس** ففى حالة خلو ديانة من هذه الناحية فان ذلك يكون دافعا لاجبار الكثيرين على تركها الى ديانات أخرى لها مراجع وفى نصوصها ثواب وعقاب وبعث ونشور ! !

والبعث عقيدة مصرية راسخة — كان المصريون يعتبرون ان التحول عنها كفران بالله « أى اله » .

وقد يقول قائل ان دين اخناتون الذى أراد فرضه على المصريين جميعا — داعيا اياهم عن طريقه الى الكفران بدينهم العتيد الذى أورثتهم اياه الأجيال التى مرت ، كى يعبدوا القدرة التى صورها ، وقال انه لا تراها عين وانها تستتر خلف الكائنات — انما كان صدى للأفكار التى بثها فى نفس الفرعون الشاب بعض الدعاة الأسيويين الذين كانت تمتلىء بهم مصر فى تلك الأونة وهو ادعاء لا يقوم على أى أساس من الواقع .

وان كان الواقع قد أثبت فعلا انه فى العصر السابق لأسرة اخناتون اى فى عصر الاحتلال الهكسوسى — قد نزل بمصر « **خليل الله ابراهيم عليه السلام** » وبقى بها مدة طويلة ، ثم جاءها من بعده وفى ظروف معروفة حفيده « **يوسف الصديق** » — الا انه لم يكن لهاتين الشخصيتين أى تأثير أو نشاط دينى فى مصر لأن دعوة ابراهيم الدينية لم تتعد قومه كما انه كان قد جاء الى مصر مهاجرا يلتمس مكانا خصبا للاستيطان .

أما يوسف فقد جاءها طفلا لم يؤذن برسالة — وان كان بعد مقدمه بسنين عديدة وهو فى سجنه — قد جادل بعض رفاقه هناك جدالا خفيفا رقيقا حول الوحدانية التى يدين بها ويخضع وفقها لرب واحد لا يعترف بمعبود سواه فى قوله لصاحبى سجنه :

« يا صاحبى السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار » !!

ولئن كان الواقع قد أثبت انه بعد طرد الهكسوس من مصر مع دينهم الغريب ومعبودهم « سوتخ » الذى لم يفلحوا فى تحويل مصرى واحد اليه وهم سادة حاكمون وسلسلة الفتوح المصرية فى آسيا التى تلت ذلك الطرد — ان مصر قد وصلت حضارتها الى تلك الأمم التى غلبت وكتب عليها الفتح وأن ملوك هذه الأمم وأمراءها أرسلوا أبناءهم وآلهم وأولياء عهودهم الى مصر ذات المنارة العالية كى ينهلوا من فيض حضارتها المدنية والدينية ، كما ان هؤلاء الملوك قد قدموا بناتهم واخواتهم الى فرعون استدرارا لعطفه

وان هؤلاء الفراعنة واظهرهم امينوفيس الثالث والد اخناتون قد رفع اقدار بعض هؤلاء الملوك فصاهرهم — لئن كان كل هذا قد حدث وفيه مافيه من آيات الخضوع وعلائم التودد ، فان الواقع نفسه يؤكد استحالة قيام هؤلاء الاقوام الذين يعملون جاهدين لنيل رضا الفرعون وعطفه بأية محاولة للنيل من الدين المصرى وهو دين السادة المرهوبى الجانب والفراعنة الذين تعنو لهم الجباه فى تلك الأصقاع جمعاء ..

واذا ما ثبت لدينا ضعف هذين الدليلين — وجدنا أنفسنا أمام حقيقة أشد نصوعا وظهورا وهى انه لم يكن فى آسيا ، وبخاصة فى الممالك المجاورة لمصر عبادة سماوية حقة تستند الى دعوة جاء بها نبى أو رسول ، لأن الناس هناك كانوا يتبعون ديانات بدائية من تصورهم ووفق أهوائهم الخاصة فعبدوا الحجارة ودواب الطبيعة وغير ذلك من أشياء كان يروق لهم أن يسجدوا لها .

واذا ماعرفنا أيضا أن قبيلة اسرائيل التى كانت تسكن مصر فى ذلك الوقت والتى دخلتها فى أيام يوسف الصديق وان افرادها كانوا يقومون بالتافه الحقير من الأمور والأعمال —وان هذه القبيلة لم يكن لها دين كتابى أيام اخناتون وان شيوخها مع مرور الزمن خرجوا على دين ابراهيم واسحق ويعقوب . وانه لم يكن فيهم ذلك الجرىء الذى يرضى أن يزج بنفسه فى معمعان نزاع دينى — اذا ما عرفنا كل ذلك ، ثبت لدينا انه ليس لبنى اسرائيل أصبع فى دعوة اخناتون على الاطلاق . بل ان أناشيد وصلوات وضراعات اخناتون لمعبوده آتون تأثر بها الاسرائيليون وتوارثوها بعد الخروج من مصر وأوردوها فى ضراعاتهم الدينية ومزاميرهم وغيرها من الأناشيد ..

والواقع أن دين اخناتون كان فى صلبه دعوة الى الوحدانية والتحرر الفكرى والتسامح والغفران وفى مجموعة ترانيمه ودعواته وابتهالاته ، ما يوضح ان هذا الدين الجديد الذى نادى به — كانت فيه ظلال الوحدانية التى لم تكتمل تماما مقوماتها الثابتة التى تستطيع عن طريق الصمود ، أن تقنع العقل بالدعوة اقناعا يدفع الى الايمان بها واتباعها — لأن الدعوة الجديدة لم تكن فى واقعها غير دين رمزى دنيوى لا اثر فيه للواقعية أو القوة التى كانت تنسب الى المعبودات الأخرى كما أنه لم يأت بشىء فى ذكر البعث والحساب والحياة الأخرى ، وما تحوى من نعيم وعذاب ، ليعرف الانسان انه لم يخلق لينعم بالحياة فقط ، ويتغنى بالرمزيات .. ثم ينتهى بعد ذلك الى العدم .. فلا ينعم بجزاء عن ايمانه ، ولا يلقى العذاب لكفره وعصيانه للمعبود الأعظم ..

***

والذى لا شك فيه أن اخناتون لم يأت وهو يدعو الى دينه هذا بجديد يقدمه للعقل المصرى سوى الغاء المجموعات الالهية المتعددة وما يتبعها ،

والدعوة الى اله واحد فقط ، وذلك لم يـكن بالأمر الجديد على المصريين ، فهم رغم تعدد المجموعات الربانية فى منف .. وعين شمس وطيبة وغيرها كانوا يقدسون الشمس التى لم يدع اخناتون الى عبادتها بذاتها بل الى ماهو فى حكم الشيء الغامض الخفى على العقلية الساذجة ، اذ دعا الى عبادة القوة الكامنة التى لاتراها العين والمستترة فى ملكوتها خلف قرص الشمس تسمع الطالبين وتهب السـائلين وتمتد أياديها العديدة للعـالمين بالحياة والمن والخيرات . ومع ذلك لم يقبل المصريون هذه العبادة وخرجوا على صاحبها وعصوه سرا وعلانية ، لأنه لم يدع فقط الى دينه الجديد تاركا للناس حرية اتباعه أو حتى دراسته والتمعن فيه قبل الايمان به . **بل تجرأ على سـائر معبودات الوادى وأعلن بطلانها وأنكر وجودها ونفوذها وحرم النطق باسمها أو التوسل اليها وأغلق معابدها ..**

ولقد كان بوسع أخناتون هذا لو أوتى عقلا سياسيا حصيفا أن يضيف الى قائمة المعبودات المصرية معبوده الجديد الذى سماه « آتون » .. ويدعو الى عبادته ، ثم ينسبه ـ بالاتفاق مع رجال الدين ـ الى تتسيع أو تسبيع أو تثليث خاص به . كما فعل كهنة آمون مثلا حين أرادوا القضاء على سلطان « رع » فنسـبوا معبودهم اليه ، ثم مالبثوا ـ بعد أن اطمأن النـاس الى دينهم ـ أن تخلصوا من اسم « رع » الذى توصلوا به الى السلطان والمجد وعالى المكانة وأوجـدوا تتسيعا خاصا بمعبودهم « آمون » ولم يلبث أن نسبت الى جلاله بقية أرباب التتسيع وتساوى بذلك مع المعبودين القديمين رع وبتاح ، بل ربما فاقهما مكانة وعزا ...

أعود فأقول انه كان بوسع أخناتون أن يضيف معبوده الى قائمة المعبودات المصرية ثم يتركها بعد ذلك وشأنها ويجعلها من القوات المسخرة المندمجة مع معبوده والتابعة له تأتمر بأمره وتخضع له ..

ولكن أخناتون لم يكن ذلك الرجل الماكر الحصيف ، لأن ايمانه بمعبوده أنساه أجيالا عديدة مضت ، أورثت الناس تقاليد ليس من الهين التنازل عنها أو اغفالها .. كما أن شعوره بأنه كان على حق فى دعوته ومعتقده جعله يتغالى فى دعوته التى لم يكن فيها من المغريات ، ما يشـجع على اتباعها ، زد على هذا .. أن مصر فقدت ابان ظهور هذا الدين هيبتهـا فى آسـيا والممالك المتبوعة والمجاورة وهو أمر أثر عليها ماديا ومعنويا .. لذلك لم يكد الفرعون الثائر يموت حتى اختفت بموته هذه العبادة من أفق الوجود ...

* * *

لقد كان اخناتون فيلسوفا عبقريا ، وواسع الأفق بعيد النظرة فى تحديد وتمجيد صفات الخالق الأحد الأكبر الذى كان يلجأ اليه وحده دون حاجة الى التقرب لمعبودات خرافية كان قومه يقدسونها .. وأعلن فى طول البلاد

وعرضها بطلان جميع العبادات وتوحيدها تحت ظل أول وحدانية مطلقة عرفها التاريخ المصرى ..

وقد اهتدى الباحثون الى انشودتين وضعهما اخناتون للمعبود آتون لتلاوتهما فى المعابد ، والتوسل بهما فى خلوته ، وتعتبر أنشودة آتون من أهم ما خلفه لنا التاريخ من تلك العصور لانها توضح لنا قيمة مذهب ذلك الملك الفيلسوف الذى ضحى بالكثير من أجل عقيدته ، وكان صاحب أول عقيدة للتوحيد عرفها التاريخ .. وفيه يقول :

« جلال آتون »

بزوغك جليل فى أفق السماء
يا آتون ياحى يامبدىء الحياة !
اذا ما صعدت فى أفق السماء الشرقى أفضت على الأراضى جمالك ..
ما ذلك الا لأنك جميل عظيم .
أشعتك فى السموات العليا ، تسطع على الأرض وعلى جميع مخلوقاتك .
انت رع . انت الذى أسرتهم وقيدتهم بحبك .
انت بعيد عن الأرض لكنك على اتصال معها باشعتك .
انت عال لكن آثارك واضحة فى ضوء النهار .

« خالق الانسان »

أنت خالق الجنين فى بطن أمه . أنت خالق نطفة الانسان . أنت واهب الحياة للجنين فى رحم أمه وملطفه حتى لايتكدر فيبكى .. كيف لا وأنت المربى فى الرحم .

أنت معطى نفس الحياة كل مخلوقاتك ..

أنت فاتح فم الجنين بالكلام ومعطيه حاجاته يوم تلده أمه .

وهذه الترنيمة الدعائية ولا شك تقطع بسعة أفق اخناتون التعبدى ، وباخلاصه فى عبادته ، وصفاء تفكيره فى اتجاهاته الى حد ان هـذا المتعبد المخلص قد استطاع بثاقب فكره الى معرفة اله العالم خالق الكون والى الايمان برحمته ورأفته بالمخلوقات حتى الحقير منها .

ولا شك أن هـذه العقلية الغريبة هى التى جعلت الاثريين يعتبرون أخناتون أقدم رسول معروف فى التـاريخ . وقد كان الملوك السـابقون يعتقدون أن الاله الأعظم هو الذى يهب النصر ويسحق الأهالى ويسوقهم حاملين الجزية امام عجلة فرعون . أما اخناتون فقـد رأى فى الاله رأفة

ورحمة لخلقه جميعا على السواء ، ويعتبر هذا المذهب اقدم ما عرف من علم التوحيد فى التاريخ .

وقد عقد كل من « **هنرى برستيد** » و « **أرثر ويجال** » مقارنة بين صلوات اخناتون وبعض المزامير العبرية ، فاتفقت المعانى بينهما اتفاقا لا ينسب الى توارد الخواطر والمصادفات .

بل لقد استطاعت الديانة العبرية أن تجد فى أناشيد اخناتون ضراعات مقدسة وأدعية لها قيمتها التعبدية فرددتها دون أن تجد فى ذلك حرجا ..

ولما كان قد تم القضاء على دين « **آتون** » قبل كتابة المزامير بعدة قرون، فقد قيل بأنه لابد أن يكون نشيد آتون قد وجد طريقه الى آسيا عندما كان اخناتون فى الحكم ، وانه نجا من القضاء عليه عنـــدما ترجموه الى احـــدى اللهجات السامية ..

ومن امثالها نذكر انشودة اخناتون :

« اذا ما هبطت فى أفق المغرب أظلمت الأرض كأنها ماتت .. فتخرج الاسود من عرائنها والثعابين من جحورها » .

ويقابله المزمور الرابع بعد المائة وفيه : « انك تجعل ظلمة فيصير ليل يدب فيه حيوان الوعر وتزمجر الأشبال لتخطف ، ولتلتمس من الله طعامها».

* * *

وفى صلوات اخناتون : **« ما أكثر خلائقك التى نجهلهـــا .. أنت الاله الأحد الذى لا اله غيره ، خلقت الأرض بمشيئتك ، وتفردت فعمرت الكون بالانسان والحيوان الكبار والصغار » ..**

« تسير السفن مع التيار وفى وجهه ، وكل طريق ينفتح للسالك لأنك اشرقت فى السماء ، ويرقص السمك فى النهر أمامك ، وينفذ ضياؤك الى أغوار البحار » ..

« .. وتضىء فتزول الظلمة .. وقد أيقظتهم فيغتسلون ويسـعون ويرفعون أيديهم اليك .. ويمضى سكان العالم يعملون » ..

* * *

ويمضى المزمور قائلا : ((... تشرق الشمس فتجتمع وفى مآويها تربض، والانسان يخرج الى عمله والى شغله فى المساء . ما أعظم أعمالك يا رب ، كلها بحكمة صنعت . والأرض ملآنة من غناك ، وهذا البحر الكبير الواسع الأطراف ، وهناك دبابات بلا عدد . صغار مع كبار . هناك تجرى السفن ، ولوباثان ((التمساح)) خلقته ليلعب فيه ..)) !!

ومن أروع ادعيات اخناتون :

((انت القوة الكامنة فى السماء))

((يامانح الناس نورك ودفاك بالنهار))

((ويامن تنير لهم مدلج الطرقات فى الليل))

((آتون .. يا أبى وخالقى آتون !))

((اغفر لى خضوعى الوقتى لأعدائك))

((وامنحنى الصبر والتجلد وقوة الاحتمال))

((وغدا .. أجل فى الغد القريب يا أبى آتون))

((سارفع منارتك الساطعة عاليا))

((وسأرغم هذه الأفواه على ترديد اسمك))

((وستخضع امام عزتك الجباه))

((وسيعبدك الجميع يا آتون ..))

وآتون معناه ((السيد)) أو ((الاله)) .. وانه ليرفع وجهه الى السماء ويهتف :

((آتون الحى ينبوع الحيـــاة))

((يامن تغمر العالم بشعاعك والقلوب بحبك))

((فتغرد صادحات الطير وينبت باسق الشجر))

((والحيوان فى دبيبه يسبح بحمدك))

((يا خالق البشر وموحد العالم))

((ومطعم الجنين فى ظلمات الرحم))

((ومانح الهواء للفرخ فى بيضته))

« ما أعظمها أعمالك يا حياة الدنيا »

« انك قائم فى نفسى ونورك يشملنى »

***

ومن صلوات اخناتون هذه تعرف صفات الله الذى دعا الى عبادته دون سواه ، فاذا هى أعلى الصفات التى ارتقى اليها فهم البشر قديما فى ادراك كمال الاله .

فهو الحى المبدىء الحياة ، المالك الذى لاشريك له فى الملك ، خالق الجنين وخالق النطفة التى ينمو منها الجنين ، نافث الأنفاس الحية فى كل مخلوق ، بعيد بكماله قريب بآلائه ، تسبح باسمه الخلائق علىالأرض والطير فى الهواء ، وترقص الحملان من مرح فى الحقول فهى تصلى له وتستجيب لأمره ، ويسمع الفرخ فى البيضة دعاءه فيخرج الى نور النهار واثبا على قدميه ، فقد بسط الأرض ورفع السماء وأسبغعليهما حللالجمال ، وهو ملءالبصر وملء الفؤاد ، وهو هو الوجود وواهب الوجود ، وشعوب الأرض كلها عبيده لأنه هو الذى أقام كل شعب فى موطنه ليأخذ نصيبه من خيرات الأرض ومن أيام العمر فى رعاية الواحد الأحد « **آتون** » !!

***

لقد كانت ديانة اخناتون ديانة تهذيبية أحسنت التعبير — فى حـــدود الفطرة الساذجة التى لم يهذبها وحى ولم يوجهها الهام الى فكرة اله خالق معين ، رحيم أعطى نعمه البشر جميعا ولجميع المخلوقات الحيـــة فى كل مكان ..

وانه لمن المآسى الكبرى ان ديانة مثل ديانة « آتون » يقضى عليها على هذا النحو الذى انتهت اليه بعد موت اخناتون .. الذى اعتبره المصريون بعد جيل واحد شخصا ملحدا ، ذلك لأن تعصب المصريين لأربابهم القديمة وشدة ايمانهم بها ، وسلطان الكهنوت عليهم — لم يدع لمستنير منهم فرصة يفكر خلالها فى معنى ضراعات أخناتون الى معبوده ومحاولة تفهمها وتعرف جوهرها ومبناها ، وما اشتمل عليه دينه من وحدانية خالصة طمستها ظلمات التعصب ، التى حالت دون ادراك المصريين لمثل تلك التعبيرات الدينيـــة الثمينة .. فلم تكن مجرد همهمة وضراعات أو أدعية .. بل ومضات من

النور الأكبر لمعت بها ظلمات قلب ضال كان صاحبه يبحث عن الحقيقة ، فاهتدى اليها على قدر اجتهاده وكان اهتداؤه صيحة نبعت من أعماق النفس المؤمنة الباحثة كان يجب أن يكتب لها الخلود !!

لقد قضى الفيلسوف اخناتون زهرة العمر وربيع الشباب النضر يحاول ان يعمم أفكاره ويدخل القلوب المعتمة بصيصا من نور دعوته الباهر .. ولكن اعترضته صخرة المعتقدات التقليدية وتمسك الناس بأهداب دينهم واعتقادهم الراسخ فى معبوداته ولدوا وهم لا يسمعون الا عنها وعن قوتها الخارقة ومعجزاتها العظيمة فوقفت دونه وحالت دون ايمان الناس بما جاء به ...

لقد فشل اخناتون كفرعون للبلاد .. ولكن اخناتون الرجل الفرد الفيلسوف المؤمن لم يفشل .. وثبت على معتقده ، وظل يؤدى رسالته التى كان يعتقد انها هى أساس السلام والاخاء العالمى فتمسك بها ودافع عنها ولم يفكر فى التحول أو النكوص عنها برغم الزوابع التى عصفت بمستعمراته الآسيوية فثبت لها وقاومها واستمر فى نشر عقيدته بكل جهده ، وأكثر من معابد « آتون » الاله الواحد بسائر أنحاء البلاد .

لقد كان اخناتون رجلا فذا .. ولكن جيله لم ينصفه ، لأن رسالته كانت اكثر علوا من أن يفهمها هؤلاء الناس ، فتعسر عليهم ادراك أسرار عقيدته السامية ، وتسلطت عليهم آراء أصحاب المطامع والأغراض .

بشر اخناتون بالسلام والحرية والأخاء ..

كان يريد أن يسود الدنيا قانون المساواة ، وأن يحس الناس على اختلاف طبقاتهم بزوال الفوارق وانعدام الطبقية .

كان اخناتون يعتقد أن سياسة أخرى غير سياسة الحرب والارهاب ، تربط بين الحاكم والمحكوم والتابع والمتبوع والسيد والمسود .. بين فرعون وجميع الشعوب التى تحت حكمه .. وأراد أن يفهم رعاياه ذلك ، ولكنهم كغيرهم من البشر لم يكونوا مهيئين لغير تفهم سياسة الحديد والنار والفتك والارهاب والتقتيل ! !

وانه وهو يعالج سكرات الموت ليشعر بذلك كله .. ولكنه يسخر من الناس ويتهكم عليهم لتمسكهم بالخرافة ، ويرفع رأسه الى سماء خالقه يسأله ضارعا أن يهدى شعبه سواء السبيل .

ما أحس حفيظة ولا استشعر حقدا ، لأنه كان شديد الايمان بدعوته ، وبأن الاجيال القادمة سوف تنصفه ، وان ظلمه جيله ومعاصروه !

ومن عجب ان من أثاروا الناس عليه والبوا الولايات ضده كانوا يعتقدون فى صميم نفوسهم ان الرجل على حق . ولكن المصالح كانت تقف دون الاعتراف بربه وتحول المطامع دون الاقرار برسالته ..

ان دين « اخناتون » معناه التنازل عن السيادة .. معناه زوال الرهبة .. معناه المساواة .. ولكن .. ترى هل كان فيهم من يرضى بذلك ..

وكيف يرضى الكهان بالتنازل عن سلطانهم وعن الجاه العريض والكلمة المسموعة .. ويصبحون فى ظل آتون سواسية مع عامة البشر ! !

لم يقر الأمراء هذا النظام الغريب ولم يرض به الاشراف ، فحاربوه بكل الوسائل ! !

وهكذا ولدت الدعوة الحقة نسبيا ، واهتدى العقل البشرى فى حدود مفهوماته الى القدرة المسيطرة على العالم لتموت قبل أن ترى النور ..

مات اخناتون الفيلسوف ..

وانتهى أمر رجل له فى تاريخ الشرق القديم صوت نادى بالتوحيد ..

وهكذا لم يكد يموت اخناتون حتى انهارت دعائم دينه ودالت دولة مملكته الجديدة .. ولم يستطع خلفاء اخناتون أن يقفوا فى وجه التيار الدينى المضاد لهم فنكصوا على أعقابهم ولم يجدوا من وسيلة لارضاء عواطف الشعب الغاضب الا أن يكفروا بما آمنوا به ويعودوا مرة أخرى ، لا الى ديانتهم القديمة فقط بل الى هجران عاصمة « **آتون** » والعودة الى عاصمة معبودهم القديم ، فلم تلبث أن فتحت أبواب المعابد التى أغلقها اخناتون وأعيدت فيها مراسيم العبادة التى حرمها النبى الداعى الى وحدانية كرهها جميع المصريين ولعنوه من أجلها !!

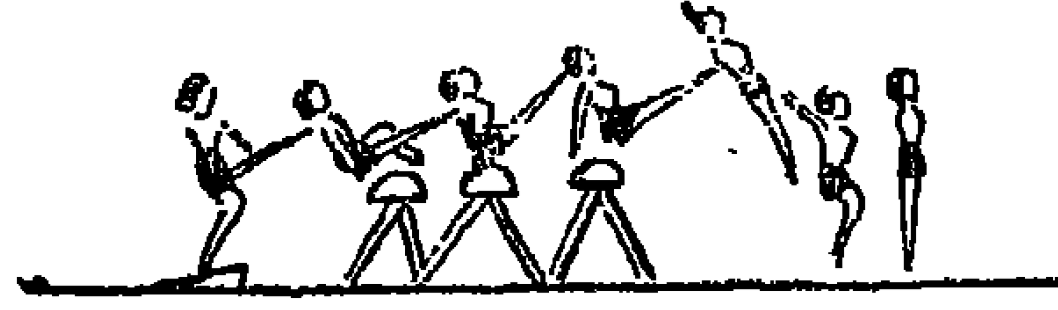
وعلا بهذا الانقلاب الجديد مرة أخرى اسم « آمون » و « رع » وغيرهما ...

وعلى عرش اخناتون جلس زوج ابنته الكبرى « **سكنن رع** » ولم يكن كفؤا لادارة شئون الدولة ، فلم يطل أمد حكمه . فخلفه « **توت** » وهو

صهر اخناتون الثانى وزوج كريمته الثانية ((**عنخ سن آتون**)) الذى تولى العرش باسم ((**توت عنخ آمون**)) !!

وقد شعر هذا الفرعون بضعف الملكية وقرب زوالها وأحس بحاجته الى عون كهنة آمون لتدعيم ملكه ، فكان ان أعلن بطلان آتون لفكرة سياسية .. وانتقل وأسرته الى طيبة واستبدل اسم آتون باسم آمون .

وهكذا انتصرت المصالح الذاتية على العقائد الدينية فسخرتها لأغراضها وطمست ما نادى به الفيلسوف العظيم اخناتون .



البعث عند الفراعنة

ومادمنا قد استعرضنا فى الفصول السابقة الديانات التى عرفت فى ذلك العالم المحدود ، والارباب التى آمن بها الناس وخرجنا منها — **الى أن الدين الفرعونى او دعوة اخناتون الى الوحدانية بصفة خاصة** —كانت أرقى ماوصل اليه التصور البشرى فى تلك الحقبة من الزمان وأنه ، وبالرغم من العودة الى عبادة « آمون » ، فان الأفكار والاتجاهات التى نشأت منها ثورة « أخناتون » تأثرت بها بعض العقليات المفكرة حتى أننا لنجد بعض صفات التوحيد فيما يرتلونه ، وهذه بعض أبيات من أنشودة « آمون » الكبرى ، وهى بردية بدار الآثار بالقاهرة — تقول : (١)

« رب الصدق ووالد الآلهة

« خالق الناس وبارىء الحيوان

« رب كل كائن

« ومنشىء شجرة الحياة

« خالق الأعشاب ورازق الماشية لتحيا » .

وهذه الأنشودة التى اقتبسنا منها هذه الأسطر نجد فيها أبياتا أخرى تحتوى على ترديد لأصداء مذهب « آتون » حيث جاء بها :

« الفريد فى ذاته ، الخالق لكل كائن

« الواحد الأحد ، خالق كل موجود

« خالق الأعشاب للماشية

« والذى يضع قوت السمك فى النهر

« والطيور التى تجوب السماء

« والذى يمنح النفس ما يوجد فى البيضة

---

(١) فجر الضمير — برستيد .

« والذى يضع ما يعيش عليه البعوض
« وكذلك الدود والحشرات
« والذى يمد الفيران بحاجاتها فى أجحارها
« والذى يعول الطيور فى كل شجرة فتعيش
« سلام عليك يا من خلقت كل ذلك
« أنت يا واحد يا أحد ياذا الأذرع العديدة
« وانت يا صاح بينما كل الناس تنام
« ساع فى البحث عن الأشياء الطيبة لماشيته
« فالماشية جميعها تقول : السلام عليك
« وكل مملكة تقول : العزة لك
« بمقدار علو السماء وعرض الأرض وعمق البحر

ولكن .. وبالرغم من ايمان المصريين بوحدة الخالق وبتأييد دعوة اخناتون — الا أن الأحداث السياسية التى أحاطت بالدولة ، وكيد الكهان المخلوعين فى طيبة وما جاورها من كهان « آمون » الاقوياء الذين سلبهم اخناتون مناصبهم وحبوسهم وسيطرتهم على العرش والمحراب .. ثم — وهو الأهم — مهاجمته الشعب فى أعز عقائده وهى عقيدة « البعث » وانكاره سلطان أوزوريس على الأرواح وعدم ايمانه بجحيمه ولا بجحيم غيره ، وراح يبشر الناس بحياة خالدة كحياة الأطياف .. تحياها الروح بين الهدوء فى ظلمة الليل واستقبال النور من وجه آتون .

من أجل هذا كله .. سقطت دعوة اخناتون ويهمنى بهذه المناسبة أن اتحدث عن « البعث » عند المصريين القدماء .

لقد سما العقل المصرى وعلا فى تصوره وهو يتخير رمزا لمعبوده ويحيطه بشتى صفات التقديس ويجعل قدرته شاملة للأحياء جميعا وممتدة الأثر حتى لتتعداهم وتتعدى عالمهم فتصل الى الموتى فى عالم الخلود حيث النعيم لمن قدم خيرا والجحيم لمن عمل شرا ..

لقد صور العقل المصرى البدائى عقيدة **« البعث »** فى صورة توحى لمن يدرسه بتعمق وامعان ، بأن هذه العقيدة لايمكن أن تكون من وحى هذه العقلية التى لم تكن لها القدرة — وقد عاشت فى عصور التأخر والجهل — على كشف الحجب والوصول الى أسرار الغيب وتعرف مايجرى فى العالم المجهول الذى تسكنه أرواح الموتى ، وانها عندما آمنت بهذه العقيدة وعرفت النشور والبعث والحساب والجزاء فى العالم الآخر بعد الموت ، فانما كانت تتبع ناموسا قديما ، علمه اياها معلم ، كان شديد الصلة برسول له علم وايمان

بدين صحيح ، فيه ما يخيف الناس ويرهبهم ويدعوهم الى التطهر والصلاح ومعرفة العبادات على حقيقتها بعلمه السماوى ويحول الانظار من دنيا الناس الى عالم الفناء ، محدثا الناس عنه وعما سيلقى فيه المحسنون من هناء وراحة خلال الضجعة الأبدية وعن الرياض التى ستخلد فيها أرواحهم حتى قيام الساعة واعلان البعث والنشور ..

والواقع أن قصة « البعث » كما وردت فى الدين المصرى القديم ، تتفق فى عديد من الصلات مع الأديان السماوية الأصيلة ، وان هذا الاتفاق غير المتعمد والذى تكاد تنطق فيه شبه الصلة التى تجمع بين رسل الماضى والفراعنة ، لتجعلنا نقول أن عقيدة هذا الشعب العريق ، **وان انحرفت فى عباداتها الى حد ما — الا أنها ظلت فيما يتعلق بعالم ما بعد الموت محافظة على الصور الدينية الخاصة بالعالم الآخر ، والتى عرفت أيام « نوح » عليه السلام ووردت فى دعوته ، وأن التغيير والتبديل الذى تناول الدين المصرى القديم فى مظاهر عديدة منه بتدخل أصحاب الكهانات والمطامع ، لم يستطع أن يعدو على جلال عقيدة البعث وتركها على الصورة السماوية التى جاءت عليها ، وان كان قد أدخل فيها من عندياته بعض رموز تقرب هذه العقيدة من شتى العقول على تباين درجات فهمها ..**

ولم تكتف العقلية المصرية بما نالت من قصب السبق فى هذا الميدان ، بل سارعت الى سبق غيره ، فتخطت بذلك عقليات الأمم الأخرى .. اذ راحت تبحث عن سر « الروح » .. وكان ذلك مفتاح ايمانها بالبعث ..

ولعله لم يرد فى أية ديانة أخرى خلال تلك العصور المظلمة مايشير الى **« الروح »** لأن الافهام وقفت جامدة أمام سر الموت وقوته وغموضه باعتباره نهاية للحياة . أما العقلية المصرية فقد عرفت شيئا آخر أكثر خطورة وأقرب الى الصواب ، وهو أن الجسد شىء كتب عليه الفناء وان الله قد وكل أمر حياة البشر واحساسه وشعوره الى روح تغاير الجسد صفة ومادة ونسيجا فهى خالدة لا تعترف بموت أو فناء ..

وقد تخيل المصريون أن للكائن « روحين » لكل منهما عمل خاص تقوم به ، وسموا أولاهما « كا » — وهى على هيئة طائر مجنح قائم الذراعين الى اعلا ، وثانيتهما « با » وهى الأخرى على هيئة طائر له نفس صورة الميت ، وهذه تزور الجسد فى قبره وتسكن معه فى أغلب الأحيان .

وعلى أساس عقيدة الايمان بوجود هذه « الروح» ثبت معتقد المصريين فى البعث فالروح يفارق الجسد بعد الموت ويعلو الى السماء حيث يحتشد

مع غيره من بقية الأرواح فى قارب ((رع)) المجتاز للسماء سائرا بهذا الحشد الى ((الغرب)) حيث ((لوكارون)) الذى يحمل الاجساد فى قاربه الى الابدية ، وحيث مملكة ((أوزوريس)) رب المغـرب والخلود التى تنتقل اليها الأرواح التى وصلت فى مركب ((رع)) !!

و « عالم أوزوريس » هو عالم الموتى » وفيه أيضا قاعة العدل الآلهى أو قاعة الحساب !! ويتصدرها القاضى الأكبر اوزوريس والى جانبه زوجته ايزيس واختها نفتيس وامامه يقف ابنه « حوريس » ومعـه « أنوبيس » الموكول اليه أمر الموتى ، وبمبعدة من عرش القاضى الأكبر يقف « توت » رب الحكمة يحمل صحائف اعمال الأرواح القادمة الى قاعة العدل والتى سطرت فيها الحسنات والسيئات .

ولاتكاد تبدأ المحاكمة حتى يأخذ كل من هؤلاء مكانه ، ويجلس الاثنان والاربعون قاضيا فى أماكنهم ، ويوضع الميزان والى جانبه «معات» ربة العدل وبمبعدة منه الوحش البشع الهيئة الذى يسمى ((**الملتهمة**)) يجلس متحفزا فى انتظار الروح الشريرة ليتولى عذابها !!

ولقد سبق ان ذكرنا أن « البعث » و « الحساب » فى العقيدة المصرية **القديمة يتفقان فى أشياء كثيرة مع الأديان السماوية ، ففكرة الحساب موجودة فى كل دين منزل ، واحصاء الحسنات والسيئات ـ أى وزنها ـ وارد فى صلب الكتب المنزلة . ولعل القرآن أكثرها توضيحا لذكر ((الميزان)) الذى ((تخف)) فيه موازين وتثقل اخرى ..**

ومبالغة من المصريين فى الايمان ((**بالبعث**)) وثقة منهم فى عدالة القضاء فى ((**قاعة العدل الالهى**)) ، كانوا يحسـبون لذلك اليوم المجهول المـوعود كل حساب . ومن هنا كان سر اهتمامهم بحفظ الجسد ، حتى اذا عادت اليه الروح وجدته على حاله الأول الذى عرفته والذى عاشت فيه .

ولم يقتصر اهتمامهم على الجسـد فحسب بل اهتموا بالروح أيضا ، واعنى بالروح هنا الطائر المسمى « با » فزينوا له جدران القبر زينة بهيجة ، وصوروا على جدرانه جميع المعالم التى كان يريدها الميت فى حياته ، وكل شىء كان يحبه . ولم ينسوا فى ذلك قصوره وجناته وما عنده من مال وخير وملاه لتراها الروح وتأنس بها وتعيش فيها غير شاعرة بوحشة المكان حتى اذا ما حل يوم « البعث » وعادت الى الجسد مرة أخرى وجد « المبعوث » نفسه فى مكان غير غريب عليه !!

و ((الحساب)) فى الكتب المنزلة يكاد يـكون تفسيرا لعقيدة ((البعث)) البدائية التى عرفها الفراعنة ، لأن ((الحساب)) هو ((المعبر)) الذى تصل به

الروح — اما الى وديان السعادة والراحة والفرحات . وأما الى حفر من الجحيم وسوء المنقلب ! والله تعالى يقول :

((فأما من ثقلت موازينه ، فهو في عيشة راضية ، وأما من خفت موازينه ، فامه هاوية ، وما أدراك ماهية ، نار حامية)) .

ولما كان تصوير المصريين ليوم الحساب فيه كثير من الطرافة ، فانى اذكر منه هنا صورا مختصرة **لمحكمة الموتى :**

((عندما تجتمع قاعة العدل ينصب الميزان في موضعه ، ثم يتصدرأوزوريس القاضى الأكبر الجلسة ، ويقف المنادى عند بابها لينادى الميت باسمه .. وسرعان ما يدخل اليها للمحاكمة ، فينتزع قلبه ويوضع في احدى كفتى الميزان وتوضع في الكفة الأخرى ريشة الربة ((معات)) آلهة الحق والعدالة لتوازى الثقل .. ثم تجرى عملية وزن القلب الذى يناجيه الميت ويتوسل اليه أن ينصفه ، وهنا يحدث شيء من اثنين : أما أن ترجح كفة القلب — وهذا معناه السعادة والنعيم الأبدى ، وأما أن ترجح الكفة الأخرى وهذا يعنى العذاب الأليم ..

وان فى القرآن الكريم مايتفق ومعتقدات الدين المصرى القديم » اذ يقول تعالى فى كتابه :

((يومئذ تعرضون لاتخفى منكم خافية ، فأما من أوتى كتابه بيمينه ، فيقول هاؤم اقرءوا كتابيه ، انى ظننت انى ملاق حسابيه ، فهو فى عيشة راضية ، فى جنة عالية ، قطوفها دانية كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم فى الأيام الخالية ، وأما من أوتى كتابه بشماله فيقول ياليتنى لم أوت كتابية ولم أدر ما حسابيه ياليتها كانت القاضية ، ما أغنى عنى ماليه ، هلك عنى سلطانيه خذوه فغلوه ، ثم الجحيم صلوه ، فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه..))

وقبل ان يوزن القلب يقف الميت فى حضرة الرب الأكبر ويدلى بدفاعه الذى لايذكر فيه عن نفسه الا كل خير ، فلا يعترف بخطيئة ولا يقرر ارتكابه لأثم أو شر من شرور الدنيا ، بل يدعى انه قام بحق الآلهة وانه عمر معابدها وانه احترم كاهن قريته المقدس ، ولم يمنع صدقة المعبد ولم يأخذ سمكة بسمكة ولم يحمل لأحد حقدا ولا ضغينة ولم يقتل ولم يلحق الايذاء بجاره وانه طاهر اليد ، طاهر القلب ، طاهر اللسان ، طاهر الجسد ! !

ويتبرأ الميت من كل جريمة يمكن ان تلصق به فى العالم الآخر ، مما يعاقب عليها أشد العقاب فيقول :

« انى لم أقتل »
« انى لم أسرق »
« انى لم أتلصص »
« انى لم أسرق امرأ ينتحب على متاعه »
« ولم تكن ثروتى عظيمة الا من ملكى الخاص »
« انى لم انقص مكيال الحبوب »
« ولم أكن طماعا »
« ولم يكن صوتى عاليا فوق ما يجب »
« ولم تأخذنى حدة الغضب فى طبعى »
« انى لم أسب »
« ولم أكن متسمعا »
« ولم أكن متكبرا »
« انى لم ارتكب زنا مع امرأة »
« انى لم ارتكب مايدنس عرضى »
« قولوا عنى الصدق أمام الرب المهيمن »
« لأنى أقمت الصدق فى أرض مصر »
« وانى لم أسب الاله »
« انى أعيش على الحق »
« وأتغذى من عدالة قلبى »
« ولقد أرضيت الاله بما يرغب فيه »
« فاعطيت الجائع خبزا »
« والصادى ماء »
« والعريان لباسا »
« ولمن لا قارب له زمنا »
« فنجونى انتم واحمونى انتم »
« ولا تقدموا ضدى آية شكاية أمام الاله العظيم »
« لأنى انسان طاهر الفم وطاهر اليدين »
« وانى من قال له كل من رآه : مرحبا ، مرحبا »

وهكذا يظل يذكر براءته من اثنين وأربعين خطيئة تغضب ربه ، وينهى دفاعه الانكارى هذا بالتوسل للاله الأكبر كى يمن عليه بالمغفرة وأن يسمح

لروحه بالحياة فى النعيم الأبدى .. ويضرع الى الاثنين والأربعين قاضيا أن يشفعوا له ، فيصدروا حكمهم فى صالحه ...

وهنا تحضرنى الآية الكريمة :

((يقول الانسان يومئذ أين المفر ، كلا لا وزر ، الى ربك يومئذ المستقر ، ينبأ الانسان يومئذ بما قدم وأخر ، بل الانسان على نفسه بصيرة ، ولو ألقى معاذيره ...)) !!

وهنا يأمر القاضى الأكبر بان يوزن القلب ويسأل « توت » ان يقرأ لوح أعمال الميت ويراجعه فيما قال ليرى ان كان حقا أم لا ، فيطالع توت الكتاب ويقرر صدق الميت أو كذبه .. ثم ينطق أيضا بنتيجة وزن القلب ! !

ثم يصدر أوزوريس حكمه على الميت فان كان صادقا منحه صفة الخلود فى سعادة وسرور أبدى ، وان كان كاذبا يصرخ فى وجهه ويطرده من حضرته ، ويتوعده بالشر والعذاب الخالد ويبيح روحه لتكون طعاما للثعابين ، وهنا يأتى دور الوحش الرابض فى أقصى القاعة فيفتك بالجانى ويذيقه شر أنواع العذاب ، جزاء وفاقا على ما ارتكبه من شرور وآثام ! !

ويذكرنا هذا الوحش بالآية الكريمة :

((وجىء يومئذ بجهنم يومئذ يتذكر الانسان وانى له الذكرى ، يقول ياليتنى قدمت لحياتى ، فيومئذ لا يعذب عذابه أحد ، ولا يوثق وثاقه أحد ، يا أيتها النفس المطمئنة ارجعى الى ربك راضية مرضية ، فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى ..))

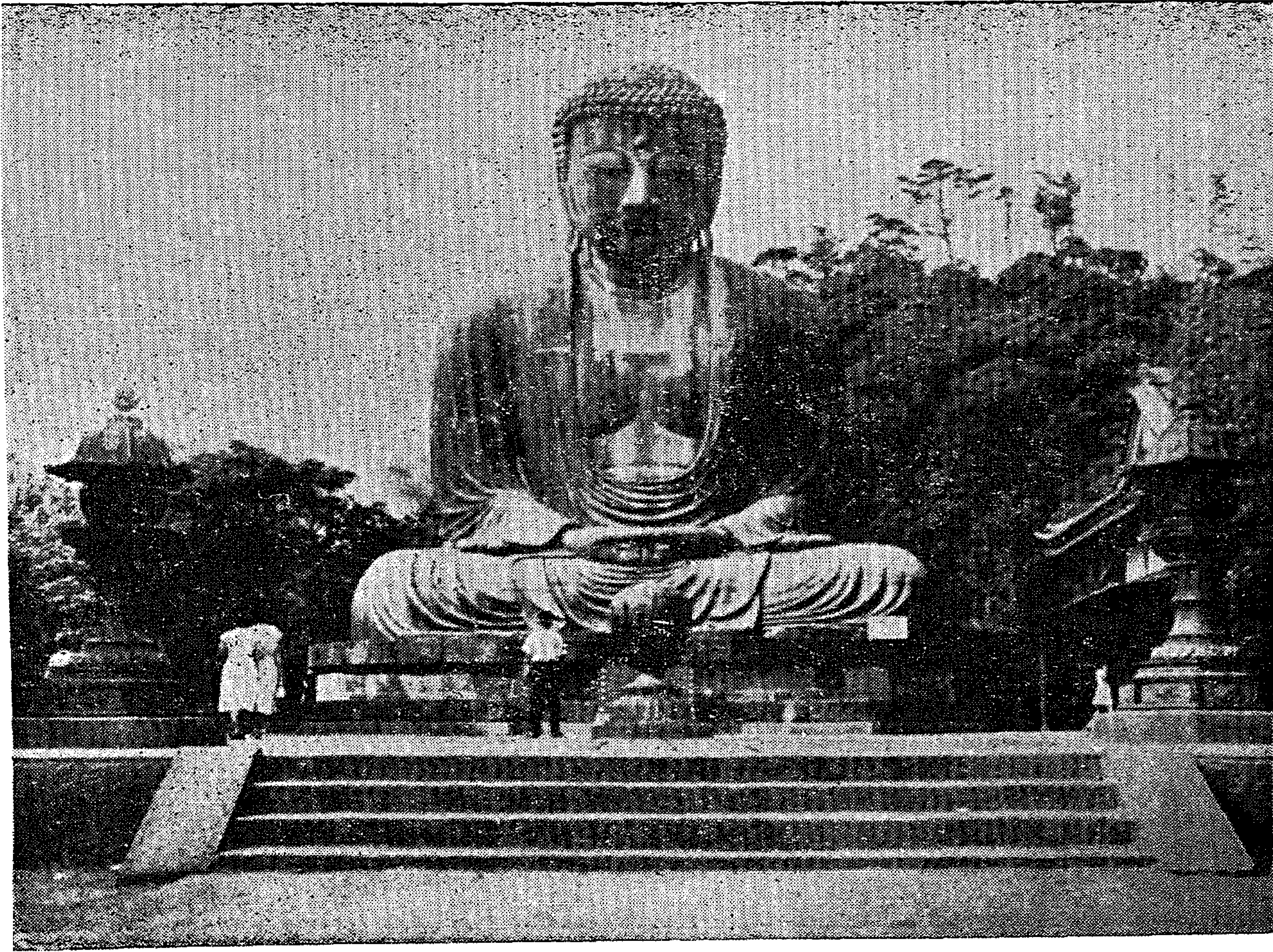
ذلك ((يوم الحساب)) كما يصوره الدين المصرى القديم ، ولاشك انه يتفق والأديان المنزلة فى عديد من الصلات ، وان تصويره رغم سذاجته فيه ما يجعلنى أؤكد ماقلته سابقا ، وهو ان العصور على كرها وظهور الهة واختفاء أخرى ، وتفرع عبادات عن عبادات ، وتحيز لمعبود دون آخر وقفت ضعيفة عاجزة أمام سور عالم الظلام ، فلم تستطع أن تنفذ الى داخله فظل محافظا على غموضه ، وظلت عقيدة ((البعث)) و ((الحساب)) سليمة لم يغيرها شىء .. ولا أجد اختلافا واضحا بينها وبين ما ذكرته الكتب السماوية كما هو ظاهر .

اما وقد وصلنا الى هذا الحد من استعراض ديانات العالم القديم قبل الرسالات ذات الأثر فى مجريات التاريخ ، وحللنا ودرسنا هذه العقائد التى وصلت اليها تصورات البشر وعقلياتهم المحدودة فى تلك الآونة البعيدة سواء بالتخيل أو بتذكر ميراث قديم من عقائد ذات أصول يعرفها الكهان — فانى أجد نفسى أمام حقيقة ناصعة واضحة الظهور وهى أن تشابه تلك العقائد لايمكن أن يأتى مصادفة .

ذلك أمر لاشك فيه ، كما لا يمكننا أن نقبل أى نوع من أنواع الجدل لأن « **الوحدة** » المتكررة التى نجدها فى كل دين معروف فى ذلك الوقت — وان تغيرت فيها الأسماء وتباينت « **الطقوس** » — فيها ما يجعلنا نمعن التفكير فى ذلك التكرار غير المتعمد من ذكر « **الخير والشر** » فى كل دين من هاتيك الأديان جمعاء و « **خروج** » هذا « **الخير والشر** » من أصل واحد ونسبتهما الى « **الهين** » أنجبهما أو خلقتهما ذات قادرة هى ذلك « **الأصل الواحد** » وارتباطهما معا بصلة الاخوة ووشيجة الرحم ، خلق احدهما لنشر راية الخير ورفع علم السلام ، فى حين غلبت الثانى نزعة الشر وحب العدوان ومن هنا تتصادم اهواؤهما وما يدينان به من نزعات ولا يلبث التصادم أن يستحيل الى صراع رهيب يقف كل منهما خلاله لأخيه بالمرصـاد ، وكأنى بهما ما خلقا لغير ذلك الصراع الجبار ! !

ومن هذا التكرار نستطيع ولا شك ان نقول ان مرجع هـذه الديانات جمعاء الى « أصل واحد » أو « رسالة واحدة » أو « كهانة كبرى واحدة » تتلمذت عليها عدة عقليات جريئة ، ما ان نضجت وتم اعدادها لنشر الرسالة حتى كانت تجوب مشارق الأرض ومغاربها المعروف منها والمجهول ، لتضع بذرة هذه « التعاليم » التى لقنتها والتى آمنت بها ، فتزرعها فى عقـول ساذجة سرعان ما تجد فيها المراتع الخصيبة ، فتنتشر وتنمو ويعظم شانها .. ثم لا تلبث مع مرور الزمن أن تصبح « وحدة » ثابتة من وحدات العقل والتصور والوجدان ..





لم يدع ((بوذا)) يوما انه اله .. أو ابن آلهة .. ولكن مبالغة الأتباع والمريدين هى التى صنعت من بوذا الها ، ومن مذهبه الفلسفي دينا !!

(الرسالات الكبرى)

الوحدانية في الهند

« ان ترك لذات هذا العالم الدنيوى ، هو الذى يلحقكم بذلك العالم الأخروى ، حتى تتصلوا به ، وتنخرطوا فى سلكه ، وتخلدوا فى لذاته ونعيمه » ..

برحمن

والهند قلب الشرق السحرى ، تكاد حضارتها تعاصر الحضارة الفرعونية وتكاد دياناتها القديمة تكون نسخة أخرى من الدين المصرى القديم .

لقد كانت العبادة الهندية قبلا ـ عبادة فطرية تدور الى حد ما حول الوحدانية ، ثم راحت مع الزمن تأخذ الأشكال والطقوس التى كانت تصورها الكهانات وترى أن فى قيامها صالحها الأكبر .

ولعل مرور الزمن وتعدد الطقوس واستفحال أمر الكهانات دعا الى أن يعمل العقل الهندى فى التفكير الجدى فى أمر عباداته التى انحطت الى حد عبادة الطواطم والحيوانات ، واتخذت هيئات لها غرابتها واتبع العابدون وهم يؤدونها طرقا غريبة منفرة ، تدل على مدى التأخر والجهل .

وأدى هذا الاضطراب فى العبادات الى قيام فرق ومذاهب بدأ حكماؤها يتبعون سبل العقل فى شىء من اللباقة وحسن التأثير على العقول .

ولا شك ان مذهب « البراهمة » هو أكبر مذاهب الهند وأكثرها خطورة وأعمها شيوعا وأوسعها انتشارا .

ولقد دار بخلد الكثيرين ان « البراهمة » فرقة من فرق المجوسية ، وانهم سموا « براهمة » نسبة الى ابراهيم خليل الله .

والواقع ان هذه الفئة لم تتبع « **الثنوية** » المجوسية أو « **الوحدانية** » المشوبة التى تستعين دواما بأعوان ومساعدين ، بل اتبعت طريقا خاصا أوضحه صاحب مذهبها الهندى « **برهام** » الذى نفى النبوة وانكر الرسالات السماوية وسخر منها ودعا الى نكرانها وعدم تصديق أصحابها .

ولهذا الرجل آراء غريبة يقول فى بعضها :

« ان ما يأتى به الرسول لايخلو من أحد أمرين ، فاما أن يكون معقولا واما ألا يكون معقولا ، فان كان معقولا فقد كفانا العقل التام بادراكه ، وان لم يكن معقولا فلا يكون مقبولا ، لأن قبولنا ما ليس بالمعقول خروج على الانسانية ودخول فى حيز البهيمية .. ولقد دل العقل على أن الله تعالى حكيم ، والحكيم لا يجيز الخلق على عبادته الا بالهيئة التى تصورها لهم عقولهم ولقد دلت الدلائل العقلية على أن للعالم صانعا عالما قادرا حكيما ، وانه أنعم النعم على عباده فاستوجب الشكر وعلينا أن ننظر فى آيات خالقه بعقولنا ونشكره ، لأن معرفتنا له وشكرنا اياه يستوجب اثابته لنا أما اذا كفرنا به وانكرناه فقد وجب علينا عقابه . فلأى سبب اذا نتبع بشرا مثلنا فانه ان كان يأمرنا بما ذكرناه من المعرفة والشكر فقد كفتنا عقولنا عنه . وان كان يأمرنا بما يخالف ذلك كان فى قوله أنصع البراهين على كذبه ! !

وله فى الرسالة والرسل آراء أخرى نورد منها الرأى التالى :

« ان اكبر الكبائر فى الرسالة اتباع رجل مثلك فى الصورة والنفس والعقل .. يأكل مما تأكل ويشرب مما نشرب ، حتى نكون بالنسبة اليه كجماد يتصرف فيه رفعا ووضعا ، أو كحيوان يصرفه اماما وخلفا ، أو كعبد يأمر فيه وينهى فأى تمييز له عليك ؟ وأية فضيلة أوجبت استخدامك ؟ ! وما دليله على صدق دعواه ؟ فان كان الاغترار بقوله فلا تمييز لقول على قول ، وان تأثرنا بحجته فعندنا من خصائص الجواهر والأجسام مالا تحصى كثرته ومن المخبرين عن الغيب ما بعده كثرة » ! .

ولسنا الآن فى مكان مناقشة هذه الآراء الغريبة التى أوثر تركها الى فصل آخر ، حتى نفرغ من « البرهمية » والمذاهب التى تفرعت عنها وأهمها مذهب أصحاب « البددة » ثم أصحاب « الفكرة » وأصحاب « التناسخ » ..

وأصحاب « البددة » أى الذين يعتقدون فى وجود اله واحد فى هذا العالم لم يولد ولم ينكح ولا يأكل ولا يشرب ولا يلحقه هرم ولا موت ، ويسمى « البد » ويدعون ان أول « بد » ظهر فى العالم اسمه « شاكمين » وقد سبق ظهوره الهجرة بخمسة آلاف عام .

و « **البد** » معناها « **السيد الشريف** » ويليه مرتبة فى مذهبهم « **البوديسعية** » ومعناها « الانسان الطالب سبيل الحق » والوصول الى هذه المرتبة العالية لايكون الا بالصبر والعطاء والرغبة عن المباهج والامتناع عن عروض الدنيا وشهواتها ولذاتها والتعفف عن الحرام ومعاملة الناس بالرحمة واجتناب الذنوب العشرة الكبائر التى هى :

قتل الروح ، واستحلال أموال الناس ، والزنا ، والكذب ، والنميمة ، الايذاء ، والشتم ، والاغتصاب ، والسفه ، والجحود لجزاء الآخرة ..

فاذا ما بعد عن هـذه الخطايا العشر وجب عليه أن يسـتكمل عشرة خلال هى :

الجود والكرم والعفو عن المسىء ودفع الغضب بالحلم والتعفف عن الشهوات والفكرة فى الخلوص الى ذلك العالم الدائم وتفضيله على هذا العالم الفانى ورياضة العقل بالحلم والأدب وكثرة النظر الى عواقب الأمور ولين القول وطيب الكلام مع الناس وحسن معاشرة الاخوان وايثار اختيارهم على اختيار نفسه والبعد عن الادعاء وحب الحق وبذل الروح شوقا الى الحق ولجوءا الى جنابه ....

ولقد زعم اتباع هذه الفرقة ورؤساؤهم ان ((البددة)) أتوهم ومنحوهم المعرفة والعلم ، وانهم ظهروا لهم فى أجناس وأشكال عديدة ، وكان ظهورهم فى بيوت الملوك لأنهم شرفاء الجوهر .

ويأتى بعد هؤلاء أصحاب ((**الفكرة والوهم**)) وهم علماء الفلك والنجوم وأحكامها المنسوبة اليهم ، وهم أصحاب فكرة تخالف قرناءهم فى بلاد العجم والروم ، لأن أحكامهم انما تتصل بالثوابت دون الكواكب السيارة ، ويعدون أحكامهم عن خصائص الكواكب دون طبائعها ، فهم يعتبرون « زحل » السعد الأكبر لرفعة مكانه وعظم جرمه ، وانه صاحب العطايا من سعادة وغيرها .

ولهـذه الفرقة أيضـا آراء فى التطبيب تخالف الروم ، فهم يعظمون أمر الفكر ويقولون انه الوسيط بين المحسوس والمعقول ، وان الصور وهى من المحسوسات ترد عليه مع المعقولات ، فهو والحالة هذه مورده العلمان ومن هنا يجتهدون فى صرف الوهم والفكر عن المحسـوسات بالرياضـة والاجتهاد والجهد حتى يتجرد الفكر عن هذا العـالم ويتبدى له العـالم الآخر . وفى هذه الحالة يستطيع ان ينبىء عن الغيب ، وربما كان بوسعه ان يحبس المطر أو يدخل الوهم فى نفس رجل فيقتله لتوه ! !

ومن عادتهم اذا دهمهم أمر من الأمور ان يجتمع أربعون من أصـحاب الرأى الصائب ممن لا خلاف بينهم ولا اختلاف فى الآراء ، واذ ذاك يتجلى لهم الوهم الذى يرتاحون اليه فيدفعون بذلك عنهم البلاء .

وهناك أيضـا فرقة تسمى « البكرنتينية » أى المصفدين بالحـديد ، وهؤلاء يحلقون الرءوس واللحى ويعرون أجسادهم دون العورة ويصفدون أبدانهم من أوساطهم الى الصـدر اذا جن الليـل ، لأنهم رأوا فى الحـديد ما يتناسب والأوهام التى تخيم على عقولهم وتصـور لهم ان زيادة العـلم والمعرفة عندهم ستشق منهم البطون .

واما ((التناسخ)) فمذهب معروف من القدم ، وكانت له فى كثير من البلدان واخصها بلاد العجم — فرق كبيرة لهم آراء ومعتقدات خاصة بهم ،

الا أن ((أصحاب التناسخ)) فى الهند يكادون يكونون لهـم مذهب ومعتقد خاص بهم اذ يعتقدون بظهور طير يقع على شجرة فى وقت معلوم فيبيض ويفرخ .. فاذا تم نوعه بفراخه حك بمنقاره ومخالبه ، فتبرق منه نار تلتهب فيحترق الطير ويسيل دهنه ، فيتجمع فى أصل الشجرة فى مغارة .. حتى اذا حال الحول وحان وقت ظهوره خرج من هذا الدهن طائر على مثال الطائر الأول فيطير ويقع على الشجرة ويأتى بنفس العمل الأول وهكذا ! !

وبعد أصـحاب التناسخ نجد جماعة ((**أصحاب الروحانيات**)) وهؤلاء اعتقدوا فى وجوب وسيط من البشر يأتيهم من عند الله بالرسالة فيأمرهم وينهاهم ويسن لهم الشرائع ويقيم الحدود ، وهم يؤمنون بصدقه وتنزهه بعده عن الدنيا وعن المآكل والمشرب .

و ((**الباسوية**)) تعتقد أن رسولهم ملك هبط من السماء على هيئة . بشر فأمرهم بتعظيم النار والتقرب اليها بالعطر والطيب والادهان والذبائح ، ونهاهم عن القتل والذبح الا ما كان للنار ، وسن لهم الاتشاح بخيط يعقدونه من المنكب الأيمن الى الأيسر ، وحرم عليهم الكذب وشرب الخمر ولمس طعام لمن ليسوا على ملتهم ، وأباح لهم الزناخشية أن ينقطع النسل (!) وأمرهم ان يصوروه على هيئة « صنم » يعبدونه ويتقربون اليه ويطوفون حوله ثلاث مرات فى اليوم وهم يرقصـون ويغنون ومعهم المجامر ، كما أمـرهم بتعظيم البقرة والسجود لها ويفزعون فى التوبة الى التمسح بها !!

اما ((الباهودية)) فقد زعمت أن رسولهم ملك روحانى على هيئة بشر اسمه ((باهودية)) ، جاءهم راكبا على ((ثور)) وعلى رأسه اكاليل مضفور من عظام رءوس الموتى ، تحليه قلادة ، وباحدى يديه عظام انسان ، وبالأخرى رمح له ثلاث شعب !! وأمرهم بعبادة الخالق وعبادته معه ، وأباح لهم أن يصنعوا على مثله صنما يعبدونه ، وأباح لهم كل شىء لأنه من صنع الخالق ! وان يمسحوا بالرماد رءوسهم ، وحرم عليهم الذبائح وجمع المال والزهد فى الدنيا التى يجب أن يعيشوا فيها من الصدقات !!

وتكاد ((الكابلية)) تكون على غرار هذه العقيدة ..

أما ((**البهادونية**)) فمثلهم أيضا مع بعض اختلاف ، اذ حرم رسولهم عليهم الخمر وامرهم أن يهربوا من النساء اذا رأوهن !! وأن يحجوا الى جبل على راسه معبد فيه صنم ((**لبهادون**)) فيذبحوا له الذبائح ويقربوا القرابين !!

وفى الهند أيضا فرق تعبد الأصنام منها ((**المهاكالية**)) و ((**البركسهيكية**)) و ((**الدهكينية**)) وفيهم من يعبد الماء على اعتبار انه أصل كل شىء ، وهؤلاء هم ((**الجلهكية**)) وفيهم من يعبد النار وهم ((**الاكنواطرية**)) وفيهم أيضـا عبدة الكواكب ، واجلها واعظمها شأنا الشمس والقمر ، ولكل من الكوكبين جماعة وفرقة تعبده وتعظمه !!

ان تعدد العبادات واختلاف المذاهب الدينية فى تلك البقعة ذات الحضارة ، وتباين هذه المذاهب وتلك العبادات وتباعد وجود الصلة بينها وتغالى بعضها فى الغرابة وقيام بعضها الآخر على دعامات من البساطة — ليدلنا دون شك على لون من ألوان العقلية ذات التفكير الساذج ، الذى يتأثر الى حد كبير بالبيئة وما يحيط بها من مظاهر الطبيعة وما ينجم عنها ، فيتخير على غرارها دينه ويتخذ على نمطها معبوده الذى ترتاح اليه نفسه وتركن اليه عواطفه ويؤمن بانه سيوليه الخير ويهديه سبل النجاح !!

***

والقارىء ولا شك قد وجد فى الفصل السابق عرضا لعديد من معتقدات ، تأثر أصحابها بالديانات القديمة كالديانة الفرعونية والديانات الأخرى المجاورة لهم كديانة بابل ودين المجوس الواضح الظهور فى أكثر من مذهب من مذاهبهم العبادية . وهذا دليل على أن « التوحيد » الخالص لم ينقطع قط ، بل كان موجودا باستمرار مع وجود هذه « الوثنية » ! !

والملاحظ فى الدين الهندى القديم أن فكرة الوحدانية وجدت فى الأصل ثم لم تلبث أن عدت عليها الديانات التى أوجدتها البيئة والحاجة الطبيعية فى الأقاليم المختلفة ومدى ما تمتع به ذلك الاقليم من غنى وخصوبة أو فقر وجدب ..

ولقد تأثرت العبادة الاولى الهندية بزميلتها الفرعونية ، ولكن تأثرها كان أكثر بالبابلية ، الا أن الظروف نفسها وتباين العقليات والافكار جعلت هذا العدد الجم من شعوب الهند واختلاف ظروفهم المعيشية يحيدون عن الاصل ويوجدون من عندياتهم آلهة ومعبودات ترتاح اليها عقلياتهم !

وعبادة الهند للمطر أو الماء يفسر ولا شك تقديرهم المادى الذى وصل الى درجة العبادة فى بعض الاقاليم التى تقوم حياتها على الزراعة وترجو الخصب لتعيش فى أمان .

ولم يعبد الهنود المطر والماء فقط بل عبدوا الرياح والانواء وشتى مظاهر الطبيعة ، وارتضت عقلياتهم بعد ذلك عبادة الحيوان ، فى الوقت الذى آمنوا فيه بنظرية الروح واعتقدوا فى مذهب التناسخ !!

والبراهمة ولا شك كانوا يمثلون مدرسة خاصة بالتشكك فى افكار الرسل ، مدعين ان العقل الكامل كفيل بان يرشد الانسان الى معبوده وهم يذهبون فى معتقدهم هذا الى جانب الصابئة من عبدة السيارات وان آمن هؤلاء بضرورة وجود ((الوسيط)) بينهم وبين الله !!

والأمر الذى لاشك فيه والدال قطعا على تبلبل الأفكار واضطراب العقل فى تلك البقاع قديما ، وعدم استقرار الرأى على دين ثابت الأصل ، وان

اختلفت فى بعض الأحيان فروعه ـ انه لاتوجد صلة ولا شبه صلة بين المذاهب الهندية على الاطلاق ، وهو أمر نجـده فى جميع الاديان التى تتحد أصـولا وتتشابه فروعها ويحدث أن يزيد عليها أصحاب المذاهب فى دعاياتهم بضع زيادات او ينقصوا منها مالا يمكن أن يعدو على أصلها الأول .

فالدين الفرعونى ينحو منحى واحدا فى معرفته للخالق المعبود وكذلك البابلى وزميله المجوسى . أما هنا فى الهند فنحن أمام عبدة ((الحيوان)) وعبدة ((الطواطم)) وعبدة ((الظواهر الجوية)) وعبدة ((القمر والكواكب)) وعبـدة ((البددة)) وعبدة ((الاصنام)) وهكذا ..

وبالرغم من تعدد المذاهب الدينية فى الهند وتعدد العبادات كما ذكرنا واتخاذها أشـكالا وصفات توافـق جماعات العابدين وترضى عقلياتهم على اختلاف درجاتها ، ثم تعدد الكهانات وامتداد تأثيرها الى العقول وتحكمها فى مصائر الناس وأقدارهم ـ فقـد وجدت الفلسفة الوثيقة الارتباط بالدين طريقها الى القلوب ..

فالبوذية مثلا .. مذهب فلسفى صـارم ، ذو فرائض غيبية تجعلهـا فلسفة اكثر مما تجعلها دينا .. وان أصبحت من أهم الديانات التى نشأت وتوطدت فى الهند ..

ففى القرن السادس قبل الميلاد .. ولد فى اقليم ـ على حدود نيبال واودة الحديثتين ((**جوتاماسيدهارتا**)) الذى عرف فيما بعد باسم ((**بوذا**)) اى ((**المستنير**)) !!

وهو سليل بيت شريف فى امارة صغيرة ـ آثر وهو فى التاسعة والعشرين من عمره ـ أن يهجر بيته وزوجه وولده ويعيش وحيداً فى احـدى الغابات البعيدة ينشد الحقيقة والسلام ، بعد أن تدهورت المثل العليا لدى قومه ، بما أحدثه كهنة البراهمة من تغيير وتبديل فى الدين (١) .

فقد آمن ((**البرهميون**)) قبل ظهور ((**بوذا**)) بالله الواحد الأحد ، دون البحث عن كهنة أو كيفية وجوده ..

ثم تدخل الكهنة فى شئون العبادة ، فانشأوا الطقوس والرموز الغريبة فتبددت المعـانى السـامية للعبادة ، وجنح الشعب الى الشرك وتعـدد الآلهة ...

من اجل هذا غادر ((**بوذا**)) قصر أبيه زاهدا فى الدنيا وزخرفها ، ساعيا الى الوحدة والتعبد والاستغراق فى التفكير الطويل .. وانقطع عن الناس عدة أشهر الى الزهد ، وأمعن فيه الى حـد التعصب . حتى اهتدى أخيرا الى

---

(١) تاريخ العالم ـ المجلد الثانى

ما يجب عليه عمله نحو قومه وقــد فاض عليه العلم وهــو جالس ذات ليلة تحت احدى أشجار الغابة ، وآمن أن وجوده بافكاره وحيدا غير مثمر ولامجد

وسرعان ما راح ينشر تعاليمه ، ويجدد الايمان بالخالق الواحد ولكنه كان يرفض أن يبحث مع اتباعه المسائل الخاصة بالمطلق ((**الاله**)) وعلاقة الروح به ، ومسألة لا نهائية الزمان والمكان أو نهائيتهما .. بل انه لم يرضى رغبــة الكثيرين من أتباعه عندما أرادوا معرفة **ما اذا كان مصير جسم الانسان الذى وصل الى الاستنارة الكاملة ـ هو : الفناء التام بعد الموت ؟ ! أو أن مصيره نوع من الحياة الخالدة ؟ !**

وقد ترك كل هذه المسائل وما شابهها جانبا ، وكان ذلك لسببين : أولهما انها تتناول مسائل فوق مداركهم ، وثانيهما أنمعرفتها لا تؤدىالى نتيجة .. فهو يمسك عن التصريح بآرائه المتغلغلة فى اعماقه ولا يبوح بها ، خشية أن تعوق اتباعه عن اتباع الطريق الذى يريد هو أن يتبعوه ؟ !

وكان يرى : ان الحياة قصيرة ، وانها معرضة دائما للمصائب فى الصحة والمال والأهل والخوف الدائم من الموت ، ومولد الانسان ان هو الا بدء سلسلة من الاحزان لا تنتهى ، فما الموت الا بداية تجربة أخرى لآلام الوجود تصيب مولودا جديدا .. وقامت فلسفته على أربعة مبادىء :

اولا : ان الألم والعذاب من لوازم الوجود .

ثانيا : ان هناك سببا للعذاب والشقاء .

ثالثا : ان هذا السبب قابل للزوال .

رابعا : ان وسيلة الانتهاء الى هذه الغاية موجودة لمن يختار .

أما سبب الشقاء فهو الجهل الذى جعلنا نتعلق بالأوهام ، وننسى لباب الأمور ، أو نتعلق بالعرض ونعرض عن الجوهر الأصيل .

والعرض هو كل ما يزول ويتغير ، وهو من شر وفساد . وكل ما نحسه هو عــرض تشمله لعنة الزوال . فما من شيء ثم يــكون بل كل شيء يصير ولا يكف عن التغيير .

واذا كان الشقاء فى التطرف بالحس الى النقيضين ، فالخلاص منالشقاء لا يتأتى بغير الاعتدال بين كل الطرفين ، وبهذا نميط عنا غشاوة الخداع الذى يتراءى على ظاهر الأشياء للنفاذ الى ماوراءها من سر الوجود .

فلا استغراق فى ارضاء الحس ، ولا استغراق فى قمعه وتجريده ، بل توسط بين الغايتين فى أمور الحياة الثمانية وهى : **الفهم والعــزم والــكلام والسلوك والمعيشة والعمل والتامل والفرح .**

ويقول بوذا أن الخالق الأكبر هو : **الأعلى المهيمن ، الصــالح الصــمد ، العليم ، البصير ، المالك ، الرب ، أحسن الخالقين ..**

ولم يدعى « بوذا » يوما انه اله .. أو ابن آلهة .. ولكن مبالغة الأتباع والمريدين هى التى صنعت من بوذا الها ومن مذهبه الفلسفى دينا !!

فالبوذية انما قامت على أساس البرهمية فى جميع عقائدها — ولكنها تميزت بتبسيط العقائد للعامة ، فأخرجتها من محاريب الكهان الى الشعب مع اضافة توجيهات فى آداب السلوك وفلسفة الحياة ..

وقبل بوذا بمئات السنين كان نساك الهند يتغنون بانشودة مضمونها — كما ترجمها ماكس موللر الى الانجليزية هى :

« حينذاك لم يكن ما وجد أو مالم يوجد ، ولم يكن ماتثبته ولا ماتنفيه

« لا أجواء ولا سماء وراء الأجواء

« وماذا عساها تنطوى عليه ؟ أين كانت وأين قرارها ؟ أهى هاوية الماء التى ليس لها من قرار ؟ !

« لم يكن موت ؟ فلم يكن خلود ..

« لم يكن ما يموت ، فلم يكن ما ليس يموت !!

« لم يكن ثمة نهار ولا ليل . ولم يكن الا « الأحد » يتنفس حيث لاأنفاس ولا شىء سواه ..

« وكان البدء فى ظلام : عيلم بلا ضياء !!

« ومن البذرة فى تلك القشرة قام « الأحد » بحرارة الحياة ..

« وانتصر الحب حين نبتت البذرة من لباب العقل السرمدى ، وناجى الشعراء قلوبهم فتبينوا بالحكمة ما هو مما ليس هو ..

« فقد نفذ شعاع القلب خلال ما هنالك ، فماذا نظروا فوق « الأحد » وماذا نظروا دونه ..

« كل ما هنالك حملة لبذور قوى : قوة من ادنى .. ومشيئة من أعلى .. ولا احد يدرى ؟ ! ولا من يعلم من أين جاء ما جاء .. فانما جاءت الأرباب بعد ذلك ...

« فمن اذن يعلم ما جرى ؟ !

« أهو الذى حدثت منه الخليقة ؟ !

« لعل الذى يعرفه « أحد » واحد فى أعلى عليين ..

« ولعله لا يدرى كذلك ... »

***

وهناك أيضا فلسفات أخرى وديانات عديدة كانت فى الواقع مجموعة حكم وفلسفات دونها حكماء الهند ونساكها من نتاج أفكارهم وتأملاتهم فى مختلف العصور .

ولئن قيل أن بعض الديانات الأكثر عراقة من الديانة الهندية لم توجد بين اتباعها فلاسفة ولا مجادلون ، فانا نسارع ونقول أن هذه الديانات عوضت عن ذلك بعدم تشعبها وبرضاء عقلية أهليها بها ، ثم أنه ظهرت فيهم رسالات سماوية وكان بين أصحابها وبين المتحمسين للأصل الواعى مجادلات تفوق الادعاءات والخيالات الفلسفية !!

وأظهر مفكر حكيم شهدته الهند القديمة كان رجلا اسمه « برحمنن » ، الذى تتلمذ على مفكر سبقه وأخذ عنه آراءه وفلسفته وكان اسمه « قلانوس» ولعله كان من أصل يونانى أو كان من تلاميذ بعض فلاسفة اليونان أو كما قال « **الشهرستانى** » تلميذا لفثاغورس .

وكان « **برحمنن** » غاية فى الذكاء ، فأخذ عن أستاذه « **قلانوس** » كل ما يستطيع تلميذ ذكى محب لعلمه أن يأخذ وهكذا لم يكد يموت أقلانوس حتى بزغ نجم « برحمنن » وأخذ يبشر بمذهبه ويعلم الناس فلسفته .

أما مذهب « برحمنن » فهو يدل على عقلية راسخة فى تعرف كنه العبادة أو على الأقل الطريق الحق اليها فكان يقول :

« أى امرىء هذب نفسه واسرع فى الخروج من هذا العالم الدنس وطهر بدنه من أوساخه ، ظهر له كل شىء وعاين كل غائب ، وقدر على كل متعذر وكان محبورا مسرورا ملتذا عاشقا لا يمل ولا يكل ولا يمسه لغوب ولا نصب»

ودعوة الرجل هذه ولا شك كانت دعوة الى التحرر من الماديات والتمسك بالروحانيات طمعا فى العالم الآخر ، اعترافا بوجود حياة أخرى غير هذه الحياة ، ينعم الانسان فيها بما هو اشهى وأجمل وأخلد مما فى الحياة الدنيا وأنا لنسمعه فى ذلك يقول :

« أن ترك لذات هذا العالم الدنيوى هو الذى يلحقكم بذلك العالم الاخروى حتى تتصلوا به وتنخرطوا فى سلكه وتخلدوا فى لذاته ونعيمه .. »

واتبع الكثيرون مذهبه وآمنوا بحكمته تلك وقد أبدع لهم تصوير ذلك العالم الآخر الذى يجزى فيه المحسن باحسانه والمسىء باساءته ، فلما قضى نحبه انقسم اشياعه الى **فرقتين : الاولى قال فريق منها عن « التناسل » ! انه جريمة الجرائم ، لأنه ثمرة الاشتهاء فهو حرام ، وكل ما يؤدى اليه من مأكل طيب ومشرب لذيذ وما يثير الشهوة فيها حرام ! ودعا هؤلاء الى الاكتفاء بما يقيم الأود من مأكل ومشرب يمكن الانسان من الحياة ، وليكون ذهابه الى ذلك العالم العلوى أسرع من غيره !!**

ومن هذه الفرقة أيضـــا من يعذب بالحرمان نفســـه فيجمع أمامها كل ما تشتهيه .. حتى اذا تاقت اليه أمعن فى حرمانها وتعذيبها حتى تذبل ! !

ومنهم من عمل على رياضة النفس وتهذيبها فهذبوا نفوسهم وقهـروا ما فيهـا من رغبات وآمنـوا بان الله نور باهر حل فى جســد لا يراه الا من يستحق شرف هذه الرؤيا ويزعم هؤلاء انهم فى هذا العالم كالسبايا ، مـن حارب شهواته منهم فهو الذى ينجو ومن استسلم بقى فى الاسار .

أما الفريق الثانى فدعا ايضا الى البعد عن النساء والنسل والشهوات الجسدية ، وكانوا ينظرون الى الشمس ساعة اشراقها فيسجدون لها وهم يقولون :

« ما أحسنك من نور وما ابهاك وما أنورك ! لا تقتـدر الابصار أن تلتذ بالنظـر اليك فان كنت انت النور الأول الذى لا نور فـوقه فلك المجــد والتسبيح ! واياك نطلب واليك نسعى لندرك الســكنى بقربك وننظر الى ابداعك الأعلى ! وان كان فوقك وأعلى منك نور آخر انت معلول له ، فهـذا التسبيح وهذا المجد له ! وانما سعينا وتركنا جميع لذات هذا العالم لنصير مثلك ونلحق بعالمك ونتصل بمساكنك ، اذا كان المعلول بهذا البهاء والجلال فكيف يكون بهاء العلة وجلالها ومجدها وكمالها !! »

***

وهـكذا خلصوا فلاسفة الهند ، كما خلص غيرهم من هـذه العبادات العديدة ، الى الايمان بالاله الواحد الأحد الذى لا شريك له .



فى الصين واليابان

« اعطى الله لكل انسان ضميرا ، اذا اتبعه يحفظه ويقوده الى الطريق السوى ، والله دائما يبارك الطيب ويعاقب الردىء » .

« مثل صينى قديم »

كان الصينيون قديما يعتقدون بوجود اله واحد ، لاتدركه الأبصار ، عرشه السماء ، ومقاليد الأرض بيده ..

ولم يبحثوا فى كيفية خلق النوع البشرى ، وقالوا ان اله السماء كائن عظيم ، يحب الخير ، ويكره الشر ، ويجازى الناس بأعمالهم ، ان خيرا فخير ، وان شرا فشر ، لايكلفهم عبادته الا بالقلب ونقاء الضمير ، ويكتفى منهم بأن يقوم الرجل بواجبه نحو جاره وأخيه فى الانسانية .

فاذا أراد الانسان أن يحصل منه لنفسه خيرا ونعمة خاصة يتوسل اليه حينئذ بالعبادة وانواع القرابين .

ولسنا نجد فيما خلف الصينيون ما يدل على اعتقادهم بوجود قوة خبيثة فى هذا العالم ، تعيث فى الأرض فسادا وتغرى الناس بالخطايا والذنوب .

وانما الشر عندهم عرضى !! (١)

ومع مرور الأيام .. تغيرت الأفكار .. وراحت تختبر جميع أنواع العبادات من ادناها الى اقصاها ..

فاضافوا الى هذا الاله الواحد كثيرا من مظاهر الطبيعة : كالشمس والقمر والكواكب والسحب والرياح آلهة معبودة أكبرها اله السماء . « شانج تى » ويليه اله الشمس فبقية الأجرام السماوية فالعناصر الأرضية .

وهم يتقربون الى « شانج تى » بالذبائح ويبلغونه صلواتهم باشعال النار على قمم الجبال ، فيعلم الاله ــ مما أودعه الكاهن فى دخانها ــ فحوى

---

(١) وحدة الدين للغيفى

الرسالة التي يرفعها اليه عباده ، ولا يحسنون الترجمة عنها كما يحسنها الكهان .

واله السماء هو « الاله » الذى يصرف الأكوان ويدبر الأمور ويرسم لكل انسان مجرى حياته الذى لا محيد عنه . وانما يدل أول تركيب الوجود من عنصرين هما ((**ين**)) عنصر السكون و ((**يانج**)) عنصر الحركة . وقد يفسر عنصر السكون بالراحة والنعيم ، وعنصر الحركة بالشقاء والعذاب . فهما بهذه المثابة يقابلان عنصرى الخير والشر والهى النور والظلام فى الأديان الثنائية .

وقد امتزجت عبادة الأسلاف بعبادة العناصر الطبيعية فى القرن العاشر حين تسمى عاهل الصين باسم ((ابن السماء)) . . ويقال انه استعار الفكرة من كاهن يابانى أراد أن يزدلف اليه فعلمه مراسم تاليه الميكادو فى بلاده . فنقلها العاهل الى بلاط الصين .

وأراد الفيلسوف ((**شوهسى**)) فى القرن الثانى عشر أن ينشىء ((**بوذية صينية**)) توافق مذهب بوذا فى أمور وتخالفه فى أمور ، **فدعا الى دين لا اله فيه ولا خلود للروح .**

ووضع ((**لى**)) موضع ((**كارما**)) الهندية أو القانون أو القضاء والقدر . وسمى دولاب الزمن « تايشى » لأنه هو المحرك لجميع الكائنات ، وجعل القانون والدولاب والمادة أو « ووشى » قوام العالم ظاهره وخافيه . **فالمادة تحد من القانون ، والقانون خالد لا وعى له ولا يسمع ولا يجيب ، وانما ينشأ الوعى أو الادراك فى الانسان من قدح القانون للمادة كما ينقدح الحجر من الزناد فيخرج الشرر ثم ينطفىء فيموت ، وتزول الأرواح كما تزول الأجساد متى ((نضجت)) كما تنضج الثمرة فى أجلها المعلوم ، وقد يبطىء النضج فيطول بقاء الروح .. فهى اذن طيف أو شبح ، كانها الثمرة فى حالة العفن والاهمال (١) .**



وليس لأهل الصين رسل وأنبياء بل لهم معلمون ومربون ، فاسم كنفشيوس أشهر معلميها ، وهو يقول عن نفسه :

((علقت بالمعرفة فى الخامسة عشرة ، وهام بها قلبى فى الثلاثين ، وانكشف لى طريقها فى الأربعين ، وتعلمت الشريعة فى الخمسين ، ولما بلغت الستين فقهت ما أقول ، وعند السبعين سلطت على نفسى وأخضعتها لسلطان العدل)) ..

كان كونفشيوس يؤمن بوجود اله يدبر الكون بحكمته ، وانه يجب أن يعبد دون سواه .

---

(١) الله — للعقاد .

ولما وجد كونفشيوس قومه غارقين فى بحار الأوهام ، منكبين على التفكير فى عالم الأرواح . وعلى التأمل فى ذات الاله وملائكته وجنده والحياة الآخرة منصرفين عن الدنيا ، لاهم لهم سوى اقامة الشعائر الدينية وتقديم القرابين لأرواح أسلافهم وللقوى الطبيعية المتعددة التى رأوا مظاهرها فى كل ناحية والتمسك بالتقاليد القديمة الموروثة بعد تحريفها — لم ينكر ما وجدهم عليه ولم يصادمهم فى عقائدهم ولكنه دعاهم الى سبيل الحقيقة بالحكمة والموعظة الحسنة .

وقال لهم :

((هناك طائفة من الأشياء الظاهرة والحقائق الخفية ، أما الحقيقة فبعيدة المنال عليكم — أى على عامة الشعب — **وأما الأشياء الظاهرة فلا تعرفون حقائقها .. وانى أدلكم على عالم آخر أمام أعينكم ، وفى استطاعة كل واحد منكم مهما كان ضيق العقل قليل الذكاء ، أن يلج بابه ويسير فى مسالكه .**

((وذلك هو عالم الواجب . وهو الباب الذى يصل منه الانسان الى السعادة ..

((وان الفضيلة هى فعل الخير وتأدية الواجب الذى يتطلبه منك يومك وساعتك ، وهى الطريق التى توصل سالكها الى أسمى غاية)) .

ولا نعرف ان كونفشيوس ادعى أنه يوحى اليه من عند الله . وانما نعرف انه مصلح اجتماعى عظيم اراد ان يقيم الامبراطورية الصينية على أساس متين من الأخلاق ، تسوده المحبة والروابط الاجتماعية بين الناس واهمها :

((رابطة الراعى برعيته ، والزوج بزوجته ، والوالد بولده ، والأخ الكبير باخيه الصغير ، والصديق بصديقه ، فللراعى والزوج والوالد والأخ الكبير حق الحكم ، وعلى الرعية والزوجة والولد والأخ الصغير واجب الطاعة .

واساس الحكم : العدل ومحبة الخير للغير .
واساس الطاعة ، الحق والاخلاص .

أما العلاقة بين الصديق وصديقه فدعامتها : الاخلاق القويمة ، وعمادها ضبط النفس ومحبة الخير للناس عامة .

عاش كونفشيوس ٧٣ سنة قضاها فى بث الفضائل ونشر ديانته المشهورة باسمه ، والتى ينتمى اليها اليوم ملايين من الصينيين .

ولما مات كونفشيوس ((٤٧٨ ق . م)) اقاموا له الهياكل وعبدوه على سنتهم فى عبادة أرواح الأسلاف الصالحين ، واوشكوا أن يتخذوا عبادته عبادة ((**رسمية**)) اى حكومية على عهد أسرة هان فى القرن الثانى قبل الميلاد ، وأوجبوا تقديم القرابين والضحايا لذكراه فى المدارس ومعاهد

التعليم ، وكانت هياكله فى الواقع بمثابة مدارس يؤمها الناس لسماع الدروس كما يؤمونها لأداء الصلاة . ولم تزل عبادته قائمة الى العصور المتأخرة بل الى القرن العشرين . فخصوه فى سنة ١٩٠٦ بمراسيم قربانية كمراسم الاله الأكبر ((شانج تى)) اله السماء لأنه فى زعمهم ((ند السماء)) من لم يؤمن اليوم بربوبيته من الصينيين المتعلمين فله فى نفسه توقير يقرب من التأليه ، وقد جعلوا يوم ميلاده — وهو السابع والعشرين من أغسطس — عيدا قوميا يحجون فيه الى مسقط راسه وينوب عن الدولة موظف كبير فى محفل الصلاة أمام محرابه .

وشعائر الدين بين أهل الصين هى شعائر الطريق أو شعائر « السلوك » وفرائض التهذيب والتثقيف ، **ومحورها : الحلم والسلم والتحذير من العنف والغضب والافراط والاسراف .**

وليس فى تدين الصين مغالاة ولا حماسة ولا سورة من سورات الغيرة التقوية أو التعصب العنيف ، بل ليس شىء من ذلك فى معرض من معارض الروح القومى التى تعبر عنها الثقافة أو الفن أو الحكمة أو قواعد الأخلاق . لأن الدعة سمة عامة لمزاج القوم و ((روح الأمة)) . وهم متفائلون قلما يحنقون على الحياة ولا على الأحياء ، وغالب الرأى بين حكمائهم :

ان الانسان طيب بالفطرة وأن الحياة ترضى من لايسرف فى تقاضيها ويلحف فى الطلب عليها . ولا تأتى الحماسة الدينية الا حين يمتحن الانسان بالشدة البالغة والحيرة الثائرة ، فيندفع الى غاية الأصرار ، وينقلب من ضميره الى أعمق الأغوار . ولاشك أن شعور النفس ((بالقدرة الالهية)) يتوقف على هذه الحالات التى تتناهى اليها قدرة الانسان . فلا جرم ((يتوسط)) أهل الصين فى عقائدهم فيخلو ايمانهم بالاله من ذلك العمق الذى يغوص اليه الانسان كلما جاشت نفسه بقوة الشعور . (١)

❊ ❊ ❊

وفى ((بيكين)) عروس الصين القديمة ، معبد عظيم أقيم فى احد ميادينها وسط الحدائق الغناء فى ساحة رصعت بالرخام الناصع الجميل ، وبداخله هياكل ثلاثة مرصعة بشتى الالوان التى يزينها الذهب الوهاج والاحجار الكريمة .

الأول : مذبح الكواكب .

الثاني : مذبح الأرواح .

الثالث : المذبح الأعظم .

---

(١) « الله » للعقاد .

والأخير هو مذبح مولى السماء أو عظيم السماء ، وهو أقدمها وأعظمها وأكبرها ، ولا توجد حوله أصنام ولا تماثيل ولا دمى ــ لأنه مذبح الاله الغير المنظور .

ويظهر أن بيئة الصين لم تواجه ابناءها بالعقد النفسية ولكنها واجهتهم بتقلبات العناصر الطبيعية التى تعودت الشعوب قديما أن تروضها بالسحر والكهانة ، فجار نصيب الايمان بالسحر على نصيب الايمان بالدين ، وذاع من أهل الصين انهم أقدر أمة على تسخير الطبيعة بالطلاسم والأرصاد .

والصين بعد هذا .. ورغم كثرة العبادات التى دانت لها ــ لاتعتبر من الأمم أصحاب الرسالات الدينية : كمصر ، وبابل ، والهند ، وفارس ، وبلاد العرب ، وفلسطين ..

لأن الصين لم تخرج للعالم قيما دينية تلقاها منها ، وهى باصطلاح التجارة تعتبر من الأمم المستنفدة فى مسائل الديانات ، لأنها أخذت من الخارج قديما وحديثا عقائد : **البوذية ، والمجوسية ، والاسلام ، والمسيحية ..** ولم تعط أمة من الأمم عقيدتها ــ مع استثناء ((**اليابان**)) التى أخذت عنها نحلة كنفشيوس ..

((وأهل الصين يخوضون كثيرا فى مباحث ماوراء الطبيعة ، ويوشك أن يكون التدين بينهم ضربا من أصول المعاملة وأدب البيت والحضارة)) ..

***

ويقول استاذنا العقاد فى كتابه ((الله)) عن العبادة فى اليابان :

((أن موقف اليابان من الرسالة الدينية كموقف الصين على الاجمال . فقد تشابهت عقائدهم فى أصولها وعبدوا الأرواح والأسلاف والعناصر الطبيعية ، واستعاروا البوذية والاسلام والمسيحية على تفاوت فى عدد الاتباع من كل دين ، ومزجوا ديانة الشمس بديانة الأسلاف ، فلا مخالفة بينهم فى هذا الا بافراط أهل اليابان فى تأليه صاحب العرش ، واعتدال أهل الصين فى تقديسه كاعتدالهم فى جميع الشئون .

واذا كان لأهل اليابان سمة خصوصية فى العبادات فهى أنهم اختاروا ربة انثى لعبادة السلف الأعلى حين وحدوا الأسلاف فى أكبرها وأعلاها . وتلك الربة هى ((**اميتراسوا ــ اموكامى**)) التى لاتزال معبودة الى اليوم))

فالديانة اليابانية الأصيلة ديانة شمسية سلفية جمعت معنى التوحيد أولا فى اله السماء حيث تصوروه ابا للخليفة بمفرده أو بمشاركة زوجه ، ثم جمعتهما فى الربة الواحدة على اعتبارها ربة مختارة بين أرباب .

ويؤخذ من الأساطير اليابانية انها كانت ربة الغزاة الذين أغاروا فيما قبل التاريخ على جزيرة كيوشو وأخضعوا أهلها وطردوهم منهزمين الى الجبال . وكان أهل كيوشو الأولون يعبدون اله الريح والمطر ((**سوسا — نو — وو**)) فهبط هذا الاله بهزيمتهم الى المرتبة التالية لمرتبة الربة السلفية . ثم انعقد الوئام بين الفريقين بعد تناسى الأحن والترات وامتزاج القبائل الغازية والمغزوة ، فأصبح الالهان أخوين وأصبحت ((**اميتراسو**)) هى كبرى الأخوين .

ولا يعتقد اليابانيون ان هذه الربة خلقت الكون أو خلقت الانسان ، لأنهم يعتقدون ان عهدها قد سبقته عهود مديدة تنازع فيها الأمر عشرات الألوف من الأرباب ، وهذه الأرباب عندهم هى بمثابة الارواح والملائكة والجنة والشياطين من عناصر الخير والشر عند الأمم الكتابية . ويسمون الواحد منها ((كامى)) ... وهى كلمة تطلق على كل رائع خارق العادة بالغ فى القوة أو الجمال . ثم استسلمت هذه الأرباب بعد كفاح طويل وصار الأمر الى الربة الكبرى برضوان من خالق السماوات والأرضين .

أما الخلق فهو منسوب عندهم الى اله السماء ((**أزاناجى — نوميكوتو**)) وزوجته واخته آلهة الارض ((**أزانامى — نوميكوتو**)) . فولدا جزر اليابان والحقاها ببذور الآلهة وجاء أبناء اليابان الآدميون من سلالة هذه الآلهة .. فكلهم فى النسب الأعلى — **وليس الميكاد وحده** — الهيون .

وفى احدى الروايات الاسطورية أن ربة الأرض احترقت وهى تضع اله النار فجرد رب السماء سيفه وضرب به اله النار ، فانبعث من وميض سيفه ومن ضرباته رهط من ارباب الزوابع والبروق والرعود . ولم ترجع الأرض الى خصبها الا بعد شفاء ربتها وخروجها من هاوية الظلام لتلد الماء والطمى وعناصر الزرع والحياة .

وينسبون الخلق فى رواية أخرى الى ((**أزاناجى**)) وحده وهو يبحث عن رفيقة صباه ... فمن عينه اليسرى خلقت الشمس ومن عينه اليمنى خلق القمر ، ومن عطسته خلق ((**سوسا — نو — وو**))**رب الرياح والأمطار .** ولكنه اعجب من بين أبنائه بالشمس دون شقيقيها فخلع عليها عقدا يتلألأ بالجواهر وبواها أرفع عرش فى السماء)) .



المجوس

((ان الذين آمنوا ، والذين هادوا ، والصابئين ، والنصارى ، والمجوس ، والذين أشركوا ، ان الله يفصل بينهم يوم القيامة ، ان الله على كل شيء شهيد)) ! ! (سورة الحج)

وقد يبدو غريبا بعد عهد ابراهيم ومرور وقت طويل على موته وانصراف الناس عن الحنيفية ان لانسمع خبرا عن الدين البابلى ، الذى عارض كهانه وملوكه ابراهيم فى دعوته ، والذى استقر بعد موت ابراهيم وانصراف حفدته عن الدعوة لدينه والاستمرار على حمل رسالته الى الناس .. وأن نسمع عن دين جديد من صنع البشر وايحاء أخيلتهم ، هو الدعوة المجوسية التى تزايد انتشارها خلال عصور الجهالات فى فارس وما جاورها من بقاع حتى وصلت الى الهند وأمصار أخرى من العالم المعروف وقتها ..

والواقع ان الحنيفية لما حطمت الأديان الصابئة اندثرت معظم معالم هذه الديانات .. فلما ضعفت الحنيفية لضعف القائمين عليها ممن ورثوها عن ابراهيم وقصروا فى ابلاغها ونشرها بين الناس بدأت الديانات الأخرى فى الظهور تبعا لحاجة الناس الى دين يؤمنون به ، ورب يهرعون اليه حتى لو كان هذا الاله حجرا من صنع أيديهم لاحول له ولا قوة .

من أجل هذا بدأت تظهر عبادات جديدة ومعبودات مستحدثة ، قام معها نفوذ جديد للكهنة وطبقات الحاكمين ، وتعددت بظهورها ظهور أمم وشعوب حلت مكان الشعوب القديمة وورثت ما كان لها من أمجاد وحضارات . ولعل المجوسية المستحدثة كانت أقوى هذه الدعوات جمعاء ، وسرعان ما أصبحت صاحبة المكان الأول فى دنيا عبادات الجاهلين الضالين من الناس ...

وكان الدين البابلى من الضعف بحيث لم يستطع العودة للظهور على مسرح العبادات . ومن هنا أصبح للمجوسية المكان الأول بين الديانات الوثنية !

وعن المجوسية تفرعت عدة مذاهب جدلية تزعمها فلاسفة لهم آراء فى تلك العقيدة ، فناقشوا ما جاء فيها .. وكانت نتيجة الجدل والنقاش أن ارتفع شأن هذه المذاهب وأصبح أصحابها فرقا ذات مكانة فى المجوسية .

وقد آمن المجوس بالعالم الآخر ، كما آمن به المصريون ، وآمنوا كذلك بالثواب والعقاب فى الدار الآخرة ، ولكنهم قالوا بقيامة الموتى ونهاية العالم ، وبعث الأرواح للحساب فى يوم القيامة .

وبذلك جمعوا بين عقيدة الهند فى نهاية العالم ، وعقيدة المصريين فى محاسبة الروح ووزن أعمالها فى موقف الجزاء ...

وقد تحدثت ((الثنوية)) عن أصل العبادة المجوسية ، فقال علماؤها : ان هناك أصلين اثنين ، يتصفان بالتدبير والقدم ، ويقتسمان الخير والشر والنفع والضرر والصلاح والفساد .. وسموا أحدهما النور ، والثانى الظلمة أو ((أهورمازدا)) و ((أهريمان)) ثم دارت كل أحاديثهم ومجادلاتهم بعد ذلك حول قاعدتين :

أولاهما سبب امتزاج النور بالظلمة ، والثانية خلاص النور من الظلمة ..

ثم جعلوا الامتزاج هو المبدأ والخلاص هو المعاد ..

وقصة ربوبية ((**اهورمازدا**)) رب الخير و ((**واهريمان**)) اله الشر فى الدين الفارسى ، ونسبتهما قبل ميلادهما الى أبيهما ((زروان)) — ترتبط الى حد كبير بقصة ((**أوزوريس وست**)) وانتسابهما بصلة البنوة الى ((**رع**)) ثم ثورة الحقد التى قامت بعد ذلك فى قلب ((**ست**)) على أخيه ، فكان الصراع وكان التنازع الرهيب ..

ونجد بعد ذلك فرقة ذات مكانة ملحوظة هى فرقة ((الزرادشتية)) وهم أصحاب ((زرادشت)) الذى ظهر فى زمان الملك ((كشتاسب)) .

ويقول الشهرستانى ان أباه من آذربيجان وأمه من الرى ، ويكاد يتفق المؤرخون على انه قد ولد فى الناحية الغربية الشمالية من البلاد الفارسية على شاطىء نهر يسمونه فى الكتب المجوسية داريزا ...

ولكن أتباعه يروون عنه قصة مؤداها ان الله بعد ان نفذت مشيئته وخلق وأبدع الكائنات الأولى جمعاء ومضى على ذلك الخلق ثلاثة آلاف عام ، أمر حفنة من النور المتلألىء لتكون على صورة انسان فتمت المشيئة واحاطت

بالانسان النورانى ملائكة عددهم سبعون ، وخلق بعد ذلك الشمس والقمر والكواكب والبشر ، ثم جعل روح زرادشت فى شجرة من اشجار الجنة غرسها بأعلى جبل آذربيجان ، ثم حومت روح زرادشت حتى اختلطت بلبن بقرة فشربه زرادشت فكانت النطفة التى تكون منها جنينه فى بطن امه . .

وخلاصة ما جاء به زرادشت من جديد فى الديانة انه انكر الوثنية وجعل الخير كله من صفات الله ، ونزل بالشر الى ما دون منزلة المساواة بينه وبين الاله الأعلى .

فالله فى مذهب زرادشت موصوف باشرف صفات الكمال .

ويذكر انه الهم بأسمائه تعالى ، وان الاسم الأول ((السر المسئول)) والاسم الثانى ((واهب النعم)) والاسم الثالث ((الكامل)) والاسم الرابع ((القدس)) والاسم الخامس ((الشريف)) والاسم السادس ((الحكمة)) والاسم السابع ((الحكيم)) والاسم الثامن ((الخبرة)) والاسم التاسع ((الخبير)) والاسم العاشر ((الغنى)) والاسم الحادى عشر ((المغنى))والاسم الثانى عشر ((السيد)) والاسم الثالث عشر ((المنعم)) والاسم الرابع عشر ((الطيب)) والاسم الخامس عشر ((القهار)) والاسم السادس عشر ((محق الحق)) والاسم السابع عشر ((البصر)) والاسم الثامن عشر ((الشافى)) والاسم التاسع عشر ((الخلاق)) والاسم العشرون ((مازدا)) أو العليم بكل شيء وقد حرم زرادشت عبادة الأصنام والأوثان وقدس النار على انها أصفى وأطهر العناصر المخلوقة ، لا على انها هي الخلاق المعبود ! !

وقد قال زرادشت ان النور والظلمة أصلان متضادان ، وكذلك اهورمازدا واهريمان وهما مبدأ موجودات العالم .. ثم حدثت من امتزاجهما التراكيب ، ومنها كانت الصور المختلفة .. وان خالق النور والظلمة هو الله ، وهو واحد لاشريك له ولا ند ولا ضد ولا يجوز أن ينسب اليه وجود الظلمة كما قالت الزردانية وان الصلاح والفساد والخير والشر والطهارة والدنس انما حدثت من امتزاج النور بالظلمة الذى كان سبب وجود العالم ! !

ولقد كتب على النور والظلام أن يتصارعا الى أن يغلب النور الظلمة فيعلو الخير ويهبط الشر وذلك هو الخلاص ..

واما مزج النور بالظلام فمرجعه حكمة أرادها الله ، وربما جعل بمقتضاها اصلا حقيقيا ، وان الظلمة ليست الا ظلا يتبعه فأبدع النور وحدثت الظلمة بالتبعية ، لأن من قانون الوجود لزوم حدوث المتضادات ..

وقصة الخليقة فى مذهب زرادشت ، ان الله خلق الدنيا فى ستة أدوار . تبدأ بخلق السماء ، ثم خلق الماء ، ثم خلق الأرض ، ثم خلق النبات ، ثم خلق الحيوان ، ثم خلق الانسان ! !

وتكاد فرقة « الكينونية » تخالف شتى الفرق الثنوية من حيث تحديد الأصل فهى تزعم انه ثلاثة : الأرض والنار والماء سر وجود كل شىء ، فالنار نورانية والماء ضدها فى الصفات ، فكل خير فى العالم مرجعه النار ، وكل شر أساسه الماء .

وتتعصب « الكينونية » للنار ويعدونها شيئا علويا نورانيا هو سر الوجود ، والماء يخالفها فى كل شىء والأرض تتوسطهما فكان ثلاثتهم سر الوجود !!

وتتبع الكينونية فرقتان هما « الصيامية » وأصحاب « التناسخ » .. وقد تجردت الصيامية للعبادة وعافوا الطيبات بأنواعها من مأكل ومشرب ولذات جسدية ، وتوجهوا بعبادتهم الى النار .

وكانت للمجوس بيوت للنيران أولها « بيت ناربطوس » الذى بناه أفريدون ، وهناك آخر فى « بخارى » ، وثالث فى « سجستان » ورابع بين خمارس وأصفهان ، وخامس فى مشرق الصين ، وسادس فى « ارجان » .. وهذه البيوت جميعا وجدت قبل أيام زرادشت الذى جدد فى زمنه بيت نار « نيسابور » وكان فى بلاد الروم على أبواب القسطنطينية بيت نار اتخذه « شابور بن ازدشير » وظل حتى خلافة المهدى العباسى وفى الهند والصين كانت هناك بيوت للنيران .

وتعظيم المجوس للنيران وتقديسهم اياها كما أسلفنا يرجع الى كونها شيئا نورانيا لطيفا ، وانها جوهر سماوى لم يحرق جسد ابراهيم عليه السلام لما القى فيه ، كما ان تقديسهم لها وسجودهم ينجيهم منها فى يوم الحساب كما يزعمون !!

وفى المجوسية فرقة تبعت رجلا اسمه « مانى » ظهر بعد بعثة عيسى عليه السلام فى زمن شابور بن ازدشير ، وقتله بهرام بن هرمز ابن ازدشير .. وقد جمع فى دعوته بين المجوسية والنصرانية فاعترف بعيسى وانكر موسى ، وتبع مذهب « الثنوية » فقال : ان العالم كوكب من أصلين قديمين أزليين حساسين بصيرين ، هما النور والظلمة ، صفاتهما متضادة يتبع احدهما الآخر مثل ظله .

وقد اختلفت المانوية فى المزج والخلاص وسببهما ، فادعى البعض أن النور والظلام كان امتزاجهما بغير قصد ولا اختيار ، اذ امتزجت أبدان الظلمة بالنور ساعة تشاغلت عن نفسها ، أجابها النور وماجها حبا فى الشر ، فوجه اليها ملك النور ملكا فى خمسة أجرام من أجناسها فاختلطت الخمسة النورية بالخمسة الظلامية ، فخالط الدخان النسيم ، وخالط الحريق النار ، والنور الظلام ، والسموم الريح ، والضباب الماء .. ولذا فمرجع كل خير فى العالم الى النور ومرجع كل شر الى الظلام .

وقد فرض مانى على أصحابه زكاة العشر واربع صلوات فى اليوم والليلة والدعاء الى الحق وترك الكذب والقتل والسرقة والزنا والبخل والسحر وعبادة الأوثان والبغى على الناس .

واعتقد مانى فى الشرائع والأنبياء وان آدم أول من بعث بالحكمة والعلم ومن بعده شيث ونوح ثم ابراهيم ..

وفلسفة مانى فلسفة تشاؤمية .. كان زاهدا فى الحياة ، يود الفرار منها ، ويتعجل الفناء لنفسه وللعالم ...

ولمانى جدول يبين فيه النور والظلمة وجواهرهما وافعالهما ..

وهناك غير ما ذكرنا من الفرق بضع فرق اخرى تتبع الثنوية ، وليس من المهم تحليل آرائها . اذ تكاد تكون موجودة فى شبيهاتها من مذاهب الفرق التى أوردناها مثل : ((**المزدكية**)) و ((**الديصانية**)) و ((**الكوذكية**)) و ((**الماهانية**)) و ((**المرتونية**)) . وغيرهم ..

ومن المذاهب الفلسفية المتجددة فى المجوسية بين الاديان . مذهب ((مترا)) الذى انتشر فى العالم الغربى وأيده القياصرة لأنه كان يرفع سلطان الملوك الى عرش السماء ، ويقول ان الشمس تشع عليهم قبسا من نورها وهالة من بركتها فيرمزون بعروشهم على الأرض الى عرش الله .

وشاع هذا المذهب فى القرن الثانى قبل الميلاد ، وقصر أتباعه على الذكور دون الأناث ، وجعل لهم درجات سبعا يرتقونها الى مكان العارفين الواصلين رمزا الى الدرجات التى تصعد عليها الروح بعد الموت من سماء الى سماء حتى تستقر فى النهاية عند حظيرة الأبرار ...

واصل ((مترا)) قديم فى الديانة الآرية ، يدين به الهنود ، كما يدين به الفارسيون ، وقد هبط فى البداية الزرادشتية الى مرتبة الملك الموكل بهداية الصالحين ، ولكنهم جعلوه فى الديانة المترية اله الشمس ، ورب الكون ، وخالق الانسان وقاهر أهرمان بعد جلاد طويل .

ويمثلون ((مترا)) حين تجسد على الأرض مولودا من صخرة نائية فى مكان منفرد لم يعلم بمولده أحد غير طائفة من الرعاة ، الهموا معرفته فتقدموا اليه بالهدايا والقرابين ، ومضى بعد مولده فستر عريه بورق من شجرة التين ، وتغذى بثمرها حتى جاوز الرضاع .

وكان اهرمن يحاربه ويتعقبه بالكيد ويحبط كل عمل من أعمال الخير والفلاح .

فارسل مترا على الأرض طوفانا اغرقها ، ولم ينج معه الا رجل واحد حمل آله وانعامه فى زورق صغير وحدد على الأرض بعد ذلك حياة الانسان

والحيوان ، ثم طهر الأرض بالنار وتناول مع ملائكة الخير طعام الوداع وصعد الى السماء ! !

وكان اتباعه يفردون لعبادته يوم الشمس — أو يوم الأحد ، ويحتفلون بمولده فى الخامس والعشرين من ديسمبر لأنه موعد انتقال الشمس وتطاول ساعات النهار ، ويقيمون له عيدا سنويا فى اليوم السادس عشر من الشهر السابع فى تقويم الفرس القديم ...

« وقد كان المسيحيون الأولون يقابلون ذلك — بعد ظهور المسيحية وانتشارها — بتمجيد السيد المسيح فى الأيام التى كان عباد « مترا » ينصرفون فيها الى تمجيد هذا الاله الشمسى القديم » (١) .

وقد ورد ذكر **« المجوس »** مرة واحدة فى القرآن الكريم فى **سورة الحج بقوله تعالى : « ان الذين آمنوا ، والذين هادوا ، والصابئين ، والنصارى ، والمجوس ، والذين أشركوا ، ان الله يفصل بينهم يوم القيامة ، ان الله على كل شيء شهيد » !!**

وورود ذكرهم فى القرآن لا يجعلهم فى عداد أهل الكتاب . بل اعتبروا من أهل الذمة وكأنهم من الصابئين . وقضت السياسة العلمية والمصلحة ، أن توسع نطاق الذمة فيشمل كل أهل ايران .

وهكذا فقد ظلت الديانة الزرادشتية **« وكانت دين الدولة »** منتشرة حتى بعد الفتح الاسلامى — لا فى الاقصار الايرانية فحسب ، بل فى العراق والهند وبعض المناطق التى الى الشرق من فارس ، ولا يزال فريق منهم الى اليوم فى بلاد الهند كان آباؤهم قد نزحوا اليها من بلاد فارس فى أوائل القرن الثامن ولقد نبغ من بين أتباع زرادشت أعلام اعتنقوا الاسلام ، أقدمهم **« ابن المقفع »** .. (٢)

---

(١) الله — للعقاد

(٢) تاريخ العرب .

الوحدانية عند اليونان

« ان نفسك عالم صغير ، ولكنها ملأى بالعواصف والاختلافات ، فعليك ان تسعى فى توطيد الوحدة والألفة فى ذاتك ، وعندها يتجلى الله الى ضميرك وتعرفه ... »

« فيثاغورس »

اما وقد انتهينا من الشرق ودياناته وما كان فيه من مذاهب وعبادات وفرق ورسالات قبل أيام « **ابراهيم الخليل** » وبعدها ، فلا أرى قبل أن أتحدث عن الديانات الكتابية والرسالات الكبرى الا أن أتحدث عن العبادة فى قطر قديم ، له حضارته المقتبسة من الشرق والشديدة الاتصال به حتى فى ذلك الدين الذى تبعه أهلوه ، وتلك هى « **الديانة اليونانية** » ..

والدين اليوناني هو صورة أخرى ونسخة ثانية من الدين المصرى القديم . ولا عجب فى هذا ، فالحضارة اليونانية وليدة الحضارة الفرعونية وربيبتها الذكية التى عرفت كيف تستغل معرفة الأم الكبرى وتعمل على نشرها فى الآفاق ، ثم يجرؤ بعض دعاتها على الفصل بين الأصل والفرع ، فى حين تسخر الشواهد من هذه المحاولة !

ولما كان المجال مجال حديث عن الدين لا الحضارة واصولها وكيفية النقل والاشتقاقات فيها — فانى اذكر ثانية ان العبادة اليونانية ليست الا الدين الفرعونى وبضع زيادات طفيفة من عبادات الشرق التى كانت للأمم المجاورة ..

ولعل ظهور اليونان ومحاولاتها البدائية فى تلمس طرق العلم والنهوض — ما يؤكد لنا أن هذه الأمة الفتية اقبلت تنهل من المعرفة المصرية ، وتدرس باحكام دينها الراسخ ، وتؤمن به الايمان الكامل لتنقله بعد ذلك الى بيئتها باسماء ومسميات جديدة لم تخرج فى شيء عن الأصل القديم ، فكان ان نقل اليونان الى بلادهم عبادة « **آمون** » ومعناه بالمصرية القديمة « **الذى لا تراه العين ...** » **وأطلقوا عليه هناك وفى طقوسهم الدينية اسم « زوس »** ومعناه فى لغتهم « **الذى يخفى نفسه** » ..

ولم ينقل اليونان عبادة ((**آمون**)) فقط ، بل بقية ارباب التتسيع وآلهة صغيرة اخرى ، كان موكولا اليها وفق الشريعة الدينية فى مصر القديمة القيام ببعض اعمال فى محيط الآلهة مثل : الجمال والحب والحكمة والفضيلة وغير ذلك من اشياء لها طابعها الوثيق الارتباط بالحب والزواج والهيام وغير ذلك ..

ولقد بدأ اليونان ((شرعتهم)) الربانية باله سموه ((كرونوس)) قتله ولده ((زوس)) ، وقد تشبه قصة القتل هذه قضاء ((آمون)) على سلطان ((رع)) أو ((بتاح)) أبو الأرباب المصرية القديمة ... ثم يأتى بعد ذلك دور ((زيوس)) الذى لا نجده الها متعففا داعيا الى الفضائل ، بل نجد فيه ((ذاتا)) ماجنة تسعى الى لذاتها الحسية ، اذ بعد أن قتل والده ((كرونوس)) اتجه الى حيث اخته ، فضاجعها قسرا ثم تركها وترك وراءه سماءه وعالى مكانته وهبط الى دنيا البشر ، فتبع العذارى فى المروج وطارد الجميلات من النساء وارتكب كل فاحشة وموبقة دون تعفف ودون الخضوع لناموس ربانى يجعل منه رمزا للتعالى أو العفة أو اعطاء الفكرة عن معبود جديد بالعبادة !

وتمشيا مع شريعة ذلك الاله الذى اتخذ على أرباب اليونان مكان الزعامة وتصدر مجامعهم كانت بقية الآلهة التى خلقت ووجدت حسب رغائبه ، فهناك الربات : **ارتميس وافروديت وفينوس** ، وهؤلاء موكول اليهن أمر الحب والتدله والغرام والعبث . وفكرة عبادة هاته الربات مأخوذة عن الربة ((**حاتحور**)) المصرية التى كانت البقرة حيوانها المقدس .

ونقلت الى اليونان أيضا عبادة ((ايزيس)) المصرية وأطلقوا عليها هناك اسم ((ديمتير)) وقام فيها ((ايروس)) اله التناسل والمحبة بدور ((حوريس)) فى العبادة الفرعونية ، ولكنه لم يقم بعمل جليل كذلك الذى قام به المعبود المصرى الذى حارب الشر وطارده وقضى عليه وانتقم لأبيه ، بل قام بعملية زواج ((**جيا**)) ــ وهى ربة الأرض فى العبادة اليونانية ، وتساوى فى العبادة المصرية . ((**نفنيت**)) و ((**حاديس**)) وهو رب الفضاء الذى يساوى فى العبادة المصرية الرب ((**شو**)) .

وكما كانت للمصريين آراء ومعتقدات فى الروح ، كانت اليونان آراء مشابهة ، فعرفوا ((الروح)) وعرفوا البعث ، كما اعتقدوا فى التناسخ ، ورسخت فكرته فى أذهان الكثيرين منهم ممن قبسوا فى تقاليدهم الدينية بعض طقوس الهند والمجوس ..

ونقل **اليونان** ــ عن غير المصريين ــ عبادة آسيوية ماجنة لاله الخمر والملاهى فاسموه ((**باكوس**)) ، فى حين غلب عليه دواما اسمه الآسيوى وهو ((**ديونيزوس**)) وقد عملوا على تعظيمه وتقديسه واقاموا للاحتفال به أعيادا ماجنة كانوا يلبسون فيها ملابس تنكرية يكون لهم فيها وجوه كوجوه الحيوانات . وكانت تقام هذه الأعياد فى مواسم حصاد الأعناب وعصرها ،

حيث كانت تراق الخمر وتذبح الفضيلة على مذابح العبادات وباسم ذلك المعبود ذبحا مقيتا مثيرا للاشمئزاز خارجا على العرف وعلى كل تقاليد دينية .

ولما كانت بلاد اليونان مساحة جبلية لارابط بين بقاعها المختلفة غير الرابطة الطبيعية والبيئية ، فلم يكن هناك مظهر معروف لوحدة هذا الشعب، الذى تكون من اكثر من امة لكل تقاليدها ولكل عبادتها غير الوحدة الجغرافية ـ الا وحدة الدين .. وهو الأول ترتيبا وأهمية ، اذ كانوا من أقاصى البلاد يأتون فى اعياد « أرباب الأولمب » الذى يتزعمهم « زوس » ويتصدر جمعهم ليقدموا القرابين وليتحرروا من وعثاء الحياة ويتجردوا من كل رباط وهو فى جوار الآلهة ، فلا يفكر احد منهم فى فضيلة أو صلاة أو ضراعة أو غيرها بل فى التخلق بخلق « زوس » ومجموعته التى تحتوى على رب الرقص ، وآخر الموسيقى ، وثالث الخمر ، ورابع الحب ، وخامس للتناسل فكانت تراق فى أعياد الأولمب دماء الفضيلة ولا يعرف العرف لنفسه طريقا بين هذه المجموعات التى جاءت لتذبح العفة وتقضى على الكرامة وتدعو الى استباحة اللذة وعبها عبا وارواء ظما الروح والجسد منها على الصورة التى يبغيها ويشتهيها الانسان .

وتأتى بعد الدين ترتيبا بضعة مظاهر اخرى ، ليس لها مجال فى حديثنا ولكنا نجملها فى : **الالفة والألعاب الأولمبية وحب شعر هوميروس ..**

والعبادة اليونانية على هذه الصورة التى أعطينا للقارىء نبذة عنها ، عبادة لا توحى بغير الاستهتار والقضاء على الوازع الدينى للأسباب التى ذكرنا ، ولأسباب أخرى أهمها أن اليونان لم ينسبوا الى آلهتهم غير الحب ومطاردة العذارى واختطاف النساء للفسق بهن وارتكاب الشرور . **ودين تلك دعائمه وصفاته** لاشك يجعل عقليات المفكرين من اتباعه تجهد نفسها فى التفكير والدراسة ، عساها تستطيع أن تصل من وراء هذه المظاهر الى ما قد يرشدها الى الحق الذى ضلت فى الوصول الى كنهه جميع العقليات والأذهان .

ومن هنا كان للمدارس الجدلية والفلسفة شان وأى شان ، لافى تاريخ اليونان فحسب .. بل فى تاريخ عقائدهم وعباداتهم التى اسلفنا الاشارة اليها ..

والجدل والفلسفة وحب الحكمة مرادفات لمعان واحدة ، هى اعمال الفكر ومحاولة الوصول بالجدل الى تفهم ماقد يصعب على العقل فهمه مما وراء الطبيعة وفوق تفكير البشر من غوامض واسرار ..

وقد أوحت الطبيعة نفسها للانسان بالتفكير واطالته ، اذ فكر فيما حواليه وراح على ضوء هذا التفكير العميق يفكر فيما كان من الصعب أن يقف على أسراره .

ولعل اهم ما شغل العقل البشرى فى ظلمات عصور ماقبل التاريخ وايام الهمجية الأولى هو السؤال الابدى الذى كان يردده الانسان دواما ، وهو سؤاله الملح عن كينونته ، ومن تراه يكون ؟ ولماذا جاء الى هذه الدنيا ؟ وما سر مجيئه ؟ وهل تراه مكلفا برسالة خاصة ؟ ! ومن الذى أوجده ؟ ومن تكون القوة التى انشاته وسوته ؟ ولماذا خلقته على هذه الصورة ... ؟ !

واعتاد الانسان فى خلال تلك الأوقات المظلمة ، أن يفزع لأقل شىء والى اقل كائن .. كان يخشى نفسه ، وتمضه هواجسها ، وتؤلمه دقات قلبه ، وتروعه افكاره التى تجول براسه ، ويقلقه الظلام ويورثه سواده الرعب والفزع ، وتسعده رؤية النور وتجعله يخرج من مخبئه وقد زالت وساوسه واوهامه ...

كما اعتاد الانسان وهو فى وضح النور وحواليه الربى الخضراء اليانعة ذات الثمر والورود النضرة التى تحفها النخيلات وعالم الشجر وتجوس خلالها المياه وتجرى بينها الأنهر — اعتاد فى هذه الساعات أن يضيف الى تفكيره فى أمر نفسه تفكيرا آخر فى أمر هذه « **الكائنات الصماء** » التى توليه الخير وتمده بالطعام والشراب والكساء .

وعاد الانسان من جديد يسأل :

« من الذى اوجد هذه الأشياء واجرى هذه الأنهر وانبت هذه الخيرات الوفيرة وخلق هذه الدواب والأنعام والهوام وهل الذى أوجدها هو من اوجدنى انا ؟ واذا كان هو حقا من اوجدنا جميعا فما هى حكمته فى ذلك » .. ؟ !

وكانت الظلمة لا تلبث ان تدهم الانسان الأول ، وسرعان ما كانت تغزو الهواجس نفسه ويعاوده الاضطراب والخوف ، ويفكر من جديد فى تلك القدرة التى أوجدته والتى سرعان ما تلون الاجواء حسب رغبتها وارادتها فتفرحه بالنور وتخيفه بالظلمة وتجعل القشعريرة تسوده من هول البروق والرعود والأمطار .. ومن هنا وبدافع عوامل الخوف والفرح وجد انه من اللازم أن يفزع الى هذه القدرة أو القوة غير المنظورة يسألها أن تبعد عنه الشر وأن تتولى حمايته واقرار سعادة نفسه وهدوئها ، وراح تبعا لأفكاره تلك يفكر فى تلك القوة ويصورها حسبما يرتاح عقله وتطمئن نفسه .

واذ عرف الانسان ان هناك قوة عليا هى التى تحميه وهى التى تسعده وهى التى أوجدته وهى التى تميته — بدأ تفكيره فى هذه الذات الخفية القادرة وسرعان ما ارتفع عقله الى عالمها المجهول الغامض وراح يصورها كيفما يهوى وكيفما يشاء ..

ووصلت العقلية الساذجة الأولى الى تخيل الذات العالية .. ومن هنا ، من هذه النقطة الحساسة بدات نقطة التحول فى تفكيرها الذى أوصلها الى

هذه المعرفة واذا به يذهب معها الى مدى أكثر بعدا وخطورة ، وهو التوجه بالشكر الى هذه القوة وموالاتها بالحمد وترديد ما توليه أياه من منافع وما تبعده عنه من مضار ، فكانت العبادة وكان وصول العقلية البشرية الى معرفة ((**الذات**)) ثم عبادتها هو نقطة التحول فى حياة الانسان ابان فترات الضلال .

لقد وجدت العبادات السماوية مع خلق الكون وأمر الله مخلوقاته جمعاء من انسان وحيوان وجماد أن تسبح بحمده وتعبده ، ولكن تشعب الافكار وازدياد الناس وابطاء الزمن فى المسير وبعد العهود ونسيان الماضى كان يعود بالعقلية البشرية الى الوراء قرونا ، فجهلت وضلت وعمت ولم تلبث بايحاء ما حولها من العوامل ان اهتدى كثير من الناس الى العبادات ..

وبدأت البيئة توحى بالعبادة .. ثم كبريات الحوادث .. ثم الجدل .. ثم التبشير .. ثم أعمال الفكر واطالة التخيل .. ثم طلب الحكمة ، **ومن هنا نشأ ما يمكن أن نسميه التفلسف الدينى** وهو محاولة الوصول الى « السر » والوقوف على الحقيقة الغامضة واستجلائها فى أحاديث ومناقشات وأحزاب

والعقلية التى تخيلت فى أقدم العصور واستطاعت ان تحب الحكمة والتى عبدت الشمس أحيانا ثم انكرتها لتعبد القمر أو الكواكب أو مظاهر الطبيعة وجادلت فى عبادتها تلك وناقشت وتحزبت .. هذه العقلية كانت لم تزل موجودة فى كل صقع من اصقاع العالم ولكن جلاءها كان أكثر لمانا فى بلاد ((**اليونان**)) لانها نهلت العلم من منابعه فى ((**مصر**)) وغيرها وشاهدت هناك أديانا واستمعت الى حكم .. ثم لم تلبث أن صدمتها طقوس غريبة فى دينها فلم تلبث أن خرجت من « الحيز المفروض » وراحت فى جراة وتوثب تنشد الوصول الى السر والتعرف على « الغامض » والوصول بحكمتها العالية ومجادلاتها النافعة الى ما وراء الطبيعة من اسرار قد توصلها الى معرفة الاله الحق .

ولعل هذه العقلية وقد شاهدت ما شاهدت من فسوق وغرائب وسعى وراء لذات الحس ــ قد راعها أن يتصف الاله المنزه بهذه الصفات الدنيوية يتساوى والبشر وهم مخلوقاته وعبيده فى غرائزهم ورغباتهم ، وكبر لديها أن يكون الاله على تلك الصور الشوهاء التى أساءوا صنعها .

ومن هنا بدأت تسعى الى تحطيم الحجب للوصول الى الحقائق .

ولعل بعوث فلاسفة اليونان ، زرافات ووحدانا الى مصر ليستقوا من علومها ومعارفها ، ويأخذوا عن حكمائها العلم فينقلوه الى قومهم اليونانيين من الأسباب التى تدل على أن حب اليونانيين للمعرفة فطرة فيهم .

ولاخلاف فى أن اليونانيين نقلوا عن مصر الشىء الكثير من أصول فلسفتهم وتلقوا حكمتهم عن الكهنة المصريين ، ونقلوا الكثير من فروع العلم كعلم الفلك

وباقى الرياضيات والطب وما وراء الطبيعة وان كانوا قد توسعوا فيما بعد ، في فروع الفلسفة ومذاهبها العديدة وطبعوها بطابعهم الخاص .

وأخذوا ايضا عن المصريين رموزهم وطقوسهم .. بل أسرارهم الدينية وكان يتناقل ذلك كهنة المصريين تعليما شفهيا أساسه : **توحيد الله ، وخلود الروح ، وحب الحكمة ، والعمل بالفضائل ..**

وقد زار مصر ، كما قدمنا ، طاليس ، وفيثاغورس ، وديموقريطس ، وانكسيماندر ، وفريستيدس ، وأفلاطون .. وغيرهم ، أولئك الذين تهذبوا في معابد المصريين ، واغترفوا من حكمتهم ، ثم رقوا الفلسفة رقيا عاميا فيما بعد ويعتبر انفصال الفلسفة عن الميثولوجيا ، وجعل مقياسها الأوحد المنطق العقلي ، من عمل الفكر اليوناني الذى امتازت فلسفتهم به ..

وكان أكثر اليونانيين نقلا عن المصريين هو طاليس الذى أقام ردحا من الزمن في مصر على عهد ((**امازيس**)) ومعروف عنه أنه حدد مساحة الهرم الأكبر في مصر بواسطة ظله ، لبراعته في العلوم الرياضية ..

ثم يليه في ذلك ، فيثاغورس الذى ظل في مصر ثلاثين سنة ، والذى جاء بتصور جديد مستمد من النزعة الدينية الصوفية التى كانت قد أخذت تغمر العالم اليوناني . وكانت الفكرة الجوهرية هي : أن الروح في الانسان كائن الهى حبيس أو دفين في الجسد الدنسي ، وأن الروح الخاطئة حتى بعد الموت يكون مقضيا عليها دائما بأن تتجسد في صورة ثانية مرة أخرى .. ولا تستطيع الروح أن تنال حريتها وتعود الى مثواها الالهى الا بضروب بعينها من التطهير كممارسة طقوس خاصة ومعاناة ألوان خاصة من المجاهدة (١) .

وقد دخلت هذه الأفكار في مذاهب الرباطات الفيثاغورية ثم قيض لها أن تؤثر في أفلاطون وأصبحت بوجه من الوجوه عنصرا باقيا في التفكير اليوناني المتأخر عن الانسان ومصيره .

ثم جاء رجل أثينى قدر له أن يبدأ عهدا جديدا في تفكير العالم وأن يجعل أثينا موئلا للفلسفة مدة ألف سنة تقريبا ، وهذا الرجل هو سقراط بن سوفرونسقوس الذى عاش من ((٤٧٠ الى ٣٩٩ قبل الميلاد)) وكان هو نفسه لايدعى الحكمة ، ولكنه كان فيلسوفا بمعنى أنه أحب الحكمة كما لم يحبها أحد مثله .

ومن الاشياء التى ميزت سقراط عن غيره من الفلاسفة السابقين أنه كان قليل العناية بالنظريات التى تتحدث عن الكون ومادته وكيف نشأ ، وانما اتجه بكل ما أوتى من شخصية قوية عجيبة الى اكتشاف الخير والشر في

---

(١) تاريخ العالم — المجلد الاول

سلوك الانسان ، ومن أجل ذلك كان يختبر كل انسان اختبارا دقيقا فيسأل ما هى العدالة وما هو الاعتدال وما هى الشجاعة وهو كما قيل عنه فيما بعد انه انزل الفلسفة من السماء الى الأرض .

وما يعرف باسم ((**سخرية سقراط**)) لم يكن سخرية بالمعنى المتعارف عليه اليوم لهذه الكلمة على وجه الدقة ، وانما كان براءة تأسر اللب وتواضعا يجرد السائل من أى احساس بأنه بين يدى حكيم عليم . وقد وصف بأنه أحكم الناس ، ففسر ذلك **بأن حكمته انما هى فى معرفته جهله ، فى حين أن غيره من الناس جهلاء ويظنون انهم يعلمون .**

وكان سلوكه وأقواله جميعا تنم عن عقيدة دينية راسخة ، فقد كان يعتقد ان له رسالة أرسله الله بها وانه كان يشعر فى أعماقه بوازع روحى وصوت الهى يعصمه كلما هم بأن يقف موقفا خاطئا ، وهذا ما يعرف بملهم سقراط الذى أثر عنه فى العصور التالية ، لأن لفظة ((**ديمون**)) فى اللغة اليونانية فى ذلك العصر لم يكن معناها لفظة ((**شيطان**)) المألوفة ، وانما كانت تعنى قوة غير منظورة تفوق قوة البشر خيرة كانت أم شريرة .

وقد قضى على سقراط بالاعدام (٣٩٩ ق.م) بحكم اصدرته محكمة أثينا متهمة اياه انه يحاول ادخال آلهة جديدة .. وهذه الجريمة الكبرى التى ارتكبتها الديمقراطية الاثينية لا يمكن فهمها الا بالنظر فى علاقتها بظروف العصر السياسية ، وقد وقعت هذه المحاكمة غداة ان استولت على مقاليد الأمور جماعة من الأشراف بالقوة ، وقضت على الديمقراطية ونستدل من ذلك بأن الباعث على جريمة قتل سقراط كان باعثا سياسيا أكثر منه دينيا .

وهكذا مات سقراط شهيد الحق والتوحيد ، لأنه افشى اسرار الوحدة وخلود الروح ، واعتبر كافرا بالآلهة .

أما أفلاطون الذى ولد سنة ٤٢٧ قبل الميلاد ــ فكان من أعظم تلامذة سقراط .. بل كان من أعظم فلاسفة العالم ، وهو أثينى مثل سقراط ، وكانت له موهبة ايقاظ الحياة الروحية واثارتها ، وكان يعيش فى نشوة دينية وسكون للروح الحائرة بين ظلمات هذا الحشد من الأشياء المتعددة ..

وكان يقول : ان كل أحداث الدنيا يلزم أن يكون أصلها روحيا .. وان الحركة الآلية لا يمكن أن تبدأ من نفسها ، والشىء الوحيد الذى يستطيع أن يبدأ الحركة هو الروح ، وان الله هو الخير الأعلى ..

وفى أحد مؤلفاته وصف فيه اعتماد الدنيا على الله بأسطورة تبين كيف بدأت الدنيا ــ يقول : ان الله خلق الدنيا لأنه خير وكريم ، واذا رغب فى أن يوجد شىء يماثله ! !

ويقول أيضاً : **ان الانسان نفس الهية متجسدة ، وقبل تجسدها كانت متحدة بالصور الالهية المعانى ، وبعالم الخير والصلاح والهناء .. عالم المثل ثم انفصلت عن ذلك العالم النورانى بالتجسد الأرضى ، وعندما تتذكر عالمها العلوى تنزع الى التسامى والمعرفة وعند انفصالها عن الجسد لا تتالم لانها تكون فى حاجة الى عالمها الحقيقى ..**

وعند ((**ارسطو**)) أبو الفلسفة اليونانية وأول فيلسوف فيها ورأس الحكماء السبعة بلا نزاع ــ والذى أخذ من علوم مصر السرية ، المبدأ الأول لكل شىء يقول :

((الكل ملىء بالله)) وجعل مظهره الماء الذى به يحيا كل شىء .

وقوله هذا لا نستطيع أن تسميه قولا فلسفيا أو دينيا ..

وانما قصد طاليس بقوله هـذا : ((**ان الكون وحدة مطلقة ذات حياة ، وأول ما تلمس أو تدرك الحياة فى الماء**)) .

والله تعالى يقول فى كتابه الكريم : ((**وجعلنا من الماء كل شىء حى**)) ..

وعند طاليس أن الفلسفة هى معرفة أصل الأشياء اى أن الفلسفة فى عرفه تقوم على سؤال واحد : **ماهو أصل الكائنات وما مصيرها ؟ !**

وذلك هو نفسه موضوع الدين فى أسمى معانيه ..

وحاول طاليس أن يجيب على هذا السؤال فقال :

((خلق الله الحياة من الماء)) ..

وتقول مدرسة فيثاغورس : **ان الله واحد ، ومعطى نور السماء ، هو اب الجميع . هو الفكر ، او القوة الحيوية للعالم ، هو محرك كل شىء ..**

وعند أفلاطون : **ان الله هو مثل الخير الأعلى .**

وعند تلميذه طاليس : **انه المحرك الاول .**

ويقول افلاطون : ((**تسر الذات الالهية بالصلوات والذبائح بقدر ما تسر بنفس فاضلة تستنفذ الوسع فى التشبه بها وقد ضل من توهم ان الاله يلتفت الى تقدماتنا اكثر مما يلتفت الى ما فى نفوسنا من نية خالصة . والا يتمكن الآلهة بهذه الوسيلة نفسها من استمالة الاله وكسب حمايته بمجرد اعمال ظاهرية .. كلا ، لايدعى بارا ولا حكيما الا من تشبه بالفضائل وخلصت نيته فى أن يرضى الاله والبشر**)) .

ويرى انكسماندر : **ان الحياة والروح وحـدة تؤلف السموات المحيطة بالكل .**

وكان فيثاغورس يجعل العدد مبدأ الكائنات ومن اقواله الدينية جوهرا وصياغة قوله :

« ان الجوهر الالهى فى ذاته خفى عن الانسان والمرء لا يعرف الا الأشياء الدنيوية المختلط فيها المتناهى مع الغير متناهى ، وانما يعرفها بسبب وجود علاقة أو مبدأ عائم قائم بينه وبينها ــ هو الحياة ــ وهذا المبدأ صادر عن الواحد الأحد الذى يعطى جميع الكائنات » .

ويقول ايضا : **« ان نفســك عالم صــغير . ولـكنها ملأى بالعواصف والاختلافات فعليك ان تسعى فى توطيد الوحدة والالفة فى ذاتك وعندما يتجلى الله الى ضميرك وتعرفه : فتصبح ارادتك حجر المركز ومذبح هنسيا وعرش جوبيتر » .**

والنتيجة ان مثل هذه الأقوال ، لك أن تقول انها فلسفة ميتافيزيكية ، أو أن تقول انها دينية الهية .

وما ذلك الا للسر الأزلى الأبدى الذى يربط برباطه الفطرى بين العقل والقلب أو بين الفلسفة والدين ! !

وهكذا وجـدت الفلسفة اليونانية وتعددت مدارسها وكثر أعلامها ، وكان لهم فى ذلك الميدان شأن أى شأن . .



الوحدانية عند الفلاسفة

« فكل شيء يأتي من الأحد ، والأحد يأتي من كل شيء .. ولكن الكثرة دون الوحدة في الوجود الحقيقي ، وذلك هو الله ..

(هرقليطس)

ووسط هذه الظروف التى أوردناها وفى تلك البيئة التى ذكرنا طرفا من الحياة فيها وبين هـذه التيارات العديدة المتضـادة من ايمان وعبث وشك واستهتار وحياة ماجنة ـ ظهرت الفلسفة واتخذت لها مظاهر عديدة وتفردت بلون خاص كان فى شكله داعية من دعاة هدم ذلك الدين الغريب الطقوس .

ولئن كان الدين اليوناني المقتبس من ديانات عـريقة ، غفل عـن ذكر الوحدانية ، وانكر على ارباب الاولمب القدرة وسخر منها وهو يعرضها ويقدمها للعقلية اليونانية فى صورة أدنى من صور البشر ـ فان الفلسفة فى ذلك العهد الذى سبق ظهور رسـالة سماوية خطيرة ، وعاصر جـزء منها بعض حقب وادوار ـ هذه الرسالة استطاعت ان تطرق فى قوة واعتداد ومعرفة مالم تجسر رموز الدين ولا الكهانات على طرقه والولوج فى بابه ، فتعرضت للذات والقدرة ولكيفية خلق الكون ومواد الخليقة فى شيء من التعمق والمعركة التى تشوبها فلسفة الشرق مهد الحضارات والاديان ..

ولقد سبق أن ذكرت أن هؤلاء الذين طرقوا باب الفلسفة والجدل ، وأقاموا لهم مدارس جدلية انتشرت انباؤها فى طول بلاد اليونان وعرضها ، وكانت شهرتها كافية أو خليقة بأن تكون جيلا من عظماء الفلاسفة ـ **قبسوا من الشرق معارفهم وغرفوا من مناهل العلم فى مصر وبابل وفارس والهند ، وتتلمذوا هناك على الكهانات الحصيفة وأهل الحكمة والمعرفة وأولى العلم ـ فلا عجب أن طرقوا مالم يطرقه الدين بعد .. واتسعت بهم الآفاق وامتدت صفحة المعرفة وعظم شان الحكمة .**

ولعلى لست فى حاجة الى ان اردد من جديد أو اثبت بالبرهان القاطع صلاحية تلك التربة لنمو بذور الفلسفة والمعرفة العميقة ، ولذا أسـارع فأقدم تلك المدرسة الفلسفية الخالدة وأساطيلها العظام .

ويكفى أن نعرف ان مكان الفلسفة اليونانية نبتت فى رقعة من الأرض

على اتصال بابناء كل دين قديم ، من تخوم الهند الى ضفاف النيل ، وزاد اتصالها بتلك الأمم زحوف الفاتحين وجموع المهاجرين ، تارة من المشرق الى المغرب ، وتارة من المغرب الى المشرق .. فكان اليونان فى آسيا الصغرى يعرفون عبادات المجوس والبابليين والمصريين واليهود ، وكان روادهم ورحالوهم يتنقلون بين الأقطار فيعرفون فيها مالا يعرف فى بلادهم من الخفايا والأسرار . وساعدهم الحظ فخلت بلادهم من الكهانات الراسخة التى تستأثر بالتفكير فى مسائل الكون والعقيدة . لأن الكهانات الراسخة انما تقوم مع العروش العريقة على أودية الانهار الكبار . كمصر والعراق فلكل منهما نهر تتأثل عليه دولة شامخة وكهانة مستقرة .

فطرقوا أبواب الفكر أحرارا غير محجمين عن معضلة معقدة ولامنقادين لامامة متحكمة ، فاختاروا فيما أخذوه ، واختاروا فيما نبذوه ، وتزودوا من رسالة الايمان لرسالة البحث فى الحكمة والعلوم (١) .

ولم تخل فلسفتهم من فكرة دينية فى أساسها أو فى مضامينها حتى مع اقدرهم وهم : **طاليس وسقراط وافلاطون وارسطو .**

والمعروف حتى الآن أن أول من وضع أسس علم الفلسفة فى العالم الغربى بعد فلاسفة الشرق هو « **طاليس** » **الملقب** ب « **أبى الحكماء** » ، كان يقول ، **ـ كما قالت الأديان من قبله ـ :**

ان العالم لا بد وان يكون من عمل مبدع لاتدرك العقول صفته من ناحية جوهره ، وانما تدركه من ناحية آثاره ، ولا تعرف له اسما الا من فعاله وتكوينه للأشياء ..

وبالرغم من الصورة النورانية التى أعطاها طاليس لنا والتى تكاد فى شىء كثير تتمشى مع الكتب السماوية والمعتقدات الدينية ، فانه يعود ويحدد تلك الذات التى لا تراها عين فيقول : « **أن المبدع الأول هو الماء** » ..

ودليله فى معتقده هذا أن الماء قابل لكل صورة ، ومنه أبدع الجواهر كلها من السماء والأرض وما بينهما . كما انه علة وجود كل شىء بديع وسر وجود كل مركبات العنصر الجسمانى ، ثم عاد طاليس فذكر انه :

١ ـ من جمود الماء تكونت الأرض .

٢ ـ ومن انحلال الماء تكون الهواء .

٣ ـ ومن صفوة الماء تكونت النار .

٤ ـ ومن الدخان والأبخرة تكونت السماء .

٥ ـ ومن الاشتعال ـ الحادث من الأثير ـ تكونت الكواكب ، فدارت حول المركز دوران المسبب على سببه بدافع شوقه اليها .

---

(١) الله ـ للعقاد .

وعاد ثانية فحدد صفات الماء وما يخالطه من عناصر هى سر التكوين الأول فقال :

١ — ان الماء ذكر ، والأرض انثى وهما يكونان سفلا .

٢ — والنار ذكر ، والهواء انثى وهما يكونان علوا .

وهذا العنصر هو اول وهو آخر ، اى انه هو المبدأ . أما الكمال فعنصر الجسمانيات والأجرام ولا صلة بينه وبينالروحانيات ، وان له صفوا وكدرا ، فمن الصفو يتكون الجسم ، ومن الكدر يتكون الجرم .

وكانت عقلية طاليس تحلق بعد ذلك الى ماهــو أكثر بعـدا مما ذكرنا ، فيقول :

« ان فوق السماء عوالم مبدعة ، يحار المنطق فى وصف أنوارهــا ، ولا يستطيع عقل ان يدرك مالها من حسن وبهاء .. وهى من عنصر لايدرك غوره ولايبصر نوره ، والمنطق والنفس والطبيعة تحته ودونه ، وهو الدهر المحض من نحو آخره لا من نحو أوله ، واليه تشتاق العقول والأنفس ، وهو ماقد سميناه السرمد والبقاء » ..

ويأتى فى الجيل التالى لجيل طاليس وزملائه ، طائفة من أعظم الفلاسفة اثرا فى مذاهب الحكمة الالهية ، **« انــكسا غــورس »** الذى كان يرى رأى طاليس فى **« الوحــدانية »** الا انهمــا يختلفان من ناحيــة **« المبدأ الأول »** ، وانكساغورس كان يرى : **أن مبدأ الكائنات متشابه مـكون من أجزاء لطيفة لايدركها حس أو ينالها عقل ، ومن هــذه الأجزاء صنع الله الـكون باجمعه سماءه وأرضه ، لأن المركبات مسبوقة بالبسائط ، فى حين نجد أن المختلفات مسبوقة بالمتشــابهات . ومثل ذلك الحيوان والنبات وكل من يعيش على الطعام ، فهو يتغذى باشياء تجمعها وحدة التشابه أو غير التشابه ، فلا تلبث أن تتجمع فى المعدة فتختلط وتتشابه ثم تجرى فى الشرايين والعروق فى هيئته دم ولحم وعظام .**

اما أصل الأشياء فى رأى **« انكسا غورس » :**

فجسم واحد موضوع لانهاية له ، ومنه تخرج جميع الأجسام والقوى ، وفيه كمنت كل الاشياء ، ثم ظهرت بعد ذلك أنواع واصناف واشكال ، كما تظهر من الحبة سنبلة مليئة ، ومن النواة نخلة باسقة ، ومن النطفة انسان كامل ، ومن البيضة طير .. وكل هذا يفسر الظهور بعد الكون ..

والأشياء جميعا كانت ساكنة ، فجاء العقل وتولى تربيتها على أحسن نظام ، فوضعها فى مواضعها وشكلها بعديد أشكالها فكان منها المستقيم والدائر والمتحرك .

ويرى اكسينوفان : ان حقيقة الاله عنده من وراء خيال الانسان ، لأنه يتخيل اربابه على هيئته ، ويعزو اليها اخلاقا كاخلاقه ، واعمالا كأعماله .. ولكن من المستحيل ان يصل العقل البشرى الى الحقيقة الالهية ، او يقاربها ...

اما هيرقليطس فهو يقول ان ((الكلمة)) ــ والكلمة عنده تكون مرادفة لمعنى ((الله)) ــ هى النظام الذى يضع كل شىء فى موضعه ، وانها لا تصنع الا الصالح من الأمور ((فعند الله كل شىء جميل وخير ، ولكن الناس هم الذين يعتبرون بعض الأمور من الخير وبعضها من الشر)) .

وان الله : هو النهار والليل والشتاء والصيف ، والحرب والسلم ، والشبع والجوع ، ويتخذ الأشكال والمظاهر على اختلافها ، والاختلاف هو أساس الانسجام والنظام ، فلولا النقائض لما كان النغم المنسجم ، ولولا التعدد لما كانت الوحدة .

((فكل شىء يأتى من الأحد ، والأحد يأتى من كل شىء .. ولكن الكثرة دون الوحدة فى الوجود الحقيقى ، وذلك هو الله ..

وهو الله أو هو الصلة بين الله والعالم . ولا فرق بين العقل فى الانسان وفى الحيوان وفى الجماد الا بالأداة التى يستخدمها ولولا تفاوت الأجساد فى اتقان الأداة لما اختلفت عقول البشر وعقول الحيوانات وعقول الحجارة الصماء .

لكن ((هيرقليطس)) لايقول بالخالق ولا بحاجة الموجودات الى موجد .. فهذه الدنيا التى هى سواء للجميع لم يخلقها احد من الآلهة ولا من الناس ، ولكنها كانت منذ الأزل وتكون الآن وتظل كائنة فى كل زمان . نارا خالدة تتقد بحساب وتنطفىء بحساب .

((فالنار هى اصل العناصر ، وهى المصدر الأول لجميع الكائنات)) .

اما ((انكسيمانس)) : فيرى ان الخالق ازلى ، وانه لا اول له ولا آخر ، هو مبدأ كل شىء ولا بداية له ، وهو المدرك من خلقه وليس كمثله شىء ، وهو المبدع الخالق لكل شىء ، وهو الواحد ، وليست وحدانيته وحدانية الاعداد لأن واحد الاعداد يتكاثر وهو لايتكاثر ...

ويقول ((انبذقلس)) : ان البارى هو العلم المحض والارادة المحضة والجود والعز والقدرة والعدل والخير والحق .. وليست هناك قوى تتخذ هذه الأسماء .. بل انه هو هى ، وهى هو الذى ابدع كل شىء ..

ويقول ((فيثاغورس)) :

((ان الله تعالى واحد لا كالآحاد ، ولا يدخل فى العدد ، ولا يدرك من جهة العقل ، ولا من جهة النفس ، فلا الفكر العقلى يدركه ، ولا المنطق النفسى

بصفه ، فهو فوق الصفات الروحانية غير مدرك من جهة ذاته ، وانما يعرف بآثاره وصنائعه وافعاله وكل عالم من العوالم يدركه بقدر الآثار التى تظهر فيه ، فينعته ويصفه بذلك المقدار الذى خصه من صنعه ، فالموجودات فى العالم الروحانى قد خصت بآثار خاصـة روحانية ، فينعته من حيث تلك الآثار)) .

وكان ((زينون)) من تلامذة فيثاغورس المبرزين ، وكان يقول :

((ان الله ابدع العقل والنفس دفعة واحدة ، ثم ابدع بعد ذلك ما دونهما ساعة ابدعهما ــ وهما خالدان لايجوز عليهما موت ولا فناء فاذا كانت النفس ذكية طاهرة علت الى العالم الأبدى حيث مسكنها ، فى حين يفنى الجسد لأنه ليس على شاكلة الجسم السماوى)) .

((وسقراط)) كان يرى :

((ان البارى جوهر ، لو رجعنا الى حقيقة الوصف والقول فيه لوجدنا المنطق والعقل قاصرين عن التعبير عنه وتسميته وادراكه ، لأن الحقائق كلها من تلقاء جوهره فهو المدرك حقا والواصف لكل شىء وصـفا ، والذى أطلق على الموجودات اسماءها فـكيف يستطيع احـد أن يسميه أو يحيط به أو يصفه)) ؟ !

ويذهب سقراط الى : ان النفوس الانسانية وجدت قبل الابدان على نحو ما ، فـكانت اما متصلة أو كان بينها تمايز ، وكانت لها خـواص ثم اتصلت بالابدان استكمالا ، وهذه الابدان قوالبها فان بطلت عادت النفوس الى كليتها.

وقد أوضح ((سقراط)) : ان الحق قد سبق الحكمة وانه اعم منها واكثر.

وله فى الفلسفة آراء عالية وحكم عميقة ليس هنا مجال ذكرها .

ولعل آراءه اقرب الآراء الى ما جاء به الأنبياء عن الله والوجود ..

وبعد ان اعدم سقراط بتهمة افساد شباب أثينا واجبر على شرب كأس السم قام مقامه فى موضعه وتصدر مدرسته تلميذه ((افلاطون)) ..



ألوان من العبادات

((أفرأيت من اتخذ الهه هواه وأضله الله على علم))

(سورة الجاثية)

وفى الوقت الذى انحرفت فيه العبادات وانحطت فى بعض مجاهل الأرض كانت هناك فى البقاع الخصبة حول الأنهار حضارات لها ديانات ذات أسس واصول عريقة وان انحرفت بعض الشىء عن الحقيقة القديمة التى تقوم على دين الوحدانية والايمان برب واحد لاشريك له ...

لقد آمنت تلك الامم بقوة قادرة خفيـــة كان بعضهم يراها فى **الشمس تنير العالم بعد ظلام وتبعث الحياة فى كل شىء** فيهب البشر ويستيقظون بعد نومهم ويقبلون على أعمالهم فى جد ونشاط تحت رعايتها مستنيرين بنورها الوضاء مهتدين بأشعتها التى تبعث الحياة والدفء والنور ...

وكان البعض يراها فى القمر يبدد ظلمات الليل ويهدى المدلجين الحائرين وجمـوع الســارين ... فى حين رآها آخـرون فى الـكواكب والنجـوم

وعبد البعض الرياح فى مساربها ، وقدس آخرون المطر ، وخروا سجدا للبرق والرعود ، بينما توفر البعض الآخر على عبادة جسم الانسان وما فيه من خصائص ذات فائدة للمجتمع كأعضاء التناسل فى المراة والرجل .

على ان العبادات فى مجموعها لم تكن تخرج عن وجود قوة كبيرة خافية عن العيون بيدها مقاليد كل شىء واليها المرجع والمآل وبوســعها توجيــه الانسان الى جانب الخير وحبه والعمل بمقتضى شرائعه ...

وتقابلها فى الناحية الأخرى قوة على جانب عظيم من الخطورة والرهبة هى التى تدفع البشر الى جانب الشر وقد تتعادل أحيانا مع قوة الخير وقد تضعف عنها فى أحيان أخرى أو قد تكون أكثر منها قوة وتأثيرا فى وقت من الأوقات تعمى فيه البصيرة وينحرف الانسان عن طريق الخير .

ولكل قوة من هاتين القوتين اتباع وجنود مسخرة وقوى خفية لاتبصرها العيون ، والقوتان دواما فى صراع دائم تفوز فيه احداهما وتنهزم الثانية

لتفوز سريعا فى الميدان مرة اخرى وتسقى غريمتها كؤوس الهوان وهكذا دواليك صراع لا راحة بعده وحرب لا مهادنة فيها ولا سلام ...

ولما كان « الطوفان » الذى اغرق العالم فى عهد نوح قد أصاب بابل .. ولما كانت ارضها هى المكان الذى رست سفينة نوح عند جبل من جباله فقد تغلغلت قصة « الطوفان » هذه فى النفوس حتى وصلت الى قراراتها ... ومن هنا كان لها تأثير اى تأثير فى العبادات البابلية . حتى انهم صوروا بعد ذلك فى اسطورة « الطوفان » الكلدانية قصة الخليقة كلها ، وعادوا بها الى ما قبل الطوفان ليدعموا الرابطة بين حادث الخلق الأول .. ثم الضلال والكفر .. ثم الحكم بالفناء على هذا العالم الضال .. ثم الاستقرار الثانى وانتشار الخليقة الجديدة على سطح الأرض .. اى بعد استقرار سفينة نوح الذى يطلقون عليه اسم «اوتانابشتم» اى نوح البابلى الذى بنى هو الآخر فلكا بوحى من الآلهة .. وهو نفسه ولا شك فلك نوح عليه السلام ..

واسطورة اوتانابشتم تقول :

وارتفع الماء حتى صار فى مستوى الأسطح .

لبث الاعصار ولبثت العاصفة والطوفان ستة ايام وست ليال .

وتكتسح الارض .. فلما كان اليوم السابع سكنت العاصفة .

والطوفان (نعم) وكأنه حرب شنت على جيش .

ثم استقر البحر وذهبت (كل) قوة الريح وخف الطوفان .

وهكذا استطعت ان ارى النهار . وانعدم كل صوت . وكل آدمى .. قد عاد طينا .. (١) .

❊ ❊ ❊

كما صورت أساطيرهم اله الشر والعذاب فى صورة حيوان مخيف ينفجر الماء من فمه يغمر الدنيا ويغرقها ويبيد من عليها ولم يستطع الدين البابلى رغم مرور أجيال على ذلك الحادث ان يخرج عن اطاره أو يتحرر من ذكراه الرهيبة تلك فصوروا العالم قبل الخليقة خضما مائيا شاسعا لا حد له ولا نهاية صخاب الموج عالى الزبد مليئا بالأشباح والمرئيات التى لاعدد لها ...

وكانت تتنازع السلطان على هذا العالم المائى قوتان متجاذبتان اكثرهما خطورة هى « تيمات » الحاكمة على الماء الملح وتمثل جانب الشر والفساد فى العبادة البابلية وكان لها زوج أنجبها احد عشر ابنا كانوا عونها على الشرور والفساد ...

اما القوة الاخرى التى تمثل جانب الخير فكانت فى رب الماء العذب واسمه « ايا » الذى ظل فى صراع مع « تيمات » وقد استفحل أمره وتعاظم شره فما

---

(١) تاريخ العالم — الجزء الاول .

استطاع أن ينال منها ولا هى استطاعت بحولها وقوتها أن تنال منه ، الى أن حدث ان انشقت الأمواج عن معبود جديد له عزمة الشباب وقوة الأبطال الذين لايعرفون الهزيمة ولا يدينون بغير النصر لأنهم خلقوا للحرب والكفاح .

ولم تكد الأمواج تنشق عن ((مردخ)) الرب البطل الذى لايهزم حتى جاهر بالعداء ((لتيمات)) الشريرة وتحداها وسخر من قوتها فسارت اليه لتذيقه صاب الهزيمة كما هزمت قبله ((انو)) رب السماء . ولكن خاب ظنهــا وفشــل تقــديرها الذى ارادته ودارت عليها الدائرة فوقعت هى وزوجها وابناؤها الاحد عشر فى اسر ((مردخ)) المحارب الباسل القوى ...

وقطع المنتصر سبابته نصفين ، كانت الأرض احدهما وكانت السماء هى النصف الآخر الذى رفع اليه زوجها وبنيها الاحــد عشر وقضى عليهم بالبقاء الأبدى فيه فلا يبرحونه الا بأمره ! !

واخذ « مردخ » بعد ذلك فى تنسيق العالم الجديد وأبى الا أن يتمادى فى كرمه ويغمر الأرض ولا يجعلها موطنا للأرباب فحسب بل مرتعا لأناس من خلقه وصنعه ... وصارح الرب مردخ المحارب صاحبه « ايا » رب الماء العذب برغبته فى أن يخلق من دمه الالهى وعظامه المقدســة مخلوقا يعمر الأرض وينتشر فيها نسله ويتكاثر وعزز حديثه هذا بأن اوحى الى بعض اتباعه أن يهرقوا بضع قطرات من دمه الذى ما أن تفجر حتى كان منــه الانسان الأول الذى أثار مقدمه فرحة الأرباب جميعا وسرورهم فاحتفلوا به وأطربهم خلقه وراحوا يرقبون و « مردخ » معهم ماسوف يقوم به من أعمال ، كان أولها محاولته استراق السمع والوصول الى سر الخلق وتعرف عنصر الخلود ، ولقد كان محقا فى محاولته تلك اذ ماجاء الا من دم اله وعظامه

ولكن الآلهة غضبت لتطاوله ذلك وكبر لديها أن يصل بالانسان تفكيره الى الحد الذى يبغى فيه أن تكون له صفات الآلهة وكان ان قدرت عليه الموت واذاقته كأسه المرير ! !

وبدأ اثر ظهور دين بابل فى الديانات الاخرى فى البــلاد القريبة منهــا ، وذات الصلات بها مثل فارس .

ولئن كانت العبادة البابلية قد خلت من ذكر العالم الآخر والبعث بعد الموت ـ اللهم الا ما ذكر عن هذا العالم الثانى فى اسطورة جلجامش الذى خرج يفتش عن سر الحياة ليرد الروح الى صــاحبه انجيــدو الذى رضى باستقراره فى العالم الآخر ، وراحت روحه من وراء حجب الموت تحدث جلجامش عنه حديثا فيه استفاضة عن جزاء الآخرة وما ينتظر الشهداء والصالحون من مثوبة الهية وحسن جــزاء ـ فان العبــادات الأخــرى لم

تخل من ذلك .. بل اهتمت به وباظهاره لجماهير العابدين تشجيعا لهم على الاستمساك بالدين والتعلق بالمعبود الأكبر لنيل رضاه والدخول فى جنته التى وعد بها من يؤمنون به ويتمسكون بعبادته ...

واعتقد الفرس فى ذات خفية قادرة تسيطر على العالم أسموها «زروان» وان هذه الذات قد انجبت ولدين توامين ، اعتبر احدهما ربا للخير واسمه « اهورمازدا » واعتبر الثانى ربا للشر والخطايا واسمه « اهريمان » ! !

وظلت تلك عقيدة الفرس حتى قام فيهم معلم دينى اسمه زوروستر « زرادشت » جعل يشرح لهم ماخفى عليهم من أصول الدين والعبادة فسخر من الأوثان وحرم الزلفى لها أو عبادتها أو التعظيم من شأنها ، وارتفع بتفكيره الى الشمس ذات النور فدعا من اجلها الى تقديس النار لصفائها وطهارتها .

وبقى ذلك المعلم فى قومه هؤلاء يلقنهم أصول دينهم ويصور لهم القدرة وعظمتها وتنزهها عن الصفات وارشدهم الى معبودهم القادر « اهورمازدا » الذى يتصدر مجلس الآلهة المحيطين به — وعددهم ستة يمثلون شتى عناصر الخير فى العالم ! !

وافلح زرادشت فى نشر تعاليمه فقرب الدين الى أذهان الفرس وجعلهم يستمسكون بعبادة رب الخير والبركات « اهورمازدا » وينأون عن رب الشر والخطايا « اهريمان » .

والعقيدتان فى جوهرهما ان دلتا على شىء فانما تدلان على مدلول واحد وهو أن الفكر البشرى مهما بلغت به الضلالة ومهما تكاثفت عليه ظلمات الجهل والكفران ومهما بالغ رجال الدين فى تهويلاتهم ، فانه لا يمكن أن يفقد الاحساس بالاله الواحد الأكبر .. وان جهلوا كنهه والطريق اليه ..

كانت الوحدانية كائنة وكانت الأفكار والعقول تحس بل وتشعر بكينونتها .. ولكن معتقدات العصور المظلمة والجهالات التى رانت على الخليقة وكثرة المضللين من الكهان والمنجمين ارادت الا ان تجعل لها « للذات الواحدة القادرة » اتباعا ومساعدين توكل اليهم تنفيذ ارادتها ويقومون بما توحيه اليهم لخير البشرية جمعاء ...

وعرفت هذه البشرية فى جملة ما عرفت قصة ابليس كبير الملائكة الذى عصا الله فجعله شيطانا فساله الا يقضى عليه وان يمهله الى يوم معلوم ، ليبرهن له بالدليل القاطع على ان الانسان ظلوم وانه لا يستحق من الذات هذه الرعاية ولا ذلك السماح والغفران .

عرفت البشرية فى ذلك الحين تلك القصـــة فاتخذتها مادة فى عباداتهـــا واديانها ومعتقداتها وشتى الطقوس التى كانت تقوم بها . وما عنمت وهى تصور لنفسـها الدين الذى تريد والمعبود الذى تختار لتخضع له وترفع اليه صلاتها وتوسلاتها ــ ان اشركت معه فى عالمه ((**ذاتا اخرى**)) ولكنها ذات ظالمة قرن اسمها بالشر ونسبت اليها الخطايا جمعاء ...

والواقع ان تقسيم العالم فى عرف هؤلاء الى ((**معسكرين**)) احدهما لرب بيده الخير والثانى لآخر بيده الشر .. ليس فيه ما يعنى أن النـــاس كانوا يعبـــدون الالهين معا ، **بل ان الواقع يؤكد انهـم كانوا يعبـــدون فعـــلا ((الذات مانحة الخير وصاحبته)) اما ((الذات الشريرة)) فلم يرتفعـوا اليها بعبادة أو صلاة ، بل بتوسلات وادعية كان الغرض منها ان يكونوا بمنجاة من شرورها كى تمنع عنهم أرواحها الشريرة ومن فى خدمتها من الجن والمردة والشياطين ! !**

***

وبالرغم من هذا الارتقاء الفكرى فى العبادات نسبيا ــ وفى عالم يخيم عليه ظلام الجهل وينتشر فيه الاضطراب الذهنى بين قوى الطبيعة ومظاهرها العديدة التى كانت تثير دهشة البشر ــ ظلت العبادة على ماهى عليه ، وان اتخذت بعض مظاهر ايحائية بفعل رجال الدين ...

وفى الوقت الذى كان ((**زرادشت**)) يبشر فيه بالسعادة فى العالم الآخر والثواب المنتظر بعد الموت ويرتفع بفكره الى سماء ((**اهورمازدا**)) الذى وهبه قوة الاستجلاءين البصرى والسمعى ، فكان بينه وبين معبوده اتصال وكان بينه وبينه وحى وتبليـــغ ــ فى ذلك الوقت .. كان رجال الدين يلعبـــون فى العبادات أدوارا لها خطورتها لدى « المجموعة السـاذجة » التى آمنت بهـــا وصدقتها دون نقاش أو جدال ...

ولما كانت الفضائل من صفات الآلهة ، ولما كان أمرها الى العباد لايخرج عن اتباع طرق هذه الفضائل والبعد عن السبل المعوجة الرهيبة ــ فقد كان لزاما على الناس أن يتدبروا ويفكروا فى الأوامر التى كانت تصدر اليهم من رجال الدين ويزنوها بميزان التقدير والفهم ليعرفوا **ان كانت حقيقـــة تحمل رغبة من رغبات الاله القادر أم هى بدعة مستحدثة من وحى كاهن او شيطان من الشياطين ! !**

ولكن .. ولما كانت النفس البشرية رغم نزوعها الى حب الخير تميل الى اللهو وتندفع فى تياره ولو كان على حســـاب الدين ــ فقد صـــدقت ما جاء به الكهان وآمنت بدعوتهم المضللة التى أدعوا فيهـــا ان المعبودات ليست

اكثر من ذوات خفية قادرة لها هى الأخرى رغبات واهواء كأهواء البشر الذين خلقتهم ! وانها تحب ما يحبون وتهوى ما يهوون من موسيقى ورقص وتراتيل وغير ذلك ...

وبدافع هذا المعتقد الدخيل دخلت على العبادات المختلفة فى شتى الأمم ذات الحضارة الدينية ـ طقوس غريبـة كانت تختلف باختـلاف البيئات والعقائد وطبائع النفوس ومدى ايمانها بتلك البدع المستحدثة الغريبة .

ففى الهند حيث كانوا يعبدون ((نيرفانا)) اقيمت طقوس غريبة ادخلت على العبادة ادخالا اخرجها من الجوهر السامى الذى كان لها وجعلها تمثل حركات غريبة وبدعا مستهجنة بعدت بها عن نطاق الجد الى حدود الخلاعة والاثارة فى بعض الأحيان ...

وفى اليونان حيث كانوا يقدسون ((زوس)) ومن معه من الآلهة الساكنة فى ((جبل الاولمب)) لم يكتف رجال الدين بمظاهر الترف والخلاعة .. بل جعلوا من الأرباب الملتفة حول ((الاله الاكبر)) اربابا لها هوايات ، ولها تخصص وثيق الصلة بالفنون : كالرقص ، والشعر ، والموسيقى !!

والرومان كانت ديانتهم كديانة الاغريق ، تقوم على وجود آلهة لها صفات البشر ، ذلك انه يصادف فيها ما يصادفه فى الأخرى من آلهة تجـرى على سنن المخلوقين فتتزوج وتزوج ، وتنطوى قلوبها على الحب والكره ، وتسعى كما يسعى الناس ، وتغامر كما يغامرون .

وكان الدين الرسمى للدولة ، يقوم على عبادة هذه الآلهة نفسها ، ويقترن به نظام محكم من شعائر وقرابين ومن كهنة واحبار ومن تفاؤل وتطير ، وكان حمل الناس على طاعة هذا الدين مصدر قلق بالغ لحكام الرومان ، بل كان فى كثير من الأحيان عقبة تقف فى سبيلهم . (١)

وفى فارس وبابل كما أسلفنا كانت تعبد آلهة لها صفات الخير والقدرة ادمجت فيها واضيفت اليها أخرى لها صفات الترف والمجون واللهو ولهـا رغبات انحطت الى مدارك الرغبات البشرية ..

ومن هنا دخلت على العبادات الوان غريبة وطقوس مضحكة أطلق عليها رجال الدين اسم ((**اعياد الآلهة**)) وأباحوا للناس حضـورها واللهو فيها بما يشـاءون وكيفما يشـاءون دون رقيب ، حيث يتحررون من قيود الدين وينسـون أوامر الأرباب ونواهيها لانها ـ كما يدعـون ـ **كانت فى تلك الأعياد بالذات تهبط من سمواتها العـالية الى عوالم البشر فتشاركهم اللهو والمرح والسرور !!**

---

(١) تاريخ العالم ـ ديانة روما القديمة .

والأمر الذى لاشك فيه ان هذه البدع الرخيصة كان لها بعض الأثر فى العبادات .. اذ استطاعت أن تعطى البشر فكرة مبسطة سمحاء عن الأرباب وانها لا تتصف بالجبروت والصلف والطغيان كما كان يصورها البعض .. بل كانت لها صفات المرح والسرور ، وانها كانت بعابديها برة رحيمة تمنحهم فى جملة منحها العديدة منحة السرور ومشاركتها الاحتفال بما كانت تقرره من أعياد ومناسبات سعيدة !!

ولقد كانت اعياد الآلهة تلك جامعة لكل بهيج جالب للفرح والسرور وكانت الارباب تتجلى فيها على عابديها ـ كما كانوا يزعمون ـ وكانت تشاركهم الرقص والشراب وممارسة شتى الألعاب التى تدور فى محورها حول البطولة وتقديسها ، كما كانت تشاركهم لذة الاستماع الى الأغانى والأناشيد والأشعار ومشاهدة المسرحيات التى كان يتفنن فى صياغتها ذوو العقليات الناضجة فى تلك الأمم !!

وكان الناس يأتون فى تلك الأعياد حاجين من اقصى فجاج الأرض وابعد أصقاعها راجلين او راكبين ليصلوا الى هناك جموعا كانت تظل الى جانب المعبد الكبير زمنا طويلا تنعم فيه بما جاءت من اجله من شتى أسباب الراحة والمرح ..

ولطالما بالغ الناس فى الاحتفال باعياد آلهتهم تلك فكانوا يأتونها وهم يحملون الهدايا والتحف والقرابين ، كما انهم كانوا يقضون سائر ايام العام ولا فكرة لهم ولا شىء يحسبون له حسابا الا يوم ((العيد الأكبر)) !!

***

واعرق مدنية دينية عرفها التاريخ كانت مدنية مصر الفرعونية ، وهى وان كانت قد خلت من النصوص وبعض الشرائع ـ كما جاء فى الدين البابلى الذى جمعه ((**حمورابى**)) فى الواح مكتوبة رسم نفسه فى أعلاها يتلقى تلك الأوامر من ((**الذات العليا**)) التى أيدته وجعلته فى مصاف المشرعين ـ **الا انها مع ذلك كانت مدنية أصيلة ذات فروع عديدة لم تخرج فى فكرتها عن الوحدانية القديمة التى علمها ((نوح)) لمن تبعوه ممن كانوا نواة العالم الجديد ...**

ولم تخرج العبادة الفرعونية فى شىء عن شتى العبادات التى كان يدين بها الناس جميعا فى العصور الأولى للتاريخ ، ولم تختلف عنها فى رمز أو طقس الا ما بدلته البيئة وارادته طبيعة الاقليم .

ولا شك أن التناسق بين الأفكار الدينية فى تلك العصور القديمة وفى امم عديدة متباعدة مثل ((بابل)) و ((فارس)) و ((بلاد الهند)) و ((اليونان)) ليدل دلالة واضحة على أن ((الأصل)) كان واحدا وأن ((الفكرة الدينية)) التى سارت شرقا وغربا والى الشمال ونحو الجنوب كانت فكرة واحدة يدين بها أناس من أصل واحد ودين واحد ، وان دواعى الحياة والسعى وراء

العيش هى التى دفعت بالناس الى تلك الجهات المتباعدة التى فرقت السنون بينها فى كل شىء من عادات وطبائع ولغة ودين لم يخرج عن أصله وان زاد رجاله عليه من عندياتهم ما يساير العصر ويوافق الطباع ..

ولم تخرج ديانة المصريين القدماء عن الاعتراف باله واحد رمزه الشمس وان هذا الاله كون من ذاته القادرة بقية الآلهة الأخرى التى أوجدها لتكون أداة لقضاء رغباته وأوامره وما يريده ويشاءه من شتى الأمور .

ولما كان الوادى الخصيب واديا عظيم الطول يشقه نهر النيل وهو سر الحياة فيه ، وعلى شاطئيه قامت مدن لها حضارات ولها ثراء وغنى وفيها أمراء اقوياء ورجال دين لهم ذكاء وحصافة ــ فقد تغير ذلك « **الواحد** » تغيرا يساير الاقليم ويمشي ورغائبه بحيث يضع الأقليم « معبوده الأول » على راس قائمة بقية الأرباب المساعدة !!

ولقد عبد المصريون الشمس ، وأسموها « **رع** » عندما تخرج فى مشرقها سلعة الصباح المبكر فاذا ما سارت فى موكبها السماوى أسموها « **آتوم رع** »

وكان رع اقدم الأرباب واكبرها قوة وبطشا .. ولقد مرت بالآلهة جميعا فترات ، ضعف فيها سلطانهم وأضمحلت هيبتهم وانصرف الناس عنهم الا « **رع** » هذا ، فقد ظل سيد الأرباب وكبيرهم فى معظم العصور !!!

وكانت مدينة « اون » التى نعرفها باسم « هليوبوليس » تعتبر « رع » ابا للآلهة .. وكانت تضم اليه بضعة أرباب أخرى من خلقه وصنعه ، كان منها « التتسيع الربانى » الذى آمن به معظم المصريين !!

وكان تتسيع مدينة « **اون** » يتلخص فى وضع « **رع** » على راس القائمة فهو الموجود والمعبود الأول وهو « **رب العالم** » وهو « **الخالق الأول** » الذى خلق من نفسه التى لا تتجزأ عددا من الأرباب الثنائية لها صفات التزاوج والتناسل ليكون منها ومن تزاوجها العالم الذى أراد !!

ولقد خلق « **رع** » من نفسه أول ما خلق « **شو** » اى رب الفضاء ثم خلق له زوجته « **نفنيت** » وبعد فترة خلق الربة « **جب** » ربة الأرض وزوجها من « **نويت** » وبذلك وضع اسس العالم : أرضه وسماءه وفضاءه ونجومه وشموسه وشتى الأقمار !!

وخلق رع بعد ذلك ابنه « **أوزوريس** » وجعل له زوجة طيبة على غراره هى « **ايزيس** » العظيمة ونسب الخير الى أوزير هذا والى زوجته .. ثم لم يلبث بعد أن صنع للخير ربا أن سارع بخلق معادل أو منافس له فى شخص أخيه الجبار العاتى « **ست** » رب الجدب والخطيئة والشرور وزوجه من اخته « **نفتيس** » ...

وابت ((**منف**)) وهى اول مدينة شهدت مجدا وحضارة وملكا عريضا — ان تعترف بالتسيع الذى نادت به غريمتها ((**اون**)) فكان أن رفعت اسم ((**آمون رع**)) ووضعت مكانه اسم معبودها ((**بتاح**)) والمعبودان فى الواقع لا يخرجان عن ((**ذات واحدة**)) هى ((**الشمس**)) أولا وأخيرا !!

وظل الأمر على هذا المنوال حتى نبه شأن مدينة طيبة فى عهد الدولة ((**الوسطى الفرعونية**)) ونبه معها شأن معبودها ((**آمون**)) وعظم بتعاظمه واشتهاره شأن كهنته فاستغلوا فرصة وجود السلطان فى أيدى ملوك من اقليمهم ووضعوا معبودهم الصغير ((**آمون**)) **على رأس التتسيع !!**

ولما كان آمون هذا ((**الها**)) مجهولا بالنسبة للغالبية الساحقة من المصريين فى ذلك الحين .. ولما كان رفع أسماء الأرباب العريقة من التتسيع ووضع اسم حديث بدلا منها فيه مافيه من اثارة للحفائظ والنفوس — **فقد لجأ الكهنة الى ذكائهم النادر ونسبوا ((آمون)) الجديد الى ((رع)) القديم ووضعوا على رأس التتسيع الاسم التالى ((آمون رع)) !!**

وجاءت مدينة ((**الأشمونين**)) بعد ذلك ومعبودها الأكبر هو ((**توت**)) اله الحكمة فرفعت رأس التتسيع ولم تأخذ برأى منف ولم تخضع لرغبة ((**اون**)) ولا هى سايرت معتقد ((**طيبة**)) بل وضعت اسم معبودها ((**توت**)) وجعلته بذلك رئيس التتسيع الآلهى !!

والمشاهد فى الدين المصرى القديم انه بالرغم من اختلاف وجهات الاختيار الألهية فى المدن الكبرى ، فان هذا الاختلاف لم يشمل ((الذات الواحدة القادرة)) التى ظلت كما هى ((واحد قادر خلق العالم وجموع الأرباب)) بل شمل مسميات لا قيمة لها لأن ((رع)) لم يكن غير الشمس وكذلك ((بتاح)) وأيضا ((آمون)) ..

وأن هذه الأسماء المتعددة مهما تغيرت فلم تكن فى مجموع صفاتها أو مسمياتها العديدة التى اتخذتها تخرج عن تحديد ((**لذات واحدة**)) ذات صفات واحدة ، وان تعددت أسماؤها .

واذا فقد اتفقت الآراء جميعا على ((الوحدانية)) ووجود إله واحد قادر هو الذى ((صنع)) وهو الذى ((خلق)) وهو الذى ((أوجد)) بقدرته ((أربابا ثنائية)) تستطيع أن ((تتزاوج)) وتنجب نسلا وهو وان تغيرت الأسماء التى خلعت عليه والتى عرفه عابدوه بها الا أن مجموعة ((تتسيعه)) لم تتغير وظلت على حالها من البقاء والاعتراف بها والتصديق بوجودها ..

واذا عدنا الى قصة الخير والشر فى الدين المصرى القديم وجدناها لا تخرج فى جوهرها وحوادثها عن قصة الصراع بين ((**تيمات**)) وغريمها ((**آيا**)) فى الدين البابلى وأن دور ((**حوريس**)) فى الدين المصرى القديم لعبه فى الدين البابلى ((**مردخ**)) الذى خرج من الأعماق وكان ربا للحرب والبطولة .

وكما عثرنا على الشبه بين القصة الفرعونية وصــاحبتها البابلية فمن السهل الهين ان نجد ذلك التشابه فى الدين الفارسى فى قصــة الصراع بين اهورمازدا واخيه اهريمان ولدى الرب الأكبر ((زورمان)) .

والدليل على وجود ذلك التشابه فى الأديان الأخرى سهل هين فالقصة كما أسلفنا موجودة فى الدين الهندى وفى الدين اليونانى مع تغيير بسيط فى الحوادث والمناسبات ..

والذى يســتطيع العقل ان يستخلصه من اسطـورة كأسطـورة خلق اوزوريس وزوجته ايزيس الخالدة ثم خلق اخيه وتوامه ((ست)) ، هو أن العقل البشرى لم يزل متأثرا بقصة الخليقة الأولى والصراع بين آدم وعدوه الشيطان ، وان نظام العالم لا يمكن ان يستقيم أو أن يبقى الا اذا كانت فيه قوتان تتصــارعان وهما من أصل واحد ثم تختلف طرائقهما التى يســلكانها بعد ذلك ..



ولئن كان لنا أن نذكر شيئا عن هـذه الأديان التى أسلفنا الحديث عنها فان الشىء الوحيد الذى يجب ان يذكر هو أن العقل البشرى قد وصل الى درجة من الرقى الذهنى والفكرى وانه رق وعلا وأصبح حساسا الى الحـد الذى استطاع به أن يفكر فى ((**ذات واحدة قادرة**)) كان لها من القوة والقدرة ما استطاعت به أن تقيم أسس العالم وتضع بذور البشر الأوائل فيه ..

وما دمنا قـد تعـرفنا اجمالا فى الديانات الهندية والفارسية والبابلية واليونانية ، على فكرة سامية بالنسبة للعقل البشرى فى تلك العهود فان الشىء الذى يجب أن نخصه بالبحث هـو الدين المصرى القـديم لنبعد عنه بعض اللبس الذى لازمه فى عهود امتدت حتى ايامنا هذه ..

ولئن كانت الديانات التى أسلفنا قد قام بين اتباعها معلمون لهم خطورتهم ولهم افكارهم الناضجة وتعاليمهم السامية فان الدين الفرعونى قد قام على الطاعة وسار على نهج الانقياد لرجال الدين دون معارضة أو جدال .

ولئن كانت قد اقترنت بالحركات الدينية فى الأمم السالفة الذكر ــ نهضــات علمية وفلسفية وفلـكية ، وثارت مجادلات بين أئمة العلم ورجال الفلسفة ، ووضعت لعلم الفلك أصول وطرائق خاصة ، والمجالات العلمية تناولت الذات العالية والفلاسفة طرقوا باب العبادات بفلسفتهم التى امتدت الى حد التفكير فى القدرة ــ فان مصر الفرعونية وهى صــامتة لا تجادل ولا تباهى بمدارس فلسفية كتلك التى اشتهر أمرها فى عصور أثينا الذهبية وما

بعدها ـ لا يستطيع احد أن ينكر أن هذه العلوم واصولها جمعاء وتلك الفلسفة وهاتيك المجادلات ـ انما كان مرجعها الأول الى مصر التى تلقى فيها أقطاب تلك الأمم وكبار فلاسفتها وعلمائها دروسهم الأولى ، فتغذوا بلبان العلم على أيدى الكهنة المتبحرين وشربوا أصول الفلسفة من منابعها الاولى بالجامعات الفرعونية التى كانت فى مدينة « أون » و « منف » وغيرهما من عواصم البلاد !!

والدين الفرعونى حتى الآن فيه الدليل الواضح على أن العقل المصرى فى اظلم عصور التاريخ كان عقلا يتميز بالنورانية والاستجلاء والرقة والحساسية فحدد العبادات ولم يقبل أن يهبط بها الى درجة من درجات الكفر بالغة ما بلغت من البساطة ..

لقد وصلت العقلية المصرية .. بل أقول حافظت العقلية المصرية على تراث الأجيال وتمسكت بالوحدانية رغم مضى قرون وقرون من الجهالات على العالم .. ثم لم تلبث هذه العقلية الفذة أن ظهرت وأبدعت عندما قدر لها أن تحدث غيرها عن الدين وان تشرح اصول « الذات » لجموع السائلين ممن كانوا يعيشون فى ظلمات الجهل وعصور الترهات والأوهام ..

واذا قورن الدين المصرى القديم فى تلك العصور المظلمة من فجر التاريخ والعالم يعيش فى عمايات الضلال ـ اذا قورنت هذه العبادة بالعقلية التى وصلت اليه واستطاعت أن تكون أمينة وهى تستشفه وتستوضحه وتصل الى كشف غوامضه ـ لاعتبر لونا من ألوان الوصول الحقيقى الى معرفة الوحدانية الحقيقية فى « الذات » ولكان فى برده الخالدة ما يسجل وحدانية خالصة وان خالطتها بعض الشوائب الهينة البسيطة التى لا يمكن أن تؤثر فى لب العقيدة أو تنفذ الى أصولها أو تغير من جوهرها النادر بحال من الأحوال ..

ولقد عرفت العقلية المصرية حقيقة العبادة ولم ترض الهبوط الى مدارك الوثنية وضلالات التردى فى المعتقدات فوصلت الى الحد الذى عرفت فيه أن العالم وما حوى من صنع « ذات خافية قادرة غير ملموسة » عينت هذه « الذات » تعيينا جعلته ممثلا فى « الشمس » واسمت الله فى هذه الحالة « رع » ..

وارادت فئة اخرى من اهل البلاد أن تخرج على اجماع بعض غرمائها طمعا فى جاه أو عرض من عروض الدنيا فوصلت الى معرفة هذه **« الذات »** نفسها ولكنها تخيرت لها اسما آخر كان هذا هو عين ما فعلته فئة ثالثة وهكذا ..

لقد تعددت المسميات وكثرت وما عنت فى كثرتها الا شيئا واحدا!

وما حددت غير ((ذات واحدة)) هى ذات الله الذى أوجد هذا العالم والذى اراده البعض ((رع)) وناداه الآخرون ((بتاح)) وسمته فئة ثالثة ((آمون)) .

والى هذه القوة وحدها .. أعنى الى هذا الاله الواحد توجهوا بالأدعية والتوسلات ومن أجله أقيمت المعابد وله صلى الناس وسجدوا وحجوا الى باحته ((الصورية)) وقربوا له القرابين والهدايا ..

تلك هي العقيدة المصرية القديمة فى الله وتلك هى نظرتها الى الدين والعبادات ..

اله واحد له القدرة على الخلق والصنع ثم .. رموز لآلهة صغيرة تابعة ليس لها أكثر من أن تقوم بتنفيذ أوامره ..

والاعتقاد فى الشمس بالنسبة للمصريين : وحدانية راقية الى حد بعيد لاصلة بينها وبين الوثنية .. أما الآلهة الأخرى فلم تكن فى كل العصور الفرعونية حتى نهايتها ــ أكثر من رموز لا قيمة لها ولا معابد ولا كينونة على الاطلاق ..

ولايضاح ذلك نقول انه لم يقم فى اى بقعة من البقاع معبد لـ ((شو)) أو ((جب)) أو ((نويت)) أو ((نفثيت)) أو ((أوزوريس)) نفسه اللهم الا بضع نصب كانت بمثابة قرابين أو هدايا رفعها البعض اليه للزلفى أو للتقرب منه وجلب مثوبته ورضاه عنها فى عالم الأرواح حيث يحكم دنيا الظلام وحيث كانت مملكته التى اختارها ..

وحتى ((**حوريس**)) ابنه لم يشيد باسمه فى مصر معبد .. بل أقيمت له هو الآخر بضع نصب للاشادة بالعمل الجرىء الذى قام به يوم انتقم لأبيه من عمه اله الشر ((**ست**)) ولما كان **أوزوريس وايزيس ونفتيس وحوريس وانوبيس** من أبناء ((**جب**)) و ((**نويت**)) وهما الأرض .. ولما كان فى معنى تزاوجهما وانتاج بنين وبنات من هذا التزواج مايعنى أن الارض هى أصل المخلوقات وان من طينها سيكون البشر ــ فقد أبت ((**العقلية المصرية**)) التى وصلت الى هذه الدرجة من درجات المعرفة الكاملة الا أن تجعل هؤلاء الأبناء المقدسين أربابا فى عالم الظلام الذى تذهب اليه أرواح البشر بعد موتها لتجرى محاكمتهم ومناقشتهم الحساب لانهم خلقوا من معدن أبيهم الأكبر ((**جب**)) فهم أكثر ما يكونون اليه قربا واشد صلة من غيرهم ..

والمعنى المستخلص من هذا كله هو ان العقل المصرى القديم لم يرض الاعتراف بغير اله واحد وربما كان يعتبر بقية ((الآلهة المساعدة)) فى صف الملائكة التى تنفذ أوامر الرب ومشيئته وارادته بالخير أو الشر لعباده العديدين ..

ولئن تركنا ((التسسيع الالهى)) كما اعتبرته منف أو منافستها ((أون))

او غـريمتها ((**طيبة**)) . . وفـرغنا من بحثه وتحـديد صفات من فيه من الارباب ـ وجدنا انفسنا بعد ذلك امام مجموعة اخرى من الارباب التى اوجدتها الملابسات والظروف وعرفنا من بحوثنا انها ادمجت لمناسبات خاصة كانارة الهمم مثلا أو التحريض على عمل من الأعمال .

ولذا فقد كان من اللازم أن يكون هناك اله موكول اليه أمر الأخصاب والتناسل وآخر يعنى بشـئون الحـرب وحفـز الهمم وبث الشـجاعة فى القلوب وهكذا ..

وهذه المعبودات « الثانوية » فى مجموعها كانت تدور حول محور أصيل وتتفرع من أصل ثابت وتنسب أعمالها جمعاء الى المعبود القادر الخالق الذى اختلفت أسماؤه ودلت فى مجموعها على ذات واحدة . .

ومن كل هذا نستطيع أن نفهم أن العقلية المصرية كانت عقلية ماهمة وانها لم تنتنى الى حد تقديس الأصنام أو عبادتها ، وان النصب العـديدة التى امتلأت بها باحات معابدها الكثيرة لم يسجد لها الشعب فى يوم من الأيام .. بل كان يحـدث أحيانا أن ينظر اليهـا نظرة تقـدير ومهابة لأنها كانت تمثل شخصـية الفرعون أحيانا ، وهـو الذى كانت له فى نفوس المصريين مكانة خاصة .

ولقد ذكرنا قبلا ان رجال الدين على العموم وفى اقطار عديدة لا نخصص منها بالذات مصر . قد اضفوا على الملوك صفة القداسة ونسبوهم الى الآلهة لينالوا بذلك عندهم مكانة عالية وليظل سلطانهم الروحى على عهده فلا ينقصه أو ينقص منه ملك من الملوك ولـكى يحيطوا حـكامهم وفراعينهم بهالة من التقديس والربوبية فلا ترتفع اليهم عين منتقدة ولا يعلو فى حضرتهم صوت محتج ويطيعهم الناس طاعة عمياء .

ولقد كانت للملوك الفراعنة هـذه الصفة من صفات الانتساب فالحقت أسماؤهم بأسماء المعبود الأكبر واعتبروا مقتبسين من نوره مرعيين بحمايته تتولاهم عينه البصـيرة وتحميهم وتسـدد خطواتهم وتقودهم الى النصر ـ فليس بعجيب بعد ذلك أن يقـدرهم الشعب وأن ينظر اليهم نظـرة اكبار وتقديس لم تصل فى يوم من الأيام الى درجة السجود أو عبادة تماثيلهم التى ما أقاموها فى المعابد الا ليتزلفوا بها الى الارباب وليشعروها بأنهم معها وانهم أقاموا لها هذه النصب التى تمثلهم التمثيل الكامل . .

لم يصل الرقى الدينى بالعقلية المصرية الى هـذه الدرجة فحسب بل كانت على العهد بها من اللمعان والذكاء تبحث وتنقب فى أسرار الكون وغوامض الطبيعة لمحـاولة استجلائها وتعـرف اسرارها لتدعم بهـذه الأسرار ـ اذا ما وصلت اليها ـ اسس هذا الدين ..

ولقد افلح رجل الدين المصرى القديم فى تعرف اصول علم الفلك واستخدمه فى تعرف احوال الجو واختيار الاجواء المناسبة للزراعة والتجارة واستخدام السفن وتعرف ايام الفيضان وغير ذلك ... ولم يقف به العلم عند هذا الحد بل وصل به الى دراسة عالم الأرواح !!

وكان من اثر دراسة الكهان من رجال الدين لعالم الروح ومحاولة تفهم سرها أن عرفت مصر القديمة السحر ، واحسن رجال الكهنوت استخدامه .. فكان اداة من ادوات تأثيرهم الروحى ونفاذ سلطانهم الى القلوب ..

وكان الكهان يعتبرون السحر هبة من الهبات التى يمن الله بها على المختارين من عباده ، فكان لادعائهم هذا .. أثره فى النفوس التى آمنت بالسحر ، واقبلت عليه تطلب عنده الطب ، والشفاء ، والقيام بعمل المعجزات.

وسارت العقلية المصرية القديمة فى سرعة نحو الكمال واستطاعت أن تتعرف على عديد من اسرار الكون عميت عنها البصائر جمعاء وسبقت بها القرون التى تلتها والتى وقفت أمام ذلك العلم حائرة عاجزة ..

وظل المصريون على عبادتهم تلك ولم تتغير نظرتهم بمرور الزمن فى حين تبدل الحال بالامم الاخرى فاحقت عبادتها اوشابا ودخلت الوثنية بعضها .

وفى ذلك الوقت الذى انحطت فيه العبادات فى الأمم الأخرى .. كانت العقلية المصرية ترتقى ، وان لجأ بعض الكهان الى ايجاد طقوس غامضة استخدموا فيها بعض الطيور والحيوانات واعطوها صفة التقديس ونسبوها الى الأرباب « المساعدة » قائلين انها حيواناتها المفضلة لديها مثل **الصقر ، وأبى منجل ، وابن آوى ، والثور ، والبقرة وغيرها ..**

فى هذا الوقت من عصور الظلام التى خيمت على الكون ، كانت العقلية المصرية سائرة فى مدارج الرقى والتحضر والبحث والتقصى فيما وراء المادة من اسرار وما وراء ((الذات)) من غموض ..



القسم الثانى

كانت الوحدانية والتوحيد ـ كما ذكرت فى القسم الاول من كتابى هذا ـ معركة الفكر الانسانى منذ بدء الخليقه ، وكان العالم المحدود وقتها ميدان ذلك الصراع .

ولقد ظل الانسان على تخبطه وحبه للانطلاق والتحرر يفعل ما يشاء، حتى تداركته رحمة الله ورأت حكمته السامية جل وتعالى ، ألا يعذب الناس الا بعد ان يبعث فيهم رسولا يكون شهيدا عليهم اذا هم عصوه .

ولما كان الدين عند الله الاسلام .. والاسلام هو الرسالة الانسانية الكبرى التى كانت منبع الرسالات كلها .

فقد بعث الله ابراهيم لها رسولا وكانت صحفه أول الصحف المطهرة ، وكانت دعوته دعوة الامامة الكبرى التى تفرعت عنها على مدار الزمان شتى الدعوات ، فابراهيم اب الرسل وامام الهداة ، ومن نسله انحدر موسى وعيسى ومحمد امام الرسل وخاتم النبيين .

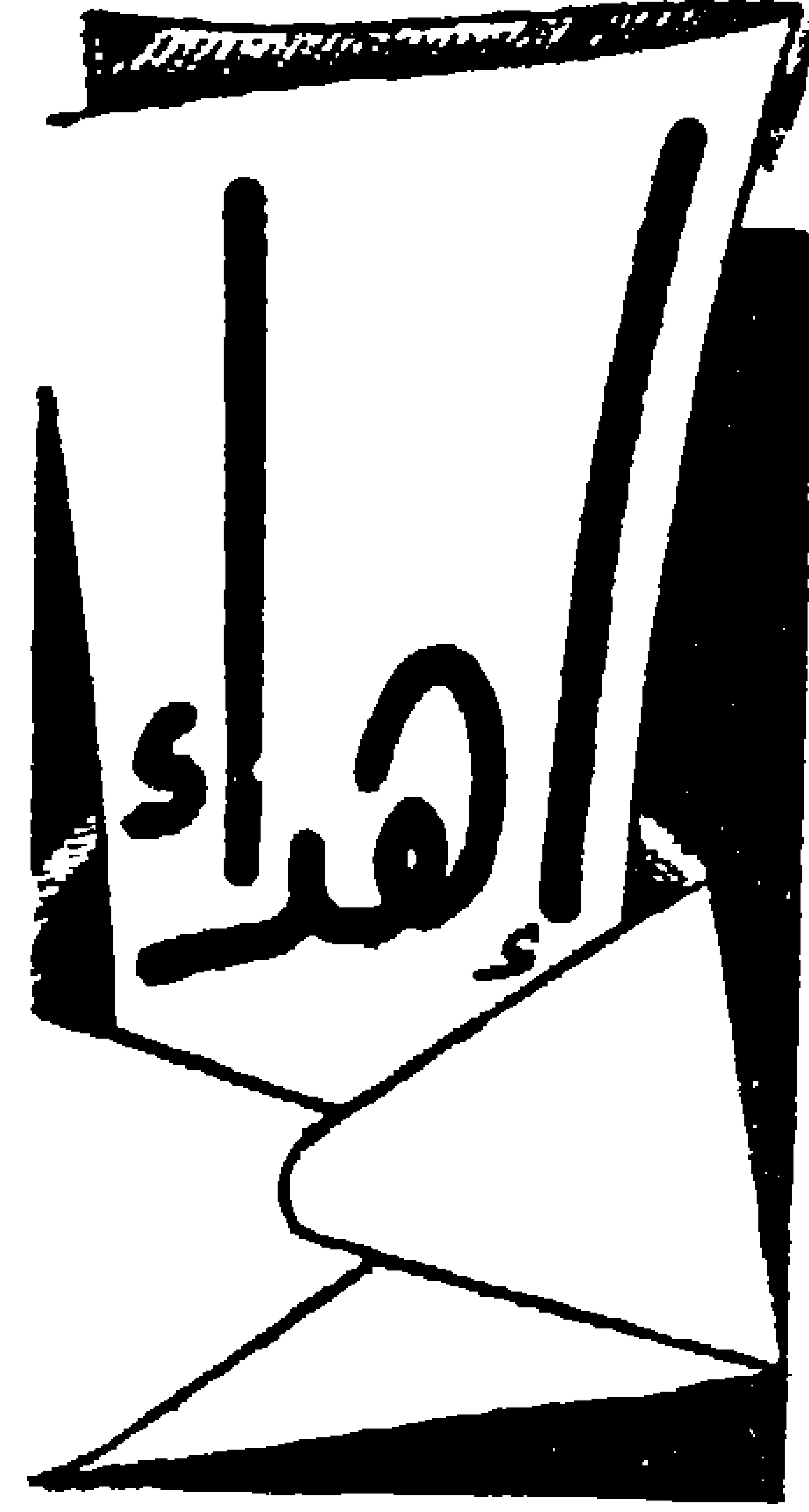
لقد خاض هؤلاء القادة الثوار بمفردهم معارك رهيبة ضد الجهالات وقوى الشر وجبروت الطاغوت وسائر العبادات ، خاضوها بقوة اليقين وثبات الجاش ونقاء القلب ، حتى كانت لهم الغلبة وكان لهم النصر ، وعلى أيديهم انتشرت أنوار الدين الحق والوحدانية المنزهة .

اننى اقدم على هذه الصحائف صورا مضيئة نورانية ، واستعرض مواكب نور متوالية ألفت من اشعاعاتها وأنوارها ، أضواء لها قداستها ولها بقاؤها على الفكر الانسانى . بل فى قلوب البشر فى كل مكان ، فاليهم . أولئك الذين آمنوا واعترفوا بالوحدانية المطلقة أهدى هذه الصفحات المشرقة عن :

الرسالات الكبرى

بقلم

سنيه قراعة



الرسالات الكبرى ، منارات الهـدى ، ومشاعل العرفان ، وعلى عظيم مقامات أصحابها وجليل شأنهم وروائع جهادهم ، وما تحلوا به من إيمان عميق ، وصبر على المكاره ــ يجب أن تهدى الى صاحب كل رسـالة ، يفهم ما تعنيه الرسالات ، ويقدر مدى ما يتحمله أصحابها من أجل اتمامها كاملة غير منقوصة ليتحقق منها الخير كل الخير للناس جميعا .

فإلى زوجي أهدى الرسالات الكبرى .

اليك أنت يا سادن الخير فى محراب الانسانية ، يا من يرى الناس فيك دواما آيات النجدة والكرم والايثار .

اليك أنت يا من حاربت الأدواء ، وقهرت العلل ، وارتدت المخاطر أمام قدرتك العلمية ، وكفاءتك الفذة ، وأنت تجاهد وتناضل فى سبيل سلامة البشرية ، وتخفيف آلامها بكل أمانة ووفاء ، فكنت رسول رحمة وبشير خير وحنان .

اليك أنت ياروح النضال الانساني الكريم ، يا صاحب القلب الكبير ، والنفس العالية ، والضمير الحى .

اليك أنت يا من مددت لى يدك ، وكنت عونى فى جهادى ، وساعدى فى تكريس حياتى للفن والأدب والبحث والاستقصاء .

اليك أنت يا من علمتنى كيف أعمل مخلصة لفنى بعيدة عن أضواء الدعاية وبريقها الكاذب الذى يخدع العيون ويضلل الأبصار .

اليك أنت يا من كان جهـاده المستمر ، دفعا حفزني على أن أجد فرصا جديدة للجهاد في مجالات الفن والبحث والدراسة والتعمق الطويل ، فملأت بهذا فراغ حياتي بما نفعني ، وما أحاول أن أنفع به الناس حتى اذا ما انتهى يومك الشاق ، ويومي المرهق تلاقينا على شوق ليقص كل منا على صاحبه مجهـود يومه وما حققـه فيه من خير للانسـانية والناس في عالمي الفـكر والحياة ...

اليك أنت يا من علمتني بعسكريتك الصلبة كيف أجعل من نفسي جندية واعية في خدمة رسالتي الأدبية فمنك تعلمت الكثير .

اليك أنت يا من هيأت لي من الامكانيات الأدبيـة والمـادية والوقتية ـ المقتطعة من واجبي نحو خدمتك والسـهر على راحتك ـ ما مكنني من كتابة هذا البحث ..

اليك أنت يا من صحبتني الى ميادين الاطلاع في مكتبات جامعات العالم وكبرى المكتبات في جميع مدن المـانيا وسويسرا وانجلترا وفرنسا والنمسا وايطاليا والفاتيكان في روما لأتعمق واستكمل دراستي عن تاريخ أصحاب الرسالات الكبرى . حتى أوفيهم حقهم وألم بمناحي العظمة في جهادهم من شتى نواحيه المتعددة ، لأقـدم الصـدق البعيد عن الزيف ، والحق المنزه عن التحيز .

اليك أنت .. أيها الراعي الساهر أهدي هذه القطرة من بحر فيضك ، فتقبلها ، ففي قبولك لها ، ما يسعد من أسعدتها ..

انها لك .. وانك لجدير بالاهداء فان ما لك عندي لا تسعه صحف ولا يمكن أن يسطره بيان .. الى زوجي وشريك حياتي :

الجراح اللواء طبيب عبد المجيد شهدي

دليل عرفان وآيات اقرار بسابغ الفضل وخالد الجميل ...

زوجتك

سنية قراعة



« وجاءوا أباهم عشاء يبكون : قالوا يا أبانا انا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فاكله الذئب ، وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين ، وجاءوا على قميصه بدم كذب ، قال : بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون .

(سورة يوسف) (الرسالات الكبرى)

الصحف الأولى

« وجاهدوا فى الله حق جهاده ، هو اجتباكم ، وما جعل عليكم فى الدين من حرج ، ملة ابيكم ابراهيم ، هو سماكم المسلمين »

(سورة الحج)

بالوحدانية المطلقــة ، نادى نوح ، والى الايمان بالله وحده دعا .. وعلى سننته هذه سار الرسل أجمعون : هود وصالح وابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب ولوط ويوسف وذو الكفل وغيرهم ، فدعوا الى الله الحق ، الذى ليس كمثله شىء وهو السميع العليم ...

ثم خيمت الظلمات ، لأن رقعة العــالم بدات تتسع ، واخــذت البشرية تنمو ، وتتشعب الى قبائل وأوطان واناس لهم مذاهبهم ووجهات نظرهم واطماعهم التى خلقتها الظروف وأوجدتها الحاجة ...

ورغم تشعب المسالك بالبشرية النامية ، وما اعتور العالم من تطورات وتغييرات جوهرية أوجدتها البيئة وظروف العيش وطبيعة المنــاخ ــ فان البشر جميعا لم يتفقوا على شىء قــدر اتفاقهم على ان العــالم تسوده قوة كبرى ، واجبة الطاعة ، وان على الناس أن يخشوها أجمعين ...

أما ما هى هذه القوة ؟ أو أين تستقر ؟ فذلك أمر تركه الناس الى اهل الكهانات من رءوس الضــلال الطامعين ، فــراح كل يخلق حسب أهــوائه معبودا ، يدعو اليه ، ويتعالى به ويسود الناس عن طريقه ...

وهكذا ضلت البشرية ... وخيمت الظلمات على العقل الانسانى .. ولم يعد للتوحيد وجود ظاهر ، كما لم يعد للعبــادة نفســها الجــلال الذى اراده لها الحق جل وعلا ...

وخيمت شرعة الجهل ... وتحكم الافك والبهتان والزور ... واختفت الرسالات القــديمة السامية ... وضاعت معها الفضــائل جمعاء ، حتى أصبح البشر قطيعا من السائمة ، يأكل ليعيش ويلهو ويعتــدى ويطأ المثل العليا ، ولا يعرف ماهية السمو والاستقرار ! !

اذا ... فلا بد من تطور جذرى ... من ثورة تقلب الأوضاع وتهدم ما لا ينفع ، وتقيم ما ينتفع به البشر وتضمن للبشرية السعادة والبقاء ! !

لابد من دين ...

والدين ثورة ترقى بالعقل البشرى الى حيث اراد له الله أن يكون ... ثم انه بعد هذا دعوة الى التحرر من الوهم والأباطيل والاستمساك بالحق والمنطق ، والايمان بحرية الفكر ؟ فلا سلطان لأحد على أحد الا فى حدود ناموس وشريعة وقانون متعارف عليه ، يقره العقل ويرضاه الوجدان ، ويرى فيه سلما الى المعالى والرفعة والكمال !

لابد من دين ...

ولاقرار الدين ، وانتشاره والالتفاف حواليه ، لابد من الطاعة ... والطاعة أمر يجب الخضوع له دون جدال !

والطاعة المطلقة كانت الكلمة الأولى ، والأمر السماوى الخالد الذى نزل على البشر منذ آدم عليه السلام ... فبالطاعة أمر الله خلقه جميعا .. وفرض عليهم عبادته ، تفسيرا لحكمة وجوده ، فقال سبحانه : « **وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون (!) ما أريد منهم من رزق ، وما أريد أن يطعمون (!) ان الله هو الرزاق ، ذو القوة المتين » !**

والعبادة خشوع واخلاص وايمان بالغيب ، يخلق صلة وثقى بين العابد وربه العظيم ، قوامها بعد « **الوحدانية المطلقة** » المنزهة عن كل شرك ــ اقامة الصلاة ، وايتاء الزكاة ، وعمل الخير ، واجتناب الشر والاستمساك بكل فضيلة تقربه من الله ربه وخالقه !!

والانسان ، أفضل خلق الله على الله ، وآثرهم عنده سبحانه وتعالى .. خلقه ليكون له فى الأرض خليفة يعمرها وينشىء فيها شجرة الحياة والاستقرار .. وسخر له كل ما فى الوجود من ظواهر وآيات ، وأخضعها لسلطان عقله اللماح ، وفتح له آفاق المعرفة والخبرة والعلم : « **الذى علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم » !**

لقد سخر القادر جل وعلا ، للانسان الذى كرمه ، وخلقه فى احسن تقويم ــ الشمس ، والقمر ، والنجوم ، والجبال ، والبحار ، والأنهار والأمطار ، والزروع ، والأزهار ، والدواب والأطيار .. وأعطاه من كل شىء سأله :

« ألم تروا أن الله سخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض (؟!) واسبغ عليكم نعمه ، ظاهرة وباطنة » ؟ !

« وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها (!) ان الانسان لظلوم كفار » !!

صدق الله العظيم ! فبرغم هذا الكفران البين والعقوق الظاهر ، وسعته رحمة الخالق وظلله عفوه وكرمه ، واعطاه الفرصة بعد الفرصة ليتوب وينيب :

« ان ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم (!!) وان ربك لشديد العقاب » !!

وابى الرحمن أن يعذب ، حتى يبعث رسولا ، يهدى وينير السبيل ويرشد العقل الى حقائق الوجود :

« وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » !

وجاء رسل بعد رسل ... وضاعت بين عقوق البشر وكفرانهم ديانات بعد ديانات ، وبقى الانسان على حاله من التمرد والحيرة والشك والقلق بين الظواهر جمعاء : **« كلما جاء أمة رسولها كذبوه » !!**

لقد كانت الرسالات التالية لرسالة نوح رسالات مركزية ، محدودة الميدان ، لضيق الرقعة وقلة العمران والناس بعد الطوفان .. حتى اتسعت المعمورة وكثر الناس ، فبعث الله بنبيه « هود » ثم « صالح » .. حتى جاء « ابراهيم » فكانت الرسالة « المكتوبة » فى الصحف ..

« صحف ابراهيم ... » ولكنها كانت تضيع مع الزمن ، وتزول بزوال صاحبها ومن تبعوه ، وتقلص ما كان لهم من سطوة زمنية وسلطان دينى ..

واصبح لزاما ، ومسايرة للواقع ، الا تكون رسالة الهدى مقصورة على قرية دون قرية ، أو شعب دون شعب ، بل دعوة رفعة وكمال للناس جميعا ، وأن تكون هذه الرسالة السامية حجة على الناس ، حتى لا يخرجوا عليها بعد ذلك ، ويقول جهالهم ، هكذا وجدنا آباءنا الأولين ... فكانت الشريعة الثابتة فى كتاب مبين ، وكانت فى صورتها الجديدة أشبه بالتعاقد الواجب الاحترام والتقديس ...

ولقد هدى الحق الى ذاته خليله ابراهيم عليه السلام ، وجعله بالعقل الثائر المتحرر يرقى الى الكمال ، ويصل الى مدارج الحقيقة النورانية ويؤمن بالله عن يقين وثقة ، وهو يرى آيات الخلق الكبرى الناطقة بوجود الله المقرة بعظمته ، الدالة على جلاله ، المشيرة الى قدرته العظيمة التى لا تحدها حدود والتى تقول للشىء كن فيكون .

وتفتح قلب ابراهيم لنور الحق ، ومن الله عليه برسالته ، وآتاه البينة ، وأمره بأن يدعو قومه الى الكفران بالسيارات والهياكل والاصنام ، فخرج اليهم فى جراة ، وعلا صوته فى جلال واعتداد ، وكان بينه وبين الفئة الظالمة منهم ما كان وما سبق أن ذكرناه .

وابراهيم ، حين خرج أول ما خرج الى قومه برسالته ، كانت الدعـوة نفسـها ـ كسائر دعوات الرسالات التى سبقتها ــ دعوة محدودة منطلقة من نفس الأرض ، موجهة الى قوم معينين ، تضمهم بقعة من الأرض لا يتعدونها ، ولا تتعداها الرسالة التى جاءت اليهم على لسان أحدهم وابلاغها .. مثل نوح الذى أرسله الله الى قومه ، وهود الذى بعثه الله الى عاد ، وصالح الذى ارسله الحق الى ثمود ، وشعيب الذى قام فى مدين رسولا ..

على أن تنتشر من هذه البقعة الى سائر المعمورة ، لتكون حجة الله قائمة على عباده جميعا يوم الحساب ، الذى لن يعفى منه مخلوق قط ! .

« رسلا مبشرين ومنذرين ، لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل »!

ولكن ابراهيم خرج بعد ذلك من موطنه الاصلى مهاجرا بدينه .. متنقلا فى أرجاء الوطن الكبير بين الشـعوب المتعددة ذات الحضـارات والديانات الكثيرة ، فرأى العجب العجاب من هذا التردى فى الضلال حيثما سار ! وعلا صوته داعيا الى الله الفرد مبشرا بالوحدانية المطلقة مطالبا بترك عبادة الأوثان والشخوص وعدم اتباع الضالين المضللين ! .

وجادل ابراهيم وجاهد .. وكانت له مـع أصحاب الراى والـكهانات مواقف وصراع .. وايده الله بالحق ، وآتاه الحجة على الناس ، فاستجاب له من استجاب ، واعرض عنه من اعرض ، فلم يوقفه الظفر فى الأولى عـن متابعة ابلاغ الرسالة ، ولم يثنه الاعراض فى الثانية عن الاستمرار فى الدعوة .. وظل يجول هنا وهناك حتى استقر به المقام حيثاراد له الله أن يستقر مع أهله وهو يومها وحيد لا ذرية له ، ولا أحد معه غير سارة وهاجـر وقلة من الاهل تبعته حيث تنقل ..

ومع الاستقرار الجديد ، عاود ابراهيم دعوته ، وعلا صوته بدعوة الحق الصراح ، ونادى بالحنيفية السمحاء ، ونادى بالاسلام دين الفطرة العظيم ، مستجيبا فى ذلك الى ربه الذى قال له :

« اسلم » ..

« قال أسلمت لرب العالمين » ..

وبشر الشعوب بالاسلام ، دين السلام ..

فالاســلام دين الفطرة ، عليه هبط آدم من جنان الخـلد ، وفى سبيله ناضل نوح ، ومن أجل انتشاره بين الناس جاهد الرسل الكرام فى أقوامهم ، فهو دعوة الحق ، والقول بغيره من مسميات ، ابتدعتها الكهانات وأصحاب الضلال ، زورا وافكا وبهتانا ...

بالاســلام جاء ابراهيم ، وبدعـوته السمحة أمره الله ، وامر ذريته من نوح ومن أجل انتشاره بين الناس جاهد الرسل الكرام فى اقـوامهم ، فهـو

دعـوة الحق ، والقـول بغيره من مسميات ، ابتدعتها الـكهانات واصحاب الضلال ، زورا وافكا وبهتانا . .

بالاســلام جاء ابراهيم ، وبدعـوته السمحة امره الله ، وامر ذريته من بعده ، وقد ارادهم ائمة للناس أجمعين . .

فالاسلام هو الشريعة الأولى ، ودعـوته اول سطـور خطت فى الصحف السماوية العظمى ، التى هى أصل كل شريعة ومنبع كل دين سماوى . .

ومن الله سبحانه وتعالى على ابراهيم وولده بما سألاه ، وبانت معـالم طريق الهدى الذى يجب أن يتبعه الناس اجمعون . . واصبح لدعوة الوحدانية المطهرة اسما ثابتا هو ((**الاسلام**)) . . دين الرحمة والعدل والتوحيد . .

وكان الاسلام هو الأساس المدعم الذى قامت عليه الشريعة السمحاء ، ومن أصول دعوته استمدت كل فضيلة وجودها الثابت ، فهو الاسلام ، وهو السلام ، وهو الايمان بالغيب ، واسلام النفس الى الله مصرف الامور ، الذى هو على كل شىء قدير . .

وعـرفت البشرية ماهية دعـوة ابراهيم ، وارتبطت القلوب بالصحف الأولى ، وقد جاءت بدعوة الاسلام ، الذى عرف الناس اسمه ، وآمنوا به ، والتفوا حول تعاليمه وارتبطت به المصائر والاقدار . .

وتم ترميم البيت العتيق ، الذى تهدم بعضه أثر الطوفان الذى حدث فى عهد نوح عليه السلام . .

((واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل . .))

والبيت العتيق . . أول بيت بنى للعبادة ، ولاقامة شعائر الاســلام ، واصبح بحكم أولويته ومكانه مثابة للناس وأمنـا ، وقبلة يتجهون اليهـا ويتجمعون عندها ويولونها ماهى جديرة به من تقديس وتوفير . .

((واذ بوانا لابراهيم مـكان البيت ، أن لا تشرك بى شيئا ، وطهر بيتى للطائفين والقائمين والركع السجود)) . .

فالله الحق يوم بوأ لابراهيم مكان البيت ، فانما كان يراجع معه أصـول دينه ، ويمكنه منه ليريه مناسكه بعد ذلك ، وانه جل وعلا ليأمر ابراهيم الا يشرك به شيئا ، وهذا تجديد لدعوة الوحدانية ، والاقرار الصـادق بانه لا اله الا الله ، وحده لا شريك له .

ثم أمره بعد ذلك بتطهير البيت للقانتين والعابدين والطائفين به ، الذين يؤدون شعائر الله ويقيمون فروضه المقـررة ، وعمادها الصلاة التى يؤديها الناس وهم ركع سجود . . ومطالبا اياه بجمعهم فى قوله تعالى :

« واذن فى الناس بالحج ، يأتوك رجالا ، وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق » ..

وهنا يتبدى جلال « **الامامة** » التى خلق الله ابراهيم لها فى قوله تعالى : « **انى جاعلك للناس اماما** » .. ويتضح جلال معناها ، وهو الدعوة للتجميع والنداء فى الناس بالطاعة وسرعة الاستجابة للأمر الجديد ، وهو الحج الى بيت الله العتيق .

والحج كفريضة مقدسة ، امر ابراهيم بأن يؤذن بها فى الناس فيدعوهم لادائها — امر كان وقتها جديدا بالنسبة لكل الشرائع السماوية التى جاء بها الرسل قبل زمن ابراهيم ، ولم يحدث ان كلف رسول منهم بدعوة قومه الى الحج ، وفى هذا ولا شك مايعنى ان دعوة « **الامامة** » يجب أن تتحمل تبعات جديدة ، وتأخذ سمة مستحدثة تساير ما تعنيه هذه الامامة من تجميع الناس وتوحيد المذاهب وتقريب الأبعاد ، والحج الى بيت الله هو الوسيلة العظمى لكل هذا ولا جدال ، وان الله سبحانه ليقول فى تفسير معنى الحج لابراهيم :

« ليشهدوا منافع لهم ، ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فكلوا منها واطعموا البائس الفقير ، ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم ، وليطوفوا بالبيت العتيق » .

ومن هنا وضحت الرسالة .. وبدت طلائع الامامة ، وبان الغرض الأسمى من وجودها ، واختصاص ابراهيم بها ، وهى أن يجمع شعوب الأرض على دين واحد يحض على التطهر ، وينهى عن الرذيلة ، ويسوى بين الناس ، ويجمعهم فى أيام معدودة ، هى « **مواسم اللقاء** » الأخرى فتزول بينهم الفوارق الطبقية والاقليمية ويتبادلون المنافع والآراء ، ويترابطون بروابط الود وحسن الجوار ، وتنمو فى اعماق قلوبهم صلات الأخاء الانسانى القويم .

فالاسلام اذن .. كان دين ابراهيم .. وتعاليمه السمحاء كانت لب دعوته ، به نادى ، واليه دعا الناس كافة ، وبالاستمساك بعروته الوثقى أوصى بنيه جميعا .. أوصاهم بأن يكونوا مسلمين لله ، ومن ذريتهم أمة مسلمة اليه تعالى ..

« .. ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا ، أمة مسلمة لك ، وأرنا مناسكنا ، وتب علينا انك أنت التواب الرحيم ، ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم ، انك أنت العزيز الحكيم » !!

ثم لقى امام الناس والمسلمين ، وصـاحب الصحف الأولى ربه ، وخلف فى بنيه تركة مثقلة بالتبعات الجسام والمسئوليات العظـام كان عليهم عبء حملها عبر القرون وابلاغها الى الناس ..

((ومن يرغب عن ملة ابراهيم الا من سفه نفسـه ولقـد اصطفيناه فى الدنيا ، وانه فى الآخرة لمن الصالحين)) .

لقى ابراهيم ربه مسلما ، حنيفا متطهرا ، وترك اتباعه والمؤمنين به على دين الاسلام .

وورث اسماعيل واسحق الاسلام دينا والحنيفية عقيدة ..

وبهـذا اتم الله على البشرية نعمته ، وانزل فيهم صحفه الأولى ، وترك الأئمة الهادين يدعون الى الله : كى لا يكون للناس حجة بعـد ذلك ، أن هم اشركوا وكفروا وسجدوا لغير الله ..

وهكذا استقرت دعوة الاسلام فى خليفتى ابراهيم .. وعـرفها البشر ، وآمنت بها شعوب ، اتجهت الى الوحدانية المطلقة ، فعبدت الله وشهدت انه لا اله الا هو ، وراحت تمارس شعائر الدين كما جاء بها ابراهيم عليه السلام ، وتحرص على طاعة الله وتعمل على مرضاته سبحانه ، فاقامت الصلاة ، وآتت الزكاه ، واعطت كل ذى حق حقه ، فرعت السائل ، وبرت بالمحروم ، ووصلت الرحم ، وتعاملت بالحسنى ، وادت المناسك فى حدودها ، وحجت الى البيت العتيق ، الذى اصـبح المثابـة والامـن للناس اجمعين ، وطافت به فى أيام معدودات وافادت من حكمة تشريع الحج ، واستغلت مواسمه المقدسة اعظم واحسن استغلال ، وجعلتها مواسم حب واعياد رحمة وفرص تعـارف وتواصل وتدعيم صلات ..

وبقى اسماعيل حيث اراد له الله وانزله ابوه .. ونبه شانه ، لافى **((جرهم))** وحدها ، بل فى شتى قبائل الجزيرة جمعاء ، من شعوب آمنت بدينه وصدقت دعوته ، وبايعته على الطاعة واتباع ملة الاسلام .

وكان اسماعيل الفارس الجـرىء ، الذى صقلته الصـحراء ، وكونته بيئتها وميزته بما تميز به أهلوها ، ـ داعية صـدق ، أفاد من بيئته ودينه ، وافاض على من كانوا حوله من الناس الذين أحبوه وقدروه واستبشروا به ، اذ كان نزوله بينهم طالع استقرار وبشير تحضر وحياة ..

والتفت العشائر حـول اسماعيل .. وكان كما وصفه ربه : **((صـادق الوعد ، وكان رسولا نبيا))** ، حمل لواء الدعـوة الاسـلامية وبشر بالحنيفية القيمة .. ونادى باتباعها بين الناس .

وبقى اسماعيل الصادق وبنوه واهله حيث استقر بهم المقـام ، وزكت الحياة ، وطاب العيش ، وقامت الحضـارة الثابتة الاصـول فى صميم قلب الجزيرة العربية ، مستقر البيت العتيق ، أول بيت وضـع للناس ، ليذكر

فيه اسم الله وحده ؛ وليكون كعبة الموحدين ومتجه قلوبهم جميعا ، ومركز دعوتهم ومنارة امامتها العالية الذرى ومصدر اشعاعها الربانى الوضاء ..

وعاش اسحق فى بيته البعيد ، تجمعه باخيه الأكبر مواسم الحج والزيارة واداء شعائر الله فى بيت الله الحرام .. حتى راحت السنون تعدو فى سباق سريع لتطوى سجل الزمن ، فهبت رياح اثر رياح ، ثبت لها ابناء اسماعيل الذين روضتهم ضراوة الصحراء وعلمتهم الصبر والجلد على المكاره وتحدى الاحداث !.. وبقوا حيث هم متمسكين بأرضهم الغالية المقدسة ، لا يعدلون بجوار بيت الله ، ومزار المسلمين جوارا فى الوجود ..

* * *

وتعرض بيت اسحق لهزات بين ولديه ووريثيه عيصو ، ويعقوب .. ومرت به ظروف قلقة ! ثم ورث يعقوب اسحق وأصبحت له عزوة واولاد كثيرون .. فرقت بينهم « رؤيا » رآها يوسف ولده الأصغر فى نومه مما أوغر عليه صدور اخوته ، فكان أن تآمروا عليه واوقعوا به ، وابعدوه عن أبيه الشيخ الحزين ..

« اذ قال يوسف لأبيه يا ابت انى رايت احد عشر كوكبا والشمس والقمر ، رايتهم لى ساجدين » .

« قال يا بنى لا تقصص رؤياك على اخوتك فيكيدوا لك كيدا ، ان الشيطان للانسان عدو مبين » .

وكادوا له بالفعل وتآمروا على ابعاده ..

« وجاءوا أباهم عشاء يبكون ، قالوا يا أبانا انا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فاكله الذئب وما انت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين ، قال : بل سولت لكم انفسكم امرا ، فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون » !!

وبيع يوسف فى مصر .. دخلها عبدا رقيقا ، أيام الحكم الهكسوسى البغيض .. ومرت به أحداث بعد أحداث ، لم تعصف بايمانه ، ولم تبعده عن ملة ابيه الأكبر ابراهيم فظل مسلما حنيفا قانتا لله ، مؤمنا بقضائه وقدره ، معتزا بدينه ، مجاهرا بالوحدانية المطلقة حتى فى أحلك الساعات التى مرت به ..

ويوسف الصديق ، كان أول من جهر فى أرض مصر بالوحدانية المطلقة

لا كداعية لها ، بل على سبيل الاعتزاز بدينه يوم قال لصاحبى سجنه معرضا بدين الهكسوس :

« انى تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله ، وهم بالآخرة هم كافرون (!) واتبعت ملة آبائى ابراهيم واسحق ويعقوب ، ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء ، ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ، ولكن أكثر الناس لايشكرون (!) يا صاحبى السجن (!) أأرباب متفرقون خير (؟) أم الله الواحد القهار (؟!) ما تعبدون من دونه الا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ، ما أنزل الله بها من سلطان (!!) ان الحكم الا لله ، أمر أن لا تعبدوا الا اياه ، ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون » !!

وجزى الله يوسف بصبره ، ففرج كربته ، ومن عليه بانعمه ، وقضت ارادته جل وعلا ان يحقق له الرؤيا القديمة ، التى شهدها ذات ليلة ، وتفرق بسببها أبناء يعقوب وتآمروا وعصوا وغدروا بأخيهم ، وهو يومها غلام صغير لا حول له ولا قوة !!

وتلاقى واخوته وهم له منكرون ، ثم عرفهم بنفسه وطالبهم باحضار اهلهم وان ينزلوا أرض مصر ليستقروا فيها ..

« وقال : ادخلوا مصر ان شاء الله آمنين » ! !

وسجد الأحد عشر كوكبا وهم أبناء يعقوب ، والشمس والقمر وهما يعقوب وزوجه — سجدوا جميعا ليوسف يوم وفدوا عليه كأمره ، وهو يومها على خزائن فرعون .. وبعدها استقر الأسباط فى رحاب فرعون ، الذى أقطعهم اقليم « الجوشن » شرقى الدلتا ، وبسط عليهم رعايته جزاء لاخلاص يوسف وتفانيه فى خدمة مولاه ..

ومرت السنون .. وحضرت يعقوب الوفاة ، وتذكر وصية اسحق وابراهيم ، وأحس بوقر الأمانة على كتفيه ! .. وبدت له مسئوليات امامة الناس جسيمة ! .. ورأى نفسه وبنيه فى أرض غريبة ، صاحب السلطان فيها قوى البأس باطش عنيد ، له دينه وأربابه وسيادته ! ..

وخشى يعقوب أن تغمر لجج الأحداث تفكير بنيه ، وتبهرهم مظاهر الدين الغريب عنهم ، واسرع يوصيهم بنفس الوصية التى ورثها عن أبيه وجده الأعظم ابراهيم فجمعهم وقال لهم :

((ما تعبدون من بعدى)) ؟ !

((قالوا : نعبد الهك واله آبائك : ابراهيم واسماعيل واسحق ، الهـــا واحدا ، ونحن له مسلمون !)) .

وقرت عينا يعقوب بما سمع .. وارتاح ضميره ، وعرف أنه أورث بنيه ما سوف ينفعهم ويحميهم ، وانهم على علم بدينهم الذى هو الاسلام . وانهم مسلمون لله الحق الذى لا اله غيره ، رب ابراهيم جدهم ، واسماعيل صاحب الامامة والرسالة من بعد ابيه ، واسحق الأخ الأصغر لاسماعيل واب ابيهم **يعقوب** الذى هو ــ اسرائيل .. (١)

ولقى يعقوب ربه ولحق بأجداده .. وبقى بنوه فى مصر ، الى جوار يوسف الصديق البر الكريم ، المقر بنعمة الله وفضله عليه وعلى آله ، وانه ليهتف من أعماق قلبه العامر بالايمان والاسلام :

((رب : قــد آتيتنى من الملك ، وعلمتنى من تأويل الأحاديث ، فاطــر السموات والأرض ، انت وليى فى الدنيا والآخــرة ، توفنى مسلما والحقنى بالصالحين)) !!

وعاشوا أطيب حياة فى ظل عقيدتهم ، وتحت لواء الاسلام الذى جمعهم وبعد بهم عن غيره من الديانات ، فكانوا موحدين مسلمين ، يولون وجوههم الى الله الواحد الأحد ، ويقرون امامة أبناء عمهم اسماعيل ، ويعرفون شعائر عقيدتهم ومناسكها ، ومن أهمها ــ بعد الصلاة والزكاة ، وتجنب المحارم ــ الحج الى البيت العتيق فى أيام معدودات يتجمع خلالها شمل المسلمين وقد أتو ملبين دعوة الله من مشارق الأرض ومغاربها .

* * *

وفى قوم ((**مدين**)) علا صوت ((**شعيب**)) عليه السلام ويسميه المفسرون ((**خطيب الانبياء**)) لبلاغته فى القول وبراعته فى اقامة الحجة على الذين كفروا وكانوا يعبدون غير الله ، وكانت مدين تقع فى بلاد الحجاز مما يلى الشام على خط عرض يوافق خط عرض قفط فى البر الافريقى الى الجنوب من القصير فى الجهة المقابلة .. (٢)

---

(١) اسرائيل : اى ــ السارى بليل يوم خرج يعقوب هاربا من اخيه عيصو وقد باركه ابوه اسحق من دونه

(٢) قصص الانبياء للنجار .

وقوم مدين هم شعب **((مدين بن ابراهيم عليه السلام))** وقد ساء **((شعيبا))** كفرهم وسوء عملهم فى بخس الناس أشياءهم وعدم ايفاء الكيل والميزان حقهما فى البيع والشراء ، وكتاب الله الكريم يصف دعوة شعيب بقوله تعالى :

((والى مدين أخاهم شعيبا قال : ياقوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره))

((وياقوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا فى الارض مفسدين)) !!

((قالوا : ياشعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل فى أموالنا ما نشاء ..)) ؟!

وهكذا أعرض عنه البعض وناصبه العداء البعض الآخر ، وكان شأنه شأن من سبقوه من الرسل ، فلم يجد فى النهاية الا أن يقول لهم :

((ان أريد الا الاصلاح ما استطعت ، وما توفيقى الا بالله عليه توكلت واليه أنيب ، وياقوم لايجرمنكم شقاقى ان يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح ، وما قوم لوط منكم ببعيد ..)) !!

((قالوا يا شعيب ما نفقه كثيرا مما تقول ، وانا لنراك فينا ضعيفا ، ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزيز)) !!

((قالوا يا قوم أرهطى أعز عليكم من الله واتخذتموه وراءكم ظهريا ، ان ربى بما تعملون محيط)) !!

وهكذا ظل شعيب يحاجى قومه ودون جدوى حتى تكررت المأساة فى شعب مدين بأمر من الله ..

((ولما جاء أمرنا ، نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا ، وأخذت الذين ظلموا الصيحة ، فأصبحوا فى ديارهم جاثمين ، كأن لم يغنوا فيها ، الا بعدا لمدين كما بعدت ثمود)) ..

ومرت السنون ، وجاء بعد قوم مدين أقوام أخر ..

ولما كان الرسل والهداة جميعهم يعبدون للناس الطريق الى الله ، فقد تعاقبت الرسالات أمة بعد أمة ، وجيلا بعد جيل وكلها تهدف الى الكمال الانسانى والايمان بوحدانية الخالق ، **((وان من أمة الا خلا فيها نذير)) !!**

لهذا كانت اصول رسالتهم وعقائدهم الأولى واحدة ، لا تختلف رسالة عن الأخرى ..

وانقضى عهد قوم مدين ورسولهم شعيب بن صيفون بن غيفا بن نابت ابن مدين بن ابراهيم عليه السلام .

((ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا الى فرعون وملائه)) (١)



(١) سورة الاعراف



« وأوحينا الى أم موسى أن أرضعيه فاذا خفت عليه فألقيه فى اليم ، ولاتخافى ولا تحزنى ، انا رادوه اليك وجاعلوه من المرسلين ، فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا ان فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين ، وقالت امرأة فرعون قرة عين لي ولك ، لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا ، وهم لا يشعرون » (سورة القصص)

(الرسالات الكبرى)

موسى عليه السلام

« وآتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبنى اسرائيل الا تتخذوا من دونى وكيلا ، ذرية من حملنا مع نوح انه كان عبدا شكورا » .

(سورة الاسراء)

لقد انكر بنو آدم صحف ابراهيم وملته الحنيفية الطاهرة ، فلم يكن هناك بد من تهيئة الجو لصحف جديدة أخرى ، يأتى بها رسول جديد ..

ولما كانت ارادة الله سبحانه وتعالى قد قضت أن تكون النبوة فى ذرية ابراهيم فقد اتجهت اليهم حيث كانوا بمصر ، اذ أنهم برغم جهلهم بالماضى ووثنيتهم الحالية . على علم قليل بدينهم ، فهم حفدة ابراهيم الذى أوصاهم بالاسلام دينا والالتفاف حول ملته الحنيفية .

« ووصى بها ابراهيم بنيه ، ويعقوب ، يابنى : ان الله اصطفى لكم الدين ، فلا تموتن الا وأنتم مسلمون » ..

ولقد ترك بنو يعقوب ديارهم مع أبيهم « يعقوب » ـ السارى بليل والذى هو « اسرائيل » ـ وتبعوا أخاهم يوسف الى أرض مصر ـ وهم الاسباط الاثنا عشر الذين تفرعت منهم عشائر بنى اسرائيل .. فعاشوا فيها أعزة كراما ، يرعاهم الفرعون ويقدرهم الناس حق قدرهم . خاصة وأن فرعون مصر اطلق يد يوسف على خزائن الأرض ومكنه فيها ، فأولاهم يوسف كثيرا من رعايته وانزلهم فى أرض **«غسان»** جهة **«بلبيس»** قرب **«الزقازيق»** .

* * *

ومر الزمن وكرت السنون وكل شىء كما هو : أبناء اسماعيل فى جوار البيت . وأبناء أسحق ويعقوب فى أرض الغربة ..

وشغلت الدنيا أبناء يعقوب والهتهم مظاهرها عن الدين السمح ، فنسوا تعاليمه ودعوته ، فنسيهم الله ! وسلط عليهم من لا يرحمهم ، فاذا بهم يستحيلون عبيدا لفرعون ! وخدما رقيقا مهانا فى أرضه ، يتصرف فيهم كما

يشاء ويفعل بهم أعوانه ما يريدون : يستحيون نساءهم !! ويذبحون أبناءهم !! ويسيمونهم الخسف ويدوسونهم بالصغار جزاء وفاقا لما فعلوا ونسوا وصية يعقوب ، وتراخوا عن حمل اللواء من بعد ابراهيم ، مخلفين بذلك وعدهم لله ولأبيهم !!

لقد تغير الحال واذا بآل مصر يلحظون الاسرائيليين ــ وقد تكاثروا وزاد عددهم ــ يتجسسون على المصريين لصالح الهكسوس المرابطين على حدود البلاد ، فاعتبروا ذلك شيئا بغيضا بالنسبة لهم ؛ لأنهم غرباء عن أهل مصر الذين آووهم واكرموهم واستقطعوهم ارضهم فقابلوا الاحسان بالاساءة وعملوا جواسيس لاعدائهم من الهكسوس الغرباء ليمكنوهم من البلاد التى شاركوا أهلها العيش فيها ؛ ولم تستطع القرون التى قضوها فى مصر أن تغير منهم او تدمجهم فى القطر الذى نزلوا بأرضه ، فعاشوا فيه طوال هذه السنين غرباء : لهم عاداتهم وتقاليدهم ولغتهم وعبادتهم التى خرجوا بها على الاصل القديم ولم يحسنوا توارثها مع الأجيال .

وراحت العناية الربانية ترقب أولئك القوم وهم فى أشد حالات الضنك واسوا أنواع البؤس وأحلك ساعات الشقاء ، فهم على كثرتهم قلة بين المصريين ، وهم على نشاطهم لا يقومون بغير المهن الحقيرة وأعمال السخرة ، فشربوا كؤوس العذاب مترعة وأبى الحاكم أن يتكاثروا فراح يذبح ابناءهم ! خاصة وان عرافوه أخبروه : أن من بين هؤلاء الناس سوف يولد صبى سيعلو نجمه على كل نجم .. وسيقضى على مجد فرعون !!

فجاس جنوده خلال ديار اسرائيل ، وقتلوا كل مولود ذكر حتى لاتتحقق نبؤة العراف ! ..

وسرعان ما اتجهت عناية الله الى ذلك الشعب الذليل من حفدة ابراهيم وقد ذاقوا الامرين وباتوا لا يرقبون غير الخلاص من ربقة الاسر وذلة الاستعباد والهوان ، فقضى الله أن يحقق لهم فى دنيا الواقع ما كانوا يحلمون به ، حتى اذا مادعاهم الداعى الى تقديس القادر الذى أنقذهم اقبلوا على عبادته مخلصين له الدين .

ولقد كانت الوحدانية متاصلة فى نفوس هؤلاء القوم متغلغلة فى ارواحهم مخالطة لدمائهم وان اختفت وراء سجف الزمان ، فأراد الله أن يعود بهم الى ماتركوه بفعل كر السنين وتفشى الجهل ، فبعث فيهم من خير بيوتهم رسولا كريما ، يهديهم الى دين جدهم الأكبر ابراهيم ، ويرشدهم الى الوحدانية الخالصة لله وحده ، لا شريك له ولا صاحبة ولا ولدا ! ويذكرهم بما عاهدوا عليه آباءهم وأجدادهم من عبادة الله الواحد القهار ! .

وراى الزمن مولودا منهم ، تفلح امه فى الهرب به ..

« واوحينا الى ام موسى ان ارضعيه فاذا خفت عليه فالقيه فى اليم ، ولا تخافى ولا تحزنى ، انا رادوه اليك وجاعلوه من المرسلين ، فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا . ان فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين » !!

« وقالت امرأة فرعون قرة عين لى ولك ، لاتقتلوه عسى ان ينفعنا او نتخذه ولدا ... » !!

وشب الرضيع فى سرعة وسار الى مراحل الشباب ، وعرف ان أهليه من بنى اسرائيل وانه تسمى باسم « **موسى** » أى « **المنتشل** » ..

كما عرف ان اباه «**عمران بن قاهت بن لاوى بن يعقوب عليه السلام**» .

وتميز موسى بصفات خاصة لم تكن فى قومه ، فكان قويا شجاعا جريئا ، وكان يعرف الحق ولا يحيد عنه . ولقد دفع ثمن شجاعته هذه يوم انتصر لأحد بنى جلدته على احد المصريين وكانت النتيجة ان مات المصرى أثر وكزة من يد موسى !

وحل الغد .. ولقى موسى فى نفس الطريق صاحب الأمس يستنجد به مرة ثانية على مصرى آخر ، فغضب عليه واقترب منه ليرده عن غيه ويسأله الا يعود الى ايجاد أسباب للتشاحن مع الناس .. وخشى الاسرائيلى الجبان أن يفتك به موسى ، فصرخ واعترف بحادث الأمس الذى شغل بال جنود فرعون بحثا وراء القاتل !

وبدت الحقيقة .. ولم يجد موسى الا ان ينجو بنفسه ويسرع هاربا متبعا فى ذلك نصح بعض ذوى الرأى ..

وترك موسى « تانيس » الى برية سيناء الشاسعة وهو خائف يترقب ..

ومرت به أيام وليال قاسية وصل فى نهايتها عند أبواب مدينة عامرة وجد اهليها يتزاحمون للسقيا عند عين ماء : « **ووجد من دونهم امرأتين تذودان ، قال : ماخطبكما (؟ !)**

قالتا : لانسقى حتى يصدر الرعاء ، وابونا شيخ كبير (!!)

فسقى لهما ، ثم تولى الى الظل فقال : رب (!) انى لما انزلت الى من خير فقير » !!

وظل موسى حيث هو .. ومر الوقت حتى تولى الناس عن عين الماء وبدات تلك البقعة التى كانت مزدحمة تقفر ممن فيها ..

واحس موسى وهو مكانه بمقدم عابر سبيل واذ رفع رأسه ليتبين ذلك

تقدم رأى احدى الفتاتين اللتين سقى لهما وهى قادمة اليه . ((**تمشى على استحياء**)) فلما وقفت بين يديه .

((قالت : ان أبى يدعوك ، ليجزيك أجر ماسقيت لنا)) ! .

ووجد موسى نفسه يطيعها .. وقام تاركا مكانه وتبعها ...

***

ووصل موسى الى بيت الفتاة .. ولقيه أبوها الطيب شيخ مدين وحكيمها ، فاكرم لقاءه وأقبل عليه يستوضحه أمره ، ليعرف من هو ؟ وما سر مقدمه الى مدين ؟ .

وقص موسى قصته على مضيفه الذى أصغى اليه جيدا ، ثم قال له **((لا تخف نجوت من القوم الظالمين)) ! !**

واضاف الشيخ الطيب موسى لمدة أيام ليأخذ راحته ثم يقرر بعدها اى طريق يسلك .

وحدث خلال فترة الضيافة أن قامت برأس ابنة الشيخ التى استدعت موسى فكرة أحبت أن تصارح والدها بها ، فذهبت لتسر اليه بالأمر وتحدثه عن الضيف :

ـ ((يا أبت استأجره أن خير من استأجرت القوى الأمين)) . !

وراقت الفكرة للشيخ واعجب بصائب نظرة ابنته ... وأراد ان يجعل من ضيفه أكثر من مجرد أجير ، وأن يربط به .. وأى رابط أقوى من ان يزوجه احدى ابنتيه ليكون واحداً من أهله ؟ .. فقال له :

((انى اريد ان انكحك احدى ابنتى هاتين ، على ان تاجرنى ثمانى حجج ، فان اتممت عشرا فمن عندك ، وما اريد ان اشق عليك ! ستجدنى ان شاء الله من الصالحين)) .

وتقبل موسى عرض الشيخ بقبول حسن وقال :

ـ ((ذلك بينى وبينك ، ايما الأجلين قضيت فلا عدوان على ، والله على ما نقول وكيل)) .

***

ولقد كان يحدث احيانا أن يذكر الاسرائيليون فى أحاديثهم ولدهم الجرىء موسى الذى تربى فى قصر فرعون ، والذى خرج من البلاد خائفا يترقب وهو يخشى القصاص والفتك به ، لانه انحاز الى أحد بنى جلدته فقتل من اجله مصريا كان يخاصمه .

كانوا يذكرون موسى فى بعض الاحايين ويذكرون مدى حمايته لبعضهم ، ثم يأسون من اجله ومن أجل المصير الذى سار اليه إذ مرت السنون واختفى كل اثر له وباتوا لا يعرفون عنه شيئا .

وحل الوقت المرتقب .. وخرج موسى واهله من ارض مدين وأمامه ثروته من الأغنام يرعاها . فظل سائرا يضرب فى الأرض ، بحثا عن بقعة خصبة يتخذها مستقرا له ولأهليه .. وظلت يد القدر تدفعه حتى دخل البرية وهو يجهل الى اين كان يسير ..

وابرنت الدنيا ذات مساء واشتدت ظلمتها وضل موسى الطريق فى البرية ، فحط رحاله وظل حيث هو الى جانب أهليه وأغنامه ، يرقب مطلع أضواء الصباح كى يستأنف من جديد سيره ..

ومرت ساعات فى ذلك الليل البهيم الذى امعن فى ظلمته وتغالى فى رهبته وموسى جالس مكانه وعصاه فى يده يرقب ويحرس وينتظر طلوع النهار ..

وخيل الى موسى انه يرى على البعد شيئا .. شيئا يلمع كالبرق ثم يختفى ، فاطال النظر ناحيته .. ولم تلبث النار أن بدت له عن بعد وقد تعالت ألسنتها نحو السماء ، فارتاح الى مرآها اذ كان فى ظهورها ما يعنى ان حواليها قوما ..

واستقر بموسى — الذى طال به أمد السفر وبرم بالتجوال على غير هدى — استقر به الراى على ان يسرع الى هؤلاء القوم ليتعرف عليهم وليعرف فى اى طريق هو سائر ..

وارتاح موسى الى هذه الفكرة ولم يلبث أن صارح بها اهله ، فطلب منهم ان يمكثوا حيث هم فى انتظاره وقال :

((انى آنست نارا ، لعلى آتيكم منها بقبس ، أو أجد على النار هدى)) !

وترك موسى مكانه وخلف وراءه أهله فى تلك الدجنة وهو يرجو أن يعود اليهم بالخير ..

وامعن موسى فى السير وتوغل فى الظلام ليصل الى حيث النار التى كانت تبدو له عن بعد ، غير عابىء بأهوال الطريق وبعد الشقة ورهبة الليل ..

وشارف موسى النار .. ولما اقترب منها ارتجف بدنه وسمع صوتا ليس كمثله صوت اضطربت له السماء وزلزلت الأرض يهتف باسمه مناديا :

— ((ياموسى)) ! !

وكاد الساحر بظلمة الليل يقع حيث هو ويموت من الجزع والخوف وتولته غاشية نسى معها كل ما حواليه الا ذلك الصوت ذا الارنان الذى لا شبيه له وقد استمر يقول :

« انى انا ربك ، فاخلع نعليك انك بالوادى المقدس طوى » .

واهتز جسد موسى وسجد قلبه وخشعت جوارحه .. وأرهف السمع وهو يخلع نعليه وقد داخلته اضواء معرفة قدسية وجلال ربانى ، وراح يصغى الى الصوت الالهى وهو يدوى فى جنبات نفسه ويهز كيانه هزا :

« وانا اخترتك ، فاستمع لما يوحى » ...

وظل موسى خاشعا يترقب سماع الأمر :

« اننى انا الله ، لا اله الا انا ، فاعبدنى واقم الصلاة لذكرى » ! !

وتذكر موسى ما كان يروى عن الرسالات الكبرى للأولين ، وادرك ان هذا هو الشطر الأول من الرسالة ، وهو ارشاده الى الحقيقة التى ضل فى تعرفها وجدانه ، اذ كان على دين قومه لايعرف ربا غير معبوداتهم ، ولم يسمع بالوحدانية من حبر من أحبارهم .. أما الآن فقد هداه الحق وارشده الى ذاته وأمره بعبادته واقامة الصلاة لذكره ..

وراحت القدرة تبلغ بقية الرسالة وتشرح لمن سيحمل على كتفيه أعباءها ما هو فى حاجة الى تفهمه :

« ان الساعة آتية اكاد اخفيها ، لتجزى كل نفس بما تسعى ، فلا يصدنك عنها من لايؤمن بها واتبع هواه ، فتردى » ! !

وكان فى هذا « **الأمر** » الثانى تكليف له يضاف الى التكليف الأول ويرشده الى حقيقة لم يكن يعرفها ، وهى « **عقيدة البعث** » التى كانت معروفة فى مصر القديمة ، ومجهولة لحفدة اسرائيل ، فطلب جل وعلا من رسوله أن يعرف ان هناك « **بعثا ونشورا** » وان الحكمة الربانية اخفت موعده لتنال كل نفس ما هى جديرة به من خير أو شر ..

وكلفه فوق ارشاده الى « **البعث وقيام الساعة** » بألا يركن الى أولئك الذين خيل اليهم أن الموت نهاية الحياة وانه لا بعث هناك ولا حساب ..

وهكذا اوضح الله لموسى حقيقة « **التوحيد** » و « **البعث** » و « **الجزاء** » فى الحياة الآخرة .. ثم ولحكمة أخرى ، ساله سبحانه :

« وما تلك بيمينك يا موسى » ؟ !

وكانما كان السؤال مفاجاة لموسى ، اذ قال فى اضطراب يجيب ربه :

« هى عصاى (!) اتوكأ عليها ، واهش بها على غنمى ، ولى فيها مآرب اخرى » !!

« قال : القها يا موسى » !!

« فالقاها ، فاذا هى حية تسعى » ! ! فتراجع فى ذعر ودهشة اذ رأى عصاه تهتز كأنها جان ، فجرى بعيدا فناداه الله :

— « خذها ولا تخف ، سنعيدها سيرتها الأولى » !

واقبل موسى على العصا التى عادت كما كانت فأخذها كما أمره ربه ..

ثم .. راح ينصت مرة أخرى الى امر آخر صدر اليه :

« واضمم يدك الى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء ، آية أخرى ، لنريك من آياتنا الكبرى » !!

وأدخلَ موسى يده ، فى جيبه واخرجها .. فاذا هى بيضاء نقية من كل داء كما قال له ربه ، فهدأت نفسه واطمأن قلبه .. وعرف الحكمة من اعطائه هذه المعجزات ، وادرك موسى ان هناك رسالة كبرى سيكلف بحملها وغمره شعور قدسى عندما قال له ربه :

« اذهب الى فرعون انه طغى » ! !

ورنت كلماته تعالى فى خيال عبده موسى رنينا رده الى الماضى ، فمرت امام عينيه فى تلك اللحظة صورة لحقيقة قديمة افزعته .. وذكرته بيوم خرج من مصر هاربا بعد أن قتل أحد المصريين بغير قصد .. ووجد نفسه يعترف لربه بخشيته من الذهاب الى مصر ، لأن لفرعون عنده ثأرا قديما والقصاص مازال يتبعه ، فاذا عاد اليهم قتلوه بالمصرى الذى قتل ! !

وفى صوت يملؤه الخوف قال : **« رب انى قتلت منهم نفسا ، فاخاف ان يقتلون »** ..

ولكن الله ادخلَ على قلبه طمانينة وهدوءا جعلاه يقول متوسلا :

— « رب اشرح لى صدرى ، ويسرلى امرى ، واحلل عقدة من لسانى يفقهوا قولى ! واجعل لى وزيرا من اهلى : هارون اخى ، اشدد به أزرى ، واشركه فى امرى ، كى نسبحك كثيرا ، ونذكرك كثيرا ، انك كنت بنا بصيرا ».

وافاض المنان فى كرمه وعظيم مننه فأجابه بقوله :

— « قد أوتيت سؤلك يا موسى » !

ثم راح تعالى يذكره بقصة مولده ونشأته وحياته حتى هذه اللحظة التى يقف فيها بين يدى ربه الأعلى فقال جل شأنه :

« ولقد مننا عليك مرة اخرى ، اذ اوحينا الى أمك ما يوحى ، ان اقذفيه فى التابوت ؛ فاقذفيه فى اليم ، فليلقه اليم بالساحل ؛ يأخذه عدو لى وعــدو له (!) والقيت عليك محبة منى ولتصنع على عينى ؛ اذ تمشى اختك فتقول هل ادلكم على من يكفله (؟!) فرجعناك الى أمك كى تقر عينها ولا تحزن ، وقتلت نفسا فنجيناك من الغم وفتناك فتونا (!!) فلبثت سـنين فى أهل مدين ثم جئت على قــدر يا مــوسى ، واصطنعتك لنفسى (!!) اذهب أنت واخوك بآياتى ولا تنيا فى ذكرى » !!

وكان أمر الله لموسى وقد استجاب لرجائه ـ ما جعل موسى يستشعر الرضا ويحس بالأمن والهدوء ؛ اذ أراد أن يكون هارون الى جانبه لأنه أفصح منه لسانا ؛ ولأنه ربما يكون فى سنى غربته وتركه مصر قد نسى الى حدما ، لغة أهلها ومال لسانه الى لغة « **مدين** » أو تكون لهجته قد أصبحت غريبة عنهم ..

وكلف الله موسى التكليف الأساسى فى رسالته تلك التى سـوف تكون المعبر الأســـاسى لمعجزة كبرى من معجزات الله فأتم بذلك الطور الثانى للرسالة الكبرى والتكليف الثالث الذى لم يكن هذه المرة لموسى وحده .. بل لهارون معه ؛ اذ اشركه الله مع أخيه فى الأمر وجعله وزيرا له وأمــرهما أن يذهبا بآياته والا يتكاسلا فى ذكره بقوله لهما :

« اذهبا الى فرعون انه طغى ! فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى » !!

وخشى الاخوان مغبة مغامرة الذهاب الى فرعون الجبار الطاغى برسالة مثل هذه ، ولم يلبثا ان اعترفا لربهما :

« قالا : ربنا اننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى » !!

وبعث الله الطمأنينة بكلماته الى قلبيهما :

« قال لا تخافا ، اننى معكما اسمع وأرى ، فاتياه فقولا : انا رسولا ربك فارسل معنا بنى اسرائيل ولا تعذبهم قد جئناك بآية من ربك والسلام على من اتبع الهدى ، انا قد أوحى الينا أن العذاب على من كذب وتولى .. !!

***

وهكذا حمل موسى واخوه هارون مهمة ابلاغ فرعون الجـزء الأول من رسالة موسى ، بعد أن أرشده الله اليه وامره بعبادته والصلاة له والاعتراف بوحدانيته والايمان به .

اذن فرسالة موسى الأولى كانت الذهاب الى فرعون بأمر الله وسؤاله أن يخلى سبيل بنى اسرائيل الذين كان يعــذبهم وكان يسخرهم فى بنــاء

المعابد وفى خدمته ،متجاهلا انسانيتهم ساخرا بها واضـــعا اياهم فى عداد الحيوانات التى لا حس لها ولا كرامة .

ومعنى هذا ولا شك ــ كما جاء فى القرآن الكريم والكتاب المقدس ــ ان الله لم يرسل موسى الى فرعون مصر بدين ، أو دعــوة الى وحدانية .. بل برسالة خاصة بقومه مؤداها مطالبة فرعون باخلاء سبيل بنى اسرائيل وكف العذاب عنهم ، لأنه طغى عليهم « **اذهب الى فرعون انه طغى** » !!

ولقد راع فرعون أن يقف موسى وأخوه فى حضرته ، وأن يتحدثا اليــه ، ويسألاه باسم ربهما ان يخلى سبيل بنى اسرائيل الذين لم يعرفهم الا عبيدا له ، ليس لهم أن يفكروا فى التحرر او أن يدعوا ــ وهم الهمج الأذلاء فى نظره ــ ان لهم ربا .. وهو الذى يسجدون له ويفرشون أجسادهم فى طريق عرباته !!

والتفت فرعون الى موسى واخيه وفى سخرية :

قال « **فمن ربكما يا موسى** » ؟ !

«**قال : ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ، ثم هدى** » !

« **قال : فما بال القرون الأولى** » ؟ !

« **قال : علمهــا عند ربى فى كتاب ، لا يضل ربى ولا ينسى ، الذى جعل لكم الأرض مهدا ، وسلك لكم فيها سبلا ، وانزل من السماء ماء ، فاخرجنا به أزواجا من نبات شتى ، كلوا وارعوا أنعامكم ان فى ذلك لآيات لأولى النهى منها خلقناكم ، وفيها نعيدكم ، ومنها نخرجكم تارة أخرى** » ! !

وبهت فرعون ومن معه لتلك البلاغة وذلك الافحام والقــدرة الجبارة التى لا يمكن أن تكون لبشر ما لم تعنه قوة خارقة .

والتفت فرعون الى موسى وقال له :

« **ان كنت جئت بآية فات بها ان كنت من الصادقين** » ! !

وقبل موسى التحدى وكله ثقة بالله الذى بعثه برسالة من عنــده وأنه تعالى لن يخزيه أبدا ، وسيكون عونه وناصره :

« **فالقى عصاه فاذا هى ثعبان مبين** » !

فبدا الذعر واضحا على فرعون ومن معه ..

« **ونزع يده فاذا هى بيضاء للناظرين** » ! !

وفزع فرعون وفغر فاه ذهولا ودهشة ثم قال للملأ من حوله :

« ان هذا لساحر عليم (!) يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره ، فماذا تامرون » ؟!

« قالوا : ارجه واخاه وابعث فى المدائن حاشرين ، ياتوك بكل سحار عليم » ..

وثار فرعون وأحب لو تبتلع الأرض موسى وأخاه ، وكانت آية العصا ، **« فكذب وعصا ، ثم ادبر يسعى ، فحشر فنادى ، فقال أنا ربكم الأعلى » !!**

ثم التفت الى موسى مغاضبا متحديا

— « قال : اجئتنا لتخرجنا من ارضنا بسحرك يا موسى (؟!) فلناتينك بسحر مثله ، فاجعل بيننا وبينك موعدا ، لا نخلفه نحن ولا انت ، مكانا سوى » !!

« قال : موعدكم يوم الزينة ، وأن يحشر الناس ضحى »

وهكذا انتهت المباراة الكلامية الأولى بين فرعون وموسى ، وانصرف الفريقان على أن تكون المباراة الفاصلة يوم عيد القوم الأكبر .. بمشهد ومرأى من الناس جميعا ..

وما أشبه هذا الذى مهدت القدرة لحدوثه بيوم اعداد النار للقضاء على ابراهيم وقتل دعوته علانية قبل أن تنتشر بين الناس .



«واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسدا له خوار ، الم يروا انهلا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا ، اتخذوه وكانوا ظالمين »
(سورة الاعراف)

« ولما رجع موسى الى قومه غضبان اسفا ، قال : بئسما خلفتموني من بعدي .. »
(الرسالات الكبرى)

موسى ويوم الزينة

« والقى السحرة ساجدين ، قالوا : آمنا برب العالمين ، رب موسى وهارون ، قال فرعون : آمنتم به قبل أن آذن لكم ، ان هذا لمكر مكرتموه فى المدينة لتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون ، لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ثم لأصلبنكم أجمعين ، قالوا : انا الى ربنا منقلبون ، وما تنقم منا الا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا ، ربنا أفرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين » ..

(سورة الاعراف)

وكان بين موسى وفرعون ـ بعد ذلك الجدل ـ ما كان من صراع فكرى وعملى ، تحدثت به المدينة ، وجعل بعض العقلاء من أهليها يؤمن بقدرة الاله الذى بعث موسى لانقاذ شعبه .. فى الوقت الذى كان فرعون يزداد فيه تعنتا واصرارا واستمساكا برايه فى اذلال عبيده من الاسرائيليين وتعذيبهم .

وكان اختيار موسى ليوم العيد الأكبر الذى يجتمع فيه القوم جميعا ـ ضربة موفقة وفرصة مواتية ، لتكون أوسع مجالا لاجراء المباراة بين الحق والباطل .. بين العدل والظلم ..

وحل يوم الزينة ..

ودخل موسى وهارون .. وجال موسى بطرفه فى السحرة وصاح فيهم محذرا بقوة :

« ويلكم (!!) لا تفتروا على الله كذبا ، فيسحتكم بعذاب ، وقد خاب من افترى » !!

وهزت كلمات موسى وهيبته السحرة ، فالتفت بعضهم الى بعض .. **« فتنازعوا أمرهم بينهم ، وأسروا النجوى قالوا : ان هذان لساحران ، يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ! ويذهبا بطريقتكم المثلى ! فأجمعوا كيدكم ، ثم ائتوا صفا ، وقد أفلح اليوم من استعلى » !!**

وتقدموا الى الحلبة ووقفوا صفا وصاحوا :

« يا موسى (!) اما أن تلقى ، واما أن نكون أول من ألقى » !!

« قال : بل القـوا (!!) فاذا حبالهم وعصيهم ، يخيل اليه من سحرهم انها تسعى ، فأوجس فى نفسه خيفة موسى » ؟ !

واتجه بكل مشاعره الى ربه يستنجد به . وسرعان ما دوت الكلمـات القدسية فى مسـمعيه تطمئنه وتشجعه :

« لا تخف ، انك أنت الأعلى (!) وألق ما فى يمينك تلقف ما صنعوا ، انما صنعوا كيد ساحر ، ولا يفلح الساحر حيث أتى » !!

وفى سرعة وقوة ألقى موسى عصاه ..

« فالقى السحرة سجداً ، قالوا : آمنا برب هارون وموسى » ! !

وكان فى ايمان السحرة وهم القـادة العلماء ، الذين تتبعهم العامة — انتصار كبير لموسى وهارون ، وتحد صارخ لفرعون وجبروته !!

وصاح فيهم فرعون وقد خذل :

ـــ آمنتم له قبل ان آذن لكم ، انه لكبيركم الذى علمكم السحر فلأقطعن أيديكم ، وأرجلكم من خلاف ، ولأصلبنكم فى جذوع النخل ، ولتعلمن أينا أشد عذابا وأبقى » !!

ولكن الايمان الحق حين يداخل القلوب يملؤها بالثبات ويربط عليها ، فلا يجد الخوف مهما كبر سبيلا اليها ..

وهكذا وقف الســحرة شامخى الرءوس أمام الطاغيـة ، يردون على تهديده الساذج قائلين له :

« لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات ، والذى فطرنا ، فاقض ما أنت قاض ، انما تقضى هذه الحياة الدنيا (!!) انا آمنا بربنا ؛ ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر ، والله خير وأبقى » !

وتم النصر الساحق لموسى وهارون ..

وكاد الغيظ يأتى على فرعون . إذ لم ينتصر مـوسى عليه وعلى سحرته فقط ، بل فتن الناس بقدرته المستمدة من القدرة الكبرى ، فكفر السحرة أعوان فرعون بسـيدهم وآلهتهم وآمنوا برب موسى وهارون ..

وانطلق صوته الراعد يهدد ويتوعد ..

ولكن احدا ممن آمن بالله لم يأبه له ولا لوعيده وتهديده ..

« قالوا : انا الى ربنا منقلبون ، وما تنقم منا الا ان آمنا بآيات ربنا لمـا جاءتنا ، ربنا أفرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين » !!

وعاد دعاة السوء من قوم فرعون ــ وقد احنقتهم الهزيمة وكبر عليهم أن يترك سيدهم موسى ومن اتبعوه ، وسائر بنى اسرائيل ــ فقالو لفرعون :

« اتذر موسى وقومه ليفسدوا فى الأرض ، ويذرك والهتك » ؟ !

واجاب فرعون الغاضب مهددا :

« سنقتل ابناءهم ، ونستحيى نساءهم ، وانا فوقهم قاهرون » !

واستطار الجدل بين موسى وفرعون ثانية ، وقد ظن أن ما اظهره موسى من ضروب القدرة التى أعجزت رجال السحر والكهانة هى كل ماعنده ، فعاد يساله معجزات جديدة ، اعانه الله عليها ..

ولكن فرعون ابى واستكبر ، ولم يرض أن يؤمن به أو أن يتركه وقومه ليذهب بهم الى حيث يريد ..

***

واضمر فرعون الشر لموسى وأخيه وبقية قومه من الاسرائيليين ، فكان أن اوحى الله الى موسى بأن يخرج ليلا بقومه من بلاد فرعون **« وأوحينا الى موسى أن أسر بعبادى انكم متبعون » !**

فأطاع الأمر وخرج بهم جميعا فى جنح الدجى ، اذ تحركت جموعهم مسرعين الى ناحية البرية الفسيحة من صحراء سيناء ، تاركين مصر كأمر الله لموسى ..

كانوا فى هذه المرة كثرة بالفة ، ولم يكونوا قلة كيوم دخلوا مصر أيام يوسف عليه السلام ..

وصاح صائح ينبه فرعون الى الكارثة التى حلت به ، اذ هرب خدمه وعبيده مع موسى الى مكان بعيد ! !

واقسم فرعون ليؤدبن العصاة ، وليعودن بهم ثانية الى أغلال الذل والعبودية التى أرادوا التحرر منها !

وأسرع فى كوكبة من فرسانه وجنوده ليؤدب أولئك العصاة ويعود بهم أذلة !

ولم يكد موسى وقومه يقتربون من أحد السنة البحر الأحمر ، حتى كان فرعون وجنوده فى آثارهم يهرعون ! وقد لحقوا بهم ..

وعم الفزع أصحاب موسى وصاحوا : ((**انا لمدركون**)) !!

وبدا لهم العذاب الرهيب الذى سوف ينزله بهم فرعون وجنوده ..

وصاح موسى فى قوة وايمان قائلا :

((**كلا ، ان معى ربى سيهدين**)) !!

واوحى الله الى موسى ((**ان اضرب بعصاك البحر**)) !!

وضرب موسى صفحة البحر بعصاه ، فانفلق نصفين وانشقت اللجج عن عدة مسالك يابسة ، ما ان رآها قوم موسى حتى اندفعوا فيه بقوة ، ليعبروا الى الناحية الأخرى خوفا من بطش فرعون ! !

ودون تفكير اندفع فرعون ومن معه خلف الهاربين ..

((**وجاوزنا ببنى اسرائيل البحر ، فاتبعهم فرعون وجنوده بغيا وعدوا ، حتى اذا ادركه الغرق قال : آمنت انه لا اله الا الذى آمنت به بنو اسرائيل ، وآنا من المسلمين**)) !!

وما ان أصبح الجند الظالم كله فى عرض البحر حتى انطبق البحر عليهم فهلكوا جميعا !!

((**وانجينا موسى ومن معه اجمعين ، ثم أغرقنا الآخرين**)) ! !

وبذلك نال الشعب الاسرائيلى حريته التى طال تصوره لها وحلمه بها ، وبذلك نفذ موسى امر ربه ، وتم له انهاء الأمر الأول من أوامر رسالته ، التى ايده الله فيها بالآيات البينات . وأتم عليه نعمته ونصره على فرعون وكيده ، وحقق له معجزة الخروج لينعم واهله بالحرية التى جاهد من أجل تحقيقها .

* * *

والآن — وقد صدقهم الله وعده ، فليس لهم الا ان يركعوا له ويسجدوا اجلالا وحمدا وتقديرا لنعمه السابغة ، اذ جعل لهم مقاما حسنا فى فضاء سيناء ، فاظلهم بالغمام ، وأنزل عليهم المن والسلوى ، وفجر لهم بعصا موسى فى الصخر اثنتى عشرة عينا !

وتركهم الى وعد ربه عند الجانب الأيمن من الطور ، حيث الشجرة المباركة ..

وظلوا فى رعاية هارون ، يرقبون عودة موسى ..

« وواعدنا موسى ثلاثين ليلة واتممناها بعشر ، فتم ميقات ربه اربعين ليلة » .

« وقال موسى لأخيه هارون : اخلفنى فى قومى واصلح ولا تتبع سبيل المفسدين » .

ولكنهم — وقد شعروا بالراحة واحسوا برد الحرية ونسائم الخلاص — زاغ منهم العقل وتمردت العاطفة .. وراح بعضهم يتساءل :

من يكون ذلك الاله الذى أنقذهم من ربقة الأسر وخرج بهم من أرض عبوديتهم وشق لهم البحر واختار موسى ليحمل اليهم رسالته المقدسة ..!

وسرت فى شعب اسرائيل عدوى هذا الشك .. واقبل بعضهم على بعض يتساءلون عن كنه الذات القادرة ..

واذ ذاك وجدها حاسد ماكر منهم يدعى « السامرى » فرصة ليحول الشعب اليه فكان أن سألهم أن يجمعوا الحلى الذهبية من النساء والرجال .

فلما فعلوا .. القى بالذهب فى النار .. ثم راح يصنع منه تمثالا لعجل له خوار ؛ اذ ركب فيه آلة ينبعث منها صوت كخوار العجل .

وقال للقوم الضالين المتشككين فى حقيقة الاله :

« هذا الهكم واله موسى فنسى » !!

وهكذا .. « .. اتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسدا له خوار » !!

وصدق الشعب الاسرائيلى فرية السامرى .. وأقبلوا على العجل يعبدونه ويرون فيه ربهم الذى نسيه موسى فذهب الى رب آخر ! ! وارتضى القوم هذه العبادة !!

ورأى هارون ما فعل السامرى للقوم وأطاعوه ، فراح يسفه أحلامهم ويحاول جاهدا أن يرد الشعب الذى اخلفه اخوه عليه الى جادة الصواب .. ودون جدوى ، فقد أصر القوم على عبادة العجل وهموا بقتل هارون ان لم يتركهم الى ما هم فيه وقالوا :

« لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع الينا موسى » !!

وقد يعجب القارىء لسرعة ارتداد شعب موسى وكفرانهم بالله الذى أنقذهم ، وعودتهم مرة أخرى بدينهم الى الوثنية وارتضائهم العجل الذهبى

الذى صنعه أحدهم معبودا لهم يسجدون له ويثقون فيه ! ! **« ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا . اتخذوه وكانوا ظالمين » ! !**

وقد يتساءل ايضـــا لم انحطت أفكارهم بهـذه السرعة ؟ ! ولم هوت عقليتهم الى الدرك الأسـفل فنسوا القـدرة وصاحبها الذى لا تراه عين ، والذى رعاهم حتى نشقوا نسائم الحرية والخلاص ! !

هل شكوا فى عودة موسى اليهم بعـد غيبته التى طالت حوالى الأربعين يوما ، فعادوا بعقولهم الى عقائدهم الاولى ، أم وجدها أحدهم فرصة لتكون له الزعامة من بعده ــ وقـد دانوا زمنا بعبادة الاسـلاف ، كما دانوا بعبادة الاوثان والكواكب وظواهر الطبيعة من قبل ؟ !

فلمـا رجع موسى من ميقات ربه ؛ دخل على قومه غضبان أسـفا ، اذ اخبره ربه بهذه الردة وهو يملى عليه التوراة .. فدخل عليهم قائلا والشرر يتطاير من عينه :

« يا قوم : ألم يعدكم ربـكم وعدا حسنا (؟!) أفطال عليكم العهد (؟!) أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدى » ؟!

واسقط فى يد القوم فهزوا رءوسـهم وراحوا يتهربون فى ضعف من المسئولية ، فقالوا :

« ما اخلفنا موعدك بملكنا ، ولكنـا حملنـا أوزارا من زينة القـوم ، فقذفناها ، فكذلك القى السامرى ، فأخرج لهم عجلا جسدا له خوار ، فقالوا هذا الهكم واله موسى فنسى » !

والتفت موسى مغاضبا الى هارون ، ثم تقدم اليه وألقى الالواح ، وأخذ بلحيته وراسه يجره اليه ! !

وفى ألم عميق وخيبة أمل قال لأخيه :

« يا هـارون : ما منعك اذ رأيتهم ضـلوا ألا تتبعنى (؟!) افعصـيت أمرى » ! ؟

وفى استعطاف جميل قال هارون لأخيه موسى :

« يا ابن أم ، لا تاخذ بلحيتى ولا براسى ، انى خشيت ان تقول فرقت بين بنى اسرائيل ولم ترقب قولى » .

وعاد يشرح موقفهم منه بقوله :

« أن القــوم استضعفوني وكادوا يقتلونني ، فلا تشمت بى الاعداء ولا تجعلنى مع القوم الظالمين » !!

ورق قلب موسى لأخيه فخلى عنه ورفع طرفه الى السماء يناجى ربه :

« قال : رب اغفر لى ولأخى وادخلنا فى رحمتك ، وأنت أرحم الراحمين » !

ثم اتجه الى السامرى فرمقه بنظرة نارية يسأله :

« قال : فما خطبك يا سامرى » ؟ !

وأجاب السامرى بلهجة يغشاها الخزى :

« قال ، بصرت بما لم يبصروا به ، فقبضت قبضــة من أثر الرســـول فنبذتها ، وكذلك سولت لى نفسى » !!

فصاح فيه موسى بقوة يطرده :

« قال : فاذهب ، فان لك فى الحياة أن تقول لا مساس (!) وان لك موعدا لن تخلفه ، وانظر الى الهك الذى ظلت عليه عاكفا ، لنحــرقنه ، ثم لننسفنه فى اليم نسفا ، انما الهكم الله الذى لا اله الا هو ، وسع كل شيء علما » !!

وهدات ثائرة موسى وسكت عنه الغضب بعد أن احرق العجل والقى رماده فى البحر واخذ الالواح .

« ولما سكت عن موسى الغضب اخذ الألواح ، وفى نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون » ودعا بنى اسرائيل لعقد اجتماع يتخير فيه سبعين رجلا منهم ليذهبوا معه لميقات ربه كما أمره سبحانه ..

« واختار موسى قومه سبعين رجلا لميقاتنا » .

وذهب بهم الى الطور ليستمع الى ربه ..

ولعب الشيطان مرة أخرى بقلوب التافهين من بنى اسرائيل وهم يرون موسى يكلم ربه ، فقالوا :

« ياموسى ، لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة » ! !

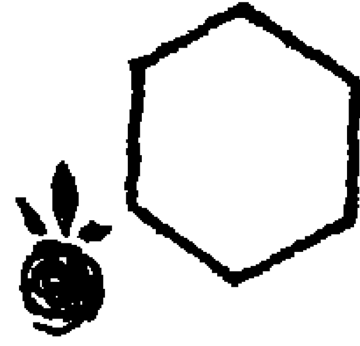
وما كادوا يفرغون من قولهم هذا حتى فوجئوا بصــاعقة تنقض عليهم من السماء حتى كادت تهلكهم جميعا ! !

« فلما اخذتهم الرجفة » ورأى موسى ما حل بقومه ، غمــرته الحسرة عليهم ونادى ربه مستعطفا :

« رب ، لو شئت أهلكتهم من قبل واياى ، أتهلكنا بما فعل السفهاء منا ، ان هى الا فتنتك ، تضل بها من تشاء وتهدى من تشاء (!) أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين » .

وبصوت خاشع قال موسى : **« واكتب لنا فى هـــذه الدنيا حسنة وفى الآخرة انا هدنا اليك » ! !**

فاجابه ربه : **« قال : عذابى أصيب به من أشـاء ، ورحمتى وسعت كل شىء ، فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة ، والذين هم بآياتنا يؤمنون » .**





((قال : ياموسى ، انى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى ، فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين ، وكتبنا له فى الالواح من كل شىء موعظة وتفصيلا لكل شىء ، فخذها بقوة ، وأمر قومك ياخذوا باحسنها ..))

(سورة الاعراف)

شريعة موسى عليه السلام

« قال يا موسى : انى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى ، فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين ، وكتبنا له فى الألواح من كل شىء موعظة وتفصيلا لكل شىء ، فخذها بقوة ، وأمر قومك يأخذوا بأحسنها » ..

(سورة الاعراف)

لقد كانت غيبة موسى عن قومه ، امتحانا دقيقا لايمانهم فى الوقت الذى ذهب فيه ليتعرف على الرسالة الكبرى التى بعثه الله بها ، ويأتى الى القوم بعد ذلك بالشريعة التى يريدها الله تعالى ، والتى ستكون بمثابة تعاقد رسمى بينهم وبينه جل جلاله ، وشريعة ثابتة يتوارثونها جيلا بعد جيل دون ردة أو كفران ..

ورسالة موسى عليه السلام ــ وهى أول رسالة كبرى لدين كتابى معروف ــ تعتبر نقطة ارتكاز فى مفرق طريق الهداية ، فعندها تجمعت دعوة التوحيد ، لتتخلص من شكلها المتعارف عليه منذ قديم الأزل ، وهو شكل الرسالة السماوية المبلغة مشافهة وجدلا الى الناس من أهل القرى ، لتأخذ شكلا جديدا من قبل .. لم يكن للبشرية من عهد به فهى أول رسالة مكتوبة فى الواح من السماء : **« وكتبنا له فى الالواح من كل شىء ، موعظة وتفصيلا لكل شىء » !**

واذا كانت رسالة ابراهيم عليه السلام ، هى أول رسالة جامعة كبرى فى تاريخ الرسالات والدعوة الى الايمان بالله واقرار الوحدانية بعد نوح ..

واذا كانت الشريعة المنزلة التى جاء بها خليل الله « ابراهيم » ، هى الأساس الأول لدعوة التوحيد منذ أمر الله بها خلقه كلهم ــ فان رسالة موسى التى جاءت بعد قرون من رسالة ابراهيم ، تعتبر الامتداد العملى لأولى الرسالات الكبرى ، والتجديد السماوى لها بعد أن ران الجهل وخيمت الظلمات على العقول .

ورسالة موسى تعتبر فوق هذا ، الترديد الحق لكل ما جاءت به الصحف الأولى ، ترديدا لا بالقلب واللسان فحسب ، بل بالمراجعة التى

اقرها التسجيل الخاص بهذه الشريعة السماوية ، تسجيلا يضمن لها البقاء فى مجتمع الناس ، لتظل بين ظهرانيهم وأمام عيونهم ، فلا يحيدون عنها ، او يتنكرون لها مهما مرت الحقب ، وتوالت العصور ..

والتسجيل التشريعى الذى ينتظم بين دفتيه لوائح وقوانين ـ شريعة منشورة على الملأ ، واجبة الاتباع ، لضمان رقى مجتمعهم والنهوض به ، والمحافظة على تقدمه فى ظل الخضوع التام لفحوى هذه القوانين ..

هذا التسجيل الثابت ، الذى يعنى النشر والعرض العلنى ، هو اجراء يساير روح العصر ، وتفرضه الضرورة ، وتحتمه الحاجة وتطالب به الأوضاع التى يجب أن تستقر كأساس للصلات والمعاملات والمثل العالية ، والديانة التى يجب أن يؤمن بها الناس جميعا دون تفرقة طبقية .

والشريعة المسجلة ، المنشورة على الملأ تأخذ بحكم تسجيلها شكل البقاء ، مع العلانية التى تبدأ عندها المثوبة للمطيع ، والعقاب للعاصى ، فتحد الحدود ، وتنظم العلاقات الانسانية كلها ، وصلات الناس بعضهم ببعض داخل اطار الطاعة والخضوع للذات الكبرى موجدة هـذا الكون ومن فيه ..

ومن اجل هذا الانتشار ، وبسبب الرغبة فى أن تكون الشرائع ، أمام من قدر عليهم اتباعها ، حرص من بيدهم السلطان فى سائر العصور ، على تسجيل بنود شرائعهم لتكون وسيلتهم فى حكم رعاياهم ، فلا يتعدى أحد حده ، ولا يجرؤ على حق غيره ولا يعتدى ، ولا يسمح بالاعتداء عليه ..

والتاريخ فى تسجيله لما بين أيدينا اليوم من صحائف الماضى ، وانبائها ، لم يذكر لنا ابدا انه قد تم تسجيل شريعة سماوية ، أو دين علوى ، تسجيلا بمعناه المتعارف عليه ، أى نقشه فى الواح ، واقامتها بعد ذلك فى معابد ، أو بيع أو أماكن تجمع الناس .

ذلك لأن الدين ، كان فى لبه ثورة على الجمود والتحكم ، والرجعية ، وهى صفات تنبع فى قلب البشر ويتجمع حولها العامة دون الخاصة ، وهؤلاء لايعبأون بالمظهر ، قدر اهتمامهم بالمخبر ، والايمان القلبى عندهم كان التسجيل الباقى ، ومن اجل هذا ، باعدوا الزخرف وعز عليهم اقامة اللوحات ، وتشييد النصب ، وتحرير بنود الشرائع الكبرى عليها لأنهم كانوا يعتبرون الشريعة منقوشة على صفحات القلوب .

وعلى عكس هذا ، سار الخاصة ، أصحاب المطامع والطموح ، ممن عمدوا الى بسط سلطانهم عن طريق الرهبوت ، واثبات القانون الواجب أن يتبعه الغير ، كره ، أم رضى .. اطاع ، أم كان من العصاة الخارجين ..

لقد كانت الشريعة السماوية ، نورا يملأ القلب ، ويضيء الوجدان ، وتتفتح له مغالق الروح ليستقر فى احنائها ، على عكس اللوائح الموضوعة التى طالما تبرم بها الناس فى مجتمعهم الأول ، لأنها حدت من حرماتهم ، وفرضت عليهم قسرا ، فروضا كانوا يضيقون بها ويرون فيها ما يشبه القيد الذى يبغضونه ويكرهون من أرغمهم على الدخول فى نيره والرضا به مجبرين مرغمين ! !

ولما كانت العبادة قد فرضت على البشرية جمعاء ـ منذ اراد الله لخلقه انيعمروا الأرض ، ويكونوا خلفاء عليها ـ فقد حرص الناس على أداء فرائض هذه العبادة المقررة ، مجلبة لرضوان الله ، واظهارا لطاعته ، ودفعا لغضبه عليهم ، واتقاء لشديد عذابه وبطشه ..

ومارس الناس العبادة فى البداية على علم بها ، وتعرف لطقوسها ، وخبرة بأدائها ، وتفهم لمعنى الحكمة من هذا الأداء ، وقلوبهم سليمة ووجدانهم مستنير طاهر عامر بها ..

ثم توارثوها تقليديا مع مسير الزمن ، وربما عن غير تفهم عميق لمدلولاتها وما تعنيه ، ومن هنا تدخل الطموح البشرى .. واقحم الفهم الانسانى نفسه فى التفسير والتدليل وفرض ذاته وهيمنته بوحى من الوسواس ، ودافع من الطموح ، ورغبة فى المغامرة وتعشق التفرد والتحكم وحب فرض السلطان الجائر على العباد ، فبدل فى الأصل النورانى .. وحور وغير الى ما يوافق هوى النفوس وطموحها نحو السلطة وحبها للتحكم فى الرقاب وجعل الشريعة تتبع الناس بدلا من ان يتبعوها ، وتخضع لاهواء الطامعين المتحكمين منهم ، بدلا من خضوعهم لها . فكان الشرك ، وكانت الضلالات ، وكان تقديس الناس لبشرى منهم ، سهل عليه بعد ذلك ان يطغى وأن يدعى انه اله جدير بالعبادة ، لأنه قادر على كل شيء ..

وقد كان الملوك أول من تآمر على أصول الديانات .. وكان رجال الكهنوت ، ورءوس الملة هم عونهم فى تلك المؤامرات الباغية ، فجعل الأولون من أنفسهم ، أبناء للشمس والقمر والنجوم ، واعتبر الآخرون ذواتهم حفظة ورعاة لهذه الطقوس ، مرشدين الى اتباعها ، ضمانا لبقائهم واستمرارا لتحكم الضلالات ..

وبسبب هذا التطاول البشرى ، والعبث الكهنوتى ، لم يعن ولاة الأمور وحكامها فى الأمم القديمة بالشرائع السماوية ، ولم يهتموا بتسجيل الفروض المنزلة ، التى تقضى بالخضوع المطلق للوحدانية وعدم الشرك ، وحاربوا الوحدانية ذاتها ، لأن الوحدانية تجميع للكل حول وحدة لا تتجزأ ، فجعلوا هناك أكثر من معبود ، وأكثر من تابع مساعد لكل معبود ، ثم عائلة مقدسة من زوج وأم وأولاد ..

والحكمة من ايجاد هذه الكثرة من المعبودات ، خلق حزبيات وعصبيات وتفريق للعابدين في الفكر والآراء ، والتحمس لقدرات كل معبود في سبيل سيادته وتفرده على سائر المعبودات .

لقد وجدنا على الآثار أسماء رع ، ومردخ ، واونو ، وبتاح وآمون ، وبعل ، وعائلاتهم وزوجاتهم ، والأصهار والأقارب والتابعين حتى مراتب النكرات .. ولم نجد اسم الله ، الخالق المصرف ، القادر ، مبدع الكائنات ، بديع السموات والأرض ، الواحد الأحد ، الحى الذى لا يموت ! ! لأن فى ذكره جل وعلا ، بعثا للعقل البشرى ، وفى بعث العقل البشرى وصحوته ، ثورة على التحكم أو الخضوع لبشرى مهما كان بأسه وبطشه !!

وبالتالى .. وما دام تحكم الفرد ، قد قضى على وحدة العبادة ، وتدخل فى فرض المعبودات واخضاع الناس لها ، فلم يكن عجيبا الا نجد أى أثر لنصوص شريعة سماوية مسجلة واجبة الاتباع فيها الهدى وفيها الخلاص للبشر جميعا ؛ وان وجدنا فى آونة متباعدة ومضات ليقظات الضمير وانطلاقات الوجدان بالحكمة والموعظة على أفواه بعض حكماء العالم القديم ، وقلة نادرة من واضعى الشرائع فيه ..

وحتى مصر العظيمة .. مصر صاحبة الحضارة ، ومنارة العرفان ، التى آمنت بالبعث واعترفت بالقيامة بعد الموت والخلود فى الحياة الأخرى ، فى نعيم الله ورضوانه ؛ حيث تجزى كل نفس بما كسبت ..

مصر العريقة الخالدة ، التى سجلت عقيدة الحساب فى مدلولاتها كما جاءت بها الشرائع السماوية .. مصر هذه ، التى سجلت أحداث الزمن .. بل وتحركات الأفلاك ورصدتها وعينتها فى دقة غريبة — لم تشر على أثر من آثار حضارتها الى عبادة مستقيمة ، أو شريعة ذات أوامر ، أو قانون سماوى يفرض الفروض ويضع الحدود وينظم للبشرية عبادتها ..

لقد تردد فى جوانب مصر صوت خليل الرحمن ابراهيم عليه السلام .. واصغت القرون الى وصية يعقوب لبنيه .. ونادى يوسف من بعده بالوحدانية وجاهر بها ، وعلت أصوات حكماء ودعاة عديدين ..

ورغم هذا لم تحفظ تلك الآثار الخالدة شيئا عن دين ابراهيم ، أو اشارت الى التوحيد الذى جاهر به يوسف ، أو المت بفحوى حكمة سامية من حكم الملهمين فيها اشارة الى وحدانية الله خالق الأكوان ..

حتى دعوة اخناتون .. التى جاءت بعد دعوة ابراهيم عليه السلام بمئات السنين ، وقال المفترون على الحق ، انها أول دعوة للوحدانية فى التاريخ ؟ ! حتى هذه الدعوة المتحررة من رهبوت التعدد الالهى اندثرت أصولها بموت صاحبها الفيلسوف ، ولم تبق منها غير تراتيل تسبح بحمد

القوة الأزلية الكامنة خلف الشمس ، والتى تمتد أيديها الى الكون بالبركة والحياة والحب والنماء ..

فالشريعة المطهرة السامية ، الداعية الى التوحيد الحق ، لم نجد لها ظلا ولا أثرا على شواهد حضارة مصر ، وان وجدنا ظلالا باهتة للايمان المشوب بالشرك فى « متون الأهرام » و « كتاب الموتى .. » ونصائح « بتاح حتب » ودعوته للاستمساك بالفضائل وكثرة اشاراته الى الحياة الأخرى ..

ولعل أغرب نص عثرنا عليه هو ما سجله « باحرى » على جدران مقبرته اذ قال ما نصه :

« عندما أوضع فى الميزان سأخرج كاملا غير منقوص .. أنا لم أكذب أبدا ، وقد عرفت الله الذى هو فى قلوب الناس .. نعم عرفته وخشيته وعرفت كيف أفرق بين الخير والشر » ..

وهذا اقرار يلقى بعض الضوء على الدين نفسه ، وعلى مدى ايمان الناس بالمعبود ، وانه واحد وانه فى القلب .. اما اسمه ، أما صفاته ، أما أعوانه ، واتباعه .. فتلك أمور ، باعد المعترف بينها وبين نفسه فى الآخرة ، لأنه عاد الى الحق ، ويجب أن يركن للحق ، ويعترف به ، وبأن الله واحد وبلا شريك ، وبانه فى قلب المؤمنين به ..

ولنترك مصر الى بابل صاحبة الحضارة العتيدة التى عاصرت مصر ، وسارت الى جانبها ، وكان لها دين ومعبودات ..

ان بابل هذه هى الأخرى واشور وبلاد مابين النهرين ، لم تشر فى نصوصها الدينية الى نصوص دين ، أو وحدة شريعة وفرض أتباعها على الناس ، وان سجلت النصوص البابلية « **شريعة حمورابى** » **وما** حوت من توجيهات . ادعى انه تسلمها من المعبود الأكبر ليطبقها على العبادة فى زمنه..

وقوانين «**حمورابى**» مجموعة تشريعية فذة ، تمثل صورة كاملة للمجتمع البابلى فى زمن ذلك الحاكم العادل ، الذى صور نفسه فى « **الألواح** » وقد وقف يتسلم القوانين من اله الشمس التى تنظم شريعة التعامل فى بلاده ؛ وتقرر ما يهم الناس من تنظيمات تتعلق بأمور الدنيا واعمال الناس ، من زراع وصناع ، وطرق حياتهم وصلاتهم ، وتعاملهم ، وزواجهم وطلاقهم وتقرر النفقة للزوجة المطلقة والاولاد الصغار ، ولم يهمل كذلك قوانين التجارة والبيع والشراء وايجار الأرض والبيوت .

وشريعة « حمورابى » لم تكن اذا غير قانون تنظيمى لعلاقات الناس بشتى وجوهها واشكالها ، ولتعزيز هذا القانون ، أدعى واضعه انه تلقاه من المعبود الشمس .. واذا عرفنا ان حمورابى قد عاصر الخليل ابراهيم عليه

الاسلام ، او سبق عصره ، امكننا ان نعرف أن الناس أيامها كانوا يعبدون الشمس والقمر متوارثين هذه العبادة ابنا عن أب عن جد ، ولم يكن هناك داع لتسجيل هذه العبادة ، أو الترويج لها أو اثبات أوامر ونواهى المعبود الشمس ما دام الحاكم ينفذها ، ويتلقاها ، ويأمر بها ، ويغير فيها ويبدل بما يوافق صالحه ، واقرار سلطانه على جميع رعاياه ..

فالشريعة السماوية اذن لم تكن مما اهتم الاقدمون بتسجيله ، لتوريثها الى الغير ، لأنها كاملة لايجرؤ عليها التبديل ، ولا يتجاسر أصحاب الكهانات .. لهذا أصبح من السهل الهين ، أن تضيع بين الناس وأن تحل مكانها ترهات وأوهام وبدع وأكاذيب وفروض لم يأمر بها اله ، ولم يدع اليها دين ..

فرسالة موسى والحالة هذه ، هى أول رسالة تفردت بهـذه الميزة ، واصبحت فى تاريخ العبادات أول لوح محفوظ يتضمن البلاغ السماوى من الحق سبحانه وتعالى الى البشر فى كل عصر وأوان ، بأن يتبعوا الاسلام دينا ، وأن يعبدوا الله وحده ، دون شريك ويؤمنون بما جاء به رسوله من هدى وبينات فيها صلاح البشر ومرضاة الله ..

وهكذا .. وتبعا لهذا التسجيل الربانى ، الذى أثبتته يد القدرة العظيمة فى الألواح المحفوظة التى جاء بها موسى الى قومه ، أصبحت دعوة الوحدانية فريضة مقررة ، وحكما قاطعا ، وصارت الديانة للمرة الأولى فى التاريخ عهدا ثابتا بين الله والناس ، فوق انها توجيه وضحت فيه الحدود ، وتعينت البنود والمواد ، وكمل التشريع المنظم لأحوال الناس ، المهذب لطبائعهم المروض لانطلاقاتهم ، فاحل الحلال ، وحرم الحرام ، وأباح ما يرضى القادر ، ومنع ما يوجب سخطه وغضبه ، وربط الناس بالطاعة الواجبة وأيدهم بالآية الحسنة والبرهان الساطع النورانى حتى لاتكون لهم بعد ذلك حجة على الله ان هو أخذهم بكفرهم وضلالهم واشراكهم به ، وأنزل بهم سبحانه وتعالى ما يستحقون من عذاب ان هم ضلوا عن اتباع الطريق المستقيم ..

ورسالة موسى بعد هذا ، رسالة متدرجة ، واحدة الهدف ، متعددة الوجهات تفرض نفسـها وأحكامها على الظروف ، ولها القـوة على توجيه المناسبة ذاتها ، لتؤدى دورها الكامل غير منقوص ..

فالرسالة الموسوية اذا ، رسـالة ذات أطوار متعددة ، لهـا مقـدمات وارشادات ـ وتثقيف وتعليم وأصول مدعمة ، ومداخل مفروضة وأواسط محددة ، ومدارج حتمتها ملابسات الجهاد نفسها وسير الدعوة حيث أراد لها الله ان تسير ..

والطور الأول لرسالة موسى عليه السلام هو طـور التعريف والأمر المقدس ، الذى بدأ بتلقين موسى الرسول ، دعوة الاسلام السمحة التى آمن

بها الرسل والناس من عهد آدم ، وبها أمروا ، وعليهم كتبت حتى آخر الدهر ..

وقد بدأ الأمر السماوى ، بتفتح قلب موسى لدعوة الحق ، واشراق روحه بأضوائها المقدسة ، وتعريفه حقيقة الوجود الأولى وهى شهادة الا اله الا الله وحده ، وحدانية مطلقة منزهة عن الشرك ، والايمان العميق بهذه الوحدانية الخالصة ايمانا تصغر امامه الأحداث الجسام ، ويدفع الى الجهاد ، ويقوى على النضال ، ويزيد صلة الخالق القادر بمخلوقه المحتاج الى عونه ..

« اننى انا الله ، لا اله الا أنا ، فاعبدنى » ..

وهذا هو التوحيد المطلق الذى لا يقبل جدلا او شكا ، وانه بعد هذا التوجيه الحق للرسول الكبير ، ليعرف وجهته ، فيسير حيث أراد الله ، بعيدا عن ضلالات شهدها ، وديانات رأى ايمان الناس بها ، وارباب متعددة شهد الخلائق وهى توليها مالا تستحقه من تعظيم وتقديس ..

وهى بعد هذا حرب للباطل ، وقضاء على الأكاذيب ، ودعوة للنور ، تبعد الناس عن الظلمات ، وتهديهم الى أقوم سبيل ، فيه العزة ، وفيه الاحساس بالقوة الذاتية .. قوة الانسان حين يعود الى الهدى ويجد الحقيقة الكبرى ، ويهرع الى الركن الركين ويلوذ بالقوة المسيطرة على العالم ومن فيه ..

« اننى أنا الله ، لا اله الا انا ، فاعبدنى واقم الصلاة لذكرى » ..

وهذا هو التوجيه .. الارشاد الى الوسيلة لايجاد الصلة بين الخالق والمخلوقات ..

انها العبادة .. انه التوحيد الخالص .. انه الايمان بالوحدانية .. وطريق هذه العبادة هو الصلاة ، وحكمتها ذكر القادر سبحانه وتعالى ، ذكرا لا تهاون فيه ولا فتور ، ليمتلىء القلب بالنورانية اللامعة ، ويغرق الوجدان فى بحور فياضة بالتعبد والطاعة والخشوع ..

وبهذا تم تلقين موسى عليه السلام ركنين من اركان الوحدانية الحقة ، هما الاقرار بوحدانية الله ، وانه لا اله الا هو ، فرض على الناس عبادته ، وأمرهم بالصلاة لذكره ..

وجاء بعد هذا التكليف الربانى ، الأمر الثالث المتمم للأمرين السابقين ، والركن الثابت المدعم لهما ، والواجب الايمان به ، بعد الاقرار بوحدانية الله ، ووجوب عبادته ، واقامة الصلاة امتثالا لأمره .. ثم الايمان باليوم الآخر ــ والبعث والنشور .. وقيام الساعة حيث النعيم الأبدى الخالد للطائعين ، والعذاب الرهيب لمن عصوا وأشركوا وضلوا سواء السبيل ..

« ان الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى ، فلا يصدنك عنها من لايؤمن بها واتبع هواه فتردى » .

وهكذا .. ترفق الله بموسى فأسدى اليه النصح وحذره مغبة الاستماع الى نفر ينكرون قيام الساعة ممن اتبعوا اهواءهم ..

لقد كلف الله موسى بالذهاب الى فرعون ، فسأله موسى أن يجعل معه اخاه هارون وزيرا ، فمن الله عليه بما سأله اياه ..

واخذت الرسالة مجرى آخر بعد ذلك ، اذ بدلا من ذهاب موسى وحده ، امره الله ان يذهب هو واخوه الى فرعون وان يسألاه باسم الله أن يطلق اسار بنى اسرائيل .

ويأتى بعد ذلك الجزء الاخير من هذا الشق الأول وهو أمر الله لموسى بأن يسرى ليلا بعباده ، ففعل ، كى تظهر بعد ذلك آية من آيات الله الكبرى ..

وقد كانت نهـاية العهد بالشق الأول هـذا ، الردة التى تفشت فى بنى اسرائيل وعبادتهم للعجل واتباعهم خديعة السـامرى ووقوف هارون عاجزا أمام ذلك الحادث الجلل الذى تم فى غيبة موسى ! !

ولعل هذه الحوادث السابقة جمعاء كانت بمثابة التمهيد لظهور الشق الثانى من الرسالة ، وهو الذى تم بعد الردة والذى كان السبب المباشر فى غيبة موسى عن قومه اربعين ليلة فى صحراء سيناء ، عاد اليهم بعدها حاملا الواح الوصايا العشر ، اول التوراة ..

لقد تساءل شـعب موسى عن الله واستفسروا عن ذاته فجاءهم موسى بالكتاب من لدن ربهم وفيه الوصايا العشر التى حددت الحدود وردت الى جادة الصواب جموع الشاكين المترددين ، وابانت لهم السبل وميزت الضلالة من الهدى ولم تترك لمعتذر عذرا ولا لمدع أى ادعاء ..

وجمع مـوسى شعبه وتلا عليه شريعة الرب التى يجب أن يتبعوها وان يعملوا بها اذ كانت دستورا شـاملا لأمور الدنيا والآخـرة : **« وكتبنا له فى الألواح من كل شىء ، موعظة وتفصيلا لكل شىء » ..**

وقد جاءت الوصايا العشر فى التوراة على هذا النمط :

« سـبحنى وقدسنى انا الرب الهك ، فاعبدنى ولا تشرك بى شيئا ، واشكر لى ولوالديك الى المصير أحييك حياة طيبة .. »

« ولا تقتل النفس التى حرم الله ، فاضيق عليك السـماء باقطارها والأرض برحبها » !

« ولا تحلف باسمى كذبا ، فانى لا أطهر ولا أزكى من لا يعظم اسمى .. »

« ولا تشهد بما لايعنى سمعك ولا تنظر عينك ولا يقف عليه قلبك ، فانى أوقف أهل الشهادات على شهاداتهم يوم القيامة واسالهم عنها .. »

« ولا تحسد الناس على ما آتيتهم من فضلى ، فان الحاسد عدو نعمتى ساخط لقسمتى » ..

« ولا تزن ، ولا تسرق ، فاحجب عنك وجهى واغلق دون دعوتك ابواب السموات والأرض » ..

« ولا تذبح لغيرى فانه لا يصعد الى من قربان الأرض الا ما ذكر عليه اسمى » ..

« واحب للناس ما تحب لنفسك واكره لهم ما تكره لنفسك » ؟

« لا تشته امرأة قريبك ولا تشته بيت قريبك ولا عبده ولا أمته ولا ثوره ولا حماره » ..

« اذكر يوم السبت ـ أى يوم الراحة ـ لتقدسه ، ستة أيام تشتغل وتعمل جميع أعمالك .. أما اليوم السابع فللرب الهك ، لكى تستريح » ..

وهذه الوصايا هى لب الدين الذى جاء به آدم ونوح وابراهيم واسحق ويعقوب ويوسف وموسى وصحفه « **صحف ابراهيم وموسى** » وسائر الرسل الكرام ممن سبقوه الى خاتم الانبياء محمد صلى الله عليه وسلم ...

« انا أوحينا اليك كما أوحينا الى نوح والنبيين من بعده وأوحينا الى ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والاسباط وعيسى وايوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبورا ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ، ورسلا لم نقصصهم عليك ، وكلم الله موسى تكليما ، رسلا مبشرين ومنذرين ، لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ، وكان الله عزيزا حكيما » .

* * *

وكل رسالة جاءت بعد موسى ، كانت لاتخرج عن هذه الشريعة ، وان اضيف اليها حسب مقتضيات العصر تشريعات وأوامر جديدة ، فهى ولا شك تتلو هذه الأصول فى الترتيب .. وان ظلت الوحدانية أساس الشريعة لكل جيل ...

ولقد كانت رسالة موسى نقطة التحول بين العبادات القديمة والعبادات فى الديانات الكتابية ، اذ أبطلت الأولى ، وصححت الثانية .

كما صحبت التطور فى فكرة المسيح المنتظر من مبدئها ، فكانت تمهيدا متواليا للدعوة المسيحية ...

وعند ظهور السيد المسيح لم يكن الناس بحاجة الى شرائع وقوانين ..

خاصة وقد أوصى عيسى من تبعوه بالايمان بهذه الوصايا العشر وبالتوراة كلها واتباعها وجعلها المنهاج السوى لسلوك الفرد والجماعة ..

ولم تات المسيحية بتشريع جديد ، ولكنها جاءت بما كان الناس فى حاجة اليه من سماحة واخلاص ومحبة ودعوة الى السلام .. وتصحيح لما اعترى التوراة من تبديل وتحريف ..

ورسالة « **محمد عليه الصلاة والسلام** » اشتملت كذلك على هذه الوصايا الرفيعة ، اذ أنزلها الحق على رسوله فى كتابه المبين فى عدة مواضع منه وكررها فى اعجاز أكثر من مرة ليدل المؤمنين على مدى أهميتها ، ومالها من خطورة ، ونذكر منها هنا ما ورد فى سورة « **الاسراء** » :

« وقضى ربك ألا تعبدوا الا اياه ، وبالوالدين احسانا : اما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما ، فلا تقل لهما : أف ولا تنهرهما ، وقل لهما قولا كريما ، واخفض لهما جناح الذل من الرحمة ، وقل : رب ارحمهما ، كما ربيانى صغيرا » !

« ربكم أعلم بما فى نفوسكم ان تكونوا صالحين فانه كان للأوابين غفورا » .

« وآت ذى القربى حقه ، والمسكين وابن السبيل ، ولا تبذر تبذيرا ، ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين ، وكان الشيطان لربه كفورا » !

« واما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم قولا ميسورا » ..

« ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا » !

« ان ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، انه كان بعباده خبيرا بصيرا » !

« ولا تقتلوا أولادكم خشية املاق ، نحن نرزقهم واياكم ، ان قتلهم كان خطئا كبيرا » .

« ولا تقربوا الزنا ، انه كان فاحشة وساء سبيلا » ! !

« ولا تقتلوا النفس التى حرم الله الا بالحق »

« ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا ، فلا يسرف فى القتل ، انه كان منصورا » !

« ولا تقربوا مال اليتيم الا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده » !

« وأوفوا بالعهد ان العهد كان مسئولا » ..

« وأوفوا الكيل اذا كلتم ، وزنوا بالقسطاس المستقيم ، ذلك خير واحسن تأويلا » ..

« ولا تقف ما ليس لك به علم ، ان السمع والبصر والفؤاد ، كل أؤلئك كان عنه مسئولا » .

« ولا تمش فى الأرض مرحا ، انك لن تخـرق الأرض ، ولن تبلغ الجبال طولا » !!

« كل ذلك كان سيئة عند ربك مكروها » ..

« ذلك مما أوحى اليك ربك من الحكمة ، ولا تجعل مع الله الها آخـر ، فتلقى فى جهنم ، ملوما مدحورا » !!

ونسمعه جل وعلا يذكرها بهذا الاعجاز نفسه فى سورة « الأنعام » :

« قل تعالوا اتل ما حرم ربكم عليكم : ان لا تشركوا به شيئا ، وبالوالدين احسـانا ، ولاتقتلوا أولادكم من املاق نحن نرزقكم واياهم ، ولا تقـربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولا تقتلوا النفس التى حرم الله الا بالحق ، ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون » !!

« ولا تقربوا مال اليتيم الا بالتى هى احسن حتى يبلغ أشده وأوفوا الكيل والميزان بالقسط ، لاتكلف نفسا الا وسعها ، واذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى ، وبعهد الله أوفوا ؛ ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون » !

«وان هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون » (!)

« ثم آتينا موسى الكتاب ، تماما على الذى أحسن ، وتفصيلا لكل شىء وهدى ورحمة ، لعلهم بلقاء ربهم يوقنون » !

وحمل موسى هذه الشريعة الى قومه كما حملها من بعده الرسـل ، فكانت نقطـة التحول فى الديانات وان لم تمتد اليهـا كثيرا بالتأثير ، لأن الاسرائيليين الأوائل كان أكثرهم يتبع أفـكاره الخاصة ، ولم يؤمن الا بشىء قليل مما جاء به مـوسى .. ثم انه لقى معهم الصعاب والشـدائد ، وبذل مجهودا جبارا فى تحويلهم عن الكثير من معتقدات أورثتهم اياها أعوام الأسر والذلة والهوان حتى استقر بهم الأمر أخيرا فى أرض فلسطين بعد أن كانوا — قبل دخولهم مصر — قبائل متفرقة يسكنون شرق الفرات ! .

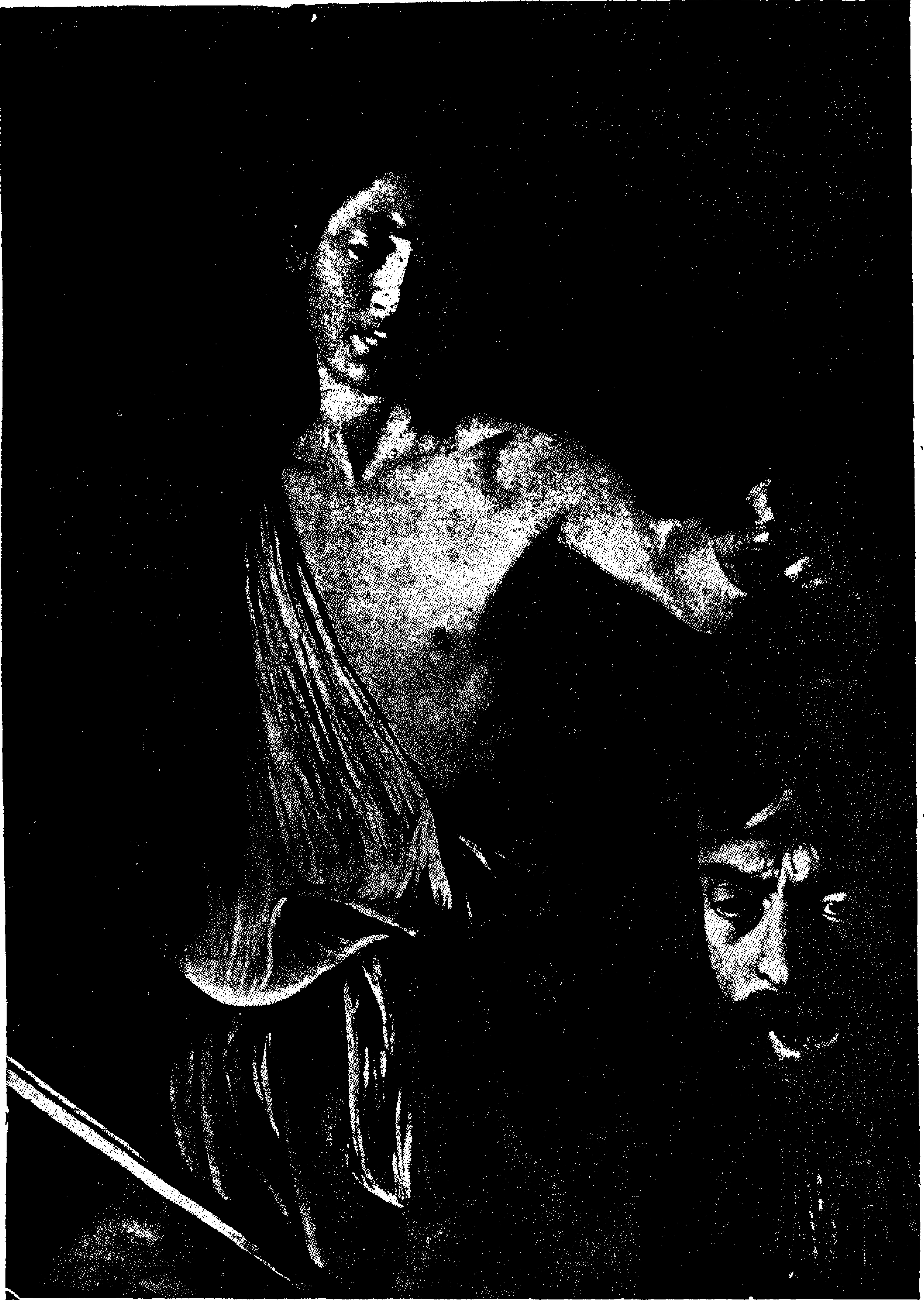
واعود فأقول ان الشريعة الموسوية كانت نقطة التحول فى الديانات ولكنها مع قوتها واستنادها الى الحق الصراح لم تؤثر كثيرا فى تلك الديانات وظلت فى معزل عنها عدة قرون تلت بعثة موسى وغيره من انبياء اسرائيل ..

وذلك لان هذا الشعب من الناس ـ وقد خصه الله بهذا الفضل وارسل فيهم من أكرم بيوتهم رسولا يرشدهم الى دينه وعبادته ـ ظن ان الله خص اسرائيل وحدهم بالدين ، وخصهم بعبادته دون سائر الناس .. فسوروا دينهم باسوار من الغموض وما خرج به أحدهم للدعوة او الهداية ، فظلوا على حالهم حتى بعث الله عيسى عليه السلام ..

وظلت الوثنية فى معظم الاقطار مرفوعة الراية ، لان من خصهم الله بدينه الحق ، ابوا الجهاد فى سبيله وركنوا الى انفسهم ولم يبلغوا الأمانة التى حملوها فى أعناقهم .. كما فعل النصارى بعد عيسى عليه السلام :

« واذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه ، فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمنا قليلا ، فبئس ما يشترون » ! !





« ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا : ربنا افرغ علينا صبرا وثبت أقدامنا ، وانصرنا على القوم الكافرين ، فهزمهم باذن الله ، وقتل داود جالوت ، وآتاه الله الملك والحكمة ، وعلمه مما يشاء
(سورة البقرة)

(الرسالات الكبرى)

داوود وسليمان

« ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض ، وآتينا داود زبورا »
(سورة الاسراء)

لم تكن التوراة التى انزلها الله على موسى خاصة بقومه وحدهم ، بل كانت رسالة عامة للعالمين جميعا ، شريعة وهداية ، ودعوة خالصة للتطهر والوحدانية والخلوص بقلب سليم الى رب قادر خلق فسوى ، وقدر فهدى ..

ولكن بنى اسرائيل احتفظوا بالدعوة لأنفسهم وحجبوها عن الناس وظنوها ميراثا عزيزا خاصا بهم وحدهم دون سائر الأمم ، فلم يخرج داعية منهم بما جاء فيها من قويم الدعوة وصحيح الدين الى غيرهم من الناس

ولقد كان من اللازم أن تعتبر رسالة موسى رسالة عامة الى الأمم قاطبة لتكون بمثابة الحد الفاصل بين الحق والباطل ، وبين الوحدانية والثنوية والتثليث والتربيع وغيره ..

« ومن قوم موسى امة يهدون بالحق وبه يعدلون » !

ولكن قصور اليهود عن نشرها ورغبتهم فى البقاء بمعزل عن الناس اعطى الدعوة صفة خاصة وميزها بلون لم يره غير بنى اسرائيل ؟!

ولقد كان من اللازم أيضا أن تقطع هذه الرسالة السماوية التى لا شك فيها دابر الألسن المتقولة الكاذبة ، التى اتخذ أصحابها من العبادات تجارة رابحة ، يصورونها حسبما يرضى الاهواء ، ويشبع حواس الشر فيها ويجعلها تتحكم فى العبادات وتعديد الأرباب ، كما لو انها توابع لها تأتمر بامرها وتنهى بنواهيها .. **فعكسوا الواقع وقلبوا الآيات البينات وجعلوا السيد تابعا ، وصوروا الأكاذيب فى صورة الحق .. وراح بعض من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه .**

كان من اللازم أن يحدث هذا وان يتم بصورة قاطعة فتدول دولة الشرك وتختفى الوثنية والصابئة وما دونها من عبادات أوجدها العقل الحائر

المتشكك ، او أوجدها الدهاة من الكهان والحكام ، ليتحكموا عن طريقها فى مصائر العامة من الناس !

ولكن اسرائيل وقفت دون نشر دين الله فى الأرض ، اذ كانت نفس الشعب لم تزل هالعة ترتجف ، وكان طابع الخوف والرهبة الذى رسمهم به فراعنة مصر لم يزل عالقا بهم ، فخشوا أن يخرج أحدهم بدين جديد ودعوة خالصة للناس ، فيكون من أمرهم ان يعودوا مرة أخرى الى حياة العبودية والهوان !! فلم يتجاسروا — وهم عبيد فرعون وخدمه — على القول بأن الله قد اختصهم دون الناس بدينه ، وانه تجلى على رسولهم ومنقذهم موسى فكلمه وعلمه اصول ذلك الدين ..

وعندما أمرهم موسى بدخول ((**كنعان**)) لنشر دين الله فيها ، صدوا عنها وارجفوا :

((واذ قال موسى لقومه : يا قوم ، اذكروا نعمة الله عليكم ، اذ جعل فيكم انبياء ، وجعلكم ملوكا ، وآتاكم ما لم يؤت أحد من العالمين)) !

((يا قوم : ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم ، ولا ترتدوا على ادباركم فتنقلبوا خاسرين)) !!

فاضطربت منهم القلوب وفى ذعر وتهويل :

((قالوا : يا موسى ان فيها قوما جبارين ، وانا لن ندخلها حتى يخرجوا منها ، فان يخرجوا منها فانا داخلون)) !!

فتقدم رجلان ممن صدق ايمانهم فقالا للقوم الخائفين :

— ادخلوا عليهم الباب ، فاذا دخلتموه فانكم غالبون ، وعلى الله فتوكلوا ان كنتم مؤمنين)) !!

فغضبوا جميعا وثاروا ، وفى عنت وسخرية قالوا لنبيهم :

((يا موسى : انا لن ندخلها أبدا ما داموا فيها ، فاذهب أنت وربك فقاتلا ، انا هاهنا قاعدون)) !!

وفاض الأسى والألم بنفس النبى العظيم لتخاذل اتباعه الجبناء الذين اعلنوا نبيهم بترك القتال له ولربه !!

((قال رب ، انى لا املك الا نفسى واخى ، فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين)) !!

فاستجاب الله له وناداه ليريح فؤاده : ((**فانها محرمة عليهم اربعين سنة يتيهون فى الأرض ، فلا تاس على القوم الفاسقين)) !!**

وكان أن عاقبهم الله بالتيه فى صحراء سيناء ، أربعين سنة ظلوا خلالها

هائمين على و جوههم حائرين ، بين مصر والعقبة فى جبل « هور » ليصهر هجير الصحراء القاسى نفوسهم المتمردة ، عسى أن ينساقط عنها سوء عملهم ويتوبوا الى ربهم !

كانوا يسيرون يومهم ، فيصبحون حيث أمسوا ، ويمسون حيث اصبحوا ..

وتمخضت فترة التيه عن موت هارون .. ثم موسى بعده بعام عليهما السلام ..

***

((ولقد آتينا موسى الكتاب وقفينا من بعده بالرسل)) ..

واخذ ((**يوشع بن نون**)) ــ خليفة موسى ــ يجمع قومه لامرته .. ويعدهم للجهاد تنفيذا للخطة التى رسمها من قبل موسى عليه السلام ، وليؤدى الأمانة من بعده .. فكان أخلص عامل بكتابه وخير ناطق بلسانه ..

وحاصر ورجاله الجبارين ((**أريحاء**)) وهاجمهم بجنده حتى الحق بهم الهزيمة .. ففتحوا بيت المقدس بالقوة ودخلوا بلاد فلسطين فاتحين ..

وهكذا فتح الله ليوشع بلاد آبائه ، وافاض على بنى اسرائيل من الخير الكثير ..

ولكن .. ولما كانت طائفة الكهان منهم قد أصرت على أن تغلق الباب دون خروج دين الله أو نشر رسالة نبيهم موسى عليه السلام ، فقد حدث ــ مع مرور الزمن أن اتسعت الهوة بين الكهان وبين الشعب .. حتى أصبحوا وحدهم فى واد والشعب فى واد آخر ، فطغى وغوى ونسى الشريعة ــ أو تجاهل وجودها وتغافل عن وعد الله الحق ووعيده ، وصار يرتكب الموبقات جهارا دون رادع أو خوف ! !

وأعطى الله شعب اسرائيل ما أعطى من مجد وعلو ورفعة .. ثم كان لهم فى النهاية الملك العريض ففسق الشعب عن أمر ربه ، ومن هنا خط الله فى لوح قدره عقابا لهذا الشعب الذى لم يذكر انعمه ولم يقر بفضله ..

وما أن انتهت خلافة يوشع عن موسى عليه السلام .. حتى دخل اليهود فى حرب مع الفلسطينيين سكان اشدود بالقرب من غزة ، وقد أخذ بنو اسرائيل معهم **تابوت العهد ــ وهو التابوت الذى فيه التوراة أى الشريعة** ــ ليستنصروا به ، فغلبهم الفلسطينيون واخذوا منهم تابوت العهد ، وكانت هزيمة بنى اسرائيل عظيمة وذلهم شديدا ، ومحيت دولة

اسرائيل فى مصر والشام ، وتمت كلمة ربك عليهم بالضعة والذلة والتشتيت .

« واذ تأذن ربك ليبعثن عليهم الى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب » ! !

ولقد حاول بعض الأحبار فى اسرائيل أن يردوا الشعب الى سبيل الله فما استطاعوا ، ومن هنا أخذت العبادة ناحية رمزية .. ومن بعد **يوشع بن نون** .. تولى القضاة ثم الملوك .

« وكان من قضاة بنى اسرائيل نبى اسمه **«صمويل»** قضى لبنى اسرائيل زمنا ، وعين ابنين له للقضاء فى أحياء اسرائيل فلم يعدلا ، وخاف بنو اسرائيل ان يفسد عليهم الأمر بعد صمويل وجاءوا اليه فى بلدة الرامة والحوا عليه أن يقيم عليهم ملكا منهم يأتمرون بأمره ويقودهم الى قتال اعدائهم الذين اذلوهم دهرا طويلا ، ويدفع عنهم من يريد الاغارة عليهم .. (١)

« الم تر الى الملأ من بنى اسرائيل من بعد قوم موسى ، اذ قالوا لنبى لهم ابعث لنا ملكا نقاتل فى سبيل الله » !!

وكان صمويل عالما بعقلية بنى اسرائيل وعاداتهم وما انطوت عليه أنفسهم من جبن وتكاسل ، فراح يذكرهم بجبنهم مؤكدا لهم انهم لن يقووا على القتال ولن يفعلوا كما حدث من قبل و **« قال هل عسيتم أن كتب عليكم القتال الا تقاتلوا »** (؟!) .

« قالوا : ومالنا الا نقاتل فى سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا » !!

وهكذا راحوا يؤكدون له انهم لن يتراجعوا عن القتال مادام هناك مايدفعهم الى قتال الاعداء الذين اخرجوهم من ديارهم وأسروا منهم أبناءهم

« فلما كتب عليهم القتال ، تولوا الا قليلا منهم ، والله أعلم بالظالمين » !!

وراح صمويل يعمل فى البحث عن الرجل الذى يصلح ليكون ملكا على بنى اسرائيل ، وكان ان طلب **« طالوت »** .. ولما جاءوا به كان أطول الناس واجملهم صورة ..

« وقال لهم نبيهم ان الله قد بعث لكم طالوت ملكا » ..

فرضى به البعض وغضب البعض الآخر من أغنياء اليهود و **« قالوا أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ، ولم يؤت سعة من المال** (!) ..

« قال : ان الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة فى العلم والجسم ، والله يؤتى ملكه من يشاء والله واسع عليم » ..

---

(١) قصص الأنبياء .

ولكى يقنعهم به راح يعدد لهم فضائله ومزاياه ((**وقال لهم نبيهم ان آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم ، وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة ، ان فى ذلك لآية لكم أن كنتم مؤمنين**)) !!

ومعنى أن يأتيهم التابوت من عند الفلسطينيين ، وأن تحمله الملائكة ما يؤكد لهم ان ملكهم الذى اختاره الله لهم ، وعينه نبيهم صمويل ، لهو الملك العظيم الذى يجب ان يلتفوا حوله ويسعدوا به ..

وسرعان ما جمع ((**طالوت**)) الجنود لقتال الفلسطينيين ومواجهة رجالهم الأشداء الذى كان على رأسهم رجلهم الشجاع ((**جالوت**)) الرهيب الذى يهابه الناس ويخشوه لجرأته وشجاعته وقوته ..

وماكاد جيش الفلسطينيين الذى يفوقهم عددا وعددا يبدو لهم من بعيد وعلى رأسه رجلهم القوى « جالوت » — حتى ارتجفوا ذعرا ورعبا ((**فلما فصل طالوت بالجنود**)) وسمع ومن معه صرخات جالوت المتحدية حتى انكمشوا فى أماكنهم يقولون :

((**لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده**)) !!

((**قال الذين يظنون انهم ملاقوا الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله ، والله مع الصابرين**)) ...

وما كاد جالوت يرى جيش طالوت الوجل ، حتى علا صوته متحديا يطلب المبارزة مع من يلمس الشجاعة فى نفسه ويقوى على منازلته من رجال طالوت

وتملك الغضب داود الصبى ، واثارت حميته كلمات جالوت وسخريته بقومه وسرعان ما تقدم فى حماس بالغ من ملكه « طالوت » يرجوه أن يسمح له بمبارزة جالوت ..

وراح الملك يتفحص الصبى فى حنان وهو فى ملابسه البسيطة دون درع أو سلاح .. وأخذ فى حنان ينصحه بالعودة الى أهله لأنه صغير ، ولأنه لم يعتد الحرب ولم يبلغ مبالغها ، وليس هو بالند الذى يستطيع أن يواجه محاربا مدربا مثل جالوت .

وفى ثقة واعتداد قال داود لطالوت الملك : اننى قتلت أسدا أخذ شاة من غنم أبى ، وكان معه دب فقتلته ايضا ...

وأصر داود على مبارزة جالوت .. وهو الذى كان قد حضر الى الميدان لزيارة اخوته المحاربين ، وليس لمشاركتهم الحرب ، وتوسل الى الملك أن يسمح له بأن يتقدم الصفوف ليرد التحدى ، فان هو مات فلن يكون خيرا ممن يموتون من أهليه ، وان انتصر فقد كفى القوم شر الطاغية الرهيب ..

ونظر القوم فى أسى وحسرة الى الصغير وقد خرج فى ملابس الرعاه السذج مكشوف الصـــدر ، عاريا من الدروع ليس فى يده الا مقلاعه الساذج الذى اعتاد ان يقذف به الحجارة ليرد الحيوانات الضارية عن اغنامه ..

وامر طالوت بالباسه « لامة الحــرب » لتحميه ، فلم يستطع داود أن يخطوا فيها لثقلها .. وسرعان ما خلعها ورمى بها بعيدا .. وسار فى خطوات ثابتة الى الميدان عاريا .. الا من ايمانه !!

وضحك جالوت طويلا .. وداود أمامه صامد يترقبه .. فأثاره صمته وصلابته ، فتقدم نحــوه ليقضى عليه .. فى الوقت الذى امسك فيه داود بمقلاعه وجعل يهزه فى عنف .. ثم صوب قذيفته الرهيبة واطلقها صــوب الطاغية ، فوجدت فى راسه هدفها المحكم ، فاخترقته !!

وترنح جالوت من هول الضربة القوية .. ثم سقط على وجهه مضرجا بدمه فاقد الوعى . فأسرع داود اليه وفى جراة مال على جثته وانتزع سيفه .. وبه حز راس الطاغية ، ومحا اسمه من صفحة الوجود !! (١)

« .. وقتل داود جالوت » ..

وما كاد الملك يرى داود الراعى الساذج يتجه اليه بعد أن قتل عدوه الجبار ـ حتى لقيه بالتكريم ، ولم يتمالك نفسه ساعتها ، فرفع تاجه عــن رأسه والبســه اياه ، تحية له وتقــديرا لبسالته ، ووعــده أن يزوجه ابنته « ميكال » ويجعله رئيس جنده ...

« وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء » !!

وسار داود على سنة من سبقوه .. فجيش الجيوش وسيرها للقتال وهو على راسها ، فانتصر وانتصر .. واتسعت رقعة ملكه ، وبات الجميع يرهبونه ويخشون سطوته وسلطانه ..

ودوت فى أرجاء الكون كلمات قدسية :

« يا داود انا جعلناك خليفة فى الأرض ، فاحكم بين الناس بالحق » .

لقد خص الله داود عليه السلام بالخلافة ، بأن جعله خليفة فى الأرض ليحكم بين الناس بالحق ، فهو خليفة حكم **« ولله فى الأرض خلائف عن الله »** وهم الرسل .. وخلافة داود ليست محددة عن الله . ولكنها عن الرســل السابقين والذين كانوا يحكمون قبله بما شرع لهم من الله .

وان كان داود عليه الســـلام قد تميز عن الرسل بتحديد الخــلافة باسمه . فقد كان النص صريحا بتحديد خلافته ، ولم يحدث قبل ذلك فى خلافة الآخرين .

---

(١) من وحى السماء : للمؤلفة

وحتى آدم عليه السلام ، لم تنص الآية الكريمة على خلافته باسمه : « **وإذ قال ربك للملائكة انى جاعل فى الأرض خليفة** » ! ! ولم يقل انى جاعل آدم خليفة فى الأرض . . ! !

وابراهيم عليه السلام . . وقوله تعالى له : « **انى جاعلك للناس اماما** » . . ولم يقل خليفة . . لأن الامامة تختلف عن الخلافة . . اذ هى خلافة حكم « **فاحكم بين الناس بالحق** » . .

وقد أعطى الله داود « **زبورا** » يناجى به ربه كلما سجا الليل . .

« **ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض ، وآتينا داود زبورا** » . .

و « زابور » داود مجموعة من القصائد والأناشيد تتضمن تسبيح الله وحمده والتضرع اليه ، وتعتبر فى دنيا العبادات لونا خالصا من ألوان التبتل والتوسل والدعاء والاقرار بالذلة والضعف أمام الخالق القادر لاستجلاب رضاه والفوز ببره وعطفه ورعايته ، « **ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر ان الأرض يرثها عبادى الصالحون** » وهو فوق ذلك آية من آيات النقاء الذهنى ودليل ساطع على مدى ما يصل اليه العقل المتجرد من معرفة لدنية ، تبعده وصاحبه عن دنيا البشر ، وتقربه وتدنيه من الله ومغفرته الموعودة وملكه الخالد . وان داود ليردد فى وحدته :

« **عند دعائى استجب لى يا الهى !**

« **يا من جعلت لى من ضيقى فرجة وأملا ، فكن ربى رءوفا واستمع لصلاتى** » .

« **اليك يارب أرفع نفسى . . . يا الهى ! عليك توكلت ، فلا تدعنى أخزى ، ولا تشمت بى الأعداء** » !

« **ولا تغر من الأشرار ، ولا تحسد عمال الاثم فانهم مثل الحشيش سريعا يقطعون ، ومثل العشب الاخضر يذبلون** » .

« **اتكل على الرب وافعل الخير . . اسكن الارض وارع الامانة** » . .

« **تلذذ بالرب فيعطيك سؤل قلبك** »

« **سلم للرب طريقك واتكل عليه وهو مجرى** » . .

« **كف عن الغضب واترك السخط ، ولا تغر لفعل الشر** » . .

« **لأن عاملى الشر يقطعون ، والذين ينتظرون الرب هم يرثون الارض** »

* * *

((ووهبنا لداود سليمان ، نعم العبد انه أواب))

ومرت السنون ..

وراح الأب الحانى ، الشديد الاعجاب بذكاء ولده سليمان ـ أحب أبناءه اليه واقربهم من قلبه ـ يصحبه معه فى مجالس حكمه ، ليمارس هذا اللون من ألوان القضاء ويتدرب عليه من صباه ـ خاصة وأنه لمس فيه ما وهبه الله من فطنة وذكاء ، وحكم سديد كانوا من أسباب دعامة الملك وأسس بقائه .

وكان يشركه معه فى حل عديد من المشاكل التى كانت تعرض عليه فى مجلس قضائه .. بل كان يسمح له بالنظر فى الدعاوى والفصل فى الخصومات ، وكثيرا ما كان يؤخذ برأيه فيها ويكون حكمه أصوب فى بعض الأحيان من حكم أبيه .

((ولقد آتينا داود وسليمان علما ، وقالا الحمد لله الذى فضلنا على كثير من عباده المؤمنين)) !!

فقد حدث أن دخل بعض نفر من فلاحى الشعب مجلس قضاء الملك شاكين بأنه كان لبعضهم زرع كاد يؤتى أكله ويتم نضجه ، فكان أن نفشت فيه غنم أناس آخرين ، لأن صاحب الأرض لم يحسن حراستها وتركها دون رعاية ، فعدت عليها الأغنام وأتت على ثمرها فأكلته عن آخره .

((وداود وسليمان اذ يحكمان فى الحرث ، اذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين)) ..

فحكم داود لصاحب الحقل بأن يأخذ الغنم عوضا عن زرعه الذى تلف ، ولكن .. لم يكد الأب ينتهى من اصدار حكمه حتى بدا على سليمان ولده انه غير راض عن ذلك الحكم ، وان له رأيا آخر ، أدركه عن فهم : **((ففهمناها سليمان))** الذى رأى أن اعطاء الغنم لصاحب الحقل فى زرعه غبن ظاهر على صاحب الغنم ، فقضى بأن ينتفع صاحب الحقل بالغنم واستغلال لبنها ونتاجها وتترك الأرض لصاحب الغنم يزرعها ويرعاها حتى تنبت مثل ما أفسدت غنمه ، فتعود الأرض كما كانت ، وترد الغنم لصاحبها .

ولسليمان عليه السلام حكم دامغ فى قضية أخرى قضى فيها بحكمته ، فقد تنازعت أمرأتان بنوة طفل ادعت كل منهما انه طفلها ..

((فقد أتت امرأتان الى الملك ((سليمان)) ووقفتا بين يديه فقالت احداهما انى وهذه المرأة ساكنتان فى بيت واحد ، وقد ولدت معها فى البيت ، وفى اليوم الثالث بعد ولادتى ولدت هذه المرأة أيضا وكنا معا ولم يكن معنا غريب فى البيت غيرنا نحن كلتينا فى البيت ، فمات ابن هذه فى الليل لأنها اضطجعت عليه ، فقامت وسط الليل وأخذت ابنى من جانبى وأنا نائمة واضجعته فى

حضنها وأضجعت ابنها الميت فى حضنى ، فلما قمت صباحا لأرضع ابنى اذا هو ميت ولما تأملت فيه . اذا هو ليس ابنى الذى ولدته !!

« وكانت المرأة الأخرى تقول : كلا بل ابنى الحى وابنك الميت ..

« وهذه تقول : لا .. بل ابنك الميت وأبنى الحى ..

« فقال الملك : آتونى بسيف ..

فأتوا بسيف بين يدى الملك ، فقال : اشطروا الولد الحى الى شطرين ، واعطوا نصفا للواحدة ونصفا للأخرى ! !

« فصرخت احداهما وقالت : لا يا سيدى اعطوها الولد الحى ولا تميتوه.

« وقالت الأخرى : لا يكون لى ولا لك .. اشطروه ..

« فقال الملك : اعطوا الولد الحى — للمرأة الأولى — ولا تميتوه فانها أمه .. » (١)

* * *

ودهمت الشيخوخة داود النبى .. فاعتزل الناس ، ووجد فى انفراده مع مزاميره متنفسا وراحة وهدوءا ..

ولاحظ داود أن بنيه من الطامعين فى الحكم بدأوا يرسمون خطط الغد الذى يحلمون به من بعده ..

ان بريق السلطان ليزيغ العيون . وان بعض الرءوس لتتوق الى حمل التاج .. وان « ادونيا » أرشد أبناء داود — ليرجو أن يكون له مقام أبيه ، وأن يصبح خليفته دون غيره من الاخـوة أجمعين ، وفيهم سليمان الفطـن العادل الذكى الذى أعده داود وهيأه فعلا للملك .

لقد كره « ادونيا » أن يترك العرش لسليمان ، ووجد فى شيخوخة أبيه وضعفه فرصة للقيام بمحاولة ربما أثنت الأب عن عزمه وصرفته عن توريث سليمان للملك .

وسرعان ما فرض نفسه — بوصفه أرشد أبناء الملك — على كل صـغيرة وكبيرة فى القصر .. ثم أولم وليمة كبيرة ليعلن فيها ارادته على ملأ من اخوته جميعا وقد دعاهم دون سليمان ، ظانا بذلك انه يعـلن عزل الأخ الحكيم ويبعده عن قلوب الشعب الذى يحبه ويرى فيه وحده أجدر أبنـاء داود بخلافته ..

وتسامع الناس بأمر الوليمة ، وأصـغوا الى الشائعات التى روجهـا « ادونيا » عن نفسه ، وكيف أنه ورث عرش داود بموافقته ورضاه ..

---

(١) الاصحاح الثالث — الملوك الاول

وكره القوم أن يتم لذلك الابن الخامل العابث « ادونيا » تملك السلطان وهو ابعد الناس عن تفهم أسراره وتعرف مسئولياته .. وعلا تهامسهم حتى صار صخبا وصل الى مسامع داود الملك المنعزل مع مزاميره ..

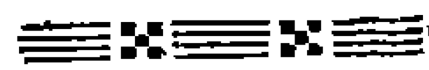
وتذكر داود وعده لولده سليمان بانه هو خليفتـــه .. وأنه ليرى أن سليمان هو الوحيـد بين بنيه الذى برهن على ذكاء فذ ، وعقـل راجح ، وقدرة على معالجة الخطير من الأمور ..

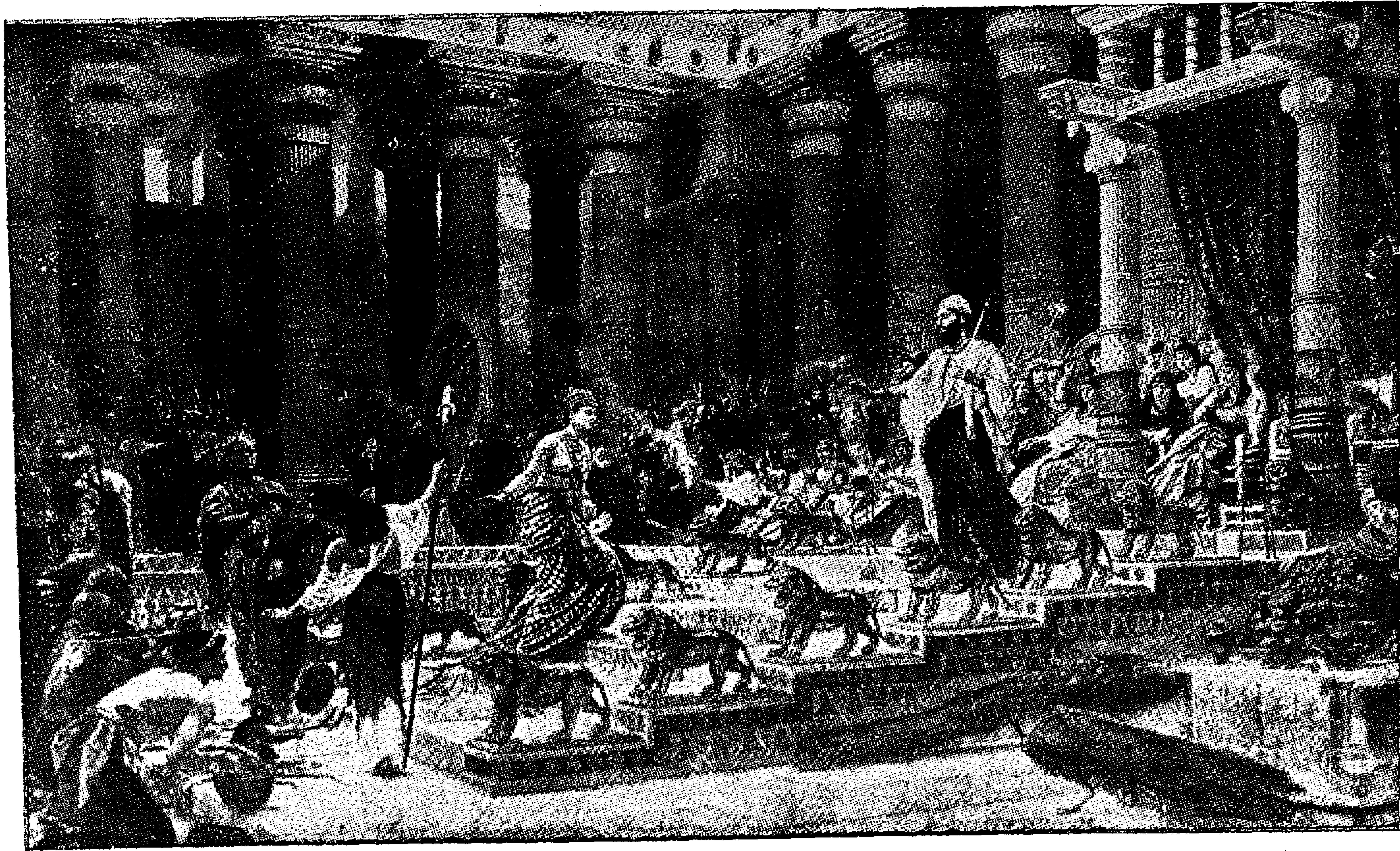
وان ابنه « ادونيا » ابعد الناس صلاحية عن الأمر الذى طمع فيه وأحب أن يغتصبه قبل موعده ! !

وكان أن قرر فى النهاية أمرا خطيرا .. فيه ارضاء لنفسه وضميره ، ولجمهرة الناس الذين كانوا يحبون أن يروا سليمان فى مكان ابيه ، فخرج وقال للملأ بعد جمعهم :

« اركبوا سليمان البغلة التى هى لى ، وانزلوا به الى جيعون ، وليمسحه هناك صادوق الكاهن ، وناثان النبى .. واضربوا له البوق وقولوا : ليحيى الملك سليمان » ! !

وهكذا .. قضى داود عليه الســلام على أحلام بنيه ، فنامت الفتنة ، وعادت السكينة تخيم على الشعب من جديد .





« فلما جاءت قيل أهكذا عرشك ، قالت : كأنه هو ، وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين » ...

« قيل لها ادخلى الصرح ـ فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها ، قال : انه صرح ممرد من قوارير ، قالت : رب انى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين » ... (سورة النمل) (الرسالات الكبرى)

وورث سليمان داود

« بسم الله الرحمن الرحيم ، الا تعلو على وأتونى مسلمين » .
(سورة النمل)

ولقى داود ربه ، بعد أن استقرت الأمور فى مملكته ، وهدات العواصف فى بيته ، واتم وصيته ، وعين خليفته من بعده .. وورث سليمان ملكه ومقامه فى النبوة ، وقضاءه فى الناس والحكم بالعدل بينهم ..

وهكذا استطاع داود الملك القوى ، والحاكم المدرب أن يتغلب على العاديات ويقضى على كل مؤامرة ، ويقر الوراثة من بعده فى ولده سليمان .

ولكن .. كانت هناك مشكلة ..

تلك المشكلة : هى شعب اسرائيل نفسه ! !

وفكر سليمان الحكيم بعقليته الفذة الناضجة ، واستعرض مكانته الجديدة وما ينبغى أن يكون عليه كملك له ابهته وكحاكم عليه ان يتقدم بمنهاج واهداف ومزايا يجب أن يتقدم بها لأبناء اسرائيل ليعرفوه على حقيقته كما عرفوا أباه داود من قبل ..

ولما كان الله جل وعلا قد من على عبده سليمان بمنن عديدة ، ووهبه مالم يهبه لعبد صالح من قبل من علم وحكمة حتى انه لقب « بسليمان الحكيم » فقد احب أن تكون هذه المنن القدسية العظيمة اهم ما يقدم بها شخصه الى شعبه ..

ودوى البوق فى جوانب البلاد ، وعلا صوت الداعى يدعو الناس الى **« خيمة الاجتماع »** فى **« مرتفع جعبون »** ..

وتوافدت الجموع الى المكان الذى عينه رجال سليمان ..

وبدا سليمان فى منصته جليلا مهيبا .. وشخصت اليه أبصار القوم فى اعجاب واكبار ، وساد الصمت وأرهفت الأسماع الى صوت سليمان الحكيم :

— **((وقال يا أيها الناس علمنا منطق الطير ، وأوتينا من كل شيء ، ان هذا لهو الفضل المبين)) !!**

فقد وهبه الله — قبلا — ذكاء جعل ابوه الملك داود عليه السلام يشركه معه فى مجلس قضائه ويسمح له رغم حداثة سنه بابداء رأيه فى بعض الدعاوى والفصل فيها وأبرزها حادثة **((الحرث التى نفشت فيه الغنم)) ! !**

وراح يعدد أفضال الله عليه ومنحه العديدة ، وما أفاءه الله عليه من منن وعطاء .

واستمع الناس الى شيء جديد وغريب ...

ان ملكهم الجديد يقول ان الله الذى الهمه الحكمة من قبل وأنار بصيرته، قد تفضل عليه بمنن أخرى وهبات عظام ، لم يتفضل بمثلها على بشرى قبله ..

فقد سخر الله له الريح ...

((ولسليمان الريح عاصفة تجرى بامره الى الأرض التى باركنا فيها)) ! !

واعطاه القدرة على التحكم فى هبوبها ومساريها ..

كما مكنه من الجن ، ووهبه قدرة السيطرة عليهم والتحكم فيهم وتسخيرهم فى أى عمل يريد ..

((ومن الشياطين من يغوصون له ويعملون عملا دون ذلك ، وكنا لهم حافظين)) ..

وهكذا .. اكتملت لشعب بنى اسرائيل صورة كاملة عن سيده الجديد الذى لم يهبه الله قوة التحكم فى الجن ولم يسخر له الريح فقط — بل علمه منطق الطير ، وآتاه من كل شيء ، فأصبحت له السيادة على الأرض والبحر والجو فوق المنعة والسلطان العظيم ..

ونظر سليمان حواليه ..

ان مصر العظيمة قريبة منه ، وان فيها الفرعون العظيم الذى لم ينس بنى اسرائيل .. عبيده القدماء ، الذين أصبح لهم اليوم شبه كيان فى جزء من وطن عظيم ، يسوسهم فيه ملك الهمه الله الصواب والعدل ، وجعل شريعته السماحة والسلام (١) ..

ورأى سليمان ان يتودد الى فرعون مصر وان يحاول التقرب منه ..

---

(١) من وحى السماء : للمؤلفة

وسعى سليمان الى مصاهرة فرعون مصر ! !

ورضى الفرعون السمح ، ومد يده الى يد سليمان ، وانتقلت احدى بناته الى أورشليم ، لتكون سيدة اسرائيل وزوج ملكها الجديد سليمان الحكيم بن داود عليه السلام ..

ومرت السنون !!

وبينما كان سليمان يتفقد الطير .. وقد اصطف فوق فسطاطه وخيم على عرشه — أدهشه انه لم ير الهدهد بين الطيور فى مكانه ، فبحث عنه هنا وهناك وفى كل مكان دون أن يعثر له على أثر ، فثارت دهشته وعجب فى نفسه لغياب ذلك الطائر الجميل ، فقال لمن حوله :

((مالى لا أرى الهدهد ام كان من الغائبين ؟ لأعذبنه عذابا شديدا أو لأذبحنه ، أو ليأتينى بسلطان مبين)) !!

وران الصمت على جماعات الطير ..

وبقى سليمان فى مكانه ، وكأنما نسى الدنيا ومن فيها ولم يعد يذكر الا ((**الهدهد**)) الذى غاب ! !

وفجاة .. سرت فى جموع الطير هزة .. لقد كان الهدهد يقترب من بعيد ، وهاهو ذا يضرب بجناحيه ، ويدور فوق فسطاط سليمان الحكيم ((**فمكث غير بعيد**)) حتى ناداه سيده وأمره أن يجيب فى صراحة عن سر غيبته

وتكلم الهدهد .. وانصت سليمان .. وانصتت معه جماعة الطير .. قال :

((أحطت بمالم تحط به ، وجئتك من سبأ بنبأ يقين)) ! !

وتولت الدهشة سليمان .. انه يعرف جيدا من هم جيرانه .. ويعرف رقعة العالم المحيطة به ، وان له مع ملوكها وشعوبها صلات ود وحب وأخاء .

لقد صاهر فرعون مصر .. وحالف ملك صور .. وان بينه وبين ملوك بلاد النهرين ود ومحبة ، وان العالم على سعته معروف له ، وانه ليسمع عن ((**سبأ**)) انها فى ((**اليمن**)) .. بعيدة عن الشام .. ولكنه لا يعرفها ولايعرف شيئا عن أهلها وحكامها على الاطلاق ؟ !

ورفع سليمان راسه نحو الهدهد ، وبان العجب على قسماته اذ كيف يحاط هذا الطائر بمالم يحط به سليمان الذى سخر له الله الريح تجرى بأمره وحكمه فى رقاب الجن ، وعلمه منطق الطير ، وآتاه من أفضاله ونعمه الشىء الكثير ؟ !!

وفى هدوء من نسى غضبته ووعيده راح سليمان يطالب الهدهد بمزيد من الايضاح ..

وعاد الهدهد يقول :

« انى وجدت امرأة تملكهم .. » ! !

وهتف سليمان فى دهشة :

امرأة !!

واستأنف الهدهد يقول :

« وأوتيت من كل شىء ، ولها عرش عظيم » !!

وبهت سليمان أمام القصة المثيرة ، ووجد نفسه يطالب طائره بمزيد من المعرفة بعد أن اخبره بمدى ما تستمتع به تلك المرأة الملكة من قوة وتعاظم وما لها من سلطان وجبروت وعرش عظيم ..

وكانى بسليمان الذى ورث ملك داود وشريعة موسى ، أحب فى تساؤله أن يعرف شيئا عن دين تلك المرأة .. وسارع الهدهد يقول :

« وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله ، وزين لهم الشيطان اعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لايهتدون ، ألا يسجدوا لله الذى يخرج الخبء فى السموات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون ، الله لا اله الا هو رب العرش العظيم » ! !

وسكت الهدهد .. وأسلم سليمان نفسه الى تفكير طويل راح خلال لحظاته يسترجع فيه ذلك القول الغريب ، الذى تقبله فى حذر من أحب أن يستوثق منه ، فلا يسلم به ويصدقه دفعة واحدة .. ولا يكذبه وينكره دون دليل .

لقد نقل الهدهد الى سيده سليمان أعجب نبأ عن أقرب بلاد .. بلاد قوية متاخمة تحكم رجالها امرأة ، لها المنعة والجاه والسلطان .. وفوق هذا فهم ليسوا على دين ، انهم صابئة وثنيون لا يعرفون لهم ربا غير الشمس الساطعة آية الله التى أنار بها الوجود .

ولم يسع سليمان الا أن :

« قال : سننظر .. أصدقت ، أم كنت من الكاذبين » !!

وتراجع الهدهد الى مكانه بين الطيور .. والتفت سليمان الى كاتم سره ، وأمره همسا بأن يعد رسالة قصيرة تحمل كلماتها أروع وأبلغ ما يمكن أن يكتب من ملك الى ملكة ذات شأن ليرسلها مع الهدهد ..

وأعد المشير الرسالة لسيده ، الذى عاد فنادى الهدهد وأسلمه اياها قائلا :

« اذهب بكتابى هذا فالقه اليهم ، ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون » !!
وحمل الطائر الحذر رسالة مولاه وانطلق بها عبر السماء الى مدينة سبأ ..

لقد أثار حديث الهدهد فضوله .. وانه لينتظر نتيجة رسالته الى تلك الملكة ذات الجلال ، وانه ليفكر فى أمرها ، وأمر كتابه اليها ، وكيف ستتسلمه وكيف تتلقاه ! !

وخلال تلك الساعات ، كان الهدهد قد وصل الى « سبأ » ودار حول قصر الملكة عدة دورات ، ثم اتخذ طريقه الى مخدعها من شباك صغير ، حيث ألقى رسالة سيده كما أمره وعاد مسرعا الى أورشليم .

وتقضى اليوم .. وآوت الملكة الى مخدعها ، ولم تكد وصيفاتها يغادرنها حتى أثار انتباه الملكة كتاب رأته فوق فراشها ! !

ودوت فى جوانب القصر صرخة .. أسرعت الوصيفات على أثرها عائدات .. وامتلأت الأبهاء بالحاشية ، وكبار رجال البلاط . وسادت القصر جلبة ودهشة وتساؤل ؟ !

وراحت الملكة تقلب الكتاب فى يدها وقد تملكتها رغبة عارمة فى الثورة والغضب اذ كيف اجترأ حامل هذه الرسالة على وضعها فى هذا المكان ، وكيف تخطى الابواب والحراس والمسئولين فى القصر ، ووصل الى مخدعها بالذات ؟ !

وخرجت « **بلقيس** » من غرفة مخدعها فى جلال واعتداد ، وسارت والجميع وراءها الى صالة العرض العظيم وفى يدها الكتاب الغريب .

واستوت على عرشها .. ونظرت الى القوم فى هدوء وثبات ..

انها تعرف مدى اخلاص هؤلاء القوم لها ، وانها لعلى ثقة من انه ليس فيهم الا من يفتديها بالروح قبل المال .. وانها لتشفق عليهم مقدما من تلك الرسالة وما جاءت به ، وترى قبل ان تقرر أمرا فيها وفى مرسلها ، أن تشاور رجالها وتسمع راى الأمناء .

---

(١) بلقيس — اسمها عند العرب ومعناه « ربة الكنز » و « ماكيدا » عند الاحباش ومعناه النار وذلك لجمالها .

ورنعت بلقيس الرسالة فى يدها ، فران على القوم صمت عميق قطعته صوتها الحاسم وقد راحت تقول :

ـــ « يا أيها الملأ (!!) انى القى الى كتاب كريم »!! !

وتصايح القوم فى غضب :

ـــ ممن يا صاحبة الجلالة ؟ !

وفى هدوء عادت بلقيس تقول :

« انه من سليمان » ! !

وتعالت الأصوات تسأل :

ـــ وماذا يريد ذلك الحكيم المسالم الذى سمعنا به ! !

ـــ سأقرأ عليكم .. انه يقول فيه :

« وانه بسم الله الرحمن الرحيم ، الا تعلو على وأتونى مسلمين » ! !

وانكم لترون انه كافر بما نعبد وان ليبدأ كتابه باسم الله الاهه ، ويطالبنا بأن تتبع دينه « الاسلام » وأن نذهب اليه مسالمين مسلمين . طارحين وراءنا الآلهة الأخرى كافرين بالشمس ، منكرين لقدرتها مقرين بأن للكون الها واحدا مفردا وتنزه عن مشابهة للحوادث لا اله الا هو وحده ، واسلامكم انفسكم واتجاهكم اليه مسلمين بدينه الاسلام ! !

« قالت يا أيها الملأ .. افتونى فى أمرى ، ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون » ! !

ونظر القوم بعضهم الى بعض فى تساؤل .. ثم لم يجدوا سوى أن يسلموا الأمر الى ملكتهم ـــ فى غير ضعف .. وفى صوت واحد وفى حماس شديد :

« قالوا نحن اولو قوة واولو بأس شديد والأمر اليك . فانظرى ماذا تامرين ؟ !!

وران الصمت على قاعة العرش ..

وزفرت بلقيس عن كبد حرى وهزت رأسها فى أسى ولوعة وتخيلت الغد البغيض وقد تكشفت لها حجبه مخضبة بالدم !! ووجدت نفسها فى النهاية تقول :

ـــ ياقوم .. « ان الملوك اذا دخلوا قرية أفسدوها ، وجعلوا أعزة أهلها أذلة ، وكذلك يفعلون » .. !!

وهكذا دأبهم ما تعاقبت الأيام .. فهم اذا غلبوا قرية ، ودخلوها عنوة خربوها وأبادوا حضارتها وتحكموا فى رقاب أهليها ..

وسمع القوم القول الفصل فى حديث ملكتهم .. وبان لهم وجه الصدق فعلا ، ولكنهم حاروا من جديد اذ لم تصارحهم بما انتوت ان تفعل ولا كيف ستجيب على كتاب سليمان ..

واقترب المشير من عرش سيدته يسألها ايضاحا لما سوف تفعل .. واذا ببلقيس الذكية تقول :

« وانى مرسلة اليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون » ؟ !

وخرجت المواكب من « **سبأ** » تحمل الهدايا الثمينة المحملة بكل غال ونفيس عبر الصحراء الى مملكة سليمان ، الذى رحب برسل ملكتهم «**بلقيس**» وما كاد يرى ما حملوه اليه من هدايا حتى بادرهم بقوله :

« أتمدونن بمال .. فما آتانى الله خير مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون » ! !

ووجد نفسه يقرر بالنسبة لها أمرا انتواه عن جد واصرار . ونادى سليمان الهدهد ..

وسرعان ما كان الطائر بين يديه خاضعا ينتظر أمر مولاه فقال له :

« ارجع اليهم .. فلنأتينهم بجنود لاقبل لهم بها ، ولنخرجنهم منها اذلة وهم صاغرون » ! !

ثم خطرت ببال سليمان فكرة غريبة فالتفت الى من حوله من انس وجن وطيور وقال :

— « يا أيها الملأ : أيكم يأتينى بعرشها قبل أن يأتونى مسلمين » ؟ !!

لقد كانت فكرة رائعة فعلا ، ان هذا الملك الرحيم يؤيده رب قادر سخر له الريح والجن وعلمه منطق الطير وأعطاه السلطان على الناس وجعله داعية امن وسلام !!

وران الصمت على جنود سليمان كلهم حتى « **قال عفريت من الجن : أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك .. وانى عليه لقوى أمين** » !!

وابتسم سليمان .. وقبل أن يأذن لجنديه الامين بانفاذ ما وعد ، ارتفع صوت جندى آخر على علم من الكتاب وقوة أكبر :

« قال الذى عنده علم الكتاب : أنا آتيك به قبل أن يرتد اليك طرفك » ! !

وسرعان ما كان عرش بلقيس بين يدى سليمان ! !

« فلما رآه مستقرا عنده قال هـذا من فضـل ربى ليبلونى أأشـكر أم أكفر ؟! ومن شكر فانما يشكر لنفسه ، ومن كفر فان ربى غنى كريم » ! !

وراح سليمان يتأمل معجبا عرش بلقيس ، واذا بفكرة جديدة تخطر له ، فالتفت الى جنده وقال :

« نكروا لها عرشها ننظر أتهتدى (؟) أم تكون من الذين لا يهتدون » ؟!

واسرع الجن يغيروا فى عرش بلقيس ويبدلوا فيه ، ليكون فى انتظارها ساعة تهل على أورشليم ...

واخذت طلائع الركب القادم من سبأ تتقدم من عاصمة سليمان يتوسطه هودج رائع جلست فيه بلقيس فى كامل بهائها ، واستقبلها سليمان فى بساطة يرحب بها .. واذا بها تشاهد عرشا كعرشها ..

ووقفت بلقيس فى دهشة المأخوذة ترقب ما كانت تراه وهى تكاد تكذب عينيها ! !

ووصل الى اذنيها صوت سليمان يسألها :

« قيل أهكذا عرشك » ؟ !

فقالت كالمشدوهة : **« كأنه هو » ! !**

« وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين » ! !

ويخيل اليها انها فى حلم بهيج .. وأنصتت الى صوت سليمان الخفيض الوادع الذى عاد يقول لها مرحبا : **« ادخلى الصرح » ! !**

واشار لها لتتقدم .. واطاعت بلقيس وتقدمت الى الصرح **« فلما رأته حسبته لجة »** .. واحست بالحرج من أن تعود .. ولم تجد بدأ من أن تخوض الماء ورفعت ثوبها **« وكشفت عن ساقيها » ! !**

وابتسم سليمان فى صفاء ورقة ، وأكد لها انه لا لجة هناك ولا ماء .. فتقدمت نحوه وهى خجلة تتعثر ، ولم يجد ازاء ذلك الا أن يشرح لها الأمر : **« قال : انه صرح ممرد من قوارير » ! !**

وجلست بلقيس لتستريح .. لقد أذهلها كرم سليمان وثراؤه ، واحست بأنها وملكها لاتكاد تكون شيئا الى جانبه !! ..

وراحت تنصت الى حديثه فى اعجاب وتمعن ، وقد داخلها احساس بأن لمكانة هذا الرجل وعلو كعبه صلة بدينه وسمو هذا الدين .

وأحست بلقيس من نفسها ميلا الى دين سليمان .. الى ربه الله الرحمن الرحيم . وراحت خلال أيام ضيافتها تسأل وتتقصى لتعرف وتتعلم .. حتى

اذا كان ذات يوم ، وهما يستعرضان بعض ما عن لهما من أمور الملك والتحالف الذى كانا يضعان أسسه ــ سمع سليمان بلقيس تهتف من أعماقها :

« رب ، اني ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين » ! !

وهكذا آمنت « بلقيس » بوحدانية الله ، وندمت على اتباعها طريق الشرك والضلال ، وسجودها للشمس من دون الله ..

أسلمت بلقيس ملكة سبأ بقلبها وضميرها ووجدانها وتوجهت الى الله رب العالمين .. مسلمة مسلمة ، ووجدت فى الاسـلام دين الفطرة ، نور القلب ، وراحة الضمير ، وحصن الأمان ، ودين الحق ، ودعوة الأخاء التى تجمع العالمين ولا يكون بين البشر من المؤمنين به الا ما أمر به الله من اخـاء وعدل وسلام ..

***

ومرت الأيام ..

وان سليمان الحكيم ، الذى ورث الملك فنبه شأنه وعظمت مكانته ، والذى أعطاه الله فوق ما ورثه ملكا خاصا ، فسخر له الريح ، تجرى بأمره رخاء حيث أصاب ! والشياطين (!) كل بناء وغواص ! وعلمه منطق الطير ، وآتاه الحكمة التى يعظ بها ابنه « رمزيا » ويوجهها « واقعيا » الى الشعب فيحدثه عن الحكمة ويشرح له المعصية ويدعوه الى مجانبتها ، ذلك لأن بنى اسرائيل نسوا « الوصايا » المقدسة ! .

وتخيف سليمان الحكيم تلك البداية السـائرة بالشعب الى نهـاية اليمة ، فيتوجه له بالنصح ويسوق اليه الأمثال :

« يا بنى (!) ان قبلت كلامى واحتفظت بوصـاياى ... وبحثت عن الحكمة وطلبتها كطالبك الفضة وبحثت عنها بحثك عن الكنوز ، فسوف تفهم حينئـذ مخافة الرب ، وسـتعرف وقتها من هو الله الذى يؤتى الحكمة والمعرفة والفهم » !

« اذا دخلت الحكمـة قلبك ولذت لنفسك المعـرفة ، فسوف يحفظك العقل ، وينصرك الفهم ، ويبعدان بك عن طريق الشيطان والكذب ، من تركا سبل الاستقامة واتبعا مسالك الظلام ، من فرحا بفعـل السـوء وابتهجا بالأكاذيب فاعوجت طرقهم والتوت بهم السبل (!) وسينقذك العقـل من المرأة الأجنبية الغريبة الناعمة الحديث التاركة أليف صباها والناسية عهد ربها ، لأن بينها يسوخ الى الموت (!) وسبلها الى الأخيلة وكل من دخل اليها لا يعود (!) فاسلك طرق الصالحين فمن استقام ورث الأرض ، ومن سلك سبيل الشر كتب على نفسه الفناء » (١)

---

(١) الاصحاح الثانى ــ الامثال ــ

« لا تعتمد على فهمك بل توكل على الله بكل قلبــك ، وآمن به ايمــانا راسخا يقوم سبلك .. ولا تظنن فى نفسك الحكمة ، واتق الله وابعــد عن الشر ، وأكرم الرب من مالك ومن كل باكورات غلتك ، فتمتلىء خزائنك شبعا وتفيض معاصرك مسطارا .. »

« يا بنى (!) لا تحتقر تاديب الرب ولا تكره توبيخه ، لأن الذى يحبــه الرب يؤدبه ويسر به كما يسر الأب بابنه » !

« الرب بالحكمــة أسس الأرض ، وأثبت السموات بالفهم . بعلمــه انشقت اللجج ، وتقطر السحاب ندى » ..

« هذه الستة يكرهها الرب ، وسبعة هى مكرهة نفسه » :

« عيون متعالية ، لسان كاذب ، أياد سافكة دما بريئا ، قلب ينشىء أفكارا رديئة ، ارجل سريعة الجريان الى السوء ، شاهد زور يفوه بالأكاذيب ، زارع خصومات بين اخوة » ..

« موازين غش مكرهة الرب ، والوزن الصحيح رضاه »

« ياتى الكبرياء فياتى الهوان ، ومع المتواضعين حكمة »

« استقامة المستقيمين تهديهم ، واعوجاج الغاوين يخزيهم »

« لا ينفع الغنى يوم السخط ، اما البر فينجى من الموت »

« بر الكامل يقوم طريقه ، اما الشرير فيسقط بشره »

« المحتقر صاحبه ناقص الفهم ، اما ذو العقل فيسكت »

« الساعى بالوشاية يفشى السر ، والأمين الروح يكتم الأمر »

« حكمة المراة تبنى بيتها ، والحماقة تهدمه بيدها »

« ذبيحة الأشرار مكرهة الرب ، وصلاة المستقيمين مرضاته »

« من يسد اذنيه عن صراخ المسكين فهو ايضا يصرخ ولا يستجاب له » !

« وجه قلبك الى الأدب واذنيك الى كلمات المعرفة »

« لا تمنع التاديب عن الولد ، لأنك ان ضربته بعصا لا يموت ، تضربه أنت بعصا فتنقذ نفسه من الهاوية .. »

« الخمر مستهزئة ، والمسكر عجاج ، ومن يترنح بهما فليس بحكيم »

« يا بنى احفظ وصايا ابيك ! ولا تترك شريعة امك ، اربطها على قلبــك دائما وقلد بها عنقــك ، فاذا ذهبت تهــديك ، واذا نمت تحرســك ، واذا استيقظت حدثتك ، فالوصــية مصباح ، والشريعة نور وارشاد ، والأدب طريق الحياة » !.. (١)

ولكن اسرائيل لم تعمل بحكم سليمان ولا بشريعة موسى .. واستمرت فى ضلالاتها ..

(١) الاصحاح السادس — الامثال — و

ولا شك أن حكم سليمان تصور لنا الأعراض الاجتماعية الخطيرة التى كانت متفشية فى المجتمع الاسرائيلى .

ولا شك أن الغرض من هـذه الحكم التى كان يرسـلها رجل آتاه الله الحكمة ، كان الغرض منها تنوير الشعب ودفعه عن السبيل المعوجة التى كان يسلكها ..

ولكن اسرائيل قد سدرت فى غوايتها ولم تستجب لنـداء الحكمة .. فاذا بالملك العريض ينهار بعد سليمان واذا بالهلع يسود القـلوب ويغمرها عندما أنصت الخطاة الى نبوءة موسى وقد قال ما قال عن انقسام اسرائيل وزوال ملكها ! !

وانقسمت الدولة الواحدة الى قسمين : اسرائيل فى الشمال ، ويهوذا فى الجنوب ..

وقد اجتاحت بابل الشمال وساقت أهله الى الأسر والمذلة .. وبعدها بقرنين أو يزيد اجتاحت جيوش الكلدان الجنوب وخربت الشمال أيضـــا وساقت الشعب جميعه الى أسر واسـتعباد عاد باذهان بنى اسرائيل الى استعباد فرعون !

وعاد الشعب الخاطىء من جديد يذكر ربه ويتصور مقدم رسول عظيم مثل موسى ينقذه من الهوان .. رسـول مسحه الله بيـده ووكل اليه أمر الخروج بالشعب من اساره والعودة به ثانية الى موئل مجده وبيت عزه ..

وطال بهم الحنين الى مقدم ذلك « **المسـيح** » الذى تصوره نبيهـم « **أشعياء** » فى شخصية الملك « **كورش** » الذى فك اسارهم وأعادهم الى ديارهم .

وانا لنسمعه فى نبوءاته يشير اليه ويقول عنه :

« هكذا يقول الرب فاديك وجابلك من البطن : أنا الرب صانع كل شىء ناشر السموات وحدى وباسط الأرض ، ومبطل آيات المخادعين ومسفه آراء العرافين ومعيد الحكمة الى مغاليقها ومقيم كلمة عبده ومتمم رأى رسله القائل عن أورشليم : ستعمر ، ولمدن يهوذا : سيعاد بناؤك وتقام خرائبك .. القائل للجة انشفى وأنهارك أجفف ، والقائل عن كورش راعى ومتمم مسرتى الذى سيقول ان أورشليم ستبنى وان الهيكل سيؤسس .. »(١)

« هكذا يقـول الرب لمسيحه لكورش الذى امسكت بيمينـه لأدوس امامه أمما وأحلل حقوق ملوك وأفتح أمامه المصراعين فلاتغلق دونه أبواب ..

---

(١) الاصحاح الرابع والاربعين من « اشعيا » .

انا اسير امامك امهد الهضاب واكسر مصاريع النحـاس ومغاليق الحديد واعطيك ذخائر الظلمة وكنوز المخابىء لكى تعرف انى أنا الذى يدعوك باسمك اله اسرائيل .. انا الرب لا اله غيرى ولا معبـود سواى لقبتك وأنت لم تعرفني لكى يعرفوا من المشرق الى المغرب أنه لا اله الا أنا وانى الله ولا اله غيرى مصدر النور وخالق الظلمة وصانع السلام وخالق الشر » .. (١)

ويعود شعب اسرائيل مرة اخرى الى أورشليم وسامريا ليعيش فى ذكرى الماضى فلا جاه ولا ملك ولا عز ولا رفاهية بل سلطان روحى للأحبار ولرجال الكهنوت وحياة فيها نسك وتعبد وترنيم لحوادث المـاضى وذكريات العز .. ثم التشفى فى بابل وآشـور وكلديا التى زالت وزال مجدها ، وان فى الرثاء « الرمزى » الذى يقوله « أشعياء » مايفسر نظرة القوم الى تلك الأمم الباطشة التى جرعتهم الصاب وخلعت عنهم اردية العز ، وأزالت عريض ملكم الى الأبد فلم تقم له قيامة بعد تلك السقطة النكراء !.. وهيهات أن تقوم ..

« انزلى واجلسى على التراب أيتها العذراء ابنة بابل ! اجلسى على الأرض بلا كرسى يا ابنة الكلدانيين لأنه لم يعد لك ما تدعينه من النعومة والترف . خذى الرحى واطحنى دقيقا واكشفى نقابك وشمرى عن ذيلك » !

« اكشفى الساق واعبرى الأنهار .. تنكشف عورتك ويظهر عارك ! ! آخذ نقمة ولا أصالح احدا .. فادينا رب الجنود اسمه قدوس اسرائيل .. اجلسى صامتة وادخلى فى الظلام يا ابنة الكلدانيين لأنه لم يعد لك بعد أن تتسمى باسم « سيدة الممالك » .

***

ودخل شعب اسرائيل بعد ذلك تحت سلطان الرومان وراح من جديديفكر فى الخلاص ولا جدوى فاتجهت أفكاره وخيالاته الى ذلك المنقذ المنتظر الذى سوف يقوم فيهم بدور موسى الذى خرج بهم من أرض مصر وانقذهم بأمر الله من فرعون وقومه ، وبدور « كورش » مسيح الرب الذى فك اسارهم وحطم ملك الكلدان وآشور وبابل واعادهم مرة أخرى الى أوطانهم ، ولكنه لم يعد اليهم ملكهم الذى زال ومجدهم الذى تلاشت صوره وانمحت من على وجه العالم ظلاله ! ! .

اتجهت افكار الشعب الى ذلك المخلص المنتظر ، الذى سيزيل الفوارق بين الطبقـات ويجعلهم سواسية امام الشريعة التى اسـتأثر بها اللاويون والكتبة الفريسيون والأحبار ، واحاطوا انفسهم بسياج من الغموض والابهام ويعيد اليهم مرة أخرى مجدهم الذى زال ويحررهم من نير الرومان .

---

(١) الاصحاح السادس (اشعياء) .



« واذكر فى الكتاب مريم اذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا فاتخـذت من دونهم حجابا ، فأرسلنا اليها روحنا ، فتمثل لهـا بشرا سويا ..

« قالت : انى أعوذ بالرحمن منك ان كنت تقيا ..

« قـال : انمـا أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا . .

« قالت : أنى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ، ولم أك بغيا ..

« قال : كذلك قال ربك هـو على هين ، ولنجعله آية للنـاس ورحمة ، منا (!!) وكان أمر مقضيا » .

(سورة مريم)

عيسى عليه السلام

((اذ قالت الملائكة : يامريم ان الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيها فى الدنيا والآخرة ومن المقربين ، ويكلم النـاس فى المهـد ، وكهلا ، ومن الصالحين)) !!

(سورة آل عمران)

ومرت أعوام فى أثر أعوام ... وتمزق ملك سليمان الحكيم بعد موته ، ومن جراء الترف الذى مارسه ، ولم يستطع وريثه ((رحبعام)) أن يسير على نهجه فتقوض الملك وتعرض اليهود للغزو ، ودخل ((شيشاق)) فرعون مصر حاضرتهم واستباح معبدهم وأخذ مافيه من أموال ودروع ذهبية ونذور ..

وانقسم الملك ... ثم زال نهائيا على يد أهل بابل من العراقيين ، وسيق اليهود جميعا مكبلين الى الاسر ... وظلوا فيه سنين بعد سنين حتى توالت العصور ، وجاء المقدونيون الى بابل ... وابيحت لليهود بعض الحـريات ومنها حرية الخروج حيث يشاءون ...

ولكن ... هل عاد اليهود الى الأرض التى طردوا منها !!

لا ... لم يعودوا .. لقد تقطعـوا فى الأرض وتفـرقوا ايدى سبا ؛ وساحوا فى جوانب العالم ، وساروا وراء المطامع والأهواء ورغبتهم فى جمع المال لاسترداد مجد العجل الذهبى المعبود ..

((وقطعناهم فى الأرض أمما ، منهم الصالحون ومنهم دون ذلك ، وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون)) .

وبقيت قلة ... وهذه القلة عادت الى الارض التى طردوا منهـا ... عادت ذليلة مهيضة الجناح لتقضى العمر فى التحسر والبـكاء على مافات ، والنوح المستمر عليه عساه يرجع أو يعود ولو فى الخيال ...

لقد عاش اليهود سنين الأسر البابلى فى العويل والنوح وترديد المراثى النادبة واستمطار اللعنات على رءوس من جرعوهم صاب الذل وأرغموهم على شرب كأس المهانة ، بعد أن ظنوا أنهم نسوها يوم خرجوا مع موسى من مصر .. ونورد هنا بعض أبيات من أحد المزامير الموجودة فى التوراة :

« هناك على انهار بابل جلسنا .. وبكينا عندما تذكرناك يا صهيون ..

« وعلى أشجار الصفصاف علقنا أعوادنا .. بعد أن طلب منا الذين سبونا ان نغنى لهم اغنية من اغانى صهيون ..

« شلت يمينى ان نسيتك يا اورشليم ..

« ليلتصق لسانى بحلقى ان لم أذكرك يا أورشليم .. ان لم أفضلك على أعظم افراحى » ..

وعلى انهار بابل ... وفى ظل أمجـــاد آشور الفاتحة ، حلالهــم أن يسترجعوا الماضى ، ويجمعوا ما فات ... حتى الالواح العشرة ... كانت قد تبددت ... وضاعت مع آيات المجد الذى ضــاع فـكان من اللازم أن يدونوها ولكن باى عقل .. واى تفكير !!

وفى ظلال الأسر ... ومع رنين السلاسل والأصفاد التى كانت تدوى فى خيالهم ـ بدأ اليهود يجمعون شتات الفكر ، وراح « عزرا » يدون ويسجل بيد اضعفتها القيود ، وذهبت بقواها الاصــفاد ، وعقلية تعانى فى صمت ، وتختزن فى قرارة النفس الحقد والغل للناس أجمعين ...

وسجل « عزرا » الوصايا العشر ... ثم راح يؤرخ للأحقاب التى مرت بابناء اسرائيل منذ الخروج حتى الأسر ، ولم يفته أن يعــوض على الأوراق ماضاع فى عالم الحقيقة ، فراح يصور البطش الاسرائيلى والقوة اليعقوبية ، والمقدرة التى اختص بها ذلك النفر من الناس دون الخلق جميعا !!

وكانت الشريعة محور العقدة النفســية الكبرى .. كان الأصــــل .. العريق موضع التعالى ، وكان التفاخر بابراهيم محور الكبرياء ...

ثم كانت القدرة ... كانت الذات الكبرى بعد هذا موضع الأخذ والرد والجدل العقيم !!

كان ابناء اسرائيل يعتبرون ان الله ربهم وحدهم ... الههم دون سائر الشعوب ، وانه اختصهم بذاته وقدراته وأباح لهم كل محظور ... حتى دماء البشر واعراضــهم وأموالهم جعلها حلا مباحا للمصطفين من أبنـــاء اسرائيل !!

وراحوا خلال احلامهم الدموية هــذه ، يتصورون ويتخيلون ، وهم فى اقيد عجزة لايقدرون على شىء الا الاسراف فى التخيل ... وتخيل الشر بالذات فخرجوا على لب الشرائع ، واجترأوا على القدرة ، وجعلوا يد الله معهم وذراعه تهز الدروع وتتحرك ملوحة غاضبة من اجلهم ...

بل جعلوا الله رب حرب ودماء يدعوا الى الخراب وابادة الشعوب جمعاء ليبق أبناء اسرائيل سادة حاكمين !!

ولما مرت قرون وقــرون وهم حيث هم ، مـكتفين من أحلام السيادة بالتخيل .. فقــد حلالهم فى موكب هــوانهم وذلهم أن يستسلموا الى حلم جديد ...

لقد بدأوا يحلمون بالمنقذ المخلص الذى سيرفع عنهم قيد الذل ويعيد اليهم مافات ، واستندوا فى ذلك الى نبؤات قديمة ... وأسرعوا الى أسفارهم يسألونها عن المنقذ المخلص ومتى يجىء !!

وفى ((اشعياء)) وجدوا بغيتهم !!

وجدوا ماكانوا يرجونه ، وجدوا صفات المنقذ المخلص الذى سوف يأسو الجراح ، ويعيد مافات ويمسح عن جبين العالم ماقاساه من ذل وهوان

وعاش اليهود على تصور مقدم ((**المسيح**)) مسيح الله الذى سوف يمسح الأحزان عن جباههم ويبشرهم بالملكوت ..

والملكوت فى نظر اليهود هو : الملك ، والتسلط ، وتحقيق الأحلام الباطشة ، وجعلها حقائق تعوض مافات وتعيد ماضاع ولو جرى الدم انهارا ، واستشهدت أمم وشعوب ليسود هؤلاء الناس !!

اذا ... فقد كان مقدم ((**المسيح**)) حلم اليهود ... الحلم الذى كان الحنين اليه يتضاعف يوما بعد يوم ، ويزيد عاما بعد عام ، مع اسراف فى التخيل ومبالغة فى التصوير ...

وتولى ملك الاغريق وجاء الرومان ، واليهود حيث وضعوا انفسهم ... غرباء عن الناس بالفكر والعقيدة والتصورات ... ضوارى جائعة لاتشبع تتوجس من الناس خيفة ، وترهب شرا لا وجود له ، وتتربص بالناس دون سبب .. فعاشوا كما عاشوا ، وكما سيظلون يعيشون ... غرباء وسط المجموعة البشرية ... متباعدين عن الناس وعن بعضهم بعضا ، وان اتجهت احلامهم جميعا الى المنقذ المنتظر متعجلة مقدمه السعيد لتنطلق معه الأحقاد ويسرعون لتعويض مافات !!

عاش اليهود خلال تلك العصور فى بعض قرى فلسطين ... عاشوا وهم قلة مستكينة الى جانب الفلسطينيين أصحاب البلاد ... الى جانب الكثرة الغالبة من العرب الانباط صاحبة الحضارات والآداب التى تميزت بحب الانسانية وتمجيد الجوار ، والسعى الى توثيق العرى والصلات ...

عاش اليهود هناك فى « حواريهم » و « ازقتهم » المنعزلة ، فلم يأبه لهم الانباط الأمجاد الكرام وان آبه لهم واهتم بهم الرومان ، اذ وجدوا فيهم المطايا الذليلة والعملاء الذين يتجسسون لحسابهم وينقلون اليهم ما يودون معرفته عن احلام وتصورات أهل البلاد المحتلة الذين كانوا يضيقون فعلا بالفساد الرومانى ...

وعظمت مع مسير الزمن احلام اليهود ، وطال حنينهم للمسيح المنتظر ... وظهرت بشائر مقدمه ، وتوقع اليهود ظهوره ، وتنادوا به ..

ثم ...

كانت روما فى ذلك العهد سـيدة العالم .. وكانت أمة تعبد الأوثان وتسجد للاباطرة وتقدس تماثيلهم وتضرع فى بعض الاحايين اليها ..

ولقد ملكت روما فى جملة ما تملكت ـ تلك البقعة من الأرض التى يقيم فيها شعب اسرائيل ...

ولقد كان من اللازم ـ فى عرف أصحاب الدين ، وقد احتك شعب وثنى بآخر على دين سماوى ـ أن يؤثر الأصيل فى الدخيل ، ويبهر الدين السماوى أنظار اولئك الذين يسجدون للصنم حتى ولو كانوا سادتهم .

ولكن أحبار اسرائيل وكهانهم والكتبـة واللاويين ظلوا على حالهم من النفور والعزلة والبعد بالدين عن المحيط العالمى الذى أصبحوا فيه ...

واوجد حكم الرومان نظام الطبقات ، فكان هناك المترفون المنعمون ـ وهم اقلية ضئيلة ، والفقراء البائسون وهم الكثرة الغالبة ...

ولقد سدت آذان الفئة الأولى وران الظلم على قلوبهم ، وأنساهم وهج النضار وما هم فيه من عز وثراء وصايا ربهم وشرائعه .. فى حين كانت الفئة الثانية على العكس منهم ، يبيتون على الطوى ويلبسون الخلق من الثياب .. ومع ماهم فيه من فقر وادقاع ومسغبة وذلة وهوان لم ينسوا الله ، ومافتئوا يذكرونه فى كل وقت معلنين رضاءهم بما هم فيه ولا مطمع لنفوسهم الا فى رحمة الله ورضاه ..

وفى هذا العصر ظهرت شخصيتان لهما خطرهما الدينى .. كما ان بينهما تشابها كبيرا فى مولدهما ورسالتهما ايضا !!

اولاهما : شخصية « يحيى بن زكريا » عليه السلام ـ وهو « يوحنا المعمدان » فى التوراة .

وثانيهما : شخصية المسيح عيسى بن مريم .

* * *

« اذ قالت امراة عمران : رب (!) انى نذرت لك مافى بطنى محررا ، فتقبل منى انك انت السميع العليم » .

« فلما وضعتها قالت : رب انى وضعتها أنثى (!) والله أعـلم بمـا وضعت ، وليس الذكر كالأنثى ، وانى سميتها مريم ، وانى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم » ! !

« فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتا حسنا » ..

كان **« زكريا بن برخيا »** ممن يخـدمون الهيكل .. فجاءته يوما امراة عمران ـ أخت زوجته ـ لتقدم له ابنتها « مريم » التى نذرتهـا لخـدمة الهيكل ، فأراد كل واحد من خدام الهيكل أن يكفلها ..

« .. اذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم .. » ؟ !.

والقوا القرعة على ذلك فكانت مريم من نصيب زكريا ..

« وكفلها زكريا » ..

« كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا ، قال : يا مريم انا لك هذا « ؟ » » ..

« قالت : هو من عند الله ، ان الله يرزق من يشاء بغير حساب » !!

ولما كان زكريا قد بلغ من الكبر عتيا وكانت امراته عاقرا وبلغ به اليأس من أن يكون له ولد ، فقد حفزته كلمات مريم واكرام الله لها ورزقها من حيث لاتحتسب — على أن يطرق باب الدعاء لربه عسى أن يرزقه ذرية طيبة .. اذ كان يخشى على بنى اسرائيل أن يبتلوا بمواليه الذين يلون الرياسة فيهم من بعده لما يعلمه عنهم من عدم استمساكهم بالشريعة واصولها ..

وراح بكل ما تبقى لديه من أمل ورجاء يناجى ربه

« قال رب : انى وهن العظم منى واشتعل الرأس شيبا ، ولم أكن بدعائك رب شقيا ، وانى خفت الموالى من ورائى وكانت امرأتى عاقرا ، فهب لى من لدنك وليا يرثنى ويرث من آل يعقوب ، واجعله رب رضيا » ..

وسرعان ما غمره احساس جميل وهواتف عليا احتاطته ..

« فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب : ان الله يبشرك بيحيى ، مصدقا بكلمة من الله وسيدا وحصورا ونبيا من الصالحين » ! !

ودهش زكريا وكادت تعصف به البشرى فهتف مستغربا :

« قال رب ، أنى يكون لى غلام ، وقد بلغنى الكبر وامرأتى عاقرا ! !

« قال كذلك الله ، يفعل ما يشاء » ! !

« قال رب ، اجعل لى آية » ! !

« قال : آيتك الا تكلم النـاس ثلاثة أيام الا رمزا ، واذكر ربك كثـيرا وسبح بالعشى والابكار » ! !

ولكى نجمـع بين التشـابه فى مولد يحيى بن زكريا ، ومولد عيسى بن مريم — **خاصة وان زوجة زكريا « حنة » كانت حاملا فى الوقت الذى كانت مريم حاملا هى بدورها فى عيسى ، كما يقـول أهل الكتاب** ... ونورد هنـا بقية ما جاء فى سورة آل عمران :

« واذ قالت المـلائكة يا مريم ان الله اصطفاك وطهـرك واصطفاك على نساء العالمين (!)

« يا مريم أقنتنى لربك واسجدى واركعى مع الراكعين » !!

« يا مريم ، ان الله يبشرك بكلمة منه ، اسمه المسيح عيسى بن مريم ، وجيها فى الدنيا والآخرة ومن المقربين ، ويكلم النـاس فى المهد وكهلا ومن الصالحين » ..

« قالت : رب ، انى يكون لى ولد ولم يمسسنى بشر » !

« قال : كذلك الله يخلق ما يشـاء ، اذا قضى أمرا فانما يقول له كن ، فيكون » ! !

وقد مهد يحيى بن زكريا لرسالة عيسى عليه السلام .. وكل الأنبياء كانوا يبشرون بالرسل التى تليهم ، غير ان التشابه القوى الذى يربط بين رسالة يحيى وعيسى تؤكده الآيات القرآنية من سورة « مريم » :

« يا يحيى (!) خذ الكتاب بقوة (!) وآتيناه الحكم صبيا ، وحنانا من لدنا وزكاة وكان تقيا ، وبرا بوالديه ولم يكن جبارا عصيا (!) وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا » !

وكذلك فى قوله تعالى عن المسيح عيسى بن مريم :

« قال : انى عبد الله (!) آتانى الكتاب ، وجعلنى نبيا ، وجعلنى مباركا اينما كنت ، وأوصـانى بالصـلاة والزكاة ما دمت حيا ، وبرا بوالدتى ولم يجعلنى جبارا شقيا (!) والسلام على يوم ولدت ، ويوم أموت ، ويوم أبعث حيا » ! !

« ذلك عيسى بن مريم ، قول الحق الذى فيه يمترون ، ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه ، اذا قضى أمرا فانما يقول له : كن ، فيكون » !!

* * *

كان « يحيى بن زكريا » المعروف باسم « يوحنا المعمدان » أحد حملة الشريعة الموسوية ، ومرجعا مهما لكل أحكامها ، ومن كبار فقهائها ، ومعمد اليهود بالماء المقدس ، وداعيتهم الجرىء الى التـوبة ، ومبشرهم باقتراب ملكوت السماء ، ويوم الدينونة الكبرى ، كان رجل حق ودين ..

وكان زاهدا بسيطا .. « لباسه من وبر الابل وعلى حقويه منطقة من جلد ، وكان طعامه جرادا وعسلا بريا » (١) .

كان يقدم للمسيح عيسى بن مريم وهو يصرخ فى البرية قائلا :

« توبوا ، لأنه قد اقترب ملكوت السموات » !!

---

(١) انجيل متى .

« أعدوا طريق الرب ، اصنعوا سبله مستقيمة ، كل واد يمتلىء ، وكل جبل أكمة ينخفض ، وتصير المعوجات مستقيمة ، والشعاب طرقا سهلة ، ويبصر كل بشر خلاص الله » (١) .

وراح يؤكد انه جاء ليفسح طريق الرب ، ويطهر بالماء الخاطئين والمذنبين ، وانه سيأتى من بعده من سوف يعمد بالنار والروح القدس ..

« أنا أعمدكم بماء التوبة ، ولكن الذى يأتى بعدى هو أقوى منى ، الذى لست أهلا أن أحمل حذاءه ، هو سيعمدكم بالروح القدس ونار » ! !

وكان فى صرخته خير تقدمة لرسالة عيسى عليه السلام ، كذلك كان فى تعاليمه ، وكان صريحا لا يداهن ولا يرائى .

وقد كابد يحيى العنت من قومه اليهود ، كما لقى العسف من محاربة اهل السلطة له ..

وقد سألته الجموع عن اختلاف الطبقات بين الناس : ماذا نفعل ؟!

فأجاب : « من له ثوبان فليعط من ليس له ، ومن له طعام فليفعل هكذا .. » .

وقد ورد فى انجيل لوقا : **« فلما رأى كثيرين من الفريسيين والصدوقيين يأتون الى معموديته قال لهم : يا أولاد الأفاعى ، من أراكم ان تهربوا عن الغضب الآتى ؟ فاصنعوا أثمارا تليق بالتوبة . ولا تفتكروا ان تقولوا فى انفسكم لنا ابراهيم أبا ، لأنى أقول لكم ان الله قادر أن يقيم من هذه الحجارة أولادا لابراهيم !! والآن قد وضعت الفاس على أصل الشجر ، فكل شجرة لا تصنع ثمرا جيدا تقطع وتلقى فى النار » (٢) .**

هكذا صرخ يوحنا فى الفريسيين والصدوقيين .. وقد تطاولت دعاواهم بأنهم أولاد ابراهيم وكفى ، وصدق الله حيث يقول فى القرآن الكريم :

« ان أولى الناس بابراهيم الذين اتبعوه ، وهذا النبى ، والذين آمنوا ، والله ولى المؤمنين » !

« ليس بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب ، من يعمل سوءا يجز به ، ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا » ..

ونفس الصرخة صرخها المسيح فى نفس هذه الفئة :

« ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراؤون ، لأنكم تشبهون قبورا مبيضة ، تظهر من الخارج جميلة ، وهى من الداخل مملوءة عظام أموات وكل نجاسة » !!

(١ ، ٢) انجيل متى .

« هكذا انتم ايضا ، من خارج تظهرون للناس ابرارا ، ولكنكم من داخل مشحونون رياء واثما !! » .

« ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراءون ! ! لانكم تبنون قبور الانبياء وتزينون مدافن الصديقين ، وتقولون لو كنا فى أيام آبائنا لما شاركناهم فى دم الأنبياء » ! !

« وانتم تشهدون على أنفسكم أنكم أبنـاء قتلة الأنبيـاء ، فاملأوا أنتم مكيال آبائكم » ! !

« ايتها الحيات أولاد الأفاعي كيف تهربون من دينونة جهنم ؟ لذلك ها أنا ارسل اليكم أنبياء وحكماء وكتبة ، فمنهم تقتلون وتصلبون ! ومنهم تجلدون فى مجامعكم ، وتطردون من مدينة الى مدينة ، لكى يأتى عليكم كل دم زكى سفك على الأرض — من دم هابيل الصـديق الى دم زكريا بن برخيا الذى قتلتموه بين الهيكل والمذبح » ! !

« الحق أقول لكم : ان هـذا كله يأتى على هـذا الجيل . يا أورشليم يا أورشليم . يا قاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين اليها » ! !

« كم مرة أردت أن أجمع أولادك كما تجمع الدجاجة افراخهـا تحت جناحيها ولم تريدوا » ! !

« هو ذا بيتكم يترك لكم خرابا ، لأنى أقول لكم : انكم لا تروننى من الآن حتى تقولوا : مبارك الآتى باسم الرب » (١) .

* * *

لهذا نستطيع ان نقول أن سيرة يحيى عليه السلام تشابه الى حد كبير سيرة عيسى عليه السلام حتى فيما لقيه بعد ذلك من تعـذيب .. بل اننا لنرى هذا التشابه فى سير الأنبياء جميعا مما قصه الله من أخبـارهم فى القرآن الكريم .

ودعم عيسى معمـودية يحيى بأن ذهب اليـه فى الأردن عنـد بحيرة « **طبرية** » وسأله ان يعمده فكبر ذلك التواضـع فى عينى يحيى ومال على صاحبه القادم العظيم الشأن وقال له :

« أتأتى الى وأنا فى حاجة الى أن تقوم أنت بتعميدى » ؟ !

فأصر عيسى على أن يعمده يحيى ففعل ...

واذا كان « التعميد » يعتبر بمثابة « التصـديق » على « نبوة » النبى القادم ، فذلك تصديق لقول الله فى سورة « آل عمران » :

---

(١) مت

« وإذ أخذ الله ميثاق النبيين : لما آتيتكم من كتاب وحكمة ، ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم ، لتؤمنن به ولتنصرنه (!) قال : أأقررتم وأخذتم على ذلكم اصرى (؟!) قالوا : أقررنا ، قال : فاشهدوا ، وأنا معكم من الشاهدين ، فمن تولى بعد ذلك ، فأولئك هم الفاسقون » ! !

* * *

واستمر يحيى فى دعوته وظل عيسى على عهده .. حتى أمر « **هيرودس** » — أحد حكام فلسطين بقتل — « **يحيى** » .. وقدمت رأسه فى طبق ، ترضية لابنة اخيه « **سالومى** » البارعة الجمال بايعاز من أمها « **هيروديا** » لانه عارض فى زواجها منه ، لأنها كانت من قبل زوجة لأخيه فيليبس ..

فقد حكم « يحيى » على تصرفات هيرودس عميل الرومان ، بأنهـا تصرفات خليعة ماجنة تخالف الوصايا العشر ، وتخرج عليها خروجا يقضى بحتمية الحكم على مرتكبها بعقوبة الرجم !!

أليس هو من قال له ربه : « **يا يحيى خذ الكتاب بقوة** » !!

وسخر هيرودس حاكم الجليل من يحيى وحكمه ... ثم حكم بسجنه وقضى عليه بعد ذلك بالموت واقدم على ارتكاب الجريمة الخلقية المشينة التى حرمها الشرع وكرهها العرف وأبغضتها التقاليد واستباح لنفسه أرملة اخيه وابنتها الطائشة الخليعة « **سالومى** » ..

فقد أراد عمها أن يتزوج منها بعد أمها ، وعارض يحيى هذا بشدة لأنه محرم ، واستغلت الأم فرصة اعجاب زوجها بابنتهـا للتخلص من يحيى ، وجعلتها ترقص فى سخرية رقصتها الخليعة على أن يحقق لها أمنية .. وهى قطع رأس يحيى كطلب أمها هيروديا ...

وتمت الجريمة الشنعاء ..

ورغم هذا لم يرتفع صوت رجل من رجال الدين محتجا على ما حدث ، ولم يجرؤ كاهن من كهان اليهود ، على اتهام هيرودس بما اتهمه به يحيى الشهيد ، ومرت جريمة الزنا أمام عيون الاحبار وتحت سمعهم ، وكأنها عمل مشروع مبارك ، لأن مرتكبه كان من رجال السلطة الزمنية ، وكان عميلا من عملاء الرومان ..

ولعل أحبار اليهود فى تلك الفترة قد اعتبروا أن الاقدام على قتل داعية حق جرىء ، جريمة فردية ليس لهم أن يقحموا أنفسهم فيها رغم مخالفة مرتكبها للناموس والقانون حتى لقد مر الحادث فى هدوء وان آثار غضاضة وقتية فى بعض النفوس ثم نسيه الناس !!

فلماذا اذا لم يتحرك الأحبار والكهان للجراة على شريعة موسى ومخالفتها !!

لماذا لم يقفوا الى جانب قضية يحيى العادلة ويطالبون بدمه الزكى ، وينفذون حكم الشريعة فى هيرودس الزانى أولا و . . . القاتل بعد ذلك . . .

اكانت الشريعة الموسوية فى نظرهم تنظر الى المخالفة العلنية الصريحة نظرتين كلاهما تختلف عن الاخرى ؟ ! وهل كان الناس أمام حكم الله فيهم ليسوا سواء !!

لماذا اعتبروا سفك دم يحيى النبى جريمة شخصية ، وتغاضوا على جريمة خروج هيرودس على الشريعة ولم ترتفع أصواتهم بالمعارضة والاحتجاج !!

ولماذا وقفوا بعد ذلك فى عناد واصرار امام السيد المسيح يجادلونه وهو ينادى بأنه انما جاء « **ليقيم الناموس ويتمه** » !!

هل كان الهدم العلنى فى نظرهم جريمة مباحة مغفور لمرتكبها ، وهل كان الاتمام والاصلاح خروجا يستوجب العناد والعداء الشديد !!

لماذا لم يقف الكاهن الأكبر « قيافا » فى باحة هيكله يستعدى الرومان على هيرودس الزانى سافك الدم ، وترك الحادث الرهيب يمر ، ليقف بعد ذلك وسط مجمعه المقدس يصدر الحكم على السيد المسيح بالموت ، ويطلب من سادته الرومان أن يفتكوا به ؟ ! .

انه لموقف مريب ومثير ، وان فيه لحكما صارخا بخروج رءوس الشريعة الموسوية فى ذلك الوقت على صلب الشريعة ، واصرارهم على ذلك الخروج وكراهيتهم القاتلة لمن يحاول اصلاح الأمور ، وتصحيح الأوضاع حتى لو كان فيها اعادة البناء بالكامل واتمام الناموس الذى غيروا فيه وبدلوا وافتروا الكذب على الله ، وآتوا بمالم ينزل اليهم وبما أملته عليهم الرغبات والاهواء وكانوا على الله مفترين . . ! !

بل لماذا وقف اليهود .. الكثرة الغالبة منهم ومعهم احبارهم — يعارضون يحيى ويتحدونه ويعلنون كراهيتهم له ، ويحاولون فى عديد من المرات ايقاعه فى أيدى الرومان وتسليمه لهم ، باظهاره فى موقف المعارض لسلطان قيصر ، الداعى الى الخروج على طاعة الامبراطور . . ! !

كان اليهود وما يزالون قوما يتحكم فيهم مركب النقص ، وتتملكهم الرغبة فى التعالى على أساس تعويض ما فات أيام ما بعد الهزائم وضياع الملك وسوقهم كالأنعام الى الأسر والذلة والهوان ، فاتسمت تصرفاتهم الذاتية حيال انفسهم ، وحيال الشعوب ، وحيال الناس جميعا بميسم التابد والوحشية والرغبة الكامنة فى الافتراس والفتك متى تهيأت الفرصة لهذا . !!

ولما كان عيسى يستمع العظات من يحيى ويتقبل ((**العمادة**)) من يديه . فانه لما قتل ، لم يرهبه مصرعه الأليم ولم يثنيه عن المجاهرة بدعوته ؛ بل قام في الناس واعظا ومرشدا ، ونهض بأمانة الدعوة من بعده في بلاد الجليل .. ثم في بيت المقدس .. وفي الهيكل الأكبر نفسه ؛ معقل الأحبار والكهان وعاصمة ((**الدولة الدينية**)) في بني اسرائيل ..

وكانت رسالته أعظم فتح في عالم الروح ، لأنها نقلت العبادة من المظاهر والمراسم الى الحقائق الأبدية ، أو بمعنى أوضح : **نقلتها من عالم الحس الى عالم الضمير ..**

ثم ظهر عيسى بن مريم في الناصرة .. وعلا صوته في المعبد .. ودعا الناس الى الله .. واليهود الى الحق ..

وانتبه اليهود من أحلام التخيل ، ليجدوا أنفسهم أمام الحقيقة التي أبغضوها من اليوم الأول ..

لم يكن عيسى في نظرهم المخلص المنتظر !! لأنه يدعو الى السلام .. وهم أشد الناس كفرانا بالسلام !!

كان يدعو الى الحب .. وهم لا يقرونه ولا يعترفون به !!

كان ينادي بالاخاء .. وهو أمر لم يألفوه رطالما حاربوه !!

والأخطر من هذا كله أن عيسى كان لا يبشر بملكوت اسرائيل ، وعودة سلطانها .. بل بملكوت السماء ، ويحذر الناس من يوم الدينونة ، ويدعوهم الى التطهر وفعل الخير ..

والأدهى من هذا وأمر ، انه وقف يعارض الكتبة ويلعن الفريسيين ، ويسخر من عدم تفهمهم للكتاب ، ويجاهر بأنهم انما قد خرجوا على نص الشريعة وعلموا الناس باطلا وضلالا ..

وتلك كانت مشكلة المشاكل وكبرى العقد التي تحكمت في علاقات اليهود مع عيسى وجعلتهم يحسون خطره ويتجمعون على ضرورة توقي شرور دعوته ..

لقد اعتاد اليهود أن يكونوا هم الأنبياء والرسل وحملة الشريعة ، وان يكون الله ربهم وحدهم .. ولكن عيسى ينادي بغير ذلك !! .

ينادي بان الله انما هو رب الناس جميعا ، وان الدين له وحده ، وان الفضائل مرجعها اليه وانه دعى اليها ليكون للناس ثواب وعقاب ..

اذا .. وأمام هذا ، لم يكن عيسى هو مسيح اليهود .. بل مسيح الله .. مسيح البشر اجمعين ..

المسيح الرحيم داعية الرحمة ، رسول الانسانية والعدل والأخاء ، جامع الناس على دين الله ، وجمع الناس على دين الله انما يعنى أخاءهم ، وحب قريبهم للضعيف ، ومسـاندته ومواسـاته ، فلا أحن ولا تطـاحن ولا شرور !! وهذه أمور ما كان يقرها أشرار اليهود أبدا .

لقد خرج عيسى فى نظرهم على العرف ، وفتح أسرار المعرفة للراغبين ، وأباح الحكمة لمن يريدونها من الناس ، وحقق شرط « الامامة » الدينية والفكرية التى أرادها الله لحملة شريعته يوم أخرجهم من مصر .

« ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ، ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين » ! !

وهذه أمور تجاهلها اليهود ، ونسوها ثم كفروا بها ووقفوا ضدها ، وانهم اليوم ليجدون أنفسهم مضطرين الى الوقوف أمام عيسى لأنه أراد اتمام الناموس وتصحيح بنوده واقامته من جديد كما أنزله الله ! !

وآمن بعيسى تلامذته .. كانوا قلة من اليهود ، وكثرة غالبة من سكان فلسطين الأصليين فى ذلك الوقت لأنهم وجـدوا فى دعوته صيحـة حق ، وصرخة عدل ..

وعز على اليهود أن يكون لغيرهم دين ، وأن تكون شريعتهم صلب دين هؤلاء الغير ، فأسرعوا يقفون أمام عيسى ، وراحوا يحاربونه بكل وسيلة وكل سلاح . وكان حربهم له بداية النهاية لأعنف تطور دينى شهده العالم ... التطور الذى خشى اليهود حدوثه ، — وهو : خروج الشريعة من أيديهم الى أيدى شعوب أخرى تـكون أكثر منهم أمانة فى حملها وابلاغهـا الى الناس جميعا ...

لم يكن عيسى من اليهود فعلا .. ابدا .. لم يكن منهم بل كان **« كلمـة الله »** أودعها **« مريم »** فكانت مسيحه الرحيم ، ورسوله البر الـكريم ، داعية الأخاء ، المبشر بالحب والتراحم والمساواة ...

ومن هنا ... كانت الحرب الضروس وكان انكار ذات المسيح والعيب على رسالته لانه قد أراد عن طريقها أن يخـرج بالشريعة التى امتدت اليها أيدى الأحبار والكهان بالتغيير والتبديل الى الأصل السماوى ، الذى يظهر حقيقة أولئك المضللين الكاذبين ..

لقد نادى عيسى عليه سلام الله ، بالاسلام دين الفطرة ...

ونادى اليهود بغير الاسلام ... نادوا بسفك الدم ، باستحلال المحرمات .. بالبطش .. بالتدمير .. فجدير بدعوتهم ألا تكون صلب دين ..

لقد نادى عيسى بالاسلام ... والاسلام سلام واسلام النفس الى الله ،

واليهود ما أسلموا أنفسهم يوما الى الله ، ولاهم سالموا الناس ، فلا عجب ان حاربوا السيد المسيح !! .

كان عيسى يتمم الناموس ، ويعيد بناء الوصايا .. كان ينادى بضرورة اتباع أسس الأخاء البشرى وطاعة الله حيث أمر ..

واليهود وأحبارهم ، عبدوا الها من صنعهم ، واشركوا بالله الواحد الحق ، وسجدوا للعجل ، ومجدوا الذهب وعصوا الوالدين ولم يقدسوهما . وخرجوا على روابط الأسرة ، وكفروا بالأخاء ، وحطموا كل رباط مقدس وعدوا عليه وأنكروه .. ثم عاملوا انفسهم وغيرهم بالسوء والعدوان .

فأى دين كان لهم ، وعلى أى أسس قاموا يعارضون ويحاربون السيد المسيح ..

لقد كانت الشريعة الموسوية هى التجديد الثابت المكتوب لصحف ابراهيم ...

وكانت دعوة عيسى هى تصحيح ماعدا عليه الزمان والأيدى من أصول هذه الشريعة واعادتها الى أصلها الأول ... الى نصوصها السماوية التى تعنى الاسلام قلبا وقالبا وتدعو اليه ، وتحث على الطاعة وعدم الشرك بالله وغير ذلك من الفضائل ، فلا عجب أن عارضها مزوروا الشريعة ، ممن أرادوها مغنما ومكسبا ووسيلة للسيادة والسلطان على العقول . لا دعوة الى الله ودين الله ومايدعو اليه ذلك الدين من حب واخاء واعلاء لشأن الناس أجمعين ..

من أجل هذا التباين الجوهرى فى المنهج والأسلوب ، خرج اليهود على عيسى وعارضوه وحاولوا احراجه ، وراحوا يتعنتون فى توجيه أدق الأسئلة اليه ، ويضعونه أمام مسائل تتطلب تخريجات دقيقة ...

ولقد كان عيسى نبيا رسولا .. لا يتكلم كغيره من الناس .. بل يوحى اليه ... وعن طريق الوحى والجواب السديد الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ـ تجاوز مكائدهم وتخطى فخاخهم ، ووضعهم أمام الناس فى موضع العجزة المتخبطون الذين لا يعرفون ما يقولون ؟؟

وثبت للأحبار والكهان ومن دونهم من سدنة الهيكل أنهم أضعف من عيسى حجة ، وانهم لن يستطيعوا الثبات أمام يقينه فتراجعوا كالهوام الى حجورهم ليفكروا فى وثبة جديدة على الرجل الذى هزمهم بسلاح الحق واليقين ...

وبدا للفئة الضالة أن عيسى قد بدأ يهدم الناموس .. وفعلا راح عيسى يهدم الناموس الذى أرادوه هم . لا الناموس الذى فرضه الله .. بدأ يهدمه فعلا ويعيد الوضع كما كان ..

وعز عليهم ان عمت الدعوة العيسوية ، وامتدت وأخذت تنتشر ، وأصبح عيسى وآيات الله التى أيده بها أحاديث الناس ... وكان من اللازم أن تحدث هزة جبارة أو مفاجأة مفتعلة تحول تيار الحوادث الى حيث كان يشاء اليهود

كانت الشريعة الكبرى هى مثار الاشكال الرهيب ، وسبب الصراع القاسى .. وكان موضع التساؤل ...

من يكون صاحب هذه الشريعة !!

أهم اليهود وحدهم دون الناس جميعا !!

واذا لم تكن هذه الشريعة لهم وحدهم ، فمن أصحاب الحق فيها ، ومن يجب عليه من الناس اتباعها !!

لقد اراد اليهود ايمانا بمذهب الانانية أن يميزوا أنفسهم عن البشر بالمعرفة ، فأخفوها ، والدين ، فاحتجزوه .. ورغم حرصهم الشديد الذى تمسكوا به على كر الأجيال جاءهم عيسى يبيح المحظور ويفتح الأبواب الموصدة باسم الرغبة فى ترقية العقل البشرى ، وارشاده الى الذات الخالقة ليتحرر من ظلمات الجهل والاوهام المسلطة عليه من أهل الكهانات والمطامع والأهواء ..

كان عيسى بدعوته الناس الى الحق يحرر العقل البشرى ويفتح للانسانية الحبيسة طاقات الانطلاق نحو الكمال المرجو الذى أنزل الله الشريعة من أجل اتمامه ، وكان هذا العمل بالنسبة لليهود جرأة عليهم ، لأن قلوبهم غلف .! انطوت على غير الحقد ، ولا عرفت سوى كراهية الناس ، ولا آمنت الا بمبدأ الاعتزال والبعد ...

من أجل هذا كله ... من أجل التباين الاصيل فى المنهج العام .. خرج اليهود على عيسى ، لانه أراد أن يذيبهم فى بوتقة الشعوب ، ويرغمهم على مخالطة الناس والاندماج بهم ويقضى على شعوبيتهم ــ فكان أن كرهوه وعارضوه و ... حاربوه بكل سلاح ...

من اجل هذا كله ... وبسبب هذا التباين الظاهر ... كانت الهزة الكبرى ... وكان الحدث الخطير ، وكان الاستقلال العيسوى بدعوة الله والخروج بها من حظيرة اليهود ، لابلاغها كاملة غير منقوصة الى سائر عباد الله ..

وهنا ... كان الانفصال فى المنهج ... كانت التفرقة بين الحق والضلال ... كان الحد الذى وضعه السيد المسيح ... ووضع فيه اليهود أمام قوة اليقين ، ومتانة الدعوة ، وقد أبان معالم الطريق واضحة ، وقالها فى صراحة .

ان الشريعة القديمة ... الشريعة التى بدل الاحبار أحكامها ، وعدا

الكهان على نصوصها وحرفوا الكلم فيها عن مواضعه . هذه الشريعة المهلهلة لم يعدلها وجود ولابقاء بعد أن نزل الحق على عيسى بن مريم ، وجاءته بينات ربه تؤيد دعواه فأصلح الناموس وأتمة واقامة ، وقضى بالغاء مافات ونسخه تماما ... وأصبح شيئا غير واجب الاتباع ... غير ملزم للبشر فى شىء . !!

ثوب خلق تجدد تلقائيـا ، وبقدرة القـادر على كل شىء فكيف يترك ، ويتغالى البعض فى غيهم ، ويصرون على التمسك بالقديم غـير ذى الاساس والتى تناولته الأيدى العابثة بالتغيير والتبديل :

كتاب نسخ كتابا ..

شريعة صححت شريعة واعادت الاصل المقدس الى مكانه ، فماذا يمكن أن يقال عن اليهود وأحبارهم ورءوس ملتهم امام استمساكهم بأوضـاع — حكم الله بفسادها وتطاول يد الانسان عليها بالعبث والاجتراء !!

بل ماذا يمكن أن يقال عن الشريعة ذاتها أمام تعامى اليهود عن الحق !!

ان عيسى لم يأت بجديد !!

لم يبتكر نصا ، ولا حكما .. بل سـار على نفس الدرب ، واتبع ذات الطريق ، واستضاء بذات المشعل الربانى ، وردد نفس الوصايا بعد تنقية الذهب من الذرات الغريبة التى علقت بمعدنه فاعتمته لبعض الوقت وأتت على بريقه بعض الشىء !!

لقد نادى عيسى بالقديم من الوصايا العشر .. نشر صحف ابراهيم ، وشريعة موسى .. وضح وفسر وأبعد الغموض الكهنوتى وبسط المنهج للعقل البشرى وأباح المعرفة ، ونادى بالهدى للجميع ، دون تحزب لجنس ، أو تعظيم لقوم دون آخرين ، فماذا كانت النتيجة !!

أبى رءوس الكتبة والفريسيين الطاعة ، وكرهوا منهاج الهدى ، وأغمضوا عيونهم عن النور ، وأصروا على كتابهم هم .. الكتاب الذى كانوا يكتبونه بأيديهم ويدعون انه من عند الله !!

وكما كان اليهود منذ أقدم العصور ، دعاة فرقة وبذور شر ، وأصول فساد وتفريق .. كذلك كانوا اليوم .. دعاة تفريق رهيب حتى فى شريعة الله وأحكام الدين ، فادعوا أن ما معهم هو الحق وان ما جاء به عيسى ليس من الحق فى شىء !!

وهكذا صارت الشريعة شريعتين .. والكتاب كتابين .. وليس من المنطق المقبول أن يامر اله واحد لا شريك له ، بأن يعبده الناس على طريقتين ووفق منهاجين !!

لقد أحدث الأحبار الحدث .. وأمام عنادهم البغيض ، وجدت البشرية انها تواجه معسكرين ، وتستمع الى رأيين ، ولو تروى الدعاة لهما فى الامر —

لارتضوا الجديد وآمنوا بما انزل على عيسى .. ولكنه العناد ، وعدم الرغبة فى اباحة المعرفة للعقل البشرى ، والاصرار فى أن يظل الناس أسارى الجهل والوثنيات ! !

وبقى اليهود حيث ارادوا لانفسهم أن يكونوا ..

واتبع عيسى طريق هدى الله وسار خلفه تلامذته وحواريوه والمؤمنون بدينه المتمسكون بدعوته من شتى الأجناس التى كانت تسكن تلك الأرض المقدسة فى ذلك الوقت ومعظمهم من العرب الأنباط ! !

وانطلقت دعوة عيسى ، متحررة مدوية ، عالية غلابة ، يتكاثر اتباعها يوما بعد يوم .. فى الوقت الذى أسرع فيه غلاة الاحبار الى مخابئهم وأوكارهم ، وقد راحوا يحكمون رتاج أبواب الجهالات على انفسهم ، وفى ظنهم انهم يحمون المعرفة ويصونون الشريعة ، ويحفظون الدين فيهم .

ولكن ...

أكان بوسع اليهود أن يطفئوا نور الله ؟ ! !

أكان بوسعهم بعد ما فعلوا ان يحولوا الركب الزاحف عن غير الطريق المرسوم الذى شعت فى جوانبه أضواء الحق وأنوار الهدى ؟ ! .

لقد اراد الله لنوره أن يتم ، وان يكتمل ولو كره اليهود .. فاستمر الزحف .. وتكاثر المؤمنون .. وعلا صوت عيسى عليه سلام الله يبشر بالملكوت ويقول :

((طوبى للحزانى والمساكين والجياع ..))

فتهز كلماته القلوب وتشفيها من أوشاب العسف ، وتفتح أمام العيون طاقات الامل فى الخلاص من عسف الرومان وتحكم الانسان فى أخيه الانسان !!

جدد عيسى بن مريم العهد ، وأعاد نشر الأصل القديم .. جديدا .. كاملا .. فلم ينقض سننه ، ولم يبطل أمرا ، ولم يبدل توجيها ..

دعا الى الله الحق .. نادى بالوحدانية المتحررة من القيود ، ثار على الشرك ، ردد ما قاله موسى يوم جاءته الألواح ونادى بها قومه وأمرهم باتباعها ..

فهل اتبع أحبار اليهود هذه الوصايا كاملة غير محرفة ولا منقوصة .. وهل نادوا بها وخضعوا لها ؟ !

ان الواقع يقول لهم .. وأسفارهم تشهد بأنهم خانوا العهد ، وخالفوا الاوامر وعصوا الله .. فحق عليهم غضبه ..

بل انهم ليقرون أن ما أصابهم من هوان كان بسبب كفرهم وضلال أحبارهم ، وان ما لقوه من عذاب وأسر كان مرجعه الضلال والكفر بالشريعة القيمة ، وانهم طالما تمنوا فى مراثيهم وأحزانهم أن يعودوا الى الحق مستغفرين .. ولكنهم لم يفعلوا .. بل أضافوا الى جرائمهم جرائم جديدة ، وتطاولوا على الشريعة ذاتها ، افتروا الكذب على الله واجترأوا ، فقالوا ان الألواح التى نزلت على موسى ليست الشريعة كلها .. بل هناك وصايا أخرى شفاهية غير مكتوبة ! !

لقد اخترعوا .. واستنبطوا وافتروا الاثم وقالوا بوجود شريعة غير الشريعة ، وأوامر غير الأوامر ، وقالوا عنها انها « **التوراة غير المكتوبة** » وأسموها بعد ذلك « **التلمود** » ! !

كان لليهود اذن كتابان مقدسان .. التوراة المكتوبة التى نزلت من عند الله ، والتلمود الذى تفتقت عن مواده عقليات الأحبار ودونوه سرا على كر العصور ، حتى جاء الوقت الذى جاهروا فيه بهذه الشريعة المبتدعة واعتبروها أصلا من أصول الدين ! !

فهل يعقل أن يكون لدين واحد كتابان ؟ ! وأن يلزم أهل هذا الدين باتباع هذين الكتابين رغم ما بينهما من تناقض واختلاف ؟ !

كانت التوراة صحف موسى ، وصلب رسالته التى جاء بها من عند الله ..

وكان التلمود ، صحف الاحبار وتعاليمهم السرية الى اليهود !! فأى ضلال بعد هذا وكفران وخروج ! !

لقد هدم عيسى هذا كله .. قضى عليه ، وأعلن بطلانه ، وأتت شريعته على باطل الاحبار والحاخامات والكهان ، وجددت العهد وأعلت منارة الحق وقضت بأنه باطل ما كان يتقول به الكتبة ، ويتاجر فيه الفريسيون ، ويدعيه الصدوقيون ..

نقى عيسى الشريعة من الشوائب وأعاد الجوهر الى أصله نقيا خالصا .. فكان انجيله هو توراة موسى ، وهو صحف ابراهيم ، ورسالة هود ، ودعوة صالح ، وادريس ونوح ، واسماعيل ، واسحاق ، ويعقوب ، والاسباط ..

كانت الوحدانية المطلقة التى تحرر الروح من الوهم ، وتسمو بالعقل الى المثل العليا ، وتربط المخلوق بخالقه وتجعله يوقن بالقدرة ويؤمن بالآخرة ، ويعلن اتباعه لما جاء به الدين ..

تلك كانت شريعة عيسى ..

نفس الشريعة الأولى ..

دعوة الحق الواضح ..

دعوة تحرير العقل من كل باطل ..

دعوة تسويد الانسان واعلاء شأنه وتعريفه بحقيقة نفسه ، ليؤمن بقدراته ، وانه صاحب رسالة ومثل ، وان طريقه الى الكمال واضح جلى ، ومن الجرم فى حق انسانيته أن يستذل نفسه لمخلوق ، أو يخضع عقله لسلطان الأوهام ..

ان دين الله ، هو الدعوة الجريئة الى سيادة العقل والاقرار الراسخ بقيمة الانسان فى هذا الوجود .. ثم هو بعد هذا توضيح ظاهر لرسالة الانسان على الأرض أولا ، وبين الناس ثانيا .. وانها لعمرى لرسالة واضحة المعالم مستقيمة الطريق .. رسالة التعمير ، والاخاء والمساواة ، والكفران بكل باطل وضلال ، ثم الجهاد فى سبيل ما يؤمن به ذلك العقل الذى هداه الله الى حقيقته .. جهادا تهون أمامه الروح وتصغر القيم مهما كانت لتظل عالية وضاءة منارة الحق المقدس العظيم ..

بهذا نادى الأنبياء والمرسلون .. ومن أجله بعث موسى ونزلت عليه التوراة .. فلما انحرف حاملوها ، وضلت بهم السبل ، أراد الله سبحانه وتعالى الا يكون للناس حجة فى كفرهم فبعث عيسى ليجدد الشريعة وينقيها ويبعد عنها ما أدخله الأحبار عليها من ادعاءات وضلالات ! !

ورغم ان الواقع كان ينادى بأن دعوة عيسى دعوة الحق .. وان خروج الشريعة من أسوار الحقد والتزمت والأثرة اليهودية — هو خروج بها الى ما أنزلت من أجله ، فقد أبى اليهود أن يقروا الحق ويبصروا النور ووقفوا كعادتهم يعارضون ويحاجون ثم يحرضون ، ويدبرون المكائد والمؤامرات لعيسى ، لأن الايمان بدعوته هو القضاء على الأباطيل وهم أهلها وأصحابها والمنتفعون بها وحدهم دون الناس أجمعين ..

« ولقد آتينا موسى الكتاب وقفينا من بعده بالرسل ، وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس ، أفكلما جاءكم رسول بمالا تهوى انفسكم استكبرتم ، ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون » ! !





((اذ قال الله : ياعيسي بن مريم ، اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك اذ أيدتك بروح القدس ، تكلم النـــاس فى المهد وكهلا ، واذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل ، واذ تخلق من الطـين كهيئةالطير باذنى ، فتنفخ فيها فتكون طيرا باذنى ، وتبرىء الأكمه والأبرص باذنى ، واذ تخرج الموتى باذنى ، واذ كففت بنى اسرائيل عنك اذ جئتهم بالبينات فقال الذين كفروا منهم ان هذا الا سحر مبين))

(سورة المائدة)

(الرسالات الكبرى)

المسيحية دين التوحيد

« ومصدقا لما بين يدى من التوراة ، ولأحل لكم بعض الذى حرم عليكم ، وجئتكم بآية من ربكم فاتقوا الله وأطيعون ، أن الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم ، فلما أحس عيسى منهم الكفر قال : من أنصارى الى الله قال الحواريون : نحن انصار الله ، آمنا بالله واشهد بانا مسلمون » .. (سورة آل عمران)

فى يوم قائظ رهيب .. خرج عيسى بن مريم من الناصرة بدعوته الصادقة ، فتعطرت الأجواء ، وسرت فى التخوم والربوع أصداء صوته الرحيم .. فتبعه الناس فى دهشة وايمان وحب لانه كان يدعو الى المحبة وكانت كلماته بلسما لجراحات القلوب .

ووسط هذه البيئة التى يعيش أهلوها على صيد الأسماك وتجارة الأنبذة وبعض الحبوب تكلم عيسى فقال للمحرومين ممن تبعوه :

« طوبى للمساكين بالروح ، لأن لهم ملكوت السموات .

« طوبى للحزانى لانهم يتعزون ! .

« طوبى للودعاء لانهم يرثون الارض ! .

« طوبى للجياع والعطاش الى البر ، لأنهم يشبعون ! .

« طوبى للرحماء لأنهم يرحمون .

« طوبى للأنقياء القلب ، لأنهم يعاينون الله !

« طوبى لصانعى السلام ، لأنهم أبناء الله يدعون .

« طوبى للمطرودين من اجل البر لأن لهم ملكوت السموات ! .

« طوبى لكم اذا عيروكم وطردوكم وقالوا عنكم كل كلمة شريرة من اجلى كاذبين ! !

« افرحوا وتهللوا لأن أجركم عظيم فى السموات ، فانهم هكذا طردوا الأنبياء الذين قبلكم ! ! » .

وعيسى بمقدمته هذه قد وضع الاسس وزاد طمانينة الناس ممن كانوا يخشون على عبادتهم ويخافون أن يخرجهم من دينهم ، ولذا سارع فطمانهم بانه لن يوجد ولن يخلق ذلك الانسان الذى يغير الشريعة التى بعثها الله الى عباده والتى جعلها أساس العبادات وأسس التطهر والتى لا يمكن أن تجتمع الفضائل الا فيها أو تستكمل الا بها .

والامر الذى لا شك فيه انه لم يكن لرسول أن ينقض شريعة جاء بها رسول آخر لأن الله جلت قدرته لايمكن أن يامر مخلوقاته اليوم بان يتبعوا شريعة خاصة ثم ياتى بعدها فيامر بنقض هـذه الشريعة ويرسل رسـولا آخر بغيرها ! ..

ولقد كانت شريعة موسى خلاصة ما سبق من الشرائع ، ولم يات فيها بجديد ، وكذلك فعل عيسى :

« شرع لـكم من الدين ما وصى به نوحا ، والذى أوحينـا اليك ، وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى : أن أقيموا الدين ولا تفرقوا فيه .. »

❋ ❋ ❋

ولما شاهد عيسى عليه السلام الناس يتكاثرون من حوله راح يقول لهم :

« سمعتم انه قيل : تحب قريبك وتبغض عدوك ، وأما أنا فاقول لكم : أحبوا أعداءكم ، باركوا لاعنيكم ، أحسنوا الى مبغضيكم ، وصلوا لأجل الذين يسيئون اليكم ويطردونكم ، لكى تكونوا أبناء أبيكم الذى فى السموات ، فانه يشرق شمسه على الأشرار والصالحين ، ويمطر على الأبرار والظالمين » !!

كان غريبا فعلا أن يرتفع صوت بالحب فى عالم الكبرياء والطبقات ، وأن ينادى أحد بالرحمة وسيف المظالم مصلت على الرءوس ، وأن يشير أحد الى السلام ، فى عصر رهبوت روما وتحكمها ، وأن يبشر جرىء بملكوت السموات فى عصر يسوده امبراطور روما ، صاحب الجاه والنفـوذ والسـلطان ..

وتدافع الناس فى لهفـة نحو الغيث المنهمل بالرحمات ، يبلون بمائه الطاهر اشواقهم ويتبردون برحمته ، ويفيئون الى ظله ..

انها بشريات تاقوا اليها .. امنيات تصوروها فى أحلامهم .. رغبات تمنوها وهم يقاسون ويستذلون وأسواط العذاب والمظالم والعسف تلهب منهم الأجسـاد ، وتكبل الأرواح ..

انهـا بشريات غريبة طالما تصـورها المستضعفـون فى الارض .. المستذلون من البشر ، الرقيق الآدمى الذى توارثه الرومان ، وسـاقه زبانيتهم أمامه الى الجحيم دون رحمة ولا شفقة ..

ولكنها كانت بشرى .. بشرى تفتحت لها القلوب : كما تتفتح البراعم الندية لتستقبل الأنداء فى ساعة الفجر ، فترتوى وتزكو ، وتفتح يديها مرحبة بالحياة الوليدة ، وهى فرحة مستبشرة بيوم جديد ..

انها بشرى .. وأى بشرى أعظم وأجل وأكثر قداسة ، من تلك التى تهز قلوب العبيد بالأمل ، وتعدهم بملكوت الله .. بالملك .. بالجاه العريض فى ظل العدل الربانى الذى يقضى بين الناس جميعا فيعطى كل ذى حق حقه ، ويأخذ المذنب بما أساء الى نفسه والى الناس ..

كانوا هناك عطاشى .. جياعا .. عراة .. اذلاء ..

كانوا عطاشى الى الشعور بالانسانية ، والاحساس بالوجود .. جياعا للبر والرحمة .. يسلمهم طاغية الى طاغية ، وهم يساقون معصوبى العينين فى موكب الرقيق ، لا يعرفون لهم وجهة مسير ، ولا منتهى يصلون اليه ..

وانهم اليوم ليجدون البر والرحمة فى الكلمة الحلوة ، والبشرى المشجعة ..

من أجل هذا تدافع الناس جميعا نحو القادم بالحب والسلام ..

وطاب للحزانى ان ينصتوا ، وتفتحت أمام عيونهم الطلاسم ، وهفت أرواحهم الى مستزيد من المعرفة والعلم ، حتى لقد تمنوا أن يعرفوا من هم ؟ وما دورهم ؟

هل خلقوا ليكونوا عبيدا للرومان .. خاضعين لسلطان الفريسى والكاتب المضلل الذى لا يهدى لغير الضلال ؟ !

وعاد عيسى بن مريم يقول :

« انتم ملح الأرض ولكن ، ان فسد الملح ، فبماذا يملح .. ؟؟

« انتم نور العالم ..

« لا يمكن أن تخفى مدينة موضوعة على جبل ، ولا يوقدون سراجا ويضعونه تحت المكيال ، بل على المنارة ، فيضىء لجميع الذين فى البيت ، فليضىء نوركم هكذا أمام الناس لكى يروا أعمالكم الحسنة ويمجدوا أباكم الذى فى السموات » (١) ...

اذا .. فعلى المنصتين المؤمنين ، أن يعرفوا هذا ويتدبرونه ..

انهم ليسوا قطعانا تساق الى المذبح .. بل بشر لهم كيان ووجود من

---

(١) متى .

اللازم أن يحسوا به ، وانهم ليسوا رقيق الرومان وعبيد مزارعهم وضياعهم واجراءهم الاذلاء .. بل ملح الارض ، ولا يصلح طعام بغير ملح ، وانهم بعد هذا ضوء العالم ، وما أحوج الناس الى الضوء ليهتدوا به فى الظلمات ..

لقد وضع للناس جميعا دورهم فى أسلوب رمزى مقنع مؤثر ، فيه حافز الى المعرفة ، ورغبة فى مستزيد من العلم ، ليشحن قلوب الناس بطاقات من التحرر والجرأة ، وقد وجدوا من يرشدهم الى الحق .. الى طريق الغد !!

وعرف الناس بعد هذا ، ما هو أبعد من التطلع الى الغد .

عرفوا من هم أعداؤهم فعلا .. انهم لم يكونوا الرومان المستعمرين فحسب .. بل زعماؤهم الروحيون ، الذين قنعوا من رسالتهم بالسلامة والثراء والمجد ، وتركوا غالبية الناس ضحايا الجهل ..

كان هناك دين .. شريعة كبرى تحدد الحقوق وتعين الواجبات ، ولو عرفوها أو أرشدهم الهداة اليها ، لوجدوا أنفسهم ، وعثروا على حقيقتهم ، وعرفوا رسالتهم فى الحياة .. ولكن الأحبار أخفوها ، وتركوهم فى ظلمات الجهل يعمهون ..

ان الشريعة قضاء مبرم بالحرية ، ولا شىء غير الحرية وسيادة البشر، وانهم خلفاء فى هذه الأرض ، تجمعهم روابط الاخاء والحب والسلام والرغبة فى التعمير .. فلماذا تغيرت بهم الدنيا ومالت موازين الأحداث ؟؟

هل ضلوا عن الشريعة وتنكروا لها ؟ .. أم لم يجدوا من يرشدهم الى حقائق أصيلة ، قضى الله بتعميمها ؟ !

ان الدين ثورة على الخمود .. دعوة الى الخلاص ..

وهكذا كانت دعوة عيسى فى بدايتها ..

ثورة سلمية .. ثورة نواتها الحب وسدتها الاخاء ، والسلام الشامل للناس أجمعين ، وهذا ولا شك زلزال خطير سيدمر القديم ويأتى عليه ليقوم البناء من جديد وعلى أمتن أساس !!

وتدبر المستمعون الى الدعوة ، وفكروا فيها .. وقال البعض .. ان فى هذا جراة ، ربما كانت دعوة خفية الى الخروج على ولى الأمر الزمنى، والروحى و .. على الكتاب المقدس نفسه !!

وفطن عيسى عليه السلام الى ما يدور بخواطر الناس .فأسرع يقول :

((لاتظنوا انى جئت لانقض الناموس أو الأنبياء .. ما جئت لأنقض ، بل لأكمل ! فانى الحق اقول لكم : الى ان تزول السماء والأرض ، لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الناموس حتى يكون الكل . فمن نقض احدى هذه

الوصايا الصغرى وعلم الناس هكذا ـ يدعى أصغر الناس فى ملكوت السموات، واما من عمل وعلم ـ فهذا يدعى عظيما فى ملكوت السموات ، فانى أقـول لكم : ان لم يرد بركم على الكتبة والفريسيين لن تدخلوا ملكوت السموات !

وارتاح المستمعون الى القول واطمأنت قلوبهم الى الداعية الصادق الذى جاء ليتم الناموس ..

اذا .. فالدعوة دعوة بناء شامل .. تجديد على أسس تعيد القديم الأصيل الى مكانه ..

انها اذا ثورة .. ثورة على كل ما أدخل على الناموس .. عـلى التخريجات المستغربة .. على الشوائب التى علقت بالجوهر الحر ليعود نقيا طاهرا ساطعا كما كان وكما أنزله الله ..

وظل عيسى عليه السلام يتحدث بالحق .. واصداء الصوت الحـانى تدوى فى حنايا القلوب .. بل فى جنبات الربوع والتخوم ، فأسرع الناس يستمعون ويتعلمون ..

لقد جاء المسيح عيسى بن مريم عليه السلام لمهمة سامية .. خصه الله بها .. وفى القرآن الكريم خير وصف له :

« ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل ، ورسولا الى بنى اسرائيل: انى قد جئتكم بآية من ربكم ، انى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير ، فانفخ فيه ، فيكون طيرا باذن الله ، وابرىء الأكمه ، والأبرص ، وأحيى المـوتى باذن الله ، وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون فى بيوتكم ، ان فى ذلك لآية لكم ان كنتم مؤمنين ، ومصدقا لما بين يدى من التوراة ، ولأحل لكم بعض الذى حرم عليكم ، وجئتكم بآية من ربكم ، فاتقوا الله وأطيعون . ان الله ربى وربكم ، فاعبدوه ، هذا صراط مستقيم » .

***

كان القرآن الكريم صريحا فى ان شريعة موسى عليه السلام كانت مفصلة فى قوله تعالى :

« ثم آتينا موسى الكتاب تماما على الذى أحسن وتفصـيلا لكل شىء ، وهدى ورحمة لعلهم بلقاء ربهم يوقنون » .

وجاء عيسى بالانجيل مصدقا لما جاء فى التوراة :

« ومصدقا لما بين يدى من التوراة ، ولأحل لكم بعض الذى حرم عليكم » .

وذلك بسبب سوء عملهم وتمردهم ، وتأديبا لهم لعصيانهم المتكرر ونهب اموال الناس ..

((فبظلم من الذين هادوا — حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم ، وبصدهم عن سبيل الله كثيرا ، واخذهم أموال الناس بالباطل ، واعتدنا للكافرين منهم عذابا أليما)) !!

وذكر الله ما حرم على بنى اسرائيل استثناء مما أحله لعباده ، فى قوله تعالى :

((وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر ، ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما الا ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم ، ذلك جزيناهم ببغيهم ، وانا لصادقون)) !!

بل ان من هذه المحرمات ما حرمه اسرائيل على نفسه وفاء بالنذر وتقربا الى الله ..

((كل الطعام كان حلا لبنى اسرائيل ، الا ما حرم اسرائيل على نفسه من قبل ان تنزل التوراة . قل فاتوا بالتوراة فاتلوها ان كنتم صادقين)) !!

* * *

وتكاثر الناس حول عيسى ينصتون لكلماته ..

((ولما راى الجموع صعد الى الجبل .. وراح يقول :

((قد سمعتم أنه قيل للقدماء : لاتزن ! واما انا فاقول لكم : ان كل من ينظر الى امراة ليشتهيها فقد زنى بها فى قلبه !! فان كانت عينك اليمنى تعثرك فاقلعها والقها عنك ، لأنه خير لك أن يهلك احد أعضائك ولا يلقى جسمك كله فى جهنم ! .. (١)

((أيضا سمعتم أنه قيل للقدماء : لا تحنث ، بل أوف للرب أقسامك . واما انا فاقول لكم : لا تحلفوا البتة — لا بالسماء لأنها كرسى الله ، ولا بالأرض لانها موطىء قدميه ، ولا بأورشليم لأنها مدينة الملك العظيم ! ولا تحلف براسك لأنك لا تقدر ان تجعل شعرة واحدة بيضاء أو سوداء ، بل ليكن كلامكم : نعم نعم ، لا لا — ومازاد على ذلك فهو من الشرير !! (٢)

((سمعتم انه قيل : عين بعين ، وسن بسن ، وأما انا فاقول لكم ، لاتقاوموا الشر ، بل من لطمك على خدك الأيمن فحول له الأيسر ، ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء ، ومن سخرك ميلا واحدا فاذهب معه اثنين . ومن سالك فاعطه ، ومن أراد أن يقترض منك فلا ترده)) (٣) .

لقد كانت الشريعة قبل اليوم فى خزانة موصدة الأبواب .. وكانت ومضات من نورها تنفذ فى حذر وبقدر ما يدفع ثمنا لها من الراغبين ، ولكنها

---

(١) ، ٢ ، ٣ متى .

اليوم مباحة للجميع .. للجميع .. لا لطبقة دون طبقة .. ولا لشعب دون شعب .. ولا لقوم دون أقوام !!

الشريعة للجميع .. منهل مباح وطوبى لمن ورده وروى ظمأه بما يطهر البدن والروح ويفتح العينين على مستغلقات الكون التى استأثرت بها من قبل طائفة طامعة من المرابين !!

وتلك الأخرى كانت ثورة فكرية ..

ثورة نادى بها عيسى بن مريم واستجاب لها الناس من اسرائيل وغير اسرائيل .. من الرقيق الذى حشدته روما وساقته الى ولاياتها .. من الجنود .. من السادات .. من جميع طبقات الناس !!

جاء عيسى لتحقيق ((**السلام للناس**)) — أراد أن يكون الناس جميعا ((**سلاميين**)) على غراره حتى ((**تقوم المحبة بين الناس مقام القانون**)) .

وهكذا ، لقيت دعوة عيسى عليه السلام انصاتا ورواجا لأنها صادفت فى جميع النفوس هوى ومحبة ..

ولانها لمست الوتر الحساس فى النفوس ، ووصلت الى موضع السر الدفين والداء الكامن ..

الم يعد عيسى تلك الجموع العديدة ممن تبعوه بملكوت السموات ؟ !

الم يعدهم بأن سيكون لهم فى يوم الدينونة ما حرموه فى ديارهم وما نقموا على المجتمع الفاسد من اجله ؟ !

الم يصور لهم الحياة الأخرى على الصورة التى ارتاحت اليها نفوسهم واطمأنت لها قلوبهم الهالعة ؟ !

والواقع أن عيسى بدعوته الجديدة لم يهدم قديما أو يتعرض بسخرية لمعتقد .. بل كان يروى حديثا رمزيا ارتاحت اليه الأسماع ووجدت فى الانصات اليه طمأنينة فتبعت صاحبه فى فرحة وأمل ..

وتقدم السيد المسيح فى مسيرته التحررية الكبرى والناس حواليه يتوقون الى المعرفة ، وانه ليحس بمدى شوقهم الى تعرف وسائل الاتمام التى جاء ليكمل بها الناموس ، فيسارع ويقول :

((**قد سمعتم انه قيل للقدماء : لا تقتل ، ومن قتل يكون مستوجب الحكم .. وأما انا فاقول لكم : ان كل من يغضب على أخيه باطلا يكون مستوجب الحكم**)) !

وانه لعمرى لاتمام محكم ، فيه القضاء الحتمى .. لا على التفكير فى القتل ، أو الاقدام عليه ، بل على عدم الركون الى الشيطان ، وهو يأمر الانسان بالمعصية ويحل له دم أخيه ..

ان القتل جريمة .. جريمة بشعة رهيبة تضج من هولهـا السماء والارض ، ويرجف الناس أجمعين ، ووجوب الحكم على مرتكبها لا يمنع من الاقدام على القتل او التفكير فيه ، ما دام الشيطان يتحكم فى الأهواء ويدفع البشر الى الخطايا .. والحكم المستوجب ، لن يمنع القتل أبدا .. اذن ..

ماذا يمنعه ؟ ! ماذا يقضى عليه ؟ ! وأى قوة هذه التى تستطيع نزع بذرة الشر من أعماق النفوس ؟ !

اى سلاح نحارب به القتل ونقضى على فكرته ..

انه سـلاح الحب .. اغـلاق القلب دون الغضب ، فالغضب مركب الشيطان .. رمز الشر الذى يحمل البشر الى الهلاك ..

وعيسى هنا .. وهو يبشر بالحب ، ويدعو الى التسامح ، ويأمر بعدم غضب الأخ على اخيه ، ويوصى بالتغاضى عن سيئة ومغفرتها له ، يقضى على فكرة القتل فى ذاتها .. ويمنعها منعـا باتا ، ويحكم فيهـا الحنـان والاحساس بالبشرية ، ويجعل لحكم الحب والاخاء : السيادة كل السيادة.

انه يحرم على الانسان ان يغضب على أخيه .. لا أن يقتله .. فالغضب جريمة تتساوى وجريمة القتل .. واذا كان هـذا هو الوصف الشريعى للغضب ، فلنبتعد عنه ، وبالتالى نحول دون النفس والتفكير فى قتل النفس التى حرم الله الا بالحق ! ..

فهل بعد هذا تسامح وحب واخاء ! ؟

ويسرع عليه السلام بعد هذا الى ركن ثان ليتمه .. انه تحريم الزنا ، والزنا جريمة كبرى .. جريمة بشعة فى حق المجموعة وحق البشرية ، وحق الكرامات الانسانية ..

انها اعتداء صارخ على مقدسات محرمة .. واستباحة ممجوجة لكل مصـون أوجبت الشريعـة حمايته ، فالزنا اعتداء على الآدميـة .. على الانسـاب .. على الأصول العريقة .. على الصـلات .. على الروابط البشرية .. بل هو تهوين لها واصغار لشأنها وتحقير للعواطف جمعاء .

من أجل هذا : حرم الله الزنا ، وأمر تعالى عباده بألا يقربوه أبدا ، فهو فوق انه فاحشة بغيضة ، فهو طريق مظلم المسالك بشع النهاية ..

ولقد قالت الشريعة فى صراحة لا تقبل التأويل : **لا تزن !**

وعيسى عليه السلام يسارع فيردد هذا ، ويضغط عليه وينادى به .. ثم يقول توضيحا لمفهوم الجريمة نفسها :

« اما أنا فاقول ان كل من ينظر الى امرأة ليشـتهيها فقـد زنى بها فى قلبـه » ! !

والزانى عقوبتــه الرجم .. الزانى الذى باشر عمليــة الزنا وارتكب جريمته .. رجمــه واجب مقدس وأمر سماوى قدســه الناس .. ولكن عيسى يعتبر الناظر .. مجرد من يرسل نظرة عابرة الى امراة ويشتهيها . فهو زان فعــلا .. وباشر عملية الزنا الرهيبة ، لا حســيا وعمليا .. بل روحيا ، وأى جريمة اقسى من جريمة الروح وهى تهبط الى مدارج الدنس وترتكب المحرمات ! !

ان الناظر بعينيه نظرة اشتهاء الى أية امرأة .. زان .. مجترىء على المحرمات .. عاد على جلال الشريعة .. مستوجب لاشد عقاب .. !!

لقد قضت الشريعة برجم الزانى ، فالزنا لديها جريمة نكراء ، والزانى امام قضاء الشريعة فيه ، يختلف عن القاتل ، وجريمته أعظم نكرا واشــد بشاعة ، ومن أجل هذا ، أوجبت رجمه . على خلاف القاتل الذى قضت بالحكم عليه ، والحكم لا يصــــدر الا بعــد محاكمة وتفنيد اتهام ، وتبيان الأسباب الداعية الى القتل ، فقد يكون هنــاك ما يبررها ، أو يخفف من تطبيق الحكم فيها ..

فالقاتل أمام الشريعة ، قد يجد ما يبرر جرمه ، ولقد أعطته الفرصة .. اما الزانى فلا يوجد سبب يبرر عدوانه وجرمه ابدا ، وقضاء الشريعة فيه : لا نقض له ولا تعقيب عليه ، والرجم هنا ردع ومنع وتحريم مطلق وترهيب يضمن ابعاد الناس عن سلوك هذا السبيل .

وعيسى عليه السلام يقول ان النظرة زنا .. وهو هنا لا يحكم من تلقاء نفسه ، بل بوحى وتوجيه من لدن عزيز حكيم .. وقضاء واجب الطاعة ، بغض النظر على المحارم ، وهذا منتهى الكمال ، وانه للسياج الذى يحمى المجتمع من شر الفساد ! !

من أجل صـــلاح مجتمع البشر جاءت الديانات .. ولتنظيم علاقات الناس بعضهم بعضا . نادى الرسل الكرام برسالاتهم السمحاء ، وان عيسى عليه الســلام ليسير فى نفس الطريق ، ويمضى فى توضــيح أسس الشريعة ليبين للناس ما استغلق على الأفهام ..

وانه بعد « الزنا » ليعرج على الطلاق فيقول فيه :

« وقيل من طلق امرأته فليعطها كتاب طلاق .. »

والطلاق آفة .. حرية يجب تهذيب مراميها .. سلاح من اللازم تحديد طرائق استعماله ، وهو من اجل هذا يوضح ما فات ويبينه كما أوحى اليه :

« وأما انا فاقول لكم : ان من طلق امرأته الا لعلة الزنا ، يجعلها تزنى ، ومن يتزوج مطلقة فانه يزنى » ! !

وعيسى عليه السلام يمس هنا .. وفى جرأة وصراحة ، قضية رهيبة ، كان الناس فى عهده ما زالوا يعيشون فى ذكراها البشعة .. لقد كان ((**يحيى بن زكريا**)) المعروف باسم ((**يوحنا المعمدان**)) رجل شريعة متمسك بحرفيتها وحكمها ، ومن اجل هذا عارض ((**هيرودس**)) لانه تزوج من ارملة أخيه ((**هيروديا**)) ، انه ينوى الزواج من ابنة أخيه فيليبس — فأعلن يحيى ان ذلك يناقض التوراة وقال ان هـذا الزواج باطل ؛ لأنه زنى ، فكان ان سجنه هيرودس .. ثم قتله ..

ومر الحادث .. ولم يتحرك واحد من حملة الشريعة ، ولم يرتفع صوت حر من الأحبار أو كاتب أو فريسى ! !

وان عيسى هنا ليؤكد ما فات ، ويعيد الى الأذهان قضية هيرودس ويحيى عليه السلام ، ويحكم على الطاغية علنا بأنه قد زنى ، واجرم ، وانه يستحق الرجم ..

بالحق بشر عيسى .. وكان حقه هو الصراحة والجرأة فهو انما يبلغ ما أمره الله به ليرشد الناس ..

واستمر بعد هذا يتحدث ، وينقل الى الناس ما كان يوحى اليه به ، ولم يخرج فى شىء على الناموس ، ولم يتعرض للأنبياء .. بل أتم وأكمل ووضح وفسر ، ووجدت دعوته صداها فى القلوب ..

ووجد الناس فى حديث عيسى عليه السلام ، راحة وسلوى ، فأقبلوا عليه ، واحتاطوا به واحبوه ! !

احبه الناس جميعا .. احبه الحزانى والمكروبون والضعفاء والعطاشى والجياع ، لأنه جاء بالحب ، ونادى بالسلام ، ولم يمد يده ليتقاضى على مواعظه أجرا .. كما كان يفعل الكتبة والفريسيون .. بل سخر منهم وقال لهم :

((مجانا اخذتم ، مجانا تعطون)) !!

وهذه المجانية الغريبة على رءوس اليهود وأحبارهم .. كانت فى نظرهم عدوانا على جلال الشريعة ، واباحة غير مستحبة لنصوصها وأسرارها — من أجل هـذا ؛ كره الاحبار عيسى وأعلنوها عليه حربا لا مهادنة وراءها ولا سلام .

لقد أحبت البشرية عيسى مسيح الله وأسموه ((**المعلم**)) ، ونادوه بهذا الاسم الذى أحبه وارتاح اليه ، أما الأحبار والكتبة فاعتبروه مجترئا على الناموس ، فتربصوا به وراحوا يعدون له الشراك للقضاء على دعوته ..

واتخذت دعوة عيسى عليه السلام بعد خروجه من الجليل شكلا آخر خلاف الأمثال والأحاديث الرمزية والتبشير بملكوت السموات ..

اذ رآه الناس فوق هذا فى هيئة رجل المعجزات الذى يمد يده فيشفى المريض ويجعل الأبكم يتكلم ، والأعمى يبصر ، والأبرص يبرأ ، والمفلوج يسير والميت يخرج من قبره بعد ان ظل فيه ثلاثة أيام ؟ !!

وظل عيسى بعد ذلك فى مسيره نحو أورشليم ، فاذا هو فوق كونه داعية يسوق الأمثال ، وطبيبا يفعل بالمرضى المعجزات باذن الله — يتنبأ بحوادث وغرائب ويقص على حواريه النهاية نهايته المنتظرة ، فى أورشليم التى ينظر اليها ذات مرة ويصيح فى هدوئه الجليل محدثا اياها ؟

((أورشليم . يا أورشليم يا قاتلة الانبياء ، وراجمة المرسلين !! كم مرة اردت أن أجمع اولادك كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها .. ولم تريدوا !! هو ذا بيتكم رهين بالخراب)) !!!

ولبنات أورشليم راح ينذرهن بقوله :

((يا بنات اورشليم ! ! لا تبكين على ، وعلى انفسكن واولادكن فابكين ! ! أيام يقولون : طوبى للعواقر ، والبطون التى لم تلد ، والثدى التى لم ترضع !!)) .

((أيام ينادون الجبال أن تسقط عليهم ، والاكام أن تكون غطاء لهم .. ان كان بالغصن الرطب يصنع هذا ، فباليابس ماذا يصنعون)) ؟!

ولقد كان عيسى شخصية روحانية هبت كالنسيم العليل فى سماء العالم فعطرته بقداستها ، وتركت فى النفوس ذكرى طيبة لمبشر جاء بالحب فلقيه البعض من قومه بالكراهية والغضب ، وما جاء الا ليعزز شريعة السادات منهم ويثبت اركانها ويقوى اسسها ويعيدها الى الأصل القديم ..

ولما كنا قد عرفنا فى عيسى رسولا يسوق بشارته ودعواه فى صورة ((**الرمز**)) ورأيناه متنبئا وطبيبا روحيا قبل ان يكون طبيب أجساد ووسيلة شفاء — لذا كان من اللازم أن تكشف فى ((**رموزه**)) و ((**تنبؤاته**)) دعوة جريئة لم يعتدها قومه من اليهود وهى حث تلامذته على الخروج بدعوته والاشارة الى المثوبة التى يلقونها من جراء هذا الخروج والمجاهرة بالدعوة وبث تعاليمها بين الناس ..

ولا شك ان عيسى كان يعرف أن نهايته قريبة ، اذ أخبره الله بها بقوله تعالى :

((واذ قال الله : يا عيسى : انى متوفيك ، ورافعك الى ، ومطهرك من الذين كفروا ، وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا الى يوم القيامة ، ثم الى مرجعكم ، فاحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون)) ! !

وقد صارح تلامذته بهذه النهاية فى رحلته معهم الى اورشليم قبل عيد الفصح ، **اذ قال لهم : ((ينبغى ان اسير اليوم وغدا وما يليه ، لأنه لا يمكن أن**

يهلك نبى خارج اورشليم ، يا اورشليم ، يا اورشليم ، يا قاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين » (١)

وخشى عيسى أن تختفى دعوته أو تتجمد رسالته فى ايدى أتباعه ، كما تجمدت شريعة موسى عند اليهود ! واشفق عليهم أن يتبعوا سنن الذين من قبلهم ، فاعد العدة ونبه تلاميذه الى وجوب الخروج بالدعوة ، وبشرهم بالجزاء الحسن ان هم أدوا الرسالة حق الاداء ، فوعدوه بذلك ..

« فلما احس عيسى منهم الكفر قال من انصارى الى الله ؟! قال الحواريون نحن انصار الله (!) آمنا بالله واشهد باننا مسلمون (!) ربنا آمنا بما انزلت ، واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين » ..

كان دخول عيسى « **أورشليم** » بداية لنهاية ، نهاية النضال الحر ، لأنه كان فى الحق جريئا ، وكان مع الكهنة ومن فى طبقتهم قاسيا صريحا ، يناقشهم ويجادلهم بالبينة التى لا يأتيها الباطل .. حتى خافوه وخشوا عظم امره وارجفوا من سطوته وقوته ..

وعلموا بما كان منه مع تلاميذه ورأيه فيهم .. فقد جمعهم وراح يقول لهم :

« على كرسى موسى جلس الكتبة والفريسيون ، فكل ما قالوا لكم ان تحفظوه فاحفظوه وافعلوا ولكن حسب أعمالهم لا تعملوا ، لانهم يقولون ما لا يفعلون !!

« ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراءون ، لانكم تخلقون ملكوت السموات قدام الناس ، فلا تدخلون انتم ولا تدعون الداخلين يدخلون !!

« ويل لكم ايها الكتبة والفريسيون المراءون ، لانكم تاكلون بيوت الارامل ولعلة تطيلون صلواتكم ، لذلك تاخذكم دينونة اعظم ! !

«ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراءون ، لانكم تنقون الكاس والصحفة والشبت والكمون ، وتركتم اثقل الناموس : الحق والرحمة والايمان ! كان ينبغى أن تعملوا هذه ولا تتركوا تلك ! أيها القادة العميان الذين يصفون عن البعوضة ويبلعون الجمل !

« ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراءون ، لانكم تنقون الكاس والصحفة وهما من داخل مملوآن اختطافا ودعارة !! » .

ولما سمع رؤساء الكهنة والفريسيون اقواله ارادوا القبض عليه .. ولكنهم خافوا الجموع والحواريين ، ففكروا فى طريقة أفضل يوقعونه بها ، فهداهم تفكيرهم الى توريطه مع السلطة الحاكمة !!

(١) لوقا

« حينئذ ذهب الفريسيون ، وتشاوروا لكى يصطادوه بكلمة ، فارسلوا اليه تلاميذهم من الهيرودسيين قائلين :

« يا معلم ، نعلم انك صادق ، وتعلم طريق الله بالحق ولا تبالى باحد ، لانك لا تنظر الى وجوه الناس ، فقل لنا :

أيجوز أن نعطى جزية لقيصر أم لا ؟!

ولكن .. لا يحيق المكر السيىء الا بأهله !

فعلم يسوع خبثهم وقال :

« لماذا .. اتجربوننى يا مراءون ؟ ! ارونى معاملة الجزية .. فقدموا له دينارا ..

فقال لهم : لمن هذه الكتابة ..؟!

قالوا له : لقيصر !

فقال لهم : أعطوا ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله !!

فلما سمعوا .. تعجبوا ، وتركوه ومضوا .

* * *

ولما سأله الفريسيون : متى يأت ملكوت الله ؟

« اجابهم : لا يأتى ملكوت الله بمراقبة ، ولا يقولون هوذا ههنا أو هوذا هناك ، لأن ملكوت الله .. داخلكم » ! !

وعندما زعموا أنه يستعين على معجزاته برئيس الشياطين !!

أجابهم بقوله :

« كل مملكة منقسمة على ذاتها تخرب .. وكل مدينة أو بيت منقسم على ذاته لا يثبت ، فان كان الشيطان يخرج الشيطان ، فقد انقسم الشيطان على ذاته ، فكيف تثبت مملكته ؟ !

« فلما اكمل يسوع هذه الأقوال بهتت الجموع من تعليمه لانه كان يعلمهم كمن له سلطان وليس كالكتبة » (١) .

ولم يطيقوا سماعه وقوة حججه .. ولم يستطيعوا صبرا لانقياد الشعب له ، واصغائه لصوته ..

وبدأوا يتربصون له ليشوهوا أعماله ..

وبينما هو متكىء فى البيت ، اذا عشارون وخطاة كثيرون قد جاءوا

---

(١) متى .

واتكاوا مع يسوع وتلاميذه ، فلما نظر الفريسيون قالوا لتلاميذه : لماذا يأكل معلمكم مع العشارين والخطاة ، فلما سمع يسوع قال لهم : لا يحتاج الأصحاء الى طبيب .. بل المرضى ! !

« فاذهبوا تعلموا ما هو : انى أريد رحمة لا ذبيحة .. لأنى لم آت لأدعو ابرارا .. بل خطاة الى التوبة » !!

* * *

كان عيسى يجادلهم ويرسل الكلمات قوية مدعمة ، وقد أوتى طاقة تجلت فى ثنايا اجاباته على الكتبة والفريسيين ومحاوراته الجدلية معهم ..

فلما جاءوا يسوقونه الى حيث أبى أن يساق ، كان همهم الأكبر أن يثبتوا عليه أنه يبطل شريعة ، أو يتصدى لتنفيذ أحكام مغايرة !!

وتعمدوا وهو فى الهيكل أن يضطروه الى موقف الحكم أو انكار الشريعة ، فاقتحم عليه الكتبة والفريسيون درسه ومعهم امرأة يدفعونها الى وسط الحلقة وراحوا يتصايحون :

« أيها المعلم : هذه امرأة اخذت وهى تزنى ، وقد أوصانى موسى ان نرجم الزانية ، فماذا تقول أنت ؟! »

ماذا يقول لهم ؟!

ان الشرك مكشوف ..

« أن قال ارجموها ، فذلك حق الولاية يدعيه ، وان قال أطلقوها ، فتلك شريعة موسى ينكرها فى قلب الهيكل !!

فوقف قائما ، ورد عليهم رياءهم فى وجوههم ، وكسر الشرك بقدميه من كلا طرفيه وهو يقول لهم :

« من كان منكم بلا خطيئة فليتقدم ، وليرمها بحجر » ! !

انه لا ينقض شريعة موسى ، ولا يدعى تنفيذها ، ولا يتجاهل رياءهم ، بل يدعهم هم يحاولون الخلاص من الحيرة والخجل والاضطراب !!

كما لم يصعب عليه أن يحطم الشرك السياسى الذى نصبوه له من قبل — ليسمعوا منه اشارة باعطاء الجزية او بعصيان الدولة ، واراهم أنهم يتعاملون بنقود قيصر ويكنزون منها الثروة والمال ، فلماذا لا يعطون ما لقيصر لقيصر وما لله لله .. ؟!

ولم يكن من الصعب عليه أن يسكت الصدوقيين والفريسيين كلما ارادوا احراجه ..

وحتى الحــواريين طالبوه يوما بمعجزة جــديدة ((**اذ قال الحواريون يا عيسى ابن مريم ، هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء ، قال اتقوا الله ان كنتم مؤمنين ، قالوا نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين ، قال عيسى بن مريم اللهم ربنا انزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيدا لأولنا وآخرنا وآية منك ، وارزقنا وانت خير الرازقين ، قال الله انى منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فانى اعذبه عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين**)) ...

* * *

واقتحم الكتبة والفريسيون على عيسى مجالســه ، واندسوا وسط الملتفين حوله ، وراحوا يجادلونه ، وهو يقهرهم بالبــاطل ويخرسهم بحكم الشريعة فينصرفون حيارى ثائرين يسائلون أنفسهم : ماذا عسانا نستطيع أن نفعل بهذا الداعية القوى الجرىء الذى لا تعنى دعوته شيئا غير القضاء على سلطان الأحبار الزمنى ، واظهارهم على حقائقهم للناس أجمعين ..

ولما كان الدس والتحريض وشحن القلوب بالبغضاء سلاح اليهود فى معـــاملاتهم — فما أسرع ما لجئوا اليـــه وهرعوا الى ســادتهم الرومان يستعدونهم على السيد المعلم البر الصالح ، مدعين أنه يبشر بالملكوت ويدعو الى الخروج على سلطان قيصر ، وينادى بالحرية العــامة للبشر أجمعين ، ويبذر الحب فى القلوب ..

لقد وجد زعماء اليهود ، أن الناس قد أجمعوا على حب عيسى وتقديس تعاليمه ، ووجدوا أنهم اضعف من أن يحاربوه علانيــة ، فتســـللوا الى جحورهم ، واستعدوا عليه سادتهم الرومان وهم على ثقة ان اتباع المسيح لن يجسروا على الوقوف فى وجههم ان هم أدانوا السيد المسيح .

وبدأوا يحيكون المؤامرة للقضــاء عليه قبــل أن يقضى هو على سلطانهم العريض .. فان الكهنة الفريسيين لن ينسوا له احراجهم وتجريحه اياهم فى طريقتهم للتــلاوة ومراسم العبــادة لفرط ولعهم بظواهر الأفعــال دون حقائق الايمان وريائهم وخبثهم وقوله عنهم :

((نقوا الكاس من داخلها فظاهرها لا يضير ما فيها)) !!

((هكذا أنتم أيضا من خارج تظهرون النــاس ابرارا ولكنكم من داخل مشحونون رياء واثما ، ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراءون لأنكم تبنون قبور الأنبياء وتزينون مدافن الصديقين ، وتقولون لو كنا فى أيام آبائنا لمــا شاركناهم فى دم الأنبياء ، فأنتم تشهدون على أنفسكم انكم أبناء قتلة الأنبياء ، فاملأوا أنتم مكيال آبائكم ، أيتها الحيات أولاد الأفاعى كيف تهربون من دينونة

جهنم ، لذلك ها أنا ارسل اليكم انبياء وحكماء وكتبة ، فمنهم تقتلون وتصلبون ومنهم تجلدون في مجامعكم وتطردون من مدينة الى مدينة » (١)

فكادوا له ودبروا لقتله بأن شكوا أمره الى الوالى وادعوا بانه يقول عن نفسه « انه ملك اليهود » ليثيروه عليه ــ مدعين ولاءهم له وعدم اقرارهم أو موافقتهم على ملك سوى قيصر رومية ! !

وقرر الكهنة اليهود اعدام عيسى بن مريم لادعائه الملك والنبوة وأن ينفذ فيه حكم الاعدام صلبا ..

وسرعان ما أرسل الوالى جنده للقبض على المسيح عيسى بن مريم !!

« فسأل رئيس الكهنة يسوع عن تلاميذه وعن تعليمه ، أجابه يسوع : أنا كلمت العالم علانية ، انا علمت كل حين فى المجمع وفى الهيكل حيث يجتمع اليهود دائما ، وفى الخفاء لم أتكلم بشىء لماذا تسألنى أنا ؟ أسأل الذين قد سمعوا ماذا كلمتهم ، هوذا يعرفون ما قلت أنا .. »

« ثم دخل بيلاطس أيضا الى دار الولاية ودعا يسوع وقال له : أنت ملك اليهود ؟ اجاب يسوع ، مملكتى ليست من هذا العالم ، لو كانت مملكتى من هذا العالم لكان خدامى يجاهدون لكى لا أسلم لليهود » (٢)

ولم يجد « بيلاطس البنطى » فى دعوة عيسى اى خروج على طاعة سيده الامبراطور ، فتراجع ولم يرد أن يتورط بالاشتراك فى المؤامرة ، واذا بالثعالب اليهودية تتسلل وتوحى الى حراس الرومان ان يحضروا « عيسى » الى الهيكل ليحاكم أمام مجمعهم المقدس ، فاذا أدانه المجمع فنائب الامبراطور بيلاطس سيجد نفسه أمام حكم صريح ..

« حينئذ ذهب واحد من الاثنى عشر الذى يدعى يهوذا الاسخريوطى الى رؤساء الكهنة وقال ماذا تريدون أن تعطونى وأنا أسلمه اليكم فجعلوا له ثلاثين من الفضة ، ومن ذلك الوقت كان يطلب فرصة ليسلمه » (٣)

وادان اللصوص بباطلهم الرجل البر الرحيم ، وقد اعجزهم بيانه وابطل حقه باطلهم وقضوا عليه بالصلب ثم أسلموه الى بيلاطس لينفذ حكمهم فيه بوصفه صاحب السلطة فى البلاد ..

وبدأت خيوط المؤامرة الدنيئة تتجمع عند نهايتها ..

وحاول بيلاطس ان يتنصل من تنفيذ الحكم ، ولكن رءوس الهيكل أصروا عليه .. وتنادوا بضرورة التنفيذ ..

وحل اليوم الرهيب .. وجىء بالصليب .. وتجمعت الجموع ..

---

(١) ، ٢ و ٣ ، متى .

وسيق عيسى عليـه السـلام الى النهاية التي تصورها له احبار اليهود ، وتمنوها ، وقد ظنوا أن قتله هو القضاء على دعوته والعودة الى سلطانهم القديم ..

وفى الساحة الكبرى .. خرجت جمـوع الناس لترى نهـاية الرجل الصالح ، داعية السلام ، وكلهم أسى له ، وحزن عليه ..

ورفعت الصلبان بمن كانت تحمل من المحكوم عليهم .. ونفذ الحكم فى اناس آخرين ، وبدأ الدور يحل على السيد المسيح ..

وهلل الأحبار ، وفرح الكتبة ، وتعالى الفريسيون ، وضج الناس ، وصرخت الجموع الحاشدة ثم ..

ثم غامت السماء .. واظلم الجو .. وبدا للعيون ان السماء قد انطبقت على الأرض ، وان نهاية العالم تقترب .. وساد الصمت .. وغمرت الرهبة القلوب ..

وصدر الأمر بصلب المسيح عيسى بن مريم !!

والقرآن لا ينكر صـدور الامر بصلب المسيح .. ولكنـه ينفى وقوعه على جسد المسيح :

((وبكفرهم وقولهم على مريم بهتانا عظيما ، وقولهم : انا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسـول الله ، وما قتلوه (!) وما صلبـوه (!) ولكن شـبه لهم (!) وان الذين اختلفوا فيه لفى شك منه ، ما لهم به من علم الا اتباع الظن ، وما قتلوه يقينا ، بل رفعه الله اليه ، وكان الله عزيزا حكيما)) !!

وقضى الله امره .. وعلت مشيئته جل وتعالى .. ورفع مسيح الله الى السماء .. وسما الى الملكوت .. وتفتحت له أبواب الجنان ..

وانقشعت السحب .. واستنار الجو .. واسرع الزبانية الى الصليب يتفحصون الضحية الطاهرة ، فاذا هم لا يجـدون عيسى حيث وضـعه الرومان ..

لقد كان رفع عيسى عليه السلام الى السماء هو القيامة الكبرى .. هو البعث الروحى لدعوته .. هو الرباط المقدس الذى أعاد اتباعه الى خطيرة الدعوة بعد أن مرت الفتنة ونقضت التجربة ، وثبت عجز اليهود وسـادتهم الرومان عن القضاء على رسول كريم ، وقتل دعوته البرة ، التى نادى بهـا ليهدى الناس .. وقد شبه لهم انهم بقتله وصلبه يقضون على رسالته ..

كانت القيـامة صحوة .. وكان رفع عيسى الى السماء زحفـا ظافرا لدعوته ومبادئه ودينه ، ونصوا على المؤامرة اليهودية الرخيصة التى فشلت امام الحق واندحرت ، وقضى عليها بالبوار الأبدى ..

كان رفع عيسى الى السماء تجميعا للدعوة ، وايذانا بخروج الحواريين بدين الله مبشرين ومنذرين .. وخروجا ازليا للشريعة ذاتها من السياح اليهودى الذى فرضه عليها الأحبار وتجار الدين الى العلن الذى أراده لها الحق سبحانه وتعالى ، حيث انزل شريعته لهدى الناس اجمعين ، لا لشعب من الشعوب ! !

رفع عيسى عليه السلام الى سماء ربه ، وبقيت على الأرض ذكراه العطرة ، ذكرى الروح الكريم الذى سرى فى عالم ميت بحياة وحب وسلام .

رفع عيسى عليه السلام .. وبقى عيسى حيث لم يرد له اليهود أن يبقى ، بقى فى القلوب والاذهان نورا وأملا وهدى للناس ومنجاة للضالين .

بقى عيسى فكرة وعقيدة ..
بقى حرية وثورة ..
بقى دعوة هدى وسلاما وحبا ..
فسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا فى العالمين ! !

* * *

« هناك رأى جاء به غلام أحمد القاديانى ، وهو رجل من بلد قاديان فى الهند ، قال ان المسيح عيسى بن مريم أنجاه الله من كيد اليهود فذهب الى الهند واستقر فى بلاد قشمير فى شمال الهند بسفح جبال هملايا ، وأقام هناك الى أن وافاه أجله ودفن فى تلك البلاد قرب بلدة سرنجار وله قبر معروف يقال له « **قبر النبى الأمير** » (١)

ولا شك ان دعوى مجىء المسيح الى الهند أمر يحتاج الى بحث واف وتحقيق دقيق ولا يمكن تصديقه الا بظهور الأمر ظهورا بينا وثبوته ثبوتا قاطعا لكل شبهة ..

« كما يوجد فريق من الناس ، كونوا لهم اعتقادا خاصا انتزعوه من نتف اقتطفوها من الاناجيل تدل على نجاة المسيح من القتل ، وان فى نجاته سرا خاصا ، وذلك » :

١ — ان بيلاطس الوالى لم ير فيه شرا ، ولا أمرا موجبا للقتل كما فى« متى » :

« فلما رأى بيلاطس أنه لاينفع شيئا ، بل بالحرى يحدث شغب أخذ ماء وغسل يديه قدام الجميع قائلا انى برىء من دم هذا البار ، أبصروا أنتم » .

وفى لوقا — « فدعا بيلاطس رؤساء الكهنة والعظماء والشعب وقال

---

(١) قصص الانبياء — عبد الوهاب النجار .

لهم : قدمتم الى هذا الانسان كمن يفسد الشعب . وها انا قد فحصت قدامكم ولم اجد فى هذا الانسان علة مما تشكون عليه ؛ ولا هيرودس ايضا ، لانى أرسلتكم اليه ؛ وها لا شيء يستحق الموت صنع منه .

٢ – أن زوجة بيلاطس كانت عاطفة على يسوع مهتمة بأمره حريصة على أنه لايمس بسوء ، وقد أوصت زوجها بذلك فى ص ٢٧ « متى » واذ كان جالسا على كرسى الولاية أرسلت اليه امراته قائلة : اياك وذلك البار ، لاننى تألمت كثيرا فى حلم من أجله .

واذا فقد علمنا أن المسيح عليه السلام له شفيع شفاعته غير مردودة عند بيلاطس .

٣ – ان يسوع لم يمكث على خشبة الصلب زمنا طويلا .. بل جاء يوسف وهو رجل غنى من الرامة ، وكان من تلاميذ المسيح سرا ؛ ولم يكن راضيا عن فعل اليهود .

وكذلك جاء نيقوديموس وطلب يوسف من بيلاطس ان يسلمه جسد يسوع ، فتعجب بيلاطس من موته سريعا وسأل رئيس الشرطة ولما علم منه بوفاته أمر بتسليمه ليوسف ، فأخذه وكفنه ولفه فى كتان ووضعه فى قبر له هناك .

٤ – ينظر أصحاب هذا الرأى الى امر آخر :

هو أن المسيح لم تكسر ساقاه وهو على خشبة الصلب ولا بعدها ، كما كسرت ساقا كل من اللصين اللذين صلبا معه ، ولا سبب لذلك سوى العناية الخاصة التى كانت تحوطه من ناحية الوالى بيلاطس وزوجه ، ويوسف ونيقوديموس فاجتماع هذه الاعتبارات جعلهم يقولون ان المسيح تظاهر بالموت اى أنه اظهر للناس انه مات ، ولم يكن قد مات ، والذى تولى انزاله عن الخشبة واليهود فى غفلة عما بينه وبين المسيح . من العلاقة ، ولفه ووضعه فى القبر الذى يملكه يوسف ، واجاف على الباب حجرا .

ولما هدأ الناس ودخلوا فى السبت جاء يوسف واعوانه وأزالوا الحجر **وأخذوا يسوع وواروه فى بيته أو بيت نيقوديموس الى أن برىء من أثر المسامير ، ثم ذهب الى بلاد غير البلاد الى أن تولاه الله بالوفاة** (١) .

« وهؤلاء يؤولون قوله تعالى : ((**وما قتلوه وما صلبوه**)) بمعنى ان صلبه لم يؤد الى قتله ، ((**ولكن شبه لهم**)) انه قتل على خشبة الصلب ولم يكونوا على يقين من أنه مات حقيقة ؛ وذلك معنى ((**وما قتلوه يقينا**)) !!

---

(١) قصص الانبياء – عبد الوهاب النجار .

وهناك فريق آخر من المسلمين يقولون ان الآيات القرآنية ناطقة بنجاة المسيح عليه السلام من ايدى اعدائه وان الله تعالى وعده العصمة من كيدهم وتدبيرهم ، وانه انما يموت بالوفاة حتف انفه ، وبأن شـبهه ألقى على غيره فاتخذوا ذلك الشبيه ، وفعلوا به ما بدا لهم يحسبون انه المسيح . وهم فى الحقيقة يجاهدون فى غير عدو — ويحملون قوله تعالى : ((**وما قتلوه يقينا**)) على أن عدم قتله أمر يقينى . أو وما قتلوا ظنهم يقينا . فهذا كل ما تدل عليه الآيات .

وأما صعوده الى السماء ، فلا يوجد فيه نص قاطع الثبوت والدلالة — ولا حجة للناس فى القول بانه رفع الى السماء — لانه لا يوجد ذكر للسـماء بازاء قوله تعالى : ((**ورافعك الى ..**)) وكل ما تدل عليه هذه العبارة . ان الله مبعده عنهم الى مكان لا سلطة لهم فيه ، وانما السلطان ظاهـرا وباطنا فيه لله تعالى فقوله : ((**الى**)) لا يدل على السماء نصا . بل هو كقول الله فى لوط ((**وقال انى مهاجر الى ربى**)) اذ ليس معناه انى مهاجر الى السماء ..

ويتساءل البعض : اذا فأين ذهب عيسى ، وما الذى آل اليه أمره ؟ !

والجواب على ذلك : أن الله تعالى ابهم أمره علينا ، ولم يقصه فنحن نفوض العلم بذلك الى الله تعالى ، فليكن أنه اماته فى الارض أو أنامه كما أنام اهل الكهف ، أو اصعده الى السماء ، لانقطع بشىء من هذه الاشياء بعينه . بل نبهمـه كما ابهمه الله ، ومن أراد أن يقطع بشىء فعليه دليـل ما قطع به . وتفويض العلم الى الله اسلم فى العاقبة ، وأكثر احتياطا للدين ، فليس بهين أن يشهد المرء على الله بأمر لم يشهد الله به على نفسه ، وليس عنده به سلطان مبين » (١) .



(١) قصص الانبياء — عبد الوهاب النجار .



الزانية وقد دفعها البعض امام « عيسى عليه السلام » يسألونه :

« أيها المعلم ، هذه امرأة أخذت وهى تزنى ، وقد أوصانا موسى أن نرجم الزانية ، فماذا تقول أنت ؟ !

فقال فى هدوء وقد أدرك مقصدهم :

« من كان منكم بلا خطيئة فليتقدم ، وليرمها بحجر » ! !

(الرسالات الكبرى)

الثالوث

« لقد كفر الذين قالوا ان الله ثالث ثلاثة ، وما من اله الا اله واحد ، وان لم ينتهوا عما يقولون ، ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم أفلا يتوبون الى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم .. ما المسيح بن مريم الا رسول قد خلت من قبله الرسل ، وأمه صديقة ، كانا ياكلان الطعام ، أنظر كيف نبين لهم الآيات ، ثم أنظر انا يؤفكون » ! ! (سورة المائدة)

واجه الحواريون — **بعد رفع السيد المسيح عيسى بن مريم** — مشكلة الوضع الدينى بالنسبة لأتباع عيسى عليه السلام ومن آمنوا به من يهود ونبطيين وغيرهما من أجناس أخرى ، وسألوا انفسهم على مكانهم من الشريعة الكبرى التى أقامها عيسى وصحح أوضاعها وأكمل تجديدها — والشريعة التى استمسك بها احبار اليهود ! !

والواقع أنه لم تكن هناك مشكلة ، فالناموس الموسوى ، حرف فيه الأحبار وبدلوا ، وكانت لهم فيه تخريجات تمت على كر العصور ، أبعدت تفاصيله عن الأصل ، وكان سر الصراع بين عيسى وغرمائه من الكتبة والفريسيين وغيرهم من الكهان ..

ولم يكن الموقف اذا يتحمل اكثر من وقفة صغيرة يلتقط الحواريون انفاسهم خلالها ثم يعلنون استمرار الجهاد فى سبيل دعوة عيسى ورسالته ، وواجبهم فى حمل أمانة ابلاغها الى الناس ، بنصها المنزل عليه وروحها المتجدد الذى نقى الناموس من شوائب العصور ، وآراء الطامعين من أهل الكهانات ..

وتصدى الحواريون فى اصرار ، ووسط ظروف قاسية بحمل المشعل .. وتقدموا الصفوف يبشرون بالملكوت والاخاء والمحبة .

« المجد لله فى الأعالى وعلى الأرض السلام وبالناس المسرة .. »

وينادون بما نادى به منقذ البشرية ومخلصها من الشكوك ، فتكاثر من حولهم الاتباع وعظم شانهم ..

وسار الحواريون هنــا وهناك .. واستمروا فى مسيرهم التبشيرى عاملين بوصية المعلم الاكبر لهم ، فكان مسيرهم هذا ، هو البعد التـام عن المعتقدات اليهودية كلها .. والنحو بالدعوة الجـديدة الى طريق جديد ، بعيد عن اليهود ..

وكان هذا هو بداية التحول فى الشريعة الكبرى ، لتخرج من مجراها القديم وتتحرر من رواسبه ، لتسير فى المجرى الجديد الذى شقته رسالة عيسى عليه السلام بوحى من الله ، وأمر منه .. وبهذا التجديد يعود الكتاب الى أصله المقدس ولا يكون للناس بعد هـذا عذر ولا مقيـل من العذاب اذا هم لم يتبعوه ! !

واطلق الحواريون على انفسهم والمؤمنين بدعوة رسـولهم المعلم الكبير اسم ((**المسيحيين**)) نسبة للسيد المسيح تمييزا لهم عن اليهود وأحبارهم والكهان .. وأصبحت دعوتهم هى ((**المسيحية**)) !!

والمسيحية .. هى التجديد الربانى للموسـوية ، وهى الاسـتمرار الصحيح المقدس لدعوة الاسلام السمحة التى أمر الله رسـله بابلاغها الى الناس منذ اقدم العصور .

عبادة الله ، والاقرار بوحدانيته المطلقة ، وتنزهه عن مشابهة الحوادث، والايمان بقضائه وقدره وكتبه ورسله دون تفرقة ولا تمييز .. وتقـديس الأبوين ، واتباع الفضائل والبعد عن الدنايا وحب النـاس جميعا ، وتمنى الخير لهم ! !

وسارت المسيحية قدما فى طريقها الجديد .. واتسعت رقعةانتشارها حتى لقد هال اليهود الأمر واحسوا العجز أمام الفئـة المؤمنـة المبشرة بالفضائل والكمال .

كان عيسى عليه السلام ، فردا واحدا ، حاربوه وجادلوه ، وترصـدوا له فى كل طريق ، فعجزوا عن مجادلته ، وقصروا عن ادراكه ، وصعبعليهم أن يحولوا دون بيانه ولمس شغاف قلوب الناس ، فآمنوا به ، واهتزتبذلك قوائم ادعاءاتهم ، ولم يعودوا وحدهم أصحاب الدين السماوى ، والشعب الذى طالما تعالى بأن له الها واحدا يرعاه .

أما اليوم .. وبعد المؤامرات الفاشلة ، والمكايد التى ارتدت سهامهـا الى صدورهم .. وبعد رفع عيسى الى السماء ، وجدوا أنفسهم أمام عيسى مرة أخرى وقد بعث فى أكثر من صورة ، وأكثر من داعية ومبشر .. وانه ليتزايد مع الايام ، وينمو ويتعاظم عديد من اتبعوه فى سيره الجديد داعيا الى السلام مبشرا بالملكوت مطيبـا نفوس الحزانى ، باعثـا الى قلوبهـم السلوى والعزاء .

وانكمش اليهود كعادتهم ، وعجزوا عن المعارضة العلنية ، وهرعوا الى جحور المكائد يحاولون الخروج بهيئة جديدة ، تستأنف الوقيعة والدس ، وتوجه قوى اخرى بعيدة عن الميدان ؛ لتقتحمه باسم المحافظة على كيانها ووجودها وهيبة ساداتها الحاكمين .

ووصلت همسات اليهود الى آذان الاباطرة : ان قوموا .. استيقظوا فقد طالت الغفوة ، وهبت أعاصير المخاطر . فقد تقدم الدعاة يبشرون بالحب والملكوت وانها للمعاول الذى ستهدم أمجاد الطغاة .

ورفع الطغاة رءوسهم فى صلف وكبرياء ، وعز عليهم أن يجسر الرقيق على رفع الرءوس ، ثم ضحكوا فى امتهان واستخفاف وكادوا ينصرفون الى لهوهم وطغيانهم من جديد لولا أن عاد دعاة الفتنة يقارنون بين أنفسهم واتباع المسيح ويقولون :

نحن أتباع دين سماوى قويم ، حصرناه داخل جدران معابدنا ، وفى أعماق صدورنا لم نخرج به الى الغير ، ولم ندع بدعوته الناس ولم نبشر بحب ولا ملكوت أسنى ، وتركنا لكم الملكوت والتحكم فى اقدار الشعوب ..

أما اليوم فهناك دعاة يدعون انهم على حق ، وانهم أصحاب دين .. وفى دينهم نقض وهدم لسلطانكم ، فكيف تسمحون لهم بالخروج والمجاهرة بالدعوة . ومحاولة اثارة النفوس على جلال الامبراطور ..

وتجسدت المؤامرة .. ومشى الخوف من الغد فى ظلمات القلوب .. وقال طاغية روما .. اى اله يدعو اليه هؤلاء الدعاة وأنا اله العالم وسيد الشعوب وحاكم الناس ! !

ونظر طاغية روما حواليه ، فاذا بالركب يتقدم واذا بجموع الشعب تؤمن فى شتى الامصار ، وفى قلب روما نفسها . . وراءه استمساك المستضعفين بالدعوة ، وتغلغلها فى صميم قلوبهم ، وفى هذا مايعنى أنهم سوف يرفعون الرءوس على السادة المترفين ، وبذلك ينهار مجتمع الطبقات وتنهزم الرجعية المتسلطة وتجبرها الظروف القاسية ان تخضع للكثرة الغالبة من العبيد وجماعات المستضعفين .

وبدأ الاضطهاد الدينى .. وتحرك المعبود البشرى صاحب التاج والصولجان نحو الفرائس ليرهبها ببطشه وجبروته ويريها من فنون قوته وعذابه ما يثبت لها انه هو الآخر اله قادر على كل شىء .. يحيى ويميت ويرغم الخارجين على الخضوع ويجبرهم على السجود لجلاله والخشوع امام تماثيله ونصبه التى امتلأت بها باحات المعابد فى جميع انحاء العالم المعروف فى ذلك الوقت ! !

واستمر الزحف المؤمن .. وزاد الارهاب المؤمنين استمساكا بدينهم ، وربطهم الى عقائدهم ، فهانت الروح واستعذب المؤمنون الموت واعتبروه

الإنطلاقة الطاهرة نحو الملكوت حيث يكونون احرارا فى جنات الرضوان لطالما حدث الحواريون الناس عن السيد المسيح .. عن المنقذ .. عن المخلص .. عن محرر الأرواح ..

لطالما حدثوهم عن جهاده ورسالته وتضحياته ، وتحمله أوصاب البشرية جمعاء ..

قال الحواريون فى عيسى عليه السلام ما حول اليه القلوب وأجمعها على حبه وتقديسه ، حتى لقد أصبح الناس جميعا يرون الرمز الحى للتضحية والمثل العليا الفدائية المنزهة عن كل مطمع او غرض ، فملك الارواح ، واتجهت اليه المشاعر جمعاء بكل عاطفة فيها اكبار وتقديس وتمجيد .

وامام هذا النجاح العاطفى فى كسب عطف الجماهير أحب الحواريون هذه الوسيلة من وسائل الدعوة الى الايمان برسالة عيسى بن مريم ، وراحوا يضربون على الوتيرة ، فبكوا من اجل السيد الخاص ، الذى ضحى بنفسه فى سبيل الحق ، وراحوا يهرعون من الحقائق الى ظلال المبالغات البريئة ليقربوا الى الاذهان صورة مثالية لتضحيات السيد المسيح وهم ينوحون ويبكون ، ويهزون المشاعر ويعبثون بالالباب ..

وتكونت فى الاذهان صورة جديدة للسيد المسيح .

صورة راحت مع كر العصور وازدياد الاضطهاد تتعالى وتتسامى ، حتى اصبح عيسى بن مريم فى نظر المستضعفين رمزا مقدسا بدأ فى موكب الحب ، يخرج من دائرة البشرية الى دائرة التقديس والاجلال .

وتحدث الناس فى همساتهم ونجواهم عن عيسى

عن معجزة الوجود السامية .

عن كلمة الله التى تجسدت فكانت ذلك الروح الكريم .

عن ظروف ميلاده وبعثه ثم صعوده الى السماء .

هذه كلها معجزات ، لم تشهد البشرية لها مثيلا ، ولم يسمع بها الناس من قبل .. انها ولا شك خوارق تخرج بعيسى من طور البشرية الى طور التاليه ..

واقحم أصحاب الكهانات انفسهم فى الجدل والحديث المستحب عن شخصية المسيح وحقيقته الوجودية ، وحلا لهم ان يعظم امر هذا الحب ، وأن تصل العاطفة فيه الى حد المبالغة ، ما دام فى هذا ماسوف يعظم من شأنهم باعتبارهم خلفاءه على الأرض .

وبدأت النظريات المستغربة تاخذ دورها فى الظهور بين الناس ، وكان امر المسيحيين قد تعاظم وكثر الاتباع وآمن بها الاياطرة .. مثلهم فى ذلك مثل سائر الرقيق والمستضعفين ! !

وخرج الجدل الى صور مستغربة، وتعدى السيد المسيح الى السيدة العذراء أمه ..

تحدثوا عن الاله ..

ثم .. ام الاله !!

واسرعوا بالحديث عن « الكلمة » التى استقرت فى مريم وكان الروح الامين وساطتها وحاملها والمبشر بها من لدن رب السموات والارض .

وطابت النفوس للتصور الجديد عن شخصية عيسى وأمه .. وتحمس للفكرة التى اهتدى اليها العقل البشرى عن المخلص العظيم ، وأنه لا يمكن ان يكون بشريا مثل سائر الناس ! !

وقالوا فى غمرة التحمس التى اجتاحتهم : هل هو الله ؟ !

وهتف البعض للاكتشاف الخطير الذى تراجع امام البعض الآخروقال :

هل هو ابن الله ؟ !

وارتاح العقل المتحمس للصفة الجديدة واعتبر المسيح : ابن الله ! !

واذا برأى ثالث يبرز ويقول :

والروح الأمين ! ! ما مكانه ! !

وكانت مشكلة وقفوا أمامها لحظـة .. ثم اسرع المتحمسون يفسرون المعمياته ويقولون :

« ان المسيح .. ثالث ثلاثة » ! !

الأب .. وهو الله ..

الابن .. وهو عيسى ..

والروح القدس .. وهو جبريل ..

ومن هـذا الثـالوث المقـدس ، تتكون القـدرة العظمى .. ولكمال وجود هذه القدرة ، يجب أن تكون مكونة من شخوصها المقدسة الثلاثة .. وان واحدا منها دون صاحبيه ، لا يكون ولا يمثل القدرة الحقة ابدا .. بل يجب أن يكون الثلاثة فى واحد ، والواحد فى ثلاثة .. والثلاثة هم القدرة القادرة .. هم الله ! !

وكان هذا الرأى اغرب رأى فى البشرية جمعاء على كر العصور ! !

كان اجرأ فكرة تجاسر العقل البشرى على المجاهرة بها والتحمس لها .. وهى ان الله هو المسـيح عيسى بن مريم ، وقد هبط جل وعلا وتنزه عن

مشابهته للحوادث ، الى الأرض لينقذ اهليها ، فكان روحا ، وكلمة انحدرت وحلت فى مريم البتول العذراء ، وتجسدت بعد ذلك طفلا هو عيسى معجزة الخلق .. فانقسمت القـدرة بذلك الى ((ثالوث)) متكامل ، يمثل القـوة والاقتدار وحدهما ، ويظهر فى صور ثلاث هى جزئيات من كل منها يتكون الكل ويكمل وجوده .

وهكذا .. وبعد قرون من ميلاد السيد المسيح .. وقرون أخرى من رفعه الى السماء ، اخذت الدعوة نفسها تتحول فى مجرى غريب جديد ..

كانت دعوة عيسى ، هى الوحدانية .. دعوة الى عبادة الله الواحد الذى لا شريك له ..

وكانت رسالته هى تنقيـة الناموس من الشوائب والادخالات واعادة الكلم الى مواضعه الأصلية ، كما أنزله الله ..

ومن اجل هذا التصحيح الواجب حدوثه بعث عليه السلام ، وكانت رسالته ..

ومن اجل هذا تحدى الأحبار والكهان ، وندد بالكتبة واتهم الفريسيين ومن أجل هذا ايضا تصدى له هؤلاء وعارضوه ودسوا الدسائس ورتبـوا المكائد ..

ومن اجل اتمام ابلاغ رسـالة عيسى عليه السـلام ، خرج الحواريون مبشرين ، داعين الى الله ، ثم .. وبعد هذا كله .. وبعد ارسائها على أسس الوحدانية والكفران بالشرك ــ تأخذ سمة جديدة وتتبع منهاجا غريبا .. !!

لم تعد الدعوة اذا .. دعوة الى الايمان بالوحدانية ..

بل دعوة الى الشرك والتجديف اذ خرجت بالأصل النورانى عن طريقه الطبيعى ، وجنحت به الى منعطفات جانبية مظلمة ، قام فيها الجدل حول شخصية السيد المسيح ، وحقيقته وصفته وهل هو :

١ ــ اله واجب العبادة وحده

٢ ــ ابن اله يستمد قداسته من صلته بابيه القادر .

٣ ــ كلمة الله حلت فى مريم العذراء ! !

ابدا ما جاء عيسى عليه السلام بشىء من هذا .. وان اصل الشريعة لباق رغم الادخالات والافتراءات وليس فيه ما يشير الى الثالوث ، او ان الله الواحد له فى ملكه شريك ..

وقد اشار عيسى عليه السلام الى نفسه بتعريفات كثيرة رواها عنـه

كتاب الاناجيل لم نجد من بينها انه ادعى انه الاله أو ابن الاله .. بل قال :
((أنا ابن الانسان)) أو ((أنا نور العالم)) أو ((أنا خبز الحياة)) أو ((انا الطريق والحق والحياة)) أو ((أنا القيامة والحيـاة)) أو ((أنا الراعى الصـالح)) أو ((أنا المعلم والسيد)) أو ((أنا الكرمة الحقيقية)) ...

* * *

لقد نادى عيسى عليه السلام بالوحدانية ، ودعا الى عبادة الله الذى لا شريك له والذى لا يجب أن يسجد البشر لمعبود سواه ، وان يسـالونه وحده فهو الواحد الأحد الفرد الصمد ..

وصدق الله العظيم اذ يقول فى كتابه الكريم :

((لقد كفر الذين قالوا ان الله هو المسيح بن مريم)) ..

((وقال المسيح يا بنى اسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم انه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة وماواه النار وما للظالمين من انصار)) ! !

ولكن خلفاء الحواريين وخلفاء خلفائهم دعوا الى عبادة المسيح ، وجعلوا الله الواحد ، ثالث ثلاثة فى ثالوث تخيلوه ، وعينوا أفراده ! !

((لقد كفر الذين قالوا ان الله ثالث ثلاثة وما من اله الا اله واحد ، وان لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب اليم ، أفلا يتوبون الى الله ويستغفرونه ، والله غفور رحيم ، ما المسيح بن مريم الا رسول قد خلت من قبله الرسل ، وامه صديقة كانا ياكلان الطعام ، انظر كيف نبـين لهم الآيات (! !) ثم انظر انى يؤفكون)) ..

ووجدت الدعوة الجديدة صداها ..

واتسع المجال للنقاش الهرطقى ، وتدخلت الفلسفة ونظرياتها الغريبة ، وعظم شـأن حلقات الجدل فى حقيقة السـيد المسيح .. وهكذا انصرف الناس عن لب الدين ..

واخذ الايمان بالثالوث المقدس ياخذ شكلا جديدا .. لقد احب المسيحيون شخصية عيسى عليه السـلام ، واعجبوا بجهاده القوى الراسـخ فى سبيل عقيدته ، واصراره على ابلاغ رسالة الوحدانية خالصـة من الشوائب .. وزاد من حبهم له ما لقيه من عدوان البشر ومحاربة اصحاب الكهانات .. وتمثلوه وقد حمل وحده آلام البشرية لتكون سيرته عزاء للحزانى والمساكين .. فلا عجب بعد هذا أن تشغلهم حقيقته ، وان يصل هذا الاعجاب حد التقديس والاكبار .. لا العبادة ، والوصول بمدارك الفكر الى تصور ان عيسى هو الله .. أو ابن الله ! !

ولكن أمر الجدل كان قد تعاظم ، وشغلت فكرة الثالوث الأذهان ..

واحتلت العقول وكأنما ارتاح الناس اليها ، ووجدوا فيها تعويضا للسيد المسيح عما لقيه من كنود البشر وكفرانهم به ! !

واخذ هذا الايمان الغريب شكلا جديا فى صلب العقيدة ، حتى لقد اصبح محورها واساسها ، وحتى لقد صارت دعوة الثالوث هى لب العقيدة الجديدة التى اخترعتها عقليات خرجت بها عن الأصل وباعدت بين المؤمنين واساس الشريعة الكبرى ..

وعظم امر فكرة الثالوث .. واستقرت فى قرارات نفوس القوم ، ولم تلبث أن تفرعت عن هذه الفلسفات الهرطقيـة دعاوى أخـرى ، ودعاوى ثالثة مكملة لها ، وبدأ السر يبين ، والحقيقة تتكشف ، واذا بالأمر لا يعدو ان يكون الدعوة الى تمجيد خليفة خلفاء عيسى وتقديسه التقديس المطلق باعتباره الجالس على عرش المسيح وحوارييه ، وظل الله على الأرض ! !

ذلكم كان لبه الدعوة .. وسر الجـدل .. ومحور النقاش والصراع الدنيوى فى سبيل العروض والماديات .. من اجل هـذا أحدث المجادلون حدثهم الرهيب ، وجنحوا بدعوة السلام والحب التى جاء بها عيسى بن مريم الى جهة بعيدة عن الأصل ..

لقد دعا عيسى عليه السلام الى عبادة الله .. لا الى عبادته هو ..

دعا الى الاقرار بربوبيته تبارك وتعالى .. لا بتقديس مريم العذراء ، ولو فعلها يوم خرج بالدعوة وجرؤ عليها لكان موقف الأحبار منه رهيبـا مفزعا .. بل لكان اقسى منـه موقف الرومان ، الذين كانت الالوهيـة لامبراطورهم وحده دون الناس جميعا ! !

ولكنها .. كانت دعوة جريئة ! !

دعوة تطاول ادخلت فى الشريعة الكبرى ما لم يجسر على ادخاله أشد الناس عداوة وكفرانا بالدين القيم ..

دعوة وجدت مرعاها الخصيب .. ووجدت من يستمعون لها دون روية ولا تفـكير .. ذلك لأن وراء الدعوة تسترت مطامع وأهواء أثارها رجال الكنيسـة الرومانية التى كانت أول من اهتم بهذا الأمر ، ولو عارضته ووقفت فى وجه تياره يوم انطلق ــ لقضت عليـه وأبقت الدين نقيا من الهرطقـة والاجتراء على التراث ، ولكنه كسب روحى ومادى أراده البابوت لانفسهم فشجعوا عليه ونادوا به ووسعوا رقعته حتى صار معركة مشتعلة الأوار كان لها معارضون .. وكان لها انصار ! !

« لقد كفر الذين قالوا ان الله هو المسيح ابن مريم ، قل فمن يملك من الله شيئا ان اراد ان يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن فى الأرض جميعا ، ولله ملك السموات والأرض وما بينهمـا ، يخلق ما يشـاء والله على كل شيء قدير » (١) ..

---

(١) سورة المائدة .



« العشاء الاخير » (الرسالات الكبرى)

« واذ أوحيت الى الحواريين أن آمنوا بى وبرسولى قالوا : آمنا واشهدبأننا مسلمون .
اذ قال الحـــواريون يا عيسى ابن‌مريم : هل يستطيع ربك أن ينزل علينامائدة من السماء ، قال : اتقوا الله انكنتم مؤمنين ، قالوا : نريد أن ناكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم ان قد صدقتنا ونكون‌عليها من الشـــاهدين ، قال عيسى ابن‌مريم : اللهم ربنا انزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيدا لاولنا وآخرنا؛ وآية منك ، وارزقنا وانت خير الرازقين ،قال الله انى منزلها عليكم ، فمن يكفر بعدمنكم فانى اعذبه عذابا لا اعذبه احدا من‌العالمين » (سورة المائدة)

بدء النهاية

((انا انزلنا التوراة فيها هدى ونور ، يحكم بها النبيون الذين أسلموا ، للذين هادوا ، والربانيون والاحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء ، فلا تخشوا الناس واخشون ، ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا ، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون))

(سورة المائدة)

وكان فى حـادث « النهاية » تقوية لرسـالة عيسى واصرار تلامذته على التمسك بها والعمل على نشرهـا ، فظلوا حيث هم فى أورشليم .. ثم بدأوا بعد ذلك يخرجون الى شتى البلاد لنشر الرسالة الدينية الكبرى ..

وحتى ذلك الوقت الذى رفع فيه عيسى الى السماء لم يكن هناك ماعرفناه بعد بالدين « المسيحى » لأن عيسى كان اسرائيليا ، ولم يزد على ما جاء به موسى ولم ينقص .. كان مسـلما ، كما كان موسى من قبل ، وكما كان الحواريون أيام عيسى اذ قالوا : ((**آمنا بالله ، واشهد بانا مسلمون**)) !!

ولكن تلاميذه من بعده وجدوا أنه من اللازم أن يقام حد بين اليهود وهم الذين ((**هادوا**)) وحادوا عن ((**الاسلام**)) بعد ذهاب موسى .. وبين أتباع عيسى، فقطعوا صلتهم باليهود واسموا انفسهم ((**المسيحيين**)) أو ((**النصارى**))

((وقالت اليهود : ليست النصارى على شيء ، وقالت النصارى ليست اليهود على شيء (!!) وهم يتلون الـكتاب ، كذلك قال الذين لا يعـلمون مثل قولهم ــ فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون)) !!

وسار تلاميذ عيسى فى مشارق الأرض ومغاربها يبشرون بالدعوة كمـا أمرهم نبيهم .. واستقر بعضهم فى آسـيا الصغرى ، وسـار البعض الى غيرها ، واتخذ بولس روما موطنا له ..

ولقد كانت روما يوم نزلها بولس سيدة العالم ، وكان نظام الطبقات فيها رهيبا ثقيل الوطأة ، فكان هناك الأشراف وكان هناك العامة وهم الغالبية

العظمى للشعب — يعيشون أسوأ معيشة ، يقاسون شظف العيش وتعنت السادة وجورهم وظلمهم ..

فما أن جاءهم بولس بالرسالة النورانية حتى آمن له كثير منهم وتركوا الوثنية التى كانت متفشية بينهم ..

وكانت روما فى ذلك الوقت أشبه ماتكون بعواصم الأزياء والمخترعات فى وقتنا الحاضر ، فما أن يظهر فيها زى جديد أو مخترع حتى تتناقله الدنيا فى لهفة وشغف .. وكذلك كان الأمر فى دعوة بولس الى المسيحية ، اذ مالبثت ان انتشرت واستفحل أمرها استفحالا خشيت معه السلطة على نفسها ، لأن تعاليم بولس كانت تتعارض مع النظم القائمة فعلا ..

وأخذت ((نيرون)) نوبة من نوبات التعصب الأعمى فقبض على المسيحيين والقى ببعضهم فى السجون ، وصب عذابه على الباقين .. وساقهم زمرا الى الموت .. بل لقد راح يلقى بهم أحياء فى الملاعب العامة للوحوش الضارية كى تفترسهم وتأكل لحومهم جهارا وسط صياح المخمورين وهتاف عبدة الأوثان دون اشفاق أو رحمة !!

لقد كان يريد أن يقضى على عقيدتهم ويبيد كثرتهم ويرد من استطاع الى الوثنية !! وكانت نتيجة القسوة عكس المرجو منها . اذ تجددت فى قلوب الناس ذكرى السيد المسيح عيسى بن مريم ، وتجسدت صورته السمحة ، ومرت أمام العيون أحداث جهاده ، واحتماله قسوة التعذيب ، فتمسك المسيحيون بالدعوة وارتفع ايمانهم بالداعية الصادق الى مراتب التقديس ..

وقد أعدم بولس الرسول فى جملة من أعدموا فى ذلك العهد .. وصلب وقطع رأسه بالسيف ، ولم تكن تعاليمه الا صدى لدعوة السيد المسيح وتفسيرا وشرحا لأصولها القيمة . وكان بولس من أعظم رجال التاريخ المسيحى ومن أنشط المبشرين بالمسيحية .

وبعد نيرون جاء ((**دقلد يانوس**)) وهو الذى قيل ان ((**أصحاب الكهف**)) هربوا الى كهفهم فى عهده ، فاتبع سياسة نيرون ..

ولكنه كان عاقلا بعض الشىء ، اذ وجد أن سياسة العنف لاتجدى مع أصحاب العقائد ، بل تزيد عددهم كثرة وخطورة .. فرأى أن خير مايفعله ان يؤمن بالدعوة ويجعلها ((**الدين الرسمى**)) للدولة !! ففعل وأعلنها فى الخافقين .

وكان معنى هذا الاعلان الجرىء ابطال الدين الوثنى فى العالم الخاضع لروما بأجمعه ، أو بمعنى أصح فى كل العالم المتحضر وقتها .. واعترافا ونشرا للمسيحية !!

***

وذهب « دقلديانوس » الطاغية ، ومن بعده ذهب امبراطور وامبراطور .. وتراخت يد الظالم ويبست على السوط الذى كانت تمسك به ، والرمح الذى طالما وجهته الى صدور المسيحيين .. فسقط السوط ، وتحطم الرمح وعظم شأن الدعوة ، وتكاثر الأتباع واخذت صورة السيد المسيح تعظم فى العيون ، وسيرته تسير نحو مسار جديد فيه ما هو أسمى من التصديق ، وابعد مدى من الايمان الحق المجرد عن التحزب ، البعيد عن التحيز الذى يصل الى مراتب المالفات ..

حتى الدولة الرومانية العظمى نفسها ، بدأت تزول وتفنى وتنقسم على بعضها ، واصبحت دولتين .. شرقية وغربية .. لكل منهما أتباع واعوان ومؤمنون !!..

ورأى الامبراطور « قسطنطين » أمام الحقيقة الواقعة أن يسلم بما كان ، وأن المسيحية كعقيدة . قد استطاعت أن تقضى على العقائد الوثنية جمعاء ، وقدرت لنفسها بذلك البقاء ، وانها جديرة بأن تكون دين الدولة الرسمى ، فكان ان اصدر الامبراطور فى عام ٣١٣ الميلادى مبدأ التسامح الدينى مع المسيحية ، الذى كان الخطوة المدعمة فى سبيل تسويد المسيحية دينيا ، واقرارها كعقيدة ايمان معترف بها ، جديرة بأن تكون الدين الرسمى للامبراطورية .

كانت روما أعظم معقل من معاقل الوثنية والشرك ، وكانت لها امبراطورية فسيحة مترامية الاطراف شملت معظم ممالك أوروبا والكثير من شهيرات بلدان الشرق ، فكان معنى اعلان المسيحية دينا رسميا للدولة — وايمان الامبراطور بها — هدما لذلك المعقل من معاقل الضلال والشرك ، وكان وحده دعوة علنية الى المسيحية والايمان بها ، لا فى العاصمة الامبراطورية فحسب .. بل فى سائر البلاد والامصار المستظلة بعلم الحكم الرومانى

وقد كان فى اعلان المسيحية ، ما جعل الناس فى حالة استقرار الى حد ما ، وان كانت المسيحية ليست « دينا » جديدا من لدن حكيم عليم .. الا أنها كانت ثورة تمهيدية لرسالة محمد صلى الله عليه وسلم وتثبيتا لشريعة موسى الكبرى فى اذهان من ضل من الناس ، وتصحيحا للشريعة الموسوية التى يسهل عليهم فهمها وتقودهم الى عبادة الله الواحد والتطهر من الشرك به ..

ودخلت المسيحية مصر من اوسع الابواب ..

دخلت المسيحية مصر لا بعد قانون التسامح الدينى ، ولا عقب اعلان المسيحية دينا رسميا للدولة الرومانية — ولكن دخلتها قبل ذلك بعشرات السنين .. دخلتها علي يد « القديس مرقص » الذى يعتبره الأقباط

مؤسس الكنيسة المسيحية فى مصر ، وتحرص أن يكون لخلفائه لقب ((بابا الاسكندرية)) وسائر الكرازة المرقسية ..

اذا كان ((**مرقص**)) واسـمه الكامل ((**يوحنـا مرقص**)) أول أسقف للاسكندرية ، ومؤسس الكرازة المرقسية التى تحمل طقوسها اسمه ، كان صديقا وزميل القديسين : **بطرس** ، **بولس** ، **ولوقا** ، صاحب الانجيل الثانى .

ومعنى هذا ان المؤمنين من المصريين قد حضروا عهـد دقلديانوس ، وتعرضوا لطغيانه وعسفه ، وانهم سموا عصره بعصر الشهداء العظام ..

ولما كان المصريون بطبيعتهم اهل ايمان قديم . واصحاب عقائد طالما هانت فى سبيلها الارواح . فلا عجب أن ثبتوا للاضطهاد الدينى ، ووقفوا فى وجه تياره يقاومونه ويحاربونه ويصدونه عن نفوسهم ، حتى لقد فـروا بدينهم الى الصحراء ، وعاشوا فى البرية يتعبدون فى حرية .. مخلصـين للعقيدة ، ثابتين على العهد ..

ومع طلائع الانتصار الرسمى للمسيحية واقرارها دينا رسميا للدولة ، تفتحت الآفاق للأحاديث ، واتجهت كلها الى الداعية العظيم عيسى بن مريم ، وصارت شخصيته محور الجدل كما اسلفنا ، وبلغ حماسة المؤمنين بدينه ، أن رفعوه الى مصاف التقديس ثم ما لبثت الحماسة أن جعلتهم يتعالون عن التقديس ايضا الى مراتب الاجلال ، فاذا بهم فى غمرة من التحزب ، يجردون عيسى عليه السلام من مراتب الناسوت ويضعونه فى أسمى من ناسوتيته .. بل تصوروه ربا معبودا جاء الى الأرض فى صورة بشرية !!

اذن .. فقد جد فى الدعوة جديد !!

وحدث حدث اعظم !!

وصارت طبيعة السيد المسيح محور الجدل ، ومثار الاهتمام فى شتى انحاء الامبراطورية ..

ودخلت كنيسة مصر حلبة الجدل الفلسفى الذى ابتدعه الهراطقة من المتزمتين ، ولم تأت المسيحية بقليل منه أو كثير ، أو حتى بمجرد الاشارة اليه — فقد دعا المسيح عليه السلام الى الله ، وطالب بعبادة الله وحـده دون شريك ، فاذا بالاتبـاع يحرفون الدعوة ، وينحون بها منحى جـديدا مستغرب الغاية ، شاذ الهدف !!

أقول .. دخلت كنيسة مصر حلبة الجدل .. واسهمت فيه بنصيب ، ولعل رءوسها قد آمنوا بما قيل فى التثليث واتبعوها فى صدق ، وطابت منهم النفوس الى تصور عيسى بن مريم فى صورة غير بشرية على الاطلاق ، وأحبوا هذه الصورة وارتاحوا الى تخيله عليه السلام ، وقد تجرد من ناسوته وصار

الها معبودا ، ليس من البشر فى شىء ، وان جاء الى العالم فى صورة انسان لينزل الى الناس ، ويرتفع بهم الى ملكوت السماء ..

وهكذا أصبح التثليث فى مصر عقيدة شانها فى ذلك شان بقية الأمصار الخاضعة للكنيسة الرومانية والدولة المستعمرة التى اعلنت المسيحية دينها الرسمى ..

وفجاة .. ومن وراء أسوار كنيسة الاسكندرية ــ ارتفع صوت مصرى جرىء هو صوت القس ((آريوس)) ينادى براى جديد جرىء !!

وأصغى الناس الى قس الاسكندرية وهو يتحدث عن « طبيعة » السيد المسيح فأنكر ألوهيته انكارا قاطعا ، وابى أن يسلم به ، وقال ان عيسى عليه السلام ليس الا بشر رسول جاء بدعوة الحق ليقيم بها الناموس ويصححه ويتممه ..

وثارت الكنيسة على ((أريوس)) ..

لم تكن كنيسة الاسكندرية وحدها .. بل سائر الكنائس الكبرى فى ذلك الوقت .. واعتبروا جراة القس تجديفا وكفرانا وخروجا على الحق ولب الدين ، وعجبوا كيف يجرؤ بشرى على التعرض للحديث عن ((الاله)) .. عن ((الابن)) .. عن ((الكلمة)) التى تجسدت لتهدى الناس الى الحق الصراح ..

وطال الجدل .. واستفحل أمره ، واذا به يصل الى مسامع الامبراطور قسطنطين فى عاصمته ، وقد صوره له رجال الكنيسة خروجا على صلب الشريعة ، وجراة على ذات السيد المسيح وتطاولا على الوهيته ، وطالبوا الامبراطور بعمل سريع حاسم يرغم آريوس الخارج على الخضوع للتقاليد الكنيسية ، ويرده عن زيفه وضلاله ويعيده الى جادة الحق والصواب ..

وامام المبالغات التى ساقها رجال الدين الى امبراطورهم ، راح يستعرض الامر ويدرسه فى روية العاقل الراغب فى رتق الثوب المقدس الذى مزقه خروج آريوس ..

ووجد قسطنطين ان مهاجمة الدولة لقس الاسكندرية ، او الحكم عليه .. قد يؤدى الى عكس المطلوب منه ، وقد يعظم معه أمر آريوس ودعوته وينحاز له كثيرون ويعتبرونه من شهداء الحقيقة ، لأن آريوس لم يأت بجديد فعلا .. ولم يخرج على صلب الشريعة ، ولم يجترىء على ذات السيد المسيح .. بل علت صيحته لترد الناس الى الحق فى حقيقة عيسى .. وحقيقة الثالوث !!

لقد قضت الشريعة الكبرى بعبادة الله الواحد المنزه الذى لا شريك له ،

وحرمت السجود للمنحوتات ، وبالتالى لم تدع الى عبادة الأشخاص أيا كانوا وتقديسهم وتجريدهم من ناسوتيتهم ورفعهم الى مصاف اللاهوت .

وآريوس لم يقل غير هذا .. لقد انكر الوهية السيد المسيح .. أنكرها نكرانا حاسما لم يجسر على معارضته كبار رجال الدين ، وسكتوا عليه لانعدام حجتهم فى الرد ، فهرعوا الى السلطة الزمنية يستعدونها على رجل الدين الذى نادى بالحق وأنكر ألوهية عيسى عليه السلام .

وكان أهم سلاح اهتدى اليه الامبراطور للقضاء على رأى آريوس هو دعوة كبار رجال الكنيسة الى مجمع هام يقرر مايراه فى شأن القس الخارج ودعوته الجريئة ، وكان أن دعا فى عام ٣٢٥ الميلادى الى مجتمع ((**نيقية**)) احدى مدن آسيا الصغرى .

ومجمع نيقية يشمل كل ممثلى الكنيسة الدينيين ، وتعتبر قراراته اساسا للعقيدة ، وتصبح قوانين اذا أقرها البابا ..

ومثل كنيسة الاسكندرية فى المجمع المقدس القس الاسكندرى العتيد ((**اثناسيوس**)) الذى صار بعد أعوام ثلاثة من عقد ذلك المجمع رأس الكنيسة المصرية ، ووقف فى عناد واصرار يدحض رأى غريمه ((**آريوس**)) ويهدمه .. ولكن ، ببلاغته وفطنته وقدرته الخطابية على اثارة النفوس فقط لابنص من الكتاب ولا حكم من الشريعة ، ولا وصية من الناموس الذى لم يأت بشىء عن الوهية عيسى بن مريم على الاطلاق !!

وطالب اثناسيوس بمعاقبة آريوس وطرده من الكنيسة طردا نهائيا واصدار قرار بذلك ، وقرار آخر بتحديد طبيعة السيد المسيح لكى لا يعلو صوت بعد ذلك مؤيدا رأى ((**آريوس**)) أو معتنقه ..

فاستجاب مجمع « نيقية » لرأى اثناسيوس العتيد وأصدر قراره الذى أجبرت الكنائس الشرقية على الايمان به ، خاصا بتحديد طبيعة السيد المسيح ـ اذ تقرر بالاجماع انها طبيعة ((**الهية بشرية**)) فى وقت واحد .

وكان قرار مجمع ((نيقية)) جراة ما بعدها جراة .. جراة على الشريعة الكبرى والناموس الاعظم وصحف موسى ووصاياه ، وتعزيزا للرأى القائل بوجود الثالوث !!

وهكذا دخلت ميدان الجدل العقائدى عقيدة جديدة هى اللاهوت والناسوت !! الالوهية والبشرية التى تجمعت فى شخص السيد المسيح ، وهيهات أن يتجمع اله وبشر فى شخصية غير شخصيات الأساطير القديمة التى كانت تهبط بعقائد الناس الى مستوى الدهماء .

ولقد زاد رأى اثناسيوس الامر تعقيدا .. وزاد العقول بلبلة ـ ، ولكنه

راح يبرره بلباقته وبلاغته مدعيا : **ان طبيعة المسيح الالهية مستمدة من طبيعة أبيه !! وان طبيعته البشرية مستمدة من طبيعة امه مريم !!**

وأن تجمع هاتين الطبيعتين ، خلق اتحادا الهيا بشريا ، اسموه مذهب « الطبيعة الواحدة » !!

وكان طبيعيا ألا يحسم قرار مجتمع نيقية الامر بل زاده تعقيدا ، وزادت امامه معارضة آريوس ومجادلته لغريمه اثناسيوس الذى أصر على رايه وحمل لواءه ، وركب مراكب الشطط فى خصومته للقس آريوس ، فلم تكد تؤول اليه اسقفية الاسكندرية حتى أصدر قرارا بطرد آريوس ؛ ولم تفلح وساطة الامبراطور نفسه فى اثناء الاسقف العتيد اثناسيوس عن رايه واصر عليه .

وذهب اثناسيوس العتيد ، وجلس على كرسى الكرازة المرقسية اسقف آريوسى النزعة ، حر العقيدة هو « **لوقيوس** » الذى ارتفع صوته من جديد يعارض رأى مجتمع نيقية وينكر الوهية المسيح عليه السلام .

وثارت كنيسة وادى النطرون التى تدين بمذهب اثناسيوس ، واستطار شر الجدل الدينى ، وخشى الامبراطور تيودوسيوس الاكبر مغبته وسوء عاقبته فاصدر قرارا بالقضاء النهائى على الآريوسية ، واعلن أن « الاورثوذكسية » هى العقيدة الرسمية للامبراطورية الشرقية كلها ..

وحسم الجدل ، وقضى على المؤامرة الدينية الى وقت ما ، نامت الفتنة خلالها ، واستكانت عقائد الاحرار ، وعظم الرأى القائل بطبيعة المسيح الالهية البشرية ، وأصبحت ركنا ركينا فى الدين المسيحى ! ! ونصا رسميا يؤدى به الكنائس واعتبر الخارج عليه من الكافرين ..

***

ومرت الاعوام .. ومالت شمس القرن الميلادى الرابع للافول ، وبدأت سنو القرن الخامس ، واذا بالجدل الدينى يتجدد فى صورة أخرى خطيرة ومذهلة ، واذا هو يتعدى حدود القول فى طبيعة السيد المسيح الى الخوض فى حقيقة الذات القادرة الكبرى ! !

وبدأت الحركة الجدلية الجديدة فى أديرة وادى النطرون ، وقد تجاسر الرهبان هناك على قلة علمهم بالشريعة والكتاب ، بأن فكروا فى الله .. فى ذاتيته السامية المنزهة عن مشابهتها للحوادث ، وراحوا يفسرون نصوص الانجيل تفسيرا ساذجا ينطوى على جهل مطبق بالدين والشريعة ، وعدم فهم صريح للحقيقة الكبرى القادرة على كل شىء .

وارتفعت أصوات الرهبان فى وادى النطرون تتحدث عن الله ، وتقول

انه ما دام الانجيل قد ذكر فى بعض اصحاحاته كلمات عن ((يد الله)) و((عين الله)) فلابد وأن يكون الله القادر شكل !! وهيئة !!

ولما كان الانسان فى هيئته هو الصورة المثالية للكمال الخلقي ، فلا بد وان الله قد خلق الانسان على هيئة صورته جل وتعالى ، وانه سبحانه له شكل انسان ! !

ولقد اتبع رهبان اديرة وادى النطرون فى تفسيرهم الجرىء هـذا ، تعاليم ((أوريجين)) احد كبار أساتذة اللاهوت فى الاسكنـدرية وقد نادى بتعاليمه هذه فى أواخر القرن الثالث الميلادى ولم يعرها أحد برايه علـى الاطلاق ولم يلتفت اليه انســان لانه لم يكن بالرأى الذى يستحق عنـاء الالتفات اليه .. ! !

وكيف كان للبشر مهما سما منهم العقل ، وحسن التصور والتفكير ، ان يتطاولوا الى تصور هيئة الذات ، ويحاولوا تجسيم هذه الهيئة فى أية صورة كانت ..

وكيف كان للبصر أن يدرك السر الأعظم للقادر الذى لا تدركه الابصار وهو يدرك الابصار ! !

* * *

لقد كان مجرد التفكير فى الهيئة الربانية جرما ، وجرأة الأخذبالصاعقة جزاؤهما الأوحد الحـاسم ..

ما علا فكر أبدا الى تصور هيئة الذات وان من سبحانه وتعـالى على قلة من رسله بمنة المخاطبة والنقاش ليعلمهم ويثقفهم ويمـلأ بنور الايمان قلوبهم ..

لقد سال ابراهيم ربه ذات يوم أن يريه كيف يحيى الموتى ، فتفضـل عليه وملأ باليقين قلبه وأضاءه بنور الثقة وأراه الآية الكبرى ، وشهدالبعث بعد الموت فى طير ذبحه بامر الله ! !

((اذ قال ابراهيم رب أرنى كيف تحيى الموتى ..

((قال : أو لم تؤمن ، قال : بلى ، ولكن ليطمئن قلبى ..

((قال : فخذ أربعة من الطير فصرهن اليك ، ثم اجعل على كل جـبل منهن جزءا ، ثم ادعهن يأتينك سعيا ، واعلم ان الله عزيز حكيم)) .

وملأ حب الله قلب موسى ، وملك عليه حواسه ، وظن ان القادر مادام قد تجلى عليه وكلمه تكليما ، فانه لو ساله ان يجعله يراه لأقره على ذلك .

وكان الله بارا بموسى رحيما بتصوراته فأراد أن يريه آية من آيات القدرة والجبروت تكون الرد على سؤاله ، والراحة لقلقه ، والدرس الوحيد والاخير الواجب أن يستقر فى ذهنه عن حقيقة الوجود الكبرى وكيف لا يجب أن يتطاول حتى الرسل الى ما هو أبعد مما وصلوا اليه .

اذ قال موسى : ((رب أرنى أنظر اليك ، قال : لن ترانى ، ولكن انظر الى الجبل فان استقر مكانه فسوف ترانى ، فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا ، وخر موسى صعقا ، فلما أفاق قال : سبحانك تبت اليك وأنا أول المؤمنين)) .

لقد تجلى القادر على الجبل ، فاندك فى مكانه .. تفتت .. تلاشى .. ذاب أمام الهيبة القادرة والجبروت الرحيم .

وخر موسى صعقا .. وراح فى غمرة الندم والتوبة يستغفر لما كان ..

ووقر الدرس الأخير فى فؤاده وارتد اليه العقل كليلا والبصر خاسئا ، وعرف عن يقين أن القادر لا تحتمل تجليه شم الجبال ..

وتطاول أبناء اسرائيل بعد ذلك وهم خروج من مصر وبعد أن جاوز موسى بهم البحر وغرق فرعون وجنوده فى اليم .. تطاولوا وسالوا موسى ان يريهم الله جهرة ! !

قالوا : **((ياموسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة)) !!**

وتلك كانت جراة ما بعدها جراة .. جراة خبرها موسى من قبل وهو الرسول الكريم الذى تجلى عليه الله فكلمه تكليما ، وتلقى فيها درسا خالدا لا ينسى ..

ولقد ذعر موسى لما سمع تطاول قومه وقبل ان يحدثهم عن الجراة التى اقدموا عليها اخذتهم الصاعقة ولولا توسل موسى واستغفاره لهم لفنوا جميعا ..

تلك كانت سابقة قديمة رهيبة ، كان الواجب يحتم على الرهبان أن يتعظوا بها ، ولكنهم تجاوزوها فى جرأة ، وتجاسروا على تخيل الذات العظمى فى صورة انسان ، وهذا الحاد وكفر عقابه الرجم والموت .

ولكن **((الانثريومورفيين))** وهو الاسم الذى اطلق على الرهبان الملاحدة — خرجوا بهذا الرأى الى محيط العلن وجاهروا به وجادلوا فيه ، فثار الناس وثارت كنيسة الاسكندرية وعلى رأسها البطريق الاسقف **((ثيوفيلوس)) الذى رأى : انه ان لم يلجأ الى أقسى الشدة فى القضاء على الدعوة الالحادية ليقضى نهائيا على الرهبان الزنادقة — لخرج الامر من يده وهانت المقدسات فى عيون الناس ، وكان ان اعتبر الرهبان خارجين على سلطة الدولة ، عاصين ، يستحقون العقاب والتنكيل ، وأباح مهاجمتهم فى**

الاديرة والصوامع وطردهم منها وحكم عليهمجميعا بالنفى والتشريد وأهدر دماءهم .. وضمن بهذا القضاء على السفسطة البغيضة ، ووأد الفتنة فى مهدها قبل أن تحبو وتزحف الى الخارج بوجهها الكالح البغيض الملعون من الله والناس أجمعين .. ! !

ومرت الاعوام .. وماتت حركة ((**الانثريومورفيين**)) وقضى عليهانهائيا ولم يعد يذكرها الناس ، فانه القادر حقيقة مؤكدة ، وذات سامية لاترقى الى تصورها العقول .. ذات لا صفة لها ولا شبيه . فهو الرحمن الرحيم القادر فوق عباده بديع السموات والارض المبدع المصور ، القيوم السلام المؤمن ، العزيز الحكيم ، ذو العرش المجيد ، فعال لما يريد ، يقضى ولا يقضى عليه ، وليس كمثله شىء وهو اللطيف الخبير ..

ماتت الدعوة اللعينة ، ونسى الناس أمرها .. ولكن ... طبيعة السيد المسيح الواحدة .. الطبيعة البشرية الألهية .. الثالوث المقدس .. الآب والابن والروح القدس .. هل استقرت العقيدة الخاصة بها ونسى النـاس الراهب الاسكندرى الجرىء آريوس ودعوته بانكار الوهية المسيح !!

كان الاسقف ((**ثيوفيلوس**)) بطريق الاسكندرية رجلا قويا ، قضىعلى كل حركة تنادى عقيدة مجمع نيقية القائلة بتقديس طبيعة المسيح الوحيدة فاستقرت هذه العقيدة .. ولكن استقرارها هذا لم يدم طويلا وشـاءت الظروف أن يبعث بين الناس « آريوس » جديد .. وأن تعود «الاريوسية» الى مسرح الجدل الدينى مرة اخرى ، وأن يتزعم الحركة راس الكنيسـة البيزنطية نفسه واسقف الشرق صاحب المكانة الجليلة ((**نسطور**)) !!

لقد ظهر نسطور مع مطلع القرن الخامس الميلادى وقـد أصبح أسقفا للقسطنطينية .. فاذا به يهدم دعامات السـلام التى رفرفت نصف قرن على الكنيسة .. واذا به ينادى بانكار طبيعة المسيح الالهية واندماجها فى طبيعته البشرية فعاد بذلك الى راى آريوس .

وانتبه الناس على الصوت الرنان ينادى بالحق .. يقول أن عيسىبشر رسول وانه ليس الها ، وأن القول بالوهيته كفر والحاد .

ولم ينكر نسطور طبيعة المسيح الالهية فحسب . بل حـرم أن تلقب امه مريم العذراء باسم ((أم الاله)) وطالب بأن تسمى أم المسيح لانها لمتلد غير انسان بشرى ليس فيه الالوهية فى شىء ! !

وهدم نسطور بذلك عقيدة الثالوث المقدسة ، وعاد بالدعوة الى أصولها .. الى الايمان بالله الحق وأن عيسى رسول الله لا أكثر ولا أقل ، وانه آية الله وكلمته القادرة .

قال نسطور هذا فى جـراة واعتداد وايمان ، واذا بكنيسة الاسكندرية

تتصدى له وعلى راسها الاسقف ((**كيرلس**)) ابن اخى ثيوفيلوس القوى ، وراح فى مثل عناد عمه يقود المعركة فى قسوة وجراة حتى لقد اثار الكنائس جمعاء على كنيسة القسطنطينية ، وحتى وجدت كنيسة روما نفسها تدخل معه المعركة هى الاخرى .

ودعا الامبراطور الى حسم الجدل بالاقناع الجماعى ، وأمر بعقد مجمع مقدس فى مدينة أفسوس عام ٤٣١ الميلادى للنظر فى المشكلة المستعصية التى فرقت بين الكنائس ، وجعلت رجال الدين يقفون بصددها شيعا واحزابا لكل رايه وعقيدته التى ضل معها الاتباع فى كل مكان .

وقاد كيرلس الاسكندرى المعركة فى حزم وجراة ، واستطاع بآرائه وبلاغته وحججه المنطقية غير المستمدة من الكتاب . أن يسيطر على مجمع افسوس سيطرة كاملة ملك معها اعنة العقول ، وتحكم فى الأفئدة واستطاع ان يظفر بتأيد جماعى ضد نسطوريوس — اذ جعل المجمع يصدر قرارا بحرمان أسقف القسطنطينية ((**نسطور**)) وتجريده من رتبة الكهنوتية وطرده من الكنيسة ..

واكن حرمان نسطور وطرده لم يحسم المشكلة ولم يقض على الجدلات السائدة بشان طبيعة السيد المسيح ، فاتسعت الهوة واستطال النقاش حول الطبيعة الواحدة أو الطبيعتين ..

ورأى الامبراطور انه أمام تصدع رهيب دعا من اجله الى عقد مجمع جديد فى مدينة افسوس عام ٤٤٩ الميلادية راسه ((**ديوسقوروس**)) الذى تربع على عرش أسقفية الاسكندرية بعد كيرلس ، والذى قاد المعركة متبعا آراء فيلوس وكيرلس ، مناديا بأن للسيد المسيح طبيعة الهية واحدة . وان الطبيعة البشرية فيه قد اندثرت تماما .

وعارض كثير من الأساقفة العظام وبينهم مندوبو بابا روما رأى ((ديوسقورس)) وعظم الجدل وخشى رجال الكهنوت سطوة اسقف الاسكندرية وبلاغته وأساليبه ، وأحسوا انهم أضعف من ان يجادلوه أو يقنعوه ، ولم يجدوا غير الهرب نهائيا من المجمع المقدس الذى اطلقوا عليه اسم مجمع اللصوص ! !

وظلت العاصفة الدينية فى ثورانها الرهيب غير المستقر ، الذى لم يعبأ بها اسقف الاسكندرية .. بل بقى فى موقفه الجدلى ثابتا رهيبا وخرج منه منصورا ظافرا بالرأى الذى نادى به فى طبيعة المسيح ، وكأنما هذا الرأى قد اصبح عقيدة ثابتة واساسا للايمان ! !

وكان انتصار ((ديوسقوروس)) أسقف الاسكندرية ، على آراء معارضيه جميعا — يعني أن كنيسة الاسكندرية أصبحت رأس الكنائس ، وان رأى

اسقفها فوق آراء رجال الدين اجمعين ، وهذا معناه الطبيعي ولا شـك سيادة كنيسة الاسكندرية وزعامتها لكنائس العالم المسيحي .. الأمر الذى لم ترض عنه كنيسة روما الغربية وكنيسة القسطنطينية الشرقية ، ورأت كلاهما ضرورة العمل على القضاء على نفوذ آباء الاسكندرية للحيلولة دونهم وزعامة رجال الدين ..

وهكذا .. جدت فى العقيـدة المسيحية مشـاكل جـديدة ، وادخالات مستغربة ، وانصرف رجال الكنيسة عن لب الدعوة الى الجدل والفلسـفة والطبيعة وما وراء الطبيعة ، وعبادة الصور والتماثيل وغير ذلك من أمور لم ينـاد بهـا السـيد المسـيح عليـه السـلام ، ولم ترد فى ناموس موسى ولا وصـاياه العشر .. بل كانت جدليات خلقتها عقول البشر العصـاة المتطاولين ! !

لقد دعا عيسى ابن مريم الى عبادة الله ، ودعا رءوس الكنيسة من بعده الى عبادة عيسى نفسه وتقديس الثالوث ، ونسوا فى غمرة حبهم للسـيد المسـيح . القـدرة التى أوجدت عيسى ، وخرج باسمها وهداها يدعو الى الحق ، وينادى بانه ما جاء ليهدم الناموس بل ليتمه ويقيم بناء الدين على اساس صحيح بعـد أن ينقيـه من الادخالات والادعاءات والتحريفات التى اوجدها الأحبار والكتبة والفريسيون ..

ان صلب الدعوة المسيحية ، هو الدعوة الى عبادة الله وتنقية الشريعة الكبرى من الشوائب وتصحيح الناموس ، بعـد أن مرت على موسى حقب وقرون ، ضاعت خلالها الألواح المقدسـة ، وتعـرض أهل الكتاب لهـزات واحداث ، وطرد ونفى وتشريد ... بل خروج على أصل الكتاب ..

وجاء عيسى بن مريم عليه السلام ، فنادى بالحق والعدل ، والمساواة ، وجادل وناقش وافحم الخصوم والعارضين ، ولم يجسر أن يقول يوما أنه ابن الله ، أو أنه ركن ركين من أركان الثالوث ، أو ان الله الواحد القـادر ثالث ثلاثة عيسى احدهم ! !

لم يقل عيسى هذا أبدا .. ولم ينادى به .. والا خرجت رسالة السماء من الدعوة الى الوحدانية الى اقرار الشرك بالله وأنه تعالى له فى ملكه شركاء وابناء وصاحبة وولدا ! !

لم يقـل عيسى هذا ابدا .. بل قال الحق ونادى به ، وجـدد شريعة موسى وعاد بها الى الأصل الذى نزلت به ، وقد من الله عليه بالآيات الكبرى وأيده بروح القدس ، فجعله يكلم الناس فى المهد ، وينطق الحكمة ، وعلمـه التوراة ، وأعطاه القدرة على صنع معجزات ما كان أحوج الناس اليها فى ذلك العصر السحيق . حيث الجهل والفاقة وانتشار الأمراض وقسوة المستعمر

الظالم الذى كان يعمل على ابادة أهل البلاد الاصليين ليحل مكانهم أراذل قومه وجماهير الرقيق التى كانت تساق من كل مكان ..

لقد كان بعث عيسى ضرورة نادت بها الأوضاع ، وكانت أعماله التى صنعها باذن الله آيته الى القلوب المتحجرة الظالمة ، وخاصة قلوب الأحبار والكتبة والفريسيين ومن كانوا يتجرون فى الكتاب من ابناء اسرائيل ..

وكان من اللازم أن يذهب عيسى بأعماله الموحى اليه بها ، من تابعوه من الناس .. ولم يكن ما صنعه عيسى من فعله هو ، ولا من ابتكاره ، ولا بوحى من مقدرته .. بل بتأييد من الله وباذنه جل وتعالى ..

((اذ قال الله ياعيسى ابن مريم اذكر نعمتى عليك وعلى والدتك اذ أيدتك بروح القدس ، تكلم الناس فى المهد وكهلا ، واذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل ، واذ تخلق من الطين كهيئة الطير باذنى ، فتنفخ فيها فتكون طيرا باذنى ، وتبرىء الأكمه والأبرص باذنى ، واذ تخرج الموتى باذنى ، واذ كففت بنى اسرائيل عنك اذ جئتهم بالبينات فقال الذين كفروا منهم ان هذا الا سحر مبين)) ! !

ذلكم كان عيسى يا أولى الألباب .. وتلك كانت معجزاته .. وأسس رسالته الصحيحة .. تكلم فى المهد .. خلق طيرا ونفخ فيه فاصبح طيرا باذن الله ، لا باذن السيد المسيح .. ثم انه ليقول بعد هذا : ان الله ربى وربكم فاعبدوه .. ولم يقل ان الله أبى ، أو ان الله ثالث ثلاثة أنا واحد منهم ! !

((ولما جاء عيسى بالبينات قال : قد جئتكم بالحكمة ولأبين لكم بعض الذى تختلفون فيه ، فاتقوا الله وأطيعون ، ان الله هو ربى وربكم فاعبدوه ، هذا صراط مستقيم))

كان عيسى عليه السلام كلمة الله وآية خلقه وقدرته الناطقة ، وكانت افعاله بعد هذا موجبة للتفكير فى أمره ، بل فى اجلاله وتعظيمه وطاعته امتثالا لأمر الله الذى أرسله وأيده بكل هذه الآيات ..

كان عيسى عليه السلام .. كلمة الله ، وروح الله ، ورسول الله ، وعبد الله

كلمة الله :

((اذ قالت الملائكة يامريم ان الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيها فى الدنيا والآخرة ومن المقربين)) ! !

روح الله :

((يا أهل الكتاب لاتغلوا فى دينكم ولا تقولوا على الله الا الحق ، انما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها الى مريم وروح منه ، فآمنوا بالله

ورسله ولا تقولوا ثلاثة ، انتهوا خيرا لكم انما الله اله واحد سبحانه أن يكون له ولد ، له ما فى السموات وما فى الأرض وكفى بالله وكيلا)) !!

رسول الله :

((واذ قال عيسى بن مريم يابنى اسرائيل ، انى رسول الله اليكم مصدقا لما بين يدى من التوراة ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد)) ! !

عبد الله :

((قال انى عبد الله ، أتانى الكتاب وجعلنى نبيا ، وجعلنى مباركا أينما كنت ، وأوصانى بالصلاة والزكاة مادمت حيا ، وبرا بوالدتى ، ولم يجعلنى جبارا شقيا ، والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا)) ! !

فهل اتبع الحواريون شريعة عيسى ؟ !

نعم .. اتبعوها وآمنوا بها .. وآمنوا بالله الواحد رب عيسى وربهم وخالق عيسى وخالقهم ، الها واحدا ، فردا صمدا لا صاحبة له ولا ولدا ..

فماذا حدث ؟ ! وكيف نبتت فى أعماق النفوس فكرة الثالوث وهى خروج على دين عيسى ورسالته ، وكفران بالله العلى العظيم ..

((لقد كفر الذين قالوا ان الله هو المسيح بن مريم وقال المسيح يابنى اسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم انه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار)) .

لقد قلت ان حب أتباع عيسى لذلك الرسول الكريم جعلهم يبالغون فى تصوير ذلك الحب ويتفانون فى اظهار آياته ولو بتصوير خوارق تنسب اليه عليه السلام ، وقدرات لم تكن له ، ولا بأس بعد هذا أن ينسب الى الذات الكبرى ، ويصبح بمرور الزمن جزءا منها ، **وقد تجزأت الى ثلاثة أجزاء : كان الله الواحد تعالت صفاته أساسها ، وعنه تفرع الجزءان الباقيان وهما : الابن والروح القدس ..**

لقد خرج أتباع عيسى ومن آمنوا به على رسالته وخالفوا نص الشريعة الكبرى وروحها وهدموا دعامتها الأصيلة واشركوا بالله **((وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء)) ! !**

خرج المؤمنون برسالة المسيح على رسالته ، الى دعوة غريبة عن دعوة عيسى .. الى الثالوث .. فابتدعوا سنة مستحدثة ، وجاءوا بما لم يأمر به الله ، ولم يبعث به رسوله عيسى ، وكان مثلهم فى هذا مثل اليهود ، يوم ادعوا أن عزير بن الله ، واجترأوا على جلال الناموس فاشتروا بآياته ثمنا قليلا ، وجدفوا على العزة واستوجبوا غضب الله وسخط الناس أجمعين ! !

« وقالت اليهود عزير ابن الله ، وقالت النصارى المسيح ابن الله ، ذلك قولهم بأفواههم ، يضاهئون قول الذين كفروا من قبل ، قاتلهم الله انى يؤفكون » ! !

« اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم ، وما امروا الا ليعبدوا الها واحدا ، لا اله الا هو سبحانه عما يشركون ، وجعلنا ابن مريم وأمه آية ، وآويناهما الى ربوة ذات قرار ومعين » .

كان حمل ام عيسى به ، آية من آيات القدرة ، أذهلت العقول .. بل جعلت السنة السوء تنال من العذراء النقية العابدة الطاهرة الصديقة ، لأن العقول فى تلك الأوان كانت أضعف من أن تتصور الحادث أو تجد التعليل المقنع الذى يخرس المتقولين ..

ولكن الله جل وتعالى اخرس الألسن الثرثارة يوم جاءت الى العذراء تقول :

« يا مريم لقد جئت أمرا فريا ، يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا » ! !

فأوحى الله اليها **« فاشارت اليه »** فبهت القول من فرط الدهشة ومن لجوء مريم الى الوليد ليتكلم عنها **« قالوا : كيف نكلم من كان فى المهد صبيا » ؟ !**

ونطق عيسى عليه سلام الله وبركاته ورحمته **« قال : انى عبد الله » ! !**

عبد الله .. عبده .. وآيته .. ودليل قدرته وكلمته الى العذراء الطاهرة .. وان ميلاده لم يكن كميلاد اى طفل .. بل ان الله خالقه قد جعله نبيا ..

« آتانى الكتاب ، وجعلنى نبيا ، وجعلنى مباركا أينما كنت ، وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حيا ، وبرا بوالدتى ، ولم يجعلنى جبارا شقيا » !!

ونطق عيسى ، فبماذا نطق .. نطق بالشريعة الكبرى .. تكلم عن أولى الوصايا العشر : **عبد الله .. الله الحق الواحد الذى لا شريك له .. عبد الله لا ابنه ، ولا ثالث ثلاثة ، وانه آتاه الكتاب وجعله نبيا ، وجعله مباركا ، وأوصاه بما أوصى به ابراهيم وموسى والرسل الكرام من اقامة الصلاة وايتاء الزكاة والبر بامه .**

تلك كانت معجزة الحمل بعيسى بعد أن مر بالأطوار البشرية حتى ولد وكلم الناس .. ثم كان بعد هذا كلام الناس .. تقولات اشرار اليهود ، وادعاءات أهل الحقد والضلال منهم وافترائهم الكذب على الله والصديقة الطاهرة مريم ..

اننا لا ندرى ماذا قيل على وجه التحديد فى تلك الآونة عن عيسى عليه السلام ، فتلك فترة لم تؤرخ لها غير الكتب السماوية التى لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ، ولكن المعترف به ان اليهود جرءوا على عيسى وعلى مريم العذراء ، ونسبوا اليها ما براها الله منه ، وادعوا انها كانت ضحية جندى فاسق من الرومان اسمه « بندار » ! !

وهذا كذب مبين وافتراء وزور وبهتان ، وقذف فى حق محصنة طاهرة ، حماها الله السوء وشر الناس ..

ولكن اليهود الذى تجرءوا على جلال الناموس وحرفوا الكلم عن مواضعه وافتروا الكذب على الله تجرءوا على مريم الطاهرة ..

ولقد أراد رواة الأناجيل الأربعة أن يردوا على هذا الادعاء فى مقدمات الاناجيل ليخرسوا السنة اليهود ، فذكروا أن ملاك الرب قد زار يوسف النجار خطيب مريم فى نومه ، وصارحه بحقيقة الطفل الذى وضعته العذراء وانه آية الله الكبرى ، وأن مريم طاهرة مبرأة .. وما كان اغنى رواة الأناجيل عن هذا كله ، لو انهم ذكروا حادث الحمل وقصة الميلاد وما قاله الوليد فى مهده لمن جاءوا يحاسبون مريم على ما ظنوه أمرا فريا ! !

ان حمل مريم بعيسى هو نقطة الارتكاز التى قامت من عندها عقيدة الثالوث بعد ذلك ونبتت فكرة الشرك بالله والادعاء بأن عيسى ابن الله الذى لم يلد ولم يولد ولم يكلف الدعاة الذين روجوا لهذه الفكرة ونادوا بها انفسهم بحث الأمر على ضوء الايمان بالله وقدرته ، وانه تعالى اذا أراد شيئا فانما يقول له كن فيكون ..

لقد قال السيد المسيح لسفهاء اليهود وهو يجادلهم ذات مرة ! « يا اولاد الأفاعى ، لا تقولوا ان ابراهيم لنا أبا ، فان الله قادر أن يخلق من هذه الحجارة ابناء لابراهيم » ! !

ان هذا تبشير بالقدرة .. اعتراف بأن كل شىء ، وكل عمل ، وكل ارادة .. معلق بين الكاف والنون ، وان الله القادر حين يقول للحجر كن ابنا لابراهيم تنبعث فيه الحياة على الفور ويكون مخلوقا بشريا كسائر الناس ! !

قالها عيسى عليه السلام ذات يوم ، وسمعها الحواريون والمؤمنون ، وآمنوا بها وصدقوها لأن الاقرار بالقدرة ركن من أهم أركان الايمان ، فلماذا نسى المؤمنون رسالة عيسى تلك الحقيقة الثابتة وهم يتجادلون فى طبيعته عليه السلام بعد رفعه بقرون ! !

لماذا لم يذكروا آية القدرة المعلقة بين الكاف والنون ، وأن كلمة الله كانت النطفة التى استحالت علقة فمضغة فاكتست لحما كان عيسى ساعة الميلاد ! !

لقد كان الله قادرا أن يقول للعدم كن عيسى فيكون ، ويراه الناس آية ماثلة أمامهم تدعو اليه سبحانه وتنطق بقدرته وعظيم صنعه ، ولكن القدرة ارادت للناس التدرج ، وأحبت لهم ان يفهموا فى هدوء ويتدبروا وهم يستعرضون الحادث العظيم ، ارادت لحكمة عالية الا تصدم الذهن البشرى بالآية نفسها ، فتصديق حدوثها بعد ذلك فيه جدل ، ما دام لم يشهده الناس ولم يروه ، ولم يأت به بشيرا وداعية يطلب من الناس ان يتجمعوا فى ساعة معينة ليشهدوا آية اعجازية من آيات صنع الله ..!!

من اجل هذا كانت الكلمة .. ثم كان الحمل .. ثم اطوار نمو الجنين المعروفة .. ثم كان الميلاد الذى بهتت له مريم نفسها رغم انها بشرت به .

وتمثل لها جبريل بشرا سويا وأحيطت بحدوثه علما ، وآوت الى جذع نخلة تحاول أن تتوارى وهى تقول :

« يا ليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا » ! !

واذا بالكلمة تنطق .. وآية الله الكبرى تتحدث ، واذا بالوليد المعجزة يقول وقد ناداها من تحتها :

« ان لا تخافى ولا تحزنى ، قد جعل ربك تحتك سريا ، وهزى اليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا ، فكلى واشربى وقرى عينا ، فاما ترين من البشر احدا ، فقولى انى نذرت للرحمن صوما فلن اكلم اليوم انسيا » ! !

فغمر الهدوء قلب العذراء ، وملأتها الثقة فى نفسها وطهارتها ، فحملت الوليد المعجزة وعادت به الى الدار ، فكان الجدل وكان الاقناع ! !

ابدا ما تدبر المخربون لعيسى شيئا من هذا ، ولا هم فكروا فيه ، اذا لكفوا انفسهم شر الشرك بالله ، ولما وجد بعد هذا من يدعى بوجود الثالوث وان الله ثالث ثلاثة ، وان عيسى هو ابن الله ! !

ان عيسى عبد الله ورسوله الداعى الى عبادته ، ولو كان للقادر المتعالى صاحبة او ولد لتشابه سبحانه والحوادث وجرى عليه جلت قدرته ما يجرى على الناس ، وهو القاهر فوق عباده ، الخالق المصور المبدع ، الأول بلا ابتداء والآخر بلا انتهاء ، وهو الذى يرث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين ..

ان عيسى هو عبد الله ورسوله وان مثله فى الخلق .. **« كمثل آدم ، خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون » ! !**

لقد خلق الله آدم من عدم .. من هباء .. من تراب فكان بشرا ..

ومن الكلمــة خاق عيسى ، فكان عيسى الوليــد .. ثم عيسى العارف للكتاب الداعية الى الله الذى جاء ليتم الناموس ..

بل ان خلق آدم هو المعجزة الكبرى ، فقد جاء من لا شيء .. أما عيسى فقد وضعته امه .. واذا كان الادعاء قد جعل العقل البشرى يجسر فيقول عن وليد حملت به مريم آنه ابن الله ، فلماذا لم يجسر هذا العقل الكافر قبل ذلك فيقول ان آدم هو اله جدير بالعبادة ، وانه خاق نفسه بنفسه وأكمل صورته كما شاء وحده دون مساعد ، وهذا فى تعبير القدماء ، أمر لا يأتيه غير اله قادر على الخلق والتكوين ..! !

لقد كان آدم معجزة الخليقة الأولى ، خاقه الله من تراب ، ومن آدم الأب ، خاق الله حواء الزوجة ، فكانت المعجزة الثانية للخليقة ! !

ومن تزاوج آدم وحواء ، كان الناس معجزة الخليقة الثانية ! !

((يا ايهــا الناس انا خاقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبــائل لتعارفوا ، ان اكرمكم عند الله اتقاكم)) ! !

واذا .. ولكى يكمل مربع الخليقة ، وتتم الآية الكبرى قضت ارادة الله ان يخلق بشرا سويا من أم دون أب كي لا يتطاول عقــل بشرى بعــد ذلك فيقول :

من تراب خلق الله آدم !!

ومن آدم خلق حواء ! !

ومن حواء وآدم جاء الناس جميعا ! !

فلماذا لم يخلق بشرا من أم دون أن يكون له أب ! !

ان عيسى عليه السـلام : ((رسول قد خلت من قبــله الرسل ، وامه صديقة كانا يأكلان الطعام)) ! ! وان القول بغير هــذا هو الافك والضــلال والشرك المبين ، وهو الخروج الصريح على رسالة عيسى رسول الله الذى دعا الى الله ربه ورب الناس ، ولم يجسر يوما أن يقول انه هو الله أو ابن الله .. بل كان يقول دواما : ((أنا ابن الانسان ..)) ! !

وانتقل العالم بعد انتشار المسيحية من حال فكرى الى حال آخر ارتقت خلاله المدارك واتسعت آفاق العقل البشرى .

***

وظلت المسيحية تنتشر ويرتفع شأن رجالها .. حتى تساوت رءوسهم برءوس الأباطرة فانســاهم الجــاه والمركز المدنى الخطير ــ فــوق المركز الدينى ــ البقية الباقية من تعاليم السيد المسيح !!

ومن هنـا بدات الدعوة بعـد قرن أو يزيد تحيد عن طريقهـا ويختلف الثقـاة فيها وتنقسم الكنيسـة الى قسـمين لخلاف على تقديس الصـور أو عدم تقديسها ، فكانت الكنيسـة الشرقية أو « **البيزنطية** » فى الشرق « **والكنيسة الغربية** » ومركزها روما فى الغرب ..

ولم يقتصر الأمر على التنازع بين « **مركزى** » العبادة وانقسام « **المركز** » الأصلى الى قسـمين فحسب ، بل تعـدى البابوات ورجال الكهنوت الى العـامة من الأتبـاع الذين راعهم ما وصلت اليه الكنيسة من خروج على التعاليم التى جاء بها الرسل ، فسرت بينهم موجة من التذمر كان لها صدى اقض مضاجع القادة !

والواقع أن الجاه يفسد كل شيء .. حتى الدين فى النفوس الضعيفة ، ومن أجل ذلك دعا السيد المسيح الى البعد عن الدنيا وزخرفها وسلطانها ما استطاع المرء الى ذلك سبيلا !

ولكن « **بابوات** » روما وقد انهار عليهم الذهب وأغرقتهم العطايا وعاشوا حياة الترف والملاذ ورفلوا فى الحرير وتحلوا بالذهب ـ نسوا التعاليم فى صلبها ووجهوا اهتمامهم الى المظهر ليكون أداة خديعة وتأثير على العقول ! !

« **يا أيها الذين آمنوا ، ان كثيرا من الأحبـار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل (!) ويصدون عن سبيل الله** » ! !

ولم يكتف « **الآباء** » بحيـاة البـذخ والترف التى كانوا يعيشونها فى « **روما** » كعبة المسيحية ، بل افتاتوا على السلطة المدنية وراحوا يلوحون بما أسموه « **قرارات الحرمان** » فهددوا بها الاباطرة وأخافوا بها الاشراف والأمراء !!

ثم تمادوا فى فرض سلطانهم على الناس جميعـا ، عامـة وخاصـة ، فأصدروا بدعة أسموها « **صـك الغفران** » تبيـح لمن يشـتريها أن يضمن لنفسه أو لمن مات من أسرته وأقاربه أو أصـدقائه ـ مساحة يحددها فى الجنة !! بمقتضى عقد ممهور بامضـاء « **البابا** » ظل الله فى أرضه !!

وقامت الصيحة الأولى ضد هذه البدع فى « **المانيا** » اذ ارسلتها حنجرة « **مارتن لوثر** » الذى ترجم النسخة الأصلية للانجيل ! فسفه آراء الكنيسة وسخر من « **الآباء** » الروحيين ، فأصدرت الكنيسة قـرارا بحرمانه ، فكان جوابه عليه أن مزقه علانية ودعا الى مجادلته بنصوص الانجيل !

ووجد الشعب فى « لوثر » منقذا ، وكان يئن من نظام الطبقات فى عهد الاقطاع ، فتبعته الطبقة الثالثة من المستضعفين فى الأرض ، فكانت لثورتهم ضجة ، تجاوبت أوروبا باصداها واجبرت الامبراطور على عقد مجمع مقدس لمناقشة « لوثر » الذى سمى وأتباعه باسم البروتستانت أو « **المحتجين** » !

ونجحت دعوة ((لوثر)) فى المانيا وتحررت من سلطان الكنيسة ..

ولم تلبث صرخته ان وجدت سميعا فى فرنسا فردد صداها هناك رجل آخر هو ((**زونجلى**)) فتبعته الغالبية العظمى من الشعب وسمى من تبعوه ((**الهوجونوت**)) ، وكانت بينهم وبين ((**الكاثوليك**)) من اتباع كنيسة روما نظائع ومذابح دامية !

ووصلت الصيحة الى سويسرا فرددها هناك ((زونجلى)) ..

وتعدت ((القارة)) الى انجلترا فخرجت على ((كنيسة روما)) واتبعت ((البروتستانتية)) وحرم قانون من قوانين دستورها أن يتولى العرش الانجليزى ملك أو ملكة كاثوليكية على الاطلاق !

وانهار سلطان الكنيسة فى الغرب وتزعزعت فى الشرق العقائد ، وبدأ الناس يتساءلون : **أيهنا جاء السيد المسيح ...!!!**

وكان العالم فى ذلك الوقت تتنازعه عقائد ثلاث :

((**اليهودية**)) و ((**المسيحية**)) و ((**الوثنية**)) التى كانت لم تزل متفشية فى الشرق وهو اكبر واكثر سعة من الغرب ..

ولقد ظل اليهود على حالهم من الانزواء والاعتقاد بأن دينهم وشريعتهم التى جاء بها موسى انما كانت لهم وحدهم دون سائر عباد الله .

أما المسيحيون فظلوا على عهدهم من النشاط برغم ما علق بمظهر دينهم فى شخوص الآباء الروحيين من شبهات وادران ..

وخير ما يوصف به ذلك العصر انه عصر ((**الصراع العقيـــــدى**)) بين اليهودية والمسيحية والوثنية ..



بين اليهودية والمسيحية والوثنية

« ان الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس ، والذين اشركوا ، ان الله يفصل بينهم يوم القيامة ، ان الله على كل شيء شهيد » . (سورة الحج)

يا له من ليل دامس غمر العالم بعد نور باهر وضاء ..

ليل طال أمده وتخبط الناس فى ظلماته فعميت عيونهم عن الرؤيا وما عادوا يميزون الطيب من الخبيث !!

لقد عادت البشرية الى حياتها الأولى ..

حياة التخبط والضلال والشرك بالله .. فساد الجهل ، واصبح الانسان والحيوان سواسية ، يعيش بلا هدف ، ولا مثل ، ولا غاية يفهمها من وجوده ..

غابت الحقيقة عن الأفهام ، ولم تعد تتبينها العيون ، وعادت الكهانات الى السيادة ، وعلت منارات الخرافة والأوهام !!

وصحف ابراهيم .. ضاعت ولا شك !!

وشريعة موسى وناموسه .. جرؤ عليها الأحبار ومن اسموا انفسهم كتبة وفريسيين !!

ودعوة السيد المسيح .. بددها ورثته وادخلوا فيها ما ادخلوه من آراء لا صلة لها باصل الدين ولب الدعوة ..

وران الجمود الفكرى على العالم ومن فيه .. ووقفت دعوة المعلمين

الهداة عنـد الايمان بالثالوث ، والقول بأن عيسى ابن الله ، وأن العـذراء الطاهرة أمه .. هى أم الاله ..

وراح البشر يتحدثون عن معجزات الاله التى خلقتهـا أفكـارهم ، وصنعها حبهم وتحزبهم له — فى حين راحت طائفة أخرى من أهل الكتاب تشهر بهؤلاء فى السر والعلن وتعلن أنهم خارجون على الناموس وليسـوا على دين !!

« .. كونوا هودا ، أو نصارى تهتدوا ، قل بل ملة ابراهيم حنيفا ، وما كان من المشركين » ..

وقامت بين اليهود والمسيحيين مجادلات ، وراح كل يعزز رأيه ويتحزب له حتى ثارت النفوس وتربص كل من الفريقين بصاحبه ، وتطور الأمر الى نضال رهيب ..

وكعادة اليهود دائما فى الانسحاب والتسلل .. رجعوا الى جحورهم فى صمت وقد أشفقوا على أنفسهم من هول الصراع العلنى ، ولجأوا الى الدسيسة والخداع والايقاع ، وبث الشائعات المغرضة وترويج الآراء التى تشكك الناس فى الحقائق وتثير بينهم معارك الجدل والنقاش ..

ووقف الأمر عند تلك المرحلة الدقيقة ، فلا اليهود تنصروا ، ولا اتباع المسيح تهودوا ، ولا فكرت طائفة منهم أن تقنع الأخرى بالحسنى وتعود بها الى أصل الشريعة ولب الناموس ..

وظلت حقيقة الوجود تائهة فى جوانب عالم ضال ، طمس الزيف فيـه معالم الحقيقة وأعتم شفافيتها ، وأظلم نورانيتها ، ورجع العقل البشرى القهقرى ، فاذا بالناس يعيشون فى عهد كعهد نوح عليه السلام .. عهد ضلال وشرك وكفران مبين ، تدعى كل طائفة من الطوائف المتناحرة فيه ، أنها هى الأصل ، وهى محور الارتكاز ، وأنها وحدها على الحق الصراح ، وأن الأخرى ضالة زائفة ، جرؤت على الحقيقة الكبرى وادعت ما ليس لها فيه حق ، وحورت وبدلت وحرفت فى كلمات الله !!

ومرت السنون .. سنون فى اثرها سنون ..

وفترت الهمم ، وخفتت حماسة أهل الحماسة ، ورضى الناس بحالهم ، وما وصلوا اليه ، واكبوا على دنياهم وأوزارها ، وانصرفوا عن الدين ، واتبعوا طريق الماديات مكتفين من وجودهم بنكران رسالة البشر وعدم محاولة

البحث عن الحقيقة للاهتداء الى الله وتعرف حكمته العالية فى توريث عباده من بنى آدم هذه الأرض وجعلهم خلفاء عليها ..

كره الناس الجدل الدينى ، وعافت نفوسهم الاقتراب من معين الحقائق الصافى ، وارتضوا ورود الآسن من الأفكار ، الراكد من المعتقدات ، وراحوا ينهلونه فى آلية وغباء ، مدعين فى ذلك انهم يتبعون سنة الأهل ويحافظون على تقاليد الاجداد ، وتراث السنين !!

وخرج البشر علانية على الشريعة الكبرى .. وما اهتموا بتعاليم الكتاب . . وتنكروا للدين ، الدين القيم الذى أمر بعبادة الله الواحد القهار ، فاذا بالناس يتبعون أكثر من دين ، ويؤمنون بأكثر من شريعة .. بل لقد انحطت منهم الأفكار فعادوا الى الوثنية ، وسجدوا للصنم وسألوا الحجارة أن تهبهم الخير وان تدفع عنهم الشرور !!

لم تعد هناك يهودية ومسيحية فحسب .. بل وثنية وبوذية وعبادة للشمس والقمر والهياكل والسيارات .. بل عبادة للنار المقدسة أقيمت لها بيوت شامخة فى فارس وما جاورها ، وفى الهند وفى كثير من البلدان..

وعاد العالم القهقرى الى الظلام الدامس .. وران الجهل وتحكمت الخرافة .. وسادت التقاليد الخاطئة .. وحار أصحاب العقول .. وساءلوا انفسهم : ماذا يفعلون ؟ وماذا يقولون ؟

كانت مشكلة رهيبة فعلا .. وصراعا قاسيا عنيفا .. فلا كتاب ، ولا شريعة ، ولا هدى ، ولا قول راجح مدعم صحيح فيه لمحة من النور الهادى الذى يقنع البشر ويردهم الى جادة الصواب !!

لقد طمست الشرائع .. عدا عليها أهل الكهانات بما يوافق مطامعهم ، وخرجوا من دعوة الله الى دعوة سيادتهم وتحكمهم فى العقول ..

قالت اليهود : عزير ابن الله ، وقالت النصارى : بل المسيح ابن الله ، وادعت الوثنية أن الصنم قادر عظيم ، فى حين أكد عابدوا النار : أن اللهب المستعر هو مانح الخير ودافع الشرور !!

هنا وهناك .. وفى كل مكان فى العالم .. كان الشرك والكفران المبين .

هنا تتحكم عقيدة ضالة ، وهناك يستعز بباطله دين غير صحيح ، فكيف السبيل الى الهدى والحق والصواب ..

ان الله وحده هو القادر على هداية هؤلاء البشر جميعا الى الحق .. إلى ذاته وحقيقة وجوده والاقرار بوحدانيته وتفرده ..

والله الحق يدعو الى ذاته ببدائع صنعه وعظيم آياته .. ولكن الناس لا يتدبرون ولا يفكرون فى خلق الشمس والقمر وتتابع الليل والنهار وتجلى هذه الآيات العظمى التى لا يمكن أن تخلقها النار ، أو يوجدها الحجر ، او تبعث الكواكب فيها الحياة !!

كان العالم الضال فى حاجة الى مرشد .. هاد يخرج بالناس من الظلمات الى النور ، ويهديهم الى الحق الصراح ، ويجمعهم على الوحدانية وشهادة الا اله الا الله وحده لا شريك له ، لا صاحبة له ولا ولدا ، ليس كمثله شيء ، وهو وحده خالق كل شيء ..

ودار الفلك دوراته .. وظل يدور ويدور فى مساره حيث شاء له الله .. ثم وقف بعيدا عن عوالم الضلال .. وراح يلتقط أنفاسه اللاهثة وقد أخذه جلال الصمت وروعة هدوء الصحراء التى لا تحدها غير آفاق سماء الله ..

هنا .. فى تلك البقعة المنعزلة البعيدة عن العمران والمدنيات .. ((**البيت العتيق**)) .. المثابة التى أوحى الله الى ابراهيم أمام الشعوب أن يقيمها ، ليأتيها الناس من كل فج عميق حاجين ملبين ليذكروا اسم الله فى أيام معدودات ويجددون العهود ، ويعيشون فى ظل الحق والنور بعقول راشدة تزكو قلوبهم بالهدى فلا يحيدون عن الدين ولا ينصرفون عن الايمان وتتطهر منهم النفوس ، فيهرعون الى الله ولا يشركون به شيئا !!

هنا .. بيت الله الحرام !!

هنا كعبة البشر جميعا ..

هنا مزار الهدى ، ومحج الحق ، وركن الايمان ..

هنا .. ومن هنا تهب نسائم الذكريات عبقة معطرة بانفاس الخلد ، فتبعث فى النفوس حياة .. وتشعرها بجلال الايمان ..

هنا .. اجل هنا .. فى البقعة الطاهرة المقدسة .. حيث بنى ابراهيم واستقر اسماعيل ، وتجمعت حواليه جرهم وقريش والقبائل جميعها فكانوا سدنة البيت وورثة صحف ابراهيم وكتابه ودينه السمح وحنيفيته المطهرة ..

هنا .. تجمعت عوالم متفرقة : عوالم متعددة ضالة !! تفرد كل عالم منها بنوع فريد مستغرب من الشرك والكفران ..

هنا .. وفى البقعة الطاهرة ـ تجمعت العوالم الضالة فى عالم صغير ..

تجمعت ألوان الشرك كلها فى بقعة محدودة ، وقد راح كل لون منها يقيم لنفسه فواصل وسدودا وحدودا ، ويحصن وجوده بالتحزب والتجمع .. بل بالمسالة الظاهرة كى لا يعدو ضلال على ضلال ولا يسفه شرك شركا ولا يعتدى باطل على أوهام ..

كان منهم وثنيون .. عبدة أصنام ، ونار ، وشمس ، وقمر .. وأسارى أوهام توارثوها مع الزمن وما خلقه الضالون من الاجداد !!

وتوقف الفلك عن المسير وقد أمضه التجوال وتمنى لو يجد بعض الراحة التى تنسيه هول ما رأى من شرك وضلال . وراح الفلك الحزين يرقب فى لوعة وحسرة وأسى ما كان يراه ..

على التخوم كانت شراذم اليهود تعيش فى حصـون ومعاقل منعزلة عن الناس ! ! .

عند الحدود .. كان المجوس عبدة النار المقدسة ! ! .

فى بقاع قريبة وواحات متناثرة عاش المؤمنون بالثالوث المقدس القائلون ببنوة عيسى لله العظيم والوهية أمه العذراء ! !

وكانت لكل فئة من هذه الفئات عصبيات وقوة ، وسطوة ..

وكان بين الجميع تهادن على ضغن ، وسلام على دخل ، وانصراف تام عن الحقيقة الى شواغل الحياة ! !

وحتى العرب .. عبدة الصنم ، كانت لهم فوق ايمانهم بالحجـارة والنصب ، عقائد أخرى ومذاهب مستغربة فى العبادات ! !

ياللأسى ويا للحزن العميق ، ويا لهول الجرح الدامى الذى تجدد من هول ما كان يراه الفلك المكدود ..

كان فيهم عبدة الثالوث ! ! وكانت بينهم قلة تدعى الايمان بالحنيفية ، دين ابراهيم .. وكان فيهم فرق وأحزاب أنكر بعضهم وجود الخـالق ، وكذب عقيـدة البعث ، وأنكر رسالات الرسل الأولين ، وجعل من الأصنام

صورا لأرباب كانوا يشتهونها ، أو زلفى يتقربون بها الى الله القادر الذى لم يجسروا على ان يرقوا الى سدته بالتوسل والدعاء ، فجعلوا بينهم وبين الذات الرحيمة شفعاء ، ووسطاء ، وهؤلاء يسمون « العرب المعطلة » !!

وكانت بين العرب طائفة آمنت بالعقائد « **الزرادشتية** » ، واعتقدت فى مبدأ تناسخ الأرواح ، وكانت هذه الفئة تقول ، انه اذا مات انسان أو قتل تجمع دم الرأس وأجزاء الجسم فاستحال طيرا تعود اليه الحياة كل مائة عام ، فيعود الى القبر وكأنما يريد أن يطمئن على الجسد الذى بلى ، أو يحاول ان يعيد اليه الحياة ! !

وهذه العقيدة فى التناسخ ـ وان قيل انها زرادشتية ـ الا انها فرعونية الأصل ، فالطير الذى يدعون عودته هو ولا شك « الكا » أى الروح فى العقيدة المصرية القديمة و « البا » أى القرين ، وهو صورة الميت الروحية وهيئته الدنيوية التى عاش عليها ..

وشاءت ارادة الله ان يجمع هذه العقائد فى بقعة واحدة فى هذه الفترة وان تقام شعائرها فى حرية وصراحة دون تدخل أو توجيه أو ضغط من طائفة على أخرى ، وأن تكون هذه البقعة فوق ذلك بمعزل عن الانقلابات الدينية والدعوات التى قامت فى الاقطار التى تجاورها ..

وبلاد العرب ، برغم وثنيتها وثيقة الصلة بالايمان ، فهى مستقر البيت العتيق الذى كان أول بيت لله وضع للناس فى الارض ، حيث أقامه آدم عليه السلام حين نزل من السماء ، ثم جاء الطوفان فتهدمت أركانه ، وأعاد بناءه بعد الطوفان ابراهيم واسماعيل .

وظلت سدانتها فى ايدى سلالة اسماعيل حتى مقدم بنى جرهم وبنى خزاعة من بعدهم الذين ادخلوا اليها عبادة الأصنام ، ثم تولته قريش فعادت الامرة فيه للأسرة الاسماعيلية القديمة .

« لقد كان اسماعيل بن ابراهيم عليه السلام ، لما سكن مكة وولد بها أولاد كثيرة حتى ملأوا مكة ، ونفوا من كان بها من العماليق ـ ضاقت عليهم مكة ، ووقعت بينهم الحروب والعداوات وأخرج بعضهم بعضا ، فساروا فى البلاد يلتمسون طلب العيش ..

وكان الذى سلخ الى عبادة الأوثان والحجارة : انه كان لا يظعن فى مكة ظاعن الا احتمل معه حجرا من حجارة الحرم ـ تعظيما للحرم ، وصبابة بمكة .. فحيثما حلوا ، وضعوه وطافوا به كطوافهم بالكعبة ، تيمنا منهم بها وصبابة بالحرم وحبا له .

وهم بعد يعظمون الكعبة ومكة ، ويحجون ويعتمرون ؛ على ارث ابراهيم واسماعيل عليهما السلام ..

ثم سلخ ذلك بهم أن عبدوا ما استحبوا ونسوا ما كانوا عليه ، واستبدلوا بدين ابراهيم واسماعيل غيره . فعبدوا الأوثان وصاروا الى ما كانت عليه الامم من قبلهم ، واستخرجوا ما كان يعبد قوم نوح عليه السلام منها ، على ارث ما بقى فيهم من ذكرها . وفيهم على ذلك بقايا من عهد ابراهيم واسماعيل يتنسكون بها : من تعظيم البيت ، والطواف به ، والحج والعمرة ، والوقوف على عرفة ومزدلفة ؛ واهداء البدن ، والاهلال بالحج والعمرة — مع ادخالهم فيه ما ليس منه ، مرددين اذا ما أهلوا (١) :

لبيك اللهم ! لبيك ! لبيك !

لا شريك لك ، الا شريك هولك

تملكه وما ملك !

ويوحدونه بالتلبية ، ويدخلون معه آلهتهم ويجعلون ملكها بيده . يقول الله عز وجل لرسوله : ((**وما يؤمن اكثرهم بالله الا وهم مشركون**)) — أى ما يوحدونني بمعرفة حقى : الا جعلوا معى شريكا من خلقى .. » (٢)

وكان أول من غير دين ابراهيم واسماعيل عليهما السلام .. وبحر البحيرة ، ووصل الوصيلة ، وسيب السائبة ، وحمى الحامى ، ودعا العرب الى عبادة الأوثان .. هو ((**عمرو بن لحى بن حارثة بن عامر الأزدى**)) .

وكانت أم عمرو بن لحى ((**فهيرة بنت عمر بن الحارث**)) ويقال ((**قمعة بنت مضاض الجرهمى**)) ،وكان الحارث هو الذى يلى أمر الكعبة ، فلما بلغ عمرو بن لحى — نازعه فى الولاية ، وقاتل جرهم حتى أخرجهم من مكة . وظفر بهم واستولى على الكعبة ، وأجلاهم من البلاد وتولى حجابة البيت بعدهم .

ثم انه مرض مرضا شديدا ، فقيل له : **ان بالبلقاء من الشام حمة ان اتيتها برأت .**

فأتاها — وبها يومئذ العماليق — فاستحم بها ، فبرأ ، ووجد أهلها يعبدون الأصنام فقال لهم : **ما هذه ؟ !**

---

(١) ، (٢) كتاب الاصنام — للكلبى .

فقالوا :

« هذه اصنام نعبدها فنستمطرها فتمطرنا ونستنصرها فتنصرنا » ..

فسألهم ان يعطوه منها ففعلوا فقدم بها مكة ونصبها حول الكعبة .. (١)

***

كثرت الأصنام والأوثان والنصب فى مكة ، وكثر عابدوها ومن كانوا يعتبرونها الوسيط بينهم وبين الاله الأكبر ، متخذينها زلفى الى الله ، وكان الصنم تمثالا من معدن أو خشب على صورة انسان . وكان الوثن على شكل حجر .. وكان النصب صخرة ليست لها صورة معينة أو شكل خاص .

وكان لقريش أصنام فى جوف الكعبة وحولها ، وكان أعظمها عندهم واشهرها « **هبل** » وكان من عقيق أحمر على صورة الانسان ، مكسور اليد اليمنى ، أدركته قريش كذلك فجعلوا له يدا من ذهب وكان العرب يأتونه اذا اختصموا فى أمر أو ازمعوا سفرا أو عملا ، ويستسقون بالقداح « **فما خرج عملوا به وانتهوا اليه** » ..

أما الأوثان فأشهرها عند العرب فى الجاهلية :

« **ود** » فى دومة الجندل عبدته قبيلة كلب وكان قائما

و « **سواع** » فى ينبع عبدته هذيل وكان سدنته من بنى لحيان

و « **يغوث** » كان قائما فى مذحج واهل جوشن رعبدته بعض القبائل اليمنية

و « **يعوق** » عبدته همذان ولكن لم يكن له شأن قبيل الاسلام

و « **نسر** » فى حمير ولم يكن له شأن قبيل الاسلام ..

وكانت هذه الأوثان الخمسة يعبدها قوم نوح عليه السلام من قبل ، وذكرها الله فى كتابه الكريم :

«قال نوح : رب انهم عصونى واتبعوا من لم يزده ماله وولده الا خسارا ، ومكروا مكرا كبارا وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا ، وقد اضلوا كثيرا ولا تزد الظالمين الا ضلالا » ..

وكانت قريش تطوف بالكعبة وتقول :

---

(١) كتاب الاصنام — للكلبى .

واللات والعـزى ومنـاة الثـالثة الأخـــرى !
فانهن الغرانيق العلى وان شفاعتهن لترتجى !

وكانوا يقولون : انهن بنات الله ، وهن يشفعن اليه لهم ..

وفيهن نزل قوله تعالى :

« أفرايتم اللات والعزى ، ومناة الثالثـــة الأخرى ، الكم الذكر وله الأنثى ، تلك اذا قسمة ضيزى ، ان هى الا اسماء سميتموها انتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان » !!

« **والعزى** » تانيث الأعز بمعنى الأقوى وهى احدث من «**اللات ومناة** » وكان مقرها بوادى نخلة الشامية الى الشرق من مكة ، ويقول « الكلبى » انها كانت أعظم الأصنام عند قريش فكانوا يزورونها ويقدمون لها الذبائح . وكان اسم « **عبد العزى** » كثير الشيوع قبل الاسلام .

« **ومناة** » من المنية وجمعها المنايا ، وهى التى تقدر للمرء المـوت فهى « **آلهة القضاء والقدر** » وتمثل حالا من أحوال الحياة الدينية الأولى ، وكان هذا الصنم حجرا أسود منصوبا على ساحل البحر من ناحية الشمال بين مكة والمدينة ، وكان لهذيل وخزاعـة وتعظمه الأوس والخـزرج وهما القبيلتان اللتان ناصرتا النبى يوم هجرته ليثرب من مكة ولقد ورد اسمه كمعبود قائم بذاته ، وبه سموا « **عبد مناة ، وزيد مناة** » .

« **واللات** » صخرة كان رجل من ثقيف يلت السويق (١) للحجيج عليها ، فلما مات ، قال لهم عمرو بن لحى : انه لم يمت ، ولكن دخل فى الصخرة .. ثم امر بعبادتها .. وكان لها حرم فى جوار الطائف فى موضع منارة مسجد الطائف اليوم ـ يقصدها حجيج مكة وسواها وهى عبارة عن صخرة مربعة كانوا يتقربون اليها بنحر الذبائح ، وكانت أحدث من مناة وكان سدنتهـا من ثقيف .

وكان هناك ايضا « **اساف ونائلة** » .. وكانا قائمين عند الصفا والمروة ، وكان الأول على هيئة رجل ، والثانى على هيئة امراة .

ويقول الكلبى : « حدثنى أبى صالح عن ابن عباس . ان « **أساف بن يعلى** » و« **نائلة بنت زيد** » من جرهم ، تحابا فى أرض اليمن ، فأقبلا حاجين فدخلا

---

(١) لت السويق : أى عجنه

الكعبة فوجدا نفسيهما فى غفلة من الناس وخلوة فى البيت ففجر بهـا ، فمسخا ! !

« فاصبح الناس فوجدوهما مسخين ، ووضعوهما فى موضعهما عند « **الصفا والمروة** » .. فعبدتهما خزاعة وقريش ، ومن حج البيت بعد ذلك من العرب » .. (١)

واذا ما تركنا الوثنيين وأهل الكتاب من اليهود والنصارى ، وجدنا انفسنا أمام جماعة أخرى من العرب ، تكاد لقلتهـا تكون فى حكم العـدم .. كانوا هم البقية الباقية على الحق من أهل الكتاب ، الذين حفظوا التوراة والانجيل حفظا صحيحا ولم يزيغوا مع الذين زاغت قلوبهم عن « الاسلام » ـ دين ابراهيم ـ الذى اصطفاه الله وأوصى به عباده المخلصين : « **ووصى بها ابراهيم بنيه ويعقوب ، يابنى ان الله اصطفى لكم الدين ، فلا تموتن الا وأنتم مسلمون** » آمنوا بالله ، وبالبعث ، واليوم الآخر ، وهو ما لم تكن تعرفه غالبية العرب فى جاهليتها ، اذ كان أكثرهم يعتقد أن الموت نهاية المرحلة ، وان لا قيامة بعده أبدا ..

« **وقالوا : ان هى الا حياتنا الدنيا ، وما نحن بمبعوثين** » ! !

* * *

وغير هذه الطوائف ، كان هناك افراد على جانب من العلم والايمان ، وكان بعضهم ينتظر النبوة ، ومن مشاهير هذه القلة المؤمنة ، التى كانت تنتظر « النبى » الآتى الذى بشرت به التوراة والانجيل :

« **زيد بن عمر بن نفيل** » الذى كان يسند الى الكعبة ظهره ويصيح فى الناس :

ـ أيها الناس هلموا الى ، فانه لم يبق على دين ابراهيم احد غيرى ! !

وكان هناك « **امية ابن أبى الصلت** » الذى سمعوه ينشد يوما :

« **كل دين يوم القيامة عند الله باطل الا دين الحنيفية** »

فأمن « ابن نفيل » على قوله .. كما روى انه انشد :

فلن تكون لنفس منك واقيـــة

يوم الحساب اذا مايجمع البشر !

ومن هؤلاء الحكماء ايضا « **قس بن ساعدة الأيادى** » الذي امتلات مواعظه بالحكم وذكر الله .. وانا لنلمح ايمانه فى قوله :

---

(١) **كتاب الاصنام ـ للكلبى .**

— « كلا ورب الكعبة ليعودن ما باد ، ولئن ذهب ليعودن يوما ! »

وفى هذا ايمان صريح بالبعث كانت تنكره أكثر العرب .. وانا لنسمعه ثانية فى حديث آخر يقول مؤكدا الوحدانية معترفا بها منكرا لادعاء المشركين بوجود بنات وابناء الله :

— كلا ! بلْ هو الله ، اله واحد ، ليس بمولود ولا والد ، اعاد وابدى ، واليه المآب غدا !

ثم أنشد :

يا باكى الموت والاموات فىْ جـدث
عليهـم من بقـايا بزهـم خـرق
دعهـم فان لهـم يوما يصـاح بهم
كمـا ينبـه من نوماته الصـعق
حتى يجيئوا بحـال غـير حالهـم
خلقٌ مضى ، ثم هـذا بعد ذا خلقوا
منهـم عـراة ومـوتى فى ثيـابهم
منها الجديد ومنها الازرق الخلَقَ !

أولئك كان العرب .. وتلك كانت معتقداتهم فى جاهليتهم .. وثنيـون كفرة ، وحكماء فلاسفة ، ومؤمنون بالبعث والنشور ، ومصدقون بالتناسخ والقيامة الروحية .. وفئة قليـلة خرجت على الوثنيـة واعتنقت نزعة توحيدية وهؤلاء هم الحنفاء ، ومنهم « امية ابن أبى الصلت » ، وورقة بن نوفل . ولو ان بعض المصادر جعلت ورقة نصرانيا ..

ولقد عدا الدهر على جوهر الوحدانية الخالصة ، وانصرفت الكثرة عن الحق ، واتجهت الغالبية الى الصنم .. الى أسماء سموها هم وآباؤهم ، ما أنزل الله بها من سلطان — الا انهم رغم الضلال والكفر كانوا أهل تقاليد عرفوا كيف يحافظون عليها على كر العصور وتغير العقائد ..

وبالرغم من ان الايام على كرها غيرت دين العرب وجعلتهم بعد ايمانهم بملة ابراهيم واتباعهم لدين الحنيفية يرتدون الى الصابئة والشرك ، فان هذه الايام لم تستطع ان تغير من العادات والتقاليد التى أورثها اياهم دينهم الوحدانى القديم ، فكانوا يتطهـرون ويختتنون ويستنشقون ويتمضمضون

.. وكانوا يقدسون الاشهرالحرم ، فلا قتال فيها ولاتنابذ ، وكانوا يطوفون بالبيت العتيق ويعتمرون ويسعون بين الصـفا والمروة ويذبحون ، وكانوا يغسلون موتاهم ويكفنونهم .

* * *

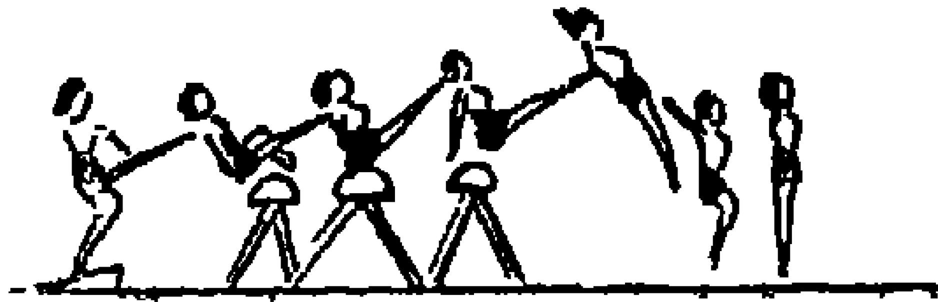
ذلك كله ما وقف موكب الفلك الدائر يرقبه هناك ..

هنـاك فى البقعـة الطاهرة ، حيث تجمعت حول البيت العتيق ديانات وديانات ، وعبادات وعبادات ، ومعتقـدات ومعتقـدات ، كالنصرانية ، واليهودية ، والحنيفية ، والصابئية ، والمجوسية بأنواعها وغير ذلك ...

كان عالم صـغير ضـال .. عالم صغير تنعكس على صفحته شتى صور الضلالات التى تتحكم فى الناس .. عالم يسوده الظلام ويحفه الجهل وتحكمه الجهالات ..

فهل يترك الله الناس وما هم فيه دون أن تدركهم رحمته ؟ !! .. كلا ..

ان القادر الرحيم ابر بالخلق من أن يتركهم فرائس للشيطان ، ضحايا للجهالات ، وما دامت الحكمة قد جمعت الضلالات كلها فى صعيد واحد ، فلتكن هـذه الحكمة السامية شارة الخلاص وبشـير النجدة الالهاميـة ، وباب السلام الموصل الى الهدى والحق ليدخل منه نور الله الى القـلوب المعتمة ، لتستنير وتهدى بهدى رسول من هؤلاء الناس ، ((عزيز عليه ماعنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم !!))



دعاء وبشرى

((ربنا وابعث فيهم رسولا منهم ، يتلو عليهم آياتك ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ، ويزكيهم انك أنت العزيز الحكيم)) ..

(سورة البقرة)

((اقيم لهم نبيا من وسط اخوتهم مثلك ، واجعل كلامى فى فمه ، فيتكلم بكل ما أوصيه)) ..

(التوراة)

((.. لذلك اقول لكم : ان ملكوت الله ينزع منكم ويعطى لامة تعمل على اثماره)) ..

(الانجيل)

((واذ قال عيسى ابن مريم : يابنى اسرائيل ، انى رسول الله اليكم مصدقا لما بين يدى من التوراة ، ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه احمد)) ..

(القرآن)

* * *

رحمة الله دواما كانت تسبق البلاء ، وتتدارك الخطوب ، وتسبق الخطب لتهونه وتخفف وقعه ..

ونوره تعالى كان يلاحق الظلمات ليبددها ويمحوا آياتها ، لانه جل وعلا رءوف رحيم بعباده .

ولقد كتب الله تعالى على نفسه الرحمة ، وأبى بره بخلقه ان ينزل بالعصاة والكافرين العذاب ، حتى يبعث فيهم رسولا يهدى لدينه ويدعو الى الحق ، وطوبى للمؤمن وتبا للعصاة !!

لقد كان ذلك العالم ، فى تلك الآونة البعيدة — وبعد رفع السيد المسيح بخمسة قرون أو تزيد قليلا — تتقاذفه موجات الشرك والوثنية والضلال والاغراق فى الخطايا ..

ذلك العالم الضال العاصى ، كان لابد ان تتداركه رحمة الله ..

ولئن كانت اغلبية البشر تسير على سنة المحاكاة ، وتوارث التقاليد والمبالغة فى المستهجن منها فانه كانت هناك ولابد عقول لها القدرة على التمعن ، ونفوس كان الأسى يعبث بها وهى ترى الناس يترددون فى الهوة السحيقة وينحدرون سعداء نحو الفساد والبغى ..

والعقل .. كان ولم يزل السلاح القوى الذى زود الله به خلقه ليدفع عنهم كل شر ويحميهم من المخاطر ، ويصل بهم الى شواطىء الايمان ، ففيه قبس من انوار الرسالات ، واضواء من اشعة الهدى ، وفيه من روح الله ، وما يردع النفس عن الغى والضلال ..

ولئن كانت الماديات اللعينة فى ذلك العصر البعيد ، قد أعتمت شفافية العقل ، فأسكرته اللذاذات وخرجت به عن جادة الصواب والحكم الصحيح فانه كانت هناك قلة من عقول حصنها التروى وحماها بعد النظر ، وردتها عن الغى رغبة صادقة فى فعل الخير ، دفعت بها الى تخطى حلبات الشر حيث وقفت بعيدا ترقب وتأسى وتصعد زفرات الالم ، وتأبى أن تكون سلبية فى مواجهة ما كانت تراه ، فراحت تلقى قبسا من أضواء الهداية ، ولكن كثافة الظلمة الغاشية حالت دون النور الفاتر والسطوع ، فلم يكد يشرق حتى غرب ، ويظهر حتى اختفى ، واستمرت منارات الضلال عالية ..

يا لهذه الدنيا من خلائقها .. ويا للأرض من أبنائها .. ويا للبشر من انفسهم ومن عاقبة الشطط والكفران ..

((لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ، اولئك كالانعام بل هم اضل ، اولئك هم الغافلون)) ..

ما اهتدوا بهدى ، ولا اتبعوا رسالة ولا صدقوا ولا آمنوا الا بما كان يوحى به اليهم الشيطان الرجيم .. ورغم هذا عاشت بينهم قلة من الحكماء الهادين الذين كانوا يرشدون الى الخير على قدر طاقتهم دون مجادلة ولا جهاد حق ، فتحدثوا عن المفاسد وعن الغى والضلال والتردى العقلى والخلقى والاباحات الخطيرة التى احلها أصحاب المطامع والأهواء .

انتقدوا هذا كله فى رفق ولين مرة ، وفى عنف وقسوة مرات ، وقد نعوا على العقل المستنير ترديه ، وعلى الانسان الواعى استجابته للشر وهو يعلم انه مركب صعب غير مأمون .

انتقدوا ، ووجهوا ولم ينسوا أن يلوحوا بالعقاب الابدى الذى ينتظر العصاة ، وانه سوف ينزل يوما بالضالين .

ذكروا الناس بالدين .. بدعوات الرسل الكرام .. بأصول الحقيقة

ليميزوا الخبيث من الطيب ولا تخدعهم القشور الزائفة ولكن .. انى للناس أن يستجيبوا للحكمة أو أن يصغوا الى صوت الحق ونداء الضمير ، وقد وجدوا الضلال ميراثا سائغا يمرحون فيه كما يشاءون دون رقيب أو حسيب .. ؟ !!

دعا الحكماء الى مكارم الاخلاق .. والدين فى أصله لب المكارم وبذرتها النامية المباركة .. والخلق الكريم يهدى الى الصواب ويجنب الناس مراكب الشطط ، فاستجاب لهم من استجاب وهم القلة التي ضاعت فى الكثرة الغالبة ، وضاع معهم جهاد الدعاة ، وفلسفات أهل الحكمة العالية .

ولقد كانت حيرة قاسية تلك التى تملكت العقل البشرى الحكيم ، حتى لقد راح والاسى يتنازعه والفشل يعبث به — يسائل نفسه :

ألن يهتدوا .. ؟! ألن يعرفوا طريق الحق المستقيم فيسلكوا سبله !!

كانت الحكمة تعرف أنه لابد للضالين من هاد ، ومرشد أمين لا يؤيده العقل فحسب .. بل تشد السماء أزره وتوجهه الهداية ، ويؤيده الوحى بالآيات البينات ! !

الى هذه الحقيقة هداهم العقل ، واليها أيضا قادهم الطموح وحب المعرفة ، فبحثوا ونقبوا عن أصول الحقائق فى أمهات الكتب ، وان لحقها الزيف واعتدت عليها جراة الناس فمحت وحورت وبدلت وحرفت الكلم عن مواضعه ، ورغم هذا كانت فى مجموعها تشير الى الهداة المرسلين وضرورة ظهورهم للقضاء على الزيغ ومحاربة كل فساد بقوة الرسالة وتأييد السماء.

ان الظروف كلها كانت تشير الى أن المسرح قد اصبح معدا للحادث العظيم ، وانه ينتظر البطل ليؤدى دوره الاصلاحى الخطير .. وان الاحوال كلها متجمعة تؤكد ذلك ، وأن بين سطور الكتب ، مايرفع الغموض ويزيل الستار ، ويكاد ينطق فى صمته بان المرشد الهادى سوف يجىء وسوف يخرج بالناس من الظلمات الى النور .

لقد تعددت الديانات وتنوعت صور الخالق فيها ، وتباينت صفاته ولكن .. هذه المعتقدات الخاطئة كلها ، كانت ترجع فى مجموعها الى أصول ثابتة ، وان عدا عليها المعتدون فان بقاياها كانت تشير الى الأصل ، ولم يكن الاهتداء الى ذلك الأصل بالامر العسير على العقل الحكيم .

لقد ظل الدين القويم وحدة ثابتة صامدة ، ولم تتلون ، وان تزينت بمتباين الاثواب واخذت مختلف الهيئات البيئية ، ولازمتها طقوس من وحى الكهانات .

كانت الدعوة الى الايمان بالله محور كل دين ، تفرع عن الشريعة الكبرى ودعوة الرسل الكرام ، وقد عدا الاجرئاء على حواشيه ، ثم عجزوا عن الوصول الى أصوله فبقيت كما هى وان ألبسوها ثياب الضلال .

((شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا اليك ، وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى ، أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه)) ..

((ولله الاسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون فى أسمائه)) .

انه هو الله ..

واحد .. فرد قادر .. صمد قيوم .. حق قهار .. خلق فسوى .. قدر فهدى .. بسط الأرض .. اقام السماء بلا عمد .. زينها بمصابيح وجعلها رجوما للشياطين .. قدر للكواكب منازلها .. وللبشر حظوظهم .. دعا الى عبادته .. وأرشد العقل الى ذاته .. ببديع آيات خلقه ..

((هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والاعناب ومن كل الثمرات ، ان فى ذلك لآية لقوم يتفكرون)) ..

((وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر ، والنجوم مسخرات بامره . ان فى ذلك لآية لقوم يذكرون)) ..

((وهو الذى سخر البحر لتاكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها ، وترى الفلك مواخر فيه ، ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون)).

((والقى فى الأرض رواسى ان تميد بكم وأنهارا وسبلا لعلكم تهتدون)) .

((أفمن يخلق كمن لا يخلق ، أفلا تذكرون (؟) وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها ان الله لغفور رحيم)) ...

هدى الله العقل سبحانه الى دينه .. ووحدانيته ..

((فالهكم اله واحد فله أسلموا)) ..

تلك كانت الرسالة الأولى .. الاسلام فى لبه وحقيقة جوهره .. بها نادى المرسلون واليها دعوا ليهتدى الناس وينالوا الرضوان ..

((انا انزلنا التوراة فيها هدى ونور ، يحكم بها النبيون الذين اسلموا للذين هادوا ، والربانيون ، والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله ، وكانوا عليه شهداء ، فلا تخشوا الناس ، واخشون ، ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا ، ومن لم يحكم بما أنزل الله ، فاولئك هم الكافرون)) ..

فآمن من آمن .. وكفر من كفر .. ثم ..

ثم قامت الكهانات .. دعاة الغى ، هواة السلطان ، فماذا صنعوا ! !

دعوا الى الله .. والدعوة الى الذات الكبرى حق لا مرية فيه .. والناس حين يهتدون الى الحق ويعرفون سبله ، تستقيم كل الامور ولا تكون هنالك حاجة الى وساطة أو شفعاء .

وضياع الوساطة ، وتلاشى طبقة الشفعاء يقضى على الكهانة ، وبالتالى يقضى على مطامع الطامعين — ومن هنا كانت الادخالات والتأويلات

والتفسيرات المربكة التى اضافها الكهان من عندهم والتى حارت معهـا العقول وخرجت بالناس مرات أخرى من النور الى الظلام ..

وافتروا على الله الكذب .. نسبوا اليـه الولد وهو الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد .. قالوا ان الملائكة الكرام بنـاته .. واصطفوا لانفسهم البنين ، ادعوا ان يد الله مغلولة ، وجعلوا له شركاء فى ملكوته وأعوان ، وهو القادر الخلاق المبدىء المعيد .

ثم ادعوا بعد هذا انهم اعوان أعوانه ، وخدام مساعديه جل وتعالى ، وأن له على أولئك الأعوان أربابا مسـاعدة وملائكة مقربين ، وآلهة كبرى ، وأنهم يستجيبون لهم حين يسـألون ، ويشفعون حين يتوسلون ويمدونهم بالقدرات والسلطان على الناس .

وصدق الناس الأكاذيب ، ومشوا وراء مواكب الضـلال ، وآمنوا بالكهانة ايمانا راسخا حولهم عن الاصل الى الدخلاء .

ولكن .. هل استطاعت هذه العقليات المضللة ان تصـل الى الجوهر فى اصله ، والمعدن فى صلابته ..

لقد طمسته الى حين ولكنه كان كالنار تحت الرماد ، يظهر وهو خاف ، ويبين وفوقه ركام بعد ركام ..

من هنا بقى الأصل .. وهذا اصل اهتدى اليه الحكماء أصـحاب العقول ، فتحدثوا عنه ، ودعوا اليه وبشروا الضالين بقرب ظهور الهداة ..

* * *

ومن صحف ابراهيم والواح موسى ، قبست الضلالات اضواءها فبددت ظلماتها الخابية .. ولم يستطع المنادون بالشرك أن يحيدوا عن لب الحقائق فنطقوا برغمهم بوجود المصلحين وبظهور الرسل حين يشتد الكرب ويعم الفساد .. فلا عجب ان كانت البشريات بعـد هـذا تملأ القلوب وتطمئن الأفئدة الى قرب الخلاص ..

بالكتب المقدسة تأثرت الدعوات الجانبية .. وبفحواها تكلمت الكهانات .. وبالبشارات تحدثوا ! !

ولما كان للزرادشتية مثلا أصل بعيد تأثر فى مبناه بالموسوية ، فلا عجب ان يتحدث اتباع زرادشت وكونفوشيوس وغيرهما عن قرب ظهور البشـير النذير هادى العالمين الى الحق ..

ولما كان للبشريات اصل فى الكتاب المقدس .. فان عدوان العـادين ،

وجراة المجترئين ، عجزت عن محو الاشارة الى البشائر التى كان على العالم ان يترقب قدومها ..

ولما كانت التوراة فى أصلها — وقبل أن تحرف دعوة الحق وبشرى بسيادة وعزة المؤمنين — فان الأحبار ، كانوا اضعف من ان يمسوا البشائر ، وان عدوا على التوجيهات والأحكام ..

لهذا .. اجمعت الديانات كلها على ان العالم سيدهمه الشر ذات يوم ، وبعد الاشراق والسطوع ستعمه ظلمات وظلمات ، وشرك وجهالات وكفران مبين ، وان البشر من هول ماران على عقولهم ، سوف يجأرون بالشكوى ويستغيثون ، فيرسل الله فيهم الرسول الهادى الى الحق ، لتعلو كلمة الحق ، ويكون الدين لله ورسوله ، لا لأصحاب المطامع وأهل الكهانات ! !

ولقد تحدث حكماء المشرق عن القادم بالبشرى .. وأشاروا الى ضرورة ظهوره .. بل لقد عينوا المكان الذى سيظهر فيه ، وحددوا مسرح الدعوة ، وهى قلب الصحراء .. الى جوار البيت الذى أقامه ابراهيم واسماعيل ليكون مثابة للناس وامنا ومزارا وجامعا للعالمين ..

هنالك .. اراد الله الحق أن يتجمع خلقه وأن يلتفوا حول دين واحد وقبلة واحدة ورسول واحديجمع الشتات ، ويوحد الديانات ويهدم الشرك ، وينادى بانه لا اله الا الله وحده بلا شركاء ولا بنات ولا بنين ولا ثالوث ولا طبيعة ذات شقين : الهى وبشرى ! !

ولعل سائلا يسأل : وكيف كان للحكماء أن يبشروا بضرورة ظهور الهادى البشير النذير ، وأن يجزموا بخروجه من قلب الصحراء بالذات ، وأن يمهدوا الاذهان لهذا القدوم المبارك ، ولا يدعوا الى انفسهم أو الى هداة فى بلادهم .

واسارع فأقول : ان البشارات بخروج رسول آخر الدهر ، لم يوح بها الى الحكماء ، بل كانت نتيجة بحث فى أمهات الكتب وأقوال الرسل الأئمة العظام المكرمين الصادقين وكلهم بشر بظهور رسول آخر الزمان ، وأكد أن خروجه سيكون من قلب الصحراء ، ومن جوار البيت العتيق ..

ولست أعتمد فى قولى هذا الذى أسوقه على بشارات حكماء المشرق ومصلحيه الدينيين .. ولست أسوق ماذكر فى ((**الفيدا**)) وفى((**الكوتم بوذا**)) واقوال الحكيم ((**جوستاشب**)) المجوسى او غيره من حكماء الهند ، عن ظهور

مصلح آخر الزمان — **الذى يلبس العمامة بدل التاج ويركب البراق ، ويحكم الناس بالعدل ويهديهم الى الحق والرشاد — ولكنى أعود الى « ابراهيم عليه السلام » أمام الشعوب ، والى توراة موسى عليه السلام ، والى انجيل « عيسى عليه السلام » مقوم الناموس ، ومصحح الألواح ، ومجدد شريعة موسى باذن الله ووحيه ..**

لقد من الله على ابراهيم خليله العظيم يوم أقام البيت العتيق ، ودعا العالمين الى أداء شعيرة الحج اليه — أقول من الله على خليله ابراهيم وقتها فرفع حجب الغيب عن عبده وجعله يرى المستقبل الممدودة طرقه ، والحياة الجديدة وقد أخذت معالمها تدب حية متوثبة تتفجر بها الرمال وتنبت فى البقعة غير ذات الزرع ، وكيف انه ستقوم أمة فى ذلك المكان القصى الجديب وتتجمع حولها أمم وأمم ، ويكون لهذه الأمة القيادة الروحية والسيادة المذهبية الدائمة ، فاذا به يدعوا الله ضارعا ويقول :

« ربنا واجعلنا مسلمين لك ، ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وارنا مناسكنا وتب علينا انك أنت التواب الرحيم » ! !

واستجاب الله لدعاء ابراهيم وكانت الأمة .. وكان العرب حفدته عليه السلام .. وكانوا سدنة البيت ، وحماته ، وكان موطنهم مكان التجمع الموسمى ، وكانوا الهداة الذين حفظوا صحف ابراهيم وهدوا الناس الى مناسكهم التى علمها الله لجدهم الأكبر ابراهيم ولاسماعيل الرسول من بعد أبيه العظيم ..

وظل وجه ابراهيم مرفوعا الى السماء ، وقد أخذه جلال الموقف ، وامتدت عيناه الى الغيب تكشفه بتوفيق وهدى من الله ، فرأى بوجدانه النورانى مابعد زمنه من قرون وأحقاب ..

وتصور ابراهيم الضلال والشرك ، وبهرج الحياة الجديدة وقوة المادة وعظم تأثيرها .. وتنبأ — وهو الرسول الكريم الذى طالما استجاب الله له — تنبأ بما سوف يحدث لهذه الأمة من الناس ، وكيف سيتحولون عن الأصل الى المظاهر ، فأشفق عليهم ، ورثى لهم ، وكره أن يضلوا بعد هداية ، وأن يرتدوا بعد اسلام ، فاذا هو يرقى الى سدة ربه المتعالى بحار الدعاء ويقول :

« ربنا وابعث فيهم رسولا منهم ، يتلو عليهم آياتك ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ، ويزكيهم انك أنت العزيز الحكيم .. » ! !

ولكن .. متى يبعثه ! !

ولماذا يبعثه الله هذا الرسول ومن ابناء اسماعيل بالذات ! !

فالرسالة الى أهل تلك البقاع الطاهرة ، كانت دعاء استجاب الله له ! !

وموعدها .. يوم تعلو رايات الضلال والشرك ، ويعظم خطر الكفر ، وترين على العقول الجهالات السوداء ..

والرسول كان لابد من خروجه ساعة يضل الحق سبيله الى القلوب ، ويحيد الناس عن الطريق المستقيم ويتيهون وسط الجهالات والمفاسد ، ويكفرون بالله ، وينصرفون عن عبادته الى السجود للصنم أو الكواكب أو يتصورون ان بينهم وبين الله وساطات وشفاعات ونصبا يتخذونها زلفى ويقربون لها القرابين ، ويتقربون اليها بالهدايا ويؤدون لها طقوس الخضوع والضراعات ! !

فالرسالة اذا .. كانت حتمية الوجوب ، لانها استجابة كريمة من الله لضراعة ابراهيم خليل الرحمن وأمام الشعوب ..

وتحديد قيامها فى تلك البقعة من الارض الطاهرة المقدسة كان جزءا لا ينفصل من الاستجابة الربانية لدعاء ابراهيم ، مادامت قد قامت الأمة ، وتكاثر عديدها ، وقضت ارادة الله أن تكون أمة مسلمة مؤمنة بدينه، عارفة بشريعته ، حافظة لمناسكها .

والرسول بعد هذا ، كان من اللازم الحتمى مسايرة للواقع والمنطق ، أن يكون من هؤلاء الناس .. من أبناء اسماعيل وحفدة ابراهيم .. لان دعاء ابراهيم حدده وعينه فقال « **رسولا منهم** » ..

ورسالة الرسول الجديد ، كانت محددة الهدف ، واضحة الدعوة ، وهى هداية الناس الى آيات الله لتزكيهم ، وتعلمهم الكتاب والحكمة ..

من أجل هذا .. واعتمادا على هذا الدعاء الذى حفظته القرون من الزمان — تحدث الهداة عن الرسول المنتظر ، وحددوا مكان ظهوره بالذات لأن ابراهيم عينه ، والله قد استجاب لابراهيم .. ليجدد الرسول القادم دعوته الى الاسلام ..

« وما جعل عليكم فى الدين من حرج ، ملة أبيكم ابراهيم ، هو سماكم المسلمين من قبل .. »

وتبقى بعد هذا البشرى ..

فبشرى نبوة محمد عليه الصلاة والسلام موجودة فى التوراة ، وفى الآية ١٥ من الاصحاح ١٨ من سفر التثنية قول الله لموسى عليه السلام الذى قاله لبنى اسرائيل :

« أقيم لهم نبيا من وسط اخوتهم مثلك ، واجعل كلامى فى فمه فيتكلم بكل ما أوصيه » !!

فقوله من اخوتهم ، وقوله من وسطهم . تدل على ان الموعود به لا يكون من بنى اسرائيل .. بل من اخوتهم : واخوتهم بنو اسماعيل كما تدل على ذلك الآية .

وكذلك بشرى عيسى عليه السلام الى من تابعوه وآمنوا به — وقد رفع الله حجب الغيب عن عينيه ، وعز عليه أن يرى قومه معتزين بباطلهم ، يحاربونه ويتألبون عليه ، ووقر فى نفسه أن تتبدد رسالته الاصلاحية — فبشر العالمين كافة بقوله لهم :

« .. يابنى اسرائيل انى رسول الله اليكم مصدقا لما بين يدى من التوراة ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد » .

والاسم هنا .. وهو أحمد بالذات ، غريب جدا بالنسبة للمجتمع الذى بعث فيه عيسى حيث كانت الاسماء هناك خليطا بين رومانية واسرائيلية وأسماء شعوب أخرى ليس بينها اسم أحمد أبدا ..

وأحمد اسم عربى .. وصفة لفضيلة كبرى ، ودالة على كمال انسانى ، واستقامة فى الخلق والتكوين ، واشارة الى الحمد والاقرار بأنعم الله ، وهو اسم مستغرب جدا بالنسبة للوسط الذى عاش فيه عيسى . فلا عجب ان اتجهت الأذهان الى الصحراء .. الى أبناء اسماعيل وتوقعت أن يكون منهم الرسول الهادى ..

وتلك كانت المشكلة الكبرى .. مشكلة خروج الشريعة من السور الذى أحاطها به أبناء اسرائيل وحجبوها عن الناس وهم حملتها وهم من كلفوا بأداء نشرها وابلاغها الى العالمين !!

أبدا ما تصوروا ذلك .. بل لقد كرهوه وزادت بغضاؤهم لعيسى لانه بشر به ، وأحفظهم بعد ذلك عليه انه لم يكتف بدعوة الناس على متباين

الطبقات الى الايمان به .. بل بشر أيضا بخروج الشريعة من أبناء اسرائيل الى ولد اسماعيل ، ونسوا فعلا انها خرجت وانهم أصبحوا غير جديرين بحملها لانهم خانوا الامانة ، وخانوا عهدهم مع الله ، ولم يحملوا أعباء الرسالة لهداية الناس .. بل جعلوا الله رب اسرائيل واله اليهود وحدهم دون البشر جميعا ..

ويكون قد تم ما تنبأ به عيسى فى انجيله أيضا حيث قال لليهود العصاة جميعا ، من احبار وكهان وكتبه وفريسيين وصدوقيين ...

« أما قرأتم قط فى الكتب ، الحجر الذى رفضه البناءون ، هو قد صار راس الزاوية .. من قبل الرب ، وكان هذا هو عجيب فى أعيننا ... »

والحجر ولا شك ، هو الاشارة الى اسماعيل ، الذى أبعدته وامه غيرة السيدة « سارة » ، ثم تباعد عنه اخوه اسحق ، وأبى بنوه وحفدته ، أن يكونوا على اتصال به وببنيه وحفدته ... وظنوا ان الشريعة لهم وحدهم دون اسماعيل ، الذى بشر الروح الأمين امه هاجر بأنه سيكون أمة عظيمة .

هذه الأمة ، التى بشر بها الروح الأمين ، قد دار الفلك دورته ثم وقف ركب الحوادث أمامها لتكون حجر الزاوية واساس قيام صرح الشريعة من جديد ...

ثم يستمر السيد المسيح فى بشارته الرمزية فيقول لاسرائيل جميعا ... لمن ادعوا انهم حملة الشريعة وحدهم دون سائر الناس .

« لذلك أقول لكم ان ملكوت الله ينزع منكم ويعطى لأمة تعمل على اثماره ... »

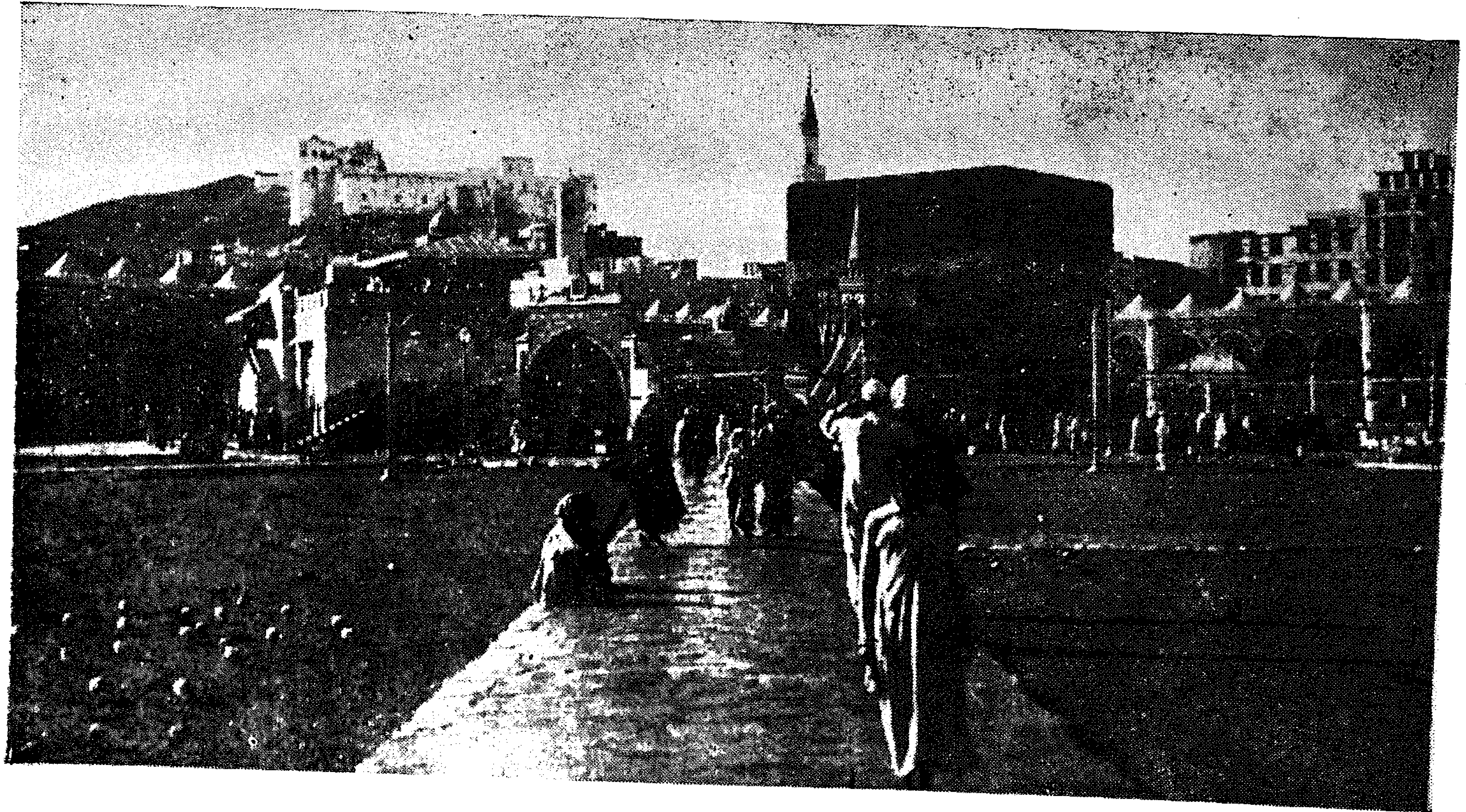
والملكوت الذى نزع فعلا ، كان ملكوت الشريعة والصدارة الدينية ، الذى انتقل من أبناء اسحق ويعقوب وحفدتهم ، الى ابناء اسماعيل ليستقر فى مكة ، ويحمل مشعله خير حفدة ابراهيم عليه السلام ..

ولم يقل السيد المسيح فى بشاراته عن سيدنا رسول الله فى انجيله هذا فقط ، بل قال مايرويه عنه يوحنا بالحرف الواحد فى انجيله :

« اما متى جاء ذلك روح الحق فهو يرشدكم الى جميع الحق ، لأنه لا يتكلم من نفسه ، بل كل ما يسمع يتكلم به ، ويخبركم بأمور آتية ... » !!

من أجل هذا كله .. اتجهت العقول الى تصور البشير النذير القادم ، واتجهت العيون الى قلب الصحراء .. الى جوار البيت العتيق تنتظر خروج الرسول الكريم احمد المنتظر .. هادى العالمين كافة الى الحق ، ومرشدهم الى الله ، وهادم الشرك ، ومحطم الضلال والأباطيل ! !

« ... اسمه أحمد .. »



« جعل الله الكعبة البيت الحرام .. » (١)

« واذ جعلنا البيت مثابة للناس وامنا ، واتخـذوا من مقام ابراهيم مصلى ، وعهـدنا الى ابراهيم واسماعيل ان طهرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود » (٢) . « ان اول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين ، فيه آيات بينات مقام ابراهيم ، ومن دخله كان آمنا ، ولله على الناس حج البيت ، من استطاع اليه سبيلا » (٣) .

(١) سورة المائدة . (٢) سورة البقرة . (٣) سورة آل عمران .

أحمد

((لم يكن الذين كفروا من اهل الكتاب ، والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة .. رسول من الله يتلو صحفا مطهرة .. فيها كتب قيمة ، وما تفرق الذين اوتوا الكتاب الا من بعد ماجاءتهم البينة)) .

(سورة البينة)

خيم الضلال على الدنيا من جديد ...

وران الجهل .. وانحطت مدارك الناس وساءت معايير افهامهم .. وجللت الظلمات العالم ، وعلت رايات التجديف والكفر والشرك التى جرؤ الدعاة واصحاب الكهانات على ارساء قواعدها ، وتعزيز دعاماتها بأسانيد من دعوات استنوها حسب أهوائهم الضالة ، وبوحى من كتاب بدلوا فيه ، واضافوا اليه ، وكلم حرفوه عن مواضعه ، واقحموا عليه من الزيف مالم يبشر به نبى ، أو يأت به رسول !!

والى الجهالات الأولى — التى قضت عليها دعوات الرسل العظام — عاد البشر يسيرون من جديد ، يحدوهم الزيف الباطل الذى فرضه أصحاب العقول المضللة على اصحاب العقول الضالة التائهة فى محيط الأكاذيب ..

واقام من أدعوا ان لهم وحدهم ميراث الرسل ، حصونا بينهم وبين من اتبعوهم وآمنوا بكذبهم ، فحمل أولئك وزرهم ، وأوزار البشر جميعا ..

وهكذا .. وبعد الاشراقات النورانية ، عميت معالم الطريق السوى على العيون .. واصبح الناس امام الدين والعبادات ، افواجا ثلاثة :

كفارا عصاة .. ومشركين ضالين ، ومزيفين كاذبين .. اجترؤا على اصل الشريعة الكبرى ، وعدوا على الناموس وطمسوا معالم الألواح المطهرة وبنودها العشرة المقدسة التى ارتضاها الحق سبحانه وتعالى دينا لخلقه جميعا ..

ووراء اطماعهم : احتجب اليهود بشريعتهم ..

وامام النار ذات القوى الخفيــة : ظل المجــوس عاكفين على الضراعة والسجود ..

وعلى بريق دعوة الثــالوث وتأليه السـيد المسيح والعـذراء الطاهرة والدته : عاش وارثوا دعوة السيد المسيح ..

وبين هؤلاء وهؤلاء .. تخبط العقل البشرى الحائر ، فلا الناس انتفعوا بشريعة موسى ، ولاهم اهتدوا بهدى عيسى ..

وضلت الحقيقة الناصعة ، وحارت ، وترددت ، ثم تردت .. ثم اسرعت تختفى من جــديد تحت غشــــاية الافك والزور والبهتان التي أطبقت على عصابات الضلال ..

وبرغم الفوضى الفكرية التى سادت الناس ، والتخبط العبــادى الذى حاروا فى مسالكه ودروبه ، والاباحات التى انطلقت من عقالها ، ضــارية مفترسة ، دون رابط أو وازع — فقد أحس العقل البشرى المنطلق ، انه قد جاوز المدى ، وتعدى الحدود ، وجمح وخــرج علىّ مــالم يـكن من اللائق ان يخرج عليه ، وانه أصبح يسير على هواه وحكمه ، وهدى غرائزه الجنونية ، وانه مــع الزمن ومسيره العاصف بدأ يفقــد نورانيته و يتدنى الى مدارك السائمة الضاربة فى الأرض على غير هدى !!

لقد مج العقل ترويه وكره انطلاقاته ، واحتقر طيشه ومجونه ، وعاد فى لحظات وحدته يسائل نفسه وقد راح يلهث مكدودا بعد سباقه الطائش وراء الشهوات ! !

اهذه هى الحياة ؟ !

وهل هذه هى رسالة الانسان فيها ... ؟ !!

وهل من أجل هذا العبث ، قام العالم وخلق الناس ؟ !!

هل قامت الحياة لياكل الكبير الصغير ، ويستبيح الحمى ويبيح المحظور ، ولا يقف فى طريق رغباته وازع ولا رادع ، ولا أوامر ولا نهى ؟ !!

هل يعظم امر الضلال ، ويستفحل شانه حتى يطمس الحقائق كلهــا ، ويخفى وراء زيفه الخادع ما أراد له الله أن يظهر من مكارم ، ويبين من **حسنات ! !**

لا الضالون ، ولا المشركون ، ولا الكفار ، ولا أولئك الذين انساقوا وراء الاهواء والشهوات ، رضوا بما وصلوا اليه من فوضى وانحدار ! !

حتى هؤلاء الذين اباحوا المحظور ، وافتروا الكذب على الله ، وادعوا ان لهم ميراث الشريعة والكتاب .. حتى هؤلاء ايضا ، احسوا ان الدين الذى كانوا

يتبعونه ، قد صار من الهوان والضعف بحيث أصبح عاجزا عن أن يصد التيار الجارف الذى كان يتخلج بالانحلال والتردى الرهيب ..

لقد احست هذه الرءوس التى ضلت أن الأمر قد افلت من يدها ، وتطور الى مالم يفكروا فى عواقبه ، وان النتيجة الحتمية لانطلاقات الغرائز دون حساب ، ستكون القضاء المؤكد على معانى الانسانية نفسها .. على الحق .. بل عليهم هم أيضا ، لأنهم شجعوا على الفساد ، وحاربوا الحق بكل سلاح .

وآمن دعاة الباطل ، ان عودة الحق هو الطريق الى النجاة ، ولكن .. اى حق هذا الذى كانوا يفكرون فى العودة اليه ، وقد خنقـوا الحقائق ، وشيعوا الفضائل واستجازوا الرذائل .. ؟

لقد كانت اى دعوة للفضيلة فى هذه الآونة الحرجة المتردية ، بمثابة هدم للوجود الكهنوتى القائم ، ومن الذى كان يجسر على أهل الكهانات والمستفدين منها على هدم دعوتهم ، ومحو وجودهم من عالم كانوا هم سادته والمتسلطين على عقول من فيه .. ؟ !

وفى غمرات الوهن الفكرى ــ لجأ العقـل الواعى الى ظلال الحقيقـة ، واحس الوجدان البشرى انه يعود برغمه الى الكتاب .. الى الناموس .. الى النور .. الى الأصل العريق .. الى الهداية والحق .. الى دعوة الله الى اتباع الفضائل والايمان بالكمال ..

وهز الأحبار رءوسهم فى خشوع وقالوا : ان العالم يسـير الى الهاوية ، وان انطلاقات الناس لن تقوى على كبح جماحها نصائحهم ، انه قد حلت الفترة الرهيبة .. واللحظة الحاسمة التى جاء ذكرها فى كتابهم مؤكدة ، انه لا نجاة للبشرية ولا خلاص ، الا على يد رسول مبعوث بالهدى والحق ، وان البشريات تقرر ولا شك قرب خروج رسول آخر الزمان ، وان عليهم أن ينتظروا ! !

وقال أصحاب الثالوث : ان عيسى بن مريم الذى بشر به الكتاب مسـيحا هاديا ، جاء ليمسح عن البشرية أساها ويعيد الى القلوب ما كانت تتوق اليه من راحة وهدوء ، ويعيد الطمانينة الى النفوس ، ويحرر العقل من قيود الافك والبهتان .. وإنهم من أجل هذا آمنوا به واتبعوه بل قدسوه وعبدوه وأمه والحقوا نسبها بالذات العظمى ، مبالغة منهم فى تعظيمه وزيادة فى اجلاله واحترامه ..

وصاح شيهم الأحبار : ان عيسى ايها الخوارج ليس المسيح الذى بشر كتابنا بخروجه .. وانه حتي يوم رفعه الي السماء لم يقل عن نفسه انه هو

ذلك المسيح الذى تدعون ، وان تلامذته هم الذين ادعوا انه المسيح المرتقب ، فصدقهم الناس ، وآمنوا بما قالوا ، متأثرين فى هذا باشفاقهم على عيسى من اجل النهاية التى سار اليها ..

وثار اللجاج بين النصارى واليهود ، وطال الجدل ، واحتدم النقاش ، وانقلب الى مطاعن ومهاجمات ، ووصل الطعن الى حد التشهير بالعقيدة نفسها ، فقالت اليهود ليست النصارى على شيء ، وأدعى المسيحيون أن اليهود ليسوا على دين وانهم يتبعون ملة محرفة زائفة صححها خروج عيسى، وقوم اعوجاجها واعادها الى أصلها المقدس القويم كما جاءت فى الالواح المطهرة التى حملها موسى ..

وتربص كل من الفريقين بدين الآخر ، وراح يشهر به ، ويسفه رأيه ، وكانت تلك هى أول معركة عقائدية خاضها اليهود الذين تركتهم الأمم وجانبت عباداتهم ، ولم يتعرض لدينهم وطقوسه فاتح أو ملك أو دولة سادت العالم وحكمت الشعوب ..

واصغى العالم الى الجدل الخطير الذى نال من العقيدة الكتابية ، وجعل التوراة وحملتها يعارضون الانجيل وأصحابه ، والاثنان معا يصدران عن نور مقدس واحد ، لو أمعن البشر فى تتبع ومضاته ، وتقصى مصادرها ومساريها واتجاهاتها لوجدوا أن الوحدة الكاملة المتشابهة تجمع بين الأصلين مع اختلافات مذهبية طفيفة ، وشكليات دنيوية بسيطة .. !!

وحار البشر بين هؤلاء وهؤلاء .. من يصدقون .. ؟ وبمن يؤمنون .. ؟ وأى هؤلاء على باطل وأيهم على حق ؟ وكل يعزز جدله بما يدعى أنه من التنزيل المحكم الذى بشرت به السماء ! ! !

وقال أصحاب العقول المستنيرة للفئتين المتنازعتين المتخاصمتين :

عودوا الى أصول كتبكم المقدسة أيها الناس ..

عودوا الى الحقائق الأصيلة .. العريقة .. وانبذوا الزيف والاباطيل .. ولندخل الى لب الدعوة .. الى الوصايا نفسها ..

وبهت المفترون الذين ادعوا الكذب على الله ، وتهامسوا مناجين شياطينهم قائلين :

كيف نعود الى كتبنا ، ونرفع الاقنعة عن عيوننا ، ونرى الحق ، ونشهد به ، ونقول للناس الصدق والحق الصراح ، حتى يهتدوا فلا ننوء بعد ذلك بغير الاثم ولا نحمل غير ازدراء الناس اجمعين ..

والجمت الحقيقة الناصعة أفواه المتقولين .. وأخرسهم ان تصوروا هول ما سوف يحدث لو عادوا فعلا الى أصول الكتاب الذى بين أيديهم وعرفه الناس ، واهتدوا الى الطريق السوى المستقيم ..

لقد تصوروا هذا .. وتجلت لهم نتائج العودة الى الحقيقة الناصعة ، وصاروا يتوجسون هول عواقبها ، وما ينجم عنها من فقدان مكانتهم وتزلزل عروشهم القائمة على دعامات البهتان والتضليل ..

ورات طوائف المضللين ورءوس الكفر ان الصمت خير لهم ، وانه من صالحهم أن يبوءوا بالاثم فعلا ، وتنزل بهم اللعنات ، ولا تضيع مكانتهم الدينية ، وتحكمهم الزمنى فى عقول البسطاء من الناس ..

((ان الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس فى الكتاب ، أولئك يلعنهم الله ، ويلعنهم اللاعنون)) ..

***

وران الصمت .. وساد الهدوء حلبة النضال والجدل ..

وتلفت الناس يبحثون عن فرسان القتال ، أولئك الذين كان يكذب بعضهم بعضا ، فلم يجدوا أحدا على الاطلاق !!

وعلت الأصوات مرات ومرات تطالب بالخروج من الصمت المفتعل ، والاحتكام الى اصل الكتاب العظيم .

وعاد الأحبار يقولون برغمهم ، ان كتابنا يؤكد ضرورة ظهور نبى آخر الزمان .. يخرج بدعوته الصادقة الهادية فى أحلك ساعات المحنة الذهنية والتردى العقائدى ، ليهدى الخلق أجمعين ويخرج بهم من الظلمات الى النور ، ويصلح اعوجاج الناموس الذى عدت عليه يد البشر ، وينقيه من الشوائب ويبعد عنه الزيغ والادخالات الظالمة المغرضة ويهدى الناس جميعا ، الى الله القادر ، الهادى الى ذاته العظمى ببديع آياته ، وان هذا النبى الرسول المرتقب ليس عيسى بن مريم على أى حال .. !!

وقالت النصارى .. بل ان عيسى هو الرسول الذى اقام الناموس وأتمه ، وصحح ما جاء به الرسل والانبياء ، والزمكم أيها الأحبار الحجة ، وابطل دعاوى الكتبة والفريسيين والصدوقيين وغيرهم ..

انه المسيح الهادى الى لب الحقائق وجوهر المعرفة ، وهو الذى استطاع عن طريق دعوته هذه وجهاده فى سبيلها أن يبطل مالم يات به الكتاب ، وان يمهد عقول الناس جميعا الى دعوات السماء ، ويعد النفوس لتلقى البشرى السعيدة ، وتقبل الدعوة الطاهرة المطهرة ، يوم بشر حوارييه وأتباعه بنبى آخر هذا الزمان ، وجعل مقدمه بشرى الخير ، وعينه ذاتيا ، وحدد صفاته الكاملة ، وقال ان اسمه سيكون أحمد .. !!

وهز المجوس رءوسهم فى خشوع ، وقال الصابئون وعبدة الكواكب ومن اليهم ممن كانوا يطلقون على أنفسهم اسم الحكماء .. ان هذا الذى نسمع حق صراح نؤمن به ، وانا برغم ما نعبد ، وما نتخذ من أرباب لتكون زلفى منا الى الله القادر .. نترقب البشير الهادى القادم برسالة الله النقية ، الخالصة من كل شائبة ليهدى العالمين كافة الى الحق ، والى الصراط المستقيم .. وينشر من جديد أصل الشريعة الكبرى ، ويكشف عن معدنها النورانى ، ولا يعود بها الى ألواح موسى فحسب ، بل الى شريعة الاسلام كما أرادها الله وامر بها عباده ، وبعث بها رسله الكرام ، منذ بدء الخليقة ، وقيام الحياة على كوكب الأرض ، ويكشف عن صحف أمام الشعوب ابراهيم عليه السلام ، وعن الحنيفية الخالصة التى نادى بها من قبل هذا ، ادريس وهود وصالح ونوح عليهم السلام ..

وهكذا .. اتفق المختلفون جميعا على شىء واحد .. على حقيقة لاتقبل الجدل ، ولا تحب اللجاج ولا تسلم به ، وهى انه اذا سادت الجهالات العالم ، وضلت العقول ، وحارت الافهام ، وتنكب البشر جميعا سواء السبيل ، فان الله لابد وأن ينقذ البشرية برسول آخر الزمان ، يجدد القديم المتجدد ، ويصحح الآيات ويعصمها من عبث العابثين ، ويعيد كل شىء الى أصله ، ويرجعه الى حقيقته ، كى لا تكون للناس على الله حجة اذا هو جل وعلا اخذهم بذنوبهم ، وعذبهم بما كانوا يؤمنون به من باطل وضلال ..

.. وأمام حقيقة بعث رسول آخر الزمان ، الذى جاء ذكره فى كل كتاب سماوى مقدس .. ولم يغفل الحكماء والفلاسفة الاشارة اليه بوصفه هادى الشعوب ومنقذها من الضلالات ــ اتفقت الآراء ، وأصبح ترقب القادم هو الرجاء المرتقب الذى سوف ينعش النفوس بالآمال .. !!

ويقول الأستاذ النجار فى كتابه ((**قصص الأنبياء**)) :

((جاء المسيح عليه السلام ليبشر بهذا النبى الكريم ((محمد)) .. كان يعبر عن المبشرين بلفظ النبى ، وبلفظ مسيا ، وبلفظ فارقليط ــ وهو تعريب لفظ ((بيريكلتوس)) اليونانية .. قلت للدكتور كارلونللينو المستشرق التليانى وانا اعلم انه حاصل على شهادة الدكتوراه فى آداب اليهود اليونانية القديمة : ما معنى بيريكلتوس ؟

فاجابنى بقوله : ان القسس يقولون ان هذه الكلمة معناها ((المعزى)) !!

فقلت : وما هو المعنى المقصود ..

فقال : ان معناه ((الذى له حمد كثير)) ..

فقلت : هل ذلك يوافق افعل التفضيل من حمد ؟

فقال : نعم ! !

فقلت : ان رسول الله صلى الله عليه وسلم من اسمائه احمد)) ...

ثم افترقنا ، وقد ازددت بذلك تثبتا فى معنى قوله تعالى حكاية عن المسيح :

((ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد)) ! !

***

واخذت عجلة الزمن تدور ثم تدور .. ثم وقفت ذات ليلة امام بيت من بيوت مكة ...

كانت ليلة وسنانة الأهوية رخية النسائم .. بدأ بدرها يسير نحو الاكتمال فيبدد الغياهب .. ويضفى على الصحراء ضوءه الباهر .. فيموه رمالها الذهبية بطبقة من الفضة الحالمة البيضاء ..

كانت ليلة ولا كل الليالى .. ليلة الاثنين لاثنىعشر خلون من شهر ربيع الأول من عام ٥٧٠ .. وفى هدوء وصمت ودون ضجة .. وضعت السيدة آمنة بنت وهب أرملة عبد الله بن عبد المطلب وليدها اليتيم الذى اطلق عليه جده عبد المطلب اسم ((محمد)) .

وكان هذا الاسم غير متداول بين العرب ، فلما ساله بعضهم : لم رغب عن اسماء آبائه ؟

قال لهم :

((اردت ان يكون محمودا فى السماء لله ، وفى الأرض لخلقه)) ! !

كانت ليلة قال فيها القائلون ما قالوا .. ونعتوها بما شاء لهم الخيال ان ينعتوها به ، والحقوا بها أحداثا وغرائب ..

لقد قيل إن عرش الشيطان قد اهتز .. وان ارتال الجن أخذت تهرب مبتعدة عن الصحراء .. وان حشود الملائكة قد أحاطت ببيت آمنة بنت وهب ، وان ايوان كسرى قد تهاوى وتصدع بنيانه الضخم .. وان مياه بحيرة ساوة قد غاضت وأصبحت أرضا قاحلة ..

قالوا كل هذا ، وأكثر منه .. وانها لعمرى لأقوال لا مبالغات فيها .. ولا خروج على المألوف .. بل ان حدوثها مرتبة فى ليلة مولد اليتيم الأعظم — محمد بن عبد الله — لأقل ما يمكن أن يصحب مولد سيد الزمان ..

لقد فرحت الأرض .. واهتزت السماء طربا .. واهتلت الملائكة .. وتبدت الخوارق .. ولكن ما كان لعيون البشر أن تشهدها فى تلك الليلة بالذات . لأن الدنيا كانت فى غفلاتها سادرة .. وكان البشر على كفرهم .. وما وطنوا عليه النفوس من ضلال .. فلم يرقبوا اهتزاز الفلك ولا اضطراب الأرض .. ولا فرحة السماء ! !

ومرت بهم الليلة كغيرها من الليالى .. ولكن من شهدوا جلال محمد وعظمته .. وسيرة حياته .. وتابعوه بعد ذلك — أحسوا بتلك الليلة الخالدة .. وصار رنين الزمن يعيد أحداثها على أخيلتهم .. مجسدة الحقائق ..

لقد احاطت الملائكة ببيت آمنة .. لترحب بالروح العظيم .. والسيد

المنتظر .. واليتيم الذى لم يحفل بمولده قومه .. وحسبوه طفلا كسائر الأطفال ..

واضطربت الأرض فرحا وقد هزت جوانبها البشريات .. واصداء تراتيل الملائكة .. وكيف لا .. وها هو ذا ابنها البكر الأمين يهل عليها ، ليأخذ بزمامها الى مراقى السعادة والكمال ..

لم تلد أمه وليدا ولكن .. ولدت منه أعظم الأحياء ..

لم تلده .. وانما ولد التاريخ للأرض كلها والسماء ..

الله أكبر ولا اله الا الله .. الله أكبر ولا اله الا الله وحده .. صدق وعده وهاهو ذا محمد يولد باذن ربه .. ليأخذ دوره فى الجهاد والنضال .. باسم الله وفى سبيل الله ..

الله أكبر ولا اله الا الله وحده .. فقد دالت دولة محرفى الكلمة عن مواضعها .. زال عهد الكتاب ، والفريسيين .. وما ادعوه .. وما افتروه على الله ..

الله أكبر ولا اله الا الله وحده .. لقد دالت دولة الشرك .. وبطلت آية الضالين المضللين .. الذين قالوا اتخذ الله ولدا .. سبحانه مالهم به من علم .. ولا لآبائهم .. كبرت كلمة تخرج من أفواههم ان يقولون الا كذبا ..

الله أكبر ولا اله الا الله وحده .. له الحمد .. وله الملك .. يعز من يشاء .. ويذل من يشاء .. يؤتى الملك من يشاء .. وينزع الملك عمن يشاء ، وان ايوان كسرى ليضطرب ويهتز فرقا .. وانها آية أفول شمسه وزوال ملكه ، وتصدع جبروته ..

الله أكبر ولا اله الا الله وحده .. منزل الكتاب .. سريع الحساب .. أمر الناس أن يعبدوه بلا شريك .. وأن يهتدوا اليه بعظيم آياته .. وبتعاليم رسله .. وماجاء فى كتابه الكريم ، الذى فرض فيه على الناس جميعا أن يكونوا مسلمين له وحده .. مقرين بوحدانيته ، وبأنه هو الواحد الأحد ، الفرد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ، والذى لم يكن له كفوا أحد .. والذى تعالى عن مشابهته للحوادث .. فهو أول بلا ابتداء .. وآخر بلا انتهاء .. بدأ الخلق ثم يعيده وهو على كل شىء قدير ..

الله أكبر ولا اله الا الله .. لقد غارت مياه ساوة وأن فى اختفائها ما يعنى نضوب الشريعة التى زيفها المضللون من الكهان والأحبار .. وافتروا على الله الكذب .. وما لوحت به اليهم شياطينهم .. وان نضوب مائها يعنى ولا شك أن الغيث سيهمى فى مكان جديد .. وان النبع المقدس سوف يتفجر فى مكة والى جوار أول بيت وضع للناس مباركا ..

ولد اليتيم .. فى صمت وهدوء .. ذلك ما حدث فى دنيا البشر ..

أما فى العوالم النورانية فقد كان ميلاد محمد حدثا جليل المقام .. سامى المقدار .. لقد زها العرش وازدانت الحضرة .. وتجملت السدرة .. وبدأت آيات الاشراق فى العالم السماوى معلنة الفـرح والابتهـاج بمولد النور .. الذى ستعم اشراقته دنيا الناس .. وترشد الحيارى الى بر الأمان ..

ولد محمد .. ابن عبد الله ، بن عبـد المطلب ، بن هاشـم ، بن عبد مناف ، بن قصى بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك ابن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار بن معد ابن عدنان بن آو بن أود بن اليشع بن الهيسع بن سلامان بن تابت بن حمل ابن قيدار بن اسماعيل بن ابراهيم عليه السلام ..

فكان ميلاده هو دعاء ابراهيم .. استجاب له الله فى موعده المعين ..

وقول موسى عليه السلام لبنى اسرائيل : بأن الله سيقيم لهم نبيا من وسط اخوتهم ..

وبشرى عيسى التى نادى بها ، وبشر .. وكانت بشارته تعنى أن أحمد القادم سوف يحمل الأمانة .. ويتمم ابلاغ الرسالة .. ويعيد تقويم الناموس الأكبر .. الذى أصلحه عيسى .. فعدا عليه العادون من ورثة شريعته .. وفعلوا به الأفاعيل .. وخرجوا به عن المـألوف وعن الحقيقـة .. وعن النورانية التى أرادها الله ..

* * *

ولد محمد فى مكة وفى عام الفيل .. وأرضعته حليمة السعدية فى بيت من أرفع بيوتها حسبا ونسبا وشرفا ومكانة ، ولما كان أبوه لم يترك مالا .. فقد كفله جده عبد المطلب بن هاشم سيد مكة ..

ثم ماتت أمه ((**آمنة بنت وهب**)) بعد ذلك وهو فى السادسة من عمره .. فأصبح الطفل يتيما لطيما .. وتلك حكمة من حكم الله .. اراد بها أن ينفرد محمـد بالاحسـاس باليتم .. وما يستتبعه ليتولى الله تأديبـه ورعايته واعداده ..

ثم مات جده ((**عبد المطلب بن هاشم**)) .. فكان حزنه عليه شديدا ، فكفل الطفل عمه ((**أبو طالب بن عبد المطلب**)) .. وكان على كريم محتده وعالى حسبه ونسبه .. فقيرا .. فشمل الغلام بالرعاية ، وأحبه كحب عبد المطلب له وكان يجد من ذكائه وأدبه ما يزيده حبا له ، وصحبه معه فى تجارة له الى الشام وهو فى الثانية عشرة من عمره ، وما كادت القافلة تبلغ ((بصرى)) فى جنوب الشام ، حتى التقى بهما راهب له على طريق القوافل صومعة يعيش فيها .. اسمه ((**بحيرا**)) فرأى الراهب فى محمد الصبى أمارات النبوة التى انبأت بها كتب النصرانية ، فنصح عمه الا يوغل به فى بلاد الشام خوفا من أن يعرف اليهود فيه هذه الامارات فينالوه بالأذى وقال لعمه ((**سيكون لهذا الغلام شأن عظيم**)) وأوصاه بحمايته ! !

وعاش محمد فى مكة .. كسائر اترابه .. ولكنه لم يكن كأحد منهم فى شىء .. كان صبيا .. وديعا .. كثير الاطراق .. صامتا لا يتكلم . وكان كثير التأمل حواليه .. يرقب السماء وما حوت من كواكب وأجرام .. ويشهد على صفحتها توالى الليل والنهار .. وما يستتبعهما من آيات القدرة البينة .. وينظر الى الأرض وما عليها من آيات ناطقة بجلال الصانع الأعظم .. جبال ورمال وانهار ، وبحار محيطة .. وابل .. ورجال .. ونساء .. ودواب .. وعالم لا يعلم من فيه غير خالقه العظيم ..

وكانت للرحلات مع عمه أثرها الكبير فى نفسه .. وكان كلما مر بمدين ووادى القرى وديار ثمود وغيرها ـ يمعن الفكر فى التأمل ـ وتنصت أذناه الصغيرتان المرهفتان الى حديث العرب وأهل البادية عن هذه البلاد وأخبارها وماضيها البعيد ..

ثم كان يقصر عقل الصبى عند هذا التطلع .. ويقف حائرا اذا ماصادفه أمر فوق ادراكه ..

كان الصغير يحار .. ولكن لمن كان يبث حيرته ؟ !

كان يحس برغبته فى المعرفة والاستفسار .. ولكن من الذى يثقفه او يعلمه ؟ ! .. ومجتمعه مجتمع سادر فى الغى والضلالات ..

مجتمع لا يفيق من الشراب ..

مجتمع لا يقيم وزنا للمثل العليا ، ولا يحترم الأواصر والصلات ..

مجتمع ياكل قويه ضعيفه .. مجتمع يئد البنات .. مجتمع ياكل الربا .. ويرتكب الحماقات .. ويمارس الرذائل وكأنها فروض مقررة .. ثم يسجد بعد هذا للصنم .. ويقرب اليه القرابين ..

لقد عاش محمد حائرا وسط قوم من الجهلاء . كانت عقولهم أضعف من أن تصل الى آماد تعداها وفكر فيما بعدها .. ولكنه كان فى سن قد لا يسمح بمزيد من التجليات الكبرى .. فظل على قلقه وسار مع ركب السنين ، والله يرعاه ، ويهديه ، ويهذب وجدانه ، ويصقل حواسه حتى بلغ مبلغ الشباب ، فاكبرت فيه مكة صفاته الفريبة عن شبابها ، وصار مضرب الامثال فى زهده ، وعفته وانصرافه عن ملاعب الشباب ومجونه .. وكان صادقا أمينا حتى لقد لقبوه بالامين ..

وشاء له الله أن يتزوج .. واختارته السيدة خديجة بنت خويلد زوجا لها وهى يومها تكبره بحوالى الخمسة عشرة عاما .. ولم تكن خديجة فى الواقع هى التى تخيرت الامين زوجا لها .. بل ان الحق سبحانه وتعالى .. قد أراد أن تتم هذه الزيجة لحكم يعلمها ، فحسن محمدا فى عين خديجة وقربه الى قلبها .. وجسد لها فضائله ومزاياه الفريدة .. فكان أن فضلته على السادات البهاليل من اشراف قريش وسراتها .. وارتضته ـ وهو الفقير

المعدم الذى كانت تستاجره فى تجارتها ـ زوجا لها .. فوجد فيها محمد خير النساء واغناه الله بما كان لها من جاه ومقام وسعة مال ..

وعاش محمد وخديجة فى بيت يسوده الصفاء والحب .. وبدات الزوجية تؤتى ثمارها الطيبة ، فانجبا من الابناء : **القاسم ، وعبد الله ، وزينب ، ورقية ، وام كلثوم ، وفاطمة ..**

ثم مرت السنون .. وتوالت الاعوام .. وبدأ محمد يخطو نحو الاربعين .. وهو على حاله الذى عرفته قريش عنه .. عزوف عن مجالسها بعيد عن منتدياتها .. لا يميل الى الاختلاط .. متباعد بطبعه . مسلم نفسه الى ذات الافكار القديمة التى شغلته فى البحث عن الحقيقة ..

لقد جانب محمد قريشا كلها بعواطفه واحساسه ومشاعره .. فلم يشاركها تقليدا من تقاليدها .. ولا مشى فى موكب من مواكبها .. ولا ارتاح الى تصرفات شيوخها وحكمائها .. بل لقد أحس بالاشمئزاز منهم ومن مجتمعهم وتقاليده وعاداته وكان أشد ما يعذب نفسه ويحزنها فى هذا المجتمع الماجن : هو عبادتهم .. وربما ساءل الامين نفسه ــ والقوم حول الكعبة ، أو فى باطنها يسألون الحجارة ، ويسجدون للأصنام ــ ؟ كيف يتدنى أصحاب العقل البشرى الى هذا الدرك السحيق ، فيسجدون للحجر ، ويسألون الصنم أن يبعد عنهم الضرر أو يوليهم النفع ...

ثم أن الأمين بعد هذا يسأل نفسه : هذا العالم وما حوى ، !! كيف وجد من عدم .. ومن صانعه ؟ !

وهؤلاء البشر الذين يذهبون ولا يرجعون !!

ترى .. الى اين ؟

ثم اولئك الذين يولدون وتخلق منهم أجيال بعد أجيال ، من الذى ياتى بهم ثم يذهبهم .. ومن الذى يبعثهم من جديد ؟

اهى هذه الأصنام ؟ !

اهى تلك النصب ؟ ! .

والآيات البينات ، الليل ، النهار ، الكواكب ، الشموس ، ما يزين السماء من مصابيح ، وما على الارض من آيات ، من الذى صنعها ؟ ! .

لقد كانت الحيرة تغمر محمدا فى لجاجها وهو بعد فى طفولته المبكرة .. او فى أول مراحل شبابه .. ولكنه اليوم وهو يخطو نحو الاربعين .. قد اكتمل عقلا .. وعاد يدقق ويبحث ..

وبدات التجليات .. وانهمرت الفيوض اللدنية .. واربت النبتة المقدسة

.. وتفتحت للانداء السماوية .. ودوت الاصداء فى وجدان الامين وبدأ يعرف .. بدأ يعرف الحقيقة ويسير اليها فى هدوء وصمت وثقة واطمئنان ..

وخرج محمد بعيدا عن حدود قريش .. تخير الغار ليتحنث فيه .. ويتعبد ويفكر فى ملكوت السموات والأرض .

لقد كان من عادات العرب فى ذلك الحين – أن ينقطع مفكروهم للعبادة مدة من الزمن فى كل عام فى خلوة بعيدة يتقربون فيها الى آلهتهم بالصلاة والدعاء يلتمسون عندها الخير والبركة ..

وقد سار محمد على نهجهم وعكف بدوره فى « **غار** » بأعلى جبل حراء يذهب اليه طوال شهر رمضان من كل عام ، يخلو فيه الى نفسه ممعنا فى التأمل والتفكير الطويل محاولا أن يصل بتفكيره الى الحق الذى يجب أن يتوجه اليه بالعبادة .

حتى هداه الحق اليه فى ليلة القدر من شهر رمضان ..

وكان التجلى الاعظم فى تلك الليلة ..

ليلة من أعظم الليالى المباركة ، وأخلدها .. انها الليلة التى أنزلت فيها آياته .. وقرآنه الكريم :

« انا أنزلناه فى ليلة القدر ، وماأدراك ما ليلة القدر ، ليلة القدر خير من الف شهر ، تنزل الملائكة والروح فيها ، باذن ربهم من كل أمر ، سلام هى حتى مطلع الفجر » .

ليلة خالدة نزلت فيها الملائكة والروح الأمين « جبريل » ، على الرسول المؤمن الباحث عن ربه الحق ليعبده وحده ، فهداه الحق الى ذاته .. وأمره أن يقرأ ، وأن يعرف .. وأن يتعلم : مم خلق الانسان .. وصفات هذا الانسان .. ثم نهايته .. ثم بعثه ثانية .. ليجزى عما فعل من خير أو شر .

تلك كانت المرحلة الاولى من مراحل الاعداد للرسالة الكبرى .. رسالة محمد سيد الخلق أجمعين .. مرحلة التفكير فى ملكوت السموات والأرض وهى نفسها – أولى المراحل التى مر بها ابراهيم عليه السلام .. يوم اعتزل قومه وكره أن يعبد مثلهم الشمس أو القمر أو النجوم ..

ولقد مر محمد بهذه المرحلة ذاتها ، وطال تحنثه وتفكيره ، وخشوعه وتعبده ، واعتزاله مجتمعه وبيته وأهله لفترات طويلة يعود بعدها الى بيته ليمارس بعض شئون الحياة ..

وذات ليلة وهو فى غار حراء خاشع صامت مسلم وجدانه الى خالق السماء .. وباسط الأرض ـ وقد هدأ الليل .. وسجت ظلماته ، ورقت أهويته وخشعت الكائنات طرا ـ أحس الأمين وهو فى عزلته بجلال تلك الليلة ..

ووجد محمد نفسه فى غمرات من الذهول .. فلم يشعر : **اهو غريق فى خضم روحى .. أم سابح فى سماوات عالية ، أم هائم فى رؤيا غريبة !!**

تلك لحظات ما استطاع أن يحدد اثرها ولا تأثيرها ، ولكن انتابه خلالها غيبوبة لدنية .. غاب معها عن الوجود ، ووجد نفسه يصغى الى صوت أبدا ما سمع له شبيها .. صوت يقول له :

« اقرأ ..

ثم خشع الكون .. وأخذت الامين غاشية الدهشة .. وارتج عليه فلم يعرف ماذا يقول . ولم يدر .. ان كان فى يقظة ، أو فى منام ..

ورددت الاصداء صوت الروح الامين الذى عاد يقول له :

« اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرا وربك الاكرم الذى علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم » ..

وانصت محمد الى الروح الامين جبريل .. انصت اليه بمجامع القلب وكل الوجدان ..

كان الغيث قدبدأت تنهمر أولى قطراته الندية المنعشة .. وكانت سحب القلق قد بدأت تنجاب .. وبدأ يبين كل شىء ، وتظهر كل حقيقة ..

* * *

ولقد قال المفسرون ـ أن محمدا ، الذى أدبه ربه فاحسن تاديبه ، وهداه واجتباه واعده ليحمل اعباء الرسالة الكبرى .. خاتمة الرسالات كلها ـ لم يكن يعرف القراءة ولا الكتابة ، وانه اجاب جبريل قائلا :

« ما أنا بقارىء » ؟ !

وأن جبريل عليه السلام كررها ثلاث مرات وهو فى كل مرة يضم محمدا فيها الى صدره .. ومحمد يردد : « ما أنا بقارىء » !!

ثم بدأ الروح الامين يقرأ ويقول : **« اقرا باسم ربك الذى خلق ... » ..**

والقول بأن محمدا اجاب بانه ليس بقارىء ، قول يحتاج الى وقفة طويلة وحديث حاسم وسريع ، فالامر الذى صدر اليه بان يقرا ، انما كان تكليفا واشعارا ببدأة الرسالة . التى يجب أن يخرج بها على العالمين كافة وأن

يقرأها على الناس ولا يحفظها فى صدره ، وأن يعلم البشر كلهم ما سـوف ينزله الله عليه من آيات بينات ..

والزعم بأن محمدا قال إنه ليس بقارىء ، انما يعنى انه ربما كانت مع الروح الامين صحف ، نشرها امام محمد ، فاعلن عدم قدرته على القراءة ، لانه لا يعرف القراءة ، ولم يتعلم .. وهو قول غير مقبول شكلا ولا موضوعا ، فالامر بالقراءة كما أسلفت ـ كان هو التبليغ وليس اسماع جبريل تلاوة ما جاء به ، أو ما كان يحمله من صحف وردت بها كلمات مقدسة .

فجبريل والحالة هذه يكون ادرى بالجواب قبل توجيه الامر ، واعرف به.

والادعاء بعد هذا بأن محمدا كان لا يقرأ ـ ادعاء لا يستند الى حجة ، وما نزل فى كتاب الله الكريم بعد ذلك فى وصفه صلى الله عليه وسلم بكلمة «الرسول النبى الأمى » وتفسير البعض لكلمة « الأمى » هذه بانه كان لا يقرأ ولا يكتب .. تفسـير غريب .. وجرىء الى حد ما ، فلم يقل أحد أن كلمة « أمى » لابد أن يرادفها الجهل بالقراءة والكتابة ، وما كان الله ليبعث رسولا لا يقرأ ولا يكتب ، ليرشد الناس الى دين وشريعـة وكتاب مبين ، أساسه المعرفة والعلم ..

وكلمة « أمى » هذه التى اسىء فهمها وتفسير معناها .. انما تشير الى محمد الرسول النبى المبعوث من بين « الأمم » ..

اى ليس من ابناء اسرائيل ، بل من الأمم الأخرى غير ذلك الجنس الذى قصر فى حمل الشريعة وكان غير جـدير بتحمل أعباء الامانة بعد عيسى عليه السلام ، فانتقل عنه التكليف الى أكرم حفدة أبراهيم عليه السلام ، وهـو رسول مختار من « الامم » منسوب اليها .. فهو « أمى » ..

فالكلمة اذا .. لا تعنى بالضرورة عدم القراءة أو الكتابة أو التوسع فى العلم والاطلاع .. بل تحدد جنسية محمد عليه الصلاة والسلام وتقرر انه « أمى » من الأمم ، المجاورة ، البعيدة أو الغريبة عن أبناء اسرائيل ..

والاسرائيليون قديما كان يطلقون على الامم المجاورة لهم أو البعيدة عنهم اسم « الجوييم » ، ومعناها « الاجانب » وهـو لفظ عبرى ، يعنى ولا شك بالعربية كلمة « أمم » ..

فالأميون على هذا الأساس ـ هم الاجانب عن أبناء اسرائيـل ، وأهل الشعوب الاخرى ، وهم ليسوا من لا يقرأون ولا يكتبون على الاطلاق ، وعلى ذلك فالقول بأن محمدا الرسول الاعظم ، والنبى الامى الكريم ، قـد أجاب الروح الامين بانه لا يقرأ ، قول تجب مراجعته ، وتصحيحه ، خاصـة وان رسالته شملت الاميين أيضا ..

« فان حاجوك فقل أسلمت وجهى لله ومن اتبعنى ، وقل للذين أوتوا الكتاب والاميين أ أسلمتم (؟ !) فان أسلموا فقد اهتدوا ، وان تولوا فانما عليك البلاغ والله بصير بالعباد »

والطبرى فى تفسيره يقول : ان الاميين هم الذين لا كتاب لهم من مشركى العرب ، والنقاد من العلماء يرون أن لفظة « أمى » فى الآيات :

« الذين يتبعون الرسول الامى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والانجيل يامرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم اصرهم والاغلال التى كانت عليهم ، فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه ، أولئك هم المفلحون »

« هو الذى بعث فى الاميين رســـولا منهم ، يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وان كانوا من قبل لفى ضلال مبين » .

أن « الأميين » هم غير أهل الكتاب .. ويجب أن تفسر بمعنى الذى لا يقرأ الأسفار المقدسة مما عند اليهود والنصارى .. ولا يعرف شيئا من كتبهم وأقاصيصهم وسيرهم .

« وما كنت تتلو من قبله من كتاب ، ولا تخطه بيمينك ، اذا لارتاب المبطلون ، بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون » .

وهناك دليل آخر أيده بعض الكتاب والباحثين على : « ان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان يقرأ ويكتب مستدلين على هذا أنه فى صلح « الحديبية » أمسك الاتفاق ومحا منه كلمة « محمد رسول الله » التى لم يرض بها سفير قريش ..

ويقولون أيضا : انه حين حضرته الوفاة طلب قرطاسا وقلما ليكتب شيئا عن الخلافة (١) .

* * *

اذا .. وعلى هذا نستطيع أن نقول ان نزول جبريل على سيدنا رسول الله وهو فى وحدته التعبدية فى الغار البعيد ، كان بدء الامر بالتكليف لحمل أعباء الرسالة ، وأن الامر بأن يقرأ ، انما عنى به أن يقرأ الشريعـــة السمحاء للناس كافة ليصحح لاهل الكتاب ، ما اختلفوا فيه ، ويهدى غيرهم الى الله الحق الذى لا اله الا هو ..

والأمر الأول ، التالى لكلمة اقرأ ، فيه ما يعنى أن يقرأ ما سوف يسمع ويتمعنه ويعرف ما فيه ، وهو انه سيقرأ باسم الله ربه ...

---

(١) تاريخ العالم — المجلد الرابع — من محاضرات عبد الحميد العبادى .

وهنا يبـدأ سبل المعـرفة ، والتوجيه فى السير ... ((**فاقرأ**)) وحدها أمر وتكليف وتنبيه الى ما بعدها وهو : ((**اقرأ باسم ربك**)) أى بأمر الله ربك ومشيئته .. اقرأ لنفسك أولا .. ثم للناس .

وكان أول درس سماوى عملى تلقاه سيدنا رسول الله هو :

((**ربك الذى خلق ...**))

وذلك أمر .. لم يعرفه سكان الصحراء وسائر مناحى الجزيرة وقتها .. لقد كانوا يعكفون على الاصنام ويعبدونها ويسألونها الخير ودفع الشر ، ولكن عقلياتهم جميعا لم ترق الى معرفة مدى قدرة هذه الاصنام العاجزة ، وهل هى تنصر وتخذل فقط ، أم تخلق ، وتحيى وتميت !!

ثم أن أصل الانسان نفسه ، وسر خلقه ، وكيف خلق ، ومم خلق ، لم يكن مما يهتم به الناس فى ذلك الوقت الذى انقلب فيه البشر ذئابا تلغ فى الموبقات والمحرمات ، وسباعا يسطو قويهم على ضعيفهم وتستبيح حرماته ودمه وماله ...

فالأمر الى سيدنا رسول الله بأن يقرأ ويعرف ثم يبلغ الناس بما قرأ وعرف أن الله ربه .. هو الذى خلق .. أى الذى لا يعبد فقط ، لأن عبادته فرض حتمى ، يجب أن يهتدى اليه البشر تلقائيا بعقولهم ، ولكن الذى لا يعرفونه أصلا وهو ما يعلمهم اياه وهو : آية ((**الخلق**)) .. و ((**مادة**)) هذا الخلق ، فالانسان .. ذلك الكائن العظيم قد خلق من ((**علق**)) !!

((ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقة ، فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاما ، فكسونا العظام لحما ، ثم أنشأناه خلقا آخر ، فتبارك الله أحسن الخالقين)) .

كان الانسان علقة تافهة صارت باسم القدرة وبديع صنعها الأنسان الكامل ، سيد الكائنات !!

((ألم يك نطفة من منى يمنى ، ثم كان علقة فخلق فسوى ، فجعل منه الزوجين الذكر والانثى ، أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى)) .

فالدرس الاول ، كان دعوة الى معرفة الاصل وحقيقته ، ثم كان التوجيه الثانى هو :

((.. اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم))

فالخلق ، بيد الله ، فهو الخالق ، المصور ، المحيى المميت القادر على كل شىء ثم هو بعد هذا الرحمن ، الرحيم ، اللطيف بعباده الذى شاءت ارادته ،

الا يخلق الانسـان ثم يتركه يتخبط فى الظلمات .. بل ، قدر له ان يتعلم ، وأن تلقنه القدرة أصول هـذا العلم ، وأن تجعـل القلم أداته ، فهو تعالى تقدست أسماؤه سبحانه ، علم الانسـان ما لم يعلم .. وتجلى عليه بأنوار المعرفة وأضواء العلم ...

ويستمر الوحى فى تلقين محمد عليه صلوات الله وسلامه بقية الدرس الاول العظيم .. الخـالد .. ركيزة ما سوف يتلى عليـه وعلى النـاس جميعا بعد ذلك ..

فالقـراءة الأولى التى كلف رسول الله صلى الله عليه وسـلم بمعرفتها ودراستها هى الاقرار بالربوبية والقدرة وأن الله هو الذى خلق الانسان من احقر المواد .

وانه بعد ذلك ليطغى ويتجبر وينغمس فى حماة الفسق والضلال ، ناسيا الله الخالق . القادر ، مرجع الناس جميعا !!

((كلا ، ان الانسان ليطغى ، ان رآه استغنى ...))

والقادر سبحانه وتعالى يصف الانسان بصفته الحقة ، وهى الطغيان والجبروت ، والتنكب عن سواء السبيل واتبـاع أهـواء النفس الشريرة ، والاقبال على إشباع غرائزه العديدة ، دون أن يردعه رادع من دين أو خلق .!

ان الانسان حقا ليطغى ... وهو ما أراد الله ان يؤكده لرسوله ؛ حتى اذا قام بالدعوة ، وانذر الخلق ، وادبروا عنه واستكبروا وأبوا أن يسمعوه لا يتسرب اليأس الى قلبه ، بل يجاهد ويجاهد .. ثم يقول لذلك الانسـان الضال ، المنكر لآيات الله ... تمهل أيها الكائن التافه ، فانك مهما أوتيت ، ومهما تملكت ، فان : ((**الى ربك الرجعى**)) !!

وهذا درس قيم .. أن الرجعى الى الله .. فهو الذى خلق ، وهو الذى يميت واليه يرجع الناس جميعا ، فيجزون بما كانوا يفعلون ...

وهكذا عرف سيدنا رسول الله أول ما عرف ماهية الخلق ثم ... ما بعد الحياة ، وهو البعث والمثول بين يدى الله ...

((ولا تدع مع الله الها آخر لا اله الا هو ، كل شىء هالك الا وجهـه له الحكم واليه ترجعون)) .

تلك كانت فترة المعرفة الأولى ..

وان ما حدث فى غار حراء لهو صورة لما حدث لموسى كليم الله يوم رأى من جانب الطور الأيمن نارا فأقبل عليهـا ، واذا به يتلقى الأمر بالرسـالة ، واذا بالقـادر سبحانه وتعالى ، يأمره أن يخلع نعليه لأنه بالوادى المقـدس

ويبلغه ، انه اختاره .. ويأمره ان يستمع لما يوحى اليه .. وانه سبحانه وتعالى هو الله الذى لا اله الا هو .. وان على عبده موسى أن يعبده وأن يقيم الصلاة لذكره .. وان يعرف ان الساعة آتية ..

وظل محمد الامين بعد نزول جبريل عليه قابعا مكانه فى حالة رهيبة من الاضطراب والوجل .. حتى زايله الخوف وسكن منه الروع فأسرع الى بيته .. الى خديجة الطاهرة الحنون ..

وقص محمد على شريكة حياته كل ما حدث .. فاقبلت عليه تطمئنه .. وتهدىء روعه .. وانسابت كلماتها الحنون الرطبة الى نفسه كما ينساب ماء الينبوع الطاهر وهى تقول له :

« ابشر يابن عم واثبت ، فو الذى نفس خديجة بيده انى لأرجو أن تكون نبى هذه الأمة ، والله لن يخزيك الله أبدا ، انك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الدهر » .

وخلت بعد ذلك الى نفسها وهى فى دهشة من أمر زوجها الكريم ..

ان محمدا .. الصادق الامين .. يعود اليها اليوم ، لا بحديث عن قريش .. ولا عن الاحداث الجارية فيها .. ولكن بحديث من السماء .. ورب السماء والارض .. ورسالته التى حملها اليه الروح الامين ..

ووجدت خديجة نفسها تسرع الى احد أبناء عمومتها **« ورقة بن نوفل »** فتسر اليه بما كان .. فيصغى اليها طويلا ثم يتولاه الصمت ..

لقد كان « ورقة » ممن قراوا انجيل عيسى .. وكان على النصرانية .. وكانت البشرى باحمد المختار لم تزل مذكورة فى الانجيل .. مشيرة الى رسول آخر الزمان .. الذى سيتمم ابلاغ الرسالة الكبرى ، ويرشد الناس الى الله .. ويجاهد حيث وقف عيسى ، ويصحح ، ويجادل .. ويناقش اهل الكتاب وغيرهم من الناس ..

وان ورقة ليسمع بما حدث ، ويرى فيه درسا للعلم والمعرفة ، لا آمرا بابلاغ الرسالة والانذار بها — وانه ليطرق طويلا مستغرقا فى تأمله وتفكيره .. لأن رسول آخر الزمان قد خرج برسالته ..

ولكن أوان ابلاغها للناس لم يكن قد حان بعد .. وهذا ما احزن الشيخ .. والا لكان أول المصدقين وأول المؤمنين بمحمد رسول الله .. ثم ها هو يرفع رأسه ويبشر خديجة بقوله :

« قدوس .. قدوس ! والذى نفس ورقة بيده ان كنت صدقتنى يا خديجه ، فان ما رآه محمد فى غار حراء انما كان الناموس الأكبر الذى

نزل على موسى وعيسى من قبل ، وأن محمدا لهو نبى آخر الدهر الذى ورد اسمه فى التوراة والانجيل ، وانه سيقوم بابلاغ رسـالة الله جل وعلا .. وسيلقى من قومه وعشيرته الايذاء والتكذيب ، وسيخرجونه ومن معه من ديارهم .. ثم يقاتل الذين كفروا .. ثم يؤتيه الله النصر والفتح ، فاذهبى اليه وقولى له .. فليثبت » .. !!

ثم تمنى لو أطال الله فى حياته ، وخرجت الدعوة الى العلن ، وكلف بها محمد لينذر الناس ويهديهم ليكون أول المؤمنين به ..

وعادت خديجة بالبشرى الى رسول الله ..

***

وحدث أن فتر الوحى عنه قليلا ، وهو فى تلك الغمرة من غمرات القلق، فدق قلبه وجلا ، وخشى أن يكون قد فعل ما يوجب القطيعة !!

ولاحظت خديجة البارة ذلك وقالت له :

ـ لعل ربك قد قلاك !!

فساورته المخاوف والهموم ..

وما أسرع ما تداركت محمدا رحمات ربه ورضاه . فنزل عليه جبريل بكلمات من ربه :

« والضحى ، والليل اذا سجى ، ما ودعك ربك وما قلى ، وللآخرة خير لك من الأولى ، ولسوف يعطيك ربك فترضى ، ألم يجدك يتيمـا فآوى ، ووجدك ضالا فهدى ، ووجدك عائلا فاغنى ، ؟! فاما اليتيم فلا تقهر ، وأما السائل فلا تنهر ، واما بنعمة ربك فحدث » !!

اذا فهذه بشرى ــ لا بعودة الوحى فحسب .. ولكن بأن الله ما قلى رسوله ولا جافاه .. وانه يبشره بآخرة هى خير وافضل من الأولى .. وانه تعالى سوف يعطيه ويعطيه .. حتى يرضى ..

ان الروح ليقول .. معددا أنعم الله على محمد فى قوله :

« الم يجدك يتيما فآوى .. ووجدك ضالا فهـدى .. ووجدك عائلا فاغنى » ؟ !

فالله القادر المنان .. لم يكل محمدا الى اليتم .. وذل اليتم . فآواه وأحسن ايواءه .. والان له قلب جده أولا .. ثم قلب عمه ثانية . ثم هداه بعدها الى عمل يكسب منه قوته . فرعى الأغنام . واشتغل لحساب غيره فى التجارة .

ثم تخير له سبحانه وتعالى الزوجة الوفية البارة .. فآوى الى بيتها ووجد فيه راحته واستقراره البيتى وأغناه الله وعياله عن ذل الحاجة .. فأعطته المال والعصبية والولد ...

وانه تعالى ليوجه محمدا الى المكارم ويوصيه بالخير .. ويقول له :

«فأما اليتيم فلا تقهر ، واما السائل فلا تنهر ، وأما بنعمة ربك فحدث »

وهتف محمد من كل قلبه : **لك الحمـد اللهم ولك الشـكر على آلائك ونعمائك !! وعاد محمد الامين الى بيته يرتجف وهو يقول : « دثرونى .. دثروني » ..**

وسرعان ما جاءه الامر الالهى مرة اخرى ، واستمع محمد الى الروح الامين يقول له :

« يا ايهـا المدثر ، قـم فانذر ، وربك فكبر ، وثيابك فطهر ، والرجز فاهجر ، ولاتمنن تستكثر ، ولربك فاصبر » !!

ولكن .. لم يتحدد الانذار .. والى من سوف يكون ..

لقد كان الامر بالقيام بالدعوة الى الناس كلهم ، والى الارض جميعها ، ولم تكن لفئة خاصة ولا لارض محدودة ..

لهذا راح الأمين يسائل نفسه وهو يردد ، « قم فأنذر ... ولكن .. انذر من ؟ !

وسرعان ما تحدد الأمر فعلا .. وجاءه الوحى يقول له :

« وانذر عشيرتك الأقربين ، وأخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين ، وقل انى انا النذير المبين » !!

كان الانذار الى امس الناس بالرسول الكريم .. واقربهم اليه وهم .. أهله وعشيرته ..

وبدأ دعوته فى بيته .. فى مملكته الصغيرة التى هو سيدها ، وكانت خديجة المطهرة أول من آمن بدينه الجديد وأول من بشره بالخير والبركة .

وعلم الله نبيه الصلاة .. فصلى وصلت خديجة معه ، وكان يقيم معهما على بن أبى طالب الذى كان لم يزل صبيا . ودخل عليهمـا يوما فرآهما يركعان ويسجدان ويتلوان ماتيسر مما أوحاه الله يومئذ من القرآن ، فوقف الصبى دهشا .. حتى أتما صلاتهما .. ثم سأل : **لمن تسجدان ؟!**

فأجاب محمد صلى الله عليه وسلم : **انما نسجد لله الذى بعثنى نبيا ، وأمرني أن ادعو الناس اليه .**

ثم دعاه الى عبادة الله الواحد الذى لا شريك له ، والى انكار الأصنام من امثال اللات والعزى ..

وتلا محمد ماتيسر من القرآن .. معبرا عنــه بأنه كلام الله ربه ورب العالمين أملاه عليه ((**جبريل**)) الروح الأمين من كتاب مكنون فى لوح محفوظ فى السماء .. وبدا على ملامح وجه ((**على**)) عديد من الاسئلة والاستفهامات وأسرع الرسول الكريم يوضح له :

((انه لقرآن كريم ، فى كتاب مكنون ، لا يمسه الا المطهرون تنزيل من رب العالمين)) ..

فأخذ ((**على**)) بالآيات الكريمة التى سمعها وسحره بيانها واعجازها .. ولكنه استمهل ابن عمه حتى يشاور اباه .. ثم عاد اليه بعد ليلة مضطربة ليعلن اسلامه من غير حاجة لرأى أبى طالب وقال :

((لقــد خلقنى الله من غير أن يشــاور أبا طالب ، فما حاجتى انا الى مشاورته لأعبد الله)) !!

وكان ((**على**)) اول صبى أسلم ، ومن بعــده أســلم ((**زيد بن حارثة**)) مولى النبى .

وظل الاســلام محصورا فى بيت محمــد وفى زوجه وأبن عمه ومولاه زيد بن حارثة ..

وكان .. ((**ابو بكر بن أبى قحافة التيمى**)) صديقا لمحمد ، يستريح اليه ويعرف فيه النزاهة والأمانة والصدق ، لذلك كان هو أول من دعاه الى عبادة الله وحده وترك عبادة الأوثان . وجعل أبو بكر يدعو الى الاسلام كل من يرى من قومه ، فتابعــه على الاســلام **عثمان بن عفان ، وعبد الرحمن ابن عوف ، وطلحة بن عبيد الله ، وسعد بن أبى وقاص ، والزبير بن العوام** ثم أسلم بعد ذلك **أبو عبيدة بن الجراح ، وابن الحرث ، وفاطمة بنت الخطاب وزوجها سعيد بن زيد ، وأسماء ، وعائشة ابنتا أبى بكر** .. وكثيرون وكثيرات من أهل مكة ، وكان اذا أسلم احدهم ذهب الى النبى فأعلن اسلامه ، وتلقى عنه تعاليمه ..

وكان المسلمون الأولون يخشون عداوة قريش . فكانوا اذا ارادوا الصلاة انطلقوا الى شعاب مكة وصلوا فيها .. وكانت ((**دار الارقم**)) مكان اجتماع المسلمين . ولهذه الدار قيمتها ، ودورها الخالد فى نشر الدعوة ..

ومر الزمن .. وسارت الحياة فى قريش على نفس الوتيرة التى تعودها الناس . مواسم فى اثر مواسم . وتجارة بعد تجارة . وقافلة تخرج واخرى تعود .. فقد راجت منزلة مكة لعلو شأن البيت الحرام فيها بالرغم من انها بواد غير ذى زرع ..

وعاد محمد يجاهد فى ابلاغ الدعوة الصادقة من جديد .. وراحت زوجته خديجة تحثه على الجهاد وتهون عليه كل عسير وتدعوه الى اعلان الدعوة وترديدها فى كل مكان ، فسوف تجد فى القلوب اللينة المؤمنة مستقرا ومقاما ..

ورددت خديجة على اسماعه كلمات الروح الأمين :

« وانذر عشيرتك الأقربين : واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين ، وقل انما انا النذير المبين » .

وكان هـذا أمرا صريحا بالخروج عن سريتها لعشـيرته الاقربين ..

وخرج محمد الى ميدان النضال لأول مرة .. وتخير جبل الصفا الذى يشرف على مكة ، والذى تلتقى فيه قريش كلها . ثم وقف ليقول لهم :

« يا معشر قريش » ..

واسرع رجال قريش ينصتون اليه ..

فقال لهم : **هل عرفتم عنى كذبا او بهتانا ..**

واجابوه : **انهم ما عرفوا عن الأمين بن عبد الله السوء قط ..**

فقال : **اذا فاسمعونى .. لو قلت لكم إن خيلا بسفح هذا الجبـل .. اكنتم تصدقونى ؟ !**

قالوا : بلى ..

قال : اذن فاسمعوا جميعا ، فانى نذير لكم .. يا بنى عبـد المطلب ، يا بنى عبد مناف ، يا بنى زهرة ، يا بنى مخزوم ، يا بنى تميم ، يا بنى اسد — لقد امرنى الله ربى وربكم أن أنذركم فانتم عشيرتى الأقربون ، وانى لا املك لكم من الدنيا منفعة ولا من الآخرة نصـيبا الا ان تشـهدوا معى الا اله الا الله .

وهكذا تلا محمد رسالته .. ودعا أهله وعشـيرته الاقربين الى نبـذ عبادة الأصنام .. والايمان باله واحد .. خلق فسوى . وقدر فهدى بيده الأمر . يحيى ويميت . وهو على كل شىء قدير ..

وبهتت قريش .. وظل سادتها على وجومهم لحظات طوال .. ثم اخذ الشيطان يعود الى قلوبهم من جديد فيتملكها ويوسوس لهم بالشر .. فاذا

هم يثورون على الصادق الأمين الذى كانوا يمتدحون صفاته ومزاياه منذ لحظات .. وهاجموه متوعدين .. وقال له أقرب الناس اليه وهو عمه أبو لهب :

((ويلك .. الهذا دعوتنا)) ؟ !

وانصرف القوم عن رسول الله ، وكلهم حقد ، اذ وجدوا فى قوله جراة لا على العشيرة وسادتها .. بل على الأرباب العالمية التى يقدسونها .. والتى توارثوا عبادتها كابرا عن كابر .. وجيلا بعد جيل ...

وبدأ التنكر .. وبدأ الخصام العلنى .. وبدأ النضال وبدأ التربص بمحمد الذى وقف وحده .. يواجه العاصفة ويدعوا الناس الى الله .

وبجهاده المرير بدات الدعوة تتسع ويتكاثر المسلمون ، ويشتد غضب سفهاء قريش على الدعوة وصاحبها ومن تابعوه .. ويحتدم الجدل .. المقاومة .. ويزداد المؤمنون بمحمد الذى عززه الله بالآيات البينات .. وأعطاه من السلطان الروحى ما أعجز الكفار عن الرد .. وفرقت دعوته بين العشيرة .. فاذا بالابن فى جانب ، والأب فى جانب آخر ، هذا يجادل .. وذاك يصد .. وهذا مستمسك بكفره وضلاله .. وذاك يقف دونه مسفها آراءه ساخرا بمعبوداته ..

واتسعت حلبة الجدل ..

لقد كانوا يؤمنون بمحمد الصادق الوفى الحميم .. وكانوا يعرفون عنه أمانته واستقامته فهم لم يعهدوا فيه كذبا ولا مينا فى يوم من الايام فما بالهم اليوم ينكرونه ويتجهمونه ؟ !! انها طبيعة النفس البشرية .. طبيعة الحقد والحسد .. اذ كيف يتميز محمد وحده دون قريش كلها بفضائل الشرف والامانة والصدق والعفة .. ويكونون هم جميعا دونه فى ذلك .. ثم هاهو ذا يبزهم جميعا ويتعداهم الى شرف لم ينله قبله فى العرب غير ابراهيم واسماعيل عليهما السلام .. شرف النبوة وحمل رسالة الله لهداية الناس واخراجهم من الظلمات الى النور ..

ولقد ساءل رءوس قريش أنفسهم خلال وحدتهم : لماذا فضل الله محمدا عليهم جميعا ؟ ! لماذا تخيره من بني هاشم بالذات .. ولماذا خصه برسالته .. وفى مكة وغيرها كبراء وعظماء وأثرياء لهم مكاناتهم وجاههم العريض ، ولهم فوق هذا المال والسؤدد والأتباع والأعوان ؟ !

لماذا تفرد محمد دون سادات قريش بشرف حمل الرسالة ؟ ! لماذا ؟ !! اجل لماذا ؟ !!

ذلك كان هو السر الذى عمى على سفهاء العشيرة ورءوس الضلال فيهم .. فعارضوا محمدا بدوافع الحقد .. ووقفوا فى وجه دينه بدافع من الحسد والغيرة ، ولم يعارضوه عن تكذيب لدعوته — ولكن لمجرد اشباع الرغبة الجامحة فى الحد من تفرد محمد بالسؤدد والجاه والمنعة والسلطان ...

وكما وقف ابراهيم امام التحدى .. وكما وقف موسى أمام اصرار فرعون وقومه — كذلك وقف محمد يرد الكيد ، ويصد العادين ، وينزل الله الآية تلو الآية .. فتتصدع لها قلوب ، وتخشع لها افئدة ، ويتولى المجرمون والرعب يملأ نفوسهم وهم يرددون فى ذهول ان هذا القرآن لشىء عجيب .. انه ليس بالسحر .. ولا بالكهانة ولكنه اعجاز فوق الاعجاز .. فكيف يقف باطلنا دونه .. وكيف نرفع عن كواهلنا شديد وطأته .. وكيف نستطيع ان نرد على محمد دعواه ..

أن قرآنه ليتحدث أغرب حديث . انه ليذكر الحياة الأخرى بذكر البعث . والنشور . ويوم الحساب ..

انها خوارق ما سمع بها القوم .. وانهم ليذهلون وهم يتصورونها ويتصورون حدوثها .. بعث وحساب وعقاب .. ويسألون : فان متنا وكنا ترابا وعظاما أ اننا لمبعثون ، وأباؤنا الاولون ..

فيأتيهم الجواب الفصل فى قوله سبحانه وتعالى :

« قل أن الأولين والآخرين . لمجموعون الى ميقات يوم معلوم ، ثم انكم أيها الضالون المكذبون لآكلون من شجر من زقوم ، فمالئون منه البطون ، فشاربون عليه من الحميم ، فشاربون عليه شرب الهيم ، هكذا نزلهم يوم الدين ، نحن خلقناكم فلولا تكذبون .. »

لقد بدأ الكفار يخشون يوم الفصل الذى تحدث عنه القرآن العظيم .. ويرهبون البعث الذى سيلقون فيه نكال أعمالهم .. يوم يخرجون من الأجداث يتساءلون اين المفر ، ثم يساقون الى الحق الذى كذبوا به خشعا ابصارهم مقرنين فى الأصفاد ... فيقول لهم ذوقوا بما كنتم تكذبون ..

اى نهاية اليمة مروعة .. وأى عقاب ينتظر أولئك المصرين على الكفر والضلالات .. ولكن .. هل خشوا .. ؟!

هل اوعووا .. ؟ !

هل راجعوا انفسهم .. وهم يصغون الى شياطينهم ..

لا وا أسفاه .. لقد كان الحقد يحركهم .. ويعمى أبصارهم عن الحق ففضلوا الف مرة ان يبقوا على كفرهم . وأن يموتوا وهم كفار فلا يؤمنون

بمحمد ولا يتبعون دعوته وليفعل الله بهم فى آخرتهم ما يشاء .. أن كان هناك بعث ومثوبة وعقاب كما يقول محمد ..

وما جاء محمد بغير الحق .. وانه ليستمر فى دعوته . ويخرج بها من حى الى حى . ومن عشيرة الى عشيرة . والقلة المستضعفة من ورائه تكبر ويزداد عددها .. وقريش لا تزيد إلا باطلا وإفكا واصرارا على الضلال .

وحلا للكفار أن يقارعوا محمدا حجة بحجة وآية بآية .. فحاول بعضهم محاكاة القرآن العظيم .. فأعجزه وقضى على شياطين أوهامه .. وما كان لباطل أن يثبت أمام حق . وسرعان ما فروا من هذا الميدان . ثم اذا بهم يعودون من جديد ليتقولوا أعجب الأقوال .

قالوا أساطير الأولين .. وما كان القرآن العظيم أساطير الأولين .. بل كلام الله المنزل على نبيه ورسوله بالهدى والحق . يحوى العبر . ويفيض بالعظات . ويقص أحسن القصص على المؤمنين لعلهم يتذكرون .. ويثبتون على ايمانهم ويسيرون على نفس الدرب الذى سار عليه الرسل الكرام من قبل .. لتكون لهم . النهايات السعيدة . وتكون للكافرين جهنم وبئس القرار ..

واستمر محمد فى جهاده . وبدأت دعوته تهز دعائم مجتمع قريش . لقد كانت رسالته صلى الله عليه وسلم ثورة .. ثورة على الجاهلية .. ثورة على الضلال . ثورة على المجتمع الطبقي الفاسد . ثورة على القبلية اللعينة . ثورة على الفوارق .. ثورة على كل شيء متعفن بغيض ..

ثورة تدمر لتبني .. وتحطم لتقيم أساس مجتمع جديد .. مجتمع ينادى بانه لا فوارق .. ولا سدود .. ولا طبقية .. ولا رق ..
بل مساواة ، وحب ، واخاء ، وسلام ..

ثورة على الضلال . ودعوة الى الكمال والفضيلة . ومجتمع يقوم على اسس الفضيلة . هو مجتمع كامل يشعر الجميع فيه انهم سادات متساوون فى كل الحقوق والواجبات ..

تلك كانت ثورة محمد ..

وذلك كان لب دينه وعصب دعوته فلا عجب ان خشى السادة على زوال سلطانهم وكرهوا ان تتساوى برءوسهم الشم .. رءوس العبيد وأراذل الناس ..

كان الرق .. فاشيا فى العالم . فجاء الاسلام بتحرير العبيد ((فك رقبة)) ونادى بحقوق البشر .. وأنه لا فضل لعربى على عجمى .. ولا لأحمر على أسود الا بتقوى الله .. انه مجتمع عمل . الفرصة فيه مهيأة للجميع دون نظر الى سيد أو مسود . وهذا ما كرهه السفهاء من أصحاب الثراء العريض الذين كانوا يعتمدون على أموالهم ، وما كانت تأتيهم به من ربح ويجلسون حيث هم يفاخرون بالآثام .. ويتباهون بالباطل والأضاليل .. ولا يؤمنون بقيمة العمل . ولا بقيمة الانسان الكادح فى هذه الحياة ..

هؤلاء هم من كانت دعوة محمد ثورة عليهم وعلى دينهم .. ومن أجل المحافظة على باطلهم راحوا يقفون فى وجهه ..

ولكن انى للباطل أن يقف فى سبيل حق ؟ !!

واستمر سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم .. يقرأ على الناس ما أوحاه الله اليه ويعلم الناس الكتابة والحكمة ويزكيهم مستجيبا فى ذلك لدعاء جده الأكبر ابراهيم عليه السلام ..

ونزلت الدعوة على بعض القلوب الرقيقة بردا وسلاما — فى الوقت الذى كانت فيه سبب غلظة وتنافر قلوب أخرى عديدة .. اقض عليها المضاجع أن يعلو شأن محمد وان تتسع رقعة دعوته .. وأن تزول دولة الأصنام على يديه .. وتعلو كلمة لا اله الا الله محمد رسول الله .

واشتد الصراع ، ومحمد ينذر ، ويبشر ، ويذكر الناس بالآخرة وبأنها دار الخلود .. ويخيفهم من عذاب الله وشديد عقابه .. متبعا فى ذلك التوجيه السماوى . سائرا فى ذات الطريق الذى سار فيه من قبل ادريس ونوح وهود وصالح وابراهيم وموسى وعيسى عليهم سلام الله ..

* * *

ولما كانت مكة بحكم وضعها الجغرافى ووضعها الطبيعى مركز التجميع فى وسط الصحراء .. ومقر البيت العتيق .. الذى يجله العرب فى كل مكان .. ويحجون اليه فى المواسم .. ليتبركوا بما حوى من أصنام فرضتها العقليات المظلمة وصورها الشيطان لجموع الضالين — فقد كان بعث محمد عليه الصلاة والسلام فى هذه البقعة بالذات لحكمة سماوية عالية ..

كما كان الأمر اليه بأن ينذر عشيرته الأقربين .. دعوة تجميع واعداد للوثوب فى سبيل نشر الدعوة فى العالمين ..

والله القادر حين قال يوم بعث موسى برسالته .. وأراد له أن يمن على بنى اسرائيل ويخرجهم من طور الرق والعبودية الى طور الحرية والخلاص .. ((**ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الارض ، ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين**)) ـ فقد حددت الدعوة بتخير قوم موسى ليتم فيهم البلاغ الأول ان يكون منهم عدته وعتاده .. وطلائع الدعوة التبشيرية الكبرى لنشر الوحدانية والايمان بالله ..

والحق سبحانه اذ أمر رسوله الكريم بأن ينذر عشيرته الأقربين انما كان يعده لتصدر الارشاد واعداد القادة الذين أرادت لهم القدرة أن يحملوا العبء المقدس الذى كلت منه سواعد أبناء اسرائيل ليكونوا بدلا منهم أئمة ووارثين ..

فبعث محمد فى مكة بالذات ـ كان دعوة توحيد تهدف الى تحقيق الوحدانية واعداد قادة يؤمنون بالوحدة ايمانهم بالتوحيد .. حتى اذا زحفوا فى صف واحد .. يحدوهم الايمان ويربط بين قلوبهم ، حرروا الأمم .. ووحدوا الشعوب .. وعلموا الناس ماهية الفضائل ، وأصول الحكم القائم على دعائم من المساواة والعدل والحرية والاخاء ...

من اجل هذا خرج محمد عليه الصلاة والسلام فى مواسم الحج يعرض دعوته على القبائل ... ويعلن ـ ووفود الحجيج قادمة لتجميد الصنم ـ انهم انما يهدرون آدميتهم .. ويستخفون العقل الذى وهبه لهم الله .. اذ يسجدون للحجارة ويقيمون المواسم والاعياد ... للأصنام العاجزة التى ملأوا بها باحة بيت الله الحرام ...

ان العرب ليؤمنون بذلك ايمانا أورثتهم اياه أجيال عديدة .. فكيف يقول محمد هذا القول ..

وحاجوه مدعين أن الملائكة بنات الله ، ولاموه على جرأته على الأرباب العديدة المقدسة ودعوتهم الى رب واحد لاتراه العين ولا شريك له فى ملكه !!

وأجابهم الرسول فى اصرار المؤمن مؤكدا لهم ايمانه برب واحد داعيا اياهم اليه وحده مكررا على أسماعهم قوله تعالى له :

((قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ، ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد)) !!

وبالغت قريش فى سخريتها من الدعوة الوليدة .. ولم ترض أن تنصت الى دعوة محمد .. اذ عز عليها أن تترك عديدا من الأصنام عرفتها ، وعاشت معها ، ورقصت لها ، وغنت ، وشربت فى باحتها الخمر ..

عز عليها ان تترك كل أولئك الى رب واحد يدعو الى الفضيلة والحق والتطهر .. عز عليها ان تترك أصـــنامها وأوثانهـــا العديدة .. فأعرضت عنه ..

واعرض اقوام ... واقبلت أقوام أخرى على محمد تستمع اليه وهو ينادي بالوحدانية .. وبأن كل معبود سوى الله باطل وضلال ... وان الله وحده هو خالق الكون .. ومصرف الكائنات .. وانه هو وحده الذى يحيى ويميت . وانه هو وحده الواجب أن يعبد .. وأن تعنو لجلاله الجباه .. ويسأله الناس الخير .. فهو مانحه .. وترجوه دفع الشر فهو القادر على دفعه .. وهو على كل شىء قدير ..

وراقت الدعوة الأفئدة .. وتصاممت دونها أفئدة أخرى ولكن محمدا ما كف عنها .. وما توانى عن الجهر بها .. وما قصر فى ابلاغها للنـــاس أجمعين . وانه ليبشر وينذر .. ثم ينذر ويبشر .. وانه بعد هذا ليقرأ على الناس جميعا قرآن الله .. مطيعا فى ذلك الأمر السماوى الأعظم الذى صدر اليه يوم نزل عليه الروح الأمين فى غار حراء وقال له :

« **اقرأ** » .. ليهدى الناس الى الحق ويخرج بهم من الظلمات الى النور .





«وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا ، وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ، ليشهدوا منافع لهم ، ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام ، فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير ، ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم ، وليطوفوا بالبيت العتيق » ..

(الرسالات الكبرى) (سورة الحج)

اقــرأ

« اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الاكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الانسان مالم يعلم » .

(سورة العلق)

***

وقرأ الصادق الأمين ..

قرأ محمد صلى الله عليه وسلم من الآيات البينات المحكمات ، التى امره الله أن يقرأها على العالمين كافة ليزكيهم ، ويعلمهم ، ويرشدهم ، ويهديهم طريقا مستقيما .

قرأ الرسول الكريم ، كما امره ربه أن يقرأ ، والقراءة جزء رئيسى من رسالته الكبرى ، فهو انما يقرأ ليهدم أسوار الضلال ويزيل سحب الشكوك ، ويبدد الظلمات ، ليعيد النور الذى يغمر القلوب بالايمان ويهديها الى الله ، ومن يهتدى الى الله ، فقد عرف ، وصدق ، وآمن بالفضائل التى أمر بها الحق سبحانه وشرع الدين من اجلها ليسود الناس الحب والسلام .

وقرأ الكامل عليه صلوات الله وسلامه .. وانصتت قريش فى ذهول وعجب .. وراح السفهاء يحرقون الارم غيظا وحقدا ، لأن ما كان يقرأه محمد قد زلزل منهم اليقين ، وجعل الخوف يتسلل الى أعماق النفوس ...

لقد كان القوم يظنون ان الحياة الدنيا ، لهو ولعب ، ومتاع ، فاستباحوا كل محظور ، وأقبلوا على كل خطيئة ، وشربوا حتى ارتووا من الآثام والمعاصى ، وكلهم راغب ان يملأ حياته بالبهجة ، حتى لا تفوته متعة ، ولا تقف دون تصوراته أمنية ، فاذا ما انتهى اجله ، يكون قد ادى رسالته التي تصور انه عاش من أجلها ، فيموت قريرا ناعم البال ..

ولكن محمدا ، اذهلهم ، وهو يقرأ مما أوحي اليه من آيات نورانية لم يسمعوا بها .. تصف هذه الحياة التي كتب على الانسان ان يجتازها

مستشعرا المسئولية نحو نفسه ونحو مجتمعه داعيا للخير مؤمنا بالله ورسله، غير مشرك به ، ليضمن السعادة والراحة والاستقرار فى الدنيا ، والنعيم الأبدى فى الآخرة ..

ان محمدا ليأتى القوم بمالم يتصـوروه ، وانه ليرهبهم بما كان يقرأ ، وما كانوا يسمعون ..

أبدا ما تصورت هذه الأقوام فى جاهليتها ان هناك بعثا ونشورا ، وحسابا وعقابا ومثوبة وحسن جزاء .. ولكن الرسول الصادق ، قرأ عليهم ما أذهلهم وهو يتحدث عن البعث بأسلوب رائع محكم معجز ، وهم من يفوقون شعوب الأرض جميعا بحسن التعبير اللفظى والكتابى وفطنتهم لمواطن الفصـاحة فى الكلام ، وتذوقهم جمال الأسلوب ..

نعم انهم برغم هذا كله ، فقد كان القرآن يستأثر بعقولهم وقلوبهم ، لانه كلام لا كالكلام ، بل له شأن آخر يختلف أشد الاختلاف عما يكتبـه الناشرون وينظمه الشعراء ويقوله الخطباء ، ولهذا أعجزهم أسلوبه وتركيبه — وكان أسطع برهان على صحة دعوة محمد عليه الصلاة والسلام ..

بل ان أصحاب الكتاب انفسهم لم يكونوا على علم بالحياة الأخرى والقيامة كما صورهما القرآن الكريم ..

لقد أمروا أن يعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ، وان يوقنوا ويؤمنوا بالبعث والنشور ، ولكن صلب الشريعة فى أصله ، لم يبين ولم يوضح ماهية ذلك النعيم ، ولا صورة تلك الجنة التى وعد بها المتقون من عباد الله ، وماحوت من حور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون ، ونعيم خالد مقيم ، وولدان مقربين ، وحياة رغدة ميسرة هانئة ..

وكذلك الجحيم .. جهنم التى سيخلد فيهـا الطغاة الكافرون .. انها سقر التى لا تبقى ولا تذر ، لواحة للبشر ، عليها تسعة عشر ..

.. وقول الحق سبحانه وتعالى — لرسوله الكريم فى أول لقاء بين الروح الأمين جبريل ومحمد عليه الصلاة والسلام ..

((اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم ، علم الانسان مالم يعلم)) ..

قول فيه اشعار حق ، بما يعنى الأمر الواجب الطاعة ، ان على الانسان ان يعلم وأن يتعلم ، وان يكون القلم وسيلته وأداته فى طلب العلم النـافع فيدون ويكتب ويستزيد .

وهنا يبدو جلال الأمر ودقته وآية القدرة فى توجيهه وتعيينه وتحديد القلم بالذات على انه وسيلة العلم وجلاء أسراره ، القادرة على نقله من قـوم الى قوم ومن بلد الى بلد ، ومن زمن الى زمن فى أمانة ، وصدق ، واخلاص ، وايمان ..

فالأمر بالايمان بالله الواحد الفرد الصمد ، هو صلب الدعوة ، ولب الدين ، وهو ما جاء أولا فى تكليف الرسل العظام اول ما كلفوا ..

ان ابراهيم عليه السلام قد اوحى اليه ، وامره الله باتباع الحنيفية السمحاء .. وقد جاءه الأمر وحيا وابلغه لقومه مشافهة وجدلا وجهادا .

وموسى عليه السلام جاءه الأمر بالجهاد ، والذهاب الى فرعون وقومه ، بعد ان دله الله على ذاته العظمى ، واشار الى وحدانيته المطلقة ، وانه لا اله الا هو وان عليه ان يعبده وان يقيم الصلاة لذكره

وعيسى عليه السلام نزل عليه ((الانجيل)) على جبل الزيتون من ((جبريل)) مصدقا لتوراة موسى ، ومذكرا الناس بشريعته ومكملا لها ، لرد اليهود الى الأخلاق الكريمة من التسامح والبر بالفقراء وغير ذلك من الفضائل والمعانى الانسانية . ومبشرا بأحمد الرسول ـ اذ معنى ((الانجيل)) ـ البشارة والخبر الحسن (١) ـ فاخبره بما فى التوراة وبشره بالرسول القادم بعده .

والاقرار بالوحدانية أساس الفضائل جميعا ، ومتى اقر الانسان عن صدق بالوحدانية فانه يكون قد أسلم ، ومن اسلم نفسه وذاته الى الله ، كان داعية فضائل وكان مستمسكا بالقيم السامية ، وهو بعد هذا انسان كامل ، لايشرك بالله ، ولا يتجه الى غير سدته العالية ، ولا يسال سواه ، ولا يعتمد على غيره ، ويعمل باوامره ويتجنب نواهيه ..

لقد كان الايمان بالوحدانية ، محور الجهاد ..

ثم كانت آيات المعرفة ، وهى البعث بعد الموت ، وقيام الساعة .. وغير ذلك من أسرار الحياة وما بعدها ..

((يا أيها الناس ان كنتم فى ريب من البعث فانا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة ، لنبين لكم ونقر فى الأرحام ما نشاء الى أجل مسمى ، ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ، ومنكم من يرد الى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا)) .

وكان هذا ما يملأ تفكير رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهداه الله الى حقيقة الوجود ، وارشده الى ما يجب عليه القيام به فى قوله تعالى :

---

(١) مقدمة انجل تولستوى ـ سليم قبعين

« وكذلك اوحينا اليك قرآنا عربيا لتنذر أم القرى ومن حولها ، وتنذر يوم الجمع لاريب فيه ، فريق فى الجنة ، وفريق فى السعير » .

ولقد اسلفنا أن شريعة ابراهيم نزلت عليه وحيا ، وان صحف موسى اتته فى الواح كتبت فيها يد القدرة من كل شىء هديا وبيانا للناس ..

صحف موحى بها .. كانت صحف ابراهيم ..

وصحف خطتها يد القدرة ، كانت شريعة موسى ..

وبشارة الروح الأمين .. كانت انجيل عيسى ..

اما القرآن الكريم .. الشريعة الناسخة لكل ما كان قبلها من شرائع وأحكام وديانات — فقد انزله الله على رسوله الأعظم ، نزل به الروح الأمين « جبريل » فى آيات محكمات هى **« أم الكتاب » !!**

« انه لتنزيل رب العالمين ، نزل به الروح الامين ، على قلبك لتكون من المنذرين » ..

« تبارك الذى أنزل القرآن على عبده ، ليكون للعالمين نذيرا » ..

وواضح من هذا كل الوضوح أن الله قد جعله منذرا للناس كافة ..

فالقلم ، والاشارة اليه فى رسالة الكامل محمد عليه الصلاة والسلام ، هو الايضاح بالتعميم الذى لا يعرف التخصيص ولا التفرقة ، وبان الشريعة التى أمر رسول الله بأن يقرأها على الناس كافة ، انما كانت للناس جميعا .. للناس فى مشارق الأرض ، ومغاربها ، للعالمين قاطبة .. للناس دون فواصل او حواجز أو سدود .

« بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم » !!

لقد كانت الدعوة فى صلبها هى نفس دعوة نوح الى قومه ، وكذلك كانت دعوة هود ، وصالح ، وغيرهم ، ولم تخرج الدعوة عن حدود التخصيص **الا مع ابراهيم عليه السلام** ، اذ بشره الله بانه سيجعله للناس اماما ..

فامامة الناس ، وهبها الله لابراهيم وحده ، ولغير الظالمين من ذريته ..

لهذا .. قصرت هذه الامامة بعد ذلك على ذرية ابراهيم نفسها ، فيعقوب

مثلا ، كان اماما لبنيه ، يرشدهم ويعظهم ويعلمهم ويهديهم ويوصيهم بالأسلام وضرورة اتباعه ..

((وجاهدوا فى الله حق جهاده ، هو اجتباكم ، وما جعل عليكم فى الدين من حرج ، ملة ابيكم ابراهيم ، هو سماكم المسلمين ..))

وتوالى الأسباط .. وكرت الدهور تباعا ، وجاء الميقات الأعظم ، وحانت الساعة ، وبعث الله موسى بدعوته أولا : الى فرعون وقومه لهدف واضح هو ان يؤمن بالله الواحد ويسلم و .. أن يترك أبناء اسرائيل أحرارا كغيرهم من الناس ولا يعذبهم ..

((فاتبعهم فرعون وجنوده بغيا وعدوا ، حتى اذا أدركه الغرق قال : آمنت أنه لا اله الا الذى آمنت به بنو اسرائيل وأنا من المسلمين)) ...

فقد أوجب الاسلام العمل على استخلاص المستضعفين فى الأرض الذين يعيشون تحت سلطان غيرهم اذلاء بدون رضاهم ، واعادة الحرية اليهم ...

ثم .. كان الخروج .. وكانت الآيات ، وكان التكليف ، وكانت الشريعة والألواح المطهرة التى نزلت لهداية بنى اسرائيل ممن كانوا مع موسى ليحملوا فيما بعد هذه الشريعة الى الناس ويعلموهم اياها ..

فالرسالة قبل ابراهيم كانت مخصصة لأقوام معينين .. ثم ، تم تعميمها مع ابراهيم وعينت على أنها للناس فى صورة امامة شاملة هادية .. ولم تلبث بعد ابراهيم ان انحسرت وعادت لتنكمش فى طائفة أو جنس معين ..

اما مع سيد الخلق والرسل اجمعين محمد الصادق عليه الصلاة والسلام فقد وضحت وضوحا كاملا .. كانت عامة .. مطلقة .. شاملة للناس جميعا ، ووسيلة تعميمها كانت القلم ، لأنها فى هذه المرة قد جاءت بكل جديد من الآيات والعلم والموعظة والحكمة ، وما ينفع الناس فى دينهم ودنياهم من المعرفة والهدى والهداية والحق المبين .. كل هذا جاء فى كتابه الكريم :

((كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون)) ..

واشارة الله الى رسوله — ليقرأ باسم ربه الأكرم الذى علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم — أمر فيه التعيين والتوجيه والمستزاد من العلم للعالمين ، والمعرفة لمن لم يصبهم العلم ، ليعرفوا مالم يكونوا يعرفون ويعلمون مالم يكونوا يعلمون ..

كان أهل الكتاب يعرفون الله ، وقد أمروا أن يعبدوه ، وكان غيرهم يعرفي

الحجر والصنم والكواكب والسيارات ، وهو ما أمروا الا يعبدوه .. فالأمر الى محمد بان يقرأ لهؤلاء وهؤلاء ، انما يعنى اشعار الأولين بأن دعوة محمد دعوة صدق وهدى لأنها مصدقة لما معهم ، وللآخرين بأن يصدوا عن الضلال وينصرفوا عن سبله ، ويسيروا فى طريق الهدى ، ويؤمنوا بالله ..

والدعوة هنا .. دعوة تجميع للناس قاطبة على شىء واحد ، هو الايمان بوحدانية الله ووجوده وتفرده وبأنه وحده القادر الأعظم رافع السموات وباسط الأرض الذى لا شريك له فى ملكه ، يسأل ولا يسأل وهو على كل شىء قدير ..

ولكن .. من هم هؤلاء الناس الذين تجمعهم هذه الدعوة ؟ !

هل هم فئة خاصة من الناس ؟ !

لقد أمر الصادق الأمين عليه صلاة الله وسلامه ، أن يدعو العالمين كافة الى دعوته بقوله تعالى :

((وما أرسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا)) ..

ثم .. ((قل يا ايها الناس انى رسول الله اليكم جميعا))

((وأوحى الى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ))

وكان هو أول من دعا أهل الكتاب انفسهم ..

((قل يا اهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم . الا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا اربابا من دون الله ، فان تولوا فقولوا اشهدوا بانا مسلمون)) ..

فالدعوة كانت هديا للكافرين عبدة الصنم ، ولأهل الكتاب ممن أضلهم من زيفوا الشريعة وبدلوا فيها وحوروا ، لأن كتاب الله الذى أنزله على خاتم النبيين ، كان الجامع المانع الذى لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ..

وشريعة اهل الكتاب بصنفيهم من يهود ونصارى ، كانت تجمع على شىء واحد هو وحدانية الله ، ثم ما لبثت أن عدت عليها الادخالات والتصورات وشطحات التحيز والتحزب لشخوص معينة ، فاذا بالواحد له ولد ، واذا به قد تخير صاحبة وشريكا له فى ملكه وهذا كفر وضلال وخروج على الشريعة وتجديف على الذات :

((قل هو الله احد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا احد)) !

فالله الواحد ، الفرد الصمد لايشابه الحوادث وليس كمثله شىء وهو السميع البصير والايمان بغير هذا هو الكفر الصراح ، والدعوة الى تنقية هذه

الوحدانية من شوائبها كانت لب رسالة محمد ، فهى دعوة تنقية للشريعة الكبرى ، ورد المؤمنين بها عن الزيغ والضلال الى حقيقة الوجود واصل الكتاب ثم جمع الناس كلهم بعد ذلك على الكفر بكل معبود غير الله الذى خلق فسوى ، والذى قدر فهدى ، والذى أخرج المرعى ، فجعله غثاء أحوى

والعلم بالقلم اذا .. هو ارشاد اهل الكتاب الى الحقيقة التى زيفها أصحاب الكهانات والأحبار ، ثم تجميع البشرية على الايمان بالحنيفية والأسلام دين الفطرة .

« ان الدين عند الله الاسلام ، وما اختلف الذين أوتوا الكتاب الا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم » .

« فان حاجوك فقل اسلمت وجهى لله ومن اتبعنى ، وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم ، فان أسلموا فقد اهتدوا ، وان تولوا ، فانما عليك البلاغ ، والله بصير بالعباد » .

والعلم بالقلم بعد هذا ، هو السير قدما وراء العلم ، ووراء ما سوف يدونه القلم من آيات مطهرات بينات كلف الرسول الأمين بأن يقرأها على الناس :

« سنقرئك فلا تنسى » ..

فالدعوة أولا .. دعوة اقرار بالوحدانية يجب أن يؤمن بها الناس كافة .. اهل كتاب وعبدة صنم أو نار أو كواكب ، فاذا ماتم هذا ، وانتظم الناس جميعا دين الوحدانية المطلقة المنزهة عن المشاركة ـ اتجهوا الى قبلة واحدة ، وتوحدت آراؤهم وشتى معتقداتهم ، وأمكن توجيههم الى حيث أراد لهم الله أن يتجهوا .. الى العلم ..

الى المعرفة الكاملة الخالصة من الشوائب .

الى التطلع فى ملكوت السموات والأرض ليروا آيات القدرة فيسبحوا بحمد الله فى الاصائل والابكار .

الى التفكير فيما حولهم من عجائب وكائنات خلقها الله كلها ، وسخرها للناس ، ليذكروا الله ، ويتجهوا اليه بالحمد ويقروا بالنعم ..

ثم يتعلموا .. وبالقلم .. ما لم يكن لهم به علم ولا لآبائهم من قبل ..

لقد علم الله عباده أسرار كونه وخلقه فى يسر وسهولة ، ودون تعقيد ، فبدأ يعلمهم حقائق انفسهم وراح محمد عليه الصلاة والسلام يقرأ الآيات البينات وفيها من كل شىء كانوا يجهلونه ليعرفوا ..

وعرف الانسان ـ وهو اكمل وافضل مخلوقات الله ـ مم خلق .. وأطوار خليقته هذه .. عرف انه ، وهو ذلك الكائن العظيم المسيطر ؟

المتجبر ، انما خلق من صلصال من حمأ مسنون .. وتلك كانت خلقة آدم عليه السلام .. ومن آدم .. خلق حواء **((انا خلقناكم من نفس واحدة)) .**

ثم بدأت نظرية الخليقة العلمية المعروفة تكتمل وقد وجد آدم ووجدت الى جانبه حواء ، فكانت النطفة ثم العلقة ، ثم سائر التطورات التى يتشكل بها الجنين حتى يكمل فيكون عظاما يكسوها الله لحما ، فتبارك الخلاق العظيم ..

وهكذا .. وبالعلم وحده .. وبالقلم عن طريق العلم — عرف الانسان حقيقة وجوده وأصل الأجناس قاطبة ..

((يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ..)) .

ومعرفة الانسان لنفسه عن طريق الدين ، دعوة الى الايمان بالقادر الذى خلق ، فهذه الحقائق لم يوح بها الى محمد ليقرأها على الناس لمجرد القراءة والعلم .. بل للتفكير والتدبير ، والاتجاه الى القدرة التى أوجدت من عدم ، ووهبت الحياة ، وأخرجت الحى من الميت فكانت الحياة وكان الوجود ، وأخرجت الميت من الحى وتلك كانت العبرة لمن يعتبر ..

((يخرج الحى من الميت ، ويخرج الميت من الحى)) !!

((يولج الليل فى النهار ، ويولج النهار فى الليل)) !!

والانسان حين يعرف نفسه ، يرجع بالفكر الى خالقه ، ويملأ قلبه بحبه وذكره ، فهو المتفضل الوهاب .. وعليه أن يكون الشكور الذاكر لأنعم الله ، فلا اله غيره ، ولا معبود سواه ، **((فهو الأول والآخر والظاهر والباطن)) ..**

هو عين ما ظهر وما بطن ، ليس فى الوجود من يراه غيره ، وليس فى الوجود شىء باطن عنه ، فهو الظاهر لنفسه ، والباطن عن نفسه ..

((اذ لا يصح أن يعرف من علم التوحيد الا نفى ما يوجد فى سواه سبحانه ، ولهذا قال تعالى فى كتابه الكريم **((ليس كمثله شىء))** و **((سبحان ربك رب العزة عما يصفون)) ..** فالعلم بالسلب هو العلم بالله تعالى)) (١) .

..وأدهش الانسان وحيره .. أمر البعث بعد الموت ، والحساب والثواب والجنة والنار ... وأبى عقله أن يتصور البعث بعد الموت ، وراح يقبل على الحياة بكل ما يملك حتى يستمتع بما يصبو اليه من رغبة ومطامع وشهوات ، وأبى أن يفكر فى النهاية وسرها الغامض ، وظنها مجرد فناء وطريق الى العدم .. فلا حساب ولا عقاب ولا عودة الى الله ..

---

(١) الفتوحات — جزء أول

من أجل هذا .. كان التذكير بالبعث ـ بعد أن علم الله الانسان حقيقته ، ليعرف أن الذى خلق فسوى قادر على أن يرد الحياة وأن يخلق من جديد : **((أو لم يروا كيف يبدىء الله الخلق ثم يعيده ، ان ذلك على الله يسير ، قل سيرو فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ، ثم الله ينشىء النشاة الآخرة)) ..**

وهذا هو الفيصل .. ان الذى خلق قادر على أن يخلق ، وأن الذى يحيى هو الذى يميت وهو الذى يبعث ويثيب ويعاقب ، وان على الانسان أن يؤمن بذلك ، فاذا آمن به ، عرف الله ربه ، ومتى عرف الله ربه آمن بما يدعو اليه الله ، وما أمر به من فضائل وحسنات وخير عميم ..

ولكن الانسان غوى ، وضل وتعالى وتجبر ، واصر على أن يتناسى هذه الحقائق ، فأرسل اليه رسوله بالهدى ، وبآيات خلق اعجازية أخرى غير آية خلقه هو ..

((خلق الانسان من نطفة فاذا هو خصيم مبين)) !!

وقرأ محمد .. قرأ محمد آيات الاعجاز الكبرى فاذا هى اشارة الى خلق عظائم وآيات ناطقات بالقدرة .. **((هو الذى خلق لكم مافى الأرض جميعا))** .. كما انه تعالى سخر للانســان كل ما فى الـكون .. السماء والأرض وما بينهما .. **((الم تر أن الله ســخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة)) ..**

والشمس .. الشمس التى اتجه اليها أقوام بالضراعات والســؤال ، وعبدوها وقدسوها .. هذه الشمس من خلقها ، من أوجدها .. من حدد لهــا مسيرتها فى السموات ومن كتب لهــا ميقات الشروق ومن عين موعـد الغروب .

والقمر .. القمر الذى سجدت له طوائف من الناس .. من أوجده .. ومن جعله يحل مكان الشمس ويظهر بدلا منها فى وقت معين ، من الذى قدر منازله ، ومن الذى ربط بين ظهوره وبين مواقيت للناس كى يهتدوا بها ..

ومن الذى حدد له ظهوره هلالا دقيقا مع أول الشهر ثم يعظم حتى يستوى ويستدير ويصير قمرا ...

((ويسالونك عن الأهلة قل : هى مواقيت للناس والحج)) ..

والكواكب .. والنجوم .. وتلك المجموعات السابحة فى فضاء الكون ..

هذه الآيات الظاهرات .. من صاحبها .. من خالقها !! ومسيرها ..

انه هو .. هو الله .. القادر .. **((هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ، ما خلق الله ذلك الا**

بالحق .. » ، « وجعلنا الليل والنهار آيتين ، فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة ، لتبتغوا فضلا من ربكم ، ولتعلموا عدد السنين والحساب ، وكل شيء فصلناه تفصيلا » ..

وهو الله .. الذى ما خلق الجن والانس الا ليعبدوه سبحانه عما يشركون

لم يقرأ محمد هذا فقط مما انزله الله عليه بل عدد أنعم الله وفضله ، وذكر للناس منها الشيء الكثير ..

« افلا ينظرون الى الابل كيف خلقت ، والى السماء كيف رفعت .. والى الجبال كيف نصبت ، والى الأرض كيف سطحت .. » .

وقال الله تعالى وقال ..

وقرأ محمد وقرأ ، واذهل الناس بالحقائق والآيات ولكن .. هل آمن كل الناس !!

لقد كانت دعوة محمد عليه الصلاة والسلام دعوة علم .. والعلم نور .. ودعوة معرفة .. والمعرفة هداية وهدى ..

« قل هل يستوى الذين يعلمون ، والذين لا يعلمون » !!

فمحمد عليه الصلاة والسلام ، لم يدع الى عبـادة الله فقط ، والايمان بوحدانيته فحسب ، بل دعا الى التفكر والتدبر فى ملكوت السموات والأرض، فدعوته دعوة علم واقناع والزام الناس جميعا بالحجة .

والشرائع التى سبقت عصر محمد ، كانت كما أسلفنا دعـــوات هداية للناس كى يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئا ، ولكن دعوة محمد تفردت وحدها بالاقناع وعرض آيات خلق الله ليتدبرها الانسان ثم يجعلها موضـــع تفكيره ليبحث ويدقق ويعلم ويتعلم ، وهذه أمور لم يسبق محمدا اليها رسول من قبل ، وتفرد بها صلى الله عليه وسلم ، ليعلم الناس جميعا ، وفيهم أهل الكتاب أن هذه الدعوة .. انما هى دعوة الحق .. وانها للعالمين كافة وانها دعوة منطق وحق صراح ، وتحريض على المعرفة ، والتمسك بالقلم ، لكى يعلم الانسان ما أراد له الله أن يعلمـــه وان يعلمـــه سبحانه وتعالى **« مالم يعلم »** من معارف واسرار الكون والخليقة وأصول الأجناس ..

« الم تر أن الله انزل من السماء ماء فاخرجنا به ثمرات مختلفا الوانها ، ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف الوانها وغرابيب سود ، ومن الناس والدواب والأنعام مختلف الوانه كذلك انما يخشى الله من عباده العلماء ، ان الله عزيز غفور » ..

وكما حصر فى العلماء كمال الخشية الواجبة له تعالى ، حصر فيهم أيضا كمال العقل ، وصحة الفهم ، وضرب بهم الأمثال فى محكم آياته :

« وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون » ..

أما من بالغ فى خشية الله الى حد الزهد فى الحياة وبغضها وهى من أنعم الله عليه ، فهو كافر بأنعمه ، غير واع لأوامره تعالى وحسن توجيه رسوله ، والشاعر الصوفى الزاهد الذى قال :

« لبست ثوب العيش لم استشر ، وحرت فيه بين شتى الفكر ، وسوف انضو الثوب عنى ولم ، ادرك لماذا جئت ، اين المفر .. » !!

انه لاشك مجدف ، متطاول مجترىء ، ليس لأصحاب الأهواء ، أو واضعى طبقات المتصوفة ان يقولوا عنه قد بلغ مرتبة « الخلة » لأنه هنا لاينسى نفسه فى الذات العظمى ، بل يتطاول فيجرؤ على مناقشة أسرار الخليقة ذاتها ..

ان الحياة ارادة مقررة فرضها الله الحق على عباده ، وليس لبشرى مهما كانت صفته أو قيمته أو قربه ، أو تعبده ، أن يستشار فى وجوده ، أو كينونته . وليس من حقه ان يسأل لماذا خلق ؟ !

لأن الخالق جل وعلا قدر عليه الحياة ، ورسم له طريقه فيها ، وأوضح رسالته ، وهى الايمان بالله ، وعبادته والاقرار بربوبيته تبارك وتعالى ، وانه واحد لاعن قلة ، أول بلا بداية ، وآخر بلا نهاية ، يبدأ الخلق ثم يعيده وهو على كل شىء قدير .

« وربك يخلق مايشاء ، ويختار ، ما كان لهم الخيرة ، سبحان الله وتعالى عما يشركون » !!

فالمخلوق العاجز . المفروضة حياته ، المقرر وجوده — ليس له الخيرة فى أمره ، وليس له أن يحار مادامت قد حددت اهداف الوجود .. ثم ليس له بعد هذا أن يقول إنه سوف ينضو ثوب الحياة عنه وهو حائر لا يدرك سر وجوده .. فكما أن الحياة فريضة مقررة ، فنضو ثوبها ، والخروج عن محيطها الدائب الى عالم الكون والصمت والموات سر من أسرار الخليقة ، لا يعرفه غير الخالق سبحانه ، وهو سر معين الميقات والساعة : « **فاذا جاء اجلهم ، لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ..** » .

وان كان القرآن الكريم — قد أطال القول فى وصف الدنيا وذمها وتحقيرها ، وقضى بأنها لهو ولعب ، وانها فى نضارتها ليست الا متاع الغرور — كقوله تعالى :

« اعلموا أن الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد ، كمثل غيث اعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ، ثم يكون حطاما » — فليس معنى هذا أن يفر الانسان من الحياة التى فرضت عليه واختيرت له ، وكما تأثر بالتحذير من المبالغة فى الاستسلام لمتاعها

وزخرفها ، عليه أن يعى ما جاء ، مقابلا لهذا فى الآيات الكريمة الأخرى والتى تحسن توجيهه فى الحياة الدنيا والآخرة ، مثل قوله تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ، ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين ، وكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا . واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون » ..

و « قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق » ؟ !

وانه تعالى يوضح ما حرمه على عباده فى قوله تعالى :

« قل انما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن . والاثم والبغى بغير الحق ، وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا ، وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون» ..

وضرب له أمثلة كثيرة للنصح والارشاد منها :

« انما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الارض مما يأكل الناس والأنعام حتى اذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها ، أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس » (١) .

وفى الحديث الشريف :

« ما الدنيا فى الآخرة الا مثل ما يجعل أحدكم أصبعه فى اليم ، فلينظر بماذا يرجع » !

روى طلحة بن عبيد الله قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب على منبره يقول :

« الا أيها الناس ، توبوا الى ربكم قبل أن تموتوا ، وبادروا بالأعمال الصالحة قبل أن تشغلوا ، وصلوا الذى بينكم وبين ربكم بكثرة ذكركم له وكثرة الصدقة فى السر والعلانية ــ ترزقوا وتؤجروا وتنصروا .

وقال أيضا :

« أيها الناس ، ان لكم معالم ، فانتبهوا الى معالمكم ، وان لكم نهاية ، فانتبهوا الى نهايتكم .

---

(١) سورة يونس

ان للمؤمنين مخافتين : بين أجل قد مضى ، ولايدرى ما الله صانع فيه ، وبين اجل قد بقى ، لا يدرى ما الله تعالى قاض عليه فيه .

فلياخذ العبد لنفسه من نفسه ومن دنياه لآخرته ، ومن الشبيبة قبل الكبر ، ومن الحياة قبل الموت .

والذى نفس محمد بيده : ما بعد الموت من مستعتب ، ولا بعد الدنيا دار الا الجنة أو النار » .

وقال أيضا :

« من كان همه الآخرة : جمع الله شمله ، وجعل غناه فى قلبه ، وأتته الدنيا وهى راغمة .

ومن كان همه الدنيا : فرق الله أمره ، وجعل فقره بين عينيه ، ولم ياته من الدنيا الا ما كتب له » .

وعيسى عليه السلام قال للحوارين :

« يا معشر الحواريين .. أيكم يستطيع ان يبنى على موج البحر دارا ؟

قالوا : ياروح الله ، ومن يقدر على ذلك ..

قال : « اياكم والدنيا فلا تتخذوها قرارا » .

وقال : « الدنيا قنطرة فاعبروها ولا تعمروها » (١)

وقال ابن القيم : « ومثلت الدنيا بمنام ، والعيش فيها بالحلم والموت باليقظة .. ومثلت بمزرعة ، والعمل فيها بالبذر ، والحصاد يوم المعاد .. ومثلت بدار لها بابان ، باب يدخل منه الناس وباب يخرجون منه ، ومثلت بحية ناعمة الملمس ، حسنة اللون ، وضربتها الموت .. ومثلت بطعام مسموم ، لذيذ الطعم ، طيب الرائحة ، من تناول منه بقدر حاجته كان فيه شفاؤه ، ومن زاد على حاجته كان فيه حتفه » (٢)

ولقد ورد على السنة الكثيرين ذم الدنيا وتحقير شأنها حتى أعرض الكثيرون عن الاستمتاع بالحياة وانحازوا الى العبادة منقطعين عن كل وسائل اللهو البرىء ، أو المتعة المفروضة مرددين قوله تعالى : « وما الحياة الدنيا الا متاع الغرور » و « وما الحياة الدنيا الا لهو ولعب » و « وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون » ..

وتعقدت النفوس الجاهلة ، وغمرها الزهد وضعفت الهمم ، وأصبحت فى خمول وغيبوبة نفسية وعقلية ، لزعمها الخاطىء أن الدين القوى هو مجانبة أفراح الحياة ومباهجها ، وحرمانها ، متع الحياة والعزوف عن الدنيا وما فيها من نعم وخيرات فنشأ فيهم جيل مضطرب استسلم فى ضعف واستكانة الى العبادة الخالصة الخالية من كل ما يبهج النفس ، وهو مالا يذكره الله فى كتابه الكريم ، وما لم يطالب به المؤمنين ..

« ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم .. » .

وما كان هذا الا بدعة ابتدعها البعض وكانوا فيها مغالين كل الغلو

(١) عدة الصابرين ص ١٤٥ ، (٢) عدة الصابرين ص ٣١٦ .

مشوهين لجمال الحياة معطلين قوى التفكير مبددين طاقات البشر فى الاستفادة بما خلقه الله للناس جميعا .. ويكفى وصفه تعالى لها بأنها بدعة لتعطيها معنى التحريم أو الكراهية ، فالله تعالى ينكر الرهبنة على خلقه ، ويقول لهم :

« .. والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا ، وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ، ورزقكم من الطيبات » ، « المال والبنون زينة الحياة الدنيا » ...

فالحياة على هذا الكوكب أمر قرره تعالى وفسره وحدد علاقة الانسان وفق قانون وضعه له على ان لا يخرج عليه ..

وكان القانون هو « **الهدى** » .. والهدى هو « **الدين** » .. هو «**الشريعة**» الواجبة الاتباع ليسلم الانسان ويكون له الرضوان فى الدنيا والآخرة ، لأنه ان اتبع سبيل الدين ، وعمل بالشريعة ، فلا خوف عليه ، وهو بعد هذا لن يحزن أبدا ، لأنه سوف يعطى الحياة الدنيا حقها ، والآخرة نصيبها ..

« وابتغ فيما اتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا ، واحسن كما أحسن الله اليك ، ولا تبغ الفساد فى الأرض ، ان الله لايحب المفسدين » .

ولقد جعل الله للحياة الدنيا قواعد وأصولا .. وجعل للحياة قانونا .. وكتابا .. وعهدا .. وأوامر محددة ، على الانسان أن يسير وفق خطوطها المعينة ، وان لا يخرج على قواعدها ..

وان فى حياة الرسل والهداة والتابعين لمثال واضح لحياة رجال زهدوا فى الدنيا ولكنهم لم يهجروها ، وعبدوا الله ولكنهم لم ينقطعوا اليه ...

« .. فمن الناس من يقول ربنا آتنا فى الدنيا وما له فى الآخرة من خلاق ، ومنهم من يقول ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار » ..

فالانسان لم يأت بارادته ، أو مشورته ، ولم يسر بعد ذلك فى الحياة عبثا ، بل هو مكلف ، مأمور ، عليه الطاعة واجبة ، وأقل تقصير منه فى القيام بواجبات حياته المقررة يعتبر خروجا على التكليف وعصيانا للارادة الكبرى التى أوجدته ، وفرضت عليه أول ما فرضت أن يحيا ليعبد الله القادر ويسبح بحمده ويقر لجلاله بالخضوع ، والطاعة لاوامره ..

فالطاعة .. أول تكليف حمله الانسان منذ الأزل .. واول أمر ربانى نزل على البشر ..

« وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين » ..

« **ولا تقربا هذه الشجرة** » .. كان هذا هو الأمر الأول .. والتكليف الاسمى ، الذى عجز آدم عن حمله ، وكل دون تنفيذه وصعب عليه أن يرتبط وزوجه بحدوده المعينة ... « **فأزلهما الشيطان عنها ، فأخرجهما مما كانا فيه ، وقلنا : اهبطوا بعضكم لبعض عدو ، ولكم فى الأرض مستقر ومتاع الى حين** » .. فكانت المعصية وكان العقاب ثم .. كانت التوبة ، وكانت رحمة الله ..

****
****



« المدينة المنورة » .. مدينة رسول الله .. المنورة بدينه ، المشرقة بدعوته ، المعتزة برسالته ..

« الا تنصروه فقد نصره الله ، اذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين اذ هما فى الغار ، اذ يقول لصاحبه لا تحزن أن الله معنا ، فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها ، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى ، وكلمة الله هى العليا ، والله عزيز حكيم » (سورة التوبة)

رسول الهدى

((انا أوحينا اليك كما أوحينا الى نوح والنبيين من بعده ، واوحينا الى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والأسباط ، وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبورا ، ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك ، وكلم الله موسى تكليما ، رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزا حكيما)) .

(سورة النساء)

* * *

يوم تلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه ـ انما كانت هـذه الكلمات ، هى العهد الأعظم .. هى الميثاق الخالد .. هى الدين القيم .. هى الأمر بطاعة الله وعبادته حق العبادة ..

والعهد الأعظم هو الاسلام ..

وقد فرض الاسلام على البشرية جمعاء قبل ان يخلق الله الأرض والسماء والكواكب كلها ..

والاسلام فريضة مقررة ، لأنه الأمر الخالد للناس بان يشهدوا للخـالق سبحانه وتعالى بالربوبية ويقروا له بالوحدانية المطلقة ، ويطيعوه ولايعصوه .

فالاسلام اذا ، فريضة كتبت على الناس جميعا ، فهو العقيدة ، وهو الدين وهو الطريق الى رضوان الحق وطلب بره ورضاه ..

وهو بعد آدم .. محور الوجود ، ورسـالة الرسـل الكرام كلهم الى الناس ، حتى لا يضلوا ولا يعصوا ولا يتنكبوا سواء السبيل ، وهو الهدى الذى اقره الله وارتضاه لخلقه شريعة ومنهاجا ، وهدى الله ميسر لمن يجاهدون فى سبيله **((والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ..))**

((والانسـان ـ باعتبار ما ـ من الارض ، فهـو ارضى ومخلوق غير مستقل ، الا ان روح الله التى نفخت فيه تفصله عن سـائر المخلوقات غير المستقلة ، وتفضله عليها ، وتهب له علاقة فريدة بخالقه . انه كائن قادر على السلوك العقلى ، والحكم على الأشياء ، والتقرير الادارى ، والاختيار الأخلاقى ، والقرآن يدعم هذه الحقيقة الروحية بتقريره ان الله قد خلق الانسان ليكون وكيله أو خليفته فى الأرض . وقد اقيم الانسـان على الأرض ليسيطر على

سائر المخلوقات التى جعلت خاضعة لارادته .. فهـو يدرك أعماله ، ويزن عواقبها بعقله ، ويقوم بها بدافع من نفسه ..

فلو لم يكن الانسان حرا ما ارتكب الخطيئة ، ولو لم يكن حرا ما ساغ ان يحمل الأمانة ! !

((انا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال ، فابين أن يحملنها ، واشفقن منها ، وحملها الانسان انه كان ظلوما جهولا)) ..

فقـد عرض الله على جميع مخلوقاته مسئولية المحافظة على الايمان ، وادارة العالم باسم الله ، فقبل الانسان أن يحمل هذا العبء ، على حين رفضته سائر المخلوقات خوفا واشفاقا ..

ومع ان الانسـان لم يرع ذلك الايمان ، ولم يدر العالم ادارة رشيدة وسلك مسلك الظلم والجهل — فان فى هذا سر عظمته وخطيئته جميعا .

والله يرشد الانسان عن طريق الرسل — الى مبادىء اخلاقيـة عامـة منبعثة عن ارادته الأبدية المقدسة ، الا ان فى الانسان قـوة كامنة ، اذ أن فى استطاعته أن يتقبل هدى الله ، أو يتحول عنه . وهو مسئول امام الله عـن أفكاره وأحكامه وأعماله .. (١)

((ومن احسن قولا ممن دعا الى الله وعمل صالحا وقال : انني من المسلمين)) ..

فبالاسـلام امر آدم .. وباتباعـه .. امـرت ذريتـه .. وبه جاءت الرسالات ..

والرسالات اذا .. سلسلة متصلة الحلقات لها بداية وهى :

التبليغ والجهاد ، ولها ختام وهو : **ارساء الشريعة واتمام الكتاب ..**

وقد بدات الرسالة مع آدم وبه ، وتتابعت على الكرام المختارين من بنيه ، نوح وهود وادريس وصالح وغيرهم .. ثم ابراهيم وذريته .. حتى انتهت عند خاتم النبيين وامام الرسل جميعا سيدنا محمد عليه أفضل صلاة وأتم سلام ..

فالاسلام عقيدة بوحدانية الخالق ، وايمان برسالة محمد الى الناس كافة ..

ورسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، هى خاتمة الرسالات ، وشريعته هى ((أم الكتاب)) ودينه هو العهد الأعظم بين الله ورسله وخلقه ، والكتاب

---

(١) الثقافة الاسلامية — هارولد . ب . سمث

الذى نزل عليه هو الحق ، الجامع المانع ، الذى لم تفته شاردة ولا واردة فى دعوات الرسل ، ورسالاتهم الكبرى ، فهو صحف ابراهيم ، وألواح موسى ، والناموس المستقيم الذى صححه عيسى ..

ورسالة سيدنا رسول الله محمد عليه الصلاة والسلام هى رسالة ابراهيم .. ركيزة الرسالات التى بعثه الله بها الى الناس يوم جعله اماما لهم يهديهم اليه جل وعلا ، فهى الحنيفية السمحاء ..

ورسالة افضل الخلق أجمعين فى تتبعنا لها ومرورنا بادوارها وأطوارها ـ نجدها صورة طبق الأصل من دعوة ابراهيم وحياة ابراهيم .. هداه الله اليه ، ثم .. أراه ملكوت السموات والأرض ، فضرب بعلمه اللدنى دعوة اصحاب الكواكب ، والسيارات ، ثم أراه الله بعد ذلك آيات البعث وكيف يحيى الله الموتى ، ليزداد قلبه اطمئنانا ثم .. اعطاه الحجة على قومه ، فنادى اول ما نادى بتحطيم الصنم والكفران به ..

وهكذا .. ووفق هذا التسلسل كانت رسالة خاتم النبيين عليه الصلاة والسلام ، محمد المختار من صفوة الخلق ، ليهدى الناس الى الله ، ويخرج بهم من الظلمات الى النور ..

ونادى محمد بالوحدانية .. وكفر باللات والعزى ومناة ، وكبر باسم الله الحق ، فاهتزت جوانب الدنيا ، وثار الكافرون ثم .. ذعر اهل الكتاب !!

أجل .. ذعر أهل الكتاب حينما سمعوا بخروج محمد ، الذى بشروا به فى كتابهم الأول ، وفى نبوات السيد المسيح من بعد ذلك ..

((وما تفرق الذين أوتوا الكتاب الا من بعد ما جاءتهم البينة)) ..

والبينة هنا .. هى دعوة الاسلام .. دعوة الحق التى جاء بها محمد عليه الصلاة والسلام وهى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وشهادة ان لا اله الا الله وحده لاشريك له ، وانه سبحانه وتعالى أرسل الرسل جميعا بالحق والهدى والنور ليهدوا الناس الى سبيله ..

وبهذه البينة السمحاء جاء محمد .. مجددا لدعوة ابراهيم عليه السلام فانكر أهل الكتاب ـ بعد الكفار ـ دعوته ، وما جاء الا بما كانوا يحملون ، وما سبق ان أمروا به ..

((وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة)) ..

فالايمان بدعوة محمد ورسالته صلى الله عليه وسلم **فرض مقرر على أهل الكتاب** انفسهم والا فهم كافرون ، عصاة ، لهم الخزى فى الحياة الدنيا ولهم فى الآخرة جهنم وعذاب الحريق ..

« ان الذين كفروا من اهل الكتاب والمشركين فى نار جهنم خالدين فيها ، أولئك هم شر البرية » ..

وعبدة الصنم الذين كذبوا محمدا عليه الصلاة والسلام وعارضوه ، وسفهوا رسالته ؛ وقالوا فيه ما قالوا ـ يعدلون فى وزرهم ، كفران أهل الكتاب بدعوة الرسول الكريم .

واذا كانت قريش وغيرها من القبائل . لم يأتها نبأ بعث محمد ودعوته الجليلة العامة لأنه لم يكن لهم كتاب ـ فان أهل الكتاب وزرهم عظيم ، لأنهم عرفوا محمدا ودرسوا صفاته ، وكانوا يترقبون بعثه ، ليؤمنوا به .. لا ليكونوا أول الكافرين برسالته كفرا خرج بهم الى مصاف الكافرين ، الذين عصوا ما أمروا باتباعه ، وهو الاقرار بالوحدانية ثم .. الآيات البينات التى هى ام الكتاب . التى ستحلل لهم بعض ما حرم عليهم ، وتنقى الشريعة الكبرى مما علق بها من شوائب ، وما عدا عليها به أهل الزيغ والضلالات ، من تحريف الكلم والخروج به عن معناه الأصيل .

فدعوة محمد اذا .. هى ام الدعوات ، ورسالته هى أم الرسالات ، واصلها واعظمها واعمها ، لأنها لم تخص فئة دون فئة ، ولا قوما دون قوم ، بل جاءت للعالمين كافة ، تدعوهم الى التوحيد والوحدة فى الايمان ، لتسود الناس قاطبة شريعة واحدة ، ودين واحد ، وليتجهوا كلهم الى قبلة واحدة .. والى بيت واحد هو اول بيت وضع للناس مباركا ، ليكون لهم مثابة وامنا وملاذا ، ومتجها ، وهو البيت الحرام الذى اقامه ابراهيم عليه السلام .

تلك كانت دعوة محمد .. وذلكم كان التكليف العام الذى جاء به سيدنا رسول الله للعالمين كافة ..

الاقرار اولا ، وقبل كل شيء بالوحدانية ..

والاقرار بالوحدانية المنزهة ، الخالصة من كل شوائب الشرك والضلالات ـ امر تستتبعه مستلزمات كان التوحيد اساسها ، وهى بعد ذلك لها مكملاته الضرورية ..

فالاقرار بالوحدانية ، اى شهادة انه لا اله الا الله ـ ايمان مطلق غير محدد ايمان بالله وكتبه ورسله .

والايمان .. هو اليقين ، وهو القرب ، وهو المعرفة الحقة للذات القادرة ، وهو بعد هذا الطاعة للخالق ، استجلابا لرضاه ، ودفعا لغضبه .

ثم .. الطاعة ..

والطاعة هي الخوف الذي لاتشوبه رهبة ، بل يمثله الحب الكامل الذي يجعل المحب يحرص على ارضاء حبيبه ، الارضاء التام ليفوز منه بكل مايتمنى وما يشاء ..

والحب ولاء .. فيه أسمى آيات التقدير والتقديس والاحترام ..

فالانسان مكلف بالطاعة ، والاقرار بالوحدانية وشهادة لا اله الا الله ، ثم حب الله وخشيته ، خشية حب ، وحرص على ارضاء الحبيب . فالحب والخشية هنا هما : الدافع لالتزام الحدود ، والعمل بالأوامر .. ثم هما الدرع الواقي من الزلل ، أو الاقتراب من حدود ما يغضب أو يثير الحبيب ..

وقوله تعالى في كتابه الكريم :

((يا أيها الذين آمنوا ، من يرتد منكم عن دينه فسوف ياتى الله بقوم يحبهم ويحبونه)) ، ((قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله)) ، ((من الناس من يتخذ من دون الله اندادا ، يحبونهم كحب الله ، والذين آمنوا اشد حبا لله)) ..

وقد روى عن رسول الله انه قال : **((من احب الله فليحبني ، ومن احبني فليحب اصحابي ، ومن احب اصحابي فليحب القرآن ، ومن احب القرآن فليحب المساجد فانها ابنية اذن الله تعالى برفعها وتطهيرها وبارك فيها فهى ميمونة ، ميمون اهلها فهم في صلاتهم والله تعالى في حوائجهم ، وهم في مساجدهم والله تعالى نجح مقاصدهم)) ..**

فحب الله .. وشهادة لا اله الا الله ومخافته ، والعمل على ارضائه ، هى أسمى الفضائل .. فالحب أساس كل عبادة .

((وعند الصوفية من يقسم بقدسية ((الهوى)) كاسم من أسماء الله ، ويرى البعض أن الهوى السارى في جميع مراتب الوجود ، هو المعبود في جميع صوره ، هو علة الحب في جزئياته واشكاله وانه لولا وجوده وتجليه في صور المعبودات وفي قلوب العابدين ما عبد معبود ولا وجد عابد)) !! (١)

وانه يقول عن سلطان الهوى على قلب العابد :

وحقّ الهوى ان الهوى سبب الهوى

ولولا الهوى في القلب ما عبد الهوى

---

(١) فصوص الحكم — محيى الدين بن عربى .

وأما من أحب الله لذاته ، بغض النظر عن رجاء جنته ، أو خشية عقابه ، فهذا هو اسمى انواع الحب واخلدها ، وقد رأى جماعة الصوفية أن يجردوا الحب من الصفة النفعية فيجعلوه خالصا لذات الله ، واشهر من عرفوا بهذا اللون من الحب الخالص هى ((**رابعة العدوية**)) التى افردت لها مؤلفا خاصا بها (١) .

ومن كلماتها :

((الهى . ان كنت اعبدك خوفا من نارك ، فاحرقنى بنارك .

((وان كنت اعبدك طمعا فى جنتك ، فاحرمنى منها .

((فاما اذا كنت اعبدك لذاتك ، فلا تحجب عنى جمالك الأبدى)) ..

وكانت رابعة العدوية من أشهر من عرفوا بالحب وهى التى تقول :

احبك حبين .. حب الهوى — وحب لأنك اهل لذاكا
فاما الذى هو حب الهوى — فشغلى بذكرك عمن سواكا
واما الذى انت اهل له — فكشفك لى الحجب حتى اراكا
فلا الحمد فى ذا ولا ذاك لى — ولكن لك الحمد فى ذا وذاكا

و ((**الحسين بن منصور الحلاج**)) الذى احب الله الى حد الفناء وقصته قصة محزنة فهو يشبه المسيح عيسى بن مريم من نواحى كثيرة ، منها كثرة السياحات ، وقوة التنسك ، وكثرة الاتباع .

ومن كلماته :

انا من اهوى ومن أهوى انا — نحن روحان حللنا بدنا
فاذا ابصرتنى أبصرته — واذا أبصرته أبصرتنا

وعندما اتوا به ليصلب لقوله ((**انا الحق**)) — ورأى الخشبة والمسامير راح يدعو ربه :

((وهؤلاء عبادك اجتمعوا لقتلى تعصبا لدينك وتقربا اليك ، فاغفر لهم ، فانك لو كشفت لهم ما كشفت لى لما فعلوا ما فعلوا ، ولو سترت عنى ماسترت عنهم ، لما ابتليت بما ابتليت ، فلك الحمد فيما تفعل ، ولك الحمد فيما تريد)) ..

ومن أشهر من تكلموا فى الحب ((**سمنون**)) الذى سموه ((**سمنون الحب**)) ..

---

(١) طالع « عروس الزهد رابعة العدوية » سنية قراعة

ومنهم ايضا « **ذو النون** » الذى كان يتكلم فى الحب فيموج مجلســـه بالصارخين والباكين ..

وكذلك كان حب عمر بن الفارض حبا يفوق كل وصف حتى أسموه ((**سلطان العاشقين**)) ومن كلماته :

كل من فى حماك يهواك لكن   أنا وحدى بكل من فى حماكا

واهم قصـــائده ((**التائية الكبرى**)) وهى انشـــودة رائعـــة فى الحب الالهى ..

ويقول ((محيى الدين بن عربى)) فى كتابه ((فصوص الحكم)) :

((ليس فى الوجود سوى الله وآثاره ، ولا معبود الا هو ، المعبود على الاطلاق ، المحبوب على الاطلاق ، الجميل على الاطلاق وهو الله ..

وهذا هو دين الحب الذى اشار اليه فى قوله :

أدين بدين الحب انى توجهت   ركائبه ، فالدين دينى وايمانى

فحب الله وطاعته والاقرار بوحدانيته والالتزام باوامره .. هىأساس الفضائل جمعاء والله تعالى .. ((حبب اليكم الايمان وزينه فى قلوبكم وكره اليكم الكفر والفسوق والعصيان ..)) ! !

* * *

فدعوة سيدنا محمد اذن ، هى دعـــوة الحق الواضح ، ومنهاجه عليـــه الصلاة والسلام ، كما ارادته القدرة ، أقوم منهاج ، وسبيله الظاهر المحدد المعالم ، أيسر سبيل وأصلحه واقربه ... سبيل لا غموض فيه ولا ابهام ولا أسرار ولا كهانة .. بل كله صراحة ، ووضوح ، ودعوة الى الحق بعث الله به رسله أجمعين ، الى الناس كافة على كر العصور ومسير الزمان ...

وهذه الدعوة السمحة بعد هذا كله ، لم تدع الى الاعتراف بالوحدانية فحسب .. ولم تقم على اساس المناداة بهدم الشرك وعبادة الأصنام والكواكب والسيارات فقط .. بل دعت الى العمل المثمر الجدى فى شتى المجالات ، لأن العمل عبادة ، وطاعة لأمر الله ، الذى أراد للانسان أن يعمر الكون ، وسخر له كل ما فيه ليكون اداة هذا العمل ...

فدعوة سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام دعوة حركية دافعة ، فيها الداب والسعي والجهاد ، وفيها أسمى معانى الايمان بفاعلية الفرد وتبيان قيمته العملية فى هذه الحياة ، ليعرف حقيقة معدن وجوده ويختبر قدراته الكائنة فيه ، ويكشف عن فاعليته وطاقاته ، وانه ليس مجرد مخلوق يعيش

ليومه ويرجو غده او ما بعد الغد ، بل انه رسول .. خليفة عظيم له دوره الايجابى الخالد فى هذه الحياه ..

فالاسلام اذا ليس التسليم للقادر تسليما فيه كراهية ، بل هو تسليم الطاعة والحب ، وهما يعنيان ولا شك الرغبة فى التنفيذ ، رغبة تدفع الى تعرف أسرار العمل ذاته والوقوف على وقائعه وأسراره ، فلا يكون الانسان مجرد آلة تعمل ، بل روحا تكد ، وعقلا يفكر ، وفكرا يسمو ليصل فى طاعته الى الكمال ، وهو ارضاء كامل يتمثل فى طاعته وعبادته ، والعمل الدائب لتعمير الأرض ، وربط الناس جميعا برباط الحب والأخاء ، والتجرد من الأنانية والحيوانية : والرغبة الشريرة فى التحكم فى المخلوقات ...

انه دين .. سلام وحب .. وتسليم مطلق لله ، والتسليم المطلق لله ، هو الاخلاص له ، والعمل باحكامه واوامره ، وعبادته حق العبادة ، والعبادة ليست تولية الوجوه قبل المشرق والمغرب فقط . بل هى أيضا الايمان بالله واليوم الآخر واقامة الصلاة وايتاء الزكاة والصوم والحج وكلها فرائض مقررة لها ظواهر وبواطن ومعان وغايات ...

والانسان المسلم ، هو رسول السلام الى البشر اجمعين ... رسول الحب والاخاء وهو الذى يرى : العالم دنياه ، والناس جميعا اخوته بلا تناحر أو تنابذ ، فالأعظم قدرا هو الأعظم عملا .. والأعلى مكانة هو الاطهر قلبا .. والمقدم على الجميع ، هو القريب الى الله بعمله وحسن نواياه ، لأن الله لا ينظر الى صور الناس بل الى قلوبهم واعمالهم ، ومن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ..

هذا هو الاسلام ... وذلكم هو الانسان كما أرادته رسالة محمد ، المثل الكامل ، للطاعة والدأب ، والاخلاص ، والحب ... البشير بكل خير ، الداعى الى السلام ...

فالانسان لم يخلق سدى ، ولا عبثا ، ولم يخلق ليعيش ويلهو ، ويستمتع بأنعم الله فقط .. بل هو مدين ، عليه أن يوفى دينه لصاحب هذه النعم ، ويردها اليه شكرا وحمدا وطاعة ، فهو وحالته هذه رسول مكلف مامور عليه واجب الطاعة لخالقه ، تلك الطاعة المطلقة ، التى لا جدل فيها ولا نقاش .

((افحسبتم انما خلقناكم عبثا ...)) !!

وهو امام الأمر الأعظم ، مكلف بالخضـــوع المطلق مع احترام التفكير وتقديس ما له من آراء ، فالله لم يبعث رسله بدينه الحق ، حاملين الى أقوامهم مجرد الأمر السماوى للاقرار بوجود الخالق وقدرته ووحدانيته .. بل دعا سبحانه وتعالى الى اعمال الفكر والتساؤل ، والتفكر فى خلق السموات والأرض ، وما بينهما فيسأل نفسه ، من الذى أوجده ، ومن نشر الكواكب وزين بها السماء ، ومن الذى أغطش الليل وانار الصباح ، ومن الذى خلق الشمس والقمر والبحار والأنهار ، ومن أرسى الجبال ، ومهد الأرض ، وخلق الانسان ومنحه الحياة وقدر عليه الموت ، ثم البعث والحساب !!

والتفكير فى هذا كله سوف يهدى الى الله القادر الخالق ، المصور ، بديع السموات والأرض ، القاهر فوق عباده ، القدوس السلام المؤمن ، العزيز الحكيم الباسط القابض ، الحكم العدل ، الرحمن الرحيم ...

فالاسلام اذا ، دعوة حق للايمان بالعقـل البشرى ، وتقديس هـــذا العقل ، لأنه قبس من روح الله ، وهو قوة دافعـة ، قادرة ، لولاها ما كلف الانسان بالعبادة ، ولما تقدم فى جرأة ليحمل الأمانة ، ويكون خليفة فى هذه الأرض .. فعن طريق العقيـدة والايمان بالله يتحرر العقـل البشرى من الجهل والخرافات .

فدعوة محمد عليه صلوات الله وسلامه .. دعوة الجهاد الحق .. دعوة عملية حركية ... عمادها العمـل ... لا المعجـزات ولا الغرائب ، ولا ما يدهش العقول ، ويحيرها .

انها دعوة الى الايمان بقدرة الانسان .. قدرة عميقة تجعله يثق فى ذاته ونفسه ثقة تهون أمامه الصعاب كلها ، وتدفع الى الاستنباط وصنع المعجزات العملية التى تقر فى القلب وتدفع النفس قدما الى الأمام ، وتحفز الانسان الى العمل والكفاح ...

فالانسان فى دعوة سيدنا رسول الله مكلف بأن يكون مؤمنا بالله ، مؤمنا بنفسه ، واثقا من قدراته ايمانا يوجب عليه فرضية العمل النافع ، فى حدود التخطيط الذى جاءت الشريعة به ، وأورده كتاب الله الذى أراده القادر

هذه المرة .. وقد أنزله على خاتم النبيين — دستورا للناس .. كل الناس !!

ان الانسان حين يعرف الله ، يعرف نفسه ، وحين يزداد ايمانه بالله ، يزداد ايمانه بنفسه ، وحين يرقى به هذا الايمان فى مدارج الطاعات ، يصل الى الكمال والمثالية ، وهذا ما جاء به محمد خير خلق الله ، الى البشر أجمعين

فدعوة سيدنا رسول الله اذا ، ثورة كاملة ، قوية .

ثورة تطهير ، وتعمير .. ثورة على كل عفن بال ، وكل تقاليد ظالمة باغية ، وكل عرف لعين ممقوت ...

انها ثورة على الضلال ، على الزيغ ، على الفساد والوهم والترهات ، لأن اساسها القوى ، هو الايمان بقدرات الانسان ، وتفوق عقله ، وتحرير هذا العقل من الشوائب ، لينطلق العقل حرا كما أراد له الله أن يكون ...

انها ثورة تهدم لتبنى ... تهدم الضلال لتبنى المجتمع الجديد ... مجتمع الاستخلاف الحق الصالح على الأرض ، لتعميرها ، واشاعة العدل والحب والأخاء فيها ...

انها شريعة يكفى أن أساسها ، وصرحها الشامخ هو الكتاب المبين ... قرآن الله ... جامع الشرائع كلها ، ومقومها ، وشارحها ، فهو البشير وهو النذير الى الناس أجمعين ...





عالم مثالي

« تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وما الله يريد ظلما للعالمين ، ولله ما فى السموات وما فى الأرض والى الله ترجع الأمور ، كنتم خير أمة أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف ، وتنهون عن المنكر ، وتؤمنون بالله ، ولو آمن أهل الكتاب ، لكان خيرا لهم ، منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون » .

(سورة آل عمران)

لم تكن الدنيا قبل ان يتهلل وجه محمد عليها ... هادئة ، وادعة ، رضية طيبة المقام ، يسود الصفاء أهلها ويجمعهم الحب ، ويربط بينهم الأخاء ...

ابدا .. لم تكن لدنيا البشر هذه الصورة المثالية الحلوة .. بل كانت غابة متشابكة الشجر ، ملتفة الأغصان ، تجللها الظلمات ، ويضل فيها كل ذى فهم ويحار ، ويملأ الخوف قلوب شعوبها ، اذ سادت شريعة الجهل وعم الضلال ..

انعام بشرية تعيش بلا عقل ، وان كان الله قد وهبها نعمة التفكير ، وارسل اليها رسله وهداته ، فعصوهم جهارا ، أو راحوا يسلبون جوهر الشرائع ولب العقائد ، ويزيفون فيها ، ويبدلون ويغيرون .. وبلغت عبادة الأصنام فى طول البلاد وعرضها درجة كبيرة ..

وعاش الناس بلا نظام ولا قانون ولا عرف ، وهم متفرقون فى الأهواء متباينون فى المشاعر تصطرع فيهم الرغبات ، ويحكمهم شيطان الجهل والاشراك بالله ...

وجاء محمد عليه صلوات الله وسلامه ...

جاء والعالم يجلل صورته المضطربة ذلكم الاطار البغيض والبشر كالسوائم ، لا تعرف لماذا أتت ولا لأى سبب تعيش .

حتى الديانات السماوية ، قد ضلوا طرقها الواضحة ، وتشعبت بمن اتبعوها المسالك ، فتحزب الناس ومالوا الى هنا وهناك ، وراحوا فى جهل وغباء يلتقطون ما يسمعون دون تعقل ، ويؤمنون بما كان يقال دون تفكير ..

جاء محمد عليه الصلاة والسلام الى ذلكم المحيط المضطرب عابد الصنم فعاش فيه طفولته الأولى بعيدا عن أهليه وعن تياراته ثم مرت به السنون، فلم تزده الا بعدا عن الناس وقربا من تأملاته، وتفكيره فيما كان يمن الله عليه به من شواهد تقربه من الحقيقة، وتبتعد به عن عوالم الزيغ والضلالات ...

وتخطى محمد مدارج الطفولة، وسار الى مراقى الشباب ثم معارج الرجولة، وهو .. هو، ما تبدل ولا تغير .. العزوف عن الناس البعيد عن مجالسهم، المتعبد المتبتل، صاحب العقل الراجح الذى يرقب فى صمت ويفكر فى هدوء، يرجو الخلاص من ربقة الضلال، والهدى الى منابع الايمان، واشاعة الحب والاخاء والسلام بين الناس ...

وجاء الأمر الى عبد الله ورسوله الأمين ليخرج بدعوته، وينذر الناس ويخرجهم من الظلمات الى النور، فدعا الى الكفر بالصنم ... وكانت صيحة حق، حاول النابحون اسكاتها بالنباح المتكرر بلا فائدة ...

ودعا محمد الى الله ...

دعا رسول الله الى الله، والاله فى عرف الجاهلية صنم يرجى، أو منحوت يتشفع به، او تميمة أو تعويذة من فعل البشر ووحى الشيطان !!

وغضب القوم ... غضبوا لأنهم كانوا هم سادة الآلهة وصانعوها ..

غضبوا لأنه دعا الى اله واحد، الطاعة له واجبة والخضوع لجلاله مفروض ...

وتساءلوا ... كيف نطيع ونحن السادة المغاوير، اعتدنا أن نامر فنطاع، وتدين بالطاعة لنا القبائل جميعها ...

وقال محمد ... بل الطاعة أمر واجب، وفرض حتمى، وانها بعد ذلك شريعة الوجود، وضمان بقاء الناس واستقرارهم وسيرهم فى معارج النور والتقدم والفلاح ...

وتمرد عبدة الصنم، وثاروا، وركبوا رؤوسهم وأصروا على الوقوف فى وجه الدعوة العظمى التى سارت قدما تحمل لواءها قلة مؤمنة، عمر النور القدسى قلوبها، فهداها الى الحق، وجعلها تستمسك به، وتقف دونه مجاهدة، تجالد وتكافح وتجود بالحياة راضية سعيدة، وهى موقنة انها انما تعمل لمرضاة الله، لتكون لها الجنات والرضوان وحسن الثواب ...

وراح الرسول الكريم يرمى باطل قومه بالحق تلو الحق، فيدمغه، ويهزمه، ويحقق لدعوته النصر بعد النصر والعزة بعد العزة، فاذا بتلك الأقوام المتنافرة، تقف عند شىء واحد هو ذلك الدين القيم الداعى الى

التطهر والسمو والارتقـاء بعقل البشر عن مراتب السـائمة الى الدرجات السامية حيث أراد الله له أن يكون ...

لقد كانت دعـوة محمد الى الـكفران بالصنم ، ثورة ... ثورة قوية منطلقة فى قوة واعتداد ، سلاحها الحق والاقناع ، والدعوة الى وضع الأرباب العاجزة فى مواضع الاختبار وهل لها القـدرة على الخلق ومنح الحياة ، أو الموت ، أو الخير أو دفع الشر ...

ووضح الحق ... وعلت أنواره المقدسة ... وسار ركب الثورة فى طريقه ، وقد تم له النصر الأول على الضلال ، فدالت دولة الصنم ، واهتدت العقول الى الله ، البارىء الخلاق القادر ، فانهدم أول حصن من الحصون التى كلف محمد بفتحها وتطهيرها ليسير بثورته الاصلاحية بعد ذلك الى مزيد من الانتصارات !!

واستقر الدين القيم ... وبدأت الأيدى العاملة المجاهدة تضع اللبنات الأولى فى الصرح الأشم ، صرح العالم المثالى ... عالم العقل السائد ... الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والايمان بالله ...

وانه ليكفى بعد هذا أن نقول انه ما دام الايمان بالله هو الأساس ، وهو الركيزة ، فقد كتب للدعوة أن تستقر وتعظم وتطلع أنوارها على ما حواليها من اناس وشعوب وديانات وآراء ومعتقدات ...

ان الايمان بالله هو صلب العقيدة ومحورها والاقرار بالوحدانية المطلقة ، المنزهة من الشرك هو الغاية ـ فالوسيلة اذا واضحة ، والطريق محـددة والهدف معروف ...

الايمـان بالله .. والاقـرار بوجـوده ووحدانيته ، وعـدم مشابهته للحوادث ، وانه تعالى ليس كمثله شىء وهو السميع البصير ..

وهدم الصنم جرأة والكفران به فضيلة وشهادة ((انه لا اله الا الله)) حسنة كبرى ، ((وان محمدا عبده ورسوله)) هو الاستكمال الشكلى لهذه الحسنة ، والمجتمع الذى أفلح فى تحقيق هذا كله بثورته على الجماد ، عالم متطور قادر ، يصلح لاداء الدور الخطير المطلوب منه ما دام يتبع قائده ، ويعمل بأوامر دينه ، ويطيع شريعته السمحة .

لقـد كان تجميع أهـل الكفر على التخلص من الوهم ـ ركيزة التجمع لانطلاق الثورة ، وكان نجاح دعوة محمد فى ذلك ، هو الغاية الأولى وبداية الحركة الدائبة لتشمل الثورة الاصلاحية العارمة كل الوجود ...

ولست هنا فى مجال تبيان الأحداث والحوادث ، والوقائع والمواقع التى خاضها سيدنا رسول الله مع المسلمين ... مع الفئة القليلة التى غلبت الفئة الكثيرة باذن من الله — فالمقام ليس مقامى ، والمجال ليس مجال افاضة وذكر مواقع وحروب وتعديد بطولات .. بل ترتيب احداث ثورة انسانية عظمى ، وكيف بدأت وبمن بدأت ، ثم كيف سارت والى أى مدى كان هذا المسير ...

لقد بعث الله محمدا هاديا ، ومبشرا ونذيرا ، ولكن ... لمن !!

أجل ... لمن أرسله الله !!

هل ارسل ليهدى قومه وعشيرته الأقربين من سادة قريش واشراف مكة !!

لو قلنا ((**نعم**)) ... لحصرنا رسالته صلى الله عليه وسلم فى دائرة ضيقة خاصة هى دائرة مكة ، فنسوى بهذا بين رسالته الكبرى والرسالات الفردية الخاصة التى جاء بها معظم الرسل الكرام الى أقوامهم وعشائرهم فحسب ...

ولو قلنا ((**لا**)) ... ان محمدا لم يرسل الى قومه فقط ، فاننا نخشى أن يفهم معنى النفى الذى تؤيده كلمة « لا » على غير ما نعنى ونقصد ...

فالجواب انما يكون اذا : نعم ... ولا ...

أما كلمة « نعم » بالنسبة لرسالته الجامعة صلى الله عليه وسلم ، فلا نشير الى اكثر من الحلقة الأولى وبدايتها فى سلسلة جهاد المصطفى ، فقد جاء برسالته فعلا ، ليهدى قومه الى صراط مستقيم ، ويخرج عشيرته من الظلمات الى النور ..

هكذا ابلغ صلى الله عليه وسلم ، وبهذا أمر ((**وأنذر عشيرتك الأقربين ، وقل انى انا النذير المبين**)) !!

فهداية عشيرة سيدنا محمد ، فاتحة للعمل ، ومران على الجهاد الشاق الطويل وبداية للنضال مع أقوام قساة القلوب ، غلاظ الأكباد ، ما عدوا غير اهوائهم ، ولا عرفوا حدودا ولا قيودا ، بل أبيحت لهم كل المحرمات ، لأن الأصنام لا توجه ، ولا ترشد ، ولا تدعو الى فضيلة أو خلق كريم ...

فكلمة « نعم » فى جوابنا ذى الشقين — انما تعنى ان البداية ، كانت التمهيد بهداية العشيرة ...

وهنا ... نقف أمام كلمة ((لا)) لنقرر ما تعنيه وهو انتفاء التخصيص فى رسالة سيدنا محمد ، والخروج بها الى معناها القيم ، وحدودها التى

كلف بها من لدن حكيم عليم ، وهى التعميم والشمول ـ لأنه عليه الصلاة والسلام لم يخرج برسالته العظمى ليهدى القرشيين وأهل مكة ومن جاورهم من القبائل فحسب .. بل جاء الى العالمين كافة .. الى أهل الأرض جميعا دون تفرقة بين أصحاب دين سماوى ، وكفرة طمس الشيطان على قلوبهم فعموا ، وضلوا طريقهم الى الله ...

لقد جاء محمد الى الكافرين بالله جميعا ليهديهم الى الله ، ويرشدهم الى الطريق المستقيم ، يستوى فى ذلك لديه ـ أهل الكتاب وغيرهم من جهلة الأقوام ... فلا عجب اذا أن تبدأ أولى حلقات البعث المحمدى بين ظهرانى عشيرته ، الذين ارتفع صوته فيهم داعيا الى نبذ الصنم وتحطيمه وتقدير العقل البشرى واحترامه ، لأن العقل المستنير العارف لابد وأن يهدى صاحبه الى الحق ، ولا حق فى هذا الوجود كله غير الله سبحانه وتعالى ...
ولقد سار محمد برسالته السمحاء فى طريقها المحدد ، فكانت البداية فى قريش ... فى مكة ... الى جوار بيت الله ، فتسامعت الناس بالدعوة والداعية ....

تسامع بها الكافرون وغير الكافرين من المشركين ومحرفى الكلم عن مواضعه ، فأرجفت منهم القلوب ، وأفاقوا من نومتهم الطويلة على الحقائق التى وردت فى صلب كتبهم وبشرت بها كتب الله كلها ورسله أجمعون ..

وآمن عبدة الصنم ... كفروا بالحجر المنحوت ، والرمز الخفى ، وحولوا وجوههم الى الله ..

وأصبحوا عدة محمد وعونه فى الجهاد ، بعد أن شهدوا انه لا اله الا الله ، رب واحد ، لا عن قلة ، أول بلا ابتداء ، وآخر بلا انتهاء ، يبدأ الخلق ثم يعيده وهو على كل شىء قدير ، وأن محمدا عبده ورسوله ...

أجل . ان محمدا عبده ورسوله ، وانه ليس وحده الرسول المجتبى ، والمختار الأوحد لابلاغ هدى الله ، فهو صلى الله عليه وسلم ، وان كان حقا خاتم النبيين وامام الرسل ، ودعاء ابراهيم وبشرى عيسى ـ فان اتباعه الحق ، والاعتراف بدينه عن صدق ، لا يستكمل مقومات وجوده الثابتة الا بالايمان الكامل بجميع رسل الله دون تفرقة بين أحد منهم ، وكتبه جل وتعالى ، دون تمييز ، وخاصة ما أنزل على عيسى وموسى والنبيين جميعا ..

فرسالة سيد الخلق جميعا ، هى نقطة الوقوف عند نهاية الرسالات ، وبداية التأمل فى الحقائق الكبرى ، التى تفتح مغاليق القلوب للنور الوضاء ، نور الله الحق ، ونور الايمان به ، ايمانا تاما شاملا لايزعزعه شك ، ولا يجسر على الاقتراب منه غموض أو كهنوت ...

ان رسالة محمــد عليه الصــلاة والسلام ، هى واسطة العقــد ، بين الرسالات جميعها ، وهى جامعتها الكبرى ، وهى التى تثبت بالبرهان القاطع ، ان الرسالات جميعا سلسلة متصلة الحلقــات يكمل جزؤها الكل ، ويبين الكل ما دق فهمه من الجزء ، وينشر نوره ، لكل ذى عينين ، وكل من ألقى السمع وهو شهيد ليعرف الحق وقد ظهر ، ويميز الخبيث من الطيب ، فلا تقوم بعد هذا قائمة لمن اتجر بالكتاب ولا تبقى باقية لمن تنادوا بالشرك وجعلوا لله الواحد القهار ، شركاء وبنين وبنات !!!

* * *

لقد جاء سيدنا محمد الى الدنيا ، ومعه النور الوضاء ... معه كتاب ما فرط الله فيه من شيء ... كتاب مصدق لما مع أهل الكتاب ... كتاب كريم لم تجرؤ عليه يد ، ولم يتجاسر على قداسته جريء فيحرف الكلم أو يشترى بآياته ثمنا قليلا من عروض الحياة ...

ان دليل القــوة ، وآية الاعتداد الواضحة بجلاء فى رسالة محمــد عليه الصلاة والسلام — انها جانبت التخصيص القبلى ، ولم يستأثر بهــا قوم دون قــوم ليتعالوا بها ويقولوا ان الله ربهم وحــدهم ، وانهم أصفياء الله واحباؤه .

كمــا انها فوق هذا تجاوزت التحــزب العشــائرى ، وعلت أنوارها واضحة فى ميدان أعم ، لا فضل فيه لأحــد على احد بغير التقوى وصلابة الايمان ، بالدين القيم ، وبجميع رسل الله وما جاءوا به من كتب وآيات — وهذا التعميم ولا شك يقرب الشقة ونحن نتحدث عن الرسالة العظمى وفاعليتها المؤكدة ، التى كان العــالم الســادر فى الضــلالات أحــوج ما يكون اليها ...

ان هذه الصراحة الجلية فى الاعتراف بالرسل السابقين وكتبهم — هو التحــدى الواضح لأهل الديانات الكتابية اجمعــين ، ودافعهم الى تدبر مواقفهم نحو أنفسهم وكتبهم ، ونحو بعضهم من بعض ، ذلك الدين الجديد الذى حمل لواءه حفيد من حفدة ابراهيم .. من الأمم ، وليس من أبنــاء اسرائيل ... ليراجعوا أنفسهم ، ويرجعوا عن الغى والمكابرة ، وهم من حرفوا الكلم عن مواضعه ، وبدلوا فى الكتاب وغيروا ، وأنقصوا وأضافوا ، بما يوافق أهواءهم ، ويعودوا الى الأصــل الصحيح الذى لم يجرؤ عليه أهل الضلال ...

والعودة الى الأصل ... اى الى صلب الكتاب كما نزل على موسى ، وكما أثبت فى الألواح — هو التصديق الكامل لمــا جاء به محمــد ، لوحدة الأصل ، ووحدة الغاية ، ووحدة الدين ، ووحدة الدعوة الهادفة الى الاقرار

بوحدانية الله دون شريك ، وتحريم السجود للمنحوتات ، وتقديس الأبوين واحترامهما .. ثم الحث على الفضائل والمثاليات ليبرأ المجتمع من كل باطل وكل سوء وكل ضلال ، أو دعوة الى فساد ...

ولو أن اهل الكتاب ـ اطاعوا شريعتهم ، وآمنوا بما جاء فى صلب كتابهم من آيات بينات ، ووصايا مقدسة ، وأوامر وأحكام واجبة الطاعة ، وبشارات تحدثت عن الغد ، وما سوف يحدث فيه ، وعن قادة الاصلاح ، وحملة مشاعل الانوار السماوية الهادفة الى تحرير العقول ، والخروج بالناس الى النور من رهبوت الظلام الدامس الذى كانوا يعيشون فيه ...

لو أن أهل الكتاب عادوا الى كتابهم ، وعادوا يقرأون فى وعى وحذر وتفهم سفر التثنية حيث يقول :

« جاء الرب من سيناء ، وأشرق لهم من سعير وتلألأ من جبل فاران ..

ثم وقفوا قليلا يفكرون ... ورجعوا الى سفر التكوين وتدبروا ما ورد به من آيات ، وبشارات ، وقرأوا ما قاله الملاك لـ « **هاجر** » بعد أن أسكنها ابراهيم عليه السلام مع ابنها اسماعيل الأرض غير ذات الزرع :

« ما لك يا هاجر ، لا تخافى ، لأن الله قد سمع لصوت الغلام حيثهو ، قومى احملى الغلام وشدى يدك به لانى سأجعله أمة عظيمة ...»

« وفتح الله عينيها فابصرت بئر ماء فذهبت وملأت القربة ماء وسقت الغلام ، وكان الله مع الغلام ، فكبر وسكن فى برية فاران وأخذت له أمه زوجة من أرض مصر » (١) .

والبشارة هنا ، تؤكد ان ابراهيم لم يحمل زوجته هاجر وولدها اسماعيل الى البرية ليسكناها عبثا ، بل بأمرالهى ، ولحكمةعالية ، فسردتها الأجيال بعد ذلك ، وجاء ذكرها فى التوراة .

وقول موسى لقومه : « **جاء الرب من سيناء** » انما يشير الى التجلى الأعظم على موسى ..

ومواعدة الله له ، ليتلقى « **الوصايا العشر** » والواحها التى كتب فيها من كل شىء ... هذا هو ما يعنيه « **جاء الرب من سيناء** » !!

ثم ... نسير بعد هذا مع بقية الكلام وهى « **وأشرق لهم من سعير** » ... أى أنه سبحانه وتعالى ، تجلى ثانية بأوامر ، وتوجيهات ووصايا ، نزلت على موسى فى مكان من بقاع سيناء هو « **سعير** » حيث أكمل

---

(١) الاصحاح الحادى والعشرين تكوين

الوصايا ، وحدد وعين ، وأحل وحرم ، وكلم موسى ما شاء له سبحانه أن يكلمه به ...

ثم .. تكون وقفة .. ويتم بعدها الانتقال بالشريعة ذاتها ..

نزلت الشريعة فى ((طور سيناء)) .. وفى بريتها الرحبة ، كان الأمر ، وكان التوجيه والارشـاد ، ومن بعد هذا الاتمام والتنزيل ، قضى سبحانه وتعالى على الناس بالتزام ما كلم به موسى واتبـاع ما جاء به من كتـاب نورانى ، ظل معمولا به حتى أراد الله للشريعة أن تنتقل حيث عجز حملتها عن الاستمرار فى حملها أو ابلاغها ، لكى تظهر وتتضح وتشرق أضواؤها فى فاران وتنتشر منها على سائر البقاع .

ومعنى كلمة ((**تلألأ**)) اذا .. هو الوضوح وانتشار النور وازدهاره فى ((**فاران**)) بحيث يعم ، ولا يقتصر فى اشراقته على بقعة معينة .

فالتلألؤ سيكون فى فاران فعلا ، حيث سكن اسماعيل وذريته ، الذين وعد الله ان يجعل منهم أمة عظيمة .. ومن عندهم .. سيكون المد ، والتقدم، والزحف النورانى بالشريعة والكتاب وآيات الله ..

فالنورانية ، المشـار بأنها سوف ((**تتلألأ**)) على فاران ، تعنى اشراقة الوحى أولا ، ونزوله على الرسول الأعظم الذى قيل عنه فى سفر التثنية :

((أقم لهم نبيا من وسط اخـوتهم مثلك واجعل كلامى فى فمه ، فيتكلم بكل ما أوصيه به)) ..

((فالتلألؤ)) هو سطوع النـور ، وسطوع النور فى فاران هو ظهـور الهادى ، سيدنا رسول الله محمد عليه الصلاة والسلام ، ومعه النور الاعظم كتاب الله ..

والسطوع .. يتبعه انتشار النور ، وامتداد بريقه هذا يفسره انتشار الدعوة وامتدادها فى قوة واعتداد ، هربت أمامها الظلمات .. وآية الانتشار ووسيلته هى ((**الكلام**)) الذى جعله الله فى فم ((**نبيه الهادى البشير**)) فيتكلم بكل ما أمره الله أن يتكلم به من وصايا وأوامر وتوجيهات ..

ولما كانت بقاع فاران كلها حيث سكن اسماعيل وذريته ، لم تشهد بعد اسماعيل رسولا غير سيدنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ، الذى ينتهى نسبه عند اسماعيل ابن ابراهيم عليه السلام ، فانه صلى الله عليه وسلم هو نبى آخر الزمان ، والرسول الكريم حامل مشعل الشريعة ومبلغها الى العالمين كافة ، والكلام الذى وعد الله أن يجعله فى فمه هو ((**القرآن**)) الذى أنزله عليه وأمره أن يقرأه ، على الناس كافة باسم الله الذى خلق ..

ثم عاد سبحانه يؤكد ضرورة هذه القراءة .. أى الابلاغ فى اكثر من موضع من كتابه العزيز ، فمرة يقول الحق : ((**اقرأ**)) واخرى ((**اتل**)) ..

((اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الانسان من علق ..))

((واتل ما أوحى اليك من كتاب ربك لا مبدل لكلماته)) ..

والتلاوة هى القراءة والقراءة هى التلاوة والأخبار ..

فظهور سيدنا محمد فى ذرية اسماعيل الذى قضت ارادة الله أن تجعل منهم أمة عظيمة — أمر يعرفه أهل الكتاب ، وحدث جليل كانوا ينتظرونه على كر الاجيال ..

والكلام الذى وعد سبحانه أن يجعله فى فم النبى الذى وعد بأن يقيمه وسطهم — هو القرآن ، كتاب الله الذى سينشر ما كان معهم ويعيده صحيحا نقيا مبرأ من تحريف العابثين ..

وانه سبحانه وتعالى ليذكرهم بهـذا كله ويعيـده عليهم فى قـوله جل وعلا :

((الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه ، كما يعرفون أبناءهم ، وان فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون)) ..

ورغم هذا كله .. كابروا .. وعصوا .. عصوا ما جاء فى ((**التكوين**)) وفى ((**التثنية**)) بل كذبوا ما جاء فى صلب الانجيل عن خروج الشريعة من بنى اسرائيل ، الذين قصروا فى حملها وأبوا ابلاغها الى الناس حيث قال لهم السيد المسيح عليه السلام :

((الحجر الذى رفضه البناءون قد صار رأس الزاوية ، من قبل الرب ، كان هذا ، وهو عجيب فى أعيننا ، لذلك أقول لكم ان ملكوت الله ينزع منكم ويعطى لامة تعمل على اثماره)) ..

أفيكون لهم بعد هذا أن يجادلوا ، أو يعارضوا ولا يؤمنوا بالحق ، وهم يعرفون أن الشريعة سوف تنتزع منهم وتذهب الى من يحسنون أداءها وابلاغها ، ويعملون بأحكامها ، وهم أبناء اسـماعيل الهداة ، ومن سـوف يتبعهم من المؤمنين كافة سواء كانوا من أهل الكتاب أو من سائر الامم التى ستهتدى بهدى الله ..

ولو أن أهل الكتاب فكروا فى هذا كله ، وراجعوا فيه قلوبهم وضمائرهم، وخضعوا لما قضى عليهم به منذ قديم الازل وفرض فرضية مؤكدة ، ورجعوا مخلصين الى أصل كتابهم — اذا لأتوا طائعين ، وأقـروا بالحق مختـارين ، ولاهتدوا وآمنوا وما كابروا ، ولا وقف رؤوسهم يجادلون رسول الله فى الله والكتاب وهو النور الوضاح الذى أنزله الله ، وحفظه من عبث العابثين ليكون الناسخ لكل كتاب سماوى ثبت بالبرهان أن يد البشر امتدت اليه وجرؤت

على قداسته ، ليعيده الى أصل الشريعة كما أنزلها الحق ، يوم أراد الهدى للعالمين وفرض الاسلام على البشر جميعا دينا قيما واجب الاتباع ..

ولكن أهل الكتاب عصوا عن مكابرة ، وضلوا عن عناد وظلم لانفسهم ، وأبوا أن يسلموا بحق مقضى به ، ورغم هذا كله ، كان الله بهم رؤوفا رحيما شأنه دائما مع عباده أجمعين فراح يعظهم ويذكرهم بأيام الله وعهوده ، وما أخذه عليهم سبحانه وتعالى من مواثيق ، ويلاينهم ، ويحثهم على الطاعة — فما ازدادوا الا نفورا وعنادا ، حتى لقد ركبوا رءوسهم ، وخرجوا من الجدل الى الاجتراء ومنــه الى التعــرض الرهيب .. ثم التحـريض على البغى والعدوان ، وبذر بذور الفتنة والشقاق ..

كانوا قد أشربوا فى قلوبهم حب العجل وطمس الله أفئدتهم ، فنسوا الله وأيام الله ، وقدسوا الذهب وعبدوا المال ، وكرهوا الهدى للناس جميعا فأذاقهم الله نكال ما فعلوا وحكم فيهم بما يجب أن يكون ..

فرسالة سيدنا رسول الله اذا ، الم تكن لقوم دون قوم .. بل للعالمين كافة .. للدنيــا وما حوت امن مجوس ويهــود ونصــارى وغــيرهم من أمم الله ..

كانت رسالته الكبرى صلى الله عليه وسلم هى رسالة الهدى .. رسالة الحق .. رسالة القوة التى قطعت الطريق على المكابرين ، وتجار الديانات ومحرفى الــكلم ، ومن اجترأوا على النــاموس الأعظم ومن تجاسروا على الوحدانية وجعلوا للقادر سبحانه البنين والبنات ..

وكانت الجولة الأولى مع عبدة المنحوتات والكواكب .. ولعمرى ، لقد كانت رغم قســوة وقائعها أيسر الجولات ، اذ الزمت الكافرين الحجــة ، واسكتتهم ، وجعلتهم يأتون صاغرين مقرين بالحق ، وقد عرفوا أن الحجر لايعطى ولا يمنح ، ولا يهب الحياة ولايقرر الموت ، ولايحمى ولا يدفع الشر ..

عرفوا انهم كانوا فى ضلال ، وان ما جاء به سيدنا رسول الله هو الحق ، فآمنوا به .. واتبعوه ، وكانوا جند الله ودعاته فى الجولة الثانية القاسية مع أهل الكتاب أجمعين ..

لقد ضرب الله تعالى فى الكتاب من كل مثل وألزم الحجة لكل مجترىء .. وأراد بالقرآن ، ودعوة رسول الله — أن يجمع الناس على الهدى ودين الحق ليكون منهم خير أمــة أخرجت للنــاس .. أمة تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، وتؤمن بالله ..

فهل آمن الناس !!

نعم .. آمن الكفار ..

وآمن اصحاب الحجارة وعبدة المنحوتات ولكن ..

ولكن أهل الكتاب أبوا أن يعودوا الى أصل الكتاب وحقيقته وظلوا على

الكفر ... ووقف معهم فى ذات الطريق من جعلوا لله شركاء ، وابوا ان يكفروا بالزيغ الباطل ، وخرجوا على شرعة الوحدانية ((... **وكانوا قوما بورا ...**)) وصدوا عن الله ودعوة رسوله ، وما جاء محمد الا بالخير وعز الدارين فحق عليهم غضب الله ، فى الدنيا وسيلقون فى الآخرة أشد العقاب ...

من أجل هذا كله ... ولأن علمه سبحانه سبق ، فقد شاءت ارادته ان ينزع الشريعة ممن ادعوا انهم أصحابها ، وجعلها فى خير امة اخرجت للناس ، لأنهم آمنوا بالله ورسوله ، وامروا بالمعروف ونهوا عن المنكر واولئك هم المسلمون ... الذين وضع لهم القرآن أساس مجتمعهم المثالى العظيم فى كل شيء ...

ترى ... أى عالم هو ذلكم العالم المثالى ، وعلى أية أسس قام ؟..

انه عالم قضى الله سبحانه بأن أهله هم ((**خير أمة أخرجت للناس ...**))

أمة لها مميزات تفردت بها ، فسمت على سائر الأمم ، وتعالت على شتى الشعوب بخصائص لم يعرفها قبلها أحد من العالمين ...

وانها اذا ... وكما قال فيها العزيز الحكيم ، امة مثالية فى كل شيء ... أمة كاملة وجودا وخلقا .. دينهاالفضل ، ومنهاجها الكمال .. ودستورها الدين القيم ، وشريعتها السمو ...

أمة تحيا للسلام ... وتعيش للسلام ... ووجودها نفسه ، هو الاقرار المدعم للسلام القائم على أسس الحب ، وحسن الجوار ، وطيب المعاملات ..

امة تتبع سبل السمو ، وتلقى على من حواليها قبسا من اشعاعات الفضل ، تتبع حدود الدين وأوامره ، وتتجنب نواهيه ، ورائدها فى ذلك كله ، خير الخلق أجمعين ، وأكملهم خلقا سيدنا محمد ، المبعوث فيهم ليتمم مكارم الاخلاق ، الهادى البشير ، النذير ، عليه الصلاة والسلام ...

تلك هى الأمة ...

الأمة التى اشاد بها الحق سبحانه وتعالى ، وباهى بها سائر الأمم جميعا ، وقال فيها وقوله الحق ، مالم يقله فى أمة سبقتها الى هذا الوجود ...

هذه هى الأمة الرائدة ، التى بعث فيها المختار الحبيب بدين الهدى ، والحق ...

ترى أى أمة كانت هذه الأمة ؟!

أجل ... اى امة كانت تلك التى قال الله عنها : أنها خير امة أخرجت للناس ؟ !

أين تقع فى هذا الوجود ؟..

ما مكانها وموضعها !!

ممن تكونت ؟.. ومن هم أهلوها أولئك الذين أمروا بالمعروف ، ونهوا عن المنكر ، وقدروا الله حق قدره وعبدوه ، مخلصين له الدين حنفاء !!

قد يقول قائل : **ان هذه الأمة المعنية ، معروفة ظاهرة ، مميزة ، معينة الموقع ، محددة المكان ، معروفة السكان وهى ولا شك مكة والمدينة ...**

وقد يقول قائل آخر : **انها ولا جدال الجزيرة العربية كلها ، التى انتقلت اليها العقيدة الراسخة ، عقيدة الوحدانيــة ، فاســتنارت فى ربوعهـــا أضــواء الشريعة السمحاء ، وفاضت على القلوب ، وطهــرتها من الادران ، ونقتها من الشوائب ، وجعلت أهلها أقدر الناس على حمل أمانة الدعــوة ، والمحافظة عليها فى صدق واخلاص ...**

وقد يقول ثالث : **ان الأمة المقول عنها انها خير أمة هى مجموعة شعوب هذا الشرق الذى راحت أنوار الاسلام تنتشر فوق ربوعه ، وتدخل الى قلوب أهليه ، فتصبح عقيدة ثابتة وايمانا مدعما ، استمسك به أولئك الناس فكانوا أقوى الأمم عقيدة ، وأشدهم ايمانا ، وأطهرهم شريعة ...**

والواقع غير هذا كله ... وفى يقينى : **أن الأمة التى قال الله فيها أنها خير أمة أخرجت للناس — هى أمة آمنت بالله ورسول الله ، محمد المختــار الهادى ، وآمنت بدينه وصــدقت بشريعته أيا كانت هــذه الأمة ، وأيا كان مكانها ، فى الشرق أو الغرب أو الشمال أو الجنوب ...**

فمحمد داعية الخير ، وبشير الفضل ، والهادى الى النور — **لم يبعث الى أمــة معينة ، ولا قــوم دون قــوم ، بل بعث الى العالمين كافة بشيرا ونذيرا ..**

فقد بعث عليه الصلاة والسلام ، ليجمع الكل فى واحد ، ويوحد الديانات فى دين ، ويلم شعث الاسلام ، ويثبت دعائم العقيدة ثم ينقى الشريعة ، بمــا كان يوحى اليه من كتاب ربه لتقوم فى هذا العالم الأمة المثالية الكاملة ، التى تعمل بأوامر الاسلام ، وتتبع فروضه ، وتخضع لأحــكامه ، وتثبت أفئدة أهليها من قدس مناهله ، فلا تعرف الا الخير ، والاخاء والسلام ، ولا تأمر بغير معروف ...

ثم ... ومن أجل سيادة شريعة الأمر بالمعروف والايمان ، كل الايمان ... تنهى هذه الأمة العظمى عن المنكر ...

أجل تنهى عن المنكر ، والنهى عن المنكر ليس مجرد ايراد كلمة ((**نهى**)) فحسب ... بل تصوير رائع لما تعنيه كلمة ((**النهى**)) المطلقة .

فالنهى ، هو الأمر الواجب الطاعة ، المكمل لسيادة الناهى ...

والنهى هو الزجر ، ولا يقدم على الزجر غير القوى القادر الواثق من نفسه المطمئن الى سيادته ...

والنهى بعد هذا ، هو التحريم ... والأمة التى تنهى عن المنكر ، اى تحرمه على نفسها وتنهى عنه غيرها هى ولا شك أمة عزيزة قوية ، لها من أسباب المنعة ، ما يمكنها من توجيه النهى ، وتحريم ما تراه غير متسق وشريعة الأمر بالمعروف ...

والذى يأمر ... هو وحده الذى يستطيع أن ينهى .. ومن يأمر بشىء .. له من السلطان ولا شك مايجعله ينهى ويحرم شيئا آخر ...

فالنهى ، هو الردع ، وهو المنع ، وهو الزجر بالفعل أو القول لضمان سيادة المعروف والعرف .

واذا .. وعلى هذا القياس وبمتابعة صفات هذه الأمة ، التى هى خير أمة أخرجت للناس أقول أنها أمة تأمر بالمعروف ، فتطاع ... وتنهى عن المنكر ، فتطاع ، فان تجاسرت على عصيانها أمة أخرى أو شعب من الشعوب أنفذت فيه الحكم ، وردته بالحسنى عن الغى والعدوان أو جاهدتها ، لتتم السيادة للمعروف وحده ، ولا يكون للباطل ظل ولا وجود ...

وأمة تأمر وتنهى ، وتؤمن بالله ، هى أمة الكمال ... هى الأمة ، التى أراد لها الله انتكون ، وارسل محمدا الهادى مبدد الظلمات ليجمعها على الحق والهدى ، ويلم أشتاتها ، ويوحد صفوفها ، لتكون الأمة الرائدة العظمى ، التى يسود فيها العدل ، وتجاهد لاقرار المساواة فى كل شىء ... المساواة الكاملة للناس كافة ...

فالأمة التى تعنيها الكلمة المباركة ((**خير أمة**)) هى أمة الاسلام .. هى شعوب الخير ، الداعية الى الاخاء ، المؤمنة برسالة رسول الله ، المحافظة على دينه ، المستمسكة بعقيدته ، الملتفة حول راية شريعته السمحاء .. شريعة الحب ، والأخاء ، والانسانية ، والمساواة ، فلا تفرد ، ولا تحكم ، ولا بطش ولا جبروت ، بل أمر بالمعروف ثم نهى عن المنكر ، وجهاد مطلق لاقرار هذا النهى واجبار من نهوا على الطاعة والخضوع ...

هذه هى الأمة .. خير امة أخرجت للناس ، ولفظة ((**كنتم**)) فى الآية الكريمة ، لا تنسحب على الماضى ، بل تشير الى الحاضر والمستقبل ، وتقول فى صراحة لمن اتبعوا دين الاسلام ، وثبتت فى أعماق قلوبهم العقيدة المحمدية ، وساروا على شريعته السمحاء : أنتم يامن تتبعون هذا الدين القيم ، وتعملون بأوامره وتتجنبون نواهيه ، أنتم .. خير امة أخرجت للناس ، مادمتم تأمرون بالمعروف ، وتبشرون بالأخاء ، وتنادون بالسلام ، والحب ، وتنهون عن المنكر .. تنهون أنفسكم ، وتنهون غيركم ، وتعتبرون أن النهى ذاته جزءا مكملا للعقيدة ، وانكم فى سبيل استكمال سيادة العقيدة ، واقرار حكمها العادل مكلفون بالجهاد والنضال ...

هذه هى الأمة .. أمة محمد الرسول الأعظم .. البشير النذير ...

هذه هى أمة السيادة .. أمة الصف الواحد .. أمة الجهاد الأكبر ، لاقرار المبادىء ، والمناداة بالسلام والمساواة ، واعطاء الفرص للجميع ، ليسود الكل ويعمل الكل من أجل الكل ، فى مساواة وحب وأخاء ...

هــذه هى خير أمة أخرجت للناس . . أمة الأمر بالمعروف . . أمة الجماعة .. فالفرد فى سبيل الجماعة .. والجماعة فى سبيل الفرد .. النافع المؤمن بالوحدة الذى ينسى نفسه مع الكل ومن أجل سيادة الكل ، فلا تعالى ، ولا جبروت ، ولا اذلال للأعناق ، بل سمو وجلال وكبرياء حبيب محبب الى النفوس ، لأنه كبرياء العزة الذى يوجبه حب الخير ، والعمل من أجل الخير ، فى أمة تأمر بالمعروف وتحرم المنكر وتأباه ، وتقف دونه فى عنـاد واصرار لتقضى عليه ...

هذه هى الأمة التى أرادها الله ، والتى خرج رسول الله بدعوته ليجمعها تحت راية الاسلام ، لتحمل أمانة الدعوة ، وتسير فى صف واحد الى حيث الهدف الأسمى الذى رسمه الدين ، وهو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والايمان بالله ...

هذا هو عالم الكمال ، القائم على أسس الدين ، ودعامات الفضائل ...

هذا هو العالم المثالى ...

ثم انه بعد هذا ، عالم الكفايات ، والدأب والسـعى الحثيث الى كل فضيلة .

وهل تبقى بعد هذا فضيلة تفضل العمل .. ((**وقل اعملوا**)) بهذا أمر الله .. وبهذا نادى سيدنا الرسول الأعظم ...

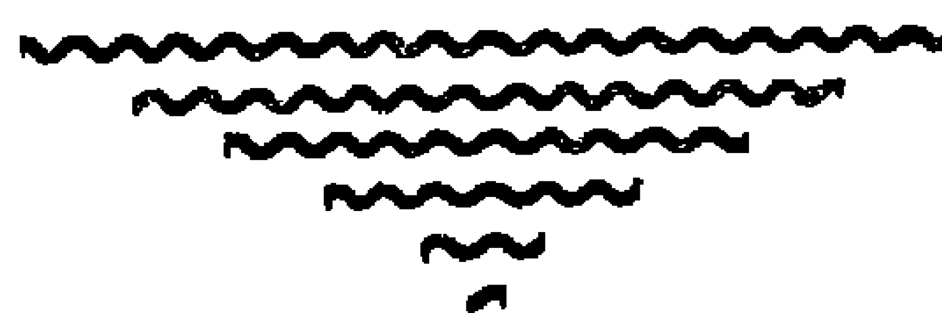
اعملوا ...

اعملوا الخير ...

اعملوا لتجنوا ثمار عملكم ...

اعملوا لدنياكم .. واعملوا لآخرتكم ...

واعملوا ليبقى عالمكم ، وتسود شريعـة الـكمال وتعـلوا راية الحب والانسانية ، والتعاطف التى نادى بها البشير الهادى محمد رسول الله .





المسجد الأقصى

((سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله ، لنريه من آياتنا انه هو السميع البصير)) (١)

((ما كان الله ليذر المؤمنين على مـا أنتم عليه حتى يميـز الخبيث مـن الطيب ، وما كان الله ليطلعكم على الغيب ، ولـكن الله يجتبى من رسله من يشاء ، فآمنوا بالله ورسله ، وان تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم)) (٢) .

أسرى به من المسجد الحرام بمكة الى المسجد الأقصى بالشام ، ثم عرج به على جبل سيناء حيث كلم الله موسى تكليما ، وعلى بيت لحم حيث ولد عيسى .. **وهذا الاجتماع الروحى ضمت الصلاة فيه محمدا ، وعيسى ، وموسى ، وابراهيم . على اطلال هيكل سليمان .**

---

(١) سورة الاسراء (٢) سورة آل عمران

الرسالات الكبرى

((وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه ، نرفع درجات من نشاء ان ربك حكيم عليم ، ووهبنا له اسحق ويعقوب ، كلا هدينا ونوحا هدينا من قبل ، ومن ذرية داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون ، وكذلك نجزى المحسنين ، وزكريا ويحيى وعيسى والياس كل من الصالحين ، واسماعيل واليسع ويونس ولوطا ، وكلا فضلنا على العالمين ، وعن آبائهم وذرياتهم واخوانهم واجتبيناهم وهديناهم الى صراط مستقيم ، ذلك هدى الله يهدى به من يشاء من عباده ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون ، أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة)) .

(سورة الأنعام)

((محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم ، تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ، ذلك مثلهم فى التوراة ، ومثلهم فى الانجيل كزرع أخرج شطئه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار ، وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما)) .

(سورة الفتح)



بدعوة محمد يستأنف عهد الدين القيم ، الذى لا عوج فيه ولا اختلاف ، ولا أضاليل ولا اجتراء على المقدسات .. ولا تطاول على الذات العظمى ، والصاق الألوهية بالبشر ، وهم ليسوا — مهما سموا وعظمت مكانتهم — غير عباد الله ..

فالرسالة كانت ، وعلى كر العصور ، هى .. هى .. والموحى به ، بقى على الزمان هو .. هو .. مما يؤكد ان الدعوة الى الله وعبادته ، **قديمة** قدم الأزل .

« وما أرسلنا من قبلك الا رجالا نوحي اليهم ، فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون ، بالبينات والزبر ، وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم ، ولعلهم يتفكرون » ...

وتكون بهذا قد تمت كلمة الله .. ويكون قد كتب الخلاص والفوز للناس جميعا ، وآن للبشرية أن تستقر على دين واحد ، ودعوة واحدة ، منزلة من لدن عزيز حكيم ، تضع الأمور فى أنصبتها ، وتظهر الحق ، وتمحق الباطل وتذهب به ، وتنقى الشريعة من كل ما علق بها من الشوائب والأكاذيب والأضاليل ..

فخروج سيدنا محمد بالدعوة والحالة هذه — هو الفيصل ، وهو الركيزة ، وهو الاشراقة النورانية ، التى قدر لها الحق سبحانه وتعالى ، أن تبدد الظلمات ، كل الظلمات لأن بعثه صلى الله عليه وسلم هو نقطة اللقاء الحاسم عند مفرق الطرق فعند خروجه المبرور ، ينتهى عهد وزمن وديانات ..

***

كان الجهاد الحق هو أول جديد جاءت به رسالة امام المرسلين ، وهو أمر لم تألفه الرسالات السماوية من قبل ، لأنها لم تخرج فى مبناها ومضمونها عن الدعوة الجدلية ، والاستمساك بالعقيدة والثبات عليها رغم عناد الناس ومباذلهم ، ووقوفهم للرسل الكرام فى موقف التحدى السافر والرغبة فى الايذاء .

أما محمد .. فقد تفرد وحده بالجهاد والثبات .. ثم النضال والحرب فى سبيل العقيدة ، ولم تكله القدرة الى تدخلها ، لتقضى على الكافرين وتهلكهم .. بل تركت ذلك الى الرسول المجاهد ليحسم بجهاده الأمر ، وينهيه بالمنطق الذى يفهمونه ، ليؤمنوا بالله الواحد الأحد عن طريق البحث والعقل والتفكير السليم ...

وعنده أيضا نجد أنفسنا أمام كل جديد ...

لقد كان فى الدعوة منهاج مفرد ، لم تألفه البشرية قبل ذلك ، ولم يكن لها به قبل بعث رسول الله من عهد .. ذلك المنهاج الجديد ، كان الدعوة أولا الى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة .. ثم بالجهاد والنضال والعمل الحاسم الذى خرج الى ميادين الكفاح ، فشرعت من أجله شرائع الحرب وفرائض القتال فى سبيل الله ..

فالاسلام يدعـو الى السلام والرحمة ، ويعتبر الحـرب علاج من يريد الخروج على شرعة السلام والاخلال بالأمن العالمي : « **واذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة** » ..

فالسلام من قواعد الاسلام ومن أسسه الرحمة والعدل والتسامح .. وجعل السلام أساسا لمعاملة أهل الكتاب فازداد عـدد المسلمين المؤمنين بدعوته حتى ضـاقت قريش ذرعا بمحمـد واصـحابه فعملت على ايذاء المسلمين لصرفهم عن ايمانهم بالقسوة والتعذيب فكانوا يحرقونهم بالنـار ويدخلون أعمدة الحديد وهي متأججة في أجسامهم واشـتد أذى المشركين لعبيدهم ومواليهم الذين أسلموا ..

فنصح محمد أتباعه أن يذهبوا الى أرض الحبشة : « **فان بهـا ملـكا لايظلم عنده أحد ، وهي أرض صـدق ، حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه** » فخرجوا في هجرتين كانوا في الأولى احدى عشرة أسرة مكية ، ثم لحقت بهم في سنة ٦١٥ ثلاث وثمانون أسرة أخرى وفي مقدمتها أسرة عثمان بن عفان

ووجد المسلمون في جوار النجاشي النصراني أمنا ودعة ، وبعثت قريش رسلها الى النجاشي ليردهم اليها ، فأبى النجاشي أن يفعـل حتى يسـمع ما يقولون ، وبعث في طلبهم ، فلما جاءوا سألهم :

« **ما هذا الدين الذى فارقتم فيه قومكم ، ولم تدخلوا به في ديني ولا في دين أحد من هذه الملل ؟ !** »

فأجابه عنهم جعفر بن أبي طالب قال :

« **أيها الملك ، كنا قوما أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتي الفواحش ونقطع الأرحام ونسيء الجوار ، ويأكل القوى منا الضعيف حتى بعث الله الينا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته .. فدعانا الى الله لنوحده ونعبده ، ونترك ماكنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنات ، وأمرنا ان نعبد الله ولا نشرك به شيئا ، وبالصلاة والزكاة والصيام .. فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من الله ، فعبدنا الله وحـده لا نشرك به شـيئا وحرمنا ما حرم علينا ، وأحللنا ما أحل لنا ، فعـدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عـن ديننا ليردونا الى عبادة الأوثان ، فلما قهـرونا وظلمونا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا الى بلادك ورغبنا في جوارك ، ورجونا الا نظلم عندك** » ..

فقال النجاشي : هل معك مما جاء به عن الله من شيء تقرؤه على ؟ !

قال جعفر : نعم .. وتلا عليه سورة مريم من أولها الى قوله تعالى :

« فاشارت اليه ، قالوا كيف نكلم من كان فى المهد صبيا ، قال انى عبد الله ، آتانى الكتاب ، وجعلنى نبيا ، وجعلنى مباركا أينما كنت ، وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حيا ، وبرا بوالدتى ولم يجعلنى جبارا شقيا ، والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا » ..

فلما سمع النجاشى والبطارقة هذا القول مصدقا لما فى الانجيل أخذوا وقالوا :

هذه كلمات تصدر من النبع الذى صدرت منه كلمات سيدنا يسوع المسيح ..

وقال النجاشى :

« ان هذا والذى جاء به موسى ، ليخرج من مشكاة واحدة ، فوالله لا أسلمهم الى أيدى الاضطهاد » ..

وأقام المسلمون الذين هاجروا الى الحبشة ثلاثة أشهر ، أسلم أثناءها « **عمر بن الخطاب** » ، فوجد الاسلام فيه منعة وقوة ولم يخف عمر اسلامه ولم يستتر بل ذهب يعانه على رؤوس الملأ ويقاتلهم فى سبيله ..

وفى هذه الفترة كان « **الاسراء والمعراج** » (١) ، وكان محمد ليلة الاسراء فى بيت ابنة عمه هند ابنة أبى طالب وكنيتها أم هانىء فلما صلى الصبح قال :

« يا أم هانىء لقد صليت معكم العشاء الآخرة ثم جئت بيت المقدس فصليت فيه ، ثم صليت صلاة الغداة معكم الآن كما ترين »

ويقول فضيلة الشيخ شلتوت فى كتابه « من توجيهات الاسلام » :

« اذا كان لنا أن نذكر حادث الاسراء ، فانما نذكره أولا فى حدود اليقين والاطمئنان لا فى متسع الظنون والاضطراب ، وان نذكره ثانيا بقلوبنا وفى أوقاتنا كلها بما يرشد اليه من ايحاء ننتفع به فى حياتنا على توالى السنين والأجيال ، وان حادث الاسراء ـ لتثبيت وتكريم للنبى صلى الله عليه وسلم ... وعلينا أن نؤمن بما قصه الله علينا فى حادث الاسراء والمعراج .

« سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آيتنا انه هو السميع البصير » ..

وانه ليوحى للمسلمين ـ بمبدئه وهو « **المسجد الحرام** » ومنتهاه وهو « **المسجد الأقصى** » ـ بتذكر مهابط الوحى الأول الذى تلقاه ابراهيم واسماعيل ، ومهابط الوحى الثانى الذى تلقاه موسى وعيسى ، وانها كلها

---

(١) انظر فصل « الآيات » من هذا الكتاب الصفحات من ٥٢٠ حتى ٥٣٠ .

مهابط الرسالات الالهية التى جاء محمد لتكميلها والهيمنة عليها ، وان تلك الرسالات ، وان اختلفت أزمنتها وتعددت رسلها ، واحدة فى دعوتها وغايتها ، وان الرسل جميعا الذين اصطفاهم الله لتبليغها بناة بيت واحد ، يضع آخر لبنة فيه خاتمهم محمد بن عبد الله ، صاحب الاسراء والمعراج ، واذن فلابد ان يخفق عليها علم التوحيد والايمان على النحو الذى جاء فى رسالته ، ولابد ان تطهر رقعتها من بذور الشرك والوثنية والظلم والفساد ، وان يعلو فيها سلطان الحق ، وعدالة السماء ..

واذا كان المبدأ ، وهو المسجد الحرام ، يجب على المسلمين تطهيره وتطهير اقليمه مما تأباه الرسالة الالهية ، فان منتهاه ، وهو المسجد الأقصى واقليمه ، يجب كذلك تطهيره وتطهير اقليمه مما تأباه الرسالة نفسها .

ولعل هذا الايحاء كان أقوى ما بعث المسلمين الى العمل على رفع راية الاسلام على بيت المقدس واقليمه بعد ان رفعوها على المسجد الحرام واقليمه ، ولعل هذا الايحاء قد امتد من قلوب الآباء والأجداد الى قلوب الأبناء والأحفاد ، حتى ملك على المسلمين فى جميع عصورهم قلوبهم ، وتردد معناه فى صدورهم ، ودفعهم ليوثا أشداء ، يذودون عن بيت المقدس ويحمونه كلما ثارت عليه قوى البغى والعدوان .

« ولعل حديث سورة الاسراء عن كتاب موسى « **وآتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبنى اسرائيل** » وعن فساد بنى اسرائيل فى الأرض وخروجهم عن مقتضى كتابهم « **وقضينا الى بنى اسرائيل فى الكتاب لتفسدن فى الأرض مرتين** » .. وعن وعيدهم فى الآيات نفسها بالتنكيل والعذاب اذا استمروا على الافساد أو عادوا اليه :

« **وان عدتم عدنا وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا** »

وهكذا كان شأن القرآن الكريم فى توجيه المسلمين والتنبيه على المعتدين

« فحادث الاسراء والمعراج لم يكن الا درجة من درجات التكريم ، ووسيلة من وسائل التثبيت ، ولونا من الوان الاختبار تجلى به سبحانه وتعالى على نبيه ، واسبغ عليه من بحار الفيض والامداد ما تمكن به فى مدة وجيزة أو ساعات معدودة ان يكشف عن طريق المعاينة كثيرا من آيات ربه وعجائبه فى أرضه وسمائه ــ اسرى به من المسجد الحرام بمكة الى المسجد الأقصى بالشام ، ثم عرج به الى سدرة المنتهى الى حيث شاء رب العزة والملكوت ، رب القدرة والقهر ، رب الأسباب والمسببات ..... تجلى به على نبيه فرفعه وكرمه ، وثبت فؤاده .. » (١)

« **وما جعلنا الرؤيا التى أريناك الا فتنة للناس** » و « **ما كان الله ليذر**

---

(١) من توجيهات الاسلام .. لفضيلة الشيخ شلتوت .

المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب ، وما كان الله ليطلعكم على الغيب ولكن الله يجتبى من رسله من يشاء ... »

ويستند الذين يقولون بأن الاسراء والمعراج انما كانا بروح محمد صلى الله عليه وسلم — الى حديث أم هانىء والى ما كانت تقوله عائشة رضى الله عنها :

« ما فقد جسد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكن الله أسرى بروحه .

وكان معاوية بن أبى سفيان اذا سئل عن مسرى الرسول قال :

« كانت رؤيا من الله صادقة » ..

وهم يستشهدون الى جانب ذلك كله بقوله تعالى فى سورة الاسراء :

« وما جعلنا الرؤيا التى أريناك الا فتنة للناس » ..

وفى رأى آخرين ان الاسراء من مكة الى بيت المقدس كان بالجسد مستدلين على ذلك بما ذكر محمد انه شاهده فى البادية أثناء مسراه فوق جبال مكة ورمال الصحراء ، ووقوفه عند جبل سيناء حيث كلم الله موسى ، ثم وقوفه أيضا فى بيت لحم حيث ولد عيسى ، وبلوغه بيت المقدس ، وانه عليه الصلاة والسلام صلى على اطلال هيكل سليمان ومعه ابراهيم وموسى وعيسى .. ثم اتى بالمعراج فارتكز على صخرة يعقوب وعليه صعد الى السموات ، حتى سدرة المنتهى ...

« والاسراء بالروح فى معناه كالاسراء والمعراج بالروح جميعا سموا وجمالا وجلالا .. فهو تصوير قوى للوحدة الروحية من ازل الوجود الى ابده . فهذا التعريج على جبل سيناء حيث كلم الله موسى تكليما ، وعلى بيت لحم حيث ولد عيسى ، **وهذا الاجتماع الروحى ضمت الصلاة فيه محمدا ، وعيسى ، وموسى ، وابراهيم** ، مظهر قوى لوحدة الحياة الدينية على انها من قوام وحدة الكون فى مسيره الدائم الى الكمال .. (١)

* * *

وظل الرسول بمكة ثلاث عشرة سنة يعانى فيها وصحبه الكثير من العذاب .

ولم يجد الكفار امام صموده وعظم ايمانه — الا ان يعتزموا قتله بطريقة تفرق دمه بين القبائل ، فكان أن أوحى الله اليه بالهجرة الى المدينة .

« واذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ، ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين » ! !

---

(١) حياة محمد — للدكتور حسين هيكل .

وخرج محمد عليه الصلاة والسلام الى مهجره ليلا مع صاحبه وصديقه ابى بكر مهاجرين الى المدينة ، وتربص به الكفار ، واحاطت جموعهم بيته للفتك به ، والقضاء عليه ، ولكن الله كان غالبهم ، وارادته جل وعلا كانت فوق مؤامرتهم : فتخطاهم الرسول الحبيب تحدوه رعاية الله وتحرسه وصاحبه ابا بكر وتسدد خطاهما وترد عنهما الكيد . وتحميهما من اخطار الطريق حتى استقرا اخيرا حيث اراد الله لرسوله ان يستقر فى مركز جهاده الجديد . المدينة المنورة به ، التى شرفها الله بهجرته ، وآخى بين حييها المتنابذين المتخاصمين وجعلها عصبة واحدة مجاهدة فى سبيل الله سميت بعد ذلك « بالأنصار » ..

((الا تنصروه فقد نصره الله ، اذ اخرجه الذين كفروا ثانى اثنين اذ هما فى الغار اذ يقول لصاحبه لا تحزن ان الله معنا ، فانزل الله سكينته عليه وايده بجنود لم تروها ، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا ، والله عزيز حكيم)) .

وخلصت لمحمد فى المدينة الزعامة الزمنية فوق زعامته الروحية وجاءه امر الله بالقتال — **فقد بدات قريش بعد هجرة النبى واصحابه تذيق المسلمين فى مكة ألوانا من العذاب ، فراحوا يجارون الى الله مستغيثين به فكان ذلك هو أول تحريض من الله على القتال : ((ومالكم لا تقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون : ربنا اخرجنا من هذه القرية الظالم اهلها ، واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيرا)) !!**

فدعا اليه من تبعوه وبدات العصبة الصغيرة التى نمت وعظم شانها تتحرك ، فارسلت السرايا والبعوث تجوب الصحراء وترصد حركات الكفار ، وتقطع عليهم طرق تجارتهم وتهدد امنهم وأموالهم ، ليروا أن محمدا اصبح قوة ، وان الدين قد اشتد عوده وقويت شوكته ، وان الله لابد وان يتم نوره ولو كره سفهاء قريش .

وهذه التحرشات ، والوثبات الجديدة ، والتحديات الجريئة الباسلة التى قامت بها القلة المستضعفة ضد الكثرة الغلابة القوية صاحبة الجاه والمال — كانت ولا شك مستمدة من عمق الايمان وقوة الروح المعنوية التى كانت طريق النصر للمجاهدين المؤمنين ..

وبدات السرايا الاسلامية تخرج من مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، تجوب الصحراء فى جراة واقدام وتوثب ، وتقوم على اعمال ، اشعرت سفهاء مكة بان الامر قد تغير ، وانهم اليوم ، امام مجاهدين مناضلين قادرين على صد العدوان .. بل على مهاجمة من يفكرون فى الاقتراب منهم ، وضربهم وانزال الهزائم بهم .

وتعددت السرايا .. وكثرت انتصاراتها المحلية ، وأحس المسلمون أنهم صاروا قوة يعمل لها الف حساب فضاعف هذا من عزائمهم ، وفتح قلوبهم لتطلعات أسمى وأعظم من احراز النصر فى مواقع ومعارك محلية محدودة .. واقدموا على مزيد من النضال ، لم يلبث أن تهيأ الجو معه لموقعة فاصلة شاء الله ان يكون ميدانها عند ماء بدر ..

فى ذلك نزل قوله تعالى : ((**يا أيها النبى حرض المؤمنين على القتال ، ان يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين ، وان يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا ، بأنهم قوم لايفقهون**)) .

وخرج أعداء الله فى جيش لجب كثير العدد والعدة ، ليقضوا على المسلمين فى موقعة فاصلة .. فنزل أمر الله بالجهاد ..

((**اذن للذين يقاتلون بانهم ظلموا ، وان الله على نصرهم لقدير ، الذين اخرجوا من ديارهم بغير حق الا ان يقولوا ربنا الله ..**))

اذا ... فقد اصبح الجهاد فريضة مؤكدة ، وأمرا واجب الطاعة .. فكان الخروج للحرب ..

والاذن الربانى لمن تعرضوا للعدوان ، واجتراء الغير على قتالهم فيه ما يعنى شحذ نفوسهم للتأهب والاحساس بأن الدائرة قد أخذت تدور ، وانهم قد ظلموا فعلا ، وأن أعداءهم قد تجاسروا على انزال الظلم بهم ، وهم يومها قلة لا تستطيع الثبات أو النضال العلنى ، أما اليوم .. وقد تبدل الحال ، ثم استقرت الأمور ، فان الله الحى يذكرهم بأمسهم الذى ظلموا فيه ، ويومهم الذى صاروا فيه أعزة أشداء ، ليعرفوا انه قد جاء اليوم ليردوا اعتبارهم ، وأن ليس عليهم الا الاقدام ، والجراة وأن يثقوا بعد هذا أن الله على نصرهم لقدير ..

فقد((انتهز الأنصار ــ وهو الاسم الذى عرف به اذ ذاك مسلمو المدينة ــ فرصة الأشهر الحرام وهم بحاجة الى أن يعيلوا المهاجرين بين ظهرانيهم ، فاعترضوا قافلة تجارية لقريش كانت عائدة من رحلتها الى الشام فى الصيف وبهذا وجهوا ضربتهم الى أعظم نقطة حيوية فى حياة مكة العاصمة التجارية وهددوا خط التجارة الساحلى بين مكة والشام . وكان أبو سفيان بن حرب عم الرسول يرئس قافلة قريش فاتصل به خروج رجال محمد لاعتراضها فخاف عاقبة الأمر فارسل رجلا مسرعا الى مكة ليستنفر قريشا ، فانطلق قوم من مكة ليمنعوا مالهم واخوانهم ، والتقى الجمعان فى بدر ، وكان ذلك فى رمضان ، وباذن الله وحسن قيادة النبى استطاع ثلاث مئة من المسلمين ان يغلبوا الفا من أهل مكة)) .. (١)

---

(١) تاريخ العرب للدكتور حتى .

وتمت واقعة ((**بدر**)) الكبرى ... واستطاعت الفئة القليلة ، أن تنتصر على الفئة الكثيرة الباغية أروع انتصار ، وأن يكون انتصارهم ؛ هو الذهول الذى ساد أهل الضلالات جميعا ، وهزمهم هزة جريئة ، ردتهم الى الواقع ..

لقد انتصرت قلة الأمس المستضعفة فى « بدر » ، ومكن لها الله من رقاب أعدائها ، فقتل من قتل ، وأسر من أسر .. وكان هذا النصر الأول فى بدر ، مقدمة لوثبات جديدة ؛ وجهاد مستمر فى سبيل الله ..

وقد اعتبر هذا النصر معجزة وتعضيدا من الله ... وظلت هذه الروح القوية التى تجلت فى هذه المعركة الأولى فى الاسلام — ملازمة للمجاهدين فى جميع المعارك الكبرى ..

((اذ يوحى ربك الى الملائكة انى معكم فثبتوا الذين آمنوا ، سالقى فى قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق . واضربوا منهم كل بنان ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ، ومن يشاق الله ورسوله فان الله شديد العقاب)) .

وغزوة بدر هذه كانت مقدمة لانتشار سلطان النبى الزمنى وهى أول انتصارات الاسلام الحاسمة ، فلم تكن غزوة بدر — التى حدثت فى السنة الثانية من الهجرة — مجرد معركة قامت بين فريقين اختصما على بعير ، أو على قطعة من الأرض ، أو على قتل نفس بريئة ، وانما هى صراع بين حق وباطل ، انتصر فيها المسلمون بالايمان والصبر والتقوى ..

وبغزوة بدر استمرت رحى الحرب دائرة بين المشركين والمسلمين ..

وكان من أهم المواقع التى حدثت بعد غزوة بدر الكبرى .. ((**غزوة احد**)) ، اذ ما كادت تهل السنة الثالثة من الهجرة ، حتى أوقد المشركون نار الحرب أخذا بثأر بدر ، وقد ابتلى الله فيها المؤمنين ، والقى عليهم بها درسا نافعا فى حروبهم التالية ، وبهذا الاعتبار كانت نصرا فى معناها ، وان كانت هزيمة فى صورتها ، وعن هذه الغزوة نزل قوله تعالى :

((وما أصابكم يوم التقى الجمعان فباذن الله وليعلم المؤمنين ، وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا فى سبيل الله أو ادفعوا قالوا لو نعلم قتالا لاتبعناكم ، هم للكفر يومئذ أقرب منهم للايمان يقولون بأفواههم ماليس فى قلوبهم والله أعلم بما يكتمون ، الذين قالوا لاخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ماقتلوا ، قل فادرءوا عن أنفسكم الموت ان كنتم صادقين ، ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا ، بل أحياء عند ربهم يرزقون)) ..

وأخذت خطة الثائر الأعظم ورسول السلام والحب والاخاء تتطور مع الأحداث ذاتها .. واذا بالأمــور تسير من مرحلة الى مرحلة ، واذا بالسرايا التى رأيناها تجوب الصحراء بعدد محدود من المجاهدين الأبطال ، اذا بهـذه السرايا تتجمع لتاخذ هيئة الجيش المتأهب للدفاع التام ، لأن أعداء الله ، احسوا قوة رسول الله ، وخافوا أن تستمر السرايا فى التربص بهم وبتجارتهم، فتقضى عليهم اقتصاديا وتوقع بهم أفدح الخسائر المالية ، والمال كان لديهم كل شيء ..

وكان العمل الجدى المثمر للمجاهدين الذين اصبحوا جيشا ضاربا يحقق الانتصار فى كل موقعة ، وكل جولة، وكل ميدان .. ويفرض على أعداء الله الفدية لأسراهم ، والجزية لغير المقاتلين :

((قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين اوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون)) .. !!

والمصالحة على ما تم ، والمهادنة ، والرضوخ .. والخـروج الى محمد لترضيته ، ومحاولة الاتفاق معه على اسس وشروط تضمن المسالمة وتجعل جبابرة الأمس فى أمن من الغزو الذى أصبحوا يترقبون حدوثه فى كل لحظة !!

لقد هاجر رسول الله من مكة الى المدينة ، وظن أهل الضلالات ، ان هجرته صلى الله عليه وسلم ، نهاية لتصدع العشيرة ، وحماية لمجتمعهم من التفكك ، وبداية لاستقرارهم الذى كانوا يحلمون به ويتمنونه . وقد تصوروا أن هذه الهجرة ، هى الوقف الكامل للحديث فى أمر محمد ودينه فلا جدال بعد ذلك فى أمر ذلك الدين ، ولا تعرض بعد اليوم للارباب ، ولا تعريض بالآلهة ولا تسفيه للاحلام ولا جراة غلابة على جلال الصنم .

لقد ظن سفهاء مكة ذلك ، ولكن خاب فألهم ، وها هم أولاء يفقدون اشرافهم وسادتهم فى ميدان الحرب ، الواحد بعد الآخر ، وها هم أذلاء يدفعون الفدية مرغمين ، وها هو ذا تصدع العشيرة يزداد ، والعقول تتجه الى محمد فى مهجره ، وهى تتساءل .. أما زلنا نصر على انه على ضلال ، واننا على حق .. اذا .. فلماذا تكاثر عدد اتباعه ، وقويت شوكته وانتصر انواحد ، على آلهتنا جمعاء !! ثم ..

ثم تكون النتيجة هجرات جديدة ، وايمان جديد يداخل مديدا من القلوب ، فتخرج تاركة بعدها ((أحـد)) وغيرها من الوقائـع التى شهدت لمحمد بحسن القيادة ، وللمسلمين بالتمسك بأهداب الدين الذى اتبعوه واستهانتهم بالأرواح فى سبيل اعلاء شأنه .

وتحزبت الجزيرة بعد ذلك ضد محمد ومن معـه ، وارسلت القبـائل جيوشها وعتادها لتقضى عليه ، واذا بالله ينصر عبده ويهزم الأحزاب وحده

ويكتب النصر لمحمد الذى بدأ يخرج ثانية ليقضى على اليهـود الذين لعبوا فى « الاحزاب » دورا خطيرا ونقضوا مواثيقهم معه ولم يكونوا طاهرى الذمة يوم هادنوه وعاهدوه .. وانزل الله من ظاهروا الأحزاب من صياصيهم ، وادخل فى قلوبهم الرعب وملك المسلمين ديارهم واموالهم وجعلهم عبرة للغير.

((ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا ، وكفى الله المؤمنين القتال ، وكان الله قويا عـزيزا (!) وانزل الذين ظاهـروهم مـن اهل الـكتاب من صياصيهم ، وقـذف فى قلوبهم الرعب ، فريقـا تقتلون وتاسرون فريقـا واورثكم أرضهم وديارهم واموالهم وارضا لم تطاوها (!) وكان الله على كل شىء قديرا)) !

ثم بدأ محمد يزحف بجيوشه ذات اليمين وذات اليسار حتى شرع فى دخول مكة نفسها .. البلد الحرام الذى لم يحله الله لفاتح غيره ..

* * *

كانت دعوة محمد أعظم واخطر دعوة فى الوجود ورسالته الكبرى كانت اعظم رسالة حمل امانتها رسول ، لانها عامة شاملة ، لاتهدف الى ارشاد قوم او شعب خاص . بل كانت كافة لكل العالمين ، ولو سـارت على نهج الملاينة والمداورة ، وارتقاب المعجزات والنجدات الالهية الواحدة بعد الأخرى ، لطال بها الأمد ، وما وصلت الى حيث أراد الله لها أن تصل .

فالدعوا تالدينية .. دعوات قوة وعزة ، والرسالات الكبرى ، ثورات عارمة قوية على كل بال متعفن ، فان لم تكن عاصفة مدمرة ـ صعب عليها أن تسير فى طريق الاصلاح ، ولمكنت من ذاتها شتى العوائق والتيـارات المضادة المعارضة ـ من ان تقف فى طريقها وتحول دونها واتمام الانتصار .

* * *

وثورة محمد الكبرى ، كانت عديدا من الثورات ، تسير كلها جنبـا الى جنب فى صف واحد متماسك ، كانت أولاها وأهمها الثورة على المنحوتات والكواكب وكان من اللازم أن تبيدهما من الوجود ، وتقضى عليهما القضـاء الأكيد الحتمى لتستمر فى الطريق وتتجدد تلقائيا لتتخـذ شـكلا جديدا ، وتندفع فى انطلاقة جديدة لتكمل التطهير والهدم ، وتسارع بالبناء ..

من اجل هذا كانت الحكمة من ضرورة فرضية الجهاد العملى ، والنضال الحاسم ومقابلة القوة بالقوة ، وما دام الكافرون يذودون بكل ما أوتوا من قسوة وعنف دفاعا عن باطلهم ـ فان من واجب المسلمين وهم أجناد الحق أن يردوا لهم الصاع بمثليه لتعلو راية الحق وتنهزم كل الاباطيل ..

فالدين اذا ، وكما قلت .. قوة متمكنة غلابة ، والرسالة فى ذاتيتهـا ثورة خلاقة بانية ، والقوة لا يثبت وجودها غير القوة .. والثورة لا يحمى تقدمها الظافر غير قوة حارسة متيقظة .

لهذا ، كان من اللازم أن تقترن الدعوة المحمدية بما يعـزز وجودها

ويحميها من الأعداء ليكتمل بهذا وجود .. ((**خير امة اخرجت للناس**)) .. لتستطيع اداء رسالتها التى أمرت بادائها بين شتى الأمم جمعاء ..

ولقد شاء الله ، أن تسير العقيدة فى طريقها المرسوم لها ، فاستقرت فى قلوب المؤمنين .. ثم كان من اللازم أن يتعزز هذا الاستقرار بالجمع المطلق للبقية الباقية من القلوب المتباعدة ، ولو عن طريق الردع والنهى ، أو فرض الجزية ، فكان الفتح الأكبر ... وكان نصر الله الذى حققه للثائر الأعظم وابطال المسلمين ..

وهكذا تمت ، وبنجاح .. الثورة الأولى ..

وكان من اللازم ان تبدأ مع تمامها ، بداية الثورة الثانية ..

فقد كان ((**الجهاد**)) اول جديد جاءت به رسالة محمد عليه الصلاة والسلام ، وهو أمر لم تالفه الرسالات السماوية من قبل .. وثانى جديد جاءت به الدعوة الكبرى والرسالة العظمى السمحاء هو ((**الالغاء**)) !!

والالغاء فى معناه ... هو المحو والابطال ... فالغاء الشيء هو ازالته ومحوه من الوجود ، وابطال أثره وتأثيره ... ورسالة سيدنا محمد ، انما جاءت لترسى دعائم دعوة الحق على حق ، بعيدا عن الزيف والضلال ، فكان من اللازم ليتم لها هذا ، أن تقضى على كل عقيدة أخرى تخالف الاسلام بالالغاء ، والمحو والزوال التام ...

أجل .. الالغاء الكامل لتلك العقيدة حتى لو كانت عقيدة كتابية من العقائد السماوية التى سبقت بالظهور بعثته صلى الله عليه وسلم ، وكان لها كتاب وشريعة وناموس ، وكان لها فعلا وجود محتم ثابت فى قلة نادرة ، يوم نادى عليه الصلاة والسلام بالوحدانية المطهرة ، ودعا العالمين كافة الى شهادة ((**لا اله الا الله**)) ، وانه هو الصادق الأمين ((**محمد رسول الله**)) وأن دينه الكامل هو الناسخ لكل الديانات ..

وقد تبدو كلمة الالغاء التام والحالة هذه ـ أمر مستغرب امام وضع دقيق كوضع أهل الكتاب ، وكان الواجب اذن ، يقضى باتخاذ جانب الحيطة والحذر والكياسة فى المجاهدة بحتمية هذا الالغاء الواجب أن يتم بعد تمهيد ومقدمات ...

وهنا نقف لحظة ، لنستمع الى قول قائل يقول ... اذا كان الكفرة ، عبدة الصنم ، وقفوا وقفة التوثب والانقضاض والمعاندة ، للذود عن باطلهم عند ما أعلن محمد أن هذا الباطل يجب أن يزول ـ أفلا يكون من حق اهل الكتاب ، وهم من توارثوه جيلا بعد جيل ، أن يغضبوا لو قرب رسول الله من دينهم ، وتحدث عنه بما لا يرضون ...

والجواب هنا دقيق ..

ان محمدا لن يقرب دين اهل الكتاب ، لان دعوته انما هى دعوة صريحة طاهرة مبراة الى الايمان بالكتاب ..

ولكن الدعوة الى الكتاب وحكمه .. تستلزم البحث فى اصول هذا الكتاب ، لابعاد الشوائب عنه .

ولقد اثبتت الأحداث والحوادث ، أن ثمة عدوانا تم على « الوصايا العشر » ، وأن شريعة موسى عليه السلام ، قد بدلت وغيرت ، وأن الكلم قد حرف عن مواضعه ، بل ان الألواح المطهرة ذاتها ، اختفت من الوجود مع تابوت العهد ، بعد زوال سلطان اسرائيل وسوقهم أسرى يرسفون فى قيود الذل فى أرض بابل ... وان كتابهم الذى يؤمنون به اليوم كتبه كاهنهم « عزرا » فى أرض المنفى ...

الكتاب .. « اى العهد القديم » .. كتبه عزرا وهو فى الأسر البابلى .. كتبه اعتمادا على ذاكرته ، وبناء على ما سمعه من الكهان والأحبار وما اوردوه من احكام ...

والكتاب مجموعة شرائع ... واعادة كتابتها ونقلها وتسجيلها ، ان لم يعتمد على مراجع ثابتة مدعمة — فان الكتابة والنقل لا بد وان يكون فيهما تحريف وتبديل وايحاء بما يمليه الموقف ، وما يفرضه الحال نفسه من رغبة أسارى الذل فى اذكاء النفوس واشعالها بالأمل ، وتذكيرها بالماضى ، ولو كان فى هذا التذكير عدوان على الأصل ، وابدال للشريعة ذاتها لتكون وسيلة للتذكير أو التحريض الذى يريدون ...

فالكتاب — كما كتبه عزرا — لم يكن الكتاب الأصيل ..

والشريعة الى اوردها — وان دارت فى دقة حول الأصل ، وحول الوصايا نفسها ، وقد يتوارثها هؤلاء الأسارى — الا انها لم تكن الشريعة التامة المكتملة المعانى والتوجيهات .

فالعهد القديم نفسه — بعد موسى عليه السلام ، وظهور انبياء ومبشرين غيره — يذكر فى صراحة أن اسرائيل خانت العهد ، وتبدلت وتغيرت ، وان الشعب قد ضل ومن اجل هذا زجره ووعظه وحاول هؤلاء الأنبياء رده الى الحق ولا فائدة ...

وفى أيام الأسر البابلى ، خالط اليهود أمما وحضارات ، ومالوا الى الوثنية ، وادخلوا على صلب عبادتهم ادخالات لم يات بها الكتاب ، وقد لعنهم أنبياؤهم فى العهد القديم وتحدثوا فى صراحة عن خيانة الشعب لعهده ، وخروجه على الناموس ، وكيف أن الله عاقبهم على ذلك باسلامهم الى الأمم لتتحكم فى مصائرهم وتسومهم العسف والهوان فى الأغلال .

ان الأسفار العديدة التى كتبت فى ايام الأسر البابلى ، ونبوءات الأنبياء ،

وكل كلماتهم ، كانت تدور حول هذا الاجتراء والخروج السافر على صلب الشريعة المرسومة ذاتها ، كما كانت تؤكد أن الشعب الظالم سيظل يقاسى ما دام قد نسى العهد وخرج على ما أوصاه به الله ...

ولكن اسرائيل لم تبرأ من علتها وبقيت على الخروج والعصيان ، حتى بعد أن تولت أيام الأسر وزالت ، وقدر للرقيق المستعبد أن يسترد حريته ، وأن يذهب حيث يشاء ..

وهنا نسال ... هل اعتبرت اسرائيل بالماضى ... وهل عادت الى الكتاب كما كتبه عزرا نفسه ؟ ! ... (١)

لا .. والف لا .. فالعصاة كانوا هم العصاة ، والمتمردون هم نفس المتمردون ، ومن خرجوا من قبل على النبى رسولهم موسى وهو فى أوج عزه ، يتلقى كلمات الله واوامره ، وعبدوا العجل ـ ظلوا كما هم ، عصاة ، بغاة ، عادون حتى على الشريعة والكتاب وألواح العهد ...

بل ان ما كتبه عزرا قبل هذا ، وأجهد فيه نفسه لم يسلم من عدوان طائفة مضللة منهم عرفت باسم الكتبة ، وطائفة اخرى هى طائفة الفريسيين والأحبار والكهان ، وان السيد المسيح عليه السلام ليخرج برسالته ليبطل باطل هؤلاء جميعا ، ويصفعهم بالحقائق ويتهمهم بالزيف والضلال والافتراء والجراة على الكلم العظيم ، الذى جاء عليه السلام ليصححه ويعيده الى اصله ويطهر الشريعة الكبرى من الادعاءات والأباطيل ...

ولقد طهر عيسى عليه السلام الشريعة فعلا .. وأقام الناموس بوحى من الله ، وكما أمره الله ، واوحى اليه من حقائق قضت على الأكاذيب والافتراءات .. ثم أورث السيد المسيح عليه السلام الرسالة والكتاب لحوارييه ومن اتوا من بعدهم .. ثم ما لبثوا أن شغلتهم الدنيا ، واخذهم بهرج المظاهر وجلال المركز الدينى الخطير الذى صاروا اليه ، فكان ان عدوا على الميراث بدورهم ، وتجاسروا على الشريعة المطهرة ، بعد أن اصلحها السيد المسيح وحرفوا فيها وحوروا بمثل الجراة التى اقدم عليها من قبل من حرفوا كتاب العهد ، ووصايا الله التى جاء بها موسى عليه السلام ، واشتروا بالآيات الطاهرة ثمنا قليلا ، وأرادوا الحياة الدنيا والسلطان على الناس ...

ومن هنا .. وامام ما كان بيد اليهود من كتاب ... وما كان بيد النصارى من كتاب ... قامت بين الطائفتين جدليات ومعارك وراح كل يدعى انه صاحب الدين الاصيل .

« وقالت اليهود : ليست النصارى على شىء (!) وقالت النصارى :

---

(١) عزرا ــ هو عزير الذى جاء ذكره فى القرآن .

ليست اليهود على شيء ، وهم يتلون الكتاب (!) وكذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم ، فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ... »

واذن ... وامام هذا الاختلاف الرهيب بين اصحاب الشريعة والكتاب ... وامام ما جاء به القرآن من قول حاسم لا يأتيه الباطل ... وبالاستناد الى احداث الماضي وحوادثه ، وما يرويه التاريخ والوقائع عن الاجتراءات التى نسبت الى الشريعة ، والابدالات التى اقحمت على الكتاب ...

امام هذا كله فلا بد وان نجزم بان الأصل الصحيح قد اختفى ... وأن الشريعة الكاملة ، قد ثبت أن ثمة اعتداءات بشرية قد أصابتها ، وأنه قد زيدت عليها ادخالات جريئة ما أنزل الله بها من سلطان وانقصت منها أوامر ، بدون وجودها لا يكتمل الأمر ولا يصحح الوضع بأى حال من الأحوال ...

ذلك ما شهد به الواقع ، وايدته شتى الأحداث ... ولو أن أصحاب الكتاب واهله من يهود ونصارى ، كان يهمهم العودة الى الأصل ، ويأبهون لتصحيح الأوضاع وظهور الحقيقة ، لأسرعوا الى محمد ولظاهروه ، ووقفوا الى جانبه يؤيدونه ، ويعلنون كاملَ الايمان بما جاء به ليحسموا كل خلاف فى العقائد ويطهروا الشريعة من الشوائب ، ويرجعوها الى جوهرها الأصيل الذى جاء به القرآن ...

لو انهم أرادوا الحق ، وسيادة الشريعة ، لفعلوا ذلك ولكن ...

هل كان من المعقول ان يتنازل اليهود عن سلطان زال عنهم فعلا منذ انذرهم السيد المسيح بأن جلال الشريعة قد تركهم الى الغير ممن سوف يعملون به ...

وهل كان من المعقول ان ينزل عن كراسى الذهب والجوهر ، رءوس النصارى ويسلمون لمحمد بالصدارة والسيادة فى الدين !!

تلك كانت المشكلة الكبرى ... استمساك لا بالحق بل ... بالمظهر الخداع ولو ادى ذلك الى الوقوف الى جانب الباطل بكل القوى ، وكل الامكانيات ...

وهكذا .. وقف اهل الكتاب عن بعد يرقبون سير معركة التوحيد مع الوثنية وكان الأمر لا يهمهم فى شيء على الاطلاق ثم ... ولما انتهت المعركة بفوز الحق وسطوع نوره — ظهر أهل الكتاب وخاصة اليهود على حقيقتهم ورفعوا اقنعة الزيف التى اخفوا بها وجوههم لأمد طال مداه ...

وتقدم اهل الكتاب وفى نية طائفتيهم أن تغامرا بوسيلة جديدة ، وأسلوب جديد ...

ولقد اكدت الأحداث نفسها ان اليهود والنصارى تحمسوا لدعوة سيدنا رسول الله ، ورحبوا بها — لا عن رغبة ، أو حسن نية — بل لعلة فى نفس كل فئة من الفئتين ...

فاليهود وقد عرفوا الحق فى دعوة محمـد صلى الله عليـه وسـلم ، أرادوا ملاينة الرسول ، وأخذه الى جانبهم لكى يتم لهم تهويد الدعوة ، لتعزز شريعتهم على شريعة النصارى ، وليثبتوا للملأ جميعا أنهم أصحاب الحق وحفظة الشريعة ، وأن دينهم هو أكمل دين ...

والنصارى بدورهم مالوا الى جانب الرسول الأعظم ظنا منهم أن هـذا الميل يجعله صلى الله عليه وسلم يميل اليهم ، ويركن لهم ، فيتم لهم ما ارادوه من تنصير الدعوة ، والميل بها الى جانبهم ، لتعلو شريعتهم وكتابهم على شريعة اليهود التى أعلن السيد المسيح تقويض بنيانها ..

وبهذا ... وعلى أساس تلك الخطة الغريبة التى رسمها رؤوس كل من الطائفتين ، يصبح سيدنا الصادق المبرأ رسـول الله ، داعية لليهودية ، أو النصرانية ، مثبتا لكل منهما ، أو لأى منهمـا ما وقر به كتابه من تحريف وتبديل واجتراء ...

« ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم (!) قل ان هدى الله هو الهدى ، ولئن اتبعت اهواءهم بعد الذى جاءك من العلم ، مالك من الله من ولى ولا نصير ... »

فالالغاء الكامل لأى عقيدة غير الاسلام ، لا يعنى أن سيدنا رسول الله ، لم يكن عليه اكثر من أن يقرر هذا الالغاء وينادى به ليتم ، ويطيع أصحاب هذه العقائد ... بل ان الالغاء الحق الذى يجب أن يتم ، انما يحدث تبعـا للأوامر الدينية والتوجيهات السماوية ، وما يجىء به الوحى من آيات فى القرآن ، وبمقتضاها يتم التعرض والالغاء ويعلن البطلان ...

ومن أجل هـذا الالغاء العلنى ، وفى سبيله — وجه رسول الله دعـوته الى اهل الكتاب ودعاهم الى الاسلام دين الفطرة ... دين ابراهيم واسماعيل ويعقوب والأسباط .. دين موسى وعيسى ...

« يا ايها الناس انى رسول الله اليكم جميعا ... »

اجل ... جميعا ودون تفرقة .. بل أن أول من بعث اليهم رسـول الله ، كانوا ولا جدال أهل الكتاب ، لأنهم على علم وعلى بينة من الأمر ...

ولكن طبيعة الانعزالية التى الفهـا اليهود ، وأورثتهم اياها عهود الرق الطـوال ، جعلتهم ينفرون من الدعـوة الصريحة الحقة ، ويسـارعون الى جحورهم كالثعالب الماكرة المذعورة ، ولسان حالهم يقول « كيف نؤمن بمحمد والكتاب فى أيدينا ونحن أصحاب الشريعة ... »

وجاءهم الجواب ... بل التكليف والأمر من عند الله فى قوله لهم :

« يا بنى اسرائيل ، اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم ، واوفوا بعهدى ، أوف بعهدكم واياى فارهبون ، وآمنوا بما انزلت مصدقا لما معكم ولا تكونوا

أول كافر به ، ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا واياى فاتقون ، ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون ... »

ولكن اليهود كانوا عصاة يأبون الطاعة ، ولهم فى العصيان والتمرد تاريخ طويل ، فعصوا ، وضلوا ، وأصروا على الكفر ، وآثروا الاستمساك بالباطل على اتباع طريق الحق .

وكرر محمد عليه الصلاة والسلام دعوتهم الى الحق مرة بعد مرة ... وكانوا يزدادون عنادا فى كل مرة ..

ورغم هذا .. ما داخل اليأس قلب سيدنا رسول الله ، فراح يحـاول بالحسنى ، ويدعو الى الله بالموعظة الحسنة ، ثم يسارع فيذكر اهل الكتاب بالعهد والميثاق ، وبأنه لم يأتهم بجديد بل انه يجدد القديم ، ويقومه ويعيده الى أصله ، ولـكنهم أبوا ان يسمعوا وأصروا على التصـامم والبعد .. ثم الانزواء ..

اجل ... الانزواء ... لا حبا فى البعد أو تجنبا للمخالطة ، بل ليخلوا الى شياطينهم ، فيدبروا معهم الدسائس والمكائد ، ويلجأوا الى اسـلوبهم المعروف عنهم منذ أقدم الأزمان ، وهو اسلوب الغدر والتربص والتحريض على الاجرام ...

« ولما جاءهم كتاب من عند الله مصـدق لما معهم ، وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا ، فلما جاءهم ما عرفـوا كفروا به ، فلعنة الله على الكافرين » ..

واستمسكت عصبة الشر بالكفر ، وأبوا ان يفتحوا عيونهم على النور الوضاء ، الذى كانوا يعرفونه جيدا ، والذى بشرهم به موسى ، وتحدث عنـه سائر النبيين فى كل عصر وأوان ...

أبوا أن يصغوا الى البشير النذير محمد بن عبد الله ، وكأنما كبر عليهم أن يهتدوا على يديه ، وهم الذين جاهروا بالكفر ، وعبدوا العجل ، وموسى عليه السلام فيهم وهارون بين صفوفهم ...

طاب لهم البغى ، واستمسكوا بالضلال ، وأحبوا الكفر ، ومالوا اليـه بجوارحهم وأحاسيسهم لأن نفوسهم جبلت على الشر ، وكانت نفوس معوجة، مظلمة ، لم يستطع أن يبعث ومضات من النور اليها كتاب ، كما عجز عن تطهيرها رسول من الله بعد رسول ، ونبى بعد نبى ، حتى تجددت الآية مرة اخيرة ، وهم يحاجـون ويجادلون سيدنا رسـول الله محمد المختار عليه الصلاة والسلام ..

« بئسما اشتروا به انفسهم ان يكفروا بما أنزل الله بغيا ، أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده ، فباءوا بغضب على غضب وللكافرين عذاب مهين » ...

وعاد رسول الله يدعوهم الى الايمان ويطالبهم ان يجددوا العهد ، ويعودوا الى جادة الصواب ويؤمنوا بما انزل الله ، فزادوا عصيانا ، ولجوا فى عتو ونفور ، واصروا على الكفر ، وقالوا لن نؤمن الا بما بين ايدينا من كتاب ..

« واذا قيل لهم آمنوا بما انزل الله ، قالوا نؤمن بما انزل علينا ، ويكفرون بما وراءه ، وهو الحق مصدقا لما معهم ، قل فلم تقتلون انبياء الله من قبل ان كنتم مؤمنين » ...

ووضعتهم آيات الله امام حقائق ماضيهم ، واظهرتهم على حقيقتهم ، فبدوا وكما عرفتهم الأجيال المتلاحقة ، عصاة ، بغاة ، قتلة آثمين ...

لقد كان سيدنا رسول الله يرجوا لو يهتدون ويكفرون عن ماضيهم ومساوئهم ، ويذرون التعالى جانبا ، ويدعون الكذب وراء ظهورهم ، ولا يباهون بالاخطاء ، ويدعون بعد ذلك انهم احباء الله ...

ووقف القرآن للظالمين موقف الجد ، وراح ينشر من مساوئهم وأوزارهم صحائف بعد صحائف حتى لا يجسر جرىء منهم فيدعى انه على دين ، وانه يستمسك بذلك الدين ، فى حين ان حقيقته الواضحة ، وماضيه قريبه وبعيده يثبت انه كافر وعلى ضلال ، وانه ابعد ما يكون عن الايمان بالكتاب الذى يدعى أنه مؤمن به .

« ولقد جاءكم موسى بالبينات ثم اتخذتم العجل من بعده وانتم ظالمون ، واذا اخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور ، خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا ، قالوا سمعنا وعصينا واشربوا فى قلوبهم العجل بكفرهم (!) قل بئسما يأمركم به ايمانكم ان كنتم مؤمنين » ..

وهكذا ، وامام حق القرآن الصراح ، ثبت أن اهل الكتاب ، لم يكونوا غير قوم مظهريين فى كل شىء ، وانهم كانوا ابعد ما يكونون عن الكتاب والايمان به ، لأن حقيقتهم الكامنة ، كانت تتمثل فى انهم اشربوا فى قلوبهم العجل ، فعبدوه ، وقدسوه منذ ايام موسى ، ومن بعده ، حتى خالطوا أمما كثيرة بعد الاسر البابلى ، اخذوا من وثنيتها ما اخذوا ، ورغم هذا راحوا يتشدقون بانهم على دين ، وانهم اصحاب كتاب ؛ ولو كانوا يؤمنون بالكتاب حقا كما يدعون ، لوجدوا الكتاب مع سيدنا رسول الله ، آية بعد آية ، وعهدا بعد عهد ، ووصية فى اثر وصية .

ورغم الحق الواضح الذى اظهره كتاب الله ، راحوا يكابرون ، ويحاولون التهرب من الواقع وادعوا فوق ما ادعوا ، ان لهم وحدهم الدار الآخرة وما حوت من نعيم ...

ومرة ثانية الجمهم الحق فى قوله سبحانه :

« قل ان كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت ان كنتم صادقين (!!) ولن يتمنوه ابدا بما قدمت أيديهم والله عليم

بالظالمين .. ولتجدنهم أحرص الناس على حياة (!!) ومن الذين أشركوا يود أحدهم لو يعمر ألف سنة (!!) وما هو بمزحزحه من العذاب ان يعمر ، والله بصير بما يعملون ... »

وراحت الآيات تترى فى إثر الآيات ، وكلها يهدم باطل اليهود والنصارى ، ويثبت ان أهل الكتاب كانوا أبعد الناس عن الايمان بالكتاب ، لأن الكتاب الحق ، والشريعة الحق ، والدين القيم انما نشر من جديد وأنزل على محمد فى كتاب مبين من لدن عزيز حكيم أمره ان يقراه وأن يتلوه ، وأن يدعو اليه العالمين كافة ، لينالوا رضوان الله ، ويكون لهم السبق الى الايمان والثواب العظيم .

« تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ، ليكون للعالمين نذيرا »

لقد جاء سيدنا وهادينا محمد المختار من خير خلق الله ، عليه صلوات الله وسلامه ليهدى العالمين كافة الى الدين الحق ، وشهادة انه لا اله الا الله ؛ وانه وحده تفرد وعلا ، وجل وتعاظم ، فرد ، صمد ، لا شريك له فى ملكه ، لم يلد ، ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد .

جاء الهادى البشير لينشر الهدى ، والرحمات ويبشر الذين يعملون الصالحات ان لهم أجرا حسنا ، وأن رسالته للعالمين كافة ليخرج الناس من الظلمات الى النور ، ويحرر البشرية من الترهات والأوهام والأباطيل وتحكم الكهنوت ، ويطلق العقل من أساره ليكون حرا كما أراد له الله أن يكون ..

« يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب ، ويعفو عن كثير ... »

جاء عليه الصلاة والسلام ليخاطب بدينه كل عقل ، ويهدى بالقرآن كل أصحاب دين ، ويرد بيقينه وثباته وشجاعته الحقيقة المقدسة الى مكانها الاسمى ويعيدها الى جادة الهدى وهو يدعو الى الله الذى أيده بالنور الوضاح والكتاب الكريم ...

« قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ، يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ، ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه ويهديهم الى صراط مستقيم » ..

فرسالة المختار الهادى أمام هذه التبعات الجسام ، والحقائق الملموسة الواضحة — هى أضخم رسالة جاءت الى هذا الوجود ، وان العبء الذى كلف بحمله الصادق الأمين محمد بن عبد الله ، لأعظم عبء حمله رسول ، ويكفيه انه لم يخاطب العقول بالمعجزات والغرائب ، بل بالعمل والمنطق وقوة الاقناع ، وجلال اليقين ، وروعة الايمان ، ويضع التفكير البشرى فى محك التجربة والاختبار الدقيق وهو يعرض عليه بدافع ما صنع الله ، وروائع ما خلق سبحانه وتعالى ...

وشمول دعوته بعد هذا ، وامتداد رواقها على جميع مخلوقات الله ، أمر مسلم به ، فلم يأت محمد بدينه ليهــدى البشر فحسب .. بل ليهدى أهل العوالم الاخرى أجمعين ... جاء ليهدى الجن ، كما هـــدى الانس ، ((ويريد الله ان يحق الحق بكلماته ، ويقطع دابر الكافرين)) !

لقد شرع الله الدين الحق لعباده من الانس والجن ، وفــرض عليهم أن يعبدوه وحده ، اذ انه سبحانه ما خلق الجن والانس الا ليعبدوه ، ويسبحوا بحمده ، ويقروا بجلاله ويقدسوه وحده ..

((واذ صرفنا اليك نفرا من الجن يســـتمعون القرآن ، فلما حضروه قالوا : انصتوا .. فلما قضى ولوا الى قومهم منذرين ، قالوا : يا قــومنا انا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه ، يهدى الى الحق والى طريق مستقيم ، ياقومنا أجيبوا داعى الله وآمنوا به ، يغفر لكم من ذنوبكم ، ويجركم من عذاب اليم)) .

لقد استمع الجن فى عوالمهم الى محمـــــد ، واصغــوا الى كلام الله ، فاخذهم وروعهم ، ونفذ الى أعماق قلوبهم ، فآمنوا به ، واهتدوا الى الرشد ، واقروا بالوحدانية لله ، وبأن محمدا الأمين هو رسول الله الى عالم ما كان أحوجه الى مقدمه العظيم .

((قل اوحى الى أنه استمع نفر من الجن فقالوا انا سمعنا قرآنا عجبــا يهدى الى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا احدا)) .

آمنت الجن .. واستنارت قلوبها وتفتحت للدعوة وكتاب الله ولكن ...

ولكن اهل الكتاب عصوا وتمادوا فى الضلال فحقت عليهم اللعنة ، وباءوا بغضب من الله عظيم ...



كان الاسلام قائما على أساس البحوث والنظر والعقل والدليل فحرية الاعتقاد فيه مكفولة والرسول حينما يطلب من الناس أن يؤمنوا بدعوته لا يحملهم عليها اكراها ، لأن طبيعة الايمان تأبى الاكراه ، وقوله تعالى :

((لا اكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى)) ـ يؤكد للخلق أن الدين هداية اختيارية للناس ولا سلطان للرسول عليهم غير سلطان التذكير والموعظة الحسنة ، قال الله تعالى مخاطبا رسول الله صلى الله عليه وسلم :

((فذكر انما انت مذكر . لست عليهم بمسيطر)) ..

((ليس عليك هداهم ، ولكن الله يهدى من يشاء)) ..

((فانما عليك البلاغ وعلينا الحساب)) ..

« ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعا ، افانت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » !!

وفى هذا ما يؤيد ان الاسلام يابى ان يتخذ الاكراه طريقا للدعوة اليه ونشر تعاليمه ..

فالاسلام لم يلجأ الى السيف الا حيث يكون هو الطريق الوحيد ، الذى يحفظ به كيانه ، ويدفع عنه شر أعدائه . والقتال لم يشرع الا دفاعا وردا للعدوان وحماية للدعوة من كل اعتداء .

وفى ذلك رد على من ادعى أن الاسلام قد اعتمد فى دعوته على السيف والقتال ، فان الاكراه ووسائل العنف ليست من السبل القويمة للدعوة الى الدين ولكنه فرض الجهاد وشرع القتال لقمع الفتنة وحماية الدعوة ورد الاعتداء :

« وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين » ..

وكان المشركون يبداون المسلمين بالقتال لأجل ارجاعهم عن دينهم وكان ذلك كافيا لاعتبارهم معتدين ، لهذا كان قوله تعالى :

« فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا آن الله مع المتقين » ..

فان انتهى الاعتداء وجنحوا للسلم فلا قتال :

« فان اعتزلوكم فلم يقاتلوكم والقوا اليكم السلم ، فما جعل الله لكم عليهم سبيلا .. فان لم يعتزلوكم ويلقوا اليكم السلم ويكفوا ايديهم فخذوهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم واولئكم جعلنا لكم عليهم سلطانا مبينا » ...

وهكذا كان السلم هو الأساس الذى يهيىء الناس جميعا حياة مستقرة ويجعلهم اخوانا فى الانسانية .. لكل دينه الذى يدعو اليه بالحكمة دون الاضرار بالغير .. لهذا كان قوله تعالى :

« لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ، ولم يخرجوكم من دياركم . أن تبروهم وتقسطوا اليهم ، ان الله يحب المقسطين ، وانما ينهاكم عن الذين قاتلوكم فى الدين واخرجوكم من دياركم وظاهروا على اخراجكم ان تولوهم ، ومن يتولهم فاولئك هم الظالمون » ..

وهكذا ... وبقوة الآيات البينات ، ونورانية القرآن العظيم ، قضى الله سبحانه وتعالى بأنه لا دين غير الاسلام ، ولا كتاب سماوى غير القرآن الكريم

لقد جمعت رسالة محمد الدين كله ، الدين الحق بما حوى ... الدين الذى يقوم على اساسه اقوم وأكمل مجتمع ، وعلى ضوء فرائضه المنزلة يسير الناس جميعا نحو الكمال الخلقى التام من كل الوجوه ، والمثالية الكاملة فى

التعامل ، وتقديس الروابط وتمجيد الصلات ، وعلى نور أحـــكامه تبين اشعاعات الحقـائق التى طمستها جهالات العصور ، وتتهدل الحجب التى فرضها على العقول غموض الطقوس وسرية الشعائر ، وطلاسم الكهان ...

دين هو الكمال فى لبه ، لأنه ارادة الله ، ووحى الله ، وأوامر الله التى ينتظم بهـــا مجتمـع البشر وتنصــلح أحوالهم ويكمل وجودهم العقلى ، ويتحررون من سلطان الوهم ، وتحكم الخرافات .. فـلا كهانة ولا كهنوت بل علماء مجتهدون ، دين لم ينتظم شريعة خاصة ، ولا وصايا محددة .. بل دين شامخ عظيم متكامل ، تنزه عن تفكير الفرد وانانيته ، فيه كل جديد لا يبلى ، وكل قديم فيه الجدة والتطوير ، لم تفته شاردة ولم تفلت منه واردة ، انتظم كل نبيل لكل زمان ، وتحت لوائه سار ركب الفضائل النورانية ...

دين قرر مبدأ الشورى فى الحكم : ((وأمرهم شورى بينهم)) ..

دين فيه من وصـــايا الله الى نوح ... وفيــه من صحف ابراهيم امام الناس جميعا ومرشدهم الى الحق ، وفيه تعاليمه وأسس معرفته الربانية التي أوصى بها بنيه : اسماعيل واسحق ويعقوب والأسباط جميعا ...

دين فيه ما آتى الله الملك الحق أنبياءه الذين اصطفاهم جميعا ، وفرض عليهم الفرائض وبعثهم بالهدى الى الشعوب ...

دين فيه من بعد هذا كله ((شريعة موسى)) وما جاء به ((عيسى)) ..

دين هو الأول من حيث نورانية الدعوة ، هو الآخر اذ حوى الخلاصة ، وجمع الكل ، وجاء به خاتم النبيين الى أمة لا يضيع بين أهليها حق ولا يقوم باطل ولا تخبو نورانية شريعة ، ولا يضل ناموس ، ما دام نبراسها هو كتاب الله وهاديها هو القرآن الذى نزل على عبد الله ورسوله سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، هدى الى خير أمة أخرجت للناس ...

((ووصى بها ابراهيم بنيه ويعقوب : يا بنى ان الله اصطفى لــكم الدين فلا تموتن الا وأنتم مسلمون)) ..

((شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا اليك ، وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى ، ان أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ...))

ذلكم هو الحق الذى جاء به محمد الهادى مبدد الظلمات ...

ذلكم هو الحق الذى بعث الله به رسوله رحمة للعاملين .. ولكن ..

هل رحبت قلوب الناس جميعا بمقدم هذه الرحمة ، وهل تفتحت للغيث السماوى المنهمر بالرضا والبركات !!

هل عرف السـادرون فى الظلمات ؛ كيف يهللون للشروق المرتجى ويسارعون الى فيوض النور ؛ فيعيشون فى سطوعها الشامل سعداء منعمين.

لقد كان الناس أمام دعوة رسول الله الى الهدى حزبين : حزب لم يكن على علم ، فلما جاءه العلم ، رحب به ، ومشى تحت لوائه واستظل بعزته وسار فى بهرج نوره .. وحزب كان على علم ، فلما جاءه العلم ، وحل الموعد المحدد لاشراقة الهدى ، تنكر للعلم ، وأنكر ما بين يديه من آيات ، وخشى أن يعمى النور عينيه ، وأسرع هاربا ليعيش فى ظلمات الجهل والحقد والضلال ...

لقد نسخت دعوة رسول الله كل دعوة سبقتها ... ومحت كل عقيدة كان لها وجود يوم بعثته صلى الله عليه وسلم ... وجاءت بالحق والهداية لتتم ارادة الله ، ويظهر الاسلام على الدين كله ...

ولكن .. وفى نفس منعطف الطريق الشائك المظلم الذى تخيره أهل الكتاب لما دعاهم موسى الى الطاعة والايمان ـ عادوا من جديد الى التربص ، فألقى عليهم القرآن الكريم اشعاعات من نوره القدسى الوضاء ، كشف عن حقائقهم وخباياهم ، واظهر أن أهل الكتاب هم أبعد الناس عن الكتاب ، والعمل بأحكام الكتاب ، وسيظلون كذلك أبعد الناس عنه ما لم يتخذوا الاسلام دينا والقرآن دستورا وكتابا منزلا ، ويشهدوا أنه لا اله الا الله ، وان الصادق الأمين محمدا رسول الله ، وخاتم النبيين ...

ويأتى بعدهم الذين أشركوا ... ورثة عيسى وحفظة ناموسه الذين أضاعوه ، وأثبتت الشواهد جمعاء ، أنهم عدوا على قداسته ، وأتوا على جلاله ، ولم يبدلوا فيه ويغيروا ويحرفوا فحسب ... بل جعلوا لله أندادا ، وولدا ، بل ... وشريكا له سبحانه فى الوهيته ولا حول ولا قوة الا بالله ..

لقد حمل لواء الشريعة بعد السيد المسيح الحواريون من تلامذته ، الذين آمنوا به ... وراحوا يبشرون بدينه ومبادئه ... وهنا نقف ... نقف لحظة لنسمع ما يقول واحد منهم هو « برنابا » مخاطبا مريديه من طلاب الحقيقة :

« أيها الأحباء ... ان الله العظيم قد افتقدنا فى هذه الأيام الأخيرة بنبيه يسوع المسيح ، برحمته العظيمة للتعليم والآيات التى اتخذها الشيطان ذريعة لتضليل كثيرين بدعوى التقوى مبشرين بتعليم شديد الكفر ، داعين المسيح ابن الله ، ورافضين الختان الذى أمر به الله دائما ، مجوزين أكل لحم نجس ، الذى ضل فى عدادهم أيضا بولس الذى لا أتكلم عنه الا مع الأسى ...

وقد كتب « برنابا » هذا انجيلا ، شأنه فى ذلك شأن جميع حوارى السيد المسيح ...

كتب « **برنابا** » انجيله ، معارضا فيه بولس الذى اختلف معه ، وفارق كلاهما الآخر ، واتخذ كل لنفسه ودعوته سبيلا بعيدا عن الآخر ...

وبقى انجيل ((برنابا)) مع غيره من اناجيل بطرس ، وبولس ، ومتى ، ويوحنا ، ولوقا حتى كان عام ٤٩٢ الميلادى حيث اصدر البابا ((جلاسيوس)) قرارا ، حرم فيه تداول انجيل ((برنابا)) وقراءته !!

اجل .. حرم جلاسيوس انجيل برنابا لانه يتكلم عن الحق .. ويأبى ان يضل مع الضالين ، او يشرك مع المشركين فيدعى الوهية عيسى ، أو يجسر فيقول انه ابن الله ...

حرم ((**جلاسيوس**)) انجيل برنابا عام ٤٩٢ ميلادية اى قبل مولد محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم بتسع وسبعين سنة ... وقبل بعثته بقرن كامل وبضع سنين .. ورغم هذا ، فان هذا الانجيل يذكر فى صراحة أسم « محمد » فى كثير من المواضع ، وفى حديث للسيد المسيح ينكر على اتباعه فكرة تاليهه ، وانه ليس ابن الله ، بل ابن الانسان .

((فلما كان الناس قد دعونى الله ، وابن الله ، على انى كنت بريئا فى العالم، اراد الله أن يهزأ الناس بى فى هذا العالم بموت يهوذا معتقدين اننى انا الذى مت على الصليب لكيلا تهزأ الشياطين بى فى يوم الدينونة ، وسيبقى هذا الى ان يأتى محمد رسول الله ، الذى متى جاء كشف هذا الخداع للذين يؤمنون بشريعة الله ...))

فاذا قلنا ان التوراة ، قد شهدت بمقدم سيدنا رسول الهدى محمد عليه الصلاة والسلام ، وان الانجيل بشر به ، وان عيسى ذكر اسمه صراحة كما ورد فى القرآن ((**ومبشرا برسول يأتى من بعدى ، اسمه أحمد**)) فاننا هنا ، وأمام قول ((**برنابا**)) نستشهد بشاهد من أهلها .. شاهد صادق بدليل ان الكنيسة حرمت انجيله قبل مولد محمد وبعثته بقرن من الزمان ، كى لا يهدم دعوى الشرك والمشركين وتبقى الاكذوبة قائمة لان من وراء قيامها يعيش قوم مترفون ...

ان السيد المسيح فى انجيل برنابا ينفى عن نفسه الالوهية ، والانتساب الى الله كابن له كما يدعون .. بل ويجادل فى حادث الصلب والاجتراء ،

ويقول ان هذه الحقيقة التى سيطمسها المضللون سوف يكشفها محمـــد رسول الله .

وبرنابا فى هذا يقول بالحرف الواحد :

« .. لأن الله سيصعدنى من الأرض وسيغير منظر الخائن حتى يظنه كل أحد اياى ، ومع ذلك فانه لما يموت شر ميتة أمكث فى ذلك العار زمنا طويلا ، ولكن متى جاء محمد رسول الله المقدس تزال منى هذه الوصمة ، وسيفعل الله هذا لأننى اعترف بحقيقة مسيا - اى الرسول - الذى سيعطينى هذا الجزاء ، اى ان اعرف انى حى ، وانى برىء من وصمة تلك الميتة ... »

وقد أورد برنابا قول عيسى منكرا الوهيته :

« انى اشهد امام السما واشهد كل ساكن على الأرض انى برىء من كل ما قال الناس عنى من انى اعظم من بشر ، لأنى بشر مولود من امراة ، وعرضة لحكم الله اعيش كسائر البشر عرضة للشقاء العام » .. (١)

ويدرك عيسى ان هذه الدعوة الكاذبة قد تنتشر فيهتف قائلا :

« الحق اقول لكم متكلما من القلب انى اقشعر لأن العـــالم سيدعونى الها ، وعلى أن اقدم لأجل هذا حسابا ، لعمر الله الذى نفسى واقفة فى حضرته انى رجل فان كسائر الناس ، على انى وان اقامنى الله نبيا على بيت اسرائيل لأجل صحة الضعفاء واصلاح الخطاة خادم الله وانتم شهداء على هذا » (٢)

وهنا ... وأمام تلك الحقيقة التى لا جدال فيها ، والتى عمد أحـــد البابوات وهو « جلاسيوس » الى اخفائها ، كى لا ينهار ركن من اركان العقيدة التى اقامتها عقليات البشر وأطماعهم لمآرب خاصة - نقف لحظة ونحن نتساءل فى هدوء : هل اختفت فعلا تلك الحقيقة الناصعة التى ذكرها برنابا فى انجيله وتمت ارادة البابا جلاسيوس كما شاء ؟ !

والجواب دون شك ... لا ... ان الحقائق لا يخفيها المغرضون ..

ونور الشمس لا تحجبه ظلال الشجر ولو كان من الدوح الباسق ، لأن الله يأبى الا أن يتم نوره ولو كره المشركون ..

---

(١) الاصحاح ٩٤ : ١ - ٢ .

(٢) الاصحاح ٥٢ : ١٠ - ١٤ .

ان هذه الحقيقة ، بنصها وروحها ، ورمزها ، كتبت فى انجيل يوحنا ، وعميت عنها عيون المتربصين ، ولم يفطنوا الى ما كانت تعنيه البشارة ويشير اليه الرمز ، الذى كشف عن الطلسم الذى زاده المغرضون غموضا ، وأزاح عنه ما تراكم عليه من الاسرار ..

« متى جاء روح الحق الذى من عند الرب ينبثق فهو يشهد لى ... »

فمن يا ترى يكون **روح الحق** هــذا الذى **ينبثق من عند الله** بعد السيد المسيح ويشهد له ، ويقرر الحقيقة فى عيسى بن مريم !!

أيكون هو احد رسل السيد ، وحوارييه ومريديه !!

لا .. والف مرة لا ... فمريدو عيسى وحواريوه هم أتبـــاع المسيح وتلامذته ورسله ، وهو الذى واصل بهم المسير ولم يجسر أحد منهم أن يدعى انه هو روح الحق الذى ينبثق من عند الله ليشهد للسيد المسيح ..

فروح الحق ـ الذى يعنيه برنابا اذن ـ .. هو سيدنا محمد الهادى .. القادم بالحق والهدى والنور ... وان فى انجيل يوحنا ما يؤكد ما جاء به « **برنابا** » ولن يكون روح الحق غير الصادق سيدنا رسول الله ..

ونعود بعد هذا فنتساءل ، هل جاء بعد عيسى رسول أو نبى غير محمد الذى بشر به ونبأ عنه ؟!

هل جاء بشير نذير ، غير محمد المختار من خير عباد الله ، رسولا الى الناس أجمعين !!

اننا وقبل أن نساير تيار الحديث نقف لحظة ، لا لنعيـــد ما فات أو نكرره ، لنؤيده ببراهين من الكتاب ... بل لنتأمل « **برنابا** » ونقرأ ما رواه عن السيد المسيح وهو يدور فى ذات الموضـــع الغامض ليجلوه ويطهـــره من الزيف فيقول :

« الى أن ياتى محمد رسول الله ، الذى متى جاء كشف هـــذا الخداع للذين يؤمنون بشريعة الله ... »

فأى خداع هذا الذى يشير اليه عيسى ويؤكد أن أخاه محمدا سوف يجلوه ...

انه كثير .. أجل .. خداع وزيف كثير وعديد .. خداع متعدد .. وأكذوبة أولى ، قامت على أساسها المنهار عدة أكاذيب ..

* * *

« ولقد تبين للباحثين أن المسيح عيسى ابن مريم ، جاء الى أصحابه بكتاب هو « الانجيل » وترتب على ذلك ضياعه واستمساكهم بكتب ألف بعضها تلاميذ المسيح وبعضها ألفها تلاميذ تلاميذه أو من بعدهم . وقد كثرت الأناجيل كثرة فاحشة أربت على المائة .. ومعلوم أن الكنيسة رفضت ما يخالف رغبتها واقرت الأناجيل الأربعة « متى ، ومرقص ، ولوقا ، ويوحنا » ، وهى المعروفة اليوم على ما هى عليه من انقطاع السند وعدم العلم التام بالمؤلف الحقيقى أو المترجم ومبلغ أمانته على الدين وحرصه على الصدق . وعلى ما بينها من الاختلاف الواضح الحقيقى المفضى الى أن أحد الأقوال صادق وما عداه كاذب » (١) .

ومن آيات القرآن الكريم :

«وقفينا على آثارهم بعيسى بن مريم مصدقا لما بين يديه من التوراة ، وآتيناه الانجيل فيه هدى ونور ، ومصدقا لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين ، وليحكم أهل الانجيل بما أنزل الله فيه ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون » ..

فأين يوجد اليوم انجيل المسيح الذى ذكره القرآن الكريم ؟!

« ان الانجيل الذى أتى به المسيح وسلمه الى تلاميذه ، وأمرهم أن يبشروا به ، لا يوجد الآن وانما توجد قصص ألفها التلاميذ وغير التلاميذ لم تسلم من المسخ والتحريف بالزيادة والحذف » (٢) .

كما كان تأليه السيد المسيح رسول الله وعبده أول فرية .. ورأس التضليل .. ثم استتبعته بعد ذلك افتراءات متعددة ، كان أخطرها ادعاء وجود ما أسموه « الثالوث » المقدس ، و « العائلة المقدسة » المكونة من **« الأب »** و **« الابن »** و **« الروح القدس »** ... ثم ... قصة الصلب والتعذيب المدعاة .

(١ ، ٢) قصص الانبياء — للنجار .

ولقد جاء محمد كما اراد الله ، وأشارت الكتب وبشر الرسل والأنبياء .

جاء ليقرأ قول الله الفيصل فى هذه الافتراءات الجريئة :

« ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم ، خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون، الحق من ربك فلا تكن من الممترين ، فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم ، فقل : تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ، ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين » ...

ثم حدد الله سبحانه وتعالى ، وعلى لسان رسوله صفة عيسى فى قوله تعالى :

« ما المسيح ابن مريم الا رسول قد خلت من قبله الرسل ، وامه صديقة كانا يأكلان الطعام ، انظر كيف نبين لهم الآيات (؟!) ثم انظر أنى يؤفكون » !!

وبهذا الزم المدعين الحجة ، وقضى عليهم بالكفر والضلال ، لأنهم جعلوا لله اندادا وشركاء ، وتلك جريمة لا يغفرها الله ابدا اذ يقول سبحانه **« ان الله لا يغفر ان يشرك به ... »** و **« لقد كفر الذين قالوا ان الله هو المسيح ابن مريم ، قل فمن يملك من الله شيئا ان أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن فى الأرض جميعا ، ولله ملك السموات والأرض وما بينهما يخلق ما يشاء والله على كلّ شيء قدير » ..**

ولقد احس السيد المسيح نفسه بهذا كله من قبـــل .. أحس به ، وتوجس من الاحداث القادمة وخشى عاقبة الضلالات ، وهو اعرف الناس بنفوس من ارسل اليهم فتبرأ مما ساور القوم من شكوك واعلنها صريحـة وفيها يقول الحق سبحانه :

« فلما احس عيسى منهم الـكفر قال : من انصـــارى الى الله (؟!) قال الحواريون : نحن انصار الله ! آمنا بالله واشهد بانا مسلمون » !!

فالكفر .. والشرك .. والادعاء .. امور احس بها عيسى ، وبرأ منها ، واحب لو يطهر من زيفها قلوب حوارييه ، فمال اليهم وسألهم ان كانوا انصاره الى الله ... اى يسيرون على نهجه ويتبعون ملته ، فشهدوا انهم انصاره فعلا ، واشهدوه انهم مسلمون ...

« مسلمون » موحدون ، يبرأون من الشرك والكفر والزيغ ...

يشهدون بأن الله اله واحد ، كما علمهم السيد المسيح يوم قال فى تعاليمه لهم وهو يضرع الى الله القادر :

« وهذه هى الحياة الأبدية ، ان يعرفوك انت الاله الحقيقى وحـدك ويسوع الذى أرسلته .. »

ثم يعود عليه السلام فيردد هذه الحقيقة ... حقيقة انه رسول من عند الله فى وضع آخر من انجيل يوحنا اذ يقول :

« يا الله اشكرك ، لأنك سمعت لى ، وانا علمت انك فى كل حين تسمع لى ولكن لاجل هذا الجمع الواقف قلت ... ليؤمنوا انك ارسلتنى ... »

والعهـد الذى حفظه عيسى عليه السلام وتوفى عليه وسيجيب به ربه يوم القيامه :

« واذ قال الله ياعيسى بن مريم انت قلت للناس اتخذونى وأمى الهين من دون الله ؟ قال : سبحانك ما يكون لى أن اقول ماليس لى بحق ، ان كنت قلته فقد علمته تعلم ما فى نفسى ولا اعلم ما فى نفسك انك انت علام الغيوب ما قلت لهم الا ما امرتنى به : ان اعبدوا الله ربى وربكم ، وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم ، فلمـا توفيتنى كنت انت الرقيب عليهم وانت على كل شىء شهيد ، ان تعذبهم فانهم عبادك ، وان تغفر لهم فانك انت العزيز الحكيم » .

وبعد هذا كله ... نعود الى حيث بدأنا ... ونسأل انفسنا ، ونسأل الغير ، ونسأل أصحاب كل دين .. لقد جاء الرسل الكرام ... كل الى قومه وأهله وعشيرته هاديا وبشيرا ونذيرا ..

جاء كل رسول ليدعـو الى الله ، والاقرار بالوحدانية العظمى والتفرد المطلق ... ولم يتعرض رسول لدعوة رسول بل كان يصدقه ويؤيد دعوته .. عيسى عليه السلام .. فقد تعرض للناموس !!

اجل .. تعرض عيسى للناموس ، لأن احبار اسرائيل وكهانهم وكتبتهم حـرفوا الكلم عن مواضـعه وبدلوا وغيروا ، وجاءوا بما لم يأت به الله .. فتعرض لهم ، لانه عليه السلام مؤيد بروح القدس وقد جاء ليقوم الناموس ويتمه ..

تلك كانت رسالة عيسى .. مقدمة لرسالة محمد .. وخطوة مؤيدة تمهد للرسالة الشاملة الكبرى .. فعيسى قد ارسل الى بنى اسرائيل ومن بعده محمد للناس كافة .. رحمة .. وبشرى .. وهداية .

فدعوة محمد اذا .. لو كانت الى قومه ـ شأنه فى هذا شأن الرسل الذين سبقوه ـ لوقف بها عند فتح مكة وانتصاره على المشركين .. ودخول الناس فى دين الله أفواجا ..

ولكن رسالة المصطفى عليه الصلاة والسلام كانت أعظم من أن تقف عند حـد هداية عبدة الصنم ، لأنه صلى الله عليه وسلم ارسل الى الناس جميعا ، بما فيهم أهل الكتاب من نصارى ويهود لينقى العقائد ، ويبرىء الدين من الاتهامات ، ويخلصه من الشوائب التى جاء بها أصحاب الأهواء ..

وقد أخذ الله على الأنبياء ميثاق البلاغ ، وتصديق بعضهم لبعض فى قوله تعالى :

((واذ اخذ الله ميثاق النبيين لمـا آتيتكم من كتاب وحكمة ، ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال : أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصرى ؟ قالوا : اقررنا ، قال : فاشهدوا وانا معكم من الشاهدين)) ..

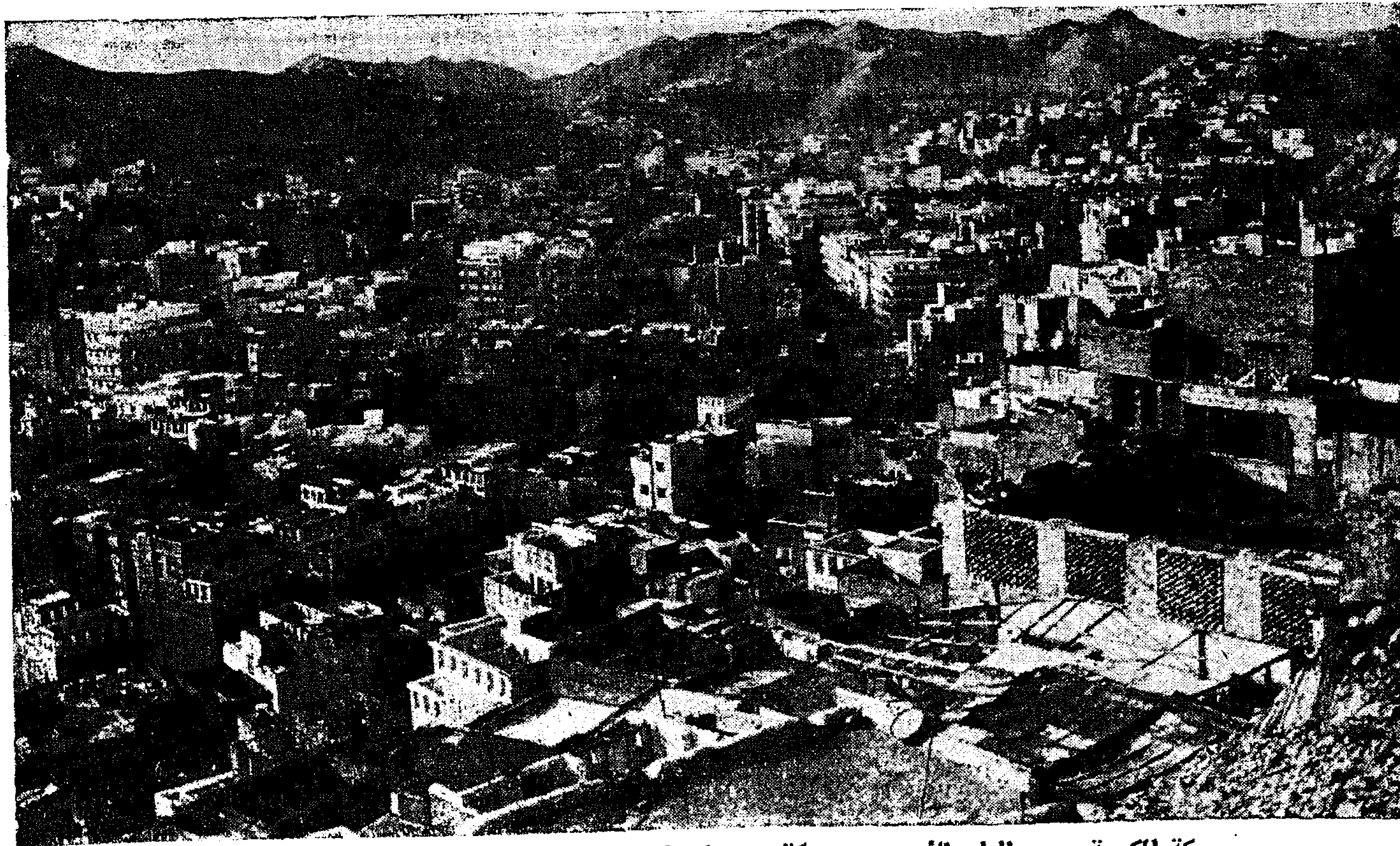
((واذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وابراهيم وموسى وعيسى بن مريم ، واخذنا منهم ميثاقا غليظا)) ..

ولم يذكر الله هذه الآيات القاطعة الناطقة بالحق على لســان رسوله ، لمجرد السرد ، بل للهداية ، والأمر بطاعة الرسول والأخذ بما جاء به .

فمن أجل خير البشرية ، وتقـويم أسس العبادة ، وتوحيد الملة ، جاء محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعا ، وجاهد ، وناضل ، واستجاب له الناس ، ولم يتخلف عن الاستجابة لدعوة الحق ، غير من كفر ووجب عليه عذاب الله ...

((ان الذين كفروا سواء عليهم انذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون . ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم)) ..





مكة المكرمة ... البلد الأمين ... بكة ... أم القرى ... (١)

مكة المكرمة : ((وهو الذى كف أيديهم عنكم ، وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم)) (٢)

البلد الأمين : ((والتين والزيتون وطور سينين ، وهذا البلد الأمين)) (٣)

بكة : ((ان أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين ، فيه آيات بينات مقام ابراهيم ومن دخله كان آمنا))(٤)

أم القرى : ((وكذلك أوحينا اليك قرآنا عربيا لتنذر أم القرى ومن حولها)) (٥)

---

(١) مكة .. وقد ذكرها القرآن الكريم بأشهر أسمائها . (٢) سورة الفتح . (٣) سورة التين . (٤) سورة آل عمران . (٥) سورة أم القرى.

الاسلام

« شهد الله انه لا اله الا هو والملائكة واولوا العلم ، قائما بالقسط لا اله الا هو العزيز الحكيم ، ان الدين عند الله الاسلام ، وما اختلف الذين أوتوا الكتاب الا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ، ومن يكفر بآيات الله فان الله سريع الحساب ، فان حاجوك فقل : اسلمت وجهي لله ومن اتبعني ، وقل للذين اوتوا الكتاب والأميين : اأسلمتم (؟!) فان اسلموا ، فقد اهتدوا ، وان تولوا ، فانما عليك البلاغ والله بصير بالعباد » ..

(سورة آل عمران)

استمر ركب الدعوة المحمدية فى طريقه الذى عينه الحق تبارك وتعالى ، وارادته عقيدة النضال ، وارتضته شرعة الكفاح المقدس ، وخطة الجهاد الحق ، ثم عبده الاخلاص ، ووسع التفانى مسالكه ، وقررت الفدائية أطواله ، ليصل متكاملا جليلا الى هدفه ، ويحقق غايته ، فيجمع اشتات الشعوب ، ويوحد بين العبادات ، ويتم جمعها فى دين الوحدانية الخالصة لله العظيم ..

وسار سيدنا رسول الله والمسلمون تحت لواء دعوته من نصر الى نصر ، ومن فتح الى فتوح ، فبشر وانذر ، ووضح وفسر ، والزم الحجة كل متطاول جرىء ...

وراحت الآيات تبين .. والقرآن يرسى اسس المجتمع الجديد ، ثم جعل فى يسر وقوة واعتداد يعلى شامخ بنيانه ليكتمل وجود الامة التى اراد الله لها ان تكون خير امة اخرجت للناس ...

واتسعت جبهة الكفاح المضنى الشاق .. وحمل الصادق الأمين سيدنا محمد اعباء الارشاد والتوجيه والاعداد ، وتلقى الوحى ثم ابلغه الى الناس كافة تنفيذا لأوامر الله وطاعة لمشيئته ، واتماما لأمانة الرسالة الكبرى ، التى كلف بابلاغها عليه الصلاة والسلام ...

والزم الصادق الأمين اهل الكتاب الحجة ، والجمهم بروائع الآيات ، وصادق التنزيل فما استطاعوا جدلا ولا قولا ، وتراجعوا فى ذعر امام الحق الذى وضح ، وفى قلوبهم غل وكمد وحسرات هونت عليهم بعد ذلك ركوب مراكب الشطط ، بالتوفر على الوقيعة والتآمر والدس ، ومحاولة التحريض على المجتمع بين الموتورين لصد موكب النور ، والحيلولة دونه والتقدم المقدر له ...

وجعلت الأحداث تمر .. والحوادث تترى .. والمواقع تتلاحق ، والأمين رسول الله ثابت كالطود ، راسخ كالجبل الأشم ، يذود ويصد ، ويلاين ، وينصح ، ويزجر ، دون وهن أو كلال ...

كان العبء ثقيلا .. ولكن محمدا المؤمن ، كان نسيج وحده أراده الله لمثل هذه التبعات الجسام التى تضاءلت ، وجعلت تنحسر فى وضوح مع كتائب الظلام ، هاربة مولية ، فزعة أمام طلائع الهدى والنور ..

وكما خرجت الدعوة قبلا من حيز القبيلة المحدود الى نطاق أصحاب الديانات الكتابية ، لجمعهم على كلمة الله ودين الله — كذلك .. وبنفس القوة راحت تزحف الى ما وراء الحدود ، وتدق أبواب الملوك والقادة والحاكمين فى شتى الأمصار .

وبدأ محمد .. بدأ داعية السلام ، والأخاء والوحدانية ، وصاحب دعوة الحق ...

بدأ بقوة يقينه وثابت ايمانه ، يغزو ميادين جديدة فأرسل الرسل الى أصحاب العروش ...

كان العالم المعروف وقتها يحكمه اثنان ، اقتسما الجاه ، وتفرد كل منهما بالسلطان ، فكان صاحب الأمر الذى لايرد والكلمة الواجبة الطاعة ...

وكان أحد الاثنين يوم بعثه صلى الله عليه وسلم يعبد الأقانيم ، والثانى يسجد للكواكب ، ويخضع لربوبية النار .. وكان كلا الرجلين على ضلال .. وكانت هدايتهما وهداية شعوبهما ومن تحت حكمهما من الناس شيئا حتمى الأداء ، واجب التبليغ فى رسالة الصادق الأمين سيدنا محمد رسول الله ، فكان أن بعث عليه صلوات الله وسلامه الى كل من ((**هرقل وكسرى**)) وسائر الملوك الذين يستظلون بظلهما كتبا يدعوهم فيها الى نبذ الشرك ويطالبهم بعبادة الله الواحد الذى لا اله الا هو ، والدخول فى دين الاسلام ...

وكان نص الكتاب النبوى حسبما ورد فى السيرة وفى الصحيحين :

((من رسول الله الي هرقل عظيم الروم ، سلام علي من اتبع الهدى .. أما بعد فانى أدعوك بدعاية الاسلام ، أسلم تسلم ، اسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فان توليت فان عليك أثم الأريسيين ، ويا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم : ألا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ، فان تولوا فقولوا أشهد بأنا مسلمون)) ..

ونص هذا الكتاب ونفس عباراته — مع تغيير يسير — وجه الى كسرى عظيم فارس ، والمقوقس عظيم القبط وغيرهما ..

* * *

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم فى توضيح رسالته الكبرى ، وتبيان أهدافها :

((انما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق ...))

فالرسول الذى بعثه الله سبحانه وتعالى الى العالمين كافة بشيرا ونذيرا ، يهدى للتى هى أقوم .. هذا الصادق الأمين مجدد الحنيفية دعوة ابراهيم ودين الرسل أجمعين : يقول فى تفسير معنى رسالته أنها تتمم مكارم الأخلاق ..

فالاسلام اذا ، هو مكارم الأخلاق .. هو الكمال .. هو السمو .. هو المثالية فى كل شيء .. فى كل قول ، وكل فعل ...

ومكارم الأخلاق ، ليست مجرد اطلاق لفظ لصفة سامية غير محددة المعنى ولا معروفة الهدف ...

فلمكارم الأخلاق قواعد وأسس وأصول تتفرع عنها شتى الفضائل وصفات الكمال ...

وهى ، دستور منظم للعلاقات والصلات لا بين الناس فحسب .. بل بين الشعوب جمعاء ، لضمان الاستقرار والسلام والعيش الطيب الرغيد ..

ولمكارم الاخلاق ، دعائم ثابتة ، وركائز مستقرة ، وبنود واجبة الطاعة ، والعمل بها فى اخلاص ، هو سر الراحة ومنبع السلام ...

ومكارم الأخلاق ، هي الاسلام .. والاسلام كما قال سيد البشر اجمعين ، قد بنى على خمس :

خمس دعامات موطدة هى أساس الاسلام ، ومادة بنائه الشامخ العظيم .. خمس دعامات محدودة ، عن كل منها تنبع الفضائل جمعاء ..

خمس دعامات أساسها الوطيد ، هو الاقرار بالوحدانية ، وشهادة انه لا اله الا الله ..

والوحدانية ، فضيلة الفضائل ، وشهادة انه لا اله الا الله ، هى شهادة الحق ، التى تبرىء النفس البشرية من كل شائبة ، وتطهر القلب من كل الأدران ، وانه ليكفى أن نقر ونشهد انه لا اله الا الله ، حتى نؤمن بأنفسنا ، وذواتنا ، فلا نخاف غير الله ، الذى خلق فسوى والذى قدر فهدى ، والذى أخرج المرعى ، وقدر الأرزاق والحياة والموت والسعادة لكل المخلوقات ..

هو وحده ، من بيده الأمر ، ومن اليه المآل .. هو المبدىء والمعيد ، ولا سلطان ولا قدرة لأحد سواه ..

اننا حين نؤمن بهذا نحصن نفوسنا من الذل ، والرق ، والاستجداء ، والزلفى ، واهدار الكرامة ..

اننا حين نؤمن بهذا ونشهد أنه لا اله الا الله وحـده نكفر بالطاغوت ، نكفر بالتكالب على اشباع جوع غرائزنا ، ونهم اطماعنا ، نكفر بقدرات البشر على النفع والحاق الضر ، ونلجأ الى أنفسنا ، للحصون الواقية التى زودنا بها الله ، فنحتمى بهـا من الرهبوت والخـوف والاسترقاق ، ونشعر بالسيادة والسؤدد ، واننا قبس من روح الله ، وانه سبحانه وتعالى قد ميزنا وكرمنا ، ورفع درجاتنا على سائر مخلوقاته فخلق لنا هذا العالم لنكون الخلفاء عليه ، وسخر لنا كل ما فيه .. سخر لنا الشمس ــ التى عبدها بعض الضالين ــ وجعلها فى خدمتنا ، فنحن السادة ، وهى العبد الطيع المأمور ..

سخر لنـا القمر ، الذى سجد لنوره بعض الواهمين .. سخر لنا الكواكب والنجوم وسائر الأجرام .. سـخر لنـا البحر اللجى المحيط ، وسخر لنا ما فيه من مأكل ، وحلى ، وخيرات ..

سخر لنا الارض لتخرج لنا الحب والنبات وكل ثمر بهيج ..

« يسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة » ..

سخر لنا الأرض وما حملت من جبال شم ، وما تفجرت به من ينابيع ماء زلال ، وسوائل أخرى لا يعلم كنهها غير الله ..

سخر لنا الفلك تجرى فى البحر مواخر بأمره ، وسخر لنا الأنعام .. وجعلنا سادة ، مستخلفين فى ملكه ، نتجه اليه وحده ، ونقر بوحدانيتـه ونعترف بربوبيته ونشهد أنه واحد لا عن قلة ، أول بلا ابتداء ، وآخر بلا انتهاء ، ليس كمثله شيء ، وهو السميع العليم ..

هذه أولى الفضائل وأساس مكارم الأخلاقالتى جاء محمد ليتممها .. انها الدعوة الى ايمان الانسان بنفسه ، وذاته وقدرته على السيادة لا على الخضوع لغير الله الواحد القهار ..

تلك دعامة .. هى الأولى .. وهى الأصل .. وهى الأساس ، ومنأجل اقرارها ، خلق الله الانس والجن ، وأوجد العـالم وشرعت الشرائع وكانت الرسالات ..

فالأصل الراسخ هو شهادة **« أن لا اله الا الله »** ..

إذ أنها أم الفضائل ومحورها .. وهى لب الاسلام وأصله ، وبها جاء الرسل ، وبها كلف محمد عليه الصلاة والسلام ..

تتلوها شهادة أخرىمكملة لها ، وببعث سيدنا محمد اصبحت من الزم لزومياتها بحيث لا تكمل الأولى الا بالثانية ، ولا يستقيم الاعتراف بالأولى دون التسليم بالثانية ، وهى :

شهادة : **« ان محمدا رسول الله » ..**

فمحمد ، البشير النذير ، خير خلق الله جميعا ، وامام رسله ، وخاتم النبيين ، هو صاحب الذروة من الرسالات كلها .. ورسالته هى جامعة دين الله ، ومنقيته من كل الشوائب التى علقت به ، واقحمها عليه شياطين الانس والجن ..

والشهادة برسالة محمد — **هى الاعتراف الكامل بجميع الرسالات السابقة عليها ، لأنها لا تنسحب على سيدنا رسول الله وحده ، بل هى شهادة عامة ، والاقرار بها فى صدق وايمان ، هو الاقرار بالرسل الكرام أجمعين وبشتى الكتب السماوية التى سبقت نزول القرآن ، وكان نزوله توكيدا لما جاء فيها ، وما بشرت به ، ودعت اليه من فضائل وطهارات ..**

« قل آمنا بالله ، وما أنزل علينا ، وما أنزل على ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والأسباط ، وما أوتى موسى ، وعيسى ، والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون » ..

فالشهادة برسالة محمد هى التوكيد المطلق للشهادة الحقة برسالة موسى وكتاب موسى ، ورسالة عيسى ، وكتاب عيسى .. وبأن الشريعة واحدة ، والرسالة واحدة ، وأن محمدا جاء ليجدد رسالة من سبقوه ، ويرسى قواعدها على أسس نقية بعيدة عن الشوائب والشبهات ..

« يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم الا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ، فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » .

فأساس الاسلام اذا .. أى أساس مكارم الاخلاق التى بعث سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ليتممها . هو شهادة الا اله الا الله ، وأن محمدا رسول الله ..

والحكمة فى حتمية النطق بهاتين الشهادتين ظاهرة ولا شك ، وهى تبرئة الوحدانية من الادخالات وتنقيتها من شرك الضالين المضللين ؛ والاعتراف بسابق الرسالات والكتب : والايمان بموسى وعيسى وابراهيم ويعقوب واسحق واسماعيل والأسباط وسائر النبيين ..

« ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين .. »

والاسلام دين الفطرة .. دين آدم ونوح وهود وصالح وابراهيم وجميع الأنبياء والمرسلين ..

الاسلام هو الحنيفية الخالصة من شوائب الشرك والضلالات ، وهو بعد هذا دين محمد ، فمن لا يشهد برسالة محمد فان الله لا يقبل منه دينه ولا يقره عليه ، لأنه هادم للأساس ، والأساس رسالة امام المرسلين ، هو الاعتراف بعد شهادة انه لا إله إلا الله بأن محمدا رسول الله ..

ومحمد ليس بجديد ، ولا مقحم على أهل الكتاب فهم يعرفونه جيدا ، ويعرفون شريعته ودينه وكتابه المبين ، ولا يتم قبول دينهم شكلا عند الله وموضوعا الا ان يشهدوا برسالة محمد . ((**الذى يعرفونه كما يعرفون أبناءهم** ..)) ، والذى سأل ابراهيم ربه أن يبعثه فى الأميين رسولا ليهديهم اليه ، وبشر به موسى ، بل ورآه فى رؤيا مقدسة يقول عنها ((**برنابا**)) فى انجيله :

((اذ أراه الله من ثم رسوله على ذراعى اسماعيل ، واسماعيل على ذراعى ابراهيم ، ووقف على مقربة من اسماعيل اسحق وكان على ذراعيه طفل هو المسيح عيسى بن مريم يشير بأصبعه الى رسول الله : هذا هو الذى خلق الله لأجله كل شىء ، فصرخ موسى من ثم يفرح : يا اسماعيل ان على ذراعيك العالم كله والجنة ، اذكرنى أنا عبد الله ، لأجد نعمة فى نظر الله بسبب ابنك الذى لأجله صنع الله كل شىء ..))

فالاسلام اذا ، يجب كل دين قبله ، والاسلام هو الدين الذى أراده الله سبحانه وتعالى وقضى بأن يتبعه الناس كافة ، واشترط لتمام أركانه ، وتقويم صحة بنيانه ، أن يشهد المسلم بانه لا اله الا الله ، وأن محمدا رسول الله ..

فالشهادة الأولى — وهى الوحدانية — تدمغ عبادة الشرك ، وتقضى على الثالوث ، وتحرم الاعتراف بألوهية بشر من خلق الله ، بعثه الله رسولا بدينه ، ليقيم أساس هذا الدين ، وينقى الشريعة .

((ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس ، كونوا عبادا لى من دون الله ، ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون ، ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا ، أيامركم بالكفر بعد اذ أنتم مسلمون)) ؟!

فالاعتراف بالوحدانية ، كما أرادها الاسلام هو تنقية العقيدة واعادة طائفة كبيرة من البشر الى جادة الحق ، وتنزيههم عن الشرك ، ثم يأتى بعد هذا ، الشهادة برسالة محمد ، والشهادة بها توكيد لرسالة عيسى ، بل تجديد لها وبعث ونشور على أساس صحيح .

وبعد الشهادة بانه لا اله الا الله ، وأن الصادق محمدا رسول الله ، نجد أن الركن الثانى هو :

« اقامة الصلاة .. »

والصلاة .. هى الصلة .. هى الصلة الخالصة التى قضى الله أن تكون بين العبد وبينه سبحانه وتعالى ، وان مظهر فرضيتها والأمر بهـا ، يدل على الرحمة والرأفة وبالغ الحنان من سيد كريم يريد دائما أن تكون الصلة بينه وبين عباده موجودة ، ودائمة ، ليشعروا بأنه قريب منهم ، وانهم معه فى كل زمان ومكان ..

والصلاة .. هى الاحساس بالقرب المقدس من الذات العظمى صاحبة الجلال ، وانه جل وتعالى مع عبده المسلم وحواليه ، وانه تقدست أسماؤه الحسنى ينادى ذلك العبد المطيع كل يوم خمس مرات محددة المواقيت ، يكون خلالهـا فى حضرته القدسية ، يضرع اليه ، ويناجيـه ، ويسـأله الرضا والعافية والسلامة والعفو ..

واحساس العبد المسلم دائما بأنه مع سيده العظيم ، وفى رحابه دائما وفى كل لحظة ــ احساس يدفع ذلك العبد الى التفانى فى ارضاء سيده ، بأن يتقدم الى ذاته ، متقربا بكل عمل حسن ، وكل فعل محمود ، لينـال الرضا وهو أقصى ما يرجوه المسلم الأمين ، الذى يأبى ان يتدنى الى الزلل ، أو يقرب الخطايا ، لأن صلاته انما نهته عن كل قبيح ودفعت به الى مواطن الفضيلة والكمال ..

« وأقم الصلاة ، ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » ..

والصلاة .. رغم كونها صـلة روحية بين الروح المتسـامية الطاهرة الشفافة ، وخالقها وصاحبها ومانحها .. والقلب ومصرفه الأعظم .. وانها نجوى تستحب خلالها الخلوة الحبيبة السامية مع جلال الذات ، يناجيها وتوليه السمع وتستجيب له ــ فانها فوق هذا ــ حاجز أعظم يحمى العبد من الشرور ويبعده عن كل ما يغضب الله ويضر الناس ..

والصلاة .. هى استدعاء الحق لسائر عباده الى حضرته ، خشوعا ركعا سجدا ، مسلمين اليه الأمر ، معترفين بالضعف أمام قوته وجاهه وحوله إنها درس دلالته السمو ، ومغزاه وهدفه الاحساس بالمساواة التامة غير المنقوصة .. المساواة الكاملة من كل الوجوه بين العباد أجمعين ، فلا سيد ، ولا مسود ، ولا جاه ، ولا مال ، ولا فضل الا بالتقوى وصالح الأعمال .

فالصلاة .. بمقاييس العصر الحديث هى **« التشريفة »** الكبرى الجامعة وذوبان الفوارق الاجتماعية كلها ساعة المسارعة الى لقاء السيد الأعظم ، حيث يتقرب اليه العباد ، كل بعمله ، وبنواياه ، وبقلبه ، وصادق احساسه ، لا بالجاه والمال .

وللصلاة شروط ، اهمها التطهر .. فهى تدعو اليـه ، وتطالب به ،

ولا تصح الا بتمام وجوده ، وهذا معناه أن هذا اللقاء الروحى الأعظم الذى يتم كل يوم خمس مرات بين العبد وخالقه ، يوجب الطهارة والنظافة والسمو ، وحسن المظهر ، وكمال الزينة ، فى حدود القدرة ، والبعد عن المغالاة ، وهذا فضل ما بعده فضل فى الوجود ، وكمال ما قبله كمال فى الديانات ..

« يابنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولاتسرفوا »..

ولشرط دخولها يجب الأذان ، ثم النية ، وتكبيرة الاحرام .. وكلهـا أفعال فيها ذكر الله وتكبيره وتعظيمه ، وفيها أيضا الخلوص وصفاء القلب والنية للعبادة ، فوق الجهر بها والمناداة والتنبيه ..

والصلاة .. هذه الصلة العظمى لا تقتصر على الأداء الموقوت بالخمس مرات المعينة كل يوم عند الفجر والظهر والعصر والمغرب والعشاء — إذ هناك صلوات أخرى أكثر تعميما ، وأكثر تبيـانا لحكمتها من وجود اجتمـاع المسلمين ، ووقوفهم فى صف واحد أمام الله كصلاة الجمعة ، وصلاة العيدين حيث تتبدى بوضوح على جلائل هذه الصلة ، وما تهدف اليه من تحقيق أسمى الأغراض ..

والصلاة — لم تخل منها شريعة من الشرائع ، فهى أقدم وسائل العبادة والتقرب الى الله ، والتطهر من الذنوب ، ونادى بها جميع الرسل والأنبياء السابقين .. ولقد كان ابراهيم عليه السلام يدعو ربه بقوله :

« ربنا ليقيموا الصلاة » ..

وموسى عليه السلام أمره الله بالصلاة :

« .. فاعبدنى واقم الصلاة لذكرى .. »

والملائكة ترشد « مريم أم عيسى عليه السلام » :

« يامريم اقنتى لربك واسجدى واركعى مع الراكعين » ..

وأن عيسى ليتحدث عن نفسه فيقول :

« وجعلنى مباركا أينما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة » ..

وبعد الصلاة .. تأتى الزكاة ..

والزكاة .. تزكية للعبد ، وتطهير لماله ، واجباره على الاحساس بحاجة الآخـرين ، ووجوب مسـارعته الى الاستجابة لقضـاء الحاجات للغير ، ومساعدتهم واشعارهم بجلال الانسانية ، وبأن المسلمين جميعا سواء .. يهرع الكبير الى الصغير ، ويلبى الصغير نداء الكبير ، ويقف الغنى الى جانب الفقير ، ويعطيه فضلة من ماله ، ترد عنه حاجته ، وتدفع ذل السـؤال والاستجداء .

« انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها ، والمؤلفة قلوبهم ، وفى الرقاب والغارمين ، وفى سبيل الله وابن السبيل .. »

فأى فضل أجل من فضل الزكاة .. وأى مكارم أخلاق تعلو مرتبة الأمر بالجود والعطاء والمنح فى صورة جماعية ، تحفظ على الناس كرامتهم وتشعرهم بأن المجموعة الانسانية فى سبيل الفرد ، وأن الفرد مهما ساءت حاله فإن الجماعة مسئولة عنه مسئولية كاملة .. وهذه هى « **اشتراكية الاسلام** » ...

« خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم .. »

و « **خذ** » فعل أمر واجب الطاعة .. فيه ما يعنى تخويل الحاكم سلطة « **الأخذ** » من الغنى للفقير ومن الموسر للمحتاج ؛ كى لا يكون هناك تباين طبقى ولا حقد ولا حسد ولا احساس بالذل والعوز ، تقتل فى النفس احساسها بالكرامة ، ويجبرها على العيش فى ذل وحرمان ..

والاسلام ، الذى فرض الزكاة ، وجعلها ركنا من أركانه التى بعث سيدنا محمد ليتممها أوجب هذه الزكاة وحتمها ، وبين مقاديرها وحتمية وجوبها على كل مسلم حر مالك لنصاب من الذهب أو الفضة ..

وعلى ولى الأمر بعد هذا .. وان لم تكف الصدقات حاجة المجتمع .. أن « **يأخذ** » من أموال الأغنياء ما يسد به مطالب الفقراء ، وهذا أروع مثل للمساواة ، والاشعار بالعزة والاباء ..

والزكاة ، رغم وجوب فرضيتها على المسلمين عامة للارتقاء بمجتمعهم ، وازالة الفوارق فيه ، فهى دعامة من دعامات تقوية أواصر الود بين أفراد الأسرة الواحدة ..

فالدين أوجب على الموسر أن يعول أهله الأقل منه مالا ، ليشعرهم بأنه معهم باحساسه وشعوره وماله .

والاسلام هنا يبدأ من الأسرة ، وهى المجتمع الصغير ، ثم ينطلق الى ما هو أكبر وأكبر ..

ولعمرى أن تعاطف أفراد الأسرة ، هو الأساس لتعاطف شتى أفراد المجتمع .. فاذا حس المسلم بأن من واجبه أن يبدأ بأهله وقومه كان التعاطف الجماعى الذى تتجلى فيه اشتراكية التعاطف المثالية ، واشتراكية الاحساس بواجب الانسان نحو مجتمعه ومن فيه ..

« يسألونك ماذا ينفقون ، قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل ، وما تفعلوا من خير فان الله به عليم .. »

والزكاة بعد هذا ليست اخراج نصيب مقرر محدد من المال فحسب .. بل الزكاة تكون أيضا فى المقابلة .. فى التعاطف .. فى حسن الصلات ..

« ويسألونك ماذا ينفقون ، قل العفو .. »

والعفو ، هو الرضا ، هو التسامح ، هو الحنان الواجب أن يكون موجودا ساعة تؤديها ، فهى ليست فرضا اجبارى المظهر ، بل فرضا واجب الأداء فى رضا وسماح وحب وتعاطف وأخاء ، لا كبرياء ولا أذى ، ولا وسيلة لاذلال من تشملهم الزكاة ..

« قول معروف ومغفرة ، خير من صدقة يتبعها أذى .. »

فالزكاة .. مظهر انسانى .. فيه السمو وفيه الاخاء .. وفيه ما يقوى روابط المجتمع ، ويشيع الحب بين أهله ، لأن الحكمة فيه هى صون النفس من الذل ، وماء الوجه من أن يراق فى السؤال ، ويكفى أن نعرف ان الزكاة انما تصل من يستحقونها حيث هم .. أى فى سرية بعيدة عن العلن .. وهذا منتهى السماح والسمو .. وهذه ولا شك سمة المجتمع المتعاطف الذى تربط أفراده أقدس وأنبل الصلات ..

ان « **الزكاة** » ، ركن من أركان الدين وفرض من فرائضه . وقرنت بالصلاة وشهادة التوحيد ، وكانت ثلاثتها دليل الايمان ..

« فان تابوا واقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فاخوانكم فى الدين » ..

والفريضة الرابعة هى : **الصــوم ...**

والصوم بعد هذا هو رابع الفضائل التى أوجبها الاسلام ، وجاء ليتممها بعث سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام ..

والصوم صيانة ، وحرمان ، وتهذيب لضراوة النفس وقسوة المشاعر وحيوانية الانسان ..

والصــوم أساسا ، هــو الامتناع عن الطعام والشراب فى وقت معين محدود .. وتحريم المخالطة خلال هذا الوقت ولكن .. أهذا كل شىء فى الصوم !!

ان الصوم ـ كما قلت ـ صيانة ، وحكمته أن يصون الصائم نفسه من كل زلل ، أو شبهة ، فيصوم بلسانه وقلبه وحواسه ومشاعره .. يصوم عن الكلمة النابية ، والعمل المشين ، والنظرة المحرمة ، والفعل القبيح ، ويسالم نفسه ، ويسالم الناس اجمعين ..

وهو بعــد هذا ترويض وتهذيب ، واشعار انســانى بقســوة الجوع والحرمان ، يتصور الصائم خلالهما ، الجائعين والمحرومين ، فيعطف عليهم

ويرق لحالهم ويسارع الى مواساتهم ومساعدتهم حتى لا يقاسوا هول هذا الشعور الذى أحسه فى صدق خلال أيام معدودة ، ويحسونه هم على كر أيام الحياة ..

والصوم فيه من الحث على الفضائل ما فيه ، فيه النجدة ، فيه التفضل بالاخاء الانسانى على المحتاجين .. فيه الدعوة الى تخفيف ذل الحاجة عن المحتاج .. فيه الكرم والأمر به ضمن حالات معينة من حالات الصوم كوجوب الكفارة مثلا والفدية على من لا يطيقونه ..

والصوم .. هو القربان الروحى الذى يتقرب به المسلم الى ربه .. فالمسلم وما يعمل من خير ، انما يدخره لنفسه فى كتاب مرقوم ترجح فيه الحسنات على السيئات ليكون يوم القيامة من السعداء الناجحين .

فعمل الانسان له .. أما الصوم فلله وحده وهو وحده الذى يجزى به ..

فالصوم وحده هو عبادة كاملة .. فيه شهادة أنه لا اله الا الله ، لأن الصائم انما يصوم لله الواحد القهار ، وفيه بعد هذا شهادة ان محمدا رسول الله ، لأن اتمام الصوم ، اكمال لفضيلة ومكرمة من مكارم الأخلاق التى جاء ليتممها سيدنا رسول الله ، وفيه أيضا صلاة ، فالصائم يغلب روحه على جسده ، وتسود شفافية الروح على عتمة المادة .. صلاة قدسية سامية ، هى الخلوص فى أزكى صوره وأروع آياته ، وأجل معانيه ..

وفى الصوم بعد هذا زكاة .. زكاة روحية خالصة لأنه القربان الذى يقدمه الصائم من رغباته ومشاعره وصدق عقيدته الى الله .. وتلك أروع وأجل آيات الزكاة ..

وفى الصوم أيضا اداء كامل لفريضة الحج .. لا الحج الى بيت الله .. بل الحج الى رحاب الله .. الى قربه .. الى رضوانه ، ونحن نقدم له قربان الصوم فى رحلة روحية تستغرق فترة معينة من الزمان ، لا يكون بين المسلم الصائم وبينه جل وتعالى أى حجاب ! !

وفريضة الصوم .. فرضت من قبل أيضا كما فى قوله تعالى :

« يا ايها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون » ..

والصوم لون من العبادة التهذيبية للنفس والحد من رغباتها بقوة الارادة المرجوة لكل فرد لاتقاء ظروف الحياة وتهيئة النفس للاحتمال والتذرع بالصبر لتثبت وتحتمل الجهاد فى سبيل الله .

وبعد الصوم .. تأتى الفريضة الخامسة .. وهى :

((الحج)) ...

((**حج البيت**)) مرة واحدة فى العمر فى وقت معين من السنة لمن استطاع اليه سبيلا من الرجال والنساء .

وفضيلة الحج ومكرمته العظمى ــ رغم أن الصوم أداء لفريضة الحج الروحى كما قلت ــ الا أن الفريضة نفسها شىء آخر غير الصيام ، فهى : حكمة وهدف ..

فالحج كما قال الله سبحانه وتعالى :

((الحج أشهر معلومات ، فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج ، وما تفعلوا من خير يعلمه الله ، وتزودوا فان خير الزاد التقوى ، واتقونى يا أولى الألباب ..))

ولما كنت قد قلت ان الصوم ، هو أداء لفريضة الحج الروحى الى رحاب الله ، واستجلاب مغفرته فان فريضة الحج نفسها ، يتجلى فى معنى ادائها خلال الأشهر المعلومات ، معنى كاملا من معانى الصوم ..

فالحج صوم عن اللغو والرفث والفسوق والجدل ، وامر بالخير والمعروف .. فهو من هذه الناحية صوم كامل وترويض محبب للنفس على اقدس المكارم التى جاء ليتممها سيدنا رسول الله .

والحج فى صورته الكلية يجمع قواعد الاسلام وأسسه الخمسة ، ففيه التكبير والتعظيم والتلبية والطاعة ، وشهادة الا اله الا الله وأن محمدا رسول الله .

وفيه الصلاة ، وخاصة صلاة الجماعة الدائمة فى البيت العتيق .

وفيه الزكاة ، التى شرع الحج من اجلها ، وهى جعل أفئدة من الناس تهوى الى جيران بيت الله الحرام حيث لا زرع ولا خصب ولا نماء ..

والحج بعد هذا كله هو المظهر الأسمى للاخاء الانسانى الذى جاء به الاسلام .. يقضى على الشعوبية ، ويحارب العنصرية ، ويسوى بين الناس جميعا ، فلا فضل لهذا على ذاك الا بالتقوى والعمل الصالح ..

والحج تجميع عام للمسلمين ، فى زمان معين ، يحشر فيه الناس فى صعيد واحد وعند قبلة واحدة ، ليتجه الجميع الى الله ، ويقف الصغير الى جانب الكبير والغنى الى جانب الفقير والمحتاج الى جانب ذى الفضل ..

كلهم عباد ، أمام سيد واحـد عظيم .. كلهم محتاج اليـه ، وكلهم يرجـو بره ورضاه ..

والحج فضيلة عظمى .. وفريضة لا مثيل لها فى سائر الديانات .. لأنه فريضة الدين الواحد الذى أراده الله للناس أجمعين ..

والحج فريضة شرعت أيام رسالة ابراهيم عليه السلام ، وظلت مفروضة مقررة على كر العصور لم تجب ولم تنسخ أبدا ..

كتبت على ابراهيم وبنيه وحفدته والأسباط وتوارثها حملة الشريعة أجمعين ...

« واذ بوأنا لابراهيم مكان البيت ، ان لا تشرك بى شيئا ، وطهـر بيتى للطائفين والقائمين والركع السجود ، وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا ، وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق .. »

ـ فخليل الله ابراهيم عليه السلام ، كلف بأن يؤذن فى الناس .. الناس جميعا .. الناس الذين جعله الله لهم اماما وهاديا ونذيرا ..

كلف عليه السلام أن يؤذن فى الناس بالحج ، والجواب على هذا الأذان ،

هو الاجابة وهو أن يأتيه الناس رجالا وعلى كل ضـامر يأتين من كل فج عميق ..

فالحج فريضة أمر بها ابراهيم ، وتمت فى عهده .. وحدثت هـذه الشعيرة من شعائر الله وحج الناس الى البيت .. الناس كلهم ، لا فئـة دون فئة ولا جنس خلاف جنس .. وكان هذا فى زمان ابراهيم ، ثم توارثها بنوه من بعده فظلت قائمة مقررة ..

حتى جاء البشير النذير سيدنا محمد عليه الصلاة والسـلام ليعيد الدين ، ويقيم الحنيفية ، ويدعو الناس جميعا الى الاسلام مجددا دعوة ابراهيم ..

فالاسلام هو دين الله الذى بعث به رسله أجمعين الى الناس وأمرهم أن يكونوا مسلمين لله ، مخلصين له الدين حنفاء ..

« والحج عبادة معروفة وصورة من صور العبادات من قديم ، اتخذتها الشعوب والقبائل رمزا لاجلال معبوداتهم وتقديسها ، وكان يصدر من العربان الكلام الساذج وقت طوافهم بالبيت الحرام ، كان يقول الرجل منهم » :

« يا رب البيت ! أشهد انى جيت ! لا تقول ماجيت . اغفرلى ولوالدى ، والا تغفر لى غصبا ، ترانى جيت » !! (١)

ولما كانت كل أمة تتخذ فى حجها ما يناسب تخيلها لمعبودها فقد ظل الحال على هذا حتى هيأ الله الأمر لابراهيم عليه السلام ، وأمره ببناء البيت الحرام بمكة ليطوف الناس به ، ويذكروا اسم الله فيه ..

« ... دينا قيما ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين » ..

فالحج فى واقعه ، ليس مجرد أداء شعيرة من شعائر الدين ، ولا اتماما لركن من أركانه فحسب ، أو اسراعا الى طاعة وتلبية لأمر ، بل هو مراجعة تامة لقواعد الاسلام بأكملها فى وقت واحد بحيث لا يمكن أن تجتمع الا فيه ، وخلال مناسكه ، لأن أداء الفريضة فى مظهره الفعلى هى :

أولا — الصوم الروحى ، والتهذيب البدنى الكامل ، الذى أشرت اليه من قبل ..

ثانيا — التلبية واطاعة أمر الله والخضوع لحكم من أحكامه السامية استكمالا لمقومات العبادة نفسها :

« لبيك اللهم لبيك ، لاشريك لك لبيك ، ان الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك » ..

فالتلبية فوق أنها استجابة لنداء ، واسراع الى تنفيذ أمر ، فهى تسليم ورضا ، والتسليم عبادة ومسالمة وخضوع وتطهير للروح من خيلائها وما شابها من أدران الكبرياء الدنيوى ، وبريق المظهر الذى قد ينسى الانسان خضوعه وطاعاته ، وما يجب أن تتحلى به نفس الانسان من تواضع ولين .

فتأكيد التلبية بعد هذا لا يتمثل فى المجاهرة بها بعد الاستجابة لنداء الحج فحسب .. بل ان هذه التلبية يتم تعزيزها مظهريا وشكليا فى الخضوع والبساطة ، والتكبير المستمر ، المعبر عن التعظيم المطلق للذات القادرة ، ثم الاقرار لجلالها بالوحدانية العظمى ، والتفرد والتعالى عن المشاركة ، وانه جل وتعالى عظيم ، متعال متجبر ، جبار ، باطش ، ورءوف رحيم رحمن ، أراد للناس الهدى فبعث فيهم امام المرسلين ليبشرهم بدين الحق وان كل دين غيره باطل ولغو وضلال ..

ثالثا — الصلاة .. الصلاة الجامعة فى كل وقت ، وفى البيت العتيق ،

---

(١) تاريخ العرب للدكتور حتى

واقامتها فى مواقيتها المقــررة مظهر جليل من مظاهر التجميع الخاشع ، المعبر عن التبتل والتجرد من شتى مظاهر الحياة وما حوت ..

وصلاة الحجيج فيها روحانية ، قد نحس بها فى الصلاة العادية ، فهى فعلا صلاة القرب ، صلاة الخلوص ، صلاة الاحساس بالصـــلة العظمى والقرب اللدنى ، والرضوان العظيم ..

رابعا ـ الزكاة ، التى شرع الحج من أجل اقرارها بصفة خاصة فى هذه البقعة الطاهرة ، وانها حين تؤدى هناك ، فانما تمثـل المعنى العملى لهوى أفئــدة الناس الى جــيران البيت العتيق حيث لا زرع ولا خصب ولا نماء ..

خامسا ـ أداء فريضة الحج ذاتها .. معاينة سامية وتلاحم عضوى نفسى يعمل على خلق الاخاء البشرى والتعاطف الانســانى الذى جاء به الاسلام ليقضى على الشعوبية ويحارب العنصرية ويسوى بين النــاس جميعا ، فلا فضل لهذا أو ذاك عنـــد الله ، ملك الناس ، اله الناس ، الا بالتقوى ، والعمل الصالح ، وأن يحب الانسان لأخيه الانسان ما يحبه لنفســه ، فلا يكرهه ، ولا يمكر به ، ولا يعــاديه ، ولا يعتدى عليــه أى عدوان كان ..!!

فالحج كركن وفريضة ـ وبعد ما ذكرنا ـ هو المظهر الرائع لتجميع المسلمين طرا فى موسم خاص ، ووقت ومكان محددين ، يتلاقى فيهما الناس فى صعيد واحد مقدس ، وعند قبلة واحدة مطهرة ، ليتجه الجميع وهم سواسية الى الله ، صغيرهم الى جانب الكبير ، وغنيهم الى جوار الفقير ، ومحتاجهم مع ذوى الفضــــل والكرم والجود ، وقد زايلتهم المظهريات الدنيوية ، فكلهم اليوم عباد ، أمام سيد واحد مهيمن عظيم ، كلهم يسأله بره وكرمه واحسانه وجوده ، وكلهم يستمطره نداه وفضله وكلهم يسأله النفع ودفع الشرور .

والحج فضيلة عظمى .. وفريضة قررت فى صلب الاسلام ، وحـــدد زمانها ومكانها .. وأمر الناس بأدائها منذ أقدم العصور ، ولكن محرفى الكلم عن مواضعه ، عدوا عليها شيئا فشيئا ثم محوها ، ولم يعد لها وجود عند من ورثوا الكتاب ، ونسبوا أنفسهم الى ابراهيم ، وابراهيم أول من نادى بها ودعا اليها ، كما أمره الله بذلك ليكون الحج المظهر الاخائى السليم لجميع الناس على كر العصور ..

فالحج فريضة ، فرضت على سيدنا محمد كما فرضت من قبل على خليل الله سيدنا ابراهيم ، وظلت فرضيتها قائمة ما بقى الدين ، وظلت الحنيفية معترفا بها .. فقد أمر عليه السلام أن يؤذن فى الناس بالحج ..

وطبيعى أن يكون الجواب على هذا الأذان .. وتلك الدعوة ، هوالاستجابة السريعة التى توحيها الطاعة والاخلاص لدعوة الداعى ، وشـــدة التمسك بها ، فيسرع الرجال راجلين ، وتسارع النساء على رواحلهن من كل فج عميق ، ليشهد الجميع المـوسم المقـــدس ، ويجنوا ثماره الدانية وينالوا ما كتب للطائعين الملبين من أجر وثواب عظيم ..

فالحج اذا .. شعيرة دينية قديمة حدد زمنها أيام ابراهيم يوم كتبت عليه وعلى المؤمنين معه بالاسلام وأمر بابلاغها ، وتكليف المسـلمين بها .. فهى والحالة هذه مظهر عبادة مقرره تمت مناسكها أول ما تمت بعد بناء الكعبة وتطهير بيت الله للطائفين والعاكفين والركع السجود .

((وليطوفوا بالبيت العتيق)) ..

وجاور بيت الله فى تلك الآونة ، اســماعيل بكر ابراهيــم .. وهـــو بحكم مكانتـــه كرســـول نبى ، وكوريث لابراهيم ، كان ســادن البيت ، القائم على أمر أول حجيج ، وكان فيه ابراهيم ومن اتبعه مــن المسلمين ، وهذا يعزز ولا شك مكانة اسماعيل ويعطيه الصـــدارة والامامة والمكانة العالية ..

وابراهيم عليه السلام ورسالته ((**الاسلام**)) كانت أولى الرسالات الكبرى وأولها وأساسها جمعاء ..

أما الرسالات السابقة ، فقد كانت رسالات خاصة الى أقوام معينين ، أمروا أن يعبـدوا الله مالهم من اله غيره .. ثم بدأت الرسالة مع ابراهيم تأخذ سـمة الجماعة ..

ولقد حج ابراهيم الى بيت الله ــ حيث يقيم ولده اسماعيل ــ ولا بد انه قد أدى الشعيرة معه ولده الثانى اسحق ، الذى حتمت عليه فرضية الطاعة بعد هـــذا والحفاظ على مظهرية الدين والاستمساك بدعائمه ، أن يؤدى الفريضة وحده بعد أبيه ، ومع من كانوا يتابعون ملته وفيهم ولا شك ولداه **((عيصو ويعقوب))** ..

ويعقوب ، قد وصى بنيه دون جدال بأن يستمسكوا بعبادة الله ، وأن يقرروا وحدانيته ولا يشركوا به الهـا آخر ، والا يمـوتوا الا وهم على ملة أبيهم الأكبر ابراهيم ، وهى ((**الاسلام**)) ومعنى هـذا انه كان مــن الــلازم لاستكمال مظاهر الطاعة أن يؤدى الاسباط مناســك الحج فى مواســمه ومواعيده والاشهر المقررة له ، وأن يسيروا على نفس النهج الذى سار عليه من قبل ابراهيم ، والا كانوا ناقضين منكرين لفرض من فروض العبادة .

فالحج فريضة قررت أيام ابراهيم ، وظلت قائمة من بعده حتمية الأداء على من اتبعوا ملته أجمعين ، وخاصة القادرين منهم على أدائها ؛ ومن تصدر لامامة الدعوة والارشاد والتوجيه على كر العصور ، وهم أهل الكتاب .

ولكن ، هل وفى أهل الكتاب بها ، وهل أدوها فأحسنوا الأداء ؟ !!

ذلك سؤال جوابه عند من حرفوا الكلم عن مواضعه من أحبار وكهان وكتبة اسرائيل !!

لقد قال بنو اسرائيل : نحن وحدنا أبناء ابراهيم ..

وسخر السيد المسيح من معتقدهم هذا ، وسخر كتاب الله القادر منه وقال فى ادعائهم بنوة ابراهيم وحدهم :

((يا أهل الكتاب ، لم تحاجون فى ابراهيم وما أنزلت التوراة والانجيل الا من بعده ، أفلا تعقلون (؟ !) ها أنتم أولاء حاججتم فيما لكم به علم ، فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وأنتم لاتعلمون ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ، ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين)) !!

ذلكم كان ابراهيم .. وبهذا أوضح القادر صفته ومذهبه ..

كان ابراهيم مسلما .. حنيفا .. وما كان من المشركين ..

فالانتساب الى ابراهيم ، والادعاء بوجود رابطة دم تربط فئة من الناس به عليه السلام ، معناه ليس الالتصاق به ، ولكن الانتساب اليه انتسابا مقبولا مرضيا عنه — هو الايمان بما كان يؤمن به ويدعو اليه ..

وابراهيم عليه السلام ، كان امام الناس ، وكان حنيفا مسلما ، فابراهيم مسلم حنيف ، لا هو يهودى ولا نصرانى ، فهذه حزبيات دينية ليست الكل .. والكل هو ((**الاسلام**)) .. أولى الرسالات الكبرى وأولها وأساسها جمعاء ..

وبالرغم من أن العرب ، أبناء ابراهيم وأبناء حفدة ولده البكر اسماعيل — فان هذه البنوة الثابتة فعلا ، لا تقربهم من ابراهيم ولا تزكيهم عند الله أبدا ، لأن الانتساب الى امام الناس انما يكون بالايمان بما آمن به ، وصدق واتبع وهو الحنيفية والاسلام ..

فدعوة محمد عليه الصلاة والسلام هى واحدة الدعوات ، وهى الجامعة لها ، وللناس جميعا تحت لوائها ، والاقرار بامامتها ..

وسيدنا الكامل محمد رسول الله ، قد دعا الى الله ، وشهد بأنه لا اله الا هو .. فهو من ابراهيم واليه ، ورسالته هى رسالة ابراهيم ، وهو أحق الناس وأولاهم بابراهيم وشريعة ابراهيم .

« ان أولى الناس بابراهيم للذين اتبعوه وهذا النبى ، والذين آمنوا والله ولى المؤمنين » ..

فالنسب الحق – فى حكم الله – هو الايمان ، وهو اتباع طريق الحق ، والانتساب الصحيح الى ابراهيم هو اتباع شريعته ، وان محمدا رسول الله الكريم ، وحفيد ابراهيم الطيب هو أولى الناس وأجدرهم بأبوة ابراهيم ودين ابراهيم ، وانه صلى الله عليه وسلم ومن اتبعوه ، هم المؤمنون ، وهم المسلمون ، وهم وحدهم أولياء الله ، الذين لاخوف عليهم ولاهم يحزنون ..

« ليس بامانيكم ، ولا امانى أهل الكتاب ، من يعمل سوءا يجز به ، ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا ، ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو انثى وهو مؤمن ، فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا ، ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن ، واتبع ملة ابراهيم حنيفا » ..

وان فى دعوة ابراهيم وولده اسماعيل حينما قالا :

« ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا امة مسلمة لك ... »

ما يؤكد أن دعوة ابراهيم عليه السلام هى دعوة الاسلام الواجبة الاتباع .. وهى بدء الرسالة الكاملة الشاملة ، التى انتظمت تحت لوائها الرسالات الكبرى جميعها : ثم أكملتها رسالة محمد عليه الصلاة والسلام ، لأنها تجديد ، ونشر ، وبعث لها ، له دلالته ومعناه ..

وان الكتاب الذى جاء به محمد ، وهو « **القرآن** » ، وهو الجامع المانع ، الشامل الكامل ، المنظم للشرائع كلها ، وانه للهدى ، وبالحق أنزله الله ، وبالحق نزل وما أرسل الله محمدا الا مبشرا بهذا كله .. مبشرا بالحق .. ونذيرا الى من لا يصدقون ، ويحاجون ويجادلون .. نذيرا لهم بأنهم ملاقوا العذاب ، وان ما بين أيديهم من كتاب لا يعفيهم ولن يعفيهم من الايمان بدعوة محمد وضرورة اتباع رسالته التى لم تكن غير تصديق شامل لما معهم من كتاب ..

« يابنى اسرائيل : اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأوفوا بعهدى ، أوف بعهدكم واياى فارهبون ، وآمنوا بما أنزلت مصدقا لما معكم ، ولا تكونوا أول كافر به ، ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا ، واياى فاتقون ، ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وانتم تعلمون ، وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ، واركعوا مع الراكعين ، اتامرون الناس بالبر وتنسون انفسكم وانتم تتلون الكتاب افلا تعقلون ، واستعينوا بالصبر والصلاة ، وانها لكبيرة الا على الخاشعين » ..

فالدعوة اذن واحدة ولاشك .. والرسالة السماوية هى هى ، ماتبدلت ولا تغيرت ولكن النفوس هى التى تغيرت وتحولت .. نفوس أهل الكتاب ولا جدال .. !!

فرسالة سيد الخلق جميعا ، هى الدعوة الى الوحدانية وان كل شىء ماخلا الله باطل .. وانه لا اله الا هو .. وهذا مسلم به عندهم ، وعند غيرهم، ولكنهم اشركوا ، وقالت طائفة عزير ابن الله ، وقالت طائفة أخرى عيسى ابن الله .. وحاشا لله أن يكون له ولد أو شريك .

وعصيان أهل الكتاب وخروجهم على الشريعة وكفرانهم بالحق طبيعة متاصلة فيهم ، فهم قد كفروا من قبل بشريعة موسى نفسها ، وكتابه الحق ، ثم هاهم اولاء يحاجون محمدا ويأبون الا أن يكفروا بما جاء به ..

((واذا قيل لهم آمنوا بما انزل الله ، قالوا نؤمن بما انزل علينا ، ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقا لما معهم ، قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل ان كنتم مؤمنين ..))

وتلك حجة الزمهم الله إياها ، وخطيئة كتبت عليهم ، فهم قد كفروا اولا ، وحادوا عن السبيل وضلوا ضلالا بعيدا .

((ولقد جاءكم موسى بالبينات فاتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون ..))

ولكن خاتم النبيين استمر فى اداء رسالته ، لم توهنه معارضة ، ولم يوقفه ايذاء أو تعرض له أو لمن اتبعوه ونادى بانه لا اله غير الله ، وان على الناس ان يؤمنوا به وحده وينبذوا ما سواه ..

وان الدين عند الله الاسلام .. والاسلام هو الدين الذى انزله الله على رسله جميعا ، كما انزله على محمد صلى الله عليه وسلم .

ولقد وازنت من قبل — فى الفصول الأولى من هذا الكتاب — بين الواح موسى ، وما انزل على السيد المسيح عيسى بن مريم من بينات ، كانت التقويم الصحيح للناموس ، وقلت ان الدعوة كانت واحدة ولكن كذب بها من ادعوا انهم أصحاب الشريعة وحدهم دون جميع الناس وقد جاء فى الواح موسى :

((اعبد الرب الهك ..

وجاء فى دعوة محمد عليه الصلاة والسلام ..

((وقضى ربك الا تعبدوا الا اياه ..

فأى فارق بين الدعوتين ، جعل اهل الكتاب يكذبون محمدا ، ويعارضونه، ويتقولون عليه ..

« ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق منهم من الذين اوتوا الكتاب ، كتاب الله وراء ظهورهم كانهم لا يعلمون ، واتبعوا ماتتلوا الشياطين على ملك سليمان ، وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا ، يعلمون الناس السحر وما انزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من احد حتى يقولا انما نحن فتنة فلا تكفر ، فيتعلمون منهما مايفرقون به بين المرء وزوجه ، وما هم بضارين به من احد الا باذن الله ويتعلمون مايضرهم ولا ينفعهم ، ولقد علموا لمن اشتراه ماله فى الآخرة من خلاق ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون .. »

فالمشكاة واحدة .. والنور واحد .. والالتماع القدسى هو ذات الالتماع والوصايا العشر ، هى الوصايا واولها :

« وقضى ربك الا تعبدوا الا اياه ... »

الايمان بوحدانية الله له وحده القيام والصلاة ، ولا سجود لغيره من المنحوتات ، فذلك باطل وضلال ..

ثم تأتى الوصية الثانية مباشرة ، وهى تقدير الوالدين ووجوب احترامهما وطاعتهما .

وهذه لم يفرط فيها الكتاب ، ولم يغفلها ابداً .. بل قررها وقضى بها الله ، بعد ان قضى بأن يعبده الناس وحده دون شريك اذ قال :

« وبالوالدين احسانا .. »

فالاسلام لم يقل باحترام الوالدين فحسب ، بل بالاحسان اليهما ..

والاحسان الى الوالدين فى شريعة محمد فرض محدد ، وأمر لايقبل الجدل ، وواجب حتمى مقرر ، له ظروفه ودواعيه وحدوده ، فالانسان قد يحترم أبويه ويجلهما ويقدرهما وهو بعد ذلك لا يحسن اليهما اطلاقا ..

والاحسان يكون فى الصحبة والمعاشرة والجوار .. والاحسان الى الوالدين تنتظم تحت لوائه هذه الحسنات جميعها ، فالطاعة واجبة الاحترام مقررة ، والاحسان فرض واجب خاصة عندما يهرم احد الأبوين أو كلاهما ، وتقل موارده ، وتضعف قدرته على الكسب ، ويكون فى حاجة الى من يعوله أو من يساعده ..

« اما يبلغن عندك الكبر احدهما ، اوكلاهما ، فلاتقل لهما اف ، ولا تنهرهما وقل لها قولا كريما ، واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا .. »

ولعمرى هذا اكمل دستور للمعاملة ، ففيه الطاعة ، وفيه الالزام بالوفاء وحسن المعاملة ، والحض على الكرم والنهى عن التضجر او التافف أو الضيق بمطالب الأبوين معا ، أو مطالب أحدهما ، لأن الانسان فى هذه الحالة لا يطيع امرا سماويا فحسب ، بل يوفى دينا فى عنقه لمن ربياه صغيرا ، وهو لا يحسن اليهما فقط ، فى المعاشرة والمخالطة والجوار والمساعدة ، بل يطلب لهما من الله الرحمة ، فهما سر وجوده ، وهما من حملاه وكفلاه صغيرا ..

ولاتقف شريعة محمد عند هذا فحسب .. بل تعود لتوصى الانسان بمزيد من العناية بالابوين وتقديرهما . وبر الوالدين يأتى بعد الايمان مباشرة وتوحيد الله ؛ بل انه احدى الوصايا العشر التى نزلت بها كل كتبه سبحانه وتعالى وبعثت بها كل رسله إلا كابداه فى سبيله : اذ يقول الحق سبحانه :

« ووصينا الانسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن .. » وتكرار التوصية ، توكيد للأمر واقرار بوجوب طاعته فهو فوق فرضيته الحتمية ، اشادة بأفضال الأم ، وتذكير للابن بما قاسته من أجله ، وما تحملته فى سبيله ، وما أحاطته به من رعاية وسهر وارضاع وفطام .

« ووصينا الانسان بوالديه احسانا حملته أمه كرها ووضعته كرها ، وحمله وفصاله ثلاثون شهرا ، حتى اذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة قال : رب أوزعنى ان اشكر نعمتك التى انعمت على وعلى والدى ، وان أعمل صالحا ترضاه ، واصلح لى فى ذريتى ، انى تبت اليك وانى من المسلمين » .

ثم تستمر الشريعة السمحاء فى تقديرها لمكانة الأبوين من الابن ، وتعظيمها لهما ، والأمر بطاعتهما ، الا فى معصية الله .

« وان جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما ، وصاحبهما فى الدنيا معروفا .. »

فالحق سبحانه ، لم يامر بقطيعتهما ، اذا كانا قد اصرا على ضلالهما وكفرهما ، ووقفا من الابن موقف المعارض لايمانه واسلامه ـ بل طالب ببرهما ، وامر بالاحسان اليهما .

والاختلاف فى حد ذاته خطورة يخشى منها على العلاقات والوشائج ، خاصة اذا كان هذا الاختلاف فى مذهب او دين .. وهو بعد موجب التفرقة والقطيعة والتنابذ . بل والصراع الرهيب .. والحق سبحانه سبق بعلمه الأحداث فقرر وقدر وامر الانسان أن يترفق فى علاقاته بأبويه ، اذا ما اختلفت المذاهب والديانات ، وان على المرء ان يكون بارا بأبويه ، وأن ينسى الاختلاف المذهبى أو الدينى ، فلا يرغمهما على اتباع دينه ان أصرا على دينهما ، ولايتبع دينهما ، اذا كانا على ضلال وان يطيع الله ، ويعمل بشريعته وأمره ، فيحسن الى ابويه ، ويعاشرهما فى الدنيا معروفا .

اليس فى هذا التوجيه السماوى بفرضه حسن العلاقات ووجوب الاحترام والتقدير والطاعة الابوية ـ ما يقطع بأن شريعة محمد قد جبت الشرائع التى سبقتها كافة وجاءت بما جاءت به الصحف الأولى وزادت عليها وقررت الحدود بما لايدع مجالا للتأويل بعد ذلك !!

ذلك ما دعا اليه الاسلام .. وذلك مانادى به محمد خاتم النبيين ، وما جاهد من اجله .. وكانت الوحدانية أساس الدعوة ، وطاعة الوالدين والبر بهما ركيزتها ..

وآيات ((الوصايا العشر)) فى سورة الأنعام محددة واضحة فى قوله تعالى :

((قل تعالوا أتل ماحرم ربكم عليكم الا تشركوا به شيئا وبالوالدين احسانا ، ولا تقتلوا أولادكم من املاق نحن نرزقكم واياهم ، ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولا تقتلوا النفس التى حرم الله الا بالحق . ذلك وصاكم به لعلكم تعقلون ، ولا تقربوا مال اليتيم الا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا الكيل والميزان بالقسط ، لاتكلف نفسا الا وسعها ، واذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى ، وبعهد الله أوفوا ، ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون ، وان هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون)) ..

((الا تشركوا به شيئا)) ، ((وبالوالدين احسانا)) ، ((ولا تقتلوا أولادكم)) ، ((ولا تقتلوا النفس)) ، ((ولا تقربوا مال اليتيم)) ، ((وأوفوا الكيل والميزان)) ، ((واذا قلتم فاعدلوا)) ، ((وبعهد الله أوفوا)) ، ((وان هذا صراطى مستقيما)) ..

وقد أطلق العلماء عليها اسم **((الوصايا العشر))** نظرا لتذييل آياتها بقول الله **((ذلكم وصاكم به)) ...**

ثم .. وبعد هذا الاستقرار كان الأمر بالصلاة .. وهى الصلة الدائمة بين العبد وربه ، ثم الزكاة ، لتطهير المال والأبدان ، ثم الصوم لتهذيب النفس ، ثم الحج الى البيت ، لمن استطاع ...

والاسلام ، كان دعوة نوح ، ورسالة ابراهيم ، وكتاب موسى ، ودعوة عيسى ، وعقيدة محمد ..

فنوح يقول لقومه وهو يهديهم الى الله :

« وأمرت أن أكون من المسلمين .. »

وابراهيم واسماعيل يقولان :

« واجعلنا مسلمين لك » ..

كما أن موسى يجاهر قومه بالدعوة الى الاسلام علانية حيث يقول :

« يا قوم ان كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا ان كنتم مسلمين .. »

والسيد المسيح عليه السلام نادى بالاسلام وبشهادته نطق الحواريون واسلموا اسلاما كاملا حيث قالوا :

« آمنا بالله واشهد بانا مسلمون » .

والاسلام معنى هو :

الطاعة والاذعان ، والصلح والأمان ، وهو التسليم بوحدانية الله والانقياد له ، والايمان به ، والخلوص ، والبراءة من الشوائب الظاهرة والباطنة ، اى اخلاص العقيدة والدين لله تعالى ، فهو اذا مجموعة الفضائل السامية ، وخلاصة مكارم الأخلاق التى بعث ليتممها الكامل البشير محمد عليه الصلاة والسلام . .

ومظهر رضاء الله على عبده أن يهديه الى الاسلام :

« فمن يرد الله ان يهديه ، يشرح صدره للاسلام .. »

والصدر حين يشرحه الله لدينه ، وتنفذ اليه أضواء هذا الدين تكون المكارم والمثالية ، ويعم الاخاء والسلام ..

فالاسلام دين الله ، ومن يبتغ غيره فلن يقبله الله منه وهو القائل :

« ان الدين عند الله الاسلام .. » و « ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه .. »

وقد جاء سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بالاسلام ، وانزل الله اليه النور والذكر فى كتاب مبين ، احكمت آياته وفصلت من لدن عزيز حكيم ، فجدد بذلك الدعوات ، واقام ما اندثر من شامخ الرسالات ، ودعا الناس الى الوحدانية ، والسلام ، واقام فيهم خير مجتمع قانونه الفضائل ، ودستوره كمال تام فى المعاملات ..

دستور شرع وحدد واقام الاصول ، واعطى الحقوق ، وسوى بين الناس اجمعين .. فهو أس التشريعات ، ومصدر الكمال الانسانى ..

دستور جب ما قبله من شرائع وعقائد وكتب منزلة ، وأصبح وحـده الدستور الواجب الاتباع ولن يكتمل قيام دين ما لم يتخـذه أصحابه اماما هاديا ويشهدوا انه الحق من عند الله وان الصادق محمدا رسول الله رسول الاسلام والسلام .. حامل المشعل النوراني .. امام الرسل وخاتم النبيين ، من لم يؤمن به ويشهد برسالته فهو على غير دين ، فهـو صاحب الرسـالة الكبرى ، والدين الأعظم .. دين الاسلام الذى أقـره الله ، وارتضاه للبشر أجمعين بعد أن أتمه وأكمله وانزله نورا على رسوله محمد الصادق الأمين .

هذا هو الاسلام .. وهو نفس الدعوات السابقة ، التى وردت محددة فى أوانها ، ثم فصلت وعدلت ، وزيدت ، ونسخ منهـا ما نسخ ، وتوسـع الشارع الحكيم فى تبيان آياتها البينات المحكمات فى شريعة محمد عليه الصلاة والسلام حتى لايدع مجالا لمكابر أو مجادل ، أو متقول ممن يفترون الكذب على الله ، ويكتبون الكتاب بأيديهم وهم يعلمون أن هـذا افك وبهتان وزور وضلال ..

لقد نادى محمد بالفضائل ، وأية فضائل أسمى من الارتقاء بالعقـل البشرى عن مدارك الانحطاط والتردى الى معارج النورانية والكمال ، واى سمو روحى أجل من تمجيد الانسـان وتعظيم شأنه ، وتعريفه بقدره ومكانته ، وبأنه أفضـل خلق الله ، وأحب مخلوقات الله الى الله ، وأن الله فضل بنى آدم تفضيلا تبدى فى انه أعطاهم الخلافة على الأرض وسخر لهم ما فيها من نهر وبحر ، وتراب ثم أخضع لهم الكثير مما فى السماء ، فسخر لهم الشمس والقمر والسحاب الثقال والريح تجرى بأمره .

هذا هو الانسـان .. وأن دعوة محمد لتعيده الى حيث أراد الله له أن يكون .. سيد الأرض الداعى الى اصلاحها ، الناهى عن اشاعة الفساد فيها ، القائم بحدود الله ، العارف بما له ، وما عليه ..

لقد جددت دعوة سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام ، الدين الحق ، ونادت به ، كما أنزله وأراده الله ، ولم تأت بجديد ، ولم تبتدع بدعة بل دعت الى الوحدانية ، وما استتبع دعوة الوحدانية والاعتراف الحق بها من مظاهر واجبة الأداء ، لتمام الكمال ..

ذلكم كان الدين القيم ، الذى بعث محمد الكامل لابلاغه واقراره وتثبيت دعائمه ، وتطهيره من شوائب الشرك ، والافتراءات ، وتلك هى أسسـه الخمس التى بنى عليها كمال صاحب الدعوة ، الصادق سيدنا رسـول الله وهى الأسس التى نادى بها وجاهد لاقرارها ، لتكون الركائز والدعامات الصلبة الباقية ..

تلك كانت اسس الاسلام .. فما هو الاسلام ؟ ..

ما هو الاسلام الذى فرضه الله على الناس ، وبه بعث رسله جميعا وقد ارتضاه دينا للعالمين وشريعة باقية خالدة على كر العصور ! !

الاسلام .. هو التسليم ، والرضا ، والطاعة ، والايمان بالغيب واقامة شعائر الله التى أمر بها كاقامة الصلاة وايتاء الزكاة ..

ذلكم الاسلام .. فمن هو المسلم ! !

أجل من هو المسلم .. ؟

هل المسلم هــو من ينطق بالشهادتين ، ويقيم الصلاة ويؤتى الزكاة ، ويؤدى الحج مع القدرة وينفق مما رزقه الله سرا وعلانية ! !

هل هذا هو المسلم ، المقبول اسلامه عند الله ، المبرور الاسلام ، المبرأ العقيدة . ؟ ! !

يقول سيدنا رسول الله **((المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ..))**

أجل .. من سلم الناس جميعا من لسانه ويده ، وهذا اسمى مايمكن أن يتصف به مخلوق فى الوجود ..

فالاسلام ، ليس مجرد اقرار بالوحدانية ، واداء حق للشهادة الصادقة بأنه لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله ، بل الاســلام فى جوهره فضيلة ولا تكتمل الا بالمسالمة ، ولن يكون الاسلام حقيقة مكتملة المقومات والوجود ، مالم تسالم الناس ، وأن يسلم الناس من لسانك ويدك ! !

فالاسلام ، هو التسليم لله فى كل شىء ، والتسليم الحق ، هو الطــاعة الظاهرية والباطنية ، واهم أسس الطاعة ، مسالمة الناس ، ومخالقتهم بخلق حسن ، وصيانتهم .. صيانة الجوار .. صيانة العرض ، وصيانة المال ، وفى هذا يقول صلى الله عليه وسلم :

((كل المسلم حرام على المسلم ، دمه ، وعرضه ، وماله)) ..

تلك أسس ، اذا لم تكن كاملة الوجود ، مثبتة الدعائم ، قائمة فى قــوة واعتداد ، كان البناء نفســه ، غير جــدير بالبقاء ، ولا يمكن أن يرتاح الى وجوده انسان ..

فالاسلام هــو شريعة حسن التعامل بين الناس وبين خالقهم .. وبين الناس بعضهم بعضا .. فاذا أحسن الانسان تعامله مع الله ، واساء التعامل مع الناس فهو ليس بمسلم كامل قط ، وليس بجدير أن يكون من المسلمين العاملين ..

هذا هو الاسلام الذى جاء به محمد ، وبه نادى ومن أجله جاهد

وكافح .. ولقد أوضحنا دعائمه ، وركائز اقراره وثباته وقررنا انها امهات الفضائل ، وان عليها تقوم الفضائل جمعاء ، ويقوم مجتمع الاسلام الحق الذى تقوى به عوامل الألفة والمحبة والتعاون والوحدة .

واذا كانت دعوة الحق هذه ، قد قامت على أسس خمس ثابتة ، خالدة .. فأية مكارم دعمتها هذه الأسس وأوجدتها لتكون دستور التعامل بين المسلمين .

ان الاسلام مجموعة فضائل .. ولابد وان تكون نواة دعوته الفضيلة الحقة ، وفى يقينى ان فضيلة الأخاء هى أسمى مظاهره ، تليها فضيلة مخالقة الناس بخلق حسن ..

والمخالقة ، ليست المخالطة والمعاشرة فحسب ، بل التعامل .. ايما كان هذا التعامل ، ماديا أو معنويا ، أو روحيا ..

فمن حسن التعامل ، أن يصون المسلم جاره ، صيانة كاملة المعانى ، صيانة تشمل الخوف على الجار خوفا شاملا ، هو الحنان والعطف والأخاء ، والاسراع الى النجدة ، والغوث ، والمواساة ، ومد يد المساعدة اليه ، دون انتظار لجزاء ..

« واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين احسانا وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت ايمانكم » .

ومن حسن التعامل الاسلامى ، الا يتطلع المسلم الى ما فى يد المسلم ، ولا يشتهى بعض ما يملكه غيره أو كله ، ولا يعيره بنقص اى نقص كان ، بل يكون دائما الى جواره يعوضه ويرضيه ويشجعه ويواسيه .

وكما امر الاسلام بشهادة الا اله الا الله وان محمدا رسول الله ، واقامة الصلاة وايتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت — كذلك حرم الاسلام . الفواحش ما ظهر منها وما بطن .. حرم الخبائث كلها ، وأمر باجتنابها والبعد عنها .. حرم الخمر والميسر والربا وحرم الزنا ، والخطايا ، والموبقات وانها جميعا لأوامر حتمية ، الخضوع لها واجب ، فيه الزام مؤكد وتنفيذها شرط من شروط الاقرار بصحة الاسلام وصدق الشهادة بانه لا اله الا الله وان محمدا رسول الله .

فالاسلام ، سلام للقلب وتطهيره من الارجاس ، ومن شر الشيطان ..

وتنقية للوجدان من الشوائب كلها .. واستمساك بالهدى والكمال ، فهو اذا سلام للروح .. سلام للحياة نفسها .. سلام للوجود .. سلام للناس ..

والاسلام معنى ، هو « الطاعة » التى لا تعنى الخضوع والذلة ، لأن الاسلام فى صلبه دعوة الى سيادة العقل ، والعمل على ايجاد الانسان الكامل الذى يفعل ما يؤمر به ، ولا يفعل الا ما يؤمن ويرى انه الحق ، وهو الفضيلة وهو الكمال ، وهو الطاعة الواجبة التى تساير صلب دعوة الاسلام .

وهو بعد هذا مجموعة الفضائل السامية ، وخلاصة مكارم الأخلاق التى بعث ليتممها الكامل البشير محمد عليه الصلاة والسلام .

ومظهر رضاء الله على عبده ان يهديه الى الاسلام .. والاهتداء الى الاسلام هو الاهتداء الى الحق والى الفضائل جمعاء ، والى تعرف الذات العالية والى الطاعة وعرفان الله .

فالاسلام دين الله ، ومن يبتغ غيره فلن يقبله الله منه وهو القائل :

« ان الدين عند الله الاسلام » .

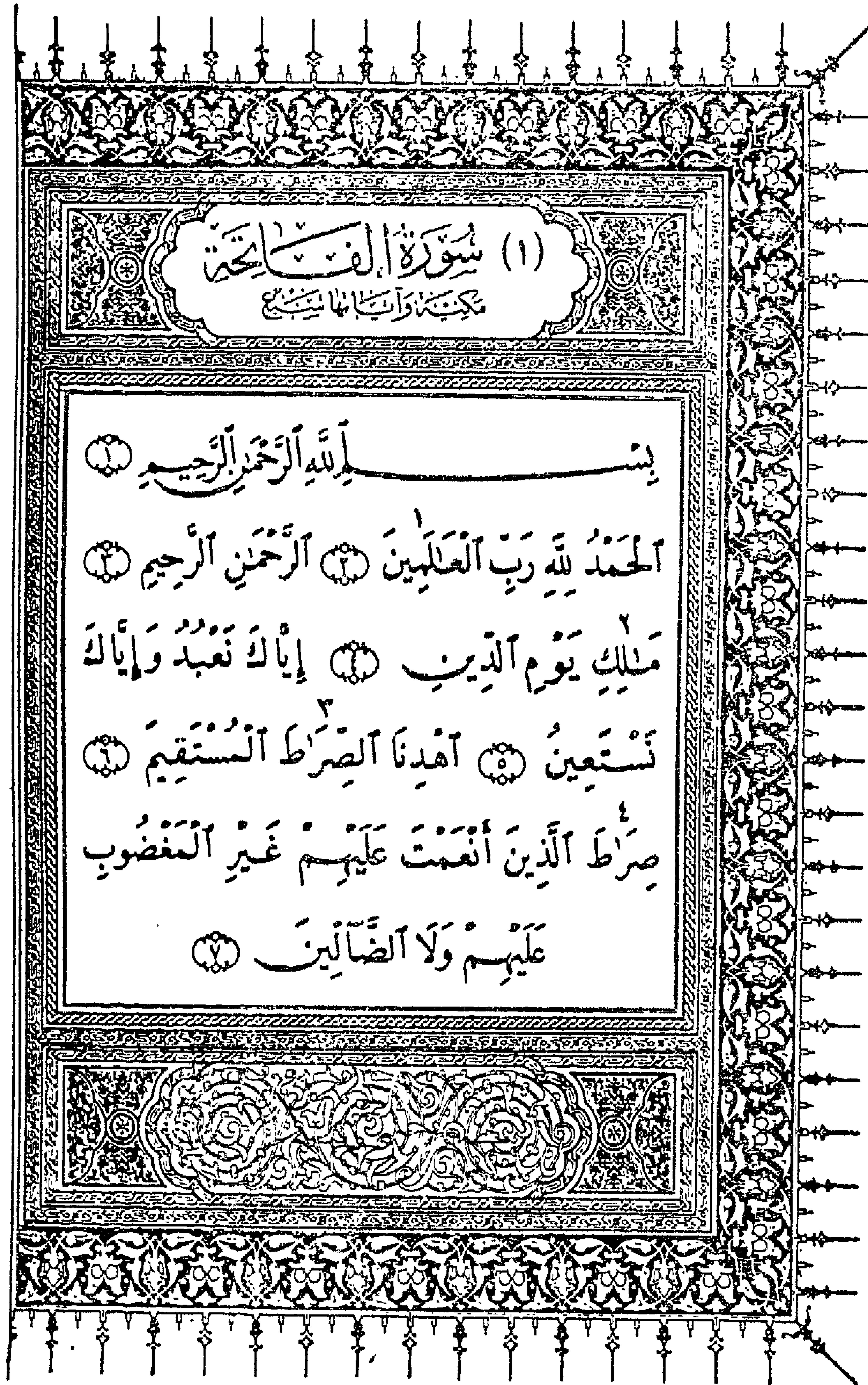
وقد جاء سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بالاسلام وأنزل الله عليه النور والذكر فى كتاب مبين ، أحكمت آياته وفصلت من لدن عزيز حكيم ، فجدد بذلك الدعوات ، وأقام ما ندثر من شامخ الرسالات ، ودعا الناس الى الوحدانية ، والسلام ، وأقام فيهم خير مجتمع قانونه الفضائل ، ودستوره كمال تام فى المعاملات ..

دستور شرع وحدد واقام الأصول ، واعطى الحقوق ، وسوى بين الناس اجمعين .. فهو اسس التشريعات ، ومصدر الكمال الانسانى .

دستور جب ما قبله من شرائع وعقائد وكتب منزلة واصبح وحده الكتاب الواجب الاتباع ولن يكتمل قيام دين مالم يتخذه اصحاب هذا الدين اماما وهاديا ويشهدوا أنه الحق من عند الله وان الصادق محمدا رسول الله رسول الاسلام والسلام .. حامل المشعل النورانى .. امام الرسل وخاتم النبيين ، من لم يؤمن به ويشهد برسالته فهو على غير دين الله ، فهو صاحب الرسالة الكبرى ، والدين الأعظم .. دين الاسلام الذى أقره الله ، وارتضاه للبشر أجمعين بعد أن أتمه وأكمله وأنزله على رسوله محمد الصادق الأمين وكلفه بابلاغه الى الناس أجمعين ..

ولقد ابلغ محمد عليه الصلاة والسلام الرسالة ، وادى الأمانة ، كاملة غير منقوصة ، واكمل بناء صرح الفضائل الدنيوية والدينية ، وتمم مكارم الأخلاق ، وجدد العهد ، ونادى بتجميع الشمل ، وتوحيد الدين ، والعودة الى الحق ، والتبرؤ من الشرك ، ومن كل دين يخالف دين الاسلام فجدد بهذا دعوة نوح .. واعاد الى الوجود قصة جهاد ابراهيم ، وحمل لواء موسى ، واكمل رسالة عيسى ، فكان عليه الصلاة والسلام ، جامع الرسالات ، وامام المرسلين رسول الشفاعة والهدى الذى انتهت عند شريعته كل الشرائع .. واكمل دينه كل دين .. وبه ختمت الرسالات الكبرى جمعاء .. وكانت أكبرها ، وأعظمها شأنا رسالة : **الاسلام** .. ودعوة الله ، وأمر الله ، ودين الله ، الذى لن يقبل يوم الحساب دينا سواه ..





(١) سُورَةُ الفَاتِحَة
مَكيَّة وَآيَاتُهَا سَبْع

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾
ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾
مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ
نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾
صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ
عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾

سورة ((**الفاتحة**)) .. أول سورة كاملة نزلت من القرآن الكريم ، وسميت : **((فاتحة الكتاب ، وأم الكتاب ، والسبع المثانى ، والواقية ، والكنز ، والكافية ، والحمد الأولى ، والحمد القصوى ..))**

((الرسالات الكبرى))

الله

((الله نور السموات والأرض ، مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ، المصباح فى زجاجة ، الزجاجة كانها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لاشرقية ولاغربية ، يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار ، نور على نور ، يهدى الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس ، والله بكل شىء عليم)) .

(سورة النور)

النور هاد يهدى الحيارى والضالين أينما كانوا ، وحيثما حلوا ، وكلما تكاثفت الظلمات ، وتشعبت المسالك ، وضاقت الدروب وضاعت معالم الطريق ...

والحق سبحانه وتعالى ، حين اراد للانسان ان يكون خليفة فى الأرض ، انما اجتباه على علم ، واختاره لهذه المهمة القيادية العملية على بصيرة ، فوضعه حيث اراد له ان يكون ، ثم هداه ، ووفقه ، ويسر له سبله ، وانار له مسالكه بهدى من عنده ، وتفضل عليه ، فعلمه ما لم يكن يعلم ، وبهذا أعطاه السلاح والقوة ليشق طريقه ، ويأخذ مكانه ، ويقوم بدوره الاصلاحى العظيم ...

والعقل ... وهو منة الله الكبرى ... كان اعظم الهبات الربانية التى وهبها القادر للانسان العامل ، البانى ، المشيد ، الخليفة المستخلف على الأرض ، وسيد هذا الوجود ، بعد ان اوجد الوجود لهذا الانسان ...

والعقل ، كان النور الهادى للانسان ، فهو قبس من الله ، وضوء من نور الله ، الذى يهدى الى ذاته بعظيم آياته وبديع أعماله ...

وبالعقل ... وهو السلاح القاهر ، بدأ الانسان الاول يشق طريقه فى عالمه الجديد ، وبنورانية العقل ، بدأ الانسان يعرف كنه مهمته العظمى التى كان عليه أن يحمل اعباءها فسار على هديه ، وعرف كيف يتغلب على

شتى الصعاب بقوة العقل ، وكيف يكشف الغوامض بنور العقل ، فيجعل العسير يسيرا والصعب سهلا ممكنا ...

ولما كان العقل هبة نورانية ، القادر الأعظم وحده هو صاحبها وواجدها فى الانسان فانه من الطبيعى أن يتجه العقل بكل حوافزه الى من أوجده وأنشأه ، وزوده بملكاته المستنيرة ...

ومن هنا ... حوم العقل — وهو قبس من النور الأعظم — حول ذلك النور — ودار حواليه فهو مصدره ومستوحاه ، ثم اتجه اليه ، وسما نحوه ، الى ذروته ، ثم وقف قاصرا ، لايدرى اكثر مما عرف ، ولا يستطيع ان ينقدم الى اكثر مما وصل اليه ، اذ كانت هناك سدود وفواصل وحدود للمعرفة ، لم يكن للعقل ان يتعداها ...

وهكذا ... اهتدى العقل المستنير الى النوز الهادى ... وشعر انه لا شيء بدونه ، فهو منه واليه ، وانه هو المرجع ، وهو المآل ، وهو الحمى وهو المجيب ، وهو المستعان . فكان ان ركن الى فيئه ، واستكان الى ظله ، واستشعر الراحة والهدوء والأمن ، وقد استسلم الى رعايته العظمى ...

ذلكم كان الهدى ... والهدى هو بداية النورانية ، وأول خطوة فى طريق المعرفة السرمدية ، التى ربطت بين الموجد الأعظم ، ومن أوجد ! !

واذا كان الهدى ... هو بداية النورانية وأول خطوات المسير نحو المعرفة السرمدية ، فان اليقين هو المعراج ، والحاجة الى العون هى الوسيلة ، ثم يأتى بعد هذا دور الايمان ، وهو الركون ، والهدوء والشعور بالراحة ، والاحساس بجلال الوصول الى كنه المعرفة ، وان عميت أسرارها على العقل ، فهى رغم هذا كائنة فيه ، يعرفها ، ولا يستطيع أن يحددها ، ويراها فى كل شيء ، ولا يجسر أن يقول ما هى ؟ !

تلك كانت الحدود والفواصل والدرجات والمراقى ... فقد وصل العقل الى حدود مرسومة ، ثم حوم ، وتطاول ، فصدته الفواصل ، ووقفت به حيث أريد له أن يكون ، ولم يستطع على مدى نورانيته ، وعظيم شفافيته أن يرقى الى ما هو أبعد وأسنى من هذه الدرجات ...

ولكن العقل المتطاول ، الجرىء ، كان يعرف انه هبة نورانية حبيبة اثيرة عند من أوجده ، فطمع فى مزيد من المعرفة ، وأراد أن ينطوى فيه ذلكم العالم الاكبر ...

وقد أحب الله فى العقل طموحه ، فزوده بما تشوف اليه ، ضمن حدود وفواصل فأعطاه القدرة والمقدرة ، على الاستنباط والابتكار ، ثم سخر له

الكائنات جمعاء ، عظيمها وحقيرها ، فجعل الشمس بجلالها وعظيم جرمها في خدمته ، والقمر والنجوم ، وسائر الموجودات التى عرفها العقل وعرف حقائق استخدامها وجليل فوائدها ...

((... وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بامره ، وسخر لكم الأنهار ، وسخر لكم الشمس والقمر دائبين ، وسخر لكم الليل والنهار ، وآتاكم من كل ما سألتموه ، وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها ، ان الانسان لظلوم كفار)) ...

وتجاسر العقل فى شططه ، فراح يتصور ويتخيل ، ثم سما ، وتعالى ثم ... وقف مرة اخرى قاصرا برغمه ، اذ تبدت له من جديد حدود وقيود .

لقد عرف الوجود ، وعرف الكائنات ، وكان سيد الشمس والقمر والنجوم ، والبحار والأنهار ، والجبال وما حوت كلها ، ولكن معرفته هذه قصرت امام أسرار الكون ، فحار امام الحقيقة الكبرى ، وعجز عن تفهم لغز الحياة ، وسر الموت !!؟

تلك كانت أسرار القدرة ، وتلك كانت الفواصل الشامخة الشماء التى وقف العقل امامها ذليلا ، فعلا بالتوسل الى القدرة ، واحس انه ، وعلى الرغم مما أوتى ، ليس غير كائن حقير ، فعاد يحوم حول النور ، وازداد شعوره بحاجته الدائمة اليه ...

وساءل العقل نفسه : ما هى آماد حاجتى الى النور الأعظم ... ثم ... وجريا على شريعة التبادل ... ما هى آماد حاجته الى وانا صنيعته !!

وعرف الانسان انه هو الفقير المحتاج ... وان القادر الأعظم ليس فى حاجة اليه ، وانما أوجده لحكمة عظمى بينها له وحددها ، فى وجوب الطاعة والاقرار بنعمة الخالق والتوجه الدائم بالشكر للموجد المنعم المتفضل ، واهب الحياة ...

عرف العقل فريضة الخضوع ... وأصول التقرب بالعبادة والخضوع ، والوقوف عند الحدود المرسومة ، وهى الاخلاص ، والاقرار بالحمد ، وجميل الثناء ...

عرف العقل هذا ، فاهتدى ... وحين اهتدى ... عرف ما يجب ومالا يجب ... وحين عرف ما يجب ومالا يجب ، استكان ، وروض تطاوله ، واقر لصاحب النعم بجميل نعمه ... وعرفه ... ضمن حدود المعرفة ...

عرف العقل النورانى طريقه الى الله ... ولم يجسر ان يتطاول الى ما هو ابعد من هذه المعرفة ، البدائية المفروضة التى قضت عليه أن يعرف القادر ، من عظيم آياته ، وان يراه فى كل شىء حواليه من بدائع صانع الخلاق المعبود ...

عرف العقل خالقه من خلال آثار عظمته وآيات قدرته ، فسبح له ...

سبح الوجدان للقادر المعبود ، سبح لله هو ومن فى السموات والأرض جميعا ... انس وجن وملائكة وجبال وانهار وسموات وشمس وقمر ...

سبح لله مافى السموات ومافى الأرض ... سبحوا جميعا للقادر الذى هداهم الى ذاته ، وفرض عليهم اجلاله وتسبيحه وعبادته ...

سبحت الكائنات لله ... وهذا فرض محتم ... وواجب مفروض ، لا تهاون فيه ولا نقض ، ولا خروج عليه ، فالتسبيح اقرار بالحمد ، والحمد تعبد مطلوب والعبادة شريعة مقررة واجبة على جميع الكائنات ...

هكذا ... عرف الانسان ، وهو كائن من ارقى واسمى الموجودات ، عرف الله ، الخالق ، المبدع ، المصور ، الرحمن الرحيم ...

عرفه سبحانه وتعالى جلت صفاته ، وتعالت ذاته ، وتقدست اسماؤه ...

عرفه عن طريق العقل المستنير فسبح له ، واهتدى اليه ، وعرفه ...

عرف الانسان الله القادر ، واهتدى اليه ، وعرف واجبه نحوه تعالى ، بعد أن عرف افضاله عليه ، عرف انه فى حاجة الى الله القادر ، وان الله غنى عنه ... فازداد من ذاته قربا ، وعلا اليه بالتوسل والضراعة ، وعبده حق عبادته لانه اهتدى اليه وعرفه ...

عرف الانسان الله ، فسبح له مع سائر مخلوقاته التى فرض عليها التسبيح ... سبح لله مافى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم .

سبح له وقد عرف انه الملك القدوس ، الذى له ملك السموات والأرض، يحيى ويميت وهو على كل شىء قدير ...

عرف الانسان ان الله الذى أوجده ووهبه الحياة وقدر عليه الموت ، هو الأول والآخر والظاهر والباطن ، وهو بكل شىء عليم ...

عرف الانسان عن طريق هذه المعرفة اللدنية من هو الله ومدى قدرته العظمى ، عرف هذا بعد ان راح ينظر ويتفكر فى خلق السموات والأرض

« ان فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس ، وما أنزل الله من السماء من ماء فاحيا به

الأرض بعد موتها ، وبث فيها من كل دابة ، وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض ، لآيات لقوم يعقلون »

وكان ان اهتدى ، واقر بأن القادر الذى أمات واحيا ، وقدر وهدى ، خلق السموات والأرض ... السموات وما اظللن ، والأرض وما حملن ، وانه سبحانه بكل خلق عليم ...

عرف الانسان ربه ، فعبده ... واتجه اليه بالقلب والوجدان ثم ...

ثم مالبث العقل أن تمرد ، وقد تشعبت به مسالك الحياة ، وتبدى جمال الكائنات وجلال الموجودات .. فضل ... وخرج عن الطريق المرسوم واتبع هواه وشيطانه .. وملأه الزهو والغرور والاعتقاد بأنه سيد الكون والكائنات ووارث الأرض وما عليها .. فكفر وتنكر .. وضل وغوى ..

ورغم هذا كانت نفسه المتمردة تنزع به فى ساعات وحدته الى جانب القدرة ... ولكنه كان قد عصى ... وابى عليه شيطانه أن يعود ... فركب راسه واستمرأ عصيانه وتشبث بضلالاته ... وبدلا من أن يهتدى ويرجع الى جادة الصواب ... ملأه الغرور وقاده الشيطان الى الشطط ... فراح يخلق ويصور .

وجعل الانسان « .. **الهه هواه** » .. وراح يصـــور هذا المعبود كما كان يشاء ويهوى ويريد .

لقد أراد فى صميم نفسه ان يكون معبوده الى جانبه وملك يديه ... يناديه وقت يشاء ويدعوه حين يريد ... ويكون معه عيانا ساعة يرغب ... فراح يتمثله ويتخيله ... ومن هنا استكان الى الحجر مرة ... وخضع للنجم ثانية ... وعبد الشمس والقمر ومادون ذلك من كائنات .

ورغم هذا الضلال الذى تردى فيه الانسان فان وجدانه كان لم يزل يحوم حول سدة الذات العظمى ... ولكنه كان يرهبها ويخشى أن يتقرب اليها ... فكان يبتعد ليزداد قربا ... ويضل ليزداد هدى ... ولكنه رغم هذا استمرأ الخطيئة ووجد فى الكفران حرية كان يتوق اليها ففضل أن يستسلم الى شيطان الكفر والعصيان ، الذى أباح له ما حرم الله . وجعله ينتشى بخمر السيادة المطلقة ..

فأكب على الصنم وغيره ، وهو يعلم علم اليقين ان هذا بهتان وافك وان ما كان يعبد من آيات ومظاهر واجرام ... ليس الا من صنع الله ...

فالانسان رغم كفره وضلاله وضراعته للحجر وتوسله للنجيم والكواكب،

ما خـرج على حقيقـة العبـادة فى شىء من حيث كونهـا عبـادة وضراعة ولو كانت تؤدى لغير صـاحبها ، لكنهـا كانت بالنسبة له فريضـة واجبة الاداء رغم انها كانت فى مظهرها كفران مبين بالمعبود الخالق الذى أمر بأن تتجه القلوب اليه وحده وأن يعبد حق عبادته وحده بلا شريك ولا منازع من صنع الهوى ووحى الشيطان .

وبرغم هذا الزيغ وذلك الضلال المشين ، الذى انحدر بالعقل البشرى الى مراتب السائمة فى بعض العصور فقد ظل المعبود بالنسبة اليه ، وخلال عهود الظلام والجهل الدينى .. شيئا جماليا رائعا فى حسنه فريدا فى مظهره تتجلى فيه آيات ومعالم لم تكن للبشر أنفسهم ، برغم أن تفكيرهم لم يجسر ان يتسامى عن نسخ صورهم الكمالية المثلى لتأخذ صورة من صـور ذلك المعبود ...

كان الانسان الأول وريث علم آدم وشريعته وأصول عبادته ، وتبتله ، واخلاصـه . ممثلا فى الأجيال التى جاءت من ولد آدم وتـكاثرت عنهم — يعرف ان الله واحد بلا شريك ... أحد صمد ، تفرد فى ملكه ، أول لا ثانى له ، تعالى عن الأحداث ، ليس كمثله شىء وهو السميع البصير ..

عرف الانسان الأول هذا ... عرف الله ، عرف الرحمن القادر المهيمن ، ذو العرش المجيد ... عرفه وعبده وأخلص له ...

وورثت الأجيال هذه الفكرة المثالية التى سما بها الدين الى مكانات عالية .. ثم ، ما لبثت ان عدت عليها الشوائب وطمستها التصورات ، فكان ان تعددت الفكرة ، وتطورت الصورة ، فاذا بها عديد من الصور ، لم تخرج فى مبناها ومعناها عن الكمال الحق الذى لم يكن هذه المرة كمالا مطلقا ، بل كمالا متعدد الوجوه كثير الأشكال ، متباين الصفات ...

ومن هنا نشات فكرة تعدد الآلهة ... وتخيلها العقل البشرى عـلى الهيئات المتعددة ذات القدرات الكثيرة التى كانت كل منها تمثل وحـدة خاصة متكاملة عن صورة الكمال المثالى ...

والعقل الذى خيم عليه الظلام ، وخضع لشريعة الشرك والضلال ، لم يجسر وحده على تصور معبوده الذى أخذ يصنعه ويصوره الا من العودة الى تذكر الرواسب الأزلية ، المستقرة فى اعماق الروح ، وفيها صفات الله ...

كان الانسان رغم جهالاته ، وافراط أهل الكهانات فيه ، وامعانهم فى

أبعاد الناس عن الحقيقة ليظلوا هم المصدر وتكون لهم السيادة كان يعرف أن للكون موجدا ، وللبشرية خالقا مصورا ، قويا ، قادرا ، خلاقا ، عظيما ، رزاقا ، مهيمنا ، عزيزا حكيما ، مصرفا للأمور ، يحيى ويميت وهو على كل شيء قدير ..

كان الانسان يعرف هذا كله ولكن ما لم يستطع أن يتصوره هو أن هذه الصفات العظمى كلها ، قد تجمعت فى اله واحد ؟

تلك كانت مشكلة العقل البشرى .. وتلك كانت الفكرة .. وسر تعاظم أمر الكهانات التى وجدت متنفسها فى تصور ما تشاء ، لتكون هى صاحبة الرأى ، التى تفرض على الانسان ما تهوى وتريد ..

وبدأت الكهانات تصور للانسان معبوده ، لا كلا فى واحد .. ولكن .. واحد تفرع الى آحاد .. وكل أصبح ذات صفات وصور وقدرات متعددة يقوم على كل منها معبود له وحـــده السيادة على فرع خاص من فروع القدرة .

أى ضلال وأى حيرة تولت الانسان الحائر بين المعبودات ، الذى ان آمن بالنور فهل يكفر بالظلام ، وان اتبع اله الحياة ، فترى ماذا يكون موقفه من ذلك الموكول اليه أمر الموت !!

وقفز العقل الكهنوتى المضلل مرة ثانية ، فجمع الأرباب كلها فى وحدة ، جعل لها كبيرا أو أبا للجميع ، منه وبارادته كانت الأرباب التى جاءت الى عوالم وممالكها العظمى اما عن طريق التناسل من صلبه ، أو من صـــنع يديه ...

وعلى هذا أصبح للكون اله واحد هو كبير الأرباب والى جانبه آلهـــة متعددة لكل اختصاصه ، ولكل عمله ، ولكل دنياه وعالمه الذى لا يجسر على العدوان عليه معبود آخر مهما سما وتعاظم حتى ولو كان سيد الأرباب .

ومن هنا حار العقل البشرى بين مجموعات القـدرة الالهية ، ولم يدر الى من يفزع والى من يركن ، ومن ينادى فى يومه هذا ... وعلى من يتوكل فى غده وبعد غده !!

وضل العقل وتاه الفكر ، وانحطت المدارك وتعددت الأرباب ...

ولكن هل كفر الانسان بروح الجمال الذى تمثله فى معبوده كائنا من كان هذا المعبود !! هل أصبحت للمعبود صورة لا تتمثل فيها العظمة والجلال اللذين يتعشقهما الانسان !!

لقد ظلت العبادة رغم تدينها ، على صورة مثالية وان انحطت ... ومن هنا نستطيع أن نقول ان الذى انحط هو الادراك البشرى ، وهـــو

العقل فى تصوره ... اما فكرة العبادة نفسها ، فظلت فى مكانها السامى ، وظل الله المعبود ، ايا كان هذا المعبود فى المكان الأسمى بالنسبة للانسان

ونظر الله الى خلقه .. الى الانسان .. اعظم من خلق ، واجمل من صور ...

نظر سبحانه وتعالى اليه ، ومرة أخرى سبقت رحمته عذابه ، وشاءت قدرته أن يعيد الضالين الى حظيرة الهداية والهدى ، والحق المبين ، ولم يشأ وهو الرحمن الرحيم - ان ينزل عقابه بالعصاة الذين تنكبوا الطريق أولا .. ثم جاء من بعدهم من ساروا على النهج واتبعوا ما اتبع آباءهم ، وآمنوا بما كانوا به من قبل يؤمنون من زيغ وضلال وأباطيل ...

لم يرد الله الرحمن أن يأخذ الناس بذنوبهم فكان أن أمهل وأمهـل ، وفتح باب التوبة لمن يريدها ويبغي العودة الى الله ..

فكان ان بعث الرسل هداة ومرشدين ليعودا بالضـالين الى طريق الهدى والرشـاد .. فدعوا الى الله الملك ، الحق ، المبين ، الذى لا اله الا هو وحده لا شريك له .

فكانت أولى الرسالات الكبرى رسالة ابراهيم عليه السلام ومن بعدها رسالة موسى ..

لقـد وقف ابراهيم عليه السلام فى وجه عبادة الكواكب والسيارات وهدمها عن طريق العقل واهتدى بعقله الى الله .. فهداه الله اليه وأنار بصيرته وأنزل عليه الصحف الأولى وأراده للناس اماما هاديا يجمعهم حول الله الذى لا اله غيره ولا معبود سواه .

وحمل الرسالة من بعد ابراهيم ولده الأكبر اسماعيل فى رهطه ثم ولده الثانى اسحق فى رهطه هو الآخر حتى عادت الجهالات من جديد تطغى على الأصل القوى وتحاول طمس معالمه فكانت دعوة موسى وكانت شريعته وكانت التوراة التى هدت الى الله ..

((انى أنا الله لا اله الا أنا فاعبدنى)) ..

وهنا كانت الاشارة الى الله الواحد .. ومادام قد تحقق هذا فلتـكن بعد ذلك الأوامر المتعلقة بتنفيذ هذا الأمر لأن الاقرار بالوحدانية يلزم المؤمن أن يتجه بقلبه وحواسه الى الله وهذا الاتجاه العميق والايمان المطلق يتمثل فى الصلاة .

((وأقم الصلاة لذكرى)) .

وما دام العابد قـد عاد الى حظيرة معبـوده وآمن به واتجه اليـه

وأقام الصلاة فعليه بعد هذا أن يعرف أن الحياة الدنيا ميدان عمل وطاعة وامتثال وتحصيل حسنات يرضى عنها الله تبارك وتعالى لتكون المعبر الذى يسير عليه الانسان فى آخرته الى جنات الرضوان .

ورسالة موسى الى بنى اسرائيل كانت أول رسالة كتابية أراد الله عن طريقها أن ينشىء طائفة الهداة الذين ينطلقون برسالته بين الناس يبشرون بها ويهدون العالمين اليها ويحاربون عن طريقها الزيغ والضلال والكهانات وعبادة الصنم وفكرة تعدد الارباب .

كانت رسالة موسى توحيدا مطلقا للعبادة ، والتوحيد هو القضاء على التعدد ... والقضاء على التعدد فى حكم الشريعة وهو العودة الى الله الواحد الذى لا شريك له ..

والشريعة هنا قد بدأت تنير العقل البشرى مرة أخرى بنور الحق فعرف الله وعرف الصلاة ، وعرف أن الحياة ميدان عمل ، ثم عرف أن من وهب الحياة قد قدّر الموت وقضى به على عباده وجعل لهم بعد الموت حياة ونشورا ثم ثوابا وعقابا ... ثم خلودا أبديا فى جنات الرضوان أو فى عذاب مقيم .

هذه كانت رسالة ابراهيم الكبرى ، وكانت من بعده رسالة موسى ولكن ما لبثت الكهانات أن عادت تتسلل مرة أخرى الى العقل البشرى المستنير عن طريق الدين نفسه ، فكانت التأويلات وكانت التخريجات وكان تحريف الكلم عن مواضعه فتنكب الناس مرة ثانية عن سبيل الحق وساروا فى سبيل الضلال وطرقات الشر والعدوان ونسوا الله فنسيهم الله وسامهم الخسف وأذلهم وجعلهم عبيدا للشعوب وخدما للأمم ومواطىء أقدام لعبدة المنحوتات من الضالين الذين كان يجب أن يهتدوا بهدى هؤلاء العصاة أو لم يسيروا فى غير طريق الحق المبين .

وجاء عيسى بن مريم عليه السلام ... جاء رسولا الى بنى اسرائيل ليجدد ما بدأه موسى ويعد العدة لاقامة وتكوين طائفة الدعاة باسم الحق والشريعة والدين .

جاء عيسى بن مريم الى عالم الضلال وفى يمينه شريعة موسى .. صحف ابراهيم .. نداء نوح بالوحدانية .. دعوة هود وصالح .. رسالة الأنبياء والرسل جميعا الى الناس .

جاء عيسى بهذا .. بالهدى .. بالعمد النورانية من لدن عزيز حكيم وهى انجيله الذى أراد الله به ان يقوم ما اعوج من عمد الشريعة الأولى التى عدت عليها الكهانات وقدمتها فى غير حقيقتها الى العقل البشرى .

وكما وقف نوح أمام قومه يجادلونه ويحاججهم ، وكما وقف هود وصالح وشعيب أمام عبدة الصنم يجادلهم فى الحق ويهديهم اليه .. وكما

وقف موسى أمام فرعون وقومه ثم أمام بنى اسرائيل يهديهم الى الله — كذلك وقف عيسى عليه السلام أمام أهل الكتاب الذين أضاعوا الكتاب وخرجوا على الحدود وحرفوا الكلم وعصوا الله جهارا وهم أعلم الناس بحقيقة الله وقدرة الله وما يعنيه الايمان بالله .

واتخذ الصراع بين عيسى وبنى اسرائيل لونا مستغربا من ألوان الجهاد .. فعيسى لم يأت بجديد ولم يطالب بنى اسرائيل بغير ما أمروا به ولكنه أراد أن يقوم الصف المعوج .. وينقى الذهب الخالص من الشوائب التى علقت به ويصهر الشريعة فى بوتقة الندم لتعود نقية صافية ويستقيم كل شىء ، ولكنهم عصوا وتمادوا فى كفرانهم ، فلم يثن ذلك عيسى عن رسالته واستمر فى أدائها وحوله من آمنوا به من الحواريين وغيرهم ممن دخل النور الى قلوبهم فعرفوا الله وقدروه وعبدوه وأخلصوا له واقروا بالوحدانية المنزهة عن الشرك الخالصة من كل الشوائب .

ومرة ثانية ، وأمام انتصار الدعوة الجديدة وتعاظم شأنها — بدأت تتكون طائفة أصحاب الكهانات من جديد فلم تكتف بتحريف الكلم عن مواضعه والعبث باستقامة أعمدة الناموس .. بل تمادت فى طغيانها ، ونسبت الى عيسى عليه السلام ما هو منه براء فرفعته وهو المخلوق البشرى الفانى الذى يخضع لقانون الحياة والموت .. رفعته الى مصاف الألوهية .. ثم حارت بعد ذلك أين تضعه وأين تستقر به وصاحب الشريعة يقضى بأنه لا اله الا الله وحده بلا شريك .. فأين يكون مقام عيسى منه .

وتفتق العقل الكهنوتى عن بدعة جريئة هى : الحاق عيسى رسول الله وصاحب الرسالة الكبرى الثالثة — ببنوة الله جل وعلا ، فصار بقدرة الكهنوت ابنا للواحد القهار ، وأصبحت أمه الصديقة صاحبة لله تنزه وتعالى ! !

ودعا أصحاب هذه الفكرة اليها .. ووجد فيها الناس تسرية وفرجا وراحة لنفوسهم فاذا هم أمام قوتين .. الأب .. والابن ، وكلاهما فى نظر هؤلاء الناس شيئان مقدسان واجبا العبادة بعد أن يكملهما الطرف الثالث وهو ... الروح القدس !!

وهكذا تفرعت عن العقيدة الواحدة عقيدة مثلثة الأطراف ، فضاعت مرة أخرى أصول الشريعة ، وسار الناس فى غير الاتجاه الدينى الصحيح ، وأخذت العبادة السامية وجهة ما جاء بها كتاب وما دعا اليها رسول ..

وخيمت الظلمات على العالم الذى كانت تسوده من قبل الرسالات جمعاء .. ظلمات الجهل وعبادة الصنم .. ولم يعد الناس يعبدون فى تلك الآونة الصنم وحده والحجر دون سواه .. بل عادوا الى عبادة الكواكب

والسيارات ، وعدوا بهذا على ملة ابراهيم الكبرى وهؤلاء كانوا الطائفة الثانية من الكفار الضالين أما الطائفتين الباقيتين ، فكانتا طائفتى الأحبار ، ثم الكتبة والفريسيين ، ثم من تجاسروا وجعلوا لله صاحبة وولدا وأمروا الناس أن يعبدوا الثالوث المقدس بدلا من عبادة الله الواحد الذىلاشريكله!

ومرة ثالثة تداركت رحمة الله الناس ، لم يرد سبحانه أن يأخذهم بعصيانهم ، فأرسل فيهم امام الرسل وخاتم النبيين محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام نبى الرحمة ورسول السلام ، ليهدى الناس الى الله وينقى العبادات من الشوائب ويجمع الكل فى واحد ... ويرفع علم التوحيد المنزه عن الشرك ويقود الناس ... كل الناس الى الله ليعرفوه .

ورسالة محمد عليه الصلاة والسلام هى كبرى الرسالات وان كانت رابعتهم فهى الركيزة .. وهى الأساس .. وهى العودة الى الأصل .. وهى التجميع الحقيقى الذى أراد به الحق أن ينقى أعمدة النور والهدى من الشوائب والضلالات لتستقر عليها دعائم العبادة للناس جميعا ، فيعرفون الله حق معرفته ويقدرونه حق قدره لايحيدون ولا يزيفون ولا يستسلمون لباطل أو ضلال .

وعرف الناس الله ... ولم تبق لأحد حجة أبدا ... عرفوه جل جلاله ... عرفوه ببديع آياته وعظيم صفاته ... لم يعرفوه كما عرفه من ورثوا شريعة عيسى وبدلوها فجعلوا له سبحانه صاحبة وولدا .. بل عرفوه بأسمائه الحسنى ، ثم نادوه بها وقد ملأ حبه قلوبهم فكانوا خير أمة أخرجت للناس ...

ووجه التفضيل الذى تميز به المسلمون على غيرهم من أهل الديانات ، هو أنهم عرفوا الله معرفة ايمان وحق ثابت ولم تجسر عقولهم أن تتعدى الحدود المرسومة بحال من الأحوال ... فقد عبدوا الله على انه هو الله خالق الكون وموجد الكائنات وأقروا له بالربوبية والوحدانية مسلمين مستسلمين وآمنوا به ايمانا راسخا واتجهوا اليه بمجامع القلوب وبالاخلاص والضراعة وبأنه سبحانه وتعالى هو المفزع وهو الذى يجير ولا يجار عليه ، وهو الذى يستجيب لمن يناديه وهو القريب العظيم المتعال **((واذا سألك عبادى عنى فانى قريب أجيب دعوة الداع اذا دعان))** .

عرف المسلمون الله بأسمائه الحسنى عاملين فى هذا بقوله جل وعلا :

((قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيا ماتدعو فله الاسماء الحسنى)) فهو ((الرحمن علم القرآن ، خلق الانسان ، علمه البيان)) ، وهو « الرحيم » فى قوله : **((تنزيل من الرحمن الرحيم))** .

واسم «الله» هو أكبر الاسماء أما أجمعها للمعانى فهو : **((لا اله الا الله))**

((هو الله الذى لا اله الا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم))

قال صلى الله عليـه وسلم : **اسم الله الأعظم فى سـور من القرآن** ثلاث : البقرة وآل عمران وطه :

فى سورة البقرة : **((الله لا اله الا هو الحى القيوم))**

وفى سورة آل عمران : **((الم ، الله لا اله الا هو الحى القيوم))** .

وفى سورة طه : **((وعنت الوجوه للحى القيوم))** .

واسماء الله الحسنى وان اختلفت وتعددت فانما تدل على حقيقة واحدة ثابتة لا تتغير وردت بأجمعها فى كتابه الذى أنزله على محمد صلى الله عليـه وسلم ، فهو سبحانه **((رب العالمين))** وأن سورة الفاتحـة ، أول سورة نزلت من القـرآن ــ لتبـدأ بـ **((الحمد لله رب العالمين))** ، ثم تليها الآية الثانية **((الرحمن الرحيم))** وهى تشتمل على اسمين كريمين من أسماء الله الحسنى ، ثم : **((مالك يوم الدين))** فهو تعالى وحده مالك هـذا اليـوم العظيم ، يوم البعث والحساب ، ثم : **((إياك نعبد وإياك نستعين))** هو وحده المعبـود ، وهو وحده من يسـتعان به .. ثم : **((اهدنا الصراط المستقيم))** الطريق الذى لا عوج فيه ولا انحراف والذى وصفه تعـالى بقوله بعـدها مباشرة : **((صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضـوب عليهم ولا الضالين))** ..

والاسمين الكريمين **((الرحمن الرحيم))** كثرت أقوال المفسرين فيها وكان أهمها أن **((الرحمن))** صفة ذاتية هى مبدأ الرحمة والاحسـان ، و **((الرحيم))** صفة فعلية تدل على وصول الرحمـة الى المنعم عليه بها **((وكان بالمؤمنين رحيما))** لهذا كان **((الرحمن))** صفة شأن أسماء الذات :

((هو الله الذى لا اله الا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون))

هو : **((الملك))** الذى تعنوا أمامه الجباه ، فهو الذى يعطى الملك من يشاء ويخلع الملك عمن يشاء **((فتعالى الله الملك الحق))** ..

هو ((القدوس)) الذى تقدست أسـماؤه وتعالت صـفاته وعظمت هيبته . **((الملك القدوس العزيز))** .

وهو **((السلام))** وما ادراك ما السلام وما تعنيه من جميل معنى وبديع مبنى فهو سلام فى السماء وسلام على الارض وسلام فى قلوب عابديه .

((اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت ياذا الجلال والاكرام)) .

وهو ((**المؤمن**)) ومنه الايمان ، ومن أوامره الايمان به والاعتراف بربوبيته والاقرار بعظمته ووجوده .

وهو ((**المهيمن**)) المتحكم فى كل شىء فى الأرض وفى السماء ؛ لا تتحرك دابة الا بأمره ولا تهتز جارحة بغير مشيئته .

وهو ((**العزيز**)) الذى لا عزيز غيره وهو صاحب العزة ومو ليها للخيار من عباده .

وهو ((**الجبار**)) الذى يجبر الخلق على ما أراد من أمره ونهيه ، وهو الجبار العالى فوق خلقه الذى ترجف الجبال من هول جبروته .

وهو ((**المتكبر**)) المترفع العالى الشأن ، الذى حرم الكبرياء على غيره ..

وهو ((**الخالق**)) الذى ابدع خلق السموات والأرض وما بينهما من شموس وأقمار وكواكب وانهار وجبال ومحيطات وبشر ووحوش وغير ذلك مما نعلم وما لا نعلم .

وهو ((**البارىء**)) الموجد لما كان فى معلومه من أصناف الخلائق **((ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم الا فى كتاب من قبل أن نبرأها))** .

وهو ((**المصور**)) البديع الصنع ، الذى صور البشر فى الأرحام والطير والحيوان وكل ما تقع عليه العين أو يخطر فى الفؤاد وهو المهيىء لمناظر الأشياء على ما أراده من تشابه أو تخالف فهو المصور الذى أنشأ خلقه على صور مختلفة ليتعارفوا بها ، ومعنى التصوير التخطيط والتشكيل وخلق الله عز وجل الانسان فى أرحام الأمهات ثلاث خلق يعرف بها ويتميز عن غيره بسمتها جعله علقة ثم مضغة ثم جعله صورة وهو التشكيل الذى يكون به ذا صورة وهيئة فتبارك الله أحسن الخالقين .. (١)

وهو ((**الغفار**)) الذى يسع عفوه كل خاطىء تاب اليه . **((انه كان غفارا))** .

وهو ((**القهار**)) صاحب القوى الغالبة المسخرة من ريح وزوابع وعلل وأمراض ، وما نعرف من قوات وما لا نعرف من جنود **((وهو القاهر فوق عباده ، ويرسل عليكم حفظة حتى اذا جاء احدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون ...))** .

وهو ((**الوهاب**)) الذى وهبنا الحياة والنعم ، وسخر لنا الأرض والجبال والأنعام .. **((ربنا لا تزغ قلوبنا بعد اذ هديتنا ، وهب لنا من لدنك رحمة انك أنت الوهاب))**

---

(١) كتاب أسماء وصفات .

وهو ((**الرزاق**)) الذى قسم عطاياه بالقسط والعــدل فأعطى ومنع ، ورزق الدود فى الحجر . ((**ان الله يرزق من يشاء**)) .

وهو ((**الفتاح**)) الذى بيده مفاتيح كل شيء ..

وهو ((**العليم**)) الذى لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء .

وهو ((**القابض**)) على النواصى والمتحكم فى كل الأمور . ((**.. والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه ..**)) و ((**والله يقبض ويبسط**)) .

وهو ((**الباسط**)) يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر .. ((**ان الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر**)) .

وهو ((**الخافض**)) لمن تسول له نفسه انه فوق أعناق البشر !

وهو ((**الرافع**)) لمن يخفض نفسه ويتذلل اليه ويقر بعبوديته وضعفه أمام جلاله . ((**يرفع الله الذين آمنوا**)) .

وهو ((**المعز**)) للذليل فى رحابه .

وهو ((**المذل**)) لمن تصور له نفسه انه قد ملك الأرض ومن عليها .

وهو ((**السميع**)) الذى ترتفع اليه الضراعات ويسأله من فى السموات والأرض فيستجيب لهم .. وهو الذى يسمع السر والنجوى ((**ليس كمثله شيء وهو السميع العليم**)) .

ومن أسمائه تعالى :

((**الأول والآخر والظاهــر والبــاطن وهو بكل شيء عليم**)) .. لا شيء قبله ولا شيء بعده ، فالأول هو الذى لا قبل له ، والآخر هو الذى لا بعد له . ومن لم يكن له ابتداء ليس له انتهاء .

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((**اللهم انى أعوذ بك من أربع : من علم لا ينفع ، ومن قلب لا يخشع ، ومن نفس لا تشبع ، ومن دعاء لا يسمع**))

وهو ((**الباقى**)) : الدائم الذى لا يستولى عليه الفناء . ((**ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام**)) .

وهو ((**الحق المبين**)) الحق ما لا يسع انكاره ويلزم اثبــاته والاعتراف به ووجود البارى عن ذكره . ((**ويعلمون أن الله هو الحق المبين**)) .

عن ابن عبــاس رضى الله عنــه أنه قال : كان النبى صلى الله عليــه وسلم اذا تهجد فى الليل يدعو : ((**اللهم لك الحمد أنت رب السموات والأرض وما فيهن ، ولك الحمد أنت نور السموات والأرض وما فيهن ،**

ولك الحمد أنت قيم السموات والأرض وما فيهن ، أنت الحق وقولك حق ووعدك حق ولقاؤك حق والجنة حق والنار حق والساعة حق ، اللهم لك أسلمت وبك آمنت وعليك توكلت واليك أنبت وبك خاصمت واليك حاكمت فاغفر لى ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت انت الهى لا اله الا أنت » (١) .

وهو« **الظاهر** » بحججه وقدرته وبراهينه ، البادى فى أفعاله الدالة على ثبوت ربوبيته وصحة وحدانيته .

وهو« **الواحد** » : « **قل انما أنا منذر وما من اله الا الله الواحد القهار** » .

وهو « **الكافى** » لا شريك له وان الكفايات كلها واقعة به وحده فلا ينبغى أن تكون العبادة الا له والرغبة الا اليه والرجاء الا منه .. وقوله تعالى : « **أليس الله بكاف عبده** » !!

وهو «**العالم**» : مدرك الأشياء بعلمه . « **عالم الغيب والشهادة** » .

وهو « **القادر** » : « **أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى** » ؟!.

وهو « **الحكيم** » قال تعالى : « **والله عليم حكيم** » المحكم لخلق الأشياء واتقان التدبير فيها وحسن التقدير لها .

وهو « **الجليل** » : فهو الجليل الذى يصغر دونه كل جليل . « **ذو الجلال والاكرام** » .

وهو « **البديع** » المبدع لكل من خلق وما خلق ، والابداع هو اخراج الشىء من العدم الى الوجود « **بديع السموات والأرض** » .

وهو « **البارىء** » : ومعناه المنشىء والمتمم اى الذى جعل لكم أزواجا ذكورا واناثا لينشئكم ويكثركم وينميكم . « **جعل لكم من أنفسكم أزواجا ومن الأنعام أزواجا ليذرؤكم فيه** » .

وهو « **الخلاق** » : فهو الخالق خلقا بعد خلق العليم بخلقه .

وهو « **الفاطر** » : « **فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة** » اى فاطر المرتق من السماء والأرض كقوله تعالى « **أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما** » فقد يكون المعنى كانت السماء دخانا فسواها فاغطش ليلها وأخرج ضحاها . وكانت الأرض غير مدحورة فدحاها وأخرج منها ماءها ومرعاها .. وقد يكون كمن قال : فتقت السماء بالغيث وفتقت الأرض بالنبات .

---

(١) رواه البخارى

وهو ((**الأحد**)) الذى لا شريك له ((**لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد**)) ..

وهو ((**البصير**)) الذى يرى ولا تراه عين . ((**ان الله بما تعملون بصير**)) و ((**والله بصير بالعباد**)) .

((**ذلكم الله ربكم لا اله الا هو خالق كل شىء فاعبدوه ، وهو على كل شىء وكيل ، لا تدركه الأبصار ، وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير**)).

وهو ((**الحكم**)) الذى يجزى المحسن باحسانه والمسىء بما قدمت يداه .. ((**قد حكم بين العباد**)) .

وهو ((**العدل**)) الذى لا يكلف نفسا الا وسعها ((**ولا يظلم ربك أحدا**)) ..

وهو ((**اللطيف**)) الذى يلطف بعباده من حيث لا يعلمون ، ويسبب لهم مصالحهم من حيث لا يحتسبون . و ((**الله لطيف بعباده**)) ..

وهو ((**الخبير**)) بعباده الخبير بما نعلم وما لا نعلم ، ذو الخبرة الواسعة « وهو الحكيم الخبير » .

وهو ((**الحليم**)) الذى يغمر الخلق بحلمه وجميل غفرانه ، ويعفو عن كثير ..

وهو ((**العظيم**)) بما خلق وسوى وقدر وهدى .. ((**والله ذو الفضل العظيم**)) .

وهو ((**الغفور**)) الذى ينزل غفرانه على القلوب بردا وسلاما .. ((**انى أنا الغفور الرحيم**)) .

وهو ((**الودود**)) لأهل طاعته ، الراضى عنهم لايمانهم وجميل أعمالهم ، والمحسن اليهم بأن يوددهم الى خلقه .. ((**ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا**)) ، ((**ان ربى رحيم ودود**)) .

وهو ((**الشكور**)) لمن يعلو اليه بالشكر والذكر والحمد .. ((**ان ربنا** لغفور شكور » .

وهو ((**العلى**)) الذى لا على فوقه .. ((**وان الله هو العلى الكبير**)) .

وهو ((**الكبير**)) الذى يصعب على العقل تحديد مداه .. فهـو ((**الكبير المتعال**)) .

وهو ((**الحفيظ**)) الذى يرعانا ويشملنا بجميل بره ، ويحفظنا مـن المهالك ومن كل شيطان مارد ((**ولا يؤوده حفظهما وهو العلى العظيم**)) . ((**وربك على كل شىء حفيظ**)) .

وهو ((**الحسيب**)) الذى قدر لكل شىء قدره ..

وهو ((**الجليل**)) الذى لا يماثله شىء ..

وهو ((**الكريم**)) الذى يعطى ويهب ، ويحث على الكرم ((**يا ايها الانسان ما غرك بربك الكريم الذى خلقك فسواك فعدلك**)) .

وهو ((**الرقيب**)) الذى لا تخفى عليه خافية ..

وهو ((**المجيب**)) الذى يسمع التوسل ويجيب الداعى اذا دعاه ويقيل عثرته ((**ادعونى أستجب لكم**)) .

وهو ((**الواسع**)) .. واسع المغفرة لعباده العاصين التائبين ((**وكان الله** واسعا حكيما)) .

وهو ((**الحكيم**)) الذى يؤتى الحكمة من يشاء من عباده ((**لا اله الا هو العزيز الحكيم**)) .

وهو ((**الباعث**)) الى الحياة الأخرى التى وعد بها بعد الموت ولو طال الأمد .. ((**وان الله يبعث من فى القبور**)) .

وهو ((**الشهيد**)) الشهيد علينـــا المحصى لأعمالنا .. ((**وكفى بالله شهيدا**)) .

وهو ((**الحق**)) الذى يزهق امامه الباطل .. ((**ثم ردوا الى الله مولاهم الحق الا له الحكم وهو اسرع الحاكمين**)) .

وهو ((**الوكيل**)) الأمين الراعى لنا .. ((**وكفى بربك وكيلا**)) .

وهو ((**القوى المتين**)) الذى لا قوى غيره .

وهو المتفرد بالوحدانية ، فهو ((**الواحد**)) الذى لا شريك له ..

وهو ((**القادر المقتدر**)) قال تعالى ((**اخذ عزيز مقتدر**)) فهو المقتدر المظهر لقدرته بفعل ما يقدر عليه فيما امضاه وكذلك قدرته على أشياء كثيرة لم يفعلها ولو شاء لفعلها فاستحق بذلك أن يسمى مقتدرا .. ((**عند مليك مقتدر**)) .

وهو ((**الولى**)) ناصر خلقه والمنعم عليهم والمتولى أمرهم والمتصرف فيهم ((**الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور**)) و ((**الذين كفروا اولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور الى الظلمات أولئك اصحاب النار هم فيها خالدون**)) فالكافرون لا مولى لهم ولا ناصر .

وهو ((**الحميد**)) الذى يستحق من عباده الحمد ، فهو الذى أوجد وخلق وسوى ، يحمد فى السراء والضراء له الحمد كله فهو الغنى الحميد ((**وما عليهم الا ان يؤمنوا بالله العزيز الحميد**)) .

وهو ((**المحصى**)) لكل ما خلق ، المدرك للأجزاء والمقادير ((**وكل شىء احصيناه كتابا**)) .

وهو ((**المبدىء**)) الذى بدأ خلق الانسان فأوجده من عدم ((**أو لم يروا كيف يبدىء الله الخلق ثم يعيده ، ان ذلك على الله يسير**)) ..

وهو ((**المعيد**)) الذى يعيد الخلق بعد الموت الى الحياة ، بعد الوجود الى العدم ((**وكنتم أمواتا فاحياكم ، ثم يميتكم ثم اليه ترجعون**)) .

((**انه هو يبدىء ويعيد**)) .. ((**.. وكما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا انا كنا فاعلين** .

وهو ((**المحيى**)) الذى يحيى النطفة الميتة ، ويحيى الأرض بعد موتها ((**فانظر الى آثار رحمة الله كيف يحيى الأرض بعد موتها ان ذلك لمحيى الموتى وهو على كل شىء قدير**)) و ((**اومن كان ميتا فاحييناه**)) .

وهو ((**المميت**)) القادر على أن ((**يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى**)) .. ((**وهو الذى ذرأكم فى الأرض واليه تحشرون ، وهو الذى يحيى ويميت وله اختلاف الليل والنهار أفلا تعقلون**)) !!

وهو ((**الواجد**)) الذى أوجد الخلق والمخلوقات والحياة والموت .

وهو ((**الماجد**)) صاحب الأمجاد وواهبها لمن يشاء من عباده .

وهو ((**الواحد**)) الذى تفرد عن كثرة وتوحد عن عزة والذى لا ثانىله.

وهو ((**الصمد**)) الصمد الباقى المقصود الرحاب .

وهو ((**المقدم والمؤخر**)) يقدم من يشاء من عباده ويرفع بعضهم فوق بعض درجات .

وهو ((**الأول والآخر**)) الأول الذى لا ثانى له والآخر الذى لا احد بعده .

وهو ((**الظاهر والباطن**)) الظاهر فى كل ما خلق ، والباطن الذى يحوى علمه كل خفاء .

وهو ((**التواب**)) لمن ارتكب الخطيئة أو الاثم بجهالة ثم ندم وتاب .. ((**الا الذين تابوا واصلحوا وبينوا فأولئك اتوب عليهم ، وأنا التواب الرحيم**)) .

وهو ((**المنتقم**)) ، ((**العفو**)) ، ((**الرءوف**)) ، ((**مالك الملك**)) ، **ذو الجلال والاكرام**)) .

وهو ((**المقسط**)) ، ((**الجامع**)) ، ((**الغنى**)) ، ((**المغنى**)) ، ((**المانع**)) ، ((**الضار**)) ، ((**النافع**)) ، ((**النور**)) .. ((**الله نور السموات والأرض**)) .

وهو ((**الهادى**)) ، ((**البديع**)) ، **الباقى**)) ، ((**الوارث**)) الذى يرث الأرض ومن عليها ((**وانا لنحن نحيى ونميت ونحن الوارثون**)) أى الباقى بعد ذهاب غيره ممن خلق

وهو ((**الرشيد**)) الذى يرشد رسله لخير البشرية ، وهو ((**الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى**)) .

وهو ((**الصبور**)) الصابر على عباده الرحيم بهم .

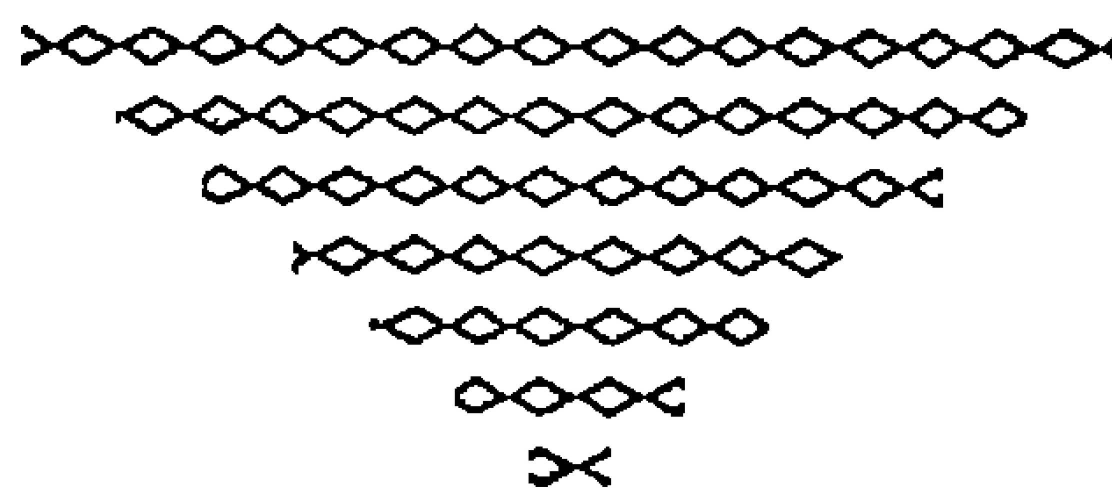
ولله المثل الأعلى من صفات الكمال جمعاء ، وله الأسماء الحسنى ، فلا تغلب فيه صفات القوة والقدرة على صفات الرحمة والمحبة ، ولا تغلب فيه صفات الرحمة والمحبة على صفات القوة والقدرة ، فهو قادر على كل شىء وهو عزيز ذو انتقام ، وهو كذلك رحمان رحيم وغفور كريم .. وسعت رحمته كل شىء .. ويختص برحمته من يشاء وهو الخلاق دون غيره ، ((**هل من خالق غير الله**)) ؟

وتدل اسماؤه وصفاته التى عبر بها عن نفسه فى كتابه الكريم عن سمو ذاته ، وتعاليه عن خلقه ، وقـدرته ، وحكمته ، وكل ماله من كمال يليق به وبجلاله .

وليس لانسان ان يناجى ربه باسم ، أو صفة لم يضعها الله لنفسه ، فهو أعلم بما يدل على ذاته ، وصفاته ، ولا يتلقى ذلك الا عنه سبحانه عن طريق قرآنه :

« ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحـدون فى اسـمائه سيجزون بما كانوا يعملون » .

ذلكم هو الله .. وهذا هو مدى العلم به جل وتعالى .. بهذا أمرنا .. وعن غير هذه المعرفة نهينا .. وبهذا جاء الرسل .. ومن أجل هذه المعرفة كانت الرسالات على كر العصور حتى انتهت الى الرسالة الكبرى رسـالة سيد الخلق محمد بن عبد الله ورسوله والهادى اليه ، والداعى الى ذكره حتى يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين .



الآيات

« وقالوا لولا يأتينا بآية من ربه ، أولم تأتهم بينة ما فى الصحف الأولى ... »

(سورة طه)

بعث الله الرسل الكرام مبشرين ومنذرين ، وهو سبحانه وتعالى عليم بما فى قلوب خلقه ، خبير بما تنطوى عليه نفوسهم ، من رغبة فى الجدل ، وحب للمكابرة ، واستمساك بالعصيان ... من أجل هذا ، قضت ارادته أن يؤيد رسله بعظيم الآيات الاعجازية التى تسكت المكابرين ، وتردهم عن الزيغ وتكون من الدواعى التى تعيدهم الى جادة الحق وطريق الهدى ...

ولكن ...

وأمام ولكن هذه نقف لحظات ولحظات مسترجعين الماضى وأحداثه ، مستعرضين جهاد الرسل العظام فى سبيل دين الله — لنسائل أنفسنا .. هل ردت تلك الآيات البينات مع جلالها وعظمتها واعجازها ، الناس كل الناس الى حظيرة الايمان والحق المبين ؟!

لطالما كان الانسان هو الانسان .. ذلكم الظلوم .. الكفار .. العاتى .. المعرض بجانبه .. ورغم هذا فقد كرمه الله ونعمه ، ودعاه بالحسنى الى سبيله ، وأجزل له العطاء ، وأثابه خير الثواب ، وضاعف له الأجر والمثوبة ... فأصر على المعصية ، وتباعد وأمعن فى الضلال .. وراح فى لجاجه وتطاوله — يطالب كل رسول كريم بأكثر من دليل على صدق رسالته ..

فاذا جاءه الدليل المادى الملموس ، طالب الرسول ان يأتيه بآية ترقى الى درجة المعجزة التى تذهل العقول ...

ولقد جاهد الرسل .. كل الرسل .. وكان جهادهم الشاق مع الكافرين المعرضين آيات نضال شاق .. واستبسال فى سبيل المتقولين .. ويرى من له بصيرة وقلب ووجدان جلال الآية وعظمتها ، فيمتلىء بالخشوع قلبه ، وتداخله النورانية بعد الظلام ، فيعرف طريقه الى الله ، ويتذوق حلاوة الايمان بالله الحق ، فيفىء الى رحمته الظليلة ، ويعرف أنه جل وتعالى وتقدست أسماؤه : احد صمد .. واحد ، لا عن قلة .. أول بلا ابتداء ..

آخر بلا انتهاء .. بيده الملك والملكوت .. واليه وحـده المرجع والمنتهى ، وهو يجزى ويثيب ، وانه الغفور ذو الرحمة ، وانه الجبار ، شديد البطش رهيب العقاب ...

والآيات .. هى دلائل القدرة الاعجازية ، ومظاهر الاستجابة القادرة ، التى يؤيد الله بها رسله فى جهادهم وكفاحهم ليغمر القلوب نور الحق والتقوى والهداية والايمان .

والآيات بعد هذا .. هى أعمال فوق قدرات البشر .. وقد تكون فى ذاتيتها الأولى صورا تخيلية محضة تقوم بالأذهان .. وتملأ فضاء التصور البشرى ، فيتمناها حقيقة ، حتى لتسد على المرء مجامع تفكيره ، فيعيش بها ولها ثم لا يلبث أن يغلبه الشوق الى أن يراها مجسدة ، فلا يجد أمامه غير الرسول الهادى الى دين الحق فيسأله أن يحققها له ، ان كانت هناك قدرة عظمى تسانده حقا ، وتعينه صدقا ، وتؤيده بما يعزز دعواه ..

وميدان النضال الدينى فى سبيل نشر الرسالات الكبرى .. وتعميمها بين البشر جميعا ملىء بأمثال عديدة من هذه الآيات الاعجازية ، التى لم يتكرر بعد ذلك ظهورها أو حدوثها أو رؤياها بعد أن تمت وملأت القلوب بالرهبة ، وأعادت الضالين الى جادة الصواب ..

فالآيات الكبرى الاعجازية التى أيد الله بها رسله العظام فى ميـادين جهادهم .. كانت مظاهر وقتية لم يكتب لها البقاء لتكون أثرا يراه الناس جيلا بين جيل ، ذلك لأنه كانت لكل عصر آية تناسبه .. ولكل رسـالة معجزة كبرى يعلو سناها على شتى مستويات الأعمال البشرية الكبرى التى اشتهر بها العصر .. وتمايز بها صنف خاص من الناس كانوا هم المقدمون على غيرهم بأعمالهم هذه .

فالآية معجزة كبرى .. معجزة قادرة يحار أمامها العقـل البشرى ، وتتضاءل مقدرة الانسان ، ويتلاشى كبرياؤه وجبروته لأن جلالها .. وسرعة حدوثها ، ودقتها الاعجازية .. كلها عوامل تشعره بالعجز والقصور ، وبأنه تطاول وتعالى دون سند وانه من الواجب عليه أن يعود الى نفسـه وقد عرف حدود طاقاتها المحدودة التى لا يمكن أن تتجاوز العادى أو ما هو أقل من العادى من سائر الأعمال .

والآيات ـ كما قلت قبلا ـ هى دلائل القدرة الاعجازية الخارقة للقدرات الطبيعية ونواميسها وقوانينها المحددة ، كما أنها أيضا مظهر واضح جلى للاستجابة القـادرة التى يؤيد الله بها رسله الكرام فى حلبات جهـادهم وكفاحهم أمام قوى الشر ، وتجبر الانسان ..

والآيات بعد هذا تعتبر خوارق فوق قدرات البشر وقد تكون حقائقها الذاتية الأولى فكرة عارضة عن مستحيل تصوره شخص ما ممن يكابرون ويجادلون ، ولم تلبث هـذه الفـكرة مع حرارة التحمس لها ، والايمان باستحالة حدوثها أن تتملك التصـور الانسـانى ، فيحيا بها من يتخينها ويعيش معها فى أطوار خيالية بعيدة كل البعد عن الحقيقة ، وان أراد لهـا التحدى الانسانى أن تكون حقيقة ملموسة ، ولو على سـبيل توريط من سيطالب بتحقيقها لاظهاره فى مظهر العجز وعدم القدرة على التنفيذ ..

فالناس .. أو الأتباع .. أو المجادلون المكابرون حينما يحلوا لهم أن يطالبوا بآية من الآيات ، فهم انما يتحدون من يطالبونه باظهارها ، أو عملها ، أو تقديمها ، لتبدو حقيقته وحقيقة دعوته أولا ، وهو المقصـود فعلا من التحدى .. للتثبت من قدرة الرسول ..

وقياسا على ما ذكرت أستطيع أن أقرر أن هذه الآيات البينات يمكن القول بانها نوعين ، لكل نوع منها خصائص ودلائل ينفرد بها كل عصر .

فهناك مثلا الآية الواضحة ، التى يوجبها ظـرف خاص أو حالة مفاجئة عارضة ، تظهر ساعة تتأزم الأمور ويجد من الأحداث ما يوجب أن تحدث ، لأن هذا الحدوث ضرورة ملحة تنـادى بوجوب حـدوث الآية ، لتسكت المعارضين المكابرين ، وترفع راية النصر والزهو لداعية الجهاد ليستمر فى طريق النور والحق الذى يوعو اليه ويطالب باتباعه ، مثل آية خمود السنة النيران المشتعلة الرهيبة ، التى تلاشت وخمدت وتحـولت من جحيم رهيب الى برد وسـلام على خليـل الرحمن ((**ابراهيـم**)) يوم القى به الطاغية الظالم اليها ليقضى عليه وينتقم منه لأنه جرؤ على آلهته العاجزة ، ونال منها وجعلها جذاذا وأضحوكة لمن ألقى السمع وهو شهيد ..

تلك كانت آية ربانيـة مفاجئة ... ماتوقعهـا الكافرون ولاطالب بها ابراهيم المؤمن بقضـاء ربه ، وبانه سبحانه وتعالى لن يتخلى عنه أو يتركه فريسة لكيد الكائدين ... ولكنها حدثت وفى وقتها المناسب ، فكانت آية الآيات ودليل القدرة الذى عزز دعوة ابراهيم ، واكد أن ما كان يعبده قومه، ليس غير وهم وضلال مبين ...

وهناك بعد هذا آيات الله ، الدائمة الوضوح ، الأبدية البقاء ، وهى مظاهر قدرته فالشمس آية ، والقمر آية ، والنجوم آية ، والبحر وما حوى آية ، والليل آية ، والنهار آية ، وكذلك البحر والنهر وما حويا آيات لقوم يتفكرون ...

والخليقة آية بما حوت ، وما حوت غير مظاهر اعجازية للقادر ولا يجسر على ادعائها البشر ...

ولكنى هنا ... أترك هذه الآيات الماثلة ، الدائمة الظهور الى الآيات الوقتية التى فرضت الظروف حدوثها أو ما طالب المكابرون به فى تحديهم للدعاة الكرام والرسل المقربين ، فأزيد على ما ذكرت أن فلك نوح كان آية من آيات رسالته ... آية ظلت أسرارها محجوبة عن عيون وأفئدة الذين كفروا ، حتى لقد سخروا من نوح وهو يصنعها وهم لا يدرون انها من وحى الله ، وأن لها وقتا خاصا تظهر وتبين فيه ... !!

ولو فطن الكافرون المكابرون الى الفلك ، آية نوح الظاهرة .. وما تعنيه اقامته ، لتسابقوا وأسرعوا يقيمون لهم فلكا وأكثر من فلك .. ولكنه كان آية مفاجئة .. آية سخروا من صانعها .. وتندروا به .. ولم تصل افهامهم الى كشف السر الكامن وراء صنعها حتى جاء أمر الله .. وفار التنور .. وكان الطوفان المدمر الرهيب الذى لم يبق من الكافرين ديارا ..

وتلك كانت آية .. آية كبرى أوجبتها ظروف محتمة ، لتكون شاهد عيان يروى قصة عصيان بشعة وتطاول ممقوت ، ومكابرة لعينة .. وكيف بدأت .. وعلى أية صورة قاسية كانت نهايتها .. وكيف كانت خاتمة حياة المكابرين المتطاولين الذين تعالوا وتطاولوا ، وظنوا أنهم أبعد ما يكون عن الجزاء الحتمى الحق ، الذى ينزل بالعاصين ...

تلك كانت آية تذكير وتخويف ... وهى آية مفاجئة مباغتة ، أزجاها القادر على كل شىء ، لعباده العصاة المتجبرين أهل الضلالات ، لتكون لهم عظة وعبرة ، ليتراجعوا عن اصرارهم على المعصية ، ويتوبوا ويثوبوا ،

ولنعد بعد هذا الى نوع آخر من الآيات البينات .. فاذا قيل مثلا ان آية ابراهيم صاحب الرسالة الكبرى الاولى كانت الحجة والمنطق والاقناع ، وان آية نوح عليه السلام كانت العقاب الذى أباد الكافرين وأفناهم ، وآية صالح عليه السلام كانت ((الناقة التى طلبها منه قومه لتكون دليلا على صحة رسالته ، ((وآتينا ثمود الناقة مبصرة ، فظلموا بها ، وما نرسل بالآيات الا تخويفا)) فاننا نقول ان آية صاحب الرسالة الكبرى الثانية موسى عليه السلام كانت ((العصا)) ! !

العصا التى كان موسى يتوكأ عليها ، ويهش بها على غنمه ، وكانت له فيها مآرب أخرى .. كانت آية ذلك الرسول العظيم الذى يعتبر التالى فى قائمة الرسل أولى العزم .

العصـا ... كانت آيته الكبرى الظاهرة .. وكانت مظهر قوته .. وكانت درعه وسلاحه اللذين خاض بهما معظم مواقعه وحقق النصر بعـد النصر ...

ولنترك العصـا الموسـوية لحظة نسـائل أنفسـنا بعدها ... هل كانت هذه الارادة الظاهرة هى كل ما أوتى موسى من آيات ؟ !

العصا ... كانت الآية الظاهرة الواضـحة ... الآية البسـيطة التى لايمكن أن يتصور أعداء موسى أنها مصدر رهبتهم جميعا وسر هزيمتهم ... ثم ... والى جانب العصا كانت هناك آيات أخرى من النوع الذى نقول عنـه أنه آية أوجبت الظروف حدوثهـا فى لحظة مفـاجئة لمجـرد الردع والتخويف ...

فالأمر الى موسى بأن يضـم يده اليـه وأن يسـلكها فى جنـاحه لتخرج بيضاء من غير سوء — ليس غير آية أخرى ... ومن بعد هذا كانت الآيات التى أرهبت فرعون وقومه جميعا ، مثل الجراد والقمل والضفادع وبقية الآيات التسع ...

تلك كلها كانت آيات فجائية حتمية ، ظهرت ثم اختفت بعد أن تحقق ما كان يرجى من ظهورها .. ومن أجل هذا نعود الى آية موسى الكبرى التى زوده الله بها فى شتى أدوار صراعه وجهاده مع فرعون وقومه وسـحرته أولا ثم ... مع قوم موسى بعـد ذلك فى شتى أدوار جهاده معهم ومحاولتـه اخراجهم من طور الرق والعبودية الى طور التحرر والقيادة ...

ثم .. لنعد الى العصا العظيمة الأسرار ، التى كمنت فيها آيات القدرة..

لقد نسجت حول عصـا موسى أقاصـيص وروايات أوردها الشراح والمفسرون فقيل انها كانت فى البداية العصا التى خرج بها آدم من الجنـة يتحسس طريقه ويحمل أوزار معصيته ويتوكأ عليها ليسـتطيع أن يقيم عوده ويمضى فى طريق لا يعرفه ... ثم توارد بعد ذلك ولمدى قرون لا يعلمها الا الله حتى ظهرت فى النهاية مزروعة فى حديقة شعيب عليه السلام ، وأن موسى رآها ووقف أمامها يسأل شعيبا عنها ويسأله أن يجود عليه بها فقال له ان استطعت أن تقتلعها فهى لك فحاول موسى ذلك ومد يده فاجتذبها وأمسك بها فصارت له من وقتها لأنه وحده الذى استطاع انتزاعها من منبتها دون الكثيرين غيره ممن تاقت نفوسهم الى تملكها .

وصاحبت العصا موسى بعد ذلك فى خروجه من أرض مدين حتى عاد الى مصر فكانت آيته وعونه التى ردع بها فرعون وردع بها السحرة أجمعين وجعلهم يؤمنون بالله القادر رب موسى ويكفرون بفرعون وآلهة فرعون .

((وأوحينا الي موسى أن آلق عصاك ، فاذا هى تلقف مايأفكون ، فوقع الحق وبطل ماكانوا يعملون ، فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين ، وألقى السحرة ساجدين قالوا : آمنا برب العالمين ، رب موسى وهارون ٠٠)) !!

ثم صحبت العصا موسى يوم أسرى بقومه ليلا وخشوا أن يدركهم فرعون فضرب بها البحر فانشق له وظهرت اليابسة التى أسرع اليها أبناء اسرائيل ليتم خروجهم وخلاصهم من أسر فرعون ٠

وعند نقطة تمام الخروج ينتهى الى حد ما دور عصا موسى لتظهر فى ميدان جهاده آيات أخرى ٠٠٠ آيات طالب بها بنو اسرائيل وسألوا موسى أن يحققها لهم عن طريق سؤال ربه فتمت كلها وهى آيات مظهرية كانت خاصة بعروض الطعام والشراب ٠

ثم عادت العصا لتعمل مرة أخرى يوم أوحى اليه الله أن يضرب بها الحجر لينفجر عنه الماء الى اثنتى عشر عينا ثم ٠٠٠ لا نعلم بعد هذا ما تم فى أمر عصا موسى وهل ورثها فتاه يوشع ابن ذى النون وتوكأ عليها وتقدم بها صفوف اسرائيل فى اتمام خروجهم ؟ أم واراها التراب الى جانب ((**كليم الله**)) بعد أن لبى نداء ربه ؟!

هذا أمر لم يدر حوله بحث عن مصير عصا موسى ٠٠٠ آيته الكبرى ، لهذا نقصر الحديث عنها عند هذا الحد ونقول ان آية موسى الظاهرة وسلاحه الذى زوده به ، كان العصا ٠٠ والعصا فقط وأن بقية الآيات التى اظهرها الله على يديه كانت دعائم لترهب فرعون وقومه أولا وتثبت ايمان أبناء اسرائيل ثانيا ٠

وثمة آية جريئة أقدم بنو اسرائيل على طلبها من موسى جريا على عادتهم فى الجرأة والتطاول والالحاف وهى تجاسرهم وطلبهم الى رسولهم أن يريهم الله جهرة فاخذتهم الصاعقة وهم ينظرون ٠٠٠ تلك آية لم يتحقق منها شق الرؤيا لاستحالتها المطلقة التى لا يمكن أن تتحقق بحال من الأحوال ، اذ كيف يرون القادر الذى يرى ولا تراه عين ، والذى ليس كمثله شىء وهو العلى العظيم ٠٠٠

لم تتحقق هذه الطلبة الجريئة أبدا ولكن تحقق منها شىء آخر هو الصاعقة التى اخذت القوم المتطاولين وكادت أن تأتى عليهم وتبيدهم لولا رحمة القادر وتوسل موسى وتراجع الظالمين المتطاولين وندمهم وتوبتهم ٠٠

تلك كانت آية لم يحققها الله على وجه الاطلاق ٠٠٠ لانها كانت مجرد رغبة خبيثة قامت بنفوس متطاولين وما كان يستطيع موسى وهو

((**كليم الله**)) أن يجسر على سؤال الله بتحقيقها اذ عرفها قبل أن يعرفوها او ذاق هولها قبل أن يتذوقوه يوم سأل الله أن يتجلى له فقال له سبحانه وتعالى انك لن ترانى .. وأمره أن ينظر الى الجبل ليرى ان كان الجبل الشامخ يستطيع ان يثبت أمام تجلى الله له أم يزول ويفنى ...

وزال الجبل ... وخر موسى صعقا نادما ... وعرف أن هناك من الآيات ما لا يجب أن يحوم الرسول حوله أو أن يطالب به ، فلزم حده ولم يتعداه ، حتى تعداه المتجرئون من قومه فكانت آية الزجر العظمى !!

* * *

وجاء عيسى .. جاء فى عصر تفشى فيه المرض والجهل وفتكت الأمراض والأوبئة بالطبقات الدنيا من الناس فتكا ذريعاً فأتت عليهم ...

جاء عيسى ومعه روح القدس وأذن الله بأن يصنع من المعجزات ما يجعل بنو اسرائيل يلتفون حوله ويصدقونه ويؤمنون برسالته الكبرى الثالثة ...

وخلق عيسى لقومه وباذن الله من الطين كهيئة الطير ... ونفخ فيه فكان طيرا باذن الله ... وأحيا لهم الموتى باذن الله ، وأبرأ الأكمه والابرص باذن الله، ورد البصر على العمى باذن الله ، ودون أن يطالب منه أحد أن يفعل ذلك ، بل كان مأمورا بفعل ما فعل لتكون الآيات مفاجأة مذهلة للناس وسببا قويا يدعوهم الى الايمان .

وآمن بعيسى عليه السلام من آمن من بنى اسرائيل وغيرهم من الناس الذين كانت تضيق بهم ربوع البلاد فى تلك الآونة من أوان الحكم الرومانى المتعسف الظالم ثم ...

ثم جاءت التجربة رغم ايمان الحواريين برسالة عيسى وشديد تمسكهم بها — فانهم أرادوا أن يروا آية مادية أخرى من آيات القدرة التى تحقق رغبة خاصة من رغباتهم .. لا آية من آيات الاعجاز التى زاولها السيد المعلم العظيم ومارسها .. فكانوا ان سألوه قائلين :

((يا عيسى بن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء ...)) ؟ !

والقول باستطاعة الله أن ينزل المائدة ، فيه تطاول وكفران مبين ولكن الله العليم بما فى القلوب وما تنطوى عليه الأنفس كان أعلم بما قالوا ، وبما قصدوه من قولهم ذلك ، فلم يأخذهم وقتها بقولهم ، واذا بالسيد المسيح المعلم يعظهم ويزجرهم لهذا الاجتراء وتلك المطالبة المادية الصريحة فقال لهم :

((اتقوا الله ان كنتم مؤمنين ...))

وكان الله عليما بمدى ايمانهم ، فتركهم ... واذابهم يتكلمون ويصارحون معلمهم العظيم بما فى نفوسهم مما علمه الله فقالوا :

((نريد أن نأكل منها)) !!

أى أنهم أرادوا حدوث هذه الآية المادية ليطعموا طعام السماء الذى يثبت قلوبهم على الجهاد المضنى الذى كتبه الله عليهم ، ويشهدون الناس جميعا بين مصدقين وغير مصدقين ان عيسى قريب من ربه ، أثير عنده وأن الله يستجيب له ولو سأله أن يحقق لحوارييه مطلبا وهو انزال مائدة عليهم من السماء ((نأكل منها وتطمئن قلوبنا ...))

والاطمئنان الذى أشاروا اليه كان الرغبة فى الاحساس بالطمأنينة الى أن الله سيكون الى جانبهم وانه سوف يستجيب لهم أن هم سألوه وحدهم دون شفاعة أو وساطة ، وأنه ليس بينه وبين عبادة حجاب أو شفعاء أيا كان هؤلاء المتشفعين .

وسأل عيسى ربه أن يحقق رجاء حوارييه ليعلموا أنه صدقهم ما قال

((ونعلم ان قد صدقتنا ، وتكون علينا من الشاهدين ...))

لقد أرادوها آية مادية عينية ظاهرة يستمتع بها أكثر عدد من الناس .. فحقق الله لهم ما ارادوه بقوله تعالى :

((انى منزلها عليكم ، فمن يكفر بعد منكم فانى أعذبه عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين ...))

ونزلت المائدة من السماء ... وكانت آية تثبيت القلوب على الايمان ... وجمعها على الجهاد وحمل رسالة عيسى عبر دنيا الضلال للتبشير بدين الله الحق الذى لا اله غيره ولا معبود سواه ..

((وجعلنا ابن مريم وأمه آية)) !!

فالآيات اذا ... ظواهر اعجازية منها المادى ومنها المعنوى ... ومنها ما يكون حدثا مفاجئا ومنها ما يطالب الناس ويلحفون فى طلبه ، أما لتثبيت ايمانهم أو محاولة منهم لاحراج رسولهم واظهاره بمظهر العاجز عن الاستجابة لهم ، أو انه لا يدعو باسم القدرة ، اذ لو كان يدعو باسمها لأيدته واستجابت له ! ! .

ومرت الدهور ... تولى زمن ابراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام ... وتولى مع زمنهم هذا من الآيات المادية الملموسة أو الآيات المفاجئة المذهلة ..

وجاء النور ... الحق الواضح الصريح الجلى ... جاء محمد ... جاء معه الحق والاقناع ... وتولى عهد المعجزة والآية التى تبهر ، فلا معجزات ولا استجابة لمن تطاولوا وقالوا : لماذا أراد الله بشرا رسولا ... لماذا لم

يرسل ملكا من السماء يدعو الناس الى الله ليصدقوا أن الدعوة دعوة ربانية من لدن عزيز حكيم ...

لقد طال الجدل وتعددت ألوان المكابرة والتجرأ ولكن الصادق محمد رسول الله عليه الصلاة والسلام كان يقرع الحجة بالمنطق الصحيح ويقول ((**انما أنا بشر مثلكم يوحى الى أنما الهكم اله واحد ...**)) .

وهذا ولا شك منتهى الاقناع ... فاما ايمان ، وايمان صادق بالدعوة دون خوارق أو معجزات قد يكون زوالها من دواعى عدم الاستقرار واضطراب حبل الايمان — أو نفور منها وتكذيب قاطع لها ، ولها بعد ذلك أن تستمر وأن تثبت وجودها ، وأن تنتشر ان كانت دعوة حق أو ... فان مصيرها ولاشك الى فناء وزوال ...

ورغم هذا ... ورغم أن دعوة محمد كانت دعوة الحق القائم على الاقناع والاقتناع فاننا نقول : أكانت دعوة سيد الرسل وخاتم النبيين وامامهم دعوة خالية من الآيات البينات ...

ان أعظم مظهر عملى من مظاهر قوة الدعوة ، وآية من آياتها الكبرى هو ثبات الرسول عليها واصراره على ابلاغها للناس جميعا مهما أوذى فى سبيلها الذى أراده الله حتى يظهرها ويتم نوره ولن يتراجع عنهـا أبدا ولو وضعوا الشمس فى يمينه والقمر فى يساره .

هذه آية وضاحة واضحة عظمى ، يتضاءل أمامها الباطل ، وينحسر الزيغ والضلال ويتراجع المرجفون المعارضون .. ثم ..

أما من آية بعد هذا ... لا ملائكة .. ولا معجزات من السماء ... !!

لقد طالب الكفار محمدا بأكثر من معجزة لاثبات فاعلية رسالته الكبرى ... كبرى الرسالات جمعاء ... فعاد بجهاده المستمر يؤكد لهم أن العمل والداب هما آيته الكبرى ، التى ثبت مع الزمن أنها أخلد الآيات وأظهرها على الزمان والأحـداث ...

لقد بعث الله رسوله بالهدى ... وأيده بالهدى وبالايمان وثبات القلب . فراح يجاهد ويجادل ويدعو الى الله باسم الله ، لا بمعجزة ولا بخـوارق ولا بأحداث تذهل وتثير العجب ، حتى لتخرج بجلال الدعوة عند بعض ضعاف النفوس عن حدودها المرسومة الى حدود الخيال والشطط الذى يسلم اليه النـاس أنفسهم فيتصورون أن المعجـزة ليست بالأمر القاصر على الرسـل الكرام ، وانهم والرسـل بشر متساوون لهم حق المطـالبة بأن يمن الله عليهم بالمعجزات فيعطى هـذا كنزا ، وذاك مالا ، والآخر قوة خارقة أو سـلطانا لا زوال له ! !

لقد كانت دعوة محمد دعوة اقناع واقتناع بالحق ولا شيء غير الحق .. من أجل هذا لم تصاحبها آيات مادية تبهر الناس وتأخذ بألبابهم .

ومحمد رسول الله المؤمن بالله ، الواثق من نصره ، خرج الى ميدان الدعوة وليس معه غير ايمانه بها وطاعته لله ربه واعتماده الكلى عليه ، فوقف وحده أمام مجتمع قريش ثم خرج الى بدر مع قلة من أصحابه ليواجه القوة المشتركة وهو واثق من نصر الله ، فكان الله الى جانبه وكان عونه ...

وأستطيع أن أقول أيضا انه كانت معه الآيات الخفية .. وهى عون الله المطلق ورعايته الشاملة ، فأيده بروح من عنده وبالملائكة المردفين الذين أنزلوا الرعب فى قلوب الكفار ، وكانوا عون المجاهدين المسلمين فى احراز النصر المبين على أعدائهم فى أكثر من غزوة من الغزوات ! !

وبرغم حدوث هذه الآية الغيبية ، وثبوت حدوثها نصا فى كتاب الله ، واشارة فى أحاديث سيدنا رسول الله فان الآية نفسها كانت خافية على أبصار المسلمين ، لم يعلموا بها قبل خوض أية معركة ..

كان المسلمون يعلمون أن الله معهم ، وانه سبحانه ظهيرهم وعونهم ولكن .. لو أنهم علموا أن هناك قوات من الملائكة الكرام تحارب الكفار الى جانبهم .. ماذا كان يحدث ! !

اذا فهذه الآيات غير الظاهرة .. آيات خاصة جدا .. ولها ظروفها وأسبابها ومدارها البعيد عن مدار الجهاد البشرى والعمل الانسانى الشاق فى سبيل احراز النصر الأكبر على العدو فى كل موقعة وكل ميدان.

كانت حياة سيدنا الرسول الأعظم ، محمد عليه الصلاة والسلام حياة عمل متصل مضن شاق .. تعبد مستمر ، ثم تلقى وحى السماء .. ثم نشر الدعوة وايصال أوامر الله ونواهيه الى المسلمين ثم .. وبعد هذا كله استمرار الجهاد والعمل على نشر الرسالة وابلاغها للناس كافة ، بكل وسيلة ليتم أمر الله ، ويظهر الدين القيم على سائر الأديان ..

كانت حياة محمد المكافح المناضل الأعظم حياة جهاد شاق مستمر .. وانها والحالة هذه آية الآيات الكبرى .. فميدانه فسيح .. ومداره رحب .. ومن كلف عليه الصلاة والسلام بابلاغهم رسالته لم يكونوا قوما محددين ، أو قرية معروفة ، بل كانت الرسالة عامة شاملة للناس كافة ومن شتى النحل ومتباين الديانات ، لأن رسالة محمد كانت رسالة تجميع وتوحيد واقرار كامل لدين الله الذى أراده للعالمين كافة وهو الاسلام ..

فحياة محمد عليه الصلاة والسلام كانت آية عملية واضحة ، من صنعه هو .. وكانت بعد هذا معجزة بشرية ، لأن ما كلف به وحده صلى

الله عليه وسلم حمله من قبله أكثر من رسول من رسل الله ، أولى العزم العظام أصحاب القدرة على الكفاح والنضال ..

فالجد والعمل .. والاقناع والاقتناع كلها كانت آية محمد الكبرى الظاهرة .. وهى آية من صنعه .. وانها لآية تميزه على سائر الرسل أجمعين ممن أعانهم الحق سبحانه وتعالى بآيات معجزات أوقفت الناس منهم موقف الحيرة والاقراربصدق ما كانوايدعون اليه ، وينادون بضرورة اتباعه والايمان العميق به ..

فمحمد عليه الصلاة والسلام ، كان رسول الجهاد العملى المستمر ، والنضال الحقّ الذى لا ينتهى ولا يتراجع صاحبه عن عزيمته ، كما انه كان رسول الثبات المذهل الذى حار أمامه الاعداء ..

وحياته صلى الله عليه وسلم ، تلك التى شرفها القادر بأن توجها بالدأب والعمل وجعل شعارها الاخلاص والصدق والتضحية والوفاء .. حياته هذهالتى أعلا الله مقدارصاحبها ..حياة تميزت بالتجلى والفيوضات الربانية غير الواضحة علانية ، وهذا مما يرفع قدره على سائر الرسل أجمعين . .

ولست أرانى هنا فى مجال مفاضلة أو تمييز أعدد فيهما المزايا والمآثر العظمى التى كانت لمحمد وحده ، فمحمدرسول قد خلت من قبلهرسل ، لكل منهم مقامه ومكانته ، وعصره وزمانهوأهليه ، ولكنى أقرر هنا حقيقة ثابتة ، وهى أن رسول الله الذى لم تتميز بعثته بآية اعجازية ظاهرة للعيان قد خصه الله سبحانه وتعالى بما لم يخص به غيره أبدا .. خصه الله بالاسراء .. وما أدراك ما الاسراء .. ! !

فالاسراء اذا .. آية من الآيات الكبرى .. آية خاصة جدا .. تمت فى نطاق محدد ، ولميشهدها غير سيد الرسل اجمعين ، فلمتظهرللناس ، ولا هى بهرت العقول ولكنها كانت حقيقة عاش محمد دقائقها أو ساعاتها بجسده وروحه وحسه ..

وأقرر مرة ثانية أنها كانت واقعة مشاهدة واضحة عاشها الرسول صلى الله عليه وسلم بالجسد والروح والحس ، وتمت خلالها انطباعات وجدانية فوق مستويات التفكير البشرى ، كان من اللازم أن يتزود بها مجددا إمامة ابراهيم عليه السلام ، ورسول الله الى العالمين كافة ، وصاحب كبرى الرسالات ! !

كان الاسراء حقيقة عيانية ، مر بها محمد وحده .. وشهدها وحده .. ثم حدث عنها الناس ممن كذبوه وعارضوهووقفوا أمام انتشاردعوته ، فازداد حنقهم عليه ، وتضاعفت معارضتهم له ومجادلتهم اياه حتى لقد كادوا يصابون بالجنون من روعة ما كانوا يسمعون ! !

لقد حدث محمد كفار مكة بعد اتمام الاسراء بحقائق لا يمكن أن يأتيها الباطل .. حقائق لا يجسر على تناولها غير من شاهدها وخبرها وعرفها .. حقائق مؤيدة بوقائع مادية ملموسة عرفوها جيدا .. وهالهم أن يعرفها ويخبر عنها وهو من عرفوه وعرفوا آماد تنقله ورحلاته وانه لم يشهد تلك البقاع ولم يكن له بربوعها علم ولا معرفة ..

وحار كفار مكة وراحوا من هول ماأصيبوا به من ذهول يتساءلون..

أيمكن هـذا ؟ ! رجل منا يقول أن الله اصطفاه .. وأن الروح الأمين ينزل عليه بالوحى ثم .. يتمادى فى ادعائه فيقول أنه أسرى به ليـلا من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى ليريه الله من آياته الكبرى ! !

لقد كادت قريش أن تجن وهى تحرق الارم كمدا وحقدا على محمـد ثم .. يتبدى الايمان العميق فى جواب الصديق صفى محمـد وصاحبه ابى بكر اذ يقول فى ايمان عميق رائع ! انه صادق .. وأن السرى ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى لأهون وأبسط من تلقى وحى السماء ، ورسالة السماء .. ! !

وفى حياة محمـد صلى الله عليه وسلم نستطيع أن نقـول أن حادث الاسراء كان آية خاصة من آيات الله تجلى بها سبحانه وتعالى على رسوله الكريم وخصه بها دون غيره من الرسل الكرام .

وخصوصية الآية فى مدلولها الرائع وهو السرى ليلا بالرسول صلى الله عليه وسلم من المسجد الحرام .. بيت الله العتيق .. الى المسـجد الأقصى .. الهيكل الأعظم الذى أقيمت فيـه شعائر العبادات لله الحـق بوساطة أنبياء كرماء مثل داود وسليمان عليهما السلام .. والسرى هنا لا يعنى غير شىء مادى واحد هو التوثيق واحكام الصلة بين الدعوة المحمدية الكبرى والرسالة الثانية العظمى التى سبقتها من قبل وهى دعوة موسى عليه السلام .. أى أن السرى فى واقعه .. كان احكام الربط بين الشريعة الكبرى الناسخة للشرائع جمعاء وهى شريعة الاسـلام — وشريعة موسى وريثة شريعة ابراهيم التى عدا عليها الأحبار وأهل الكهانات فحرفوا فيها الكلم عن مواضعه وجعلوها فى خدمة أغراضهم ، ولم يضعوا أنفسـهم فى خدمتها وخدمة من تابعوها كما أمر الله ! !

والربط انما يقصد به الاتصال الأبدى بين الشريعتين ، والاشارة الى الاستمرار المطلق بينهما وأن الرسول الأعظم صاحب آخر وأعظم الرسالات لم ولن يأت بجديد على الاطلاق حين خرج بدينه ونادى بشريعته .. بل انه انما كان يعيد الأصل الأول .. الى سابق مكانته ، ثم يزيد عليـه من عنـد الله ، وبأمر الله ، ووحى من الله ، ما يلائم روح العصر من مطـالب وتشريعات ..

فدين محمد وهو الاسلام .. أصل الديانات كلها ، شريعة أكملت ، وقومت ، وصححت كلما سبقها من دعوات وشرائع .. فهى اذا الامتداد الطبيعى للشريعة الكبرى .. والتجديد المطلوب لها .. والتطهير الحتمى لأحكامها بما يوافق الزمان الجديد ، وكل زمن جديد ياتي من بعده ..

فالسرى اذا كان ضرورة لازمة .. فأقــول انه كان بمثابة بعثة دراسية مقدسة علوية ، أريد بها اطلاع سيدنا رسول الله على الكثير من مكنونات الغيب وأسرار الوجود وغوامض الحيــاة ، وغير ذلك من دقائق شــديدة الخصوصية لا يجب أن يطلع عليها أو أن يعرفها غير سيد الرســل وخاتم النبيين وصاحب كبرى الرسالات ..

((سبحان الذى أسرى بعبده ليــلا من المســجد الحرام الى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا)) ..

فالرحلة الليلية والحالة هذه .. أو البعثة التدريبية كمــا يمكن أن يقال بلغة العصر الحديث كان هدفها الأول والأهم .. هو : **الرؤيا ! !**

أجل .. الرؤيا بالعين .. أى المشاهدة .. لا مشاهدة معالم الطريق من مكة الى بيت المقدس فى ساعات الليل الهادئة .. بل لمشــاهدة آيات الله الكبرى .. وآيات الله الكبرى هى أسرار الكون الخاصة التى لايعرفها غيره سبحانه ، ثم رسوله من بعده وفى حدود معينة .. ومعينة جدا لأن لكل رسول مقاما وعلما .. وما أراد الحق سبحانه وتعالى أن يريه لرسوله الأعظم ليلة أسرى به ، كان محدودا .. وضــمن نطاق ما كان من اللازم أن يعرفه من حقائق الوجود وآيات الوجود الكبرى ..

فالسرى كما قلت .. كان آية خاصة تميز بها محمد صلى الله عليه وسلم على سائر الرسل الكرام أجمعين .. فكونه أسرى به ليلا من مكان الى مكان ، ولكل من المكانين منزلتـــه ، فتلك حكمــة واضحة .. وكونه أسرى به ليلا من مسجد الى مسجد بالذات ، فتلك أيضا حكمــة سامية غير خافية ..

فالسرى من مكة الى بيت المقدس معناه ولا شــك التوثيق الروحى بين المكانين العظيمين وأن ارادة الله شــاءت أن تنقل الرســالة العظمى .. خاتمة الرسالات الكبرى جمعاء من مكانها التقليــدى الذى بقيت فيــه قرونا بعد قرون ! !

والانتقال من مسجد الى مسجد مدلوله ظاهر وهو أن المسجد الثانى وهو الهيكل قد درست معالمه .. وانحسرت عنه مكانته وعادت الى أول بيت اقيم للعبادة فى الوجود ..

فالسرى فى مدلوله الاول .. ربط وتوثيق بين المكانين والمسـجدين .. ثم هو اشعار بالعودة الى الأصل .. بيت الله الذى أقامـه ابراهيم واسماعيل فى مكة لأن الشريعة الكبرى قد أذن لها الله أن تستقر هنا بعد أن استقرت هناك طويلا وأن تنتشر هذه المرة على يد خير أبناء اسماعيل ابن ابراهيم .. محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام .

والسرى بعد هذا هو آية عظمى لم يشهدها أحد ، ولم يرها ولم يعش فيها غير سـيدنا رسـول الله .. وما قصد فيـه من الربط بين مكانين ومسجدين — كان رغبة واضحة من القدرة فى أن يرى محمـــد الآيات الكبرى ..

فالسرى اذا ليس كما يقول اللغويون مجرد انتقـال ليلى سريع بين مكة وبيت المقدس بقدر ما هو رحلة استطلاعية عظمى أريد بها أن يشاهد الرسول عيانا ما لم يشاهده رسول سواه .. وأن يرى بنفسه مالم يره أحد من قبل من أسرار الكون والخليقة وآيات الله الخافيـة على العيون والعقول .. وأن يريه اياها القادر الحق ..

والرؤيا التى تمت خـلال السرى والتى حدث السرى من أجلها ، انما كانت رؤيا عيانية بدليل قوله تعالى ((**لنريه من آياتنا الكبرى**)) .. فقـد ارى الله سبحانه وتعالى رسوله ما ليس من حقنا أن نتطاول الى معرفته أو نتشوف الى استجلاء مدلولاته لأن الآيات الكبرى انما اختص بها صاحب الرسالة العظمى وامام الانبياء اجمعين وهذا تفضيل لم يحظ به رسول من قبل ولم ينله أحد من الرسل الكرام على الاطلاق .

لقـد أسرى الله سبحانه وتعـالى بمحمد عليه الصلاة والسلام ، وهو يومها فى بداية بعثته ، وقد صار حديث مكة كلها ومناط ساداتها وأشرافها ممن حقدوا عليه تفرده بشرف الرسالة دونهم .

أسرى الله برسوله ليلا ، لا يدرى أحد كيف كان السرى ، وان تحدث فى أمره من ادعوا العلم بأسرار الخليقة والكون وما تميز به الرسل الكرام .. ثم اشـتطوا بعـد هذا فى حديثهم الجرىء ، فلم يتناولوا السرى بالوصف فقط ، بل تكلموا فى الكيفية التى تم بها السرى ، والاداة التى استعملت فيه ، والوسيلة التى تم بها .

ان السرى .. أمر تم بارادة الله .. ((**الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى ..**))

أسرى .. سبحانه .. كيف أسرى بعبده .. تلك آية لدنية ، شديدة الخصوصية ليس لمتطاول أن يرقى اليها بالفكر ، لانها خاصـة بالقدرة ، والقدرة تفعل ما تشاء وقت تشاء ! ! ولكن الشراح تعرضوا لوصف الاسراء بما لم يذكره القرآن فى وصف أو يقرره سيدنا رسول الله فى حديثه ! !

ان محمدا صلى الله عليه وسلم لم يقل لكفار مكة أكثر من أنه أسرى به ليلا من مكانه فى مكة — جارة بيت الله الحرام .. الى المسجد الأقصى .. خلال ساعات الليل وقريش فى نومها سادرة .. وتلك معجزة كبرى ولا شك ، وفيض من فيوضات تجلى الخالق جل وعلا على عبـده .. أما كيف تم السرى ، وهل على ظهر دابة رائعة الحسن ، أو جناح ملك كريم .. فلا أحد يعرف .. لأن الرسول لم يتكلم ولم يبح بمثل هذا السر الخاص الدقيق ..

ورغم هذا نساير من تقولوا فى حديث الاسراء .. وقالوا فيه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان ينـام ليلتها فى حجر اسماعيل فى الكعبة .. واسائل نفسى .. لماذا حجر اسماعيل بالذات .. وهل قصد بهذا الايراد ، المطابقة الصحيحة لحادث الاسراء من المسجد الحرام بالذات .. لا ادرى ؟ !

ولكنه قيل فى الروايات المتواردة عن تلك الليلة العظيمة الشـأن ؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان ينام فى الكعبة بين رجلين احدهما عمه الحمزة بن عبد المطلب ، وأن جبريل عليه السلام أتاه فأيقظه ثم أخذه من يده الى خارج المسجد حيث كانت تنتظره دابة « البراق » ليركبها فى رحلتـه المقدسة .

وأمام تلك الدابة التى قيل فى وصفها انها كانت غريبة الهيئـة ، وقف خيال الرواة ، ليصف ويتحدث ، ويروى ما شـاء له الجموح والتصور ، فادعى أن البراق قد أجفل وقد جىء به مأمورا ليقوم بواجب الخـدمة ، فنهره الروح الأمين جبريل عليه السلام وأمره بالثبات والامتثال حتى يركبه سيدنا رسول الله .. فأطاع وامتثل ، وخضع .. وركبه محمد فانطلق به من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى ..! !

وفى المسجد الأقصى — وانى لأتصوره فى تلك الآونة بالذات أنقاض الهيكل العظيم الذى طمست معـالمه ، ولم يبق الا بعض جدرانه — كان جميع الرسل الكرام دون تمييز ينتظرون محمدا ليصلى بهم اماما ..! !

ان سيدنا رسول الله عليه الصلاة والسلام ، حتى لو لم يشر الرواة الى هذه الامامة .. هو امام الرسل أجمعين وعمدتهم ، وحامل مشعل الرسالة الكبرى .. خاتمة الرسالات جمعاء .

فهو امام المرسلين بحكم الرسالة التى كلف بابلاغها ، وبحكم الوضع .. وحكم الواقع .. وحكم الجهاد الذى فرض عليه ، وكان جهادا عاما لا تحده حدود وليست له آماد يقف عندها ، لأنه صلى الله عليه وسلم لم يرسـل الى قرية ما ، أو جنس دون جنس أو شعب خاص ، أو قوم محـدودين يسكنون بقعة ما من بقاع الارض ، بل أرسله الله الى العالمين كافة .. الى الناس جميعا ..

ورسالة محمد الى دنيا البشر كلهم دون تفرقة معناها الواضـح ، هو تجديد سائر الدعوات من عهد ما بعد آدم ، ونشر كل الرسالات والشرائع على خلق الله أجمعين ليهديهم بهدى الله ، ويوحد عبادتهم باذنه تعالى ويجمع شملهم حول دين واحد هو الاسلام ، دين الفطرة ، فهو والحالة هذه لا بد وأن يكون امام الدعاة الى الله وسيد الرسل المجاهدين جميعا ..

وتمت الصلاة ..

تمت الصلاة الجماعية المبـاركة ، فى المسجد الأقصى .. والتف الرسل الكرام بامامهم الأعظم ، رسول الهدى والهداية ، محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، وناشر ألوية شرائعهم جمعاء .

وبأداء الصلاة هذه تمت الآية الأولى من آيات تلك الليـلة المباركة .. وهى الآية التى كانت نتيجة حادث الاسراء ، وكانت تعنى رمزيا وواقعيا ، احكام التسلسل الجذرى العميق والربط الأبدى بين الرسالة الجديدة التى جاء بها محمد بما سبقها من رسالات وعقائد ، كان مدارها جميعا الاقرار بالوحدانية المطلقة ، المنزهة عن الشرك ، وانه ليس هنـاك غير الله ، الهـا واحدا ، تفرد ، وعلا ، وتعاظم ، وليس كمثله شيء ، وهو السميع ، البصير ، الحكيم ، العليم ، المدبر ، الذى بيده الملك والملكوت ، وهو على كل شيء قدير ..

فالاسراء كحادث اعجازى ، كان الفاتحـة والمقـدمة .. وقد تم معنى ومبنى .. وأسرى الله سبحانه وتعالى بعبـده ليلا ، وفى لمح البصر من المسجد الحرام ، الى المسجد الأقصى ..

وتم حادث الاسراء ، بالكيفية المستغلقة على عقول البشر ، والتى علم الله وحده كيف تم بها الحادث نفسه وهو الانتقال الاعجازى الخاطف من مكان الى مكان ..

وليس لنا بعـد قوله جل وتعالى انه ((**أسرى بعبـده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى ..**)) أن نتسـاءل أو أن نستسلم الى التخيل والتصورات البعيدة عن واقعية الاعجاز فى اتمام الحادث ، فذلك أمر قد تم وانتهى ، وحادث مقدس شهدته مسارح خاصة لحكمة علوية خاصة فوق مستويات التصور والخيال ، فتلك كانت ارادة من أراد شيئا ، فانما يقول له كن ، فيكون . وقد أراد الاسراء .. **وأسرى بعبده فعلا .. بعبده لا بروح عبده** .. ولا كان السرى رؤيا فى منام ..

ومن التجديف والتطاول بعد هذا ، ان نحاول التعالى بتصـوراتنا الى ذلك المدار القدسى المعظم لنتعرف الوسيلة والطريقة ، ثم نبوح بأسرار الكون العظمى التى أراد الله لها أن تكون مستغلقة على أفهام الناس أجمعين ..

لقد علم الله الحق ، الانسان ما لم يعلم .. وللعلم حدود ، وللتعلم مراتب ولأهل العلم درجات .. وأسرار الخليقة فوق مستويات البصائر العالة ، وفوق العلم البشرى .. وأسرار الحوادث الاعجازية ، مستغلقات على الافهام ، ولو وصل اليها العقل البشرى لأخرجها من الاعجازية الى الامكانية، ولو عرف العقل والتصور البشرى ، كيف تم الاسراء ، وكيف حدث ، لما شغل الناس حادث الاسراء العظيم وما تكلموا فيه ..

لقد سخر الله القادر الرياح لسليمان عليه السلام قبل ذلك ، فلم يسال أحد كيف سخرها ، ولا كيف استخدمها سليمان ، فتلك أمور يجب أن نسلم بحدوثها وانها تمت وفقا لمشيئة علوية ، وارادة عظمى ، وليس من حق الفضول الانسانى أن يتعالى الى تلك المكانة العالية الذرا لأنه مهما تسامى ، فلن يصل ، ومهما تعالى ، فلن يعرف ، ومهما أوتى من العلم ، فلن يكشف أسرار الغيب ، والا هان فى ناظرى الانسان كل شىء ، وهانت لديه بعد ذلك المقدسات نفسها ، لأنه وصل وتعلم ، وعرف وكشف عن مستغلقات الغيب .. وحكمة الطاعة السامية ، ومدارها ، هو الايمان المطلق بالغيب ..

والايمان المطلق بالغيب يقتضى التسليم الاقناعى الذى لا يخالطه شك ولا يداخله تردد .. فهو تسليم معناه الايمان والتصديق ..

والاسراء ، حادث جاء ذكره فى الكتاب ، فهو حقيقة اعجازية ، وهو آية من آيات الله وأن ذكره فى الكتاب ليبعد به عن مدار الجدل ، لأن ايراده دليل حدوثه ، كاملا من كل نواحى التمام والكمال ..

اذا ... فليس لنا أن نسأل .. كيف تم السرى .. أو نخوض فى حديث عنه .. لأن السرى وهو آية من آيات الاعجاز ، انما تم تنفيذا لارادة ، مشيئتها نافذة ، وأمرها واجب الطاعة على الكائنات جمعاء ، واذا كان لنا بعد هذا أن نتدبر الحادث الاعجازى نفسه ، لتدبر معناه ، وما يشير اليه ، فالعقل البشرى الذى لا يجسر على الخوض فى حديث الغيبيات يستطيع أن يقول : **ان السرى كان يهدف الى الربط ماديا بين المسجدين .. البيت العتيق ، والمسجد الأقصى .. أى الهيكل الشامخ ، والربط بين الهيكل والبيت الذى رفعه ابراهيم واسماعيل ، فسرى محمد عليه الصلاة والسلام من المسجد الحرام ، الى المسجد الأقصى ، هو الاشارة الى أن دعوة محمد هى العودة الى الأصل .. ثم هى بعد هذا .. الامتداد الطبيعى**

للرسالات الكبرى معنى وأصلا ، وأعظمها وأخطرها ، لأنها آخرها ، ونهايتها الجامعة لها ، المرتبة لدقائقها ، المفصلة لاحكامها ..

ونستطيع بعد هذا أن نقول ان السرى ، كان اشارة بالامتداد الروحى بين الدعوات الخالدة الكبرى ، وأن شريعة محمد ، هى خلاصة شرائع الرسل كلها ، وان سرى محمد من مكة الى الأرض التى تبارك الله حولها — كانت بمثابة تكريم لتلك البقاع التى شهدت فترات جهاد قدسية لها جلالها فى عوالم الجهاد فى سبيل الحق ، واعتراف من الرسالة الكبرى ، بفضل ما سبقها من الرسالات ، فى تنوير العقل البشرى والارتقاء به الى مراتب الكمال فى دنيا المعرفة فرسالة محمد والحالة هذه ، وبتمام حدوث الاسراء هى أجل الدعوات شأنا ، وأرفعها مقدارا ، وهذا ولا شك يعزز القول بأن الاصول الراسخة قد ترابطت من جديد ، وتآلفت فى وحدة متصلة تناسب الزمان ، ومسير القرون ، وتعدد الرسل والرسالات .. ثم استقرت فى دعوة سيد الرسل أجمعين .. أعظم الدعوات .. وكبرى الرسالات ! !

وبعد الاسراء .. وهو كما قلت المقدمة ، أو فاتحة آيات الليلة العظمى .. كان **المعراج** ..

انه انتقال منطقى ولا شك من حدث عظيم الى حادث أعظم .. والمعنى المستتر وراء اتمام الحدثين الاعجازيين ، هو اطلاع محمد على ما لم يطلع عليه قبله رسول من كرام الرسل .. ورغبة القدرة فى أن يرى الآيات ليثبت يقينه ، ويزداد قوة ، ومضاء على السير فى تحمل أعباء الرسالة ، والتهوين من متاعبها وما سوف يتعرض له من أحداث وأهوال ..

والمعراج .. أى الرقى .. والصعود الى السموات السبع الطباق ، حتى سدرة المنتهى التى عندها جنة المأوى — كان الخطوة الثانية من خطوات المشاهدة العيانية الواضحة ، ورؤيا ما أراد الله سبحانه وتعالى لرسوله الأعظم ، وخاتم النبيين الكرام أن يراه من آيات الله الكبرى وعظيم صنعه جل وعلا ، وبديع آياته .. !!

ان الناس يرون .. ويشهدون .. يرون الشمس والقمر والنجوم .. يرون البحار والأنهار وشم الجبال .. يرون الآيات العظمى التى تبهر .. يرون آيتى الليل والنهار .. ويرون ويرون ولكن .. هل يكون ما يراه الرسول الأعظم الهادى الى الحقيقة الكبرى ، مثل ما يراه سائر الناس ! !

دون شك لا .. وبلا جدال .. لا .. لأن الرسول مكلف بما لا يستطيع

ان يتحمله اقوى البشر طاقة ، فتكليفه يقتضى اطلاعه ، واطلاعه يقتضى تبحره فى محيط ذلك الاطلاع ، ليعرف ويعلم . ويقف على الأسرار وشأنه فى هذا شأن الذكى الأريب ، الذى يوفد فى بعثة للتخصص فى فرع أو عدة فروع ليس للناس بها علم ، ليعلمهم اياها ، ويبصرهم بها ، ويشرح لهم غوامضها ، كل الغوامض !!

فالمعراج .. هو بعثة المشاهدة العظمى ، والاطلاع على غوامض الحقائق ، ومجهول العلم ، ومحجوبه عن الناس جميعا ..

وقد رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى لحظات الاسراء ، أولا ما شاء له الله أن يراه من عظيم الآيات ، حتى وصل الى المسجد الأقصى ..

ثم كانت الرؤيا العظمى .. الرؤيا التى تعلو مستويات الأفهام ، وهذه تجلى بها الحق على رسوله الأعظم خلال لحظات المعراج .

((**ما كذب الفؤاد ما رأى ..**)) صدق الله العظيم ، الذى تجلى على عبده ورسوله الأعظم ، فأراه ملكوته ، وما شاء له القدر أن يراه وأن يعرفه ..

وامام هذا .. وامام الآيات البينات ، وهى الصدق الصراح الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، يسلم الوجدان والعقل البشرى ، والطموح الانسانى ، والتطاول والفضول وحب المعرفة — بأن الرسول الاعظم عليه صلاة الله وسلامه ، كان فى رحلة نال فيها ما لم ينله رسول وتجلى عليه الحق خلالها بما لم يتجل به على رسول قبله . فراى عليه الصلاة والسلام ، رؤيا العين .. وشاهد وعاين آيات الله الكبرى .

أما هذه الآيات التى رآها فما هى .. وماذا كانت .. وما تفاصيلها واشكالها وحجومها .. ووظائفها .. وأعمالها .. وأسرارها .. ودقائقها .. فتلك كلها أسئلة لا جواب لها على الاطلاق فهناك من أسرار الوجود ما لا يجب أن ندور حوله ، أو نحاول أن نتكهن به ، لانها أشياء فى عالم خالقها ، وليس لعالم الانسان أو لعقله أن يصلا اليها على الاطلاق ، فان هذا محظور ، ومن التطاول بعد هذا أن يحوم العقل فى مدار محرم عليه الاقتراب منه ، فيروح فى تطاوله يحاول التخيل والتصور ظنا منه أنه بذلك يصل الى حقائق الأسرار الكبرى ..

لقد رأى محمد عليه الصلاة والسلام ، ما شاء له الله أن يراه .. وصدق الله اذ قال ((**ما كذب الفؤاد ما رأى ..**)) ويكفى أنه صلى الله عليه

عليه وسلم قد رأى .. وأيد الله سبحانه فى محكم كتابه هذه الرؤيا ، **فقرر أنه رأى ! !**

اجل رأى .. وشاهد .. رأى أولا مقامه السامى ، فوصل الى حيث لم يصل أحد من قبل ..

ووصوله صلى الله عليه وسلم الى حيث وصل يوجب أن يرى ، وأن يعرف ما لا يجب أن نعرف نحن ، لأن ما نعرفه محدد ومحدود وليس علينا بعد هذا غير أن نؤمن بأن محمدا قد رأى .. ((**من آيات ربه الكبرى ..**))

وليس لكائن من كان بعد هذا أن يسأل .. ماذا رأى .. ولا الى أى سماء وصل .. ومن صحبه .. ومن قابل .. ومع من تكلم .. وحول أى مدار كان الحديث ! !

ان اقحام براعة الاستنتاج فى مثل هذه الأمور الدقيقة ، البالغة السرية ، الشديدة الغموض ، التى تعلو مستويات العقل والتصور — خطير الى حد عظيم ، فهو فوق أنه يبلبل الأفكار والخواطر ، ويربك التصورات ، ويعطى للتخيل أكثر من فرصة ليصل الى ما يفوق مستوياته ، فانه يسمح أيضا بجموح الخيال الى حد الشطط حتى ليتناول الانسان ما لم يعلم ، وما لم يتعلم ، وما ليس له به علم ، وما لا يجب أن يصل اليه علمه ، وما لم يات عليه من المعرفة بسلطان مبين .

فالايمان بالاسراء أولا كحدث وقع ، ثم بالمعراج ، كحدث متمم للاسراء .. أمر واجب لا جدال فيه ، ثم الجنوح بعد ذلك والتصور والتخيل ، تطاول وخروج ، والمسلم اذ يجادل فى الآيتين الخارقتين ، انما يضع نفسه فى موضع كفار مكة الذين جادلوا محمدا يوم قال لهم انه أسرى به ، وحاوروه فى كيفية الاسراء ، ثم تطاولوا عليه ، وسخروا عندما أشار مجرد الاشارة الى أنه قد رأى من آيات ربه الكبرى ..

((أفتمارونه على ما يرى .. ولقد رآه نزلة أخرى ، عند سدرة المنتهى ، عندها جنة المأوى ، اذ يغشى السدرة ما يغشى ، ما زاغ البصر وما طغى ، لقد رأى من آيات ربه الكبرى ..)) صدق الله العظيم ..

هـذا ما جاء به كتاب الله وما نزل فى محكم كتابه ، ولو أراد الحق سبحانه وتعالى ، أن يتجلى على عباده ببعض المعرفة ، لحدثهم فى الكتاب

ببعض صور مما راى الرسول الأعظم ، ولكنه حدد المعرفة ، وقرر أن محمدا عليه الصلاة والسلام قد راى .. **وانه قد وصل الى سدرة المنتهى التى عندها جنة المأوى ، وانه ما زاغ البصر وما طغى ، وانه قد راى من آيات ربه الكبرى ..**

تلك كانت آيات التجلى التى من الله بها على سيد الخلق اجمعين محمد رسول الله الى العالمين كافة .. وهى آيات ، مغايرة لتلك الأخرى ، التى أيد الله بها بعض رسله السابقين من قبل ، والفارق بين آيات التجلى على محمد والآيات السابقة لها .. أن آيات محمد ، كانت تخصه وحده ، لحكمة يعلمها الله ، أما الآيات الأخرى ، فكانت تخص من أرسل اليهم كل رسول لتعينه فى أداء رسالته ، وتجعل الناس يصدقون انه رسول حق من عند الله ..

فسلاح الرسل أولى العزم ابراهيم وموسى وعيسى ومن قبلهم هود وصالح ونوح ، كانت سلاح المعجزة المنظورة ، التى يذهل لها العقل البشرى ويحس بقصوره عنها وعن ادراكها وتصورها ، أما سلاح محمد رسول الله الأعظم وخاتم النبيين ، فقد كان الاقناع والمنطق ووضع الناس حيارى ، أمام قوة اليقين وروعة الاقناع وقوة الثبات على المبدأ ، والصبر على المكاره والسير قدما فى أداء الرسالة ، مهما حدث ، ومهما صادف الرسول حتى **« لو وضع الكافرون الشمس فى يمينه ، والقمر فى يساره .. »**

كان الاقناع عند محمد ، هو سلاحه وعدته ، وكان يقينه بالله ، هو مركبه الى كل صعب تعرض له — وهذه آيات لم ينفرد بها قبل محمد رسول من الرسل الكرام ..

لقد ضج نوح من قومه ، وحار معهم ، فدعا الله أن لايبقى على الارض من الكافرين ديارا ..

وعلا رسل غير نوح الى ربهم بالدعوات أن يؤيدهم بما طلبه قومهم مع رائع الآيات ولكن .. ماذا فعل محمد ! !

ماذا فعل الرسول الأعظم ، صاحب الرسالة الكبرى .. وكبرى الرسالات ..

لقد جاهد صلى الله عليه وسلم .. وجادل .. واقنع ، ووصل الى ما لم يصل اليه احد قبله .. فلانت له القلوب الحاقدة ، وخشعت الافئدة

المتكبرة واتبعه الناس افواجا ودخلوا دينـه ، دون أن يذهلهم أو يروعهم بمعجزة غير معجزة الاقناع وقوة الايمان .. معجزة القرآن وسحر البيان .. معجزة الجهاد والصبر وبالغ اليقين ..

لقـد جاهد .. سار على الرمال المحرقة ، وتعرض للأذى .. ودق سفهاء ثقيف قدميه – يوم هجرته الاولى اليهم – بالحجارة التى أحرقتهـا حرارة الشمس فلم يفعل أكثر من الصبر ، ولم يسـأل الله معجزة أو آية .. بل رفع وجهه الى السماء وناجى ربه قائلا : **اللهم انى أشـكو اليك ضعفى وقلة حيلتى وهوانى على الناس يا أرحم الراحمين ..**

ومضى محمـد فى أداء رسالتـه ، فترك ثقيف وعاد الى مكة .. عاد ليجاهد ويناضل من جديد ..

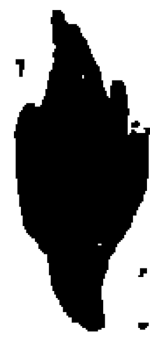
ثم هاجر مع صاحبه وصـديقه الكريم .. وكانت الهجرة آية النصر العملى الحاسم للدعوة ، فعظم خلالها شأن الاسلام ، واذا بمهاجر الامس يعود بعد ست سنوات الى مكة ، التى تسلل منها مهـاجرا بليـل – عاد وخلفه فى عودته عشرة آلاف فارس مدربين مسلحين يشهدون :

أنه لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله !!

تلك كانت الآية .. آية الجهاد والكفاح الشاق المضنى والعمل والدأب ولكن ..

هل جاء معمحمد رغم هذا آية منالسماء ! ! هلايده الله بآيةاعجازية ظاهرة ، شأنه فى ذلك شأن من سبقوه من الرسل الكرام الذين ذهب الزمن بآياتهم ولم يبق منها غير الذكرى وما ورد عنها فى الكتاب الكريم ..

الواقع أن الله أيد محمدا بآية اعجازية ، أذهلت الناس ، وحاروا أمام جلالها ، **ثم .. بقيت خالدة على الزمان .. تلك هى ((القرآن الكريم)) ..** كتاب الله ومعجزته الباقية الى آخر الزمان ..





((بسم الله الرحمن الرحيم))

((ان هذا القرآن يهدى للتى هى أقـوم ، ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات ان لهم أجرا كبيرا ، وان الذين لا يؤمنون بالآخرة اعتدنا لهم عذابا أليما)) (١) ، ((انه لقرآن كريم ، فى كتاب مكنون ، لايمسه الا المطهرون ، تنزيل من رب العالمين)) (٢) ، ((بل هو قرآن مجيد ، فى لوح محفوظ)) (٣) ، ((انا انزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون)) (٤) ، ((ولقد صرفنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل)) (٥)

---

(١) الاسراء (٢) الواقعة (٣) البروج (٤) يوسف (٥) الكهف .

الكتاب

((الــر كتاب احكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ، ألا تعبدوا الا الله ، انني لكم منه نذير وبشير ، وأن اســتغفروا ربكم ثم توبوا اليــه يمتعكم متاعا حسنا الى اجل مسمي ويؤت كل ذى فضل فضله ، وان تولوا فاني أخاف عليكم عذاب يوم كبير ، الى الله مرجعكم وهو عــلى كل شيء قدير)) .

(سورة هود)

الروح والعقل والوجدان ، والضمير .. هذه المسميات كلها .. هل هي شيء واحد ، أو مجموعة من أشياء ! !

وهذا الشيء الواحد ، أو مجموعة الاشياء هذه .. هل استطاع احد أن يحددها من حيث الهيئة والشكل ، والوظيفة التى تؤديها أو المكان الذى تقوم فيه ، فعرف هذه من تلك وميز الثانى من الثالثــة ، فقال ان العقل هيئة كذا ، وانه غير الروح ، أو أن الاثنين شيء يغــاير ويخالف صــــورة الوجدان ، ويشابه الضمير فى صفات ومميزات هى كذا وكذا ..

لقــد تعددت الألفــاظ والمسميات ، وعينت ادق وأبهى ما يتميز به الانسان ولكن .. هل عينته أو حددته ، أو اســتطاعت أن تستخلص له صورة معينة ! !

الجواب لا . .

اذا .. فما العقل ؟ ! وما الوجدان ؟ ! وما الضمير ؟ ! ثم ما الروح نفسها ! !

لقد شاءت ارادة الله سبحانه وتعالى أن تســكت التطاول البشرى ، والفضول الانسانى ، وتوقفهما عند حد لايجسران على تخطيه **فقال** وهو أصدق القائلين ((**يسألونك عن الروح**)) .. ثم لم يقــل ما هى الروح ؟ ! ولحكمة يعلمها سبحانه وتعالى لم يشأ أن يعرفها الانسان أو يكون على علم بها قال : ((**قل الروح من أمر ربى**)) .. فالروح ((**من أمره**)). **هو سبحانه .. أى أنها سر خاص به من أسرار الخليقة ..**

فالروح والعقل والوجدان والضمير ، أسرار من أسرار الخالق سبحانه وتعالى .. اسرار ستظل الحجب تغلفها حتى يرث الله الأرض ومن عليها

وهو خير الوارثين ، وستظل غامضة مستغلقة على الانسان .. ذلك المتطلع الفضولى الذى يريد أن يكشف الحقائق والأسرار ! !

والقلب .. القلب الذى ورد ذكره فى الكتاب .. القلب الذى يتعرض للمؤثرات فيصـــاب بالعمى مثـــلا .. والذى يعبر عنه بالبصيرة فى بعض الأحيان ..

((افلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها ، أو آذان يسمعون بها ، فانها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور)) ..

هـــذا القلب الذى يجلوه النور وتكشفه الظلمات .. هل هو العضـــو الذى نعرفه بانه كمثرى الشكل ، وأن مكانه الجانب الأيسر من صدر جسم الانسان ، وأنه يتكون من أذين أيمن وأيسر وبطـين ايمن وايسر واورطى وشريان تاجى .. وغير ذلك من المسميات العلمية ؟ !

هل هذا العضو الذى ترتهن الحياة بدقاته .. وتظل قائمة ما بقى هو قائما يؤدى وظيفته .. ! !

هل هذا القلب هو القلب الذى ندعى انه يمتلىء بالحب والكراهية وشتى الأحاسيس والانفعالات ؟!

وهل هو والعقل والضمير والوجدان بل .. والروح شىء واحد ؟ !

سبحانك ربى علمت الانســان ما لم يعلم ثم وقفت به أمام مسميات بسيطة يقف أمامها موقف العاجز ، المستسلم الذى يحنى راسه فى حيرة وذلة وخضوع ، ثم يسكت ولكنه .. لا يستسلم ابدا .. لأن الانسان من دأبه البحث والتطاول والفضول ..

لنفترض جـدلا أن الوجـدان والضمير والقلب والروح هى مسميات لشىء واحد مادمنا لم نستطع أن نعرف ماهية هذه الأشياء .. ولنسميهـــا فى مجموعها العقل البشرى ، فهذا أكمل وأعم ..

فالعقل البشرى مصدر الاحساس والشعور وهو الذى يفكر ويقرر ويقـدر ، وهو الذى يتطلع ، ويتشوف ويتنبأ ، ثم هو بعـــد هذا يحس ويشعر ..

هو ميزة الانسان الكبرى .. هو محرك قلبه وموقظ وجدانه ، وموجه ضميره ، ثم أن يقظته هى دليل الحياة الحيوية ، فهو الروح وهو القلب ..

فلنقف اذا أمام العقل .. ولنبدأ معه .. ثم نسير على هديه ، وبوحى من اشعاع نوره الهادى ..

هذا العقل البشرى .. التماعه من نور .. قبس من نورانية ساطعة .. ومن أجل هذا يضيق دائما بالظلام ، لا عن رهبة ولا خوف ، ولكن من تبرم بالظلمات الداكنة البغيضة ، لأن العقـل نور ونورانية ، واشعاع

وسطوع ، وهيهات أن تكون للظلمات القوة الغالبة التى تستطيع معهــا ان تنشى النورانية أو أن تحجب النور ..

والعقل البشرى سلطان متحكم ، ينزع الى التفرد ويتعشــق الهيمنة المطلقة ، التى لا تخضع ولا تحب أن تستسلم لغير وعيها الشخصى .. فهو والحالة هذه كائن فيه كبرياء ، يتعشق التعالى وانه يتسامى دائما ، فينفر من سكنى كوكب الأرض ، لأنه ليس من مادته ، ويحلق دائما نحو السماء ، متجها الى أصله — وهو النور ، مهما حجبتهالحجب واعترضته الظلمات .

والعقل البشرى فى تكوينه أمام هذا ، ليس غيرقبس من نورانية الذات العظمى ، فهو اشعاع الروح المتوثب بالحياه ، الذى ركبه الله فى الانسان ثم خلقه من طين ثم نفخ فيه من روحه ، فكان ذلك الكائن القادر المتطاول الذى اجتمع فيه العالم اجمع بما فيه من آيات وقدرات ..

فالعقل البشرى — أو القلب والروح والوجــدان والضمير .. حين يتجه الى الله ، ويحوم حول نورانية سدته العظمى ، محاولا أن يصل اليه ، ليكون فى ظله ورعايته — فهو انما ينطلق الى الأصــل ، انطلاق القطــرة الى البحر ، لتفنى فيه ، وتختلط به ، فتصبح هى البحر الصخاب العظيم ، ويصبح البحر هو القطرة .. ويصير الشيئان الى واحد هو الأصل الثابت الذى له وحده الخلود ! !

والعقــل على عظيم التماعه ، وشديد نورانيته ، ذرة فى محيط هالات الضوء الأعظم .. ولكنه رغم هذا ذرة جامحة عاصية متمردة ، فيها التعالى والتطاول والكبرياء ..

من أجل هذا كله .. ومن أجل هذه المقومات العاصية التى تتركب منها تلك الذرة النافرة .. يجنح العقل البشرى دائما ويميل الى الخروج عن الدائرة المقدسة الباهرة الضياء ، لينفذ حيث أراد لنفسه أن يكون ، وان يسطع ، ويتوهج بسنا ضوئه القوى خلال ظلمات بعيــدة هو موجدها ومحدثها ، ورغم هذا تكاثرت وتضاعفت فاذا هى ظلمات فوق ظلمات ..

وبدأت الدجنة المستحدثة ، تعدو على صاحبها الذى أوجدها من عدم، وخلقها من وهم ، وكما انفلت هو من دائرة النور الأسمى ، خرجت بدورها عليه ، وأفلت زمامها من يده ، فاكتنفته بدجنتها ، وغشيته بحلكهاالرهيب، فركن اليها بعض الشيء ، وطابت له الحياة فى سراديبها ..

ومر موكب الوجود .. وعاد الفلك يدور .. واهتز الوسنان الحالم ، فانتبه من رقدته الفجائية ، وقام فى ذهول ينظر حواليه ، ويتعرف مكانه ، فاذا به قد تاخر وعاد الى الوراء ، فى حين سبقه ركب الحياة ، وخلفه وراءه فى دنيا الوهم والتيه التى تخيرها لذاته مسكنا ومستقرا ..

وعاودت العقل الجامح اصالته ، وغلبته الطبيعة التى هو منها .. واحس بالحنين الى الحقيقة التى خيل اليه انه تحرر من دائرتها المحكمة ، فإذا به يتمرد على الظلمة والظلام .. فلا يلبث أن يعاوده معدنه الصلب فيتألق ، ويسطع وينهض من كبوته .. ويعود من جديد ينظر حواليه ليتبين جيدا مكانه ..

اين وقف ... والى أين اتجه ... وأية قيود كانت تربطه ... وأية سدود كانت تحدد مقامه ... هل يستطيع أن يتمسك بخروجه وأن يستمر فى تألقه ، وتعاليه وسطوعه ، وأن يصمد حيث وضع نفسه وأراد لذاته أن تكون ، دون أن يدفعه قانون الجاذبية برغمه الى الأصل الخالد والنور الأعظم ، ليستمد منه نورا على نور ، قبل أن يفقد فاعليته ويضيع اشعاعه ، ويتلاشى سطوعه ؟!.

وهنا يحس العقل بقصوره .. ويستشعر الوجدان الندم ، فلا يلبث الضمير ان يبدأ هجومه ، وتدوى أبواق معركته ، فيرتجف القلب .. ثم لا يلبث أن يتهاوى ، خائرا ، ضعيفا مستسلما ، عائدا عودة التائب النادم ، المستغفر الذى يرجو ويتوسل أن تسدل بينه وبين الماضى حجب كثيفة ، تبعد عنه صور أمسه البغيض ، وخيالاته الكريهة ، وتوجه بصره الى حاضره السعيد ، الفسيح الرحاب ، ليستشعر جمال العودة الى دائرة هالات النور العظيم ..

ذلك هو العقل البشرى .. المارد الباطنى الجبار ، الجانح دائما الى التمرد والخروج ... والذى لايستطيع أن يصمد حيث وضع نفسه ، لأنه يستمد وجوده من وجود قوى خالق خلاق ، ويستمد نورانيته من نور أسنى هو مصدر سائر الأنوار ، فهو والحالة هذه يصدر عن النبع الخالد ، ومعنى بعده عن دائرتها النورانية ، موات لتألقه ، واظلام لاشعاعه بفقده الالتماع ، وتضيع معه شفافيته فيتدنى من علياء كبريائه ، الى أدنى المراتب ويصبح والحيوان سواء بسواء ! !

ذلكم هو العقل البشرى .. ذلكم هو الطاغية ، المتمرد .. الصورة التى تتطاول على اصلها ، ووجودها مستمد منه .. الظل الذى يصور له غروره وامتداده ، انه يستطيع أن يمتد دون أصله العظيم .. حتى اذا مسه اللغوب ، واضره الكلال .. وتنكب الطريق السوى نظر حواليه فى ذلة النادم ، يرجو ويستغفر ! !

أجل .. يرجو ويستغفر وهو واثق أن سيده القادر سوف يغفر له خروجه وتعاليه .. ويصفح عن تطاوله .. بل ويمهد له طريق العودة إليه على ضوء الهدى ونورانية الرسالات ..

والناظر فى حقيقة هذا الوجود ، وما حوى من بديع صنع الخالق ، يرى أن استخلاف الانسان فى الأرض ارادة عالية ، ومشيئة عظمى ... ووضع حددته القدرة وعينته باحكام ونظام ولكن ... هذا العقل دائما يطغى ويتعدى الحدود ويفهم معنى الاستخلاف على صورة غير تلك التى ارادها المستخلف القادر العظيم ...

فالاستخلاف فى الأرض كما يراه العقل البشرى تحكم .. والتحكم جبروت واستعلاء .. فى حين أنه وكما أراده الله الحق العادل الرحمن الرحيم ـ طاعة ، ورحمة ، وعدل وخضوع وتفكر وامتثال ..

وفى حنايا العقل البشرى المحدود ـ مجالات تفوق فى اتساعها مجالات الأكوان جمعاء وما حوت من غرائب وغوامض مجهولة ، وحقائق معلومة ، ومخلوقات يعلمها الله وحده ، ولا نعلمها نحن الناس ..

وفى ثنايا هذه المجالات العقلية تكمن القوى المتنافرة وهى فى حالة موات تنتظر فرصة البعث والنشور . . ثم الانطلاق .. فهناك يرقد العدل الى جانب الظلم .. وتنام القسوة الى جانب الرحمة .. وهناك يكمن الجور والعسف والتجبر والجبروت والتعالى ، الى جانب غيرها من المسميات العديدة .. وكل هذه المسميات مستقرها روح الانسان !!

فالروح وحالتها هذه .. ميدان صراع .. والقلب كذلك مجال تمرد ، والوجدان والتصور ، آماد تتسع دوائرها ، وتتعاظم انطلاقاتها المتنافرة المشارب والاهواء بما يمهد للروح حب الاستمرار فى الصراع .. وللقلب روعة الاستمساك بالتمرد ، والتشبث بالتمنى والرجاء ثم الخروج بعد ذلك على الارادة ذاتها .. والأمر الواجب الطاعة مادام الشفيع الحامى موجود ، ويتدخل فى الوقت المناسب المرجو ...

والرحمة .. هى ذلك الشفيع الحامى ولا شك .. وهى من أجل واعظم أسماء المستخلف القادر العظيم صاحب المنن الذى اراد هذه الخلافة السرمدية للعقل على ذلك العالم الفسيح ...

والرحمة .. صاحبها رحمن رحيم .. رحمته تسبق غضبه ، وعفوه جل وتعالى يسبق نقمته ، وبره يسبق دواما عذابه الأليم ، فهو سبحانه يغفر دواما للانسان لأنه قابل التوب وغافر الذنب ، الرحمن الرحيم ، الودود الغفور ...

وهو بعـد هذا لا يعـذب الانسـان ... ولا يذيقـه نيران نقمته ، حتى ينذره ، وينبهه ثم يناديه ليعود اليه ويبعث الرسول بعد الرسـول الى الضالين المارقين المتجبرين ليهديهم الى صراطه ونوره ويعـود بهـم الى حظيرة التوبة ، وظلال الايمان من جديد ...

وعودة الضالين الى حظيرة الهدى ، هى التجلى والرضوان .. ثم .. هى الغفران الكامل والطريق الى جنات عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين التائبين العائدين ...

والعودة بالنسبة للانسان بعد هذا ، هى بداية مرحلة الطاعة والخضوع والاخلاص لله الحق ...

وهى وان كانت فى حقيقتها تعنى الغفران والعفو والصفح العظيم ، والتجاوز الكريم عما مضى الا ان الرحمن الرحيم ، وان كان بالعودة قد محا الماضى وأوزاره جمعاء ، وتجاوز عن السيئات وشمل التائب ببره — الا أن هذه المغفرة التامة لا تنسحب على الحاضر أبدا بل هى فى واقعها تهيئـة واعداد للحاضر الذى تحدده قيود وحدود وتعاليم وتوجيهات واجبـة الطاعة والامتثال لها فرض حتمى والخـروج عليها بعد هذا لا يغتفر أبدا ، لأن الرحمن الرحيم على واسع مغفرته وعظيم رحمته وجليل بره — جبـار متكبر ، شديد البطش ، شديد العقاب ..

والأرض التى استخلف الله عليها ذلكم الكائن المدلل ، وهو الانسان ، الذى يتحكم فيه العقل البشرى ويوجهه الى حيث شاء ... هذه الأرض هى الميدان الفسيح للشرور والتمرد والتعالى ثم العودة والتوبة والنـدم والخضوع والاستغفار ...

ولما كان الرسل السنة الحق بين الخلق — فانه يحلو الى أن نسير مع مواكب الهداة والمرسلين سلام الله عليهم جميعا فهم مرسلون لهدى الخلق وابلاغهم رسالة الله ، لهم تحية وسلام وفى قوله تعالى : **((سلام على المرسلين))** سلام عام ويخص البعض بسلامه وتكريمه فى قوله تعالى **((سلام على ابراهيم))** و **((سلام على نوح فى العالمين))** **((وسلام على موسى وهارون))** و **((ان الله وملائكتـه يصلون على النبى ، يا أيها الذين آمنـوا صلوا عليه وسـلموا تسليما))** ..

والرسول محمد هو الذى خصه الله بالصلاة والسلام .

وان يحيى وعيسى عليهما السلام كان لهما شأن خاص فى ولادتهما ، فقـد جاء يحيى إثر دعـوة أبيه **((زكريا))** بعد أن بلغ من الكبر عتيا وكانت إمرأته عاقرا فكان سلام الله له سلام تكريم فى جميع المراحل وذلك فى قوله تعالى عنه :

« وسلام عليه يوم ولد ، ويوم يموت ، ويوم يبعث حيا » .

أما عيسى عليه السلام فقد خص نفسه بالسلام اذ قال :

« وسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا » !!

فقد كان لمولده ، أمر انفرد به عن سائر المخلوقات . .

والرسل الكرام هم الهداة المصلحون . . وهم المعلمون المرشدون الذين يروضون وحشية النفس البشرية ويهذبون الروح المتمرد ، ويصقلون الوجدان ويبعدون عن العقل أوشاب الشرك ، وظلام الضلالات ، ويعلمون الانسان العاصى ، حقيقة وظيفته فى هذا الوجود ! !

« .. ما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحى باذنه ما يشاء ، انه عليم حكيم »

و **« الله أعلم حيث يجعل رسالته »** ولقد رأينا مدى حرصهم وكفاحهم المضنى لتأكيد حقيقة الوحدانية المطلقة لله .

فالرسالات الأولى كلها أجمعت على تبصير الانسان بحقيقة الوجود ، ووحدانية الله ، وحدانية مطلقة منزهة عن الشرك .

وعلى ان الدين هو **« الاسلام »** دين الفطرة بكل ما يتصل بالدين من معانى **« الاذعان »** **« والانقياد »** ، به نادى كافة الأنبياء والهداة والمرسلين .

آدم عليه السلام :

كان آدم عليه السلام الصورة الجامعة لكل حقائق الوجـــود . . فهو آدم أبو البشر الذى يمثل الجنس البشرى كله . الانسان من حيث هو انسان أو الحقيقة الانسانية التى تتجلى فيها القدرة الالهية فى أعظـم صورها . وجعله فى الأرض خليفة وفضله على الملائكة . وعلمه الأسماء كلهـــا .

« وقلنا يا آدم اسكن انت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين . . »

وعصى آدم ربه . . وأحس بوقر خطيئته . . « فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه انه هـــو التواب الرحيم ، قلنا اهبطوا منها جميعا فاما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » . .

ادريس عليه السلام :

« واذكر في الكتاب ادريس انه كان صديقا نبيا ، ورفعناه مكانا عليا ، أولئك الذين انعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم .. »

كان ادريس أول من خط بالقلم وقد آتاه الله النبوة فنهى المفسدين عن مخالفتهم شريعة آدم عليه السلام ، فأطاعه البعض وكفر البعض وأقام في مصر وراح يدعو الخلائق الى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وطاعة الله عز وجل .

* * *

وبوحدانية الخالق ودين الاسلام ، نادى نوح قومه .

نوح عليه السلام :

« واتل عليهم نبأ نوح اذ قال يا قوم ان كان كبر عليكم مقامى وتذكيرى بآيات الله فعلى الله توكلت فاجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ثم اقضوا الى ولا تنظرون . فان توليتم فما سألتكم من أجر ان اجرى الا على الله **وأمرت أن أكون من المسلمين** » ! !

فعصوه ...

« قال نوح رب انهم عصونى ، واتبعوا ما لم يزده ماله وولده الا خسارا ، ومكروا مكرا كبارا ... »

« وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا ، انك ان تذرهم يضلوا عبادك ، ولا يلدوا الا فاجرا كفارا ، رب اغفر لى ولوالدى ولمن دخل بيتى مؤمنا وللمؤمنين والمؤمنات ولا تزد الظالمين الا تبارا » ...

* * *

والى هذه الحقيقة الناصعة دعا هود قومه من أهل عاد ..

هود عليه السلام :

« واذكر أخا عاد اذ أنذر قومه بالأحقاف وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه ، الا تعبدوا الا الله انى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم » ..

« والى عاد أخاهم هودا ، قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره أفلا تتقون . أو عجبتم ان جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم

واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم فى الخلق بصطة ، فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون » .

* * *

وبالوحدانية المطلقة المنزهة عن الشرك . المتعالية عن المشابهة للحوادث وعن الضلالات كل الضـلالات ، علا صـوت صالح يدعو ثمود العاصية — الى الله . .

صالح عليه السلام :

« والى ثمود أخاهم صالحا ، قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره ، هو انشأكم من الأرض واستعمركم فيها ، فاستغفروه ثم توبوا اليه ، ان ربى قريب مجيب » و « .. قد جاءتكم بينة من ربكم ، هذه ناقة الله لكم آية ، فذروها تأكل فى أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب اليم » ..

« واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم فى الأرض تتخذون من سهولها قصورا وتنحتون من الجبال بيوتا ، فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا فى الأرض مفسدين » ..

ولكن « كذبت ثمود المرسلين » ..

* * *

ابراهيم عليه السلام :

« واذكر فى الكتاب ابراهيم انه كان صديقا نبيا ، اذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا ، يا أبت انى قد جاءنى من العلم ما لم يأتك فاتبعنى أهدك صراطا سويا ، يا أبت لا تعبد الشيطان ان الشيطان كان للرحمن عصيا ، يا أبت انى أخاف أن يمسسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا » ..

« وجاهدوا فى الله حق جهاده ، هو اجتباكم وما جعل عليكم فى الدين من حرج **ملة أبيكم ابراهيم هو سماكم المسلمين .. »**

« ومن يرغب عن ملة ابراهيم الا من سفه نفسه ، ولقد اصطفيناه فى الدنيا ، وانه فى الآخرة لمن الصـالحين ، **اذ قال له ربه أسلم ، قال أسلمت لرب العالمين »** .

* * *

لوط عليه السلام :

كان أهل سدوم — قوم لوط — على أخلاق رديئة لا يتعففون عن معصية، وكانوا يأتون الرجال دون النساء ، فراح يعظهم وينهاهم عن فسقهم ولكن دون جدوى .

« كذبت قوم لوط المرسلين ، اذ قال لهم أخوهم لوط ألا تتقون ،

انى لكم رسول أمين ، فاتقوا الله وأطيعون ، وما أسألكم عليه من أجر ان أجرى الا على رب العالمين ، أتأتون الذكران من العالمين ، وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم بل أنتم قوم عادون ، قالوا : لئن لم تنته يالوط لتكونن من المخرجين ، قال : انى لعملكم من القالين ، رب نجنى وأهلى مما يعملون ، فنجيناه وأهله أجمعين ، الا عجوزا فى الغابرين ، ثم دمرنا الآخرين ، وأمطرنا عليهم مطرا فساء مطر المنذرين ، ان فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين » .

***

اسماعيل عليه السلام :

« واذكر فى الكتاب اسماعيل انه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا ، وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضيا » . « واسماعيل واليسع ويونس ولوطا ، وكلا فضلنا على العالمين ، ومن آبائهم وذرياتهم واخوانهم ، واجتبيناهم وهديناهم الى صراط مستقيم » . « واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل ، ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ، **ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك** وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم » .

***

اسحاق عليه السلام :

« ووهبنا له اسحاق ويعقوب ، وكلا جعلنا نبيا ، ووهبنا لهم من رحمتنا وجعلنا لهم لسان صدق عليا » ، « وباركنا عليه وعلى اسحاق ومن ذريتهما محسن ، وظالم لنفسه مبين » !!

« ووصى بها ابراهيم بنيه ويعقوب : **يا بنى ان الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن الا وأنتم مسلمون** » .

***

يعقوب عليه السلام :

« واذكر عبدنا ابراهيم واسحق ويعقوب أولى الأيدى والأبصار ، انا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار ، وانهم عندنا لمن المصطفين الأخيار ، واذكر اسماعيل واليسع وذا الكفل وكل من الأخيار ، هذا ذكر وان للمتقين لحسن مئاب ، جنات عدن مفتحة لهم الأبواب » . .

« أم كنتم شهداء اذ حضر يعقوب الموت اذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى ، قالوا : **نعبد الهك واله آبائك ابراهيم واسماعيل واسحق الها واحدا ونحن له مسلمون** » .

يوسف عليه السلام :

« انى تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون ، واتبعت ملة آبائى ابراهيم واسحق ويعقوب ما كان لنا أن نشرك بالله من شىء ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون ، ياصاحبى السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ، ما تعبدون من دونه الا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ، ان الحكم الا لله أمر الا تعبدوا الا اياه ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون » و « رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الأحاديث ، فاطر السموات والأرض **أنت وليى فى الدنيا والآخرة توفنى مسلما والحقنى بالصالحين » !!**

* * *

وطغى أهل مدين وتجبروا ، وعثوا فى الأرض فسادا ، وبخسوا الناس اشياءهم ، ولم يوفوا الكيل ولا الميزان ، فبعث الله فيهم شعيبا هاديا الى الحق .

شعيب عليه السلام :

« والى مدين أخاهم شعيبا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره ولا تنقصوا المكيال والميزان انى اراكم بخير وانى أخاف عليكم عذاب يوم محيط ، ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا فى الأرض مفسدين » ، « ويا قوم لا يجرمنكم شقاقى أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح وما قوم لوط منكم ببعيد ، واستغفروا ربكم ثم توبوا اليه ان ربى رحيم ودود » .

* * *

ثم كانت دعوة موسى عليه السلام ورسالته الكبرى ، وقد اراد الله سبحانه وتعالى ان تكون رسالته الرسالة الثانية الكبرى من بعد ابراهيم عليه السلام .

موسى عليه السلام :

« واذكر فى الكتاب موسى انه كان مخلصا وكان رسولا نبيا ، وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجيا ، ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبيا » ، « قال يا موسى انى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى فخذ ما إتيتك وكن من الشاكرين ، وكتبنا له فى الألواح من كل شىء موعظة وتفصيلا لكل شىء فخذها بقوة ، وأمر قومك يأخذوا بأحسنها ... » ، « فما آمن لموسى الا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملائهم أن يفتنهم وان فرعون لعال فى الأرض وانه لمن المسرفين ، وقال موسى : يا قوم : **ان كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا ان كنتم مسلمين .. »**

« وأوحينا الى موسى واخيه أن تبوءا لقومكما بمصر بيوتا واجعلوا بيوتكم قبلة ، واقيموا الصلاة وبشر المؤمنين ، وقال موسى ربنا انك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا فى الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم ، قال قد أجيبت دعوتكما فاستقيما ولا تتبعان سبيل الذين لايعلمون وجاوزنا ببنى اسرائيل البحر فاتبعهم فرعون وجنوده بغيا وعدوا حتى اذا أدركه الغرق قال : **آمنت أنه لا اله الا الذى آمنت به بنو اسرائيل وأنا من المسلمين** » .

* * *

هارون عليه السلام :

وقد شارك هارون عليه السلام أخاه موسى فى جهاده المرير ، وقد كان رجاء موسى اذ قال « رب اجعل لى وزيرا من أهلى ، هارون أخى ، أشدد به أزرى وأشركه فى أمرى ، كى نسبحك كثيرا ونذكرك كثيرا انك كنت بنا بصيرا » ...

« ولقد آتينا موسى الكتاب وجعلنا معه أخاه هارون وزيرا ، فقلنا اذهبا إلى القوم الذين كذبوا بآياتنا ، فدمرناهم تدميرا » ..

* * *

داود عليه السلام :

« واذكر عبدنا داود ذا الأيد انه أواب ، انا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشى والاشراق ، والطير محشورة كل له أواب ، وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب » ..

« ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض وآتينا داود زبورا » ..

« وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين ، تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وانك لمن المرسلين » .

* * *

سليمان عليه السلام :

« اذهب بكتابى هذا فألقه اليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون ، قالت يا أيها الملأ انى ألقى الى كتاب كريم ، انه من سليمان وانه : **بسم الله الرحمن الرحيم ، الا تعلوا على وأتونى مسلمين** » .

« وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين ، وصدها ما كانت تعبد من دون الله انها كانت من قوم كافرين ، قيل لها ادخلى الصرح فلما رأته

حسبته لجة وكشفت عن ساقيها قال انه صرح ممرد من قوارير ، قالت : **رب انى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين »** .

* * *

زكريا عليه السلام :

« .. ذكر رحمة ربك عبده زكريا اذ نادى ربه نداء خفيا ، قال رب انى وهن العظم منى واشتعل الرأس شيبا ولم أكن بدعائك رب شقيا ، وانى خفت الموالى من ورائى وكانت إمرأتى عاقرا فهب لى من لدنك وليا ، يرثنى ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضيا ، يا زكريا انا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميا » ..

* * *

يحيى عليه السلام :

« فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه ، انهم كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين » .. « يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبيا ، وحنانا من لدنا وزكاة وكان تقيا ، وبرا بوالديه ولم يكن جبارا عصيا وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا » ..

* * *

أيوب عليه السلام :

« واذكر عبدنا أيوب اذ نادى ربه : انى مسنى الشيطان بنصب وعذاب »

« وأيوب اذ نادى ربه انى مسنى الضر وانت أرحم الراحمين . فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر وآتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعابدين » .

* * *

الياس عليه السلام :

« وان الياس لمن المرسلين ، اذ قال لقومه الا تتقون ، أتدعون بعلا وتذرون أحسن الخالقين ، الله ربكم ورب آبائكم الأولين ، فكذبوه فانهم لمحضرون الا عباد الله المخلصين ، وتركنا عليه فى الآخرين ، سلام على ال ياسين » ..

* * *

اليسع عليه السلام :

« واذكر اسماعيل واليسع ويونس ولوطا ، وكلا فضلنا على العالمين »

« واذكر اسماعيل واليسع وذا الكفل وكل من الأخيار » ..

* * *

يونس عليه السلام :

« وان يونس لمن المرسلين ، اذ ابق الى الفلك المشحون فساهم فكان من المدحضين ، فالتقمه الحوت وهو مليم ، فلولا أنه كان من المسبحين ،

للبث فى بطنه الى يوم يبعثون ، فنبذناه بالعراء وهو سقيم وانبتنا عليه شجرة من يقطين » .

« وذا النون اذ ذهب مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه ، فنادى فى الظلمات ان لا اله الا أنت سبحانك انى كنت من الظالمين ، فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجى المؤمنين » ..

* * *

مريم عليها السلام :

« واذكر فى الكتاب مريم اذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا ، فاتخذت من دونهم حجابا ، فأرسلنا اليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا ، قالت انى أعوذ بالرحمن منك ان كنت تقيا ، قال انما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما ذكيا ، قالت انى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ولم أك بغيا ، قال كذلك قال ربك هو على هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا ، وكان أمرا مقضيا » و « جعلنا ابن مريم وامه آية » ..

* * *

عيسى عليه السلام :

« .. كفر الذين قالوا ان الله هو المسيح بن مريم ، وقال المسيح : يا بنى اسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم ، انه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ، ومأواه النار ، وما للظالمين من انصار . لقد كفر الذين قالوا ان الله ثالث ثلاثة وما من اله الا اله واحد ، وان لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم » ، « فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصارى الى الله ، قال الحواريون : نحن انصار الله ، آمنا بالله وأشهد بأنا مسلمون ، ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين » « واذ أوحيت الى الحواريين أن آمنوا بى وبرسولى ، قالوا : **آمنا واشهد بأننا مسلمون** » .

ويبدو أن عيسى عليه السلام اختص بالنبوة أكثر من الرسالة كما هو واضح فى آيات القرآن الكريم التى تؤكد نبوته منذ كان فى المهد صبيا وقوله للناس : « انى عبد الله ، آتانى الكتاب وجعلنى نبيا وجعلنى مباركا أينما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حيا » ..

فان فى ذلك ما يشير الى أنه كان نبيا تابعا لا رسولا مشرعا ..

* * *

لقمان عليه السلام :

« ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله ، ومن يشكر فانما يشكر لنفسه ، ومن كفر فان الله غنى حميد ، واذ قال لقمان لابنه وهو يعظه : **يا بنى لا تشرك بالله ، ان الشرك لظلم عظيم** » و « **يا بنى انها ان تك مثقال**

حبة من خردل فتكن فى صخرة أو فى السماوات أو فى الأرض يأت بها الله ان الله لطيف خبير ، يا بنى أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك ان ذلك من عزم الأمور ، ولا تصعر خدك للناس ، ولا تمش فى الأرض مرحا ان الله لا يحب كل مختال فخور ، واقصد فى مشـــيك واغضض من صوتك ان أنكر الأصوات لصوت الحمير » ..

* * *

أما خاتم الأنبياء والرسل ، فهو محمد صلى الله عليه وسلم ..

محمد بن عبد الله :

« محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم فى التوراة ومثلهم فى الانجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما » ، « آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه ، والمؤمنـون ، كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، لا نفرق بين أحد من رسله » .

جاء محمد ليؤكد الوحدانية .. والوحدة .. وحدانية الله ، ووحدة الجنس البشرى ..

وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو فى مكة المكرمة أن يقول :

« انما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذى حرمها ، وله كل شىء وأمرت أن أكون من المسلمين ، وأن أتلوا القرآن فمن اهتدى فانما يهتدى لنفسه ومن ضل فقل : انما انا من المنذرين » . .

و «قل ، يا أيها الناس انى رسول الله اليكم جميعا الذى له ملك السموات والأرض لا اله الا هو يحيى ويميت ، فآمنوا بالله ورسوله النبى الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون» ..

« .. ان صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين ، لا شريك له وبذلك أمرت ، وأنا أول المسلمين » ..

* * *

« تلك الرسل فضـــلنا بعضهم على بعض ، منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات » .

« ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك » .

« وما نرسل المرسلين الا مبشرين ومنذرين » و « قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى .. »

وقد طالب القرآن الكريم بالايمان بجميع رسل الله وعدم التفرقة بينهم فى الايمان : « ان الذين يكفرون بالله ورســله ، ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ، ويقولون نؤمن ببعض ، ونكفر ببعض ، ويريدون أن يتخذوا بين ذلك

سبيلا ، أولئك هم الكافرون حقـا ، واعتدنا للكافرين عذابا مهينا ، والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم ، أولئك سوف يؤتيهم أجورهم ، وكان الله غفورا رحيما » .

و « **الاسلام** » هو الدين الذى أتت به الرسل جميعا من عنـد الله واصطفاه الله لخلقه بدليل قوله :

« ان الله اصطفى لكم الدين » .

« وان الدين عند الله الاسلام »

« فلا تموتن الا وأنتم مسلمون » ..

ولمـا كان الاسلام هو الانقياد ، والتسليم بوحدانية الخالق الواحد الأحد الصمد — فانه بهذا المعنى — تستوى الأديان كلها ، لأنها تشترك فى ذلك المعنى العام ، الذى هو الانقياد الذى يغمر النفس البشرية بالاطمئنان من معرفة الله ، وانه هو كل الوجود .

ويعتبر الشاعر الصوفى « ابن عربى » ان العقيدة الصحيحة أساسا لكل العقائد ويعبر عنها فى قوله :

عقـد الخلائق فى الاله عقـــائدا
وأنا اعتقـــدت جميع ما عقـدوه

ويعتبر ابن عربى — قلب العارف هيكلا لجميع الاعتقادات فى الله ومرآة تنعكس عليها صور الوجود الحق .. يقول :

لقد صـــار قلبى قابلا كل صورة
فمرعى لغزلان ودير لرهبـــــان
وبيت لأوثان وكعبـة طـــــائف
وألـــواح توراة ومصحف قرآن
اديـن بـدين الحب انى توجهت
ركائبـــــه فالدين دينى وايمـــانى

* * *

فالاسلام هو الانقيـــاد الى الطريق الواحـــد المستقيم الذى يؤدى الى الأديان كلها مهما اختلفت عقائدها وتعددت مذاهبها ، وليس للدين المسلم به سوى الاسلام .. هذا الطريق الذى يؤكد وحدة المعبود . اذ ليس فى الوجود سوى الله وآثاره ، ولا معبود سواه ..

ولكن ... هل استجاب قوم نوح الى دعوة نوح ... وهل آمنت عاد بما جاء به هود ، وهل نزلت ثمود على قول صالح وأطاعت وعبدت الله ، وهل اتبعت مدين السبيل السوى الذى أرشدها اليه شعيب .

ثم ... هل أطاع قوم لوط رسولهم ... وهل صدق أقوام قبل هؤلاء وهؤلاء، وأطاعوا الرسل الذين بعثهم الله ...

أبدا ما أطاعت غير قلة، وما صدق غير بعض قليل من كل كثير ...

وهنا كانت النقمة والعذاب للكافرين، والنجاة والخلاص لأولئك الذين اتبعوا المرسلين ...

تلك أمم أخذها الله القادر بذنوبها واستخلف من بعدهم أقواما آخرين من بعدهم أقوام، وأقوام تجلت فيهم آيات بعد آيات، وظهرت فيهم رسالات بعد رسالات ...

لقد كانت الرسالات الاولى دعوة الى عبادة الله فحسب، ونبذ عبادة الصنم .. دعوة الى الاقرار بالوحدانية .. فكان الرسول مجرد معلم يرشد الى حقيقة من اللازم أن يؤمن بها الجميع ثم .. ولا شيء بعد الاقرار بالوحدانية، لأن معنى الايمان بها اتباع الفضائل جمعاء ... واتباع الفضائل جمعاء يوحى به الايمان بالله والخوف من عقابه وتلمس بره ومثوبته .. ثم .. وبعد الدعوة الى الله لا شيء ..

أجل لا شيء ... فالاصل هى العودة بالانسان الى الطريق السوى .. وارشاد العقل الجامح الى الله، وانه واحد لا شريك له .. وانه الخالق الهادى، القادر بديع السموات والارض .

دعت الرسالات الاولى اذا الى الله .. وتركت أمر التشريع والتقنين للمجتمع، الى ما يوحى به الايمان بوحدانية الله ومخافته، وعبادته حق العبادة، ذلك لانه كانت هناك سلطات طاغية، وطغاة كانوا يقفون للرسل بالمرصاد، وكان فى دعوة الرسل ما يقلل من رهبوت سلطانهم فعصوا الرسل وأوحوا الى شياطينهم من البشر أن يترصدوا للرسل الكرام كل سبيل، فضاق نطاق الدعوات ولم يستجب لها غير قلة اصطفاها الله .. وكتب لها النجاة والخلاص ..

وتولى هذا .. أو على الاصح .. تولت تلك العهود و .. عهود الرسالات الخاصة .. والجهاد فى دائرة معلومة محددة، وشاءت ارادة الله جل وعلا أن تخرج الدعوات من حيز الخصوصية المحدودة الى مجال العمومية المطلقة .. فكانت رسالة ابراهيم عليه السلام التي سبقتها فترة احتكم فيها الى عقله المستنير .. الى العقل البشرى .. المسئول الأول عن أعمال الانسان ..

لقد اهتدى عقل ابراهيم الى الحقيقة الناصعة .. الى النور الاسنى، يوم اكتنف ذلك العقل الظلمات، ورأى قومه يسجدون للصنم، ويتلمسون بركات الكواكب والنجوم ..

وهفا قلب ابراهيم الى النجم، فاذا هو يبدو لاشيء، فهرع الى القمر وظن أنه وجد فيه الله ربه، فما لبث أن ارتد عنه الى الشمس لانها أكبر

وأشد تألقا وسطوعا ، فاذا بالشمس تغيب ، واذا بعقل ابراهيم يكفر بها ، ويتجه الى الله يسأله أن يهديه اليه ..

واهتدى ابراهيم الى الله .. وكان هداه هذا هو بداية دعوته ... أول الرسالات الكبرى ..

ومع رسالة ابراهيم ، بدأ عهد الاستقرار الفكرى والدينى .. فالرسول معلم ، مرشد ، مجاهد ، مناضل ، يسير برسالته فى طريق محددة ، ليصل الى حيث أراد الله له أن يصل عن طريق الاقنـاع والايمان ، واستنارة العقل .

لقد مضى عهـد أخـذ الله القرى بذنوب أهليهـا ، وأراد الله للناس استقرارا وايمانا ، فجعل الرسالة عامة غير محددة وجعل ابراهيم أول الرسل أولى العزم ، اماما للناس . .

وكانت الامامة منه علوية ، أراد ابراهيم الا تقتصر عليه وحده ، فسأل الله ربه أن يجعلها فى بنيه من بعده ، فاستجاب القادر لرجاء خليله وجعل الامامة فى الصالحين من أبناء ابراهيم ، فورثها من بعده اسماعيل واسحق ومن بعد اسحق يعقوب الذى أوصى بنيه بأن يعبدوا الله ، الها واحدا ولا يشركون به شيئا وأن يكونوا مسلمين له طائعين ..

ثم ران الجهل بعد ذلك .. وعادت الظلمات تخيم على النور .. حتى شاءت ارادة الرحمن الرحيم أن تتدارك العصـاة من جديد ... وعلى صورة جديدة من صور الهداية المعززة بكتاب وبنود ووصايا ثم .. بأمناء يحملون هذه الوصايا الربانية ليبلغوها للناس أجمعين ...

وتخير الله القادر من حفدة يعقوب ، رسوله موسى — بعـد أن أبعده أولا عن قومه من بنى اسرائيل — ليشب وينمو فى غير مهاوى الذلة التى كان يحياها أولئك الناس ، وليستنشق نسائم الحرية فى أعز مجالاتها ، وأرفع بيوتها عمدا ، فنشأ فى رعاية فرعون وامرأته ، وفى قصرهما المنيف كابن متبنى وكأمير من الأمراء — بعد أن رده الله الى أمـه قبـلا لتقـر به عينها ولا تحزن ..

وعاش موسى فى رعاية فرعون مصر ما شاء الله أن يعيش ، ونشأ فى أعظم بيت لأعظم شعب فى الأرض وأرقـاه تشريعـا وعلمـا وحـكمة وفنـا وصناعة .. ، ثم .. أقدم على قتل نفس ، وهرب تاركا مصر وأهله من بنى اسرائيل فيها حتى عاد برسـالته .. وبعد أن تلقى العـلم الأنى من الله العزيز العليم الذى تجلى عليه وكلمه تكليما ، وقال له :

((انى أنا الله لا اله الا أنا فاعبدنى ، وأقم الصـلاة لذكرى ، ان الساعة آتية أكاد أخفيها ..))

وبهذا علم الحق رسوله موسى ما لم يكن يعلم ، وهداه الى حقيقة

الوحدانية المتسامية وأمره بعبادته وان يقيم الصلاة لذكره سبحانه وتعالى ، ثم هداه الى معرفة حقيقة ثابتة أخرى هى البعث ..

وأرسل الله موسى الى فرعون ، ليسمح لبنى اسرائيل بالخروج ، وارسالهم معه الى حيث شاء لهم الله أن يستقروا ، وسأله أن يكف عن تعذيبهم ..

تلك حقيقة أتينا على وصفها من قبل .. وعرف الجميع خلالها فترة الصراع التى مرت بموسى وهارون أمام فرعون حتى كان أن خرج ببنى اسرائيل ليلا ، وتجاوز بهم البحر ، ونزل فى سيناء ..

وفى برية سيناء .. فى أرجائها الفسيحة حيث الصحراء المترامية .. وفى خلال تلالها الشامخة الشماء ، حيث الصمت والوحشة والهدوء .. بعيدا عن الناس .. عن العمران .. عن ضجة المدينة وصخبها .. عن بهرج فرعون وتعاليه .. عن قسوة أجناده وتجبرهم .. فى محيط الصفاء الخاشع والصمت الشاعرى ـ كان التجلى الأعظم ، وكانت ارادة الله ، التى رعت الخروج وحرسته ، حتى تم على أعظم ما يكون من الدقة والسلامة ، لتبدأ مع تمامه حقيقة رسالة موسى صاحب الرسالة الكبرى التالية لرسالة ابراهيم عليه السلام ..

لقد كان بقاء موسى فى مصر مستحيلا بعد ما كان ، وما حدث بينه وبين فرعون وسحرته ، وبعد الآيات التسع التى أتمها الله عليه ، وكانت مصدر رهبة وفزع للطاغية ومن تبعه ..

ومرجع استحالة البقاء فى مصر بعد سلسلة الانتصار ، هو تخبط فرعون واقدامه على ركوب مراكب الشطط ، فهو مرة يعتدى على قوم موسى ويفعل بهم أبشع أفاعيله ، ومرة يفكر فى القضاء على موسى نفسه ، ويأمر رجاله أن يتربصوا به وأن يقتلوه .

((فلما جاءهم بالحق من عندنا ، قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه ، واستحيوا نساءهم وما كيد الكافرين الا فى ضلال ..))

لقد كانت بداية العسف ، هى قتل أبناء قوم موسى ، ثم استحياء نسائهم ، ما كان لموسى أن يصبر على مثل هذا ، كما انه لم تكن لديه القوة المادية التى تصد عنه وقومه هذا الايذاء .. ومن هنا كان الظرف نفسه يوحى بضرورة الخروج ..

وثمة أمر آخر ، جعل فكرة الخروج تتم هى أن فرعون ركب رأسه .. وصمم على التخلص من موسى الذى يدعو الى اله آخر غير آلهة المصريين ، وهو بهذا يقلل من شأن فرعون ، لانه يعتبر نفسه ابن الارباب وسليل الآلهة ، وأن وجوده مستمد من وجودها فمتى زال سلطانها زال سلطانه ،

ودالت دولته لتقوم على أنقاضهادولة أخرى ، لها دين وعبادة ، ورب واحد لا صاحبة له ، ولا أبناء ، وليس لأحد مهما سما أو تعالى أن ينتسب اليه ..

« وقال فرعون ، ذرونى أقتل موسى ، وليدع ربه ، انى أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر فى الأرض الفساد .. »

من هنا .. ولصعوبة بقاء موسى وقومه مع فرعون فى بلد واحد .. وحتى لا تكون هناك مذابح واعتداءات وعدوان ، يحول مجريات الرسالة وصاحبها من هدف الدعوة الى محاولة صد العدوان .. كان الخروج من مصر كلها ضرورة حتمية ..

لقد طلب موسى قبلا من فرعون أن يرسل معه أبناء اسرائيل ولايعذبهم .. وهذا الطلب كان جزءا من رسالته ، ولكن فرعون أبى ، فلم يجد موسى غير البقاء والصمود ، ثم الجهاد ولكن .. الى متى ؟ !

اذا .. فمن اللازم أن يخرج .. أن يترك مصر كلها ، ليجد المكان الذى يظلله الامن والهدوء ليبدأ رسالته ..

وجاء موسى الأمر الربانى بالهجرة .. أتاه الأمر بالسرى ليلا ، فأطاع وخرج بقومه ..

فخروج موسى اذا .. لم يكن هربا من بغى فرعون ، بل هجرة بدين وعقيدة ، وبقوم أراد الله القادر أن يجعل الصالحين منهم أئمة هدى ، وحملة مشاعل الوحدانية الى الأمم جمعاء ..

« ولقد آتينا موسى الهدى ، وأورثنا بنى اسرائيل الكتاب .. »

فنحن هنا أمام رسول عظيم .. ورسالة كبرى .. ثم كتاب .. وقوم سوف يرثون هذا الكتاب لأن الله أراد لهم هذه الوراثة ..

فكيف اذا يتم هذا كله ، وفرعون حيث هو .. وحتى اذا زال سلطانه ومات .. أو اختفى .. أو غرق فى اليم فسوف يخلفه فرعون جديد يسير على نهجه وربما بأسلوب اشد نكاية وبطشا لينتقم من مصرع من سبقه ، وليؤكد لقومه أولا ، ولموسى بعد ذلك أنه لايحيد عن الخطة .. ولا يسلم لموسى بالسيادة التى يحتمها انتشار دعوته ، وقضاء ربه على سلطان أرباب مصر جميعا ..

من أجل ذلك .. كان الخروج ضرورة محتمة .. ضرورة أوجبها التخلص من فرعون ومن سيرثونه ، والتحرر من طغيانهم ثم .. التفرغ للرسالة نفسها ..

ولما كانت رسالة موسى ذاتها لم تتم ، ولم تستكمل مقومات وجودها ــ فقد كان من اللازم أن يكون هناك جو هادىء ، تجد فيه الرسالة

مجالها لتنفذ الى قلوب مطمئنة ، لا يداخلها جزع ولا يرهبها خوف ، ولا ينتظر أصحابها أن ينزل بهم غضب الطاغية حين يشاء ..

وحين أقول ان رسـالة موسى الكبرى لم تكن قد تمت تماما حتى حادث الخروج ، فهذا حق ... لأن الرسالة شريعة وقانون ، وما نزل على موسى لم يكن أكثر من تنوير لذهنه ورسالة خاصة به ليعرف الله القادر ، ويؤمن بوحدانيته ، وينادى بها ويهيىء لها النفوس ، حتى تتفتح وتهفو ، فيمن الله بالشريعة الكبرى ، ويبدأ دور اعداد حملة مشـاعل الجهاد والدعوة الى الله ..

فخروج موسى اذا .. كان هجرته من أرض الى أرض .. ومن وطن الى وطن .. كما كان خروجا بالدعوة نفسها من مجرد الدعوة الى الاقرار بالوحدانية ، الى مرحلة جديدة .. هي مرحلة التشريع لبنـاء مجتمع جديد يخضع لشريعة الله ، وأمر الله ونواهيه ، دون أن يتقيد بأوامر فرعون أو أى ملك أو صاحب سلطان ، له قانونه وشريعته ، التى استوحاها من وجوده ومن سلطان أربابه وجماعات الكهان الذين يروجون لكل هذه الضلالات ..

وتمام الهجرة ونجاحها .. وخروج أصحابها الى مهجرهم الجديد .. هو بداية المرحلة التى أرادها الله .. مرحلة الاعداد للقيام بحملة الغزو الفكرى بالشريعة السماوية الجليلة ، لانارة العقول بنور الله ونشر الوحدانية بين الناس أجمعين ..

واحس قوم موسى بالخوف والرهبـة ، وقد استقر بهم المقـام فى مهجرهم الجديد .. وراعهم ما رأوا لأول وهلة .. صحراء مترامية .. رمال لا يحدها الطرف .. لا ماء ولا خضرة ، ولا زرع ولا ضرع ..

وملأت الرهبة القلوب الجازعة الوجلة .. وتصوروا الهلاك والموت .. وراحوا فى ذعر يسـائلون أنفسهم : كيف خرجنا ، ولمـاذا أطعنا موسى وسرنا وراءه تاركين الجنات والأنهار والحدائق والكروم والراحة والثراء الى هذه البرية الجدبة ..

وعمى على بصائر القوم أنهم انما كانوا يجتازون تجربة خطيرة ، وانه يجب عليهم ان يصبروا وأن ينتظروا وأن يتمسكوا بعقيدتهم ، ويلتفوا حول موسى وربه ، الذى نجاهم ..

ولكنهم عتوا ، وضلوا ، وخرجوا على جادة التعقل والصـواب . . وماذا كان بوسعهم أن يصنعوا غير أن يتبعوا موسى الى حيث أراد أن يصل بهم ..

وطال المسير بالخارجين ... وبدأت الشكوك تغمر قلوبهم .. وراحوا

يسائلون أنفسهم .. الى أين ؟! وهل ترانا سنجد مثل الجنة التى خرجنا منها ؟ !

وبدأ الشك .. وبدأ التساؤل .. وراح قوم موسى يدورون حول الحقيقة الثابتة ، وكأنما أرادوا أن يصح الشك ، وأن تغلب الظلمات مواكب النور ..

وضلوا .. وتمردوا وهم عبيد الأمس .. وتطاولوا .. حتى لقد نسوا أمسهم وشأنهم الذليل .. ونسوا ما أسلفه موسى معهم من أيادظاهرات ..

عرف قوم موسى رسولهم الكريم .. عرفوا موسى على حقيقته .. وعرفوا أنه مرسل من لدن عظيم قادر ، شديد البطش والعقاب ، ورغم علمهم هذا ، ويقينهم من مقام موسى وصدق رسالته — كبر عليهم أن يهتدوا بعقولهم ، ووجدانهم وقلوبهم الى الله ، وحلا لهم أن يبقوا فى تيه الحيرة والشك والتساؤل ..

وما فكر عاقل من بنى اسرائيل فى أمسه الذليل ، ولا هو تطلع الى غده المرجو الذى مهد له موسى بهجرته الكبرى بهم ، وخروجه من أرض مصر . !!

أبدا ما فكروا فى غد ولا مستقبل ولا حياة رغدة كريمة يعيشون مكرمين كسائر الناس ، **بل شغلوا أنفسهم بما لم يكن من حقهم أن يشغلوا** أنفسهم به ، وراحوا يثقلون على موسى فطالبوه بأن يصنع لهم أربابا .. آلهة من الحجر شأنهم فى ذلك شأن عبدة الصنم .

وأسرفوا بعد هذا فى تدللهم على موسى وقالوا له انهم لن يصبروا على طعام واحد .. ((**.. فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفولها وعدسها وبصلها ..**))

ثم تطاولوا بعد هذا ، فطالبوا موسى أن يريهم الله جهرة ، فأخذتهم الصاعقة !!

ثم تدنوا ، وانحطت بهم المدارك ، فاتبعوا سبيل السامرى ، واتخذوا العجل الها لهم عبدوه !!

وطالما ذكرهم موسى بآيات الله وعظيم مننه ، وأراد لهم الهدى ، فكانوا كما أرادت لهم قلوبهم الشريرة ، عصاة بغاة ، عادين ، وأبوا أن يمتثلوا لأمر الله ويذعنوا لتوجيه رسوله الذى قال لهم :

((اذكروا نعمة الله عليكم ، اذ أنجاكم من آل فرعون ، يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ، ويستحيون نساءكم وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم ...)) !!

فنسـوا أمسـهم الذليل ، ونعمة الله عليهـم ، وتمردوا ، وظنوا أنهم ما داموا قد خرجوا من قبضة فرعون وقومه ، وفروا من سلطانهم ، فقد أصبحوا أحرارا يفعلون ما يشاءون ، ويعبدون ما تهوى أنفسهم ، وانه ليس لأحد عليهم من سلطان ..

ولكن موسى لم يتركهم الى غيهم .. وعاد يخاطبهم بالحسنى ليردهم عن الضلال ، فقال لهم :

« واذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ، ولئن كفـرتم ان عـذابى لشديد ... »

ولكنهم تمادوا فى كفرهم وضلالهم وعتوا وتنكبوا عن الطريق المستقيم ، ومرة أخرى عاد موسى يقول لهم :

« وقال موسى ان تكفـروا أنتم ومن فى الأرض جميعـا فان الله لغـنى حميد ... »

والله الحق القادر الغنى — غنى عن عباده أجمعين ولكن .. ولكن حكمة خلقه اياهم ، وتوريثهم هذه الأرض واستخلافهم عليها تقتضى أن يعبدوه ، وأن يقدروه حق قدره ، ومن هنا كتب عليهم الايمان به ، والاقرار بوحدانيته والخضوع لأمره ..

ذلكم ما كان يجب على قوم موسى أن يعرفوه ، وأن يؤمنوا به ..

فبعث موسى فيهم كان لحكمة .. ثم صراعه مع فرعون وجداله كان لحكمة ثم تبييت الشر لقوم موسى وقتل أولادهم واستحياء نسائهم ، كان لحكمة .. ثم تفكير فرعون فى قتل موسى .. كان لحكمة .. والحكمة هى اتمام الخروج الى المهجر .. وهذا الخروج فى ذاته حكمة الحكم جمعاء ..

لقـد كفر القـوم ، وضلوا ، وعبدوا العجـل .. ثم تابوا وأنابوا وندم الصالحون منهم على ما كان ، وبدأوا يعدون أنفسهم للدور الجديد الذى مهد له موسى بأن تخير منهم أولا أربعين رجلا لميقات ربه .. ثم قسمهم بعد ذلك اثنى عشر نقيبا ، ليكون كل نقيب منهم مسئولا عمن معه من الناس يعلمهم ويثبتهم ويرشدهم ...

وبدأت حكمة الخروج تبين .. لقـد أراد الله أن يكون رسوله موسى ، معلما هاديا ، يعد الهداة ، ويثبتهم ويرشدهم ، ويلقنهم شريعة الله .. ليكون هؤلاء رسل الهدى ، رسل النور بالدين القيم ودعوة الوحدانية ..

ولقـد أعد موسى نقبـاءه ، وأتبـاعه .. وتلامذته ، وبقى ما سـوف يعلمهم اياه ...

وهنا تتجلى حكمة الله ، وحرصـه على أن يكون بينه وبين القـوم عهد

وكتاب .. فلم يبلغ رسوله موسى رسـالته مشافهة ليلقنها قومه مشافهة ثم .. اذا ذهب موسى ذهبت معه الرسالة وقال القوم ، ما ضللنا ولكنا لم نجد ما نهتدى به !!

لا .. لم يرد الله هذا .. وأراد أن تكون الرسـالة الكبرى الثانية ـ رسالة عهد وكتاب مسطور .

« وكتبنا له فى الألواح من كل شىء موعظة وتفصيـلا لكل شىء فخذها بقوة ، وأمر قومك يأخـذوا بأحسنها سأريكم دار الفاسقين ، سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق ... » .

ومن هنا .. وأمام عودة موسى من ميقات ربه يحمل الألواح .. وجد الناس أنهم أمام كتاب مبين .. كتاب مسطور .. سجل يحوى كل شىء .. فيه الأمر بالعبادة ، وبأن الله واحد أحد ، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد .. ثم بتوجيهات وارشادات تضمن قيام عالم مستقر يدين بفضائل ومثاليات لم يكن للناس بها من عهد قبل أن يأتيهم كتاب الله !!

ووجد قوم موسى انهم أمام شريعة مكتوبة .. أمام كتاب كريم مسطور فى الواح ، ما كان لهم أن يخرجوا عنها أو يخالفوها . أو يتعدوا حدودها ..

وهنا .. ومع الواح موسى .. عرف الناس وصايا الله .. عرفوا الوصايا العشر .. أساس العبادات ..

تلك الوصايا ـ التى ذكرناها قبلا ـ أصول الكتاب .. ودعائم الشريعة .. وأصل الديانات جمعاء .. ضمنها الله الألواح التى حملهـا موسى الى قومه ، وأراد الله أن يرثها وأن يحملها بعد ذلك بنوا اسرائيل ...

ولقد حفظ بنو اسرائيل الألواح بعد موسى .. حفظوها فى تابوت عهد الرب .. وتوارثوها جيلا بعد جيل حتى حفظها **سليمان الحكيم** اخيرا فى هيكله الذى بناه للعبادة ..

وتولى عهد سليمان .. وورث رحبعام ملك ابيه سليمان الحكيم .. وبدأ الملك يتصدع لأن قوم موسى خرجوا على الشريعة ، ونكثوا العهـد وتنكروا لأحكام الكتاب وأوامره ، وهى عهد ثابت بينهم وبين الله ، فأخذهم بذنوبهم ، وسلط عليهم من لم يرحمهم .

وهاجم شيشنق فرعون مصر بلادهم ، ودخل معبدهم ، وحمل مافيه من نفائس رائعة ، وآثار عظيمة ، جليلة الشأن لاشك أن تابوت العهـد كان من بينها وفى داخله ألواح موسى عليه السلام .

ذلكم كان الكتاب الأول .. العهد الأعظم .. والشريعة الكبرى التى دونها الله فى ألواح لتكون شاهد عدل على الناس ان هم خرجوا عليهـا وكفروا بما آتاهم الله به .

ذلكم كان الكتاب الأول الذى اختفت أصوله مع مغرب أمجاد ملك سليمان الحكيم والذى سيق حملته بعد ذلك الى الأسر البابلى مجردين من كل ما كان لهم .. اذلاء مشردين مستعبدين مرة أخرى ، وقد زال وجودهم من حيث كانوا .. وعلى انهار بابل وهم فى قيود العبودية التى كتبت عليهم ـ جلسوا يبكون ماضيهم ، ويذكرون زلاتهم الكبرى ، وتطاولهم وعصيانهم المقيت وراحوا يصوغون المراثى البكائية العديدة و .. فى نفس الوقت فكروا فى جمع ماتذكروه من الوصايا العشر ..

لقد تذكروا الكتاب فى محنتهم ، واسرهم .. فحاولوا جمع اصوله ، وعمده التى قام عليها .. ثم أوحت اليهم الذلة والمهانة ، بالتطاول والجراة والتخيل ، فكتبوا بيد العبد المقيد ، وعقل الأسير الراسف فى قيود المهانة ـ ما شاء لهم الخيال ان يكتبوه !!

هذا امر لسنا فى مجال نقاشه ولكنا نقف امام حادث اختفاء الواح موسى من الوجود ونسائل انفسنا : هل أبلغ حملة الشريعة ما كلفوا بابلاغه !؟ أم بدد ورثة الكتاب كتاب الله وعهده ، واضاعوه ؟!

تلك كانت ماساة ، واى ماساة .. تهاون فى الابلاغ .. وتبديد للتراث .. واخفاء للأمانة عن اصحابها ..

فالكتاب كتاب الله ، لم يكن لاسرائيل فقط كما ادعوا .. بل كان للناس أجمعين ، ولكن اولئك الأشحاء بخلوا بما آتاهم الله ، واخفوه فى صدورهم وفى تابوت العهد ، حتى كان ما كان !!

وتبددت الواح موسى ..

وجرؤ ورثة الشريعة على الشريعة ، وتجاسروا على جلال ما حملوا ، وحرفوا الكلم المقدس عن مواضعه ، واشتروا بآيات الله ثمنا قليلا .. عروض الحياة الدنيا .. لأنهم كانوا اهل دنيا ، لا دعاة دين !!

وهنا نقول .. هل آتت هجرة موسى بقومه ، وخروجه معهم الى حيث شاء لهم الله ـ هل آتت هذه الهجرة ثمارها المرجوة ؟ !

دون شك لا .. وكانت النتيجة أن تبددت الشريعة واصبحت قراطيس يبيعها الكتبة والفريسيون لكل راغب ، ليحققوا له ما يشاء ، ولو كان فى هذا خروج اى خروج على كتاب الله ..

((وما قدروا الله حق قدره ، اذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شىء ، قل : من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نورا وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا ...))

وجاء عيسى ... جاء مسيح الله عليه السلام ، ليقوم الناموس ويعيد الكتاب ، كتاب الله الى أصله .. وجلس على كرسى موسى عليه السلام .. وراح يقوم ، ويصحح .. ويعلم من بعثه الله اليهم من بنى اسرائيل ليعد الصالحين منهم ليقوموا بالدور الذى أراده موسى لبعض الصالحين ممن تابعوه وآمنوا به عن حق وصدق وايمان عميق !!

وبرغم أن الله أرسل عيسى رسوله الكريم ، ونبيه السمح الطيب الى بنى اسرائيل ، ليحل لهم ما حرم عليهم ويعيد الكتاب الى أصله — الا أن بنى اسرائيل ، كانوا على العهد بهم .. لم تغيرهم الايام ولا الأحداث ، وبرغم أنهم كانوا يرسفون فى الذل وفى المهانة ، ويعيشون نفس الحياة التى كانوا يعيشونها من قبل فى ظل فرعون — الا أنهم تكبروا وتجبروا وأبوا أن يؤمنوا برسالة مسيح الله ..

وظل السيد المسيح عليه السلام حيث شاء الله أن يكون .. وبقى مكانه على كرسى موسى ، يعلم ، ويعد طليعة الهداة الذين كان عليهم أن ينشروا الوحدانية بين الناس ..

وقوم عيسى عليه السلام الكتاب ، ونقاه من الشوائب والادخالات ، ثم .. رفع مسيح الله الى سماء ربه ، وترك الشريعة للحواريين ، صافية ، كما أرادها وأنزلها الله ..

وخرج الرسل يبشرون بالكتاب .. بالعهد الأعظم .. وارتفعت الأصوات القوية تنادى مرات ومرات بما نادى به من قبل نوح وهود وصالح ويونس وشعيب وابراهيم وموسى وعيسى ..

وأصغى الضالون الى الشهادة المنجية من عذاب الله .. أصغوا الى أصوات الهداة تدعو الى الله ، والى الشهادة بأنه لا اله الا هو وحده بلا شريك ولا صاحبة ولا ولد .. ثم ..

ران الجشع مرة أخيرة على العقول ممن ورثوا الشريعة ، فعدوا على جلالها ، واجترءوا على قداستها العظمى .. ثم .. ومرة ثانية تبدد الكتاب .. وضاعت أصوله تماما كما ضاعت ألواح موسى ووصاياه كلها .. واتبع الناس الأهواء ..

وخيم الظلام مرة ثانية على دنيا الناس .. وتخبط العقل البشرى

فى دنيـا الضلالات ، وانجه الناس مرة اخرى الى الحجارة يعبـدونها والكواكب يسجدون أمامها ، وتمادوا فى الشرك ، واستحبوا الضلالات ، وراح كل طرف من أصحاب الكتاب يطعن فى صاحبه ، ويقول انه ليس على دين!!

* * *

وجاء النور الى عالم الظلام .. وأشرقت رسالة محمد عليه الصلاة والسلام .. وارتفع صوته ينادى بما نادى به من قبل سائر الرسل الكرام .. نادى بالوحدانية .. بأن للكون الها حقا ولكنه .. اله واحد .. بلا صاحبة ولا شريك .. ولا شفيع على بابه ..

علا صوت محمد يقول لعبدة الحجر من قومه الضالين الكافرين لا اله لهذا العالم غير الله .. ولا رب للناس جميعا غير الله الواحد الأحد القادر الباسط الخافض الرافع العزيز الحكيم الوهاب ..

((وعجبوا ان جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هـــذا ساحر كذاب ، أجعل الآلهة الها واحدا ، ان هذا لشيىء عجاب)) !!

وكان التكذيب والجدل ثم الجهاد .. ثم الهجرة من ديار الكافرين الى حيث شاء الله .. الى يثرب موطن عز الدعوة ومجال انتشار الدين ..

وفى يثرب وجد محمد عليه الصلاة والسلام عزته ومنعته وفرصـته المواتية ، لا لنشر الدعوة فحسب .. بل لتدعيم قضية الصراع بين الحق والضلالات جمعاء .

وعرف محمد عليه الصلاة والسلام كيف يوجه تيار الحوادث فى صفه وصف دعوته .. ملبيا أمر ربه :

((ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتى هى أحسن ان ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله ، وهو أعلم بالمهتدين)) .

وانتشر الاسلام فى يثرب ، مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم .. وقويت شوكة الدعوة .. وبدأ محمد يخرج من حصنه المنيع ، ليهاجم أعداء الله ، ويرهبهم ويريهم أن الاسلام أصبح قوة عليهم أن يخشـوا بأسها ..

وعزت العشيرة .. وكثرت القلة المستضعفة ، وتآخى أعداء الأمس فأصبحوا أنصار الله ورسوله ، ووحدهم دين الله مع المهاجرين : فأصبح للمسلمين مجتمع موحد قوى يشهد بوحدانية الله ورسالة محمد ، ويؤمن بالبعث والنشور ، وملائكة الله وكتبه ورسله الكرام جميعا ..

أصبح المسلمين مجتمع قوى مرهوب الجانب .. **ومن هنـا بدات**

الرسالة تنحو منحى التشريع والتقنين وتنظيم شئون المجتمع الجديد ، اذ صار المسلمون فى شبه دولة ، لم يكن محمد عليه الصلاة والسلام رسولها وهاديها فحسب .. بل اصبح ايضا رئيسها الزمنى المسئول عن حكومتها وشعبها وكل من فيها ..

وتلك كانت ولا شك فترة الاستقرار والمنعة والعزة والجاه .. بل ، والسلطان الزمنى الذى يرعى السلطان الدينى ..

والسلطان الدينى الذى يهيمن على السلطة الزمنية .. وهى فترة تفرد بها محمد صلى الله عليه وسلم وحده ، ولم تهيأ أبدا من قبله لرسول من الرسل الكرام ..

لقد أصبح الاسلام دولة .. واصبح المسلمون رعايا مجاهدين .. وهذه فترة انتقال وطفرة فريدة فى تاريخ الرسالات ، فترة هى الاستقرار .. وهى الانطلاق الحر القوى نحو تدعيم الدعوة بكل وسيلة ، لنشر الدين والقضاء على الضلالات جمعاء ..

وهذا التطور ولاشك أصبح من اللازم أن يساير تطورا تشريعيا ، فالدعوة الأولى ، هى الوحدانية قد ثبتت دعائمها واصبح لها مجتمعها ، وصار من اللازم أن تقر الشرائع للمجتمع الكتاب .. ومن هنا تطور مفهوم الكتاب المكنون ، وبدا يأخذ وجهة تفرد بها ، بين جميع الكتب المنزلة ، حتى حق له أن يكون الكتاب الأوحد ، الجامع المانع ، الذى حوى بين دفتيه الشرائع السماوية جمعاء ..

***
****
****
****
****

الفرقان

((تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا ، الذى له ملك السموات والأرض ، ولم يتخذ ولدا ، ولم يكن له شريك فى الملك وخلق كل شىء فقدره تقديرا)) ..

(سورة الفرقان)

اختفى الكتاب الأول ، لا يدرى أحد كيف اختفى ، .. وضاعت معالمه يوم ضاعت صحف موسى والواحه ، وما عليها من آيات الله البينات .. ولم يدر أحد كيف ضاعت ، ولا من اضاعها واغتصبها على وجه التحديد واتبع الناس .. كل النـاس ، وفى جملتهم ورثة الكتاب أهواءهم .. واسلموا قيادهم للشيطان !!!

ورانت الظلمات على العقول من جديد ، وعلا شأن الادعياء من الكتبة ومن اليهم من صيادى المنافع ، هواة الجاه ، ولو على حساب الحق ، ودون وازع من ضمير ..

ومرت سنون بعدها سنون ، ثم كانت آية ميلاد السيد المسيح ..

لقد بعث الله كلمته ((عيسى)) الى بنى اسرائيل رسولا ليجـدد فيهم رسالة موسى ، ويقوم بدور اعداد الأئمة الهداة ، المبشرين بدين الله الحق من جديد ..

وبعث عيسى عليه السلام ، وهو الطفرة الداعية الى الكمال ، الهادفة الى تدارك الاخطاء ، واعادة كل شىء الى أصله ، وابعاد اللغو ، وغريب الادخالات على كتاب الله ..

وكان طبيعيا امام عظم الرسالة التى كان على السيد المسيح أن يقوم بحملها وابلاغها الى قومه من بنى اسرائيل أن يكون بعيدا عنهم بالفكر والعقل والتعليم ، فليس من المستساغ فعلا أن يهب عيسى نفسه للهيكل ، ويجلس فى مجالس العلم والمدارسة .. والكتاب الذى كان بين يدى الأحبار والكهان ومن اليهم كتاب حرفت كلماته ، فخرج نصا وروحا ومضمونا عن الشريعة وعن أصول الكتاب ..

فالسيد المسيح اذا ، لم يخالط أحبار قومه ، ولم يقرب كتابهم أبدا ، بل كان شأنه يوم أعدته القدرة لحمل رسالتها شأن غيره من الرسل الكرام .. استضاء وجدانه بنور الحقيقة ، واستنار عقله بأضواء الهدى ، وعلمه الله ربه الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل ..

ثم بعثه الله رسولا الى بنى اسرائيل .. رسولا بالهدى والحق ، فماذا قال السيد المسيح لورثة الشريعة وائمة الهدى ..

لقد عاد عيسى عليه السلام ، بقومه جميعا الى الطور الاول من أطوار الدعوة الى الله ، فدعاهم الى عبادة الله !!

وعيسى رسول الله ، وصاحب الرسالة الكبرى الثالثة ، وحامل مشعلها والمبشر بها قومه أجمعين — حين يدعو بنى اسرائيل الى عبادة الله ، فهذا يعنى ولا شك أن هؤلاء الناس ، قد انحدروا فى منزلق الشرك والضلال ، وأنهم نسوا أصول الشريعة ، ولم يعودوا أهل دين سليم ..

((ان الله ربى وربكم فاعبدوه ، هذا صراط مستقيم)) ..

فدعوة عيسى عليه السلام ورسالته ، كانت تصحيحا للشريعة ، وكانت هى الصراط المستقيم الواجب اتباع مسالكه وسبله ، للوصول الى الكمال، والى مثالية الطاعة والخضوع ..

ولم يقل عيسى لقومه انهم كفروا وضلوا ، وانه لم يعد بين أيديهم كتاب يعودون اليه ، ويراجعون أصوله ونصوصه — لم يقل هذا أبدا ، ولم يرض أن يصدمهم بالحقيقة الدامغة ، بل ترفق بهم وقال لهم انه انما جاء ليقوم الناموس ، لا ليهدمه .. جاء ليتمه ويستكمله ويعيده الى أصله ، وفوق هذا جاءهم بالجديد من أوامر الله ، بما يوافق روح العصر وتقدم الافكار ..

فبعث عيسى والحالة هـذه .. كان تجديدا لرسالة موسى ، ونشره انجيله الذى أوحى اليه به ، كان يعنى ولاشك أن كل كتاب يدعيه الاحبار والكهان — غير الأنجيل — لا يعتد به أطلاقا ..

ومن هنـا .. وحول الكتـاب الجديد .. والتعليمات المستحدثة وما كان يدعيه الكتبة وغيرهم ، والأوامر السماوية والشريعة المفصلة — دار الجدل ، وثار التحدى .. ثم كان العداء السافر الرهيب ..

فاذا قلنا أن انجيل عيسى قد جب ما كان يدعيه الاحبار ومن دونهم.. وانه الغاه الغاء تاما ، لان الانجيل كان نشرا قدسيا جديدا للكتاب الاول .. ولالواح موسى الأصيلة وما كانت تحويه من أصول الحكمة والمبادات — اذا

قلنـــا هـــذا .. وهو قول يؤكده نزول الانجيل وما جاء به الانجيـــل .. ثم دعوة عيسى لبنى اسرائيل أن يعبدوا الله — لامكن على ضوء هذا القول أن نقول أن القوم ، بوضعهم وعملهم أيام بعثة عيسى — لم يكونوا على دين ، وانهم إنما كانوا يتبعون الهوى الذى يستند الى رواسب قديمة كانت لم تزل عالقة بالاذهان من أصول الكتاب الحق ، والالواح المطهرة ..

((كان الناس أمة واحدة ، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين ، وانزل معهم الكتاب بالحق ، ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه)) .

فانجيل عيسى عليه السلام — كان الحكم الفيصل ، وكان هو كتاب الله المنزل الذى كتب على بنى اسرائيل أن يؤمنوا به . وان يلتفوا حول رسولهم ليعلمهم دينهم الحق ، وشريعتهم المطهرة . بعد أن نقاها الانجيل من الشوائب والادخالات ...

وجلس عيسى كما قالت على كرسى موسى ، وراح يعــد العقول للثورة الدينية الجديدة ، الهادفة الى تصحيح القديم الأصيل ، واعادته الى حقيقته .. وأخذ فى ذات الوقت مكان المعلم العظيم الذى كان عليه ان يعــد طلائع الثورة الفــكرية الدينية ، لتخرج بالناس من ظلمات الجهل والتردى ، الى مجالات النور ، والرقى ..

وأدى السيد المسيح عيسى بن مريم دوره بــكل امانة .. وكان المعلم القوى الحجة ، الذى استطاع بأساوبه الحكيم ... وحكمه التى استخلصها من كتاب الله أن يصل الى اعماق القلوب ، فطبع فيها صورة الحق المبين ، وجعلها تؤمن به وتتمسك بتعاليمه ، وتعتبره عقيدة راسخة ، الجهاد واجب من اجل نشرها ، فهو حياة للناس كما اراد الله أن يكون هؤلاء الناس !!

وأكمل المعلم تعاليمه .. وأبلغ رســالته .. واعــد الطليعة المؤمنة .. الطليعة التى أعد موسى من قبل مثلها ولكنها أدبرت واستكبرت وعصت ، وتحولت عن الهدف ، وتنكرت للجهاد فى سبيل الله وراحت تجاهد فى سبيل المظهر والجاه والثراء والسلطان ..

أعد عيسى الطليعة ، حاملة الكتاب الحق ، الذى جب الكتاب الذى سبقه ... ثم وبعد ان رفع عيسى وقفت الطليعة القوية ، مــوقف المعتز بما كان يحمل ، المؤمن بما لديه المنكر لما بين يدى الغير ثم .. فصلت هذه الطليعــة بين العهدين .. بين الكتاب المفترى الذى كان يحمله الأحبار وكتبه لهم عزرا قبل ذلك بمئات السنين وبين انجيل عيسى الذى أوحى اليه به ..

وســارت الطليعة المؤمنة منطلقة تبشر بــكتاب عيسى .. بالانجيل .. وبرئوا من بنى اسرائيل فمركزهم الى كتابهم الذى حرفت آياته ، وبدلت فيه الأهواء ماشاء له التبديل .. واطلقوا على انفسهم اسم رسل السيد المسيح!!

ودار الفلك دورات ودورات ثم قامت الثورات الدينية المتعـددة .. وانقلب أصحاب شريعة الانجيل على بعضهم بعضـا ، يشـــكون فى هذا ، ويعارضون ذاك ، ويتهمون الآخر والرابع والعاشر بالجراة على أصل الكتاب السماوى ..

ومرة ثانية .. ودون تعرض لغزو ... أو اجتياح او اغتصاب نفائس لها قيمتها **ضاعت اصول الكتاب الثاني ، وتبددت حقائقه ، وطمستها ادخالات وتخريجات وآراء ما أنزل بها من سلطان ..**

وبدا الشرك يتسلل الى جوهر العقيدة الأصيلة فى موكب المظهريات ، واذا بالأمس البعيد يتجدد مرة ثانية ، وكما قال اليهود أن عزيزا ابن الله — كذلك اجترا حملة الانجيل وادعوا ان عيسى ابن الله ..!!

وجاء محمد بعد ذلك برسالته .. جاء محمد بنوره ونور الله ، ليبـدد الظلمات .. جاء ومعه الكتاب .. جاء ومعه صحف ابراهيم والواح موسى ، والاتمام الذى قوم به عيسى الكتاب الأصيل ..

جاء محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالفرقان ... الفرقان الذى فرق بين الباطل المدعى .. والحق الأصيل .. والقى أضواءه على الحقيقة التى توارت فى ظلمات العقول وخيمت عليها الجهالات ..

جاء رسول الهدى والحق ، وامام المرسلين فى وقت ماكان اشوق العالم فيه الى بعثته وهداه ..

جاء محمد فى وقته .. وبعث فى مـكة .. فى قـوم هم جيران بيت الله الحرام ، ولكنهم جعلوا البيت العتيق ، بيت اصنام وحجارة يتوجه اليهـا الناس بالقلوب والبصائر والأرواح يتلمسون بركاتها وهداها ...

جاء محمد صلى الله عليه وسلم ... والفرقان فى يمينه .. وكلمات الله فى فمه ، ينطق بها فتهدم الشرك من اصوله ، وتقوض الضلالات .. كل الضلالات

جاء محمد بالحق مأمورا بالابلاغ حيث أمره ربه على لسان الروح الأمين ان يقرأ : ((**أقرا باسم ربك الذى خلق ...**)) والموحى بقراءته هو **القرآن** .. هو **الفرقان** .. هو **الحكمة** .. هو **التنزيل** .. هو **كتاب الله** الحق ، مجـدد وناشر لواء وأصل الشرائع والديانات جمعاء ..

وقرأ محمد .. وأصغت قريش العاصية .. وابلغ الرسول امر الله حيث قال له :

((قل هو الله احد .. الله الصمد .. لم يلد .. ولم يولد .. ولم يكن له كفوا احد)) ..

وضجت قريش وتأذت ، وتساءلت ما هـذا الذى نسمع .. وجاءها الجواب انه الفرقان .. كلام الله الذى يفرق بين الحق والباطل .. ويهـدى الى الرشد .. ينير للعالمين كافة ، طريق العودة الى الله ..

وعرف الناس انهم أمام كتاب مبين .. امام الحق الصراح ، فراحوا برغم زيغهم ينصتون الى ماجاء فيه من آيات محكمات .. هى البلاغة .. ولكن انى كان للبلاغة ان تدانيها .. هى السحر ولكن .. ابدا ماعهد الناس السحر على مثل هذه الصورة من صور الروعة والاتقان والجمال ..

وقال قائلون ، كهانة .. وما كانت الآيات البينات كهانة .. وتجرأ آخرون فقالوا شعرا .. وحاشا أن يكون الذكر الحكيم هو الشعر المقفى القائم على المبالغات !!

اذا ما هذا ؟ !

هو الفرقان .. هو الحق مصدقا لما بين يدى أهل الكتاب ، من الحكمة والكتاب ..

ووضع سفهاء مكة اصابعهم فى آذانهم كى لا تأخذهم روعة السحر ، أو يعبث جماله بعقولهم ، ولكنهم وجدوا أنفسهم يصغون برغمهم ..

هذا قول فصل ولا شك .. ليس بالسحر ولا بالكهانة .. فما هو اذا ؟ !

اهو كما يقول محمد كلام الله ؟ !

تلك كانت غرائب اعجازية ، فما سمعوا من قبل مثل هذا الحديث ، حتى لقد تجرأ سفيه منهم فقال : ((**أساطير الأولين**)) !!

ولكن ... كيف عرف محمد هـذه الأساطير ، وكيف وصـلت الى علمه .. ومن علمه اياها .. ؟ !

انها حيرة .. وانه لاحساس بالعجز والقصور عن الادراك ، فما هذا الذى كانت تسمعه قريش وبعض الأحياء ، والقرى التى تجاورها !!

انهم يعرفون هبل .. وقد وجدوا آباءهم له عابدين .. ورثوا عـن الآباء هذه العبادة .. والآباء ، أبدا ما كانوا على باطل ، ولا هم احبوا الزيغ والضلال ..

ولكن هذا الفرقان ، يجرؤ فيقول ان سادات العرب على ضلال ، وانهم يتبعون الظن ، وان ((هبل)) العظيم ، اله قريش وحاميها ، ورب الآباء والأجداد ـ أكذوبة كبرى ، .. ومجرد اسم أسموه .

واللات .. والعزى .. ومناة .. انها أيضا اكاذيب .. ومجـرد أسماء ..

((أفرأيتم اللات والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى ، ألكم الذكر وله الأنثى .. تلك اذا قسمة ضيزى .. ان هى الا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ، ما أنزل الله بها من سلطان)) !!

وبرغم المكابرة والعناد ، أحس سفهاء مكة أنهم امام حق وقوة ، وعقيدة وايمان ، فأصغى البعض ليتذكر ويعى ويفهم .. وأصغى البعض الآخر ليمتلىء بالحقد قلبه ، ويزداد كراهية للدعوة وصاحبها ومن تابعوه عليها ..

لقد جاء محمد بما لم يأت به الأوائل أبدا .. جاء بالقول الحق .. بالفرقان العظيم الذى لم يفرق بين الحق والباطل فحسب .. بل فرق بين الابن وأبيه .. وفرق بالحق أيضا بين العشيرة .. وسفه الأحلام بقول جرىء هو الصدق البين الذى لم يستطع الباطل أن يرقى اليه حال من الأحوال .

وتفتحت الأسماع على المعجز المثير .. وعرف الناس جميعا أن محمدا يدعو الى الله .. وتساءلوا .. أى اله هذا .. وما هى صفاته .. !!

وألجمهم الفرقان .. وأسكتهم صدقه ، وروائع منطقه ، وقوة اقناعه وعرفوا أن الله ليس كمثله شىء ، وهو السميع العليم .. وإنه هو الله الواحد ، الفرد العظيم المتعالى .. الأول بلا ابتداء والآخر بلا انتهاء .. الموجود الدائم ، والحى الذى لا يموت ..

هو الأول حيث لا أول قبله .. وهو الآخر حيث لا آخر بعده .. هو يحيى .. وهو يميت .. الباسط .. المهيمن المتجبر .. فالق الاصباح القادر على أن يجعل الليل سرمدا ..

بيده الملك والملكوت .. رب السماء ورافعها بلا عمد .. وبديعها ومبدعها .. رب الارض وباسطها وممهدها ، الذى أرسى فيها شم الجبال لتكون أوتادا .. مرسل الرياح لواقح ومعصرات .. ومسير السحاب بأمره وارادته .. ومنزل الماء من السماء ليخرج به من الأرض حبا ونباتا ..

وهو بعد هذا كله القابض المصرف الذى يرث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين ..

على هذه الحقائق الناصعة .. والدلائل الاعجازية على وجود القدرة ، فتح الفرقان عقول مجتمع قريش ، واليها نبه أذهانهم ، فوقفوا حيارى أمام روعة ما عرفوا ، يحسون بالعجز ويشعرون بالقصور ...

أبدا ما عرف مجتمع قريش قبل أن يخرج محمد بدعوته ورسالته الكبرى .. وقبل أن يؤيده الله الحق بآياته القوية الناصعة وهى الفرقان الحكيم .. أبدا ما عرفوا مثل هذا الذى عرفوه فروعهم وأعجزهم ..

لقد عرفوا من قبل ، كما عرف آباؤهم قبلهم : أن لهم أربابا يدعونها ويسألونها .. وأنهم يتخذونها الى الله العظيم زلفى .. عرفوا هـذه النصب ، وطالما سخر منها وجدانهم المؤمن بأنهم هم من صنعها ، ولكنهم كانوا يخادعون أنفسهم فنسبوا اليها القدرة ولكن .. أى قدرة .. والى أى مدى كانت تصل هذه القدرة !!

ما تصور أحد من سفهاء مكة ، ممن عارضوا محمدا وجادلوه بالباطل أن أصنامهم تخلق أو تصور ، أو تحيى ، أو تميت !!

بل لو حدث وسألهم سائل : من خلق السموات والأرض .. ومن أخرج المرعى فجعله غثاء أحوى .. ومن زين السماء بمصابيح هى الشموس والأقمار والنجوم : ((**ليقولن الله**)) ..

أجل .. انه الله .. لأن العقل البشرى مهما تدنى ، ومهما انحطت به المدارك ، وهبط مستوى التصور ، لا يجسر ان يدعى أن الصنم العاجز القابع فى باحة المعبد ، هو الذى صنع هذه الآيات !!

ذلكم كان لون من ألوان المعرفة السامية تفتحت عليه عقول مجتمع قريش ولكن .. هل آمنت به وصدقته هذه العقول !!

لقد صدها الكبرياء عن الايمان .. وحالت العصبية دون البصائر واشعاعات النور الصمدانية ، فعاشت الأفئدة برغمها فى الظلمات ، وهى تحن الى قبس من الضوء الربانى العظيم .. واستمر الرسول الأعظم فى طريقه يؤدى ما كلف به ، ويسير قدما فى طريق نضاله العظيم ليقطع المرحلة الأولى من مراحل رسالته الكبرى .

واذا كنت أقول : المرحلة الأولى من مراحل كبرى الرسالات السماوية فانى أقدر جيدا معنى ما أقول .. وأسارع الى الذكر الحكيم .. الى الفرقان الفيصل لأذكر أن المتتبع له ، ولظروف نزوله ، والمعانى التى دار حولها — يستطيع أن يقول أن جهاد رسول الله صلى الله عليه وسلم مع سفهاء قريش ، وغيرهم من الناس القريبين منهم ، أو المحيطين بهم — هو المرحلة الأولى من مراحل الرسالة الكبرى .. وهى مرحلة الدعوة الأولى وهداية المعنين فى الضلالات من عبدة الحجر ، الذين انحطت بهم المدارك، ورانت عليهم جهالات العصور ، وظلوا على بدائيتهم فى العبادة ، فكانوا يرون معبودهم فى صورة حجر صامت أصم هو من صنعهم ..

تلك كانت المرحلة الأولى فى طريق الجهاد .. وهى المرحلة المشابهة من كل الوجوه لرسالات ودعوات الرسل أجمعين .. المناداة ببطلان عبادة ما دون الله .. وان الله وحده هو المعبود القـادر الفعال لمـا يريد ، وانه ليس للعالمين من رب غيره ولا معبود سواه ..

والمرحلة الأولى من مراحل دعوة الرسول الأعظم ، محمد بن عبد الله ، حين نادى فى مجتمع قريش بأنه لا اله الا الله وحده بلا شريك وانه هو رسول الله البشير النذير ـ هذه المرحلة الأولى ، وان شابهت الدعوات المقدسة التى سبقتها ـ الا انها تفردت وتميزت وتبدت فى هيئة لم يكن لها من شبيه كامل او نظير بين الدعوات !!

لقد حددت الدعوات هدفها : ((**أعبدو الله مالكم من اله غيره ..**)) .. اى ان الدعوة نفسها كانت تدور حول الكفر بالصنم .. والعودة الى الله ، الذى يجزى عابديه ثواب الآخرة والأولى ويبطش بالكافرين العصاه .

والى الله دعا محمد .. والى الاعتراف بوحدانيته نادى .. ولكن الرسالة لم تقف عند حد الايمان بالوحدانية فقط .. بل تعدت الى بعد ذلك بمراحل ومراحل ..

لقد كانت دعوة محمد ، ذات فاعلية خاصة .. كانت دعوة حركية ، تنــادى بالايمان ، وتدعو اليه ، ثم تفتح للعقل البشرى آفاقا متسعة يدخلها ليتدبرها ، أو يفكر فيها ، أو يستسلم الى جلالها الناطق بقدرة الله الذى كان محمد يدعو الى عبادته ، ويقدم الدليل اثر الدليل على وجوده ..

لم تقف دعوة محمد بالدين عند بداية المرحلة التى ينظر فيها اليه على انه دعوة الى تسليم واستسلام بالغيبيــات ثم خشوع واسراف فى التعبد ، ثم زهد مطلق ، وبعد عن الحياة الدنيا وزخارفها وما حوت من نعيم ..

ابدا ما وقفت دعوة محمد عند هذه البداية .. ولا هى دارت حولها ، بل دعت الى تدبر ملكوت الله وما حوى ، وارشدت العقل البشرى الى حقيقة مكانته من هذه الدنيا ، وان العالم وما فيه ، ليس غير نعم من الله مسخرة لخدمة هذا العقل والعمل بارادته ..

ولم تغفل الدعوة العظمى وصف الحياة الدنيا ومباهجها ، وكيف ان هذه المباهج والزخارف والزينة تسير جنبا الى جنب مع الدين وتعاليمه وفى ظله ، وكيف انه يدعو الى الأخذ بها فى نوع من الاعتدال البعيد عن الاسراف الممقوت ، خشية ان يصرفه حبه للدنيا ومباهجها عن التفكير فى آخرته ، فيشترى الذى هو ادنى بالذى هو أبقى ويخرج بذلك على أوامر الله وحكمة الوجود .

كانت دعوة محمد تدعو الى تدبر آيات الكون ، والأخذ منها بنصيب ثم السير بها الى حيث اراد لها الله ان تكون .. وهنا يعنى انها كانت دعوة أخذ وعطاء ..

ولئن كانت الدعوات السابقة لدعوة امام المرسلين . قد اشارت عرضا الى ثواب الآخرة ونعيمها فان دعوة محمد ، قد اسهبت فى ذلك الوصف ، وفتحت للعقل البشرى مجالات التصور والادراك بما لم تعـرفه دعـوة من الدعوات ..

صورت دعوة محمد النعيم المقيم ، والعذاب الشـديد ، وفتحت باب التوبة للتائبين ، واغرتهـم بـكل ما يمكن أن تغـرى به عاصيا أو خـارجا أو خوانا كفورا ..

دعا الرسل جميعا من قبل الى الوحدانية .. وحاربوا عبادة الاصنام ، وحذروا المنكبين عليها ، المستمسكين بها ، من أهوال العذاب ... وحول هذه النقاط دارت دعوة محمد فى مرحلتها الأولى ، يوم خرج بدينه القويم على مجتمع قريش الجاحد الضال ولكنها دارت فى قدرة وروعة واقناع ..

لقد القى امام المرسلين على العقول الجامدة ، اضواء باهرة من المعرفة ، التى قربها فرقان الله ، وكتابه المبين ، فاوضح الوحدانية وجلا حقيقتها ، فقربت من العقل البشرى المتمرد فخضع لها ثم آمن بها عن صدق واقتناع وكراهية للجدل .

لقد وجد مجتمع قريش فى المرحلة الأولى من اطوار الدعوة ومراحلها ، مالم يعهده من قبل ، ومالم يكن له به من علم ولا معرفة اصلا ... فعـرف سفهاء مكة برغم معارضتهم للدين والداعى اليه مالم يكونوا قد عرفوه ، ومالم يتصوروه فى يوم من الأيام ...

عرفوا ان للكون الها واحدا ، قادرا ، متجبرا .. عظيما .. يخلق ولا يخلق ...

وتراجعوا امام الحقائق المجلوة الناصعة ، وقد أعجـزهم الرد وعادوا يتساءلون ... من أين لمحمد الذى عاش بيننا أن يعرف هذا كله .. وكيف وصل اليه هذا العلم الغريب عنا البعيد عن تصورات مجتمعنا !!

ومرة اخرى عادوا يتساءلون ! ولكن لماذا تخير الله محمدا بن عبد الله بالذات .. وخصه بالرسالة .. لماذا فضله على غيره من الناس ... لماذا لم يتخير الله عظيما من عظماء القرشيين !! رجلا ذا مال وجاه ونفوذ ، اذا تكلم أصغى الجميع اليه .. واذا دعاهم صدقوه وآمنوا بما يقول !!

اذا .. فلم تكن نقطة الجدل هى عدم الاقتناع بالحق الذى جاء به رسول الله ، بل كان محور الخلاف ان محمدا هو من اختصه الله بالرسالة .. وفى هذا ما يعنى مضاعفة الشرف والمجد لبنى هاشم الذين طالما كان لهم السبق على العرب جميعا فى كل مضمار !!

لهذا .. وبدافع من الغيرة والحسد والحقد ، وقف سفهاء قريش من

الرسالة الكبرى موقف المعارضة العاجزة التى لم يأبه لها محمد ولم يهتم بها ولم يقم لأصحابها وزنا فاستمر فى طريقه .. ومضى فى دعـوته والله معـه يؤيده بآياته وكلماته وفرقانه العظيم ...

وراحت الآيات الاعجـازية تترى ، لتسكت المتقـولين وتلجمهـم فـلا يستطيعون جدلا ولا نطقـا ، بل كيف كان لعقـولهم أن ترقى الى هـذه المدارك ، أو تجسر على الرد على فرقان الله الذى فرق بين حق محمد ودعوته، وباطل قريش وحقدها ، ومهانة أهليها الذين أحسوا العجـز واستشعروا القصور أمام كلام الله وكتاب الله ..

هذه الدعوة .. دعوة محمد .. دعوة غريبة المسلك .. انه لا يدعو الى الاقرار بوحدانية الله رب العالمين فقط .. ولا الى نبذ عبادة الأصنام فقط .. بل يدعو الى الايمان بالحياة الثانية !! بالبعث والنشور .. بالحساب والعقاب .. بالجحيم الأبدى ، أو النعيم المقيم فى جنات عرضـها السموات والأرض اعدت للمتقين المؤمنين بالله ورسوله ..

وهكذا استطاع الفرقان .. كتاب الله المكنون ان يعلم الناس مالم يكونوا به على علم .. وها هو ذا امام الرسل وخاتم النبيين يسير قدما لاتمام المرحلة الأولى من دعوته السمحاء ، فيقرأ الكتاب .. ويصغى الناس .. ويفعـل الفرقان فعله فى النفوس ..

والنفوس أمام الدعوة السمحاء صنفان .. صنف يميل ويلين ويستكين ويفىء الى ظلال الجنة .. وصنف يستكبر ، ويعرض ويتباعد .. وهذا مصيره الى الجحيم ..

ولكن .. هل يترك الفرقان الحق أولئك الضالين وما تمسكوا به من باطل وضلال !!

ان الفرقان هو الفاصل .. هو الحد الذى لا تتخطاه القوى مهما عظمت .. وانه للفيصل بين النور والظلام ولكن .. هل يقيم الفرقان سدا أبديا بين الضالين التائهين فى الظلمات وبين مشارق النور الأعم الوضاح ..

انه يأبى أن يتركهم حيث أرادوا لأنفسـهم أن تكون . . وانه بعـد هذا ليصر على أن يصـل قبس من أضـوائه الى تلك الغياهب فيجلوها .. وان رحمة الرحمن الرحيم لتسبق وعيده ، وتؤخر عـذابه ، وانه ليجادل الضالين بالحسنى ، ويضعهم أمام الاعجـاز الخالد ، الذى جاء به الفرقان فيقول لهم :

« أفلا ينظرون الى الابل كيف خلقت ، والى السماء كيف رفعت ، والى الجبال كيف نصبت ، والى الأرض كيف سطحت .. » !!

وامام هذه الآيات المعجزة ، يقف العقل البشرى حائرا عاجزا ، ويسائل نفسه .. هذه العجائب العظيمة الشماء لا يمكن أن يوجدها الصنم او ينشئها الحجر ، أو يحدثها أحد غير الله القادر على كل شيء ..

ويمضى محمد عليه الصلاة والسلام فى رسالته وادائها .. ويستمر فى ابلاغ دعوته العظمى ...

ولا تلبث أن تتفتح مع استمرار الدعوة آفاق بعد آفاق .. وعوالم من الفكر منيرة ، فسيحة رحبة ، بعد عوالم وعوالم .. فيقرأ الرسول الأعظم .. يقرأ من فرقان الله ، ومحكم آياته ، ويصغى المؤمنون ليزدادوا ايمانا .. ويتصامم الكافرون ليزدادوا كفرا وطغيانا ، لأن الله قد ختم على قلوبهم وعلى أسماعهم فهم لا يصدقون ولا يؤمنون ...

وتأتى دعوة محمد فى مرحلتها الأولى بمالم تأت به قبلها دعوة من الدعوات .. وانها بعد أن علمت مجتمع الكفار والمؤمنين مالم يكونوا به عالمين تمضى بهم الى الامام .. الى العلم والفرقان ..

لقد عرفوا .. سواء صدقوا .. أم كانوا من الضالين المكذبين .. أن للعالم الها واحدا ، بيده كل شيء وهو على كل شيء قدير .. وعرفوا ان الحياة الدنيا دار تحصيل ، وتوفير .. وانها معبر يعطى للانسان فرصة للتزود من الخير ، ليستطيع بما جمع من زاد الخيرات والحسنات أن يستمر فى السفر الطويل ليصل الى جنات الرضوان ، ويقى نفسه عذاب الخلد ، وجهنم التى أعدت للكافرين ..

لقد قرأ محمد فرقان الله .. وعن طريق ما قرأ وأبلغ ونادى به ، علم الانسان مالم يكن يعلم . ولكن .. هل أوى الضالون الى فيء الله وسارعوا الى مغفرة من ربهم ورحمة ؟ !

لا .. لا .. وان الانسان هو الانسان .. ذلكم الظلوم الكفار الذى يعرف ان الله غنى عنه .. غنى عن عبادته ، فهو ان عبد لن يغنى الله بعبادته وان كفر ، فعليه كفره .. ولكن الغفور ذو الرحمة ، يأبى الا أن يتداركه برحمته ورضوانه ، وانه ليقول له :

((يا أيها الانسان ماغرك بربك الكريم ، الذى خلقك فسواك فعدلك ، فى أى صورة ماشاء ركبك ، كلا بل تكذبون بالدين ، وان عليكم لحافظين ، كراما كاتبين ، يعلمون ما تفعلون)) !!

وهذه التذكرة الرادعة أيضا .. فيها علم جديد ..

أبدا لم تأت دعوة قبل دعوة الاسلام بمثل هذا .. ولا اسهبت رسالة سماوية فى سبيل هداية العقل البشرى بمثل هذا الاسهاب الذى جاءت به دعوة محمد ورسالته الكبرى الهادية الى الحق ، والى النور .. والى الواحد

الاحد الخالق المصور ، بديع السموات والأرض .. فهل كان هذا هو ماجاءت به فحسب ؟ !!

لا .. انها خاطبت العقل البشرى ، بكل أناة وصبر ، ورحمة ، واشفاق .. دعته بالحسنى .. وأسرفت فى العطاء .. وأجزلت فى المنح .. هدته الى الله .. واكدت له أنه لن يترك سدى ، يفعل مايشاء ويكفر كما يشاء ، بل وان الموت ليس هو النهاية ، بل بعد الموت حياة ثانية ، باقية خالدة ، وان أعمال المرء فى دنياه مسطورة ، مراقبة مدونة . بل ان أفعاله وأقواله كلهـا محسوبة عليه ، مسطورة ، مكتوبة فى كتاب ، وان الانسان مراقب وان عليه شاهدا ومشهوداً ..

((كلا ان كتاب الفجار لفى سجين ، وما أدراك ماسجين ، كتاب مرقوم ، ويل يومئذ للمكذبين ، الذين يكذبون بيوم الدين ، وما يكذب به الا كل معتد أثيم ، اذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين ، كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ، كلا انهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ، ثم انهم لصالوا الجحيم ، ثم يقال هذا الذى كنتم به تكذبون)) .

فماذا قال سفهاء مكة وكفار قريش بعد هذا .. قالوا انه سحر مفترى .. وقال اجراء آخرون .. انما يعلمه بشر .. وكذبوا .. وامعنوا فى الضلال والحق أمامهم ، والهدى نصب اعينهم ولكن .. كتب الله عليهم الا يروا المنهل العذب ...

وأبى الغفور ذو الرحمة ان يتركهم الى شياطينهم ، فعاد يدعوهم اليه بطريقة أخرى جديدة .. راح يذكرهم بمن سبقوهم من الامم .. راح يقص عليهم انباء عتاة ضالين ، كانوا أكثر منهم قوة وبطشا ، وقد جاءهم رسلهم بالحق والهدى والنور والفرقان فكذبوا ، وضلوا ، واتبعوا طريق الشيطان ، فأخذهم الله نكال الآخرة والأولى وجعلهم عبرة لمن القى السمع وهو شهيد وبرغم كل هذا .. هل آمن السفهاء ؟! هل اهتدى الضالون ؟! هل صدق المكذبون .. قال لهم تعالى وقوله الحق :

((كالذين من قبلكم كانوا أشد منكم قوة وأكثر أموالا وأولادا ، فاستمتعوا بخلاقهم ، فاستمتعتم بخلاقكم كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم ، وخضتم كالذى خاضوا ، أولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة ، وأولئك هم الخاسرون ، ألم يأتهم نبأ الذين من قبلهم : قوم نوح وعاد وثمود وقوم ابراهيم وأصحاب مدين والمؤتفكات أتتهم رسلنا بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون)) ..

لا ... ما آمنوا ، ولاهم اهتدوا ، وما كان لهم ان يصدقوا وقد ختم الله على قلوبهم ، وغابت عن بصائرهم حكمة التذكر والعبرة بالاحداث التى مرت بأمثالهم من الطغاة المكذبين .. وعبثا كان لأفئدتهم ان تعى حقيقة ما جاء به الفرقان العظيم ، يوم نزل عليهم بقصص الأولين ، وكيف كانت نهايات المكذبين الضالين ...

وعادوا يتقولون ... وكانوا على كثرتهم فى مكة الى جانب القلة الكبيرة من المؤمنين الذين وقفوا يناضلون ويلقون الايذاء والتعذيب والرهبوت فى صبر جميل وفى ثقة لا تتزعزع بان الله انما يمهل الظالمين ولكنه لن يتركهم أبدا ...

واستمرت الدعوة فى طريقها المرسوم ... وترك امام المرسلين مكة مهاجرا هجرته الصغرى الى ثقيف فلقيه سفهاؤها بأشد مما لقيه سفهاء مكة .. فعاد عليه صلوات الله وسلامه ، وهو أشد ثقة واقوى عزما .. وعلا صوته مرات ومرات يدعو الى الله .. الى الحق .. الى الهدى .. الى النور .. الى شهادة انه لا اله الا الله ، وان محمدا رسول الله ...

ما كان أشبه اليوم بالأمس البعيد ، الماثل الذكرى وان تولى وادبر ...

نفس الحوادث والأحداث .. نفس القلوب المتكبرة .. والأفئدة العنيدة .. نفس المكذبين الضالين .. و .. نفس الدعوة ..

« **ياقوم اعبدو الله مالكم من اله غيره ..** » قالها محمد ، ورددها وزاد عليها .. قالها كما قال نوح وهود وصالح وشعيب ويونس ولوط وابراهيم .. وزاد عليها بما يتمشى وضرورة استقامة الدعوة ، وحاجة الرسالة الكبرى ذاتها الى تلك الزيادة ...

لم يقل محمد « ياقوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره .. فحسب ؛ بل قال أيضا ، كما أمره ربه أن يقول :

« **قل هو الله أحد ..** » وهذه هى أصل الدعوة ، اما الزيادة التى تطلبتها الأوضاع وتجدد الظروف والمناسبات والحاجة الماسة الى ذلك التجديد فهى مانزل به الفرقان الفيصل بعد القول بالوحدانية والنطق بان الله أحد ، وقال : قل هو الله أحد .. الله الصمد .. لم يلد .. ولم يولد .. ولم يكن له كفوا أحد ...

ودواعى الجهر بصمدية الله ، وأنه لم يلد ، ولم يكن له كفوا أحد — هو اجتراء العقل البشرى الجاحد الظلوم على القول بان لله الواحد ولدا ..

ولما كانت للابن المدعى ، أم حملت به ، ثم ولدته ، كأى ميلاد عادى — فلابد وان تلتصق صفة القداسة بهذه الأم التى حملت ابن الله ، فهى والحالة هذه ، أم الاله الابن ، أى صاحبة الاله الأعظم ؟!

والله الواحد الأحد ، برىء مما أشركوا به .. وذلكم الاشراك جديد ولا شك فى دنيا العبادات ، فلم يظهر زمن رسالة موسى ، ولا اشارت اليه شريعته وألواحه ، ولم يكن أيام بعثة السيد المسيح عيسى بن مريم ، ولا يوم خرج برسالته الكبرى الثالثة ، ورفض الزعم الذى تقول به وروج له ..

ولكن هذا الادعاء كان بدعة كهنوتية وجـدت فى عقـول السـذج مرعاها الخصيب ، فانتشرت ، واستشرت ، واتبعت وتعاظم أمرها ، الذى أصبح مع الزمن حقيقة ولكنها حقيقة لا تقوم أبدا على أساس ! !

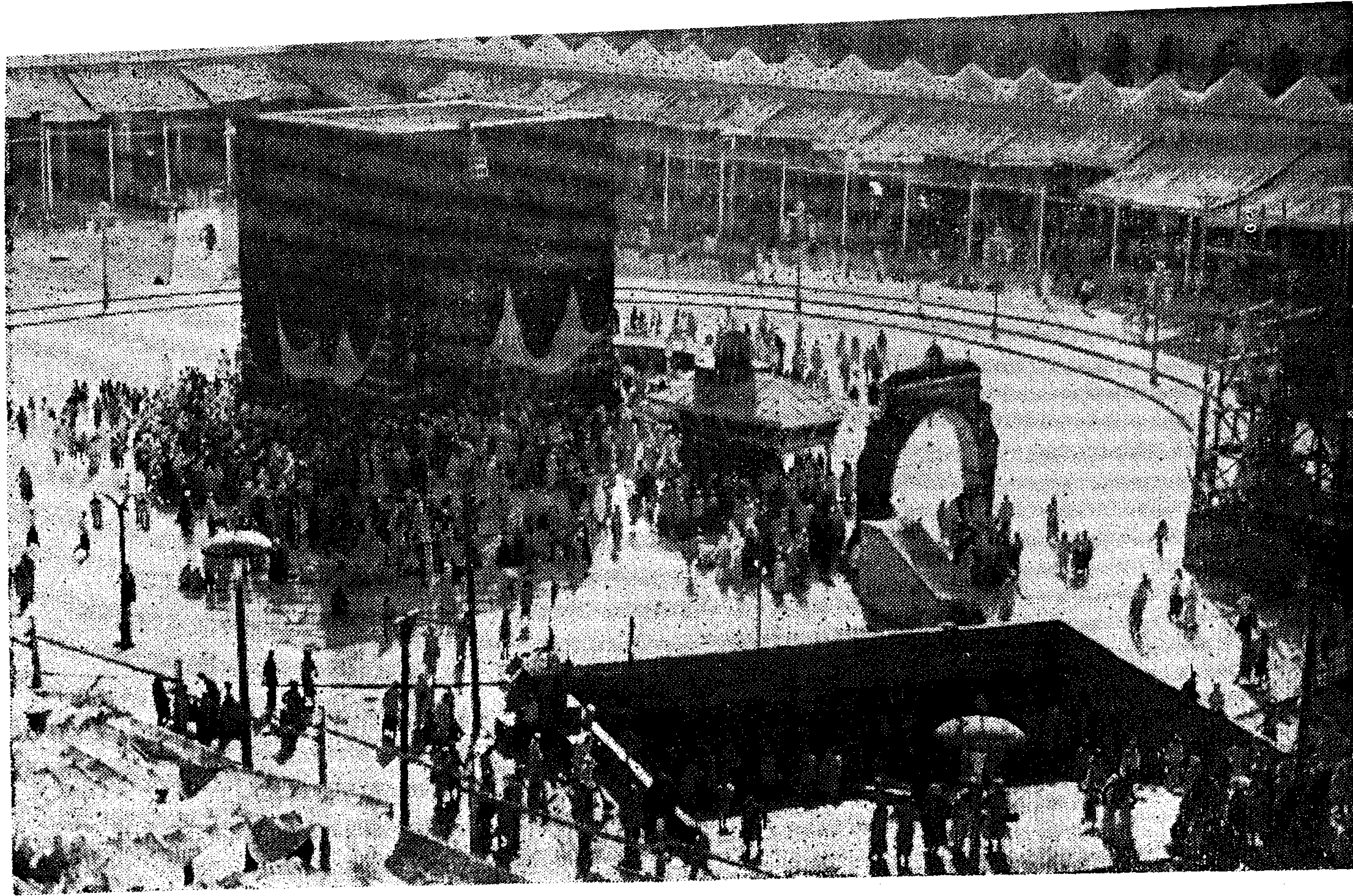
والله الحق حين يقول لامام المرسلين ((**قل**)) فانه يأمره أن يقرأ .. وان يقول ، وان يجادل ، وأن يدعو الى أن ((**الله**)) جل وعلا : ((**هو الله أحد ..**))

وهذا ولا شك عبء جديد من أعباء الدعوة .. واضافة لم تكن موجودة فى صلب الرسالات الأولى جمعاء .. وفى هذا التكليف ما يخرج برسالة محمد من طورها الأول وهو الطور الذى يهدى عبدة الصنم الى الله الحق — الى طورها الثانى ، وهو تخطى حدود مكة وثقيف وقريش وشتى القبائل الوثنية الى مجـال أشـد سـعة فيه عبـادات أخرى ! ! فيه وحدانية شابتهـا شوائب الشرك والالحـاد ، والزندقة وهؤلاء أيضـا تشـملهم رسالة امام المرسلين ويجب أن تتجـه اليهم الدعـوة وأن تصـحح ديانتهم ، ويقـوم ناموسـهم فيعـودون الى الأصـل العظيـم ، ويقـرون عن اقتناع بأنه : ((**هو الله أحد**)) واحد مفرد لا ثانى له ، ولا أول سبقه فى ملكوته أبدا .. وانه هو ((**الله الصمد**)) الباقى .. الخالد .. الحى الذى لايموت .. والذى ليس كمثله شىء على الاطلاق .. والذى جل وتعالى وتنزه عن مشـابهة الحوادث ، وانه يجب التسـليم بأنه ((**لم يلد**)) فلا ابن له ولا متبنى .. وبالتالى ، هذا العظيم الذى لم يلد .. ((**ولم يولد**)) كما انه لم توجد له ((**عائلة مقدسة**)) أو انه ثالث ثلاثة .. لأنه سبحانه وتعالى ماكان ((**ولم يكن له كفوا أحد**)) ..

تلك كانت عمد الدعوة المحمدية .. وأصول رسالة امام المرسلين .. الدعوة الى الايمان بوحدانية الله ، وحدانية مطلقة ، منزهة عن الشرك ، والاقرار بأنه لا اله الا الله ، وان محمدا رسول الله .. ثم الايمان بعد هذا بملائكة الله وكتبه ورسله واليوم الآخر ..

بهـذا نادى محمد ، واليه دعا .. وفى سبيل هـذه العقيـدة جاهـد وناضل وتحمل ، وأوذى ، وصبر .. وعاد ينادى وينادى ، والله معه يؤيده بروح من عنده ، وبوحى لا يفتر عنه ، وبآيات بينات هى الفرقان العظيم ..

****
****
****
****
*****



((انما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذى حرمها ، وله كل شىء ، وأمرت أن أكون من المسلمين ، وأن أتلو القرآن ، فمن اهتدى فانما يهتدى لنفسه ، ومن ضل فقل : انما أنا من المنذرين)) (١)

المسجد الحرام .. او الحرم المكى ، وقد ظهرت فى وسطه الكعبة المشرفة ومن حولها أعمدة المسجد التى أقيمت عند توسيعه وجددت أكثر من مرة..(٢)

---

(١) سورة النمل ، (٢) « الصورة مهداة من مجلة العربى بالكويت »

أحسن الحديث

((الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى ، تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ، ثم تلين جلودهم وقلوبهم الي ذكر الله ، ذلك هدى الله يهدى به من يشاء ومن يضلل الله ، فما له من هاد)) !!

(سورة الزمر)

رغم قلة الأعوام التى مرت على انطلاق الدعوة المحمدية فى مكة ، ودعوته صلى الله عليه وسلم الى الكفر بعبادة الصنم ، وشهادة انه لا اله الا الله ، وانه هو الصادق محمد رسول الله — رغم قلة هذه الأعوام التى انتهت بالهجرة الكبرى الى يثرب ، فانها كانت أعواما حافلة بكل جليل من اعمال امام المرسلين ، وكل حقير مستهجن ضعيف من أعمال سفهاء قريش ..

ولكن الرجل المناضل القوى ، الذى ما اهتم بانه وحده وسط دنيا مليئة بأعدائه والمتربصين به .. هذا الرجل المؤمن بان الله كان معه والى جانبه .. اعتز بأنه فى حمى الله ، وأن الله يؤيده ، وجعل من فرديته قوة ، وقف ثابتا يناضل ويكافح ، وبقى حيث أراد له الله أن يكون ، لم يلن ، ولم يتزعزع ، وأبى أن يسأل الله ناصره آية من آياته تعينه فى جهاده ، وتحول اليه القلوب العاصية ..

ما فعل امام المرسلين هذا أبدا .. وأبى أن يستعين على العصاة الا بالمنطق الاعجازى الذى أيده الله به وهو ((**الفرقان العظيم**)) الذى وضعهم أمامه فى مكان الضعاف العجزة غير القادرين على الرد عليه ، أو مجاراة اعجازه ..

((كذلك أرسلناك فى أمة قد خلت من قبلها أمم ، لتتلو عليهم الذى أوحينا اليك وهم يكفرون بالرحمن ، قل هو ربى لا اله الا هو ، عليه توكلت ، واليه متاب)) !!

وبقى امام المرسلين على العهد ، فقد خلق للرسالة الكبرى منذ خلق الله العالم ، ودبر شئونه ، وحشد أرواح أهله .. وأعده الحق لتحمل اعبائها الجسام وأدبه ربه ليكون الرائد الأعظم ، فأحسن تأديبه وقومه وقواه وأعانه وهداه ، فقد سبق علمه تعالى كل شىء .

وقف الرسول الهادى حيث عهده المؤمنون بدعوته ، والخارجون عليها .. وراح فى اقناع يجادل ، ويدعو الى سبيل ربه ، ويقرأ من البينات الهادية ، ماشاء له الله أن يقرأ ، داعيا الى الهدى ، واستنارة العقول ..

تلكم كانت دعوة محمد .. وذلك كان سبيله ، ووسيلته ، جهاد مفصل ، ونضال سلمى متتابع ، عماده المنطق والجدل الاعجازى الذى لا يستطيع الضلال أن يثبت فى حومته .. بل كيف للضلال والضالين أن يثبتوا ، وقلوبهم توقن فى أعماقها أن محمدا هو الصادق الأمين .. وأكثر من هذا أيضا .. تعرف أن الله هو الحق وأن الايمان به مفروض على الناس جميعا ، قبل أن يولدوا ، وقبل أن يستنشقوا نسائم الحياة !!

« واذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم ، وأشهدهم على انفسهم ، ألست بربكم ، قالوا بلى شهدنا ، أن تقولوا يوم القيامة انا كنا عن هذا غافلين ، أو تقولوا انما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم ، افتهلكنا بما فعل المبطلون . » !!

فالايمان بالله الواحد ، ربا واحدا ، لا اله الا هو ، فريضة وأمر وحقيقة شهدت بها الأرواح فى عالمها الذى يعلمه عالم الغيب والشهادة ، وأقرته ، وأذعنت له ، عن طاعة وخضوع ورضا ، بل .. نوقشت فيه ، وارتضته ، وتنكرت للاعتذار ، أو مجادلة التنصل من هول العصيان يوم القيامة ، والادعاء بأنهم ما عبدوا غير ما وجدوا آباءهم له عابدين ..

يا له من صراع مدمر رهيب ، بين القوة المكبلة ، وهى الروح .. والمطية العاجزة التى غلفتها وهى الجسد !!

ان للحياة سلاحها .. وللروح طاقتها فى المقاومة ..

فالروح من أمر الله .. وقبس من نوره جل وعلا ، وانها لمؤمنة مقرة بالوحدانية ، أقسمت وهى لابد وأن تبر بالقسم ، وترعى العهد العظيم !!

والجسد .. وهو من طين من حمأ مسنون .. وانى للطين أن يرقى الى شفافية الروح .. أنى له أن يقاوم الالتماع النورانى ..

تلك هى المشكلة .. روح حبيس داخل اطار من طين !!

ثم بعد هذا .. هى سجينة ذلك الاطار المعتم لأمد معين هو عمر الانسان فى هذه الحياة .. فالاطار الطينى الذى حوى الروح ، له احكامه ورغباته وله قدراته القادرة على طمس اشعاعات الروح والحيلولة دونها ودون السطوع والانطلاق نحو أصلها ومنبعها العظيم ..

أية بداية رهيبة ، تلك التى تطالع بها الحياة الانسان من مولده ..

ويل للقلب من تمرده .. وويل للروح ساعة تستسلم الى أصفاد الحياة فتعجز عن الانطلاق ، وتبقى حيث هى تحيط بها الظلمات متوارية خلف طينية الجسد ، وقد أغرقت كيانها النورانى فى حمأة الماديات !!

تلكم هى المعركة .. وذلك كان ميدانها الخالد .. وأولئك هم صرعاها واشلاؤها ممن ضاق بهم مجال الصراع الرهيب !!

حيارى يصرون على الضلال .. يتخبطون فى الظلمات ، ونبع النور

الخالد أمام عيونهم ، ولكنهم يحولون ابصارهم عنه ، فعلى عيونهم غشاوة فهم لا يبصرون !! وأولئك هم حطب جهنم ووقود النار ..

وحيارى غير هؤلاء .. ضاقوا بالظلام .. وتمردوا على الاطار الطينى الضعيف ، وانطلقوا من اساره نحو الحق .. نحو الحياة .. نحو الهدف والنور ، وأولئك هم المهتدون الذين اتبعوا الرسول ، واطاعوا الله ، وجاهدوا فى سبيله بأموالهم وأنفسهم فكانوا السابقين الى الايمان ، الذين شهدوا عن صدق ، وعقيدة ثابتة بأنه لا اله الا الله وحده بلا شريك وأن محمدا رسول الله .

أولئك المصــدقون ، المؤمنون ، التــوابون ، الأوابون ، هم فى كل عصر وأوان .. هم الهداة ، هم الطليعة الحرة ، هم السابقون الى جنات الرضوان.

هؤلاء الناس .. القلة المحدودة المقيمة فى مكة .. والتى أرسل اليها محمد الهادى امام المرسلين ..

هؤلاء النــاس .. منهم من آمن ومنهم من كفر .. وقــد ابلغهم سيد المرسلين وامام الدعاة الى الحق ـ رسالة الله الواحد !!

لقد ابلغها لهم .. وخاض فى سبيل ذلك غمار معركة قاسية ..

اذا .. وما دام البلاغ المبين قد تم .. فقد أخذت الحلقة الجديدة مكانها من سلسلة الدعوات السماوية ، وارتبط الجديد بالقديم ، وترددت فى جوانب الكون أصداء كبرى ، الرسالات السماوية ، رسالة امام المرسلين جميعــا ، وخاتم النبيين كلهم محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ـ الرسالة التى بدأت مرحلتها الأولى بدعوة عبدة الصنم من أهل مكة والقرى التى تجاورها كلها الى نبذ أصنامها العاجزة والاتجاه بمجامع القلوب والبصائر والوجدان والضراعات الى الله ، وعبادته حق العبادة ، والشهادة بأنه وحده رب الكون وخالقه وخالق من فيه ، وأن محمدا عبده ورســوله ، والايمان بعد هــذا بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ..

تلكم كانت رسالة محمد ، رسالة الحق الكبرى ، التى بدأت كما بدأت رسالة ابراهيم امام الشعوب ، وهادى الناس الى الله ، وفى نفس الظروف ، والى قوم عبدو الحجر ، فجددت بذلك الدعوة النقية الخالصة الى الله فى عالم ضل أهلوه جميعا ، دون اســتثناء ، حتى أهل الكتــاب منهم وورثة الديانات ، وعلا بها صوت امام الهدى يدعو الى ربه الأحد الذى لا اله غيره ولا معبود سواه ، وسلاحه وعدته ((**أحسن الحديث**)) كتــاب الله وفرقانه المبين ..

واذا كانت رسالة محمــد صلى الله عليــه وسلم فى واقعهــا هى كبرى الثورات التحررية ، التى كشفت بنورها شتى الظلمات أمام الفكر الانسانى فان كتاب الله الذى أيدها وثبت دعائمها ، وحدد حدودها ـ هو دستور تلك الثورة ، وفلسفتها التقدمية التى لا يســتطيع أن يقف امامهــا باطل أوزيغ أو ضلال ..

والكتاب ، لم يكن دستور الثورة الدينية وفلسفتها الاعجازية فحسب ، بل كان الزلزال المدمر الذى تهاوت مع روعته وقوته ، أضاليل المضللون ، اذ كان هو روح الثورة ومجدد شبابها ، ومزكى نيرانها التى امتدت فاتت على كل غريب مستهجن بغيض فى عالم العبادات ..

((الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ، ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله ، ذلك هدى الله يهدى به من يشاء ومن يضلل الله فما له من هاد)) .

فاذا كانت الدعوة المحمدية ، قد هدت الى الله ، فان الكتاب المبين ، قد هدى الفكر الى عوالم ما فكر فى ارتيادها ، فأرشد ، وهدى ، وقوم ، وعلم الانسان مالم يكن يعلم من أسرار الكون ومستغلقات هذا الوجود ، واكثر من هذا وأجل وأعظم ، انه ثبت قلب الرسول الأعظم بما حوى من سير الرسل الكرام الذين سبقوه ، وحوادث جهادهم الشاق التى انتهت جميعها بنصر الله ورضوانه ونجاة المؤمنين ..

((وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ، ما نثبت به فؤادك ، وجاءك فى هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين ، وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم انا عاملون ، وانتظروا ، انا منتظرون)) ...

فالكتاب قد حوى وجمع ، وكان فى هديه ، وارشاده يتبع السبيل المرحلى أيضا ، فبدأ بالدعوة الى الله ، ووصل ما انقطع من أهداف وارشادات ، وبنود الشريعة الاولى والصحف المكرمة السابقة قبل أن يعدو عليها أعداء الله بالتحوير والتحريف ...

ما أغفل الذكر الحكيم ، شاردة ولا واردة من أصول الدعوات ، الا جاء بها وأبانها وجلاها لذوى البصائر الذين لانت قلوبهم للدعوة ، وخشعوا أمام جلال آيات الله المحكمات .

((ياأيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون ، الذى جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم ، فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون)) !!

ومن المعين الربانى ، أخذ النبع الفياض ، يتدفق بكل محكم من آيات الله سبحانه وتعالى ، داعيا الى الهدى ملجما كل كفار كذوب ..

((ولقد صرفنا فى هذا القرآن ، ليذكروا ، وما يزيدهم الا نفورا ، قل لو كان معه آلهة كما يقولون ، اذا لابتغوا الى ذى العرش سبيلا ، سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا ، تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وان من شىء الا يسبح بحمده ولكن لاتفقهون تسبيحهم انه كان حليما غفورا)) .

والذكر الحكيم هنا يفتح مغاليق الفكر على مجالات من العلم رحبة ، شديدة الاتساع فى تعرفها والنظر اليها موعظة وعبرة وذكرى لأولى الألباب ،

وانه ليرشد الى مالم يكن الناس يعلمون ، يرشدهم الى الله الحق ، وان عبادته جل وتعالى ، مفروضة عليهم وعلى غيرهم من مخلوقات الله وانه سبحانه وتعالى ، تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن ...

بهذا وأكثر منه ، دعت رسالة محمد الى الوحدانية والى عبادة الله ، وبهذا وأكثر منه جاء كتاب الله وذكره الحكيم ، بما لم تات به رسالة من قبل ، ولا جاء بين دفتى كتاب من كتب الله التى سبقت القرآن ، مما يؤكد انه هو الأصل ، وهو العودة الى الحقيقة التى عدا عليها الناس وحرفها البغاة من أصحاب الأهواء ، دعاة الشرك والضلال !!

ان الرسالات السابقة ، لم تزد على ان دعت الى الله ، وحتمية عبادته وقد زادت عليها رسالة ابراهيم ، تدبر ملكوت الله .

فدعوة ابراهيم لم تدع الى الايمان بالله ، ايمانا فيه الاجبار على التصديق دون تدبر ملكوت السموات والأرض وتبين دلائل القدرة ، فهى دعوة الى الايمان بفاعلية العقل وقدرته على التمييز ، حتى اهتدى الى الصانع الأعظم ، خالق السموات والأرض ومابينهما .

ودعوة محمد ورسالته ، هى دعوة ابراهيم ورسالته ..

وان الذكر الحكيم ليؤكد هذا ... وينشره مرات ومرات ، فيجدد الدعوات ، ويعيد الرسالات الكبرى ويؤكد أن رسالة محمد هى كبرى هذه الرسالات جمعاء ، وأكثرها علوا ومقاما ومكانة عند الله ...

لقد دعا محمد الى الله الأحد .. وجاء الذكر الحكيم بأردع الدلائل على الوحدانية المطلقة .. ثم هدى بعد ذلك الى التى هى اقوى واقوم ، وأرشد الى الفضائل ، وابان مكارم الأخلاق ..

فالكتاب المبين ، الذى أمر الله بتلاوته ، ليتذكر أولوا الألباب — هذا الكتاب المبين وما حوى من أحسن الحديث ، ومحكم التشريعات وخالد التوجيهات ، هو الفيصل وهو المرجع ، وأما الأمر الصادر من لدن القدرة الى امام المرسلين بأن يتلوه ، فأمر ينسحب من بعد الرسول الكريم الى سائر المؤمنين جميعا ، لأن الكتاب هو قانونهم المنظم لمجتمعهم ، وشريعتهم التى أمروا بأن يتبعوها ، ولا يخرجون عنها ، ودستور معاملاتهم الواجب ان يخضعوا له ، ولا يجادلون فى شىء من مواده ، وأحكامه واوامره ونواهيه ..

فتلاوة الذكر ، هى المرجع ، وهنا العودة الدائمة الى الأصل الخالد ، والنبع الفياض ، ثم اشتراط اقامة الصلاة ، مع تلاوته تعنى أحكام الصلة بين العبد وخالقه ، فالصلاة صلة وتذكر ، وعرفان وخضوع وامتثال ..

وهكذا .. وعلى هدى هذه الأوامر المتتابعة التى تضمنها كتاب الله ، وعلى ذلكم الأساس المتدرج من التوجيهات اللدنية ، قضت مشيئة الله ، أن تجمع رسالة محمد روح جميع الرسالات التى سبقتها ، ثم شاءت ارادته أن

تتجمع شرائع السابقين كلهم ، وبينها صحف ابراهيم وموسى بين دفتي كتابه الكريم — تجمعا تاما غير منقوص فى شىء ، متضمنا حاويا لأصول هذه الشرائع ، ومقوماتها المعلومة والمتواردة ، ثم المجهولة التى طمست معالمها ، وعدا عليها أصحاب الأهواء ليكون هذا الكتاب بعد هذا ، آية محمد الكبرى ومعجزته الخالدة ، الباقية على الدهر وفرقان الله الأعظم ، الذى أحق الحق، وأبطل الباطل ..

ذلكم هو الكتاب المبين .. وهو أحسن الحديث وأقربه وأمسه الى القلوب المؤمنة التى تقشعر لذكره ، وترجف لسماعه ..

ذلكم هو الكتاب الذى فتح لذوى البصائر طاقات النور ، وأخذ بأيديهم الى معارج الروحانيات العظمى ، فعلمهم ، مالم يعلموا ، وكان معلم من بعدهم ، كما كان من قبل هذا معلم ومرشد كل الاجيال والقرون ..

ذلكم هو احسن الحديث ، وأمتعه ، وأصدقه ، واكثره فاعلية وأبعده فى النفوس أثرا ..

ذلكم هو آخر كتاب سماوى ، جاء به امام الرسل اجمعين ، مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ، ليبطل به حجة الناس ، فلا يتبدلون ولا يكفرون ، ولا يخرجون على الناموس مادام المرجع قائما محفوظا من عبث العابثين ...

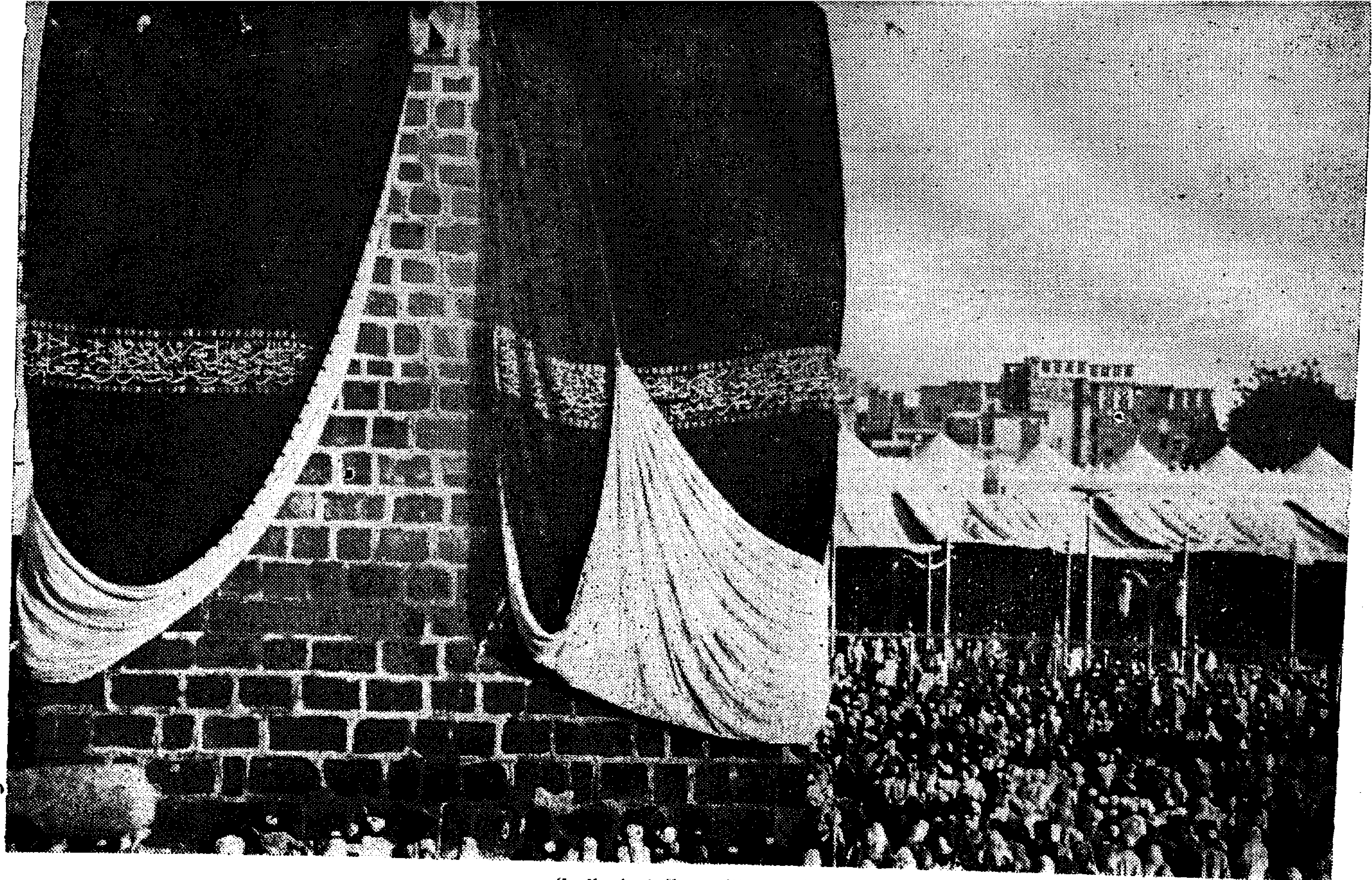
ولقد تكرم الحق سبحانه وتعالي ، فكرم الكتاب الذى أنزله على رسوله الأعظم ، بأن وقاه شر الشوائب ، وأبعد عنه شياطين الضلالات ، واعجز دونه المجترئين على اختلاف اصنافهم ومللهم ونحلهم ، ليبقى على الدهر آية ناطقة بالاعجاز التشريعى ، ومعجزة شاهدة بأن القدرة ارادت لرسالة محمد ان تكون كبرى الرسالات جمعاء ، ولمحمد الرسول الأعظم ان يكون امام المرسلين، وللكتاب الذى أنزل عليه أن يكون أم الكتاب ، ومرجع أصوله ، وجامع أحكام الشرائع والديانات من عهد آدم الى صعود السيد المسيح .. وصدق الله العظيم حيث قال :

((ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية ، وما كان لرسول أن يأتى بآية الا باذن الله ، لكل أجل كتاب ، يمحوا الله ما يشاء ويثبت ، وعنده ، أم الكتاب)) .

وقال تعالى :

((والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورهم ، وكان الله غفورا رحيما)) ..

***
*****
****
****



« لبيك اللهم لبيك .. لا شريك لك لبيك ، ان الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك » ..

بهذه التلبية تنطلق السنة المسلمين من حجاج بيت الله الحرام وهم يطوفون حول الكعبة .. فالحج فريضة فرضت على سيدنا محمد كما فرضت من قبل على خليل الله سيدنا ابراهيم ، وظلت فرضيتها قائمة ما بقى الدين وظلت الحنيفية معترفا بها .. فقد أمر عليه السلام أن يؤذن في الناس بالحج : « ذلك ومن يعظم شعائر الله فانها من تقوى القلوب ، لكم فيها منافع الى أجل مسمى ثم محلها الى البيت العتيق ، ولكل أمة جعلنا منسكا ليذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الانعام ، فالهكم اله واحد فله أسلموا ، وبشر المخبتين » سورة الحج .

« الرسالات الكبرى »

النور

« الر ، كتاب أنزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور باذن ربهم الى صراط العزيز الحميد ، الله الذى له ما فى السموات ، وما فى الأرض، وويل للكافرين من عذاب شديد » ..

(سورة ابراهيم)

حب الدنيا ، والافتتان بها ... والاقبال على مباهجها فى أسراف ودون تعقل ، سر كل الخطايا والأوزار .. وسبب تكاثف الظلمات على العقل البشرى ، وركونه المستمر الى تلك الدياجير المعتمة التى يجد فيها منطلقه ومتنفسه وحريته التى لا يحددها عرف ، ولا يدخل فى تقويمها دين ..

« الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة ، ويصدون عن سبيل الله ، ويبغونها عوجا ، أولئك فى ضلال بعيد » ..

ولكن الدين .. الدين القيم .. الدرع الذى يقى البشرية جمعاء شر الظلمة والظلمات ..

الدين .. وهو التسامى الى الفضائل والكمال .. وهو الثورة الغلابة على كل فساد ، وكل خروج على المألوف ــ يقف للظلمات دائما موقف المجاهد، المناضل ، المتربص للشر أيا كان هذا الشر ، ليبعده ويجليه ، ويبدد غياهبه الداكنة ، وهو يرسل نحوه اشعاعات من نور قوى نفاذ !!

ولقــد كان النور الهادى دائمــا ــ وفى كل عصر وزمان .. ومنذ بدء الخليقة ــ حتى مشارق الرســالات ، ثم استقرارها عند رســالة الاسلام العظمى ــ **هو كتاب الله المبين ، وفرقانه الهــادى ، وشريعته السمحاء** التى انعكست على الدجنة الحالكة ، فراحت تبددها ، وتجلوها ، وتفتح مغاليقها على مالم تألفه ، ومالم تستشعر الروح الحبيسة حلاوة برده من قبل وجلال ظله الوارف ، الذى ما ان انطلقت اليه حتى كانت الألفة ، وكان الود والانسجام المطلق بينها وبين ذلك النور ..

واذا كانت رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، قد دعت العقل البشرى الى الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، فوقف الناس منها موقفين متباينين ، بين مؤمن مقبل فى صدق وحرارة ، وعاص ملح فى كفره وضلاله مستمسك بعصيانه — فان الكتاب المبين وهو آية الله ، ومعجزة الاسلام الخالدة على الدهر — قد استطاع فى يسر وأناة ، ومقدرة فائقة ان ينفذ بأضوائه ، ونورانيته الى القلوب .. كل القلوب فأنار بصائر المؤمنين الى حقائق الوجود وفى ذات الوقت وقف بالضالين على عتبات روائع ومذهلات ، شغلت منهم الفكر ، وجعلتهم فى غمرات الحيرة ، والقلق ، يقفون مترددين بين الظلمات المخيمة ومشارق النور .. !!

لقد دعت الرسالة السمحاء الى شىء واحد لا ثانى له .. الى شىء حددته وعينته ، وهدت اليه .. دعت الى الله ، والى الايمان ، والاقرار بوحدانيته .. والانسان الذى دعته ، اما أن يؤمن ايمانا مطلقا ، وينطق بالشهادتين عن عقيدة، واما أن يكفر ويظل على ضلاله ..

ولكن الكتاب .. النور الربانى الهادى الى الجلال والقداسة والعظمة ، وآيات القدرة جمعاء .. هل كان العقل البشرى يستطيع أن يقف منه موقف المتشدد ، فيقبل عليه مرة واحدة ، أو ينصرف عنه مرة واحدة !!

ان الكتاب هو النور .. والنور نبع مقدس ، لا تستطيع البصائر أن تتحول عنه ، لانها تتجه اليه برغمها ، ترقبه وتتفحصه ، وتتعرف مساره واتجاهاته ، ثم تجد نفسها تتفحص هذه الاتجاهات عساها أن تصل بها الى مرساة أمن أو شاطىء سلام ترجوه !!

فالعقل حين يقف جامدا من الرسالة نفسها ، وينكر الدعوة على قدرها العظيم استمساكا منه بباطل يعتز به ، وضلالات يكره أن يفرط فى شىء منها — فان هذا العقل ، وبدافع الفضول يتجه الى الكتاب ، ولو فى وحدته ، يتبينه ، ويختبر دقائقه ، ويتعرف عليه ، عساه يجد فيه ، ما يشبع فضوله ، أو أن يرشده الى حقيقة صرف وجهه عنها وهو فى غمرة اعتزازه بالباطل والضلالات

والكتاب هنا ... وبما حوى من آيات بينات باهرة عظيمة ، تتبدى عظمته ، وآثار قوته الغلابة ، فيذوب أمامه الزيغ ، وتظهر الحقيقة من وراء ركام الأكاذيب ...

((قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين)) ..

ان الكتاب لقوة .. وانه وهو النور .. نور الحق الوضاح وكلام الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .. تسايره طبيعة النور التى يتميز بها وهى القدرة على دحر الظلمات وتبديد غياهبها الداكنة ، حتى لتفر أمامه مهما عظمت ، وتتراجع أمام اشعاعه ..

ذلكم كان دور الكتاب فى تهيئة العقل البشرى ..

ذلكم كان دور النور ..

كان النور مجادلا لا يجارى .. رافع لواء حق لا تستطيع أن تثبت امامه الترهات والأباطيل ... فكانت له القدرة على التنقية والتطهير ، واعادة العقل الى جادة الصواب امام رائع الآيات وعظيم شواهد الحق ..

لقد كشف النور الحقائق لكل صاحب بصيرة ، وكل ذى عينين ..

كشف الحقائق التى طواها الزمن ، وجلاها لكل من يبصر ، فراح العالمون ببواطن الأمور ، المطلعون على مستغلقات الحقائق ، يقارنون ويراجعون ..

ياللهول !! ويالفجيعة العقل البشرى فى أولئك الذين وضعوا انفسهم فى مكان الطلائع الفكرية المستنيرة !! انهم شياطين بشرية ، طمست الحق ، وزيفته الصدق ، واستبدلته بالأكاذيب ، حتى وهى تروى سير السابقين ، وتعرض أحداث جهاد أولى العزم ممن كان لهم عند الله مقام اى مقام ...

واستمر النوريلمع ، ويشتد ويتوهج .. وأمام روعة انعكاساته تراجعت الضلالات والأباطيل ، بدت الحقائق ناصعة جلية ، وقد جاء الحق ، وزهق الباطل ، وانحسرت الظلمات ..

والقى النور غلالات من شفافيته المضيئة على أحداث ووقائع لها جلالها .. ومع الاشعاع المضىء .. تبدى الطريق الطويل .. طريق الرسالات المتتابعة .. والرسل الكرام الذين كان يكمل بعضهم بعضا ، وتتم رسالة بعضهم رسالات البعض الآخر ، حتى انتهوا جميعهم عند المصب .. عند رسالة محمد عليه الصلاة والسلام .. فاذا الكل واحد .. واذا النور هو النور .. نور الله وجلال الكلم المقدس وروعة الآيات واعجاز ما جاءت به ..

ولقد قال الله الحق سبحانه وتعالى : ((**وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك فى هذه الحق ، وموعظة وذكرى للمؤمنين ...**))

وعلى هذا .. نستطيع أن نقول ان النور قد جلا حقيقة سرد انباء الرسل الكرام ، ففيها من الأحداث والحوادث والعبر مايثبت القلب الثابت الذى هيأه الله لحمل اعباء الرسالة الكبرى ، وهو قلب الرسول الأعظم محمد عليه الصلاة والسلام .

وامام التساؤل الذى لايجد المكابرون عندهم جوابا له ، يتوارى العقل الضال ويتعاظم شأن البصيرة المستنيرة ، ويكون الخروج الذى أراده الله لقوى البصائر من الظلمات الى النور ..

لقد ألقى الذكر الحكيم من ساطع أنواره ، أضواء على الماضى فعرفه المكابرون ، كيف جاهد نوح قومه ، وأى موقف وقفه قومه منه ثم .. كيف

كانت نهاية هؤلاء المستمسكين بالافك والضلال .. وهنا العبرة .. وهنا التخويف الذى أراده الحق الذى ما أرسل الآيات الا تخويفا !!

واذا كانت رسالات الرسل الكرام قبل ابراهيم قد تحددت فالدعوة القائلة ((**اعبدو الله مالكم من آله غيره ...**)) فان النور ليستطع عند رسالة ابراهيم صاحب الرسالة الكبرى الأولى :

((وابراهيم اذ قال لقومه اعبدو الله واتقوه ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون ، انما تعبدون من دون الله أوثانا ، وتخلقون افكا ، ان الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له ، اليه ترجعون ، وان تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم وما على الرسول الا البلاغ المبين)) ..

والنور اذ يلقى أضواءه على مقومات تلك الدعوة العظمى ويكشف مجال الصراع خلال دعوة ابراهيم ورسالته الكبرى التى حمل محمد مشعلها ونادى بها فانه انما يظهر للملأ من الضالين والمشركين والمكابرين ، ان الحال ما زال على ما كان عليه ، وأن العصاة هم العصاة ، وأن الضالين هم الضالون ، وأن ما نادى به ابراهيم عليه السلام ، منذ قرون مضت نادى به محمد عليه الصلاة والسلام فى أم القرى وما جاورها ، ليهدى العصاة ، ويرد الضالين الحيارى الى حظيرة التوبة والندم والايمان ..

ان النور فى سرده لأحداث الماضى وحقائقه ، انما يعرض الحاضر المؤلم لذوى البصائر فى ضوء الماضى .. يعرضه كما هو وكما حدث ، ليرى المكابرون ، العائدون ، المكذبون أنفسهم وفى ثياب عصر تولى ليروا الى أى نهاية سوف يسيرون والى أى مقام عال ستصل الدعوة الجديدة ، كما وصلت أخت لها من قبل ..

((وقال انما اتخذتم من دون الله أوثانا مودة بينكم فى الحياة الدنيا ، ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ، ويلعن بعضكم بعضا ، ومأواكم النار وما لكم من ناصرين)) ..

بهذا أنذر ابراهيم عليه السلام فى دعوته .. وهذا ما قاله فى صلب رسالته الأولى الكبرى .. وبهذا أيضا أنذر أمام المرسلين محمد رسول الله قومه عبدة الاوثان .. عبدة اللات والعزى ، ومناة ، وهبل ، وسواع ثم أنذرهم نارا تلظى ..

((وان لنا للآخرة والأولى ، فأنذرتكم نارا تلظى ، لا يصلاها الا الأشقى ، الذى كذب وتولى)) ..

ثم انذرهم بعد هذا بنار من نوع جديد ، ولها طرائق فى التعذيب مستحدثة ، وقال عنها انها :

« نار الله الموقدة ، التي تطلع على الأفئدة ، انها عليهم مؤصدة ، في عمد ممــــددة » .

ثم نسمعه بعد هذا يتحدث عنها مرة أخرى فيقول .. كلا اذا دكت الأرض دكا دكا ، وجاء ربك والملك صفا صفا ، وجيء يومئذ بجهنم يومئذ يتذكر الانسان ، وأنى له الذكرى ، يقول ياليتني قدمت لحياتي ، فيومئذ لا يعذب عذابه أحد ، ولا يوثق وثاقه أحد .

وأمام روعة هذه الأضواء الكاشفة ، التي سلطها النور على ما ينتظر الكافرين والمشركين والضالين في اليوم الآخر ، يقف النــــاس حيــــارى يتساءلون : لقد نزل هذا بالأولين ، وأن في تذكرهم والاشارة اليهم عبرة ، فما لنا نكذب بيوم الدين ، ونكفر بما يدعو اليه الرسول وما جاء الابالحق المبين .. كلا اننا لفي ضلال ، ولخير لنا أن نعتبر ، فلا نكون نحن بدورنا عبرة ..

ثم يتلألأ النور .. ويزداد التماعا .. وينفــذ وميضه الســـاطع الى ظلمات القلوب ، فترجف وترتعــد ، وما لها وجهنم ، وباب التــوبة أمامها مفتوح .. وفي رحمـــة أرحم الراحمين متسع للجميع ، حيث الرضوان ، وحيث الرضا ، وحيث النعيم .

« وجوه يومئذ ناعمة ، لسعيها راضية ، في جنةعالية ، لا تسمع فيها لاغية » ..

ويتساءل الناس ، ترى أهي هذه الجنة العالية التي وعد الله المتقين بها والمصدقين والمؤمنين ، فيلقى عليها النور شعاعا يعرضها على حقيقتها امام الأفئدة والبصائر والعيون فيعرفون تلك الجنةالعالية علىحقيقتها .

« فيها عين جارية ، فيها سرر مرفوعة ، وأكواب موضوعة ، ونمارق مصفوفة ، وزرابي مبثوثة .. »

ويمضي النور في ارسال ومضات براقةتضيء حقائقالنعيم ، وتعرضها في صور جذابة محببة الى النفوس ، فتهفوا اليها ، وتتمناها .

« وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا ، متكئين فيهــا عــلى الأرائك ، لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا .. ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفهــا تذليلا ، ويطاف عليهم بآنية من فضــة وأكواب كانت قواريرا ، قواريرا من فضة قدروها تقديرا ، ويسقون فيها كاسا كان مزاجها زنجبيلا ، عينا فيها تسمى سلسبيلا » .

ولا يكتفي البشير بكل هذا وهو يصف الجنــة ، وما حوت من أنعــم ومتاع وزخرف ، بليمضيالنور الرباني ، في كشفالحجب عنمستغلقات

ما تطاول اليها ذهن ، ولا أقدمت على وصفها رسالة من رسالات السماء ، ليعرف المؤمنون أى جزاء ينتظرهم ، بما آمنوا ، وصدقوا ، وصبروا ، وأطاعوا الله الرحمن الرحيم ، واتبعوا الرسول الأمين ..

« ويطوف عليهم ولدان مخلدون ، اذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا ، واذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا ، عليهم ثياب سندس خضر واستبرق ، وحلوا أساور من فضة ، وسقاهم ربهم شرابا طهورا ، أن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا » ..

ذلكم هو النعيم الخالد .. نعيم الآخرة ، التى بشرت بها الرسالات ، وحذرت الانسان من أهوالها ان هو عصى ولم يحسن فى دنياه ، وكفر وبطر واتبع مسالك الشيطان وسبل الشر .. وكفر بالبعث ، وأبى أن يصدق يوم النشور ، وما يحدث فيه ، حين يعود الانسان الى ربه فيقول له ولأمثاله من العصاة المستكبرين .

« لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة ، أم زعمتم أن لن نجعل لكم موعدا » .. ؟ !

تلك وقفة رهيبة ، هائلة ، لا يعلم الا الله أمدها ومداها .. انها وقفة تفنى فيها سنون العمر ، ويتضاءل أمام جلالها كل جلال ، وكل جاه ، وكل ثراء .. انها وقفة يلقى عليها النور من اشعاعه الساطع قبسا ، لتظهر على حقيقتها فيتدبرها الانسان الطاغية الظلوم الكفار أو يعمل عملا صالحا حتى يتلافى هولها ، وقد وقف أمام الله ، وهو خالى الوفاض من الحسنات التى تزكيه وتقربه وليس معه وقتها الا كل سيئة وخطيئة تشهد عليه وتدمغ أفعاله فى الحياة الدنيا بالجحود والتمرد والكفران ، فلا شكر .. ولا تذكر .. ولا صام .. ولا صلى .. ولا أطاع ولا خضع ولا ظن انه ملاق ربه العظيم ، الذى يقول له وقت الدينونة الكبرى .

« فذلك يومئذ يوم عسير ، على الكافرين غير يسير ، ذرنى ومن خلقت وحيدا ، وجعلت له مالا ممدودا ، وبنين شهودا ، ومهدت له تمهيدا ، ثم يطمع أن أزيد ، كلا انه كان لآياتنا عنيدا ، سأرهقه صعودا ، انه فكر وقدر ، فقتل كيف قدر ، ثم نظر ، ثم عبس وبسر ، ثم أدبر واستكبر فقال ان هذا الا سحر يؤثر ، ان هذا الا قول البشر » .

تلك لحظات تذكر رهيبة ، يعيد النور عكس صورها البعيدة ، أمام الخاطىء المنكر ، الجاحد فى سرعة الواثق ، الذى لاينسى ولا يخطىء ، ولا تغفل عليه فاعلة من افاعيل المكذب الظالم ..

ثم يكون الجزاء .. والجزاء دواما من جنس العمل .. وأن الله ليقول للخاطىء الكافر ، المكذب بآياته ، المتطاول على كلماته وقرآنه المجترىء بالقول عليه انه قول بشر :

« ساصليه سقر .. » وسقر اسم جديد وصفة من صفات جهنم التى أعدها الله للكافرين .. ورغم رهبوتهـا واهوائها ، فان النـور الذى فسر النعيم ، والثواب ، والخلود الأبدى فى الجنة يأبى الا أن تستقر اضواؤه عند « سقر » هذه ليقدمها فى صورتها الحقة للمكذبين المكابرين ..

« ساصليه سقر ، وما أدراك ما سقر ، لا تبقى ولا تذر ، لواحة للبشر ، عليها تسعة عشر .. » ؟ !

تسعة عشر مكلفون باقامة الحدود ، وانزال العذاب بأهل العذاب ..

تسعة عشر قائمون على سقر .. فمن هم ؟ ! هل هم من المردة .. أم من اصحاب النار حتى يتحملون لظى سقر ، وشديد عذابها ..

ويسارع النور ليكشف صورة هؤلاء التسعةعشر ، وحقيقتهم ، فاذا هم من ملائكة الله الحق .

وما جعلنا اصحاب النار الا ملائكة وما جعلنا عـدتهم الا فتنة للذين كفروا ..

ويقف الفكر حائرا بعد هذا .. وينحسر النور ، ويتراجع عن القـاء اضوائه ، فلا علم بعد ما علم الانسان .. ولا تقدم الى أكثر ممـا وصل ، فهذه من أسرار الغيب لا يعلمها غير علام الغيوب ..

لقد عرف الانسان المكذب أنه سيلقى عذابا فى سـقر .. وانه عـلى سقر .. تسعة عشر .. هم أصحاب النار ، وهم من الملائكة .. وذلـكم هو عددهم . فهل هناك غيرهم آخرون ؟ ! وأين مكانهم ؟ ! وما عددهم ؟ !

تلك أمور يقصر دونها الفكر ، وتضل الأفهـام ولـكن النور لا يترك الانسان فى حيرته ، فيرده فى رفق ويقول له جوابا على تساؤله :

« وما يعلم جنود ربك الا هو ، وما هى الا ذكرى للبشر .. »

وامام رهبة ما عرف الانسان ، يأخذه الجزع ، وتعبث به المخاوف ، وقد استقر فى مسمعيه اسم سقر ، ومثلت أمامـه صـورتها ، وصـورة الملائكة التى عليها .. فيرجف ويرتعد ، ويتساءل : ترى هل يسلك فى سقر .. ومن من الخاطئين يساق اليها ..

ويسارع النور الهادى .. كتاب الله المبين ، فيقف بالانسان حيث أراد أن يعرف ، ليصغى من جديد الى الذكر الحكيم وهو يقول :

« الا اصحاب اليمين ، فى جنات يتساءلون عن المجرمين ، ما سلككم فى سقر ، قالوا ، لم نك من المصلين ، ولم نك نطعم المسكين ، وكنا نخوض مع الخائضين ، وكنا نكذب بيوم الدين ، حتى آتانا اليقين » ..

فالكتاب المبين هنا .. وامام هذه الحقائق العظمى يقف موقف الموجه المعلم الصادق ، ليقول للناس كل الناس .. لمن شهدوا بعث محمد عليه الصلاة والسلام ، وكانوا معه ، أو كانوا عليه .. لهؤلاء ولغيرهم ، من الأمم، وللقرون التى جاءت بعدهم ، تكلم المعلم المرشد والناصح الأمين .. تكلم كتاب الله ، وحدد الجريمة وقرر العقاب ليجد الناس ما يزجرهم ويبعدهم عن الخطيئة ، فلا يقعوا فيها ويكون لهم العذاب الأليم ..

والنور الهادى هنا يكشف للمكذبين وغيرهم ، ممن شهدوا بعثة الرسول ، او اتوا بعدها أن عذاب الله شديد .. وان العصاة يلقون عذابهم .. وان هناك فى جهنم ، توجد سقر ، وان من يحشد فيها هم الذين تركوا الصلاة أولا ، ومن بعدهم من حرموا المسكين ولم يطعموه ، وبخلوا عليه بأنعم الله التى جعلهم مستخلفين عليها ، ومن وراء هؤلاء وهؤلاء ، اولئك الذين خاضوا مع الخائضين ، وتقولوا على الله بالباطل ،وادعوا العلم ، فكانوا من الكافرين .. واخيرا .. ولا اقول آخرا أصحاب سقر هم أؤلئك الذين كذبوا بيوم الدين ، وانكروا البعث والنشور والثواب والعقاب .. حتى جاءهم اليقين .. وحشروا فى سقر .. فضجوا .. وصرخوا .. وطلبوا الرحمة ولكن .. اتنفعهم فى ذلك الوقت شفاعة الشافعين ..

ذلكم كان بعض ما علمه الكتاب للناس جميعا .. والى هذه الحقائق والغيبات وجه البصائر والأفهام ، وصور الحياة الدنيا ، ولم يقصر فى تصوير الحياة الآخرة ، ليعرف المحسنون اى جزاء سينالونه فى دنياهم ، وأى ثواب ينتظرهم فى أخراهم ، وكذلك يعرف المجرمون الضالون، فلا يكون العذاب بغتة وبلا انذار ، ولا يكون الثواب فجاة ودون مقدمات ..

فالذكر الحكيم .. كتاب الله المكنون .. وفرقانه الأعظم .. وقرآنه الكريم .. ونوره الساطع الكاشف لأصول الحقائق ــ قد سار مع الرسالة جنبا الى جنب يعينها ، ويذكى قوتها قوة ، ويهبها عزيمة ومضاء ، ويقربها الى النفوس ، ويشرح فى استفاضة أسرار الخليقة التى لم تات بها فى مثل هذا الاسهاب الاعجازى رسالة من الرسالات أيا كانت ، قبل رسالة امام المرسلين محمد عليه الصلاة والسلام ، كبرى الرسالات وأولاها والمقدمة عليهم أجمعين ..

لقد ارتفع صوت محمد عليه الصلاة والسلام ، داعيا الى عبادة الله ، والاقرار بوحدانيته ، وتحريم اللجوء الى من سواه ، ودعا القرآن الكريم الى اعمال الفكر والايمان بالعقل ، وتدبر الحقائق ، وكشف للعقل البشرى أعمق وأدق الأسرار الكونية ، داعيا بهذا الى تدبر الملكوت للتفكير ـ خالق الخلق ، وصانع الاعاجيب ، والاقرار بواسع علمه ، وعظيم قدرته ، وبأنه

وحده من يجب أن تتجه اليه القلوب والضمائر والأرواح ، بالحمد والشكر ، فنقدره حق قدره ونعبده وحده بلا شريك ..

فالقــرآن .. كلام الله الكــريم .. الذى انتظمـه كتــاب مكنون ، لا يمسه الا المطهرون ـ كان دليل الهدى الخالد ، الذى بقى على الدهور ، مرشد صدق ، ومعلم حق ، ورسول هدى لمن القى السمع وهو شهيد ..

وانه بعد هذا هو الضوء الكاشف الذى عين للفكر الانسـانى مجالات طموحه ، وهداه الى الآفاق الواجب أن يتطلع اليها ، بعد ان كشف المداخل اليها نوره الساطع ، الذى هو نور من النور ..

لقد كانت رسالة محمد ثورة كبرى ، وطفرة تقدمية رائعة طفرت بالعقل البشرى الى ما لم يكن يتصور .. والا فليقف العقل معى لحظة ، نستذكر خلالها ذلك المـاضى السحيق .. زمن الجهالات ، والانحطاط الفكرى ، وتدنى العقل الانسانى الى مهاوى الظلمات بالتحول عن القدرة الخالقة صاحبة النعم ، الى عبادة الأوثان والسجود للحجارة ، وسؤال المنحوتات ..

فاذا ما وصلنا الى هذه البداية المظلمة ، التى تركنا العقل البشرى يتخبط فى دياجيرها .. بدانا المسـير لتعرف آماد الطفرة التى حققتها رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، وكان القرآن الدليل المرشد اليها !!

كانت أول قطرات الغيث السماوى المنجـــد التى نزلت على امام المرسلين هى الأمر الصريح بأن يقرأ .. يقرأ ماذا .. يقرأ هذه الصحف .. يقرأ كلام الله .. يقرأ القرآن .. وان قراءته هى تحويل شعاعات النور الى ظلمات العقل لتنيرها ، وتتحقق بذلك كلمات الله القائل :

((اقرأ باسم ربك الذى خلقَ .. خلقَ الانسان من علق .. اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم)) ..

فبالقرآن .. وقراءته .. وتدبر معانيه .. علم الله الانسان ما لم يعلم .. علم ربانى نورانى ، ومعرفة حقيقية مدعمة ، ليس فيها زيغ ولا ضلال ولا أكاذيب ولا تحكم ..

فى ذلك العصر الذى انحطت فيه المدارك الانسانية ، وان سما الخيال البشرى فى انطلاقات الشعر وجولاته فى مروج الأحلام ، او أودية الضلالات والهيمان غير المحدود ، فى ذلك العصر الموغل فى ظلمات الجهالة العلمية ، ارتقى كلام الله الخالد ، بالعقل البشرى الى معارج المعرفة التى ما كان للناس بها من عهد قبل أن ينزل على محمد الوحى ، فيقرأه قرآنا عربيا غير ذى عوج على الناس أجمعين ..

عرف الناس الله .. المعبود الأعظم .. رب الكائنات الذى لا اله غيره .. عرفوه بأسمائه الحسنى .. التى وردت فى الذكر الحكيم ، فوقفوا مشدوهين أمام روعة الصفات ، وجلال الأسماء التى تتجمع كلها عند الواحد الأحد ، وتمطى لجلاله الأعظم ، وقداسته التى جل أن توصف فكرة مثالية للعقل ، الحائر أمام الجلال الربانى ..

لقد سلط النور الأسمى أضواءه المنيرة الشديدة السطوع على العقل ، فأثار غياهبه ، وأرشدته هذه الأنوار الى الله ، فرآه فى كل جميل وبديع وكل معجز خارق ، وكل لطيف طيب ..

« وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فاذا هم مظلمون ، والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم .. »

« والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم ، لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون » ..

وعلى ضوء النور الباهر اللألاء ، رأى العقل البشرى الله القادر جهارا .. رآه فى مظاهر رحمته ، ومننه العظمى ، وآياته وعطاياه الجليلة .. رآه فى **« خلق السموات والأرض وما بينهما »** .

رآه فى الليل اذا عسعس ، وفى الصبح اذا تنفس .. فى اشراقة الشمس، وفى بزوغ القمر ، وبريق النجوم ، والتماع الكواكب ..

رآه فى كل حياة توهب ، وموت يقدر ..

« وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون ، وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا منها من العيون ، ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون ، سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن انفسهم ومما لا يعلمون » .

رآه فى الرياح اذا عصفت ، والبرق حين يسطع ، والرعد حين يلمع ويدوى ويزمجر ..

رآه فى مسير السحاب ، وهطول المطر ، ونزول الغيث من السماء ..

رآه مجيبا قريبا ، يجيب الداعى اذا دعاه .. منانا وهابا ، يعطى من يسأل ومن لا يسأل ..

وما دام العقل قد رأى الذات فى آياتها وعظائم صفاتها .. فلابد وانه عرفها .. عرف الحق .. الهادى .. المنعم .. المدبر .. الملك .. القدوس .. السلام .. المؤمن .. المهيمن .. العزيز الحكيم .

ما أعظم النور الذى سطع على العقل البشرى ، وما أجمل ما علمه للبشرية من علم عظيم ..

لم يكن الذكر الحكيم ، هاديا الى الله فحسب .. بل منقذا للفكر الانسانى من الضلالات على كر العصور ، ففيه قوة تدفع .. وفيه احساس يملأ الروح بالقوة ، فتتطلع الى الكمال ، والى تعرف ما وراء الحقائق التى ذكرها الكتاب واضاء أصولها النور ..

لقد هدى النور العقل البشرى الى الغيبيات ، ودفع به الى تعرف ما وراء المرئيات التى جلاها ، ووصفها وأشار اليها ، وعدد صفاتها ومظاهرها ولم تفته فى ذكرها واردة ولا شاردة ، لأنه جمعها ووعيها عن علم ومقدرة وتمكن ..

علم الانسان ما لم يكن يعلم .. عرف الجنة والجحيم وهما من أسرار الغيب .. عرفها بما عرضه الذكر الحكيم فى تفصيل واتقان وروعة ، حتى كاد أن يجسد لهما صورا مألوفة عاشت فى أخيلة الناس ، بما قدم للظاهرتين الغيبيتين من صفات ومميزات ..

ولم يكد الذكر الحكيم يفرغ من اعطاء الصور المرجوة للجنة والنار ، حتى أسرع النور الهادى يلقى أضواء على ظاهرة غيبية أخرى .. ظاهرة طالما حير غموضها عقول الناس أجمعين ، ولكن كلام الله راح يفتح فى غموضها بابا للمعرفة والعلم سمح للعقل البشرى بولوجه ليلم بما يجب أن يعرف عن يوم القيامة .

لقد عرف المؤمنون والمشركون ، وعبدة الصنم أن من مكملات الايمان الحق ، والاقرار بوحدانية الله الصمد الذى لا اله غيره ، الايمان بملائكته وكتبه ورسله .. واليوم الآخر .. ويوم القيامة مظهر من مظاهر اليوم الآخر .. فترى ما هو هذا اليوم ؟! وما هى مميزاته ، وما هى علاماته ، وهل من حق العقل البشرى أن يلم به كصورة من صور الغيب التى احتفظ لها من حناياه بخيال تصوره وارتاح اليه !!

انه يوم عسير فعلا .. يوم يوصف بمقدماته ، ومظاهره القوية ، المتتابعة السريعة ، التى تنبىء عن أهميته وعن خطورته ، ومكانته .

« فاذا برق البصر ، وخسف القمر ، وجمع الشمس والقمر ، يقول الانسان يومئذ اين المفر ، كلا لا وزر ، الى ربك يومئذ المستقر .. »

تلكم هى المظاهر ، والمقدمات والصورة الأولى ليوم الدينونة الأعظم ، يوم القيامة .. يبرق البصر .. تتراقص المرئيات .. وتضطرب الرؤيا ، وتتخالط الأشياء فيرى الانسان وهو لا يرى .. ولا يرى فعلا وهو يرى ..

وماذا يرى الانسان فى ساعات الهول العظيم .. يرى سماء ولا سماء ، كشطت السماء ثم تلاشت وطويت .. وعندها يتساءل : أين الشموس والأقمار وشتى الكواكب ؟! انه الفصل الرهيب .. لا شيء غير خضوع ورهبة وترقب ..

لقد خسف القمر .. ثم .. حدثت معجزة رهيبة ما كان للبشرية بها من عهد .. لقد جمع الشمس والقمر .. لا ليل هناك ولا نهار .. لا ظلمة ولا نور .. ولا مظاهر طبيعية أو فلكيــة .. فاليوم يوم فريد فى آيته ومظهره ، وما يعتور العالمين فيه من رهبة ومخاوف حتى ليتلفت الانسان حواليه يتلمس لنفسه مفرا ، أو مهربا ، ولا مفر ولا مهرب ولا نجاة .. فاليوم يوم القيامة .. والانسان اليوم أمام ربه .. وبين يديه سبحانه فاليه المرجع والأوبة والمستقر ..

ويعكس النور ومضات منه على الموقف الرهيب .. موقف الناس ، وقد عادوا الى الله .. الى الديان العادل .. ذى العرش المجيد ..

انه يوم الدينونة الذى كذب به الانسان ، وأقسم أنه لن يكون ، فالموت نهاية الوجود ، ولا حياة ولا بعث بعد الموت .. ولكن .. ها هو ذا الانسان .. ذلكم الجاحد الكافر يعود .. ويبعث وتجمع عظامه .. ويسوى بنانه ، ليجد نفسه ماثلا فى يوم القيامة ..

ولا حديث .. ولا شفاعة .. ولا توسل .. ولكن .. العمل يومئذ هو الذى يتكلم .. وهو بينة الانسان الجاحد ووسيلته الى الخلاص ان كان هناك ثمة خلاص .

« ينبأ الانسان يومئذ بما قدم وأخر ، بل الانسان على نفسه بصيرة ، ولو ألقى معاذيره .. »

يا عجبا .. ان الانسان .. ذلك الطاغية الجبار يقف موقف الذعر ، فهو يسمع ويرى ، يسمع عجبا ، ويرى ما هو أعجب ، انه هو الذى يتهم نفسه ، ويوجه الى ذاته كل نقيصة ، فتتكلم الأرجل والأيدى ، والعيون والآذان ، ثم يتهم .. وكل يقر ويعترف .. فأين المفر من هول يوم القيامة وقد عاد الانسان الى الله ، ووقف أمام الديان الذى انكر وجوده مرة ثم وحدانيته مرة ثانية .. ثم العودة اليه مرة ثالثة وهكذا ..

« ما قدروا الله حق قدره ، والأرض جميعا قبضته يوم القيامة ، والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون .. »

وتتوالى بعد ذلك المشاهد القدسية التى تقرب للانسان ــ ذلك الطاغية صور القيامة ومظاهرها وآيات القدرة فيها ..

« ووضع الكتاب ، فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون ياويلتنا ، مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها ، ووجـدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك احدا .. »

ولكم يوم الفصل .. يوم الجمع الأعظم .. يوم الدينونة الكبرى حيث لا نجاة ولا خلاص الا من عمل عملا صالحا ، ووجد عمله حاضرا يوم حسابه ، لينجيه ، أو ليجزيه ..

« ووفيت كل نفس ما عملت ، وهـو اعلم بما يفعلون ، وسيق الذين كفروا الى جهنم زمرا ، حتى اذا جاءوها فتحت ابوابها وقال لهم خزنتها ، الم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم ، وينذرونكم لقاء يومكم هذا ، قالوا : بلى ، ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين » !

تلك ساعة الندم والحسرة ، والألم والعبرات .. تلك ساعة ، كان اليق بالانسان ذلكم الظلوم الكفار أن يتفاداها ، لو آمن ، وصدق ، واتبع المرسلين ، وعمل صالحا يرضاه الله منه ، ولكنه وقد أحس بأنه المستخلف المتصرف فى أنعم الله ، طغى وبغى وتجبر وعصى ثم جاء يوم القيامة .. وحلت ساعة الندم وسيق العصاة الى جهنم زمرا ، وفتحت جهنم لهم أبوابها :

« قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين » !!

الى هذا كله وأكثر منه ، وأبعد وأعمق ، هدى النور الوضاء العقل البشرى الجاحد والنفس اللوامة ، المتمردة ، التى أكرم الله صاحبها ونعمه ، ووهبه ما شاء وأكثر مما شاء .

تلكم كانت ألوان من الصور الغيبية العظيمة ، التى جـلاها كتاب الله بنوره ، قدم مشاهد منها للانسان كى يعتبر ويرعوى ، ويؤمن ، أو يعود الى الطريق السوى ، ويتوب الى الله ليكون له حسن الجزاء .

تلكم كانت الوان من المعرفة ، لم يسقها الذكر الحكيم الى المكذبين العصاة أيام بعثة امام المرسلين فحسب ، بل الى من سبقهم ، لتكون شاهدا عليهم يوم الدينونة هم وأمم أخرى سوف تتبعهم الى ان يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين .

فالنور الهادى ، وهو كتاب الله الحكيم ، وفرقانه الأعظم ـ حين يوجه هذه الومضات المشعة الى كل هذه المظاهر الغيبية وظروفها وتدرجاتها ، وصفاتها ، ويقربها الى الأذهان التى آمنت بها والتى أنكرتها وجادلت فيها ـ فهذا ولا شك مظهر من أعظم مظاهر اعزاز الرسالة الكبرى ، رسالة محمد عليه الصلاة والسلام ، ومحاولة فيها فاعلية قوية لابراز الدعوة الكبرى فى

صورتها الشامخة الشماء ، باعتبارها خاتمة الرسالات ، وجامعتها كلها .. كما أن فى هذا الذكر وتلكم الافاضات الوصفية أيضا مظهر تكريم لصاحب الرسالة نفسه ، وفوق هذا ، دليل رحمة من الله أرحم الراحمين الذى بعث فيهم محمدا برسالته تلك ..

فالله الحق هنا .. وحين يدع النور .. نور كلماته المبينة يجلو هذه الظواهر ، ويتحدث عنها فى هذه الافاضة ، فهو يعمد الى التخويف والزجر، وهو لون من ألوان العذاب المخفف .. فالأمم الأولى التى كفرت شهدت عيانا تلك الظواهر وتعرضت لها ثم .. اختفت من الوجود ، وكانت أثرا بعد عين ..

ولكن أمة محمد صلى الله عليه وسلم — لم يرد الله لها تلك النهايات ، وتداركت العصاة فيها رحمته جل وعلا ، فصور لهم العقاب .. عقاب الآخرة .. ثم قص القصص .. وأورد صورا من آيات البطش ، ليروا العقاب عقاب الدنيا .. ثم يخلون الى ضمائرهم ، الى الوجدان الحق ليكون القاضى العادل الذى يحكم بما يراه ، وما يجب أن يتبعه الانسان ويؤمن به ..

فالرحمن الرحيم منزل الكتاب .. ومرسل الرسل الكرام ، لا يريد للناس الا أن يستمتعوا ببره ورحمته وسابغ عطفه .. من اجل هذا يحذرهم ويزجرهم ثم ينصحهم ، ويدعوهم الى الهدى والطاعة ، مرة على طريق دعوة وتعاليم رسله الكرام ، وأخرى عن طريق الكتاب الأعظم .. النور الهادى الذى يحدد معالم الطريق ، ويرشد السالكين الى ما يرجون من الأمن ، والأمان ..

ان كلام الله ، وهو نور القلوب ، وهادى البصائر ، هو شارات الضوء « الخضراء » التى تنظم « مرور » العالمين جميعا ، ويشعرهم ظهورها بالأمان فيسيرون ، والهدى ملء نفوسهم ، ثم انه بعد هذا .. ولمن تتنازعهم نفوسهم الى الشر وتحبب اليهم المعصية ، هو شارات الضوء « الحمراء » الواجب طاعتها واحترام ظهورها ، ثم الوقوف حيث شاءت والا .. فعلى المجترىء اثم جرائه ، والعقاب الذى يوجبه اجتراؤه ، وخروجه !!

فنور الله الهادى ، هو صمام الأمن الذى يبعد الناس عن التهور والشطط .. ويحذرهم من غضب الله وسخطه ونقمته .. ويغلق فى وجوههم أبواب المعصية ، ليفتح امامهم ابواب المغفرة ، والتوبة ، والتعلق باهداب الصفح والغفران والمثوبة ، لينالوا الراحة فى الدنيا ، وحسن الجزاء فى الآخرة ..

والنور المحكم ، الذى لا يغيب له ضوء ، لا ينفد له شعاع — هذا النور الخالد الباقى على كر القرون .. القريب الى القلوب .. كل القلوب — هذا

النور ، فى ارشاده للسالكين ، ومسيره مع امام الرسل جنبا الى جنب فى تعزيز دعوته وتأكيدها ، ونشر ما حوت من أوامر وتوجيهات — لم يقصر أبدا فى ايضاح حقيقة كان يتوق العقل البشرى الى معرفتها ، بل صحب العقل فى سبيل ارتياد كل فجاج الحياة ، فأضاء له كل ظلمة رهيبة خشى ان يقترب منها ، وهون له كل صعب ، وأشعره بالجراة ، والاقدام والثقة ، وهو يعرض الدقائق والغوامض ويبين هنا هناك عن كل معلوم مجهول . وغيبى وواضح امام العيون !!

لقد اضاء النور غياهب الماضي ، فنشر على الناس .. كل الناس انباء الأمم السابقة ، وأخطر الأحداث التى مرت بهـا .. وقف امام خلق آدم ، فجلاه وفسره ، ثم عاد ليقف امام المعصية الأولى .. معصية اجتراء ابليس اللعين على العصيان وعدم الطاعة .. وهنا .. وعند هذه الحقيقة التمع النور وتوهج وتضاعفت اشعاعاته الساطعة ليرى الانسان معالم الطريق الذى كان عليه ان يجتازه بوحى العقل ، وهدى البصيرة ، فاذا بالعقل يكبو ، واذا بالبصيرة تضللها ظلمات الفضول ، والتطلع ، واذا الشيطان الرجيم يفلح فى ايجاد البقعة السوداء فى فضاء النفس البشرية الصافية فاستقر فيها ثم .. كانت المعصية الرهيبة ، وكان اول تنكر للمخلوق ، واول عصيان له ! !

أبان النور كل هذا وارشد اليه فى قدرة وسلط أضواءه على قوة طفيلية باغية ، ظهرت فى الوجود الى جانب الانسان : هى نفسه .. هى تطلعه .. هى مطامعه .. هى أهواؤه .. هى : الشيطان الرجيم ..

وكما حذرت القدرة الانسان الأول من شر الشيطان الرجيم بوصفه عدو البشر الأبدى .. كذلك عكس النور اضـواءه ، على قرارات النفس ، ومستقرها ، وهى مخابىء الشيطان ، كى لا يجد فيها مسلكا ولا مسيرة له يكمن فيها للانسان فيرديه ويهلكه !!

ثم انتقل النور من الغيبيات .. الى التوعية والارشاد والابانة عن اسرار الوجود .. فاضاء غوامض الخليقة .. وكشف فى مقدرة وروعة وجلاء أسرارها ! ! وعرف الانسان نفسه .. عرف مم خلق .. وكيف خلق فى البداية ثم .. بعد ان استقرت الأمور ، وخلق من النفس الطينة الأولى زوجها ، ثم كانت الخليقة كلها .

« هو الذى خلقكم من نفس واحدة ، وجعل منها زوجها ليسكن اليها ، فلما تغشاها حملت حملا ، خفيفا فمرت به ، فلما اثقلت دعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحا ، لنكونن من الشاكرين .. »

وكما عكس النور ومضات منه على الخليقة الأولى ، وأسرارها ، كذلك القى اشعاعات نورانية منه على دقائق التكوين البشرى ، وغوامضه .

((ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاما ، فكسونا العظام لحما ، ثم أنشأناه خلقا آخر ، فتبارك الله أحسن الخالقين)) !!

وتلك ولاشك دراسة مستفيضة وابانة قادرة لدقائق شغلت العقول ، ودفعتها الى تدبر ما تعنيه هذه المعانى الرائعة .

((ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين)) !!

هذا الوارث الطاغية الذى انطوى فيه العالم الأكبر ، والمستخلف بأمر الله على الأرض وما حوت .. سيد هذه الدنيا ومن فيها .. الذى سخر له الله الشمس والقمر والكواكب والبحار الشاسعة والأنهار العديدة ، والجبال الشامخة الشماء ، بل ما حوت ، وما أخفت ، وما انطوت عليه ..

هذا الكائن العملاق الرهيب ، ذو العقل النورانى المشع بالذكاء والألمعية .. المرهف الحس .. الرقيق الشاعر .. الصادق الفراسة .. خلق من طين ! !

اجل .. خلق من طين ... وانه ليتحلل بعد موته الى أصوله التى تبين كلها .. فاذا هو طين من طين من حمأ مسنون .. !!

تلك كانت البداية الأولى . . النشأة القادرة التى ارادها الخالق للمخلوق ثم تدرجت بعد هذا ، ولحقها التطوير الانشائى فى سبيل تحقيق الكمال ، فبعد أن جعل الله من النفس الأولى زوجها الذى تسكن اليه .. اى بعد أن خلق حواء من ضلع من ضلوع آدم ، وصارت أنثى كاملة نامية رائعة البهاء ، فيها فتنة وفيها اغراء ، وفيها مايكمل كل نقص أحسه المخلوق الأول وكل شوق غلبه وحيره . تغشاها ، وخالطها ، وسكن اليها ، وأكمل بها ذاته ، فهو لايكتمل الا بها ، ولا هى تكتمل الا به .. وحملت فكانت الخليقة ..

ان هذا التدرج المستفيض فى وصف التكوين البشرى ، والارشاد المعجز اليه ، والى حقائقه التى كانت خافية عن العيون والأفهام .. هذا التدرج لم ينعكس عليه النور لغرض السرد ، ولا من اجل المعرفة العابرة ، التى يمر بها الفهم ، ثم ينتهى أساها فى زحمة الحياة ، كأى شيء او أى ظاهرة من الظواهر التى يمر بها بل أن هناك حكمة من الواجب تدبرها واطالة النظر فيها ونحن نقف أمام هذا التفصيل اللدنى الصادق ، الذى يدفع الى العلم ، والبحث ، والتثقيف والاستفادة من ذلك العلم من هدى النور الهادى الذى ابان دقائق الخليقة فى اعجاز لا يستطيعه الا عالم قادر متمكن ، يعرف الحقائق ، ويصفها كما هى ، وكما شاء لها أن تكون ..

لقد عرفنا الانسان .. ((**سلالة من طين**)) .. هذه معرفة حقة ، وعلم قادر ، يدفع العقل البشرى ، الذى لايهدأ فضوله الى البحث فى أصول الانسان .. ((**سلالة من طين**)) تطورت وصارت سيد الكون ، الذى قبل ان يصبح سيد الكون وعملاق الدنيا ، مر بأطوار اخرى !

ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقة ، فخلقنا العلقة مضغة ...))

اليس فى هـذا ما يدفع الانسـان الى التواضـع ، والبعد عن التحيز والتطاول ويتابع فى تمعن درجات وتدرجات خلقه وتكوينه ..

أعرف نفسك أيها الانسان ، ياسليل الطين .. العـائد الى الطين ، اعرفها جيدا وتعرف دقائق الخليقة ، فان الخالق المصور يهديك الىأسرار الوجود ، لاتجادل الخلق والابداع ، ولكن لتقر بالقدرة ثم تتدبر معانيها

لقد فتح الله للعقل البشرى طاقات العلم وسلط عليها من لدنه نورا ساطعا ، صادقا أرشد الانسان ، ووسع مداركه ، واحاطه علمـا بذاته ، وعلى الانسان بعد هذا أن يعرف وان يستغل هذه المعرفة عساه يستطيع أن يهتدى الى حقيقة ، قد تفيده ، أو ينتفع بها عن طريق ماتعلم وعلم ..

هكذا خلقت أيها الانسان ، فتدبر نفسك ، وتابع ومضـات النـور الهادى ، وهى تخرج بك من معرفة الى معرفة .. ومن حقيقة الى حقيقة اخرى ، لتعرف أن المنتهى لم يتحقق عند اللحظة التى شاءت القدرة فيها أن تكسو العظام لحما .. فهناكاطوار .. خلقية جديدة ، استتبعتاكتساء العظام باللحم ، ثم تسمية ذلكم الكائنالناتج الجديد الذى انتهت اليهعملية التدرج الخلقى باسم الجنين .

هذه الاطوار ، أبدا ، لا يتركك النور الوضاء الكاشف حائرا أمامها ، بل انه ليسارع ليجلوها لك بومضات منه ترشدك الى تعرف وتبيـان ما تريد ، ما دام الله الحق ، قد اراد لك أن تعلم ، وأن يمن عليك بالمعرفة ، فعلمك ما لم تكن تعلم ..

عند حالة تكوين الجنين ، التكوين التام المفصل ، يقف بك العلم ، لتتلفت حواليك ، حتى يرشدك النور ، الى تتبع ما يحدث بعد هذا ، ويكشف لك السر ، والتدرج الخلقى ، ليهديك الى المدخل فتتقدم ، وتحاول أن تعرف وأن تعلم المزيد ..

((يخلقكم فى بطون امهاتكم خلقا من بعد خلق فى ظلمات ثلاث ..))

تلك دقائق وقف عندها العقل البشرى ــ موقف الحائر ، المتردد الوجل ، الذى سمع ، وآمن ، ثم لم يكلف نفسه عناء البحث ليفسر على هدى النور هذه الظلمات الثلاث ..

كان ذلك فى أيام خلت .. قد تكون يوم نزول الذكر الحكيم .. ووقوف الناس منه حزبين .. وقد يكون بعد ذلك بقرون ، وقرون ولكن ..

ولكن .. وبعد ان استنار العقل البشرى ، وتحرر من قيود ، وقيود ، وجعل العلم ومستحدثاته فى خدمته ، وبعد أن جرؤ الانسان ، على دراسة علم وظائف الأعضاء ، وأقدم على اجراء تشريح الجسد المقدس ، الذى كان يعتبر الاقدام على لمسه ، أو تعرف دقائقه ، حيا أو ميتا ، جريمة لاتغتفر ، تكلم ، وفسر واستعان فى كلامه وتبيانه بالنور .. وراح يصف تلك الظلمات الثلاث ، التى ظلت مجهولة حتى أنارها وفسرها الباحثون ..

وقد أعفى نفسى هنا ، عن الدخول فى مجال التفاصيل العلمية البحتة ، والكشوف المحققة علما وعملا ، والتى أثبتها العقل البشرى المجتهد المدقق فى تتبع هذه الحقائق وهذه الفتوح العلمية — فتلك امور بعيدة كل البعد عن بحثى وتخصصى ، ولكنها رغم ذلك تمس كل المساس بعض دقائق الموضوع الذى أتحدث فيه ، ومن أجل هذا أطرق بابها الفسيح فى هوادة المشفق على نفسه ، غير الراغب فى اقتحامه ، الا فى حدود الرفق وعدم التعمق ، مسترشدة فى هذا بالنور الأعظم أولا .. ثم باجتهاد العقل لأقول بعدها ، أن بعض علماء الأجنة حددوا هذه الظلمات الثلاث التى ورد ذكرها فى محكم الكتاب — بتطورات خلقية ثلاث يمر بها الجنين هى ..

اولا — الطبقة الخارجية المسماة علميا باسم « أكتوديرم » .

ثانيا — الطبقة المتوسطة المسماة علميا باسم « ميزوديرم » .

ثالثا — الطبقة الداخلية المسماة علميا باسم « أندوديرم » .

هذا ما يفسر البعض به الظلمات أو التطورات الثلاث ، وهو رأى يقف أمام رأى علمى آخر يقول أصحابه ، أن هذه التطورات الثلاث سبق الاشارة اليها آنفا — انما تخص التكوين الخلقى نفسه خلال التدرج من النطفة حتى الوصول الى مرحلة تكوين الجنين ، وأنها ليست الظلمات الثلاث التى أشار اليها الذكر الحكيم .

وهنا نسارع الى رأى آخر قد يكون الأصح الى حد بعيد ، وهذا الرأى يقول ان الظلمات الثلاث التى عناها النور ، وعينها ، هى فى واقعها حواجز وأغشية تغلف الجنين الرخو بعد استكمال خلقه الأول ، فتحميه من مؤثرات يعلمها الله وحده ، وتقيه شر أعراض ، قد تصادفه ، وتساعد على نموه خلال مدة الحمل ، وأن هذه الأغشية اى الاغطية .. أى الظلمات التى تحجب بعض أجزاء الجنين عن البعض الآخر لا تدخل فى تكوين الجنين نفسه ، ولكنها تؤدى عددا من الوظائف الهامة اثناء الأدوار الجنينية ، ثم تنفصل بعد ذلك الجنين وبعد انتهاء مدة الحمل ، وحدوث الوضع ، فيتركها وراءه فى الداخل .

اذا .. فتلك الظلمات الثلاث ـ هي في واقعها اغطية حاجبة ، او اغشية مانعة واقية ، لا ارتباط بينها وبين الجنين وليست من اصله ، او من مادته ولكنها فقط ظواهر مساعدة ، تعترض الجنين تلقائيا ، وبتقدير الخلاق العظيم لتؤدى وظيفة ما ، خلال مدة معينة مقدورة ، تصبح بعد تمامها وانقضاء امدها ، غير ذات اهمية او موضوع ..

وهذه الأغشية ، أو الحجب ، أو الظلمات الثلاث كما يسميها النور الأسنى في محكم بيانه ووصفه ـ اصطلح العلم الحديث على تسميتها بالأسماء التالية :

أولا ـ الرهل والكريون .. وهما مسميان لشيء واحد يمثل غشائين للجنين ، أولهما داخلى وهو الرهل ـ أى الأمنيون ـ ويحتوى على السائل الرهلى الذى يحيط الجنين ليربطه حتى لا يجف ولا يضمر ويظل محتفظا بليونته ، وفوق هذا ، يكون وقاء مانعا يحمى الجنين من الصدمات ، ويقيه من شر آثارها عليه .

اما ثانى الغشائين ، وهو الغشاء الخارجي للجنين ، فانه يشارك الرهل وظيفته ، ويتمم عمله الوقائى ، فالأول من الداخل ولهذا يحتفظ بسائل رهلى ـ أى أمنيوتى ـ ، أما هذا فخارجى ، ولا يحتفظ الا بصفاته الواقية للجنين من شر الصدمات ..

ثانيا ـ أما ثانى الظلمتين ، فهو ما يعرف باسم الغشاء المنبارى ، وهو جيب صغير متدرج يمتد بين الرهل والكريون ، وتكمن فى غشائه الممتد شبكة كبيرة من الأوعية الدموية ، تجعل من هذا الغشاء المنبارى اداة فعالة التنفس والاخراج للجنين الثانى ، فتمتص الأوكسجين وتخرج ثانى أوكسيد الكربون ، وعن طريقها تنتظم حالة تبادل الغازات .

ثالثا ـ الكيس المخى .. وهو ثالث الظلمات الثلاث التى أشار اليها النور الهادى .. وهو غشاء كيسى يحيط بسطح المخ احاطة تامة حتى ليكاد ان يغلفه ، فى الوقت الذى يتصل فيه بالأحشاء عن طريق جذع المخ ، وفى جدران هذا الكيس ، أو الغشاء المخى تتكون شبكة من الأوعية الدموية تنقل امتصاصات المخ الى الجنين .

هذه هى الظلمات الثلاث التى فسرها العقل البشرى المجتهد على هدى النور الأسنى .. وهو كشف افاد البشرية ، وانتفع به الناس جميعا ، وكان الهادى المرشد اليه ، هو الذكر الحكيم ، نور القلوب ، ونور البصائر ونور العيون ..

ان العقل البشرى ، وهو فى حمى النور ، يتتبع هداه ووحيه وارشاده لا يكاد يخرج من معرفة ، الا ليجد نفسه امام باب آخر متسع فسيح من

أبواب المعرفة ، يؤدي الى مجالات عرفان ونورانية ، وتبصر فيها ذكرى وفيها آيات بينات من الهدى والعرفان الذى تعم نورانيته الدنيا ، وتشمل فوائده الناس جميعا ..

وان هذا العقل البشرى ، المتيقظ الواعى ، فى مصاحبته للنور ، وتتبعه لمسارى ومضاته المضيئة الكاشفة يقطع اشواطا بعد اشواط فى مراحل المعرفة تنسيه ارهاقه وهو يتابعها ، ليساير موكب النور ويطالع الدنيا ومن فيها بهديه ..

لقد كشف النور للبصائر الانسانية أسرار الخليقة .. وجعل العقل المتطلع يتابع أطوار الانسان طورا بعد طور ، حتى وقف به أمام الظلمات الثلاث ثم .. تراه بعد هذا يتابع ارسال أضوائه وانواره الباهرة ..

((والله أخرجكم من بطون امهاتكم لا تعلمون شيئا ، وجعل لكم السمع والأبصار ، والأفئدة لعلكم تشكرون ..)) !!

فالله الحق ، هو الذى جعل النطفة فى قرار مكين ، ثم وبأمره وقدرته جل وتعالى ، سارت فى أطوارها الخلقية حتى صارت جنينا ، تتغشاه ظلمات ثلاث طوال مدة الحمل ..

ثم هو .. الذى يخرج الجنين من بطن أمه ولكن .. قبل أن يكشف النور الأسنى هذا الخروج ، ويبين مسيره وتدرجه ، هل كان الانسان يعرف كيف يخرج الجنين ، وعلى أية صورة !!

أن الجنين يخرج بصورته المعروفة ولكنه ، يكون اعمى اصما ، لا احساس لديه ولا شعور ، رغم وجود العينين ، والأذنين ، وبقية الحواس الأخرى ، ثم .. يهبه الله بعد مولده وخروجه من بطن أمه مباشرة ، نعمة الابصار والسمع ، والفؤاد ، فلا يلبث أن يبصر ويسمع ويحس !!

أجل .. يبصر الوليد .. ويسمع .. ويحس ، وينشق نسائم الوجود ويستمتع بروعة الحياة ..

ولنترك الانسان بعد هذا ، وقد عرفنا ، وعرفنا كيف خلق ، ومم خلق .. وعرف هو أيضا نفسه .. وتدبر جيدا كل ما عرف .. ثم عرف كيف يستغل تلك المعرفة فى الوصول الى ما يفيده ويفيد الناس ، ويأتى عليه وعلى غيره بالخير كل الخير ..

لنترك الانسان حيث أراد لنفسه أن يكون .. لنتركه الى نفسه يبحث ويفحص ، وينقب ، ويدرس ، ويتدارس ، وقد صار العلم على هدى النور الأسنى هويته ، وهدفه ، ثم لنساير ركب النور الهادى .. ونتابع اشراقاته المتجددة التى تضىء ما خفى على الأذهان ، ويوضح للفهم ، كل ما دق عليه من أسرار ذلك الوجود ..

ان الديانات بلا جدال ــ ثورات دافعة قوية ، تدفع الى التقدم ، والى النضال وانها لتحارب الظلام ، أيا كانت صفات أو مواد ذلك الظلام ، وخاصة ظلمات الجهل والاستسلام الى الخرافات والتقاليد البالية ، التى تغلف العقل بحجب داكنة تحول دونه ونفاذ بهرج النور اليه ، ليستمتع بجميل سناه ..

ان الدين لنعمة عظمى .. طفرة فى سبيل الوصول الى الكمال والمثالية وان الرسالة لتهدى الى تلك الحقيقة المشرقة ، وان الكتاب الدليل الحق الى كل ما نبغى ونريد ، ففيه البيان ، وفيه التبيين ، وفيه الهدى ، وفيه الرحمة والبشرى للمسلمين ..

((ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شىء ، وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين ..)) .

ففى الكتاب ، معجزة محمد الباقية الخالدة التى نزلها الله عليه ــ كل شىء .. وتفصيل كل شىء .. فهو النور الهادى .. وهو السنا الوضاح .. وهو المعلم المرشد ، الذى يزود العقل البشرى بكل قوة ، وكل جلد ، وكل اصطبار ، ليشق طريقه وسط ظلمات الوجود ، فيكشف الاسرار بما وهبه الله من جلال النور ، ومقدرته التى لا تبارى ، ويكفيه اعجازا انه وصل بالفهم الانسانى الى بدايات الأسرار ، فأوضحها له ثم .. وبعد أن ظن أنها جميعا تكشفت له ، ودنت ، وتصورها ملك يديه ، ما لبث الاعجاز أن تملكه فعرف أنه وصل ولم يصل ، وعرف ولم يعرف ، فأحنى رأسه للقدرة القادرة الهادية ، وقد أرشدته الى حقيقته ثم أشعرته بعجزه ، وانه لا شىء أمام القدرة العظمى القادرة الهادية ، وقد أرشدته الى حقيقته ثم اشعرته بعجزه ، وانه لا شىء أمام القدرة العظمى وأنه منها واليها ، وان حتمية الخلق ، تحتم عليه أن يتجه اليها بكل توقير واحترام وخشوع واخلاص ..

((.. ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور)) !!

وهذا نور من النور .. نور جليل يقرر أن البصيرة هى التى ترى ، وهى التى تبصر ، وهى التى تميز ، وان العين وان كانت حاسة الابصار ، فان ما ترى به وما تكشفه ، لا يمكن أن يصل الى مستوى ما تراه البصيرة وما تكشفه ، وما تطلع الانسان اليه ، من شعور يسبق الرؤيا ، ومن تجسيد روحى للرؤيا ، قبل أن تعكس صورتها العين ..

فالانسان يرى بعينيه العالم المادى وما فيه ، ولكنه يرى بقلبه عوالما عديدة غير عالمنا المادى هذا ، عوالم لا يعلمها الا الله ، الذى يهدى الوجدان ، بآيات من النور الى تلك العوالم التى يقول عنها سبحانه وتعالى :

« فلا اقسم بما تبصرون ، وما لا تبصرون .. »

حتى ليتساءل الانسان .. أى شيء هذا الذى نبصره ونراه ، وأى شيء هذا الذى لا نبصره ، ولا نراه وقد خلق الله لنا العينين لنرى بهما كل آياته سبحانه وتعالى ..

هنـا يبين على هدى النور معنى القلوب التى يعقل بها الانسان ، وهى البصائر النورانية ، العامرة باشعاعات الايمان المنير ..

فهذه القلوب المبصرة ، تبصر دون عينين .. دون أداة بصر .. ترى باحساسها الصادق .. والاحساس فى وصفه ومجرد تشبيهه الحق ، نوع من أرقى انواع الرؤيا وأجلها وأعظمها شأنا ، فالرؤيا عن طريقه جليلة ، عظيمة ، لا يحدها بصر ، ولا يشملها فراغ ، ولكنها تشمل كل فراغ ، وتنير البصيرة باحساس من النورانية ، هى السعادة ، والاحساس بالارتياح ..

والقلوب المبصرة فى سبيل كشفها للحقائق الغيبية ، ترى بالشـعور الصادق .. وهذا الشعور بدوره هو التمييز المعنوى للرؤيا ذاتهـا ، وتوضيحها وتفسير دقائقها المستغلة ، عن طريق الالهام ، وهو نوع من أنواع الوحى الروحى ، الذى يتغلغل فى الظواهر تغلغل الاشعاعات الكاشفة ، فيراها العقل على أصولها الحقة ، ويتعرفها فى دقة ووضوح ويكون علمه بها ، علم متمكن مستقر فى حنايا الوجدان ، لا تعدو عليها الذاكرة .. ولا تغيب صورته عن القلب ، وهذا هو الخلود .. خلود الرؤيا ، واستمرار مثولها امام الوجدان !!

والنور اذ يقرر أن القلوب التى فى الصدور ، هى تضل وتعمى ، ولا ترى الحقائق .. فهو يرشد الى لون علوى من ألوان الرؤيا .. رؤيا القلوب .. رؤيا الوجدان .. وهى تغاير رؤيا العيون ..

فالعين ترى .. والقلب يرى .. وفرق واضح وكبير بين هذه الرؤيا وتلك !!

فالعين ترى الظواهر ، وابصارها والحالة هذه محدود ورهين بضرورة وجود كائن قائم تنعكس صورته فى أحداثها فتنتقل الصورة الى العقل ، فيجسده على هيئته المعروفة ، وتتضح رؤياه بالمشاهدة العينية وهى أمر يحدث فى حالة تمام الوعى ..

ومعنى هذا ان العين لا ترى ، ولا تبصر الا فى حالة واحدة فقط ، هى حالة اليقظة ، وانتباه وتفتح العين واستعدادها للرؤيا ، ولكن القلب .. أى

البصيرة ، التي جمعت في ذاتها كل الاحاسيس فانها ترى كما ترى العين وهي في حالة اليقظة والوعي التام وذلك باحساسها .. وترى أيضا في حالة الغيبوبة الكاملة ، كالاغماء مثلا ، أو النوم ، والاستغراق في ثباته ، وذلك عن طريق تصورها ، وتطلعها ، واحساسها ، واتساع آفاقها ، وامتداد قواها النورانية الى ما وراء حدود عالم الماديات !!

فالقلب والبصيرة حاسة ابصار نافذة قوية ، ترى عالمين فسيحين رحبين ، أبانهما النور .. هما : عالم الماديات ، ذلك الذى نعيش فيه ، وعالم المعنويات ، أو الروحانيات ، أو العالم الذى لا نراه ولا نرى فيه !!

ورؤيا القلب في عالم الماديات ، رؤيا حسية ملموسة ، ولكنها بالنسبة للعالم غير المنظور ، رؤيا من نوع لا حدود له ولا قيود . فالقلب يرى العوالم المنظورة بحاسة التخيل والتصور ، والاعتماد على بعض التفصيلات التى أبانها النور فى كشفه لبعض دقائق تلك العوالم التى لا نراها ، وان جلا النور دقائقها وقضى بوجودها ؛ ذلك لأن بين حواسنا البصرية ، والبصيرية ، وبين تلك العوالم التى اقسم بها الحق سبحانه وتعالى ـ حجب وستور حاجبة ، تحول دوننا والرؤيا ..

ولكن .. هناك حالات من الجلاء البصرى .. فيرى بعضنا بالعين ، ما يتصوره القلب وتتخيله البصيرة ولكنها رؤيا محدودة لا تمتد الا نحو حدود معينة ، بسيطة جدا ، لا تعني رؤيا كشف غوامض ، بل تبيان اشخاص ومخلوقات عادية ، وصفها النور فى بيانه المعجز ، وحدد الذكر الحكيم صفاته فى سرده الخالد ، فهى قريبة من العين وان لم ترها ، قريبة من القلب بتصورها وتمثلها .. وهذا أيضا نور من النور ! !

ولنترك بعد هذا ما لا نبصر ، وما لا نرى ولنسارع الى ما نبصر ؛ وما نرى ، وما نشاهد من عظائم الآيات .. ونتابع النور الهادى وهو يجلو بعض حقائقها ويرشد العقل المبصر اليها ويهديه الى بعض منافعها .

ثم لنعود فى سرعة الى أول آيات الذكر الحكيم نزولا على امام المرسلين محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم وهى :

((اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الانسان من علق ..))

لنقول أن أول شىء هدى اليه كتاب الله ، بعد الايمان به سبحانه وتعالى ، وأرشد اليه الهادى هو حقيقة خلق الانسان ، ذلك الكائن العظيم ، الذى جاء من ((**علق**)) تافهة ، أصبحت بقدرة الخلاق العظيم .. ذلكم الانسان ، المستخلف على الأرض ! !

ثم لنسير بعد هذا مع الذكر الحكيم لنتتبع النور ، وهو يخرج بنا من حقيقة الى حقيقة ، لولا الدين ونورانية الرسالات وفاعليتها ما اهتدى الى شىء مثلها ذلك الانسان .

((اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الانسان مالم يعلم ..))

فالنور هنا وهو يقرر وجود القلم ، ويضعه موضع المساعد فى تلقى العلم ، انما يبين حقيقة القلم ويرشد الى عظيم دوره ، وما يوليه للعلم من خدمات حين يدون ويسطر ويفسر ويثبت ، ليكون المرجع الهادى فى كل شيء ..

فالقلم اداة لها فاعليتها الكبرى فى تنوير العقل البشرى ، ودفعه قدما الى الكمال ، والطفرة وتحقيق المعجزات ، وان جلال دور القلم ليبدو فى أن الله القادر اقسم به فى محكم كتابه اذ قال عز من قائل :

((ن ، والقلم وما يسطرون ..))

فالقلم ولا شك شيء له اهميته ، واثره ، فالرسالة فتحت للعقل البشرى ابواب الحقائق والمعرفة .. والبصيرة استوعبت تلك الحقائق .. والقلم راح يعبر عن تفهم ما وعى العقل ، وراح يترجم ما وعيه وحفظه ، الى لغة البشر وكتاباته فسطره وسجله واثبته ..

والله الحق علم الانسان أول ما علمه ، عبادته ، والاقرار بوحدانيته ، ثم ارشده الى الحقائق ، وأولها حقيقة خالقه ، وأسرار وجوده ، ثم أسرار الكونيات العظمى .. بدأ القلم يلعب دوره ، وها هو ذا يقف امام أضواء جديدة يلقيها النور ، ويلتقطها القلم المسجل ليتفحصها ، لأنها روح من ارواح العلم ، وخطوة فى سبيل اقراره ونشره ومفتاح يهدف الى كشف ظلمات كانت مستغلقة على الناس منذ أقدم العصور ، أيام أكبوا على الضلالات ، ولم يكن لديهم من النور ، أو الذكر الحكيم ما يهديهم الى مثالية أو كمال ..

وان النور ليسطع ويتألق ، وانه لينتشر على رحاب الأرض ، وفى ملكوت السموات ، وان العقل ليتابعه ، ليهتدى به ، وهو يرتاد كل مجهول ويكشف كل جنة ويفجر كل طاقة ، ويسخر ما اراد له الله أن يسخره لخدمته من جلائل الآيات العظمى التى خلقها الله لتكون فى خدمة الانسان .

((أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حى ، افلا يؤمنون ..)) ؟ !

أضواء نورانية سلطت على حقائق الوجود ، ما وصل عقل الانسان الى تعرفها ، لولا هذه الأنوار وما أبانته ، لولا تسجيل العقل لهذه الحقائق التى استغلقت طويلا على العقول وكان لأصحابها فى العصور المتأخرة فى تفسير ذلك غرائب مذهلة بعيدة كل البعد عن الواقع ..

أما وقد استنار العقل ، وتفتح ، وتفتحت له طاقات المعرفة ، فاننا نقول : أليس فى قول الله هذا الذى أوردناه ما يرشد الى حقيقة التكوين الكونى ، التى يسميها الجغرافيون باسم ((**النظرية السديمية ..**)) ! !

ان النظرية تقول : كان العالم بأسره . « أرض وسماء وكواكب وشموس واقمار » . سديم سابح فى الفضاء ، تعرضت بعض اجزائه لعوامل طبيعية ، فاختلفت حرارته ، وباختلاف حرارته تلك تعرض هذا السطح لتقلصات متعددة ، اضطربت معها وحدة السديم واستقامته المديدة ، فتفجر فى بعض مناحيه ، وحدثت انفصالات فى بعض النواحى الأخرى ، فتفتت وحدة السديم ، واذا هو يصبح الأرض وما حوت . والسماء وما انتثرت فى صفحتها من كواكب واقمار وشموس يرجع كلها الى أصل واحد هو السديم .

هذا هو الرتق .. التقلص .. كما يقول العلم ، ثم تفتت اجزاء السديم وتباعدها فى الفضاء ، ثم وقوفها فى مدارات مستقرة بفعل قوانين الجذب ، فكانت الأرض أولا وهذه بوصفها كانت قطعة من السديم ، كانت نارا وبخارا ، ثم راحت تعتورها البرودة ، وتنطفىء جذوتها شيئا بعد شىء على مدار قرون ، حتى صارت هذه الأرض التى نعرفها .

الأرض الميتة التى وضع الله فيها من عنده سرحياتها ، وهو الماء !!

كان الماء هو أول مظهر للحياة تفجر على الأرض ليحييها هى وكل مشتقاتها ، ومنها ذلكم الانسان سيدها ، الذى استخلفه الله عليها ، وأرشده أول ما أرشده الى حقيقة الماء ، كأصل الوجود ، وسر الحياة .. وأساس الوجود والاستقرار !!

هذا ماقرره العلم واثبتته احدث نظرياته المدروسة فى شتى انحاء العالم ...

وقد اعتبر الجغرافيون الوصول الى تعرف السديم ثم تفسير النظرية السديمية فتحا خارقا للعادة فى دنيا الكشف والعلوم ، ولم يلبث أن ضل العقل البشرى فادعى عن جهالة — انه وحده من كشف تلك الحقائق وحلل أصل الكون ، وكيفية نشوئه ، وتكوينه ونسى فضل النور — وبراعة الذكر ، ودقة التنزيل ، وروعة كلام الله الحق ، وهو يصف ويحلل ويرشد الى حقيقة ما سوى وما خلق ....

((قل ائنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له اندادا ، ذلك رب العالمين ، وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها اقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين ، ثم استوى الى السماء وهى دخان ، فقال لها وللأرض ائتيا طوعا او كرها ، قالتا آتينا طائعين ..))

تلكم ولا شك هى الثورة السديمية .. هى التكوين السديمى .. هى فترات التقلص ، والتعرض للاحداث والانقلابات ، والتغيرات الجوية ، ثم تفتت السديم كله الى أرض ثبتت مكانها بالقدرة وبقوانين الجذب ، وسماء ، ظلت مكانها بنفس القوة والارادة ، وأصبح لكل من جزئى ، أو أجزاء السديم التى انفصلت عن بعضها — مميزات وصفات ، فهذه ارض فيها الماء والزرع والأشجار ، وتلك سماء فيها متناثر النجوم ومنير الكواكب والأقمار .

ذلك هو السديم .. الدخان السابح فى فضاء الله ، الذى أمره سبحانه أن يكون أرضا وسماء ثم أمرهما بعد أن أتم تكوينهما أن تأتياه طائعتين ، فأطاعتا ، فامتدت اليها يد القدرة الخلاقة المبدعة ..

« فقضاهن سبع سموات فى يومين وأوحى فى كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ، ذلك تقدير العزيز العليم .. »

هذه هى حقيقة التكوين الكونى ، كما ذكرها فى محكم التنزيل .. وان ما تقول به أصحاب النظريات العلمية بعد ذلك ، لهو تطبيق وتأكيد لقول الله ، وهدى النور الذى نفذ الى العقول البشرية ، التى سجلت بالقلم ما أشدها اليه النور ، وراحت تتقصى وتبحث وتنقب وتعيد الأشياء الى اصولها .. ثم استمرت فى مسيرها ، وجعلت من هذه المعرفة التى وصلت اليها علما واسع الجنبات عظيم القدر أسمته علم الجغرافيا ! !

وقسم العقل البشرى هذا العلم الى أصول وفروع وأقسام ، فمنه الجغرافية الفلكية والطبيعية والوضعية وهكذا .. ثم راح العقل البشرى بعد هذا وبعد أن وصل الى هذه الحقائق ، يقدم على دراسة هذه الحقائق الكونية ، وخاصة الفلكيات منها بطرائق شتى ، فأسرع يستنبط المجاهر والتلسكوبات ، والعدسات المقربة ، وانشأ المراصد ، وراح يدون النظريات العديدة التى تشير الى مسير الرياح وتحركات الكواكب والأقمار ، وتأثير هذه التحركات فى اختلاف الليل والنهار ، وتتابع الفصول وحسبان الأيام والسنين .

« ان ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة ايام ثم استوى على العرش ، يغشى الليل النهار ، يطلبه حثيثا ، والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره الا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين » ..

ويسارع النور بعد هذا ، فيعكس أضواء ساطعة منه مع عديد من تلك الظواهر الفلكية فيتفتح العقل على الحقائق الكونية ، ويعرف ان هذه الظواهر ليست غير آيات مسخرات بأمر الله لتؤدى ما كلفت به من أعمال لها مكانها فى نظام الخليقة ، واستقرار الكون ، وحياة أهليه .

« وهو الذى يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته حتى اذا اقلت سحابا ثقالا سقناه الى بلد ميت فانزلنا به الماء فاخرجنا به من كل الثمرات ، كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون .. »

بهذه البساطة الاعجازية ، يدخلُ النور القلوب والعقول بأضوائه الكاشفة ، المعلمة ، الهادية المرشدة الى الحقائق ، ووظائف الكائنات ، وعمل شتى مخلوقات الله ليتدبر الانسان آيات القدرة ويرى عيانا قدرة العليم القدير ، الذى خلق له النعم الجليلة ، ثم ارشده اليها ، وعلمه وظائفها ، ليدرك الأسرار ، ويسخر هذه الجلائل العظمى لأمره وصالحه وخدمته ومنفعته ، ونفع بنى جنسه أجمعين ..

لقد عرف الانسان كيف خلقَ الله العالم ، وكيف كانتَ السماء .. وكيف كانت الأرض .. ثم عرف وظائف كل .. ثم كان عليه بعد هذا ؛ أن يعرف الحكمة من وجود هاتيك الظواهر العظمى ، التى تملأ ما بين السماء والأرض ، وخاصة أعظم هذه الظواهر ، وأجلها شأنا ، وهى ظاهرة الليل والنهار ..

جعل الله الليلَ لباسا وسكنا ، وجعل النهار معاشا وسعيا .. ولكن مادمنا حتى الآن فى حدود العلم ، ودراسة وظائف هذه الظواهر فلنقف أمام ظاهرة الليلْ والنهار ، ولنسرع الى النور ، لنرى الى أى حقيقة عن هاتين الظاهرتين يرشدنا .

« وجعلنا الليلَ والنهار آيتين فمحونا آية الليل ، وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ، ولتعلموا عدد السنين والحسابَ ، وكل شىء فصلناه تفصيلا .. »

وها نحن أولاء نعرف جيدا .. ان فىَ خلق الليلَ والنهار لآية .. وان فى تتابع الليلَ والنهار ، لما يعنى الحساب الخاص بمسير هذه الأيام والليالى ، فهى حياة ، وهى عمر الانسان على الأرض .. ثم هى سنين واعوام ، لن نعدها ، ولن نتمكن من حصرها الا اذا تابعنا مسير الليل والنهار ..

ولنبق حيث نحن بعد هذا .. لنبقَ عند آياتَ السماء وظواهرها .. عند الكواكب والشموس والأقمار وبقية الأجرام السماوية ، لنتبين منها ما تعنيه وماهية أعمالها الكونية التى تؤديها لخدمة الناس ..

ان ابسط الظواهر تقول ان الشمس تنير ، وبيعث نورها الحياة فى الكائنات .. كل الكائنات وان اشراقها هو النهار .. وغروبها هو الليلَ الذى يجلو القمر ظلماته الداكنة وينيرها بأشعته الفضيةّ المنيرة ولكن .. اذا بحثنا علميا فى الوظائف الكونية لهذه الآيات العظمى ، وجدنا أن النور

ارشدنا الى أن لها غير الانارة وهدى الناس ، وبعث الحرارة والدفء فى الكائنات ، وظائف أخرى ؟!

((وآية لهم الليل نسلخ منه النهار ، فاذا هم مظلمون .. والشمس تجرى لمستقر لها ، ذلك تقدير العزيز العليم .. والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم .. لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار ، وكل فى فلك يسبحون ..))

هذا هو ارشاد النور ، فالى اية حقائق علمية اهتدى العقل البشرى ، وهو يتابع ومضات المعرفة واشراقات النور !!

الشمس تجرى لمستقر .. أى أن هذه الشمس التى نراها ثابتة فى كبد السماء ، تتحرك وتسير ولها دورة ونظام وعمل ، وان هذه الدورة مرتبطة بنظام دورات القمر الذى قدره الله منازل ، ألزمه حدودا ، فلا الشمس سابقته ، ولا هو سابقها ، ولا الليل سابق النهار ، لأن الجميع يخضعون لدورة مرتبة منتظمة تترتب عليها حياة الكائنات !!

تدور الأرض حول نفسها مرة كل يوم وليلة ، فيحدث الليل والنهار ، ومرة حول الشمس فى كل سنة فتحدث الفصول الأربع الصيف والخريف والشتاء والربيع وهكذا .. ومن دورة الأرض حول نفسها مرة كل يوم ، تحدث دورة أخرى شهرية للأرض حول القمر فهى تدور حوله كل شهر مرة فتظهر مع هذه الدورة منازله أو وجوهه المتباينة المختلفة من محاق الى هلال ، الى تربيع أول الى تربيع ثان الى بدر مشرق منير ، يستدير مرة ثانية ،حتى يعود الى المحاق ..

والله بعد هذا يقول : ((**وكل فى فلك يسبحون ..**)) أى أن السديم الذى انفصل الى أرض وسماء مازال يسبح فى الفضاء ، بل ، يدور بانتظام حول بعضه ، تمشيا مع نظام الحركة الكونية لتظهر هذه الظواهر الكونية جمعاء ..

فلو أن الأرض ثابتة ، ما كان هناك ليل ولا نهار ، ولو أن القمر ثابت ما كان الكسوف وما كانت أوجه القمر وما كان المد والجزر فى البحار ، ولو أن الشمس ثابتة ، ما كان هناك تغير فى الفصول ، ولا تبدل فى أحوال الجو ، وما أهطل المطر ، ولا سار السحاب ، ولا أينعت الأرض ، ولا كانت هذه الحياة ..

ذلكم عن الشمس والقمر والأرض .. فلنسأل بعدها عن النجوم ، وان النور ليسارع الى كشف وظائفها ، وتبيان عملها الموكول اليها .

« والنجوم مسخرات بامره ، ان فى ذلك لآيات لقوم يعلمون .. »

فما النجوم ياترى ، وما وظائفها ، بل .. ما هى مواقعها تلك التى يقسم بها الله فى قوله :

« فلا أقسم بمواقع النجوم ، وانه لقسم لو تعلمون عظيم .. »

فالشمس لها مستقر ، وللقمر منازل .. ثم .. وعلى هدى « النور » نقول ان للنجوم مواقع ..

وهذه المواقع ، لا شك أن فى وجودها حكمة وفائدة ، والا ما اشار اليها الحق ، ولا اقسم بها .. وان هذه المواقع الثابتة التى لا تتحول من أماكنها مع دورات الفلك ، ودورات الأرض وبقية الأجرام السماوية ، لابد وأن لثباتها فائدة وانها لتبين فى سرعة فى قوله تعالى :

« وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر ، قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون .. »

فترى .. ما هى هذه النجوم التى تهدى السالكين فى الأرض والبحر .

« ان عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا فى كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم ، ذلك الدين القيم .. »

كلنا يعرف النجم القطبى ، دليل السالكين ، الذى يرشدهم الى الامان .. النجم الذى تتجه اليه عيون مجتازى القارات ليحدد اتجاههم ويرشدهم الى مقصدهم ، والذى ترتبط بمشرقه ونوره عيون عابرى المحيطات ، ليسيروا على هديه فى الاتجاهات الطولية والعرضية ، التى تحدد مواقع الموانى والقارات والبلدان ..

النجم القطبى ، هو النجم الهادى الذى لا يتحرك من مكانه المستقر الذى يميل ناحية الشمال التى اذا ما تحددت وظل تحديدها ثابتا مستقرا سهل تحديد بقية الجهات .

النجم القطبى هو النجم الهادى ، ومجموعته هى التى تهدى السالكين اليه ، ومجموعته هو فى راسه ، ومن بعده الدليلان والدب الأصغر والأكبر .. وبضع نجوم أخرى ثابتة .

ذلكم هو النجم الهادى فى الليل .. ولكن .. اذا غامت السماء .. فماذا يحدث !! وهل يستطيع النجم أن يهدى الضال الحيارى ، وقد حجبته السحب والغيوم !!

أجل .. انه يهدى بخواصه التى كشفها العقل البشرى .. بمغناطيسية الأقطاب التى جعلت العقل البشرى يستنبط .. الأبرة

المغناطيسية ((**أى البوصلة**)) و ((**الاسطرلاب**)) الذى يتجه نحو القطب الشمالى بفاعلية المغناطيسية الطبيعية ، فيتبع ملاحو السفن الاتجاه الصحيح .

هذه الآيات كلها .. وتلك الكشوف والروائع العلمية العظيمة ، كيف كنا نهتدى اليها لو لم يهدنا النور ولو لم تكن هناك رسالات كبرى تنير العقول بالمعرفة والعلم ، وتثبت وتقرر حقائق الوجود .

((ان فى خلق السموات والأرض ، واختلاف الليل والنهار ، لآيات لأولى الألباب ، الذين يذكرون الله قياما وقعودا ، وعلى جنوبهم ، ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ، ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك ، فقنا عذاب النار ..))

وان النظر فى السماء ، لأمر ربانى ثابت ، وان النظر اليها بناء على طاعة ذلك الأمر — هو دعوة الى المعرفة والى العلم ليصل العقل البشرى الى الاقرار بكامل عجزه ، وتمام قصوره أمام قدرة القادر العظيم خالق السموات ..

((قل انظروا ماذا فى السموات والأرض ، وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون ..))

وقد نظرنا فى السموات .. فماذا راينا ؟! راينا عجبا عجابا .. وعوالم غامضة مجهولة ، مازال الفكر البشرى يحاول ارتياد مجهولها ليكشفه ويظهر حقائقه ، وانى للفكر مهما أوتى من قدرة ان يصل ، ان لم يوجهه النور ، ويكشف له مداخل الأشياء وينير حقائقها ، ويبين له ما حوت من دقائق والغاز ،وتراكيب محيرة للعقول ..

نظرنا فى السماء .. فماذا رأينا .. هل راينا السماء !! واذا كنا قد رأينا السماء ، فالى اى مدى وصل بنا البصر ، وأى سماء رأينا ، الأولى أم الرابعة ، أما بعد هذه وتلك !!

وحتى السماء نفسها .. ما هى !! هل هى ذلك السطح الممتد الذى يظلل العالم ويطل عليه ، والذى تناثرت فى فضائه الرحب الأجرام والكواكب والشموس والأقمار !!

تقول اللغة ان السماء هى كل ما علا الانسان .. وكل ما ظلله ، فسقف البيت يعتبر سماء .. وسماء الكون .. تعتبر سقف الدنيا ، وغطاءها الذى يعلوها .

وعلى هذا .. هل نستطيع أن نقول ان السماء سطح آمن مستقر ، مثل الأرض !!

لا اظن .. وان النور الأسنى ليقول غير هذا .. وانه ليقرر أول ما يقرر ان الشمس والقمر « **كل فى فلك يسبحون** » .. أى فى فضاء يسبحون .. ويتنقلون ..!!

أى ان السماء ليست غير فضاء رحب تستقر فى جهات متباعدة منه كل من الأرض ، والشمس والقمر ، وسائر الكواكب والنجوم .

فالسماء والحالة هذه ، ليست من معدن السديم والا لظهر لها شكل، ولتميزت بظواهر تعرف بها كظاهرة الضوء فى الشمس أو النور فى القمر ، أو الاشراق فى النجوم ، ولكنها ليست بذات شكل محدد ، وان غلبت عليها الزرقة التى يقال انهـا تـكونت من مجموعات الغـازات تغلف الفلك الذى تسبح فيه شتى أجزاء السديم ..

فالسموات ، هى الطبقات العليـا التى تظلل الكون .. كل الكون .. وتغلفه ، تلفه وتحتويه بكل شىء فيه .. وتحديدهن بسبع سموات ، يعنى أن هذه الطبقـات العاليـة تختلف تصـاعديا ، عدة اختلافات مناخية وطبيعية وفلكية ، ولكل منها مميزاتها ومحتوياتها ، ففى هذه نجوم ، وفى الأخرى أقمار ، وفى غيرها شموس ، وهكذا مما لا يعلمه الا الله ..

ولو كانت السماء سطحا مستقرا مثل الأرض ، أو مثل القمر أو مثل الشمس ، ما استطاع الانسان ، أو الشياطين والجن أن تنفذ فيها .. لأن الواقع يؤكد أن الانسان قد تخطى حدود السموات ، وكذلك الجن .. وان الانسان قد تطلع الى غزو القمر ، فكيف يصل الانسان الى القمر ، والسماء سطح مستقر ، قائم ، لابد وأن يمنع المجترىء من اختراقه !!!

فالسماء اذا فضاء فسيح .. محيط غير محدود ، لا أول له ولا آخر ، ولا بداية ولا نهاية ، فهى تشمل الكون ، كل الكون ، وتنتظم الكواكب والأجرام كلها دون تمييز ، وانه يسبح فى فلكها الفسيح ، كل من الشمس والقمر والنجوم .. والأرض أيضا ، وبلا جـدال ، لأن نظريات الكشف الحديثة للعلم ، قد أثبتت أن من تجاوزوا حدود السموات ، وحوموا حول القمر شاهدوا كوكب الأرض هو الآخر ، وهو يسبح فى فضاء فسيح ..

فالسماء فضاء رحب زينته الكواكب ، وفى فلكه استقرت ، وثبتت أو دارت وتنقلت تبعا لقوانين الجذب .. هذا ما يقرره العلم ، وما يقوله العلماء ، وانهم ليقررون ذلك ويثبتونه بشتى الطرق ، وانهم فى أقوالهم يستجيبون لدعوة الله الحق ، الذى أمر الانسان بأن ينظر الى الملكوت ، ويفكر فى خلق السموات والأرض ..

ولنسارع بعد هذا الى الأرض ثم .. لنسائل أنفسنا على ضوء العلم ، ونور النور .. ونقول :

هل السماء وما حوت من كواكب وشموس وأقمار شيء .. والأرض وما حوت شيء آخر من حيث المادة ، والتكوين !!

قد يرى البعض ان الشمس والقمر والنجوم من معادن غير معادن الأرض ، وان تكوين كل منها يختلف فى مواده عن الآخر تمام الاختلاف ، فى حين أن الواقع يؤكد غير هذا .. ولو رجعنا الى الآية القرآنية العظيمة التى تقرر ((**ان السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما .. ؟**)) ثم تدبرنا وحدة الأصل الجامعة لكل من الشمس والكواكب المنيرة ، والأرض المظلمة الممتدة السطح ، ورجعنا الى فحص ذلك الأصل الواحد ، وهو الرتق الذى فتقته يد القدرة قبل انفصاله فى الفضاء الكبير ، لوجدنا أنه بأجمعه من اصل واحد ملتهب متوهج ، وان الأرض وان برد سطحها وتقلص ، فان جوفها ملتهب ، نارى شديد الحرارة ،بدليل وجود البراكين وما تحويه ، وما تقذفه ..

اذا فالنار من التراب دون شك .. ولنتابع شعلة متوهجة .. اذا خمدت وانطفأت صارت رمادا ، والرماد تراب !! وهذا يعنى أن حدة الأصل وهى التراب ، تجمع بين كوكب الأرض وبقية الكواكب المشرقة التى تنير ..

وما لنا نبتعد وعلماء الجيولوجيا ، فى بحوثهم وتتبعاتهم لأصول الأجرام ، يقررون أن هذه الشهب المنيرة هى مواد حجرية مشعة ، وأن النيازك والشهب حين تسقط بفعل التقلصات ، وتصل الى الأرض ، تصل معتمة لا نورانية فيها ولا ضوء ، بل مجرد حجر عادى معروف المادة ، معروف الأصل ..

فالأرض اذا كوكب قد نراه منيرا من أعلا ، بفعل انعكاسات الضوء السابح فى فلك السموات الفسيحة التى تسبح فيها شتى الكواكب جمعاء .. وأن الانسان حين فكر فى الهبوط على سطح القمر ، قدر مقدما مايعنيه هذا الهبوط ، فهو لن يهبط على نور ، ولا على نار ، بل على سطح بارد مستقر ، ممتد المساحة ، كسطح الأرض سواء بسواء مع اختلاف مناخى ظاهر ، وهذا هو الفارق الهائل بين الحياة هنا وهناك ..

اما الشمس .. منبع الضوء والحرارة ، فهى وحدها الجزء الأكبر من السديم الذى انفصل فى العصور الجيولوجية السحيقة الأولى ، ورغم انفصاله وتباعده ظاهريا ، فقد ظل معهذا شديد الاحتفاظ بطابعه المظهرى والباطنى .. طابع كره النار المتأججة الشديدة التوهج ، الأبدية الاشتعال، التى لم تتأثر درجات حرارتها العالية بمرور القرون التى لم يحصرها عدد ، ولا بالتقلصات التى اعتورتها شقيقاتها البعيدات ، ولا بتقلب الأجواء وتغير درجات الحرارة والرطوبة ، ولكل منها تأثير أى تأثير ..

فالمادة السديمية التى هى اصل هذه الكواكب جمعاء مادة واحدة فى معدنها واصولها وتكوينها ، وأن تغيرت فيها القشور والمظهريات الخارجية فى كواكب الكون السابحة فى محيط الفلك الأعظم ، كما ان الصلة التكوينية بينها لم تزل ازلية سرمدية ، منذ اقدم الحقب ، وانها فى وجودها وثباتها ، واستقرارها راسخة حيث هى دليل على تماسكها رغم المسافات التى لا تقدر ، وهذا التماسك يبدو ولا شك فى تجاذبها المغناطيسى ، الذى لو لم يكن موجودا ، ما كان البقاء ، ولا كان الكون ! !

فالسديم عندما انفصل من حيث الشكل ، ظل متماسكا متجاذبا من حيث التكوين ، وأن الأبعاد بين الارض والشمس مثلا ، أو بين الارض والقمر ، أو بين القمر وكوكب الزهرة أو المريخ ، أو عطارد ، أو نبيتون أو غيرها — لأبعاد هندسية مرقومة ، شديدة الحساسية ، بحيث لو وجد فى آمادها وتواصلها اى تذبذب أو اضطراب اختل ميزان التجاذب ، ولكن القدرة تسيطر على مسيرها أو مصائرها ، وترتب تحركاتها ، ومواقعها ضمانا لاستقرار ميزان الكون الهندسى . .

فالسديم المنفصلةاجزاؤه . يتماسكبقانونالجذب الأعظم ، فالشمس صامدة مستقرة ، وهى الأعظم حجما والأكبر جرما ، وهى بحكم كبر جرمها تجذب اليها الارض والارض تجذب القمر ، والقمر يجذبالكواكب والأجرام الأخرى الأقل منه حجما . . ثم تسرى مغناطيسية الجاذبية فى هذه الاجرام جمعاء ، ويشتد ويقوى مع مسير الزمن ، فيتزايد ترابطها وتظل مستقرة ، متماسكة حيث هى ، الى ان يشاء الله العظيم الذى قدر لكل شىء أجله ونهايته .

« ان الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ، ولئن زالتا ان امسكهما من أحد من بعده انه كان حليما غفورا » .

ان الصلة بين أجزاء السديم — الذى تكسر وتشقق وتكون ارضا وقمرا وكواكب أخرى لا يعلمها الا الله — لم تزل باقية ، فهناك زيادة على التجاذب الأبدى بينها ، صلة الاشعاعات والانعكاسات الكوكبية ، فمن هذه الأجرام ما هو مظلم ، ومنها ما هو مضىء ، وهذا يعطى لذلك ، والثالث يستمد حرارته من الرابع فى حين ينير هذا ضوء أو شعاع نافذ من ذاك . .

واظهر ظاهرة ، بعد ظاهرة الضوء والحرارة بين الأرض وشتى الكواكب توجد ظاهرة لا تقل عن هذه الظاهرة أهمية ، وهى ظاهرة الماء ، مصدر الحياة . . ان هذا العنصر الذى تعيش عليه الأرض مصدره سماوى . . وهو هبة ومنحة تأتى باذن الله من الكواكب الأخرى الى شقيقتهن الأرض !!

« أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج ... »

وبناء السماء ولا شك هو انفصال أجزاء السديم وتنـاثرها فى محيط الفلك ، ثم تماسك هذه الأجزاء المنفصلة بتأثير الجاذبية ، واتخاذها مواقف ثابتة مستـقرة هى مواقع الكواكب والنجوم التى بلغ من روعة واتسـاق مواقعها ان صارت زينة رائعة للسماء ، وبهجة للعيون ، ومصـابيح تضىء فجاج الأرض ، وفجاج السماء وترشد الى آيات الله المعجزات الباهرة !!

((والأرض مددناها ، والقينا فيها رواسى وانبتنا فيها من كل زوج بهيج ، تبصرة وذكرى لكل عبـد منيب ، ونزلنـا من السماء ماء مباركا فانبتنا به جنات وحب الحصيد ، والنخل باسقات لها طلع نضيد ، رزقا للعباد وأحيينا به بلدة ميتا ، كذلك الخروج ..))

تلك هى السماء .. وذلك خيرها الدافق .. حياة الأرض .. واذا ، فلنترك السماء وما حوت فقد وعينا من أمرها الكفاية ثم لنسارع الى الأرض حيثما كان موقعها من فضاء تلك السماء العظمى ، ومحيط فلكها الوسيع ، ولنحاول على هدى النور أن نتـدبر خلقها وفلسفة وجودها ، وعمـاد ذلك الوجود .

((وهو الذى أنزل من السماء ماء فاخرجنا به نبات كل شىء ، فاخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكما ، ومن النخل من طلعها قنـوان دانيـة وجنات من أعناب والزيتون والرمان متشابها وغير متشابه ، انظروا إلى ثمره اذا أثمر وينعه ، ان فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون ..))

فالصلة بين أجزاء الرتق ، أو السديم ، ما زالت مستمرة رغم الأحقاب الطوال ، والتعاطف دائم بين كوكب الأرض وبقية الكواكب الشقيقات ، وان الارض ما زالت وستزال تستمتع بأضواء السماء وانوار شموسها والأقمار ، وتحيا بماء السماء المنهمر بأمر الله وتقديره ، فالنور مظهر الرحمة والحنان والعطف ، والماء مظهر الكرم ، فهو سر الحياة ، وهو عطاء الله الأكبر ، من استخلفهم على كوكب الأرض ليعبدوه ، ويقدروه حق قدره ، ويعمروا هذه الأرض ويستمتعون بما أعطاهم من وفير العطايا والخيرات .

((هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون، ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات ، ان فى ذلك لآية لقوم يتفكرون ..))

فالأرض مستقر الانسان ومجاله ، وميدان عمله وعالمه الدنيوى ، ومحط راحته لفترة محددة هى عمره وهى حياته ، وهى سجنه فى هيئته الطينية التى تغلف الروح !!

هذه الأرض .. هبة الله السخية .. الأم الولود .. أم الجسد الترابى .. وأم الزرع ، التى تثبت بتزاوجهـا مع المـاء هبة السماء المتفجرة

بالحياة والحيوية ـ ... هـذه الأرض ابان النور عن حقائقها الكثير .. وارشد الي عوالمها الفسيحة ما ارشد ، فعرفها الانسان ..

اجل .. عن طريق النور الأسنى .. والهام الله ووحيه ـ عرف الانسان الأرض ، واقبل عليها يستمتع بالخير ، ويتملك كل ما عرف .. حتى لنتساءل بعد هذا الذى عرفناه ، وهدانا اليه النور .. فنقول : ما هى الأرض !!

أجل .. ما هي الأرض !! ما هي حقيقتها .. ما هي آمادها ، وما هي حدودها ؟ !

هل الأرض اليابسة ؟! وحتي ان كانت هي .. فهل هي ذلك السطح الثابت الصلب الذى نسعى عليه ونسير ، ونشقه ونرويه فينبت لنا أبهى الثمرات وأضخم الأشجار ، ونقيم عليه مساكننا وعوالم استقرارنا وآيات قدراتنا البشرية !!

هل هذه هي الأرض فقط .. السطح .. مجرد السـطح !! وما على السطح من ثمر ونبات وبناء وحيوان وطير .. !!

ان الأرض باعتبارها كوكب انفصل عن السديم ، واستقر فى موضـعه الحالى ، تشمل السطح والجوف ثم الغلاف المحيط بهذه اليابسة وهو الماء..

ان اليابسة هي على عظم جرمها ، لا تسـاوى أكثر من خمس الجزء المنفصل من السديم ، الذى صار الأرض ، أما أربعة الأخماس الباقية ، فهى الماء .. هي المحيطات الشاسعة التى تستمد ماءها من السماء .. والدائمة الصلة بالسماء وكواكب السماء ، عن طريق التبخر والتأثر بالحرارة ثم عودة المـاء المتبخر الى أصله فى المحيط من جديد !!

هذه هى الأرض التى استخلف الله الانسان عليها وملكه اياها ...

هذه هي الأرض .. اليابسة .. سطحا وجوفا ، ثم المحيطات أو .. الغلاف المائى العظيم غير المحدود الذى يحيط بكوكب الأرض ، والذى يسبح معها هو الآخر فى محيط الفلك العظيم !!

« وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين ، ما خلقناهما الا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون .. »

ولنقف لحظة أمام هذا الاشعاع الذى انعكس من النور على حقيقة ما أروع ان تهتدى اليها لنستوعب معانى جمال هذا الكون وما فيه !!

هناك سماوات ثم ارض .. وبينهما عوالم وأكوان يشير اليها النور الأسنى ويتألف ، كمن يقول للانسان ، هذا مجالك الحيوى ، هذا عالمك النورانى الفسيح الذى انت وحدك سيده ، وحاكمه المتصرف فيه ، فلا تبق حيث انت ، تنظر اليه مأخوذا فى دهشة وتعجب وذهول ، بل أسرع اليه ، وحاول أن تكشف عنه الغطاء ، وتعرف دقائقه ، ودروبه ، ومسالكه ، وأسراره ... ثم تملكه كله فهو لك ، ولخدمتك ، وطوع أمرك باذن الله وهاب النعم الذى كرم الانسان ، وأعلا مقداره ، واستخلفه على هذا الكون العظيم ..

ولما كانت السموات قد عرفناها وصفا وتخيلا ، على أسس من العلم والمعرفة ، وهدى النور الأسنى ، وعرفنا انها الفضاء الشاسع الذى يعلونا .. وهى الفلك العظيم الذى يسبح فيه الكون بشتى كواكبه وأجرامه جمعاء ، فلنتركه مؤقتا مع استمرار وجود الصلة المدعمة بيننا وبينه .. ولنسارع الى الأرض .. الى ميراث الانسان لنتدبر كنهها ، ونعرف دورها معنا !!

ان الأرض فى هذا الفلك المزدحم بما فيه من أجرام وكائنات — هى واسطة العقد ، وبينها وبين السموات عوالم هى الشموس والأقمار والكواكب والنجوم ، وهذه كلها ما خلقها الله عبثا ولا لعبا ، ولكن لحكمة جلت عن الأفهام — يحاول العقل البشرى رغم هذا وعن طريق النور — كشف غوامضها ، كى يستفيد من سيادته المفروضة على هذه الكواكب جمعاء ويمارس سلطات تملكه لميراثه العظيم .

ووطأ الانسان الأرض بقدميه ، ومشى فيها مشية الجبار العاتى ، وقد احس بعظيم دوره عليها .. عرف انه سيدها ومالكها ، فراح يمارس سيادته ويسخر هذه الأرض لخدمته لا عن علم منه ومعرفة ، بل بوحى وارشاد من الله الذى علم الانسان ما لم يعلم .

وأول عمل سيادى مارسه الانسان على هذه الأرض ، هو اعدادها للزراعة والانبات .. وقد اهتدى الى ذلك بوحى من الله .

« فلينظر الانسان الى طعامه ، انا صببنا الماء صبا ، ثم شققنا الأرض شقا ، فانبتنا فيها حبا وعنبا وقضبا ، وزيتونا ونخلا ، وحدائق غلبا ، وفاكهة وابا ، متاعا لكم ولأنعامكم .. »

تلكم هى الأرض .. الأم الولود الخصبة ، السخية العطاء التى جعل الانسان منها جنته الثانية ، ونعيمه الذى يستمتع فيه بكل ما يريد .. فعرفها وعرف وظيفتها وطبيعة معادنها ، فهيأها لاستقراره ومعيشته واعدها ، ورعى فيها البذور ، وجلس ينتظر الثمار !!

وحلا للانسان فى فترة الترقب والانتظار هذه أن يشغل نفسه بعمل جديد ، فاتجه الى بقية عالمه .. الى الجزء الأعظم منه .. الى الماء !!

« وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا ... »

الى هذه الحقيقة هدى النور العقل البشرى .. ان هذا الماء المحيط باليابسة عامر بالخير .. فيه طعام وفيه حياة .. فلنتجه اليه ، ونستخرج منه اللحم الطرى .. ذلك الطعام العظيم ..

وعرف العقل البشرى بوسائله ، كيف يحصل على ثمار البحر ، وأسماكه ..

ثم .. تابع النور فى مسيره المستقيم الهادى ، واذا به يرشده الى ما هو اكثر واكثر .

« وتستخرجوا منه حلية تلبسونها ... » !!

وغاص الانسان فى البحر ، واستخرج منه تلك الحلية التى اشار اليها النور فكانت اللؤلؤ والمرجان وشتى أصداف البحر الغالية وقواقعه ، وأعاجيبه ...

ثم .. وقف العقل أمام حقيقة ثالثة أرشد اليها النور .. حقيقة عمرانية عظمى ، ذات فوائد للانسان هى تسخير البحر لخدمته .. فسخر هذا الخضم الرهيب الثائر ، ليكون عبدا للانسان يركب ظهره ، ويستخدمه كما يستخدم الدواب فى تنقلاته وتجواله !!

« وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ... » !!

وصنع الانسان السفن .. وروض شراسة البحر ، وراح يمخر عبابه ، ويتخطى حدوده ، ويسير على متنه الى أبعد مما كان يتصور ، فشاهد دنياه وعرف مجهولها والمعلوم منها .. وربط بأحكام بين اجزائها حسبما أوحى اليه تصوره التحكمى .. وراح يعزز تلك السيادة الوقتية المحددة الزمن ،

بقيود من صنعه ، وأحكام من وضعه ، وكأنما تصور نفسه خالدا فيها الى الأبد ..

والحقيقة بعد هذا أن الانسان .. ذلك الطيف الذى يلم لمدى لحظات بعينى ذلك العالم الكبير .. خالد باق فى دنياه ، خالد بعمله ..

« وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون الى عالم الغيب والشهادة ، فينبئكم بما كنتم تعملون .. »

خالد بنفسه .. بفروعه .. بأصوله .. باق ما بقيت الدنيا .. وما بقى على ظهرها أولئك البشر سادة للارض ..

والآن ..

وبعد أن تجولنا مع مسارى النور هذه الجولة الممتعة ، لا أجد خيرا من أن أترك الانسان حيث هو .. لنتركه فى مجالى أحلامه وتخيلاته ، وتصورات تحكمه .. ولنتابع أضواء النور واشراقاته الساطعة ، وهى تنتقل بالعقل البشرى من أسرار تكشفها ، الى غوامض تجلوها ثم ... لنقف معها حيث أرادت لنا أن نقف أمام مدخل جديد من مداخل الكتاب المبين ..



((أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة)) (سورة النساء)
((الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور)) (سورة الملك)
((قل ان الموت الذى تفرون منه فانه ملاقيكم ثم تردون الى عالم الغيب
والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون)) (سورة الجمعة)

الشريعة

« ثم جعلناك على شريعة من الأمر ، فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون ، انهم لن يغنوا عنك من الله شيئا وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض والله ولي المتقين ، هذا بصائر للناس وهدى ورحمة لقوم يوقنون » .

(سورة الجاثية)

خرج امام المرسلين محمد عليه الصلاة والسلام بدعوته مناديا بالوحدانية المطهرة من كل شوائب الشرك ، داعيا الى الايمان بأنه لا اله الا الله وان محمدا رسول الله ، وقد اعتبر خروجه هذا ، الى قومه فى قريش ومجاهرته بالدعوة ـ المرحلة الأولى من مراحل الرسالة الكبرى ..

وقد مكث محمد الرسول الأعظم فى مكة ماشاء له الله أن يمكث ، ودعا قومه فيها الى طريق الحق ما وسعته الدعوة وارادته شريعة الجهاد ، فدخل فى دينه من دخل ، وآمن بالله من آمن ، وعصى من عصى ، حتى شاء الحق سبحانه وتعالى لرسوله الأمين ان يهاجر بدينه الى يثرب موئل الاسلام والمسلمين ، فهاجر مع صاحبه وصفيه أبى بكر ، وبدات مع الهجرة المرحلة الثانية من مراحل الرسالة الكبرى ، وهى مرحلة التوسع والتجميع ، وتوحيد الديانات جمعاء ، واعادتها الى أصلها الأول وهو الاسلام ...

فالهجرة والحالة هذه ، كانت نقطة التحول فى الدعوة الاسلامية ، كما كانت تجديدا فى الأسلوب والأداء ... فاستقرار محمد صلى الله عليه وسلم فى يثرب كان الامتداد الطبيعى للدعوة على نطاق أوسع وأعم ، وفى جو اشد أمنا واطمئنانا وفاعلية ، اذ وجدت الدعوة هناك أهلها وانصارها ، الذين أصبحوا والمهاجرين اخوة فى الله والدين فاستمدت الدعوة من هذه الوحدة القلبية العقائدية ،قوة أعانتها على الانطلاق فى المجال الرحب الذى أراده لها الله ، فخرجت باذنه سبحانه وتعالى وبركاته ، لتنتظم الناس كافة ، وتوحيد الديانات كل الديانات فى دين واحد مبرىء من الشوائب والادخالات الجريئة التى اقحمها أصحاب الأهواء على أصل الدين ، وصلب الحنيفية ، كما نادى بها ابراهيم عليه السلام ..

وعلا صوت الداعية الأعظم ، هادى الهداة ، محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو فى يثرب يدعو الى الاسلام رسالة الله الكبرى ، وأهم الدعوات جمعاء .. فتزايد الأنصار ، واعتزت الدعوة ، وعظم شأنها ، وأحس المسلمون بمكانتهم الجديدة ، وأنهم قد صاروا وحدة وطنية مستقرة لها أجنادها ولها أنصارها ، وأن على الدين ، أن يقنن ويضع أسس المجتمع الاسلامى الجديد ..

ونظر محمد حواليه فى حصنه ومأمنه الجديد ، فرأى المهاجرين والأنصار ، وقد آخى بينهم ، فأصبح الجميع فى يثرب بنعمة الله اخوانا متحابين ، أشقاء فى الجهاد ، وفى نصرة الله ودينه والرسول ..

وامتد بصر محمد صلى الله عليه وسلم الى خارج نطاق يثرب .. الى الصياصى المنيعة ، والحصون العديدة ، والآطام العالية ، حيث أهل الكتاب أولئك الذين طالما قالوا انهم أصحاب الدين ، وأصفياء الله وأحباؤه ، والذين طالما رددوا فى كل مكان ، وعلى كر العصور أنهم ينتظرون الهادى البشير الذى سيعيد للدينِ الأعظم عزه ، وسوابق مجده ويجمع الناس على عبادة واحدة وهى الشهادة بأنه لا اله الا الله وحده بلا شريك ..

امتد بصر محمد الى يهود .. الى أولئك الذين يعرفونه ويعرفون بعثته ويجدون صفته ، وأصول كتابه فى كتابهم — ورأى أن يتجه اليهم بالدعوة وأن يذكرهم بكتاب الله ووصاياه ..

وكبر عليهم أن يدعوهم بدعوة الحق والهدى ، من ليس منهم ، وهم الذين طالما اعتبروا انفسهم أحباء الله واصفياءه ، وورثة الشريعة والدين والحق وحملة الكتاب ..

ولكن محمدا صلى الله عليه وسلم ، صاحب الخلق العظيم ، والداعية المجاهد ، اتجه الى اليهود داعيا ناصحا ، مرشدا ، معززا دعوته السمحاء بآيات الله جل تعالى فى كتابه المبين وفرقانه الأعظم :

« يا بنى اسرائيل ، اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم ، وأوفوا بعهدى ، أوف بعهدكم ، وإياى فارهبون » ..

ولكن ابناء اسرائيل تناسوا انعم الله العظمى ، وأفضاله عليهم ، وتغالوا فى الضلالات ، وأمعنوا فى الكفر ، وكأنما كبر عليهم أن يخافوا الله ، أو أن يرهبوه !!

وعاد محمد صلى الله عليه وسلم يدعوهم بدعوة الايمان ، بالله وبالكتاب الذى أنزل عليه ، فأبوا أن يصغوا أو أن يصدقوا وكأنما عز عليهم أن يعودوا الى سواء السبيل ، أو أن يهتدوا الى الحق ، وهم الذين طالما كانوا أعداء الحق على كر العصور .

((وآمنوا بما أنزلت مصـــدقا لمـا معكم ، ولا تكونوا أول كافـر به ، ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا ، واياى فاتقون ، ولا تلبســـوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون ، واقيموا الصلاة ، وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين ، أتامرون الناس بالبر وتنسون انفســكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون)) !!

فهل آمن اليهود .. وهل استجاب بنوا اسرائيل لدعوة الحق وسارعوا الى حظيرة الايمــان .. وعادوا الى الاســلام ملتهم الحقــة وملة ابراهيم ويعقوب والأسباط !!

هل استجابوا لدعوة التجميع الدينى ، الهادف الى تحقيق وحـــدة الدين ، حتى يكون الدين كله لله ، مادامت وحدة الكتاب موجودة فعلا ، وما جاء به محمد ، انما هو مصدق لما بين يديهم ، وانه لم يدعهم الى جديد ، أو الى بدعة ، أو ضلالة بل الى ما دعاهم اليه موسى ، وما وصاهم به ، وما أورثهم اياه اسرائيل نفسه ، وقد أكد عليهم وعلى آبائهم الا يموتوا الا وهم مسلمون !!

ولكنهم كانوا كما عرفتهم الأجيال السابقة .. عصاة ، يباعدون الحق ، ويكرهون من ينادى به أو يدعوا اليه ، فلم يرتضوا الدعوة ، وأبو أن يهتدوا الى الطريق السـوى .. ورغم هذا فلم يكف محمد الرسول الأعظم عن نصحهم ودعوتهم بالحسنى ، وبآيات بينات جديدات من كلام الله وكتابه المبين .

((يا أهل الكتاب ، قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا ممــا كنتم تخفون من الكتاب ، ويعفو عن كثير ، قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ، ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه ويهديهم الى صراط مستقيم ..))

وتراجع اليهود فى ذعر أمام الحق وقد بدات اضواؤه تكشف حقائقهم التى ظلت مجهولة عن كثيرين ، واذا بالفرقان ، يأت عليهم شهيـــدا ، بأنه انما انزله الله الحكيم العزيز ، ليفرق بين باطلهــم ، والحــق الذى جاء به محمد ما هو الا تبيان وتوضيح ونشر صحيح الأصــل الكتــاب الذى كانوا يخفونه ! !

لم يكن اليهود اذا حملة شريعة ، وورثة دين ، بل لصــوص شريعة ، ومحتكرى دين ، دين من صنعهم ويشترون به ثمنا قليلا ، ويبيعونه لمن يدفع ، وانهم لأسخياء فى التاويل مع السخى ، بخلاء مقترين مــع المقتر البخيل ، حتى اصبحت الشريعة لا تخص غير نفر من المترفين ، أما الكثرة الغالبة ، فلم يكونوا قد عرفوا عن الحق شـيئا ، لأن الأحبـار أخفوه ، والــكهان تاجروا به .

وجاءت دعوة محمد كاشفة لحقائقهم ، وجاء كتاب الله مبينا حقائق أعمالهم ، مقررا فى وضوح وصراحة ، أن امام المرسلين قد جاء ليرشدهم الى دينهم الحق ، وأصول عبادتهم الواجب أن يتبعوها ، وكتابهم الذى قضى الله أن يؤمنوا به ويتبعوه ، فهم فوق انه يرشد ، فانه يعفو عن كثير من الأخطاء السابقة ، والأوزار الجسيمة التى حملهـا أولئك المنكرون الذين اخفوا شريعة الله عن عباد الله ، ولم يهدوهم اليها ! !

الى هـذا دعا أمام المرسلين ، وبهـذا بشر ، فاتحا بذلك باب التوبة والعمل الصالح لكل من يريد الهداية ، فيؤمن عن عقيـدة ثابتـة ، ويتبع الرسول الكريم ، ويدخل تحت لوائه ، وبهذا تكتمل وحـدة الدين ، فلا تكون هناك عقائد غير عقيدة الاسـلام ، ولا دين الا ذلكم الدين القيم الذى جاء به الهادى البشير محمد رسول الله ، امام الرسل وخاتم النبيين .

ما طلب محمد صلى الله عليه وسلم من بنى اسرائيل أن يخرجوا على شريعة موسى ، أو يكفروا بما بين أيديهم من الكتاب والحكمة ، فقد جاء بما أكد ما كانوا يحملون ، فحدد وصايا الله ، وقومها التقويم النهائى ، بعدذلكم التقويم والتصحيح الذى جاء به عيسى عليه السلام وكان محور رسالته . ولكن .. كان العصاةهم العصاة ..وكان أعداء البشرية هم أعداءالبشرية. ما تغيروا ولا تبدلوا .. فباعدوا الدعوة ، وقد قارعهم محمد الحجة بأكثر من حجة ، فعجزوا عن الرد عليه .. وسكتوا ! !

لقـد كان سكوتهم اعترافا بالحق .. وعودة الى الحقيقـة النـاصعة السمحاء .. ولهذا تباعدوا وسكتوا ، ولم يجادلوا بعد أن ألجمهم الصدق .. وأعمى بصائرهم النور ، فلم يستمعوا الى الرسول الأعظم ، صـاحب كبرى الرسالات ، وادعوا أنهم انما يستمسكون بما بين يديهم ، وهم يعلمون أنه شريعة حرف الكلم فيها عن مواضعه ، واستبدل بغيره من الافتراءات ، التى جعلتهم يخسرون الدنيا والآخرة .

وأمام العصيان المستتر أولا .. والامعان فى الابتعاد عن دعوة الرسول الذى طالما تحدثوا عنه وكانوا ينتظرون خروجه وبعثه ، ثم تربصهم بالدعوة وصاحبها العظيم ـ اتجه النور الهادى بعد ذلك لليهود ليكشف حقائقهم ولكن فى هوادة ورفق .. وهو يذكرهم بأنعم الله القـادر التى أسـبغها عليهم فى أكثر من مناسبة ، ليعودوا على أنفسهم باللائمة لأنهم كذبوا ، ولم يكونوا أول من يصدق بما جاء به الكتاب ويؤمن بدعوة امام المرسلين .

« يا بنى اسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم ، وأنى فضلتكم على العالمين » ! !

ووجه التفضيل هنا على الناس جميعا أنه سبحانه وتعالى خصهم بالكتاب ، وأورثهم الشريعةوجعلهمحملتها ، وائمة الدعوة الى الله ، فتنكبوا سواء السبيل ، وحادوا عن طريق الحق ، وتلمسوا زخرف الحياة وملاذ الدنيا ، ورغم هذا .. أراد الحق أن يتجاوز عن سيئات أعمالهم ففتح لهم باب التوبة ، وحذرهم غضبه وسخطه ، وعذاب الآخرة .

« واتقوا يوما لا تجزى نفس عن نفس شيئا ، ولا يقبل منها شفاعة ، ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون . واذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب ، يذبحون أبناءكم ، ويستحيون نساءكم وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم .. »

ورغم هذا ، بقى اليهود حيث هم .. وكأنما كانت دعوة هدايتهم أملا لن يتحقق .. فكان من اللازم ، وقد أبلغهم الرسولالأعظم ماكلف بابلاغه ، أن يدعهم الى الله ، ليقضى فيهم بالحق ، فهو سبحانه صاحب الأمر والحكم فيهم ..

وولى محمد صلى الله عليه وسلم وجههشطرالمجتمع الجديد ، النامى، الذى كان عليه ان يشرف على تقويم من فيه ، ثم يعمل على تخطيطه وفقا لحدود الله وأحكام الله وأوامر الله ..

وبدأت الدعوة العظمى ، والرسالة الكبرى ، تسير فى طريق مرحلتها الثالثة ، وهى مرحلة الارساء والتأسيسوالتدعيم للمجتمع الثورىالجديد الذى سينتظم العالمين كافة ، ويسرى عليهم قانون واحد هو : **شريعة الله ..**

لم يعد محمد صلى الله عليه وسلم بعد الهجرة فردا فى مجتمع لهعرفه وتقاليده وقوانينه المرعية ، وشيوخه ، وأحزابه — بل كان رسول الله الى قوم آمنوا بدينه ، وصدقوه ، واتبعوه ، فهو عرفا ، قائدهم وزعيمهم ، بل .. وحاكمهم الذى يسوسهم بحدود الله ، ويقيم بينهم العدالة تامة ، بما يوحيه له دينه وأوامر الله ونواهيه ..

لقد تغيرت الأوضاع مع الهجرة .. وهجرة محمد صلى الله عليهوسلم لم تكن هجرة فرار ، بل هجرة استقرار ، وتركيز ، وتدعيم يبدأ معه عهد جديد للدعوة ، وانطلاقة متجددة للرسالة الكبرى ، وان رسول الله اليوم فى مدينته التى استنارت بدين الله ، واستضاءت بوجود امام الهداة ، وسيد المرسلين بين أهليها ليمثل لونا جديدا من ألوان السيادة التى لم يكن لهؤلاء الناس بها عهد من قبل ..

كان وضع رسول الله فى المدينة ، يمثل السلطة الكاملة هناك ، بل السلطتين المرهوبتين .. الدينيةوهو صاحبها بوصفه رسول الله وداعيته ، والزمنية بوصفه المسئول عن نشر الدعوة واستقرارها ، والمسئول ايضا

عن المؤمنين بها مسئولية تنتظم تحت لوائها هيمنته الكاملة صلى الله عليه وسلم على مجريات الأمور وسيرها ، وأوضاع المجتمع وصلات أهله ببعضهم بعضا فى الداخل وبمن جاورهم من الناس فى الخارج ، أيا كان هؤلاء الناس.

فالوضع الاجتماعى ليثرب الجديدة .. مدينة رسول الله المنورة ، كان يستلزم وجود قانون ينظم الأحوال جمعاء ، ويحد الحدود ، ليعرف كل ذى حق حقه ، ويعرف واجبه ، وما عليه اداؤه للمجتمع النامى الجديد .

كانت الظروف تنادى بوجوب وجود قانون ! ! ولكن ! ! أى قانون ؟ !

هل كان الوضع يفرض قانونا يصطلح عليه الناس ويرضاه المجتمع ويسير على هداه !! دون شك لا .. فالمدينة فى تلك الآونة الدقيقة بالذات كانت تعيش فى ثورة متجددة .. ثورة يذكيها الدين ، وتشعلها حماسة أهله ، وتوجه قيادتها بارادة الله جل وعلا ..

فالقانون الواجب أن يحكم المجتمع الجديد اذا .. كان من اللازم أن يكون قانونا علويا ، يتمشى مع الدين الجديد ، وما أمر به من فضائل وغايات سامية .. قانونا يخلق ، ويحدد ويقوم ، ويذكى نيران الثورة المشبوبة الشاملة التى انتظمت ذلك المجتمع ، ويدفع بها الى الامام فى قوة ، وفى عنفوان وجرأة واعتداد ، حتى لاتبقى أمامها ولا تذر ، ولتدمر كل عتيق بال لا يستقيم وجوده مع فرضية التطور الحادث ، وتعاليم الدين الجديد التى كانت فى أهدافها ومعانيها ومبادئها ، نماذج عالية للمثالية والكمال .

لم يكن التجديد فى تلك الآونة الدقيقة كلمة تردد ، بل كان معنى ومبنى وهدفا ، فالمدينة اليوم جديدة فى كل شىء .. جديدة بأهلها .. بالوافدين عليها .. بالنظم التى كان عليها أن تسير وفقها ..

كان كل شىء يوحى بالعمل والدأب والجهاد والاخلاص والتفانى .. وكانت القلوب من الصفاء ، بحيث تفتحت لكل عظيم رائع من الصفات والأعمال ..

ولما كان الذكر الحكيم من الدعوة الاسلامية ، بمكان النور الهادى ، فانه ليتجه بأوامر الله ووحيه الى أكثر من اتجاه من اتجاهات الحياة فى تلك الحقبة الدقيقة فى تاريخ البشرية كلها ..

اتجه الكتاب الى اليهود .. اتجه اليهم ، وواجههم ، وجادلهم وناقشهم وابطل كل فرية وكل ادعاء كانوا يتقولون به ، ثم راح فى ثقة المطلع العليم ببواطن الأمور وخفايا الأحداث يفند باطلهم ، ويكشف حقائقهم ، وخفايا تاريخهم ، ومآسيهم الشائكة فيه ، وترديهم وعصيانهم المتكرر ، واجترائهم على الحرمات والمقدسات ، بل على الرسل والأنبياء !!

اتجه الفرقان الحق الى أهل الشرك .. أولئك الذين جعلوا لله صاحبة وولدا ، وتقولوا بالثالوث ، وتحدثوا عن الأب والابن والروح القدس ، وأدعوا أن الله الواحد ثالث ثلاثة ، فدمغهم بالكفر والالحاد ، وقال فيهم قولة الحق الصراح ، وهدم معتقداتهم الباطلة كلها ، وما كانوا يتمسكون به ثم دعا هؤلاء وهؤلاء جميعا ، وغيرهم من أصحاب الملل والنحل والأهواء ، الى الاسلام السمح ، دين الفطرة ، وعقيدة الرسل الكرام ، وسبيل جهادهم ، ودعوة الحق التى لن يقبل الله من عباده غيرها دينا ومعتقدا ..

« أم تقولون ان ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هودا أو نصارى ، قل أأنتم أعلم أم الله ، ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله ، وما الله بغافل عما تعملون » !!

ثم اتجه النور الأسنى فى يسر ، وجلال الى النظم .. الى الأوضاع الاجتماعية فى المدينة المنورة ، فألقى عليها أضواءه ، ثم راح يقيمها من جديد ، وفقا لأوامر الدين وأحكام الكتاب ليستقيم المجتمع النامى ، ويشتد عوده ، ويجد المسلمون أمامهم حدودا ومعالم يتبعونها ، ويخضعون لأحكامها التى رتبت الحقوق ، وعينت الواجبات ، وبدأت تنظم الناس على أسس جديدة فى كل شىء ..

وبدا النور الأسمى يلتمع ويتألق ، ويكشف حقائق ، ويجلو أنوارا ... ويدخل فى آفاق جديدة ، جعل يرتادها فى ثبات ، ووفق أسس مدعمة ..

يا لروعة النور الهادى فى اتجاهه التشريعى الجديد ..

انه اليوم ليقوم بدوره فى الاستقرار والتركيز ، بعد أن أدى دوره الأول فى الاعداد الذهنى للدعوة ففتح مغاليق القلوب ، وانار الأفئدة ، وهدى العقول الى الله الحق ، والى دلائل القدرة الماثلة فى كل آيات ومعالم ذلك الكون العظيم ..

لقد هدى النور أول ما هدى الى الأحكام الالزامية الخاصة بالعقيدة نفسها ، وقد استجاب لها المسلمون ، وآمنوا بوحدانية الله ، وشهدوا بها ، وبرسله وكتبه ، وملائكته واليوم الآخر .. وتلك أسس الفضائل كلها ، ودوافع الكمال النورانى الذى لا تشوبه شوائب على الاطلاق ثم . هاهوذا يتنقل الى فرض الطاعات .

« اطيعوا الله ، وأطيعوا الرسول ، وأولى الأمر منكم ، فان تنازعتم فى شىء فردوه الى الله والرسول » ! !

فروح التشريع .. وفاعليته فى الطاعة ، فالطاعة هى ركيزة الاستقرار المطلوب لضمان قيام المجتمع النامى المتقدم ..

والطاعة ليست مطلقة ، بل محدودة .. فالطاعة أولا وقبـل كل شيء لله .. لله وحده .. ثم لرسوله .. ثم لأولى الأمر .

وهنا تنعكس بوارق من النور تقرر أنه اذا حدث تنازع .. أى تنازع فمرده أولا وقبل كل شيء الى الله .. الى الكتاب المبين .. الى الذكر الحكيم .. الى الفرقان الذى ما فرط الله فيه من شيء ، بل أنزله جامعـا مانعا فى صلبه كل شيء ، وفى كلماته كل تأويل مطلوب ، فهو المرجع ، وهو الفيصل ، وهو الحكم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه أبدا ..

وبعد الكتاب المبين .. يكون الرسول الاعظم هو المرجع .. وهو الذى يفسر ويوضح ويقرر أوضاع الحكم وأحكام الكتاب ..

بهذا .. وعلى هذه الاسس ، قام المجتمع الاسلامى الاول ، المتطور ، الناهض الذى كانت شريعته الطاعة المطلقة لأوامر الله الكريم ، الذى **« يأمر بالعدل والاحسان ، وايتاء ذى القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى .. »**

ولنقف لحظة أمام هذه الآية الكريمة ، لنتـدبر روح التقنين فيهـا ، وهدفه ، وغايته ..

« ان الله يامر بالعـدل والاحسـان وايتاء ذى القربى .. وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى .. »

فالعدل .. هو الاساس .. وهو أول ما يأمر به الله فى أحكامه ، فهو يقضى سبحانه بالعدل بأن يعـدل الانسان بينه وبين نفسه وذويه ، ثم بينه وبين مجتمعه ومن يخالطهم فيه ، فيكون عادلا فى تصرفاته ، وأفعاله ، وحكمه فلا يتجاوز الحدود ، ولا يظلم ولا يحابى أحدا على حساب أحد ، ولا يتحايل على حساب كائن ، فيصلح بذلك أمره ، ويصلح بصلاح أمره ، أمر الناس جميعا ، اذ يلتزمون جانب العدل ويكونون فى تصرفاتهم عادلين !!

والاحسان .. يأتى فى المرتبة الثانية بعد العدل .. وهو صنو للعدل .. وتوأم لا يفترق عنه .. فالعادل محسن .. والانسان مكلف بأن يحسن الى نفسه فيقومها ، ويهذبها ، ويسير بها فى أقوم اتجاه ، وأحب سبيل ، فيجنبها بذلك مواطن الزلل ، ويبتعد بها عن التردى ، لتكون دافعة ـ بعد أن أحسن اليها ـ ليحسن الى الغير فى تعامله معهم ، ومخالطتهم ..

والاحسان الى الغير احسان الى المجتمع كله .. وحين يدين المجتمع بعرف الاحسان ، ويأخذ به ، يكون المجتمع مجتمعا محسنا فى كل شيء ، يسوده التعـاطف ، ويجمعه الحب ، والرغبة الاكيـدة فى الخير ، فالفرد للمجموع .. والمجموع فى خدمة الفرد ، وهذا هو الصلاح والاستقرار ، والبقاء المستحب ، والاستخلاف فى ادق معانيه كما اراده وفرضه الله ..

وايتاء ذى القربى بعد هذا ، هو فى طابعه عدل واحسان ، وان تنفيذ هذا الأمر من أوامر الله هو جمع لأسمى معنيين من أوامره سبحانه ، وهما العدل والاحسان .. فايتاء ذى القربى ، هو التودد ، والتراحم ، والتواصل، وهو الترابط الكامل للمجتمع الأصغر ، الذى يعنى ترابطه ، الترابط الكامل فى المجتمع الكبير ..

وايتاء ذى القربى ، هو أن يدين الانسان بشرعة الحب الطبيعى ، الخالى من شوائب المنفعة .. الحب الخالص للحب .. والحب كما اراده الله للبشر .. فايتاء ذى القربى صلة قوية فيها كل ما يعنيه الترابط الانسانى من كمال وسمو ورفعة خلقية .. وفيه فوق هذا معنى المواســاة الكريمة والنجدة الكاملة التامة ، والوفاء النادر والتقارب فى كل شىء ..

تلكم كانت الاوامر الربانية الواجبة الطاعة .. فما هى النواهى اذا .. وما هى الممنوعات !!

« وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ... »

فالله العادل ، المحسن ، الذى اقر العدل وطالب به ، وفرضه على الناس كما فرض عليهم الاحسان .. نهى عن الفحشاء ..

والفحشاء هى ظلم الانسان لنفسه وتحميلها ما لا تطيق من الاوزار ، واغراؤها فى محيط الاثم أيا كان هذا الاثم .. فالظالم آثم .. والمسىء آثم .. ومن حمل نفسه فوق طاقاتها من الاوزار آثم ، وقاطع حبال الود ، والمتباعد عن ذوى قرباه آثم معتد ضال ..

هذه هىالفحشاء بمعناها الانسانى .. بمعناها الذى يعادى البشرية ، ويحارب الفضائل ، والصفات المحمودة ، وان كانت الفحشاء بعد هذا هى الخروج عن المألوفوالتردىالى الاثم ، والعدوانعلى الحرمات ، والمقدسات ، وشتى روابط الكمال ، والمثاليات ..

والمنكر بعد هذا ، حدث منهى عنه بأمر الله .. فالله لايحب المنكر ، وقد نهى عنه .. والمنكر أمره معروف وفى غير حاجة الى ايضاح أو توضيح !!

والبغى .. البغى هو العدوان .. والعدوان فى معناه الاعم ليس عدوان الانسان على غيره ، بل على نفسه أولا يظلمها ، وعلى مجتمعه الاصغر بعــد ذلك ، بالتباعد عنه ، وعدم الترابط به ، والاحساس بشعور من فيه ، ثم على مجتمعه الاكبر بعد ذلك ، بالبغى على الغير ، وتشجيع الغير على البغى ، ليظلم ويعتدى كل قوى أو كل قادر على كل ضعيف غير قادر !!

والبغى .. هو الظلم والعدوان والتحكم المقيت .. والظلم فاحشــة الفواحش .. ولعنة اللعنات .. وابغض ما حرم الله ، ونهى عنه .. وان

أفظعه وأقساه ما كان عدوانا على الحرمات وحقوق الجار ، فهو فى هذه الحالة لعنة تطارد الانسان فى دنياه ، وتلتصق به فى آخرته ، فتسود صفحاته وتمحو حسناته وتقربه من عذاب جهنم وبئس المصير !!

ومجمل الامر الربانى الواجب الطاعة والحالة هذه هو العدل .. العدل ولا شيء غير العدل .. العدل فى كل شيء والابتعاد عن الظلم وضرورة التمسك بالاحسان ..

والانسان حين يعدل مع نفسه ومع غيره ، فانه انما يبغض الظلم ويحاربه ويقضى عليه ، ويكره الظالمين ويباعدهم ، ويتحاشى مجالسهم ليقوم اعوجاجهم ، ويردهم بالتباعد عنهم ، الى جادة الحق وحكم الضمير ، وخشية الله ، ومثل هذا الانسان العادل مع نفسه وغيره ، يكون الاحسان ولا شك سبيله ، وايتاء ذى القربى منهاجه ، وهذا ولا شك يباعد بينه وبين النواهى كلها ، ويقصيه عن الفحشاء والمنكر والبغى .. أكثر من هذا .. يجنبه غضب الله ، فالله هو الحكم ، العدل ، وهو يبغض الظالمين ..

فالعدل الكامل اذا .. كان لب شريعة المجتمع الاسلامى وركيزة أحكامه، والانسان مطالب بالعدل على شتى صوره ، فالعدل هو الاحساس الكامل بالأمان ، والقوة الدفينة الخفية التى تشعر الانسان بالطمأنينة على نفسه وماله ، من أجل هذا أوصى الله بالعدل ، وأمر به مرة بعد مرة لأنه من أهم مقاصد الشريعة الاسلامية التى أقرت العدل ، وجعلته أمرا ربانيا ليعطى اكمل صورة عن مجتمع عادل مثالى ، يشعر من فيه جميعا بأن ميزان العدالة قائم بعمله ، لا يعرف محاباة ، ولا تحيزا ، فلا يضل ولا يميل ولا يفرق فى تطبيق العدالة بين مسلم وكتابى او ذمى ، فالكل امام العدل سواء ..

((يا ايها الذين آمنوا كونوا قوامين لله ، شهداء بالقسط ، ولايجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا ، هو أقرب للتقوى ، واتقوا الله ..))

فالعدل عبادة ، وهو بعد ذلك تقوى .. والتقوى هى الخوف من الله ، والتقرب منه عن طريق خشيته ، والعمل بأوامره ، والبعد كل البعد عن نواهيه ، فمن أوامره المشددة سبحانه ، اقامة العدل اقامة تامة .. اقامة مستقيمة عادلة امر بها ، وكرر هذا الامر اكثر من مرة ، ضمانا لتأكيده ، وتقريبا للأمر من الاذهان ، ليتعرف الانسان ما هية العدل وقيمته العظمى وجزاءه المنتظر من الله ، الحكم العدل ، ومن الناس الذين يستظلون بالعدل ، ويعيشون فى ظلاله آمنين مطمئنين ..

((يا ايها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط ، شهداء لله ، ولو على انفسكم أو الوالدين والاقربين ، ان يكن غنيا او فقيرا ، فالله اولى بهما ، فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا ...))

فالله الحق ، المهيمن القادر ، يأمر بالعـدل ، ويأمر باجرائه وتطبيقه ، ولو كانت هنـاك معوقات أو أسباب قـد تحول دون التطبيق المطلوب ، كالتحيز ، أو المجاملة ، أو مراعاة صلات الرحم والقربى ، فكل هذا ، لادخل له فى اجراء العدالة لتطيب النفوس وتطمئن بصفة خاصة الى أولئك الذين يجرون العدل ، ويقومون على خدمته ، وتطبيق نصوصه وأحكامه ، استجابة للأمر الربانى الذى يأمر !

« واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل .. »

وما دام العدل هو أساس الشريعـة الاسلامية ودعامتها ، فان هـذه الشريعة ولا شك هى الشريعة الخالدة على الزمن ، البـاقية الى الابد ، صافية منزهة كما نزلت ، لا يلحقها تبـديل أو تغيير أو نسخ ، الا ما أراد له الله أن ينسخ لحكمة من حكمه السامية ، وتنفيذا لارادته العليا ..

ودليل خلود الشريعة الاسلامية ، هو استجابتها للمجتمع بصفة عامة ، وللناس على كل الديانات ، وعلى مسير الدهور لأن أسسها المقدسة قررها حكيم عليم ، هو أدرى بعباده ، وحاجات عباده ..

والشريعة الاسلامية الخالدة ، التى جاء بها دين محمد عليه الصـلاة والسلام ، وجاء ذكرها فى محكم التنزيل لشريعة هادفة ، مستقيمة ، لاتعرف غير اقرار العدل بين الناس ، بلا تفرقة فى دين أو ملة أو جنس أو لون ، لأن صاحبها ومنزلها ومن آمر بها هو الله ، والله هو اله الكون ورب الناس جميعا ، دون تفرقة ، وان القائم على تطبيق هذه الشريعة وتنفيـذها حال نزولها هو محمد صلى الله عليه وسلم امام المرسلين كافة ، وخاتم النبيين عامة ، ورسول الله الى الناس جميعا ..

والشريعة التى أمرت بالعدل الكامل ، شريعة منزهة خالصة تهدف الى اشعار الناس ، كل الناس بالأمن والاستقرار والطمأنينة ، على النفس والمال وسائر الحقوق — ففى أمرها بالعدل ، ومطالبتها به ، واقامتها لحـدوده واحكامه ، احقاق لهذا العدل ، ورفع لراياته ، واعلاء لشأنه ، وتعميمه فى التطبيق والتنفيذ وهذا معناه التحريم الكامل لشـتى عوامل الفسـاد ، وخاصة عوامل الاضرار بالناس بأكل أموالهم بالباطل ..

وأكل الاموال بالباطل ، ليس اغتصابها ، أو سرقتها ، أو عدم ردها الى ذويها اذا كانت دينا على الغير ، أو أمانة عنده ، بل أن أكلها هـذا الذى تشير اليه الآية ، وتحرمه ، هو تبديدها والعبث بها وتسخيرها فى غير الصالح العام أو فى غير ما أراده الله ..

فالمقامرة مثلا ، أمر قضى الله بتجنبه ، أى الابتعاد عنه ، فهو داء من اخطر أدواء المجتمع ..

« انما الخمر والميسر والأنصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه .... »

وكل ماله صلة بالشيطان ، أو يوحى به الشيطان الى بنى آدم ، محرم ومنهى عنه ، والخمر رجس من عمل الشيطان .. ووسيلة الشيطان الى قلب البشر ، وكذلك الميسر وما شابهه .. واجتراء الانسان على تحقيق هذه الممنوعات عن طريق المال هو اكل للمال الباطل ، وتوظيف للمال فى غير ما خلق المال له ..

والجريمة هنا مزدوجة ، فهى تبديد المال ، واكله بالباطل ثم عصيان أمر الله .. وعصيان الله استجلاب لغضبه ونقمته ..

وثمة جرم آخر يدخل تحت قائمة تسخير المال فى غير ما أمر به الله ، كتوظيفه فى الربا مثلا ، وتحقيق أرباح غير مشروعة عن هذا الطريق . **« وقد حرم الله الربا »** . وتسخير المال هكذا ، هو أكل للمال بالباطل ، وهو أمر منهى عنه ...

وثمة مخالفة أخرى يدخل تحت نطاقها اجتراء الناس على أكل أموالهم بينهم بالباطل ، هذه المخالفة هى تسخير قوة المال وعظيم تأثيره فى تحقيق مآرب ذاتية ، تخالف العرف العام وتنافى قوانين الاخلاق فى المجتمع كاستغلال المال فى التأثير على عقول الناس أو تصرفاتهم ، أو تحريضهم على منكر أو بغى أو جرم من الجرائم الشنيعة التى حرمها الله ، وحاربها العرف ، كالتحريض على القتل أو الفسق ، أو العصيان ، أو ما شابه ذلك من أمور تدخل تحت نطاق التغرير بالعقول تحت تأثير المال ..

فالمال .. هبة من الله للانسان .. وما يوهب يجب الا يستخدم فى عمل ضار بالناس ، ضار بالمجتمع ، فتلك جريمة نهى عنها الله ، وحرمها وقضى بعقاب مرتكبها ..

والشريعة بعد هذا ، وكما أرادها الله ، هى اقرار الحقوق ، كل الحقوق البشرية ، وتحديدها ، وتنظيمها ، وكيفية استعمال الانسان لها ، وحدود هذا الاستعمال ، بما يكفل للحق ان يظل حقا لا يستغل فى الاضرار بحقوق الآخرين ..

فالحق فى الشريعة الاسلامية منحة ربانية من الله القادر ، وهو وليد الشريعة ، ومن أجل هذا ، نهى تحديده وتحديد مجالات استعماله ومداه ، فلا يعتدى حق على حق ، ولا يجوز صاحب حق باسم حقه المدعى ، على صاحب حق آخر ، فالحق يقر الحق ، ويعلم الانسان الذى يطالب بحقه ، كيف يحافظ على حقوق الآخرين ، لأن الحق ، ليس له ، ولم يتملكه ، بل هو

منحة الله ، ومن أقدس الواجبات ، ان يراعى هذه المنحة ، فهى أمانة ومن الجـرم أن يخون الانسان الأمانة . ويبددها ، ويستعملها فى غير ما أرادها الله له ...

والحقوق كما أرادتها الشريعة الربانية - نوعان : خاص وعام .. وكل من الحقين محدد بحدود وصاحبه ملزم باتباع واجبات لايتعداها ..

فالحياة مثلا حق خاص ، وهى ملك لصاحبها ولكن ليس لصاحب الحق ان يتصرف فى حياته كما يشاء ويبغى ، لأنها وان كانت حياته الخاصة ، وكان هو صاحبها ، فانه لا يملكها أبدا ، ولا يحق له أن يتصرف فيها الا ضمن حدود دائرة الاوامر والتوجيهات التى قضت بأن الانسان مسئول عن حياته مطالب بحمايتها من كل شر وأذى ، لا يفرط فيها ، ولا يسىء اليها ، فهى منحة ربانية وهبها الله للانسان لا ليعبث بها ولكن ليؤدى عن طريقها عملا صالحا ، يكسب عن طريقه حسن ثواب الدنيا والآخرة ، وينال رضوان الله فى الدارين ..

والعمل الصالح فى الدنيا ـ كما تفرضه طاعة الله ، ويوجبه حسن استعمال الانسان لحقه فى الحياة ـ هو أن يؤدى واجبه نحو الله كاملا ، فيعبده حق عبادته ، ويقدره حق قدره ، ويطيعه ولا يعصاه ، ويقبل على ما أمر به ، ويبتعد عما نهى عنه ، فاذا ما فعل ذلك وأطاع وخضع ، أصبح من السهل الميسور بعد ذلك أن تنتظم علاقته بمجتمعه ، ليكون العضو النافع العامل فيه ، الساعى الى رقيه ورفعته ..

من أجل هذا ، كان الانسان مكلفا بصيانة حياته ، والبعد بها عن مجالى الشطط والخروج والعصيان ، والا نزل به السخط وحق عليه العقاب ..

واستعمال الحق كما تحدده الشريعة ، وتأمر به ، يجب أن يكون استعمالا ذا مرجع هام ، وما دام صاحب الحق الأول هو الله مانح هـذا الحق الى مخلوقاته ، فمن اللازم أن يكون لصاحب الحق حقوق ، أولها حق طاعته والرضوخ لأوامره ، فالطاعة نعمة والعصيان عذاب اليم !!

ومن أجل احقاق الحقوق ، وتعيينها ، وترتيبها والاشارة اليها ، وتحديد الواجبات ، والاشارة اليها ضمنها الله الحق شريعة كاملة ، أمر الانسان بها والزمه بالخضوع لها كى يعرف ماهية وجوده ، وحكمة خلقه ، وهى الطاعة والرضوخ وتنفيذ الامر .

((كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين ، وانزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ، وما اختلف فيه الا الذين أوتوه من بعد ماجاءتهم البينات بغيا بينهم ، فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق باذنه ، والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم)) .

وهنا ..وامام هذا الحق الصراح الذى أورده الذكر الحكيم .. نقف لحظة .. لا لنعود ، أو لننظر الى الخلف ، بل لنمضى قدما ومعنا برهان جديد من كلام الله ، ومحكم تنزيله بأن الكتاب الذى أنزله على رسول الهدى محمد صلى الله عليه وسلم كتاب عام .. شريعة تامة مكتملة ، لا تخص قوما دون قوم ، ولا جنسا دون جنس ، ولا قرية دون قرية ، بل تخص الناس جميعا .. تخص الناس أينما كان هؤلاء الناس ، وفى جملتهم أهل الكتاب على اختلاف معتقداتهم ومذاهبهم ، لأن النور الذى أنزله على امام المرسلين هو الجامع الحق ، وهو الأصل العريق للكتاب المبين .. كتاب الله وشريعته سبحانه وتعالى ، ودينــه الســـمح الذى خلق الانس والجن ليتبعـوه ، ويؤمنوا به ..

فالقرآن ، بلا جدال ، كتاب الله الى العالمين كافة ، وما كان لأهل الكتاب ، الا ينزلوا على حكمه ، وهم يعرفون انه الحق المبين .. ولو كان من عنــد غير الله لوجدوا فيه اختلافا كبيرا ، ولكان فى وسعهم أن يلمســوا ذلك ان هم قارنوه بشرائعهم وكتبهم الأصيلة ، قبل أن تمتد اليها الأيدى ، ويتطاول على قداستها الأحبار والكهان ، وغيرهم من صيادى المنافع منفرى القلوب ، ومبعديها عن هدى الله ..

فالكتاب امام هذا هو الهدف .. وكونه نزل على خاتم النبيين ، فهـو آخر كتاب سماوى .. وهو أمام الكتب ، وعمــدتها .. وهو الفيصـــل فى الحكم ، وهو العودة النقية المبرأة من كل الشــوائب .. العودة الصــادقة الى الأصل الخالص من الافتراء بالكذب على الله ، والادعاء بما لم ينزل به سلطانا مبينا ، كان من جــرائه أن حملت الشريعــة من أوزار الملاحــدة والمتقولين ، ما حير الناس ، وبلبل منهم الأفكار .

((انا أنزلنا اليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ، ولا تكن للخائنين خصيما ..)) !!

وهذا أمر بالحكم الصحيح بين الناس كافة بأحكام الكتاب .. وفى قوله سبحانه وتعالى لرسوله الكريم ((**لتحكم**)) ما يفيد انه لا حكم بعد هذا لغير كتاب الله ، الذى نسخ كل ما قبله من كتب وشرائع سماوية .

((ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون ..))

والظالمون ، هم الخارجون .. هم المجادلون .. هم النـافرون .. هم من حرفوا الكلم عن مواضعه ، وابوا أن يستجيبوا لدعوة الله ، لتدبر هذا القرآن ، والايمان به ، واتباع الرسول الذى أنزل عليه ، والذى ما جاء الا بما يؤمنون به ، ولا نادى الا بما معهم .. وبما هو مصدق له ..

ومعنى التصديق هو التصحيح .. هو اقرار الحق وتثبيته ، واعادته الى اصله ، ثم تأكيده وتطهيره من الشوائب التى جرؤت العقليات النفعية على الصاقها به ..

أولئك هم الظالمون .. هم المفترون الذين يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعضه ، فاذا جاءهم الحق أعرضوا عنه ووقفوا منه وقفة العدو المبين ..

« وقفينا على آثارهم بعيسى بن مريم مصدقا لما بين يديه من التوراة ، وآتيناه الانجيل فيه هدى ، ونور ومصدقا لما بين يديه من التوراة ، وهدى وموعظة للمتقين .. » ! !

ومعنى كلمة التصديق هنا مرة أخرى ، هو التصحيح .. وتأكيدها بالتكرار ، هو اعادة الكتاب الى أصله الأول ، وتنقيته من كل الشوائب والادخالات والتحريفات ..

فالانجيل كان مصدقا للتوراة .. وفى آياته وأحكامه اعتراف بها واستمرار لها ، كما ان فيه تجديدا لما أراده الله من شرائع التوراة وأحكامها ، بدليل ما أورده الذكر الحكيم من قول السيد المسيح عيسى بن مريم لبنى اسرائيل « **لأحل لكم بعض الذى حرم عليكم ..** » ! !

هذا هو التصديق .. وهو الاقرار .. وهو الطفرة بالشريعة لتساير تطور العقل ، وتقدم الانسان ..

فأحكام الانجيل باعتبارها مصداقا للتوراة ، تعتبر الحد الفاصل بين عهد وعهد ، وعقيدة وعقيدة ، وكتاب ، وكتاب ، صدقه كتاب أنزله الله للهدى ، وللتوحيد بين أصحاب العقيدة الواحدة ، فلا يكون هنالك تأويل أو تخريج او اجتراء ، خاصة بعد نزول أحكام التوراة ..

« وليحكم أهل الانجيل بما أنزل الله فيه ، ومن لم يحكم بما أنزل الله فاولئك هم الفاسقون .. » ! !

فالانجيل أمام واقعية نزوله . وقداسة حجيته على من انزل عليهم ، صدق واكد التوراة ، واتمها ، واكملها ، والزم من اتبعوا رسالة المسيح بأن يلتزموا بأحكامه ، وان يخضعوا لها ، بلا عودة الى احكام أو شريعة غيره ، لأن احكامه قد نسخت احكام التوراة ، التى ظل عيسى عليه السلام طوال أمد رسالته يناقشها ويحاجج فيها أحبار اسرائيل ليعيدهم الى الحق ، ليؤمنوا بما جاء به ، وما أنزل عليه ..

وانزل الله الحق الكتاب بعد ذلك .. وبعيد أن تعرضت المعتقدات الكتابية لهزات ومطامع وأغراض ..

وجاء القرآن مصدقا لما بين يدى أهل الكتاب جميعا .. وكونه مصدقا لما بين يدى أهل الكتاب ، فهذا معنــاه ، انه يقــوم من جديد بالدور الذى قام به الانجيل بالنسبة للتوراة ، وأن دوره دور مزدوج بالنسبة للكتابين ، فهو مصدق ومتمم ، ومكمل ، ومبين لحقيقة الجوهر النورانى الذى طمسه بعد نزوله أصحاب الأهواء والنزعات ..

((وأنزلنا اليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب)) ! !

وهذا هو تأكيد ولاية القرآن على كل ما سبقه من كتب سماوية ، ولاية تثبت وتتأكد من قوله سبحانه وتعالى بعد ذلك مباشرة :

((ومهيمنا عليه ...))

والهيمنة هى الولاية ، وهى السلطة المطلقة للفرقان الأعظم على كل كتاب سبقه ، فهو خاتم الكتب وهو اصدقها ..

((وأنزلنا اليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ، ومهيمنا عليه ، فاحكــم بينهــم بمــا أنزل الله ، ولا تتبع أهواءهــم عمــا جاءك من الحق ...)) !!

والأمر بالحكم هنا يسوى بين الجميع ، وخاصة أهل الكتاب الذين استمسكوا بما بين أيديهم مدعين انه الحق ، وهم أعلم به ، وأكثر الناس دراية واعترافا باجتراء أحبارهم عليه .

((لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ، ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ، ولكن ليبلوكم فيما آتاكم ، فاستبقوا الخيرات ، الى الله مرجعــكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون ، وان أحــكم بينهم بمــا أنزل الله ولا تتبــع أهواءهم وأحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله اليك ، فان تولوا فاعلم انما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وان كثيرا من النــاس لفاسقون ، افحكم الجاهلية يبغون ، ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون ..)) ! !

ذلكم هو النبأ الحق .. وذلكم هو الكتاب .. بصائر للناس ورحمة الله اليهم .. فلنعد اليه جميعا كأمر الله سبحانه وتعالى ، ولنتدبر ما فيه ، لنرى بأية شريعة جاء ..

لقد قضى الله الذى لا اله غيره ، أول ما قضى بألا نعبد الا اياه ، وأن نشهد صادقين بوحدانيته وتفرده ونؤمن بملائكته وكتبه ورسله واليــوم الآخر ، وقضى بعد هذا بحتمية الاحسان الى الوالدين ، والبر بهما وطاعتهما ثم .. أمر بالعدل والاحسان وايتاء ذوى القربى ..

وتشـدد سبحانه وتعالى فى الأمر بالعــدل ، ووجوب العمــل بموجبه فى كل الأمور ، وأكد أمره الربانى المطاع هــذا بتكراره فى أكثر من مناســبة

وموضع .. فالعدل طاعة للأمر الالهى .. والطاعة رضى وخضوع وامتثال ، ففى اجرائها ، جلاء القلب من أدران الكراهية والبغضاء والبعد عن التحيز والتعصب ، وتنقية النفس من الشوائب والأحقاد ، وتطهيرها من المادية ، ليغمرها نور الله ، وحبه ، فحبه عز وجل ، حب لخليقتـه ، ومخلوقاته ، واستمساك بروح العدل .

وما دامت عبادة الله حبا لذاته ، والعدل ينمى الحب بين خلقه ومخلوقاته ، فهى ولا شك رسالة كاملة المعانى مدعمة الأسس واجبة الاتباع ..

وما دام الأمر باقامة العـدل المطلق ، المنزه عن المحاباة والتحزب هو أساس دعوة الاسلام .. وما دام الاحسان هو سند العدل وقوام اقامته ، فلننظر بماذا أمر الله ، والى أية فضائل مثالية وجه المسلمين ، بعـد أن عرفوه ، وعرفوا آماد جلاله ، وبدائع صنعه ، واستقرت لهم الأمور ، وتمت الهجرة ، وأصبح للمسلمين وطن وحمى وملاذ ، وقانون ينتظمهم جميعا ..

دولة فتية ناشئة ، دينها ثورة ، ودعوتها جهاد ونضال ، وهدفها بناء مستقر مدعم يسود الحب كل من تجمعوا فى ظله وعاشوا فى رحابه .. هذه الدولة التى كان قيامها ثورة عارمة .. ووجودها ارساء لدعائم هذه الثورة ومبادئها .. لا بد وأن يكون لهـا أعداء ، كلهم متربص بها متآمر عليها ، يعمل فى السر والعلن على النيل منها ، ويسعى الى تقويض شامخ بنيانها ..

وقد كان يتربص بالدولة الفتية ، والدعوة النـامية بعد اسـتقرار الهجرة ، وتعاظم شـأن المسلمين واسـتتباب أمورهم ــ عدوان خطيران لدودان ..

كان أول العدوين ، ثعلبا آدميا ماكرا متربصا حريصا ، يظهر خلاف ما يبطن ويضمر الحقد والبغضاء ، وأولئك كانوا هم اليهود .. بذرة الشر حيثما وجدت ، وان الرسـالة الكبرى ، لتتركهم وسـخائم نفوسـهم ، وما يضمرون من شرور وآثام ، حتى تبين عداوتهم فيؤخذوا بها ..

أما العدو الثانى ، فقد كانوا كفار مكة والقرى من حولها ، عبـدة الصنم ورءوس الضلالات ، وهؤلاء كانوا أعداء الرسالة الكبرى منذ بدء قيامها ، وبعد أن نودى بها ، ودخلها الناس ، ووجدوا فيها ما سفه أحلام العشيرة ، ومزق أواصرها ، فبغضوها ، وتربصوا بها وبجميع من تابعوها ، ثم زادت كراهيتهم لها وتضاعفت بعد الهجرة ، وبعد أن خرج المسلمون من أيديهم ، ونطاق سلطانهم الجائر ، وأصبحوا فى مهجرهم قوة جديدة ، كانت تنمو ويتعاظم شأنها يوما بعد يوم ..

لقد كان كفار مكة وحلفاؤهم ، ومن ظاهروهم ــ هم العدو الظاهر الذى

لم يكتم عدوانه ، بل وجاهر به فى جراة ، بل صارح بأنه سيقف من محمد ومن معه موقف الكاره ، الراغب فى الايقاع بعدوه ، الساعى الى الفتك به .

من اجل هذا كان على المسلمين ، وقد صاروا قوة متحررة تعمل فى علانية ، ودون خشية أو مراعاة لسيادات الغير أن يأخذوا من عدوهم الظاهر هذا موقفا حاسما يردعه ويصده ، ويرغمه على أن يحسب لهم ألف حساب ، ويؤمن أن الأمس قد تولى بما فيه ، وان اليوم جديد فى كل شىء ، وان الغد يخفى بين طياته اروع المفاجآت للكافرين ..

وعلى هذا ، اصبح القتال فريضة .. وصار بمقتضى الأمر الربانى المعظم ، شريعة واجبة ، والطاعة له واجبة ، ولكن .. أى قتال هو ، ذلك الذى جاء به الأمر الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن يحرض المؤمنين عليه ؟ !..

اهو عدوان مفاجىء ، الغرض منه الارهاب ، والاشعار بالقوة أو الجرأة ؟ !.

لا .. انه قتال فى سبيل الله ، ومن اجل نصرة دينه واعلاء كلمته ، وهى كلمة الحق التى نادت بتحرير الناس والارتقاء بمستوياتهم ، واشعارهم بأن الفوارق قد زالت وان العصبية القبلية لم يعد لها وجود ..

((فقاتل فى سبيل الله لا تكلف الا نفسك وحرض المؤمنين عسى الله ان يكف بأس الذين كفروا والله اشد بأسا وأشد تنكيلا ..))

وهذه هى الحكمة من الأمر بالقتال ، وتحريض المؤمنين عليه ، والأمر به ، وجعله شريعة ، ودستورا مستمرا يعنى قيامه الدائم ، يقظة المسلمين ، وقدرتهم ، وقوتهم ، ليكف الذين كفروا بأسهم ويتراجعوا عن عدوانهم ، ويتدبروا امرهم ويعرفوا انهم اليوم امام قوة من الواجب ، وقبل أن يقدموا على العدوان عليها — أن يحسبوا لها ألف حساب ..

ويستمر التشريع السماوى بعد هذا فى تثبيت قواعده ، ووضع أصول للجهاد ، والقتال وكيفية هذا النضال المرغوب فيه المطالب به ..

((يا أيها الذين آمنوا اذا لقيتم الذين كفروا زحفا ، فلا تولوهم الأدبار ، ومن يولهم يومئذ دبره الا متحرفا لقتال أو متحيزا الى فئة فقد باء بغضب من الله ، ومأواه جهنم وبئس المصير)) ..

وهكذا بدأ الأمر يتطور ، من تحريض المؤمنين على القتال الى الأمر بالقتال فى سبيل الله لارهاب الكافرين ، ودرء شرور عدوانهم ، وكف بأسهم عن المسلمين الى تنظيم القتال بعد ذلك وتبيان طريقته ، بأن يكون زحفا وتقدما الى الأمام فى جراة تحرم على المسلم المطيع للأمر الالهى ، الخاضع

لاتشريع الرباني بفريضة الجهاد ، الا يولى الأعداء دبره أبدا .. أى لايهرب ، ولا يلوى عنانه ، وينظر الى الوراء ، بل تكون نظرته باستمرار الى الأمام دائما الا فى حالات معينة ، يكون فيها الادبار ضروريا لتحقيق حكمة من حكم النصر المبين ، كالانحياز الى فئة من المجاهدين ، ليقوى هجومهم أو يعينهم على هجوم ، أو فى حالة تحفز جديد لهجوم مضـاد يكون من ورائه تحقيق النصر .

((يا أيها الذين آمنوا اذا لقيتم فئة فاثبتوا ، واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون ، وأطيعوا الله ورسـوله ولا تنازعوا فتفشـلوا وتذهب ريحكم ، واصبروا ان الله مع الصابرين)) ..

فالشريعة هنا تحض على الثبات الذى يتحقق بصورة اعظم ، عند ذكر الله ، فذكر الله يملأ القلب قوة وشجاعة واقـداما ، ويدفع المناضل المجاهد الى الاستهانة بالنفس والاستمساك بالتضحية مع طاعة الله ورسوله ..

ثم توحيد القوى والجبهات والرأى .. أى الترابط ، والتزام الخطـة الموحدة واطاعة الأمر بلا تردد ولا مناقشة ولا جدل ، ففى هذا مضيعة للجهود وتبديد للقوى ، وفشل لا يريده الله للمؤمنين الذين فرض عليهم الجهاد وشرعه لهم وأيدهم بنصره ، وأشعرهم بأنهم قوة ، لابد وأن تنتصر وان تنتصر .

((واذ يريكموهم اذ التقيتم فى اعينكم قليلا ، ويقللكم فى اعينهم ، ليقضى الله أمرا كان مفعولا والى الله ترجع الأمور)) ..

وهذا هو تثبيت القلب ، وتهوين أمر العدو وتحقير كثرته ، والتقليل من خطرها لأن الله الذى شرع الجهاد ، وأمر المؤمنين بقتال الكفار لكف بأسهم واشعارهم بأن للمسلمين قوة غلابة قد أراد النصر للمؤمنين ، وكتبه لهم ، وشجعهم عليه ، وقرر أعلاء شأن المجاهدين وفضلهم على القاعدين ثم عين درجات الجهاد ، فهو جهاد بالنفس فى سبيل الله ، ثم جهاد بالمال ..

((لايستوى القاعدون من المؤمنين غير اولى الضرر ، والمجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وانفسهم فضل الله المجاهدين بأموالهم وانفسهم على القاعدين درجة ، وكلا وعد الله الحسنى ، وفضل الله المجاهدين على القاعدين اجرا عظيما)) ..

فالجهاد فى سبيل اعزاز كلمة الله ، ونصرة دينه القويم ، قد أصبح والحالة هذه أمرا وقانونا ، فهو جهاد من اجل البقاء ، ومن شانه استقرار كل نظام صالح يضمن رفعة المجتمع واعلاء شأن الناس الذين اراد لهم الله أن يخرجوا من الظلمات الى النور ، وان تتحرر افكارهم من دنس الجاهلية وظلم التقاليد ، وان الله الذى يجزى المحسنين باحسانهم ليعد أولئك الذين

جاهدوا فيه بأموالهم وانفسهم بالدرجات العلى وفضلهم فى الأجر والثواب على القاعدين درجة .

وتشريع القتال ووجوبه ، وامر الرسول الكريم بأن يحرض المؤمنين عليه ، لابد قد وجد تباطؤا ، وتثاقلا عند بعض الناس ، وهؤلاء لم تغفلهم الاوامر المقدسة ، بل تابعتهم وراحت فى جلاء تدفع بهم الى حلبات النضال ، فالجهاد فى سبيل الله هو الطريق الى رضوان الله ، ورضوانه عز وجل هو بغية المسلمين .. كل المسلمين !!

« يا أيها الذين آمنوا ما لكم اذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثاقلتم الى الأرض ، أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة ، فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة الا قليل ، الا تنفروا يعذبكم عذابا أليما ، ويستبدل قوما غيركم ولا تضروه شيئا والله على كل شىء قدير » ..

وهنا نجد انفسنا أمام جديد فى التوجيه .. لقد صدر الأمر بالجهاد فى سبيل الله ، وأصبح هذا الجهاد المقدس شريعة واجبة الطاعة ، ومن يعصاها ، يلقى جزاء العصيان والتخلف والتخاذل ، وان جزاءها ، هو عقاب الله ، وهو العذاب الأليم ..

وليس العذاب الأليم جزاء المتخاذل فحسب ، بل جزاؤه أن يستبدل الله به غيره .. وهذا حكم بعدم صلاحية من سوف يتم استبدالهم ، بأنهم ليسوا جديرين بأن يحملوا أمانة وجودهم فى هذه الحياة ، التى كتب عليهم فيها الجهاد والنضال ..

والأمر بالقتال ، لم يكن فى واقعه أمرا موجها لنضال المؤمنين وخوضهم المعارك فحسب ، بل كان فيه النور الساطع حيث كشف لهم حقائق معنوياتهم العالية ، ومدى قوتهم ، وما يستمتعون به من بأس ، وعنفوان وقدرة غلابة على الثبات والكر وتحقيق النصر على العدو ، أيا كان ذلك العدو ، أو أيا كانت قوته ومقدرته ، ان هم خاضوا الغمار فى سبيل الله ، عادلين ، محسنين ، مؤمنين ، صابرين ، مطيعين ..

« ان يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين ، وان يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون .. » .

بهذا الروح الدافع ، وهذا التوجيه المشجع القويم ، القائم على دعامة العدل والاحسان حتى مع العدو .. وبتلك الحماسة الغالية ، وذلك التهوين من شأن العدو ، والتعظيم من شأن فوارس المسلمين ومقاتليهم المغاوير الشجعان — **كانت شريعة الله توجه ، وتدفع وتقيم دعائم وجود المجتمع الاسلامى الجديد ، لتستقر نظمه ، ويرتفع شأن أهليه ويصبحون بحق**

وعن جدارة أساس وجود خير أمة أخرجت للناس طاعة ، وعدلا ،واحسانا ، وتعبدا وتعاطفا ، وودا ، واخلاصا .

والشريعة التى دعت الى الجهاد ، وحرضت عليه ونادت به ، وحددت وسائله ومقوماته ، ليكتمل بذلك وجود الدولة القوية الرائدة ، ويعظم شانها ، فترهب العدو المجترىء ، وتحمى الصديق المستجير ، أو العائذ بها ـ هذه الشريعة كانت تبنى ماديا ومعنويا ، وتوجه الى ضرورة التمسك بقوة النفس ، وصلابة اليد ، وقدرتها .. ولم تحرض على القتال أو تدعو اليه ، الا بعد أن اعدت النفوس لتفهم قوانين القتال ، ودستور الحرب وقومت هذه النفوس بسلاح المثاليات الذى يحميها من التهور أو العسف أو الطغيان ..

كانت شريعة بناءة ، خلاقة ، قادرة ، حرصت على أن يستكمل المجتمع الذى يدين بها كل مسببات قوته ، ومنعته وقدرة أهليه المادية والمعنوية ، حتى لا ينتكس أو يرتد ، أو يتنكر للمثاليات .

ولم يكن التحريض على القتال الذى حرصت عليه الشريعة مجرد قتال موجه ضد أعداء الدين ، بل قتال موجه ضد أهواء القلب ، ونزعات النفس ورغائبها ، لأنها فى الوقت الذى أمرت فيه بأن يعد المؤمنون لعدوهم ما استطاعوا من قوة ، ومن رباط الخيل .

وان يقاتل المؤمنون فى سبيل الله صفا واحدا كالبنيان المرصوص ـ أمرت بتجهيز النفس البشرية بكل سلاح يعينها على قهر الوسواس الخناس ، ويعطيها القدرة على التغلب على الأهواء والتطلع والطغيان ، كما أمرت أيضا بالتسامى والترابط والمحافظة على قداسة الروابط الانسانية ، والاتجاه بالأخلاقيات الى أعلا الذرى ، ليعرف كل مؤمن ما له وما عليه قبل نفسه ، وقبل مجتمعه ، وقبل جيرانه ، وقبل الأعداء ..

وكما حددت الشريعة ورتبت ، ونظمت الكثير من الامور ، صغيرها وكبيرها ، كذلك راحت فى يسر وتدرج تحارب آفات المجتمع الجاهلى المتخلف ، وتقضى على بعض رواسبه التى تخلفت فى اعماق بعض النفوس ، حتى يتحرر منها المجتمع الجديد الذى كانت تقيم صرحه على أساس الدين واحكامه ، وأوامر الله ..

كان المجتمع الجاهلى ، مجتمع ضلال وشرك ، ومفاسد وتفكك وانحلال وانانية ، وسعى الى تحقيق المصالح الشخصية ، فجاء الاسلام بما قضى على هذا كله ، وامر بعبادة الله الواحد ولكن الشريعة السمحاء حددت هذه العبادة وفسرت مدلولها الواجب اتباعه ، فهى ليست مجرد تولية الوجه قبل المشرق والمغرب ، فهذا ليس من البر فى شىء ، ولكن البر الحق يقتضى إكتمال شرائط متعددة عينها .

« ليس البر ان تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين .. !! »

وتلك توجيهات واوامر عرفناها ، وهى أسس البر والايمان الحق ، ولكنها ولكى تكتمل مقومات وجودها يجب أن تكون مشفوعة بفضائل معينة قوامها الرحمة والاخاء والحب والتعاطف والنجدة والصبر والحض عليه فى المكاره والبأساء .

« وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب واقام الصلاة وآتى الزكاة ، والموفون بعهدهم اذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين الباس ، أولئك الذين صدقوا ، وأولئك هم المتقون » ..

وهذه ولا شك تنظيمات وتشريعات حاسمة لها فعاليتها المطلقة النافذة ذات الأثر فى تقويم اعوجاج المجتمع ، وتحصينه من آفات الجاهلية المقيتة ، وتنقية نفوس كل من فيه ، وتوجيههم توجيها مطلقا الى الكمال ..

لقد جعلت الشريعة الاسلامية الحب والأخاء ركيزة المجتمع الاسلامى ، والعدل ، كل العدل أساسه ، والاحسان سنده ودعامته .. فالحب والأخاء يوجبان التعاطف والتقارب ، والتعاطف والتقارب يحتمان الوحدة ويفرضان ترابط الصف ، وترابط الصف هو الاتحاد الذى أراده الله ، والاتحاد هو تخليص النفس من اهوائها الفردية ، ودفع الانسان الى التطلع قدما لخدمة الانسانية وخير البشر أجمعين ، فالفرد فى خدمة المجموع ، والمجموع فى خدمة الفرد ، يربطهم رباط الحب والاخاء ، والتودد ، وصفاء القلوب ..

وقد حتم الدين على المسلم أن يكون باش الوجه منشرح الصدر يعرف حقوق الناس ويلقاهم اجمل لقاء ..

« واذا حييتم بتحية ، فحيوا باحسن منها أو ردوها ان الله كان على كل شىء حسيبا » ..

وهذه دعوة ولا شك صريحة فى ازالة الفوارق ، والقضاء على التعالى ، والانسان امام هذا التوجيه الحاسم مكلف بالتواضع ، مكلف برد تحية الغير له بأحسن منها ، أو بردها على الأقل وهذا أضعف الطاعات لأن الله على كل شىء حسيب ..

والله الذى جعل دينه القويم معولا قويا هدم المفاسد والضلالات والرذائل واجتثها من اسسها وقضى عليها — أبى الا ان يضمن تشريعه ، امرا يقضى بأن يحافظ المسلم على آداب مجتمعه فلا يجاهر بسوء ولا يفاخر بارتكاب المعاصى ، ففى هذا الجهر فوق ايذائه للاسماع وخدشه لناموس الحياة

تهوين للرذائل وتبسيط للسوء والمعاصى ، وعبث بتقاليد المجتمع ، وتحريض مطلق على الفساد ، ما دام أفراد هذا المجتمع ، لايبالون بالعرف ، ويباهى بعضهم بعضا بممارسة السوء ، والتمسك به علانية وفى جراة ودون خوف او خجل ..

((لايحب الله الجهر بالسوء من القول الا من ظلم ، وكان الله سميعا عليما)) ..

لقد حرم الله السوء ، أيا كان هذا السوء ، فهو صفة بغيضة مكروهة غير مستحبة ومعول من معاول هدم المثل الاخلاقية ، وقد نهى الله عنه نهى التحريم ، فهو من الشيطان وبوحى من الشيطان ، وقد حذر الحق سبحانه وتعالى من شر الشيطان ، ودعا الى الكمال الخلقى ، وامر الناس الا يقولوا غير احسن القول ، فهذا اقوم واعدل واقرب الى مرضاة الله .

((قل لعبادى يقولوا التى هى أحسن ان الشيطان ينزغ بينهم ، ان الشيطان كان للانسان عدوا مبينا)) ..

والانسان حين يراعى آداب مجتمعه ، ويحافظ على تقاليده المرعية ، ويأتمر بأوامر دينه ، ولا يخرج عليها ، فلا يجهر بالسوء ولا يباهى بالرذائل ، ولايعدو آماد خروجه على العرف معتزا بهذا الخروج المقيت ، ولا يقول الا ما يرضى الله والناس عنه وما يحسن سماعه والاستماع اليه ، يكون مطيعا لله الذى فرض طاعته عادلا مع نفسه ، محسنا الى ذاته والى مجتمعه ، عارفا بالفضائل متمسكا بناموسها ، خاضعا للشريعة ، التى أوجبت الامتثال للأمر المقدس الهادف الى تحقيق المثالية ، بالابتعاد عن النواهى والمحرمات ، وجعلت طاعة أوامر الله عز وجل المعبر الموصل الى الرضا وجنات الرضوان ..

فمن العدل البشرى ، ان يخجل الانسان من سوء ما فعل ، ويتوارى منه وراء ستائر الندم فيكتم سيئاته ولا يجاهر بها ، فكتمانها قتل لها ، وحيلولة قوية دون انتشارها ، كما انه صحوة للقلب من اغفاءته المستسلمة للشر والسوء ، وصحوة القلب هى يقظة المراجعة والتذكر ، وهما سبيل الندم ، والندم صحوة العاطفة الحية ، ويقظة الضمير العادل ، وقيام محكمته التى لاتنحاز ولا تحابى ، وحكمه هو التعذيب المستمر ، والتانيب الذى لا ينقطع والذى يرهب ويخيف ويكون السياج الحائل فيما بعد بين المرء والعودة الى سبل الريبة ومجال السوء ..

والمجاهرة بالسوء جراة فى واقعها ، وتطاول فى أصله ، والانسان حين يجهر بالسوء انما يكون موءود الضمير ميت القلب ، خارجا على الناموس ، مصرا على المعصية ، والمصر على ارتكاب المعاصى والسيئات ليس بينه وبين الطاعة والايمان صلة على الاطلاق ..

وكتمان امر السوء ، وعدم الجهر به ، وقاية وردع يرد الانســان عن تكرار ارتكاب الســيئة ، ويقيه شر الجهر بها ، كما انه يحمى المجتمع من اشاعة السوء والرذائل وكل فعل مذموم بغيض نهى الله عنه لأن الله سبحانه وتعالى ، لم يأمر بغير الفضائل ، ولم يدع مخلوقاته الا للطاعة والتحلى بمكارم الأخلاق ..

والسوء مذمة ولعنة ، وله ألوان وأشكال قولية وفعلية ، وكلها قبيح ، وكلها بغيض مكروه ، وقد نهى الله عن السيئات جميعا ، وقضى بالبعد عنها ، اقوالا كانت أو أفعالا ، وقد اعتبرتها الشريعة خروجا شددت فى المطالبة بالبعد عنه وترك جانبه ، وأوجبت على المخالف عقوبة مزدوجة ، فله خزى الدنيا ، وعذاب الآخرة !!

وثمة سيئة اخرى نهى الله عنها ، وجاء الأمر بتجنبها فى سياق الشريعة على انها خلة مذمومة بغيضة ، تلك هى البخل والتقتير ، وحرمان النفس من طيبات ما أحل الله ، ومن الاستمتاع بعظيم فضائله وعطائه وهو المال زينة الحياة الدنيا ..

((ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك)) ..

هذا تحريم قاطع للحرمان والبخل .. لافى الاتفاق فحسب .. بل فى الأخذ بكل ما أحل الله من طيباته للناس ، فليس من العدل الانسانى ، أن يهبنا الله هذا الكون وما حوى ، ويسخر لنا كل ما فيه ، ثم نتباعد عنها ، بحجة الزهد ، أو التقشف ، أو عدم الاستجابة لمطالب النفس ، فالله أحل المال والمباهج وكل ما أعطى ووهب وليس لنا ان نحرم ما أحل الله ، فنحجب المال ونخفيه ولا ننفقه كما أراد الله له أن ينفق ، وكما حدد عز وجل وجوه انفاقه ، ونحرم انفسنا ونحرم الناس من منافعه التى أوجده الله لها ، ونجعل أيدينا مغلولة الى الأعناق ونحن نتــداول انعم الله الجليلة وننعم بهباته العظيمة التى لا يحصرها عد ، بل يجب أن نكون فى تصرفاتنا بين بين ، لانغل اليد ، ولا نبسطها كل البسط فتكون الحسرة للاسراف ، ويكون الندم للضياع ، ويكون العصيان للأمر السماوى ..

((ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا)) ..

وبالرغم من أن الله قد أوصى بالبر والعطاء والكرم ، وايتاء ذوى القربى واليتامى والمساكين وأبناء السبيل ، وكرر أمره بالعطاء فى أكثر من موضع من الذكر الحكيم ، تأكيدا منه سبحانه وتعالى لأمره ، واشعارا بأهميته بالنسبة للمعطى والمعطى اليهم الا انه تبارك وتعالى قد نهى عن الاسراف فى العطاء ، وحدد فيه طريقا وسطا ، ناهيا الناس عن التبذير ...

((وآت ذا القــربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبــذر تبذيرا ، ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين ، وكان الشيطان لربه كفورا)) ..

فالله سبحانه وتعالى يأمر بالعطاء والبر والجود ، ويرتب لذوى الحاجة حقوقا على كل صاحب مال ، ولكنه جل وعلا ينهى عن الاسراف والتبذير ، ليس بالنسبة لمن امرهم بوصلهم وعطائهم بل فى كل المعاملات والتصرفات ، فالتبذير خروج على حكمة الاعتدال ، وشريعة الأخذ بأواسط الأمور .

((والذين اذا انفقوا ، لم يسرفوا ولم يقتروا ، وكان بين ذلك قواما)) ..

فقوام الأمر وصحته ، هو الاعتدال فى كل شيء ، وما امرت شريعة الله بغير الاعتدال والعدل ..

وثمة نقيصة اخرى من نقائص المجتمع تقف بنا الشريعة أمامها وتنهانا عنها ، تلك هى أكل مال اليتيم بالباطل ، فهذا عدوان وظلم ، واهدار لحق من أقدس الحقوق الواجب أن يرعاها الوصى ففى رعاية مال اليتيم ، رعاية وحفظ لليتيم ، وفى اكله بالباطل ، مضيعة لليتيم العاجز ، وأمر بالقضاء عليه ، والله لا يحب العدوان ولا العادين ، وقد حذر سبحانه وتعالى من ارتكاب هذه المعصية ونهى عنها ، وذكر الانسان بغده .. بعدالة الله الذى يمهل ولا يهمل ، ودعاه الى محاسبة نفسه ، وان يخشى الأحداث ، وبطش الله ، وعزيز انتقامه اذا ما كان ذا عيال ، وله ذرية قد تتعرض لنفس الأمر .

((وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم ، فليتقوا الله ، وليقولوا قولا سديدا ، ان الذين ياكلون أموال اليتامى ظلما ، انما ياكلون فى بطونهم نارا وسيصلون سعيرا)) !!

فاكل مال اليتيم بالباطل هو المعصية الكبرى ، وهو النار يأكلها الوصى أو الولى الغاصب ، وهو النقمة ، وهو اللعنة تحل به وبعياله ، وذرية من بعده أو ربما فى حياته .

وأمام هذا التشريع السماوى العادل القاضى بضرورة رعاية مال اليتيم ، وجدت الشرائع الوضعية انها فى موضع الزام بمراعاة تنفيذ هذا الحق ، فسنت القوانين لحماية مال اليتيم وفرضت العقوبات على من يغتصب لليتيم مالا ، الا فى الحدود التى أوجبتها شريعة الله اولا ، ثم فى الحدود التى اوجبها القانون ، حتى يبلغ اشده ويكتمل رشده ، ويتسلم ماله .

((ولا تقربوا مال اليتيم الا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده)) ..

ولم تقف بنا الشريعة الفاضلة السمحاء عند هذه التوجيهات والحدود العقائدية والخلقية التى اتينا على ذكر بعض منها ، بل راحت فى قدرة وقوة وتمكن وصراحة ، وحسن توجيه ترسل من أنوارها الساطعة أضواء تنير المسالك وترشد السالكين الى سبل الحق والهداية والفضل والرفعة والمثالية ، وحسن التعامل القائم على أسس من التوفير ومراعاة حقوق

الغير والوفاء بالوعد والعهد وآداب اللياقة وكل ما يمكن أن يقيم صرح مجتمع فاضل مكتمل من كل الوجوه ..

وفى قوله تعالى :

« واوفوا الكيل اذا كلتم ، وزنوا بالقسطاط المستقيم ، ذلك خير وأحسن تأويلا » ..

فالوفاء بالكيل والميزان واعطاء صاحب الحق حقه كاملا غير منقوص ، توجيه خلقى رائع المعنى ، لايستقيم به حال من يعملون فى المجال التجارى والعملى فحسب ، بل ينسحب على جميع أفراد المجتمع ، ويقف بهم امام خلة محمودة ، وصفة مستحبة ، ودعامة من دعائم اقامة العدل ، فالوفاء بالكيل والميزان عدل ، ودعوة من دعاوى اطمئنان الناس الى بعضهم بعضا ، وعرفانهم ما عليهم قبل الغير ، ليعرف الغير حقوقه قبلهم فتيسر الأمور ويستقيم ميزان المعاملات .

ذلكم لون من الوان الأمانة ، التى عرضها الله على السموات والأرض ، فابين أن يحملنها ، واشفقن منها ، وحملها الانسان ..

فالأمانة فى عرف الشريعة ، هى الحفاظ على مال الغير ، ومال الغير متعدد الصفات والألوان والأشكال ، فمنه المادى وينتظم تحت لوائه المتاع والمنقول والمال المتداول ، ومنه المعنوى وهو أقيم الوان المال ، واجلها خطرها ، وتنتظم تحت لوائه الكرامة والسمعة والعرض .

فمن الأمانة أن يزن التاجر بالقسطاس المستقيم وان يوفى الكيل ، ليحفظ على الناس مالهم ويحفظ على نفسه ماله ، وهو يوم لا يسمح لنفسه بالتفريط فى حقوق الغير لن يسمح للناس ان يتهاونوا أو أن يفرطوا فى حقوقه ، وهذا ربط رائع محكم للمعاملات .

ومن الأمانة أن يحمى الانسان سمعه وبصره ، فلا يتتبع عورات الناس ، والا تتبع الله عورته ولا يقول السوء فيهم بالباطل والا قالوا فيه اضعاف ما قال ..

« ولا تقف ما ليس لك به علم ان السمع والبصر والفؤاد ، كل اولئك كان عنه مسئولا »

ومن الأمانة ، التواضع ، والمرء حين يتواضع فانما يقدر نفسه ويعرفها حق المعرفة ، والمرء حين يعرف نفسه يكون امينا فى تقدير مزاياها ، وهو حين يعرف مزاياها لا يتعالى على الغير بمال أو حسب أو جاه ، بل يخالقهم بخلق حسن ، ويتواضع ليرفعوه ، ويحبهم ليحبوه ويحلوه فى قلوبهم أعلى مقام .

« ولا تمش فى الأرض مرحا ، انك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبـال طولا » .

ومن الأمانة غض البصر ، وللأمر بغض البصر حكمـة قدسـية . فغض البصر ، نهى للنفس عن التطلع تطلعا قد يرخى لها العنـان فتتمنى ، وهى حين تتمنى فانما تجعل منها مسكنا ومرتعا للشيطان الرجيم ، والمـرء حين يغض بصره عن الغير ، يغض الغير بصره عن محـارمه ، وهـذا لون من الوان الحماية الخلقية للمجتمع ومن فيه ..

« قل للمؤمنين يغضوا من ابصارهم ، ويحفظوا فروجهم ، ذلك ازكى لهم ، ان الله خبير بما يصنعون » ..

والأمر بغض البصر ، لم يوجه الى الرجال فحسب ، بل وجهه الحق سبحانه وتعالى الى النساء ، ورتب للتوجيـه السماوى حدودا ، عينت للنساء كيف يغضضن من ابصارهم ، فالشريعة أمرت بغض البصر عنـد النسـاء ، واعتبرت اخفاء الزينة ، والحلى ، والحجاب من انواع غض البصر المفروض على النساء .

« وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ، ويحفظن فروجهن ، ولا يبدين زينتهن الا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن ، ولا يبدين زينتهن الا لبعولتهن أو آبائهن ، أو آباء بعولتهن أو ابنـائهن ، أو ابناء بعولتهن ، أو أخواتهن ، أو بنى أخوانهن أو بنى أخواتهن أو نسائهن ، أو ما ملكت ايمانهن أو التابعين غير أولى الأربة من الرجال أو الطفـل الذين لم يظهروا على عورات النساء ولا يضربن بارجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن وتوبوا الى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون » ..

وقد حتمت الشريعة الاستئذان ، خاصة عند دخول بيوت الغـير ، فالاستئذان على الغير عدل ، ولون من الوان الأمانة ، وقد حصته الشريعة باهتمامها ، وحسن التوجيه .

« يا ايها الذين آمنـوا لا تدخلوا بيـوتا غير بيوتكم حتى تستانسوا وتسلموا على اهلها ، ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون ، فان لم تجدوا فيها أحدا فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم ، وان قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم والله بما تعملون عليم » .

ولم تقتصر الشريعة السمحاء فى توجيه الأمر بالاستئذان على الغرباء الذين يرغبون فى دخول بيوت غير بيوتهم ، بل تناولت من يعايشون المرء فى بيته سواء كن من الاماء أو العبيد ، أو الأبناء ، والأقارب ، وحددت طبقاتهم واوقات استئذانهم عند الرغبة فى الدخول على غيرهم .

يا أيها الذين آمنوا ليستئذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات من قبل صلاة الفجر وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ، ومن بعد صلاة العشاء ، ثلاث عورات لكم ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن طوافون عليكم بعضكم على بعض كذلك يبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم)) .

((واذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستئذنوا كما استأذن الذين من قبلهم ، كذلك يبين الله لكم آياته والله عليم حكيم ..))

وتظل الشريعة فى مسيرها النورانى الهادى لتنتقل بالعقل الانسانى فى شتى مجالى العزة والارتقاء لتقف أمام تكليف خلقى اجتماعى رائع ، توجه الانسان اليه وتحذره مغبة ارتكابه ، وتحرمه عليه ، ذلكم هو سوء الظن ، آفة المجتمع ، والسوس الذى ينخر فى كيان الفضائل جمعاء .

((يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن ان بعض الظن اثم ، ولا تجسسوا ، ولا يغتب بعضكم بعضا ، أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا ، فكرهتموه واتقوا الله ان الله تواب رحيم)) ..

فالشريعة حرمت سوء الظن ، وحرمت التجسس ، وتتبع أنباء الغير ، وافشائها الى الناس ، كما حرمت الاغتياب واعتبرته كجريمة اقدام الانسان على اكل لحم أخيه وهو ميت .. أى أن الشريعة اعتبرت المغتاب حيوانا دنيئا لا يهوى غير أكل الرمم والتنابذ بالالقاب والآباء والأجداد .

وشريعة الله فى تنظيمها للمجتمع ، تعمد دائما الى تنقيته من الشوائب ، كل الشوائب ، ليستطيع النهوض بأعبائه ، ويشعر من فيه كلهم أنهم سواء ، تجمعهم رابطة الانسانية والاخاء والحب ، ويضمهم جميعا رباط العمل ، والعمل وحده سبيل الرفعة ، والرقى ، فلا يسخر رجل من رجل ، ولا امرأة من أخت لها فى الانسانية ، وليعرف الجميع ، أن الأكرم عند الله هو الأتقى والأظهر عملا ، والأنقى صفحة .

((يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ، ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن ولا تلمزوا أنفسكم ، ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الايمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون))

ولم تغفل الشريعة .. شريعة الله الحق بعد ذلك شاردة ولا واردة ، الا حددت لها الحدود ، ورتبتها بما يقيم أمر الناس ويصلح مجتمعهم ، فتناولت الميراث والحقوق ، ونصت على الشورى ، وحرية ابداء الراى وحررت العقل من الوهم والضلال وجعلت العقل يساير الدين والمدنية وحفزته على طلب الكمال ، وفرضت عليه العلم والتعلم ..

وانه لمن نافلة القول بعد هذا كله أن نكرر بأن الدين ثورة على كل وضع فاسد وكل نظام غير مستقيم ، كما أنه تطهير للمجتمع من أوشابه ، وليس من الدين أن يلتزم الانسان بأحكام وينقض احكاما ويطيع أوامر ويعصى أوامر أخرى ، فالحلقات متصلة ، والنبع واحد ، والدين أمر بالفضائل والسموو الرفعة ، وما أنزل الله الذكر الحكيم ، الا ليكون مصدر هدى ، ورحمة للعالمين وأساسا للتعامل والمعاملات ، وركنا للتشريع الكامل ، المنظم للحدود ، الآمر بالمعروف الناهى عن المنكر ، الذى ما فرط من شىء حتى آداب اللياقة ، أوردها ورتبها ، وحدد فيها الحدود كل الحدود ..

ابدا ما فاتته شاردة ولا واردة ، بل حوى وجمع وشرح وشرع وهدى ، وأمر ، ونهى ، ومنى بالمثوبة ، وحذر من العذاب ومن بطش الله .

لقد نقى المجتمع من شوائبه ، وطهر النفوس من الأدران ، أيا كانت هذه الادران ، فحرم ما لا يستقيم والفضائل ، ودعا الى ما يعزز قيام الفضيلة والكمال .

فالقرآن مصدر الشريعة الأول واساسها ، وجامع شرائع الرسل الكرام اجمعين — هو كلام الله ومحكم تنزيله ، ووصيته عز وجل أنزله على قلب رسوله الهادى محمد صلى الله عليه وسلم ، فهو البصائر الهادية للناس ، وهو رحمة الله الكبرى التى تداركتهم وانقذتهم من على شفا حفرة من النار ، ثم علت بمستوياتهم وسمت بتفكيرهم وجعلتهم دعاة خير وفلاح وسلام وأمن واستقرار ..

والقرآن .. هو آية الله الكبرى .. والمعجزة الباقية على الزمان ، أنزلها عزيز حكيم ، وحفظها من أن يعبث بها مجترىء ، او يتطاول عليها عابث ، أو يجرؤ حتى على تحريف بعضها أحد من الناس ..

والقرآن .. دستور الله وأوامره للناس أجمعين ، وهو حجته سبحانه وتعالى على خلقه وهو شريعته الكبرى الخالدة على الدهور والتى تضمنت اعدل وأقدس الاوامر والتوجيهات والأحكام اذ شملت العقيدة ذاتها ونظمتها وهدت اليها ، وحددت حدودها ولم تهمل محاسن الأخلاق وما يجب أن يتحلى به الانسان الكامل من الفضائل التى تستوجب رضاء الله ، ومدح الناس ..

وكانت الآيات التشريعية ، وهى آيات الأحكام ، تنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى اغلب الأحيان جوابا على اسئلة من بعض المؤمنين ، من ذلك قوله تعالى :

« يسالونك عن الاهلة قل : هى مواقيت للناس والحج .. » .

« يسالونك ماذا ينفقون قل : ما انفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل .. » .

« يسالونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل : قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به .. » .

« يسالونك عن الخمر والميسر قل : فيهما اثم كبير ومنافع للناس واثمهما أكبر من نفعهما » .

« يسالونك عن اليتامى قل : اصلاح لهم خير .. » .

و « يسالونك عن المحيض قل : هو اذى فاعتزلوا النساء فى المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن ... » .

« يسالونك عن الأنفال قل : الأنفال لله والرسول فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم .. » .

« يسالونك عن الروح قل : الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم الا قليلا » .

و « يسالونك عن ذى القرنين قل : سأتلوا عليكم منه ذكرا ، انا مكنا له فى الأرض وآتيناه من كل شىء سببا فاتبع سببا .. » .

و « يسالونك عن الجبال فقل : ينسفها ربى نسفا ، فيذرها قاعا صفصفا ، لا ترى فيها عوجا ولا أمتا .. » .

و « يسالونك عن الساعة ايان مرساها قل : انما علمها عند ربى لا يجليها لوقتها الا هو ثقلت فى السموات والأرض لا تاتيكم الا بغتة .. » .

و « يسالونك كانك حفى عنها قل : انما علمها عند الله ولكن اكثر الناس لا يعلمون » .

وغير ذلك من الآيات البينات ...

فالشريعة .. هى القرآن .. والقرآن .. أصل الشريعة ومصدرها ومنبعها ، واذا قيل بعد هذا ان السنة المحمدية من مصادر الشريعة أيضا ، فهذا حق فالسنة النبوية ، انما كانت وجاءت بهدى القرآن ، ومن وحيه ، وتطبيقا لأوامر الله عز وجل لأن امام المرسلين محمدا صلى الله عليه وسلم ، ما تكلم الا بالقرآن ، وما حكم بغير كتاب الله ، وما اقدم على عمل من الأعمال الا بوحى من الله منزل الكتاب ومثبتة أحكامه وحافظه على كر العصور .

« انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون .. » .



((ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء ان أردن تحصنا ، لتبتغوا عرض الحياة الدنيا ، ومن يكرههن فان الله من بعد اكراههن غفور رحيم (١)))

((ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن ، ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم (٢)))

(الرسالات الكبرى)

---

(١) سورة النور (٢) سورة البقرة .

الشريعة والمرأة

« **ويستفتونك فى النساء ، قل الله يفتيكم فيهن ...** »

(سورة النساء)

يقول الله الحق سبحانه وتعالى فى محكم كتابه : « **يا أيها الناس اتقوا ربكم ، الذى خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالا كثيرا ونساء ، واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام ...** »

وقوله الحق ، جل وتبارك ، وهو أصدق القائلين يقرر أن الرجل : هو أول الموجـودات الكونية ، على هـذه الأرض التى استخلفه الله عليها ، وانه حينما وجد ، ونفخ الله فيه من روحه ، وكان آية الخلق الكبرى وأكرمها وأفضلها — لم يكن غير كائن قلق ، وجل ، مضطرب ، غير مستقر ..
« **ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا** » .

وراح أفضل المخلوقات يتنقل على هذه البسيطة التى تملكها ، وخلق ليكون سيدها ، فلا يحس بغير نفسه .. ولا يسمع غير دبيب خطواته ، ولا يتبعه غير ظله ..

وجن عليه الليل ، فاذا هو ينسى نفسه ولا يحس بوجوده ، ولا يشعر بغير دبيب الفزع يسرى الى قلبه ، وقد تلاشى دبيب قدميه ، وضل صداها ، وما عاد يسمع غير دقات قلبـه المضطرب الوجل ... أما الظل الذى كان يتبعه ... فقد انمحى أثره هو الآخر ، وتلاشى من الوجود وابتلعته الظلمات !!

وحار الانسان الأول .. ولعله سأل نفسه عمن سيكون الى جانبه ... ولم يطل به التفكير فى جواب سؤاله فقد وجد معه الوساوس لم تفارقه ، والأوهام تدهمه مع احساسه بالوحدة القاسية الرهيبة ، حتى لقد استشعر الجزع وتولاه الخوف ، واحس بالضياع للدرجة التى برم فيها بحياته فى جنات الخلد والرضوان ...

لقـد احس الرجل الاول انه وحيد ، وان وجوده الحقيقى كمـا ارادته القدرة ، لم يتم بعد ، ومن أجل هذا راح ينصت ، وجعل ينتظر ...

كان ينصت فى لهفة ، وكان يرجو أن يسمع دبيبا كدبيب قدميه هو ،

ليؤنسه ... وكان ينتظر أن يرى صورة كصورته ، بل أشد روعة وجمالا ليرتاح اليها ويسكن ، ولتهدأ نفسه ، وتفارقه الوساوس والأوهام ...

وشاءت ارادة العلى القادر الا يطول بالانسان الأول أمد لهفته ، والا يكون فريسة دائمة لوساوس الوحدة وما يوحي به القلق ، فخلق الله له من نفسه زوجة ، سرعان ما وجد فيها أمنه وراحته ، وما أحسه من طمأنينة أشعرته بحب الحيـاة ، فأقبل عليها قويا ، ممتلئا بالآمال مشوقا الى كل غد يطل عليه ، ليقدم لها احسن ما عنده ، ويوليها الرعاية ، وهى جانبه تعينه ، وتساعده ، وتتبعه ، وتحدثه ، وتملأ نفسه بحب البقاء ، وتدفعه الى العمل من أجل الغـد ، فى سبيل استقرار كانت تنشده ، وأمن كانت تسعى الى تحقيق وجوده .

لقد أحس الرجل الأول ان وجوده حينما وجد ، لم يكن شيئا يذكر بدون نصفه الآخر ، وشريكة وجوده فى ذلك الوجود .. كذلك المرأة ، فهى الأخرى حين خلقت من نفسه ، لم يكن مقدرا لها أن تكون شيئا بدون الرجل ، فالاثنان جزءان شطرا ، ولا فائدة منهما اذا هما تباعدا ، وان فى تلاقيهما ، واتحادهما ، سرا البقاء والعمران وازدهار وتعاظم أمر الوجود ، وتكاثر من فيه وانتشارهم فى الأرض ...

« يا أيها الناس ، انا خلقناكم من ذكر وانثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا » .

فالمرأة ، ليست نصف المجتمع فحسب ، بل روحه وحسـه ، وراعيته الساهرة على راحته وامنه ، فوق انها دعامة بقائه الوطيدة ، واداة حفظ النوع البشرى من الانقراض ، وتربة الوجود الخصيبة المثمرة ، التى تنبت فيها البشرية بأصولها وفروعها ، فتطيب من بعد وتزكو وتؤتى دائما اطيب الثمرات التى تبهج القـلوب ، وتسعد النفوس ، وتنعش الوجـدان وتنير العيون ...

« ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين ... »

والله القادر ، الخلاق العظيم ، حينما خلق الرجل ، ثم خلق من نفسه المرأة ، سوى بينهما فى قوله الحكيم ، جل من قائل :

« هن لباس لكم ، وانتم لباس لهن ... »

فالرجل مكمل المرأة ، والمرأة مكملة للرجل ، ولا وجـود للمرأة بدون الرجل ، ولا للرجل ، بدون المرأة ، فهو سكنها ، وهى سكنه والاثنـان شىء واحـد متحـد ، متمم لذاته مهما تبـاعد لتكتمل الخليقـة ويستمر هذا الوجود ...

ولكن الرجل ، عدا على هذه الحقيقة الكونية ، الواضحة ، وحاول على كر العصور ، وبوحى من صلفه ، وتجبره ، وقسوته ، أن يطمس معالمها ، فتناسى فى سبيل فرض ذاتيته ، واتمام تحكمه ، أن المراة ، نصفه المتمم لوجوده ، وانها شريكته فى كل شيء ولو كان يشيد الملك العريض ، أو يبنى الصروح الشوامخ ...

نسى الرجل هذا كله ، واستبد به طغيانه وجبروته العاتى ، ولم يزل يسلب شريكة وجوده حقوقها شيئا فشيئا ، حتى دار الفلك دوراته ، ثم وقف أمام حقيقة بشعة ، ما أرادها الله الخلاق ، وما كانت الأوضاع لترضاها ، بل لقد انكرتها الطبيعة البشرية ذاتها ، واستنكرتها سنة الوجود ... فالمراة خلقت لتكون سكنا للرجل وهو سكن لها ، وهذا يوجب المساواة ، ولكن الرجل ، جعل من المراة رقيقا ، لا يعتد به ، ولا يحسب لوجوده اى حساب ..!!

وهكذا ، انحدر الزمن بالمراة ، روح المجتمع ، وام الوجود الحانية ، وراعية البنين والحفدة ، وجعل منها سلعة تباع وتشترى ، ومتاعا رخيصا لا يعتد به أبدا !!

ولست ارانى هنا فى مجال يسمح لى بالتجوال عبر العالم الفسيح ، لأقص من انباء المراة فى تلك الأمم الخوالي ما يندى له جبين البشرية خجلا ، ولكنى أجمل وأوجز فاقول ان المرأة اليونانية القديمة ظلت رقيقا لم تستطع عقول الفلاسفة اليونان أن تحرره من إساره ، وانها كانت تباع وتشترى ، وكان ينظر اليها كشيء لا قيمة له ولا حساب .

وقد اعتبرت شريعة الرومان ، المراة ، رقيقا رخيصا لا حقوق له ، ولا مميزات ، وفى الوقت الذى جردته من كافة حقوقه ، فرضت عليه فرائض قاسية ، وألزمته بواجبات كان عليه أن يؤديها قسرا ، ودون نقاش لسيده الرجل !!

واذا ما تركنا بعد هذا عالم اليونان ، والرومان ، وهما ما كان لهما فى العالم اجمع من سطوة وجاه ويممنا شطر الشرق ، راعنا أن نجد فى الشريعة الهندية القديمة ، أداة نقمة وعذاب للمراة ، اذ اعتبرتها لعنة للبشرية ، ووباء يفتك بأهلها ، وموتا يتربص بهم ، وجحيما تحرقهم نيرانه اذ تقول شرائع الهند ما نصه :

((ان الوباء والموت والجحيم والسم والأفاعى والنار خير من المرأة)) !!

واقسى من هذا وافظع وأشد شناعة ، أن هذه الشريعة الهندية القديمة ، برغم نظرتها هذه للمرأة ، اعتبرتها تابعا للرجل ، ورقيقا رخيصا لا حق له فى الوجود ، الاخلال حياة سيده ، فاذا ما دهمه الموت ، كان على المراة أن تموت معه ، فهى متاع له وحده ، ولا حق لها فى الاستمتاع بالحياة من بعده ، فاذا

حدث وأحرق جثمانه ، كان عليها أن تلقى بنفسها حية وسط النار ، ليختلط رماد جثتها برماد جثته ، اما اذا قدر له ودفن ، فانها مجبرة على أن تدفن الى جانب جثته !!

والعلامة ابن داود عليه السلام ، ولا اظنــه الا سليمان الحكيم يقول فى سفر الأمثال ، فى الاصحاح السابع ما نصه :

((درت انا وقلبى لأعلم ، ولأبحث ، ولأطلب حكمة وعقلا ، ولاعرف أن الشر جهالة وانحماقة جنون ، فوجدت أمر من الموت لمرأة التي هي شباك وقلبها اشراك ، ويداها قيود .. الصالح قدام الله ينجو منها .. اما الخاطىء فيؤخذ بها ..))

هذا نص ما ورد فى العهد القديم من الكتاب المقدس ، وانه ليعبر فى صدق عن نظرة بنى اسرائيل فى جزء من شريعتهم الى المرأة ، روح هذا الوجود ...

ومن باب الانصاف الحق ، اقف هنا لحظة لأقرر أن الشريعة القديمة ، التى أنصفت المرأة ، وقدرتها حق قدرها ، كانت الشريعة المصرية القديمة ، وان ((بتاح حتب)) فى أمثاله وحكمه التى كانت موازين للأخلاقيــات فى تلك العصور الخوالى ... وتقاليــد متوارثة يحافظ عليهــا الناس ويحاولون جاهدين ان يتحلوا بها كصفات محببة ، ويطبقونها فى حياتهم ، ومجتمعهم . يقـــــول :

((المرأة الصالحة نور الوجود ، وبهجة قلب الرجل ، ومصدر ســعادته وراحته ...)) .

وهذا التقدير يعطى ولاشك صورة صحيحة لنظرة المصرى القديم للمرأة ، واعتباره اياها شريكة فى كل شىء ، وخاصة تحمل التبعات والمسئوليات ، اذا كان الرجل ممن يعمل فى الزراعة .

لقد احترم المصريون القدماء المرأة ، وعرفوا لها مكانتها وفضلهــا وعميم آثارها ، وبيض أياديها ، كما ان المصريين سيدوا النساء وملكوهن ، وكانوا فى مجموعهم يعتزون بنسائهم ويعرفون لهم مكانتهم ، ويعمــلون جهدهم على حفظ انسابهم فكانوا يرفضون أن يزوجــوا نساءهم لغير مصرى موطنــــا واقامة .

كما انه لم تعرف فى مصر القديمة طائفة الجوارى والرقيق من المصريات ابدا ، اذ كانت النساء تتمتعن بكافة حرياتهن كاملة ، اما طائفة الرقيق اللاتى امتــلأت بهن قصور الفراعين من النســـــاء ، فقد كن من أسارى الكوش ، والخيتاس ، وبنات اسرائيل ، وبقية الأمم المغلوبة .

وهناك شريعة أخرى بالغة القدم ، قررت للمرأة بعض حقوقها هى شريعة ((حمورابى)) الذى وجه اهتمامه الى تنظيم الحياة الاجتماعية فى بلاده ، وسن

للمراة من المواد ما رفع قدرها ، وهي التي كانت من خالص ممتلكات الرجل ، فالزم زوجها عند الطلاق بالانفاق عليهـــا ، واعالتها واطفالهـــا المشمولين بوصايتها ، كما الزم الزوج بان يرد عليها ((مهرها ..)) ..

ولم تقف شريعة ((حمورابى)) البابليين من هذه الالتزامات قبل المراة الا فى حالة ثبوت نشوز الزوجـة ، او عدم اخلاصها لزوجها ، وفى هـذه الحالة الأخـيرة ، كان الرجل بمقتضى الشريعة أن يسـترق المراة الي الأبد ، ولا يحررها ابدا ...

ثم ... لنعبر بعـد هذا ، هـذه الحقب السحيقة ولنتخطى هذه الأجيال الموغلة فى القدم ولنتجاوزها كلها .. ثم لنقف فى الجزيرة العربية خلال جاهليتها الأولى ، ولنحاول جاهدين أن نتعرف على مكانة المراة فى ذلك المجتمع الذى كان يزخر بالغرائب ، ويضيق بما حوى من متناقضات فى كل شيء كان فيه ...

ان التاريخ يقرر أن المراة فى العصر الجاهلى ، لم يكن لها فى مجتمعها ذاك اية مكانة على الاطلاق ... كانت كما مهملا ، فى مجتمع لم يعتد بها ولم يوليها اى اهتمام ، بل كيف كان يلتفت اليها وأمام الرجال فيه ما يشغلهم عن ذلك ...

كانوا مجتمع فساد ، وانحطاط فكرى ... كانوا أسارى تقاليد جائرة مقيتة ، جعلت من الرجل شبه معبود واجب الطاعة ، فى مجتمع طبقى مقيت ، كان من حقه فيه ، أن يسود من هم دونه ، ويطأهم تحت أقدامه ، محتميا وراء عصبيته وجاهليته ، فكيف كان له وهذه صفاته المقيتة ان يبحث للمراة عن مكان فى مجتمع البطش والتجبر والجبروت ..

وقد كانت المراة فى العصر الجاهلى ، لا تزيد عن كونها متعة يلهو بها الرجل فى أوقات راحته وسلمه ، يستمتع بها لفترة محدودة ، طالت أو قصرت ، ثم لا يلبث أن يسعى بعد تولى هذه الفترة ليبحث عن متعة غيرها وغيرها ، وخاصة اذا كان ذا مال وجاه ومكانة ، حتى لكأنه فى ذلك المضمار، كان يجمع عنده قطيعا من النعاج الولود ، يباهى بكثرته ، ويفاخر بعد ذلك بذراريه ..

ولئن قيل بعد هذا ان اصحاب الملكات الشعرية فى العصر الجاهلى ، قد جعلوا المراة وحيا والهاما ، وهاموا وراء طيفها الشارد فى أودية الخيال، ومروج الصبابة والعشق ومجالس الهوى ، وأنهم تشببوا بها وقالوا فيها ما شاءوا من غزل ومن نسيب ، ووقفوا فى خشوع يبكون الدمى ، ويحدثون الأطلال ، ويناجون الربوع المقفرة ، فانى أقول ان هذا كله لم يكن غير

اسراف فى محاولة اتقان صناعة الشعر الجاهلى ، والمحافظة على تقاليده ، والسير على سنن السابقين فيه ، وان من تشبب ، وتغزل وبكى ، لم يكن غير مسرف مقلد ، يحاكى من سبقوه ، ولم يقرض الشعر باحساس صادق ولم يعبر به عن عاطفتـه الحقة نحـو المرأة ابدا ، ذلك لأن هؤلاء الذين اعتبرناهم فحول الشعراء وأصحاب المعلقات الشوامخ ، انما اتخذوا من الغزل والنسيب أداة لجـذب انتباه السـامعين وتحويل الاهتمام الى ما يقولون ، ويحاولون شد الأسماع اليه ، فاذا ما تحقق لهم ذلك ، وظفروا به ، وافلحوا فى اتخاذ النسيب وسيلة للسيطرة على عواطف الغيرة ، ومعبرا هينا ، سريعا الى ما يريدون قوله ، نفذوا توا الى الغرض الأول الذى ارادوه من قرض الشعر ، والتلاعب بفنونه المعروفة ، المعمول بها فى ذلك الوقت ، والتى لم تكن لتخرج عن المدح ، أو الهجاء ، أو استمطار العطايا وطلب الصلات ..

فإذا قلت بعد هذا إن المرأة فى الجاهلية لم تكن شيئا مذكورا ، فإنى لأقرر واقعا صريحا ، أن المرأة فى حقيقة وجودها فى ذلك المجتمع ، كانت سبة وعارا .. وكانت أداة متاع للرجل ، عليها واجبات دون أن يكون لها حقوق .

لقد كانت المرأة فى المجتمع الجاهلى عموما ، لعنة تطارد الرجل .. ونقمة نزلت به .. ومصدر شر دائم لامفر له منه ، فكرهها أولا من كل قلبه ، واحتقرها بكل جوارحه ، وأمعن فى تحقيرها ، والتهوين من شانها ، فلم يكن عجيبا بعد هذا أن يسعى جهده الى التخلص منها باى وسيلة كانت ، مشروعة ، أو غير مشروعة !!

تلكم كانت نظرة الرجل إلي المرأة .. الرجل .. اى رجل كان .. اب او اخ شقيق او زوج ، او قريب ، أو صهر من الأصهار ، فقد كانت السكينة فى نظر المجتمع مصدر عار ، وسر شقاء ، وسبب نكبات ، ومنبع بلوى ..

كانت فى نظرهم قضاء مبرما فرضت عليهم لعنته ، فتمردوا على هذه الفرضية ، وراحوا يحاولون الفكاك من اسارها ، بكل وسيلة وسلاح ..

ولرب قائل يسأل بعد هذا ، إذا كانت تلك هى نظرة المجتمع الجاهلى للمرأة ، فهل كان هذا المجتمع مجتمعا منحلا ، لا روابط تربط بين أهله ، ولا صلات تحكمه ، وتصل بين إناسه .

وأسارع فأقول إن الصلات كانت موجودة ولكنها صلات مفككة ، مضطربة ، فى حكم المعدومة ، ذلك لأن الحياة هناك قامت على القلق

والتربص والشكوك ، والريبة ، والتوثب ، ولم تكد تحد هذه الصلات حدود ، ولا يحكمها عرف ، ولم تكن لتخضع لسلطان التقاليد ، **والمرأة في نظر أولئك الناس ، لم تكن غير المرأة .. مملوكة الرجل ، وأمته ، وتابعته، التي لا تملك من أمر نفسها شيئا على الاطلاق ..**

ويعاود السائل سؤاله فى دهشة ، من يريد أن يعرف ، إن كان قد سوى بهذه المعاملة ، بين نساء المجتمع الجاهلى جميعا ، فأسارع وأقول له : **ان الندرة القليلة تعتبر فى حكم العدم ، ولا يصح أبدا ، أن تتخذ أساسا فى تقييم نظرة المجتمع بصفة عامة إلى سائر النساء ..**

كان هناك مجتمع السادة .. مجتمع الطبقية والعصبية ، مجتمع الاشراف .. وأولئك كانوا القلة المتحكمة بمالها وجاهها وعصبيتها ، وحميتها ، وبالتبعية كانت نساؤهم ، فوق جميع النساء !!

تلكم كانت طبقة عاشت كما أرادت ، وصبغت الحياة ، باللون الذى كانت تهوى وتريد .. فعشن كما أردن ، وتحكمن ، وكان لهن فى جاه الأهل ، أو تعالى الأب ، أو قدرة الأخ ــ الملاذ والحمى والمهرع ، فرفع الجاه من شأنهن ، وعظم الثراء من مكانتهن ، وارغم الرجال ، كل الرجال على أن يولين هذا الصنف المحدود من سيدات العشيرة ما كن أهله من التعظيم والتوقير والاحترام .

وكما أسلفت أن هذه الفئة من النساء كن قلة محدودة جدا ، ولا يصح اتخاذها مقياسا لتعرف قدرة المرأة فى المجتمع الجاهلى .

ومجتمع كان التفاوت الطبقى يسوده بهذه الصورة الواضحة ، كان من الطبيعى أن ينظر رجاله إلى المرأة ، نظرتهم إلى شر مقدور ، أو إلى أنهــا لعنة نزلت بهم ، وعليهم أن يصبروا عليها أو أن يدفعوا عنهم شرورها بأى ثمن كان ..

كانت الأنثى لعنــة على أبيهــا ، لأنها لم تكن بذات فائدة له ، ولن تستطيع أن تعينه وسط زعازع حياته القاسية ، أو أن تقف إلى جانبه ، تشد أزره ، أو تأخذ بيده فى معترك جهاده وهو يطلب القوت ..

كما كانت عند الزوج لعنة أيضا ، ولعنة كبرى ، إذا لم تكن ذات عصبية أو جاه ، أو صاحبة مال ، فهى والحالة هذه كل عليه ، وثقل ينوء بحمله ، وخاصة إذا هى انجبته البنات دون البنين ، فتزيد بذلك حمولته ثقلا ، وتبعاته خطورة ، وتجعله يتصــور أنه انمــا ينجب اللعنات ، ليلقى بهن فى أتون مجتمع العــار ، ليصبحن وقــودا يزيد النــيران تأججا ووحشية وضراما ..

والله الحق فى تصـوير نظرة الرجـل للمرأة فى ذلكم المجتمع الجـاهلى اللعين يقول فى محكم التنزيل وهو سبحانه وتعالى أصدق القائلين :

« وإذا بشر احدهم بالأنثى ، ظل وجهه مسودا وهو كظيم ، يتوارى من القوم من سوء ما بشر به ، ايمسـكه على هون ، أم يدسـه فى التراب ، الا ساء ما يحكمون .. » !!

فلم يكن عجبا فى مجتمع هذا شأنه ، وتلكم صفات رجاله ، وهذه آماد نظرتهم إلى المراة بصفة عامة ـ ان يقـال عنه ، مجتمع الضوارى الجائعة ، التى تعيش بلا قلوب ولا افئدة ولا إحساس .

ولم يكن عجيبا أيضـا ، أن يتجرد الأب من حنان الأبوة ، ورعايتها المفروضة عليه ، ويقدم فى ضراوة الوحش على واد ابنته الوليدة ، التى لا حول لهـا ولا قوة ، ولم تكن لهـا ارادة فى مقدمها إلى هـذه الحياة ، ثم يدفنها حية ، ليقطع بذلك دابر عار كان يتصوره وفاقة وعوزا كان يخشاهما ، ومسغبة ، كان يرهبها ، لأن الأنثى فى نظره كانت تهل على الدنيا ، وفى أثرها الشر والحاجة ، وتزايد التبعات !!

ومرت أعوام بعد أعوام ، فلا ستر انقشعت ظلماته ، ولا جور تباعد عن الناس ، بل سـارت الأمور من سىء الى ما هو اسوأ حتى لقـد نخر السوس قوائم ذلك المجتمع الفاسد ، وكان من اللازم أن يتهاوى وأن يزول من هذا الوجود ..

ولقـد تهاوى ذلك المجتمع فعـلا ، وتقوضت دعائمه يوم علا صـوت البشير النذير الصادق ، محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، داعيا إلى الكفر بالصنم ، والثورة على الضلال ، والخروج من الظلمات المعتمة التى خيمت على العقول ، إلى مجـالى النورانية والخلاص ، بشهادة انه لا إله إلا الله وحده ، وان محمدا عبده ورسوله ، الهادى إلى الحق والهدى ، الداعى إلى دين الاسلام ، دين الفطرة ، الذى كتبه الله على عباده ، وامرهم باتباعه ، وارتضاه لهم دينا ، ولن يقبل منهم غيره ..

والاسلام .. دين قويم .. وهو اسلام النفس ، إلى الله ، وتطهير القلب بالايمان الحق ، واعلاء شان الوجدان بجلال العقيدة ، وسمو الفكرة ، وهذا كله بما حوى من مقومات لم يكن للجاهلية بها من عهد ـ ثورة عارمة على التعفن والرجعيـة والفسـاد ، وكل مايخالف العرف التقدمى ويسمو بالبشرية إلى مدارج السمو ، ومراتب الكمال ..

وانطلقت الثـورة عارمة مشبوبة ... وهدم الاسلام عبادات الجاهلية ، وترهات القرون الغابرة ، وما خلفته فى أعماق القلوب ، من وهم وضلال ..

ثم استمر فى طريقه الذى أراده له الله ، يهدم ليبنى ، ويقيم أسس مجتمع مدعم ، وعالم مثالى ، شريعته الفضائل ، واس معاملاته التطهر والكمال الخلقى ..

وانزل الله الكتاب تبيانا لكل فضيلة .. ومرجعا ثابتا لكل سمو ، وهاديا لا يضل ولا يخطىء ، بل يدعو إلى التى هى أقوم واحسن وأكثر كمالا وروعة ..

واحق الشارع الحكيم فى محكم تنزيله حقوق هذا المجتمع الجديد ، ورتبها وحددها ، وحوت الشريعة وشملت المجتمع من شتى اطرافه لتكون دستور معاملات ، خير أمة أخرجت للناس وكان طبيعيا ، وقد رفعت هذه الشريعة من شأن المجتمع ، ان تولى عظيم اهتمامها ، لتنصف المجتمع .. الذى ظلمته التقاليد الجائرة والعرف الظالم ..

وهكذا وعلى أضواء كتاب الله الحق ، **عرفت المرأة طريقها إلى النور** ، واستمع الناس أول ما استمعوا إلى قوله تعالى :

« إذا الشمس كورت .. وإذا النجوم انكدرت .. وإذا الجبال سيرت .. وإذا العشار عطلت .. وإذا الوحوش حشرت .. وإذا البحار سجرت وإذا النفوس زوجت .. وإذا الموءودة سئلت .. باى ذنب قتلت .. » ؟ !

ونقل القوم عيونهم فى ارتياع ، وقد بلغت القلوب الحناجر .. ما هذا الذى كانوا يسمعون .. وما هـذه الظواهر الطبيعية الخارقة المقرر حدوثها .. ثم .. الموءودة !! أجل الموءودة .. الوليـدة التى لم يقـدر لها ان ترى النور ، وأن تنشق من نسائم الحياة ، إلا بقدر مسيرها من مهدها إلى اللحد الذى أعد لها ، وهى تستعد لاستقبال الحيـاة .. هـذه الموءودة .. ما دخلها فى كتاب الله .. وما دورها فيه !!

وتولى الوجوم مجتمع الظالمين .. قتلة البريئات ودافنيهن أحيـاء .. وراحوا فى ذعـر يتساءلون .. وما دخل الموءودة التى تولت ، والقينا بهـا عن اكتافنا كي لا نحمـل تبعاتهـا اذا شبت .. وكيف سنسـأل .. واية اسئلة ستوجه اليها !!

إن الحق سبحانه وتعالى يوضح كل شىء ، ويبينه ويجليه .. وإن الموءودة سوف تسأل عن الجريرة التى ارتكبتها ، حتى قتلت !! هل أجرمت .. هل اخطات .. هل احدثت فى المجتمع حدثا مروعا حتى يدفنها حية ..!!

وبقدر ما تولى الذعر مجتمع الجاهلين العادين ، بقدر ما تنفست المرأة الصعداء ..

إن هذا الدين يبين ويوضح .. ثم ها هو ذا يذكر ويقرر .. وإن الاشـارة إلى مجرد سـؤال الموءودة لا شك يعنى انه سيكون للمراة بعـد هذا شان جديد .. وما دامت هذه الملة السمحاء قد بدأت تتناول مأساة من جذورها الأولى، وتجمع أطراف خيوطها منذ بداية هذه المأساة، فلا بد وانها ستولي المرأة اهتماما خاصا، وترتب لها علي المجتمع حقوقا مدعمة تحميها، وتحرسها، وتجعلها بنجوة من ظلم الظالمين ..

الموءودة سوف تسـأل يوم القيـامة .. وهـذه الضحية البريئة التى ستسأل، سوف تتهم الأب بالقسوة، ومن بعد الأب .. ستوجه اتهاما إلى المجتمع وافكار الناس .. ثم إلى القلق .. ومن بعد القلق .. إلى الحيرة والوهم .. والخوف من الغد .. !!

ويلك أيها الانسان .. لم القلق .. ولمـاذا تستسلم إلى الوهم .. وبأى حق تخاف الغد، وتخشى غوائل الأيام والله الحق يقول « **وفى السماء رزقكم وما توعدون** » !!

أيها الجاحد .. طمست الجهالات التماع تفكيرك، ونورانية عقلك، حتى جعلت خضوعك للصنم العاجز تنسى الله القادر رازقك، فأقدمت على قتل فلذة كبدك، وقرة عينك، مخافة الفقر، وخشية العار !!

إن هذه الموءودة البريئة ستسأل، بأى ذنب قتلت .. وان فى الاشارة الكريمة إلى تقرير حدوث سؤالها هذا، فيه ما يعني التحذير للجميع للاقلاع عن هذه الجريمة، والبعد عن التفكير فيها .. لأن السؤال معناه، المثول بين يدى الله، لكل من الضـحية وسافك دمها .. والضحية بريئة، والجاني لابد وان ينزل به أشد العقاب !!

ورغم أن نور الاسلام قد عرف طريقه إلى قلة محدودة فى بداية الدعوة، إلا أن روعة ما زخر به من توجيهات، وأوامر، ووعد ووعيد، قد ملأ القلوب .. كل القلوب بالرهبة، والجزع، حتى لقد احس اشد اعداء محمد عداوة له، بالخوف، والرهبة أمام بعض اخطاء كان يقدر لهم أن يرتكبوها، طالما ارتكبوها وهم آمنون أيام الجاهلية والجهالات .. فتراجع الجناة .. وعرف الاستقرار النسبى طريقه إلى كثرة من البيوت ثم .. وهو الأهم .. عرفت المرأة أن شريعة الله، لابد وأن تعد لها مكانا يليق بها فى المجتمع الجديد ..

ومرت الأيام .. وبدأت الحقائق تبين .. والمعالم تتضح .. وبدأ الفكر يستنير، ويتجه الى المعـرفة ويتعلم ليزداد ايمـانه بالله، وتمسـكه بقضائه وقدره .. ونزل قوله تعالى :

« ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق ، نحن نرزقهم وإياكم .. إن قتلهم كان خطئا كبيرا .. »

هذه هي البداية السعيدة ولا شك .. وهذا هو التوجيه الصائب والتعليم القويم ..

« لا تقتلوا أولادكم » أمر صريح سماوى من الله القادر بعدم الاقدام على ارتكاب جريمة القتل .. وقتل من .. قتل الأولاد .. والمقصود بالأولاد هنا ، هن البنات دون البنين ولا شك فى ذلك لأن مجتمع الجاهلية المادية كان يجل الذكور ، ويقدرهم ، ويسعد لوجودهم ، ويحبهم ويعتبر ميلادهم خيرا وبركة على الأب ، فلم يكن ليقدم بحال من الأحوال على قتلهم ، وهم عدة الأب ، وعونه وسلاحه ، ودرعه فى معترك الحياة القاسية، بهم يفاخر ، وبكثرتهم يباهى ويسود غيره من الناس ..

والله الحكم العدل ، إذ يأمر هنا بعدم قتل الأولاد ، فهو جل وعلا يحرم هذا القتل ، ثم لا يكتفى سبحانه بالأمر الواجب الطاعة فحسب ، بل يجعل من الأمر الناهى ذاته ، وسيلة إلى المعرفة ، والتعليم ، وطريقا إلى الفهم والايمان ، فهو حين يأمر بعدم القتل ، يقرر انه إذا كان هذا العمــل الوحشى البغيض يتم خشية العيلة أو الاملاق ، فليس رزق الأولاد على ابيهم ، لأن الله خالق الحب والنوى ، هو وحده الوهاب ، وهو الرزاق العاطى ..

هــذا ما يجب ان يعرفه الانســـان المسلم ، وما كان يجب أن يســـلم به فى تلك الحقبة ، التى كانت تعد فيها النفوس لتفهم رسالة الاسلام ، وآماد الايمان بأن الرزق مقســـوم ، وأن الخالق يقدر الرزق ويجزل العطاء ، وانه يرزق الديدان فى جوف الصخور .. والأجنة فى بطون أمهاتهم ، وانه قدر أرزاقهم يوم كانوا نطفا ، وقدرها يوم خرجوا إلى هذا الوجود ، وأن رزقهم قدر مقدور ، وانه لفى السماء ، وانه الله الوهاب ليهبه بقدر لعباده المؤمنين ..

هذا ما كان يجب على الانسان الجزع الخائف من غده أن يعرفه ، حتى لا يقــدم على قتل بناته ، ودفنهن أحيــاء ، فالله يرزقهن أولا ثم يرزق الأب بالتبعية ، أى يهبه أرزاقهن وما يكفيهن شر الحاجة والجوع والمسغبة .

فإذا ما عرف الانسان هذا ، وآمن به ، واطاع الأمر الذى قضى به الشارع الحكيم الذى حرم قتل النفس إلا بالحق — واصبح بهذا لا يخشى الفقر ، ولا يرهب العوز ولا يرجف لتصور الاملاق ، وآمن أن الله العاطى يرزق الأبناء ، ومن بعدهم الآباء ، وقف لحظة أمام المــاضى المؤلم الملطخ

بدماء الضحايا من الموءودات ، ليندم ، ويستشعر مرارة وهول الجرم الذى ارتكبه فى حق نفسه ورزقه والانسانية جمعاء ، ويعرف أن هذا القتل ، جرما شنيعا وخطئا كبيرا ، وكان سيئة لا تمحى ، وذنبا لا يمكن ان يغتفر بحال من الأحوال ..

وانه ما دامت الجريمة الشنعاء المباحة فى مجتمع الضلال ، قد كتب عليها أن تكون موضع التحقيق والبحث ، وانه ما دامت الضحية التى أقدم الأب الظالم على وأدها سوف تسأل ، فانها لن تسأل وحدها أبدا ، وان من ارتكب الجرم الرهيب لن يترك سدى ، وسوف يسأل هو الآخر ، ويلقى الجزاء الأوفى عن جريمته الشنعاء ..!!

لقد اصبح هناك حد زاجر إذا .. ونهى وأمر .. ومن هنا ، ومع تدرج نزول هذه الأوامر والأحكام المرتبة لحقوق المرأة فى الشريعة السمحاء، عرفت المرأة انها مقبلة على عهد جديد قائم على أسس ، يحكمها قانون سماوى لا يجسر على مخالفته كائن من كان ، أوامره مطاعة ، وتنتظمه شريعة علوية تحميه ، وتسوره بسياج الرعاية والحفظ ، حرمت قتل البنات، واثبتت لهن حق كفالة الرزق على الله واهب النعم ومولبها ، المعطى الرزاق .

وعرفت المرأة فوق هذا الذى عرفته انه إذا كانت هذه هى بداية الطريق مع الدين القيم ، وما دام هذا هو شأنه فى رفع المستويات ، وتقويض اسس المجتمع القديم ، لاقامة مجتمع مثالى ، فإن الغيث سوف ينهمر بالخير الوفير ، وأن شريعة الله الحكم العدل ، سوف تثبت لها مع مسير الزمن كل ما يمكن أن يرفع من مكانتها ويعلى من قدر مجتمعها المتطور فالواجب أن ترتبط به وبمن فيه ، بما يمليه عليها الوضع من تبعات وواجبات تقابل ما قد ظفرت به من الحقوق ..

وهكذا .. ومع انتشار أضواء الدعوة العظمى بدأت المرأة ، التى لم تكن فى مجتمعها شيئا يذكر على الاطلاق — تصبح شيئا هاما ، له حقوقه ، وعليه واجبات مقررة ، وله كيان وجودى معترف به ، وانها لم تعد كما قيل عنها ، بل راحت فى ثقة ومع مسير التيار الزاحف تتقدم لتاخذ مكانها الجدير بها فى هذا الوجود ..

وكما عرفت المرأة مكانها ومكانتها ، كذلك بدأ الرجل هو الآخر يعرف قيمة أولاده البنات ، عطايا الله ، وأجمل هباته ، وانهن ليس كما تصور لعنة ، ونقمة ، وأنه ليس له أن يرهب مع وجودهن عاديات الزمان ، فيخشى الاملاق ، ويخاف العوز ، فان الله مقسم الأرزاق ، قد قدر ارزاقهن ، وانه كفيلها ، وليس على الأب ، بعد هذه الرعاية السماوية ، الا أن يعدل بين أولاده فى كل شيء ، وان يسوى فى المعاملة بين الأبناء

أجمعين ، وأن يتقى الله فى بناته ، فيرعاهن حق الرعاية ، ويعاملهن بالحسنى ، ويربيهن التربيــة القويمة ، ويشجعهن على التحلى بالعفة ، والكمــال والفضائل ، ليكن جديرات بأخذ مكانهن اللائق فى ذلك المجتمع الجديد ..

ومع مسير ركب الدعوة ، وتعاظم أمر الدين ، ودخول الناس فيه ، وكفرانهم بالجاهلية وعاداتها وتقاليدها ، المقيتة ـ راحت المرأة تساير الحياة المستقرة الجديدة وتتبع تيارها الصاعد وإذا بها تجد نفسها بحكم الواقع فى كل مجال وميدان ، حتى فى ميادين النضال والحرب ، لتجاهد بما وسعتهــا شرعة الجهاد فى سـبيل دين الله ونصرته ، فتبعت الغزاة الفاتحين ، وأخذت مكانها فى مؤخرة الجيش تسقى ، وتمرض ، تواسى ، وتظهر فاعليتها بكل صدق وأمانة وإخلاص ..

وفى يثرب .. مدينة رسول الله المنورة ، بدأ الذكر يتخذ وجهة جديدة ، فقد كان فى مكة ينذر ، ويذكر ، ويدعو ، ويهدم البــالى من العبــادات والتقاليد ، ويأتى على أخبار الأمم وجهاد الرسل الكرام ، بما كان يثبت به فؤاد الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم .. أما اليوم .. وفى المدينة ، والمسلمون فى منعة وعزة ، وقوة ، فان اليوم يختلف عن الأمس فى كل شىء .. وإن الذكر الحكيم ، ليخطط معالم دنيا المثالية ، وعالم الكمال ، وانه ليقنن ويشرع ويهدى ، ويبين الأحكام فى شتى أمور الدنيا والدين ..

وراحت الشريعة السمحاء ، فى يسر وأحكام تنشر ألويتها على المرأة ، لواء بعد لواء وعززت من أجلها أسس الاستقرار الواجب أن يتوفر لها فى المجتمع الصاعد ، فأشعرها ، وملأ روحها بشحنات من الثقــة لتعرف نفسها حقَ المعرفة وتثق فى وجــودها حقَ الثقة ، وتتثبت من فاعليتها وتعرف انها لم تخلقْ سدى ، بل لأداء رسالة ، والنهوض بعبء له قيمته فى معترك الحياة ، شأنها فى ذلك شأن الرجل ..

وقررت الشريعة أول ما قررت بالتكريم وتعظيم الشــأن .. وقال الحق سبحانه وتعالى ((ولقد كرمنا بنى آدم ..)) وتلفت الناس يتساءلون ومن بنى آدم .. وجاء الجواب الحاسم ، إنهم الرجل والمرأة .. النصفان المكملان لبعضهما !!

فالله الحق ، يقرر بالتكريم المطلق لبنى آدم ، تكريما لا تفرقة فيه ولا تمييز .. فهو سبحانه قد كرم بنى آدم .. اى كرم الرجل والمرأة بنسبة واحدة متساوية ، فأعطاها معا حق الحياة ، وسخر لهما معا ، كل ما خلق ، ومن خلق ، وحملهما معا فى البحر والبر ، وآتاهما معا من الطيبات الشىء الذى لا يحصى ..

فالتكريم مساواة .. والعطاء مساواة كاملة .. والرجل والمرأة عند الله سواء .. فالواجب أن يكونوا سواء فى المجتمع .. فالرجل مكلف بالطاعة .. والمرأة مكلفة أيضا بالطاعة ، فلم تفرض الصلوات خمسا على الرجل ، وعلى المرأة أقل من ذلك ، ولم يكتب صوم رمضان كله على الرجل ، وثلثه أو نصفه على المرأة ، ولم يكلف الرجل القادر الحر المالك لنصاب من الذهب والفضة وحده بالزكاة ، ولم تكلف بها المرأة ، ولم يكتب الله حج البيت على الرجل دون المرأة ، ولم يقدر الشهادتين على الرجل وحده ، بل الزم بها المرأة أيضا ..

فالحق سبحانه ، لم يفرق بين بنى آدم فى شىء والزم كلا من الجنسين بواجباته ، فى حدود التساوى ، خاصة فى العبادة ، والتقرب الى الله ، ثم أورد سبحانه الحقوق كلها بعد ذلك وقال عز من قائل ((**ولهن مثل الذى عليهن .**)) فالمرأة ، حرة ، لها حقوق ، فى مقابلها واجبات ، عليها مثل الذى لها بالمعروف ، وعليها أن تعطى بقدر ما تأخذ ، وأن تعرف أن الله لم يهبها الحق مباحا ، بل الزمها فى مقابله قضاء الواجب وحدد سبحانه هذا القضاء وعينه بأن جعله يتساوى تماما مع ما تأخذ دون بغى أو عدوان لتتعادل الموازين وتستقيم الأمور ويعرف الناس جميعا ما عليهم قبل أن يطالبوا بمالهم ..

والشريعة اذ تقرر ان للنساء مثل الذى عليهن بالمعروف .. فهى هنا ، تحدد ، وتعطى ، وتمنح ثم .. تحدد المسئولية ، فالأخذ مباح ، وبقدر ، والعطاء واجب ، وعلى قدر ما أخذ المرء ، فلا إسراف فى ناحية ، ولا تقتير فى الآخرى ، ولا إباحة فى ناحية ، ولا تحريم فى الأخرى ، وانه ليس للنساء ، غير الفضل ، والمعروف والتحلى بكل كمال ، وطاعة الله ورسوله ، وحماية المجتمع ، وغير هذا ..

والعمل موكول بالجزاء ، رهن بالمثوبة ، وما دامت المرأة قد أخذت حقوقها ، فعليها فى مقابلها الواجبات ، وبقدر ما هى مسئولة عما نالت من حقوق مطالبة برعايتها أو المحافظة عليها ، فهى أيضا مسئولة عن واجباتها ، مطالبة برعايتها ، ومسئوليتها أمام الحق ، والواجب ، مسئولية مزدوجة أولاها مسئوليتها أمام الله ، ثم مسئوليتها أمام مجتمعها وهى فى هذا تتساوى مع الرجل وتتعادل أمام هذه المسئوليات ، والله الحق فى هذا يقول :

((للرجال نصيب مما اكتسبوا ، وللنساء نصيب مما اكتسبن))

واذا كانت الشريعة قد ميزت الرجل عن المرأة فى بعض الحقوق مثل الميراث ، لأسباب اجتماعية لها وجاهتها ، وآثارها ، فإنها سوت بعد ذلك

بينهما فى المثوبة ، والجزاء ، والاستجابة حين يرفعون أكفهم بالدعوات الى الله ، ليؤجرهم .

« ربنا إننا سمعنا مناديا ينادى للايمان أن آمنوا بربكم فآمنا ، ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار .. ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ، ولا تخزنا يوم القيامة ، انك لا تخلف الميعاد .. فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى ، بعضكم من بعض ، فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم ، وأوذوا فى سبيلى ، وقاتلوا وقتلوا ، لأكفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ثوابا من عند الله والله عنده حسن الثواب .. »

فالعطاء هنا عطاء عادل .. والمساواة فى الجزاء مساواة تامة ، لم تفرق بين الرجل والمرأة فى شىء ، وانها لتساوى بينهما على قدر ما يقدمه كل منهما من الصالحات ، ليكون الجزاء على قدر العمل تماما ..

ولاتكاد الشريعة تفرغ بعد هذا من تقرير هذه المساواة الكاملة العادلة بين الرجل والمرأة فى المجتمع ، حتى تتجه الى منح المرأة بسخاء فى مناحى أخرى من مناحى الحياة ، وأخصها حياة الأسرة ...

والأسرة ، فرع من فروع المجتمع يستظل الناس بظله ، حين يزكو ، ويتم إيناعه ، ويثمر ويتكاثر ، والاثمار فى الأسرة ، طريقة التزاوج والتصاهر ، والتزاوج فريضة مقررة لبقاء البشرية واستمرار تقدمها ونموها ، واذا كانت الأسرة فرع من فروع المجتمع كما قلت ، فان الزواج هو أصل المجتمع كله وان كان فى ذاته ، نتيجة يحتمها قيام الأسرة .

ومن أجل اهمية الأسرة ، ورغبة فى بقاء المجتمع وقيامه على أسس صحيحة ، وجهت الشريعة عنايتها واهتمامها الى الزواج والترابط الأسرى ، وحددت لهما الحدود ، وجعلت من هذه الرابطة المقدسة ، تعاقدا فيه تعزيز للحقوق والزام بالواجبات .

وقد فرضت الشريعة السمحاء لصحة عقد الزواج ضرورة الايجاب والقبول ، واشترطت العلانية والوضوح ، وأوجبت شهادة الشهود تأكيدا للحادث نفسه واشهارا للرابطة المقدسة وتوثيقا لها كعلاقة بانية فعالة فى المجتمع ، بوصفها من عمد استقراره ، ودعامة من دعائم بقائه وازدهاره على كر العصور ...

فالزواج علاقة لها خطرها الملحوظ ، ومقامها السامى ، ومن أجل هذا لم ترد الشريعة أن تطلقها على عواهنها ، وتبيحها بما تعنيه الاباحة ، بل حددتها بحدود ، وقيدتها بقيود ، وجعلت لصحة قيامها ضرورة استكمال شرائط صحة ، ولتحريمها ومنعها شرائط اخرى موجبة للمنع والتحريم ، اشعارا

بقيمتها ، وفاعليتها ، فهى علاقة تربط المجتمع ببعضه بعضا ، واتصاله اتصالا اسريا يجعل من المجموعة فردا واحدا ، يجمعه اكثر من رباط لكل منها قداسة ومكانة واجبة التقدير والاحترام والتقديس والاجلال ...

والزواج بعد هذا ، علاقة جمعت الأسر داخل نطاق الصلة المقدسة ، ووحدت بينها توحيدا كاملا ، وانها لتعنى رابطة أعمق من هــــذا بكثير بين الزوجين نفسيهما ، ولهذه الرابطة بالنسبة للزوجين أكثر من وجه ، وأعم من هيئة ، فهى علاقة ترابط أبدى ، واندماج كلى ، تنتظم فى اطارها أرفــع الدواعى وأسمى العواطف البشرية التى تزخر بها القلوب ، فهى علاقة أمومة وأبوة حانية ، وصلة صداقة واخاء بين طرفى تعاقد متســـــاويين ، ورابطة تعاطف حسى وروحى بين شريكين متفاهمين ، جعل الله بينهما المودة رباطا ، والرحمة صلة ، حتى نزلت فى وصف هذه الصلة كلماته تعالى ((هن لباس لكم وأنتم لباس لهن ...))

والآية الكريمة تشير ولاشك الى الاندماج الـــكامل بين الزوجين ... اندماجا بما تعنيه الـــكلمة ... اندماجا ارتضته الشريعة ... ورحب به المجتمع وارتضاه وطالب به ، ففى تمامه واستكمال مقوماته ، ما يعنى الهدوء والدعة والاستقرار ، وعزة المجتمع ، وصلاح بنيه وبناته ، بما يجـــزم أن الزيجة قد آتت ثمارها الواجب أن تكون ...

واذا كانت الشريعة قد أوجبت المساواة بين الرجل والمرأة بصفة عامة كما ذكرت من قبل ، فان هذه المساواة قد حددت بحدود ، الخضوع لها واجب والامتثال لأحكامها فريضة مقررة ، فهى قد ســوت بين الرجل والمرأة ، فى أداء حق الدين ، وفى الثواب والعقاب ثم راحت بعد هذا ، تحدد من هذه المساواة وتبين معالمها ، فهى فى الحياة الزوجية ، تحرم المســـاواة التامة ، وتجعل بين الزوجين نوعا من التمييز ولا أقول التفرقة ، اشعارا بما للطرف المميز من صفات ومكانة ، الاعتراف بها واجب ، والاقرار بها ، أمر مسلم به ، فالزوج رب الأسرة والزوجة شريكته المطيعة ، لا شريكته المعاندة المكابرة ، ولها عليه حق الرعاية ، والكفالة ، والحماية ، وله عليها حق الطاعة والامتثال ، وتوفير سبل الراحة .

ولنقف لحظة بعد هذا امام قول المشرع الحكيم :

((وللرجال عليهن درجة ...)) لنتعرف على هذه الدرجة ، ونتبين مكانها فى المجتمع ... أيا كان هذا المجتمع ... المجتمع القديم حيث كانت المراة قعيدة البيت ... والمجتمع الجديد حيث أصبحت شريكة للرجل فى ميدان الجهاد والعمل وتحمل تبعات الحياة ، وشتى أنواع مسئولياتها ...

فالرجل فى كلا المجتمعين هـو رب الأسرة ، وهو سيـد البيت ، وهو المسئول عنه ، وعن جميع من فيه ، وهو الكفيل ، حتى لو أسهمت الزوجة معه فى تحمل بعض الأعباء ، فهذا الاسهام لون من ألوان المشاركة ، والاندماج ووحدة الاساس المشترك بين الاثنين ، ولكن الرجل هو الرجل ، فهو السيد وهو صاحب الأمر ، وهو من بيده حق التصرف ، ومن هنا كان له أن يتميز عن المرأة بهذه الدرجة التى قررها الشارع الحكيم ولكن ...

ولكن هذه الدرجة ، وذلكم التمييز .. ماحدودهما .. هل هذه الدرجة التىترفع الرجل عن المرأة تعطيه الحرية المطلقة فى التصرف والتحكم ، بما قد يخرج بالمعنى عن حدوده ، فيجعل من الرجل ، حاكما مستبدا لامرد لحكمه وآمرا متعسفا ، يجب أن تعنوا الحياة أمام كلمته ، وتعنى لأمره ...

ان الدرجة التى عناها الشارع الحكيم ، هى درجة التوقير ، والاحترام الواجب أن يتوفر للرجل باعتباره رب الأسرة ، وقائدها المسئول عن الحياة والتصرف فيها ، فهو صاحب الولاية الشرعية على زوجته ، وليس لها أن تخرج على أوامره ، أو أن تتعدى حدود طاعته المفروضة عليها بعد هذا ، وهى أن تراعيه وتحفظ غيبته وماله ، وأن تعمل بما يريد ، فلا تخالط مجتمعا لايحبه ولا تتودد الى مالا يرتاح اليهم ، وعليها فوق هذا أن تراعى حرياته ، وحرمات الرباط الذى ربطها الله به وان تصونه وتحافظ عليه .

والشارع الحكيم يقول هنا ، وفى هذا المعنى ايضا : **الرجال قوامون على النساء ، بما فضل الله بعضهم على بعض ، وبما أنفقوا من أموالهم ...**

فالرجل قوام على المرأة ، وهو ولى أمرها ، والمسئول عنها كائنة ما كانت مكانتها فى المجتمع ، حتى لو فاقته مالا ، ومكانة ، ومركزا ، فهو صاحب الأمر فيها ، وعليها أن تعرف ذلك ، وتعرف انه هو « سكنها » الذى ترتاح اليه ، وتأوى الى ظله ، ولا تكتم عنه شيئا ، كما أنها هى الأخرى « سكنه » وراحته وأمنه ، وأنهما بهذا يكملان معنى وجودهما ، بما يفهم منه انه ضرورة لازمة لهـا ، وهى ضرورة لازمة له ، ولكنـه رغم هذا قوام عليها ، و ... مفضل عليهـا ...

ولسنا الآن فى مكان تحديد هذه الدرجة ، وهلّ هى درجة ذهنية ، أو جسدية ، أو مادية ... المهم هو الاعتراف بأن الرجلْ سيد الوجود ، وأنه أقدر من المرأة ، واكثر احتمالا على تحمل المشـاق والتبعات ، وأنها مهمـا عملت ، ومهما جاهدت ، ومهما سما بهـا تفكيرها ، فان هذا امر محـدود بالنسبة لها ، مطلق بالنسبة للرجال ، كما أن عدد النابهات متحملات المشاق لا يقاس الى جانب الرجال بأى حال كان وهذا يحرم المساواة الكاملة فى هذه

الناحية بالذات ويعطى للرجل درجة على المراة ، ويجعل منه دائما ابدا قواما عليها ، بما فضله الله به من مزايا وصفات ليست للمراة ، والله وحده أعلم بها من الاثنين ، ثم ... بما ينفق ولو كان اقل من القليل ...

والشارع الحكيم الذى حدد الحدود بين الزوجين ، وبين آماد درجات كل منهما ، ومدى ما يتميز به احدهما على الآخر ، أبى أن يكون الحد مباحا للرجل ، والتمييز مطلقا ، فراح يحمى هذه المزايا بسياج من الطمانينة والحذر ، حتى لا يتجاوز الرجل حدوده ويسىء استعمال الحق الذى وهبه له الله تعالى .

فللرجل على المراة درجة ... هذا حق ... ولكنها درجة لا تعطيه حق اذلال المراة ، واستعبادها ، او تعذيبها ، أو تحقيرها ، ولكنها درجة تجعله ينظر اليها نظرة الراعى المشرف على رعيته ، يعاملها بالحسنى ويسوسها بالحنان ، ويرعاها بما يرضى الله عنه والناس أجمعين ...

والرجل قوام على المراة ... وقوامته هى الرعاية ، وهى الحدب وهى العطف عليها ، واشعارها دواما بأنها فى حاجة الى رعايته وعطفه ومزيد مستمر من حنانه ... ولها عليه من أجل اتمام شرط صحة هذه القوامة ، أن يحسن معاملتها ، احسانا كاملا بما يعنيه معنى الاحسان ، فلا تحكم ، ولا غطرسة ، ولا استبداد بالرأى ، ولا استقلال فى التصرف ، بل قوامة حانية فى حدود أوامر الله ، وما توحى به طبيعة « المشاركة » ، فلا عدوان ، ولا تجبر ولا ظلم ، ولا استسلام من الرجل للنزعات الطارئة ، وما يمكن أن يخفف حرارة الصلة التى جمعت بين الزوجين ، من فتور ، قد يغير النظرة ، أو يبدلها ، أو يحول العاطفة ، أو يصرف القلب ، فيستحيل الحب الى كراهية ، والحنان الى قسوة ، والوفاق الى شقاق ...

ان القوامه هنا توجب التريث ، والأناة ، والصبر وما دام الرجل قواما على المراة ، فهو مسئول عن تصرفاتها ، مسئول عن تقويمها وتهذيبها ، اذا هى ما خرجت ، أو شذت عن النظم المفروضة عليها ، وان الدرجة التى له عليها تلزمه بمنح شريكته الرعاية ، فيقدر مكانته منها ثم مكانتها منه ويعرف أنه بالنسبة لها هو الكل ، وأنها هى جزء منه ... قطعة حبيبة اليه ، انتزعت منه وكانت هى المرأة خلقا وتكوينا ، ومن واجبه أن يحنو على هذه القطعة ، وأن يغتفر لها الكثير من الهنات ، لأنها بحكم احساسها ، أنها الجزء ، الجزء المكمل للنقص الذى فقده الرجل ، ووجده فيها ، قد تعصى، أو قد تخرج ...

والرجل هنا ، هو الراعى الحكيم ، الواجب عليه أن ينفذ الواجب بحذافيره ، ويؤدى عمل الراعى الصالح الذى شردت منه احدى نعاجه ... ان عليه فى هذه الحالة الا يطاردها ، أو يقسو عليها ، أو ينهال عليها بعصاه ،

فتمعن فى الهرب ، بل عليه أن يترضاها ، وأن يغريها بالعودة الى حظيرته ، وأن يظهر لها خوفه عليها وحدبه ورعايته ، حتى تشعر فعلا ، أنها أخطأت حين شردت ، وخرجت من نطاقه ، وأنها حين تمعن فى الابتعاد والهرب ، فانما تعرض نفسها للمخاطر ، ولعدوان الذئاب والضوارى ، وهى عديدة وكثيرة وسريعة التربص ، حريصة على الافادة منه بما يشبع نهمها ، ويروى ظمأها ، ويمكنها من الضحية تمكينا فيه اعتبارها فريسة مباحة من شتى الوجوه !!

ومعنى القوامة الحقة ، هو اجراء العدل ، وتطبيق احكامه ، والروية فى تنفيذ هذه الأحكام بما يخرج بالقيم الراعى عن حدود الاستسلام الى أهوائه أو نزعاته كائنة ما كانت هذه النزعات ، لأن القوامة ، انما هى . هى الصيانة وهى الحفظ ، ولما كانت المرأة ، بعضا من الكل ، فواجب هذا الكل أن يحرص على بعضه ، وأن يحنو فى معاملته بما يجعله مأنسا اليه ، ويركن ، ولا يفكر فى الخروج أبدا ...

وقوامة الرجل على المرأة كما فرضها الشـارع الحكيم ، توجب الحفظ ... والرجل مكلف بحفظ المرأة ، والمحافظة على كل ما لها ولو كان من حر ماله ، ما دام قد نزل لها عنه عن طيب خاطر ، وأعطاها اياه عن رضا ، ودون اجبار ، وعليه أن يستمسك بكرمه ، ولا يحيد عنه أبدا ، فلا يعطى عن كرم بالأمس ، لينقص اليـوم فيغتصب ما قد أعطى ، ويسلب ما قد منح كرها ، ودون تسليم أو رضا من زوجته .

((يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها ، ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن ...)) .

فالرجل ملزم بأن يترك للمرأة ما اعطاها اياه ، مامـور بأن يعتبر عطاياه هذه ملكا خاصا لزوجته ، ليس له ان يغتصب منها ما ملكها اياه ، او أن يعضلها فيه ، فيسلبها اياه ، دون وجه حق الا فى حدود أبانها الشارع الحكيم اذ يقول سبحانه وتعالى :

((ولا تعضلوهن لتذهبـوا ببعض ما آتيتموهن الا ان ياتين بفاحشـة مبينة ...)) .

ثم أمر بعد هذا، بعدم الاسراف فىالعدوان، والتجنى ، واساءةاستعمال القوامة ، فى كافة الحقوق التى ميز بها الله الرجل على المرأة ، فقال سبحانه :

((وعاشروهن بالمعروف ، فان كرهتموهن فعسى ان تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا ...)) .

فالأمر بالمعروف واجب .. والشارع الحكيم يطالب به ، ويدعو اليه ، ثم تأبى حكمته إلا ان نساير النزعة البشرية ، لنتركها على اطلاقها كما

شاء لها الهوى ثم لا نلبث ان نوقفها عند الحقيقة التى قد تخفى عليها عند الاستسلام الى نتائج هذه النزعة ، أو ما تسفر عنه من نتائج وأحداث ..

فالله الحق سبحانه وتعالى يأمر بأن يكون المعروف أساس المباشرة ، اما إذا حدث ، وحلت الكراهية محل الحب ، فإنه تبارك وتعالى ، لا يأمر بالتخلص من عاطفة الكراهية هذه ، وانما ينصح بعدم التمادى فيها ، ويسارع فى احاطة العلاقة الزوجية بسياج التريث والحكمة العالية فيقول : ((**فعسى أن تكرهوا شيئا ، ويجعل الله فيه خيرا كثيرا ..**))

ويمضى الشارع الحكيم بعد هذا فى تحصين الحياة الزوجية ، لتأمينها ضد كل النزعات البشرية ، وما يصيب النفس من اهواء ورغبات ، وقد سبق علمه قضاءه ، فعلم سبحانه أن الانسان رجلا كان أم امرأة ، ما هو الا مجموعة من العواطف والأهواء والرغبات والنزعات ، وأنه بحكم تصارع هذه المشاعر فى نفسه ، واضطرام قلبه بها ، يحب ، ويكره ، ويتمنى ، ويرجو ، ويصالح ويخاطر ، ويعتدى ، ويتجبر ، ويسرف فى العدوان ، ويتمادى فى البغضاء ، ويركب رأسه فى سبيل الشطط .

وقد كره الشارع الحكيم أن يستسلم الزوج إلى هذه النزعات ، فيما يتعلق بحياته الزوجية فحدد الحدود وبين ما يجب أن يتبع فيها ، لو حدثت ، فالرجل قد يشذ ويخرج ، وقد يتمرد ويكره ، والمرأة كذلك ، قد تشذ وتخرج ، وقد تتمرد وتكره وتخرج ، قد تضيق بزوجها ، وقد تتمادى فى ضيقها هذا باعتبارها الكائن المدلل ، أو البضعة الحبيبة من نفس الرجل ، فتسرف فى خروجها إسرافا أوجب الله فيه على الرجل ، أن يقف موقف الحزم من زوجته ، حزما مشروطا بشروط تتدرج بأن يقدم الرجل إلى زوجته إذا هى نشزت أو هو خاف نشوزها ، واستمساكها بهذا النشوز — الموعظة الحسنة ، ثم أمره بعد ذلك بالابتعاد عنها ، واعتزالها إن هى استمسكت بالخروج فإن لم يصلح الابتعاد عنها من شأنها ، كان له عليها حق التأديب والزجر فى حدود تحرم البغى الكامل والعدوان المبين ..

((**واللاتى تخافون نشوزهن ، فعظوهن ، واهجروهن فى المضاجع ، واضربوهن ، فإن اطعنكم ، فلا تبغوا عليهن سبيلا إن الله كان عليا كبيرا ..**))

ولا يكتفى الشارع الحكيم بعد هذا ، بإعطاء الرجل على المرأة ، فى حالة خوفه من نشوزها ، حق توجيه الموعظة ، ثم الاعتزال ، ثم الضرب مع عدم البغى والاسراف فى العدوان ، بل يعزز هذا التشريع بآخر يقف فى صف المرأة ، اذا ما حدث العكس ، وخافت هى نشوز زوجها أو اعراضه عنها بما قد يهدد الحياة الزوجية بالانهيار ..

« وان امرأة خافت من بعلها نشوزا ، أو اعراضا ، فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحا والصلح خير ، وأحضرت الأنفس الشح ، وإن تحسنوا وتتقوا ، فإن الله كان بما تعملون خبيرا .. »

فالشارع الحكيم هنا ، يحصر مشكلة خوف المراة من نشوز رجلها فى نطاق ضيق جدا بحيث لا يجب بحال من الأحوال أن يتعداهما أصلا ، وواجب الزوجة هنا ، أن تسارع بتدبير أمرها ، وبوصفها راعية البيت ، وحارسة الأسرة ، عليها أن تقارب بينها وبين زوجها من أوجه الخلاف ، فتترضاه ، تلاينه ، لتعرف سر نشوزه أو إعراضه ، فإن كانت هى سببه ، أصلحت من أمر نفسها ، وان كان مرجعه أسبابا خارجة عنها وعن دائرة بيتها فعليها أن تتدبر ، وأن تفكر ، وأن تحاول سد كل نقص ، حتى يحس الزوج بأنه فى غير حاجة إلى النشوز أو الاعراض عن أهله .

وعلى الزوجين فى هذه الحالة أن يتداركا الأمر بالحكمة ، وأن يعملا على تقريب وجهات النظر المتباعدة ، وأن يسارعا باصلاح ذات بينهما ، قبل أن يتسع الخرق على الراقع وأن يكونا صريحين فى وضع الخطوط العريضة تحت مشاكلهما لتزداد وضوحا ، وليمكن تداركها قبل أن يعظم أمرها ، ودون تدخل وسيط بين الاثنين على الاطلاق ، ليصلا ، دون تأثير برأى خارجى الى تصفية الجو ، وليتصالحا ، والصلح خير وبركة ورحمة ووقاية للأسرة من التفكك ، والبيت من الانهيار ..

وحكمة الشارع الحكيم فى أن يتولى الزوجان معا ، اصلاح بينهما ، هو أن تحاط مشاكلهما أيا كانت هذه المشاكل بجو من التحفظ والسرية ، وهذا أحفظ لخصوصياتهما من أن يعرفها أصحابهما ، من الاقربين كانوا أو من الابعدين ...

وحكمة الشريعة فى فرض هذه الخصوصيات المحدودة فى نطاق الزوجين واضحة ، فاثنان كل منهما سكن لصاحبه ومصدر راحة وأمن ورعاية ، لا يمكن أن يقوم بينهما ستر ولا حجاب مهما تباعدت آراؤهما ، واختلفت ، وان ابداء أى لون من ألوان التسامح ، والمغفرة من أحدهما نحو الآخر كافية ولا شك للوصول الى الاصلاح المرجو ، الذى ترمى الشريعة الى تحقيقه ، بفرض هذه الخصوصية على الزوجين اذا ما أحبا أن يصلحا بينهما ...

فاذا استطار الشر ، وعظم أمر الخلاف واستحكم ، وتمسك كل من الزوجين المتباينين بوجهة نظره ، فشلت مساعيهما الخاصة ، التقريب والتفاهم ، فالشريعة هنا لا تعدم ايجاد وسيلة جديدة لوقاية الأسرة من

عاقبة الاختلاف ، وحتى لا يزداد الخلاف اتساعا ، ومن هنا توصى بتدخل ذوى القربى .

((وان خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله ، وحكما من أهلها ، ان يريدا اصلاحا ، يوفق الله بينهما ، ان الله كان عليما خبيرا .

فالشريعة بعد فشل الزوج فى اصلاح زوجته خاف نشوزها ، أو فشلها هى فى اصلاح بينهما فى خصوصية تامة تقضى بالتحكيم بين الاثنين ، والتحكيم يقضى بحسن اختيار من سوف يتولى هذه المهمة الدقيقة من أهله ، أو أهلها ، ثم يعرض كل منهما مشكلته ووجهة نظره فيها ، ويترك الأمر للحكم العدل الذى وثق فيه على أن تكون النية الحسنة متوفرة عند الزوجين ، والرغبة الكاملة فى التجاوز عن الهفوات موجودة لدى كل منهما ، لتتقارب فى سرعة وجهات النظر ، ويستطيع الرأى الموحد الذى وصل اليه الحكمان — ان يجد طريقة الى قلبيهما عن رضى فيقبلانه وينزلان عليه ، والله يوفق بينهما ، انه كان عليما خبيرا ...

بهذا الروح السمح الكريم المفعم بالحدب ، الغيور على مصالح الأسرة ، الراغب فى استمرار قيامها كخلية عاملة بانية فى صرح المجتمع — تعمد الشريعة الى احاطة الاستقرار البيتى بأكثر من ضمان ، وتلجأ الى تدعيم السعادة العائلية بما يكفل استمرار بقائها ، وبهذه الوسائل المتعددة المتدرجة التى توصل الى التفاهم ، والصفاء بين القلوب ، تعمد الى تحصين الأسرة ، وبهذا الوعى المتيقظ الكامل ، تعمل على حفظ حق الزوجة ، وكرامتها ، وانسانيتها ، لتحس بفاعليتها فى محيط الأسرة الذى ينعكس أثره على المجتمع بصفة عامة ، مما يضمن الحياة السعيدة المستقرة للجميع ، وقد احسوا أنه لا فوارق ، ولا طبقات ، بل الكل سواء أمام شريعة الله ...

والشريعة السمحاء التى أعطت الرجل ، اذا هو خاف نشوز زوجته ، حق التوجه اليها بالنصح والارشاد ، ثم اعتزالها بعد ذلك تأديبا لها .. ثم اللجوء الى ضربها أخيرا ، وهو نهاية ما يمكن استعماله من وسائل الزجر . هذه الشريعة العادلة ، لم تقصر فى حق المرأة اذا هى خافت من زوجها نشوزا ، فأعطتها الحق فى اصلاح بينهما ومحاولة التفاهم بالحسنى معه لتصفية الجو ، ثم أقرت بعد ذلك اللجوء الى حكم من أهله وحكم من أهلها ، ان فشلت كل المحاولات من ناحيتها ومن ناحيته فى الوصول الى الحل المطلوب .. هذه الشريعة يتسع أفقها بعد ذلك أمام مشكلة جديدة من مشاكل الحياة الزوجية ..

زوج خاف نشوز زوجته ، فوعظها ... وهجر مضجعها واعتزلها اعتزالا تاما ، ثم اقدم على ضربها للزجر والردع لا حبا فى الايذاء ، ثم لجأ الى تحكيم أهلها وأهله ، دون جدوى ودون تأثير علي موقفها من الرجل ، وأعلنت كراهيتها له .. ماذا يكون موقف الشريعة منها !!

هل تجبر المرأة الكارهة على الحياة تحت سقف واحد مع رجل لاتحبه ، ولا تطيقه ، وتكره أن تعيش معه !!

انه ليس بيدها القدرة على استعمال أى حق من الحقوق التى أعطاها الشارع الحكيم للرجل بوصفه وليها ، وصاحب الأمر فيها .. فماذا تفعل !!

انها لا تريده ولا تطيقه ، ولا تقبل أن تعيش معه وقد يضار الرجل بسبب هذه الكراهية والبغضاء ، وقد تضطرب بعض أموره ، فهل يرغم على التسليم للمرأة ، ويحنى لها رأسه ويسلم بما فرضته ؟!

ان الحياة فى مثل هذا الجو المشحون بفقدان العواطف ، المليء بشتى مشاعر الكراهية ، من المستحيل أن تدوم ، ومن التعسف أن يجبر أحد الطرفين على الرضا بهذا اللون البغيض من الوان الحياة ، وحكمة الوجود نفسها ، تدعو الى ابطال هذه الزيجة ، وانهاء هذه الصلة ولكن ...

ولكن ... مادامت المرأة هى الكارهة .. وهى غير الراغبة فى الحياة ، والرجل لم يتعد ولم يقدم على ايذاء او عدوان ، فمن الواجب أن تعمد الشريعة الى ارضائه ببعض الشيء ، وهى هنا تعطى الزوجة حق .. الخلع ..

« **وخلع** » الزوج حق لا تستطيع المرأة أن تمارسه من ناحية واحدة فقط ، هى ناحيتها ، فهو وان كان حقها هى فان سريانه مشروط بقبول الزوج لهذا « الخلع » الذى يعنى أن الزوجة تفتدى نفسها بمال أو أى عرض آخر من عروض الدنيا ، وتقدمه لزوجها ليوافق على هذا الخلع ويقره ، ويتم بمقتضاه الانفصال بين الاثنين ..

« ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئا ، الا أن يخافا الا يقيما حدود الله ، فان خفتم ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به ، تلك حدود الله فلا تعتدوها » ..

وشريعة مثل شريعة الاسلام ، تعمد الى حماية الأسرة ، وتعطى للمرأة من الحقوق ما يجعلها تحس بكيانها ووجودها ، وآدميتها ، وبأن لها على الزوج والمجتمع حقوق .. شريعة كهذه ، تحد الحدود ، وترتب الحلول للقضاء على المشاكل الأسرية ، هذه الشريعة لا تلجأ الى تقرير الانفصال الا عند اليأس من الاصلاح ، وحتى حين تلجأ اليه وتقرره ، فهى تقرره بشروط فيها الحذر كل الحذر ، والحيطة كل الحيطة ، وفيها ما يدفع

الى الروية والتدبر والنظر فى الأمر بأناة ويسر ، وهدوء ، قد يكون فيه ما يعنى العودة السريعة الواعية الى جادة الادراك والتعقل ، والصواب ، والرغبة الحاسمة فى تدارك ما قد فات من الأمور ..

« الطلاق مرتان ، فامساك بمعروف أو تسريح باحسان » ..

فالشارع الحكيم حين شرع الطلاق ، وأمر به ، لم يرده أبدا ، حدا قاطعا ، وسلاحا فاصلا ينهى حياة تعذر قيامها واستمرارها بالحسنى والمعروف ويقطع صلة أصبحت فى نظر الزوجين بغيضة لم تجد معها وسائل الاصلاح اى سبيل ولكنه جل وعلا ، أراده على دفعات .. أراده « مفرقا » متباعد الفترات ولو قلت آمادها ، بمعنى أنه لا يتم ، ولا يمكن أن يتم مرة واحدة وبيمين واحدة حاسمة ، تصدر ساعة هياج وغضب وخلال نوبة من نوبات فقدان الشعور بل اراده دفعات ومرات ثلاث ..

وحكمة التحديد بالمرات الثلاث ، انه سبحانه وتعالى اراد ان تكون هناك وقفة طويلة بعد اليمين الثانية والحكمة هى **« الامساك بالمعروف » ..**

فالحكمة فى التعدد المرحلى لمرات الطلاق الى ثلاث يكون الامساك بالمعروف بعد الثانية منها — فإن الرجل وهو صاحب حق الطلاق ، ومن بيده وحده عقدته ، قد يراجع نفسه وقد وصل الى اليمين الثانية ، ويتمسك بزوجته ، فيندم ويبقى على شريكته ، وعلى اليمين الثالثة التى تربطها اليه وتربطه اليها خشية أن تفلت منه فى حالة من حالات الغضب أو الهياج أو العصبية ، فتقع اليمين الباقية ، ويتم الطلاق ، ويكمل التحريم ، الذى يتداركه تماما عند اليمين الثانية ويحق له ان يراجع زوجته دون عقد جديد مادامت لم تزل فى عدتها ..

« والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء ، ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله فى أرحامهن ان كن يؤمن بالله واليوم الآخر ، وبعولتهن احق بردهن فى ذلك ان أرادوا اصلاحا » ..

فالشريعة اذن ، ورغم أنها شرعت الطلاق ، وارتضته ، الا انها لم تطلقه ، لأن فى الاطلاق ، اسراف فى استعمال الحق ، ومن الحكمة أن يكون استعمال الانسان لحقوقه ، مرتبا ، محددا ، منظما فى مراحل ، حتى لا يسىء المرء استعمال حقه ، ولا يكون حق الطلاق وهو ابغض الحلال عند الله — سلاحا قاطعا يبتر فى سرعة ، ودون تفكير فى ابقاء لعودة أو امهال لتدبر أمر الاصلاح ..

من أجل هذا حددت الشريعة الطلاق فقررت انه مرتان .. مرتان .. اى اقدام جرىء على مغامرتين خطيرتين قاسيتين نتيجة كل منهما سيئة ،

ومن اللازم أن يتدبر المغامر أمره بعدهما .. وهذا التدبر نبهت اليه الشريعة السمحاء فقالت « فإمساك بمعروف » ..

والامساك .. هو الابقاء ، وهو الصيانة ، والشريعة توصى بأن يمسك الرجل زوجته ، ابقاء عليها ، وان يمسكها بمعروف ، ودون تجبر أو اكراه ، أو اقدام على اذلال أو تخويف وارهاب فان أفلت منه الزمام وغلبته نفسه ، وكانت الثالثة وهى التسريح ، فيجب أن يكون تسريحا باحسان ..

والطلاق معنى ، هو حل القيد ، مطلقا سواء كان حسيا ، أو معنويا فى « الحال » أو « المآل » بلفظ مخصوص أو ما يقوم مقامه .

وطلاق « الحال » هو الطلاق البائن ، أما طلاق « المآل » فهو الطلاق الرجعى ..

والشارع الحكيم فى تقريره للطلاقين ، يقول عز من قائل « مرتان ، فامساك بمعروف أو تسريح باحسان » .. والاحسان هنا هو وجوب النفقة على الزوج المطلق ما دامت الزوجة لم تعتد لأن العدة أثر من آثار الزواج تكون المرأة خلالها لحق الزوج والشرع ، فلا يحل لها أن تتزوج بآخر ، لهذا كانت نفقتها على من فارقها حتى انقضاء العدة ، ثم لها بعد ذلك أن تعمل فى حدود الشرع وما أوجبته الشريعة عليها .

« واذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن ، فامسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف ، ولا تمسكوهن ضرارا لتعتدوا ، ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه ، ولا تتخذوا آيات الله هزوا واذكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به واتقوا الله واعلموا ان الله بكل شىء عليم .. واذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن اذا تراضوا بينهم بالمعروف » ..

واذا تم الطلاق فعلا بين الزوجين ، ووقعت الفرقة ، فالشريعة توجب على المعتدة أن تظل باقية طوال مدة عدتها الشرعية فى نفس البيت الذى كانت تقيم فيه مع الزوج الذى فارقها ، وألا تغادره ابدا .. وحتى لو حدث وتم الطلاق وهى خارج هذا البيت بعيدة عنه ، فانها بحكم الشريعة ، وموجب الأمر السماوى ملزمة أن تعود اليه فى الحال ، وأن تستقر فيه ، حيث يقول الله سبحانه وتعالى فى ذلك .

« يا أيها النبى اذا طلقتم النساء ، فطلقوهن لعدتهن ، وأحصوا العدة ، واتقوا الله ربكم ، لاتخرجوهن من بيوتهن ، ولا يخرجن الا أن يأتين بفاحشة مبينة » ..

فالمطلقة بحكم الشريعة تبقى حيث كانت تعيش فى بيت الزوجية حتى تمام عدتها سواء كان الطلاق الذى وقع عليها طلاق « حال » أو طلاق « مآل » .. فاذا كان الأول وجب على الزوج الا يدخل عليها ، والا يراها ابدا ، لأنها حرمت عليه بالبينونة الكبرى ، أما اذا كان الثانى وهو طلاق « المآل » فله أن يدخل عليها فى أى وقت يشاء ، لأنه وبحكم الشريعة يملك اعادتها الى عصمته فى أى وقت يشاء قبلت ، أم كرهت ..

والشريعة السمحاء بعد هذا تمضى فى طريقها قدما لكى ترتب وتثبت للمرأة حقوقها متعددة على الرجل بعد الفرقة ، تشعرها بالأمن ، والطمأنينة، وانها تعيش فى ظل شريعة حانية تعمل على احاطتها بسياج من الحماية والدعة والأمن فى شتى ظروف حياتها ، حتى بعد الفرقة ، وها هى ذى توجب على الرجل النفقة للمعتدة طوال أيام عدتها ، فلا يكفى فقط أن تعتد بحكم الشريعة لتعيش فى بيت الزوجية دون إنفاق ، بل على الرجل ـ اذا طلقها طلاق الحال ، وبانت عليه بينونة كبرى ، فلا تحل له الا بعد أن تنكح زوجا غيره ـ عليه رغم هذا ، أن يعطيها نفقة عدتها ..

ولا تقف الشريعة بالمرأة المطلقة عند حد فرضية النفقة على الرجل أيام العدة ، بل توجب لها أن تنال أجرا عن ارضاع طفلها ، وأجرا عن حضانته والزمت الزوج الذى فارقها أن يؤدى ذلك الأجر وأن ينفق عليها ، وأن يكسوها .

« والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة ، وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف » ..

فالشريعة السمحاء العادلة ، تحتم وجوب أداء النفقة والكساء للأم المطلقة اذا هى أرادت ، وبمحض اختيارها أن تتم ارضاع طفلها ، دون الالتجاء الى مرضع ، وحددت مدة الرضاع بحولين كاملين ، ألزمت المولود له خلالهما بأداء هذه النفقة ، كما أباحت لها أن تستمر فى اداء مهمتها هذه طوال هذه المدة ان كانت تطيقها ، أو كانت حالتها الصحية تسمح بها ، أو أن تتركها فى اى وقت تشاء اذا كان هذا الترك فيه مصلحة لها ، كرغبتها فى الزواج من آخر مثلا ، أو عدم مقدرتها صحيا فى الاستمرار على الارضاع والله الحق فى هذا يقول « لاتضار والدة بولدها » ..

ان الشريعة التى قررت أن « **الوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين** » .. لم توجب الالزام بأداء الرضاع على الوالدة بل اتبعت هذا التكليف السامى بأن استدركت تقول « لمن أراد أن يتم الرضاعة » وحكمة ترجيح كفة الارادة هنا فيه مزاياه ، فالله العدل يأبى ان يضار حنان الأمومة بأن

تبقى الى جانبه ، مظلومة معتدى عليها ، لاتصلها حقوقها المفروضة ، ولا نفقتها الواجبة الأداء ، وان تحرم فوق هذا من كل ما أعطاها الله حق الاستمتاع به من طيبات الحياة ..

ان الشريعة وهى تقرر للمرأة حق الرضاع ، وحق الاستمرار فيه للأمد المعين شرعا اذا أرادت انما تشعر الرجل بمكانة المرأة ، وقدرتها على لون من الأعمال ، ليس فى مكنته أن يؤديها هو ، وأن عليه ان يستأجر من يؤديها له ، وانه كان من الواجب عليه أن يقدر قبل اقدامه على الطلاق ، وأن يفكر مرات ، ومرات فى قيمة شريكة حياته ، ومدى فاعليتها ، واثر وجودها الى جانبه ترعى بنيه ، وتغذيهم بالعطف والرعاية والاشفاق ، وموفور الراحة والأمن والسعادة فيراجع نفسه ، ويمسك عليه زوجته ضمانا لراحته واستقراره ، واستقرار بناته وبنيه .

واذا كانت الشريعة قد قررت انه ، لاتضار والدة بولدها .. « اى لاتجبر على رعايته وحضانته والقيام على واجب خدمته ، دون رغبة اكيدة منها فى ذلك ، ودون نفقة تتقاضاها وكساء تحصل عليه طوال مدة الرضاعة المقررة شرعا بحولين كاملين — فان هذه الشريعة السمحاء العادلة تسارع فى اتمام النقص بمنع الضرر ، وتقرر فى نفس الموضع الذى أمرت فيه بأن الوالدة لاتضار أبدا بمولودها ، فقالت أيضا ، واتماما للأمر الأول « ولا مولود له بولده » ، فهى هى قد سوت فى انتفاء وقوع الضرر على الأب والأم بسبب الولد ، وأكدت بهذا أن الابن المطلقة أمه لا يجب أبدا أن يكون أداة اضرار لأبيه ، ولا سببا من اسباب ارهاقه ، فتلزمه الأم المطلقة بما لا يطيق ، ومالا تحتمل موارده ، وخاصة أجر الرضاعة والحضانة ، فوق نفقتها منه — مادام الأب يجد لديه ، ومن أمس أهله به من تحتضن المولود وترضعه بدل أمه ، تبرعا منها وبلا مقابل ..

وتمضى الشريعة السمحاء بعد هذا — وبعد كل المزايا التى اعطتها للمرأة — تمضى أيضا فى بسط حمايات جديدة عليها ، ضمانا للحماية المطلقة المؤكدة ، التى رأت أن تكون للنساء بعد ان لقين على كر العصور الذلة والمهانة وانكار الحقوق واهدار الكرامة ، هذا الى انها ارادت فى ظل الاسلام ، دين الفطرة والعدالة ، والمساواة ، ان تطهر المجتمع الجديد تطهيرا تاما من شتى شوائب الجاهلية وادرانها وسخائمها التي توارثها الناس جيلا بعد جيل ..

وحرص الشارع الحكيم على نقاء جو الأسرة ، وتصفيته ، وراحة من يعيشون فيه ، حرصا ظاهرا واضحا جليا ، فالأسرة أساس المجتمع ودعامة بقائه ، والعمد ذات الأصل الثابتة التى يرتفع عليها مستقرا شامخا ،

فرفعتها هى رفعته ، وحمايتها حماية له فى ظل الشريعة المهيمنة على نظمه، وعلاقات اهليه ، وهذا لا يعنى غير شيء واحد لا ثانى له ، هو فرض الأمان الكامل من كل الوجوه على المجتمع ومن فيه ، وهذا يعنى ولا شك الاستقرار التام ليتفرغ كل لعمله المنوط به ..

ولما كانت الشريعة قد شخصت علل المجتمع الاسلامى الجديد ، ورتبتها ، وعينت لها الدواء الشافى الذى لن ينتكس مرض أو داء بعده ابدا ، فسوت فى خطوتها الاولى بين الرجل والمراة فى الحقوق وواجبات العبادة وفروضها ومطالبها واوامرها ونواهيها ، ثم اخذت بعد ذلك فى رفق وهوادة ويسر ، تسوى كل نزاع يطرأ بين شريكى الحياة الواحدة ، حتى لا ينهار بناء الأسرة ، وحتى لا تجنح بها الأنواء على شواطىء الانفصال والفرقة ، أو ترتطم بصخرة الطلاق البغيضة المفزعة — فان هذه الشريعة تمضى فى بسط رعايتها ورحمتها قدما ، لتكشف ، وتحدد ، وتصف العلاج الشافى ، ثم ..

ثم هاهي ذى تقف أمام لعنة من اقسى اللعنات التى طالما مزقت شمل الأسرة ، وبددتها أيام الجاهلية ، وهي لعنة ((الظهار)) .

و((الظهار)) معنى هو أن يشبه الرجل زوجته بامرأة أخرى محرمة عليه على التابيد او بجزء منها يحرم عليه النظر اليه ، كالظهر ، أو ما أشبه ذلك فيقول لها مثلا انها عليه كظهر أمه او اخته ، او هى كظهر امه ، أو اخته ، دون أن يذكر كلمة ((على)) .

وقد كان الناس فى جاهليتهم يحرمون نساءهم بكلمة الظهار هذه ، فتصبح الزوجة حراما على زوجها ، تحريما لا محلل له أبدا وظلت هذه العادة المستهجنة باقية حتى ظهور الاسلام ، لم تمسها شريعته ، ولم تقترب منها أوامره ، وبقى لها خطرها فى الوقت الذى زالت فيه مخاطر ونقائص الجاهلية وعيوبها ، حتى شاء لها الله الحق أن تزول ، يوم ظاهر مسلم هو ((**أوس بن الصامت**)) زوجته ((**خولة بنت ثعلبة**)) وقال لها : ((**أنت على كظهر أمى**)) فطاش صوابها ، وأسرعت الى سيدنا رسول الله تسأله رأيه ، فسكت ، لأن شريعة الله ، لم تكن قد تعرضت للظهار من قريب أو من بعيد والنبى صلى الله عليه وسلم لا ينطق عن الهوى ، ولا ولا يفتى الا بالرجوع الى أوامر الله ونواهيه ..

ووجد المجتمع الاسلامى أنه لم يزل أمام أثر بغيض من آثار الجاهلية اللعينة ، وكان يمين الظهار الذى وقع على المرأة المسلمة بمثابة ، نقمة أصابت النساء جميعا ، بل المجتمع الجديد كله ، ومن هنا ، نزل الوحى ، وقال الحق سبحانه وتعالى فى « الظهار » قوله الفاصل الذى قضى عليه ..

((قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى الى الله والله يسمع تحاوركما ، ان الله سميع بصير ، الذين يظاهرون منكم من نسائهم ما هن أمهاتهم ، ان امهـاتهم الا اللائى ولدنهم وانهم ليقولون منكرا من القول وزورا ، وان الله لعفو غفور)) ..

وبهذا الحكم السماوى ، تغيرت النظرة الى يمين الظهار ، وفقد أثره ، وتاثيره ، وأصبح لا يعد طلاقا أبدا بل زورا ومنكرا من القول ، ولكونه زورا وبهتانا يجب على الرجل ألا ينطق به ، ولا أن يعاود النطق به ، فقد صح به التحريم فعلا لكل ما ذكر ، ويجب عليه الكفارة حتى لا يعود لمثله أبدا مرة ثانية ، حيث جعـل امرأته التى أحلها الله له فى مكان الأخرى التى حرمها عليه ، وفى هذا يقول الحق تبارك وتعالى :

((والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا ذلكم توعظون به ، والله بما تعملون خبير ، فمن لم يجـد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا فمن لم يستطع فاطعام ستين مسكينا ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله ، وتلك حدود الله ، وللكافرين عذاب اليم ...))

وهكذا قضت الشريعة السمحاء على لعنة ((الظهار)) ومحت كل آثارها من الوجود ، على اعتبار أن النـاس كانوا ينظرون اليها على أنهـا طلاق وانفصال ، لا ترجى بعده عودة أو رجعة على الاطلاق ، وهونت من شأنه تهوينا جعل منه منكرا بغيضا ، وزورا غير مستحب توجب فيـه ... الكفارة ...

والشريعة السمحاء لم تبالغ فى كفارة ((الظهار)) أبدا ، بل هونت منها على قدر طاقة الانسان .. فبدأت بعتق رقبة ، وثنت بصيام شهرين ، ثم ثنت باطعام ستين مسكينا ، وأوجبت هـذه الكفارة ، لتزول تماما آثار ((الظهار)) فى الحياة الزوجية ، وحتى يشعر من ((ظاهر)) زوجته ، أنه اقدم على منكر ، وزور ، يجب الا يعود اليه أبدا ، وحتى لا يعاود ارهاب امرأته بقول منكر يأباه الله وترفضه شريعته ويمجه المجتمع السليم الذى يمقت مثل هذا البهتان ..

ولمـا كان من عادة قلة من الرجال أن يجترئوا عـلى تحريم الكثير مما أحله الله ، رغم أن الله الحكم العدل قد حد الحدود ، وأبان لكل ذى بصيرة ان الحلال بين والحرام بين ، وليس هناك وسط بين الاثنين أبدا ، فان بقية من هذه القلة من الرجال ، ظلت تعيش فى كل مجتمع ، ولمـا تزل بعد على عنادها واستكبارها ، تحرم وتحلل ، حتى ليظاهر بعضهم امرأته ، وهو يعلم ان هذا حرام واجتراء على الشريعة السمحاء ..

ولكي لا تستمرىء قلة من الرجال عدوانها على هذه الصورة المقيتة من صور الاجتراء والتطاول على ما لا يدخل فى سلطانهم أصلا ، فيحرمون على انفسهم مايرغبون تحريمه من نسائهم ، وهن حلال بأمر الله وشريعته ، ويحللون ما يشتهون أن يكون لهم حلالا وهو محرم عليهم بأمر الله ، وبحكم الشريعة السمحاء ـ حدد الشارع الحكيم الحدود ، فأبان واظهر ، وجلى ، واوضح وحلل وحرم ، ولم تفت شريعته فى هذا كله شاردة ولا واردة الا ابانت عنها واوضحتها ببيان لا يداخله ابدا لبس ولا غموض ولا ابهام .

ولما كان شرط الزواج أن تكون المرأة حلالا للرجل غير محرمة عليه ، حتى لا يبطل هذا التحريم الزواج ويمنع قيامه فاننا نقول ان النساء المحرمات علي الرجال ينقسمن الى قسمين ، قسم يحرم الله على الرجل الزواج بهن حرمة مؤبدة لا زوال لها اصلا ، لأن سببها غير قابل ابدا للزوال ، وقسم ثان يحرم الزواج بهن حرمة مؤقتة لأن السبب الموجب للتحريم ليست له صفة الدوام ، فان زال ، زال معه التحريم ..

والنوع الثانى من النساء اللائى يحرم على الرجال الزواج بهن تحريما مؤقتا يزول بزوال السبب تنتظمه أنواع خمسة ، اولاها تعلق حق الغير بالمرأة ، وثانيتها التطليق ثلاثا ، أما الثالثة فهى عدم الدين السماوى فى حين أن الرابعة هى الجمع بين المحارم ، وأما الخامسة فهى الجمع بين الأجنبيات زيادة على أربع ..

أما الأولى ، وهى ما تعلق بها حق الغير ، فهى المرأة المتزوجة فلا يصح ان يعقد عليها ما دام الزواج قائما وسواء كانت مسلمة أو غير مسلمة ، وحكمة التحريم منع الاعتداء على حقوق الغير وحفظ الأنساب من الاختلاط او الضياع ..

واما الثانية وهى المطلق ثلاثا ، فهى محرمة قطعا على من طلقها ، فلا يصح له أن يعقد عليها الا اذا انقضت عدتها وتزوجت من آخر غيره ، زواجا صحيحا ، ودخل بها دخولا حقيقيا ثم طلقها برغبته ، أو مات عنها ، وانقضت عدتها ، حينئذ تحل لمطلقها الأول .

وأما المرأة التى لا دين لها ، فهى المرأة التى لا تدين بدين سماوى ينظم شريعته كتاب جاء به رسول من عند الله وعلى هذا يحق للمسلم أن يتزوج من كتابية أعجب بها ، وراقت فى عينيه ، وهنا ... يتدخل الشارع الحكيم فى تحديد هذه الاباحة ولكن ... فى رفق وهوادة ، فقد أجاز الزواج بالكتابية ، ولكنه رغم هذه الاباحة يرجح كفة الأمة المسلمة .. فالرقيق

المؤمنة مفضلة على المشركة ، فزواج المسلم بها خير عليه وبركة وافضل من زواجه بالمشركة ، وهذا أدعى بلا شك الى صرف نظر المسلمين عن الزواج من غير بنات دينهم من المسلمات ...

واذا كان الشارع الحكيم بعد هذا قد أباح زواج المسلم من الكتابية ، فان الدين يحرم قطعا زواج المسلمة من غير المسلم ، وحكمة هذا التحريم ليست فى حاجة الى شرح أو الى بيان ..

ولنتحدث بعد هذا عن النوع الرابع من النساء اللائى يحرمن على الرجل ، حرمة مؤقتة تزول بزوال سببها ، وهذا القسم هو ما تسمى .. بالجمع بين المحارم .

والجمع بين المحارم معنى ، هو أن يجمع الرجل بين من حرم الله عليه الجمع بينهن فى زيجة واحدة ، كأن يجمع رجل بين أختين ، أو بين امرأة وابنتها ، أو امرأة وعمتها أو خالتها أو ابنة أخيها ، أو ابنة أختها ، فهذا أمر لا يصح اطلاقا . ومحرم قطعا ما دام سبب التحريم موجودا ، أما اذا زال فللشريعة فيه حكم آخر ..

ولنصل فى النهاية الى النوع الخامس والأخير من النساء اللاتى يحرم على الرجل الزواج بهن ، حرمة مؤقتة وهو النوع الذى قلنا عنه .. **« الجمع بين الأجنبيات زيادة على أربع »** .

ومعنى الأجنبيات هنا ، لا يقصد به الأجنبيات من حيث الجنسية ، أو الدين ، بل الأجنبيات على الرجل ، أى غير الحلال له الجمع بينهن ، أو الزواج بهن ، خاصة متى زيد عددهن عن أربعة ، وهذه حدود الاباحة والتصريح فى الشريعة ، وليس للرجل أن يتزوج من خامسة أبدا ، الا اذا طلق واحدة من الأربع ، لتحل هذه الخامسة مكانها ، وأن يتم الطلاق ، قبل الزواج من الأجنبية الخامسة ، والا فهى حرام عليه ..

والآن ... وقد جئنا على ذكر النساء المحرمات على الرجل حرمة مؤقتة تزول بزوال السبب ، واتينا على دواعى التحريم المؤقت ، وأسبابه ، فلنعد الى موضوعنا الأصلى وهو ذكر النساء المحرمات أصلا وشرعا على الرجل ، دون حاجة الى يمين أو قسم — وهؤلاء حرمتهن حرمة مؤبدة لا تزول أسبابها بحال من الأحوال ، وقد أوردهن الحق تبارك وتعالى فى محكم كتابه حسب ترتيبهن فقال عز من قائل ..

« حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت وأمهاتكم اللاتى أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة وأمهات نسائكم وربائبكم اللاتى فى حجوركم من نسائكم اللاتى دخلتم بهن فان لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم ، وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم وان تجمعوا بين الأختين الا ما قد سلف ، ان الله كان غفورا رحيما .. »

ولنعد بعد هذا الى محيط الأسرة مرة أخرى ، ما دامت الشريعة السمحاء توليها فى أحكامها ونصوصها أكبر نصيب من العناية لأهمية الأسرة ، بالنسبة للمجتمع نفسه .. ولنقف متمعنين امام داء اجتماعى رهيب ، هو الشك القاتل الذى يفوق الرياح فى ثوراتها ، ويزرى كالبركان فى تفجره حتى لا يبقى على شىء ولا يذر ، فاذا ما تسللت أهويته اللعينة الى بيت ، قوضت شامخ بنيانه واتت عليه من أساسه ، وتركته قاعا صفصفا ينعى من بناه ..

ان الشك لعنة ، وخاصة اذا عرف طريقه الى الحياة الزوجية ، عندها يستحيل النعيم جحيما لا يطاق ، خاصة اذا ما تطور هذا الشك ، وتجسد، وتعاظم أمره ، فاستحال تبادل اتهامات بالحق والباطل ، وأقدم أحد الزوجين على اتهام شريك حياته بالخيانة الزوجية وارتكاب جريمة الزنا .

والزنا جريمة اجتماعية بشعة ، يحرمها الدين ، ويأباها العرف وتلعنها التقاليد ، وينكرها أولو الفضل ، ويتعوذ من شرها أصحاب وصاحبات العفة ..

والزنا اتهام خطير ، قد يرمى به الرجل امرأة ليست زوجته ، وهذا امر توجب فيه الشريعة حكما هو حد القذف يطبق على الرجل ان لم يأت بأربعة شهداء على صحة دعواه فيجلده ولى الأمر فى هذه الحالة ثمانين جلدة ولا تقبل له شهادة ابدا ..

« والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ، ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا ، وأولئك هم الفاسقون ، الا الذين تابوا من بعد ذلك واصلحوا فان الله غفور رحيم ... »

ذلك أمر ، واتهام له حكمه .. ولكن فى موضوعنا هذا الذى نتحدث فيه عن قيام الشك بين الزوجين ، وتطاول أحدهما على الآخر ، ورميه بالخيانة الزوجية ، ثم اتهامه بجريمة الزنا .. ذلك امر له خطره ، فلو حدث

واتهم رجل زوجته بالزنا ، أو نفى نسب ولدها اليه ولم يأت بشهود اربعة يؤيدون صحة اتهامه لزوجته ، وحقيقة دعواه ، فحكم الشريعة فيه لا يكون كحد القاذف وهو جلده ثمانين جلدة ، وانما يجب أولا يتم .. « اللعان » بين الزوجين حتى تثبت الجريمة على الزوجة ، او الكذب على الرجل ، ومن بعد هذا يكون الحد لأى الجانبين ..

و((**اللعان**)) لغة ، لفظ مأخوذ من اللعن ، واللعن هو الطرد ، وهو الابعاد من رحمة الله تعالى ، وسمى ما يحدث بين الزوجين فى حالة الاتهام بالزنا ، باسم « اللعان » لأن أحد الاثنين لابد وأن يكون كاذبا بيقين ، فيستحق والحالة هذه أن يطرد من رحمة الله ..

و ((**اللعان**)) فى اصطلاح الفقهاء ، هو شهادات مؤكدة بالايمان تجرى بين الزوجين ، مقرونة باللعن من جانب الزوج وبالغضب من جانب الزوجة ..

و ((**اللعان**)) بعد هذا ، خروج بالمشكلة الزوجية ، من حدود التفاهم الشخصى بين الاثنين لاصلاح بينهما ومن حدود التحكيم الأسرى والاستعانة بحكم من أهله وحكم من أهلها ، الى التحكيم العام ، على مستوى ولى الأمر .

فاذا حدث ، وساورت الشكوك رجلا فى سلوك زوجته ، وأقدم على اتهامها بالزنا ، أو انكر نسب ولدها اليه ولم يأت بأربعة شهود يؤيدون اتهامه ، ولم تكن لديه بينة على دعواه ، وانكرت الزوجة الاتهام ، وطلبت ان يقام عليه حد قاذف المحصنات ، أمره ولى الأمر بأن يلاعنها فيفعل ويقول .

((اشهد بالله انى لمن الصادقين فيما رميت به هذه ـ ويشير اليها ويعين اسمها ويكرر هذا أربع مرات ثم يلعن فى الخامسة نفسه ان كان كاذبا فيما اتهمها به ، فاذا انتهى الرجل من ملاعنة نفسه ، طلب ولى الأمر من الزوجة ان تفعل مثله ، وأن تشهد الله انه لمن الكاذبين فيما رماها به ، والخامسة انغضب الله عليها ان كان زوجها صادقا فى اتهامه ودعواه ، وهى كاذبة فى انكار ما اتهمها به ..

وقد خصت الزوجة بالدعاء على نفسها بغضب الله دون لعنته ، تغليظا عليها وزجرا ، لأن الجريمة التى اتهمت بها ، افظع وابشع من جريمة الرجل ، وغضب الله أشد من اللعنة ، لانه السخط فى معناه ، وانزال المقت والعذاب والله الحكم العدل تبارك وتعالى يقول فى هذا .

((والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء الا انفسهم فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله انه لمن الصادقين ، والخامسة ان لعنة الله عليه ان كان من الكاذبين ،ويدرأ عنها العذاب أن تشهد أربع شهادات بالله انه لمن الكاذبين والخامسة أن غضب الله عليها ان كان من الصادقين)) ..

فالاعتراف والانكار فى هذه الحالة ، رهين بقوة الايمان ومدى خشية كل من المتلاعنين من حيدته عن الصدق ليخفى أكذوبته أو صدق اتهـامه ان صح أحد الاثنين ، وجزاء الكاذب أو المنكر على الله ، ان لعنته وغضبه لابد سيحلان به ، ولئن افلت الرجل ، أو المرأة من قصاص ولى الأمر ، فلن يفلت أحدهما من عقاب الله أبدا ..

وأمام رهبة القسم ، وقوة الشهادة ، ورهبة اللعنة التى فرضت الشريعة على المتلاعنين استمرارها على ذاتيهما — وخوف كل من المتلاعنين من حلول لعنة الله وغضبه بالكاذب أو المنكر للحقيقة ، كان يحدث أحيانا أن يمتنع الزوج عن الملاعنة ، ويتراجع فى اتهامه لزوجته ، فكان ولى الأمر يعتبره قاذفا فى حق امرأة محصنة ويقضى بحده فيجلد ... وكان العكس يحدث احيانا ، فتخشى الزوجة أن تصر على ، انكارها وتشهد بكذب زوجها ، ويرهبها ان يحل بها غضب الله فتعترف بالحقيقة وتقر بحدوث جريمة الزنا فيحـــدها ولى الأمر حـد الزانيـة ، وتجلد ، كما قضت الشريعة ...

و ((**اللعان**)) يوجب الفرقة بين المتلاعنين ولا شك ، وخاصة اذا أصر كل من الزوج والزوجة على ملاعنته ، وتمسك أولهما بالاتهام ، وأصرت الثانية على الانكار ، لأنه لاقيام للحياة الزوجية بين الاثنين بعد ذلك أصلا ، وقد أكد رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله ((**المتلاعنان لايجتمعان أبدا**)) وهذا حق فبعد الاتهام بجريمـة الزنا ، أو انكار النسب ، تبطل الحيـاة الزوجية ، ولا يمكن أن تقوم لها بعد ذلك قائمـة على الاطلاق ، فالزواج أساسه الثقة ، وما دامت الثقة قد انعدمت ، وحلت مكانها الوسـاوس والشكوك والريب ، فلا راحة ، ولا هناءة ..

فالشريعة التى رفعت من مكانة المرأة ، وأعلت من درجتها فى المجتمع ، وأعطتها صفة الكائن صاحب القيمة العالية الى جانب الرجل — هذه الشريعة لم تترك المرأة المحررة وشانها لتمضى قدما فى نهوضها من كبوة الجاهلية التى رسفت خلالها فى القيود ، بل ألزمتها حدودا وفرضت عليها فرائض واجبة الطاعة ، والزمتها باتباع شرعة التحلى بالخلق الحسن ، والتمسك بالفضيلة لتحس بتبعات مشاركة الرجل فى كل مجالات نشاط المجتمع الجديد ، وتشعر بمسئوليتها كاملة أمام الله ، وأمام ضميرها فى كل عمل تقوم به ، أو واجب تؤديه ، وانها جديرة بالمكانة السامية التى أوصلها اليها الاسلام ، حريصة على التقدم واحراز النصر بعد النصر لتكون الزوجة المثالية ، والأم المثالية وراعية الأسرة المثالية ، وخادمة المجتمع المثالية ، القادرة على النهوض بما يجب على المرأة الصالحة ، أن تنهض به من تبعات ومهام ..

وشريعة الله الحكم العدل التى أعطت المراة فوق ما كانت تتمنى ووهبتها أكثر مما كانت ترجو ، لم تعمد الى أن ترتب لها حقوقها فى نطاق الأسرة فحسب ، باعتبار ان الأسرة لبنة قوية فى صرح المجتمع ، بل سنت لها قواعد العرف الاخلاقى الواجب أن تتبعه بصفة عامة فى بيتها وخارجه ومع كل من يخالطها فى المجتمع والزمتهـا بحدود وآداب وصـفات تكمل وجودها ، وتسمو بها الى حيث أراد لها الله أن تكون ، تاجا مشرعا فوق الرءوس ..

والشريعة السمحاء فى سبيل وصول المجتمع الاسـلامى الى درجـة المثالية والكمال تعتبر المراة الى حد بعيد مسئولة عن ذلك المجتمع .. عن الطباع والعادات والتقاليد ، باعتبارها أما للمجتمع ، ومربية لمن فيه ، ومن اللازم أن تكون قدوة ومثالا ..

والمراة المسلمة مامورة ، أن تطيع الله ، وان تعمل بكل اوامره ، وأن تبتعد عن نواهيه ، وعليها أولا وقبل كل شىء أن تغض من بصرها ، فلا تتطلع الى ما ليس من شأنها أن تتطلع اليه ، وأن تخفض بصرها فى حياء والا تتمنى ما ليس لها ، والا تعتدى ببصرها على ما ليس لها أن تعتدى عليه .

وعليها بعد هذا أن تحفظ فرجها ، وتحمى شرفها وأن تكون العفة والشرف دينهـا ومذهبها فلا تتبذل ، ولا تتدلى ، ولا تقدم على ارتكاب فاحشة مبينة يندى لها الجبين ويشعر ضميرها وحسها بالندم والاحساس بالعار .

ومن الواجب عليها الا تسرف فى التزين وفى التبرج ، شأن الجاهليات ، الجاهلات ، وان تخفى زينتها ، وتزينها ، فتلك عورة ، والا تبدى منها الا ما ظهر منها ، فلا تعمد الى اظهار الخفى بأية وسيلة من وسائل الاظهار التى تخرج بها عن حدود الاحتشام والوقار الواجب أن تتحلى بهما ..

وعليها بعد هذا أن تضرب بخمارها . وتتحجب حيث يجب أن تحتجب ، خاصة عندما تتزين ، ففى التزين لون من ألوان الاغراء ومحاولة اظهار المفاتن ، وهذا ما يجب أن تحجبه المراة عن العيون الغريبة فالشريعة توجب عليها الا تبدى زينتها قطعا الا لمن اهلها الله له وهو الزوج ، وهو أول من يجب أن تتزين له المراة ، وتتجمل وتظهر محاسنها ، ولا جناح عليها بعد هذا أن تبدى زينتها هذه لذوى المحارم منها كأبيها ، وأب زوجها وأبنائها ، أو أبناء زوجها أو ابناء اخوتها واخوتها ومن دونهم بعد ذلك فى الحدود التى أوجبتها الشريعة السمحاء .

والتزين الذى تبيحه الشريعة شىء خلاف التبرج الذى نهى الله عنه ، فاذا كان تزين المراة مشروعا وفى حدود ، فان التبرج محرم قطعا وغير مستحب اطلاقا .

والتبرج ليس الاسراف فى الزينة . بل فى محاولة اظهار ما لم يرد له الله ان يظهره واعتبره عورة يجب على المراة أن تعمد الى سترها ، ومن التبرج التثنى فى المشى وتعمد احداث الحركات الاهتزازية فى المحجوب ومنه أيضا التغالى فى الملبس ، كأن تعمد المراة الى ثياب شفافة ترتديها أو ثياب محكمة . مشدودة الى الأجساد أو ثوب يحدد معالم الجسد ويظهرها .

فاللمراة أن تتزين فى حدود الطبيعة ، ولن تحرم الشريعة زينتها وتزينها أبدا ، ولكن — هذه الزينة يجب أن تحجب عن غير ذوى المحارم ، والا يباح اظهارها الا لمن عينهم الشارع الحكيم والشريعة السمحاء بعد هذا تحرم على المراة أن لا تحاول ابدا اظهار ما استتر من وسائل زينتها ، اغراء منها واعجابا ، وتفاخرا وتعاظما ، ومحاولة لاظهار مدى ما تستمتع به من ثراء قد لا يكون لغيرها . كأن تضرب برجلها لتسمع صاحباتها رنين الحلى والذهب ففى هذا ما قد يبعث على الغيرة والحسد وايغار الصدور .

((وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن الا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن الا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو اخوانهن أو بنى اخوانهن أو بنى اخواتهن أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولى الاربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء . ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن وتوبوا الى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون)) .

وتمضى الشريعة بعد هـذا فى منح المراة ما لم تكن تحلم به من الحقوق والمزايا . ولا تنسى وهى تقرر لها هذه الحقوق . وتدعمها بنصوص صريحة فى كتاب الله — لا تنسى هذه الشريعة أن تثقف المراة وتعلمها وترشدها الى وجوب التحلى بكل فضيلة والتمسك باهداف المثل العالية فى الخلق وفى المعاملات لترفع من شأن نفسها ، وشأن مجتمعها وشأن من جعلها الله راعيته وامينته من بيت وزوج وأموال وبنين وبنات .

وان هذه الشريعة السخية فى عطائها للمراة لتقف بها بعد هذا أمام حق جديد اقرته لها هو حق الميراث .

واذا قلنا أن التوريث نظام طبيعى نادت به النظم البشرية وفرضته طبيعة الوجود منذ اقدم عصور التاريخ وان الناس جميعا تعارفوا عليه واتبعوا سننه ، فاننا نقول ان الشريعة الاسلامية قد أكدت فيه حق المراة وجاءت لها بكل جديد لم يكن لها فى عصور ما قبل الاسلام .

والتاريخ يقول لنا ان التوريث نظام عرفته الحضارات المستنيرة القديمة قبل أن تقره الشرائع السماوية ، وان قدماء المصريين وأهل بابل عرفوه وان

الزوجة كانت أساس التوريث عند قدماء المصريين فالزوجة ترث زوجها والزوج يرث زوجته وكذلك يرثان أولادهما من بنين وبنات ، ميراثا متساويا تماما .

والشريعة الموسوية أول شريعة نظمت التوريث واجرته على أصول متبعة مرعية أظهر ما فيها هو أن :

« الزوجة لا ترث زوجها أما الزوج فيرثها اذا لم يكن لها أولاد » .

وكما حرمت الشريعة الموسوية على الزوجة ان ترث زوجها ، كذلك حرمت على الأم ان ترث ولدها المتوفى ان كان له ميراث .

وقد حصرت هـــذه الشريعة الميراث فى طبقات ثلاث هى الأصول والفروع والحواشى ، فالطبقة الأولى تحجب الثانية ، والثانية الثالثة ، فلا ميراث للآباء مع الأبنـــاء والبنات ولا للأخوة مع أحد الأصول أبدا ، ولا ميراث للاناث مع الذكور من أهل الطبقة الواحدة أبدا ، والفرع فى الميراث يقوم مقام أصله ، ولا تنتقل التركة الى الأناث أصلا الا فى حالة واحدة هى انعدام الورثة الذكور وفروعهم .

وتنص الشريعة الموسوية على توريث الابن غير الشرعى واذا كان هو الأكبر فى الأبناء يعطى نصيب اثنين من أخوته .

والمسيحية بعد هذا لم تتعرض شريعتها لنظم التوريث وسارت فى تطبيق نظم توارث اتباعها الشريعة اليهودية أو النصوص الرومانية ، وان كان اغلب المسيحيين فى البلاد اليوم يطالبون دواما بتطبيق الشريعة الاسلامية فى هذا الخصوص .

والتوريث نظام عرفه العرب فى جاهليتهم ، فكانت نظمه جاهلية ، وأسسه غير قويمة ، وأوضاعه خاطئة ، اذ كان الجاهلون يورثون من اشتد عوده فقط من الرجال ويحرمون اطفالهم وبناتهم من حق الميراث ، كما جعلوا للابن المتبنى نصيبا معلوما فى ميراث متبناه فى الوقت الذى حرموا فيه على ذوى قرباهم وامس الناس بهم وأقربهم اليهم حق الميراث .

والأسس التى بنى عليها العرب فى جاهليتهم حكمهم فى الميراث كانت ترجع الى اسباب ثلاثة أولها النسب وثانيها التبنى . واما ثالثها فكان الحلف . . والنسب كما ذكرت كان خاصا الى حد بعيد فلا يرث الا الابن القادر القوى دون اخوته الصغار ذكورا كانوا ام اناثا واما التبنى فمعروف ويبقى بعد هذا الحلف .

التوارث بالحلف كان عادة غريبة ممقوتة ، فقد كان يحدث ان يتحالف اثنان فى الجاهلية ليس بينهما نسب فيرث أحدهما الآخر .

وجاء الاسلام ، وأشرقت أنوار الدعوة واستنارت بها الدنيا ، وحدد الشارع الحكيم فى محكم كتابه نظام التوريث فالغى ميراث الابن المتبنى .. ادعوهم الى آبائهم هو اقسط عند الله كما قضى على نظام التوارث بالحلف فى قوله تعالى : ((**وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله ان الله بكل شىء عليم**)) ..

والاسلام حين تعرض لنظام التوارث فى شريعته وسار على نفس طريق التبرج الذى اتبعه فى جميع تشريعاته من قبل ، فلم يحكم بابطال ما تعارف عليه الجاهليون من نظم التوارث دفعة واحدة ، وجعل الاسلام والهجرة اساس الارث بالولاية ، وكان هدفه فى هذا ربط المسلمين جميعا بأوثق رباط وهو رباط العقيدة : « ان الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وانفسهم فى سبيل الله ، والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض ، والذين آمنوا ولم يهاجروا مالكم من ولايتهم من شىء حتى يهاجروا ، وان استنصروكم فى الدين فعليكم النصر الا على قوم بينكم وبينهم ميثاق ، والله بما تعملون بصير .. والذين كفروا بعضهم أولياء بعض الا تفعلوه تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير .. والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقا لهم مغفرة ورزق كريم ، والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم » ..

وبهذا الحكم الشرعى ، وبنص قوله تعالى فى الآيات السابقة ، انقطعت رابطة الولاية بين المؤمن المهاجر وبين غيره ممن آمن ولم يهاجر ، أو لم يؤمن ، ومن ثم قضى على التوارث بالولاية ..

وسارت الشريعة بعد ذلك فى سبيل تقرير حق الميراث خطوة خطوة ، فأقرت حق الوالدين والاقربين ونصت على شريعة الجاهلية فيما يتعلق بقصر الميراث على الرجال الاشداء دون الصغار ذكورا كانوا أو اناثا .

ثم نزل بعد ذلك قوله تعالى : ((**للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون ، وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قل منه أو كثر نصيبا مفروضا ..**)) .

والاشارة الى « النساء » فى هذه الآية كانت فيما أظن أول تقرير لحق المرأة فى الميراث بصفة عامة .

وقد روى أن أرملة سعد بن الربيع جاءت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم بابنتيها من سعد فقالت : يارسول الله هاتان ابنتا سعد بن الربيع قتل أبوهما معك فى ((أحد)) شهيدا ، وان عمهما أخذ ما لهما ، ولا ينكحان — يتزوجان — الا بمال .

فقال صلى الله عليه وسلم يقضى الله فى ذلك .. فنزل قوله تعالى :
((يوصيكم الله فى أولادكم ، للذكر مثل حظ الانثيين ، فان كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك ، وان كانت واحدة فلها النصف)) .

فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم الى عم الفتاتين وقال له : اعط ابنتى سعد الثلثين ولأمهما الثمن ، وما بقى فهو لك .

وهكذا .. وعلى هذه الصورة من صور الانصاف الاجتماعى اكدت الشريعة للمرأة حقها فى الميراث ، وهو حق سلبته الجاهلية واغتصبه عرفها الجائر ، ولم يعترف به أبدا ، فاذا بالشريعة السمحاء تقرره ، وتقره وتعينه فى ايضاح شامل وتوزيع عادل فأعطت الذكر الذى كان يضع يده على التركة بأجمعها ، اعطته مثل حظ الانثيين ، وقدرت فى هذا ظروفه الاجتماعية والمعيشية ، وظروف الانثى .

فالرجل بحكم وضعه فى الحياة هو المسئول الأول عن نفسه واسرته وما حوت ، من زوج وبنين وبنات فهو يعول نفسه ويعول جميع هؤلاء . ويتولى الانفاق عليهم ، ويقوم بواجب الكساء وغيره . فهو مثقل بشتى التبعات والالتزامات، وهو الذى يعول المرأة وأولادها ، وهو المسئول عنها وعنهم ، وشتى مطالب الحياة مطلوبة منه لا منها هى ، فان حدث وورثت فى تركة أبويها ، فانها تساعد بها زوجها وبنيها ، ويكون هذا المال قل أو كثر مال الزوج .

وقد تناولت الشريعة السمحاء احكام التوريث من ناحيتين ، اولاهما اجمالية كقوله تعالى : **((للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قل منه أو كثر نصيبا مفروضا ، واذا حضر القسمة أولو القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه وقولوا لهم قولا معروفا))** .

فالشريعة هنا تفرض التوريث ، وتحدد اصحاب الحق فيه تحديدا مجملا ، دون أن تعين النصيب المستحق لكل فرد ممن ذكرت، ومن أولى منهم من الآخر فى حق التوريث ، وهكذا .

وتأتى بعد هذا ثانية ناحيتى تناول الشريعة لاحكام التوريث وهى الناحية التفصيلية وهى ما يهمنا هنا ايراد نصوصها ، خاصة فيما يتعلق بحق المرأة فى تركة الوالدين والاقربين ومن دونهم .

((يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الانثيين فان كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك ، وان كانت واحدة فلها النصف)) .

ثم تعرج الشريعة بعد هذا فى احكام وعدل الى الأبوين فتعطيهما حقهما فى ميراث الابن ذى المال .

« **ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك ان كان له ولد فان لم يكن له ولد وورثه أبواه فلأمه الثلث ، فان كان له أخوة فلأمه السدس من بعد وصية يوصى بها أو دين ، آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعا ، فريضة من الله ان الله كان عليما حكيما .**

وتعود الشريعة بعد هذا ، وبعد أن احكمت وفصلت ما يجب أن يتبع فى توريث مـال الابوين ، أو الابن لوالديه ، لتقف امـام حق الزوج فى مـيراث زوجته وحقها هى فى ميراثه .

ـ ولكم نصف ما ترك أزواجكم ان لم يكن لهن ولد ، فان كان لهم ولد ، فلكم الربع مما تركن من بعد وصية يوصين بهـا أو دين ، ولهـن الربع مما تركتم ان لم يكن لكم ولد ، فان كان لكم ولد ، فلهن الثمن مما تركتم من بعد وصية توصون بها أو دين .

وان كان رجل يورث كلالة أو امراة وله أخ أو أخت فلكل واحد منهما السدس ، فان كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء فى الثلث من بعد وصية يوصى بها أو دين غير مضار أو وصية من الله والله عليم حليم .

وتقف الشريعة بعد هذا امام نظام التوريث فى الكلالة ، وانصبة الورثة بجميع أنواعهم : « **يستفتونك قل الله يفتيكم فى الكلالة ، ان امرؤ هلك ليس له ولد وله أخت فلها نصف ما ترك وهو يرثها ان لم يكن لها ولد ، فان كانتا اثنتين فلهما الثلثان مما ترك ، وان كانوا اخوة رجالا ونساء فالذكر مثل حظ الانثيين ، يبين الله لكم أن تضلوا والله بكل شيء عليم** » .

وهكذا لم تفت الشريعة السمحاء شاردة ولا واردة تعلى من شأن المراة ، وترفع من قدرها وترتب لها حقوقا قبل ذويها وقبل مجتمعها ، الا اخذت به فى ترتيبها وتنظيمها ، وتوزيعها فى عدل واحكام .

وهكذا قضى الاسلام فى يسر وتؤدة ، وعن عقيـدة واقتناع على نظرة الجاهلية الشوهاء الى المرأة ، وابطل فى قوة رادعة حكمها الجائر ، وتحكمها المقيت ، واعطاها ما حرمها اياه الغاصبون ، وجعلها تستمتع بما كان يجب أن تستمتع به من حريات ، وما كان لها من حقوق ، فورثت ، حيث لم يكن لها فى الميراث حق قبل الاسلام ، ورتبت حقوقها فيه ، وما يخصها من نصيبه ، فسـاوت الرجل مكانه ، وان لم تتسـاوى معه مقدارا ، واصبح يحسب لها كل الحساب فى ذلكم المجتمع الجديد .

واستطاعت المراة بحكم المكانة الجديدة التى صـارت لها ان تدخل المجتمع ، ليس كما دخلته فى الماضى ، سلعة تباع وتشترى ، ورقيقا لا اهمية له ولا مقدارا ، بل كمواطنة تحمل من الأعباء نصيبا بقدر جهدها وطاقتها ، بل لقد استطاعت أن تدخل فى زهو ميدان الجهاد ، وان تخرج فى صفوف

المجاهدين ، وأن تسير فى أثر الفرسان والراجلين ، تشحذ الهمم ، وتأسو الجروح وقد تنتضى السيف وقد تحارب ، وقد تصد العدو وتشترك فى مطاردته بما وسعته قدرتها ، فقرت بهذا وجودها فى مجالى الشجاعة ، وأصبح لها فى المغانم نصيب ، كما كان يأخذ الرجل .

واذا كانت الشرائع قبل الاسلام ، قد حرمت المرأة من حق التصرف ، وانكرت عليها الجاهلية أن يكون لها هذا الحق ، ولم تبح لها أبدا أن تفكر فى ممارسته ، فقد أعطاها الاسلام هذا الحق كاملا غير منقوص ، فأصبحت تتصرف فى حدود التعقل والحكمة ، ودون سفاهة أو شطط أو ميل أو اسراف فى مالها وما تمتلك ..

كما أباح لها الاسلام فوق هذا ، حق التصرف فى حقوقها المدنية فى حدود الطاعة وعدم الاقدام على الخروج على شرعة الاتزان أو اتباع الهوى ، والميل ، فأعطاها حق الموافقة على زواجها ، كما جعل قبولها الزواج طرفا فى تعاقد فيه تكافؤ ومساواة وان حرمها حق ممارسة الطلاق ولم يبح لها أبدا هذا الحق الذى جعله فى يد الرجل ، لأنه وليها ، ولأنه هو المسئول عنها ولأنه أقدر منها على حفظه وأثبت يدا وعاطفة فى امساكه فوق أن الله جل وعلا أعطاه وحده هذا الحق وقرره فى أكثر من آية من آياته المحكمات ..

وشريعة الله الحكم العدل التى رفعت من قدر المرأة وأعلت مكانتها فى مجتمع لم تكن فيه قبل الاسلام شيئا مذكورا ، ولم تلق فيه من الرجل سوى الصغار والتحقير والتهوين من شأنها .. هذه الشريعة السمحاء العادلة ، التى جعلت للمرأة وجودا ، وكيانا ، لم يعفها أبدا من تحمل أوزار أخطائها الدنيوية ان هى أخطأت وأخذها بالشدة ان هى خالفت النظم وخرجت على شرعة القانون السماوى ، ولم ترحمها اطلاقا من أهوال المسئولية أيا كان نوع هذه المسئولية ، وكما أوجبتها وفرضتها حدود الله .

فالشريعة الرحيمة ، لم تنظر للمرأة أن هى خالفت نظرة الرحمة ، ولم ترض فى حالة الاقدام على المخالفة أن تعتبرها ذلكم المخلوق الذى يستحق الرعاية والحنان ، بل أوجبت عليها الحدود كلها دون فارق بينها وبين الرجل فى ذلك فلم تعفها من القصاص ان هى أجرمت أو أقدمت على قتل النفس التى حرم الله قتلها الا بالحق ، بل لم تبح لها ولا لغيرها رجلا كان أو امرأة ، حق أخذ النفس بالنفس أو العين بالعين ، أو السن بالسن ، فتلك حدود الزمت باجرائها ولى الأمر ، وليس لمسلم أو مسلمة حق اجرائها مهما كانت الظروف .

من اجل هذا فالمراة القاتلة تقتل، ويقتص منها على قدر جرمها عملا بشريعة الله التى كتبت علينا القصاص .

« يا ايها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص فى القتلى .. »

والمؤمنون هم ولا شك، كل من آمن بالله وكتبه ورسله وملائكته واليوم الآخر، رجلا كان أو امرأة ..

واذا كان الاسلام السمح الكريم قد فتح أمام المراة شتى أبواب الارتقاء واعطاها كل فرصة للسمو، وجعل لها حق الجهاد، والخروج مع المقاتلة كما ذكرت، فان الشريعة العادلة التامة، قد أباحت قتل المراة اذا كانت فى صفوف العدو، دون نظر الى جنسها أو رحمة لضعفها، ما دامت قد نصبت نفسها للخروج ورضيت القتال .

واذا كان هذا هو موقف الشريعة من المراة فى حالة الحرب أو القتال او الاقدام فى سفك الدم، أو الخروج على عرف المجتمع وشرعته، فان موقفها منها فى المسئوليات المدنية، هو نفس المسئولية الحازمة الرشيدة المحددة بحدود، مع مراعاة ما تقتضيه الآداب العامة، وحين تخرج المراة على سنن الكرامة، أو معايير الأخلاقيات، فانها لا ترحمها أبدا، بل تأخذها بالشدة التى لا رحمة فيها، وفى هذا ما فيه من عدالة تامة تروع ولا ترهب، وتدفع الى الطاعة، دون اجبار أو تخويف، فالزمتها بالحد كما أمر الله واشترطت العلانية فى اجراءات الحد، لتكون هذه العلانية عبرة، فلا تقدم مسلمة على الخروج، والاقدام على مثل هذا العمل الواجب لغضب الله واحتقار المجتمع ولعنات الناس .

وقد شددت الشريعة فى التنبيه الى عقاب المراة الزانية وقدمتها الآية الكريمة على الرجل وهى تقرر هذا الحد، باعتبارها المسئولة الأولى، والمفرطة فى أعز ما تباهى المراة، والمجترأة على خيانة الله ورسوله وعهد الزواج والرجل الذى قبل ان يمنحها اسمه وكرامته .

« الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين .. » ..

والنص الصريح على أن تشهد عذابهما طائفة من المؤمنين، تبيان حقيقى لمدى نظرة الشريعة الى المراة الآثمة وهو جرمها، وضرورة اشهاره، وعلانيته، حتى لا تستهين امراة بالقيود المفروضة عليها، والواجبات الملقاة على عاتقها، وتتبع هواها، أو غرورها وتطيع الشيطان وتعصى الله ...

والشدة واجبة فى انزال الحد، والرحمة محرمة، تحريما قاطعا حتى

أن الشريعة لتعتبر مجرد الاحساس بها ، لأى من الجانبين اخلال بشروط الايمان التى يجب أن يتمسك بها كل مؤمن بالله واليوم الآخر ...

وتمضى الشريعة بعد هذا فى تحقير شأن الزانية ، فتقرر انها لا تخطىء الا مع زان او مشرك وهذا جرم بشع حرمه الله على المؤمنين ..

« والزانية لا ينكحها الا زان أو مشرك ، وحرم ذلك على المؤمنين .. »

والسارقة هى الأخرى ، للشريعة منها موقف حاسم بالغ الشدة ، هو قطع يدها وكما أوجبت هذه الشريعة شرط العلانية فى عقاب الزانية ، كذلك أوجبتها عند حد السارقة فهذا أدعى للزجر والاحساس الدائم بهول الجرم المرتكب فى حق الناس ، كما أن هى الاشهار الأبدى ، الذى يرشد المجتمع الى السارقة ، والعذاب النفسى الخالد الذى يزجرها كلما شاهدت يدها وتذكرت جرمها ، فيأخذها الندم ، ويمتلكها الخزى ويسودها دواما الاحساس بالعار وهول الذنب العظيم وهو سرقة الغير ، واغتصاب حقوقهم وأموالهم .

ولم تغفل الشريعة بعد هذا كله مكان المراة ومدى فاعليتها وقيمتها فى اجراء شتى المعاملات ، وهى وان كانت قد أوجبت ضرورة وجود المحررات المثبتة للديون أو الاحتفاظ بالأمانات ، وضرورة شهادة الشهود على صحتها ، فان هذه الشريعة العادلة ، لم تقصر أبدا حق الشهادة على هذه المحررات ، على الرجل وحده دون المراة ، فأعطتها هى الأخرى هذا الحق ، وحددته بشروط لاكتماله من ناحية الشكل ليكون تاما من شتى الوجوه ..

« يا أيها الذين آمنوا اذا تداينتم بدين الى أجل مسمى فاكتبوه ، وليكتب بينكم كاتب بالعدل ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله فليكتب، وليملل الذى عليه الحق وليتق الله ربه ولا يبخس منه شيئا ، فان كان الذى عليه الحق سفيها أو ضعيفا أو لا يستطيع أن يمل هو فليملل وليه بالعدل واستشهدوا شهيدين من رجالكم ، فان لم تكونا رجلين ، فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل احداهما فتذكر احداهما الأخرى .. »

بهذا نادى الاسلام دين الفطرة الذى ارتضاه الله لعباده ، والى هذا دعا ، فى أكثر من موضع ، وكرر أوامره هذه ، وأبان نواهيه ، حتى لا تنساها مسلمة ولا مسلم ، ثم ها هى ذى رحمة الشارع الحكيم تأبى الا تعود للتذكير الاجمالى والبيان المفصل فى تحديد حرمته شريعة الله على المراة ، وذلك عام الفتح ، وقد دخل الناس فى دين الله افواجا ، رجالا ونساء .. وجاءت المؤمنات المسلمات ليبايعن رسول الله ، فنزل قوله تعالى .

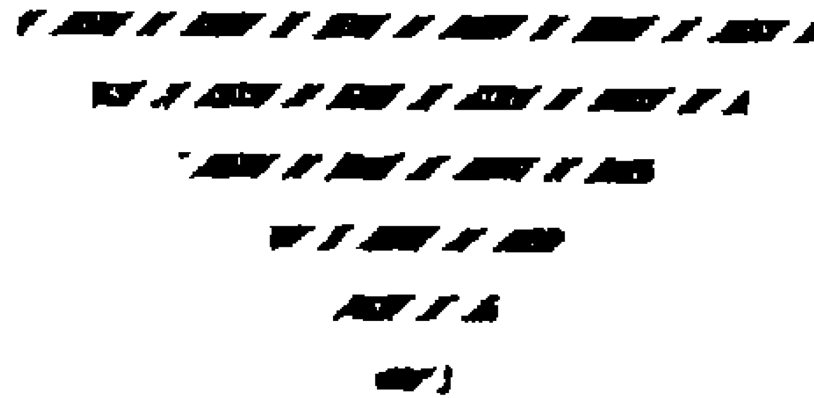
((يا أيها النبى اذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئاً، ولا يسرقن ، ولا يزنين ، ولا يقتلن أولادهن ، ولا يأتين ببهتـان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ، ولا يعصينك فى معروف فبايعهن واستغفر لهن الله ، والله غفور رحيم ..))

فالشريعة العادلة هنا ، لا تقبل اشهار الاسلام وشهادة الوحدانيـة المطلقة شرطـا ، لاقرار مبايعة النســاء ، بل أوجبت عليهن مع الاقرار بالوحدانية ، وعدم الشركة ، اكمال شرائط خاصة لتتم المبايعة ، ويباركها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويستغفر للنساء الداخلات فى دين الله ، فأكدت أن المرأة المسلمة لا تكتمل أركان اسلامها الا حين تعف ولا تفسـق ولا تقدم على اغتصاب حق ، أو خيانة أمانة ، فلا تسرق ، ولا تزنى والا شهر بها وجلدت وأن تبرأ من عادات الجاهلية فلا تقدم على قتل أولادها .

ثم وبعد هذا ، أمرتها بأن لا تأتى ببهتان تفتريه ، والبهتان هنا ادخال اللقيط على زوجها ودسه عليه ثم الاجتراء على الحاق نسبه بنسب الزوج رغبة منها فى توثيق رابطة الزواج ودوام بقائها ثم الحصول للولد الدعى ، أو الابنة الدعية على نصيبها أو نصيبه فى الميراث دون حق ، ان كان للرجل ميراث ..

والنص على بيعة النسـاء للنبى ، فيه نص الايضاح البليغ المبين لمكانة المرأة ، وانها مكلفة بكل فضل وكل كمال ، وكل طاعة ، وانها ركن من أهم أركان المجتمع ، ودعامة بقائه ، وصلاحها صلاح المجتمع بل صلاح الناس أجمعين ...

تلكم هى المرأة فى شريعة الله ، وهاكم مكانها السامى الذى وصـفها الاسلام فيه ، وهذه هى الطفرة الحافزة التى كفلت المرأة بعد أن عرفت حقوقها ، وأحست بواجباتها لكى تتقدم وتأخذ مكانها فى كل مجتمع وان تثابر وتجد ، وتحاول أن تبز غيرها ، لتصل الى حيث أراد لها الله الحق، ولتحقق ما توخته الشريعة من تزويدها بكل ما منحتها اياه من الحقوق ..



الرسول .. والرسالة .. والكتاب

« وهذا كتاب أنزلناه مبارك ، مصدق الذى بين يديه ، ولتنذر أم القرى ومن حولها ، والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به وهم على صلاتهم يحافظون » .

« يا أيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته ، والله يعصمك من الناس إن الله لا يهدى القوم الكافرين ، قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والانجيل وما أنزل اليكم من ربكم ... »

(سورة البقرة)

الدين عند الله هو الاسلام .. والاسلام هو أن يسلم الانسان نفسه الى الله ..

واسلام النفس الى الله هو الايمان به ربا واحدا لا شريك له ..

فالاسلام ، سلام ، وإخاء ، وحب ، وإخلاص ، وصدق عبادة .

والاسلام رغم أنه فى لبه ، هو التسليم لله ـ الا انه دين المنطق والجدل وحرية الفكر ، والدعوة الحرة الى ارتياد مجالى السمو العقلى ، وتدبر الكون وتعرف مناحى القدرة فيه لنزداد ايمانا واستمساكا بمبدع الكائنات.
فالاسلام اذا ، هو تحرير العقل البشرى من الجمود ، وثورة الانسان الحر على كل الأباطيل والأوهام .. فهو تسليم بسيادة الانسان وبمقدرته ومدى فاعليته التى أرشد الله عباده اليها بان جعلهم خلائف على الأرض ، ثم زودهم بالعقل وسامى التفكير ليحسنوا هذه الخلافة ، ولا يسيئوا حكمة الاستخلاف العظيم ..

والاسلام هو دين الله .. ودين الله هو مجموعة أوامره ونواهيه وتشريعاته ، التى بعث بها رسله الكرام ، كل الى قومه ، وكل فى حدود ما كلف به ، وهو الدعوة الى الطاعة ، والاقرار بالوحدانية والتمسك بالفضائل ، واتباع سبل الكمال .

وتوالت قرون بعدها قرون .. وجاءت أمم بعدها أمم وبادت حضارات ، وظهرت حضارات ، وطغى الانسان : خليفة الله فى أرضه ، وبغى وخرج على شرعة الهدى ، واستن سنن الضلال وحاد عن طريق السوى .

وتداركت رحمة الله الناس المرة بعد المرة ، وشاءلهم الهدى بعد الضلال وبعث فيهم الرسل الهداة ، بعد الرسل ، ليتمسكوا بالهدى ، ولا يحيدوا عن دعوة الحق ..

وبعد هذا الشوط الأعدادى فى سبيل تقويم البشرية واستنارة عقول الناس ، شاء الله القادر أن تستقر دعوة الهدى والحق عند ابراهيم عليه السلام ، ومع استقرارها ، بدأ يبين معدنها ويتضح منهاجها القويم ، ويستقيم اسلوبها الواضح ، وقد خرجت رسالة ابراهيم عليه السلام من حدود خصوصية الرسالات التى سبقتها كلها الى نطاق العمومية المطلق ، ولم تعد رسالة رسول كريم الى قوم من الأقوام ، بل رسالة عامة للبشر اجمعين ، تنتظم الدنيا تحت لوائها ، وتنسحب شريعتها الكاملة على الناس ، كل الناس ، وبهذا صار خليل الرحمن ابراهيم عليه السلام امام الشعوب وهاديها الى الله .

واورث الله العاطى الوهاب دعوة ابراهيم من بعده لولديه ، فكانت لاسماعيل ولده البكر حيث استقر مع اهله الجدد من الجراهمة ، ولاسحق حيث بقى مع ولديه ..

وحمل كل من اسماعيل واسحق أعباء الرسالة كل حسب مقدرته ، وكما شاء له الله أن يحملها ، وكانت الرسالة بالنسبة لاسماعيل أشد حمولة واثقل عبئا ، فلم يقم بالتكليف فحسب ، ولم يكن المعلم الهادى قومه الى الحنيفية وأصولها وشريعتها المستقيمة وما أوجبته من صلاة وزكاة وتطهر ونسك فحسب — بل قدر عليه بحكم جيرته للبيت العتيق الذى اشترك فى وضع قواعده مع أبيه ابراهيم ، وعمل على تطهيره للطائفين والركع السجود — قدر عليه أن يكون سادن البيت المطهر القائم على شئونه ، المكلف بالاشراف على اعداد مواسم الحجيج ، واستقبال القادمين اليه أفواجا ، والقادمات على كل ضامر من شتى بلاد الله ليشهدوا منافع لهم ، وليلبوا الأمر السماوى الواجب الطاعة ، وليسارعوا الى منسكهم المقدس الذى عينه لهم الله فيؤدون الفريضة المقررة ، ويقيمون ركنا قويما مدعما من أركان الحنيفية السمحاء المنزهة عن الشرك ، المقرة دائما بوحدانية الله ..

وبقى اسحق بعد هذا حيث هو .. وشغله وقد بلغ منه الكبر مبلغه أمر ولديه ووريثيه « عيصو ويعقوب » وأمضه وأقلقه ما قد شجر بينهما من خلاف رهيب كادت تتكرر معه مأساة ولدى آدم قابيل وهابيل مرة أخرى ، لولا ان أسرع يعقوب الذكى بالهرب فى الوقت المناسب الى ديار خاله « لابان » الطيب فاستقر هناك ، وعاش فى كنف الرجل الذى رحب به ، ثم تزوج من بنتيه « ليا » الكبرى التى لم يكن يحبها ، ثم « رفقه » التى كان يتمناها من قبل ..

وأقام يعقوب لنفسه نسلا فى ديار خاله وعلمهم الدين ، وهداهم الى

الاسلام وأوصاهم به ، واخذ عليهم العهد والموثق ألا يموتوا الا وهم جميعا مسلمون لا يشركون بالله شيئا ولا يعبدون ربا آخر سواه ..

وعاد يعقوب بعد ذلك الى وطنه الأول وفى صحبته اولاده الأسباط ، وماله الجم الذى حققه بجهاده مع خاله « لابان » الطيب ، فعاشوا حيث اراد الله أن يستقروا ..

وعمل أبناء يعقوب بوصيته ونفذوا رغبته ، واهتدوا بعد ان ضلوا وعصوا اكثر من مرة واستقاموا بعد طول اعوجاج ، وكان أمامهم وجامعهم حوله بعد ذلك أخوهم يوسف الصديق عليه السلام الذى بلغ فى بلاط احد فراعين مصر من الهكسوس مبلغا من الجاه عظيما ، جعله يقرب اليه أهله جميعا وينقلهم من البدو الى الحضر ، ليعيشوا فى كنفه ، ويستظلوا بظله ، ويقيموا فى مصر الخصيبة الفنيــة ، حيث مرت عليهم فيها دهور وعصور كان أمرهم خلالها معروف ..

اما اسماعيل .. ولد ابراهيم البكر ، ووريث رسالته ، وحامل اثقل اعباء الرسالة من بعده ، فقد بقى حيث اراد له الله أن يكون ، وسط قوم ما عرفوا الله ولا هم عبدوه من قبل ، فهداهم بنور الهدى ، وارشدهم الى الطريق المستقيم .. واستطاع أن يقيم له حيث استقر نسلا عظم شانه وتكاثر عدده ، فعمرت بهم الصحراء ، ودبت الحياة فى الوادى غير ذى الزرع عند بيت الله المحرم ، فأصبح كعبة القاصدين ، ومطاف الناس جميعا ، ومهوى افئدتهم يهرعون اليه فى مواسم محدودة واشهر معلومة « **ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الانعام فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير ، ثم ليقضوا تفثهم ، وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق** » .

هناك .. عاش اسماعيل .. وهناك عاش بنوه من بعده ، وقد ورثوا دينه ، وشريعته ، وورثوا عنه سدانة البيت وحجابته ، وسقاية الحجيج ، وشتى مظاهر الزعامة الروحية التى خلصت من بعد اسماعيل إليهم ، جيلا بعد جيل ، واستقرت فى قريش ، فكان منها القادة ، وكان منها المتصدرون للزعامات ، وكان منها أصحاب المكانة والرأى والسيادة على العرب اجمعين.

ودار الفلك دورات بعد دورات ، وتبدلت الدهور بدهور ، والناس بأناس آخرين ، وعاد الباطل يزحف هنا وهناك وفى كل مكان ، وفى اثر الباطل كان الشيطان ، وكان الضلال ، وكان الكفر ، والخروج على الناس والتنكر لشريعة الله .

وجاء موسى برسالته الى فرعون وملئه ، ليخلوا بين قومه وما هم فيه ، وليطلقوا اسراهم ويرسلوهم معه ، ثم آتاه الله بعد ذلك الشريعة ، وجدد به رسالة ابراهيم ، ونشر على يديه صحفه التى درست واورثها لمن معه من بنى اسرائيل ، وقد من عليهم ليكونوا ائمة يدعون الى الله ولكن ..

ولكن .. هل استقام العبيد ، وهل اطاعوا .. وهل حملوا الرسالة ، وخضعوا للشريعة السمحاء ، وكانوا دعاة هدى ورسل خير !!

لا .. اذ لم يكد الضالون يستشعرون نسائم الحرية ويحسون بجلال التخلص من الرق ، حتى طغـوا وبغـوا ، واستكبروا ، وعاثوا فى الارض مفسدين ، فاستحلوا المحرمات وحرموا ما أحله الله لهم ، وعصوا ، وكفروا وقتلوا الانبياء ورجموا المرسلين اليهم ، ولم تحجزهم وقفة أو يردهم دين ، أو تخيفهم شريعة ، حتى لقد باءوا بغضب وسخط من الله ، فأذاقهم الهون واذلهم بعد عز ، وأسقطهم بعد منعة ، وقطعهم فى الارض ، وسـاقهم الى الأسر ، وبدد ملكهم ، واعادهم الى ربقة الأسر ومرارة العبودية ، وقســوة المهانة والتحقير ..

ثم شاءت ارادة العلى القدير ، بعد هذا أن يجدد ما خلق من الشريعة الكبرى ، وينشرها على العالمين ، بعـد أن ضاعت اصولها ، بل وضـاعت « **الألواح المقدسة** » **نفسها ، وضاع « تابوت العهـد » وما كان فيه وجرؤ** الرقيق المهين — وهو فى ظلال الأسر — أن يبتدع لنفسه كتابا ، وينسج حول « الوصايا » وصـايا من وحى الحرمان والذلة ، ويختلق كتابا حرف الكلم فيه عن مواضعه ، وكان فى مجمل سرده للعهود بعد « موسى » عليه السلام لا يروى غير قصة عدوان مستمر ، كما صـورته عقليـات ذليلة أرادت أن تعوض الاحساس بالمهـانة فى تصـوير مضطرب ، حشدته فى الكتاب يدمغ هـؤلاء العـادين بالاثم ، ويترجم عمـا تنطوى عليه قلوبهم من كراهيـة وشر وبغضاء للناس أجمعين ..

وشاءت ارادة العلى ، امام هذا كله ، وأمام العدوان الفكرى الذى تم والاجتراء على جلال الكلم ، والاقدام على تحريف ما جاء به أن ينشر الحق ويعلى كلمته ، ويظهر آيات كتابه ، فبعث بها كلمته ومسيحه «**عيسى بن مريم**» لينشر من جديد صحف ابراهيم ، ويجدد رسالته ، وامامته التشريعية على الناس جميعا ، وينقى صحف موسى مما شابها ليعود الأصل الى حقيقته ، ويعرف بنو اسرائيل دينهم الحق فيعودوا اليه نادمين مستغفرين محاولين تدارك ما فات ، عسـاهم يتجمعون من جديد على كلمة الحـق الصراح ، ولكنهم .. وساعة علا فى مجتمعاتهم صوت المسيح ، عاودهم التمرد وتملكتهم روح الشر ، وعاودهم شيطانهم القديم فرجعوا الى ما ظن الناس انهم قد تخلصوا منه ، واذا هم وبكل آثامهم يبعثون من جديد ، هدامون ، قسـاه ديدنهم البغى ومنهاجهم العدوان ، أجرياء على الحق أنصارا للباطل ، يكذبون الصادقين ، ويكيدون لأهل الاصلاح ..

وكذب احبار اسرائيل وكهانهم « عيسى » ثم جادلوه وحاجوه ، فاسكت حقـه باطلهم ، وكشف حقائق نفوســهم ، واوقفهم امامـه عاجزين حيارى

وقد انعكست عليهم اضواء الحقـائق النورانية التى سرعان ما تواروا عنها واسرعوا الى الظلمات كالافاعى او كالخفافيش الباغية وراحوا يحاربون بوسائلهم فى الظلام ، فتربصوا بداعية الاصلاح وقطعوا عليه الطرق ، فلما ضاقت بهم الحيل ، وعزت الوسائل ، لم يجدوا غير أن يثيروا عليه سادتهم الرومان المستعمرون فحرضوهم عليه ، وقد صوروه لهم فى هيئة الخارج على جلال الامبراطور ، الداعى الى نقض حكمه والانقضـاض على ما كان له من هيبة وسلطان ..

ووقف الفـكر الروحى فى عالم الناس خـلال تلك الفترة الدقيقة من فترات الصراع الظالم الدنىء فى الأسـاليب ـ موقف الحائر بين تيـارين متضادين كل فى فريقه وحزبه وانصاره ، وكل يؤكد انه هو صاحب الحق وان ما سواه هم دعاة الضلال ..

ولم يطل بالمتصارعين امد الصراع ، اذ ثبت انصار الفكر الجديد فى مواضعهم ، ووقفوا دون معتقدهم ، ونقلوا البصر فيمـا حولهم ، فحولوا البصر عن الشريعة القديمة بما أقحم عليها من آيات البهتان ، واتجهوا الى ما جاء به السيد المسيح من الآيات البينات وسرعان ما اتضح لهم موقفهم ، وبانت معالم رسالتهم ، فعرفوا من هم ، واية أعباء كان عليهم أن يحملوها بعد معلمهم العظيم ، ليكونوا دعاة التجديد الاصلاحى المقـدس وليعيدوا الناموس الى أصله الحقيقى بلا زيف ، ولا أكاذيب ولا ادعاء على الله بما لم ينزل به سلطانا على أولئك الاجرياء القساة العادين ..

واتسعت الهوة بين الفريقين .. وبقى « **القـدامى** » انصـار « **شريعة عزرا** » و « **قراطيس** » الأحبار والكهان ، حيث اراد لهم احبارهم وكهانهم أن يكونوا ، مستمسكين بالقديم ، منكرين للجديد ، معارضين له رغم أنه لم يكن غير مصدق لمـا كان بين أيديهم من أصول الكتاب ، وروح الشريعة الكبرى ـ فلم يجد البنـاة المصلحون المجددون حمـلة تعاليم عيسى الا أن ينفصلوا عنهم فكرا وأسلوبا ، ،ومنهاجا ، فكان ان ساروا وحدهم ، وعلى هدى انجيلهم الذى لم يهـدم النـاموس ، بل اتمه ونقاه من الشوائب البشرية ، واتبعوا طريق معلمهم واطلقوا على انفسهم ، اسم « **المسيحيين** » ثم خرجوا بعد هذا مبشرين ينادون بدعوة الحق ، ويعلمون الناس جميعا اصول الكتاب والحكمة ويجمعونهم على الأيمان بدين الله .. دعوة السلام والاسلام ..

* * *

ومرت دهور .. وتوالت ازمنة ، واذا بالميزان يميل من جديد ، ويأخذ وضعا لم يكن مقدرا له من قبل أبدا ،، فاضـطربت معـاييره ، وضلت احكامه ، واشتطت وجمحت ، واذا ببريق السلطـان يزيغ الأبصار ،

فيحولها عن الغاية ويوجهها الى المصالح الذاتية ، والمكاسب الشخصية وسرعان ما علت راية الضلال ، وعظم أمر الكفر والتزندق ، واذا بورثة الشريعة الجديدة يجعلون من معلمهم وهاديهم ابن مريم العذراء ، ابنا للواحد الأحد الذى لم يلد ، ولم يولد ، ولم تكن له صاحبة ولا شريك فى ملكه واذا بالمسيح وأمه يصبحان فى عقيدة اتباعهما إلهين من دون الله ..

تلكم كانت فكرة لعينة .. ودعوة ظالمة شريرة فى عالم مادى تجرد من الروحانية ، التى تميز بها السيد المسيح عيسى بن مريم ، وجاء بها ودعا اليها .. وذلكم كان هو العالم الجديد بما حوى من أفكار عادية باغية ظلوم ، هى الكفر والضلال وهى الشرك اللعين ــ فلنتركه ذلكم العالم وما حوى فقد تبدل وتغير ، ولنبتعد عنه وعمن فيه من المجدفين على الجلال الربانى ، المجترئين على القداسة والوحدانية وما أنزل الله فى الكتاب من آيات ــ ولنسارع الى أولئك الذين استقروا حول ((**البيت العتيق**)) ، وقدشاءت ارادة الله أن يلحقهم بره وجوده ، فجعل لهم من الوادى غير ذى الزرع ، ((**أم القرى**)) جمعاء ، ومركز العالم المعروف فى ذلك الوقت وقلبه الدافق بالحيوية النابض بالحياة !!

يا للهول !!

ما الذى حدث هنا ايضا !!

هل طغت المادة ، وطمست بريق الروحانيات وعدت على جلال القداسة ، ورانت على العقول والأفئدة ، فضل الهداة الهادون ، جيرة بيت الله وسدنة كعبته ، وحجاب بيته الحرام ، وهم فى حمى كل هذه المقدسات !!

ما الذى حدث .. وأى جديد نراه هنا اليوم !! وماذا دهى الناس حتى سمحوا للضلالات أن تزحف الى معقل التطهر ، فاصبح البيت الذى طهره ابراهيم واسماعيل مستقرا للأوثان ، ومزارا لعبدة الصنم ، ومطافا لأهل الكفر والضلال !!

كيف حدث هذا ، وكيف ارتضاها سدنة البيت ، وكيف فعلها ورثة شريعة ابراهيم واسماعيل ، وكيف دخل الصنم كعبتهم ، فاحتل فيها مكانا تحولت اليه القلوب والأبصار جمعاء فاذا بالناس يسجدون له من دون الله ، ويسألونه الخير ، ورفع الشر ودفع البلاء !!

يقول الرواه والمحدثون ان الحنيفية ملة ابراهيم عليه السلام التى ارسى قواعدها فى تلك الأصقاع ، ونادى بها من بعده اسماعيل وريثه البكر وبنوه ــ قد ظلت عالية المكانة ، سامقة الذرا ، يدين بها الناس

ويؤمنون ، وان الكعبة بيت الله الحرام قـد ظلت المنسك المقدس لأولئك الناس ، فحجوا اليها فى المواسم المعلومة وادوا شعائر حجهم كما توارثوها جيلا بعد جيل ، ثم حدث مع مرور الزمن أن نفذت همة الناس وتكاسلوا عن أداء شعائر دينهم ، وأن بعضهم صعب عليه أداء فريضة الحج ، فأقام لنفسه واهله منسكا خاصا اتجه به الى الكعبة وحاكاها ، ومع تكرار هذا العمل المستهجن ، وتكاثر أعداد القائمين به صار بدعة تمسك بها القوم ، ووجدوا مع شيوعها أن يربطوها من حيث المصير بالبيت العتيق نفسه ، فبقى الظل عندهم وهو المكان المشبه بالبيت العتيق ، وبقيت الكعبة وهى الأصل حيث هى ، ثم نشأت الصلة بعد ذلك وقد تبدت فى اقدام أصحاب البيوت المشبهة الى وضع منحوتات خاصة بهم فى البيت العتيق اعترافا منهم بمكانته ، وترضية فى انصرافهم عن المواسم الدينيـة المقررة ، فلم يلبث البيت أن امتلأ بالمنحوتات والتماثيل الحجـرية التى ظنوا انهم يتقربون بها الى الله ..

ثم .. ومع تردى الفكر ، وانحطاط التصور وجموح العقلية ، وتعاظم امر أصحاب الكهنوت صارت النصب أربابا حيث وضعت ، وصار لكل قبيلة صنمها الذى صنعته ووضعته فى مكانه ، ثم آمنت به ، واقبلت عليه فى مواسم الحج تؤدى له الشعيرة ، وتعيش فى جواره ، وتستمطره جوده وبره ورضاه !!

وهكذا ، انحط الفكر ، وتدنت العقليـة ، ثم جرؤت على وضعـه فى البيت الطاهر العتيق على أنه زلفى الى الله .

الى هذا المنحدر سار اهل ((أم القرى)) ومن حولها من القبائل والناس اجمعين .. وعلى هذه الصورة من صور الانحطاط ، بدت البشرية الجاحدة وقد تنكرت للوحدانية ، وخرجت على جلال الشريعة وضربت بكل كتاب لديها عرض الحائط ، فعاش الناس جميعا فى الضلال والتيه والظلمات وعلت راية الجهالة والتردى ، وانحطت المدارك فى كل مكان ، ومد الكفر رواقه على الدنيا ومن فيها جميعا حتى من كانوا يتجاسرون ويقولون انهم ورثة شريعة سماوية ، واصحاب كتاب منزل عليهم من لدن حكيم عليم !!

وضجت البشرية ، وضاقت الدنيا بما رحبت .. ضاقت بالنـاس ، وفعال الناس .. ضجت السماء .. وضجت الأرض ، وقـد تعاظم أمر الشيطان الرجيم ..

واسترجع الكون اصداء الماضى .. وانصت فى ساعة ضيقة الى التراجيع الخالدة التى كانت أرانينها تدوى فى مسامع أولى العلم وهم قليل ..

لقد ضاعت الشريعة ، وعدا الانسان الظلوم على جلال الكتاب ، وجرؤ

على العقيدة نفسها ، وان عقلاء الناس ليزفرون فى ضيق من يتمنى وكأنى بهم كانوا يتعجلون الزمان ، لتتكاثف سجف الظلام فيه ، وليتعاظم أمر الشر فى ربوعه ، ولتعلو سامقة خفاقة رايات الضلال والشرك والكفران ، فهذه ولا شك علامات تبشر بقرب ظهور النذير البشير .. دعاء ابراهيم ، وبشرى عيسى ونبى آخر الزمان ..

واقتضت حكمة الله جل وعلا ان يكون محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم هو الرسول الأعظم البشير النذير منقذ الكون من الضلالات وهادى الناس جميعا الى سواء السبيل ، فيهدم حصون الشرك ويجاهد فى الله حق جهاده ، ليعيد الشريعة الى أصلها ، ويجدد ما تهدم من بنيانها الشامخ ويرجع بالكتاب الى أصوله الأولى كما أنزله الله على الرسل الكرام .

وراحت العناية الصمدانية وقد تخيرت المبعوث الاعظم وموعد بعثته ومكانها تعده اكرم اعداد ، وتقومه أروع تقويم ، وتؤدبه أحسن تأديب ، فهدت فطرته السليمة الى الحنيفية فاتبعها بوجدانه ، واستشعر فى نفسه كراهية الصنم ، واحتقار الضلالة والكهانات ، ثم عزف عن مجالى قومه وسوامرهم ، واعتزل كل مجتمع ، ولم يحب غير الوحدة ، ففيها الخلوة الروحية ، وفيها الخلوص ، وفيها اطالة الفكر فى ملكوت السماء والارض ، وتبين عظيم آيات القادر الخلاق المهيمن العظيم ..

واعتاد محمد أن يتحنث على ملة ابراهيم لفترة موسمية كان يهتدى بوجدانه الى ميقاتها ، فيلجأ الى غار حراء ليخلو الى نفسه وخواطره ..

وجاء محمدا الناموس الأعظم ذات يوم وهو فى خلوته التعبدية ، ووصل الى مسمعيه صوت يقول له .. ((اقرأ)) ..

وأصغى الطاهر الأمين الى أول درس توجيهى لقنه الله اياه بصفة مباشرة عن طريق الروح الأمين .. وبدأ يهتدى ويعرف وتتفتح أمام وجدانه الطاهر كل مغاليق الأمور ، وهو يصغى الى أول آيات الكتاب المبين مجدد الشرائع جمعاء ..

((اقرأ باسم ربك الذى خلق .. خلق الانسان من علق .. اقرأ وربك الاكرم .. الذى علم بالقلم .. علم الانسان ما لم يعلم)) ..

ونزل الروح الأمين على محمد بهذه الآيات الأولى من الكتاب المبين فيه ما يعنى أن ارادة الله القادر اقتضت أن يكون هناك الكتاب الهادى أولا وأن يسبق نزول آياته التكليف بالرسالة والقيام بالدعوة ، فنزول آياته التوجيهية الارشادية هذه أولا يشير أنه كان من اللازم أن تسبق فترة البعث ، فترة التوجيه المادى والمعنوى ، ثم الارشاد ، والتعليم ، ثم التعرف على حقائق الكون وأسرار الخليقة لأنه لايكفى ابدا أن يخرج رسول برسالته ، دون أن

يكون هناك أساس من علم لدنى يرتكز عليه هذا الرسول وهو يوجه دعوته الى قومه أجمعين ..

يجب أن يكون الرسول مميزا لا على سواد قومه فحسب ، بل على اهل المعرفة والعلم فيهم ، لان هؤلاء قد يجرءون على مجادلته ، ومقارعته البينة بالبينة فيعرف كيف يقنعهم ويردهم ويلزمهم الحجة ..

من اجل هذا سبق الكتاب تكليف الرسول ، وظهور الرسالة الكبرى ، خاتمة كل رسالات السماء ..

فنزول الوحى على محمد فى الغار اولا ، كان معناه تلقى امر السماء الشخصى ، لتوجيه خاص باعداد محمد من حيث المعرفة فقط ..

ولقد عجب محمد بعد ذلك لفتور الوحى عنه ، وانقطاعه ، واستبد به القلق ، وتولته الحيرة ، فنزول الوحى بالنسبة اليه ، كان ارشادا ، وكان توجيها ، وكان هداية ، وما كان أحوجه فى تلك الفترة الى الارشاد والتوجيه والهداية الى الحق الذى كان يشوق الى الارتواء الكامل من عذب مناهله .

ولعل محمدا الأمين فى تلك الفترات القلقة من فترات الانتظار كان يسائل نفسه .. أهذا هو كل ما أراده لى الله ربى من العلم .. هل أراد لى أن أقرأ باسمه ، هو الذى خلق الانسان من علق .. وان أقرأ أيضا باسمه الأكرم الذى علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم ..

لعله سأل نفسه هذا ، ولعله كان يرد على لهفة نفسه القلقة ، بقوله انه ما دام العلم قد تقرر عن طريق القلم واعتبار القلم وسيلة لاثبات هذا العلم ، فان القلم لن يكف عن التسجيل ، وانه سيتلقى مزيدا من فيوضه وآثاره ..

ولا يدرى احد بعد هذا الى كم من الزمن فتر الوحى وكم من الوقت مر بمحمد وهو ينتظر مزيدا من التوجيه الشخصى والعلم اللدنى ، لاعداده للأعباء ، وشحنه بطاقات من العلم والعرفان ..

لا يدرى أحد كم مر من الوقت بين انقطاع الوحى ثم معاودته النزول بعد ذلك ، ولا باى آيات بينات محكمات من كتاب الله نزل بعد ذلك ، ولكن الغالب انه نزل بعد فتوره ، وبتوجيه خاص آخر فيه مزيد من الابانة والمعرفة .

واذا كانت اغلب الروايات قد اجمعت على ان آيات ((**والضحى والليل**)) كانت الآيات التالية بعد ((**اقرأ باسم ربك الذى خلق**)) فاننا نقف أمام هذه الآيات متدبرين لنرى انها خالية من التكليف بالرسالة أيضا ، أو الخروج بالبلاغ المبين ، وانها انما كانت تكليفا خاصا للعلم والمعرفة بالحقائق التى

شغلت تفكير محمد ، ولم يجد لها عنده من جواب ، فهو قد خشى أن يكون انقطاع الوحى وداع له ، كما خاف أن يكون الله ربه قد قلاه ، واذا باليقين ينزل على قلبه .

« والضحى والليل اذا سجى .. ما ودعك ربك وما قلا .. »

اذا فلا وداع ولا قلا ولكن .. درس فى الصبر والانتظار والترقب : ثم ها هى ذى تتكشف الأسرار فى قوله تبارك وتعالى بعد أن أقسم له بالضحى والليل اذا سجى ، انه ما ودعه وما قلا .

« وللآخرة خير لك من الأولى ، ولسوف يعطيك ربك فترضى .. »

وهكذا عرف محمد حقيقة اخرى .. حقيقة كان يجهلها قبل أن يأتيه هذا اليقين هى حقيقة الحياة الأخرى .. حقيقة البعث والنشور .. حقيقة الآخرة التى هى خير له من الأولى .. ثم ها هو ذا يتلقى فى جملة ما تلقى بشرى ارتاح لها قلبه واطمأنت بها نفسه ، وقد عرف أن الله سوف يعطيه فيرضى ..

سيعطيه مزيدا من الرضى ، ومزيدا من التوفيق ، ومزيدا من الهدايةالتى كان يتوق أن يتعرف على مسالكها ليتكشف له ما كان مستغلقا عليه .. وانه ليسعد ويتوجه بالشكر الى ربه وهو يسمع كلامه جل وعلا وقد جاء به الوحى قائلا :

« ولسوف يعطيك ربك فترضى .. »

وهذا الوعد بالأعطيات فى قوله تعالى : « ولسوف يعطيك ربك فترضى » .. سبقه منح وعطايا عديدة يذكرها سبحانه فى قوله لمحمد :

« ألم يجدك يتيما فآوى ، ووجدك ضالا فهدى ووجدك عائلا فأغنى » .

لقد كفاه الله شر حاجة اليتم وذلته فأكرمه وآواه وأوجد له من ابر أهله به من رعى وتولى تربيته ، وأشرف عليه ولبى مطالبه ، ثم كفاه بعد ذلك شر الحيرة والقلق والضلال بين العبادات ، فهدى وجدانه الى الحق ، وأناره بالحقيقة ، وأرشده الى الطريق السوى ، فألهمه أن يتبع الحنيفية ، وأن يخلص فى وحدته الى ضميره المستنير فسيعرف ويعرف ويهتدى الى آيات وحقائق رائعة ، ثم .. وبعد هذا كله وجده عائلا .. مسئولا عن أسرة كاملة فأغناه وهو سبحانه الغنى الحميد ..

وبعد التذكير ، وذكر النعم السابقة ، جاء التوجيه الحاسم الى أصول الرحمة وامهات الحنان وأسس التعاطف فى قوله تبارك وتعالى لمحمد :

« فاما اليتيم فلا تقهر ، وأما السائل فلا تنهر ، وأما بنعمة ربك فحدث » ! !

واستمرت آيات الكتاب فى نزولها بالتوجيه والارشاد ، لاتمام اعداد النفس العظيمة للتبعات القادمة ، حتى يستبين للمجاهد الأعظم طريقه الذى أراده الحق له ولكن .. هل كان فى هذه الآيات توجيه أو تكليف ، أو أمر ربانى ، بتحمل تبعات خاصة بالبعثة ، أو المجاهرة بالرسالة ! !

لا .. لم يكن الأمر قد صدر بعد ، ولهذا ظل محمد حيث هو بين تحنثه فى الغار مرة وتلقيه الوحى وآيات الكتاب مرة ، والترقب والانتظار مرات ومرات ، حتى كان اليوم الذى لم يكن يعلمه غير الله .. ورغم هذا لم يصدر الأمر صراحة بالخروج والجهاد بل سبقته تمهيدات للمجاهد العظيم نفسه فيها اشعار بالتبعات القادمة منها :

« يا ايها المزمل .. قم الليل الا قليلا .. نصفه او انقص منه قليلا .. او زد عليه ورتل القرآن ترتيلا .. »

ثم .. وبعد هذا .. كان نذير الاعداد .. وشارة الاستعداد نفسه فى قول الحق سبحانه لمحمد : **« انا سنلقى عليك قولا ثقيلا .. »**

فالقول الثقيل الذى وعد الله محمدا بأنه سوف يلقيه اليه ، هو ولا شك عبء الجهاد ، وعبء الدعوة ، وعبء الرسالة ، ثم عبء « **القول** » الخالد نفسه ، وهو « **الشريعة** » وهو « **الكتاب** » الذى سيكون سلاح محمد القاطع فى المعركة المنتظرة .

فثقل القول هنا يحتمل أكثر من تأويل وان فى الاشارة بان ثمة قول ثقيل سوف يلقى الى محمد فيه ما يعنى أن التبعات القادمة ، وهى أقوال وتوجيهات وأوامر ، ستكون ثقيلة ولا شك ، وثقلها يتبدى فى الاشعار بثقلها ، وثقلها هو خطورتها وجلال أمرها وتعاظمه وانها ليست فى شىء كغيرها من الأقوال والأوامر والتوجيهات ! !

وحتى تلك الفترة من فترات الاعداد الذهنى للأمر الخطير القادم ، لم يكن محمد يعرف عن أمر الرسالة شيئا ولكنه بدأ يعرف حقائق ، ويتكشف له غموض طالما دق على الأفكار ولم تصل الى مثله عقول الناس فى ذلك العصر ..

لقد عرف محمد قبلا أن هناك آخرة ، وانها خير له من الأولى .. ومع آيات سورة المدثر ها هو ذا يعرف مزيدا من مستغلقات الأمور ودقائقها ..

« واذكر اسم ربك وتبتل اليه تبتيلا .. رب المشرق والمغرب لا اله الا هو فاتخذه وكيلا .. »

الله أكبر .. تلك والله لبابة المعرفة ، وأصول العلم الأعظم الواجب أن يكون محمد على علم به ، وهو انه يجب أن يذكر اسم الله ربه دائما ، وأن يتبتل اليه تبتيلا ، وأن يستعينه فى كل أموره ، فهو رب المشرق والمغرب الذى لا اله الا هو ..

وهـذه — لو اعتبرنا ان هـذه الآيات كانت توجيهات خاصة لاعداد المجاهد الأعظم — هذه أول اشارة أو بارقة من نور المعرفة يتلقاها محمد بالوحدانية ، اذ يقـول له الله سبحانه عن الذات العظمى أن لهـا المشرق والمغرب وانه لا اله الا هو .. وتلك هى الحقيقة التى اهتدى اليها الوجدان الظاهر من قبل ، ثم ها هو ذا يتلقاها بصورة تأكيدية ليعرف من هو الله ربه الذى اتجه اليــه من قبل ، والذى طولب اليـوم ، بأن يتبتل اليه ، فهو رب المشرق والمغرب الذى لا اله الا هو ، وأن عليه أن يتخذه وكيلا وحسيبا وعونا وملاذا وحمى فيسأله وحـده ولا يسـأل سواه ، ويستجيب لأمره وحده ، ولا يستجيبه لأمر أحد سواه ، فهو القوى ، وهو المستعان وهو وحده القادر ، ولا قادر فى الكون غيره ..

أما وقد تبدت الشارة ، وتم الاعداد ، ونزل الكتاب واستقرت دعائم الأمر ، فلا أقل من أن يدور الفلك دورته ليقف أمام الحادث العظيم ويصغى الى الأمر الأجل :

« يا ايها المدثر .. قم فانذر .. وربك فكبر .. »

لقـد كان التوجيه الربانى قبل هـذا الى « المزمل » بترتيب أوقات التعبد ، وتنظيمها ، ثم بالارشاد الى سبل التعبد نفسها وضرورة الاتجاه الى الله بمجامع القلب والعاطفة ، فهو رب الكون ومن فيـه وما فيـه من مشرق ومغرب وانه لا اله الا هو ، ثم .. وها هو ذا التوجيه الربانى يتجه الى المدثر المنتظر فى بيته ، ليقوم ، ثم ينذر وهو يكبر لله ربه ..

جاء الأمر بالانذار .. بالبلاغ والتبليغ ، وتلك كانت البداية ..

لقد ظهر الرسول .. رسول الله وهادى الأمم جمعاء الى الحق والنور .. ظهر وجاءه الأمر بالخروج .. فبدأت بعثته ومع بداية بعثته .. اكتمل وجود الرسالة ، وصحب مسببات وجودها المقدسـة ، واستقامت عمدها الشامخة ، وثبتت ركائزها ، فالكتاب .. قد نزلت سوره الأولى الهادية ، وبدت معها توجيهاته اللدنية العظمى ، فتجلت أهمية الكتاب باعتبار انه اقوى سـلاح موجه فى معركة الانذار والجهاد بما حوى من آيات بينات محكمات ، وبما علم وأرشد الى آفاق من المعرفة والفهم تكشفت معها أسرار الوجود ، وبما كان لسوره الأولى من قدرة على التوجيه السديد والارشاد المحكم .

وبهذا .. وما دام غيث الكتاب قد بدأ ينهمر ، وما دام الرسول الكريم قد اعد وتهيأ وتزود بكل زاد وسلاح لتحمل أعباء النضال الأعظم ، فليس على الرسالة بعد هذا كله الا ان تخرج الى العلن ، وتشق طريقها الى النـور والى قلوب النـاس أجمعين ، وليبـدأها رسـول الله صـلى الله عليـه وسلم هنا ..

((وأنذر عشيرتك الأقربين ، واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين ، وقل اني أنا النذير المبين ...))

وكان هذا هو الأمر الأول ، وهو أمر محدد المعـالم ، مبين الحدود ، يبـدأ بالانذار ثم بالتواضع والرحمـة ولين الجانب لمن يستمع ويؤمن ، ليطمئن الى الدعوة والداعية الذى كلف بالاستمرار وأن يقول للناس من أهله وعشيرته انه هو النذير المبين ...

وعلا صوت النذير ... ودوى صوت رسول الله صلى الله عليه وسلم بأول صيحات الهدى الداعية الى طريق النور ، وتجمع من كانوا يعيشون فى ظلمات الجهالة والضـلال والكفر واصغوا فى دهشة وقد وجدوا أن للصوت الذى دوى ، صدى فى أعماق نفوسهم ، بل أصداء وأصداء سرعان ما قربت الى الأذهان حقائق أمنيات عزيزة طالما طوفت بأخيلتهم ، بل أخيلة الحكماء أهل الفكر منهم ، خلال سـاعات الضيق والتمرد على كل غريب مستهجن قبيح كان يسود المجتمع المكى فى تلك الآونة ويعمه وغيره من مجتمعات قريبة وبعيدة بالفساد والانهيار ...

واصغت قريش كلها ... اصغت الى الداعية الأعظم .. الى الهـادى الى الحق ... الى الجرىء الشجاع واول الثائرين على الجهالات ، وما كان اجمل وأروع الانصـاتة الأولى الى قوله وكلمـاته .. التى انطلقت دافقـة بالحيـاة .. نابضـة بالحيوية .. نقية كقطرات الندى ، تنعش الزهر فى أكمامه ، وتوقظ الورود من احلامها ، فتتفتح للوجود الضـاحك ، وتهلل للحياة الحلوة وقد بدت كعروس مجلوة ساعة البكور ، وغلسة الليل تنجاب عن صدر الدنيا لتفسح المجال لمواكب النور ، ونورانية الاشراق كانت كلمات الصادق محمد بن عبد الله التي تفتحت لها القـلوب قبل الاذان فيها دبيب السعادة ورنين البشارات ...

لقد تكلم محمد .. انذر وبشر .. ودعا ، ونادى ، وقال كلمـة الحق الصراح وما كان اسعدها ((أم القرى)) ان شاء لها الله ان يقـوم فيها النذير البشير ، وان تبدأ منها دعوته الى الله ...

تكلم محمد ، بما كانت تختلج به النفوس وتتخيله ، وان لم تعرفه ولم تسمع به ولكنها تصورته ...

تكلم محمـــد بدعوة الحق ، ومحمد هو الصــادق الذى شـــهد الجميع بصدقه واجمع الكل على امانته ... وهو بعد هذا من تعرفه قريش كلها ، فهو الشاب الذى حمى ذاته من طيش الشباب ، وهو الرجل القويم الخلق ، العف القول ، الكامل الصفات ...

تكلم محمـــد وقد وقف بين قومه فى تلك اللحظة على نشز من الأرض يدعوهم جميعا الى الاصغاء اليه جيدا وقد عينهم ، قبيلة قبيلة ، وعشيرة عشيرة ، وقوما بعد قوم ، يدعوهم الى كلمة الحق ...

كلمة الحق ... ودعوة الحق ... ونداء الحق ، ليتخلفوا عن أنفسهم الباطل ، ويبرءون من الوهم والضلال ، ويكفرون بعبادة الصنم العاجز الذى صنعوه بأيديهم ، وأقبلوا عليه فى غباء يسألونه أن يوليهم النفع ويمنع عنهم الضر ...

دعوة وجدت أصداءها ولا جدال ، كما وجدت وقعها المستقر فعلا فى حنايا كل القلوب ، فهى الحلم وقد استحال حقيقة ، وهى دعوة حق ، ارشدت الى حق ولكن ...

ولكن ... ان ما شـغل الغفـــاة الضـــالون واثار حيرتهم انهم اذا هم استجابوا للدعوة ، وآمنوا بما دعت اليه ، وكفروا بالصنم العـــاجز الذى صنعوه فبمن اذا يؤمنون ... وأى سبيل بعد هذا الايمان يتبعون ... والى اى رحاب يتسارعون ... والى اى سماء تتعالى أدعياتهم والضراعات !!

وفى سرعة مذهلة جاءهم صوت النذير الهادى يدعوهم الى خير الدنيا وعز الآخرة اذا هم شهدوا معه بأنه لا اله الا الله واحدا لا شريك له .

ومرت فترة خاطفة ران خلالها الصمت والذهول على سوامر قريش ومن فيها من السادات ... مرت فترة خاطفة كانت على قصرها ، كأنما هى الدهر الطويل الآماد ... وأصغى الغفاة السادرون فى الغى والجهالة وقد تولاهم ذهول حاروا فى تفسير معانيه ...

انها لحظة لها ما بعدها ... لحظة كانت هى الحد الفاصل ثم ... هى البـــداية بعـــد ذلك الى المنطلق الذى لا يعرفـــون الى اى جانب فيه ينطلقون ...

وانتبهوا فى سرعة ... ومرت مواكب الدنيا أمام عيونهم .

ان الصــــادق الأمين يدعو الى الله ، والى الاعتراف بوحدانيته المطلقـــة المنزهة عن الشرك ، المتعالية عن المشابهة ، وانه هو رسوله اليهم ... من سيبلغهم الأوامر والتوجيهات اللدنية ، فيعرفون ما لهم وما عليهم ، ما يفعلون وما لا يفعلون ، فهو والحالة هذه واسطة التبليغ بينه تبارك وتعالى وبينهم ،

منه جل جلاله يتلقى واليهم وباسمه العظيم يبلغ ، وهذا هو ما يكرهون أن يحدث أو ان يكون ...

ومعنى هذا ولا شك هو ان وضع محمد فى مجتمعهم الطبقى سوف يتغير ، وان مكانته فيهم سوف تعلو بحكم مركزه الدينى الخطير ، حتى لتصل الى ابعد مما يتصورون ، وبهذا يصبح محمد هو كل شىء فى وجودهم وحياتهم وفى مجتمعهم نفسه ، ويصبحون هم لا شىء الى جانبه ... يصبحون نكرات وأقزام ، تتضاءل الى جانبه وما سوف يصل اليه من مكان سامق حتى ليصبحون أحقر من أتباع وأذل من أعوان ، وأقرب ما يكونون الى عبيد يأتمرون بأمره ، ويحنون أمامه الرءوس مقرين بالطاعة والخضوع ...

وأمام هذا التصور الضال الخاطىء اللعين ، استبدت بالقوم عصبيتهم وتعصبهم وازداد تعلقهم بالجاه الزائف والمكانة المتوارثة ... وتملكت أولئك الذين كانوا يحلمون بمشرق النور شياطينهم العاصية ، فتمنوا من جديد خلود حياة الضلال ، واستمسكوا بأن تدوم وأن يزداد أمرها تعاظما ، وأن تظل أعلامها سامقة مرفوعة ترفرف فى عالم لا يشرق فيه نور الوحدانية، ولا يستضىء بدعوة الهادى محمد بن عبد الله ...

ذلكم كل ما فهموه بعقلياتهم الجامدة ... وذلكم كان ما أوحت به اليهم الشياطين ، واذا بقريش التى كانت منذ لحظات تصغى مأخوذة الى محمد ، معجبة بما كان يقول — اذا بها تفيق من الانفعال الذى اعتورها ، والشعور الذى ساد أهليها ، وتسرع فى حماقة وحقد لتهاجم النذير البشير الذى ما جاءهم الا بخير الدنيا وعز الآخرة ، وابوا أن يركنوا الى دعوته ثم ما لبثت جموعهم أن تفرقت متباعدة عنه ساخرة منه ، عابثة متطاولة .

وتعود قريش العاصية بعد ذلك الى محمد ، وقد عاد الى نفس مكانه الأول ، يدعو الى الله والى الاقرار بوحدانيته وربوبيته ، فاذا بها تتخذ حياله أسلوبا جديدا ، فيه جرأة وفيه اجتراء ... لقد راحت تجادله وتحاجه وتناقشه وهو يصغى اليهم فى صبر الحليم ، وثقة العارف المطمئن ، الذى ما وقف أمام سؤال ولا عز عليه أن يرد كيد الحاقدين الى نحورهم ، ولكن قريشا لجت فى عتو ونفور وخرجت من دائرة الجدل الى نطاق التطاول والاقدام على العدوان محاولة أن تنال من رسول الله ، ومن دعوته نفسها ...

« **وقالوا لن نؤمن لك ...** » قالوها فى عناد واصرار ودون روية ... فهم لا يريدون أن يؤمنوا لمحمد بحال ، او يصدقوه على اية صورة من الصور ... وانهم ليصرون على كفرهم ولو كان ما يدعو اليه الرسول الكريم هو الحق ... بل لقد كان هو الحق ورغم يقينهم به ، كانوا يحاولون الافتراء والتضليل .

وقالوا لن نؤمن لك .. وقبل ان يتعرضوا لبيانه القوى صلى الله عليه وسلم ، وصلابته ويقينه الراسخ ... قبل أن يتعرضوا لسؤال معجز من أسئلته التى كان يسد بها عليهم طريق التطاول — راحوا يعلقون اعترافهم بالدعوة وايمانهم بها — بمطالب خيالية ...

انهم لم يقولوا فقط : ((**لن نؤمن لك**)) ثم يصرون على ما قالوا ، ولكنهم راحوا يطالبونه بأشياء لم يكن يصعب على الله أن يحققها لرسوله لو سأله اياها ، ولكنه أبى ، ولم يشأ أن يجاريهم فى الاستجابة لمطالبهم خشية أن يتمادوا فيها وربما تجاسروا على طلب ما لا يكون وما لن يتحقق فى يوم من الأيام ...

لقد سـأل بنو اسرائيل موسى وهم فى التيه ((**أن يريهم الله جهرة**)) ، فأخذتهم الصاعقة ... ثم طلبوا اليه أن يجعل لهم أربابا لا من المنحوتات شأنهم فى هذا شأن الأمم التى عرفوها أو مروا بها .

وسأل الحواريون عيسى بن مريم ((**المائدة**)) وكانوا أجرياء متطاولين فى طلبهم اذ قالوا : ((**يا عيسى بن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء ...**))

والطلب فيه تطاول ، وفيه اجتراء ، وعـدوان ، لأن قولهـم ((**هـل يستطيع**)) فيه كفر وفيه عـدم ايمان ، لقـد كان من أهم شروط الايمان الثقة بالخالق القادر ، وعدم الاجتراء على وضعه فى شىء انما يقول له كن فيكون ، وان عيسى ليقول لهم ((**اتقوا الله ان كنتم مؤمنين ...**))

ثم شاءت ارادة الله أن ينزل على الحواريين المائدة التى تمنوا لتكون لهم عيدا وآية كبرى ... واستجاب لهم سبحانه ليثبت يقينهم ، ولم تأخذهم الصاعقة كبنى اسرائيل ، فمطلب الحواريين ، كان أهون معنويا من مطلب ابناء اسرائيل فتحقق لهم ولكن ...

لكن ... ماذا طلب المجادلون الكفرة من الرسول الكريم ...!!

لم يطلبوا مائدة ، ولا هم تطاولوا الى حد الاجتراء بأن يروا الله جهرة ، ولكنهم رغبوا فى وضع محمد فى موضع ينعكس فيه العجز وعدم القدرة على تحقيق ما كانوا يطلبون ...

لقد قالوا ((**لن نؤمن لك**)) ثم اذا هم يكملون القول الجرىء ويطلبون منه أن يفجر لهم فى قلب الصحراء ... فى أرضهم الجديبة ينبوعا ...

((وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا ، أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا ...))

لم يقل محمد صلى الله عليه وسلم ابدا انه صانع أعاجيب ، ورجل خوارق ومعجزات ، بل قال انه داعية الى الله ، وانه يدعو الى الله بالحكمة والموعظة الحسنة لا باظهار المعجزات وفعل الخوارق ، فدعوته دعوة روحية بحتة تقوم على الاقناع والاقتناع ، ولكنهم رغم هذا مالوا الى التحدى وتمادوا فى مطالب غريبة جريئة ، واذا هم يسألونه فوق ما سألوه :

« أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا » ثم .. وبعد هذا ، وصلوا فى الجراة الى ابعد مما وصل اليه ابناء اسرائيل ، فلم يطلب هؤلاء أن يروا الله جهرة ، أو أن يتجلى عليهم بالرؤيا ، بل طالبوا محمدا أن يأتى بالله والملائكة معه ...

« أو تأتي بالله والملائكة قبيلا ، أو يكون لك بيت من زخرف ... »

ثم عادوا يطالبونه بأن يرقى فى السماء ليثبت انه على صلة بالله فعلا ، فاذا ما استطاع أن يحقق هذا الرقى ماديا فان عليه أن يأتيهم على صدق ما صنع بدليل مادى ملموس فى صورة كتاب يقرءونه باتمام هذا الرقى ..

« أو ترقى فى السماء ، ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه ... »

لقد طالبوه صلى الله عليه وسلم بهذا واكثر منه ، فسكت على مضض حتى اتاه أمر الله بالرد الذى يلجم به الكافرين ويسكتهم بأن يقول لهم ا

« قل سبحان ربي ، هل كنت الا بشرا رسولا .. »

فمحمد النذير البشير ، داعية حق ، ورسول اقناع ، ثم انه فوق هذا ليس اكثر من بشر مثلهم يتميز عليهم بأنه يحمل اعباء الرسالة الكبرى الى الناس ليهديهم ، لا ليثير اعجابهم وعجبهم ، ولا ليدهشهم بالغريب المذهل من المعجزات ...

والبشر له طاقة ، ولمقدراته حدود ، لا يتعداها ولا يستطيع أن يتعداها ابدا ، فليس من طاقة البشر ، ولو كان رسولا كريما أن يفجر الينابيع فى الأرض ، أو ان تكون له جنة تتفجر فيها الأنهار ، أو تكون له القدرة على الرقى الى السماء وغير ذلك .

ان الرسول ، صاحب رسالة ، مكلف بابلاغها فى حدود التبليغ والاقناع، وهذا كل شيء فمن أصغى اليه بمجامع قلبه ، لان للدعوة واستجاب لها ففيها الحق وفيها الهدى ، ومن أبى الاصغاء ، فان الله لن يهديه اليه أبدا ...

« وما منع الناس أن يؤمنوا اذ جاءهم الهدى الا أن قالوا ابعث الله بشرا رسولا ... »

إذا فعقدة العقد الكبرى كلها هى فى تخير بشر ليقوم بأعباء الرسالة ، وانها لعقدة مبعثها الغيرة التى تجعل الحاقدين يتساءلون لماذا تخير الله فلانا بالذات لابلاغ رسالته ، وقد كان فلان أو فلان الآخر أجدر بها وأليق منه ، فهذا عظيم ، وذاك ثرى ، والثالث فى منعة من قومة ، اما هذا فلا يملك مالا أو ثراء أو غير ذلك !!

تلكم كانت المشكلة ... وانها لمشكلة كان الناس يرون بعقلياتهم الجامدة ، وتصورهم الحاقد القائم على الغيرة والحسد ــ ان حلها الوحيد هو فى أن يستبدل الله البشر من رسله الكرام بملائكة !!

وكأنى بالناس يعلقون أمر تصديقهم بالرسالة والرسول ، أو ايمانهم بها وبه بأن لا يكون هذا الرسول منهم أبدا ، بل من عالم غير عالمهم ، ومن معادن أخرى غير معادنهم ، حتى لا يماثلهم فى شىء ولا يطاولهم فى حسب أو جاه ، وانه لمطلب عجيب فيه اجتراء ، وفيه تطاول ، وفيه بعد هذا خروج وعصيان وتمرد على شرعة الطاعة الواجب أن يدين بها البشر دون جدال لأوامر الله الذى يرد عليهم فى هذا ، بقوله سبحانه وتعالى :

« قل لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا ... » .

وهنا تبين الاستحالة الخلقية لتكليف الملائكة بأعباء الرسالة ، والقيام بمهمة ابلاغها الى الناس فالانسان قد خلق من طين .. من الأرض بعد أن برد سطحها وفقد حرارته وناريته ، وحكمة خلقه من الطين أن يعيش على ظهر الطين ثم يعود الى الطين فلا يلبث أن يتحلل ويعود الى أصله ، والجان قد خلق من مارج من نار ليعيش فى عوالمه التى لا يعلمها الا الله ، ولتكون له القدرة على تحمل الحياة والوجود فى تلك الأجواء ...

والملائكة الكرام خلقوا من غير طينة البشر ، ليعيشوا فى عوالم نورانية يعلم الله الحق مواد خلقها وتكوينها ، فهم والحالة هذه مخلوقات نورانية متميزة بصفات ومزايا ليست للناس وليست للجن أو الشياطين ..

والملائكة الكرام ــ وهم رسل الله ، وحملة اوامره ، والمكلفون بامره تبارك وتعالى بمهام الخلق والخليقة ــ هؤلاء الملائكة لا ينزلون من سمواتهم الى عوالم البشر الا بامر الله ، وبامره تعالى فى هذا الشان يتمثل فى ان هذا النزول وهو تكليف منه سبحانه يستتبعه ولا شك تغيير تام لصفاتهم الخلقية وطبائعهم النورانية بمعنى انهم يستحيلون بامره تعالى ، الى بشر بما تعنيه كلمة البشر من طبائع تكوينية وصفات لتكون لهم القدرة على السير فى الأرض ، ولتكون للناس القدرة على رؤيتهم دون رهبة أو خوف

والله القادر حين ارسل الى ابراهيم رسله بالبشرى ، انما أرسلهم فى هيئة بشرية فدقوا بابه فى صفة الضيوف الطالبين قراه ، فأتاهم عليه السلام بعجل حنيذ ((**فلما رأى أيديهم لا تصل اليه أوجس منهم خيفة**)) ..

وعدم وصول أيدى الملائكة الى قرى ابراهيم الذى قدمه لهم ، يدل يقينا على انه رغم اتخاذ الملائكة للهيئة البشرية ــ الا انهم لا يماثلون البشر فى الطبائع ، فلا تمتد أيديهم الى ما يأكلون أو يشربون .

((**ونبئهم عن ضيف ابراهيم ، اذ دخلوا عليه فقالوا سلاما ، قال : انا منكم وجلون ، قالوا : لا توجل انا نبشرك بغلام عليم**)) .

وبعد أن يتلقى ابراهيم عليه الصلاة والسلام بشرى الملائكة ، ويحس أن وراء قدومهم بهذه الهيئة البشرية أمر جلل ولا شك ، فيقبل عليهم سائلا مستوضحا الأمر :

((**قال : فما خطبكم ايها المرسلون ، قالوا انا أرسلنا الى قوم مجرمين، الا آل لوط انا لمنجوهم اجمعين ، الا امرأته قدرناها فى الغابرين ..**))

وترك الملائكة ابراهيم ، وذهبوا الى قوم لوط .. الى القرية الظالمة الخاطئة .. ودقوا باب لوط وهم فى نفس الهيئة البشرية .

((**قال : انكم قوم منكرون .. قالوا : بل جئناك بما كانوا فيه يمترون، وآتيناك بالحق وانا لصادقون .. فاسر باهلك بقطع من الليل واتبع ادبارهم ولا يلتفت منكم أحد وامضوا حيث تؤمرون ..**))

والله القادر على كل شيء ، والذى يقول للشيء كن فيكون ، حين أرسل الروح الأمين الى مريم بكلمته لم ينزله اليها على صورته الملائكية ((**فارسلنا اليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا ..**)) .

وتمثل الروح الأمين للعذراء النقية المطهرة رضى الله عنها فى صورة البشر المكتملة الصفات البشرية والهيئة الانسانية أمر كان من اللازم أن يحدث ساعة تم النزول ، وجاء أوان الرسالة ، ذلك لأن الطبيعة البشرية نفسها ــ وقد رأت الناس امورا لا يعلمها الا الله ــ لا تتحمل رؤيا الملائكة الكرام على صورهم النورانية الحقة المكتملة ، وهيئاتهم التى يعرفون بها فى السموات ، وأن تشكلهم رضوان الله عليهم بصور بشرية فيه تقريب وتبسيط للمشاهدة والرؤيا ، وفيه اشعار لمن سوف يراهم بالاطمئنان والراحة الى أولئك القادمين من السماء ..

وبالرغم من أن الروح الأمين قد جاء العذراء الطاهرة وهو فى صورة بشر سوى ، الا أنها أوجست منه خيفة ، واحست بالخوف منه ، وشعرت أنها أمام مخلوق غير عادى ربما كانت تسبقه هالات من شخصيته أو كان

فى مقدمه نفسه اشعار بأن القادم ليس انسانا عاديا حتى لقد سارعت مريم تقول له :

« انى أعوذ بالرحمن منك ان كنت تقيا .. » .

فالخوف والتعوذ كان لسببين ، أولهما الاحساس الصادق بأن القادم مخلوق غير عادى ، وثانيهما الخوف من أن يكون من أقتحم عليها وحدتها طامع أو شرير .. وهنا والروح الأمين رضوان الله عليه فى صورته البشرية يسارع بأن يبعث اليها الهدوء والطمأنينة ، فتهدأ اليه وتشعر بالراحة وتصغى اليه وقد عاد يقول :

« انما انا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا » .

فجبريل عليه السلام قد نزل فى صورة بشر سوى ، ولم يبلغ رسالة القادر سبحانه وتعالى الى العذراء بعد أن اطمأنت اليه الا وهو فى صورته البشرية هذه .

والروح الأمين بعد هذا كله ، كان ينزل على سيدنا رسول الله وهو فى صورة بشريه أحيانا .. وكان الناس يرون ذلك البشرى القادم فى بعض الأوقات وهو يطرق باب الرسول صلى الله عليه وسلم وقد تشكل بصورة واحد منهم .

وقد روى كتاب السيرة انه بعد النصر الذى أيد الله سبحانه وتعالى المؤمنين به فى واقعة الأحزاب أن دحية الكلبى قدم على الرسول وانفرد به فى حديث خاص ، أذن النبى الكريم بعده بضرورة الرحيل بالمسلمين جميعا لأداء صلاة العصر فى « بنى قريظة » اليهود الخونة الذين لم يكونوا أمناء .. وأنه صلى الله عليه وسلم قال بعد هذا أن الذى أتاه لم يكن دحية الكلبى فعلا بل كان جبريل عليه السلام فى صورة دحية !!

فالملائكة الكرام أمام هذا ، رسل عوالمهم ، ودعاة دنياهم العلوية ، ولا يكفى أبدا أن يكونوا ملائكة مقربين من العرش حتى تكون لهم القدرة على اجتياز العوالم والحياة فى شتى الأجواء ، وانهم بطبيعتهم يعيشون فى دنياهم منها وهى منهم ، أما الأرض فلها أهلها ولها سكانها وطباعهم واحتمالاتهم ومن هؤلاء البشر يجب أن يخرج النذير الرسول .

« قل كفى بالله شهيدا بينى وبينكم انه كان بعباده خبيرا بصيرا .. » .

ويكفى بعد هذا أن يكون الله هو الشهيد الحق بين الرسول الكريم وبين جموع المكابرين الكافرين وهو سبحانه أعلم بعباده ، يعلم ما تنطوى عليه الأنفس وما تخفى الصدور ، ويعرف الضال والمضل والمكذب والمنكر والمصر على كفره وضلاله ، فيؤاخذ الجميع بذنوبهم ويأخذ بناصيتهم يوم لا ينفع

الا العمل الصالح والايمان الحق العميق ، واتباع ما بعث به الله على رسله الكرام ..

((ومن يهد الله فهو المهتد ، ومن يضلل فلن تجد لهم أولياء من دونه ..))

ثم ماذا يحدث للمكذبين بعد هذا .. وبعد التكذيب والمكابرة والعناد.

((ونحشرهم يوم القيامة عميا وصما ، مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيرا ..)) .

فالعذاب واقع .. والعقاب مستمر ، والسعير خالد للمكذبين ..

تلكم كانت صورة ، صورت فى صدق كامل صورة من صور أعباء الرسالة التى يتحملها سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفيها تبيان حق لمدى ما لقيه من عنت فى ابلاغها ..

تلكم كانت الرسالة ، وذلكم كان جهاده الأعظم صلى الله عليه وسلم ، فلم يهن ، وما داخل اليأس قلبه ، ولا عرف القنوط الى نفسه العالية من سبيل ، حتى ابلغ رسالات الله وعلى أروع صورة ، وأتم كمال ، من شتى الوجوه ..

فالرسالة المحمدية كانت اعباء فوق اعباء ، وتبعات ثم تبعات ، ومصاعب فى اثر مصاعب ، ثم جهاد مستمر ودائب ، جهاد للنفس ، وجهاد فى سبيل الله ..

ومحمد صلى الله عليه وسلم كان خير من حمل التبعات الجسام ، واعظم من وقف دونها مجاهدا ، وأتقى قلبا ، وأخلص نية ، واطهر سريرة ، وأعظم ايمانا وأسمى ثقة فى نصر الله العظيم ، وعلى تلك الصورة الدائبة كانت رسالته وذلكم كان شانه فى تحملها والخروج بها .. ثم .. هاكم كان الكتاب .. النور الأسنى ، والدعامة الوطيدة والعدة والسلاح المقنع الذى استطاع فى يسر وفى اعجاز أن يحقق النصر ما يمكن أن يصل اليه سلاح الوجود ..

وفى ذلكم الطريق اللاجب ، غير المفروش بالورود والأزهار والرياحين العبقة ، والذى لا ظلال فيه ولا خمائل ولا ايك معروش اخذت الرسالة الكبرى وجهتها ، وسارت الى هدفها الأسمى تنتقل من صعب الى ما هو اكثر منه صعوبة ، ومن مكذب شرير ، الى مخادع عتل زنيم لا يريد أن يؤمن ويأبى أن يرى نور الحق الوضاح ..

وراحت الرسالة مع مسير الزمن تتدرج فى مدارج المتاعب والأهوال تقطع مراحل الجهاد المضنى الشاق حتى وصل بها سيدنا رسول الله الى

حيث شاء الله أن يصل ، فآمن له وصدق بها عبدة الصنم ، ولم تلبث من بعدهم أن اتجهت الى غيرهم من الضالين من أهل الكتاب ومن اليهم من المشركين .

وشاء الله ان تتعالى كلمته ، وأن تلين لدعوة محمد القلوب ، فدخل الناس فى دين الله افواجا بعد أفواج ، ومللا بعد ملل ، حتى اكتملت الشريعة واستقرت حيث أراد لها الله الحق أن تستقر لتكون مانعة جامعة تنتظم ما سبقها من الرسالات جمعاء ، بعد أن نسختها وأعلنت كلمة الحق والهدى والوحدانية المتسامية عن بهتان الشرك والاشراك ، فوحـــدت بذلك بين العابدين جميعا ..

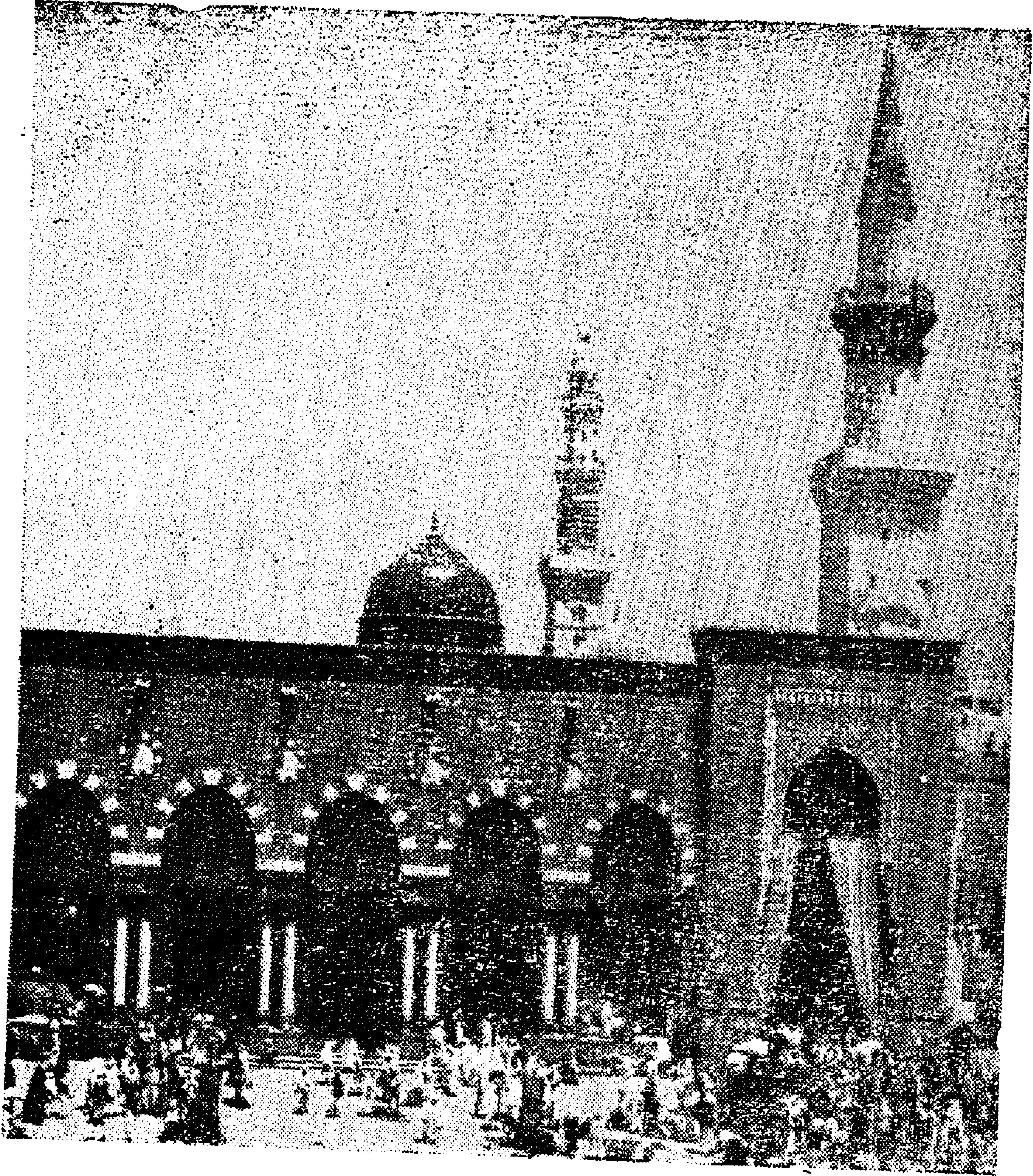
« اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى ، ورضـيت لـكم الاســـلام دينا » .

والرواة وكتاب السيرة ، حين يدعون أن أحد كبار الصحابة قد بكى ساعة نزول هذه الآية الكريمة ، وأن الرسول قد سأله ما يبكيه ، فاجاب انه ليس بعد التمام الا النقصان .. ادعاء غير مقبول شكلا ولا موضوعا ، وقول يجانب الحقيقة ، وليس لعقل أن يتقبله ، فهذه الرسالة الكبرى .. رسالة محمد عليه الصلاة والسلام ، ليست فى واقعها وحقيقتها غير رسالة الاتمام والاستقرار والتكميل ، وسد الثغرات ، واكمال ما عدا عليه الأجرياء وما حرفه الأحبار وأصحاب الكهانات ، من الكلم ، واتمام الناموس الأعظم الذى كانت رسالة عيسى عليه السلام المقدمة لاتمامه وتصحيح أوضاعه ..

وبهذا لا يمكن أن يكون فى معنى قوله تعالى « **وأتممت عليكم نعمتى** » ما يعنى انه بعد الكمال نقصان لأن الله الحق لم يبعث محمدا بدينه الا ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون ، واتمام النعمة والحالة هذه بعد اكمال الدين ، هو ايجاد ركائز التبعات وتبيان رسائل الجهاد فى سبيل الله ، فما دام الدين قد كمل تماما ، وتمت النعمة باكماله فعلى كل من آمن وصدق واهتدى الى الاسلام أن يبشر بدينه ويدعو اليه ، ويستكمل سره حتى تتم النعمة وتعلو كلمة الله على الناس أجمعين ..

هذا ما أراده الله لدينه ، وهذا ما نادى به الثائر المجاهد محمد رسول الله فعصر النبوات انتهى مع بعثه وخروجه ، ولكن عصر الرسالات مستمر على طول الزمان ما دامت الشريعة قائمة كاملة تامة ، وما دام الكتاب واضح المعالم محدد الأهداف ، وما دامت دعوة الفضيلة والحق مستقرة فى أعماق النفوس ، فالطريق ممهد لكل مصلح يجعل الكتاب هداه والقرآن نبراسه فالمصلح رسول ، وداعية هدى ونور وحقيقة تصل بالناس الى الكمال .





القبة الخضراء فوق الروضة الشريفة ... على صاحبها أزكى تحية وأفضل سلام من الله والناس أجمعين الى يوم يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين .

لقد جاهد وثبت حيث هو دون ما ملل أو تخاذل أو تهاون ، حتى أدى الأمانة وبلغ الرسالة ، فأى جهاد كان جهاده الأعظم فى سبيل نشر الفضائل واعلاء كلمة الله ...

كبرى الرسالات

((اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون اليوم اكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا)) .

(سورة المائدة)

دوت صيحة الحق فى جوانب مكة ، فارجفت قلوب سفهائها ، ومادت الأرض تحت أقدامهم ، وقد تبدت لهم بالرغم عنهم نهاية ما توقعوها لدينهم ولا لدولتهم من قبل ..

وارتفع صوت بلال عاليا ، مزهوا ، يردد فى قوة واعتداد : **((الله اكبر .. الله اكبر .. اشهد الا اله الا الله واشهد ان محمدا رسول الله ...)) .**

وخشعت الأرض والسماء ، وقد هزتها أصداء الترتيلة الصافية العذبة .. وانصتت الدنيا بأسرها الى الصوت القوى المملوء بالايمان ، المتدفق بحرارة الغيرة والاخلاص لدين الله الحق ، وهو يعلو ويعلو بالدعوة الخالدة : **((لا اله الا الله وحده لا شريك له))** ..

كلمة قالها محمد صلى الله عليه وسلم ذات يوم منذ سنوات عديدة مرت ، فضجت لها مكة ، وأرغى سفهاؤها وأزبدوا وفقدوا عقولهم ، وثارت ثائرات نفوسهم ، وركبوا الرءوس ، وجردوا السيوف ، واصلوها حربا لا هوادة فيها ولا رحمة على الداعى الى وحدانية الله ..

ذاك زمن ولى .. وصحائف لم يعد لها وجود فى كتاب الزمن ، فاليوم غير الامس ، ولم تعد شهادة التوحيد همسة لا تتعدى الشفاه ، بل ترنيمة عالية حلوة ، ترددها الآفاق ، وترجف لسماعها القلوب وقد نصر الله دينه ، واعلا كلمة الحق ، واتم على رسوله صلى الله عليه وسلم نعمة الفتح الاكبر ، واحل له البلد الحرام ، ودخل مكة فاتحا منتصرا ، ليقضى على دعوة الضلال ويبيد من الوجود عالم الصنم ، ويجمع الناس كلهم على الاقرار بالوحدانية الخالصة ، وشهادة انه لا اله الا الله ، وان محمدا رسول الله ..

ودخل محمد الكعبة .. بيت ربه الذى نصره .. فحطم الأصنام .. حطم اللات والعزى ومناة ، وأباد هبل وسواع ، وأظهر للكفار أن ماكانوا يعبدونه لا شيء على الاطلاق .

واعلن عدوه الأكبر وصهره أبو سفيان اسلامه ، فأكرم النبى وفادته وأعلى مقداره ، وجعل المنادى يعلن فى الناس ان من دخل الكعبة فهو آمن ومن دخل بيت ابى سفيان فهو آمن .

ثم ظهر البيت العتيق ، ورفع اسسه ليكون مثابة للناس وأمنا ، ونادى فيه المنادى يدعو الى الصلاة ، فحقت كلمة الله وصدق وعده لنبيه بالنصر ، وسمعت قريش وهى كارهة صوت مؤذن الرسول وهو فى البيت الحرام ينادى :

« الله أكبر .. اشهد الا اله الا الله .. »

وصاح المؤمنون فى نشوة وفرح :

ـ شهدنا أنه لا اله الا الله .

وعاد المؤذن فى جلال وقداسة يقول :

ـ وأشهد ان محمدا رسول الله .

وعلت الأصوات ثانية تردد فى حماس :

ـ شهدنا شهادة صدق وايمان بان محمدا عبد الله ورسوله جاء بدين الحق والهداية ليظهره على الدين كله .

ودعا محمد اليه أعداء الأمس أولئك الذين كذبوه وآذوه ، وتربصوا به ، واجمعوا على قتله للتخلص من دعوته التى عابت أرباب العشيرة وسفهت احلامها .. دعاهم اليه صلى الله عليه وسلم وهو يومها الظافر المنتصر المتحكم ، فاتوه جميعا صاغرين ، وتجمعوا فى حضرته فى ذلة المغلوب المحطم المعنوية المنكس الراس فى خزى وعار واسى وحسرات ..

كان الموقف رهيبا ضنكا حقا بالنسبة لاشراف مكة ، ورءوس الكفر فيها ، الذين ما تصوروا من قبل أن الدنيا سوف تدور دورتها ، لتقف بهم هذا الموقف أمام رسول الله .. ولا دار بخلدهم أن المهاجر العظيم سيعود الى بلدهم مرة ثانية ـ بعد خروجه بليل ـ على راس عشرة آلاف مقاتل ، باعوا انفسهم رخيصة فى سبيل الله واشتروا بها الجنة والرضوان ..

ابدا ما تصوروا شيئا من هذا ، لكنه حدث .. وأبى الله الا ان ينصر دينه ، ويعلى شأن نبيه ، وان كفار مكة اليوم لأمام محمد فى لقاء غريب ، مالت فيه الموازين وتبدل كل شيء ..

واحنى رسول الله صلى الله عليه وسلم رأسه فى تواضع من يتوجه بمجامع قلبه بالشكر الى الله ، ثم وجه القول الى اولئك الذين دعاهم اليه ، وسألهم فى صوت هادىء رحيم عما يظنون انه فاعل بهم وقد صار اليه الأمر فى مكة ، ودالت دولة الصنم ، وعلت راية الحق الصراح ، وجعل المسلمون يجاهرون بالشهادة ، دون خوف ظالم ، أو بطش كافر .

ـ سؤال سريع مفاجىء يتطلب جوابه روية وتفكيرا طويلين !!

اجل .. ماذا كان يظن كفار مكة أن يفعل بهم محمد الظافر المنتصر عليهم ، وخلفه اليوم الوف والوف يأتمرون بأمره ، ويهرعون الى الاستجابة له ، وطاعته دون نقاش ودون تفكير .. وفى انطلاقة العارف بنفسية محمد الخبير بسجاياه ، قالوا جميعا لرسول الله صلى الله عليه وسلم :

ـ **أخ كريم وابن أخ كريم !!**

اخ كريم .. وابن اخ كريم .. تلكم كانت نظرة رءوس الكفر الى الرجل الذى آذوه ، واجمعوا على التخلص منه .. فهل كانوا يقولونها لو تغير الموقف .. وظفروا هم به ؟!

دون شك لا .. ولكنهم كانوا يعرفون محمدا ، البر الكريم ، الكبير القلب ، العالى النفس ، المتعالى عن الصغائر الدنيوية ، والذى لن تدير نشوة النصر رأسه ، وانه فى يومه هذا ، كما كان فى أمسه .. أخ كريم وابن أخ كريم .. !!

ووصل صوت محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم الى أسماع القوم يقول لهم :

((اذهبوا فانتم الطلقاء)) !!

وهكذا صدر العفو الكامل العام عن قريش واهل مكة جميعا ..

وتفرق القوم وقد اطلقهم محمد بكلماته القليلة هذه ، ليأسرهم بكلماته العظمى ، ويجذبهم اليه بتصرفه الرائع الكبير ، ويتملك قلوبهم ومجاميع تفكيرهم بعطفه وحنانه ، وكرم نفسه .. وراحوا يفكرون فى محمد البر الذى

وصل رحمه ، ويفكرون فى أنفسهم .. فى موقفهم منه .. فى غدهم المظلم الذى أن لم تنر مسالكه اضواء الاسلام فياضيعتهم الى آخر الدهر ..

هذا هو محمد .. وها هم أولاء امامه .. هذا هو الرجل الذى خلق ليجمع القلوب ويسود بفضائله النـاس اجمعين .. وها هم اولاء يرون انفسهم فى مرايا الواقع ، فيحولون الوجوه فى خزى وينكسـون الرءوس فى احساس مرير بالذلة ..

ثم .. راحوا يذكرون اربابهم .. ومرت على شفاههم أشباح ابتسـامات صفراء باهتة ..

أية أرباب .. واية آلهة .. واية معبودات !! انها لم تغن عنهم ، وعجزت عن دفع العدوان عن نفسها ، ثم ها هى ذى تتساقط من عليائها ، وتهدم بأمر محمد وتسوى جباهها بالرمال !!

وراح البعض يعلن اسلامه فى تمن وتقرب للرســول الكريم الذى نزل قوله تعالى عنهم :

« يمنون عليك أن اسلموا ، قل : لا تمنوا على اسلامكم ، بل الله يمن عليكم أن هداكم للايمان ان كنتم صادقين » .

وبدت الحقائق الملموسة لعيون القوم وبصائرهم التى كان قد طمسها الضلال والزيغ ، وعرفوا انهم اضعف من أن يقفوا أمام التيار الجـارف ، وأكثر عجزا من أن يصدوا الزحف الاسلامى على القلوب ، وثبت لديهم امام ما لمسوه ان محمدا لم يفتح مكة بجيوشه الظافرة ، ولم يتملكها بقوة رجاله الفلاية ، ولم يهدم الأصنام بالعنف ، بل فتح القـلوب المتحجرة برحمته ، وتملك النفوس ببره ، وهدم الصنم بكريم سجاياه ، وعظيم خصاله ، ورائع أدبه ...

لقد أدبه الله ربه فأحسن تأديبه ، وكان كما قال فيه عز وجل :

« وانك لعلى خلق عظيم » .

وها هى ذى آثار التـأديب الالهى تؤتى ثمـارها ، وها هـو الخـلق العظيم تبين ثماره فى جو الاحداث الكبرى التى تلت يوم الفتح المبين .. وها هم أولاء عبدة الصنم ينسون احقادهم .. ويتخلصـون من الكراهية والكبرياء ، ويسارعون الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يبايعونه على السمع والطاعة ، ويدخلون فى دين الله افواجا ، وتعتز بهم دعوة محمد ودين الله القويم ، ولم يكن الفضل فى هذا النصر المعنوى المدعم الأسس ، العميق الجذور ، للسيف المصلت على رقاب زعماء الكفر ، أو قوة الفتح المباغت ، أو تعاظم أمر الجموع التى دخلت مكة مكبرة مهللة ، بل لسـمو الخلق ،

وحساسية التصرف ، وحكمة العمل الكريم ، وروعة الاحسان الخلقى وكرم المعاملة ، وحسن اللقاء ..

((فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظا غليظ القلب ، لانفضوا من حولك فاعف عنهم ، واستغفر لهم ، وشاورهم فى الامر ..))

فبالرحمة وحدها تتآلف القلوب النافرة ، وتتجمع الأشتات وتتلاقى ، فالرحمة بلسم القلوب ، ودواء النفوس القلقة المتباعدة .

فاذا اضفنا الى الرحمة التسامح والعفو والتجاوز عن السيئات ، والتغاضى عن الهفوات ، والصفح الكريم والنجدة ، وثبات العقيدة وصمودها وقوة الايمان الحق ، وعرفنا ان هذه الفضائل جمعاء قد تمثلت وتجمعت كلها فى شخص محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لعرفنا سر نجاح الدعوة منذ البداية ، وانتشار الدين السمح شيئا فشيئا ، ووصول أضوائه المشرقة فى يسر واحكام الى ظلمات القلوب التى استضاءت به ، فعز شأن الاسلام مع الزمن واستمرار الجهاد ، ودخل الناس افواجا فى دين الله ...

بهذه الفضائل النورانية التامة .. وبالتوجيه القرآنى الأعظم ، انتصر محمد صلى الله عليه وسلم فى كل مجال دخله ، وكل ميدان طرق بابه ، وها هو ذا تحقق اتمام الفتح الحربى لمكة ، مستقر بيت الله الحرام ، بفتح آخر جليل ، فتح سلمى خالد على الزمن ، هو فتح مغاليق القلوب لتقبل دعوة الوحدانية ، والكفر بالصنم العاجز ، ثم لتشهد بعد ذلك عن صدق وحرارة وايمان بأنه لا اله الا الله ، وان محمدا رسول الله ، وان الدين عند الله الاسلام ، وأنه سبحانه وتعالى فرضه على العالمين كافة ، وقضى به ، وبعث به رسله الكرام أجمعين ، وانه عز وجل لن يقبل من عباده جميعا ، وعلى مختلف دياناتهم ، ومتباين نحلهم وعقائدهم دينا غير الاسلام ..

بهذه الفضائل بشر محمد صلى الله عليه وسلم ، فالاسلام .. دين الله ، راس الفضائل كلها .. وبمكارم الاخلاق استمسك ، فالدين الذى بعث لاتمامه هو الكمال الخلقى تاما من كل الوجوه ، وبكل الصفات .. والى هذه المثاليات العالية دعا ، وعليها حالف وعاهد ، وفى سبيل اقرارها ناضل وجاهد ، وحارب ، وانتصر ، ولم يكن عجيبا أمام استمساكه بعروتها الوثقى ان يناضل اليهود ثعالب البشرية ، ويقف فى وجوههم ، ويكشف حقائقهم بما انزل الله عليه من محكم التنزيل ثم .. ولما لم تجد معهم حيلة ، وابوا ان يركنوا الى السلم ، وان يعودوا الى الاسلام دينهم الأصلى اجلاهم عن شبه الجزيرة كلها ، وملكه الله آطامهم وصياصيهم وارضهم التى لم يدخلها غريب عنهم ليامن شرورهم ودسائسهم ، ويجد التربة الصالحة التي يستطيع ان يرمي فيها بذور الدعوة لتؤتى اعظم الثمرات ..

بهذه الفضـــائل نادى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فدعوة الحق دعوته ، كانت دعوة الفضل والندى ، والجود ، والوفاء ، وبهذه المكرمات اللدنية ، وصل الى تملك القلوب التى هانت امامها الصـــعاب ، وصفرت الشـــدائد ، وتبعه اصحابه الى حيث اراد الله له أن يســير ليرسى دعائم الحق ، ويرفع رايات المثالية المطهرة .. وانه اليوم ليفتح مكة ، ويقضى على آخر اثر من آثار الكفر والضلال ..

لقد كان فتح مكة هو حجر الزاوية فى دعامة الاستقرار التام ، فمن هذا البلد الأمين ، وبايحاء من ثعالب اليهود ، طالما ثارت الاعاصير علىدين الاسلام ، وقامت الاحلاف ضد الدعوة ، وخرجت الجيوش وفى تصورها انها قادرة على القضاء على محمد رسول الله ..

اما اليوم ، وقد جاء نصر الله والفتح ، ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس كل الناس يدخلون فى دين الله أفواجا ، فانه ليرفع رأسه الى السـماء شاكرا ، مسبحا بحمد الله ، مسـتغفرا اياه ، فهو التواب الرحيم ، عالم الغيب والشهادة ، وجامع القلوب على الهدى والحق المبين .

لقد كان هذا الفتح العظيم هو الخطوة النهائية فى القضاء على الضلالات والرذائل فى شبه الجزيرة العربية كلها ، وتوحيد العبـادة ، فتوحيد العبادة والمعبود ، هو السبيل الصحيح لوحدة الصف المترابط المتعاطف . وهو وسيلة التجميع القوية لاشتات الناس ، ومتباين الاهواء والنزعات ، فى رابطة تحس باحساس واحد ، وينتابها شعور جماعى موحد ، بانهم دون تفرقة اجناد فى جيش الفضيلة ، وتحت لواء المثالية والكمال .

لقد كان فتح مكة هو الخطوة النهائية فى سـبيل الاخاء الانسـانى ، والتخلص من شوائب الجاهلية المقيتة ، والاستعداد المدعم المترابط لجولة جديدة من جولات النضال الدينى ، لشعب موحد ، وجند قوى ، للانطلاق الى خارج الحدود من أجل هداية الناس اجمعين .

ولقد مهد محمد صلى الله عليه وسلم ، لهذه الانطلاقة الدينية الشاملة ، واعد العدة لهذه الهداية الكبرى على أوسع رقعة ، واعم مجال ، وعرف كيف يتخير وقتها المناسب يوم بعث كتبه الى كسرى والى قيصر والى سائر من يدينون لهما بالولاء ، ويدخلون تحت نطاق حكمها الذى كان يبسط رواقه على العالم اجمع ـ يدعوهم جميعا الى تدبر شئونهم والنظر بعين الروية والتعقل فى دعوته السمحاء والدخول فى دين الاسلام .. دين الفطرة .. دين الله الاكمل والشهادة بانه لا اله الا الله وان محمدا رسول الله ...

مهد محمد الكامل لهذا كله .. واعد العدة لتحرير رقاب الشـعوب المستعبدة عن طريق العقيدة ، وما توحى به من فضـــائل وسمو يحرمان

الاسترقاق والتحكم والتفرد المطلق فى الحكم ، والرجوع الى الشورى ، ولم يبق بعد التمهيد والاعداد غير الخروج العلنى لاتمام شرائط الجهاد المستمر فى سبيل دين الله ، ومن أجل اسعاد البشرية جمعاء وارتقائها فى كل مجال..

ولما كانت الامور رهينة بأوقاتها ، وتحركات رسول الله صلى الله عليه وسلم وأفعاله بصفة خاصة رهينة بالوحى والتوجيه السماوى ، والأوامر الالهية — فقد اتجه الرسول الكريم الى تنظيم الأمور الداخلية أولا ، وشرع ينظم ويعد العدة للوحدة التى تمت فعلا ، بين شتى مناحى شبه الجزيرة ، ويؤكد ترابطها ، ويضم اليها من ظل متباعدا ، ومن بقى على كفره من هؤلاء النـــاس ...

وسار النصر فى ركاب الداعية الاعظم ، وتحقق على يديه كل تعــاظم واتحاد وفلاح ، وترك مكة بعد استقرار الامر فيها ، وعاد الى مدينته ليبدأ صفحة جديدة من صحائف النضال ..

اى جهاد جاهده محمد عليه الصلاة والسلام والرضا والرضوان .. واى نضال خاض غماره .. واية حياة عاشها !!

ان الاعباء الجسام التى حملها محمد الكامل ، امام المرسلين ، وداعيــة السلام ورسول الهدى لم يحملها من قبل رسول كريم ، ولا نبى مجتبى ، ولكن محمدا كان نسيج وحده ، اختاره الله لنفسه ، واعده لتحمل أعباء كبرى رسالاته ، واصطفاه بذلك على العالمين كافة ، فابلغ الرسالة ، وادى الامانة ، وانار ظلمات الجهل ، وحرر العقل من الأوهام والتحكم والسيطرة والاستغلال، ودعا الى خير العمل ، وعلم الناس ان العمل وحده هو سبيلهم الى رضوان الله سبحانه وتعالى ، والى جنات عرضها السموات والارض اعدت للمتقين الصالحين العاملين ، الذين وفوا بعهودهم ، وصدقوا الله ما عاهدوا عليه ، وصبروا ، وصابروا ، وتمسكوا بايمانهم ، ورفعوا رايته ، وعملوا من اجل استقراره ، وجاهدوا وقدموا الخير ، وعملوا الصالح من الاعمال .

ولقد أمر الله عز وجل بالعمـــل ، وعين العمـــل الذى طالب الانســـان بتقديمه ، وحدد شروطه وعين اهدافه ومراميه ، وأشار الى سبله القويمة ، ثم طالب سبحانه وتعالى باتقان هذا العمل ، واجادته ، والاحسان فيه ، فالعمل وحده هو أساس العبادة ، ولب الدين ، وقوام الرسالات ، وسر بقائها هو : عمل الانسان الدائب على الاستمساك بها ، وقضاء فروضها ، والخضوع لأوامرها .

فالعبادة اذا ، هى العمل الصالح الذى امر الله به ، ثم انها بعد هذا ، هى العمل المتواصل ، الذى تحتسب بمقتضاه حسنات المرء ، ويحدد على اساسها جزاؤه الذى يستحقه عند الله الذى اعتبر العمل مدخرات الانسان

لآخرته ، وهذه المدخرات هى القرض الحسن ، الذى طالب سبحانه وتعالى الناس بأن يقرضوه اياه ، وهو الغنى عن العـالمين ، ولكنه اراد بهم الخير وأهلهم للرضوان وحسن الجزاء ، فشرع العمل ، وقضى به ، وجعله الاختبار العملى للطاعة ، والامتثال لأوامره يوم استخلف الانسان فى هذه الارض ، وطالبه بأن يجعل منها جنته الوقتية ، ومجال احسانه ، واختبار طاقاته ، ومعبره بعد ذلك الى الخلد والنعيم الأبدى .

((تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شىء قدير ، الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور ...))

تلكم كانت حكمة الوجود .. وذلكم كان سر الخليقـة ، وسببها الأول فالله سبحانه وتعالى خلق الانسان ليعمل ، وعلمه كيف يعمـل ، وابان له مجال هذا العمل ، وميادينه ، والوانه ، وأشكاله ووسائله ثم قضت ارادته بعد هذا الارشاد والتوجيه أن يختبر مدى استجابة الانسان لدعوة العمل ، واقباله عليه واجادته لكل عمل طالبه به ، سواء كان هذا العمل عملا للآخرة او للدنيا فاثبت كل أعمال المرء فى كتاب مبين ، لا يضل ولا ينسى ، ليحاسب عليه يوم الحسـاب ، ويجزى به يوم يقـول الانسـان : ((**يا ليتنى قدمت لحياتى**)) !!

وقد جاء محمد صلى الله عليه وسلم هاديا الى خير العمـل ، وكان الاسلام دين عمل وشريعة عمل ، وأوامر بالجهاد ، أيا كان هـذا الجهـاد العملى المستقر العظيم الهادف الى اقامة عالم مستقر دينـه الاسـلام ، وشريعته الفضيلة ، ودعوته الحث على خير العمل ..

هـذا هو الاسـلام ، دين الله الذى اوصى به آدم ، وامر نوحا بابلاغه للناس ، ومن بعـد نوح بعث به الرسـل جميعا كل الى قومه وأهله ، الا ابراهيم ، فقد جعله للناس اماما ، ومن بعد ابراهيم جعل محمدا على شريعة من الأمر ، وكلفه بابلاغ دينه الى الناس كافة ، فكان عليه الصلاة والسلام ، هو البشير النذير ، وهو داعى الأمم جمعاء الى الله ودين الله ..

ولقد ابلغ محمد صلى الله عليه وسلم الرسالة كمـا امر بابلاغهـا الى العالمين كافة ، وعلا صوته بها فملأ الدنيا وهو يدعو الى الله وحده بلاشريك ، فادى الأمانة كاملة غير منقوصة ، واكمل عليه الصلاة والسـلام بناء صرح الفضائل الدينية والدنيوية ، واتم مكارم الأخـلاق كما سـنها الله سبحانه وتعالى وقررها وفرضها وارتضاها .

وحدد صلى الله عليه وسلم بعد هذا كله عهد الله ، واقر دعائم الاخاء ، والتعاطف ، ووصل ذوى القربى واحسن الى اليتامى والمساكين وابنـاء السبيل ، ثم نادى بتجميع الشمل ، وتوحيد الدين ، والعودة الى الحق ، والعدل والتبرؤ من الشرك ومن كل دين يخالف دين الاسلام فجدد بهـذا

دعوة نوح ، ورسالة هود وصالح ، واعاد الى الوجود قصة جهاد ابراهيم ، وحمل نفس اللواء الذى حمله موسى ، ونشر صحفه والواحه ، ونقاها من الشوائب والادخالات ، وأكمل رسالة عيسى ، فكان عليه الصلاة والسلام جامع الرسالات وامام المرسلين ، ورسول الشفاعة والهدى الذى انتهت عند شريعته كل الشرائع السماوية ، وأكمل دينه كل دين أمر الله باتباعه ، وبدينه ختمت الرسالات الكبرى جمعاء .

لقد كانت رسالة محمد صلى الله عليه وسلم كبرى الرسالات وادقها ، وأجلها ، واعظمها شأنا عند الله ، وعند الناس ، فالاسلام دعوة الله ، وأمر الله ، ودين الله ، الذى لن يقبل من العباد يوم الدينونة دينا غيره ، ولا معتقدا سواه .

ذلكم هو الاسلام ، الذى بعث الله به محمدا رسولا هاديا الى البشرية جمعاء ، فأكمل به دينه الحق ، وأتم به على المسلمين نعمته الكبرى ، وارتضاه لهم دينا قويما ، عاشوا على هديه ، وماتوا على شريعته ، ثم سيبعثون ليحاسبوا بمقتضاه ! !

ذلكم هو الاسلام .. اسمى الشرائع ، ونبع الأحكام .. واصل الأصول كلها .. الدين القيم .. العهد الأعظم القائم بين الله وعباده الى ان يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين ..

هذا هو الدين الحق الذى حمل محمد لواءه ، ووصل به الى حيث أراد الله أن يكون ، فعاش به ، وجاهد من أجل استقراره ، وكانت حياته عليه الصلاة والسلام اروع حياة ، وامثل حياة ، واعظم حياة .. حياة متعددة النواحى ، جامعة لكل فضل ، شاملة لكل كمال ..

لقد جاهد محمد فى سبيل الاسلام بما لم يجاهد به رسول من قبله .. لقد أوذى كما اوذى الرسل اولوا العزم ، وصبر كما صبروا ، وظل فى طريق الصبر والجهاد سائرا ، حتى استطاع أن يحول مجريات الأمور بعزيمته ويختط فى طريق الرسالة ووسائلها واساليبها ما لم يسبقه اليه رسول من قبل .. فحارب وجاهد ، وقاد السرايا والجيوش ، وعاهد وكاتب ، وانتصر وذاق حلاوة النصر ، فلم يهتز له ولم يتأثر به ، زادته انتصاراته تواضعا ، فجذب اليه القلوب وجمع العالمين على حبه ..

اى حياة كانت حياته صلى الله عليه وسلم .. حياة فريدة لرجل فريد ، لا يتكرر له شبيه فى هذا الوجود ..

كان محمد صلى الله عليه وسلم رجلا .. رجلا كان الايمان عقيدته ، والثقة بالله شريعته ، فاستهان بكل صعب ، ووقف وحده أمام الدنيا بأسرها ، حتى استطاع بعون الله وصادق عزيمته ، أن يلوى عنان الدنيا الى حيث

شـاء الله ، فأرسى دعائم الفضـل والجـود والندى والرجولة والتضحية والايثار ..

ولقـد كان محمـد بشرا رسولا .. بشرا بما تعنيه كلمـة البشرية من كمال في كل التصرفات .. صادق وعاهد .. وأحب ولم يبغض .. وأعان من استجار به ، ولم يعن على الشر بل على الخير والدعوة الى الله ..

ولقـد أرسى الأسس ، وأقام الدعائم ، فكان خير مثل يحتـذى ، وأعظم صورة تشخص اليها الأبصار .. عاش بين الناس كواحـد منهم ، اذ أدبه الله فاحسن تاديبه ، فكان خلقه القرآن ، وتصرفاته هى الكمال ..

وصاهر وتزوج .. وأخذ من الدنيـا بما شاء الله له أن يأخذ وفى حدود شرعت له وحده ، وأبيحت له وحده ، دون المسلمين جميعا .

وفى قوله تعالى :

((يا أيها النبى انا احللنا لك أزواجك اللاتى آتيت أجـورهن وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك ، وبنات عمك ، وبنات عماتك ، وبنات خالك وبنات خالاتك اللاتى هاجرن معك وامرأة مؤمنة ان وهبت نفسها للنبي ان أراد النبى أن يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين)) ..

كانت أولى زوجاته **((خديجة بنت خويلد))** أول من آمن برسـالته ، واستجاب لدعوته،وقوى عزيمته ، لقد منحته الحب والعطف أيام الحرمان ، والمال عند الحاجة اليه ، والحماية فى وقت لم يلق فيه الا كل جبار غليظ القلب . وكانت خير الزوجات وأقربهن الى قلبه ، لم يتزوج غيرها فى حياتها، وكانت ذكراها عزيزة عليه ، وقد حدث أن أكثر من الثناء عليها وكان زوجا لعائشة فصاحت عائشة وقد تملكتها الغيرة ((ما تذكر من عجوز هلـكت فى الهالكين فأبدلك الله خيراً منها)) .

فبدا الحزن على وجهه صلى الله عليه وسلم وقال لها : والله ما أبدلني الله خيرا منهـا ، آمنت بي حين كفر الناس ، وصـدقتنى اذ كذبنى الناس ، وواستني بمالها اذ حرمني الناس ، ورزقنى الله منها الولد دون غيرها من النساء ..

وكانت الزوجة الثانية ــ بعد وفاة الأولى ــ هى **((سودة بنت زمعة))** وهـذه أرملة عجوز آمنت بدينـه ، وهاجـرت الى الحبشـة مع زوجهـا ((السكران بن عمرو)) أحد الثمانية المهاجرين الأوائل الذين أوذوا فى سبيل الدعوة ، حتى اضطروا الى الهجـرة ــ مات عنها وتركها وحيدة .. لم يكن فيهـا لرجل أى مطمع ولا غاية ، فقد كانت غير ذات جمـال تزوجها اكراما

لذكرى زوجها المجاهد ، ولتقوم على تدبير شئونه ، ولتكون الى جانبه فى ساعات الوحدة سكنا يأوى اليه ، ويجد عندها العزاء كلما اشتد عليه باطل قومه وحربهم لدعوته .

* * *

وكانت الزوجة الثالثة : ((**عائشة بنت ابى بكر**)) وكانت فى العاشرة يوم خطبها الرسول الكريم ، ليربط بينه وبين زميله فى الجهاد ، ولم يدخل بها الا فى الثانية عشرة من عمرها ، وكانت عائشة أحب النساء الى قلبه بعد خديجة بنت خويلد ، وقد كانت حياتها مليئة بالحوادث المثيرة ، وكانت المدللة بين نسائه جميعها (١) .

* * *

والزوجة الرابعة كانت ((**حفصة بنت عمر بن الخطاب**)) أرادها الله ليربط بين محمد وصاحبه فى الجهاد ، كما ربط بينه وبين ابى بكر الصديق ليزيد الشيخين شرفا على شرف ، ويرفع مكانة بيتيهما بين العرب .

وكانت حفصة حافظة لصحف القرآن ، التى جمعت ورتبت فى عهد عثمان بن عفان ثم ردت اليها بعد جمعها .

* * *

والزوجة الخامسة كانت ((**زينب بنت خزيمة ــ أم المساكين**)) تزوجها الرسول وكانت مسنة ، ولم تك ذات جمال ، وكان زواجه منها ــ بعد استشهاد زوجها ــ لحمايتها ، وتقديرا لرجلها ، ليعلم المجاهدون المسلمون انهم اذا استشهدوا فى سبيل الله وكان وراءهم نسوة وذرية ضعافا لا يخافون عليهم عيلة .

ولم تلبث فى بيت الرسول بعد زواجها منه الا ثمانية أشهر توفيت بعدها .. ولم يمت من أزواجه فى حياته غيرها . وأم المؤمنين خديجة ..

* * *

والزوجة السادسة كانت ((**هند أم سلمة**)) كانت عريقة ، وذات جمال ومن أولى المهاجرات الى الحبشة ، ثم الى المدينة ، لم يتزوجها النبى الا ليعوضها زوجها الذى لم تجد بين الرجال من يعدله عندها ، ورفضت الزواج من أى رجل تقدم لها ، وليس لديها من يعولها ، حتى لقد حدث أن تقدم لها أبو بكر فردته وكان زوجها ((أبو سلمة)) قد حقق نصرا عظيما استشهد فيه ..

وكان من عادة العرب وقتذاك انه ((**اذا مات سيد منهم أسرع السادات من أترابه الى بيته يواسون أهله .. ويتقدم أقربهم مرتبة من الميت**

---

(١) طالع ((نساء محمد)) لسنية قراعة .

فيطلب يد زوجته ، ويضمها الى بيته لا لسبب الا لتمجيد ذكراه والابقاء على بيته وأسرته وتوفير أسباب الحيـاة والحمـاية للمستضعفين الذين تركهم من بعده ..

* * *

والزوجة السابعة كانت « **زينب بنت جحش** » ـ وهى ابنة عمته ـ وكان قد زوجها لمولاه زيد بن حارثة ، وتزوجها صلى الله عليه وسلم بعد طلاقها من زيد بوحى من الله تعالى « **لكيلا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج ادعيائهم** » !!

لقد جعل الله قصة زواج محمد منها سببا للتشريع الذى أراده سبحانه وتعالى ، وأنزله هدى ورحمة للعـالمين ، ليمحو به تقاليد الجاهلية وعاداتها وأشـدها خطرا التبنى وحق الابن المتبنى الذى يتساوى وحقوق الأبنـاء الشرعيين ..

« **وما جعل ادعياءكم ابناءكم ، ذلكم قولكم بافواهكم ، والله يقول الحق وهو يهدى السبيل** »

* * *

والزوجة الثامنة كانت « **ريحانة بنت عمرو** » اليهودية ، وقعت فى الأسر عقب انتصار المسلمين فى بنى قريظـة ، وكانت من نصيب الرسـول كأسيرة ، فعزلها فى بيت ام المنذر بنت قيس حتى انتهى من قومها .. ثم دخل عليها يسألها ان كانت تختار الله ورسوله .

ورغم انها كانت من السبايا ، وليس لها حق المعارضـة أو الرفض ، فان الرسول تركها كما أرادت ، لتعيش مع غيرها من السبايا والأسيرات

وانصتت يوم اجتمع الرسول بوفد من اليهود والمسيحيين ، ليجادلوه ويسألوه عمن يؤمن به من الرسل فقال :

« **نؤمن بالله ، وما انزل الينـا ، وما أنزل الى ابراهيم ، واسـماعيل ، واسحاق ، ويعقوب ، والأسـباط ، وما اوتى موسى ، وعيسى ، وما اوتى النبيون من ربهم ، لا نفرق بين احد منهم ونحن له مسلمون** » .

وسرعان ما أرسلت الى الرسول تبلغه اسلامها التام بما عرضه عليها من قبل وانها اختارت الله ورسوله عن ايمان عميق ، واقتناع به وبصدق رسـالته .

وأسلمت ريحانة بنت عمرو فاعتقها الرسول وتزوجها ، وضرب عليها الحجاب ..

* * *

والزوجة التاسـعة كانت « **جويرية بنت الحارث** » ابوها من كبـار زعماء اليهود ، هو سيد بنى المصطلق وقد وقعت جويرية فى الأسر وكانت من نصيب « ثابت بن قيس » .. ففـرت منه هاربة ولجـات الى الرسول

تستنجد به ، وترجوه أن يدفع لها فديتها ويحررها ، ويمهلها حتى ترسل الى اهلها فى طلب فديتها فتردها له .. ورأى الرسول امامه بنت سيد بنى المصطلق عدوه الالد ، الذى انتصر عليه وأهرق المسلمون دمه .. وان دمه ما يزال حارا ينادى بالثأر ، وان قومه — وان كتبت عليهم الهزيمة — فانهم ولاشك سيتحينون الفرصة للانتقام من محمد وأهله .

وسرعان ما رفع رسول الله رأسه الى تلك الواقفة أمامه تستنجد به ، وعرض عليها أن يدفع عنها فديتها ويتزوجها .. وقبلت جويرية بنت الحارث الزواج من محمد عليه الصلاة والسلام ، وبزواجها أعتق الرسول الكريم من لديه من اهلها ، وفك قيود الأسرى من قومها .

* * *

والزوجة العاشرة كانت ((**رملة بنت أبى سفيان**)) — أم حبيبة — التى تزوجها الرسول وهى فى المهجر بعد موت زوجها « عبيد الله بن جحش » الذى ارتد عن الاسلام وبقيت هى عليه .. لم ينس الرسول تلك المؤمنة الصادقة فطلب من « النجاشى » أن يخطبها له ، وزواج محمد صلى الله عليه وسلم من رملة بنت أبى سفيان .. ثم جعله النجاشى — ملك الأحباش — سفيره اليها .. أمران ليس من السهل أن نمر بهما فى بساطة — اذ أراد من اتمام هذه الزيجة تشريف للزوجة المسلمة من جهة ، وعلى أن تكون هذه الرابطة كافية لأن يلين من صخرية قلب أبيها ((**أبى سفيان بن حرب**)) ابن عم الرسول الذى كاد يصعق عندما سمع بزواج محمد من ابنته .. ومع مرور الأيام .. تم للنبى ما توقعه ودخل أبو سفيان فى دين الله ، وأعلن اسلامه وتسليمه ...

* * *

والزوجة الحادية عشرة كانت ((**صفية بنت حيى بن أخطب**)) عدو الاسلام الأكبر وزعيم اليهود ، كان فى زواجها من الرسول النصر المؤزر .. وكان زواجها الحد الفاصل الذى وضعه محمد بينه وبين اليهود ليضمن سكوتهم ، ويتناسوا الدم الذى لهم عنده ، والتنازل عن الأخذ بثأرهم ، وحيادهم بعد ذلك ليتفرغ لأبناء عمومته من قريش وغيرها .

ولقد كان لدخول صفية على أمهات المؤمنين أثر غير جميل فى نفوسهن واتحد البعض ضدها ، وتعمدوا مضايقتها بمختلف الوسائل الى حد أن اضطرت أخيرا أن تشكو للنبى أفعالهم وتفاخرهم ، وقال لها النبى يطيب خاطرها وفى نفس الوقت ترد عليهم بما يسكتهن بأن تقول لهن :

— انا ابنة نبى .. وابنة اخ نبى .. وزوج نبى ...

فقد نسبها الى أبيها **موسى** ، وعمها **هارون** ، وزوجها **محمد !!**

أما « **مارية القبطية** » فقد كانت مما ملكت يداه ، ثم رفعها الى مرتبة الزوجات ، بعد أن وضعت له غلاما ذكرا أسماه ابراهيم ..

***

وكانت آخر ازواج النبى ، وآخر من بنى بهن .. أم المؤمنين « **ميمونة بنت الحرث الهلالية** » أخت « أم الفضل » زوج العباس بن عبد المطلب عم النبى ، وخالة « خالد بن الوليد » ، فقد ذهب « العباس ابن عبد المطلب » الى الرسول وخاطبه فى أمر « ميمونة » اخت زوجته التى آمنت بدينه واختارت الاسلام ، وعرض عليه أن يتزوجها .. فقبل الرسول وأصدقها أربعمائة درهم .

وبعد أن تم للرسول الكريم ما أراده الله من زواجه من أمهات المؤمنين هؤلاء دون غيرهن .. حدث أن عرضت عليه « الشنباه بنت عمرو الغفارية » ليتزوجها قبل موت ابنه ابراهيم ، كما عرضت عليه أيضا بمناسبة فتح مكة وانتصار النبى ، احدى بنات القوم الذين انتصر عليهم ، وكان أبوها ضمن قتلى المسلمين هى « مليكة بنت داود الليثية » وكان لها قصة لها طرافتها فى هذا الوقت الذى أعلن فيه خطبتها للرسول .. ولكن .

ولكن نزلت الآية الكريمة على الرسول تأمره بالكف عن الزواج والاكتفاء بما لديه وما أحله الله له ، فى قوله تعالى :

« **لايحل لك النساء من بعد ، ولا ان تبدل بهن من أزواج ، ولو اعجبك حسنهن الا ما ملكت يمينك وكان الله على كل شىء رقيبا** » ..

وهكذا لم يشرع الرسول بعد هذا الأمر فى الزواج بعد ذلك .

ومات الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام عن تسع زوجاته هن أمهات المؤمنين :

« **سودة بنت زمعة ، وعائشة بنت أبى بكر ، وحفصة بنت عمر ، وهند أم سلمة ، وزينب بنت جحش ، وريحانة بنت عمرو ، ورملة بنت أبى سفيان، وصفية بنت حيى بن اخطب ، وميمونة بنت الحارث** » .

وان لتكوين البيت الاسلامى الذى اراده الرسول العظيم ، والذى أمر نساءه أن يعلمنه المؤمنات جميعا كيف يضعن أسسه ، وكيف ينشئن فيه أبناءهن أبلغ واروع المثل ...

والحديث عن « **بيت محمد** » و « **نساء محمد** » يتشعب الى نواح عدة

طالما حاول الكثيرون طرقها ، ولكنهم لم يصلوا الى دروبها المقدسة فعاد كثير منهم يذكرون غرائب لا يتقبلها العقل وينكرها الدين (١) .

وكان اكثر هجوم الجاهلين والحاقدين موجها الى بيت محمد بالذات .. متخذين من كثرة ازواجه ذريعة للطعن والتشكيك ، علما بان زواجه عليه الصلاة والسلام كان لظروف خاصة .. حدد بعدها الاسلام الزواج للمسلمين فى قوله تعالى :

((... فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع)) ...

والآية الكريمة تحدد عدد الزوجات ، ولا تقر التعدد الذى كان مألوفا عند العرب الا فى حالات طارئة ، ولظروف خاصة ، وحسب الأجيال ، ومقتضيات ظروف الحرب وغير ذلك فجعلت اباحة التمدد فى نفس الوقت التى طالبت فيه بالاقتصار على الواحدة اذا لم يكن هناك دواع لأخرى ، خشية عدم العدل بينهما : ((وان خفتم ألا تعدلوا فواحدة)) ..

لأن الشريعة الاسلامية شريعة مرنة سمحة أباحت التعدد ولكن لم تحسنه فى عيون الناس .

ومن الغريب أن يتخذ بعض أعداء الاسلام اباحة تعدد الزوجات سبيلا للطعن فى التشريع الاسلامى ، ناسين أو متناسين ان التعدد معروف من قديم فى الديانة الاسرائيلية ـ وبخاصة عند ((داود وسليمان)) . وقد كان لكل منهما زوجات كثيرات يربو عددهن على المائة ..

وقصة داود مع زوجة قائده معروفة حينما أراد ضمها الى زوجاته التسع والتسعين .. بل ان التلمود والتوراة لم يقف الأمر بهما عند اباحة تعدد الزوجات .. بل امتد الأمر الى التسرى أيضا ...

والأمر كذلك بالنسبة للمسيحية ، فليس فى الأناجيل نص واحد يحرم تعدد الزوجات ، وقد حرم بولس الرسول التعدد فى حالة واحدة هى حالة الأسقف الذى لا يطيق الرهبنة فان له أن يقنع بزوجة واحدة .

وكان للكنيسة أكثر من موقف فى الاعتراف بتعدد الزوجات ، فمن المعروف انها ـ أى الكنيسة ـ اعترفت لشرلمان الملك بعدد ابناء غير شرعيين من عدة نساء (١) .

وقد أباح ((مارتن لوثر)) زعيم البروتستانت تعدد الزوجات ، وحجته

---

(١) طالع كتاب « نساء محمد » لـ سنية قراعة . (٢) حقائق الاسلام .

انه لم يرد فى المسيحية نص واحد يحرمه ، وكان الملك ايرلندا « ديرمات » زوجتان شرعيتان وسريتان .

وقد ظل نظام تعدد الزوجات معمولا به فى الشريعة المسيحية حتى القرن السابع عشر ، معترفا به من الكنيسة مباركا من رجال الدين .

واذن فقد عرف نظام تعدد الزوجات منذ ابراهيم الخليل ومن أتى بعده من الأنبياء والمرسلين فى اليهودية والمسيحية حتى القرن السابع عشر .

* * *

وفى « الثامن من ذى الحجة ، ذهب محمد الى « منى » فأقام بخيامه فيها وصلى فروض يومه بها ، وقضى الليل حتى مطلع الفجر من يوم الحج ... ويمم الى جبل عرفات والناس من ورائه ، فلما ارتقى الجبل أحاط به الوف المسلمين .. وهناك نادى فى الناس قائلا — بعد أن حمد الله واثنى عليه ... »

« أيها الناس ، اسمعوا قولى ، فانى لا ادرى لعلى لا القاكم بعد عامى هذا بهذا الموقف أبدا .. »

« أيها الناس ، اسمعوا قولى ، فانى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى يومكم هذا ، وكحرمة شهركم هذا » .

« وانكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم وقد بلغت » .

« فمن كانت عنده أمانة فليؤدها الى من ائتمنه عليها » .

« وان كل ربا مهدر ، ولكن لكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون » .

« قضى الله انه لا ربا ، وان ربا عباس بن عبد المطلب مهدور كله » .

« وان كل دم كان فى الجاهلية مهدور ، وان اول دمائكم اضع دم ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب » .

« اما بعد ، أيها الناس ، فان الشيطان قد يئس من ان يعبد بارضكم هذه ابدا . ولكنه ان يطع فيما سوى ذلك فقد رضى به مما تحقرون من اعمالكم ، فاحذروه على دينكم » .

أيها الناس « انما النسىء زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ما حرم الله ، فيحلوا ما حرم الله ويحرموا ما أحل الله » .

« وان الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والارض ، وان عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا منها أربعة حرم ، ثلاثة متوالية ، ورجب مفرد بين جمادى وشعبان » .

« اما بعد ، أيها الناس ، فان لكم على نسائكم حقا ، ولهن عليكم حق ، لكم عليهن الا يوطئن فرشكم احدا تكرهونه ، وعليهن الا ياتين بفاحشة مبينة، فان فعلن فان الله قد أذن لكم أن تهجروهن فى المضاجع ، وتضربوهن ضربا غير مبرح ، فان انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف . واستوصوا بالنساء خيرا فانهن عندكم عوان ، لا يملكن لأنفسهن شيئا . وانكم انما اخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمات الله » .

« فاعقلوا ايها الناس قولى ، فانى قد بلغت . وقد تركت فيكم ما ان اعتصمتم به فلن تضلوا أبدا ، أمرا بينا : كتاب الله وسنة رسوله » .

« أيها الناس ، اسمعوا قولى واعقلوه ، تعلموا أن كل مسلم أخ للمسلم وان المسلمين اخوة ، فلا يحل لامرىء من أخيه الا ما أعطاه عن طيب نفس منه ، فلا تظلموا أنفسكم » .

« اللهم .. هل بلغت » !!

ولما أتم النبى خطابه .. تلا على الناس قول الله تعالى :

« اليوم يئس الذين كفروا من دينكم ، فلا تخشوهم واخشون ، اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا » !!

* * *

هذا هو محمد الكامل .. محمد صلى الله عليه وسلم وكرمه ورفع شأنه من دون الرسل والأنبياء ، فقد خاطبهم الله تعالى بأسمائهم فقال :

« يا آدم ، ويا نوح ، ويا ابراهيم ، ويا عيسى ، ويا زكريا ، ويا يحيى ، ولم يخاطب الرسول صلى الله عليه وسلم الا بقوله تعالى :

« يا أيها الرسول ، يا أيها النبى ، يا أيها المزمل ، يا أيها المدثر » ..

وفى هذا منتهى التكريم لخاتم الرسل والأنبياء . وهو جدير بهذا التكريم فما قصر محمد عليه صلوات الله وسلامه فى حق من حقوق الله ، ولا أبطأ فى أمر من أوامره ، ولا حد من حدوده .. فدعا وجاهد ، وعاش مثلا يحتذى وقدوة عظمى تتبع ، فأى حياة كانت حياته .. لقد حمل وحده ما حمله رسل الله أجمعين ، وأبلغ وحده ما كلف بابلاغه كل رسل الله العظام ، يؤيده الله بروحه ويملأ قلبه بالقوة ومضاء العزيمة ، فيمضى ويجاهد بنفسه وقوة يقينه وروعة ايمانه ، ولا سلاح يحميه غير ثبات وجدانه ، وصلابة عزيمته ، فقد ناضل وحده ، ثم جاهد وحده ، حتى جمع حواليه قلة مستضعفة وهبها من روحه ويقينه قوة لم تلبث أن أصبحت قوة غلابة ، استحالت الى كثرة عزيزة الجانب تقدر الله حق قدره ، وتعرف جلال ما يعنيه الجهاد فى سبيل الله ، وتحت راية الصادق الأمين محمد رسول الله ..

فأى سيرة كانت سيرته العطرة ، وأى جهاد كان جهاده .. جهاد عف شريف .. لا بغى فيه ، ولا طغيان ، ولا تجبر ، ولا سيادة ، بل رحمة ، واخاء تشمل الجميع .. تشمل المشرك قبل المسلم ليتدبر أمره ، ويفكر فى الدعوة السمحاء ..

لقد ادى محمد الرسالة كاملة .. وشهد صلى الله عليه وسلم ثمار غرسه بما لم يشهده رسول قبله ابدا .. وراى الى اى حد أيده الله ونصره، واراه الآيات الكبرى ، فقرت عينه وطابت نفسه ..

ثم ...

لحق عليه الصلاة والسلام بربه ، راضيا مرضيا عنه ، وترك أعباء الرسالة ليتم اوامرها من آمنوا بالله ، وتابعوه على شريعة الجهاد ..

وسار خلفاء محمد على نهجه .. ونسجوا على منواله ، وتبدت لهم آيات النصر ، ومن بعدها آيات وآيات ، وان الطريق لرسل الهدى — انصار محمد والمؤمنين برسالته — لمعبد سالك ، فهل نقصر فى السير ، ونتراجع عن التقدم ، وننكص على أعقابنا ، أم نقدم الى الامام ، ونصل الى حيث اراد لنا الرسول العظيم ان نكون .. قادة للبشرية ، رسل اصلاح وامن ، ودعاة اخاء وسلام ، لأننا نحن المسلمين .. الذين آمنوا بدعوة محمد وحق عليهم أن يحملوا امانة الجهاد ، لجمع الناس تحت راية واحدة ، هى راية الاخاء الانسانى والوحدة العزيزة التى تعيد لنا سابق العز ، وعظيم المجد ، ويكفى أن يكون رائدنا وامامنا سيد الخلق وامام المرسلين سيدنا محمد رسول الله عليه الصلاة وعليه السلام والرضوان ، ونورنا الذى نهتدى به فى أعمالنا هو « **كتاب الله** » معجزة محمد الباقية الخالدة التى جمعت الهدى والبينات والشرائع جمعاء ، ووضعت اسس عالم مثالى ، على الناس جميعا أن يهرعوا اليه ، ويستظلوا بظله ، ويعيشوا فى حمايته وحماية فضائله التى تحول دون البشرية والويلات . انه الدستور الأعظم الذى جمع الهدى والبينات .



(١) سُورَةُ الفَاتِحَة
مَكِّيَّة وَآيَاتُهَا سَبْعٌ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾
ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾
مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ
نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾
صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ
عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾

القرآن..

« قل لئن اجتمعت الانس والجن على ان ياتوا بمثل هـذا القرآن لا ياتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا .. » .

(سورة البقرة)

القرآن ... هو كلام الله تبارك وتعالى نزل به الروح الأمين جبريل على قلب محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ليكون عدته وعونه فى دعوته الى سبيل الله ، ويفرق به بين الظلمات والنور ، والحق والباطل ، وليهدى العالمين كافة الى الصراط المستقيم ، وتطهر العبادات قاطبة من شوائب الشرك والافتراء ، ليتم الاقرار بالوحدانية الخالصة ، وبأنه لا اله الا الله وحـده ، وان الدين عنده جل وعلا هو الاسـلام ، وان محمدا عبده ورسوله ، وان ابراهيم عبده ورسوله ، وان موسى وعيسى وغيرهم وغيرهم رسله الكرام المجتبون ..

والقرآن ، هو الكتاب ... واطلاق اسم الكتاب على كلام الله وشريعته المنزلة ، فيه ربط بين ما نزل على محمد صلى الله عليه وسلم ، وما نزل على كل من سبقوه من الرسل الكرام اصحاب الرسـالات الكبرى من اولى العزم ابراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام ..

والقرآن قد نزل على محمد منجما خلال عديد من السنين المتلاحقة وقد بدأ نزوله بمكة فى اليوم السابع عشر من رمضان للسنة الحادية والاربعين من ميلاده عليه الصلاة والسلام ، والموافق عام ٦١١ الميلادى ، حيث أوحى اليه فى غار حراء الذى كان يتحنث فيه ــ أول آية وهى :

« اقرأ باسم ربك الذى خلق ... »

وفى يوم الحج الأكبر للسنة العاشرة من الهجرة والثالثة والستين من ميلاده ، أوحى اليه بآخر آية وهى :

« اليوم أكملت لكم دينـكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسـلام دينا ... »

وكان ذلك فى التاسع من ذى الحجة ، ولم يعش بعد نزول هذه الآية إلا إحدى وثمانين ليلة .

وقيــل على لسان ((**سعيد بن جبير**)) ان آخــر ما نزل على النبى من القرآن آية :

((**واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله ...**))

فالمدة بين مبتدأ التنزيل ومختتمه اثنتان وعشرون ســنة وشهران واثنان وعشرون يوما .

والحكمة فى نزول الآيات متفرقة على هذا النحو هى : لكى يتمكن الرسول الكريم من حفظها وتعليمها للناس ، ومن املائها على كتابه ليدونوها ، وقد وردت فى القرآن آية بهذا المعنى هى :

((**وقرآنا فرقناه لتقرأه علي الناس على مكث ونزلناه تنزيلا ...**))

أى على مهل آية .. آية .. أو آيات آيات بحسب الحاجة والارادة المرشدة القادرة فى التوجيه والوعظ والارشاد . ونزول آيات القرآن أول ما نزلت ، كان هدفه الاعداد الروحى للرسول اعدادا يهيئه للرسالة نفسها كمعلم للانسانية ، وكيف سيعلمها ، وماذا يقول للناس ، وكيف يوجههم : والي أى هدف يسير بهم ، وأى برهان يستطيع به أن يدحض باطلهم ويجعلهم يميلون الي الحق الذى جاء به .. فاذا ما حدث وكذبوه ووقفوا فى سبيله ، ماذا يكون موقفه معهم .. هل يتراجع أم يستمر .. هل يسير أم ينكص على عقبيه .. واذا استمر فاى عزاء يكون له وأية آيات تكون زاده للمضى والاستمرار فى الكفاح !!

فالقرآن اذا كان أداة الاعداد .. ثم زاد التثبيت الروحى أى ان فيه ما يثبت فؤاده ..

فاذا تم هذا كله .. وتم الاعداد .. وتم التزود بزاد الجهاد ، وغذاء الروح الكامل .. وقويت المعنويات واشتدت العزيمة ، وصحا الوجدان وآمن بما يدعو اليه ، وعرف معنى الكفاح والاستهانة بالمصاعب .. سار غير عابىء ليصدع الافئدة بالبشريات ويقرع الآذان بالنذر العظمى ، ويرهب القلوب بالخوف ، ويلين الأفئدة الى الحق ، فتهرع اليه وتؤمن به ، وتصدقه ، وتتبع من جاء به ، فيمضى فى سبيله غير عابىء ليتم رسالته ، واضعا العرب كل العرب ، والعجم كل العجم ، والعالمين قاطبة وكافة الناس ، أمام اليقين والنور الوضاح .. أمام اعجاز بلاغى أحسوا أمامه بالعجز والقصور ..

وظلت آيات القرآن تترى منذ نزل على سيدنا رسول الله فى مكة ، حتى تمت السور المكية بما حوت من خصائص ومميزات تدور معظمها حول وحدانية الله وصفــاته وواجبــات الانســان نحو ربه والناس ، وهى نحو **تسعين سورة** ، وتمتاز بأنها قصيرة وحماسية ذات أسلوب نارى لعهد الجهاد فى حياة النبى ... ولما هاجر عليه الصلاة والسلام الى ((**يثرب**)) مدينته المنورة ، استمر نزوله ، وتلاحقت آياته المحكمات البينات ، وكانت السور

المدنية **أربع وعشرون سورة** ـ أى نحو ثلث القـرآن ، وهى طويلة مفصلة غنية بالمادة التشريعية والأحكام وتنظيم المعـاملات وشرائع مدنية وجنائية تتعلق بالقتل والثأر والسرقة والربا والزواج والطـلاق والزنى والميراث وتحرير العبيد .

فنزول القرآن متفرقا متتاليا فيه ما يعنى تناول كل شاردة وواردة ، وشموله على كل حكم وتوجيه ، وتبيانه لكل مستدق من الأمور فى تدرج ، وكان مسير الأعوام وحـده آية استكماله ، ودليل رسوخه ، والثقـة من استقراره فى أعمـاق القلوب التى خشعت له وآمنت به واتخذت أحكامه وآياته الهدى والنبراس ..

وشاءت ارادة الله جل وعلا أن ينزل القرآن بلغة قريش ، ومحمد صلى الله عليه وسلم قرشى ، وقريش كانت لها زعامة العرب الروحية ، فهم جيرة البيت العتيق ، وهم سدنته وأصحاب الحجابة والسقاية والسفارة فيه ، ولغتهم بحكم هذا كله هى اللغة السائدة على لغات العرب من أهل الجزيرة أجمعين ..

وبالرغم من أن القرآن قد نزل بلغة قريش العربية السليمة الفصحى ، فانه قد جمع أروع ما فى بقية لهجات العرب الأخرى ، وهذا وجه آخر من وجوه اعجازه الشامل ، فهو حين جمع وتخير من تلك اللهجات أدق معانيها ، وأروع مبانيهـا ، لم يكتف بمجرد الجمع ، ولكنـه جمع وأحكم حتى لكأنه لا فرق بين لغة ولغة ، ولهجة ولهجة من متباين اللهجات .. حتى لقد انتظم أربعين لهجة ولغة من لهجات ولغات العرب ، ليكون من السهل الهين على سكان الجزيرة أجمعين ان يألفوه ، ويرتاحوا اليه وينطقوا به .

ثم .. وهـذه حكمة اعجازية أخرى من حكم نزول القـرآن .. وهى جمعه الناس أولا على دين واحـد ، هو الوحدانية المبرأة من الشرك ثم .. على لغة تآلفت بها كل اللغات جمعاء .

وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال :

((أنزل القرآن على سبعة أحرف ، لكل منها ظهر وبطن ولكل حرف حد ولكل حد مطلع ..)) .

والحروف السبعة هذه التى نزل عليها القرآن لا يعقل اطلاقا أن تكون حروفا بما تعنيه كلمة « حرف » من مدلول ، وقد تشير هـذه الحروف فى معناها الى أن المقصود بها هو لغات العرب من أهل الجزيرة جميعا ، وهى لغات ، لو تم حصرها مازادت على السبع لغات بحال من الأحوال . .

وقال أبو حاتم السجستانى : نزل القرآن بلغـة : **قريش ، وهذيل ، وتميم ، وربيعة ، وهوازن ، وسعد بن بكر ...**

ولم يكتف القـرآن ، بانه جمع شتى لهجـات العرب بين سطوره ، بل احتوى على عديد من الألفاظ تصل الى المسألة لفظ ، غير عربية أصلا ، بل فارسية ورومية وحبشية وسريانية ، وهذا ضرب آخر من ضروب اعجازه ،

اذ لم يجمع هـذه الألفاظ فحسب ، بل صـهرها فى بوتقة بلاغته العظمى ، فاصبحت من روعة حبكها ، واحكام وصفها ، وكأنها عربية أصيلة .

والقرآن بعد هـذا قد جمع العربيـة فى اطار موحـد ، وقد نقاها من الشوائب والمستغربات وغريب الألفاظ ، وأعطاها سلاسة وعذوبة ، وجعلها وكأنها نغم متوافق منسجم ، فيه ايقاع تطرب له النفس ، ويهتز له القلب ، ويطيب به الاستماع ..

واهم خصائص القرآن هو نزوله بالعربية ، وهـذه الخاصية تميزه عن سائر كتب الله التى سبقته كالتوراة والانجيل مثلا ، فهما لم تنزلا بالعربية ، وقياسـا على هذا نقول : ان ترجمة القرآن الى غير اللغـة العربية لا يمكن بحال من الأحوال ، أن تسمى قرآنا ولا يصح أبدا أن يعتمد عليها فى استنباط تأويل ، أو تخريج حكم من أحكام الشريعة والدين .

واذا قلنا أن ترجمة القـرآن لا يمكن أن تعتبر قـرآنا ، فاننا نقول ان الصـلاة بغير كلمات القرآن العربية المنزلة لا تعتبر صـلاة ابدا ، وان على المسلم مهما كانت لغته أن يصلى بالعربية .

والقرآن .. كتـاب الله الكريم منقول بطريق التواتر ، وهـذا التواتر ثابت للقرآن كتابة ومشافهة منذ نزل به الروح على قلب محمد رسول الله ، حتى بدأت تتوارثه العصور ، والناس على اختلاف الملل ومتباين النحل ، وذلك لأن آيات القرآن كانت تسجل عند نزولها آية فآية ، ويتولى كتابتها املاء عن الرسول الكريم كتاب الوحى ، وهذا يعنى ولا شك أن هذا النقل بطريق التواتر يقطع بصحة المنقول ، ومن هنا ، وأمام هذه الواقعية الثابتة فى التوارث المستندى الصحيح فالمنقول صحيح ، ونصوصه كلها قطعية الثبوت .

« وعلى هذا فما لم ينقل بطريق التواتر لا يسمى قرآنا ، ولا تصح الصلاة بقراءته فيها ، ولا يحكم بكفر من أنكر قرآنيته » (١) .

ولما كان القرآن الكريم هو عدة محمد صلى الله عليه وسلم ، وسلاحه القوى فى جهاده ضد الكفر والرجعية والضلالات ، فقد شغف الرسول بكلام الله ، وطالما كان فى شوق الى نزوله ومقدم جبريل به ، فاذا ما نزلت عليه آية من سورة أو جملة آيات ، تحوى حكما ، أو تأويلا ، أو أمرا من الأوامر ، أو نهيا من نواهى الله ، أو نبأ من أنباء الغيب والموعظة على النبى الأعظم ، أسرع عليـه الصـلاة والسلام يرددها ويعيـدها ويقرؤها لجبريل مرة ومرات ، حرصا منه على كمال استيعابها وتمام حفظها ، قبل أن يعدو عليها السهو ويشملها النسيان ..

هذا اخلاص وتفان للرسالة ، وحب عظيم لها ولا جدال ، ولكن الله سبحانه وتعالى ، لم يرض هذه العجلة لرسوله لحكمة جلت على الأفهام ، فالرسول الكريم اولا وقبل كل شىء مكلف بتلقى الوحى ، واسـتقبال

(١) أصول الفقه الاسلامى — زكى الدين شعبان .

ما يوحى اليه به ، والله القادر بعد هذا عليم بما قدر فى هذا الشان على الرسول وانه ليقول له :

« ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى اليك وحيه ، وقل رب زدنى علما .. » .

فالواجب هو التريث والانتظار ، استكمالا لما قضت به المشيئة ، حيث ارادت الوحى اول ما ارادت ، ثم قضت الى الرسول وحيه ، وانارت به فؤاده وبصيرته ، وكشفت له فى التريث مستغلقات كانت خافية عليه ، ولم يكن يعرفها .. فتلقى الوحى يتم ، ثم يقضى وحيه ، ثم يكون العلم اللدنى واستنارة الفكر ، وتفتح النهى ، واكتمال العلم الذى يوصى الله به رسوله حيث يأمره بعد هذا أن يسأل الله ربه ليزده علما ..

فالقرآن علم ، نزل اول ما نزل على قلب محمد .. علم امر بأن لا يحمل نفسه عناء مراجعته السريعة ، بل تدبر معانيه حتى يقضى اليه صلى الله عليه وسلم بها ، ثم تستنار بحقائقها بصيرته ، فيتم العلم اللدنى الذى يأمره الله تعالى أن يسأله دواما أن يزيده منه ..

أما الحفظ ، واما الخوف من السهو والنسيان ، فتلك أمور .. لم تكن لهفة محمد على اعادة التلاوة والاسراع فى المراجعة بقادرة على حمايته منهما ، فالنسيان مقدور ، والسهو حتمى ، ما لم يرد الله سبحانه وتعالى غير ذلك وانه ليقول لرسوله فى هذا :

« لا تحرك به لسانك لتعجل به ، ان علينا جمعه وقرآنه ، فاذا قرأناه فاتبع قرآنه ، ثم ان علينا بيانه .. » .

وهكذا تأبى مشيئة الله الا أن توجه محمدا وترشده ، وتعلمه وتستكمل شتى مناحى تعليمه ، ليطمئن قلبه ، ويهدأ وجدانه ، ويستنير نهاه ، وتشرق فى جوانبه اضواء المعرفة ، وأنوار العلم العظيم .

وعلى هذا .. وتبعا لذلك التوجيه الارشادى الأعظم ، اعتاد الرسول الكريم أن يتلقى الوحى ، ويستمع اليه ، ثم لا يلبث جبريل بأمر الله القادر ان يعيد على النبى قراءة ما جاء به ، فيقرؤه صلى الله عليه وسلم معه ، ويعيد قراءته ويتثبت منه ، ثم يخرج به على المسلمين فيسمعهم ويستحفظهم اياه ، فيقبلون عليه فى شغف وشوق ، وتطيب به قلوبهم ، وتتفتح له تفتح الأزاهير لانداء الصباح الطاهرة ، ويسارعون باستظهاره ، وحفظه ، وتدبر معانيه ، ولا يلبثون أن يعيدوا عليه صلى الله عليه وسلم قراءته للتثبت والثقة من القراءة نفسها ..

وبعد هذا كله .. بعد هذا التثبت والحفظ والاستيعاب يجىء دور كتاب الوحى ، وهؤلاء يجمعهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فيمليهم ما نزل عليه لكتابته وتسجيله عقب نزوله مباشرة .

واذا كان القرآن الأعظم قد نزل على قلب محمد آية بعد آية ، أو آيات متتابعات بعد آيات ، فالذى كان يحدث بعد هذا هو ترتيب هذه الآيات واحكام وضعها فى مكانها من السورة ، وهذا ما كان يفعله جبريل ، ليتم ترتيب آيات الكتاب وسوره فى وضعها المتعارف عليه بعد ذلك .

ولم يكن هذا هو كل ما يحدث لاتمام تسجيل كلام الله ، والمحافظة عليه بامر الله ، بل لقد تعود جبريل عليه السلام ، وباذن من الله ربه أن ينزل على محمد خلال أيام رمضان المبارك من كل عام ، وكان فى نزوله عليه السلام فى هذا الشهر العظيم ، بالذات ، هو مراجعة ما نزل فعلا من آيات القرآن وسوره المحكمات ، فيقرؤها جبريل على محمد ، ثم يعود الرسول الكريم فيقرؤها من بعد جبريل ، ليراجعه ويقره ، وهذا يفسر ولا جدال حكمة توجيه رسول الله صلى الله عليه وسلم من قبل الى عدم التعجيل بقراءة القرآن ساعة نزوله ، لأن ما نزل ستعاد قراءته ، وفى الاعادة والتكرار تثبيت وتدعيم وتوثيق لا يأتيه الباطل أو الشك من بين يديه ولا من خلفه ، ثم ان هذا من بعد هو القضاء بالوحى ، ومعنى توجيه الرسول الى أن يسأل الله ربه المستجيب أن يمن عليه بالعلم ، وأن يزوده من فيوضه اللدنية . .

وهنا أيضا التفسير الواضح لمعنى قوله تعالى : ((**لا تحرك به لسانك لتعجل به ، ان علينا جمعه وقرآنه ...**))

فجمع القرآن ، ثم قرآنه ، وقراءته وضبطه ، وتحديده ، أمر موكول الى الله تعالى منزل هذا الكلام الخالد وصاحبه ، وانه ليس عليه سبحانه وتعالى حفظه فقط ، بل جمعه وقرآنه ، وان عليه أيضا بيانه . .

ولقد ظلت عادة نزول الروح الأمين على محمد مرة واحدة خلال أيام رمضان ولياليه للمراجعة والحفظ واحكام البيان ــ ظلت هذه العادة تقليدا متبعا يتكرر موسميا وتلقائيا دون تبديل أو تغيير فى هذا الموعد المبارك المتفق عليه ..

ثم شاءت ارادة الله سبحانه وتعالى ذات عام ، أن يتضاعف نزول الروح الأمين على الرسول ، من مرة الى اثنتين ...

أن هذا الاهتمام اللدنى يقرر أمرا جللا ولا شك ، فابدال التقليد الموسمى ومضاعفته من مرة الى مرتين ، يدل ولا شك ان فى الأمور أمور ، والا ما اقتضت الحكمة السماوية ان يراجع الكتاب مرتين ، وأن يتثبت الرسول الأعظم منه مرتين ، وأن يعيد قراءته على جموع المسلمين مرة ثالثة بعد كل مراجعة من هاتين المراجعتين .

لقد كان ذلك العام هو عام الوداع ... العام الذى انتقل فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الرفيق الأعلا ... فاراد الحق أن تكون المراجعة النهائية وتمام الشكل الأخير للكتاب الأعظم .. كتاب الله ...

قرا جبريل القرآن مرتين ، وأعاد الرسول قراءته مرتين ، ثم خرج على المسلمين يقرؤه عقب كل مرة من هاتين المرتين ، وكان اظهر من حضر هذه القراءة والاعادة الأخيرة من كرام صحابة الرسول صلى الله عليه وسلم ابو بكر الصديق ، وعمر ، وعثمان ، وعلى ، وزيد بن ثابت الانصارى ، ومعاذ بن جبل ، وأبى بن كعب ، وعبد الله بن مسعود ...

وبعد هذا كله .. بعد ان تمت هذه القراءة التثبيتية والمراجعةالتوكيدية الحاسمة ، مرة ومرتين ، كان بعدهما قراءة ثالثة ورابعة للصحابة الكرام — اقول بعد هذا كله .. جاء دور كتاب الوحى رضى الله عنهم ، فأقبلوا بأمر من رسول الله صلى الله عليه وسلم على الرقاع والجلود المسجل فيها كتابة كلام الله .. وراحوا يراجعونها المراجعة النهائية ، وباشراف رسول الله ...

فالشارع الحكيم سبحانه وتعالى يقول فى محكم كتابه وهو أصدق القائلين :

« انا نحن نزلنا الذكر ، وانا له لحافظون ... »

فانه تبارك وتعالى يعنى تماما وعده الأعظم بحفظ الكتاب من التطاول والعبث والافتراء عليه بالباطل ، ثم المحافظة عليه على كر العصور ، لا لأنه كلام الله فحسب ، **بل لأنه المصدق الأوحد لكل ما سبقه من كتب سماوية منزلة ، فهو يردها الى أصلها ، وهو يرشد المختلفين فيها الى الحق الصراح ، ويهديهم سواء السبيل ...**

فالحفظ اللدنى ، والمحافظة الربانية الراعية ، قد تبدت اول ما تبدت فى الأمر التوجيهى الى الرسول الأعظم باستيعاب الذكر عند نزوله ، وتلقى الوحى كما يجب أن يكون تلقيه ، ثم فى القضاء الى الرسول بعد هذا التوجيه الأول بان يتوجه الى الله ربه المستجيب المنان يسأله ان يضاعف نورانية بصيرته ، وأن يزده علما الى علم ، ثم أمره عليه الصلاة والسلام بعد هذا بتدبر معانى القرآن ، والا يحرك به لسانه ليعجل به ، فالله وحده قد تكفل لا بجمعه فحسب ، بل بقرآنه ، واعادة تلاوته وقراءته ، حتى يتبع الرسول قرآنه ثم ... وبعد هذا كله سيكون على الله وحده بيان الذكر ، أيا كان هذا البيان ...

فالذكر الحكيم قد أوحى به ، ونزل بآياته المحكمات على قلب رسول الله جبريل ، ثم أعيدت قراءته ، وتم الأمر بتسجيل ما نزل ، وقرىء فى الصحاف والرقاع أولا بأول ، حرفا حرفا ، وكلمة كلمة ، وآية بعد آية ،

وسورة من بعد سورة ، لينقل بعد هذا بطريق التواتر ، ويتداوله الناس جميعا بين حفاظ وقراء ، ومعارضين ومؤيدين ، فاى حفظ للذكر الحكيم بعد هذا كله ، واى تثبيت يفوق هذا التثبيت المادى المدعم بجميع الضمانات والأسانيد ومن شتى الوجوه ...

ولا يشارك القرآن الكريم فى خاصته التفرد بالقراءة والاستيعاب ثم الاعادة والتسجيل أولا باول فى الرقاع المدونة — الا توراة موسى ووصايا الله العشر اليه فهى يوم نزلت عليه فى طور سينين ، لم تكن وحيا ولا كلاما ، بل صحفا والواحا مكتوبة عاد بها كما تلقاها الى قومه لتكون الدليل المادى الملموس على صحتها وواقعيتها ، وبانها سوف تبقى على الزمن كمرجع هدى ، ومصدر نورانية ، وتذكير لقوم يوقنون ويؤمنون ...

ولقد حفظت الواح الوصايا العشر فى تابوت العهد ، وظل اللاويون يتوارثون حفظها وحمل تابوتها مع الزمن حتى اختفت يوم انهار ملك سليمان ، وتبدد ملك اسرائيل وضاع يوم بعث الله عليهم عبادا أولى باس وقوة ساقوهم الى الأسر فى بابل فبقوا فيه ما شاء لهم الله أن يبقوا ، ولا عمل لهم غير البكاء والتباكى ناسين الألواح والتابوت والوصايا التى ضاعت كلها ، ولم يبق لهم منها غير الذكريات وذاكرة كاهنهم عزرا الذى راح يعيد كتابة ما احتوت الألواح عليه بوحى من الحرمان ، ومرارة الاحساس بالذل والاسر ...

وذاكرة عزرا ، كائنة ما كانت قدراتها على الاستيعاب والحفظ ، لم يكن بوسع صاحبها أن يستوعب دقائق الشريعة الموسوية كاملة مدعمة ، غير منقوصة دون الرجوع الى الأصل ومراجعته والتثبت منه ، فكان العدوان وكان الافتراء ، وكان تحريف الكلم عن مواضعه ، وهو ما جاء السيد المسيح لتصحيحه ليعود بالناموس الأكبر الى اصله ..

وحتى انجيل عيسى ... حتى اصل الشريعة والوصايا الربانية العشر ، التى اقامها من جديد وصححها السيد المسيح بوحى من الله وامره ، حتى هذه الوصايا الكبرى ، لم تسجل وقتها ، ولم يقم الحواريون بكتابتها ، بل ان قصة جهاد السيد المسيح وبعثه ، وما لقى من تعرض وعنت وارهاق ، لم يكتب الا بعد رفعه عليه السلام الى السماء ، وقد خلط من كتبوه بين القصة ذاتها ، وما اشتملت عليه من أحداث وحوادث وبين الرسالة الروحية والشريعة العظمى التى جاء بها وعارض بها أحبار اسرائيل ومن زيفوا الكتاب وجعلوه قراطيس اشتروا بها ثمنا قليلا .. اقول حتى هذه الشريعة فى نصها وكما نزلت — وهى صلب رسالة عيسى وتصحيح الوصايا العشر المصححة من لدن عليم حكيم ، والتى أعاد بها السيد المسيح الى الوجود الحق وصايا موسى — هذه الوصايا لم تكتب كما نزلت حرفيا .. بل مع

الأحداث التى نزلت معها ، والمناسبة التى قيلت فيها ، وكأنها هى جزء من هذه الأحداث السردية .

من هنا يختلف كتابنا جملة وتفصيلا مع من سبقه من الكتب فى واقعة التسجيل الوقتى المثبت للآيات كما نزلت ، وكما جاء بها الروح الأمين ...

ومن هنا ، وأمام ماذكرنا من مراجعة جبريل عليه السلام للرســـول الكريم ، واعادة قراءة القرآن فى كل عام مرة ، ثم مرتين فى أواخر حياة النبى — من هنا يبين الوعد الربانى الأعظم بانه هو سبحانه وتعالى حافظ الذكر بعد أن أنزله ، وهو الذى سيتولى صيانته من عبث العابثين ...

فالقرآن امام هذا اذا ، هو أعظم معجزة مادية نزلت من السماء ، وخلدت فى الصـــدور كما نزلت ، وكما تم تسجيل آياتها المحكمات ، وذلك دون مساس بها أو اجتراء عليها ، أو تحريف لكلمها الأعظم عن مواضعه التى قدرها له الله منزل هذا الكتاب ..

وابسط وجوه الاعجاز فى القرآن هو نزوله بالعربية ، ورغم هـــذا لم يصل عقل ، أو ترقى مقدرة على التطاول اليه ، أو محاولة محاكاته ، مع أن الله القـــادر قد تحـــدى يطلب الاقـــدام على محاولة هذه المحاكاة ، فلم يتجاسر عليها جرىء أو متطاول ، أو بالغ ما بلغ فى الفصاحة والبيان ..

فالقرآن الكريم ، ليس مجرد سرد لغوى متين فحسب لشريعة واحداث وآيات ، بل هو علم .. علم مدعم بمعرفة وخبرة ، وقـــدرة على الخلق والابداع ، ثم عرض آيات قدرته هذه على السامعين بما يذهلهم ويضعهم فى موضع العاجزين ، وتبسيط دقائق مالم يعلموه ، ولم يعرفوه ومالم يصل الى علمهم أو علم آبائهم أو سدنتهم .. بما أشعر الناس جميعا بالعجز لا عن محاكاة الصياغة ، أو تقليد التراكيب ، بل عن مجاراته فى الوصف ، والشرح والتفصيل ، لأن هذه الأمور ، لا يجسر عليها غير عالم بها ، ومن اعلم بأسرار الكون والخليقة من الله !!

واعجاز القرآن فى نزوله باللغة العربية ، يبدو أول ما يبدو فى قدرة هذا القرآن على جمع العرب حول هذه اللغـــة التى وحدت اللغات المتعددة واللهجات المتباينة ، فقضى بذلك على التعدد البغيض ، فالذكر الحكيم قد وحد اللغة ولم شعثها ، ثم حفظ اللغة نفسها بعد ذلك من الضياع ، وفتح عديدا من آفاق البحث فيها ، والتقصى والاجتهاد الهادف الى اجلاء حقائقها ، وكشف كنوزها ، فكان ان أوجد فى شتى مجاليها علوما ومعارف لم يكن للعرب ولا لغة العرب عهد بها من قبل ..

((ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون ، قرآنا عربيا غير ذى عوج لعلهم يتقون ..))

فأى أمثلة هــذه التى ضربها الله فى قرآنه ؟ وشــملها قدسى كلامه ، وما أنواعها ؟ وما هى نماذجها وأنماطها ؟!!

ان الأمثال التى ضربها الله فى قرآنه العظيم عديدة لا تحصى ، رغم قيدها وحصرها بين دفتى الكتاب المنير ، وبين سطوره .. أمثلة من كل نوع ، وفى كل باب من أبواب العلم والمعرفة .. أمثلة اخبارية ، واخرى سردية ، وثالثة تدور حول الغيبيات ، والبعث والنشور بعد الموت ، ثم الخلود فى حياة العــذاب المقيم ، أو النعيم الخالد ، ثم صنوف أخرى بعد صنوف من الفهم البشرى ، ما كان للفهم البشرى أن يدور فى فلكها لو لم يأخذه كلام الله اليها ، وتعرض صورها عليه ، ويرشده الى ارتياد مجاليها ليتزود بالمعرفة ، ويزداد اقرارا بالقدرة ، وبأن الله لم يخلق الناس عبثا ، بل لعبادته ، وتسبيحــه والاقرار بأنعمه ، والتحــدث بها وترديد مننه ، والاقرار له بالحمد وجميل الثناء ..

لقد علم القرآن وارشــد .. وراح فى يسر وسهولة واحكام ينقى العقلية العربية من شوائب جاهليتها الحمقــاء ، المتعالية بالانساب ، المتفاخرة بالصغائر التى لم تسم يوما الى كمال ، أو تتعالى الى فضيلة ، اللهم الا فضائل فردية ذاتية ، أوجبها الوضع الطبيعى لبيئتهم وحياتهم كالنجدة والشجاعة والمغامرة والاسراف فى الخيال ..

وجاء القرآن بعهده النورانى المشرق فاستضاءت الغياهب ، ووضحت المسالك ، وأصبح الطريق ممهدا معبــدا ، ميسور الســلوك للجميع ، دون نظر الى أنساب أو ارحام ، أو جنسيات ، بل لأن العدة فيه كانت العمل الصالح لخير البشرية كلها والناس اجمعين ، لا لخير عشيرة دون عشيرة ، ولا لصالح قوم دون قوم ..

ضرب الله الأمثال للناس فى هذا القرآن لعلهم يتذكرون .. والتذكر هو المعرفة وهو التثبيت ، وهو الدأب ، وما دامت قد وضحت علامات الطريق ، فقد عرف الانسان أن من يعمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأجره على الله ، وأن جزاء السيئة سيئة مثلها ، وجزاء الحسنة مضاعف يصل الى عشرة أمثالها ، وأن كل ما يفعل الانسان ثابت فى كتاب لا يأتيه الباطل ، وسيجزى به فاعله ، فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ، وما ربك بظلام للعبيد ، فالله هو الحكم العدل الذى ينظر فى اعمال الانسان وما قدمت يداه ، ولا ينظر ابدا الى حسبه أو الى نسبه أو جاهه ، أو مكانة عشيرته ..

امثال عديدة ضربت للناس فى كتاب الله الحق .. فى قرآنه العظيم .. القرآن العــربى المستقيم اللفظ ، الواضح العبارة ، البليغ الأسلوب ، الذى لا ميل فيه ولا عوج ، حتى تملأ العظة قلوب البشر جميعا ، ويعرفوا طريق التقوى والايمان ..

فسلامة اللفظ القـرآني وجماله ، وبلاغته المعنوية واللغـوية ، وبعده عن كل غريب مبتذل من نافر القول ، وشاذ اللهجات والكلم ـ قد أشعر العرب جميعا بكماله التركيبي ، وروعة بلاغته ، وقوة اعجازه القادرة التي لا يصل اليها عقل في الوجود ، فكان أن تصاغروا أمامه وهم أهل البلاغة ، وتضاءلوا مقرين العجـز ، راغبين في الاستفادة منه ، والتزود من فيوضه الدافقة .

واتجه العرب ... كل العرب ... حتى من عارض القرآن وكذبه ، وقال عنه أساطير الأولين ، أو خيال شاعر يعلمه بشر ـ اتجه العرب كلهم الى كلام الله ، بكل أخيلتهم وأفكارهم واستنباطاتهم ، فأحسوا انهم أمام مقدرة وقدرة فوق مستويات البشر ، وان ما فيه من اعجاز البساطة مادته وروحه ، هو سر امتناعه عليهم ، واحساسهم بالصفر أمامـه ، حتى لقـد راحت ومضات منه تنفذ في سرعة الى ظلمات القلوب ، فأقرت ، وآمنت ، وسجدت ، واعترفت بأن هذا لا يمكن أن يكون افتراء بشر ، بل تنزيل من الله ، وانه لكلام العزيز الحكيم ..

ورغم هذا الاقرار الاعجازي بالقدرة ، وبأن محمدا على حق ، وأن القرآن حق ، وانه كلام الله ، كان العناد المقيت .. وكان الحقد الأسود .. وكان الحسـد .. وكانت البغضاء .. وكانت هذه المشاعر اللعينة تسارع بالتدخل كي تطمس معالم الاقرار بالحق في أعماق القلوب القلقة ، غير المستقرة في الايمان ، ولم يلبث أن ضل من كاد يلين ، فاستحالوا أعداء ألداء قساة غلاظ القلوب ، وارتدوا مردة شياطين تعارض الحق ، وتنافح عن الباطل ، وتسعى أن تتطاول على نور الله لتطفئه بأفواهها ، وتقول في القـرآن ـ كتاب الله ، وكلام الله ـ انه قـول بشر ، أعترته بعض آلهتهم بسوء فضل وغوى ، وان عليهم بعد هذا ان يعارضوه ويكذبوه ، ويتربصوا به ريب المنون ..

ونزل في سورة النجم ما يخرسهم في قوله تعالى :

« والنجم اذا هوى ، ماضل صاحبكم وما غوى ، وماينطق عن الهوى ، ان هو الا وحي يوحى ، علمه شديد القوى ، ذو مرة فاستوى ، وهو بالأفق الاعلى ، ثم دنا فتدلى ، فكان قاب قوسين أو أدنى ، فأوحى الى عبده ما أوحى ... »

ولقد توعد الله المكذبين بالعذاب الأليم ، وأوضح في كتابه ان الجدال في تنزيله كفر والحاد :

« ما يجادل في آيات الله الا الذين كفروا ... »

وبالغ القرآن في تحدي من تولى وكذب بالحسنى ، وأبى أن يؤمن بالله خالق الأكوان وما حوت ، والسـماء ومن أظلت ، والأرض ومن حملت ..

مصرف الأمور ، مسير السحاب ، خالق الليل والنهار ، مقدر الموت والحياة .. بالغ القرآن فى تحدى هؤلاء الضعاف فلم يطلب اليهم أن ياتوه بمعجزة ، بل طلب اليهم ان يحاولوا تدعيم تقولهم على كلام الله ، وانه قول بشر ، بان يحاولوا محاكاته ، وان ياتوا جميعا ومعهم شياطينهم بعشر سور من مثله مفتريات .. بل سورة واحدة .. بل آية مدعمة بادلة صدق .. وشهود حق .. ودليل اقتدار ..

فعجزوا جميعا وتصاغروا ..

ولكن .. ورغم هذا التصاغر والاقرار بالعجز ظهر آحاد من الكذابين الأدعياء فى سوامر قريش .. بل واحد فقط كان قد عاش زمانا فى بلاد فارس وعرف من آدابها وأفانينها الخيالية وقصصها المبتدع ، وأساطيرها الشيء الكثير ، فراح يروى أحاديث بطولات خرافية عن « **رستم وسهراب** » « **ودروزابه واسفنديار وزال** » وملوك الجن وقادة الشياطين ذو الرءوس المتعددة والقوات الخارقة وكان اسم ذلك المحدث « **النضر به الحارث** » .

واحس الناس بالسآمة من رتابة الحديث الممجوج ، الذى كان يمجد بطولات فردية يأبى العقل السليم أن يتصورها ..وتطلعت الأرواح حبيسة الطين من وراء الحجب الداكنة تتلمس ما تأمله فى القرآن — كلام الله — الذى اعتادوا الانصات اليه برغبتهم ، والتفكير فى معانيه ومراميه وأهدافه .. فينكسوا الرءوس ولا يجدوا غير الاعتراف بأن ما جاء به محمد لا يمكن أن يكون الا من عند الله ، انه كلام الله .

وشغل عبدة الطواغيت أنفسهم بمعارضة محمد ، ومحاولة تكذيبه ، والتهوين من شأن ما كان يقول ، وادعوا أن القرآن كلامه ومن صنعه .. ولو تدبروه ، لوجدوا أن محمدا ، وقوم محمد جميعا ، ما وصلوا الى مثل هذه الأماد فى العلم والمعرفة والقدرة على التعبير الاعجازى .. ولكنهم وقفوا حيث أرادت لهم شياطينهم أن يكونوا .. يكذبون ولا يعرفون كيف يكذبون أن يثبتون حقيقة أكاذيبهم ، ويعارضون وهم لا يدرون كيف يعارضون ، لأن بصائرهم ووجدانهم وكل مشاعرهم انما كانت تصدق محمدا وتؤمن بما جاء به وهو الحق .

وآمن من آمن عن اقتناع بالدعوة وتصديق لصاحبها عليه الصلاة والسلام ، ثم ارتد من ارتد .. ولم تكد تدول دولة القائلين باسطورية عربية القرآن الاعجازية التى لا تنال — حتى عادت طائفة أخرى من المضالين القرآن ، وانه سجل اخبارى لقصص الأولين والغابرين — لم تكد تدول هذه الدولة ، ويسكت باطل المتقولين فيها ، وعجزت عربيتهم البليغة عن محاكاة عربية القرآن الاعجازية التى لا تنال ، حتى عادت طائفة أخرى من المضالين تحاول التطاول على نورانية الحق ، فلم تقل بالمعارضة ولا بالقدرة على المحاكاة ، بل ادعت النبوة .

اجل .. قامت طائفة ادعت النبوة ، وقال قائلهم : انهم اصحاب رسالة سماوية عليا ، وان الله الحق مرسل محمد بنوره وهداه ، ابى ان يخص قريشا وحدها بهذا الشرف العظيم ، فاراده موزعا بالقسط والعدل بين اقوام وعشائر اخرى غير قريش هذه ، وانه ما دام القرآن الأعظم هو عدة محمد وسلاحه ، وهو معجزة الله المادية الكبرى التى جاء بها صلى الله عليه وسلم ، وانها اعجزت كل من عارضوه وكذبوه ، فانه ومن الضرورى سيكون مع هؤلاء الكذابين مثل سلاح محمد وآيته ومعجزته .. سيكون معهم قرآن مثل قرآن محمد لا محاكاة فيه ولا تقليد ، بل ينفرد بخصائص ويؤيد وجهة دعوة حق مثل دعوة محمد تماما ، لها أهدافها ولها دستورها ، ولها ناموسها الاكبر الذى ينزل على اولئك الادعياء من عند الله يحمل اليهم الوحى ، وما أمر به الله ونهى عنه .

وقد ظهر فى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم اثنان من هؤلاء الكذابين ، اولهم « **مسيلمة** » وثانيهم رجل أسلم وحسن اسلامه ثم ارتد عن دينه واسمه « **نهار الرحال** » أو « **الرجال** » — وهو اصلا مهاجر جاء النبى صلى الله عليه وسلم وعاش فى كنفه ، وظلال دينه الفيحاء ، وفيئه الشامل ، ويعيش بين اخوته فى الدين ، وزملاء جهاده من المسلمين الصابرين المجاهدين ، يؤمن بما كانوا يؤمنون به ، ويصدق ما صدقوا به ، واجتمعوا عليه من حق ، ويقرأ القرآن الأعظم ، ويتحمس له ويعمل بهديه وهدى الرسول ، ويتعمق فى دينه ويدرسه عن دراية لفتت اليه نظر محمد صلى الله عليه وسلم فكان أن أراده سفير صدق له ، ورسول هداية وبعثه الى « **اليمامة** » يعارض كذابها « **مسيلمة** » ، ويدحض باطله ، ويكذب دعوته ، ويقف فى وجهه ، فيبطل حجته الواهية ويرد الناس عنه .

وأسرع نهار الرحال ، الى ارض اليمامة ، وقد عظم فيها امر الشيطان ، وتمكن من آهلها ، وخالط منهم الدم واللحم ، والعصب والمسامع والأطراف ثم ارتفع فعشش ، ثم باض وفرخ ، فحشاهم نفاقا وشقاقا وكفرا وضلالا ، وخرج بهم عن جادة الصواب ، وحشدهم فى محرابه اللعين حول الكذاب الأشر مسيلمة بن حبيب .

أسرع نهار الرحال الى موطن جهاده الذى عينه له الرسول الكريم .. وبانت له رقعته .. وتبدت لبصيرته مجالاته الفسيحة .. فأشفق من ارتيادها ، وفكر فى أمره وتدبر ، ثم رضى من الجهاد بالنكوص ، واستبدل الحق بالباطل ، واشترى بعز الدارين ذلا وضياعا ، وما لبث أن دخلت المطامع نفسه فاذا هو بين لحظة ولحظة ، عونا للكذاب مسيلمة بن حبيب ، بل وشريكا له فى ادعائه الكذب ، وتطاوله بالباطل ، وكان ساعد مسيلمة وعضده ، وكان مؤتمن دعوته ، وكان ناصحه وهاديه ، وكان أول مسلم له مكانته يشهد بنبوة مسيلمة ، ويؤيد رسالته ، ويقول على الله الكذب

فيدعى أن سيدنا رسول الله قد اعترف صراحة ان مسيلمة الكذاب قد اشرك فى الأمر معه ..

وكانت نكسة قوية .. وكانت انتصارا مبينا للكذاب ومساعد الكذاب ..

ذلكم كان « نهار الرحال » .. الذى آتاه الله آياته فانسلخ منها وكفر بها .. وان تطاوله على الدعوة وصاحبها وقف به عندهذا الحد من حدود القول بالباطل الصراح وبان محمدا قد اعترف بمشاركة مسيلمة له فى الأمر .. ثم كان له أثره وتأثيره الظاهر بعد ذلك فى تنظيم دعوة مسيلمة واتقان اكذوبتها ، والادعاء بان كذاب اليمامة ياتيه وحى اسمه « رحمن » يتزل على قلبه كلام الله وقرآنه ، تماما .. تماما كما حدث مع الأمين الصادق رسول الله ..

وافتراءات الكذاب الأشر مسيلمة الذى شارك أو أوحى ببعضه « نهار الرحال » اللعين هذه الافتراءات اللعينة كانت الأكذوبة البغيضة التى حاول مروجوها عن طريقها معارضة محمد ، ومعارضة كلام الله ، واظهار المقدرة العليا لمحاكاته ، وصياغة قرآن مثله ، بل على تلقى وحى مثله من السماء .. من لدن عزيز قادر عظيم ..

وانا .. وامعانا منا فى السخرية بترهات الكذاب نحب أن نعرض على القارئين صورة منه .. صورة ساخرة مضحكة ، ماتت يوم ولدت ، وان كانت قد وئدت قبل أن تولد ، ولكن جنينها المتعفن خرج الى النور لتظهر شناعته وقبحه ، وتبين حقيقته فلنسمع معا بعد هذا قول الكذاب :

« والشاة والوانها .. واعجبها السود وألبانها .. والشاة السوداء واللبن الأبيض انه لعجب محض .. وقد حرم المذق ، فما لكم لا تمجون ..

ثم قوله المضحك بعد هذا :

« يا ضفدع بنت ضفدعين .. نقى ما تنقين .. نصفك فى الماء ونصفك فى الطين ..

ثم قوله لعنه الله :

« الفيل ما الفيل .. وما ادراك ما الفيل .. له ذنب وبيل . وخرطوم طويل ..

أقوال لا تستحق السخرية ، ولا تستاهل حتى الضحك منها ، فهى ليست قول مجنون يهذى .. ولا ادعاءات كاذب يتبجح ، بل ثرثرة مفتون دعى ، جرىء يكفى ما وصفه به الأحنف بن قيس وقد أتاه مع عمه باليمامة ، وجلس اليه واستمع له ، ثم لما خرجا سأله عمه :

« ماذا رأيت من الرجل يا احنف ..؟ وكيف رأيته ..؟

فأجاب الأحنف ويا صدق ما قال :

((ان مسيلمة هذا ليس بالمتنبيء الصادق ولا هو بالكذاب الحاذق ..))

ورغم هذا ، ادعى ان الوحى يأتيه ، فانخدعت به شراذم من الضالين وآمنوا له ، وتمسكوا بأكاذيبه واضاليله التى ادعى انها قرآن ، ووحى من السماء ، وأن مجرد العرض الساذج لأسلوبها وطريقتها يحكم بانها الكذب الصراح كقوله مثلا :

((والمبذرات زرعا .. والحاصدات حصدا .. والذاريات قمحا . والطاحنات طحنا .. والعاجنات عجنا .. والخابزات خبزا . والثارد ذات ثردا .. واللاقمات لقما .. اهاله وسمنا . لقد فضلتم على اهل الوبر .. وما سبقكم أهل المدر . زيفكم فامنعوه . المغتر فآووه . والباغى فناوئوه ..

تلكم صورة من تطاول الكذاب .. وانها لصورة تكررت مع غيره من الكذابين الذين ماتت دعواتهم ، وضل فى كل واد مسعاهم ، وباءوا بالخزى والخسران المبين ..

وذلكم بعد هذا هو قرآن مسيلمة ، فهل مثله حرى بأن يبقى وأن ينفذ الى أعماق القلوب ، فيجمع الناس على حق ، ويدفعهم الى الجهاد والاستشهاد والاستهانة بالروح والولد والمال !!

شهد الله وملائكته والناس جميعا أن هذا هو الضلال المبين ، ومن أجل هذا ضل ، وفنى ، وذهب واصحابه اباديد ، ولهم النار وبئس المصير ..

وغير مسيلمة والنهار الرحال ، ظهر فى عهد الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم كذاب آخر ، ولكنه رغم بلاغته وفصاحته وقوة حجته ، وادعائه بنزول الوحى عليه ، لم يجسر أن يجاهر بقرآنه ، أو يسمح للناس بالاستماع له ، وقد كان هذا الكذاب ، هو ((عبهلة بن كعب)) الذى عرف باسم ((الأسود العنسى)) ، وكان رسولا بلا قرآن .. ضلت دعوته ، واخزاه الله واتباعه ، وقد سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بمقتله وزوال دولة عزه ، قبل أن يلحق عليه الصلاة والسلام بربه بليلة واحدة !!

وفى عهد الراشدين .. فى عهد الصديق أبى بكر بالذات ظهرت ((سجاح بنت الحارث بن سويد التميمية)) ، وقد عاشت مع خئولتها من ((بنى تغلب)) وكان لها قدم فى النصرانية ، وكانت على علم سخرته فى الكهانة والتنبؤ والافتراء ، فركن لها بعض بنى تغلب ممن ادخلت فى روعهم انهم هم الملوك ومن سواهم من القبائل هم الرعية والأتباع ، وان اقدس واجب عليهم ان يجاهدوا ليستردوا ملكهم التليد ، ويخضعوا العرب جميعا لسلطانهم ، ويرغموهم على الاقرار بسيادتهم عليهم ..

وارتاح القوم الى نبوءتها وأكاذيبها ، فعز أمرها فيهم وتجمعوا حول رايتها ، وخرجت بهم تريد قتال أبى بكر خليفة رسول الله لتنتزع منه ومن قريش الملك وترده الى تغلب ..

وظلت سجاح فى طريق الضلال تهاجم قوما ، وتسالم آخرين حتى انتهى بها وقومها المطاف فى ارض اليمامة ، وقد عظم فيها أمر مسيلمة الذى لقيته فخدعها بقوله ، واخذها بباطله ، وأقنعها انه سيكون وهى اعظم قوة تسود ، ودعاها الى الايمان به ، فصدقته وقبلت زواجه واقنعت بدينه قومها ، ثم عاشت فى ظلال الكذاب ..

هذه الخارجة ، المتنبئة ، ادعت قبل لقاء مسيلمة قرآنا ، لم يبق لنا الزمن شيئا منه فكانت تزعم أن الوحى ينزل عليها ، فيوحى اليها بما كانت تقول وهو الكذب الصراح الذى ارتدت عنه بعد ذلك ، ودخل نور الاسلام قلبها فأسلمت وآمنت وحسن اسلامها واستغفرت الله لتطاولها .. وراحت تكفر بكل الوسائل عن الادعاء اللعين الذى تمسكت به ..

اولئكم كانت جمهرة الكذابين المكذبين ، الذين ارادوا التطاول على الدين فصرعهم الدين ، وجرءوا على الادعاء بأن الوحى يأتيهم بقرآن ، اثار الضحك والسخرية والرثاء ، ولم يشغل الناس الا ليتندروا بركاكته ويستشهدوا عليه بسخفه وشناعته .. أولئك هم الفراشات التى حومت حول النور فحرق أجنحتها ، ثم سقطت وانتهت فى الظلام ..

أولئكم من فكروا فى صراع كلام الله ، فصرعهم كلام الله ، وابوا الا التطاول عليه ، فداروا حول انفسهم وعادوا من حيث اتوا اذلاء مقهورين ..

والقرآن .. النور الأسنى .. والمعجزة السادية الباقية على الزمن .. القرآن .. الطود الراسخ .. دعامة الاسلام الكبرى ، وقوام كبرى الرسالات ، ومصدر نورانيتها وروعة شريعتها السمحاء .. ماذا اقول فيه ..!!؟ لقد بقى وخلد .. وعز واعتز .. لأنه وحى الله وكلامه ومن أبلغ من الله قيلا ..

هذا هو القرآن ، الذى كتب الله له أن يحفظه ويصونه ، فهو سبحانه وتعالى من انزله وفصل آياته وأحكمها .. وانه لشريعته الكبرى التى قدر الله لها أن تكون مرجع شرائع الله جمعاء ، ومن أجل أن يكون مرجعها الحق الذى لا يأتيه الباطل ، حفظه ورعاه وصانه وحماه ..

وانه بعد هذا مقوم اعوجاج الشرائع ، ومنقيها من شوائب جرأة اهل الضلال عليها ، ومنقيها من عبث العابثين ، وقذى تحريف الكلم عن مواضعه ، وادعاءات من اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت لهم تجارة وما كانوا يهتدون .

وهو جامع ديانات الله .. وجامع الديانات كلها يجب أن يحمى وأن يصان ، وأن يتولى رعايته العزيز ذو الانتقام صاحب العرش المتين ، فهو سجل الرسالات الكبرى التى سبقت رسالة محمد العظمى ، وهو الهدى والمنار ، ونور القلب وقرة العين ونبراس الوجدان ..

وهو الحقيقة ونورانيتها .. والنور يجب أن يخلص من كل كدر ، والا تشوب صفاءه شائبة ابدا .. فهو النور بما تعنيه كلمة النور من معنى ومبنى .. وهو الذكر الحكيم .. وهو الرحمة والغوث .. وهو شفاء القلوب .. **فيه صحف ابراهيم وألواح موسى ، وهو المصدق والمؤكد والمؤيد لما حوت ، لأنه نادى بهـا ودعا اليها وجاهد به الرسـول فى سـبيل نشرها ..**

وهو الذى فيه بعد هذا رسـالة عيسى ودعوته النقية الحقة ، وسطور انجيله القويم .. وهو ما بشر به السيد المسيح وبمقدم من نزل عليه ، وقال انه وأحمد المختار من سينصفانه ويجليان الحقائق كل الحقائق عنه ليظهر الحق ، وتبين حقيقة ابن مريم العظيم ..

وانه بعـد هذا .. والحالة بكل هـذا لب دعوة محمـد ، ومحور ارتكازها ، وهو دعامة كبرى الرسـالات الذى نسخ كل كتـاب قبله وجب ما سبقه من شرائع ودعوات ثم جمعها كلها فى دعوة واحدة ، ونادى بها دينا واحدا قال ان اسمه عند الله هو ((**الاسلام**)) وانه لن يقبل من الناس دين سواه فهو ملة ابراهيم الحنيفية وهو دين الفطرة ، دين الله الحق الذى بعث محمـدا بالحق وأيده بالحق ، وأيد الحق به وجعل ركيزة دعوته هذا النور الأسنى .. **هذا القـرآن الكريم الذى فى كتاب مكنون .. فى لوح محفوظ ، هو هدى الله وهو كتاب الله ، ولا كتاب لله الحق الواحد الأحد سواه ..**

هذا هو القرآن .. وما دام هذا هو القرآن شريعة الحق ودين الحق ، فلن يكون عجيبا أن يحفظه الحق ، وأن يصـونه ويرعاه ، فهو كلامـه جل وعلا وتفرد بوحـــدانيته ، وهو مجمل أوامره وجل نواهيــه ، ومجمع وصاياه ..

ووعـد الله الصريح بانه سـبحانه هو الذى أنزل الذكر وانه حافظه ، اعجاز ... اعجاز فيه ما يعنى احاطة الذكر الحكيم بسياج محكم ، يحميه من التطاول عليه ويسوره بسور عال يصد عنه السراق الاجرياء ، فلا يجسر على الاقتراب منه مقترب ولا على الاجتراء عليه مجترىء .

واقرار الله بانه سبحانه حافظ كلماته ، فيه اعجاز ثان عن محاولة نيل ما في حمى الله ، وما في رعايته وصيانته الواقية من العبث ، أي عبث بما يمنع الباطل وأهل الباطل والمبطلين من الاقتراب من الحمى المصون ، والحرم المحروس الأمين الذي تحوطه الرعاية ، وتحفظه العناية الصمدانية من أي متطاول جرىء قد يفكر في الاقتراب منه ...

وحتى لو فرضنا حدوث المستحيل ، وهذا في حكم العدم لا الندرة — وتطاول متطاول ، أن اجترأ جرىء على الكلم المقدس — فان الجوهر الأصيل لابد وأن يطرد الزيف ، ويبين حقيقته ، ويلقى منه اضواء كاشفة على ما عداه ، وسيقشع نور الحق ظلمة الباطل ، وتتضح الحقيقة ولا ريب ، وتتمثل في العجز التام عن المحاكاة وعدم القدرة الكاملة على اتقان الزيف وادخال ما هو غريب بغيض على الأصل الشامخ العظيم ...

ولا يبين الزيف بهذا فقط ، بل بمظاهر عديدة ، تتجلى في العجز الظاهر عن مسايرة الاحكام الوصفي الشامل ، والبلاغة السردية والمقدرة الخلاقة على صوغ ما يعرض له القرآن الأعظم من أسرار وغيبات لا يعلمها غير عالم الغيب والشهادة ، الذي له ما في السموات والأرض ، وهو بكل شيء خبير عليم ...

واعجاز القرآن الحق الذي تحدى الله سبحانه وتعالى به العرب جميعا ، وخاصة بلغاءهم وطالبهم أن يأتوا بسورة من مثله ((وان كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا . فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله ان كنتم صادقين فان لم تفعلوا — ولن تفعلوا — فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين)) . ليس اعجازا صياغيا ولا بلاغيا ، ولا بيانيا ، ولا لفظيا ، بل هو اعجاز تام عن محاكاة ما يحويه القرآن من حقائق جاء بها لم يعرفها الناس قاطبة قبلا ، ولم يسمعوا بها أبدا ، ولم تصل اليهم عن طريق تواتر او علم .

ثم قوله تعالى ردا على افترائهم :

((أم يقولون افتراه ، قل فاتوا بعشر سور مثله مفتريات)) ! !

لقد كان للعرب ناثرون وشعراء ، مقدرات رائعة في ميادين كانوا هم فرسانها الذين لا يشق لهم غبار ، وكانت لفحول شعرائهم معلقات بلغ من قيمتها اللفظية النادرة ، ما جعلها تعلق بأستار الكعبة ، ولكن ..

ولكن في اى مجال جرت بلاغة العرب ، وأية أوصاف جرت بها اخيلتهم والسنتهم ؟!

ان من يستعرض اعمال بلغاء العرب في الجاهلية ، وقادة الفكر فيها ، يجدهم ، دون تمييز يتبعون خطا تقليديا واحدا يصل الى حد المحاكاة التامة التي لم يتجاسر شاعر جاهلي على الخروج عليها ابدا ...

كانوا يبدءون بالبكاء والنواح على الأطلال والدمن ، ثم ذكريات الحبيبة الغائبة أو النازحة ، والتشبيب بها أو التشبيب العف فيها ، ثم يعرجون على وصف دوابهم وآماد سرعتها من خيـــول أصـــيلة ، وإبل ذات صبر ومقدرة على المسير والتجوال ..

ثم بعد هذا يسارع الشاعر الى الفخر والمباهاة بنفسه ، ومدى كرمه ونجدته وخوضه الغمار وكراته على الأعداء ، أو نسمعه يفاخر بقومه أو أهله وعشيرته ، أن يمتدح سيدا من أصحاب السيادة والجاه والمال يغدق عليه عطاياه ، وينهي معلقته بعد هذا كله بنصائح وارشادات وتوجيهات خلقيه ، تحث على التحلى بكل خلق حسن جميل ..

هؤلاء كانوا قادة الفكر البلاغى فى الشعر العربى وهؤلاء كانوا الرواد الأوائل وأصحاب المعلقات ذات الشهرة والصيت العريض .. فهل جاءوا بجديد أو جاهروا بتجديد ، أو حدثوا حدثا .. اللهم لا ..

واذا استعرضنا فى مجال التشريح والعرض اعمالهم ، لا تجد غير ما قلنا ..

((قل : لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا))

وهاكم مثلا أمير شعراء الجاهليـــة ، الشاعر الملك المـــاجن ، **امرؤ القيس بن حجر الكندى** ، فنجده يبدأ لأميته العظمى بقوله :

قفـــا نبك من ذكرى حبيب ومنزل
بسقط اللوى بين الدخـــول فحومل

ثم يتثنى فيصف الليل وطوله ومدى أرقه فيه وارهاقه منه بقوله :

وليل كموج البحـر ارخى ســـدوله
عـلى بأنـــواع الهمـــوم ليبتلى
فقلت لــــه لمـــا تمطى بصـلبه
وأردف اعجـــــازا ونـــاء بكلكل

حتى فى وصف الليل وأرقه ، يعمد الى تشبيه ذلك الطول الارهاق ، بالخيل والابل وهما مدى علمه وخبرته ،وموضع فخره وعزه !!

وبعد امرؤ القيس نقف أمام ((**زهير بن سلمى**)) الذى قال عنـــه أمير المؤمنين ((**عمر بن الخطاب**)) انه اشعر الشعراء وأكثرهم حساسة ومقدرة .. زهير هذا لا يخرج عن الأطار التقليدى الجاهلى فيستهل ميميته الكبرى بقوله :

أمن أم أوفى دمنــة لم تــكلم
بحــومانه الدراج فالمتثــلم
ودار لهــا بالرقمتين كأنهــا
مراجيع وشم فى فواشير معصم

وعمرو بن كلثوم ، وعنترة عبس ، وطرفه بن العبد ، ولبيد ، ونابغة بنى ذبيــان ، وأعشى قيس ، والحارث بن حلزه اليشكرى ، ودريد بن الصمة وغيرهم وغيرهم .. هل أتوا بجديد ؟!

واذا تركنا جانب الشعراء ، وملنا الى جانب بلغاء أهل النثر كالخطيب ((**سحبان وائل**)) **مثلا** ، لا نجد لديه ولا لدى غيره جديدا يقوله ومقدرة على الخروج من نفس الاطار الذى وضع الشعراء الجاهليون فيه أنفسهم اللهم الا قوله فى احدى خطبه :

((ان فى الأرض لعبر ، وان فى السماء لخبر ، ليل داج ، وسماء ذات ابراج ، وارض ذات فجاج ، مالى أرى الناس يذهبون ولا يرجعون ..))

كان سحبان هــذا أول من تجاسر وتطاول الى الحديث عن السماء ، فاعترف أنه لا أخبــار وراءها ، وانها ذات أبراج ثم .. نسمعه يقف أمام المشكلة المحيرة .. **مشكلة الذهاب بلا اياب ؟! المسير بلا عودة .. مشكلة الموت !!**

انه يقف أمام هذا اللغز حائرا ، لا يدرى الى أين تذهب الأجساد ، والأنفس ، وهل النهاية فى الثرى ، أم هناك نهاية أخرى غير هذه النهاية .

الى هنا .. وعند هذا المدى وقفت البلاغة العربية ، فلم تتقدم ، ولم تحاول أن تأت بجديد يبين سرا من مستغلقات الأسرار ، أو حقيقة عميت عن العيون من الحقائق الكونية .

وحتى من شهد الأسلام من هؤلاء البلغاء ، أهل الفصاحة والبيان ، لم يحاول أن يدخل معممان المحاكاة أو ادعاء المقدرة على أن يأتى بشىء من مثل الذكر الحكيم ، خاصة وقد نزلت نماذج منه .

حتى هذه الطليعة القيادية من قادة الفــكر الجاهلى ، أحنوا رءوسهم أمام جلال القرآن الاعجــازى وعجزوا عنه ، وشغلوا به وبحفظه وتدبر معانيه ، وهــذا الشاعر ((**لبيد بن ربيعة**)) صاحب الهائيــة التى يقول فى مطلعها :

عفت الديار محلهــا فمقامها
بمنى تابد غولهــا فرجامها
بل ما تذكر من نوار وقد نات
وتقطعت أســبابها ورمامها

حتى ((**لبيد**)) هذا ، عندما أدرك الاسـلام ، شغل نفسه بكلام الله ، ولم يقرب الشعر ولم يفكر فى قرضه أبدا اللهم الا فى بيتين اثنين أحدهما فى النصح وهو :

ما عاتب الحـــر الكريم كنفسه

والمرء يصلحه الجليس الصـالح

والثانى فى حمد الله وشكره ان هداه الى الحق وأنار باصرته وبصيرته بنور الاسلام :

الحمــــد لله اذ لم ينقضى أجلي

حتي اكتسبت من الاسلام سربا لا

ذلكم كان الشعر ، وأولئك كان الشعراء ، وتلكم كانت أصول الفصاحة والبلاغة العربيـة التى حمل لواءها ، من بعد هؤلاء من الشعراء والخطباء الذين أدركوا الاسلام .. فهل فيهم من تجاسر على كلام الله ، أو ادعى بمقدرته على محاكاته .. كلا .. وألف كلا .. فما السبب اذا !!

السبب هو ما ذكرت وقلت : ان القرآن جاء بالاعجاز الذى استنارت به الأفهام .. جاء بكل جديد مذهل يدعو الى أعمال الفكر ، وتدبر المعنى ، حتى ليتساءل أهل البلاغة ، هل فى الاستطاعة أن تحاكى أو تجارى ؟!

تلكم كانت المعضلة .. فالبلاغة العربيـة التى جرت أشواطا فى ميادين البكاء على الأطلال وتذكر الأحبة الراحلين ووصف الليل والخيل والضرب والطعان والكر والفر .. هذه البلاغة أذهلها وأعجزها أن تسمع قوله تعالى :

((اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الانسان من علق ..))

اللهم هذا علم .. ثم اللهم هذا فتح فكرى عظيم يدعو الى التدبر والتفكير .. فالعقل الانسانى الجامد ، الجاهل المتخبط فى ظلمات الجهل وعماية الضلال يقف أمام حقيقة لم يكن له بها عهد وهى : **الله الذى خلق !!**

انه يعرف ان له ربا معبودا ، حجرا من الأحجار الشامخة المتراصة فى باحة البيت العتيق ، هو الذى صنعه ، أو آباؤه ، أو أجداده هم الذين صنعوه ، ولكن .. هل يمكن أن تكون لدى هذا الحجر الأصم القدرة على الخلق !!

وحتى اذا كانت القـدرة على الخلق ، فهـل يتجاسر ويخلق صانعه الانسان .. **ومم يخلقه !؟.. من علق !! من نطفة من منى يمنى !!**

الله أكبر .. الانسـان .. هذا السـيد العظيم .. الطود الشامخ المرهوب ، الذى يصول ويجول ويرهب ويخيف وتخشاه الكائنات قاطبة ، هل خلقه الله من نطفة ثم من علقة !!

هذا هو الاعجاز فى الخلق .. والاعجاز والعجز التام عن المحاكاة .. فاذا حدث وتجاسر جرىء وحاكى وقلد وسار على النهج ماذا يقول مثلا .. واستغفر الله القادر سلفا لما أقول .

« خلق الانسان من .. من ماذا ؟!

انها حيرة أى حيرة وصدقونى .. ماذا يقول الانسان ذلك المتطاول الجرىء ، اذا ما تطاول وأراد أن يفترى الكذب ويحاكى ويقلد !! ومن أى مادة سيدعى خلق نفسه ، والى من سوف ينسب هذه القدرة على الخلق .. الى اله عظيم غير الله القادر .. اذا لماذا لا يتبع الحق ويخضع له ويحنى رأسه ويصدق ويؤمن !!

أليس فى هذا اعجاز لغوى ، واعجاز فى القـدرة عن المحاكاة ، بل عن الاجتراء والكذب ، اذا كان للكذب أن يتطاول ويقف فى هذا المجال !!

ولنسارع بعد هذا لنقف امام اعجاز جديد معجز حقا ..

« والشمس وضحاها .. والقمر اذا تلاها .. والنهار اذا جلاها .. والليل اذا يغشاها .. والسماء وما بناها .. والأرض وما طحاها .. ونفس وما سـواها .. فالهمها فجورها وتقواها .. قـد أفلح من زكاها .. وقد خاب من دساها .. »

هل يستطيع بيان بشرى أن يصل الى هذا المدى .. وهل يستطيع عقل ، أوتى المقدرات كلها .. أن يذكر هذه الحقائق الكونية ، ويبسطها هذا التبسيط الاعجازى ، ان لم يكن هو الخالق ، الصانع ، المقدر !!

ولنسارع بعد هذا الى سورة « **الفجر** » لننتقل ما شاء لنا التنقل فى أكنافها الفيحاء ، ونرى أمام أى اعجاز شامل وقف بلغاء العـرب ، وكبار رواتهم ونسابوهم ..

لقد ذكر الكتاب المقدس فى عهده القديم ، الكثير من قصص الغابرين ولكن .. هل حوم حول « **عاد** » « **ذات العماد** » ، « **وعاد الأولى** » ، « **وثمود** » ، « **وقـوم صالح** » .. هل أورد شـيئا عن « **أصحاب الكهف والرقيم** » ، « **وأهل الكهف** » وحربهم ولجوؤهم اليه ، ثم بعثهم الى الحياة الدنيا بعد مئات السنين ليروا آيات المقدرة على البعث ، ويرى الناس جهارا آية ناطقة بالقـدرة الخـلاقة الصانعة التى تميت وتحيى ، وتحيى وتميت !!

هل ـ استطاع متطاول أن يحوم حول البعث والنشور والقيامة ويومها ، والحشر وساعته وكيفته .. اللهم لا .. فكيف كان لهم اذا ان يحاكوا كلامه عز وجل أو أن يأتوا بسورة من مثلة أو حتى كلمة مجرد كلمة .

هذا هو الاعجاز .. وهذا ما وصفناه بالاعجاز وهو المقصود باعجاز القرآن .. فهو ليس اعجازا لغويا ولا لفظيا ، ولكنه أعجاز فى المعرفة والعلم .

وقيل ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : كتاب الله تعالى فيه نبأ ما قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، هو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله وهو حبل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، وهو الذى لا تزيغ به الاهواء ولا تلتبس به الألسنة ـ ولا تشبع منه العلماء ، ولا يخلق على كثرة الرد ، ولا تنقضى عجائبه من قال به صدق ، ومن عمل به أجر ، ومن حكم به عدل ، ومن دعا اليه هدى الى صراط مستقيم)) ..

وهو الذى لم تنته الجن اذ سمعته حتى قالوا : ((انا سمعنا قرآنا عجبا يهدى الى الرشد فآمنا به)) .

هذا هو القرآن .. الاعجاز الذى أيد الله به محمدا ، فصرع الدهور ، وهزم الأعداء ، وبقى صامدا ثابتا ، شامخا ، لا ينال ، ولا يجسر أن يحوم حوله جرىء ، فحافظ على سلامته وتفرد بحمايته ..

هذا هو القاهر الذى لا يقهر ، والغالب الذى لا يغلب .. هذا هو المتحدى المعجز ، لأنه من الله ، ولأنه كلام الله ، نزل به الروح الأمين على قلب سيدنا رسول الله محمد بن عبد الله ، امام الرسل ، وسيد المرسلين، وهادى الهداة ، وخاتم النبيين ، ليثبت به فؤاده ، ويعينه على عناء الجهاد ، ومشقة النضال ، فهون أمامه كل صعب ، وتخطى به كل عائق ، حتى وصل به الى حيث أراد له الله ، ودالت دولة الضلال والزور والبهتان ..

ولما كان لكل أجل كتاب .. ولكل حى نهاية ، ولما لم يكن محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل ، قدره فى كتاب ، وحياته موقوتة بموعد ، وأجله معين ، اذا جاء لا يستأخره الله ساعة ولا يستقدمه فقد لبى الطاهر الأمين سيدنا رسول الله نداء ربه ، ولحق بالرفيق الأعلا فى جنات الخلد والرضوان بعد أن بلغ الرسالة وأدى الأمانة ، وأعد الهداة ، وجهز كتائب المجاهدين من بعده ، وهدى العالمين بكافة مللهم ومتباين نحلهم وأهوائهم الى طريق الهدى والحق وجمعهم فى ساحة الاسلام ، وأنار بالاسلام قلوبهم ــ حتى قام من بعده الهداة من خلفائه الراشدين يحملون رسالته ، ويعملون على اتمام ابلاغها للعالمين كافة ، سائرين على نهجه صلى الله عليه وسلم ، نبراسهم الهدى ، ونورهم الكتاب ، ودليلهم القرآن ..

لقد كانوا هم الرسل بعد الرسول الأعظم ، وخير وأصدق من حمل اللواء من بعده ، وتحمل اعباء الدعوة العظمى والرسالة الكبرى .. كبرى رسالات الله جمعاء ، فكانوا أولوا العزم ، وأهل العزيمة والقوة والاقتدار، المستعينون بالله من استمطروا نداءه سبحانه وسألوه التوفيق والعون والسداد ..

ولقد استجاب الله لهم ، وأمدهم بقوة فوق قوتهم ، فساروا قدما الى الأمام ، وفتحوا الممالك والأمصار ، وثلوا عروش الجبابرة ، وأذل الله بحقهم الواضح قوى الطاغوت ، وظلم الطغاة فاكمل الحق بهم نوره الوضاء الساطع ، وتمت بانتصارهم اشراقة النصر الأكبر لدين الله ، ودخل الناس فى دين الله القويم أفواجا بعد أفواج ..

* * *

لحق محمد بربه ، وترك عليه صلوات الله وأزكى سلامه من بعده للمسلمين تراثا روحيا خالدا .. ترك مبادىء سامية .. وترك أسس مكارم الأخلاق .. وترك ملة قويمة ، وشريعة عادلة غير متحيزة تسوى بين الناس .. كل الناس ، وتعدل بين الناس .. كل الناس ، لا فرق بين مسلم وصاحب ذمة ، ولا تفريق بين كتابى ، ومؤمن بدين الاسلام .. دين الله .. وترك بعد هذا للناس ، كل الناس الحكم الفيصل الذى لا يخطىء ، ولا يجامل ولا يتحزب .. ترك كتاب الله الهادى الى سبيل الله ورضوان الله .. ترك الكتاب الهادى الذى كتب سبحانه على نفسه أن يصونه ويحفظه ..

وأبى سبحانه وتعالى ، وهو القادر فوق عباده ، أبى الا أن يشرك المسلمين فى الحفاظ على كتابهم ، والجهاد فى سبيل صونه بنشره فى الأمصار ليكون بصائر للناس وهدى ورحمة للبشر أجمعين .. قريبا اليهم .. مقربا منهم .. يشع بنورانيته .. ويضفى على النفوس انواره ، غامرا بالاشراق كل بصيرة وكل وجدان ، حافزا لهم ولغيرهم على الاجتهاد وتدبر معانيه ، والاهتداء بهديه الى الحق المبين ..

لحق محمد بربه .. وقام خلفاؤه يحسمون الأمور من بعده ، ويسيرون بالسفينة فى خضم كان ساكنا ولم يلبث أن ثارت أنواؤه ، ورغا زبده وتكاثفت ظلماته ، فراحوا يجلونها بالجهاد ، واسرعوا يبددون الظلام بوميض السيوف والتماع الأسنة ، فقضوا على الفتن فى مهادها ، واستأصلوا شأفة الردة والمرتدين ، ولم تلبث راية دين الله ان راحت تخفق بالحب والسلام والتعاطف ، فحملها المسلمون ، وساروا نحو النصر يحققون أشرف لقاء مع جيرانهم وأشقائهم فى الأرض ، ليحرروهم من نير العبودية

ويطهروا أرضهم .. أرض الوطن العربى الكبير من دنس الدخلاء المستغلين ..

الله أكبر .. لقد تلاقى عرب الشام بعرب مكة والمدينة ..

الله أكبر .. لقد تلاقى عرب بلاد النهرين ، باخوتهم واشقائهم عرب الجزيرة ..

الله أكبر .. دالت دولة الأكاسرة .. وتم لقاء الأحبة والأشقاء ..

الله أكبر .. ان الرقعة الواحدة تبين معالمها وتتضح حدودها وظهرت لبصائر الجميع أن الأشقاء ليست بينهم حدود ولا سدود بل مطامع أقامها الدخلاء ، وهاهم أهل الوطن الواحد يتلاقون ..

الله أكبر .. هذه مصر تنادى .. وهاهم الأشقاء وبنو العم من العرب بالجزيرة يسارعون تلبية للنداء ، فيفتح الوادى الخصيب ذراعيه للاخاء ، ويبارك اللقاء ..

الله أكبر .. اذل بحق العرب باطل الروم والفرس وازال بايمان العرب طاغوت الروم ورهبوت فارس .. فلا كسروية ولا قيصرية ، بل وطن واحد تلاقت اطرافه وراحت راية الدين توحد القلوب والصفوف ..

* * *

وامتد رواق المسلمين شرقا وغربا .. وعلا سلطان اخائهم فى أمم وشعوب .. وخرجت جموعهم مجاهدة فى سبيل الله لتعزز الجهاد بجهاد ، وتؤيد النصر بمزيد من الانتصارات ..

خرج المسلمون كلهم الى حومة الشرف .. لا فرق بين شاب وشيخ .. وبين سابق الى الاسلام ولاحق به .. خرج الصحابة الأوائل الكرام وساروا فى الصف اجنادا بسطاء مع ابنائهم من الشباب المتلهب بنيران الحماسة والرغبة والجهاد ، وان رءوس القوم لتسترجع الأحداث بين المعارك وتراجع قوائم الشهداء ، فيشعر عمر بن الخطاب بالقلق ويستعر الخوف على دين الله ، وقد وجد أن الكثيرين من حفظة كلام الله قد لحقوا بالصديقين والأبرار فى جنات الخلد ، فيسرع الى أبى بكر يصارحه بمخاوفه ويقترح عليه أن يفكر معه فى الأمر ويتدبره وأن يعملا على جمع كتاب الله ، فهذا هو الخير وفيه صالح المسلمين ..

وتردد ابو بكر طويلا ... ثم فكر وفكر ... ليقول الحق ، ويشير بما يجب أن يتم وما يلزم أن يكون ، ولكن ... هذا الأمر الذى كان يطالب به الصحابى الكبير ووزير محمد الثانى — أمر يبدو غريبا ، اذ لم يفكر فيه أحد من قبل ، بل لم يحدث أيام الرسول عليه الصلاة والسلام ، ولربما خيل

لخليفة رسول الله أن طلب عمر يكاد يكون بدعة لا يجسر أبو بكر على الاتيان بها أو الاقدام على فعلها ابدا ..

وطال تردد خليفة محمد ... وبدا الامر شديد الغرابة بالنسبة له ، فكيف يقدم على عمل ، لم يفكر فيه الرسول الاعظم اى تفكير ، ولم يشر اليه من بعيد أو قريب ، وخشى ان هو اقدم على ذلك أن تهب عليه رياح المعارضة من كل مكان ..

ولكن المجال لم يكن ابدا مجال تردد أو جدل فقد بسط عمر القضية كلها ، ولم تفته فيها شاردة ولا واردة ، أن الكثيرين من الصحابة الأولين ، وكرام حفاظ القرآن قد استشهدوا فى ميادين الجهاد ، وانه لم تبق منهم غير قلة ، وان هذا القرآن هو محور ارتكاز الدين وقوام وجوده ، فلو تم استشهاد بقية الحفاظ ، أو لحقهم الاجل المحتوم ، ماذا يكون الموقف !!

وحتى اذا كان محمد عليه صلوات الله وسلامه ، لم يشر من قريب أو بعيد بجمع القرآن فى كتاب واحد ، فانه صلوات الله عليه وسلم ، قد جمعه فعلا فى حياته وسجله متفرقا فى الرقاع واحتفظ به عنـده ... فعملية التجميع بشكلها المتعارف عليه حاليا ، قد تمت ولا شك ، والصحاف والرقاع مرتبة السور ، والآيات مقسمة ، وان المصحف بشكله الحالى وان لم يكن قد جمع ايام الرسول الكريم ، فقـد قرىء ، واعيـدت قراءته ... قراه جبريل وراجعه وقرأه محمد فى عامه الأخير مرتين كامل السور والآيات مع جبريل ، ثم عاد صلى الله عليه وسلم فاعاد قراءته على المسلمين فى عرضته الاخيرة ، ولم يبق الا اعادة النسخ من الرقاع والصحاف فى كتاب واحد هو المصحف ، وهو ما كان يطالب « عمر » باتمامها والاسراع بتنفيذ فكرته ..

فالعملية اذا ، لن تكون اكثر من عملية نقل من رقاع وصحاف متفرقة ، الى كتاب واحـــد فى سجل مرتب مبوب ، تام الشكل والوقف ، موحـــد اللهجة موحد القراءة ، بعيد عن لكنات العشائر ، وتبلبل مخارج الفاظها ، وهذا امر قد تم قبلا ، وما سوف يحدث اليوم فى زمن أبى بكر غير تكرار له ، والتكرار ليس حدثا ، ولن يجسر قائل فيدعى انه بدعة ..

ولقد كانت الرقاع والصحف معدة محفوظة فى بيت الرسول الكريم ، ومن السهل الهين طلبها ، فالعمل العظيم معد ويجب أن يتم على الفور ، واذا كان المسلمون قد وجهوا جهودهم الى الغزو والفتح فى سبيل نشر دين الله ، فمن اللازم ان يثبتوا دعائم هذا الفتح ، بفتح فكرى وروحى يكون كلام الله عدته ، والقرآن سلاحه ، ليصلوا الى أعماق النفوس ، فتؤمن بدين الله ، قبل ان تدين لفتحهم ، وهذا هو الاستقرار المدعم الذى سوف يحققه يسر تداول كتاب الله ، ان هو تم جمعه واصبح فى متناول كل يد ..

واستدعى ((**أبو بكر الصديق**)) ، صاحبه ((**زيد عن ثابت**)) كاتب الوحى ، الذى شهد العرضة الأخيرة للكتاب ككل ، مع ((**أبى بن كعب**)) و ((**وعلى بن أبى طالب**)) و ((**عثمان بن عفان**)) . .

استدعى ابو بكر أول من استدعى زيد بن ثابت فهو من شهد الجمع الأول لكلام الله ، وتتبعه عن يقين وعرفان ، وطالبه خليفة الرسول أن يتبع الرقاع والصحف ليشرف على اتمام جمعه ، وليكن معه صحابته شهود العرضه الاخيرة الذين ذكرنا . . .

وتجمع كبار الصحابة المشهود لهم باتقان الحفظ ، الحافظين لكل ما نزل من آيات الكتاب ، وراحوا وزيد معهم يحضرون الصحاف والرقاع وكل ما تم تسجيل كلام الله عليه مما أملام الرسول صلى الله عليه وسلم ، يعيدون القراءة ويكررون المراجعة، وهم يعملون علىمقارنة ما كانوا يقرءون ويحفظون فعلا ، وبين ماوجدوه مكتوبا فى الرقاع التى أملاها صلى الله عليه وسلم . .

واتم كرام الصحابة العمل العظيم الذى وكل اليهم ، وجمعوا القرآن تاما مرتبا فى صحف مرقومة سلمت الى ابى بكر ، فاستراح بذلك عمر ورضى الصحابة عن العمل العظيم الذى أدوه . . .

ولما مات خليفة الرسول الأعظم ، تسلم عمر الصحف المخطوطة التى تم جمعها ، وحفظها لديه ، حتى لحق بصاحبيه فى جنات الرضوان ، وكان قد أوصى بأن تحفظ الصحف عند ابنته أم المؤمنين حفصة ، فسلمت اليها هذه النسخة وبقيت بعد ذلك فى بيتها . .

وتولى ذو النورين عثمان بن عفان خلافة المسلمين من بعد عمر رضى الله عنه وارضاه ، وعثمان صهر محمد عليه الصلاة والسلام ، وزوج ابنتيه المطهرتين رقية وأم كلثوم ، وهو ثالث الراشدين — واذا به هو الآخر يشغل نفسه بأمر جمع القرآن . .

كان الجمع قد تم فعلا أيام أبى بكر ، وان النسخة المجموعة التامة المراجعة ، المنقولة نصا وروحا من الرقاع والصحائف التى املاها الرسول الأعظم على كتاب وحيه فى فترات نزول الوحى — هذه النسخة موجودة فى بيت حفصة بنت عمر ولكن . .

ولكن هذه النسخة لم تعد هى شاغل عثمان وموضع اهتمامه فالامر أدق واخطر من هذا بكثير ، ولو وقف الامر عند وجود هذه النسخة الواحدة وهى عند حفصة ، اذا ما كلف ذو النورين نفسه عناء التفكير فى الأمر الذى تم البت فيه وتقرر وكان عثمان نفسه أحد الذين شاركوا فى تجميع واعادة ومراجعة هذه النسخة التى ضبطت بكل ما تعنيه كلمة المراجعة والضبط ، ولكن عثمان كان يعرف انه كانت لدى بعض كبار صحابة رسول الله نسخا

من القرآن خاصة بهم عمدوا الى تسجيل ما توارد وما سمعوه وحفظوه من القرآن فيها لأنفسهم ، الا أن تسجيلهم هذا لم يكن تسجيلا تاما كاملا ..

لقد كان يحدث احيانا ان يخرج هؤلاء المسلمون الاوائل فى السرايا أو فى الغزوات ، وتطول مدة ابتعادهم عن المدينة لفترات ، ربما كان ينزل الوحى خلالها بما يشاء الله من توجيه أو تشريع أو أوامر أو نواه أو آداب معاملات ، ولم يتيسر لهم من أجل هذا تتبع تسجيل السور والايات ترتيبا كما يجب أن يكون ..

ويسارع الصحابى بعد عودته ليتدارك فى سرعة ولهفة ما فاته ، وفقا للسماع ، مجرد السماع دون مراجعة معتمدة ممن لهم الحق ، فتوضع الآيات فى غير مواضعها ، أو بعيدة عن مواطنها ، ثم وبعد هذا يقرأ ما كتب وسجل باللهجة التى تروقه والتى تعود عليها ، وقد لا تكون اللهجة الواجب أن يقرأ بها القرآن من حيث الامالات والوقف والتشكيل الأمر الذى نجم عنه أن تعددت أوجه القراءة ، وكثر القراء كل يتبع طريقة خاصة بالصحابى الذى سمع منه أو سمع ممن أسمعه هذه القراءات ..

وكانت النتيجة الحتمية لهذا التبلبل فى الأداء وطرائقه أن أهل الشام مثلا كانوا يقرءون القرآن بقراءة ((**أبى بن كعب**)) ، وأهل العراق يقرءونه بقراءة ((**عبد الله بن مسعود**)) ، ونجم عن هذا الاختلاف البين فى اللسانين واللهجتين والطريقتين المتغايرتين ، ان اجتمع أهل الشام واهل العراق أثناء فتح المسلمين لبلاد أرمنية وآذربيجان فاذا كل فريق يقرأ بطريقته ، واذا كل فريق ينكر طريقة الآخر ، حتى لقد اشتد الجدل بينهم فاذا هو اختلاف وتنازع ، حتى لقد رمى بعضهم البعض الآخر بالخروج على النص القرآنى وكادت تطير فتنة غيرة على دين الله وكلام الله .

وهال الأمر حذيفة بن النعمان ، وأشفق على المسلمين مغبة استفحاله وأسرع الى أمير المؤمنين عثمان بن عفان يعرض عليه الأمر ويبين آماد خطورته ، ويطلب اليه أن يسارع برتق الخرق فى وقته وقبل أن يتسع على الراقع ، ويفلت الأمر من يد ولاة الأمر ، فتكون الفتنة ، وتكون الواقعة بين المسلمين ، ويختلفون فى أمور دينهم اختلاف اليهود والنصارى .

وكان موقفا بالغ الحرج فعلا وجد عثمان رضى الله عنه وأرضاه نفسه فيه ، فاسرع بجمع كبار الصحابة وعرض عليهم الأمر وخاطبهم فى ضرورة توحيد المصحف الجامع للقرآن ، ثم احراق ما دونه من نسخ يحتفظ بها اصحابها لديهم ..

وكان امامه فى هذا الصديق ابو بكر الذى لم يكد يتم جمع المصحف ، حتى احرق كل الرقاع والصحف التى كان مكتوبا عليها أيام الرسول ؛ حتى لا يحار المسلمون بين هذا أو يحنون الى ذاك ..

ولما كانت هناك سابقة فعلا ، وحادث مماثل حدث وتم دون اعتراض، فقد راقت فكرة عثمان للصحابة الاجلاء وأقروه عليها ، وشجعوه وطالبوه أن يسارع بتنفيذها ، فأسرع يطلب من ((**أم المؤمنين حفصة**)) أن توافيه بالنسخة التى لديها لاعادة نسخها وردها اليها بالتالى ففى هذا خير كل الخير للمسلمين .

واستجابت ((**حفصة**)) لأمر ((**عثمان**)) وبعثت اليه بما طلب ، وبدوره جمع ((**زيد بن ثابت**)) و ((**عبد الله بن الزبير**)) و ((**وسعيد بن العاص**)) و ((**عبد الرحمن بن الحارث بن هشام**)) ـ والثلاثة الاخيرون من قريش ، ثم طلب منهم اعادة نسخ القرآن ومراجعة قراءته وضبطه وترتيبه وأوصاهم عند الاختلاف فى طريقة النطق أو الكتابة أو الشكل فليكتبوا ما استشكل عليهم أمره بلغة ولهجة وكتابة قريش فالقرآن الأعظم قد نزل بلغتها .

ولم يختلف الكرام الأربعة فى شىء أبدا انما .. وقفوا امام كلمة ((التابوت)) فقال زيد بضرورة أن تكتب بالهاء هكذا ((التابوه)) واصر القرشيون الثلاثة على أن تكتب بالتاء ولم يجدوا غير الرجوع فى اختلافهم الشكلى هذا الى عثمان ، فمال الى جانب القرشيين الثلاثة وقال انما يجب أن تكتب كلمة ((التابوت)) .

وأتم الكرام الثقاة الأربعة نسخ مصحف عثمان بن عفان الذى عرف باسم ((المصحف الامام)) ، وردوا الى أم المؤمنين حفصة نسختها ، ثم نسخوا من ((المصحف الامام)) مصاحف بقيت واحدة منها بالمدينة المنورة وارسلت نسخ منها الى مكة والكوفة والبصرة ودمشق ومصر .

ثم أمر عثمان بعد هذا أن تحرق جميع نسخ المصاحف التى جمعها بعض الصحابة لأنفسهم ، وهم : أبى بن كعب ، وعبد الله بن مسعود ، والمقداد بن الأسود ، وأبو موسى الأشعرى .

.. وقد يسأل سائل بعد هذا عن الفرق بين عملية الجمع التى قام بها أبو بكر ، وتلك الأخرى التى أتمها عثمان بن عفان ـ ونسارع فنقول : ان خليفة رسول الله قد أمر بجمع المصحف ، خوفا منه ان يذهب شىء من القرآن بموت الحفاظ ، وفناء طبقاتهم الواحدة بعد الأخرى ، خاصة وأن الكتاب الأعظم رغم تسجيل آياته وسوره وقت نزوله عن طريق الاملاء على كتاب الوحى ـ فان ما كتب كان فى رقاع وصحاف متفرقة غير مرتبة وفق القراءة والمراجعة والعرضة الأخيرة التى قام بها رسول الله صلى الله عليه وسلم مع جبريل قبل موته .

لقد خاف أبو بكر أن يذهب شىء من الكتاب الذى وعد الله بحفظه ، فالهم سبحانه عمرا ثم الهمه بتثبيت طريقة حفظه هذه ماديا بجمعه فى مصحف واحد بدلا من الرقاع المتعددة المكتوب فيها والتى كان يخشى أن

يساء ترتيبها فيما بعد ، وفى عصــور متأخرة بعض من يجهل خطورة هذا الأمر .

اما ذو النورين ، أمير المؤمنين عثمان بن عفان ، فقد خاف أن تتعــدد قراءات القرآن ويذهب المسلمون فى ذلك مذاهب متعددة ، بعيدة كل البعد عن الطريقة التى قرأه بها سيدنا رســـول الله صلى الله عليه وسلم ، وميل كل طائفة من المسلمين الى لغتها ولهجتها التى كان القرآن سببا من أسباب القضاء عليها بتوحيد طرائق قراءته ولغته .

ومضى عهد عثمان ، وقفز الامويون بعد الامام على كرم الله وجهه الى الصدارة ، وتولوا امر المسلمين وكانوا أمراء المؤمنين .. وولى معاويه قريبه مروان بن الحكم على المدينة المنورة .. وأرسل مروان هذا الى أم المؤمنين حفصه يطلب نسخة المصحف المحفوظة لديها ، وهى نسخة أبى بكر ، ثم أمر باحراقها ، وبرر فعلته هذه بأن ادعى أن ما فعله كان للقضاء على التعدد ، وانه ما دام المصحف قد توحد وأرسل الى الأمصار فلا داعى لبقاء نسخة أبى بكر ومصحف عثمان قد صار اليوم هو المصحف المعتمد الأوحد ، وهو المصحف الامام .

والمصحف العثمانى الامام رغم استكماله واستيفائه العام من ناحية موضوعيته وفحواه وشموله على الوارد والمنقول من كلام الله السابق كتابته وقت نزول الوحى به مباشرة الا ان هذا الاستيفاء لم يكن تاما من ناحية الشكل والتبويب والترتيب ، وهذه امور رغم انها لا تمس الجوهر الأصيل ولا يمكن أن تؤثر فيه لظهريتها المحددة الا انه كان من اللازم أن تستوعب وتستكمل حفاظا على الهيئة العامة من ناحية الشكل للمصحف نفسه .

فالمصحف العثمانى الامام ، لم يراع فيه تشكيل نهايات حروفه عند كتابته ، ولم توضع النقطة فى مواضع كان من الضرورى ان تستقر فيها ، كما ان الارشاد الى كل سورة من سوره للادلال عنها والاشارة اليها لم يوضع ، ولم يهتم بكتابته ، وكذلك فواصل الآيات الضرورى ثبوتها لأحكام الوقوف والاستمرار فى القراءة ..

وبالرغم من ان هذه المظاهــر الشكلية البحتة لم تــكن بذات اهمية فى صلب المصحف نفسه ، أو فى مشتملاته التى حفظها الله ووقاها سر الاجتراء عليها — الا أن اتمام هذه الشكليات هو فى الواقع اتمام تام للنواحى الجمالية فى المظهر العــام للمصحف ، والجمال فى مثل هذه الأوضــاع أو أمام هذه الشكليات واجب الحدوث ، ومن اللازم أن يتم ..

* * *

ولنعد بعد هذا الى التشكيل نفسه ، تمييز أواخر الكلمات بشكلية نطقها الصحيح البعيــد عن اللحن أو الخطأ اللغوى ، فنقول ان المصحف العثمانى الامام لم يغفل هذا التشكيل تهوينا من أمره او تقليلا من قيمته

ولكن للاحساس ، مجرد الاحساس عن صدق بعدم الحاجة اليه ، فالعرب أهل البلاغة ، أساطين اللغة ، ليس فيهم من يلحن أو يخطىء لغويا فى القراءة ولكن الأمر لم يلبث أن تغير مع تطور الأحداث واتساع رقعة الدولة ، وفتحها الممالك والأمصار ، ودخول الأمم والشعوب فى دين الله كالفرس والصين والسند واذربيجان وارمينية وغيرها ، ولهؤلاء جميعا لسان ولغة ، لم تكن العربية بحال من الأحوال ، فلا عجب أن هم اخطئوا الشكل عند القراءة ولحنوا فيه ..

واللحن والخروج على قاعدة الشكل اللغوية هى آفة الافات ولا جدال ، لأن اللحن وعدم احكام الشكل لا يمس القراءة فحسب ، بل انه يبدل المعنى ويغيره شكلا ومفهوما ، وهذه أمور ، ان لم يهتم بها فى وقتها ، فان مقتضيات الحال توجب تداركها فورا ، ومن اللازم ان توضع فوق كل اعتبار

وقد رأى زياد بن أبيه ، أو زياد بن أبى سفيان كما اسموه لاعتبارات سياسية بحتة — رأى زياد هذا وهو يومها والٍ على العراق من قبل معاوية ابن أبى سفيان أن يستدرك هذا الأمر ويعنى باتمام هذا النقص البغيض ، ويحارب اللحن فى القراءة ويقضى عليه وذلك بأن يتم تشكيل أواخر كلمات كل آية ، وأن يضبط علامات الوقف لأحكام القراءة لاشتراط أن تكون صحيحة تامة متكاملة .

وعهد زياد الى ((**أبى الأسود الدؤلى**)) ، وهو من اعلام اللغة ، وكبار واضعى علم القواعد فيها ، ليقوم بهذه المهمة فى سرعة وعلى الوجه الأكمل ..

وأسرع أبو الأسود الدؤلى يؤدى واجب الأمانة التى كلف بحملها ، وراح يشكل أواخر كلمات كل آية ، فجعل النقطة فوق الحرف علامة على الفتح ، وتحته علامة على الكسر ، أما الضم فكان نقطة الى جانب الحرف ، والنقطتين تدلان على أن الحرف منون .

وظن زياد بهذا الذى فعله أبو الأسود الدؤلى أنه قد قضى على المشكلة ، ولم يعد مكان لأى لحن أو خطأ لغوى فى القراءة ، ولكن الأمر زاد خبالا ، فنهاية الكلمة وان كانت قد شكلت وميزت فان بدايتها ووسطها مازالا موضع اضطراب وحدس وتخمين ، ومجال وقوع فى الخطأ اللحنى ولا شك ، وهذا ما يجب تداركه على الفور ..

واذا كان ((**زياد بن أبيه**)) قد بدأ التشكيل ، فان ((**الحجاج بن يوسف الثقفى**)) قد أخذ على عاتقه القضاء على المشكلة ، وكلف ((**نصر بن عاصم الليثى**)) واستطاع أن يسد بعض الفراغ ويؤدى بعض واجب أمانة التشكيل للتحرر من آفة اللحن البغيض ..

فالعمل لم يكتمل اذا .. ومن الواجب أن يتم بأى حال من الأحوال تفاديا لما تجد به الأحداث ، أو تجىء به الأيام ، وهذا أمر تعرض للانتهاء منه **« الخليل بن أحمد »** الذى أسرع يغير طـــريقة **« أبى الأسود الدؤلى »** فى التشكيل تغييرا تاما ، فكان أن جعل الفتحة ألفا مسطوحة فوق الحرف ، والكسرة ياء تحته ، والضمة واوا أعلاه .. ولم يهمل الخليل بن أحمد بعد هذا كله وضع علامات المد والتشديد وهو يحكم ضبط التشكيل ، حتى كملت من شتى نواحيها ووصلت الى بداية المرحلة التى نرى عليهـا جميع المصاحف الآن ، ثم لم تلبث بعد ذلك أن وصلت اليها فعلا عن طريق اجتهاد المجتهدين والحفاظ والقراء وما وضعوه من علامات وصل وفصل وغير هذا كله من أسباب تعين على أحكام ترتيل القرآن ، فتيسير سبل قراءته ..

وانه لمن الطبيعى أن يكون هـذا هو مدى عنـاية المسلمين واهتمامهم بقرآنهم الأعظم ، ودستورهم الخالد ، وشريعتهم السمحاء ، وكتابهم الكريم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، اذ كتب الله على نفسه حفظه ، ووعد بصونه وألهم المسلمين الى ذلك عن طرق شتى ألوان الابتكار والاجتهاد والمثابرة ، والتفنن فى اظهار وسائل هذا الحفظ ، فالقرآن هـو حجة الحجج الراسخة أوجب الله طاعتهـا وألزم المسلمين بالعمل بهـا والخضوع والتسليم لكل أمر قضت به وأقرته ، والابتعاد كل الابتعاد بعد هذا عن كل ما حذر منه أو نهى عنه .

فالقرآن حجة قطعية الثبوت ليس لباطل أن يجسر على الاقتراب منها، ولا يستطيع أبدا أن يأتيها كما انه ليس لأى لون من ألوان الحدس والتخمين والشك أن يتطرق اليها بحال من الأحوال ، لأن القرآن هو ركيزة الشريعـة وأساسها الذى أوضح وفسر وبين كافة أصـولها وان الله الحق سـبحانه وتعالى يقول فى هذا :

« ونزلنا عليك القرآن تبيانا لكل شىء .. »

كل شىء .. أجل .. كل شىء ولا جدال فى هذا التعميم الجامع الشامل، فالقرآن لم تفته شاردة ولا واردة الا أوردها فى أحكامه ونصوصه وصلب شرائعه ، وبينها وأوضحها ، فهو لم يترك شيئا الى الظنون والاجتهاد والتأويل والتخريجات ولم يفرط فى شىء .. أى شىء .

« ما فرطنا فى الكتاب من شىء » ..

فحكم القرآن حتى أيامنـا هـذه قطعى فى أحكام كثيرة كأحكام الأسرة والزواج والطلاق والتوريث ، ثم العبادات وتحديدها ، وتعيين وجوهها كالصلاة والزكاة والصوم وحج البيت ، وقد أوضحنا كل هذا وفسرناه وشرحناه فى موضعه المناسب .. ورغم هذا فالمجال رحب شديد الاتساع ، فيه مناح ووجوه عديدة للاستزادة من الحديث عن القرآن ..

أما وقد وفيت هذا الموضوع حقه فيما يتعلق بالشريعة والنور ، والهدى والعلم والقرآن وغير ذلك ، فانه يطيب لى أن أدور فى شىء من الرغبة حول الاجتهاد فى القرآن ، ولعل أول مجال الاجتهاد فيه هو **مجالى القراءة والقراء ، فالقراءة هى المتنفس الرطب الريان الذى يصل عن طريقه شذى القرآن الى أعماق النفس فيهزها ، ويشعرها بالقشعريرة والرهبة ، والقارىء الجيد بعد هذا ، هو الموصل الجيد لكل هذه المشاعر الحسية ..**

يقول الله سبحانه وتعالى فى محكم كتابه :

« يا أيها المزمل قم الليل الا قليلا ، نصفه أو أنقص منه قليلا ، أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا » ..

فقارىء القرآن الأول ، ومرتله الأول الذى أوحى اليه بأن يرتله ترتيلا ، بمعنى أن يبدع ويجيد فى هذا الترتيل ليصل الى أعماق قلوب من كانوا يسمعون ، ومن كانوا يتسمعون أو يسترقون السمع ، هو سيدنا **رسول الله صلى الله عليه وسلم** ، وأرق القراء قراءة من بعده كان **الصديق أبو بكر** ، أما أشهر من تفردوا باجادة القراءة على أيام الرسول الكريم فكثيرون ، عظمت شهرة سبعة منهم فقط هم : **ذو النورين عثمان بن عفان** الذى كانت تستحى منه الملائكة ، ثم **الامام على بن أبى طالب ، وأبى بن كعب ، وزيد بن ثابت ، وابن مسعود ، وأبو الدرداء ، وأبو موسى الأشعرى** ، وكلهم كان قدوته وعمدته وسنده فى القراءة ومعلمه النبى الأعظم محمد عليه الصلاة والسلام .

ولقد انقضى هذا العهد العظيم الزاخر بالعظام من الأئمة ، وجاءت بعده عهود وعهود كان لكل عهد منها قراء كبار ، كما تميزت تلك العهود بالعناية الفائقة التى وجهها المسلمون الى القرآن ، والى قراءة القرآن فاستحدثوا فيه علم القراءات والتجويد ، وكان أبرز قادة هذا التطور سبعة أيضا : هم أئمة القراء أولهم **« أبو عمرو بن العلا ، وعبد الله بن كثير ، ونافع بن نعيم ، وعبد بن عامر اليحصى ، وعاصم بن بهله الأسدى ، وحمزة بن حبيب الزيات العجلى ، وعلى بن حمزة الكسائى** امام فقهاء النحاة الكوفيين ..

وجاءت بعد هؤلاء طبقة أخرى ، ولم يزد عدد من فيها على الثلاثة ، وكانوا أشهر وأبدع من قرأ ، وعنهم أخذ القارئون ، وروى طريقتهم الرواة واتبعها القراء على كر العصور وهم أبو جعفر يزيد بن القعقاع وخلف بن هاشم بن طالب ثم ابن اسحق الحضرى ، وقد عرفت قراءة هؤلاء المشاهير الثلاثة الذين تفردوا بطريقة أدائيــة خاصة محببــة باسم « القراءات العشر » وهى فى وصفها البسيط الترتيل المألوف الثابت المعترف به ، المتفق عليه ، اما ما دونه من أنواع القراءة المخالفة له فيطلق عليه اسم « الشــاذ » ومن أشهر من قرأ به ومكن لطريقته اليزيدى ، والحسن ، والأعمش ..

وبعد هؤلاء جميعا ، وخاصة العام الثالث والثلاثين من الهجــرة دخل مجال القراءات كثيرون وكثيرون ، وذاع صيتهم فى عواصم العالم الاسلامى الكبرى ، وأقبل الناس على الاستماع اليهم فى حماسة وتحيز واعجاب ، فكان ابن عامر فى الشام ، فى حين قام حمزة وعاصم فى الكوفة ، أما فى البصرة فكان يعقوب وأبو عمر اشهر قرائها ..

وأوثق القراءات سندا كانت ولا جدال قراءة نافع وعاصم ، تليهما قراءة الكســائى وأبو عمرو التى توخت توفر وجـوه القراءة الصحيحة والترتيل المستحب ..

لقــد شغلت قراءة القــرآن المسلمين ، وكان تجويده وحسن أدائه ، هدف سعى الجميع اليه ، وعملوا على اجادته والبراعة فيه ، وكانت لمشاهير القارئين فيه مدارس وطرائق خاصة لم تخرج كلها فى مجموعها عن الطريقة الشرعية المألوفة ، البعيدة عن الخروج النغمى عن التقاليد المتعارف عليها ، حتى حدث أن ظهرت فى عالم القراءات تلك الطريقة التى تتميز بالأداء **التطريبى المنغم الواجب أن يتوفر فيه مع الأداء الحسن ، جمال الصــوت وقدرته على التأثير ، وهز القلوب ..**

وحتى هذه القراءة التى بدت مستغربة أيام ظهورها فى عهد العباسيين الأوائل .. والتى شاعت بعد ذلك وذاع استعمالها حتى طغت على غيرها من الطرق الادائية جمعاء .. هذه الطريقة لم يبدأها روادها الأوائل عبثا ، ودون أسس واصول ومقومات وجود ، لأن الغرض من ايجادها ، لم يكن القراءة لفترة ، بل للعمل على بقائها واستمرارها ، ففيها جمال ، وفيها ما يبعث على الانصات لجمال الصوت الذى يفصل روعة الآية ، ويعرض ما فيها من توجيه ونصح وارشاد فى أداء سليم محبب يستقر فى الأذن ثم لا تلبث أصداؤه أن تتردد فى أعماق القلب .

وهذا اللون من القراءة الذى عرف بالقراءة المنغمة ، ويساير لحنا توافقيا رتيبا لا احساس فيه بالملل أو التبرم ينقسم من ناحية الأداء الفنى الي اجزاء تعبيرية تمثل أطواره والحــانه وتقــاليده ودقائقه وما يجب ان يتبعه القارىء فى ادائه ولا يصح أن يخرج عليه بحال من الأحوال .. وهذه الأجزاء هى : **الترعيد ، والترقيص ، والتطريب ، والتحزين ..**

«والترعيد» وهو اولها ــ وصف تعبيرى يميز لون القراءة وكيفية الأداء ، ولعل نسبة الاسم الى الترعيد تعطى فكرة اضطرار الصوت الى التشكيل فى ادائه حتى يصبح النغم العذب كالرعد القاصــف يردد ويروع ويخيف ويذكر ..

وبعد «**الترعيد**» نجد انفسنا أمام «**الترقيص**» وقد يكون الوصف غير مألوف بعض الشيء، ودون شك لا يعنى به ما يمكن أن تؤديه أو تصوره كلمة «الترقيص» ولكنه تعبير عن النغم الأدائى ذاته، ولا يقصد به الاثارة للرقص أو التثنى فى حدود التقاليد للقراءة ولكن ربما قصد به المبالغة فى التطريب والاسراف فى الجمالية الصوتية بما يفعل فى النفوس أفاعيله من حيث اهتزازها بدافع الأداء وعذب النغم ..

ويأتى بعد هذا .. القسم الثالث المعروف باسم قراءة «**التطريب**» وتعنى ولا شك جمال الأداء وحسنه، بحيث ترتاح اليه الاذن وتهفو له النفس وتطرب .

ونسمع فى النهاية وبعد ذلك عن القسم الأخير من أجزاء هذه القراءة واسمه «**التحزين**» .. والتحزين فيه ما يعنى الأشعار بالحزن والاحساس بالندم وهو لون من الوان الأداء القادر الذى ينفذ الى اعماق النفس البشرية باحساس يشعرها بالحزن والخلود الى ما فات تسترجعه وتبدى أسفها عليه وتندم لفعل ما كان ولا يلبث أن يتولاها الحزن وتسودها الكآبة ..

ورائد هذا اللون من الوان القراءة النغمية، ظهر كما أسلفت فى العصر العباسى، واسمه على وجه التحديد عبيد الله بن بكره، وقد تميز بأجادته الفائقة لأداء اللون المسمى بالتحزين . وورث الطريقة من بعد عبيد الله حفيده عبد الله بن عمر بن عبيد الله، وعرفت طريقته التى استنها بطريقة «**ابن عمر**» وقد اخذها عنه الأباصى وطورها بعض الشيء ولكنه لم يخرج على أسلوبها وتقاليدها وسايرها مسايرة ادائية صادقة ملتزمة ..

وتتلمذ على يد الاباصى فى علم «**القراءات**» كثيرون وكثيرون ممن برزوا وظهروا فى دنيا القراءات، لكن اظهر وأشهر من تتلمذ عليه وأخذ عنه الشقيقان ابنى العلاف، وكان أعلاهما كعبا فى فنه .. واشدهما رسوخا فى مقدرته التعبيرية وأروعهما صوتا .. وأبعدهما شهرة وصيتا .. واحلاهما اداء «سعيد بن العلاف» الذى لم يتأثر «أمير المؤمنين هارون الرشيد» بصوت قارىء غيره، ولم يرتح الى ترتيل القرآن من احد سواه، ولم يطب له الاستماع الا له وحده . ومن أجل هذا قربه وأعلا مكانته، واطلق عليه اسم القارىء الخاص لأمير المؤمنين «**هارون الرشيد**» ..

وجاء بعد ذلك قارئون وقارئون . وكانت لكل منهم سمات وشهرة وبراعة .. ومر بهم الزمن وسارت مواكبه . وهم يؤدون ويرتلون، وفق هذه الطرائق التى أوردناه، ولم يخرج على قواعدها منهم أحد، ولم يتنكر لها قارىء فى القارئين حتى أيامنا هذه ..

واذا كنت قد أعطيت موضوع القراء ، والقراءات القرآنية بالذات جل اهتمامى الأول فى هذا المجال ، وجعلت ما كتبت سابقا على غيره مما اعتزمت التحدث فيه فذلك لأنى أعتبر أن القارىء الجيد . الحلو الأداء المتمكن من مقدرته التعبيرية ، هو الموصل الجيد السريع بروعة معانى آيات الذكر الحكيم الى أعماق القلوب .

واذا كان هذا هو القارىء الجيد ، فان القراءة الجيدة وأدائها الحار السليم المتكامل هما المعبر المحبب الى النفوس .. لأن القراءة وتكرارها ، ومحاولة ابرازها ليس غير التقريب للمعنى الرائع المقدس . وان الصوت الحلو هو أحساس تصوير هذا المعنى وابداع ايصاله الى الروح التى تخشع له وتستكين . وتستشعر الراحة والطمأنينة فى ظله ..

انها لحظات خشوع روحانية ، يتعالى خلالها جلال الوجـدان . وروعة الايمان ، وعظيم الحب القدسى ، ويصغى هذا الوجدان الشفاف ، يصغى ويستعيد ويستكمل ، ويستشعر حياة ليست كالحياة ويحس خلودا أعمق من الخلود ، ثم لا يلبث أن ينتشى بقداسة عبيره . فينشق فيما يسمع أريج جنات الرضوان ، ثم يتسامى على أجنحة الخيال العلوية والتصورات ذات الأشراقة السامية وهو يطوف بالسموات حتى ليصل الى أعرافها ، ويطرق باب النعيم .

ذلكم يكون أثر القراءة الحلوة .. وهكذا يكون تأثير القارىء الحسن الصوت والآيات تترى على لسانه فى تعبير قادر يجعل المستمع اليه يتدبر واقع المعانى الاعجازية ويشغله فحواها ومبناها ، وما حوت من وعد ووعيد فى قدرة جل صاحبها وسبحانه من هذا كلامه ، وهو الحق ووجه الصدق الذى يبدع ايما ابداع فى وصف النعيم المقيم للطائعين المؤمنين فى بلاغة القادر الصادق وصفا وهو يتحدث عما يعرف ، ويصف ما أبدع وصور وأعد من رائع المثوبة وبديع الجزاء ، فيرى المصغى الى القراءة بوجدانه وحسه جنات الله الوارفة الظلال ..

أجل يرى الولدان المخلدين والحور العين اللاتى كأمثال اللؤلؤ المكنون لم يطمثهن قبلهم انس ولا جان .. يرى هذا وأروع منه فى الجنات .. جنات الله الوارفة الظلال التى عرضها السـموات والأرض تجرى من تحتهـا الانهار .. أنهار من لبن مصفى لم يتغير طعمه .. سائغ للشاربين .. وأنهار من عسل ..

ويطاف هناك على الغارقين فى غمرات الخلد الفاكهين على الشـواطىء الخضر الريانة اليانعة ذات الظل الممدود والطلح المنضود والماء المسكوب والفاكهة الكثيرة غير المقطوعة ولا الممنوعة ـ يطاف عليهم بأكواب وأباريق

وكأس من معين لا يصدعون عنها ولا ينزفون ، وآنية فضية واكواب كانت قواريرا يطعم فيها من رحيق مختوم ختامها مسك ..

ذلكم هو الخلد ... هو جوار الله الغفور ذو الرحمة ، ذلكم هو الخلد الذى يبدع الاداء الحلو تقريب صوره البديعة الى أعماق الروح فتستمسك باهداف الفضيلة وتباعد بينها وبين الوسواس الخناس من الجنة والناس ... ولا تجسر على التردي وتحمي ذاتها من هول العصيان ..

واذا حدث وكان الانسان قد أخطأ ... والبشر جميعا خطاءون .. فانه يستمع ويستمع فى نهم وفى شوق وحنين ، فيجد الدواء ، ويجد المهرع ويجد الحمى فيلوذ به ، ويسرع الى سده الرحمن الرحيم المنان الودود ، قابل التوب وغافر الذنب لكل من تاب واناب وعمل عملا صالحا ولم يسرف على نفسه أو يقنط من رحمة الله يغفر الذنوب جميعا الا لمن .. اشركو به ...

ياللهول ... ان براعم التصوير القادر الذى تحمله القراءة الجيدة الى النفس العاصية يجعلها ترتجف من الهول وهى تتصور العذاب الأليم فى نار جهنم التى لا يموت فيها العصاة ولا يحيون ، سرابيلهم من قطران ويسقون من ماء مهين ويسحبون على وجوههم فى النار مقرنين فى الاصفاد جزاء وفاقا بما عصوا الرسل وكفروا بالله ولم يؤمنوا بيوم الدين . فهل يجزون الا ما كانوا .. يفعلون ..

وهكذا .. وعن طريق القراءة الجيدة والقارىء المتمكن ، الحسن الصوت البارع الاداء يصل الذكر الحكيم ويفعل افاعيله ، وتتبدى آثاره ، ويظهر رائع تأثيره ويصل الى غرضه الاسمى فى يسر وبراعة واحكام .

* * *

ولنعد بعد هذا الى موضوعنا .. لنعد الى الفىء الخالد ، والظلال الوارفة الفيحاء من الجنة ، ولنقف من جديد امام القرآن .. كلام الله .

لقد انزله الله قرآنا عربيا غير ذى عوج ، وحكمة نزوله بالعربية ، ان يكون بلسان العرب ، ولغتهم السائدة المتداولة لا بلغة أو بلسان اعجمى فيدعون انهم لم يألفوه ، ولم يفهموه وان معانيه قد عميت عليهم ولم يستطيعوا ان يستيعبوها فهما ولا قراءة ، ولا استيعابا ...

قرآنا عربيا ، بلسانهم ولهجتهم ... سليم اللفظ ، بارع الاداء ... لالف فيه ولا دوران ، ولا تكهن ولا كهنوت ، ولا ادعاء بسرية ، ولا قول بغموض ، بل يسر فى يسر ، وبساطة اعجازية تلو بساطة ، وفى لسان عربى مبين ، يذكر وينذر ، وفوق هذا فهو غير ذى عوج وهذا هو الوضوح ... وهذا هو الجلاء .

ثم تحداهم به ... وهم قادة البلاغة وائمة الفصاحة وسادة البيان .. واستمر فى تحديه لهم فحاروا فيه ، وارتدوا عنه ، وما استطاع احد منهم

ان يحاكيه او ان يجاريه رغم انه بلسـانه البسيط ولا غريب ولا مستغرب فيه ...

ابدا ماحاجج القرآن أحد الا رده ودحره ، وأشعره وهو يرده ويدحره بانه تافه ، تعجز قدراته البيانية عن الاتيان بمثل هذا الكلام ، فهو كلام الله ، ومن أصدق من الله قيلا ...

ثم سار **القرآن** فى طريقه الظافر وسار ، يشع بالهدى ، ويشرق بالنورانية تلين له القلوب،وتقشعر منه الجلود ، ويجد فيه اهله كل يوم جديدا ،ويطلعهم على كل رائع وجديد . . عظيما شامخا ، يسلمهم الى شامخ وعظيم ، فقادهم الى المعرفة . الى أدق الوان المعرفة ، وهم الذين ماتجاسروا الا على التغنى بالبطولات والتحدث بالشجاعة والنجدة ، وأباء الضيم ، فعاشـوا يحكمهم العرف وتسودهم التقاليد ، فأوجد القرآن لهم شريعة ومنهاجا وقانونا خطط وعين وأقام وانشا ، وأوضح مجال الحياة وارشـد الى شتى ميادينهـا واستطاع فى رضا وتسليم محبب مستسـاغ ان يشغلهم بالنافع ويستحوذ على كل افكارهم وتصوراتهم ، فكان لهم نعم الشاغل ونعم الموجه الصـادق الامين ...

لقد شغل القرآن المسلمين على كر العصور ... شغلهم بكل ما يمكن ان تعنيه كلمة شغلهم هذه ... شغلهم وتملك وجدانهم وافكارهم واستحوذ على كل تفكيرهم فاتجهوا اليه مشغوفين به ، وراحوا يقرءون ويحفظون ، فاذا بالقراءة تتحول الى لون من الوان الرغبة فى التكرار والاعادة وزيادة الاستماع للتدبر والفهم ، وما لبثوا ان حفظوه عن ظهـر قلب ، وملئوا بانواره قلوبهم فاحبوه حبا سد عليهم كل مجالات التفكير الا فيه وحده ، ومن هنا راحوا فى براعة يحاولون اجلاء مادق من معانيه وماقد استغلق على الافهام من اغراضه وتوجيهاته واوامره وارشاداته ....

شغل المسلمون انفسهم بالقرآن ، وفتح الله به على كثيرين منهم ، فاذا هم فيه علماء عاملون اجلاء ... واذا هم مفسرون متكلمون قادرون ... واذا هم نحاة متمكنون يضعون أسس علوم اللغة والدين ، فظهرت علوم الصرف وعلوم البديع والفقة والتشريع والأصول وغير ذلك من العلوم والفنون التى اوجدتها دراسة القرآن ، وسبب ما وضع من أسس وأصول .

وبدا القرآن الهادى ينفذ الى الحياة الاسلامية العامة فى قدرة ، ويسيطر فى تمكن مبحب مرغوب فيه ، ولم تلبث أروقة وساحات وصحون المساجد الجامعة ان صارت مدارس للمدارسة والتعليم ، ومنابر للتوجيه والوعظ والارشاد الى الخير والى أعظم آداب السلوك والمعاملات ..

وبرغم هذا الاستقرار المدعم الذى حققه القرآن ووصل اليه ، فقد كان هناك المنافقون والمرتابون ، وكان هناك أعداء الدين الذين بالغوا فى التستر واندسوا فى اظهر واعم اوساطه لينالوا منه عن طريق الجدل والادعاء والتشكيك ، وهيهـــات لهم ان يصلوا الى تحقيق ذرة مما كانوا يحلمون به من نيل الصرح الاعظم ، والحصن الشامخ المنيع ..

لقد أعجز القرآن الاوائل وما استطاعوا أن يأتوا بآية واحدة من مثله ؛ لا هم ولا شياطينهم ، ولا هم معا مجتمعين .. ثم كر الزمن وسارت مواكبه ، واذا باليهود من جديد ، وفى هيئات وازياء واشـكال جديدة ، يحاولون أن يصلوا اليه أو أن ينالوا منه بأية طـريقة من طـرق النيل وكانوا فى عرفهم الحاقد يظنون انهم سينالون منه — وان لم يتحقق لهم بما تعنيه هذه الكلمة فسوف تحدث ندبة أو تترك اثرا ..

وفى محكم الذكر الحكيم يقول الحق سبحانه وتعالى :

« لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا ، اليهود والذين أشركوا » .

وطالما كان اليهـود أعداء الله ، أعـداء دينه ، وقـد أفزعهم أن يبعث الرسـول الأعظم وامام الرسل أجمعين من أمة غيرهم ، فأخـرج بذلك الشريعة والكتاب من ايديهم ، وكشـف عن حقائقهم وعن كل ادعاءاتهم واكاذيبهم ، فكرهوا الداعية ، وابغضوا الكتاب ، وهم يعرفون انه الحق من ربهم ، وراحوا يحاولون النيل منه ..

واغرب ما قالته اليهود فى القرآن كلام الله ، الخالد الباقى ، انه مخلوق ..

مخلوق قدرت عليه الحياة ، فبعث اليها فى موعد محدد ثم سيقدر عليه الموت فى وقت معين فيفنى ويزول ..

هذا هو المخلوق فى عرفهم ، وهذا ما تقول به « لبيد بن الأعصم » الذى قال ان « التوراة مخلوق » وقياسا على هذا لأن القرآن هو الآخر مخلوق .

قول غريب لو تدبره الناس ما شغلوا به انفسهم ابدا .. فالقرآن ليس بالمخلوق ، ولم يـكن ابدا بالمخلوق ، فالمخلوق أيا كان هـذا المخلوق هيئة وصـورة وشكلا وحدودا ومعالم والقرآن ليس فيـه من هـذا شىء ابدا ، فهـو كلام الله كما أن التوراة كلام الله ، والكلام شىء .. والمخلوق شىء آخر بعيد الهيئة بعيد الصفات والمميزات عن المخلوق ..

فالمخلوق .. كل مخلوق ، هو بداية وهو نهاية .. والكلام .. رائعه وحسنه ، هو الخلود وهو البقاء .. واذا كان من عادة الناس .. كل الناس على كر العصور تخليد الجيد من الكلام ، والحسن من الكلام ، وتوارثه والقول به وترديده ، حتى لينازع الدهـور ، ويبقى عليها خالدا سرمديا

باقيا ، فان كلام الله القادر أولى وأحق بالخلود والبقاء ، وهاهنا تنفى عنه صفة المخلوق ، وتبرئه من أن تكون له صفات المخلوق . .

فالقرآن كلام الله . . وكلام الله باق ، خالد ، ما بقيت الأرض والسماء ، وكانت الحياة وكان الوجود . .

وفى قوله تعالى لرسوله : ((**وان احد من المشركين استجارك ، فاجره ، حتى يسمع كلام الله**)) ـ ولم يرد فى قوله ـ **حتى يرى خلق الله** ـ فالقرآن غير مخلوق . .

ولكن أعداء الله تقولوا بهذا السخف الركيك وشغلوا به عقول الناس ، حتى شغلهم وافسد عليهم حياتهم ، وكان موضع جدليات ومناقشات بل جهاد واضطهاد وتعذيب وايذاء لمن عارضوا القول بان القرآن مخلوق وانه كلام الله . .

وحمل لواء الأكذوبة بعد لبيد اللعين ، لعين كذوب حاقد آخر اسمه بنان بن سمعان ، الذى أوجد فرقة من الصابئة هى البنانية الذين تقولوا بالامامة ، وادعوا ان الزعامة الروحية على المسلمين قد انتقلت الى بنان هذا من أبى هاشم بن محمد بن الحنفية من أولاد الامام المجتبى ((**على بن ابى طالب**)) . .

وورث الالحاد عن بنان لعين آخر هو الجعد بن درهم ومن بعد كذبة وكذابون ، وادعياء ومتقولون كان هو اكثرهم جراة ، واوقحهم ادعاء اذ جرؤ على انكار بعض ما جاء به القرآن ، وادعى أن فصاحته ليست اعجازية كما يتصور الناس ، وأنهم قادرون على مثلها بل وأحسن منها صياغة وبلاغة ومقدرة تعبيرية .

ولقد بدأ امر هؤلاء الزنادقة فى أواخر الحكم الأموى ، ثم عز شانهم وعظم ايام العباسيين ، حتى بلغ مداه ايام المأمون العباسى ومن اتوا بعده من الخلفاء ، وقد ساعد على رواج أمثال هذه الأكاذيب ان كثيرا من كتب الفلسفة اليونانية قد نقلت الى العربية وراى الناس فيها الوانا جديدة محورة من ألوان الفكر ، لم تلبث شياطينهم أن أوحت اليهم بدراستها على نمط يستطيعون منه ان يصلوا الى التشكيك فى القرآن .

وقد جرؤ البعض فادعوا القدرة على معارضة القرآن وادعوا ان ((**ابن المقفع**)) الكاتب الأديب المترجم ـ الناقل لآداب اللغة صورا ونماذج من الآداب القديمة واخصها الهندية ـ هذا الرجل ادعوا أنه عارض أو حاول معارضة القرآن وشغل نفسه بذلك ، وانه بدأ يضع فى معارضة القرآن مؤلفا له قيمته كتب فيه ما شاء له هواه أن يكتب حتى وصل الى قوله تعالى :

« وقيل يا أرض ابلعي ماءك ، ويا سماء اقلعي ، وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجودى وقيل بعدا للقوم الظالمين .. » .

ثم وقف ابن المقفع .. وقف مأخوذا ، لا يدرى ما يقول ولا كيف يعارض ، أو يتطاول .. سبحانك هذا ليس هو الاعجاز فحسب ، بل هو تحدي قدرات البشر جمعاء ، وكيف لابن المقفع أن يعارض مثل هذا القول المحكم ، أو أن يدور حواليه ، أو يتحدث فيه ، وهو ما لن يستطيعه بشرا ابدا .. أبدا لا يستطيعون أن يأتوا بمثله أو ان يفعلوا له شبيها .. أمر للارض أن تبتلع ماءها فامتثلت ، وامر للسماء أن تقلع ولا ترسل مطرها فأطاعت ، فأى قدرة هذه التى تستطيع التحكم بالأمر فى الارض والسموات ومابينهما ؟! اى قدرة وأى مقدرة ..

وذعر ابن المقفع .. وأسرع يمزق ما كتب وقد شمله الندم ، واستحوذ عليه الحزن والأسى ، لأنه شغل نفسه بما لم يكن له حق أن يشغل نفسه به ، واراد أن يحرف وأن يتطاول ، فعجز فكره ، وأحس وجدانه بالكلل ثم .. ندم واستغفر ، وعاود الهدوء قلبه واقسم أن يباعد بين نفسه وهذه الأفكار الحمقاء ..

ودارت الأفلاك .. وسارت فى مسيرها .. وتقدم الاسلام ، وعظم امره ، وعظم شان القرآن ، ووصل الى أمم وقلوب عديدة لانت له وآمنت به ، فضمها الى الوحدة الغالية ، ونمى بها الأمة التى قال الله عنها انها خير امة اخرجت للناس ..

ولقد احصيت آيات القرآن الكريم وحروفه بعناية ودقة فكانت آياته ٦٢٣٦ ، وكلماته ٧٧٩٣٤ ، وحروفه ٣٢٣٦٢١ ..

لقد كان القرآن هو المعجزة الخالدة فى دين الاسلام ، وكان الركيزة المدعمة ، وكان قطب الدائرة ، والمدار الثابت الراسخ ، ولقد قرر الله حفظه وكتب على نفسه ذلك ، واذا بحكمة حفظ الله للقرآن تبين وتتضح فى حفظ اللغة العربية ذاتها ، وصيانتها من كل عبث وتطاول ، فظلت كما هى ، لم تتأثر بلغة ، ولم يؤثر فيها لسان ، فلسانها غير ذى عوج ، **هو اللسان الذى نزل به كلام الله ، والله قد أراد لكلماته الخلود ، وبخلود كلماته سيخلد شان العرب واللسان العربى ..**

« وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا ، لا مبدل لكلماته ، وهو السميع العليم »

وهكذا اكتمل الاسلام باكتمال كتابه الكريم ، اذ ختمه الله سبحانه وتعالى بقوله للمسلمين !

« اليوم اكملت لكم دينكم ورضيت لكم الاسلام دينا .. »

والآن ...

الآن ... ماذا نقول بعد ما قلنا .. وأى جديد نستطيع أن نطرق بابه فى دنيا العبادات وقد كانت جولة قدسية تلك التى طوفنا بها فى صحائف هذا الكتاب لتغنى وتشبع وتعطى كل ما يشتهى طالب المعرفة أن يلم به من ديانات الله ، ورسـل الله ، وكتب الله ، التى نسخت كلها .. وجبت جميع أحكامها ، وصار القرآن هو العلم المفرد فى ميدانها ، اليه المرجع . وقوله قول الفصل . فهو لب الدين . وروح الاسلام ، دين الله ، وعقيدة الرسل اجمعين ، ورسالة محمد امام الهداة وسيد المرسلين صاحب الرسالة الكبرى .. رسالة الاسلام .. كبرى الرسالات .

تم البحث بحمد الله وتوفيقه

سنية قراعه

غرة رجب ١٣٨٧
أكتوبر ١٩٦٧



مصادر البحث

مصادر الكتاب رجعت فيها المؤلفة الى عدد كبير من المصادر التاريخية والمخطوطات العالمية دونت بعضها فى هوامش الصفحات ، كما زينت صفحات الكتاب بطائفة من الصور واللوحات الفنية المأخوذة من متاحف لندن وألمانيا الغربية ومتحف اللوفر بباريس والفاتيكان فى روما لكبار الفنانين العالميين .

فهرس الكتاب

صفحة

أهداء ٥
كلمتى ٧
التوحيد من عهد آدم ١٥
آدم عليه السلام ١٩
أدريس عليه السلام ٢٨
نوح عليه السلام ٣٩
هود عليه السلام ٥١
البشرية تبحث عن الله ٦٣
الضمير يهدى الى الله ٧١
ابراهيم عليه السلام ٨٧
لوط عليه السلام ٩٧
دعوة اخناتون الى الوحدانية ١٠٧
البعث عند الفراعنة ١٢٢
الوحدانية فى الهند ١٣٣
فى الصين واليابان ١٤٣
المجوس ١٤٩
الوحدانية عند اليونان ١٥٥
الوحدانية عند الفراعنة ١٦٤

القسم الثاني

الاهداء ١٨٥
الصحف الأولى ١٨٧
موسى عليه السلام ٢٠١
موسى ويوم الزينة ٢١٣
شريعة موسى عليه السلام ٢٢٣
داوود وسليمان ٢٣٧
وورث سليمان داود ٢٤٩
عيسى عليه السلام ٢٦٣
المسيحية دين توحيد ٢٨٣
الثالوث ٣٠٥
بدء النهاية ٣١٥
بين اليهود والمسيحية والوثنية ٣٣٥
دعاء وبشرى ٣٤٧
احمد ٣٥٩

	صفحة
اقــــرأ	٣٨٩
رسول الهدى	٤٠٥
عالم مثـــالى	٤١٥
الرسالات الكبرى	٤٣١
الاســــــلام	٤٦٣
سورة الفاتحة	٤٩١
اللـــــه	٤٩٣
الآيات	٥١٣
الكتاب	٥٣٨
الفـــــرقان	٥٦٥
أحســـن الحديث	٥٨١
النــور	٥٨٩
الشريعة	٦٢٩
الشريعة والمرأة	٦٦١
الرسول .. والرسالة .. والكتاب	٧٠٥
كبرى الرســـالات	٧٢٩
القرآن	٧٤٩

* * *

فهرس الصور

صفحة

طرد آدم وحواء من الجنة للرسام **فريسكو من مساسيو** ـ رسمها عام ١٤٢٧ من مجموعة ماريا ديل كارمينا بلفورنسا ١٧
نوح عليه السلام يقدر قربانه لله ـ للرسام العالمى **ڤان جوخ** من متحف فرانكفورت بالمانيا الغربيـة ٣٧
هاجر ـ صورة لتمثال منحوت من النحاس صنع فى عام ١٥٠٨ من كوبفرستتش ـ للفنان **لوكاس فان لويدن** ٦٩
ابراهيم عليه السلام وهو يهم بذبح ولده ، لوحة للرســام العــالمى **رامبراندت** ـ عام ١٦٣٥ ـ لينينجراد ـ ارميتاج ٨٥
خروج لوط وأهله من سادوم ـ لوحة للرسام **روبينز** ـ عام ١٦٢٥ بمتحف اللوفر بباريس ٩٥
اخناتون ونفرتيتى ـ من كتاب ملوك وملكات مصر القـديمة ... ١٠٥
بوذا ـ صورة فوتوغرافية مهداهالينا من السفارة الهنديةبجمهوريتنا ١٣١
قميص يوسف عليه السلام يعرضه اخوته بدم كذب يعقوب ـ لوحة ايطالية من القـرن السابع عشر الميلادى ـ معروضـة بنيويورك من مجموعـة **صمويل . هـ . كريس** ١٨٥
موسى الطفل وامرأة فـرعون ـ لوحة رسمت عام ١٦١٨ ... ... ١٩٩
هارون ـ وقوم موسى حول العجل الذهبى معروضة بقصر بفاريا ـ ميـونيخ ٢١١
موسى عليه السلام : تمثال من المرمر ـ **لمايكل انجلو** ـ نحته حوالى عام ١٥١٣ وانتهى منه فى ١٦١٥ ـ بروما ـ سان بيترو ٢٣١
داود ورأس طالوت ـ لوحة بريشة الفنان **جيرالد فون كرافاچيو** ـ رسمها عام ١٦٠٥ وانتهى منها عام ١٦٠٦ معروضة بمتحف بورجيزا ٢٣٥
سليمان وبلقيس ملكة سبأ فى غرفة العرش ـ لوحة بريشة الرسام **ادوارد بوينتر** رسمها عام ١٨٣٦ ... ... ٢٤٧
مريم العذراء والملائكة ـ لوحة مأخوذة من الجناح الأيسر **لمعبد الملوك الثلاثة** بكنيسـة سانت كولومبا بمدينة كولون ـ بالمانيا الغربية ... ٢٦١
عيسى وهو يلمس الأعمى فيبصر ـ فى طريقه الى بيت المقـدس ـ

لوحة للرسام **نيكولاس بوسين** — بمتحف اللوفر بباريس ٢٨١
المسيح والخاطئة : لوحة للفنان **بيتر باول روبنز** من المتحف القديم
للرسامين الألمان بقصر بقاريا — ميونيخ ٣٠٣
عيسى والحواريون الأحد عشر — للرسام الفرنسى **الكسندر بيدا** ٣١٣
الكعبة المقدسة — صورة فوتوغرافية ٣٥٧
المدينة المنورة — صورة فوتوغرافية ٤٠٣

جمعت المؤلفة هذه اللوحات جميعها من مختلف البلدان أثناء رحلاتها العديدة فى الخارج .

❋ ❋ ❋

فهرس صور القسم الثانى

المسجد الأقصى ٤٢٩
مكة المكرمة ٤٦١
القرآن الكريم ٥٣٥
المسجد الحرام — الحرم المكي — الكعبة ٥٧٩
المسلمون يطوفون بالكعبة فى موسم الحج — مهداه من مجلة
العربى بالكويت ٥٨٧
تمثال رمزى يمثل ((**الصراع بين الحياة والموت**)) تمثال من البرونز
ضمن مجموعة التماثيل المعروضة بالفاتيكان — روما ٦٢٧
صورة لفتاة بريشة أحد الرسامين المجهولين ٦٥٩
سورة الفاتحة ٧٤٧

❋❋❋

فهرس مصادر البحث

١ ـ القرآن الكريم
٢ ـ تفسير القرطبي
٣ ـ « الألوسى
٤ ـ « النسفى
٥ ـ « الزمخشرى
٦ ـ « الامام محمد عبده
٧ ـ « البيضاوى
٨ ـ تاريخ الأمم والملوك ـ للطبرى
٩ ـ فتوح البلدان ـ للبلاذرى
١٠ ـ الاحكام فى أصول الأحكام ـ لأبو بكر الرازى
١١ ـ البخارى ومسلم
١٢ ـ تراث الاسلام ـ لأرنست باركر
١٣ ـ امتاع الأسماع ـ للمقريزى
١٤ ـ الامتاع والمؤانسة ـ للتوحيدى
١٥ ـ تفسير القرآن العظيم ـ لابن كثير
١٦ ـ الله ـ عباس محمود العقاد
١٧ ـ أم القرى ـ لعبد الرحمن الكواكبى
١٨ ـ العلاقة بين الدين والعلم فى الاسلام ـ لبلر بروز ـ فى مؤتمر جامعة برنستون الأمريكية من كتاب الثقافة الاسلامية والحياة المعاصرة
١٩ ـ مفتاح كنوز السنة ـ لفنسنك وترجمة محمد فؤاد عبد الباقى
٢٠ ـ أصول الفقه الاسلامى ـ لزكى الدين شعبان
٢١ ـ نساء محمد ـ لسنية قراعة
٢٢ ـ العقد الفريد ـ لابن النديم
٢٣ ـ رسالة التوحيد ـ للامام محمد عبده

٢٤ ـ الأصنام ـ للكلبى
٢٥ ـ أسماء وصفات
٢٦ ـ معاني القرآن ـ للباقلانى
٢٧ ـ اعجاز القرآن ـ للباقلانى
٢٨ ـ كتاب الأصول ـ للباقلانى
٢٩ ـ البيان والتبيان ـ للجاحظ
٣٠ ـ كتاب خبر الواحد ـ للجاحظ
٣١ ـ كتاب الرد على النصارى ـ للجاحظ
٣٢ ـ نظم القرآن ـ للجاحظ
٣٣ ـ كتاب زرادشت ـ للجاحظ
٣٤ ـ فى موكب الشمس ـ للدكتور احمد بدوى
٣٥ ـ تاريخ مصر من أقدم العصور ـ لجيمس هنرى برستيد
٣٦ ـ تاريخ العرب قبل الاسلام ـ للدكتور جواد على
٣٧ ـ قصة العقائد ـ لسليمان مظهر
٣٨ ـ اليهود فى تاريخ الحضارات الأولى ـ لفوستاف لوبون
٣٩ ـ الأسفار المقدسة فى الأديان السابقة للاسلام ـ للدكتور على عبد الواحد وافى
٤٠ ـ صبح الأعشى ـ للقلقشندى
٤١ ـ المسألة اليهودية ـ لكارل ماركس
٤٢ ـ تاريخ بنى اسرائيل من أسفارهم ـ محمد عزه دروزة
٤٣ ـ قصة الحضارة ـ ويل ديورانت
٤٤ ـ من وحى السماء ـ سنية قراعة
٤٥ ـ نفرتيتي ـ لسنية قراعة
٤٦ ـ تاريخ قدماء المصريين ـ للدكتور سليم حسن
٤٧ ـ أسباب النزول ـ للواحدى
٤٨ ـ الاسلام ـ للأب لأمنسى
٤٩ ـ الاسلام الصحيح ـ للنشاشيبى
٥٠ ـ الاسلام والنصرانية ـ للامام محمد عبده
٥١ ـ تفصيل آيات القرآن
٥٢ ـ دائرة المعارف البريطانية

٥٣ — رسالة فى تاريخ العرب — لكوسان ديرسفال

٥٤ — روح المعانى — للألوسى

٥٥ — الكتاب المقدس — العهد القديم

٥٦ — العهد الجديد (الأناجيل الأربعة)

٥٧ — انجيل برنابا

٥٨ — البداية والنهاية — لابن كثير

٥٩ — حياة محمد — لاميل درمنجم

٦٠ — حياة محمد — لوليم موير

٦١ — حياة محمد — للدكتور حسين هيكل

٦٢ — البحر الرائق — لابن نجيم

٦٣ — شرح مسلم — للنووى

٦٤ — طبقات ابن سعد

٦٥ — فتح العرب لمصر — للدكتور بتلر

٦٦ — الناسخ والمنسوخ — لابن سلامة

٦٧ — الوحى المحمدى — لرشيد رضا

٦٨ — اليهود فى بلاد العرب — لاسرائيل ولفنسن

٦٩ — ابن اياس

٧٠ — بدائع الزهور فى وقائع الدهور

٧١ — الاتقان فى علوم القرآن — للسيوطى

٧٢ — القرآن — لمحمد صبيح

٧٣ — تشريع حمورابى

٧٤ — التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية — للدكتور احمد شلبى

٧٥ — مقارنة الأديان — للدكتور أحمد شلبى

٧٦ — اظهار الحق — لرحمة الله الهندى

٧٧ — الكنز المرصود فى قواعد التلمود — روهلنج

٧٨ — قاموس الكتاب المقدس

٧٩ — التلمود شريعة اسرائيل

٨٠ — الكامل فى التاريخ — لابن كثير

٨١ — شبهات النصارى وحجج المسلمين — لرشيد رضا

٨١ — دائرة معارف القرن العشرين — لفريد وجدى

٨٣ ـ الأصمعيات ـ لبيسك
٨٤ ـ أساس البلاغة ـ للزمخشرى
٨٥ ـ أسرار البلاغة ـ لعبد القاهر الجرجاني
٨٦ ـ دلائل الاعجاز ـ لعبد القادر الجرجانى
٨٧ ـ دلائل النبوة ـ لابن نعيم الأصبهانى
٨٨ ـ دائرة المعارف الفرنسية
٨٩ ـ الملل والنحل ـ للشهرستانى
٩٠ ـ عقائد المفكرين فى القرن العشرين ـ لعباس محمود العقاد
٩١ ـ قصص الانبياء ـ لعبد الوهاب النجار
٩٢ ـ وحدة الدين والفلسفة والعلم ـ لمحمود أبو الفيض
٩٣ ـ السيرة النبوية ـ لابن هشام
٩٤ ـ الفتاوى ـ لمحمود شلتوت
٩٥ ـ المدخل لدراسة الفلسفة الاسلامية ـ اليون جوتيه
٩٦ ـ الأساطير الهندية
٩٧ ـ حقائق عن الهند ـ لمكتب الاستعلامات الهندى
٩٨ ـ اسرائيليات ـ لأحمد بهاء الدين
٩٩ ـ تهذيب التهذيب ـ لابن حجر
١٠٠ـ الاصابة فى أسماء الصحابة ـ لابن حجر
١٠١ـ تأويل مشكل القرآن ـ لابن قتيبة
١٠٢ـ تاريخ الاسلام ـ للذهبى
١٠٣ـ البصائر والذخائر ـ للتوحيدى
١٠٤ـ الأغانى ـ لأبى الفرج الاصفهانى
١٠٥ـ تاريخ العالم ـ للسير جون . ا . هامرتن ـ ٦ أجزاء
١٠٦ـ التصوف فى الاسلام ـ للدكتور زكى مبارك
١٠٧ـ أحكام المواريث فى الشريعة الاسلامية ـ لعيسوى أحمد عيسوى
١٠٨ـ الأحكام الشرعية للأصول الشخصية ـ لزكى الدين شعبان
١٠٩ـ الربا ـ لأبى الأعلى المودوى
١١٠ـ نيل الأوتار شرح منتقى الاخبار ـ الجزء الثالث
١١١ـ روح المعانى ـ الجزء ١٦
١١٢ـ فجر الضمير ـ لجيمس هنرى برستيد



مكتب الصحافة الدولى
للصحافة والنشر

لصاحبته : سنية قراعة

١ ميدان طلعت حرب باشا
« سليمان باشا سابقا » بالقاهرة
تليفون ٥٥٧١٧
سجل تجارى ٩٧٨٧١

اهم اعمال المكتب :

يصدر مجلة ثقافية ادبية سياسية جامعة باسم « **الوان جديدة** » تضم صفحاتها خلاصة انتاج رجال الفكر ، واعلام الطب ، ومشاهير رجال الادب والفن والصحافة فى الشرق والغرب ـ كما تقدم الى ربات البيوت نماذج من أرقى وأحدث الارشادات البيتية وطرق تنظيم البيت وحسن اعداده ، وترشدهن الى خير ما وصل اليه التفكير فى فن التفصيل الحديثه والأزياء المبتكرة ..

يقوم بنشر كتب علمية وثقافية ..

واهم ما ظهر للمؤلفة : سنية قراعة :

اذكرونى	:	نفد ...
البحث عن السعادة	:	نفد ...
مصارع الطغاة	:	نفد ...
نفرتيتى	:	الطيف الحلو الذى مر عبر القرون فى بهرج من الوان الفتنة .. زادته الأعوام جدة وطرافة .. هى نفرتيتى ساحرة الأجيال .. والقوة التى وقفت خلف زوجها الفيلسوف الموحد أخناتون فالهمته الجهاد والثبات من أجل عقيدته .. نفد ويعاد طبعه قريبا .. ٣٠ قرشا

ست الملك الفاطمية : سيرة بنت العزيز الفاطمى ، التى تسميت اواصر القربى ووشائجها ، فضحت باخيها العابث المجنون لتنقذ شعب مصر من حاكم ظالم وخليفة مستبد .. نفد .. وسيعاد طبعه قريبا . ٣٠ قرشا

نساء محمد : هن نساء الرسول المطهرات .. المثل الأعلى للمراة المسلمة .. حياتهن .. جهادهن .. ما فرضه الله عليهن وعلى المراة العربية : فى عرض تحليلى قصصى جذاب ، ونظرة صائبة وجهتها كاتبة مؤمنة كانت هى أول من كتب عنهن .. فقد صدرت الطبعة الأولى منه عام ١٩٤٨ والطبعة الثانية عام ١٩٥٧ .. نفد وسيعاد طبعه قريبا ٤٠ قرشا

تطور السياسة المصرية : تاريخ مصر منذ بدء الحركة الوطنية حتى قبيل الثورة المباركة ، يقع فى ٧٠٠ صفحة من القطع الكبير محلى بالصور الهامة غلاف أربع الوان .. ١٠٠ قرشا

الإسكندر الأكبر : مسرحية عن حياة الفاتح البطل الملهم «ذو القرنين» ودراسة تحليلية عن شخصيته الفذة التى تضاربت فى شأنها أقوال المؤرخين والشراح والمفسرين .. فازت بالجائزة الأولى من وزارة التربية والتعليم عام ١٩٥٧
٣٠ قرشا

من وحى السماء : عرض تحليلى مدعم بالأسانيد والتفسيرات لقصص القرآن الكريم ومواضع العظمة فيه .. سرد رائع لحياة أصحاب الرسالات الكبرى على ضوء الكتب المقدسة جميعها .
٤٠ قرشا

مساجد ودول : عرض تحليلى شامل للشرق العربى وآثاره الاسلامية ، وتاريخ دوله العظمى ، ذات الأثر فى حضارة العالم ، محلى بالصور — فاز بالجائزة الأولى من وزارة التربية والتعليم عام ١٩٥٨ ٨٠ قرشا

ام الملوك : قصة من قصص الجهاد العربى الاسلامى بطلتها «هند بنت عتبة» آكلة الأكباد .. أم معاوية بن أبى سفتيان .. كاتب الوحى وصهر رسول الله ، ورأس الأسرة الأموية ..

فازت بالجائزة الأولى من وزارة التربية والتعليم عام ١٩٥٨ ٢٠ قرشا

حارس المجد جمال عبد الناصر : سجل تاريخي ضخم يشرف كل عربي أن يحتفظ بنسخة منه تعرض له صورة الجهاد الأعظم لخير هذه الأمة .. ان جهاد « حارس المجد » قديمه والجديد انما كان بوق البعث لا لشعب دون شعب ، ولا لجنس دون جنس .. بل للشعب العربى خاصة ولشعوب العالم عامة ..

أن « حارس المجد » يقع فى ٤٠٠ صفحة من القطع الكبير محلى بالصور ذات المناسبات الهامة .. غلاف أربعة ألوان

الثمن ٨٠ قرشا

عروس الزهد رابعة العدوية : العاشقة التى علت الى الحب فى سماه ، وأفنت الروح فى حب الحقيقة وقد تمثلتها خلوصا ووفاء .. فجعلت للحب أصولا علوية لا يعرفها غير المخلصين الذين امتلأت منهم القلوب بحب الخير ، فكانوا دعاة الأمن والسلام والتقوى والصلاح .. يقع فى حوالى ٣٠٠ صفحة من القطع الكبير غلاف أربع ألوان ٤٠ قرشا

مسرحية شجرة الدر : المسرحية التاريخية التى فازت بالجائزة الأولى من وزارة التربية والتعليم لعام ١٩٥٨

التوحيد من عهد آدم ، و .. الرسالات الكبرى

كتابين فى مجلدين

وقريبا جدا تقدم :

مسرحية اسلامية : ((ذات النطاقين)) أسماء بنت أبى بكر ..

المسرحية الفائزة بكبرى جوائز وزارة التربية والتعليم لعام ١٩٥٨

مسرحية ((الفتح الأكبر))

تدور حوادثها خلال الفترة الدقيقة فيما بين الانسحاب ونكسة (مؤتة) حتى عام فتح مكة

((تاريخ الأزهر)) قصته وجهاده فى ألف عام

((كليم الله)) موسى عليه السلام

الجزء الثانى من : ((حارس المجد)) جمال عبد الناصر



دار ومطابع الشعب
القاهرة



الناشر
مكتب الصحافة الدولى
للصحافة والنشر
١ ميدان طلعت حرب بالقاهرة
تليفون ٥٠٧١٧

الاتحاد الاشتراكى العربى
دار ومطابع الشعب



